

تاريخ الحروب الصليبية (١)

دولة السلاجقة

وبروز مشروع إسلامي لمقاومة
التغلغل الباطني والغزو الصليبي

الدكتور

علي محمد محمد الصلابي



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع: ٧٩٢٥/٢٠٠٦م

بطاقة الفهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

الصلابي، على محمد.
دولة السلاجقة / على محمد محمد الصلابي. ط١- القاهرة
مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠٠٦
مج ١ (٦٢٤ ص)، ٢٤ سم تدمك: ٤-٨٢-٦١١٩-٩٧٧
١- الدولة السلجوقية ٢- العنوان
٩٥٣.٧٣٩

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقرأ

للنشر والتوزيع والترجمة

١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط

القاهرة ت: ٥٣٢٦٦١٠ محمول: ٠١٠٢٣٢٧٣٠٢ - ٠١٠١١٧٥٤٤٧

www.iqraakotob.com

E-mail: info@iqraakotob.com

الإهداء

إلى كل مسلم حريص على إعزاز
دين الله ونصرته، أهدي هذا الكتاب
سائلاً المولى، عز وجل، بأسمائه الحسنی
وصفاته العلی أن يكون خالصاً لوجهه
الکریم.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ
فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ
أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١١].

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا، فله تعالى الحمد كما ينبغي لجلاله، وله الثناء كما يليق بكماله، وله المجد كما تستدعيه عظمته وكبريائه، أما بعد:

هذا الكتاب امتداد لما سبقه من كتب درست عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة، وقد صدر منها: السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والحسن بن علي رضي الله عنهم جميعاً، والدولة الأموية، وقد سميت هذا الكتاب «دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي»، ويعتبر حلقة مهمة ضمن سلسلة حلقات تاريخ أمتنا والمتعلقة بالحروب الصليبية والتي نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يوفقنا لإتمامها وأن تكون خالصة لوجهه الكريم وي طرح في كل الكتب القبول والبركة من عنده، وهذا الكتاب يتحدث عن السلاجقة وأصولهم وسلاطينهم ومواطنهم وبداية ظهورهم، وعن اتصال الأتراك بالعالم الإسلامي، وعن المشرق الإسلامي قبيل ظهور السلاجقة، وعن الدولة السامانية والغزنوية والصراع الغزنوي السلجوقي، ومعركة دندانقان وقيام السلطنة السلجوقية، ويتحدث عن الدولة القراخانية، وعن البويهيين وتشيعهم وإهانتهم للخلفاء العباسيين، وعن صلتهم بالقرامطة، وموقفهم من حماية حدود الدولة الإسلامية، وعن جهودهم في مناصرة حركة التشيع وإثارة التفرقة والنعرات الضيقة وإنشائهم مراكز شيعية متخصصة في التأليف والتعليم وإشاعة الآراء المنحرفة للفلاسفة مثل حركة إخوان الصفا،

وعن نهاية الدولة البويهية، ويتحدث عن اجتماع السلاجقة على زعامة طغرل بك وتوسع دولتهم واعتراف الخليفة العباسي بهم، ويتكلم هذا الكتاب عن النفوذ الفاطمي العبيدي في العراق وفتنة البساسيري، وعقيدة الدولة الفاطمية العبيدية وصلتها بالقرامطة، وعن حكم العلماء في الفرق الباطنية، وعن جهود هبة الله الشيرازي في نشر الفكر الباطني في العراق وما حولها ودعمه للحركة الانقلاية التي قام بها القائد العسكري البساسيري للقضاء على الخلافة العباسية وضم العراق للدولة الفاطمية العبيدية، وعن استيلاء البساسيري على بغداد وإقامة الخطبة فيها للفاطميين، وعن رسالة الخليفة القائم بأمر الله من أسره إلى طغرل بك، واستجابته لنداء الخليفة ومقتل البساسيري ومحاربة السلاجقة للدعوة الفاطمية العبيدية، وعن موقف الدولة السلجوقية من الدولة البيزنطية في عهد طغرل بك، وعن جهود الوزير السلجوقي عميد الملك الكندري في خدمة الدولة، ويتضمن هذا الكتاب سيرة السلطان السلجوقي ألب أرسلان الذي تولى السلطنة بعد طغرل بك وعن جهاده في سبيل الله، وحملته على الشام وضم حلب وعن انتصاره الشهير الكبير في معركة ملاذكرد سنة ٤٦٣ هـ على الروم ووقوع ملكهم في الأسر وما ترتب على تلك المعركة من نتائج، ويتحدث عن وفاة ألب أرسلان وتولى ابنه ملكشاه من بعده السلطنة، وعن سيرة ملكشاه بنوع من التفصيل، وعن سيرة الحسن الصباح والدعوة الزارية الإسماعيلية الحشيشية وسيطرته على قلعة الموت وعن مراتب ودرجات أعضاء الدعوة الزارية الباطنية، ومهام الدعاة عندهم، ومراحل الدعوة لديهم، ومنطلقات الحركات الباطنية، وأساليبهم في خداع جماهير الناس، وعن المراسلة التي تمت بين الحسن الصباح، والسلطان ملكشاه، ويعطي نبذة مختصرة عن دولة الإسماعيلية في إيران، ويتكلم عن الخليفة القائم بأمر الله العباسي وخلافة ابنه المقتدى بالله، وتدهور العلاقات بين ملكشاه والمقتدى بأمر الله، ويبرز الكتاب المشروع السني الذي قام به الوزير السلجوقي نظام الملك في عهد ألب أرسلان وملكشاه، ويفصل في سيرة هذا السياسي الكبير، فيتحدث عن ضبطه لأموار الدولة، والتصور النظري عنده لها واهتمامه بالتنظيمات الإدارية، والبعد الاقتصادي وعنايته بالمنشآت المدنية، ودوره في النهوض بالحركة العلمية والأدبية، وعن عبادته، وتواضعه، ومدح الشعراء له، وعن وفاته وتأثر أهل بغداد والمسلمين بوفاته ورثاء الشعراء له بقصائد منهم مقاتل بن عطية حيث قال:

يتيمة صاغها الرحمن من شرف
فردّها غيراً منه إلى الصدف

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة
عزّت فلم تعرف الأيام قيمتها

ويمضي الكتاب مع القارئ إلى عهد التفكك وضعف وانهيار الدولة السلجوقية، ويشير إلى الصراع بين بركيارق بن ملكشاه، وتركبان خاتون زوجة أبيه التي قاتلت من أجل تولي ابنها محمود الطفل الصغير للسلطنة ويفصل الكتاب في الصراعات الداخلية والقتال الذي حدث داخل البيت السلجوقي، ووفاة بركيارق بن ملكشاه وتولي محمد بن ملكشاه السلطنة والذي قام بمحاربة الباطنية. وتناول الكتاب سيرة الخليفة المستظهر بالله، وسيرة السلطان السلجوقي سنجر بن ملكشاه، والصراع الداخلي في البيت السلجوقي على السلطنة، وسيرة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه، وصراعه مع الخليفة العباسي المسترشد بالله الذي حاول انتزاع حقوق الخليفة من السلاطين السلاجقة وإعادة هيبة الخلافة إلا أنه وقع في الأسر ثم قُتل بواسطة الباطنية، ثم تولى الخليفة الراشد بعد والده المسترشد إلا أنه عزل ثم قُتل في عهد السلطان مسعود السلجوقي، وتحدثت عن مظاهر السيطرة السلجوقية على الخلافة العباسية والتي منها: نقل مقر الحكومة خارج بغداد، وتفويض السلطة من الخليفة إلى السلطان السلجوقي، وتدخل السلاجقة في ولاية العهد، وحرمان الخلافة العباسية خلال فترة السيطرة السلجوقية من إعادة تشكيل الجيش. وتكلمت عن بداية انتعاش الخلافة العباسية في عهد المقتفي لأمر الله المتوفى سنة ٥٥٥ هـ والذي سيأتي الحديث عنه بإذن الله عند حديثنا عن الزنكيين، وأشارت إلى نهاية الدولة السلجوقية وأسباب زوالها.

وفي الفصل الثاني تطرقت إلى نظام الوزارة العباسية في العهد السلجوقي وعن صفات وزير الخليفة العباسي من العلم، والرأي السديد، والعدل، والكفاية والسياسة والشئون الدينية، وقوانين الوزارة والبلاغة وحسن الترسل والمحبة لدى العامة والخاصة، والمعرفة بقواعد ديوان الخلافة، وعن صفات الوزير السلجوقي، من محبة العلم والعلماء والعدل، والصلاح والفقه، وإجادة اللغتين العربية والفارسية، والكفاية، وتدير البلاد والجيوش، والشهامة والصبر، وعن مراسم تقليد الوزير العباسي والسلجوقي وألقابهم وامتيازاتهم وصلاحياتهم الإدارية والسياسية والمالية والعسكرية، وعن أساليب العزل والمصادرة، وعن المساومة والمنافسة على منصب الوزارة العباسية والوزارة السلجوقية، وترجمت لأشهر وزراء الخلفاء العباسيين في العهد السلجوقي كفخر الدولة بن جهير، وعميد الدولة بن جهير، والوزير أبي شجاع محمد بن الحسين الروذراوري وهو القاتل عن الوزارة:

تولاها وليس له عـدو وفارقها وليس له صديق

والوزير الحسن بن علي بن صدقة، وشرف الدين علي بن طراد الزيني، والوزير الكبير عون الدين بن هبيرة الذي ستأتي - بإذن الله - ترجمته مفصلة في سيرة نور الدين زنكي عند

حديثنا عن الزنكيين ودورهم الجيد في دحر الصليبيين، كما أشرت إلى وزراء سلاطين السلاجقة وأهم أعمالهم.

وفي الفصل الثالث اهتمت بالمؤسسة العسكرية السلجوقية التي كانت القوة الضاربة للدولة، ففصلت في أسس الإدارة العسكرية السلجوقية، كالتشئة العسكرية للأبناء، والجهاد في سبيل الله، والحرص على كسب ولاء الجيش وقادته، والخبرة والتجربة، والإخلاص والتضحية، والحيلة والحذر والمتابعة، والعلاقة بين الجند وقادتهم، والتدرج في الرتب العسكرية، والجمع بين الرأي والتدبير والقوة العسكرية، والاعتماد على أجناس مختلفة، وزيادة عدد أفراد الفرق العسكرية، والتقسيم العشري كأمرأء المئين مقدمى الألوف، وأمرأء العشرات، والخمسات، والإقطاع العسكري، وخصائصه، وعوامل التوسع فيه وموقف العلماء منه، ونظام الرهائن، والإعداد المعنوي للجيش، كما تحدثت عن نظم الإدارة العسكرية كالمناصب القيادية، كالأمير الحاجب الكبير، وصفات قائد الجيش ورواتب الجند، والقائد العام وأمير الحرس، والمقدم والعميد والأتابك، وقاضي العسكر وديوان عرض الجيش، كتنظيم سجلات أسماء الجند، وعرض الجيش، وتحديد المهام الموكلة إلى الجند والإشراف على النواحي التموينية، والنواحي المالية، والإشراف على التسليح وعلى زي الجند، وثكناتهم، وعن أقسام الجيش السلجوقي من القوة النظامية، والقبائل التركمانية، وفرق الولايات وقوات المدن والمتطوعة والأوباش والطلائع وفرق إعداد المنازل التي سيمر بها الجيش، وعن عناصر الجيش من الأتراك والعرب، والأكراد والديلم والأرمن، وفرق الجيش، كالفرسان والنشابة والنفاطيين والمنجنيقيين، وعن التعليم والتدريب العسكري، وحجم الجيش السلجوقي ونظام العيون والجواسيس، والإسناد العسكري بالجند، والمهندسين، وحمل الأثقال والتموين والإسناد الطبي، وعن الخيل ودورها في القتال، وشعار السلاجقة وأعلامهم والموارد المالية لجيوشهم، وتحدثت عن الأسلحة الهجومية وأسلحة الدفاع والدفاع عن النفس، وأسلحة العرض والزينة، ونظام حماية المدن ووسائل الحصار، وصناعة الأسلحة وخزائنها والخطط والفنون القتالية عند السلاجقة، كالقدرة على التحرك، مثل السرعة، واستخدام الكمائن، والتراجع الزائف، وخطة تطويق العدو، والمباغرة والمفاجأة والرمي بالسهم والالتحام مع العدو والاستنزاف وسياسة الأرض المحروقة والتأثير على جيش العدو، والسيطرة على الطرق وعلى موارد المياه، والتأمين العسكري والمهام الخاصة الطارئة والحربية، والحراسة ونظام التعبئة، وأفردت مبحثاً عن أثر نظم السلاجقة في الدولة الزنكية، والأيوبية والمماليك، وقد تأثرت كذلك الدولة العثمانية بتلك النظم العسكرية، وقد

أشرت إلى دور المرأة في العهد السلجوقي.

وفي الفصل الرابع كان الحديث عن المدارس النظامية منذ نشأتها وعن أهدافها التعليمية ووسائل نظام الملك في تحقيق أهداف المدارس، كاختيار الأماكن، والأساتذة والعلماء، وتحديد منهج الدراسة، وتوفير الإمكانيات المادية، وتنظيم الهيئة التدريسية، من تعيين الأساتذة وفصلهم وأثر تلك المدارس في العالم الإسلامي، فقد أدت رسالتها من تخريج العلماء على المذهب السني الشافعي وزودت الجهاز الحكومي للسلافة بالموظفين ردحاً من الزمن وبخاصة دوائر القضاء والحسبة والاستفتاء وهي من أهم وظائف الدولة في ذلك العصر وانتشر هؤلاء في العالم الإسلامي حتى اخترقوا حدود الباطنية في مصر وبلغوا الشمال الأفريقي ودعموا الوجود السني بها، وقد ساهمت هذه المدارس في إعادة دور منهج أهل السنة في حياة الأمة بقوة، وتقليص نفوذ الفكر الشيعي خاصة بعد أن خرجت المؤلفات المناهضة له من هذه المدارس وكان الإمام الغزالي صاحب القدر المعلى في الوقوف أمام المد الشيعي الباطني الإسماعيلي، وقد مهدت المدارس النظامية بتراتها ورجالها وعلمائها السبيل ويسرته أمام نور الدين زنكي والأيوبيين كي يكملوا المسيرة التي من أجلها أنشئت النظاميات، وتتمثل في سيادة الإسلام الصحيح خاصة في المناطق التي كانت موطناً للنفاذ الباطني الرافضي في تلك المرحلة، كالشام ومصر وغيرها، كما أنها أمدت الأمة بالعقيدة الصحيحة والفكر الثاقب، والثقافة العميقة، والمناهج التربوية الرائدة التي أسهمت في تخريج قادة الجهاد في العهد الزنكي وامتد تأثيرها الفكري والعقائدي إلى الدولة الأيوبية والمماليك بل تعدى مداها الزمني إلى يومنا هذا.

وقد قامت المدارس النظامية على فقه الإمام الشافعي وتراثه في الأصول والفقه، كما كان لتراثه تأثير كبير في المدارس النظامية، ولذلك رأيت من المناسب أن نعرف بهذا الإمام الكبير، فذكرت شيئاً من سيرته، وأصوله في إثبات العقيدة، ومنهجه في إثباتها، كحقيقة الإيمان ودخول الأعمال في مسماه، وزيادة الإيمان ونقصانه، وحكم مرتكب الكبيرة، وتوحيد الألوهية، وطريقته في الاستدلال على وجود الله، وتوحيد الأسماء والصفات، وعقيدته في الصحابة وعناصر المنهج في فقه الإمام الشافعي، وعن توافر شروط المجدد في مجال الفقه وأصوله، كما ترجمت للإمام أبي الحسن الأشعري، فقد أسهم هذا الإمام بتراته وأفكاره التي وضعها في كتبه في نشاط المدارس النظامية التي اعتمدت ما وصل إليه من بحوث في عقائد أهل السنة والردود على المعتزلة والمخالفين لأصول أهل السنة والجماعة، وقد بينت المراحل التي مرَّ بها وكيف استقر في المرحلة الثالثة على أصول منهج أهل السنة

والجماعة، وتحدثت عن سر عظمة الأشعري في التاريخ ووضحت عقيدته التي يدين بها وآخر ما مات عليه من معتقد، وأثر تراثه في المدارس النظامية وكيف امتد ذلك التأثير في عهد الأيوبيين والمماليك والعثمانيين، وتحدثت عن إنصاف ابن تيمية لأعلام الأشاعرة وثناؤه على أبي الحسن الأشعري، وموقفه من الباقلاني والجويني والغزالي وأفردت مبحثاً عن أشهر علماء المدارس النظامية، كأبي إسحاق الشيرازي، وتكلمت عن مكانته وثناء الناس عليه ومؤلفاته وشيء من شعره، وترجمت لإمام الحرمين عبد الملك الجويني وأشرت إلى ثناء الناس عليه وأهم أخلاقه وصفاته، وذكرت القيمة العلمية لكتاب الإمام الجويني غياث الأمم، وعودته إلى مذهب السلف ورجوعه عن علم الكلام ونهيه أصحابه عنه، ومؤلفاته في العقيدة والفقه وأصوله والخلاف والجدل والسياسة، وترجمت للإمام الغزالي الذي كان من كبار الأساتذة في المدارس النظامية، وتحدثت عن اجتهاده في طلب العلم، وملازمته إمام الحرمين، وتعيينه مدرساً على نظامية بغداد، وعن أسباب نبوغ الغزالي وشهرته والتحول الكبير الذي غير مجرى حياته وعودته للتصدي للتعليم، والترتيب الزمني لمؤلفاته، وموقفه من الشيعة الباطنية وموقفه من الفلاسفة والفلسفة وعلم الكلام والتصوف، ومنهجه الإصلاحية وصفات هذا المنهج، وتشخيصه لأعراض المجتمع، وتكلمت عن ميادين الإصلاح عنده، ووضع منهاج جديد للتربية والتعليم وبناء العقيدة الإسلامية وإحياء رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونقد سلاطين الظلمة والدعوة للعدالة الاجتماعية، ومحاربة التيارات الفكرية المنحرفة، وأشرت إلى دوره في إصلاح الفكر، كدور العقل، ورفض التقليد، والدعوة إلى الكتاب والسنة، والالتزام بمنهج السلف، وعن موقفه من الاحتلال الصليبي، وترجمت للإمام البغوي وبينت جهوده في خدمة الكتاب والسنة في العهد السلجوقي وأثر كتبه في العلماء وطلاب العلم ونشر السنة، وتكلمت عن سيرة أبي إسماعيل الأنصاري الهروي، وكتابه منازل السائرين، ومكائيد خصومه له، ولقد أوضحت من خلال دراسة المدارس النظامية أن البعد العقدي والفكري لا بد منه لأي مشروع سياسي أو عسكري أو حضاري يراد له النجاح في أوساط المسلمين وأن من عوامل نهوض الأمة أن تكون القيادة السياسية مبدعة في التفكير، وفي تحديد الأهداف صادقة في الانتماء لعقيدة الأمة ودينها وتاريخها وقادرة على توظيف الطاقات العلمية والفكرية وجميع امکانات وتحويلها من أعمال فردية إلى أعمال جماعية، عاملة على وحدة الصف ومحاربة الانشقاق، كما أن قدرة العلماء على النزول بأفكارهم وعلمهم إلى الجمهور الإسلامي العريض من عوامل نهوض الأمة.

وفي الفصل الخامس تحدثت عن الحروب الصليبية في العهد السلجوقي فتحدثت عن

الجزور التاريخية للحروب الصليبية، وأهم أسباب ودوافع هذا الغزو، كالدافع الديني والسياسي، والاجتماعي والاقتصادي، وتبدل ميزان القوى في حوض البحر المتوسط، واستنجد إمبراطور بيزنطة بالبابا أوربان الثاني وشخصية البابا أوربان الثاني ومشروعه الشامل للغزو الصليبي، والخطبة التي ألقاها أوربان الثاني، ونتائج مهمة من خطاب البابا، كتدعيمه خطابه بعدد من النصوص الواردة في الكتاب المقدس، وترتيب الأولويات عنده، وقدرته على تقديم مشروع عام استوعب طاقات غرب أوربا وتحريك أوربا لاحتلال بلاد الشام والهيمنة على المشرق، ووصفت بدء الحرب الصليبية الأولى، ابتداءً من حملة العامة الغوغاء ومروراً بحملة الأمراء، وموقف الإمبراطور البيزنطي من ذلك، وسقوط نيقية، ومعركة دوريليوم، وسقوط قونية وهرقلة، وإمارة الرها، وإمارة أنطاكية، وبيت المقدس، وطرابلس، وصيدا، وحللت أسباب نجاح الحملة الصليبية الأولى وبينت أهم أسبابها، كانهدام الوحدة السياسية في العالم الإسلامي، والصراع على السلطنة في داخل البيت السلجوقي، ووجود الدولة الفاطمية، وسقوط الخلافة الأموية بالأندلس ودور النصاري الذين كانوا يعيشون في بلاد الشام، وموقف بعض الإمارات العربية من الغزو الصليبي، ودور الباطنية الإسماعيلية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين، كتعاونهم مع الصليبيين، واغتيال القادة المسلمين، وإشاعة الرعب والخوف في المجتمع الإسلامي، ونقل فتوى ابن تيمية في الحركات الباطنية، ومن الأسباب التي ذكرتها، انتشار الفكر الشيعي الرافضي الباطني، وتدهور الحياة الاقتصادية قبيل الغزو الصليبي، وضعف الدولة البيزنطية، وتمرس فرسان الإفرنج على الحرب، والإمدادات الأوروبية المستمرة لهم، وأثر الاستبداد على الدين والحياة، والمعارك في فقه الفروع، وذكرت استراتيجية الحملة الصليبية بعد الاحتلال وأفردت مبحثاً عن حركة المقاومة الإسلامية في العهد السلجوقي فيما بين الغزو الصليبي وظهور عماد الدين زنكي، وعن دور الفقهاء والقضاة واستجابتهم لمقاومة الغزو، وتحريضهم على الجهاد بالكتابة والتأليف والمشاركة الفعلية في ساحات الجهاد، وتطرق لجهود الشعراء ودورهم في حركة المقاومة، وأنصفت قادة الجهاد من السلاجقة قبل عماد الدين، كجهاد قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل، وجكرمش صاحب الموصل وسقمان بن أرتق صاحب ماردين وديار بكر، ومعركة البليخ وانتصار المسلمين على الصليبيين، ونتائج تلك المعركة، وتحدثت عن الأعمال الجهادية التي قام بها قلج أرسلان في آسيا الصغرى ومعركة مرسيفان وهرقلة الأولى والثانية، ووصفت حملات شرف الدولة مودود بن التونتكين ضد الصليبيين وما ترتب على حملاته من نتائج، وترجمت للمجاهد الكبير نجم الدين إلغازي صاحب ماردين،

وأشرت إلى انتصاره في معركة ساحة الدم، وأثر وفاته على المسلمين وكيف تولى الأمير بلك بن بهرام ابن أخ إيلغازي راية الجهاد وكان خصماً عنيداً للصليبيين وكان يتطلع للقضاء عليهم لا في منطقة الجزيرة فقط، بل وفي بلاد الشام واستطاع أن يأسر بعض ملوك الصليبيين في حروبه، وبعد استشهاد راية الجهاد أمير الموصل آق سنقر البرسقي، وتحدثت عن مقتل البرسقي بيد الباطنية وهو في الصف الأول عند صلاة الجمعة وكان تركياً خيراً يجب أهل العلم والصالحين، ويرى العدل ويفعله، وكان من خيرة الولاة يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويصلي من الليل متهجداً، وحذرت من خطر الباطنية، فقد كانوا من أخطر معوقات حركة الجهاد، فقد اتضح عداؤهم الكامل لقادة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر وكان خناجرهم المسمومة كانت تشق للصليبيين طريقاً نحو تثبيت أقدامهم في بلاد الشام والجزيرة على حساب المسلمين، ومن فضل الله على هذه الأمة أن قائمة المجاهدين عامرة ومتأهبة للقتال في سبيل الله، ففي عام ٥٢١هـ / ١١٢٧م عهد السلطان محمود بإمارة الموصل إلى عماد الدين زنكي وبظهوره على مسرح الأحداث بدأت صفحة جديدة في ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين، وقد بدأ عماد الدين بتكوين جبهة إسلامية متحدة ضد الصليبيين، ويؤكد ابن الأثير أهمية ظهور عماد الدين بقوله: «ولولا أن الله تعالى من على المسلمين بولاية الشهيد لكان الفرنج استولوا على الشام جميعه». وسوف يأتي الحديث - بإذن الله تعالى - عن عماد الدين والأسرة الزنكية في كتابنا القادم - بإذن الله تعالى - عن الحروب الصليبية في عهد الزنكيين وسيرة نور الدين محمود الشهيد الملك العادل.

إن أي أمة تريد أن تنهض من كبوتها لا بد أن تحرك ذاكرتها التاريخية لتستخلص منها الدروس والعبر والسنن في حاضرها وتستشرف مستقبلها، وإيجاد الكتب النافعة في هذا المجال من الضرورات في عالم الصراع والحوار، والدعوة والجدال مع الآخر، وهذا يدخل ضمن سنة التدافع في الأفكار والعقائد، والثقافات والمناهج، وهي تسبق التدافع السياسي والعسكري، فأي برنامج سياسي توسعي طموح يحتاج لعقائد وأفكار وثقافة تدفعه، فالخرف هو الذي يلد السيف، واللسان هو الذي يلد السنان والكتب هي تلد الكتاب.

إن الأمة الإسلامية تمر بأمور عصيبة، فالعلل القديمة تتجمع ونذر العاصفة المدمرة من أعداء الإسلام تظهر في الأفق القريب يحاولون بها السيطرة الفكرية والثقافية والعقائدية والسياسية والاقتصادية على قلب العالم الإسلامي، فالخطط تنفذ حالياً لضرب القلب بعد قص الأجنحة، فقد نجح الصليبيون في تنصير أربعة أخماس الفلبين ثم أُنْجِهوا إلى جزر إندونيسيا يحملون الخطة ذاتها، وقد محوا المعالم الإسلامية من «سنغافورة» وهم الآن يبعثرون

طلائعهم في شرق وجنوب آسيا، والمشروع اليهودي في فلسطين لا يكل ولا يمل، والأمريكي ماض بقوة السلاح والنفوذ السياسي والإعلامي وقدراته الاقتصادية لغزو الأمة، وموازهما، التغلغل الباطني، ومشروعه السياسي الهادف إلى إضلال الأمة وإبدال دينها الصحيح بالبدع والخرافات والمعتقدات الفاسدة، فالشاريع الباطنية واليهودية والصليبية تنخر في هذه الأمة العظيمة!! كيف لا يقشعر جلد المؤمن وهو يتابع ويطلع هذه المخططات والأنباء؟ كيف يطيب له منام أو طعام؟!

إن المسلمين في العالم أجمع ينتظرون من علمائهم ومفكرهم بلورة مشروع إسلامي عقائدي، سياسي، فكري، اجتماعي، اقتصادي، إعلامي.. على أصول أهل السنة للوقوف أمام هذه المشاريع المدمرة، وها هي الأمة الإسلامية قد أحسّت الخطر المحدق وهبت لتحيا، وعلائم الصحو تنتشر بسرعة مع اقتراب الفزع واكفهرار الجو وإنني لمؤمل الخير من وراء هذه اليقظة الشاملة، بيد أنني أحذر من الأمراض القديمة، من فساد السياسة بالفرقة، وفساد الثقافة بالجهل والهوى، فيجب علينا أن نتعاون في المتفق عليه، ونسامح في المختلف فيه في الحدود التي يسمح بها الشرع وفق قواعد السياسة الشرعية وفقه المقاصد، والمصالح والمفاسد، وفقه الخلاف، وعلينا أن نتساند صفاً واحداً في مواجهة الهجمة الجديدة على ديننا وأرضنا حتى نردها على أعقابها وعلى أهل المسؤولية الإسراع في جمع القوى، وسد الثغرات، وحشد كل شيء لاستنقاذ وجودنا المهدد، إن أي أحد يشغل المسلمين بغير ذلك إمّا منافق يمالئ العدو ويعينه على هزيمتنا، وإمّا أحمق يمثل دور الصديق الجاهل، ويخذل أمته من حيث لا يدري، وكلا الشخصين ينبغي الحذر منه وتنبية الأمة إلى شره، ولا بد من الالتزام بهدي القرآن الكريم وسيرة سيد المرسلين والأخذ بعوامل النهوض، وأسباب النصر، والتي منها: صفاء العقيدة ووضوح المنهج، وتحكيم شرع الله في الأفراد والأسر والجماعات والمجتمعات والشعوب والدول، ووجود القيادة الربانية التي تنظر بنور الله، ولها القدرة على التعامل مع سنن الله في تربية الأمم، وبناء الدول وسقوطها، ومعرفة علل المجتمعات، وأطوار الأمم، وأسرار التاريخ، ومخططات الأعداء من الصليبيين والملاحدة والفرق الباطنية والمبتدعة، وإعطاء كل عامل حقه الطبيعي في التعامل معه دون إفراط أو تفريط، فقضايا فقه النهوض والشاريع النهضوية البعيدة المدى متداخلة متشابكة لا يستطيع استيعابها إلا من فهم كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ وارتبط بالفقه الراشدي المحفوظ عن علمائنا الربانيين، فعلم معالمة وخصائصه وأسباب وجوده وعوامل زواله واستفاد من التاريخ الإسلامي وتجارب النهوض، فأيقن بأن هذه الأمة ما فقدت الصدارة قط وهي وفيه

لربها ونبينا ﷺ، وعلم أن الهزائم العسكرية عرض يزول، أما الهزائم الثقافية، فجرح عميت والثقافة الصحيحة تبني الإنسان المسلم، والأسرة المسلمة، والمجتمع المسلم والدولة المسلمة، على قواعدها المتينة من كتاب الله وسنة رسوله وهدى الخلفاء الراشدين ومن سار على نهجهم، وعبقريه البناء الحضاري الصحيح هي التي أبقت صرح الإسلام إلى يومنا هذا بعد توفيق الله.

أيها الإخوة الكرام، يا من تهمهم قضايا الإسلام والمسلمين، علينا الابتعاد عن القضايا التي لا تمس الحاضر ولا المستقبل والتي تشغل الفراغ وتقتل الوقت وحسب، وإنما نعطي الأولوية للقضايا التي تنهض بالأمة وتعطيها دورها الحضاري من جديد في هداية الناس لدين الله، وعلينا أن نقدم نماذج إصلاحية نهضوية ملكت الرؤية النظرية، ونجحت في التطبيق العملي، ونعطي لفقهاء المصلحين أولوية ونستخرج هذا الفقه العزيز من سيرهم العطرة، سواء كان في مجال العلم، أو السياسة أو الإدارة أو التنظيم، أو التربية، أو الاقتصاد، أو المقاومة والجهاد... إلخ.

إن الإسلام يتعرض لمحنة كبرى وأعداؤنا لم يكتفوا من نياتهم شيئاً لأنهم لم يروا أمامهم ما يبعث الكتمان أو الحذر، فاليهود يقولون: لا قيمة لإسرائيل بدون القدس، ولا قيمة للقدس بدون الهيكل والمعنى واضح فإن الهيكل المطلوب فوق تراب المسجد الأقصى، والصليبيون الجدد يقولون: خلقت إسرائيل لتبقى.. والباطنيون، يستيحون الدماء ويهتكون الأعراض، ويصادرون الأموال ويعملون ليل نهار لتصفية رموز أهل السنة، وممارسة التطهير المذهبي ونشر الثقافات المغلوطة والبدع والخرافات التي تمس عقيدتنا وتاريخنا ورجالنا وأخلاقنا.

أيها الإخوة الكرام إن المعركة في حقيقتها حول وجود الإسلام كله ويتساءل الأعداء: لماذا يبقى الإسلام أكثر مما بقى؟ أنستسلم للفناء، وندع ديننا ورسالتنا للجزارين الجدد أم ماذا؟

إن العالم الإسلامي لا يبيع دينه، ويؤثر أن يهلك دونه ولا يغض من موقفه نفر شذاذ من الخونة والجبناء، فقدوا الدين والشرف، ونشدوا العيش على أي حاجة، وبأي ثمن!! ولكي نحسن الوقوف أمام عدو الله وعدوينا يجب أن تتوافر لجبهتنا عناصر مهمة منها:

أ- يعود الولاء للإسلام ويستعلن الانتماء إليه وفي حرب تعلن علينا باسم الدين لا مجال لإطفائها بالتنكر لديننا^(١) ولا بد من أن يكون المنهج الذي كان عليه رسول الله وخلفاؤه الراشدون وأصحابه الكرام واضحاً لا لبس فيه حتى نخرج من أحوال البدع

(١) هموم داعية، ص ٥٦.

ومستنقعات الخرافة والأوهام التي تنبث في الأمة باسم الإسلام الحبيب العزيز. إننا نرى الآن في صراع المسلمين مع خصوم الإسلام في بعض دياره يغيب الإسلام، ويضخم البعد الوطني القطري على حساب الدين والعقيدة، وقد تبنى هذا الطرح بعض المحسوبين على العلماء وطلاب العلم، وهذا هو الانتحار وطريق الدمار بل هو قرة عين الأعداء سواء من الداخل أو الخارج مع عدم إهمالنا لحب الإنسان لوطنه وإخلاصه له ولكن بالتوازن.

ب- الولاء الشكلي للإسلام مخادعة محقورة ويجب أن تعود الروح لعقائدنا وشعائرننا وشرائعنا، والمسلم الذي يستحي من عرض عقيدته ومنهجه وتاريخه عليه أن يعتبر بالباطنيين الجدد الذين يعتزون ببدعهم وخرافاتهم، وكذلك اليهود الذين لا يستحيون من عقيدتهم وشعائرتهم في أرقى العواصم.

ج- يُقصى من ميدان الدين الذين يحرقون البخور بين أيدي الساسة المنحرفين، ويزينون لهم مجونهم ونكوصهم وبعض الذين يدعون العلم فيشغلون الناس بقضايا نظرية عفى عليها الزمن، أو خلافات فرعية لا يجوز أن تصدع الشمل أو تمزق الأهل والعلماء الذين يظلمون الإسلام بسوء الفهم ويرونه في سياسة الحكم والمال ظهيراً للاستبداد والاستغلال وإضاعة الشعوب. إن المسلمين في المشرق والمغرب مهياؤون ليقظة عامة تحمي كيانهم، والأحوال المعاصرة صورة طبق الأصل لما كان عليه المسلمون عند الهجوم الصليبي في العصور الوسطى. إن سنن الله تعالى تقتص من المستضعفين المفرطين، كما تقتص من المجرمين المعتدين، إن عوامل الهدم وإبر التنويم الغربية والباطنية تعمل في هذه الأمة المثخنة من الداخل والخارج حتى يتم الإجهاز الكامل عليها، وقد استطاع الاستعمار الثقافي والفكر الباطني خلق جيل مهزوز الإيمان والفقه، ضعيف الثقة بربه ومنهجه ودينه وأمته ونفسه، فهو يعطي الدنية في دينه غير مُبال بعواقب الأمور، إننا بحاجة إلى يقظة عامة تتناول أوضاعنا كلها حتى نحسن الدفاع عن وجودنا ورسالتنا في عالم لا تسمع فيه إلا أصوات الجبارين من أصحاب المشاريع الشيطانية، ومن ثم نتمكن من تبليغ رسالة الإسلام الخالدة للعالمين ويتحقق فينا قول الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

إن في هذا الكتاب دروساً وعبراً في ميدان الصراع بين دعوة الله الخالدة وبين التغلغل الباطني والغزو الصليبي، فقد لاحظت أن العقائد الصحيحة والفكر السليم والتصور الراشد الذي قامت عليه المدارس النظامية في عهد السلاجقة استطاعت أن تكبد الفكر الباطني خسائر

كبيرة في ميدان الفكر والعقائد والثقافة والدعوة، وجعلها تنزوي وتنكمش، كما أن مناهج المدارس النظامية أخرجت علماء وقادة وساسة وقضاة، كان لهم تأثير كبير في الدولة الزنكية واستمر التأثير الفكري والعقائدي لعهد الأيوبيين والمماليك والعثمانيين على المستوى العقائدي للدول. إن الثمرة الحقيقية من دراسة التاريخ هي استخراج العبر واستلهام الدروس واستيعاب السنن ومن هذه الدروس والعبر:

• أهمية المبادرة في حركة النهوض: ففي كثير من مراحل التاريخ وفي شتى المذاهب والأديان هناك مبادرات من رجال أخلصوا لمعتقداتهم وأفكارهم فكانت لها آثار كبيرة غيرت مجرى التاريخ، ففي عهد السلاجقة ظهرت مبادرة نظام الملك في تأسيس المدارس النظامية، فكان لهذه المبادرة أثر كبير في الانتصار السني على المد الباطني والمساهمة في تحجيمه وتقليصه، كما أسهمت في امداد الأمة بكوادر علمية وتربوية وسياسية وقيادية أسهمت في حركة الجهاد ومقاومة الصليبيين في العهد الزنكي والأيوبي، وفي المقابل كانت مبادرة أوربان الثاني في تقديمه مشروعاً صليبيّاً جمع طاقات غرب أوربا وقذف بها نحو المشرق؛ فنظام الملك كانت له مبادرة مع رؤية نهوض ومشروع حضاري، كما أن البابا كانت له مبادرة ومشروع استعماري استيطاني وتصارع المشروعات حوالى مائتى عام وانتصر المشروع الإسلامي على المشروع الغربي والمغولي والفضل لله تعالى ثم لمبادرة نظام الملك والإمام الغزالي وقادة حركة الجهاد كالأمير مودود وعماد الدين ونور الدين وصلاح الدين والظاهر بيبرس وقطرز والناصر بن قلاوون والعز بن عبد السلام وابن تيمية وغيرهم كثير.. والمسلمون الآن لا تنقصهم إمكانات مادية ولا معنوية ولا خيارات وإنما قيادات حكيمة تستوعب فقه المبادرة كي تستطيع أن تفجر طاقات المجتمع وتوجهه نحو التكامل لتحقيق الخير والغايات المنشودة، فمجتمعاتنا غنية بالطاقات المتعددة في المجالات المتنوعة في ساحات الفكر والمال والتخطيط والتنظيم والقوى المادية، ويأتي دور القيادة الربانية التي تحسن فقه المبادرة لتربط بين كل الخيوط والخطوط، والتنسيق بين المواهب والطاقات، وتوجه بها نحو خير الأمة ورفعتها، وفق رؤية نهوض شاملة تتحدى كل العوائق وتسد كل الثغرات التي تحتاجها الأمة في النهوض وتبث روح الأمل والتفاؤل في أوساط الناس، وتحضهم على التمسك بعقيدتهم وقيمهم ومبادئهم والترفع على حطام الدنيا وإحياء معاني التضحية، وشحذ الهمم، وتقوية العزائم في نفوس النخب والجمهور العريض في الأمة، وتأخذ بها رويداً نحو الأهداف المرسومة لمشروع النهوض، وعلينا أن نتذكر قول الله تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

- أهمية العامل الديني في شحن الأتباع: إن أكثر ما يثير حساس الإنسان ويؤثر على أحاسيسه وعواطفه عامل الدين، وقد استطاع أوربان الثاني توظيف هذا العامل إلى حد كبير في مشروعه الصليبي، كما أن الباطنيين وعلى رأسهم حسن الصباح استطاعوا تحميس أتباعهم ضد أهل الإسلام الصحيح، وعندما أخذت العقيدة الإسلامية مجراها في نفوس القادة والشعوب وعظمت مكانتها في نفوس المؤمنين، قاموا بجهد عظيم وتضحيات كبرى، وأخذوا بفقه التمكين، وحققوا شروطه ومارسوا أسبابه واستوعبوا سننه، وقطعوا مراحل وطبقوا أهدافه، فانتصروا على التغلغل الباطني والغزو الصليبي، وسوف ترى في هذا الكتاب دور العلماء والفقهاء والقضاة والخطباء في تحميس المسلمين وإلهاب عواطفهم، وإحياء عقيدتهم، فمطلوب من علماء الأمة وفقهائها وخطبائها أن يقوموا بهذا الدور الكبير وأن يترفعوا عن حظوظ النفس وحطام العاجلة، وأن ينشغلوا بتربية الأمة على معاني الإيمان والتضحية والفداء والإخلاص لهذا الدين، ولا نريد من علماء الأمة أن يكونوا أكاديميين علاقتهم بالأمة من خلال الطلاب تنتهي مع درس الجامعة، وإنما نريد لهم أن يتحقق فيهم قول الله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقول الله تعالى: ﴿وَكَايْنٌ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَبَتَّ أَقْدَامَنَا وَانصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

- أهمية الاتحاد والوحدة في التصدي للأخطار الداخلية والخارجية: في بداية الزحف الصليبي على بلاد الشام، تمزقت الكيانات السياسية الصغيرة، وحاولت أن تستنجد بالخليفة العباسي والسلطان السلجوقي؛ ولذلك كثرت الوفادات على بغداد دون فائدة، والمهم في هذا الدرس أن نعطي أولوية للجهات الفاعلة ومحاولة التحالف ثم الاتحاد معها، وكان يفترض على الخليفة العباسي أن يقوم بدوره المعنوي والمادي إلا أنه كان مزروع السلطات، ونلاحظ في حصار حلب - كما سوف يمر بنا في هذا الكتاب بإذن الله - أن المسلمين استطاعوا دحره عندما اتحدوا مع أهل الموصل، كما كان للتحالفات على مستوى الموصل وحلب ودمشق وغيرها من مدن الشام أثر كبير في صد الكثير من الهجمات الصليبية وتكبيدها الخسائر، فقد استطاع أهالي الشام مع أهل الموصل وديار بكر ومناطق الأكراد إيجاد حالة من التنسيق والتعاون والتحالف للحد من حالة التدهور المريع التي مرت بها بلاد الشام.

هذه بعض الدروس والعبر، والقارئ الكريم - بإذن الله تعالى - سوف يجد الكثير الكثير

من هذه العبر، ويلاحظ سنن الله في حركة المجتمعات وطبيعة الصراع بين الإيمان والكفر، والحق والباطل، والهدى والضلال، والخير والشر.. في هذا الكتاب.

هذا، وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم السبت الساعة الثانية عشرة إلا أربع دقائق ليلاً ١٨ من صفر ١٤٢٧ هـ الموافق ١٨ من مارس ٢٠٠٦ م والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه أن يتقبل هذا العمل، ويشرح صدور العباد للانتفاع به، ويبارك فيه بمنه وكرمه وجوده، قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

ولا يسعني في نهاية هذه المقدمة إلا أن أقف بقلب خاشع منيب بين يدي الله - عز وجل - معترفاً بفضلته وكرمه وجوده، فهو المتفضل وهو المكرم وهو المعين وهو الموفق فله الحمد على ما من به عليّ أولاً وآخراً، وأسأله - سبحانه - بأسمائه الحسنى وصفاته العلى: أن يجعل عملي لوجهه خالصاً، ولعباده نافعاً، وأن يثبني على كل حرف كتبه ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع، وأرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه، قال تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَذْهِبْ بِرَّحْمَتِكَ فِي عَبْدِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفوريته ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصلابي

١٨ من صفر ١٤٢٧ هـ

الإخوة الكرام، يسرني أن تصل ملاحظاتكم وانطباعاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتيبي من خلال دور النشر، وأطلب من إخواني الدعاء بظهور الغيب بالإخلاص لله رب العالمين، والصواب للوصول للحقائق ومواصلة المسيرة في خدمة تاريخ أمتنا.

البريد الإلكتروني

E- Mail: abumohamed2@maktoob.com

الفصل الأول

السلاجقة، أصولهم وسلاطينهم

المبحث الأول

أصولهم ومواطنهم وبداية ظهورهم

ينحدر السلاجقة من قبيلة «قنق» التركمانية، وتمثل مع ثلاث وعشرين قبيلة أخرى مجموعة القبائل التركمانية المعروفة بـ «الغز»^(١) وفي منطقة ما وراء النهر والتي نسميها اليوم «تركستان» والتي تمتد من هضبة منغوليا وشمال الصين شرقاً إلى بحر الخزر (بحر قزوين) غرباً، ومن السهول السيبيرية شمالاً إلى شبه القارة الهندية وفارس جنوباً، استوطنت عشائر الغز^(٢) وقبائلها الكبرى تلك المناطق وعرفوا بالترك أو الأتراك^(٣)، ثم تحركت هذه القبائل في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي بالانتقال من موطنها الأصلي نحو آسيا الصغرى في هجرات ضخمة، وذكر المؤرخون مجموعة من الأسباب التي أسهمت في هجرتهم، فالبعض يرى أن ذلك بسبب عوامل اقتصادية؛ فالجذب الشديد وكثرة النسل، جعلت هذه القبائل تضيق ذرعاً بمواطنها الأصلية، فهاجرت بحثاً عن الكلا والمراعي والعيش الرغيد^(٤)، والبعض الآخر يعزو تلك الهجرات لأسباب سياسية، حيث تعرضت تلك القبائل لضغوط كبيرة من قبائل أخرى فاضطرت إلى ترك أراضيها^(٥)، بحثاً عن نعمة الأمن والاستقرار، وذهب إلى هذا الرأي الدكتور عبد اللطيف عبد الله بن دهيش^(٦)، واضطرت تلك القبائل المهاجرة أن تتجه غرباً، ونزلت بالقرب من شواطئ نهر جيحون ثم استقرت بعض الوقت في طبرستان، وجرجان^(٧)، فأصبحوا بالقرب من الأراضي الإسلامية التي فتحها المسلمون بعد معركة نهاوند وسقوط الدولة الساسانية في بلاد فارس سنة ٦٥١هـ - ٦٤١م^(٨).

(١) أخبار الدولة السلجوقية، ص ٢، ٣، نظام الوزارة للزهراني، ص ٣١.

(٢) تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد العيد، ص ١٠٦ الدولة العثمانية، ص ٢٣.

(٣) أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، تحقيق د. محمد نور الدين، ص ٢-٤.

(٤) كتاب السلوك، أحمد المقرئ ج ١ قسم ١، ص ٣. (٥) قيام الدولة العثمانية، ص ٨.

(٦) الكامل في التاريخ (٨/ ٢٢). (٧) نهاوند، شوقي أبو خليل، ص ٥٥-٧٠.

(٨) للتوسع في أصولهم انظر: الخلافة العباسية السقوط والانهار، فاروق عمر فوزي، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، محمد سهيل طقوس، العصر العباسي، د. خالد عزام.

أولاً: اتصال الأتراك بالعالم الإسلامي:

في عام ٢٢هـ - ٦٤٢م تحركت الجيوش الإسلامية إلى بلاد الباب لفتحها، وكانت تلك الأراضي يسكنها الأتراك، وهناك التقى قائد الجيش الإسلامي عبد الرحمن بن ربيعة بملك الترك شهربراز، فطلب من عبد الرحمن الصلح وأظهر استعداداه للمشاركة في الجيش الإسلامي لمحاربة الأرمن، فأرسله عبد الرحمن إلى القائد العام سراقه بن عمرو، وقد قام شهربراز بمقابلة سراقه فقبل منه ذلك، وكتب للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعلمه بالأمر، فوافق على ما فعل، وعلى إثر ذلك عقد الصلح، ولم يقع بين الترك والمسلمين أي قتال، بل سار الجميع إلى بلاد الأرمن لفتحها ونشر الإسلام فيها^(١)، وتقدمت الجيوش الإسلامية لفتح البلدان في شمال شرق بلاد فارس حتى تنتشر دعوة الله فيها، بعد سقوط دولة الفرس أمام الجيوش الإسلامية والتي كانت تقف حاجزاً منيعاً أمام الجيوش الإسلامية في تلك البلدان، وبزوال تلك العوائق، ونتيجة للفتوحات الإسلامية، أصبح الباب مفتوحاً أمام تحركات شعوب تلك البلدان والأقاليم ومنهم الأتراك، فتم الاتصال بالشعوب الإسلامية واعتنق الأتراك الإسلام، وانضموا إلى صفوف المجاهدين لنشر الإسلام وإعلاء كلمة الله^(٢).

وفي عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه ثم فتح بلاد طبرستان، ثم عبر المسلمون نهر جيحون سنة ٣١هـ ونزلوا بلاد ما وراء النهر، فدخل كثير من الترك في دين الإسلام، وأصبحوا من المدافعين عنه والمشاركين في الجهاد لنشر دعوة الله بين العالمين^(٣)، وواصلت الجيوش الإسلامية تقدمها في تلك الأقاليم فتم فتح بلاد بخارى في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وتوغلت تلك الجيوش المظفرة حتى وصلت سمرقند، وما إن ظهر عهد الدولة الراشدية الإسلامية حتى صارت بلاد ما وراء النهر جميعها تحت عدالة الحكم الإسلامي وعاشت تلك الشعوب حضارة إسلامية عريقة^(٤)، وازداد عدد الأتراك في بلاط الخلفاء والأمراء العباسيين، وشرعوا في تولي المناصب القيادية والإدارية في الدولة، فكان منهم الجند والقادة والكتاب، وقد التزموا بالهدوء والطاعة حتى نالوا أعلى المراتب، ولما تولى المعتصم العباسي الخلافة فتح الأبواب أمام النفوذ التركي، وأسند إليهم مناصب الدولة القيادية وأصبحوا بذلك يشاركون في تصريف شئون الدولة، وكانت سياسة المعتصم تهدف

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري (٣/٢٥٦، ٢٥٧).

(٢) الدولة العثمانية والشرق العربي، محمد أنيس، ص ١٢، ١٣.

(٣) فتوح البلدان للبلاذري، ص ٤٠٥ - ٤٠٩. (٤) الدولة العثمانية للصلابي، ص ٢٥.

إلى تقليص النفوذ الفارسي، الذي كانت له اليد المطلقة في إدارة الدولة العباسية منذ عهد الخليفة المأمون^(١)، وقد تسبب اهتمام المعتصم بالأتراك في نقمة الناس عليه، فأسس مدينة جديدة هي (سامراء)، تبعد عن بغداد حوالي ١٢٥ كم وسكنها هو وجنده وأنصاره، وهكذا بدأ الأتراك منذ ذلك التاريخ في الظهور في أدوار مهمة على مسرح التاريخ الإسلامي حتى أسسوا لهم دولة إسلامية كبيرة كانت على صلة قوية بخلفاء الدولة العباسية عرفت بالدولة السلجوقية^(٢).

ثانياً: بداية ظهور السلاجقة:

ينتسب السلاجقة إلى جدهم دقاق الذي كان وأفراد قبيلته في خدمة أحد ملوك الترك الذي كان يعرف باسم بيغو^(٣)، وكان دقاق في هذه المرحلة من تاريخ السلاجقة، مقدم الأتراك العُز؛ مرجعهم إليه، لا يخالفون له قولاً، ولا يتعدون له أمراً^(٤)، وكان سلجوق بن دقاق في خدمة (بيغو) كما كان والده من قبل، حيث كان يشغل وظيفة عسكرية مهمة تعني «مقدم الجيش»، وفي هذا الوقت تذكر المصادر أن مظاهر التقدم وعلامات القيادة بدت واضحة عليه^(٥) حتى إن زوجة الملك أخذت تثير مخاوف زوجها منه لما رأت من حب الناس له وانصياعهم إليه، إلى الحد الذي أغرته بقتله^(٦) وما إن عرف سلجوق بذلك حتى أخذ أتباعه ومن أطاعه وتوجه إلى دار الإسلام وأقام بنواحي جند^(٧) قريباً من نهر سيحون، وفيها أعلن سلجوق إسلامه وأخذ يشن غاراته على الكفار الترك^(٨)، وبعد وفاة سلجوق في جند، خلف عدداً من الأولاد ساروا على سياسة والدهم في شن الغارات على الترك الوثنيين وبذلوا جهوداً كبيرة في حماية السكان المسلمين الآمنين من غاراتهم^(٩)، فازدادت قوتهم وتوسعت أراضيهم وقد أكسبهم ذلك كله احترام الحكام المسلمين المجاورين لهم^(١٠)، فقد غزا ميكائيل بن سلجوق بعض بلاد الكفار من الترك فقاتل حتى استشهد في سبيل الله^(١١).

ثالثاً: المشرق الإسلامي قبيل ظهور السلاجقة:

١- السامانيون: ٢٠٤ - ٣٩٥ هـ: ينسبون إلى جدهم سامان وهو أحد الدهاقين الفرس المعروفين، وهم ينحدرون من أسرة فارسية عريقة، أما موطنهم الأصلي، فكان مدينة بلخ،

(٢،١) قيام الدولة العثمانية، ص ١٢.

(٣) الدولة السلجوقية منذ قيامها، سميرة الجبوري ص ٦٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦٩، الكامل في التاريخ (٢٢/٨).

(٥) أخبار الدول وآثار الأول (٢/٤٥١).

(٦)، (٧)، (٨) الدولة السلجوقية منذ قيامها ص ٧٠.

(٩) الكامل في التاريخ (٢٢/٨)، الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ٧٣.

(١٠) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ٧٣.

(١١) دولة سلجوق للبنداري، ص ٥، الدولة السلجوقية، سميرة الجبوري، ص ٧٣.

وكان أول اتصال لسامان بهذه الدولة الإسلامية في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ابن مروان «١٠٥هـ - ١٢٥هـ»، عندما وفد على أسد بن عبد الله القسري - والي خراسان آنذاك - حيث كانت الاضطرابات وهجمات الأتراك والدهاقين المتكررة التي شهدها إقليم خراسان بشكل عام وبلغ بشكل خاص هي التي أجبرت سامان على الفرار والالتجاء إلى أسد القسري للاحتماء به، فقد كان هذا ملجأ المضطهدين من العرب والفرس على حد سواء^(١)، وقد أكرمه وقدم له الحماية وساعده على قهر خصومه وأعادته إلى بلخ^(٢)، فاعتنق سامان الإسلام على يديه وسمى ابنه أسداً تيمناً به وحبا له، وكان أسد بن سامان هذا من جملة أصحاب علي بن عيسى بن ماهان عندما ولاه الخليفة هارون الرشيد أمر خراسان، وتوفي في ولايته^(٣)، وفي عهد الخليفة هارون الرشيد، خرج رافع بن الليث في ما وراء النهر وبسط سلطته على سمرقند، فأرسل الخليفة ضده جيشاً بقيادة هرثمة بن أعين، وهنا نجد أبناء أسد بن سامان يقفون إلى جانب هرثمة ويشدون من أزره واستطاعوا بجهودهم تلك أن يحملوا رافع بن الليث على عقد الصلح مع هرثمة وبذلك أبعدا سيطرته عن سمرقند^(٤)، وفي خلافة المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ) لقي أبناء أسد الأربعة احتراماً وتقديراً عند المأمون حيث قربهم إليه وشملهم برعايته لإخلاصهم في خدمته، فطلب من واليه على خراسان غسان بن عباد أن يسند إلى كل منهم ولاية على أكبر أقاليم بلاد ما وراء النهر، فأصبح نوح والياً على سمرقند، وأحمد على فرغانة، ويحيى على الشاش وأشروسنة، وإلياس على هراة^(٥) وقد تمكن هؤلاء أن يثبتوا أنهم أهل للمسئولية التي أنيطت بهم بأن أعادوا الأمن والاستقرار إلى هذه الأقاليم وأكدوا سلطة الخلافة العباسية عليها، ولم تعد هذه الأقاليم كما كانت قبل هذه الحقبة موطناً لحركات التمرد والعصيان على الخلافة، وعلى الرغم من كل ذلك فقد استطاعوا توطيد نفوذهم في إقليم ما وراء النهر واكتسبوا بذلك مكانة رفيعة وسمعة طيبة في أنحاء الإقليم^(٦). وقد برز من هؤلاء الإخوة الأربعة أحمد الذي أصبح إليه حكم فرغانة والشاش وقسم من الصغد وسمرقند واستمر في حكم المنطقة حتى وفاته عام ٢٥٠هـ^(٧)، فتولى بعده ابنه نصر الذي حكم المنطقة حتى سنة ٢٥٩هـ وصار يتبع الخلافة مباشرة لانتهاء حكم الطاهريين هناك^(٨). وفي سنة ٢٦٣هـ عين الخليفة المعتمد، نصر بن أحمد

(١) تاريخ بخارى منذ أقدم العصور، ص ١٤. (٢، ٣، ٤) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٤.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٥.

(٦) تاريخ ابن خلدون (٤/٢٢٦)، الدولة السلجوقية، سميرة الجبوري، ص ١٥.

(٧) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٥.

(٨) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٦.

والياً على بلاد ما وراء النهر بأكملها وقد تولى مناصب الولاية والحكم في مرحلة مهمة جداً في تاريخ السامانيين حيث يمكن اعتبارها البداية الحقيقية لقيام الدولة السامانية، فقد هيأت الظروف السائدة في هذا الإقليم البعيد عن مركز الخلافة العباسية للسامانيين فرصة وطفوا من خلالها حكمهم هناك، فأصبحوا شبه مستقلين آخذين على عاتقهم مسؤولية حماية الأراضي الإسلامية، فضلاً عن تأمين استمرار التجارة وتدفق السلع المختلفة إلى مناطقهم، واستطاعوا أن يحققوا لأنفسهم استقراراً سياسياً واقتصادياً جعلهم فيما بعد قادرين على التوجه نحو خراسان^(١)، وبعد وفاة نصر تولى مقاليد الأمور في الدولة السامانية أخوه إسماعيل بن أحمد سنة ٢٧٩هـ^(٢) والذي يُعد من أعظم حكام السامانيين بلا منازع في المجالات السياسية والحربية والإدارية على السواء، فقد شهدت الدولة السامانية في عهده، رفاهاً واستقراراً سياسياً حيث اتسعت حدودها وتوطّد استقلالها أكثر من ذي قبل^(٣) وقد اتخذ إسماعيل من بخارى عاصمة له فشهدت في عهده ازدهاراً فكرياً واسعاً حيث ترعرعت ونشطت الثقافة الإسلامية^(٤) وبعد وفاة إسماعيل^(٥) تولى الحكم في الدولة السامانية ابنه أحمد وذلك عام ٢٩٥هـ وأقر الخليفة المكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥هـ) حكمه عندما بعث إليه بعهده على خراسان وما وراء النهر في ربيع الآخر من السنة نفسها^(٦)، وقد أثبت الأمير الساماني أحمد بن إسماعيل جدارة في الحكم؛ فقد تغلب على جميع المتاعب وتمكن من تذليل مشاكل الحكم التي واجهته خلال عهده، فقد انتصر في عدة مواقع على الأتراك الرحالة الوثنيين خارج حدود الخلافة، وعلى ذلك ولاه الخليفة شرطة بغداد، وأعمال فارس وكرمان^(٧)، وقد اهتم السامانيون بنشر الإسلام في صفوف الترك، وقاموا بتغيير استراتيجيتهم في القتال مع الترك؛ وذلك أن السامانيين عدلوا عن أسلوب الدفاع الذي كان متبعاً في وادي سيحون ضد الكفار من الترك مُنذ شرع قتيبة بن مسلم في فتح هذه البلاد، وكان هذا الأسلوب القديم يعتمد على إقامة الحصون، وحفر الخنادق التي تحمي المسلمين من غارات الترك المفاجئة، فلما جاء السامانيون عدلوا عن موقف الدفاع من وراء الحصون والخنادق عند وادي سيحون إلى موقف الهجوم على مناطق المراعي لتأديب الأتراك المغيرين،

(١) مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، سهيل، ص ١٦.

(٢) تاريخ الطبري، نقلاً عن الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٧.

(٣) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٧.

(٤) الدويلات الإسلامية في الشرق، محمد علي حيدر، ص ٩٧.

(٥) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٨.

(٦) تاريخ الطبري، نقلاً عن الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٩.

(٧) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٩.

كما عدلوا عن إنشاء وترميم ما تهدم من هذه الحصون، وكان لهذا التطور في طريقة الدفاع عن الأراضي الإسلامية تأثيره على علاقة الإسلام بالتركستان، إذ عبر كثير من سكان ما وراء النهر في جماعات متتابعة إلى مناطق المراعي بل وإلى داخل المناطق الصحراوية حيث أنشأوا مدناً صغيرة في شكل مستعمرات سكانية استقروا بها، وبدأوا منها نشاطهم الاقتصادي وواكب هذا النشاط الاقتصادي نشاط ملحوظ في الدعوة إلى الإسلام قام بالدور الأساسي فيه الدعاة إلى الله المتجددون المخلصون، فقد كان لهذا التطور - بالإضافة إلى ما صاحبه وسبقه من نشاط تجاري - دوره الكبير في تعرف الأتراك على الإسلام، هذا التعرف الذي انتهى بهم إلى الدخول فيه ^(١)، نظراً لما تتميز به عقائد الإسلام من بساطة تناسب طبيعتهم البدوية بالإضافة إلى ما تميز به الإسلام من سمو روحي، وتفوق مادي حضاري أدركوا أثرهما في سلوك مواطنيهم الذين سبق أن هاجروا إلى ما وراء النهر، ثم عاد بعضهم مع القادمين الجدد الذين أقاموا المدن المستعمرة بين ظهرائهم في المراعي داخل الصحراء ^(٢)، ومن فضل الله وتوفيقه أن الإسلام الذي انتشر بين صفوف الترك في ظل آل سامان كان الإسلام السني ^(٣)، وقد كان الأتراك متحمسين لهذا المذهب.

١- نهاية الدولة السامانية: أثبت الأمير الساماني أحمد بن إسماعيل جدارة في الحكم، فقد تغلب على جميع المتاعب وتمكن من تذليل مشاكل الحكم التي واجهته خلال عهده، وبعد وفاته سنة ٣٠١ هـ، خلفه السعيد نصر الذي كان طفلاً في الثامنة من عمره، فاضطربت أمور الدولة السامانية في أول عهده وظهرت الفتن وتمرد أمراء الأطراف محاولين الاستقلال بولاياتهم، ولكن هذا الأمير الساماني الذي طال حكمه مدة ثلاثين عاماً تمكن أثناءها من التغلب على هؤلاء الطامعين جميعاً ^(٤)، ولكن ينبغي ألا ننسى أن بؤادر الضعف وعلائم الانهيار ظهرت منذ منتصف القرن الرابع الهجري، حيث ظهرت حركات الانقسام في صفوف الأسرة السامانية الحاكمة نفسها، وذلك عندما أراد إسحاق بن أحمد عم السعيد نصر الاستيلاء على الحكم، وقد اتخذ سمرقند قاعدة لفعالياته ^(٥)، وبدأت الدولة السامانية في الضعف ووافق ظهور الدولة البوذية الشيعية التي كانت قد تمكنت من العراق، وقد تطلع البوذيون إلى السيطرة على أملاك الدولة السامانية واشتبك الطرفان في حروب، وقد تعرضت الدولة السامانية لضغوط متزايدة من كل الجهات، فمن الشمال والغرب تعرضت لضغط الديلم والعلويين، كما تعرضت لضغط خانات الأتراك الذين دخلوا الإسلام على

(١)، (٢) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي، ص ١٠١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٢. (٤) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٩.

(٥) تاريخ الطبري، نقلاً عن الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٩.

يد السامانيين^(١)، وقد استطاع البويهيون انتزاع كرمان من السامانيين والاستيلاء عليها وجباية أموالها التي قاموا بإنفاقها على جيوشهم عام ٣٢٤هـ^(٢)، كما أسهمت الأوضاع التي وصل إليها السامانيون في اقتسام أملاكهم بين القراخانيين والغزنويين، حيث أخذ القراخانيون ما وراء النهر، أما ما تبقى من مناطق أخرى فكان من حق الغزنويين^(٣).

٢- الغزنويون: ٣٥١ - ٥٨٢ هـ: أخذت الدولة الغزنوية اسمها من مدينة غزنة إحدى المدن في أفغانستان، ويرجع ظهور هذه الدولة إلى أحد القادة المسلمين المسمى «سبكتكين» فقد تولى منطقة غزنة من قبل السامانيين، ثم مد سبكتكين سلطانه في الشرق حيث ضم إقليم خراسان الذي ولاه عليه نوح بن منصور الساماني في سنة ٣٨٤هـ مكافأة له على قمع الثوار في بلاد النهر، لكن سبكتكين اتجه بأعماله نحو الهند ولم يكن اتجاهه نحو البلاد التي كانت في حوزة السامانيين إلا تلبية لرغبته حين استعانوا به على قمع حركات الخارجين عليهم في خراسان، فقد انضم بقواته إلى نوح بن نصر الساماني في قتال الخارجين في خراسان وفي قتاله للبويهيين الذين رغبوا في الاستيلاء على خراسان من أملاك السامانيين، واستطاع سبكتكين وابنه محمود مع قوات السامانيين الانتصار على هؤلاء الخارجين، كما انتصروا على بني بويه وأعادوا للسامانيين مدينة نيسابور، ويعود نيسابور إلى السامانيين ولي نوح الساماني ابنه محمود بن سبكتكين عليها، كما ولاه على جيوش خراسان ولقبه بـ«سيف الدولة» ولقب أخاه سبكتكين بـ«ناصر الدولة»^(٤) وقد ولي سبكتكين منذ أول الأمر وجهه شطر الأقاليم الهندية^(٥) فتمكن وعظم، وأخذ يُغير على أطراف الهند، وافتتح قلاعاً، وتمت له ملاحم مع الهنود^(٦) واشتبك مع أحد ملوكهم - ويدعى جيبال - في حروب طاحنة، واستطاع سبكتكين أن يلحق به الهزيمة سنة ٣٦٩هـ وأجبره على طلب الصلح على مال يؤديه وبلاد يسلمهما وخسين فيلاً يحملها إليه، فاستقر ذلك ورهن عنده جماعة من أهله على تسليم البلاد، وسير معه سبكتكين من يتسلمها، فلما أبعد جيبال ملك الهند قبض على من معه من المسلمين وجعلهم عنده عوضاً عن رهائنه، فلما سمع سبكتكين بذلك.. سار نحو الهند فأخرب كل ما مر عليه من بلادهم، وقصد «لغان» وهي من أحسن قلاعهم فافتتحها عنوة، وهد بيوت الأصنام وأقام فيها شعائر الإسلام.. ثم عاد إلى غزنة وسار خلفه جيبال في مائة ألف مقاتل، فلقى سبكتكين وألحق به هزيمة كبيرة وأسر منهم ما لا يعد وغنم أموالهم

(٢) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ٢٠.

(١) العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٣٦٦.

(٣) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الدولة السلجوقية.

(٦) سير أعلام النبلاء (١٧/٤٨٤).

(٤)، (٥) العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٣٨٦.

وأثقاهم، وذلل الهنود بعد هذه الموقعة، ولم يكن لهم بعد راية، ورضوا بالألا يطلبوا في أقاصي بلادهم، ولما قوى سبكتكين بعد هذه الموقعة أطاعه الأفغان^(١)، وكانت دولته نحواً من عشرين سنة، وكان فيه عدل وشجاعة ونبل مع عسف^(٢)، وبعد وفاته عام ٣٧٨هـ عهد بالإمرة إلى ابنه إسماعيل، واستطاع ابنه محمود أن ينتزع الإمارة من أخيه إسماعيل بعد قتال مهول^(٣).

أ- محمود الغزنوي: من المؤسف حقاً ألا يعرف كثير من المثقفين وخريجي الجامعات شيئاً عن هذا السلطان السني العظيم ومملكته في بلاد الأفغان وما كان عليه من حب للعمل وتقرب إلى الله بحمل راية الدعوة وبث روح الجهاد والاستشهاد في جنده، ونشر السنة، وقمع البدع، وما كان يتحلى به من قيم إسلامية مثلى كان لها أعمق الأثر في ازدهار مملكته والتفاف الناس حوله في محبة وتقان ووفاء^(٤).

إن سيرة السلطان محمود الغزنوي ودولته السنية تستحق أن تُفرد لها دراسة خاصة بها وندعو طلاب العلم والمهتمين بالتاريخ الإسلامي وفق منهج أهل السنة والجماعة إلى القيام بهذا الواجب لسد ثغرة في المكتبة الإسلامية ويوضح أهمية الالتزام بالسنة وأثر ذلك في قوة الدولة وينسف أكاذيب وشبهات الرافضة والباطنية حول هذا البطل السني العظيم، ومع هذا لا يمنع من الحديث عنه في هذه العجالة، فقد وصفه ابن كثير بالملك العادل الكبير المثار^(٥)، المرابط المؤيد المنصور المجاهد يمين الدولة أبو القاسم محمود بن سبكتكين صاحب بلاد غزنة وتلك الممالك الكبار، وفتح أكثر بلاد الهند قهراً، وكاسر بُدودهم^(٦)، وأوثانهم كسراً، وقاهر هنودهم وسلطانهم الأعظم قهراً^(٧)، وقد سار في الرعية سيرة عادلة وقام بأعباء الإسلام قياماً تاماً، وفتح فتوحات كثيرة في بلاد الهند وغيرها، وعظم شأنه في العالمين، واتسعت مملكته وامتدت رعاياه وطالت أيامه، ولله الحمد والمنة، وكان يخطب في سائر ممالكه للخليفة العباسي القادر بالله، وكانت رسل الفاطميين من الديار المصرية تُفد إليه بالكتب والهدايا والتحف فيحرق كتبهم ويُخرق حللهم^(٨)، ولما قدم التاهرتي الداعي مندوب الدعوة الفاطمية من مصر على السلطان يدعوه سراً إلى مذهب الباطنية، وكان التاهرتي يركب بغلاً يتلون كل ساعة من كل لون، ففهم السلطان محمود سِرَّ دعوتهم، فغضب، وقتل

(١) الكامل في التاريخ، نقلًا عن العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٣٦٩.

(٢) سير أعلام النبلاء (١٦/٥٠٠).

(٣) المصدر نفسه (١٧/٤٨٥).

(٤) تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء، للعظم، ص ١٨٠.

(٥) المثار: أي المرابط على الثغور.

(٦) البدود: جمع البُد وهو الصنم بالفارسية.

(٧) البداية والنهاية (١٥/٦٢٨).

(٨) المصدر نفسه (١٥/٦٣٣).

التَّاهَرْتِي الخَيْث، وأهدى بغله إلى القاضي أبي منصور محمد الأزدي شيخ هراة، وقال: كان يركبه رأس المملحين، فليركبه رأس الموحدين^(١). وأما فتوحاته فقد اتفقت له في بلاد الهند فتوحات لم تتفق لغيره من الملوك، لا قبله ولا بعده، وغنم مغنم كثيرة لا تنحصر ولا تنضب كثرة من الذهب واللائئ والسبي، وكسر من أصنامهم وأبدادهم وأوثانهم شيئاً كثيراً جداً، بيّض الله وجهه وأكرم مثواه، وكان من جملة ما كسر من أصنامهم صنم عظيم للهنود يقال له سُمونات^(٢)، الذي كان يعتقد كفره الهند أنه يحيى ويُميت ويحْجونه، ويقربون له النفائس، بحيث إن الوقوف عليه بلغت عشرة آلاف قرية، وامتلات خزائنه من صنوف الأموال، وفي خدمته من البراهمة ألفا نفس، ومائة جوقه مغاني رجال ونساء، فكان بين بلاد الإسلام وبين قلعة هذا الصنم مفازة نحو شهر، فسار السلطان في ثلاثين ألفاً، فسرَّ الله فتح القلعة في ثلاثة أيام، واستولى محمود على أموال لا تحصى^(٣)، بلغ ما تحصل منه من الذهب عشرين ألف دينار، وكسر ملك الهند الكبير الذي يقال له «جيبال». وقهر ملك الترك الأعظم الذي يقال له: إيلك خان، وأباد ملك السامانية، وقد ملكوا بخراسان مائة سنة بلاد سمرقند وما حولها، ثم هلكوا، وبنى على جيحون جسراً غرم عليه ألفي ألف دينار، وهذا شيء لم يتفق لغيره من الملوك، وكان معه في جيشه أربعمائة فيل تقاتل، وهذه أمور هائلة ومرتبة طائلة، وجرت له فصول ذكر تفصيلها يطول، وكان في غاية الديانة والصيانة، يحب العلماء والمحدثين ويكرمهم ويجالسهم ويحسن إليهم، وكان حنفي المذهب، ثم صار شافعيّاً على يدي أبي بكر القفال الصغير^(٤) وكان صادق النية في إعلاء الدين، مظفراً كثير الغزو، وكان ذكياً بعيد الغور صائب الرأي، دخل ابن فورك على السلطان محمود، فقال: لا يجوز أن يوصف الله بالفوقية لأنَّ لازم ذلك وصفه بالتحتية، فمن جاز له أن يكون له فوق، جاز أن يكون له تحت. فقال السلطان: ما أنا وصفته حتى يلزمني، بل هو وصف نفسه، فبهت ابن فورك، فلما خرج من عنده مات^(٥). وكان السلطان محمود مُكرماً لأمرائه وأصحابه، وإذا نقم عاجل، وكان لا يفتر ولا يكاد يقرُّ، وكان يعتقد في الخليفة العباسي ويخضع لجلاله ويحمل إليه قناطير الذهب، وكان إلماً على القرامطة والإسماعيلية وعلى المتكلمين^(٦) وعندما ملك الري كتب إلى الخليفة القادر بالله يذكر أنه وجد لمجد الدولة البويهية من النساء الحرائر ما يزيد على خمسين امرأة ولدن له نيفاً وثلاثين ولداً، ولما سئل عن ذلك قال: هذه عادة سلفي، وصلب من أصحاب الباطنيين خلقاً كثيراً، ونفى المعتزلة إلى خراسان

(٢) البداية والنهاية (١٥/٦٣٤).

(٤) البداية والنهاية (١٥/٦٣٤).

(١) سير أعلام النبلاء (١٧/٤٨٦).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٧/٤٨٥).

(٥، ٦) سير أعلام النبلاء (١٧/٤٨٧).

ب- الصراع الغزنوي السلجوقي: تمكن السلطان محمود الغزنوي من توسيع حدود دولته فغزا الهند سبع عشرة غزوة ووصلت حملاته إلى هضبة الدكن وضم إلى دولته كذلك إقليم البنجاب وأخضع بلاد الغزنويين «غزنة وهراة» ومدّ نفوذه إلى بلاد ما وراء النهر^(٢)، وبذلك أصبحت حدود دولته تمتد من شمال الهند في الشرق إلى العراق في الغرب، ومن خراسان وطخارستان وجزء من بلاد ما وراء النهر في الشمال إلى سجستان في الجنوب، وقد اتخذ من مدينة لاهور مقراً لحكمه في الهند حيث عين نائباً له هناك^(٣)، فلا غرابة في أن أخذ يرنو إلى القضاء على البويهيين في بغداد^(٤)، وكانت قوة السلاجقة في بلاد ما وراء النهر قد تعاظمت في بداية القرن الخامس الهجري مما أثار حفيظة السلطان محمود الغزنوي فقام في سنة ٤١٥هـ بعبور نهر جيحون لمقاتلتهم، فنجح في القبض على زعيمهم أرسلان وولده قتلش وعدد من كبار أصحابه وبعث بأرسلان إلى الهند حيث مات في السجن بعد أن قضى فيه سبع سنوات^(٥) وبعد أربع سنوات ٤١٩هـ خرج السلطان محمود لقتال السلاجقة مرة أخرى بناء على التماس سكان مدينتي (نسا) و«باورد» فأنزل بهم هزيمة ساحقة^(٦).

ج- معركة دندانقان وقيام السلطنة السلجوقية: لقد ظل السلاجقة بعد الهزيمة يتحينون الفرص للثأر من الغزنويين فكان لهم ذلك بعد وفاة السلطان محمود وقيام ابنه مسعود بمهام السلطنة عام ٤٢١هـ حيث تمكنوا من الانتصار على جيوشه^(٧)، لكنهم اتصلوا به وعرضوا عليه الصلح والدخول في طاعته فاستجاب لهم ومنح زعماءهم الولايات وأسبغ عليهم الألقاب وأغدق عليهم الخلع^(٨)، وعلى الرغم من ذلك فقد كان الغزنويون يدركون مدى الخطر الذي كان يشكله السلاجقة عليهم؛ لذلك فقد أمر السلطان مسعود عامله على خراسان سنة ٤٢٩هـ بقتال السلاجقة فدارت الحرب بين الطرفين قرب مدينة سرخس وقد انتهت دولتهم حيث اندفعوا بعدها بقيادة زعيمهم ظفر بك نحو نيسابور التي دخلها وأعلن نفسه سلطاناً على السلاجقة وجلس على عرش السلطان مسعود الغزنوي في السنة نفسها ٤٢٩هـ^(٩)، وكان من

(١) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: أبيعيد التاريخ نفسه؟، ص ٦٦.

(٢) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ٢٣.

(٣) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ٢٤.

(٤) أخبار الدولة السلجوقية للحسين، ص ٥١٣.

(٥) النجوم الزاهرة (٥٠/٥)، الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ٢٤.

(٦) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ٢٤.

(٧) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ٢٥.

(٨)، (٩) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ٢٥.

نتيجة ذلك أن زحف مسعود بجيوشه نحو خراسان واشتبك مع السلاجقة بمعركة حاسمة في مكان يعرف باسم دُندانقان، انتهت بهزيمة الغزنويين وكان ذلك عام ٤٣١هـ، لم يلبث السلطان مسعود أن لقي مصرعه عام ٤٣٢هـ، فخلفه ابنه مودود، وقد أصبح السلاجقة بعد معركة دُندانقان أكبر قوة في خراسان في حين كان الغزنويون قد ضعفوا بعد أن فقدوا غالبية جيوشهم وخسروا العديد من ممتلكاتهم، واستطاع الغزنويون في أفغانستان الاستيلاء على أملاكهم في الهند سنة ٥٨٢هـ^(١).

د- نتائج معركة دُندانقان:

* وضعت معركة دُندانقان حداً نهائياً لحكم الغزنويين في خراسان، ونصّب طغرل بك التخت في مكان المعركة وجلس عليه، وجاء الأعيان يسلمون عليه بإمارة خراسان.

* حرّر طغرل بك الرسائل على الأمراء المجاورين لإعلامهم بنجر الانتصار.

* طاردت القوات السلجوقية القوات الغزنوية المنهزمة حتى شواطئ نهر جيحون بهدف قسرهم على الهرب إلى ما وراء النهر، حتى يقدموا برهاناً ملموساً على النصر.

* أتاحَت المعركة قيام سلطنة إسلامية جديدة، وانحسار ظل واحدة، كما تُعدُّ إحدى المعارك الكبرى الفاصلة في التاريخ الإسلامي، بل إن نتائجها تعدت العالم الإسلامي وأثرت على عالم العصور الوسطى^(٢).

* أعرب مسعود من ناحيته في رسالة أرسلها إلى القراخانيين عن ثقته في قيامهم بمساعدته في حملته المقبلة لاستئصال شأفة السلاجقة، غير أن صدمة الخسارة قد أذهلته لدرجة فقد معها الرغبة في المقاومة، فخليل إليه أنه لا بد من ترك ليس بلخ وتوابعها بل وغزنة أيضاً، على الرغم من محاولات أركان حربه وكبار رجال دولته إقناعه بانتفاء أسس هذه المخاوف وقرر الانسحاب نهائياً إلى الهند^(٣).

* اقتسمت العشائر السلجوقية، بعد الانتصار، الأراضي التي استولوا عليها، فكان نصيب جفري مدينة مرو، فاستقر بها وأخذ منها عاصمة للملكه، كما ملك أكثر خراسان، وكان نصيب أبي علي الحسن بن موسى، ولاية بُست وهرارة^(٤) وسجستان^(٥) وما يجاور ذلك من

(٢) مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٩.

(١) الدولة السلجوقية منذ قيامها ص ٢٦.

(٣) تاريخ البيهقي، ص ٧٢٧، ٧٢٨، تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، محمد طقوش، ص ٢٩.

(٤) هراة: مدينة عظيمة من أمهات مدن خراسان، ياقوت الحموي (٣٩٦/٥).

(٥) سجستان: ناحية كبيرة وولاية واسعة بينها وبين هراة عشرة أيام.

النواحي. وأخذ قاورد أكبر أبناء جفري، ولاية الطبیس^(١) ونواحي کرمان^(٢) وحصل إبراهيم بن ينال على همذان^(٣)، كما حصل ياقوتي على أبهر^(٤)، وزنجان^(٥)، ونواحي أذربيجان^(٦)، وكان من نصيب قُتلش بن إسرائيل جرجان ودامغان^(٧). والواقع أن فكرة التقسيم هذه تتعارض مع الفكرة الإيرانية عن الملك بوصفه صاحب السلطة المطلقة في الدولة، وهي غريبة على السلاجقة الأوائل إلا أن المسؤولين السلاجقة هدفوا من وراء ذلك إلى إحاطة السلطنة الغزنوية ومنعها من محاولة استعادة خراسان ثم تأمين فتح طريق جيحون من أجل قدوم مهاجرين غر جدد^(٨).

* يُعد عام ٤٢٩هـ البداية الفعلية لقيام السلطنة السلجوقية في خراسان، لأن طغرل بك باشر، منذ ذلك التاريخ، مهامه السياسية والقيادية والإدارية. وأما اعتراف الخليفة العباسي به سلطاناً، والذي جاء متأخراً، في عام ٤٣٢هـ، فلم يغير من الواقع فاعتراف الخليفة هو بمثابة اعتراف بالأمر الواقع، كما أنه شكلي فقط لإضفاء الشرعية على السلطنة الناشئة حتى يرضى عنها الناس ويقبلوا بحكمها، لأن الخلافة لم تكن تملك قوة مادية تسمح بالتدخل والمساهمة في الأحداث السياسية، وكان الخليفة يعترف عادة بالسلطان المنتصر والدولة المنتصرة^(٩).

* كان لقيام السلطنة السلجوقية أثر كبير في تاريخ المشرق الإسلامي وغربي آسيا بشكل خاص، والتاريخ الإسلامي بعامه؛ ذلك أن السلطنة قد أسهمت في توجيه الأحداث السياسية في المشرق الإسلامي بشكل بارز، وفي رسم سياسة توسعية باتجاه العالم النصراني، لنشر العقيدة الإسلامية^(١٠).

* إن ما حققه طغرل بك من نجاح، أغراه بالتمدد نحو العراق، قلب العالم الإسلامي، للسيطرة على الخلافة العباسية وإقامة دولة سلجوقية مترامية الأطراف، يُعد هذا التوجه

(١) الطبیس: قصبة ناحية بين نيسابور وأصفهان، ياقوت (٤/ ٢٠).

(٢) کرمان: ولاية مشهورة وناحية كبيرة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان.

(٣) همذان: أكبر مدينة بالجلال، شتاؤها مفرط البرد وتقع في منطقة الجبال شرق عراق العجم. الحموي (٤١٠-٤١٧).

(٤) أبهر: مدينة مشهورة بين قزوین وزنجان وهمذان من نواحي الجبل. معجم البلدان، الحموي (١/ ٨٢).

(٥) زنجان: بلد كبير مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينها.

(٦) أذربيجان: إقليم واسع مشهور يحده من الشمال بلاد الديلم.

(٧) دامغان: بلد كبير بين الري ونيسابور وهو قصبة قومس.

(٨) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص ٣٠. (٩) المصدر نفسه، ص ٣٦.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٣١.

طبيعياً، فكل من سبقوه في السيطرة على خراسان تطلّعوا إلى التمدد نحو الغرب للسيطرة على بغداد والتحكم بمقدرات الخلافة العباسية، ولنا في محاولات السامانيين والصفاريين والغزنويين أمثلة كافية، أضف إلى ذلك، فقد هدف طغرل بك إلى إنقاذ الخلافة، والمذهب السنيّ من السيطرة البويهية الشيعية^(١).

٣- القراخانيون: ٣٤٩هـ - ٥٣٦هـ: في عام ٣٤٩هـ أسلمت قبائل كثيرة من الأتراك ودخلوا في الإسلام، وكان من نتائج ذلك أن ظهرت أول دولة تركية مسلمة مقابلة لأتراك الشرق، هي الدولة القراخانية نسبة لأحد ملوكها وهو ساتوق بغراخان عبد الكريم الذي كان يسمى أيضاً «قراخان»، فقد اتخذ هذا الملك مدينة كاشغر عاصمة له، ولكنه نقل العاصمة بعد ذلك إلى بلاساقون حيث حاول القراخانيون من هناك فتح بلاد ما وراء النهر^(٢)، وما إن قامت هذه الدولة حتى شرعت في محاربة أعداء الإسلام ولاسيما المجاورين لها من الأتراك الوثنيين، وقد قاد ظهور القراخانيين في هذه المنطقة إلى اصطدامهم بالسامانيين وكان ذلك في عام ٣٧٩هـ.

وقد تمكن القراخانيون من إلحاق الهزيمة بجيش السامانيين وأسر جماعة من القواد، واستطاعوا احتلال بخارى عام ٣٨٨هـ بدون مقاومة وبذلك أنهوا حكم السامانيين^(٣) بها وبقي القراخانيون يتنازعون فيما بينهم للسيطرة على مناطق ما وراء النهر، وكان بعضهم يستنجد بملوك الصين والبعض الآخر بالسلاجقة حين أصبحوا تابعين لهم بعد إقامة الدولة السلجوقية، وقد حدثت موقعة قطوان بين الأتراك الوثنيين «الخطا» الذين كان يساعدهم ملك الصين وبين الأتراك المسلمين الذين كان يساعدهم سنجر السلجوقي (٥١١هـ - ٥٤٨هـ)، وكانت نتيجة هذه المعركة أن انتصر الأتراك الوثنيون^(٤)، ويصف ابن خلدون الموقف بقوله: واستقرت الدولة فيما وراء النهار للخطا.. وهم يؤمّذ على دين الكفر وانقرضت دولة الخانية المسلمين الذين كانوا فيها وذلك سنة ٥٣٦هـ^(٥).

٤- البويهيون: ٣٣٤هـ - ٤٤٧هـ: تنتسب هذه الأسرة إلى بويه بن فناخسرو الديلمي الفارسي، وقد حكمت العراق وفارس لمدة تزيد على القرن، وكان الخليفة العباسي في بغداد ضعيفاً يآزائهم أكثر مما كان مع الأتراك من قبل، ولا تختلف هذه الأسرة عن أي أسرة أخرى

(١) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص ٣١.

(٢) نهاية الأرب (٥٢/٢٦)، الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ٢٧.

(٣) تاريخ ابن خلدون، نقلاً عن الدولة السلجوقية، ص ٢٩. (٤) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ٣٢.

(٥) تاريخ ابن خلدون، نقلاً عن الدولة السلجوقية، ص ٣٢.

في هذا العصر من ناحية الاستبداد والفساد الاقتصادي والاجتماعي وإن المؤسسين لهذه الدولة: علي بن بويه والحسن بن بويه فيهم سيادة ومداواة وحلم، ولكن الجيل الثاني والثالث فيهم بطش وقسوة وتعصب للمذهب الشيعي^(١).

أ- لمحة تاريخية عن البويهيين: ظهر أولاد بويه: علي والحسن وأحمد علي مسرح التاريخ بظهور أكبرهم الملقب عماد الدولة عام ٣٢١هـ وكان متولياً من قبل أحد ملوك الديلم واسمه «مرداويج» على منطقة صغيرة اسمها (كرج) ولم يزل يتلطف الناس ويحسن إليهم حتى اشتهر بين البلاد المجاورة وأحبوه وخضعوا له ونزلوا على طاعته وساعده في ذلك إخوته حتى استولى على إقليم فارس، وفي سنة ٣٣٤هـ زحف أحمد بن بويه إلى بغداد، ودخلها دون قتال، وغدت العراق تحت سيطرة بني بويه، وأظهروا الطاعة للخليفة، وأخذوا ألقابهم منه، فلقب أحمد «معز الدولة» وبقي حاكماً على العراق نائباً عن أخيه عماد الدولة نيافاً وعشرين سنة، ت ٣٥٦هـ، وأما ركن الدولة الحسن بن بويه فقد حكم أصبهان وطبرستان وجرجان، وأخوهم الكبير عماد الدولة، شيراز وما حولها، ولكنه هو المقدم فيهم الذي يسمعون كلامه^(٢).

ب- تشيع البويهيين: لم يخف البويهيون تشيعهم، بل شجعوا المذهب الشيعي في بغداد للقيام بالأعمال الاستفزازية ضد أهل السنة، فكانت لا تمر سنة دون شغب واصطدامات تقع بين السنة والشيعة تذهب فيها الأرواح والممتلكات وتحرق الأسواق، وجاء في حوادث ٣٥١هـ: وكتب الشيعة في بغداد بأمر معز الدولة على المساجد بلعن معاوية والخلفاء الثلاثة، والخليفة العباسي لا يقدر على منع ذلك^(٣)، وفي سنة ٣٥٢هـ أمر معز الدولة الناس أن يغلقوا دكاكينهم ويطلقوا الأسواق والبيع والشراء وأن يظهروا النياحة وأن تخرج النساء منتشرات الشعور، مسودات الوجوه، يدرن في البلد بالنوائح ويلطمن وجوههن على الحسين بن علي ﷺ ففعل الناس ذلك ولم يكن للسنة قدرة على المنع منه لكثرة الشيعة ولأن السلطان معهم^(٤)، وهذا أول ما نيج عليه^(٥) وقد وصف ابن كثير ما يفعل الشيعة من تعد لحدود الكتاب والسنة في دولة بني بويه في حدود الأربعمئة وما حولها فقال: فكانت الدُّبَادِبُ^(٦) تضرب ببغداد ونحوها من البلاد في يوم عاشوراء ويُذَرُّ الرماد والتبن في الطرقات والأسواق وتعلق المسوح على الدكاكين ويظهر الناس الحزن والبكاء وكثير منهم

(١) (٣، ٢، ٤٨) أيعيد التاريخ نفسه، ص ٤٨.

(٤) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: أيعيد التاريخ نفسه، ص ٤٩.

(٥) البداية والنهاية (١١/ ٥٧٧).

(٦) الدُّبَادِبُ: جمع الدُّبَادِبِ وهو الطبل.

لا يشرب الماء ليلتذ موافقة للحسين، لأنه قتل عطشان، ثم تخرج النساء حاسرات عن وجوههن ينحن ويلطمن وجوههن وصدورهن حافيات في الأسواق إلى غير ذلك من البدع الشنيعة والأهواء الفظيعة والهتاتك المخترعة^(١).

ج- إهانتهم للخلفاء: تابع البويهيون سياسة الأتراك في إضعاف هيبة الخلافة وجعلها كأنها غير موجودة، وهم بهذا العمل إنما يدللون على بعدهم عن أي حس حضاري زيادة عما في قلوبهم من حقد على السنة، وكانوا يرون أن العباسيين مغتصبون للخلافة، ولذلك فكر معز الدولة بإعادة الخلافة إلى «آل علي» عليه السلام، فاستشار خواص أصحابه في إخراج الخلافة عن العباسيين والبيعة للمعز العبيدي في مصر، ولكن أحد أصحابه قال له: ليس هذا برأي، فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوه^(٢). واستحسن معز الدولة هذا الرأي وأعرض عن فكرته^(٣)، وعندما قُلت الأموال عند بهاء الدولة حسن له وزيره القبض على الخليفة الطائع وأطعمه في ماله، ودخل بهاء الدولة على الخليفة وأنزله عن سريره، وهو يستغيث ولا يلتفت إليه أحد، وأخذ ما في داره من الذخائر ونهب الناس بعضهم بعضاً^(٤)، وكان سلفه معز الدولة البويهى هو الذي أهان المستكفي وأمر الجنود بشده من عمامته ثم أمر به إلى السجن ولم يزل فيه حتى وفاته^(٥).

د- وزراؤهم: كما وزر للعبيدين الفاطميين اليهود والنصارى كذلك وزر للبويهيين النصارى، ففي عهد عضد الدولة (فتاخسرو بن الحسن بن بويه) كان وزيره نصر بن هارون، وقد أذن له عضد الدولة بعمارة البيع والأديرة وأطلق الأموال لفقراء النصارى^(٦).

هـ- الصلة بين البويهيين والقرامطة: إن الذي يقرأ التاريخ مجزأً مقطعاً قد لا يدرك ولا يتنبه إلى الصلات التي كانت بين الحركات الباطنية ولا إلى الصلات بين الدولة الشيعية وهذه الحركات، ويظن أن كل دولة قائمة بنفسها ولا تربطها صلات مع الأخرى، وهكذا يظن البعض الآن، فلا يرون أن هناك صلات بين الرافضة والباطنية وإذا كان هناك شيء من هذا فهو يظن أنه للمصلحة السياسية المؤقتة. ولكن من يقرأ التاريخ ويقرأ الحاضر ويقارن بينهما لن يجد فرقاً يذكر

(١) البداية والنهاية (١١/٥٧٧). (٢) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: أيعيد التاريخ نفسه، ص ٤٩.

(٣) أيعيد التاريخ نفسه، ص ٤٩. (٤) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: أيعيد التاريخ نفسه، ص ٥٠.

(٥)، (٦) البداية والنهاية، نقلاً عن: أيعيد التاريخ نفسه، ص ٥٠.

في المواقف^(١). وجاء في حوادث سنة ٣٦٠هـ: وفي ذي القعدة أخذت القرامطة دمشق وقتلوا نائبها جعفر بن فلاح وكان رئيس القرامطة الحسين بن أحمد بن بهرام، وقد أمدّه معز الدولة البويهى من بغداد بالسلاح والعدد الكثيرة^(٢).

وكتب الملك البويهى أبو كاليجار إلى المؤيد داعي الدعاة الفاطمي العبيدي عند سفره إلى مصر سنة ٤٣٨هـ بعد أن تأثر بدعوته الإسماعيلية يقول: فيجب أن تصور لتلك الحضرة الشريفة «المستنصر العبيدي في مصر» ما اطلعت عليه من شواهد صفاء عقيدتنا وتعلمها أن هؤلاء التركمان «السلاجقة» المسئولين عن أعمال خراسان والري لا يقصر خطابهم عن بلادها المحروسة «الشام ومصر» إلا ثبات عساكرنا المنصورة في وجوههم وبذلنا الأموال في كف عاديّتهم^(٣). فهذا الملك البويهى يطلب شهادة حسن سلوك من الدولة العبيدية في مصر، ويشعرهم في الوقت نفسه أنه هو المدافع عنهم أمام الزحف التركماني السلجوقي السني^(٤). ومن هنا يتضح لنا درس مهم وهو حقيقة استعدادهم للتحالف والتعاون فيما بينهم مع الاختلاف في العقائد ومع ذلك يتحالفون ضد العدو المشترك.

و- موقفهم من حماية حدود الدولة الإسلامية: استغاث أهل الجزيرة بالعاصمة بغداد لصد غارات الروم واستجاب الشعب في بغداد لهذا النداء، وتجهزوا للجهاد، وأرسل بختيار بن معز الدولة إلى الخليفة يطلب مالا لتجهيز الناس للغزو، واضطر الخليفة لبيع أثاث بيته ليدفع له الأموال، ولكن بختيار أنفقها على مصالحه الشخصية وأبطل أمر الغزو^(٥). وهكذا ظهر أن بختيار كان مراوفاً ولم يكن صادقاً في طلب الأموال أو التهيؤ للغزو والجهاد^(٦) وإنما كان يقصد استنزاف أكثر قدر ممكن للقدرة المالية للخلافة العباسية رغم ضعفها.

ز- البويهيون والإقطاع العسكري: من بدع البويهيين وظلمهم وجورهم التي ما سبقهم إليها أحد إقطاعهم الأرض للقادة العسكريين وللجنود، وذلك بدلاً من الرواتب النقدية التي كانت تصرف لهم، وهذه الأرض المعطاة ليست من أراضي الدولة أو من الأرض الموات التي تقطع لإحيائها، بل هي من الأرض المصادرة تعسفاً وظلماً من أصحابها الفلاحين، وكان هؤلاء الجنود إذا لم تعجبهم الأرض أو لم تغل عليهم ما يريدون تركوها وأخذوا غيرها، وأدى هذا النظام إلى تدمير الحياة الزراعية وإفقار خزانة الدولة، ولم تحل

(١) أيعيد التاريخ نفسه، ص ٥٠.

(٢) أيعيد التاريخ نفسه ص ٥٠، نقلاً عن البداية والنهاية.

(٣) دخول الترك الغز إلى الشام، د. شاکر مصطفى، ص ٣٢٣. (٤) أيعيد التاريخ نفسه، ص ٥١.

(٥) البداية والنهاية، نقلاً عن: أيعيد التاريخ نفسه، ص ٥١. (٦) أيعيد التاريخ نفسه، ص ٥١.

مسألة الرواتب، يقول الدكتور عبد العزيز الدوري: والذي أراه هو أن خط البويهيين هو بداية الإقطاع العسكري ويبدو لي أن البويهيين انطلقوا من نظرة قبلية تعتبر الأرض المفتوحة غنيمة بحق الغزو وأهملوا المفهوم الإسلامي بالنسبة للأرض^(١)، كما أن بدعة ضمان القضاء بدأت في عهدهم، ففي سنة ٣٥٠هـ أمر معز الدولة بتسمية عبد الله بن الحسن بن أبي الشوارب قاضياً على بغداد على أن يؤدي مائتي ألف درهم في كل سنة^(٢). وهكذا نرى ظلم هذه الدولة وتعسفها وتعصبها فهي لم تقدم جديداً للحضارة الإسلامية، وأما كرم وزيرهم الصاحب بن عباد وتشجيعه للأدب وتنظيم عضد الدولة لبعض المشاريع في العراق وإنشاؤه المستشفى العضدي، فكل ذلك لا يذكر أمام اتجاه الدولة العام في تمزيق أواصر المجتمع الإسلامي وتخريبه عقدياً واقتصادياً ووصف مؤسسها عماد الدولة بالعقل والحلم لا يغير من النتيجة العامة، وهي أن ضررها أكثر من نفعها، قال الذهبي: وضاع أمر الإسلام بدولة بني بويه وبني عبيد الرافضة، وتركوا الجهاد وهاجت نصارى الروم، وأخذوا المدائن وقتلوا وسبوا^(٣). وقال: فلقد جرى على الإسلام في المائة الرابعة بلاء شديد بالدولة العبيدية بالمغرب، وبالدولة البويهية بالمشرق، وبالأعراب القرامطة، فالأمر لله تعالى^(٤). وقال عن عضد الدولة أبو شجاع فناخسرو:.. وكان شيعياً جلدأ أظهر بالنجف قبراً زعم أنه قبر الإمام علي بنى عليه المشهد، وأقام شعار الرفض وماتم عاشوراء، وثقل أنه لما احتضر ما انطلق لسانه إلا بقوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي ۖ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩]^(٥).

ح- مناصرة الأمراء البويهيين لحركة التشيع وإثارة التفرقة والنعرات الضيقة: بحلول سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م كانت الأوضاع العامة في العراق سياسياً واقتصادياً واجتماعياً غاية في السوء، وعدم تمكن البويهيين من بغداد زاد الأمور سوءاً وكشفوا عن تشيعهم وإيمانهم بعقيدتهم معاضدين أبناء الفرق الشيعية العلوية الأخرى التي كانت منتشرة في بغداد وبعض المراكز الحضرية في العراق آنذاك مثيرين للفتن الطائفية ولم يكن حال الخلفاء خلال هذه الفترة يسمح لهم بمواجهة بني بويه، فقد تولى الخلافة خلال العصر البويهي خمسة من الخلفاء تفاوتت مدد خلافتهم وفقاً لموقف الأمير البويهي من كل منهم، وقد لاقى كل من أولئك الخلفاء الكثير من ضروب الإهانة والاستخفاف والعنت من البويهيين^(٦)، ومن

(١) نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية، بحث في مجلة الاجتهاد، ص ٢٥٩.

(٢) الفكر السامي في تاريخ الفكر الإسلامي، للحجوي (١٤٢/٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٣٢/١٦). المصدر نفسه (٢٥٢/١٦).

(٥) المصدر نفسه (٢٥٠/١٦).

(٦) الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي، ص ٦٠.

منطلق اعتقاد بني بويه بأن سيطرتهم على الخلافة وإضعاف نفوذ الخليفة لن يمكن أهل السنة من التصدي لهم، فقد باشروا خططهم في محاولة نشر التشيع العلوي في المجتمع ومحاربة السنة مساندين في ذلك دعاة التشيع من أمثال موسى بن داود الشيرازي الذي اشتهر بلقب المؤيد في الدين وهو من عائلة عريقة في التشيع على المذهب القرمطي وكان أبوه محل احترام الخلفاء العبيديين، كما كان هو أيضاً محل احترام المرزبان بن عماد الدين أبو كاليبجار البويهى وكان إذا كاتبه خاطبه بقوله: لشيخنا وظهيرنا ومعتمدنا المؤيد في الدين عصمة أمير المؤمنين أبي النصر أطال الله بقاءه وأدام عزه وتأيده^(١)، وقد كان المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي من المجيدين للفتن العربية والفارسية وله الكثير من المؤلفات التي يعتمد عليها الإسماعيلية إلى يومنا هذا^(٢)، وقد لعبت كتبه دوراً كبيراً في نشر الضلال والانحراف والزيف وعبرت عن مدى تمسكه بمبادئ الحركة القرمطية، ومن أشهر كتبه كتاب المجالس المؤيدية ويضم ما كان يلقيه في مجالس الدعوة الإسماعيلية بعد أن ترقى في سنة ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م إلى مرتبة داعي الدعوة، وله أيضاً كتاب الإيضاح والتبصير في فضل يوم الغدير بالإضافة إلى عدة كتب أخرى وديوان شعر منحرف أيضاً^(٣)، وهكذا وبدعم أمراء بني بويه لأمثال هذا الداعية الشيعي لم يمض وقت طويل حتى بدأت الفتن العارمة التي نجم عنها العديد من المعارك الداخلية وحالات الاقتتال الطائفي تأخذ مداها بين أهل السنة والشيعة^(٤).

وأول إشارة إلى الفتن بين الشيعة وأهل السنة خلال العصر البويهي حصلت سنة ٣٣٨هـ/ ٩٤٩م وقد كان من نتيجتها أن نهبت الكرخ^(٥)، وفي رمضان من سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥١م وقعت فتنة عظيمة بالكرك بسبب المذهب^(٦)، وفي السنة نفسها ظهر ببغداد رجل ادعى أن أرواح الأنبياء والصديقين تنتقل إليه، وقد وجدت في داره كتب تدينه بالزندقة فتم القبض عليه، فلما تحقق أنه هالك ادعى أنه شيعي ليحضر عند معز الدولة بن بويه وقد كان معز الدولة بن بويه يؤيد الرافضة، فلما اشتهر عنه ذلك، لم يتمكن الوزير منه خوفاً على نفسه من معز الدولة وأن تقوم عليه الشيعة، وإنا لله وإنا إليه راجعون^(٧). وتقدم هذه الحادثة الدليل الواضح على مدى مساندة بني بويه لفرق الشيعة الرافضة الأخرى ومدى تشجيعهم ومناصرتهم لهم، وللمنتسبين لهم حتى ولو كانوا من الزنادقة، ويدعم هذا الرأي ما حدث في سنة ٣٤١هـ/ ٩٥٢م حيث ظفر الوزير المهلبى بقوم من التناسخية وفيهم امرأة تزعم أن روح فاطمة، رضي الله عنها، انتقلت إليها، وفيهم آخر يزعم أنه جبريل، فضربوا

(١) القرامطة أول حركة اشتراكية في الإسلام، طه الولي، ص ٢٠٠.

(٢)، (٣) الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي، ص ٦٣.

(٤)، (٥) المصدر نفسه، ص ٦٤.

(٦)، (٧) المصدر نفسه، ص ٦٥.

فتعذروا بالانتماء لأهل البيت فأمر معز الدولة بإطلاقهم لتشييع كان فيهم، والمشهور عن بني بويه التشيع والرفض^(١)، وهكذا كان لمغلاة بني بويه في التشيع نتائج سيئة الأثر حيث عمت الفوضى والانحرافات العقيدية ولم تعد الفوضى مقصورة على بغداد أو مدن العراق الأخرى، بل شملت بعض أنحاء الدولة العباسية الأخرى، وفي سنة ٣٤٦هـ / ٩٥٧م تجددت الفتنة بين السنة والشيعة في بغداد بسبب سب الصحابة وكان من نتيجة ذلك أن قتل من الفريقين خلق كثير دون أن تتحرك السلطة لمعالجة الصراع، وفي السنة التالية ٣٤٧هـ / ٩٥٨م انتشرت ظاهرة سب وتكفير الصحابة في كثير من البلدان^(٢) واشتدت الفتنة الطائفية بين الرافضة والسنة ووقعت في جمادى الأولى سنة ٣٤٨هـ / ٩٥٩م حرب شديدة بين أتباع مذاهب السلف من أهل بغداد والمنتشعة وقتل فيها جماعة واحترق من البلد كثير، وفي السنة التي تلت، أي سنة ٣٤٩هـ / ٩٦٠م وبسبب الفتنة الطائفية تعطلت صلاة الجمعة في جميع مساجد بغداد^(٣)، وفي سنة ٣٥١هـ كتب العامة على مساجد بغداد لعن معاوية بن أبي سفيان ولعن من غصب^(٤) فاطمة فذكاً، ومن أخرج العباس^(٥) من الشورى ومن نفى أبا ذر الغفاري^(٦) ومن منع دفن الحسن عند جده، ولم يمنع معز الدولة ذلك^(٧)، وقد ثار أهل السنة من هذا التعريض المباشر بصحابة النبي ﷺ، وخصوصاً الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول وأقدموا خلال ساعات الليل على إزالة الشعارات التي رفعها الرافضة، غير أن الأمير البويهى معز الدولة أصر على ضرورة إعادة تلك الشعارات وإبقائها مرفوعة رغم ما تشكل من تحدٍ سافر لمشاعر عموم المسلمين من أتباع مذاهب السلف وأهل السنة، وقد نصحه وزيره المهلبى بالامتناع عن ذلك مداراة للرأي العام وبأن يكتب مكان ما محى: لعن الله الظالمين لآل رسول الله ﷺ^(٨)، وصرحوا بلعن معاوية فقط^(٩). وهكذا يثبت الأمير البويهى مدى ضيق أفقه وتحزبه الأعمى لأبناء مذهبه، فقد أيد الروافض وتعصبهم وموقفهم المناهض لعقيدة الإسلام التي نزلت على رسول الله من الله تعالى وبينها رسول الله ﷺ للمسلمين. وقد اتسع نطاق الصراعات الطائفية ولم تعد مقصورة على بغداد بل إنها شملت البصرة وهمذان وقتل فيها خلق كثير^(١٠)، مما قدم الدليل على أن أمراء بني بويه -وعلى رأسهم معز

(١) النجوم الزاهرة (٣/ ٣٠٧، ٣٠٨).

(٢) الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهى، ص ٦٧.

(٤) يقصدون أبا بكر وكذبوا في ذلك لأن أبا بكر نفذ حكم رسول الله في فذك.

(٥) يقصدون عمر في ترشيحه لأهل الشورى حيث كانوا من العشرة المبشرين بالجنة.

(٦) يقصدون عثمان، وعثمان لم ينف أبا ذر ولكن أبا ذر اختار ذلك. (٧) المتظم (٧/ ٧، ٨).

(٨) الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهى، ص ٦٨. (٩) تاريخ الخلفاء، ص ٦٣٩.

(١٠) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الحياة العلمية في العصر البويهى، ص ٦٨.

الدولة- قد ساندوا الشيعة الغلاة الذين كانوا يطمعون في تشييع المجتمع خلال فترة سيطرة البويهيين على مقاليد الحكم وتسلطهم على الخلافة ودون إعطاء أي اعتبار للخليفة العباسي السني الذي يحكمون باسمه^(١) وقد توسع في بيان تشجيع الأمراء البويهيين لحركة التشيع وإثارة التفرقة والنعرات الضيقة الدكتور رشاد عباس معتوق فمن أراد التفصيل فليراجع كتابه القيم «الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي». ويعتبر العصر البويهي من أقبح عهود التاريخ الإسلامي وأشدها؛ فقد احتل البويهيون قسماً كبيراً من شرقي بلاد الخلافة العباسية بما فيها العراق وبغداد وكانوا شيعة غلاة ولم يلغوا الخلافة العباسية لأسباب سياسية فأدى الأمر إلى صراع مرير جداً بين السنة والشيعة وكانت بغداد خاصة مسرح هذا الصراع^(٢).

ط- إنشاء مراكز شيعية متخصصة في التأليف والتعليم في بغداد والنجف والكاظمية: كان لتشيع البويهيين دوره الخطير في تشجيع العلماء القائلين بوجهة نظرهم، فقد عملوا على الاهتمام بالعلوم المذهبية وتقديم الرعاية للعلماء والمتشيعين للعلوين بصفة عامة حتى يظهروا أمام أتباعهم بمظهر الحريص على المذهب المدافع عنه وهم بذلك يعبرون عن ميول شيعية متعصبة دفعتهم إلى تأسيس العديد من المراكز الشيعية في العراق والتي خدمت أغراض تعصبهم المذهبي، فقد حرصوا على تحويل المجتمع الإسلامي نحو الإيمان بمعتقدهم، وهكذا تجدهم يقربون علماء الشيعة ويرعونهم ويشجعونهم على الكتابة في الكثير من التخصصات الفلسفية والمنطقية بالإضافة إلى الرياضيات وعلم الهيئة، وشجعوهم بشكل خاص على التأليف في العلوم التي تخدم المذهب الشيعي، وهكذا ظهرت العديد من المجموعات الخاصة بهم والتي كرست لوضع الأحاديث المكدوبة على رسول الله ﷺ ومن أمثلة ذلك المحدث الرافضي أبو الفضل الشيباني (ت ٣٨٧هـ / ٩٩٧م). الذي كان يروي غرائب الأحاديث، وكان ممن يضع الأحاديث للرافضة^(٣)، وقد التبس أمره على الناس فكتبوا الكثير من مروياته فلما ظهر لهم كذبه مزقوا أحاديثه^(٤)، وقد شهد العصر البويهي عدداً غير قليل من محدثي الشيعة كابن الجعابي وأبي الطيب الدوري، والمعبدي وابن البقال والنوبختي والكلوذاني وغيرهم ممن عملوا على إسباغ صبغة الاعتزال والتشيع على مروياتهم، وكان ذلك بمنصرة ومعاوضة أمراء بني بويه لخدمة أهدافهم في تشييع المجتمع الإسلامي^(٥)، ولم يتوان أمراء بني بويه عن تشجيع عدد كبير من فقهاء التشيع والرفض في إظهار مساهماتهم

(١) الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي، ص ٦٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٠.

(٣) تاريخ بغداد (٥/ ٤٦٦، ٤٦٧).

(٤)، (٥) الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي، ص ١٠٤.

في نشر التشيع بين عامة الناس في المجتمع الإسلامي، وكان خطر هؤلاء المبتدعة كبيراً على الأمة الإسلامية لما اتصفوا به من انحراف في المعتقد وتزييف للحقائق وافتراء على المشرع، ومن أولئك على سبيل المثال أبو القاسم علي أحمد العلوي الكوفي (ت ٣٥٢/٩٦٣م) وهو من الشيعة الغلاة ومن كتبه: «الاستغاثة في بدع الثلاثة»، ويقصد بالثلاثة الخلفاء أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وقد قال في جملة ما قاله في هذا الكتاب بأن القرآن الذي بين أيدي الناس هو قرآن ناقص^(١)، ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد النعمان المعروف بالشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ/١٠٢٢م) وكان ذا مكانة كبيرة لدى أمراء بني بويه^(٢)، وكانت له تصانيف كثيرة^(٣) ويكفي الإشارة إلى ما كتبه الخطيب البغدادي عن الشيخ المفيد بن المعلم ليظهر مدى خطره على الناس من العامة خاصة، فلقد ترجم له بقوله: شيخ الرفضة والمتعلم على مذاهبهم، صنف كتباً كثيرة في ضلالتهم والذب عن اعتقاداتهم ومقالاتهم والطعن على السلف الماضين من الصحابة والتابعين وعامة الفقهاء المجتهدين، وكان أحد أئمة الضلال هلك به خلق من الناس إلى أن أراح الله المسلمين منه^(٤)، وقد أدى اهتمام البويهيين بالعلم والعلماء إلى انتشار خزانات الكتب وإلى جانبها دور للعلم يمكن اعتبارها من المؤسسات المساعدة لمراكز التشيع حيث كان الغرض منها حث علماء الشيعة على الاطلاع والتأليف ومن بينها دار العلم ببغداد وهي دار ابتاعها الوزير أبو نصر سابور بن أردشير ٣٨٣هـ/٩٩٣ بحلة الكرخ جدد عمارتها ونقل إليها كتباً كثيرة وأوقف عليها أوقافاً كثيرة وسمّاها دار العلم^(٥)، ومن بينها الدار التي أسسها نقيب العلويين الشريف الرضي المتوفي سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م في الكاظمية على الجانب الغربي من دجلة مقابل مقابر قريش وأسماها دار العلم وفتحها لطلبة العلم ووفر لهم كل ما يحتاجونه^(٦)، ويعتبر أبو عبد الله المرزباني من الأدباء والكتاب الذين جعلوا دورهم مراكز للتشيع والاعتزال فقد كان المرزباني معتزلاً يتشيع^(٧)، ولقد أنشأ البويهيون خلال مدة حكمهم العديد من مراكز التشيع واعتنوا عناية كبيرة بتلك التي كانت موجودة وقائمة قبل وصولهم، ووجدت هذه المراكز في كل من كرخ بغداد والكوفة والنجف وكربلاء والكاظمية والبصرة والحلة^(٨) وقد لعبت تلك المراكز أدواراً مهمة في تجميع الشيعة وتوحيد صفوفهم ودفعهم إلى نشر أفكارهم

(١) أعياد الشيعة، نقلاً عن الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي ١٠٥.

(٢)، (٣) الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي، ص ١٠٦.

(٤) تاريخ بغداد (٣/٢٣١).

(٥) المنتظم (٧/١٧٢)، الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي، ص ١١٠.

(٦) البداية والنهاية، نقلاً عن الحياة العلمية، ص ١١١. (٧) تاريخ بغداد (٣/١٣٥، ١٣٦).

(٨) الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي ص ١١١.

ومعتقداتهم خاصة أنهم وجدوا مناصرة ومعاوضة من المتسلطين على الخلافة العباسية من أمراء بني بويه، وكذلك من وزرائهم الذين نهج معظمهم نفس النهج^(١).

ى- إشاعة الآراء المنحرفة للفلاسفة مثل حركة إخوان الصفا: من أخطر الحركات الفلسفية التي ظهرت خلال العصر البويهي حركة إخوان الصفا التي تتمثل في أفكارها الانحرافات الباطنية والتي تعبر عنها شكلاً ومضموناً، وقد اختلف المؤرخون حول زمن نشأة حركة إخوان الصفا، وإن أقدم من ذكر إخوان الصفا هو أبو حيان التوحيدى، ومن خلال ما أورده عنهم يتبين أن موطن نشأتهم كان مدينة البصرة منبت حركة الاعتزال ومرتع المشيعة والمقر التاريخي لصاحب حركة الزنج، ولقد عرفت جماعة إخوان الصفا في منتصف القرن الرابع الهجري، وهي فترة شهدت ضعفاً وتردياً كبيراً في قوة ومكانة الخلافة العباسية وتسلاً أجنبياً خبيثاً ومنحرفاً، وقد تهيأت الظروف خلال هذه المرحلة لظهور العديد من الأفكار والحركات، ومن بينها أفكار إخوان الصفا، وتكاد المصادر تجمع على أن جماعة إخوان الصفا جماعة سرية تتألف من طبقات متفاوتة وفق أسس ذكروها في رسائلهم، كما تتفق على أنهم من الشيعة الإسماعيلية وتمثل آراؤهم وأفكارهم الفلسفية المبادئ الأساسية لفرقة الإسماعيلية التي تقوم أساساً على التأويل الباطني، ويصف إخوان الصفا الصلاة مثلاً^(٢) بأنها هي المقصودة بالقيود، بل إنهم يقولون أن للدين ظاهراً وباطناً، ولقد حظيت آراء وأفكار الفلاسفة خلال العصر البويهي بالكثير من التشجيع والمعاوضة فلقد كانت عناية أمراء بني بويه كبيرة بكل ما له اتصال بالفلسفة والمنطق والكلام والتنجيم وأولت المختصين بها عناية فائقة^(٣)، وقد حفلت مجالس البويهيين على الدوام بحضور العديد من المعتزلة والفلاسفة والمنطقيين وغيرهم من العلماء المشيعين الذين سخرُوا علمهم لخدمة أمراء بني بويه والشيعة الراضة^(٤).

ك- نهاية الدولة البويهية: تمت على أيدي السلاجقة بعد أن بدأ الانقسام والنزاع بين أفراد البيت البويهي، حيث تنازع أبناء عضد الدولة فيما بينهم على الحكم واستقرت الأمور بيد بهاء الدولة حتى نشب الصراع ثانية بين أولاده سلطان الدولة وشرف الدولة وجلال الدولة واندلعت الحروب بينهم^(٥)، مما صرفهم على مواجهة خصومهم في الخارج، فكانت نهاية حكمهم على يد السلطان السلجوقي طغرل بك الذي أزال الله به ملكهم وأراح المسلمين

(١) الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي ص ١١٣.

(٢) الإنسان في فكر إخوان الصفا، عبد اللطيف محمد العبد ص ٣٧.

(٣) الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي، ص ١٣٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٣٨.

(٥) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ٣٩.

من شرهم، عندما دخل بغداد وقبض على آخر حاكم منهم وهو الملك الرحيم أبو نصر خسرو، وذلك سنة ٤٤٧هـ، وبعث به مقيداً إلى الري وأسقط اسمه من الخطبة في شهر رمضان من تلك السنة وبذلك زالت الدولة البويهية من الوجود لتأخذ مكانها الدولة السلجوقية^(١).

٥- اجتماع السلاجقة على زعامة طغرل بك وتوسع دولتهم: كانت الغنائم التي حصل عليها السلاجقة في معركة دُندانقان كثيرة جداً، وبعد انتصارهم في تلك المعركة عاد طغرل بك إلى نيسابور فدخلها مع جموع في أواخر عام ٤٣١هـ وأوائل ٤٣٢هـ^(٢)، ولم تنج المدينة هذه المرة من النهب، فلما أحرز السلاجقة النصر في هذه المعارك ازدادوا قوة ولحقت بهم جيوشهم المتفرقة في أطراف خراسان، فاشتد وقعهم في القلوب وتقرر الملك لهم، واجتمع بعد ذلك الإخوان جفري بك وطغرل بك مع عمهما موسى بن سلجوق الذي كان يطلق عليه «بيغو» وأبناء أعمامهم وكبار قومهم وقواد جنودهم، وتعاهدوا على الاتحاد والتعاون فيما بينهم^(٣) ويقول الراوندي: ولقد سمعت أن طغرل بك أعطى لأخيه سهماً وقال له: اكسره. فتناول أخوه السهم وكسره في هوادة، ثم جمع له سهمين فكسرها أيضاً في هوادة ثم أعطاه ثلاثة فكسرها بصعوبة، فلما بلغ عدد السهام أربعة تعذر عليه كسرها، فقال له طغرل بك: إن مثلنا مثل ذلك فإذا تفرقنا هان لأقل الناس كسرنا وأما إذا اجتمعنا فلا يستطيع أحد أن يظفر بنا، فإذا نشأ خلاف بيننا لم يتيسر لنا فتح العالم، وتغلب علينا الأعداء وذهب الملك من أيدينا^(٤). وجدد السلاجقة العهد لطغرل بك كقائد أعلى لجيوشهم وسلطان لهم على دولتهم، ورغم أن جفري بك كان أكبر منه سناً، إلا أن طغرل بك كان يتميز بشجاعته النادرة وقوة شخصيته مع تدبير ملحوظ وذكاء حاد^(٥)، وكلها صفات رجحت كفته، وهكذا قامت دولة السلاجقة^(٦). وقد شملت فتوح السلاجقة الأولى خراسان وكرمان وأذربيجان وهمدان وجرجان، فقسموا هذه الولايات التي كانوا قد استولوا عليها فيما بينهم^(٧)، وكانت بلخ من أقوى مراكز السلاجقة في الشرق، ونيسابور في الغرب، ومن هذين المركزين أخذ نفوذهم في الانتشار والتوسع^(٨)، وقد اختار طغرل بك مدينة الري لتكون حاضرة ملكه^(٩).

(١) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ٣٩.

(٢) تاريخ البيهقي، ص ٦٩٥، الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٢٨.

(٣) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٢٨. (٤) راحة الصدور للراوندي، ص ١٦٥.

(٥) النجوم الزاهرة نقلاً عن الدولة السلجوقية، ص ١٢٨. (٦) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٢٨.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٢٩، تاريخ الإسلام حسن إبراهيم (٤/١٠).

(٨) الدولة السلجوقية، ص ١٢٩.

(٩) راحة الصدور للراوندي، ص ١٠٤، الدولة السلجوقية، ص ١٢٩.

أ- تنظيم إدارة الدولة في عهدها الأول: من أجل تنظيم إدارة دولتهم فقد قسمها السلاجقة إلى أقاليم، وعينوا على كل إقليم منها حاكماً، من أفراد البيت السلجوقي أطلقوا عليه لقب «شاه» و «ملك» وأما الرئيس الأعلى للدولة بأجمعها، فأطلق عليه لقب «سلطان» وكانت له الكلمة النافذة في جميع أنحاء الدولة، وبهذا التنظيم وطّد طغرل بك سلطته في تلك البلاد، وضمن الوحدة بين أفراد أسرته، لقد كان إخوة طغرل بك وأبناءؤهم يتولون الحكم في أطراف البلاد تحت سلطته^(١)، ومذهبهم السياسي في الحكم أنهم كانوا يعدون المناطق المفتوحة ملكاً لأفراد الأسرة المالكة ولم يعمل طغرل بك على إقامة حكم فردي ينحصر في شخصيته، بل منح حكم المناطق التي تدخل في حوزة السلاجقة حديثاً إلى المقربين من آل سلجوق وترك لهم سلطة الحكم كاملة، وكان هدفه من ذلك الإبقاء على الترابط والوحدة بين طغرل بك وإخوته وأبنائهم، وهكذا تتضح بشكل جلي الطبيعة القبلية في سلوك السلاجقة وحبهم للرئاسة والجاه وقد حاول طغرل بك زعيمهم إرضاء هذه النزعة فعينهم حكاماً وقادة وملوكاً، لكل منهم جيشه الخاص ووزيره وحجابه ومعاونوه في الحكم والإدارة، كما حرص السلاجقة على تكريم علماء الدين وشيوخ الصوفية كي يشنوا عليهم ويزداد حكمهم قوة^(٢)، ومع ذلك فإن تقسيم الدولة إلى ولايات شبه مستقلة أصبح شراً في عهد ضعف السلاجقة وكثرة المنازعات في أرجاء الدولة، مما ساعد على تمزقها وسرعة انهيارها وزوالها^(٣).

ب- اعتراف الخليفة العباسي بالسلاجقة: بعد أن وطّد طغرل بك أركان دولته وأرسى قواعدها لم يبق سوى الحصول على اعتراف من الخليفة به ليكسب سلطته الصفة الشرعية في أعين المسلمين، لذلك أنفذ في عام ٤٣٢هـ رسالة إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله حملها إليه أبو إسحاق القفاعي^(٤)، تضمنت ولاء السلاجقة له، وتأكيد تمسكهم بالدين الإسلامي، والتزامهم بالجهاد في سبيل الله وحبهم للعدل والتماسهم الحصول على اعتراف الخليفة بقيام دولتهم^(٥). وكان السلاجقة في أشد الحاجة للدعم المعنوي من الخليفة العباسي صاحب النفوذ الروحي على العالم الإسلامي السني، وكانت نوعية هذه العلاقة بين السلاطين والخلفاء من ثقافة ذلك العصر الذي ضعفت فيه مؤسسة الخلافة وتقلص نفوذها وسلطانها وصلاحياتها وهي ظاهرة مرضية في الأمة.

(١) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٣٠.

(٢) إيران والعراق، حسنين ص ٤١.

(٣) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٣٠.

(٤) دولة آل سلجوق للبنداري، ص ٨، الدولة السلجوقية، ص ١٣١.

(٥) راحة الصدور، ص ١٦٦، ١٦٧، الدولة السلجوقية، ص ١٣١.

وقد جاء في هذه الرسالة ما نصه: «نحن معشر آل سلجوق أحطنا دائماً بالحضرة النبوية المقدسة وأحبيناها من صميم قلوبنا، ولقد اجتهدنا دائماً في غزو الكفار وإعلان الجهاد، ودوامنا على زيارة الكعبة المقدسة وكان لنا عَمّ مقدم محترم بيننا اسمه إسرائيل بن سلجوق فقبض عليه يمين الدولة محمود بن سبكتكين بغير جرم أو جنابة وأرسله إلى قلعة كالتجرد ببلاد الهند فقبض في أسره سبع سنوات حتى مات، واحتجز كذلك في القلاع الأخرى الكثير من أهلنا وأقاربنا، فلما مات محمود وجلس في مكانه ابنه مسعود لم يقم على مصالح الرعية، واشتغل باللهو والطرب، فلا جرم إذ طلب منا أعيان خراسان ومشاهيرها أن نقوم على حمايتهم، ولكن مسعود وجه إلينا جيشه فوقعت بيننا وبينه معارك تناوبناها بين كر وفر، وهزيمة وظفر، حتى ابتسم لنا الحظ الحسن، فأنحاز إلينا آخر مدد لمسعود ومعه جيش جرار، وظفرنا بالغلبة بمعونة الله عز وجل، بفضل إقبالنا على الحضرة المقدسة المطهرة، وانكسر مسعود وأصبح ذليلاً وانكفاً علمه، وولى الأدبار تاركاً لنا الدولة والإقبال، وشكراً لله على ما أفاء علينا من فتح ونصر، فنشرنا عدلنا وإنصافنا على العباد وابتعدنا عن طريق الظلم والجور والفساد، ونحن نرجو أن نكون في هذا قد نهجنا وفقاً لتعاليم الدين ولأمر أمير المؤمنين^(١). وما إن وصلت هذه الرسالة إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله حتى سُرَّ بها غاية السرور، وأظهر رغبته في التقرب إليهم وبادر بإيفاد رسول إلى السلطان طغرل بك الذي كان في مدينة الري سنة ٤٣٥هـ وكان ذلك الرسول هو أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، وقد تضمنت الرسالة رغبة الخليفة العباسي في عقد صلح بينه وبين الأمير البويهبي أبي كاليجار^(٢)، وتقبيح ما فعل أصحابه من فساد، كما أمر الخليفة رسوله أن يتقرب إلى طغرل بك ويدعوه للحضور إلى دار الخلافة في بغداد^(٣)، فضلاً عن الرسالة فقد كان الماوردي يحمل معه إلى طغرل بك الخلع السلطانية التي منحها إياه الخليفة، مع كتاب تفويض بحكم البلاد^(٤)، وعاد الماوردي إلى بغداد سنة ٤٣٦هـ بعد أن مكث مدة عام في جرجان^(٥)، فأخبر الخليفة بطاعة طغرل بك له وتعظيمه لأوامره والتزامه بها^(٦)، كما أرسل طغرل بك إلى الخليفة مع الماوردي عشرين ألف دينار^(٧). لقد كان لاعتراف الخليفة العباسي بقيام دولة السلاجقة أثر كبير في تقرب السلاجقة من الخلافة العباسية، فأخذت العلاقات بين طغرل بك والخليفة العباسي القائم بأمر الله تتوطد على مر الأيام، كما كان لهذا الاعتراف أثر في اكتمال الكيان الشرعي لدولة السلاجقة أمام المسلمين الخاضعين لسلطتهم في المشرق^(٨).

(١) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٣١. (٢) المصدر نفسه، ص ١٣٢.

(٣) راحة الصدور، ص ١٦٨، دولة آل سلجوق، ص ٨.

(٤)، (٥) المنتظم لابن الجوزي، نقلاً عن قيام الدولة السلجوقية، ص ١٣٤.

(٦) وفيات الأعيان (٢/ ٤٠٠). (٧) المنتظم، نقلاً عن قيام الدولة السلجوقية، ص ١٣٢.

(٨) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٣٣.

ج- اتساع رقعة الدولة: بعد أن شعر طغرل بك أول سلاطين السلاجقة بالاطمئنان على دولته إثر اعتراف الخليفة العباسي القائم بأمر الله بها، وتوجه أمراء السلاجقة كل إلى المنطقة المخصصة له، شرع بتنفيذ ما تبقى من خطته الرامية إلى إتمام سيطرة السلاجقة على بلاد فارس، ومن ثم التوجه منها للسيطرة على العراق، ففي عام ٤٣٣هـ تحرك طغرل بك على رأس جيش كبير من أجل تحقيق ذلك الهدف، وكان الديلمية يسيطرون آنذاك على معظم أجزاء بلاد فارس والعراق ولكنهم مع ذلك كانوا في نزاع مستمر مما أضعفهم وسهل على السلطان السلجوقي طغرل بك التغلب عليهم وإنهاء حكمهم، فقد كان النصر حليفه في جميع حروبه معهم والتي انتهت بسيطرته على بلاد فارس والعراق حيث دخل حاضرة الخلافة العباسية بغداد^(١)، فقد بدأ طغرل بك بالهجوم أولاً على جرجان وطبرستان من أجل القضاء على حكم أنوشروان الزياري الديلمي الذي كان يسيطر على هذين الإقليمين، وإدراكاً من هذا الأخير لقوة السلاجقة وأنه لا طاقة له بقتال طغرل بك، قرر أن يخضع له وأعلن تعهده بطاعته وأداء إتاوة سنوية له، وبذلك ضم طغرل بك هذين الإقليمين إلى دولة السلاجقة، ثم لم يلبث أن أزال حكم الزياريين الديلمية منها، وعين عليها والياً من قبله فكان هذا إيذاناً بسقوط الدولة الزيارية وانتهاء نفوذها في بلاد فارس^(٢)، وبعد ذلك توجه طغرل بك، إلى خوارزم لفتحها وكان ذلك عام ٤٣٤هـ^(٣) وما إن تم له ذلك حتى سيطر على ما يجاورها من المناطق، فأصبح السلاجقة أكبر قوة في بلاد فارس وما وراء النهر، وكان هذا سبباً في مسارعة حكام الأقاليم إلى إعلان طاعتهم وولائهم لهم وموافقتهم على دفع إتاوة سنوية، كل هذا أتاح الفرصة لطرغل بك للتوجه إلى وسط بلاد فارس وغزو مدينة الري^(٤)، فسار على رأس جيش كبير نحوها في العام نفسه فدخلها فاتحاً عاصمة له ومقرراً لحكومته^(٥)، وكان لهذه الانتصارات التي حققها السلاجقة بزعامة السلطان طغرل بك في بلاد فارس وفي ما وراء النهر انعكاساتها على الخليفة العباسي القائم بأمر الله في بغداد، فما كان منه إلا أن بعث رسولاً من قبله إلى مدينة الري يحمل رسالة منه للسلطان السلجوقي يدعوه فيها لزيارة بغداد^(٦) لقد أبلغ مبعوث الخليفة السلطان السلجوقي بأن الخليفة قد سُرَّ برسالة السلاجقة إليه كثيراً، وردَّ عليها برد حسن تضمن موافقته على قيام دولة السلاجقة، وأن الخليفة يسره أن يستقبل سلطان السلاجقة في بغداد عاصمة الخلافة كضيف عزيز كريم^(٧)، واستقبل السلطان طغرل بك مبعوث الخليفة العباسي أحسن استقبال ورحب بدعوته إياه لزيارة بغداد،

(١) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٣٤.

(٢) (٣، الكامل في التاريخ، نقلاً عن الدولة السلجوقية، ص ١٣٤.

(٤) المنتظم لابن الجوزي (٨/ ١٠). (٥) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٣٥.

(٦) إيران والعراق، ص ٤٣، الدولة السلجوقية ص ١٣٥.

(٧) دولة آل سلجوق، ص ١١-٦٧.

ووعد بالقيام بها في الوقت المناسب^(١) ومن جهة أخرى فقد بقي مبعوث الخلافة في الري مدة ثلاث سنوات من أجل مرافقة طغرل بك عند توجهه لزيارة بغداد، ولكنه اضطر إلى الرجوع وحده إلى بغداد، بعد أن أكد له طغرل بك حرصه على هذه الزيارة وأنه سيلبّيها بعد فراغه من غزو الأقاليم الغربية والجنوبية من بلاد فارس، وقد فرغ السلاجقة من بسط سيطرتهم على الأقاليم الشرقية منها^(٢)، وبعد ذلك أخذ طغرل بك ييسط سيطرته على الأقاليم الغربية من بلاد فارس، فتمكن من ذلك دون عناء كبير بسبب ضعف أمراء الديلم هناك، فخضعت له قزوين وأبهر وزنجان وهمذان وأذربيجان^(٣)، ودان له حكامها بالطاعة والولاء، بعدها أرسل جيشاً لفتح كرمان التي خضعت له في شهر محرم من عام ٤٤٣هـ، وبخضوعها انتهت دولة الديلم في تلك المنطقة^(٤) وكان طغرل بك قد حاول استغلال الوقت أثناء حصار جيشه لأصفهان، فأرسل جزءاً منه لفتح إقليم فارس وما جاورها فتمت له بذلك السيطرة التامة على المنطقة الجنوبية من بلاد فارس بأجمعها^(٥)، بعد ذلك توجه طغرل بك بجيشه لتفقد المناطق الشمالية الغربية من بلاد فارس وتوطيد سيطرة السلاجقة عليها، فسار في عام ٤٤٦هـ إلى إقليم أذربيجان، ودخل عاصمته تبريز وشمل نفوذه جميع أجزاء أذربيجان، فضلاً عن بعض أجزاء من بلاد الروم آسيا الصغرى^(٦)، المتاخمة لأذربيجان، بعدها عاد إلى عاصمته الري عام ٤٤٧هـ وهكذا شمل نفوذ السلاجقة أكثر أجزاء بلاد فارس، فضلاً عن أجزاء من الدول المجاورة لها، وبهذا أصبح طغرل بك مستعداً لدخول عاصمة بغداد بناء على استدعاء الخليفة وبعد ذلك تمت سيطرتهم على معظم أنحاء العراق، وقد أرسل طغرل بك أخاه من أمه إبراهيم ينال إلى همذان والأجزاء الغربية المجاورة لها من أجل تثبيت نفوذ السلاجقة فيها، فتوجه إليها عام ٤٣٧هـ^(٧)، فرحل من كرمان إليها، وهناك حدثته نفسه بالتمرد واتخاذها قاعدة له مما أجبر طغرل بك على التوجه نحوه بنفسه وذلك عام ٤٤١هـ وما إن اقترب منها حتى أرسل إلى أخيه يطلب منه أن يسلم القلاع التي في يده إليه، غير أنه رفض ذلك فهاجمه طغرل بك وانتصر عليه ثم عفا عنه بعد أن استسلم له، ولم يعاقبه على تمرده هذا^(٨).

واستمر طغرل بك في تفقده للأقاليم التابعة لدولة السلاجقة غربي بلاد فارس من أجل إحكام سيطرته عليها، كما استطاع أن ييسط نفوذه على ديار بكر بعد أن وافق حاكمها نصر

(١) راحة الصدور، ص ١٠٥، الدولة السلجوقية، ص ١٣٥.

(٢) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٣٥. (٣) المصدر نفسه، ص ١٣٦.

(٤) البداية والنهاية، نقلاً عن الدولة السلجوقية، ص ١٣٦.

(٥) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الدولة السلجوقية، ص ١٣٦.

(٦) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٣٦.

(٧) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الدولة السلجوقية، ص ١٣٧.

(٨) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٣٧.

الدولة بن مروان على ذكر اسمه في الخطبة، وإعلان طاعته وولائه للسلاجقة^(١)، وفي عام ٤٤١هـ توجه طغرل بك نحو أصبهان التي كان قد حاصرها عام ٤٣٨هـ، فحاصرها وفيها حاكمها أبو منصور فرامر بن علاء الدولة وضيق عليه كثيراً لكنه لم يوفق في ذلك، ولكن في النهاية تم الصلح بين الطرفين على مال يقدمه فرامر بن علاء الدولة لطغرل بك، فضلاً عن الخطبة له في أصبهان وأعمالها^(٢).

د- التوسع نحو الأناضول: في سنة ٤٤٠هـ قام إبراهيم ينال بغزو الروم حيث ظفر بهم وغنم كثيراً وكان السبب في ذلك أن جموعاً كثيرة من الغز فيما وراء النهر قد جاءوا إليه يريدون الاستقرار في بلادهم، ولكنه رفض ذلك وحاول إفهامهم أن بلاده ومصادرها تعجز عن حاجتهم، ونصحهم بالتوجه إلى غزو الروم والجهاد في سبيل الله فضلاً عن حصولهم على الغنائم، كما أخبرهم أنه سيلحق بهم ويساعدهم فاستجابوا له وساروا أمامه فتبعهم^(٣)، فلما وصلوا إلى ملاذكرد وأردن الروم وقالقلا وطرابزون لقيهم جيش كبير من الروم والأبخاز، تذكر المصادر أن عدده ثمانية وخمسون ألفاً فدار بينهم قتال شديد تبادل فيه الفريقان النصر والهزيمة وكان النصر في النهاية للمسلمين وقتلوا عدداً كبيراً من الروم وأسروا العديد منهم بينهم كثير من البطارقة، وكان من بين الأسرى قاريط ملك الأبخاز الذي فدى نفسه بثلاثمائة ألف دينار وبهدايا قدر ثمنها بمائة ألف^(٤)، ولكن لم يقبل ذلك منه، ومع ذلك فقد استمر إبراهيم ينال يغزو تلك البلاد وينهبها ولم يبق بينه وبين القسطنطينية سوى خمسة عشر يوماً، وكان من نتيجة هذه الغارات والغزوات أن غنم المسلمون الكثير، وسبوا ما يزيد على مائة ألف رأس، فضلاً عما لا يحصى من البغال والدواب والأموال حتى قيل إن الغنائم كانت قد حُمِلت على عشرة آلاف عجلة وإن من جملة الغنائم تسعة عشر ألف درع وكان لهذه الغزوة آثار كبيرة فقد ألحق السلطان طغرل بك بالروم خسائر كبيرة بما قام به من نهب وقتل وأسر، وبعد ذلك توجه للري وأقام بها حتى حلول ٤٤٧هـ وعاد بعدها إلى العراق^(٥).

(١) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الدولة السلجوقية، ص ١٣٧.

(٢) المنتظم لابن الجوزي، نقلاً عن الدولة السلجوقية، ص ١٣٧.

(٣) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٣٩.

(٤) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الدولة السلجوقية، ص ١٤١.

(٥) نهاية الأرب (٢٦/٢٨٧)، الدولة السلجوقية ص ١٤١.

المبحث الثاني

علاقة السلاجقة بالخلافة

ودخول العراق والقضاء على الدعوة الشيعية الرافضة الباطنية

أصبح السلاجقة في عام ٤٤٧هـ أكبر قوة في العالم الإسلامي خاصة بعد أن فرضوا سيطرتهم على بلاد فارس وتغللبوا على الغزنويين والبويهيين^(١)، وتوغلوا داخل أراضي الدولة البيزنطية واصطدموا بجيش الروم وبذلك أعطوا دفعة قوية للجهاد ضد الروم الذين عاثوا فساداً أيام البويهيين في أراضي الخلافة العباسية لعدم قدرة الخلافة ولعدم اكتراث أمراء البويهيين بالجهاد، وقد أكسب هذا العمل وبهذه الصورة السلاجقة شعبية كبيرة وسمعة حسنة بين جماهير الناس التي كانت في الماضي القريب ترى وتسمع عن تغطرس الروم وتنادي السلطة بضرورة مجابتههم دون جدوى^(٢). وكانت السلطة البويهية في بغداد تتداعى بسبب الخلافات بين الأمراء البويهيين من جهة ورجال الدولة من جهة أخرى، والانشقاق في صفوف الجيش البويهي خاصة بين فرعيه الرئيسين التركي والديلمي، ويبدو أن الدعوة وجهت السلاجقة لاحتلال بغداد ليس من قبل الخليفة العباسي فقط بل من قبل الوزير رئيس الرؤساء والذي كان على خلاف شديد مع قائد الجيش التركي أبو الحارث البساسيري الذي اعتنق مذهب الفاطميين العبيديين وخطب لهم^(٣). لقد كان الوضع السياسي في العراق مشجعاً لطغرل بك على دخول بغداد، وهذا ما قام به فعلاً في شهر المحرم من سنة ٤٤٧هـ وكان طغرل بك قد أظهر أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة والمسير إلى الشام ومصر والقضاء على حكم المستنصر بالله الفاطمي هناك، فسار إلى همدان وأمر أتباعه بإعداد الأقوات والمؤن^(٤)، وأرسل إلى الخليفة العباسي يخبره بأنه يدين له بالطاعة ويستأذنه في دخول بغداد - وهو في طريقه إلى مكة - فأذن له، ودخل العراق عن طريق حلوان من السنة نفسها^(٥). لقد ساند السلاجقة الخلافة العباسية في بغداد ونصروا مذهبها السني بعد أن أوشكت على الانهيار بسبب النفوذ البويهي الشيعي في إيران والعراق، والنفوذ العبيدي «الفاطمي» في مصر والشام، ففضى السلاجقة على النفوذ البويهي تماماً وتصدوا للخلافة العبيدية «الفاطمية»^(٦)، لقد استطاع طغرل بك الزعيم السلجوقي أن

(١) الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٤١. (٢) الخلافة العباسية السقوط والانهيار (١٦٤/٢).

(٣) المصدر نفسه (١٦٥/٢).

(٤) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الدولة السلجوقية منذ قيامها، ص ١٤٥. (٥) المصدر نفسه، ص ١٤٥.

(٦) السلاطين في الشرق العربي، د. عصام محمد شبارو، ص ١٧١.

يسقط الدولة البويهية عام ٤٤٧هـ في بغداد وأن يقضي على الفتن، وأزال من على أبواب المساجد سب الصحابة، وقتل شيخ الروافض أبا عبد الله الجلاب لغلوه في الرافض^(١).

لقد كان النفوذ البويهي الشيعي مسيطراً على بغداد والخليفة العباسي، فبعد أن أزال السلاجقة الدولة البويهية من بغداد ودخل سلطانهم طغرل بك إلى عاصمة الخلافة العباسية استقبله الخليفة العباسي القائم بأمر الله استقبلاً عظيماً وخلع عليه خلعاً سنياً وأجلسه إلى جواره، وأغدق عليه ألقاب التعظيم، ومن جملتها أنه لقب بالسلطان ركن الدين طغرل بك، كما أصدر الخليفة العباسي أمره بأن ينقش اسم السلطان طغرل بك على العملة، ويذكر اسمه في الخطبة في مساجد بغداد وغيرها، مما زاد من شأن السلاجقة، ومُنذ ذلك الحين حل السلاجقة محل البويهيين في السيطرة على الأمر في بغداد، وتسيير الخليفة العباسي حسب إرادتهم^(٢).

أولاً: النفوذ الفاطمي العبيدي في العراق وفتنة البساسيري:

١- النفوذ الفاطمي العبيدي في العراق: استغلت الحركات السرية المتكتمة ضعف الخلافة وراحت تنشط لإيجاد أرض لها وتغوي الناس بستار ظاهره التشيع وباطنة الكفر المحض، واستطاعت الحركة الإسماعيلية السرية التي تتخذ من بلدة «سلمية»^(٣) مقراً لها أن تجد أرضاً خصبة في شمال أفريقيا بعد أن مهد لها وأزال العقبات من طريقها داعيتهم الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الصنعاني الملقب بأبي عبد الله الشيعي، وقد وصف بأنه من الرجال الدهاء، دخل أفريقيا وحيداً بلا مال ولا رجال ولم يزل يسعى إلى أن ملكها^(٤)، وكان رئيسه في الدعوة ابن حوشب قد كلفه بأن يلتقي بقبيلة كتامة من المغرب في موسم الحج، وعندما التقى بهم استطاع بدهائه أن يؤثر فيهم ويتلاعب بعقولهم، وأعجبوا به فرحل معهم إلى بلادهم، والتفت حوله قبيلة كتامة وغيرها، وحارب القبائل الأخرى وسقطت مدن المغرب الأوسط سجلماسة وميلة وتاهرت ورقادة، حتى إذا ما مهد للأمر، واستقرت به الأحوال أرسل إلى زعيم الدعوة طالباً إليه الحجيء ليسلم إليه مقاليد الأمور، وهذا الزعيم هو عبيد الله من ذرية عبد الله بن ميمون القداح الفارسي الباطني على رأي بعض المؤرخين، والبعض يقول إنه ربيب الحسين بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح^(٥)، ولكنه زعم أنه من ذرية فاطمة رضي الله عنها، وأكثر العلماء والمؤرخين والنسابين ينفون عنه هذا

(١) أيعيد التاريخ نفسه؟ محمد العبد، ص ٦٧.

(٢) قيام الدولة العثمانية، ص ١٩.

(٣) بلدة في سوريا شرق مدينة حماه.

(٤) وفیات الأعيان (١٩٢/٢).

(٥) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: أيعيد التاريخ نفسه؟ ص ٣٨.

النسب^(١)، واستطاع عبيد الله النجاة من المراقبة الشديدة التي وضعت عليه بعد مغادرته لبلاد الشام وحتى وصوله إلى المغرب، ولكن والي سجلماسة ظفر به وأودعه السجن ولم يقتله، وهذا من الغفلة المعهودة، ثم إن أبا عبد الله الشيعي استطاع إنقاذه وتقديمه للناس إماماً للدعوة، وقد بايعه هؤلاء، ولقب نفسه المهدي وهو مؤسس الدولة العبيدية التي تسمى بـ «الفاطمية»^(٢)، وهذه الدولة دولة باطنية وليست فاطمية، وهذا رأي أكثر علماء الأمة الذين حققوا نسبهم وعلموا بواطنهم وأسرارهم^(٣).

أ- عقيدتهم وصلتهم بالقرامطة: إن كثيراً من الكتاب المحدثين الذين كتبوا عن الدولة العبيدية لا يذكرون إلا سيرتهم السياسية، ولا يتطرقون من قريب أو بعيد إلى سوء اعتقاد ملوكها وأنهم باطنيون وإن أظهروا خلاف ذلك، لأنهم يستعملون التقية أمام الشعب الذي يحكمونه، وعندما استولى السلطان صلاح الدين على دولتهم وعزم على عزل العاضد آخر ملوكهم استفتى العلماء في قتله فأفتوه بجواز ذلك لما كان عليه العاضد وأشياعه من انحلال العقيدة، وكان أكثرهم مبالغة في الفتيا الشيخ نجم الدين الخبوشاني فإنه عدّد مساوئ هؤلاء القوم وسلب عنهم الإيمان^(٤)، يقول ابن خلكان: وكان العاضد شديد التشيع مغالياً في سب الصحابة، وإذا رأى سنياً استحل دمه^(٥). وصلتهم بالقرامطة الملاحدة صلة أكيدة، ودعوتهم دعوة واحدة، فقد كتب المعز إلى القرامطة عندما سمع نبأ محاولتهم حصار مصر يذكر فضل نفسه وأهل بيته وأن الدعوة واحدة، وأن القرامطة إنما كانت دعوتهم إليه وإلى آبائه من قبله^(٦)، ويقول الإمام الشاطبي: أما الدجالون فمنهم معد من العبيدية الذين ملكوا إفريقية، فقد حكي عنه أنه جعل المؤذن يقول: أشهد أن معداً رسول الله، فهم المسلمون بقتله «أي المؤذن» ثم رفعوه إلى معد ليروا هل هذا عن أمره، فلما انتهى كلامهم إليه قال: اردد عليهم أذانهم لعنهم الله^(٧)، وعندما أقدم أبو طاهر القرمطي على شناعاته وإجرامه وأعماله الكفرية في مكة وبلغ ذلك عبيد الله المهدي كتب إليه ينكر عليه ذلك ويلومه ويقول: قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت^(٨)، وعندما قبض على الباطنية في بغداد وكانوا يكتبون القرامطة قال أحدهم: وإمامنا المهدي محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق المقيم في بلاد المغرب^(٩) وفي حوادث ٤١٤ هـ قام رجل من المصريين (العبيديين) لضرب الحجر الأسود بآلة

(١) ٢، ٣) أيعيد التاريخ نفسه، ص ٣٨.

(٤) وفيات الأعيان (٣/ ١١١).

(٥) المصدر نفسه (٣/ ١١٠).

(٧) الاعتصام (٢/ ٩٧).

(٦) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: أيعيد التاريخ نفسه؟ ص ٤٢.

(٨) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: أيعيد التاريخ نفسه؟ ص ٤٢.

(٩) المصدر نفسه، ص ٤٣.

الحجر الأسود بآلة ثقيلة والسيف في يده الأخرى وهو يقول: إلى متى يعبد الحجر الأسود ومحمد وعلي؟! فتمكن منه أحد الحجاج من اليمن فضربه بخنجر فقتله^(١)، وكل الإرهاب الذي زرعه الحشاشون في أنحاء العالم الإسلامي إنما هو ثمرة من ثمار الدعوة الإسماعيلية العبيدية الفاطمية في مصر، فإن حسن الصباح زعيم قلعة الموت الذي أرسل رجاله يقتلون العلماء والأمراء المجاهدين إنما تلقى الدعوة على أيدي أصحابها في مصر^(٢)، وقد ناقش مجموعة من العلماء وطلاب العلم عقائدهم مثل الدكتور سليمان السُّلومي في كتابه «أصول الإسماعيلية»، وأستاذي وشيخي الدكتور أحمد محمد جلي في كتابه «دراسة الفرق في تاريخ المسلمين - الخوارج والشيعة»، والأستاذ علوي طه الجبل «الشيعة الإسماعيلية رؤية من الداخل»، والدكتور محمد أحمد الخطيب في كتابه «الحركات الباطنية»، والدكتور غالب العواجي في كتابه «فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام»، والأستاذ محمد بن أحمد الجوير في كتابه «الإسماعيلية المعاصرة»، فمن أراد التوسع فليرجع إليها وإن مد الله في العمر وبارك في الوقت، فلنا لقاء موسع لدراسة الدولة الفاطمية العبيدية، فنسأل الله التوفيق والسداد.

ب- حكم العلماء في الفرق الباطنية:

* يقول الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «فضائح الباطنية» وهو من مشاهير أهل العلم الذين خبروهم وعرفوا أسرارهم: إن مذهب الباطنية مذهب ظاهره الرفض وباطنه الكفر المحض^(٣).

* وحينما تحدث البغدادي في الباب الرابع من كتابه «الفرق بين الفرق» وضع عنواناً لهذا الباب قائلاً: بيان الفرق التي انتسبت إلى الإسلام وليست منه - ثم ذكر من هذه الفرق الباطنية وقال: إن ضررها على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس، بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم بل أعظم من ضرر الدجال الذي يظهر في آخر الزمان، لأن الذين ضلوا بدعوة الباطنية من وقت ظهور دعوتهم إلى يومنا أكثر من الذين يضلون بالدجال في وقت ظهوره، لأن فتنة الدجال لا تزيد مدتها على أربعين يوماً وفضائح الباطنية أكثر من عدد الرمل والقطر.. إلى أن قال: الذي يصبح عندي من دين الباطنية أنهم دهريّة زنادقة يقولون بقدّم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلهم إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع... وفي آخر الباب قال: وقد بينا خروج فرق الباطنية عن جميع فرق الإسلام بما فيه كفاية والحمد لله على ذلك^(٤)، وفي كتابه «أصول الدين» ذكر أن طائفة

(١)، (٢) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: أعييد التاريخ نفسه؟، ص ٤٣. (٣) فضائح الباطنية للغزالي، ص ٣٧.

(٤) الفرق بين الفرق للبغدادي، ص ٢٢٠، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٧٨، ٢٩٩.

الباطنية خارجة عن فرق الأهواء وداخلة في فرق الكفر الصريح، لأنها لم تتمسك بشيء من أحكام الإسلام في أصوله ولا في فروعه وأن دعائهم خالفوا المسلمين في التوحيد والنبوات وفي تأويل الآثار والآيات وأنهم كانوا دعاة المجوس بالتمويه إلى دين الثنوية... وبعد أن يستعرض عقائدهم يقول: واختلف أصحابنا في حكمهم. فمنهم من قال: هم مجوس، وأجاز أخذ الجزية منهم وحرم ذبائحهم ونكاحهم، ومنهم من قال: حكمهم حكم المرتدين إن تابوا وإلا قتلوا، وهذا هو الصحيح عندنا. ثم ساق البغدادي بعد ذلك فتوى الإمام مالك في الباطني، والزنديق وأنه قال عنهما: إن جاء تائبين ابتداء قبلنا التوبة منهما وإن أظهرتا التوبة بعد العثور عليهما لم تقبل التوبة منهما وإن هذا هو الأحوط فيهم^(١).

* وتحدث ابن حزم عن دار الإسلام ودار الحرب واعتبر أن الأراضي التي حكمها بعض الفرق الباطنية تعتبر دار كفر وذلك لصريح كفرهم كالقرامطة مثلاً وهم من فرق الإسماعيلية^(٢).

وأما ديار العبيديين لظهور الإسلام فيها فإنها وإن حكمها العبيديون تعتبر دار إسلام وإن كان حكمها في حقيقة أمرهم كفاراً، يقول ابن حزم عن ذلك: إن من سكن في طاعة أهل الكفر من الغالية كالعبيديين ومن جرى مجراهم لا يعتبر كافراً لأن أرض مصر والقيروان وغيرهما الإسلام فيها هو الظاهر ولاؤهم على كل ذلك لا يجاهرون بالبراءة من الإسلام بل إلى الإسلام يتمون وإن كانوا في حقيقة أمرهم كفاراً، وأما من سكن في أرض القرامطة مختاراً، فكافر بلا شك لأنهم معلنون بالكفر وترك الإسلام^(٣). فابن حزم يجزم بكفر القرامطة والعبيديين وهما من الإسماعيلية حيث الأولى فرقة من فرقهم وأما العبيديون فإنهم أئمة الإسماعيلية في فترة الظهور وعددهم اثنا عشر حاكماً^(٤).

ويصف الشاطبي الباطنية، بأنهم ثنوية دهرية إباحية ينكرون النبوة والشرائع وأمور المعاد، بل إنهم ينكرون الربوبية^(٥)، وأما ابن تيمية - رحمه الله - فقال لما سئل عنهم: إن جمهور المصنفين من المتقدمين والمتأخرين ذكروا بطلان نسبهم حتى صنف العلماء في كشف أسرارهم وهتك أستارهم ومن ذلك القاضي أبو بكر الباقلاني ألف كتابه المشهور في كشف أسرارهم وهتك أستارهم وذكر أنهم من ذرية المجوس وذكر من مذاهبهم ما بين فيه أن مذاهبهم شر من مذاهب اليهود والنصارى، بل ومن مذاهب الغالية الذين يدعون ألوهية

(١) أصول الدين للبغدادي، ص ٣٢٩-٣٣١.

(٢) أصول الإسماعيلية، د. سليمان السلومي (٦٦/٢). (٣) المحلى لابن حزم (١٣/١٣٩).

(٤) أصول الإسماعيلية (٦٦/٢).

(٥) الاعتصام للشاطبي (١/٢٥٣).

علي أو نبوته فهم أكفر من هؤلاء، وكذلك القاضي أبو يعلى في كتابه «المعتمد» ذكر فصلاً طويلاً في شرح زندقتهم وكفرهم وكذلك أبو حامد الغزالي ذكر في كتابه الذي سماه «فضائل المستظهيرية وفصائح الباطنية»، بأن ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض، وكذلك القاضي عبد الجبار بن أحمد وأمثاله من المعتزلة المشيعة يجعلون هؤلاء من أكابر المنافقين الزنادقة، فهذه مقالة المعتزلة في حقهم، فكيف تكون مقالة أهل السنة والجماعة، والرافضة الإمامية يعلمون مقالة هؤلاء مقالة الزنادقة المنافقين ويعلمون أن مقالة هؤلاء الباطنية شر من مقالة الغالية الذين يعتقدون إلهية علي عليه السلام... إلى أن قال: ... وبالجملية فعلم الباطن الذي يدعون مضمونه الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر^(١).

وأما ابن القيم فقال فيهم: ومن أشر طوائف المجوس الذين لا يقرون بصانع ولا معاد ولا نبوة ولا حلال ولا حرام الخرمية أصحاب بابك الخرمي وعلى مذهبهم طوائف القرامطة والإسماعيلية والنصيرية والدرزية وسائر العبيدية يسمون أنفسهم الفاطمية وهم من أكفر الكفار، فكل هؤلاء يجمعهم هذا المذهب ويتفاوتون في التفصيل، فالجوس شيوخ هؤلاء كلهم وأئمتهم وقدوتهم، وإن كان المجوس قد يتقيدون بأصل دينهم وشرائعهم وهؤلاء لا يتقيدون بدين من ديانات العالم ولا بشريعة من الشرائع^(٢).

ونقل الشيخ محمد بن عبد الوهاب إجماع أهل العلم على كفر أئمة الإسماعيلية «العبيدية» وقال: إن بني عبيد لما أظهرُوا الشرك ومخالفة الشريعة وظهر منهم ما يدل على نفاقهم وشدة كفرهم أجمع أهل العلم على أنهم كفار يجب قتالهم وأن دارهم دار حرب ولذلك غزاها المسلمون واستغنوا ما بأيديهم من بلدان المسلمين^(٣).
هذه هي نماذج من أقوال أهل العلم قديماً وحديثاً وحكمهم.

٢- المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعية الفاطمية العبيدية: كانت الدولة الفاطمية تسعى للسيطرة على العراق والمشرق ولذلك قامت بإرسال الدعوة إليها، فقد واصل الخلفاء الفاطميون جهودهم في نشر دعوتهم مستغلين الاضطراب الذي ساد بلاد العراق بسبب النزاع بين أمراء بني بويه على السلطة وثورات الجند، وتدخل قادتهم في تولية الأمراء وعزلهم فأرسل الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي الدعاة إلى بغداد سنة ٤٢٥هـ، فاستجاب لهم كثير من الناس^(٤)، كما سير المستنصر بالله الفاطمي إلى قرواش بن

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/١٢٩-١٣١، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥).

(٢) إغاثة اللفهان لابن القيم (٢/٢٤٧-٢٤٩).

(٣) مختصر سيرة الرسول، ص ٣٣.

(٤) اتعاظ الحنفا، للمقريزي (٢/١٨٩).

المقلد - أمير الموصل - أعلاماً وخلعاً في عام ٤٣٦هـ، فأرسل إليه الخليفة القائم يعاتبه فاعتذر إليه، ولبس السواد- شعار العباسيين - مرة أخرى ورجع عن دعوة المستنصر^(١)، وازداد نشاط الدعاة في بلاد المشرق الإسلامي على عهد المستنصر بالله الفاطمي، فعهد إلى دعائه بالرحيل إلى فارس وخراسان وما وراء النهر، وقد أشار المقرئزي إلى ذلك بقوله: وكان المستنصر قد بث دعائه سرّاً إلى الآفاق يدعون إليه ويستميلون من تصل القدرة إلى استمالاته. فدفع بجماعة من دعائه في خراسان إلى ما وراء النهر فلقبت الدعوة الفاطمية في بلاد الفرس تأييداً كبيراً فاستجاب لهم كثير من الناس، ولما وصل الخبر إلى بغراخان^(٢)، صاحب بلاد ما وراء النهر احتال على الدعاة حتى أوقع بهم وأنفذ برسالة إلى الخليفة القائم بأمر الله بالأمر، فأجيب بالشكر والثناء^(٣). ومن أشهر دعاة وفلاسفة المذهب الإسماعيلي الفاطمي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي وعرف أحياناً بالمؤيد فقط، ولكن اللقب الذي غلب عليه هو المؤيد في الدين، يدل على ذلك أن الملك كاليبجار البويهري أرسل إليه يقول: لشيخنا وظهرنا ومعتمدنا المؤيد في الدين عصمة أمير المؤمنين أبي النصر أطال الله بقاءه وأدام عزه وتأيده^(٤). وكان هذا الرجل داعياً للمذهب الفاطمي بشيراز^(٥).

اتصل المؤيد بالسلطان أبي كاليبجار البويهري، واستطاع بدعائه أن يكسب عطفه، وأن يظل في شيراز يتابع نشر المذهب الإسماعيلي ثم لم يلبث أن توثقت صلته بالسلطان البويهري حتى طمع في إدخاله في الدعوة الفاطمية، واستطاع المؤيد أن يؤثر فيه، فكتب إليه يقول: إني أسلمت نفسي وديني إليك، وإني راض بجملة ما أنت عليه^(٦)، ودخل أبو كاليبجار في الدعوة الفاطمية وأخذ يجتمع بالمؤيد مساء كل خميس للاستزادة من فهم المذهب الإسماعيلي، ولم يكتف المؤيد بنشر الدعوة في شيراز، بل سافر إلى الأهواز وأدخل في الأذان عبارة «حي على خير العمل» وأمر الناس بإقامة الخطبة للمستنصر الفاطمي^(٧)، ولكن لم تدم الخطبة على منابر الأهواز طويلاً للخليفة الفاطمي إذ أرسل قاضيهما أبو الحسن عبد الوهاب ابن منصور بن المشتري برسالة إلى الخليفة القائم بأمر الله يخبره بالأمر، وأشار عليه أن يعمل على إيقاف الدعوة الفاطمية في بلاد فارس فأنفذ الخليفة وزيره أبا القاسم بن المسلمة-

(١) اتعاظ الحنفا، للمقرئزي (١٩٣/٢).

(٢) هو بغراخان الثالث محمود بن يوسف، حاكم بلاد ما وراء النهر.

(٣) الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق والمشرق، ص ٦٥.

(٤، ٥) المجالس المؤيدية، تحقيق وتعليق محمد الغفار، ص ٧.

(٦) السيرة المؤيدية، ص ٦١.

(٧) ديوان المؤيد في الدين، ص ٢٨، المجالس المؤيدية، ص ٩.

رئيس الرؤساء - إلى شيراز حيث التقى بالأمير كاليبجار وسلمه رسالة الخليفة التي تضمنت التهديد بالاستعانة بالسلاجقة إن لم يقبض على المؤيد في الدين وإنفاذه مكبلاً بصحبة رئيس الرؤساء^(١)، إلى بغداد ووقف النشاط الفاطمي في بلاده^(٢).

ولما علم المؤيد في الدين بما تضمنته الاتصالات بين الخليفة العباسي والأمير البويهبي الذي كان يؤازره في نشر دعوته في بلاده، رأى أن يترك بلاد فارس بعد انصراف أبي كاليبجار عن تأييده، وسار إلى الحلة ونزل بدار الأمير منصور بن الحسن وظل مقيماً هناك حتى رأى أبو كاليبجار - الذي كان يطمح في تولي السلطة في بغداد بعد وفاة جلال الدولة - أن يعمل على إبعاد المؤيد في الدين لإرضاء الخليفة العباسي، فكتب إلى صاحب الحلة يخبره أن وجود المؤيد في بلده فيه خطر على دولة بني بويه طالباً إبعاده، ويتجلى ذلك فيما جاء في رسالة أبي كاليبجار إلى منصور بن الحسن: إنك من الشفقة على ملكنا ودولتنا بحيث لا تعتمد لأحد هوادة فيه وقد عرفت صورة أبي فلان «المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي»... وإننا كل يوم في صراع من جهة الديلم - الذين اعتنق كثير منهم الدعوة الفاطمية في بلاد فارس والعراق - باحتجاجات باطلة يتشبثون بها ظاهراً وهو مغزاهم وغرضهم منها باطناً، ثم إنه قامت رغبتنا في بغداد وامتلاكها وليس يكاد يتم الغرض فيه إلا بالمجلس الخلفي الإمامي (مواقعة الخليفة القائم بأمر الله العباسي، إذا استقر به العالم أن هذا الإنسان مقيم بفناء حضرنا على جلته كان ذلك ردحاً في وجه ما تؤثر بلوغه وحاجزاً بيننا وبينه وقد انتهى إلينا معاودة الأهواز، فאלله الله أن توجده سبيلاً إلى ذلك، فإنه إن عاود وقعت فتنة نصلى بنارها صلياً)^(٣). اضطر المؤيد في الدين إلى الرحيل عن الحلة وأخذ في التنقل بين مدن العراق فسار إلى الكوفة، ثم اتجه إلى الموصل حيث أقام فترة قصيرة عند قرواش بن المقلد - أمير بني عقيل - وأخيراً رحل إلى مصر سنة ٤٣٨ هـ^(٤)، بعد أن أعرض عنه الجميع تحت وطأة المعارضة السنية وخوفاً من غضب الخليفة القائم بأمر الله العباسي^(٥). وعلى الرغم من رحيل المؤيد في الدين إلى مصر، فإن جهوده في نشر الدعوة الفاطمية ببلاد العراق تركت آثاراً خطيرة على الخلافة العباسية في عهد القائم بأمر الله، إذ انضم إليها كثير من قادة الترك والديلم وهم الذين يمثلون عماد القوة التي تعتمد عليها البلاد في التصدي لأعداء الخلافة فظلوا يشجعون الدعوة الفاطمية ويقربون إليهم أتباعها.

(١) سيرة المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، ص ٥٦.

(٢) الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق والمشرق الإسلامي في عهد الخليفة القائم بأمر الله، ص ٦٦.

(٣) سيرة المؤيد في الدين، ص ٧٣، ٧٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٤، ٥٧.

(٥) الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق والمشرق الإسلامي في عهد الخليفة القائم بأمر الله، ص ٦٧.

ومن الدروس والفوائد المهمة من قصة المؤيد الشيرازي:

- على مكانته وقدره في الدعوة الفاطمية إلا أنه قام بالدور التنفيذي لمخططات الدعوة في المشرق بنفسه وتحمل مخاطر ومتاعب ومشاق مع أن دعوته قائمة على الضلال والبدع والخرافات، ومن باب أولى أن يقوم بمثل هذا الجلد والتفاني أصحاب الدعوة الإسلامية الصحيحة السائرة على هدي النبي ﷺ وخلفائه الراشدين.
- تعاون فرق الشيعة فيما بينهم ومساندتهم لبعضهم وإيجاد قواسم مشتركة فيما بينهم تخدم تطلعاتهم وأهدافهم.
- على أهل السنة أن يتعاونوا فيما بينهم من أجل نشر دعوة الله في المشرق والمغرب ويستعملوا على حفظ النفس والخلافات الجزئية التي تعرقل مسيرة النهوض.
- أهمية التهديد واستخدام لغة القوة في التضييق على هبة الله الشيرازي، ويظهر ذلك عندما هدد الخليفة العباسي الأمير كالجبار البويهى بالاستعانة بالسلاجقة إذا لم يقبض على هبة الله الشيرازي وإرساله مكبلاً إلى بغداد ووقف النشاط الفاطمي في بلاده.
- خطورة التهاون بالحرب الثقافية والفكرية والعقائدية التي يشنها الباطنيون ضد أهل السنة والجماعة فلا بد من المواجهة المدروسة للقضاء على مشروعهم الخبيث الذي يستهدف إضلال الناس وإخراجهم عن دين الله ومواجهة الفتنة في بدايتها أسهل بكثير من مواجهتها بعدما تتغلغل.

٣- فتنة البساسيري في العراق، ٤٥٠هـ: كان البساسيري من القواد المقربين من الخليفة العباسي إلا أن الدعوة الفاطمية تغلغلت بين الناس وأثرت في بعض الأعيان والقواد، ومن تأثر بهذه الدعوة قائد قواد الجند التركي أبو الحارث أرسلان البساسيري بدعوة هبة الله الشيرازي، وأصبح يقاتل الفاطميين ويعمل على قلب نظام الحكم في بغداد لصالح الدولة الفاطمية، وتدهورت العلاقات بين الخلافة والبساسيري حين علم البساسيري بالاتصالات السرية التي كانت تجري بين الخليفة القائم بأمر الله والسلاجقة وبخاصة مكاتبة الخليفة لهم بالمسير إلى العراق، فترك البساسيري بغداد وسار إلى واسط، فانتزع الوزير رئيس الرؤساء الفرصة وأخذ يوغر صدر الخليفة القائم بأمر الله على البساسيري وأخبره بأن البساسيري يقاتل أعداء الخلافة ويعمل على خلعهم من الخلافة. وفي الوقت نفسه حرص الأتراك والعامّة على الاعتداء على أملاك البساسيري في بغداد بعدما ظهرت ميوله الشيعية وظهرت نواياه السيئة للخلافة العباسية وأهل السنة فقاموا بنهب داره والاستيلاء على ممتلكاته سنة

٤٤٧هـ، وفضلاً عن ذلك، أخذ رئيس الرؤساء يؤلب الأتراك البغداديين على قائدهم البساسيري واتهامه بأنه المتسبب في نقص رواتبهم وسوء أحوالهم، فسار جماعة منهم إلى الخليفة القائم بأمر الله واستأذنوه في نهب دور البساسيري، فلما تأكد من صحة ما نسب إليه أذن لهم في ذلك^(١) خاصة بعد أن قدم إليه طائفة من الأتراك من أصحاب البساسيري بواسطة وأخبروه بما عزم من نهب دار الخلافة^(٢) والقبض على الخليفة. إن فتنة البساسيري تعطيناً درساً بليغاً في أهمية الاعتناء بالقادة العسكريين والوزراء السياسيين وأهل الفكر والرأي العام وتربيتهم على هدي القرآن الكريم وسيرة الرسول ﷺ وفقه الخلافة الراشدة حتى لا يقعوا ضحايا للدعوات المنحرفة والمناهج الضالة والعقائد الفاسدة.

أ- التواصل بين البساسيري والمؤيد هبة الله الشيرازي: اتخذ البساسيري من الرحبة مركزاً للاتصالات مع الفاطميين، ذلك أن المؤيد في الدين كان يتابع أحداث العراق، وبخاصة أنه وقف على المكاتبات التي تبودلت بين الخليفة القائم بأمر الله والسلطان السلجوقي وأدرك مدى خطورتها على الخلافة الفاطمية، فعول على الاستفادة من الموقف المتدهور بين الخلافة والبساسيري وأصحابه، فأنفذ إليهم كتباً تضمنت تأييد الخليفة الفاطمي وحكومته لهم واستعدادهم لمدهم بالسلاح والمال، فوصلت إليهم هذه الكتب قبيل رحيلهم إلى واسط، فزادت من ثقتهم بأنفسهم وقويت شوكتهم، ورد البساسيري على مكاتبات الفاطميين برسالة بعث بها إلى المؤيد في الدين شكره فيها على اهتمامه بحركتهم وتأييدهم له ولأتباعه والتمس منه الإمداد السريع بالمال والخيول والسلاح لإظهار الدعوة الفاطمية ببلاد العراق: فإن أخذتم بأيدينا، أخذنا لكم البلاد وإن قلدتمونا نجاد نصركم وإنجادكم فتحنا من جهتكم الأغوار والأنجاد^(٣). وأظهر الخليفة المستنصر بالله الفاطمي اهتماماً كبيراً برسالة البساسيري وعمل على تدبير الإمدادات اللازمة لإنجاح حركته على الرغم مما كانت تعانيه مصر من غلاء وأزمة اقتصادية^(٤)، فلما أتم إعداد الأموال والخلع والسلاح، عهد إلى المؤيد في الدين بحملها إلى البساسيري، فسار على رأس عدد من الرجال ومعهم خمسمائة ألف دينار ومن الثياب ما قيمته مثل ذلك وخمسمائة فرس وعشرة آلاف قوس ومن الرماح والنشاب شيء كبير^(٥).

(١) المختصر في أخبار البشر (٢/١٨٢).

(٢) الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق، ص ٦٩.

(٣) ديوان المؤيد في الدين، ص ٤١ = ٤٢.

(٤) الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق والمشرق، ص ٧٠.

(٥) النجوم الزاهرة (١٢/٥).

ب- الجهود التي بذلها المؤيد هبة الله الشيرازي لدعم فتنة البساسيري: لما وصل المؤيد في الدين إلى دمشق وهو في طريقه إلى الرحبة، رأى أن يستعين بشمال بن صالح ابن مرداس - صاحب حلب - لإمداده بالرجال ولتأمين وصول الإمدادات الفاطمية إلى البساسيري وأصحابه، فكتب إليه بالمهمة التي عهد إليه بها، ثم ما لبث أن التقى المؤيد بشمال ابن صالح في الروستان^(١)، فسلم المؤيد في الدين الأحمال إلى الأمير ثمال ليكون في حمايته^(٢)، ثم سار إلى معرة النعمان حيث وفد إليهما فريق من أصحاب البساسيري لاصطحابهم إلى الرحبة، وخلال ذلك تلقى المؤيد في الدين خطاباً من نصر الدولة بن مروان - صاحب ديار بكر وميافارقين - يعلن فيه خلع طاعة السلاجقة والدخول في طاعة الفاطميين معتذراً عن عدم إقامة الخطبة للسلاجقة على منابر بلاده خوفاً من بطشهم^(٣) وسار المؤيد هبة الله الشيرازي بصحبته الأمير ثمال بن مرداس على رأس جنده قاصداً الرحبة، فلما اقترب منها خرج لاستقباله البساسيري على رأس جيشه فالتقى بهم على بعد مرحلتين من المدينة وأظهر أسمى آيات الشكر والترحيب بمبعوث الخليفة الفاطمي، وقام المؤيد من جانبه بتوزيع الخلع الفاطمية على البساسيري وأصحابه ومنحهم الأموال وأخذ البيعة منهم بالطاعة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي^(٤) ثم قام المؤيد وتقدم إلى أبي الحارث البساسيري وخلع عليه الخلعة الخاصة التي أرسلها الخليفة الفاطمي إليه وقرأ عهده^(٥)، ولم يكتف المؤيد هبة الله الشيرازي بما حققته الدعوة الفاطمية من انتصارات كبيرة في بلاد العراق تجلت في انضمام كل من البساسيري ونصر الدولة بن مروان، وعدد كبير من القادة والجنود والديلم والأتراك، بل أخذ في العمل على جذب أمراء العراق إلى دعوته، فكتب إلى ديبس بن مزيد - أمير الحلة - يطلب منه اللقاء في الرحبة، فلما التقى به هناك، استطاع أن يستميله للدعوة الفاطمية، وطلب منه الانضمام إلى البساسيري في مسيره إلى العراق، وذلك بعد أن قلده رئاسة غرب العراق وجعل له حكم ما يفتح من البلاد بعهد من الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ولقبه «الأمير سلطان ملوك العرب، سيف الخلافة، صفى أمير المؤمنين»^(٦). كان لنجاح المؤيد في الدين في ضم أمراء الأطراف إلى جانب القائد التركي أبي الحارث البساسيري أثر كبير في انتصاره على قوات السلاجقة ومن انضم إليهم من أصحاب قریش بن بدران - صاحب الموصل - في موقعه سنجار سنة ٤٤٨ هـ^(٧)، والتي كان من

(١) الروستان: موضع يلي حمص على جسر نهر العاصي. (٢) سيرة المؤيد في الدين، ص ١٠٧، ١٠٨.

(٣) الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق، ص ٧٠. (٤) ديوان المؤيد في الدين، ص ٤٢، ٤٣.

(٥) سيرة المؤيد في الدين، ص ١٢١ - ١٢٤. (٦) الإشارة إلى من نال الوزارة، ص ٤٤.

(٧) الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق والمشرق، ص ٧٢.

نتائجها انحياز قريش بن بدران إلى جانب البساسيري وإقامة الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي على منابر الموصل، كما انضم محمود بن الأخرم - أمير خفاجة - إلى الدعوة الفاطمية وأقام الخطبة على منابر الكوفة للخليفة الفاطمي^(١)، أما أمير واسط علاء الدين أبو الغنائم بن المحلبان فقد خلع طاعة الخليفة القائم بأمر الله وخطب للمستنصر بالله الفاطمي، وأمر أن تصبغ مساجد واسط باللون الأبيض - شعار الفاطميين -^(٢)، فضلاً عن ذلك ضرب النقود باسم الخليفة الفاطمي في واسط، مما ترتب عليه إصدار الخليفة القائم بأمر الله محضراً آخراً بالطعن في نسب الفاطميين سنة ٤٤٨ هـ^(٣)، محاولاً بذلك التصدي للدعوة الفاطمية. وعلى الرغم من الانتصارات التي حققتها الدعوة الفاطمية في مدن العراق فإن جهود عميد الملك الكندري - وزير السلاجقة - في العمل على تفريق شمل أمراء العرب، أدت إلى اختلاف كلمة هؤلاء الأمراء وعدولهم عن معاونة البساسيري، بل واضطر البساسيري وأتباعه إلى العودة إلى الرحبة، ثم ما لبث أن سار نحو حلب حيث التقى بالمؤيد في بالس - على مقربة من حلب -^(٤)، وعهد المؤيد هبة الله الشيرازي إلى البساسيري وقريش بن بدران بمواصلة نشر النفوذ الفاطمي في بلاد العراق، فطلب إليهما العودة إلى الرحبة على أن يتجه قريش إلى الموصل لاستعادتها بعد أن علم بخروج إبراهيم ينال عنها، ثم سار إلى مصر حتى يتسنى له إرسال الإمدادات إليهما^(٥)، فقام البساسيري وقريش بن بدران بالمسير إلى الموصل، وتمكنا من دخولها والاستيلاء عليها سنة ٤٥٠ هـ^(٦)، ولما علم السلطان طغرل بك بانتزاع الموصل منه سار إليها بصحبة أخيه إبراهيم ينال، فلما اقتربا منها فارقها كل من البساسيري وقريش بن بدران، غير أنه سار في أثرهما فاتجه إلى نصيبين ليتبع آثارهم ويخرجهم من البلاد التي يستولون عليها، وبينما هو في طريقه انصرف عنه أخوه ينال وسار إلى همدان بعد أن استولى على أموال أخيه فوصلها في أواخر رمضان سنة ٤٥٠ هـ مما اضطر طغرل بك إلى تتبع أثره للقضاء على فتنته فتم له ذلك في جمادى الآخرة من العام نفسه^(٧). ومن الدروس في هذا المجال أن من يخون ثم يعفى عنه علينا أن نجرده من مصادر القوة ومراكز القيادة لإمكانية الغدر من جديد، وهذا ما فعله إبراهيم ينال حيث خرج مرة ثانية وشغل طغرل بك واستفاد من هذا الخروج الشيعة الفاطميون العبيديون.

ج- استيلاء البساسيري على بغداد وإقامة الخطبة فيها للفاطميين: أدى خروج

(١، ٢، ٣، ٤) الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق والمشرق، ص ٧٢.

(٥) سيرة المؤيد في الدين، ص ١٧٦.

(٦) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الأحوال السياسية والدينية، ص ٧٣.

(٧) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٢٠٢/٨).

إبراهيم ينال على طاعة أخيه ومسير طغول بك في أثره لمحاربته إلى خلو بغداد من الحامية السلجوقية مما أتاح للبساسيري الفرصة للاستيلاء على حاضرة الخلافة العباسية وإقامة الخطبة فيها للفاطميين فزحف إليها على رأس أربعمائة فارس، حاملاً الرايات الفاطمية التي طرزت باسم «الإمام المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين»^(١)، وتبعه حليفه قريش بن بدران على رأس مائتي فارس من بني عقيل، وأقيمت الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي بجامع المنصور في يوم الجمعة الثالث عشر من ذي القعدة سنة ٤٥٠ هـ^(٢) وزيد في الأذان: حي على خير العمل^(٣)، وانقطعت دولة بني العباس من بغداد وأخرج الخليفة وحُمل إلى الأنبار وحبس بالحديثة^(٤)، عند صاحبها مهارش بن مجلي العقيلي، فتولى خدمة الخليفة بنفسه وكان أحد وجوه بني عقيل، وخطب لبني عبيد - الفاطميين -، في بغداد أربعين جمعة في ولاية المستنصر^(٥). وحاول البساسيري نقض الاتفاق الذي عقده مع قريش بن بدران وعزم على أخذ الخليفة العباسي وترحيله إلى مصر، إلا أن قريشاً تصدى لهذه المحاولة وعهد إلى ابن عمه الأمير محيي الدين بن مهارش العقيلي - صاحب حديثة عانة - بالحفظ على الخليفة وتأمين حياته، بعد أن استنجد به الخليفة قائلاً: عرفت ما استقر العزم عليه من إبعادك عنك وإخراجي من يدك، وما سلمت نفسي إليك إلا لما أعطيتي الذمام الذي يلزمك الوفاء به، وقد دخلت إليك ووجب لي ذمام عليك، فאלله الله في نفسي، فمتى سلمتني أهلكتني وضيعتني، وما ذلك معروف في العرب^(٦). وعلى الرغم من ذلك فلم يسمح البساسيري للخليفة القائم بأمر الله بالرحيل إلى الحديثة إلا بعد أن أرغمه على كتابة اعتراف بعدم أحقية بني العباس في الخلافة الإسلامية مع وجود بني فاطمة الزهراء عليها السلام^(٧)، ولم يكتف البساسيري بذلك بل استولى على ثوب الخليفة وعمامته وشباكه^(٨)، وأنفذها إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمي. أما عن أقارب الخليفة، فقد أذكى البساسيري عليهم العيون وشدد في البحث عنهم، إلا أنهم صاروا يتنقلون من مسجد إلى آخر هرباً منه ثم لجأوا إلى أبي الغنائم بن الحلبان^(٩).

د- مقتل رئيس الرؤساء، أبي القاسم بن المسلمة والانتقام من أهالي بغداد: كان

(١) الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق، ص ٧٣. (٢) تاريخ بغداد (٩/ ٤٠٠، ٤٠١).

(٣) أخبار الدول المنقطعة للأزدي (٢/ ٤٢٧). (٤) البداية والنهاية (١٥/ ٧٥٧).

(٥) أخبار الدول المنقطعة للأزدي (٣/ ٤٣٠). (٦) المختصر في أخبار البشر (٢/ ١٧٧، ١٧٨).

(٧) الخطط للمقريزي (١/ ٤٣٩).

(٨) الشباك: هو الشرفة التي يجلس فيها الخليفة ويتوكأ بيديه على حافتها.

(٩) الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق، ص ٧٥.

البساسيري قد شرع في استخدام طائفة من العوام ودفع إليهم السلاح من دار المملكة، وكان قد جمع العيارين وأطعمهم في نهب دار الخلافة ونهب أهل الكرخ - الشيعة - ودور أهل السنة بباب البصرة، ونهبت دار قاضي القضاة الدمغاني، وهلك أكثر السجلات والكتب الحكيمة، وبيعت للعطارين، ونهبت دور المتعلقين بالخليفة، وأعادت الرؤافض الأذان بحجى على خير العمل، وأذن به في سائر جوامع بغداد في الجمعات والجماعات، وخطب ببغداد وضربت له السكة على الذهب والفضة وحُوصرت دار الخلافة فدافع الوزير أبو القاسم بن المسلمة الملقب برئيس الرؤساء بمن معه من المستخدمين دونها، فلم يُقد ذلك، فركب الخليفة بالسواد والبردة على كتفيه، وعلى رأسه اللواء وبيده سيف مُصلت، وحوله زمرة من الهاشميين والجواري حاسرات عن وجوههن، ناشرات شعورهن، معهن المصاحف على رؤوس الرماح وبين يديه الخدم بالسيوف المُسللة، ثم إن الخليفة أخذ ذمماً من أمير العرب قريش بن بدران لنفسه وأهله ووزيره ابن المسلمة فأمنه على ذلك كله، وأنزله في خيمة، فلامه البساسيري على ذلك، وقال: قد علمت ما كان وقع الاتفاق بيني وبينك من أنك لا تستبد برأى دوني، ولا أنا دونك، ومهما ملكنا فبيني وبينك، واستحضر البساسيري أبا القاسم بن مسلمة فوثّخه ولامه لوماً شديداً، ثم ضربه ضرباً مبرحاً، واعتقله مهاناً عنده، ونهبت العامة دار الخلافة، فلا يُحصى ما أخذوا منها من الجواهر والتفائس والذّباب والأثاث والثياب، وغير ذلك مما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ^(١) وفي يوم عيد الأضحى من سنة ٤٥٠ هـ ألبس البساسيري الخطباء والمؤذنين البياض، وعليه هو وأصحابه كذلك، وعلى رأسه الألوية المستنصرية والمطاردة المصرية، وخطب للمستنصر الفاطمي صاحب مصر، والرؤافض في غاية السرور والأذان في سائر بلاد العراق بحجى على خير العمل، وانتقم البساسيري من أعيان أهل بغداد انتقاماً عظيماً، وغرق خلقاً ممن كان يعاديه، وبسط على آخرين الأرزاق والعطايا. ولما كان يوم الإثنين لليلتين بقيتا من ذي الحجة أحضر بين يديه الوزير أبو القاسم بن المسلمة الملقب برئيس الرؤساء وعليه جبة صوف، وطرطور من لبد أحمر وفي رقبته مخنقة من جلود كالتعاويد، فأركب جلاً^(٢)، وطيف به في البلد وخلفه من يصفعه بقطعة من جلد، وحين اجتاز بالكرخ نثروا عليه خُلُقان المداسات، وبصقوا في وجهه ولعنوه وسبّوه، وهذه هي عادتهم عندما يتمكنون من مخالفيهم في كل زمان ومكان، وأوقف بإزاء دار الخلافة، وهو في ذلك يتلو قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدُكَ

(١) البداية والنهاية (١٥/٧٥٦، ٧٥٧).

(٢) المصدر نفسه (١٥/٧٥٩).

الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦﴾ [آل عمران: ١٦].

فألبس جلد ثور بقرنيه وعلّق بكُلُوب في شِدْقِيهِ، ورفع إلى الخشبة حيّاً، فجعل يضطرب إلى آخر النهار، فمات رحمه الله، وكان آخر كلامه أن قال: الحمد لله الذي أحياني سعيداً وأماتني شهيداً^(١). وكان هذا الوزير قد سمع الحديث من أبي أحمد الفَرَضِيّ وغيره، ثم كان أحد المعدّلين، ثم استكتبه الخليفة القائم بأمر الله واستوزره ولقّبهُ رئيس الرؤساء، شرف الوزراء، جمال الورى، وكان متضلّعاً بعلوم كثيرة مع سداد رأي ووفور عقل، وقد مكث في الوزارة ثنتي عشرة سنة وشهراً، ولما قتل كان له من العمر ثنتان وخمسون سنة وخمسة أشهر^(٢).

٤- القائم بأمر الله وعبادته ودعاؤه الذي علق على الكعبة: سار الخليفة القائم بأمر الله إلى محل اعتقاله إلى حديقة عانة فكان عند مهارش أميرها حولاً كاملاً وليس معه أحد من أهله، فحكى عن الخليفة القائم بأمر الله أنه قال: لما كنت بمدينة عانة قمت ليلة إلى الصلاة، فوجدت في قلبي حلاوة المناجاة، ثم دعوت الله بما سئلت، ثم قلت: اللهم أعِزَّنِي على وطني، واجمع بيني وبين أهلي وولدي ويسر اجتماعنا، وأعد روض الأنس زاهراً، وربع القرب عامراً، فقد قلّ العزاء وبرح الخفاء، قال: فسمعت قائلاً على شاطئ الفرات يقول: نعم نعم، فقلت: هذا رجل يخاطب آخر، ثم أخذت في السؤال والابتهاال فسمعت ذلك الصائح يقول: إلى الحول إلى الحول، فعلمت أنه هاتف أنطقه الله بما جرى الأمر عليه. وكان كذلك، خرج من داره من ذي القعدة من هذه السنة، ورجع إليها في ذي القعدة من السنة المقبلة، وقد قال الخليفة القائم في مقامه بالحديث شعراً يذكر فيه حاله، فمنه قوله:

خابت طنوني فيمن كنت أمله
تعلّموا من صروف الدهر كلهم
ومن ذلك أيضاً قوله:

مالي من الأيام إلا موعِدٌ
يومي يُمِرُّ وكلمما قضَيْتُهُ
أحيا بنفسي تستريح إلى المُنَى
وعلی مطامعها تروح وتفتدي^(٤)

(٢) المصدر نفسه (١٥/٧٦٣).

(٤) البداية والنهاية (١٥/٧٥٨).

(١) البداية والنهاية (١٥/٧٥٩).

(٣) المصدر نفسه (١٥/٧٥٨).

أ- دعاء القائم بأمر الله الذي علق على الكعبة المشرفة: أرسل الخليفة القائم بأمر الله هذا الدعاء مع بدوي وأمره أن يعلقه على الكعبة وهو في أسره، وإليك نص الدعاء: «إلى الله العظيم من عبدك المسكين، اللهم إنك العالم بالسرائر المحيطة بمكنونات الضمائر، اللهم إنك غني بعلمك وإطلاعك على أمور خلقك عن إعلامي، بما فيه عبد من عبيدك قد كفر بنعمتك، وما شكرها، وألقى العواقب وما ذكرها، أطغاه حلمك، وتجبر بأناتك حتى تعدى علينا بغياً، وأساء إلينا عتواً وعدواناً. اللهم قلّ الناصرون لنا، واغتر الظالم، وأنت المطلع العالم، والمنصف الحاكم، بك نعتر عليه، وإليك نهرب من يديه، فقد تعزز علينا بالمخلوقين، ونحن نعتر بك يا رب العالمين. اللهم إنا حاكمناه إليك، وتوكلنا في إنصافنا منه عليك، وقد رفعت ظلامي إلى حرمك ووثقت في كشفها بكرمك، فاحكم بيني وبينه وأنت خير الحاكمين، وأرنا منه ما نرتجيه فقد أخذته العزة بالإثم، اللهم فاسلبه عزه، ومكنا بقدرتك من ناصيته يا أرحم الراحمين». فحملها البدوي وعلقت على باب الكعبة. فحُسب ذلك اليوم فوجد أن البساسيري قتل وجيء برأسه إلى بغداد بعد سبعة أيام من التاريخ^(١). فقد نفع الله القائم بأمر الله بهذا الدعاء فكذاك ينبغي لكل من قهر وبُغي عليه أن يستغيث بالله تعالى، وإن صبر وغفر فإن في الله كفاية ووقاية^(٢).

ب- رسالة الخليفة القائم بأمر الله من أسره إلى طغرل بك: أرسل الخليفة من أسره رسالة إلى السلطان طغرل بك جاء فيها: بحق الله أدرك الإسلام فقد ساد العدو اللعين وأخذ ينشر مذهب القرامطة^(٣). فلما فرغ السلطان طغرل بك من تمرد أخيه إبراهيم يتال وأسره وقتله، وتمكن من أمره وطابت نفسه واستقر حاله، ولم يبق له في تلك البلاد منازع كتب إلى قريش بن بدران، من الأعراب، يأمره بأن يعاد الخليفة إلى داره، على ما كان عليه، وتوعده على ترك ذلك بأساً شديداً، فكتب إليه قريش يتلطف به ويسأله، ويقول: أنا معك على البساسيري بكل ما أقدر عليه، حتى يمكن الله منه، ولكن أخشى أن أتسرع في أمر يكون فيه على الخليفة مفسدة، أو ييدر إليه أحد بأذية، ولكنني سأعمل لما أمرتني بكل ما يمكنني. وأمر برد امرأة الخليفة الخاتون المعظمة أرسلان خاتون إلى دارها وقرارها، ثم راسل البساسيري وأشار إليه بعودة الخليفة إلى داره، وخوفه من جهة الملك طغرل بك وقال له فيما قال: إنك دعوتنا إلى طاعة المستنصر صاحب مصر وبيننا وبينه ستمائة فرسخ، ولم يأتنا من جهته رسول ولا أحد، ولم يفكر في شيء مما أرسلنا إليه، وهذا الملك من ورائنا بالمرصاد^(٤)، ومما جاء في

(١) أخبار الدول المقطعة (٢/٤٣١، ٤٣٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٨/٣٠٧).

(٣) تطورات الأحداث السياسية بين العباسيين والفاطميين، ص ١٧٧.

(٤) البداية والنهاية (١٥/٧٦٦).

رسالة طغرل بك إلى الأمير علم الدين أبي المعالي قريش بن بدران: ... ولكل مُجْتَرَم في العراق عفونا وأمننا مما بدر منه إلا البساسيري فإنه لا عهد له ولا أمان متاً، وهو موكول على الشيطان وتساويله فقد أرتكب في دين الله عظيماً، وهو -إن شاء الله- مأخوذ حيث وجد ومُعَذَّب على ما عمل، فقد سعى في دماء خلق كثير بسوء دخيلته، ودلت أفعاله على سوء عقيدته. وكتب في رمضان سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، وبعث بهذا الكتاب مع رسولين من أهل العمل وبعث معهما بتحف عظيمة للخليفة وأمرهما أن يخدما الخليفة نيابة عنه، جزاه الله عن الإسلام خيراً، ولما وصل الكتاب إلى قريش بن بدران، استعلم أخبار الملك طغرل بك من الرسل وغيرهم، فإذا معه جنود عظيمة، فخاف من ذلك خوفاً شديداً، وبعث إلى البرية فأمر بحفر أماكن للماء وتجهيز علوفات كثيرة إلى هناك ونفذ الكتاب والأخبار إلى البساسيري، فانزعج لذلك البساسيري، وخارت قوته وضعف أمره، وبعث إلى أهله فنقلهم عن بغداد وأرصد له إقامات عظيمة بواسطة وجعلها دار مقرته، ووافق على عودة الخليفة إلى بغداد، ولكنه اشترط شروطاً كثيرة لتذهب خجله. ولما انتقل أهل البساسيري من بغداد وصحبهم أهل الكرخ والروافض، وانحدروا في دجلة إلى واسط كان خروجهم عن بغداد في سادس ذي القعدة من هذه السنة وفي مثله من العام الماضي دخلوا بغداد، وعند ذلك ثار الهاشميون وأهل السنة من باب البصرة إلى الكرخ، فنهبوه وأحرقوا منه محال كثيرة جداً انتقاماً لما فعل الروافض فيهم، واحترق من جملة ذلك دار العلم التي وقفها الوزير أردشير من مدة سبعين سنة وفيها من الكتب شيء كثير، وكان من جملة ما احترق درب الزعفران، وفيه ألف ومائتا دار لكل دار منها قيمة جليظة عظيمة، وترحل قريش بن بدران إلى أرض الموصل وبعث إلى حديثه عانة يقول لأمرها مُهَارِش بن مُجَلِّي الذي سلم إليه الخليفة: المصلحة تقتضي أن الخليفة يُحوّله إلى حتى نستأمن لأنفسنا بسببه، ولا نُسلمه حتى تستأمن لنا وتأخذ أماناً في يدك دون يدي. فامتنع عليه مُهَارِش وقال: قد غرّني البساسيري، ووعدني بأشياء فلم أرها، ولست بمرسلة إليك أبداً، وله في عنقي إيمان كثيرة لا أعذرهما. وكان مُهَارِش رجلاً صالحاً ثقة أميناً رحمه الله، فقال للخليفة: من المصلحة أن نسير إلى بلد بدر بن مهلهل ونظرنا لأنفسنا، فإننا نخشى من البساسيري أن يأتينا فيحضرنا. فقال له الخليفة: افعل ما فيه المصلحة. فسار في الحادي عشر من ذي القعدة إلى أن حلا بقلعة تَلَّ عُكْبَرَا فلقيته رسل السلطان طغرل بك بالهدايا والتحف التي كان أنفذها إليه وهو متشوق إليه كثيراً^(١) وجاء في رواية: أن الإمام القائم رأى - في الليلة التي أطلق في

غدها - رسول الله ﷺ وهو يقول له: لا تأكل الطعام الذي يقرب إليك في غد فإنه مسموم، وقد قرب خلاصك. قال: فأصبح، وقُدِّم إليه دجاج مسموم، فامتنع من الأكل، وأطلق في عصر ذلك اليوم، ورُدَّ إلى بغداد^(١).

ج- دخول طغرل بك بغداد ولقاؤه بالخليفة القائم بأمر الله: جاءت الأخبار بأن السلطان طغرل بك قد دخل بغداد وكان يوماً مشهوداً، غير أن الجيش نهب البلد سوى دار الخلافة وصُودِر خلق كثير من التجار، وأخذت منهم أموال كثيرة، وشرعوا في عمارة دار الملك وأرسل السلطان إلى الخليفة مراكب كثيرة من أنواع الخيول وغيرها وسُرادق عظيمة وملابس سنية، وما يليق بالخليفة في السفر، أرسل ذلك مع الوزير عميد الملك الكندري وما انتهوا إليه أرسلوا بتلك الآلات قبل أن يصلوا إليه، وقال لمن حوله: اضربوا السرايق وليلبس الخليفة ما يليق به، ثم نجيء نحن فنستأذن عليه فلا يأذن لنا إلا بعد ساعة طويلة فلما دخل الوزير ومن معه قَبَلوا الأرض وأخبروه سرور السلطان بما حصل من العودة إلى بغداد واشتياقه إليه جداً وأخبروا مُهَارِشاً بشكر السلطان له ونيتة له بما ينبغي لثله من الإكرام، وكتب عميد الملك كتاباً إلى السلطان يعلمه بصفة ما جرى الأمر عليه، وأحب أن يأخذ خطأ الخليفة في أعلى الكتاب ليكون أقر لعين السلطان فلم يكن عند الخليفة دواة وأحضر الوزير دواته، ومعها سيف، وقال: هذه خدمة السيف والقلم، فأعجب الخليفة ذلك، وترحلوا من منزلهم ذلك بعد يومين، فلما وصلوا إلى النهروان خرج السلطان طغرل بك من بغداد لتلقيه، فلما انتهى إلى السُرادق قَبَل الأرض بين يديه فأخذها الملك فقبلها، ثم جلس عليها كما أشار أمير المؤمنين، وقدم إلى الخليفة الحبل الياقوت الأحمر الذي كان لبني بُويه فوضعه بين يدي الخليفة، وأخرج اثنتي عشرة حبة من لؤلؤ كبار، وقال: أرسلان خاتون - يعنى زوجة الخليفة - تخدم وتسال أن تُسَبَّح بهذه السبحة وجعل يعتذر عن تأخره عن الحضرة بسبب عصيان أخيه إبراهيم: فقتلته وأتفق موت أخي الأكبر داود فاشتغلت بترتيب أولاده من بعده، وكنت عزمت على أن أصمّد إلى الحديث، لأصون المهجة الشريفة، ولكن لما بلغني، بحمد الله، أمر مولاي أمير المؤمنين الخليفة فرحت بذلك، وأنا شاكر لمهارش بما كان منه من خدمة أمير المؤمنين، وأنا إن شاء الله تعالى أمضي وراء هذا الكلب - البساسيري - وأقتنصه، وأعود إلى الشام، وأفعل بصاحب مصر ما ينبغي أن يجازى به من سوء المقابلة بما كان من فعل البساسيري هاهنا، فدعا له الخليفة وشكره على ذلك، كل ذلك يترجمه عميد الملك بين الخليفة والملك طغرل بك، وأعطى الخليفة للملك سيفاً كان معه، لم يبق معه من

(١) أخبار الدول المنقطعة (٢/ ٤٣١).

أمور الخلافة سواه، واستأذن الملك لبقية الأتراك أن يخدموا الخليفة، فرفعت الأستار من جوانب الخركاه، فلما شاهد الأتراك الخليفة قَبَلُوا الأرض ثم دخل بغداد يوم الإثنين لخمس بقين من ذي القعدة وكان ذلك يوماً مشهوداً، الجيش كله معه والقضاة، والأعيان بين يديه، والملك طغرل بك أخذ بلجام بغلته، حتى وصل إلى باب الحجرة، ولما وصل الخليفة إلى دار مملكته، ومقرّ خلافته استأذنه السلطان طغرل بك في الخروج وراء البساسيري، فأذن له وكان قد عزم أن يمضي معه فقال: يا أمير المؤمنين، أنا أكفيك ذلك إن شاء الله. وأطلق الملك لمهارش عشرة آلاف دينار فلم يرض^(١).

د- مقتل البساسيري: شرع السلطان طغرل بك في ترتيب الجيوش للمسير وراء البساسيري، فأرسل جيشاً من ناحية الكوفة ليمنعوه من الدخول إلى الشام، وخرج هو في التاسع والعشرين من الشهر في بقية الجيش، وأما البساسيري فإنه مقيم بواسط في جمع غلات وتمور يهيئها لقتال أهل بغداد ومن فيها من العزّ، وعنده أن الملك طغرل بك ومن معه ليسوا بشيء يخاف منه، وذلك لما يُريده الله تعالى من إهلاكه على يدي الملك طغرل بك، جزاه الله عن الإسلام خيراً^(٢) ولما سار السلطان نحوه وصلت إليه السرية الأولى فلقوه بأرض واسط، ومعه ابن مزيد، فاقتتلوا هنالك، وانهزم أصحابه، ونجا البساسيري بنفسه على فرس فتبعه بعض الغلمان، فرمى فرسه بنشابة فألقته إلى الأرض، فجاء الغلام، فضربه على وجهه، ولم يعرفه، وأسره واحد منهم يقال له كُمشتكتين، وحزّ رأسه وحمله إلى السلطان، وأخذت الأتراك من جيش البساسيري من الأموال ما عجزوا عن حمله، ولما وصل الرأس إلى السلطان أمر أن يذهب به إلى بغداد، وأن يرفع على قنّاة، وأن يطاف به في الحال بالدُّباب والبوقات والنفاطون معه، وأن يخرج الناس والنساء للفرجة عليه ففعل ذلك^(٣)، كان البساسيري مقدماً عند الخليفة القائم بأمر الله، لا يقطع أمراً دونه وخطب له على منابر العراق كلها، ثم طغى وبغى وتمرد وعتا وخرج على الخليفة، بل وعلى المسلمين، ودعا إلى خلافة الفاطميين، فتم له ما رامه من الأمل الفاسد واستدرج، ثم كان أخذه في هذه السنة^(٤)، ٤٥١ هـ، وقد كان مع البساسيري خلق من أهل بغداد خرجوا معه، ظانين أنه سيعود إليها، محبة فيه، فهلكوا ونهبت أموالهم كلها، ولم ينج من أصحابه إلا القليل^(٥).

هـ - محاربة السلاجقة للدعوة الفاطمية العبيدية: أدرك السلاجقة الخطر الذي

(١)، (٢) البداية والنهاية (١٥/٧٧١).

(٤) المصدر نفسه (١٥/٧٧٤).

(٣) المصدر نفسه (١٥/٧٧٢).

(٥) المصدر نفسه (١٥/٧٧٢).

يتهددهم من وراء انتشار الدعوة الفاطمية في بلدان الخلافة العباسية، لذلك اتبعوا سياسة حكيمة بعد أن قبضوا على زمام الأمور في بغداد تتمثل في مناهضة الدعوة الفاطمية^(١) ودعاتها بالحزم والشدة، فتعقبوا دعاة الإسماعيلية الذين قاموا بنشر الدعوة الفاطمية في بلاد فارس، كما قاموا بإقصاء الموظفين المتشيعين للمذهب الإسماعيلي عن دواوين الحكومة والوظائف الدينية وعينوا من أهل السنة بدلاً منهم، فقد تم عزل أبي الحسين بن المهدي من الخطابة بجامع المنصور لأنه كان قد أقام الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي ببغداد خلال فتنة البساسيري وعين أبا علي الحسن بن عبد الودود بن المهدي بالله خطيباً في مكانه سنة ٤٥١ هـ^(٢)، ومن العوامل التي ساعدت على ضعف شأن الدعوة الفاطمية في أواخر عهد الخليفة القائم بأمر الله إلى جانب مناهضة السلاجقة لهذه الدعوة، انصراف الخلافة الفاطمية في مصر عن مواصلة جهودها لنشر دعوتها في بلاد العراق كما كانت الحال عند قيام البساسيري بحركته، وذلك بسبب انشغالها بالقضاء على الفتن والاضطرابات الداخلية، فقد ظهر التنافس بين العناصر الأجنبية وبخاصة السودان والأتراك، كما خرج ناصر الدولة الحسين بن حمدان التغلبي قائد الأتراك على طاعة الخليفة المستنصر بالله الفاطمي وأنفذ رسالة إلى ألب أرسلان سلطان السلاجقة سنة ٤٦٢ هـ سألته أن يمدّه بالنجدة ليقم الدعوة العباسية على أن تؤول إليه السيادة على مصر، فلما علم الخليفة الفاطمي بمراسلة ناصر الدولة، السلطان ألب أرسلان جهز جيشاً لمحاربه غير أن ناصر الدولة أوقع به الهزيمة وأقام الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسي على منابر الإسكندرية ودمياط وجميع أنحاء الوجه البحري^(٣)، ولم يكتف ناصر الدولة بن حمدان بحذف اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة بالوجه البحري بل أنفذ كتاباً إلى الخليفة القائم بأمر الله يلتمس منه الإمدادات والخلع حتى يظهر الدعوة العباسية بالديار المصرية، ولم ينتظر رد الخلافة العباسية بل سار إلى الفسطاط على رأس قواته واستولى عليها، وتولى الحكم فيها، وأنفذ إلى الخليفة المستنصر وأظهر ميله إلى المذهب السني، غير أن ناصر الدولة لم تستقر له الأمور بالقاهرة طويلاً، فقد ثار به الأتراك ونجحوا في القضاء عليه^(٤)، وكان للشدة العظمى التي تعرضت لها مصر مدة سبع سنوات ووصفها صاحب النجوم الزاهرة فقال:.. هذا والغلاء بمصر يتزايد، حتى إنه جلا من مصر خلق كثير لما حصل بها من الغلاء الزائد عن الحد، والجوع الذي لم يعهد مثله في الدنيا، فإنه

(١) سياسة الفاطميين الخارجية، جمال سرور، ص ٢٠٨.

(٢) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الأحوال السياسية والدينية، ص ٧٨.

(٣) تاريخ مصر، ابن ميسر، ص ١٩، ٢٠.

(٤) الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق، ص ٧٩.

مات أكثر أهل مصر، وأكل بعضهم بعضاً، وظهروا على بعض الطبّاحين أنه ذبح عدة من الصّبيان والنساء وأكل لحومهم وباعها بعد أن طبخها وأكلت الدواب بأسرها^(١) - كان لهذه الشدة أثر بالغ في شغل الخلافة الفاطمية عن مواصلة إرسال الدعاة وإمدادهم بالأموال فاقصر اهتمامها على الاحتفاظ بما تبقى لها من نفوذ في الجزيرة العربية، وتأييد دعاة الإسماعيلية في بلاد فارس واليمن^(٢).

٥- دخلت الدولة السلجوقية في صراع مع الروم واستطاع إبراهيم ينال أن يأسر ملكاً كبيراً للروم، فبذل في نفسه أموالاً عظيمة فأبى عليه، فبعث نصر الدولة صاحب الجزيرة وميافارقين يشفع في فكاكه فبعثه طغرل بك إلى نصر الدولة بلا فداء فتأثر ملك الروم، وأهدى إلى طغرل بك مائتي ألف دينار، وخمسمائة أسير، وألفاً وخمسمائة ثوب، ومائة لبنة فضة، وألف عنز أبيض، وثلاثمائة برذون شهري^(٣) وبعث إلى نصر الدولة تحفاً ومسكاً كثيراً^(٤). وقد قام طغرل بك بإرسال رسوله ناصر بن إسماعيل العلوي إلى ملكة النصارى، فاستأذنها ناصر في الصلاة بجامع قسطنطينية جماعة يوم جمعة، فأذنت له فخطب للخليفة القائم، وكان هناك رسول خليفة مصر. بعث ملك الروم إلى طغرل بك هدايا وتحفاً، والتمس الهدنة، فأجابه، وعُمر مسجد القسطنطينية، وأقام فيها الخطبة لطغرل بك، وتمكن ملكه^(٥).

٦- خطبة طغرل بك بابنة الخليفة وزواجه منها ووفاته: في سنة ٥٤٣ هـ خطب الملك طغرل بك ابنة الخليفة فانزعج الخليفة من ذلك، وقال: هذا شيء لم تجر العادة بمثله، ثم طلب أشياء كثيرة كهيئة المبعد له، من ذلك ما كان لزوجته التي توفيت من الإقطاعات بأرض واسط وصادق ثلاثمائة ألف دينار، وأن يقيم الملك ببغداد لا يترحل منها ولا يحيد عنها يوماً أبداً، فوقع الاتفاق على بعض ذلك، وأرسل إليها مائة ألف دينار مع ابنة أخيه داود زوجة الخليفة أرسلان خاتون، وأشياء كثيرة من آلات الذهب والفضة والنّشار والجواري والكراغ، ومن الجواهر ألفين ومائتي قطعة، من ذلك سبعمائة وعشرون قطعة جوهر وزن كل واحدة ما بين الثلاثة مثاقيل إلى المثقال، وأشياء كثيرة. فتمنع الخليفة لفوات بعض الشروط، فغضب عميد الملك الكندري الوزير لمخدومه السلطان، وجرت شُرور طويلة اقتضت أن أرسل السلطان كتاباً يأمر فيه بانتزاع ابنة أخيه السيدة أرسلان خاتون،

(١) النجوم الزاهرة (٥/١٥، ١٦).

(٢) الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق ص ٧٩. (٣) البرذون الشهري: بين الرّمكة والفرس العتيق.

(٤) سير أعلام النبلاء (١٨/١١١).

(٥) سير أعلام النبلاء (١٨/١١٠).

ونقلها من دار الخلافة إلى دار الملك حتى تنفصل هذه القضية، وعزم الملك على الثقله من بغداد، فانزعج الناس لذلك، وجاء كتاب السلطان إلى شحنة - رئيس - بغداد برشق يأمره بعدم المراقبة وكثرة العسف في مقابلة رد أصحابنا بالحرمان، وبعزم على نقله الخاتون إلى دار المملكة ويرسل من يحملها إلى البلدة التي هو فيها، وكل ذلك غضب على الخليفة، فإننا لله وإنا إليه راجعون^(١) وفي عام ٤٥٤ هـ وردت الكتب الكثيرة من الملك طغرل بك يشكو قلة إنصاف الخليفة، وعدم موافاته له بما أسداه إليه من الخدم والنعم إلى ملوك الأطراف، وقاضي القضاة الدامغاني، فلما رأى الخليفة ذلك، وأن الملك قد أرسل إلى نوابه بالاحتياط على أملاك الخليفة - وقد انزعج لذلك - كتب إلى الملك طغرل بك يحثه إلى ما سأل، فلما وصل إلى الملك فرح فرحاً شديداً، وأرسل نوابه أن يطلقوا أملاك الخليفة، فلما انتهت الركابية إلى بغداد، دقت البشائر بدار الخلافة، وطيف بالركابية وبين أيديهم الدبادب والبوقات وفرح الناس بإجابة الخليفة إلى ذلك، وانفقت الكلمة، فوكل الخليفة في العقد، وكتب بذلك وكالة، ثم وقع العقد بمدينة تبريز بحضرة الملك طغرل بك، وعمل سيماطا عظيماً، فلما جيء بالوكالة قام لها الملك، وقبّل الأرض عند رؤيتها، ثم أوجب العقد على صدق أربعمئة ألف دينار، وكثر دعاء الناس للخليفة، وذلك في يوم الخميس الثالث عشر من شعبان من هذه السنة، ثم بعث ابنة أخيه أرسلان خاتون زوجة الخليفة في شوال بثحف عظيمة وذهب كثير، وجواهر عديدة ثمينة، وهدايا عظيمة لأُم العروس وأهلها كلهم، وقال الملك جهرة للناس: أنا عبد للخليفة ما بقيت، لا أملك شيئاً سوى ما عليّ من الثياب^(٢).

١- دخول الملك طغرل بك على بنت الخليفة ووفاته: لما استقر الملك طغرل بك ببغداد أرسل وزيره عميد الملك إلى الخليفة يطالبه بنقل السيدة من الدار العزيزة النبوية إلى دار المملكة، فتمنع الخليفة من ذلك، وقال: إنكم سألتكم أن يعقد العقد فقط لحصول التشريف والتزمت لنا بعدم المطالبة بها، فتردد في ذلك بين الخليفة والملك، وأرسل الملك زيادة على النقد مائة ألف دينار ومائة وخمسين ألف درهم، وثحفاً آخر، وأشياء لطيفة، فلما كان ليلة الإثنين الخامس عشر من صفر هذه السنة رُفّت السيدة ابنة الخليفة إلى دار المملكة، فضربت لها السُرادات من دجلة إلى دار المملكة، وضربت الدبادب والبوقات عند دخولها دار المملكة وكانت ساعة عظيمة، فأجلست على سرير مكلّل بالذهب وعلى وجهها بُرقع، ودخل الملك طغرل بك، فوقف بين يديها، فقبّل الأرض ولم تقم له ولم تره، ولم يجلس حتى

(١) البداية والنهاية (١٥/٧٨٢، ٨٧١).

(٢) البداية والنهاية (١٥/٧٨٥)، تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٢٦.

انصرف إلى صحن الدار، والحجائب والأترار يرقصون هناك فرحاً وسُرواً^(١)، وبعث لها مع الخاتون أرسلان ابنة أخيه زوجة الخليفة عقدين فاخرين وقطعة ياقوت حمراء كبيرة هائلة، ودخل من الغد فقَبِلَ الأرض، وجلس على سرير مكلَّل بالفضة بإزائها ساعة ثم خرج وأرسل لها جواهر نفيسة كثيرة مُمَنَّة، وفَرَجِيَّة نسيج مُكَلَّلَة باللؤلؤ، وما زال كذلك كلَّ يوم يدخل ويقبَل الأرض ويجلس على سرير بإزائها، ثم يخرج فبعث بالتحف والهدايا ولم يكن منه إليها شيء مقدار سبعة أيام، ويَمُدُّ كلَّ يوم من هذه الأيام السبعة سِمَاطاً عظيماً، وخلع يوم السابع على جميع الأمراء، ثم عرض له سفر واعتراه مرض، فاستأذن الخليفة بالانصراف بالسيدة معه إلى تلك البلاد مدة قريبة، ثم يعود بها، فأذن له الخليفة بعد تمنع شديد وحزن عظيم، فخرج بها معه وليس معها من دار الخلافة سوى ثلاث نسوة، برسم خدمتها، وتألَّت والدتها لفقدائها ألماً عظيماً جداً لا يُعَبَّرُ عنه وخرج السلطان وهو مريض مُذْنِفٌ ميثوس منه مُثَقَّلٌ لا ترجى منه العافية فلما كانت ليلة الأحد الرابع والعشرين من رمضان جاء الخبر بأن الملك طغرل بك توفي في ثامن الشهر رحمه الله^(٢)، وكان الملك طغرل بك عاقلاً حليماً كثير الاحتمال شديد الكتمان للسرِّ محافظاً على الصلوات وعلى صوم الإثنين والخميس، مواظباً على لبس البياض وكان عمره يوم مات سبعين سنة، ولم يترك ولداً وكان مدة ملكه بحضرة القائم سبع سنين وأحد عشر شهراً^(٣)، وكان طغرل بك كثير الصدقات حريصاً على بناء المساجد متعبداً متهجداً، ويقول: أستحي من الله أن أبني داراً ولا أبني بمجنبها مسجداً^(٤). وحكى عميد الملك أن طغرل بك قال له: رأيت في منامي في مبتدأ أمري بخراسان كأني رفعت إلى السماء وقيل لي: سل حاجتك تُقَض، فقلت: ما شيء أحب إلي من طول العمر، ف قيل: عمرك سبعون. قال عميد الملك: وكنت سألته عن السنة التي ولد فيها، فقال: السنة التي خرج فيها الخان الفلاني بما وراء النهر، فلما توفي حسبت المدة فكانت سبعين سنة كاملة، ولما وصل خبر وفاته إلى بغداد جلس الوزير فخر الدولة ابن جهير للجزاء في صحن السلام في السادس والعشرين من شهر رمضان^(٥).

٧- الوزير السلجوقي الأول عميد الملك الكندري: هو الوزير الكبير، عميد الملك، أبو نصر، محمد بن منصور بن محمد الكندري، وزير السلطان طغرل بك، كان أحد رجال الدهر سؤدداً وجوداً وكتابة، تفقه وتأدب، وكان كاتباً لرئيس، ثم ارتقى وولى خوارزم، وعظم، ثم

(١) البداية والنهاية (٧٨٩/١٥).

(٢) البداية والنهاية (٧٨٩/١٥).

(٣) المصدر نفسه (٧٩٠/١٥).

(٤، ٥) تاريخ دولة آل سلجوق للأصفهاني، ص ٢٨.

عصى السلطان، وتزوج بامرأة ملك خوارزم، فتحلّل السلطان حتى ظفر به، وخصاه لتزوجه بها، ثم رقّ له، وتداوى وعوفي ووزر له، وقدم بغداد، ولقّبه القائم سيد الوزراء، وكان معترلياً، له النظم والنثر^(١)، وكان ذكياً فصيحاً شاعراً، لديه فضائل جمّة، حاضر الجواب سريعه، ولما أرسله طغرل بك إلى الخليفة يخطب إليه ابنته، وامتنع الخليفة من ذلك أشد الامتناع أنشد متمثلاً بقول المتنبي:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

فتمّمه الوزير:

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

فسكت الخليفة وأطرق^(٢)

ويقال: غنّته بنت الأعرابي في جماعة من الناس، فطرب، وأمر لها بألفي دينار، ووهب أشياء، ثم أصبح، وقال: كفارة المجلس أن أتصدق بمثل ما بذلت البارحة. وقيل: إنه أنشد عند قتله:

إن كان بالناس ضيقٌ عن منافستي فألموت قد وسّع الدنيا على الناس

مضيت والشامت المغبون يتبعني كل بكأس المنايا شارب حاسي

وقال: ما أسعدني بدولة بني سلجوق؛ أعطاني طغرل بك الدنيا، وأعطاني ألب أرسلان الآخرة^(٣)، ووزر تسع سنين وأخذوا أمواله، منها ثلاثمائة مملوك، وقتل صبراً وطيف برأسه^(٤)، قال الذهبي: وما بلغنا عنه كبير إساءة لكن ما على غضب الملك عيار^(٥). قتل بمرور الرّوذ في ذي الحجة سنة ست وخسين وأربعمائة وله اثنتان وأربعون سنة، وكان يؤذي الشافعية، ويبالغ في الانتصار لمذهب أبي حنيفة^(٦)، وذكرت له ترجمة موسعة في رسالة للماجستير للسيدة سميرة عزيز محمود بعنوان (الوزارة العباسية من ٤٤٧هـ إلى ٥٩٠هـ «العهد السلجوقي»)^(٧).

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/١١٣، ١١٤).

(٢) البداية والنهاية (١٥/٦).

(٣)، (٤)، (٥)، (٦) سير أعلام النبلاء (١٨/١١٤).

(٧) الوزارة العباسية ٤٤٧هـ / ٥٩٠هـ العهد السلجوقي، ص ١٦٩.

المبحث الثالث

ألب أرسلان (محمد) الأسد الشجاع

هو السلطان الكبير، الملك العادل، عضد الدولة، أبو شجاع ألب أرسلان، محمد بن السلطان جغري بك داود ميكائيل بن سلجوق بن ثُقَاق بن سلجوق التركماني، العُزَي، من عظماء ملوك الإسلام وأبطالهم ^(١)، ملك بعد عمه طغرل بك، وكان عادلاً سار في الناس سيرة حسنة، كريماً رحيماً، شفوqاً على الرعية رفقاً على الفقراء، باراً بأهله وأصحابه ومماليكه كثير الدعاء بدوام ما أنعم به عليه، كثير الصدقات يتصدق في كل رمضان بخمسة عشر ألف دينار، ولا يعرف في زمانه جناية ولا مصادرة، بل يقنع من الرعايا بالخراج في قسطين، رفقاً بهم ^(٢).

أولاً: اجتماع الكلمة عليه: اعتمد ألب أرسلان في الوزارة على نظام الملك، وكان وزير صدق، يكرم العلماء والفقراء، ولما عصى الملك شهاب الدولة قُتلَمش، وخرج عن الطاعة، وطمع في أخذ الملك من ألب أرسلان وكان من بني عم طغرل بك، فجمع وحشد واحتفل له ألب أرسلان فقال له الوزير: أيها الملك، لا تخف؛ فإنني قد استخدمت لك جنداً ليلياً يدعون لك وينصرونك بالتوجه في صلواتهم وخلواتهم، وهم العلماء والصلحاء، فطابت نفسه بذلك، فحين التقى مع قتلَمش لم ينظره أن كسره، وقتل خلقاً من جنوده، وقُتل قتلَمش في المعركة واجتمعت الكلمة على ألب أرسلان ^(٣)، وعظم أمره، وخطب له على منابر العراق والعجم وخراسان ودانت له الأمم ^(٤).

ثانياً: سماحه للسيدة زوجة طغرل بك وابنة الخليفة بالرجوع إلى بغداد: ففي سنة ٤٥٦ هـ أذن ألب أرسلان للسيدة ابنة الخليفة في الرجوع إلى بغداد وأرسل معها بعض القضاة والأمراء، فدخلت بغداد في تجمل عظيم، وخرج الناس للنظر إليها، فدخلت ليلاً في أبهة عظيمة، ففرح الخليفة وأهلها بذلك وأمر الخليفة بالدعاء للملك ألب أرسلان على المنابر في الخطب فقيل في الدعاء: اللهم وأصلح السلطان المعظم عضد الدولة وتاج الملة ألب أرسلان أبا شجاع محمد بن داود. وجلس الخليفة للناس جلوساً عاماً وبايعهم للملك ألب أرسلان وأرسل إليه بالخلع والتقليد مع الشريف نقيب العباسيين طراد بن محمد الزيني، وأبي محمد

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/٤١٤).

(٢) البداية والنهاية (١٦/٣٩).

(٣) المصدر نفسه (١٥/٧٩٣).

(٤) سير أعلام النبلاء (١٨/٤١٥).

التميمي، وموفق الخادم، ولقب بالوزير نظام الملك قوام الدين والدولة رضي أمير المؤمنين، وإنما كان يقال له قبل ذلك: خواجه بزرگ. وأرسل الملك ألب أرسلان بالهدايا والتحف النفيسة المفتخرة، واستقر أمره على بغداد وجميع بلاد العراق^(١).

ثالثاً: جهاده في سبيل الله: كان ألب أرسلان - كعمه طغرل بك - قائداً ماهراً مقداماً وقد اتخذ سياسة خاصة تعتمد على تثبيت أركان حكمه في البلاد الخاضعة لنفوذ السلاجقة، قبل التطلع إلى إخضاع أقاليم جديدة، وضمها إلى دولته، كما كان متلهفاً للجهاد في سبيل الله، ونشر دعوة الإسلام في داخل الدولة المسيحية المجاورة له، كبلاد الأرمن وبلاد الروم، وكانت روح الجهاد الإسلامي هي الحركة لحركات الفتوحات التي قام بها ألب أرسلان وأكسبتها صبغة دينية، وأصبح قائد السلاجقة زعيماً للجهاد، وحريصاً على نصرة الإسلام ونشره في تلك الديار، ورفع راية الإسلام خفاقة على مناطق كثيرة من أراضي الدولة البيزنطية^(٢)، لقد بقي سبع سنوات يتفقد أجزاء دولته المترامية الأطراف، قبل أن يقوم بأي توسع خارجي، وعندما أطمأن على استتباب الأمن وتمكن حكم السلاجقة في جميع الأقاليم والبلدان الخاضعة له، أخذ يخطط لتحقيق أهدافه البعيدة، وهي فتح البلاد المسيحية المجاورة لدولته، وإسقاط الخلافة الفاطمية «العبيدية في مصر»، وتوحيد العالم الإسلامي تحت راية الخلافة العباسية السنية ونفوذ السلاجقة، فأعد جيشاً كبيراً اتجه به نحو بلاد الأرمن وجورجيا فافتتحها وضمها إلى مملكته، كما عمل على نشر الإسلام في تلك المناطق^(٣). وأغار ألب أرسلان على شمال الشام وحاصر الدولة المرداسية في حلب، والتي أسسها صالح بن مرداس على المذهب الشيعي سنة ٤١٤ هـ وأجبر أميرها محمود بن صالح بن مرداس على إقامة الدعوة للخليفة العباسي بدلاً من الخليفة الفاطمي العبيدي سنة ٤٦٢ هـ^(٤)، ثم أرسل قائد الترك أتسنسر بن أوق الخوارزمي في حملة إلى جنوب الشام فانتزع الرملة وبيت المقدس بدلاً من الفاطميين العبيدين، ولم يستطع الاستيلاء على عسقلان التي تعتبر بوابة الدخول إلى مصر، وبذلك أضحى السلاجقة على مقربة من قاعدة الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي داخل بيت المقدس^(٥)، وفي سنة ٤٦٢ هـ ورد رسول صاحب مكة محمد بن أبي هاشم إلى السلطان يخبره بإقامة الخطبة للخليفة القائم وللسلطان، وإسقاط خطبة حاكم مصر العبيدي، وترك الأذان بـ «حي على خير العمل» فأعطاه السلطان ثلاثين ألف دينار وقال له:

(١) البداية والنهاية (١٦/ ٧٩٤).

(٢) (٣، ٢) قيام الدولة العثمانية، ص ٢٠.

(٤) السلاطين في المشرق العربي د. عصام محمد، ص ٢٥.

(٥) مرآة الزمان لسبط بن الجوزي، ص ١٦١.

إذا فعل أمير المدينة كذلك أعطياه عشرين ألف دينار^(١)، وكان حريصاً على إقامة العدل في رعاياه وحفظ أموالهم وأعراضهم، بلغه أن غلاماً من غلمانه أخذ إزاراً لبعض التجار، فصلبه فارتدع سائر المماليك به، خوفاً من سطوته، وكتب إليه بعض السعاة في نظام الملك، فاستدعاه وقال له: إن كان هذا صحيحاً فهذب أخلاقك، وأصلح أحوالك، وإن لم يكن صحيحاً فاغفر لهم زلتهم بمهم يشغلهم عن السعاية بالناس^(٢)، وكان كثيراً ما يقرأ عليه تواريخ الملوك وآدابهم، وأحكام الشريعة، ولما اشتهر بين الملوك بحسن سيرته، ومحافظته على عهوده أذعنوا له بالطاعة والموافقة بعد الامتناع وحضروا عنده من أقاصي ما وراء النهر إلى أقاصي الشام^(٣).

ومن الدروس مما مضى، أهمية دراسة التاريخ للقادة السياسيين وزعماء الأمة، فمن خلاله يتعرفون على سنن الله وعوامل نهوض الدول وأسباب سقوطها، فقد كان ألب أرسلان مهتما بدراسة تاريخ الأمم.

رابعاً: حملة السلطان ألب أرسلان على الشام وضم حلب: وضع السلطان ألب أرسلان نصب عينيه تحقيق هدي في السلاجقة وهما التوسع باتجاه الأراضي البيزنطية وطرده الفاطميين في بلاد الشام والحلول مكانهم ثم استخلاص مصر منهم، وقد أثاره احتمال تقارب بين البيزنطيين والفاطميين فحرص على أن يحمي نفسه من بيزنطة بفتح أرمينية والاستقرار في ربوعها، قبل أن يمضي في تحقيق الهدف الثاني وهو مهاجمة الفاطميين. والواقع أنه كان من الصعب على السلطان السلجوقي، من الناحية العسكرية والسياسية، أن يتجاوز محور الرها إلى جنوبي بلاد الشام ثم مصر دون تقدير الموقف البيزنطي من جهة، ومواقف أمراء الجزيرة وبلاد الشام من جهة أخرى، إذ إن أي اضطراب في العلاقة مع هذه الأطراف من شأنه أن يهدد بقطع خط الرجعة على جيشه الذي سيكون بعيداً عن قواعده الخلفية^(٤)، واشتدت في هذه الأثناء غارات الأتراك على أراضي الدولة البيزنطية، وتوغلوا فيها، ففتح هارون بن خان أرتاح عام ٤٦٠ هـ بعد أن حاصرها خمسة أشهر^(٥)، ونهض الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينوس ليقف تقدم المغيرين، ومنعهم من التوغل أكثر في عمق الأراضي البيزنطية، وقاد حملتين عسكريتين ضد الأجزاء الشمالية لبلاد الشام بين عامي ٤٦١ هـ و٤٦٢ هـ فهاجم منطقة حلب، عقدة المواصلات التجارية والعسكرية بين العراق

(١) أيعيد التاريخ نفسه؟ ص ٦٨، البداية والنهاية (٢٢٩/١٦).

(٢) الكامل لابن الأثير (٢٥٣/٦).

(٣) البداية والنهاية (٣٩/١٦).

(٤) زبدة الحلب في تاريخ حلب (٢٥٦/١).

(٥) في التاريخ الشامي، شاکر مصطفى (١٣١/٢).

وأرمينية والأناضول وبلاد الشام، واصطدمت قواته بقوات محمود بن نصر المرداسي وبني كلاب، وابن حسان الطائي ومن معهم من جموع العرب وانتصر عليهم^(١)، إلا أن الإمبراطور انسحب من المنطقة على عجل دون أن يستثمر انتصاره، بعد ورود أخبار عن توغل قوات تركية بقيادة الأفشين في عمق الأراضي البيزنطية، وفتحها مدينة عمورية، وأنها بصدد التوجه نحو القسطنطينية، كما أن نفاذ المؤن كان سبباً آخر دفعه إلى العودة إلى بلاده^(٢). وكان السلطان ألب أرسلان ينتظر فرصة سانحة ليحقق حلمه بضم بلاد الشام ومصر إلى الأملاك السلجوقية، وأتاح له النزاع الذي حصل بين أركان الحكم في مصر من أجل السيطرة والتسلط على المستنصر الفاطمي هذه الفرصة، كان ناصر الدولة الحسين بن الحسن الحمداني أحد أبرز القادة في القاهرة، وقد انتصر على تحالف ضم الوزير ابن أبي كدية وألكوز قائد عسكر الأتراك وذلك في عام ٤٦٢هـ، وتمادى في تخطيطه وقرّر القضاء على الدولة الفاطمية وإقامة الدعوة العباسية، فأرسل أبا جعفر محمد بن البخاري قاضي حلب، إلى السلطان السلجوقي يطلب منه أن يرسل جيشاً إلى مصر، يساعده في تحقيق هدفه، وفور تسلمه الدعوة، جهّز ألب أرسلان جيشاً كبيراً وخرج على رأسه من خراسان متوجهاً إلى بلاد الشام لإخضاعها لسيطرة السلاجقة، ومن ثمّ متابعة زحفه إلى مصر لإسقاط الدولة الفاطمية وضمّ هذا البلد إلى السلطنة السلجوقية، لكن تحرّكه كان بطيئاً بسبب ما صادفه من عقبات كانت أولاها في الرها الواقعة تحت الحكم البيزنطي، فحاصرها في عام ٤٦٣هـ وقاوم الرهاويون الحصار ببسالة بقيادة باسيل بن أسار الذي عيّنه الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينوس حاكماً على المدينة، وقطع السلاجقة أشجار الحدائق وطمروا الخنادق بجانب الأسوار الشرقية كي يعبروا عليها، وقذفوا المدينة بالمجانيق، وشرع النقبابون في حفر فجوات في السور، ولكن دون جدوى، واستعصت المدينة على السلطان ألب أرسلان واضطر إلى التفاهم مع سكانها بعد نيف وثلثين يوماً من الحصار المتواصل ثم تابع طريقه إلى حلب^(٣) لضمها حتى يمنع أي محاولة التفاف من جانب البيزنطيين من جهة الجنوب، غير أن قسماً من جيشه تقاعس عن المضي معه بسبب تأخير أرزاقهم، فاضطر أن يتابع زحفه بمن بقي معه من الجيش وعددهم أربعة آلاف مقاتل، فعبر نهر الفرات ٤٦٣هـ ودخل أراضي الإمارة وقدم له جميع أمراء الجزيرة الولاء أمثال شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي أمير الموصل، ونصر بن مروان أمير ميفارقين، وابن وثاب أمير حرّان، بالإضافة إلى أمراء الترك والديلم^(٤).

(٢) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ص ١١٣.

(١) زبدة الحلب في تاريخ حلب (١/٢٥٧).

(٤،٣) المصدر نفسه، ص ١١٤.

١- حصار حلب وإخضاعها صلحاً للدولة السلجوقية: تقاسم محمود بن نصر أمير حلب، ويبدو أن لذلك علاقة بالمدى الذي وصلت إليه معارضة الشيعة في حلب، وربما أدرك أنه سوف يفقد استقلاله إذا تجاوب مع مطالب السلطان السلجوقي^(١)، فأرسل إليه القاضي أبا جعفر محمد بن البخاري يدعو للقدوم إليه لتقديم الولاء والطاعة ودوس بساطه أسوة بسائر أمراء الجزيرة، وفتح أبواب حلب لاستقباله^(٢)، ولكن محموداً رفض الدعوة بتحريض من ابن خان، وأثر الاعتصام بحلب والدفاع عنها، واستنفر الرجال من جميع أنحاء بلاد الشام، وتأهب لمقاومة الحصار الذي سوف يفرضه الجيش السلجوقي على المدينة، ويبدو أنه اطمأن إلى أن ولاءه للعباسيين، وللسلطان السلجوقي، وارتداء خلع الخليفة التي أرسلت إليه في عام ٤٦٢هـ، كافيان لحمايته من هجوم السلطان، لكنه فوجئ بوصوله إلى حلب في ٤٦٣هـ وضربه الحصار عليها، واتخذ السلطان من الفيندق^(٣)، مركزاً لقيادته، وكانت الخيام والعساكر من حلب إلى نقرة بني أسد، إلى عزاز إلى الأثارب، متقاربة بعضها من بعض، ولم يتعرض أحد من العسكر لمال أحد، ولا سُبيت حرمة، ولا قاتل، ولم يأخذ عليقة تب من فلاح إلا بثمانه واستمر الحصار مدة شهرين ويومين ولم يحرق قتال غير يوم واحد، وكان يقول لأتباعه: أخشى أن أفتح هذا الثغر بالسيف فيصير إلى الروم^(٤)، ومهما يكن من أمر، فقد فشل السلطان في اقتحام المدينة، ولعل مرد ذلك يعود إلى شدة المقاومة ومثانة الأسوار، وإشراك محمود بن نصر جميع القبائل العربية في الدفاع عنها، بالإضافة إلى طبيعة تكوين الجيش السلجوقي الذي يعتمد على الفرسان الخفاف، والمعروف أن عمليات الحصار تتطلب جنوداً من المشاة وهو ما افتقده الجيش السلجوقي، ولم تتوقف المفاوضات خلال أيام الحصار للوصول إلى حل لكن دون جدوى بسبب التصلب في المواقف، واضطر السلطان أخيراً إلى فك الحصار عن المدينة، إلا أنه خشي على سمعته بعد إخفاقه في اقتحام الرها وأخذ حلب مما سينعكس سلباً على دولته الناشئة وبخاصة بعد ورود أنباء عن ظهور الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينوس في أرمينية وهو عازم على مهاجمة خراسان^(٥)، لذلك لجأ إلى السياسة لتفريق الكلابيين وإضعاف موقف محمود بن نصر، فاستدعى جميع أمراء بني كلاب ليختار أميراً منهم يعينه على حلب ويفوضه في السعي للاستيلاء على المدينة وانتزاعها من يد محمود بن نصر، على أن يتفرغ هو لمواجهة الخطر البيزنطي^(٦)، فلبى الأمراء دعوة السلطان، وامتثلوا لأمره، ويدل هذا على أن التنازع كان متفشياً بين العشائر

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٥.

(١) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، ص ١١٤.

(٣) الفيندق: من أعمال حلب، ويعرف الآن بتل السلطان.

(٤) (٦، ٥) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، ص ١١٥.

(٥) زبدة الحلب في تاريخ حلب (١/ ٢٦٢، ٢٦٣).

الكلابية، وأن محموداً لم يمكن من جمع شمل القبيلة تحت رايته، وعندما علم محمود بهذا التحول، خشي على سلطانه في حلب وبخاصة «أن البلد قد أشرف على الفتح»^(١)، كما أن موقف ألب أرسلان في إدارته للأحداث يدل على حنكة سياسية حقق من خلالها أهدافه بأقصر السبل وأقل التكاليف.

٢- تحرك محمود بن نصر أمير حلب للمصالحة: عندما علم محمود بهذا التحول، خشي على سلطته في حلب فتحرك بسرعة باتجاه السلطان، وسعى إلى التوصل إلى مصالحة معه تحفظ ملكه وتفوّت الفرصة على خصومه من الأمراء الكلابيين^(٢)، ومهما يكن من أمر، فقد خرج محمود بن نصر من حلب متخفياً بزي الأتراك في ليلة الأول من شعبان ٤٦٣ هـ بصحبة والدته منيعة بنت وثاب النميري، وتوجه إلى معسكر السلطان، فرحّب به هذا الأخير، وجرت مفاوضات بين الرجلين أسفرت عما يلي:

أ- يخرج محمود بن نصر في اليوم التالي علناً ليزور معسكر السلطان ويدوس بساطه، ويقدم فروض الولاء والطاعة له.

ب- يوافق السلطان على بقاء محمود أميراً على حلب، على أن يكون تابعاً له ويدعو للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي^(٣) وفعلًا خرج محمود في اليوم التالي من حلب، وتوجّه إلى معسكر السلطان وحمل معه مفاتيح البلد، واصطحب معه والدته، فاستقبلهما السلطان، ورحب بهما وأكرمهما وأحسن إليهما، وأعلن عن بقاء محمود أميراً على حلب، وكتب له توقيعاً بذلك^(٤)، وقد أضحى بموجه تابعاً فعلياً ورسمياً للسلطان، ومتولياً من قبله وبتوقيعه، وليس أميراً حاكماً بقوته يستطيع في كل لحظة نقض الولاء^(٥).

٣- التوغل السلجوقي في جنوبي بلاد الشام: غادر السلطان ألب أرسلان المنطقة بعد ذلك، وعاد إلى بلاد ما وراء النهر للقتال هناك، وترك بعض عسكره وأتباعه بقيادة أئسن بن أوق الخوارزمي وكان معه إخوته، جاولي والمأمون وفزلو وشكلي، وأذن لهم بالاصطدام بالفاطميين وإخراجهم من بلاد الشام، وكان القاضي أمين الدولة أبو طالب عبد الله بن محمد بن عمار قد استبدّ بحكم طرابلس وخلع طاعة أمير الجيوش بدر الجمالي، وضم مدينة جبيل الواقعة على الساحل اللبناني إلى نفوذه، واضعاً بذلك النواة الأولى لقيام إمارة بني عمار المستقلة^(٦)، وحتى يدعم موقفه في طرابلس تقرّب من السلاجقة، فأرسل إليه

(٢) زبدة الحلب في تاريخ حلب (١/ ٢٦٣، ٢٦٤).

(٤) (٥، ٤) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، ص ١١٦.

(١) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، ص ١١٥.

(٣) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، ص ١١٦.

(٦) تاريخ طرابلس، تدمري، ص ٣٥١.

السلطان ألب أرسلان، قبل أن يغادر المنطقة قوة عسكرية بقيادة أحد كتابه هو جابر بن سقلاب الموصلية^(١)، لم يوضَّح المؤرخون ما تقرر بين السلطان ألب أرسلان وأمير طرابلس، لكن يغلب على الظن أن معاهدة عدم اعتداء عقدت بين الطرفين يسمح بموجبها لجماعة من الأتراك بالإقامة في أعمال طرابلس^(٢)، وتنفيذاً لأوامر السلطان قاد محمود بن نصر وايتكين السليماني قواتهما وتوجها جنوباً لمهاجمة دمشق وانتزاعها من أيدي الفاطميين وذلك في ٤٦٤هـ وتوقفاً في بعلبك ليخططا لحملتهما، وعلم محمود بن نصر وهو في بعلبك بأن عمه عطية هاجم حلب بالتعاون مع البيزنطيين في أنطاكية، وأحرق قسماً من معرة المصيرين^(٣)، فاضطر للعودة إلى مقر إمارته للدفاع عنها، واشتبك مع البيزنطيين في عدة معارك، فانهزم أمامهم، وعندما وجد نفسه عاجزاً عن الوقوف في وجههم استعان بأتسز وإخوته، وكانوا في الجنوب يحاولون انتزاع فلسطين من أيدي الفاطميين، فلبوا دعوته، وقدموا إلى حلب، وتمكّن محمود بن نصر بفضل مساعدتهم من:

* صد البيزنطيين، ووقف أعمالهم ضد أراضيهم.

* استعاد الرجة من مسلم بن قريش في عام ٤٦٥هـ.

وبعد أن قضى منهم ما أراد، وأمن جانب البيزنطيين، طلب منهم أن يغادروا حلب، وأغراهم بالمال والخيول، فغادروا إلى الجنوب. ويبدو أنهم تركوا قسماً منهم في خدمته يبلغ ألف فارس بقيادة أحمد شاه، بدليل أنه عندما أغار البيزنطيون على أراضي حلب عام ٤٦٦هـ، صدّهم محمود بن نصر بمساعدة الأتراك الموجودين في حلب كما فتح قلعة السن الواقعة تحت الحكم البيزنطي وضمّها إلى أملاكه^(٤). وتوجه الأتراك بزعامة أتسز، بعد رحيل السلطان ألب أرسلان عن المنطقة إلى دمشق بهدف ضمّها، فضربوا عليها حصاراً مركزاً، وأغاروا على أعمالها، وقطعوا الميرة عنها، ورعوا زرعها، ومع ذلك فقد فشلوا في اقتحامها^(٥)، فغادروها إلى فلسطين، فضموا الرملة، وبيت المقدس، بعد حصار، وطرّدوا منها الحامية الفاطمية وانتزعوا طبرية من أيدي الفاطميين، وحاصروا يافا، فهرب حاكمها رزين الدولة الفاطمي، وألغى أتسز الدعوة للمستنصر الفاطمي، وخطب للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي وأرسل إلى بغداد يخبر بما حقّقه في بلاد الشام^(٦).

(١) مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٨٢. (٢) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، ص ١١٨.

(٣) معرة المصيرين: بليدة وكورة بنواحي حلب ومن أعمالها.

(٤) تاريخ دمشق، ابن القلانسي، ص ١٦٦ - ١٦٨. (٥) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، ص ١١٩.

(٦) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ السلاجقة في الشام، ص ١١٩.

خامساً: موقعة ملاذكرد سنة ٤٦٢هـ: قام ألب أرسلان بحملة كبيرة ضد الأقاليم

النصرانية المجاورة لحدود دولته، وقاد جيشه نحو جنوب أذربيجان واتجه غرباً لفتح بلاد الكرج والمناطق المطلة على بلاد البيزنطيين وكان سكان الكرج يكثرون من الغارة على أذربيجان فأصبحوا مصدر قلق لسكان المنطقة، وانضم إليه وهو في مدينة مرند في أذربيجان أحد أمراء التركمان ويدعى طغتكين، وكان دائم الغارة على تلك المنطقة، عارفاً بمسالكها، واجتاز الجيش السلجوقي نهر الرس^(١)، في طريقه إلى بلاد الكرج، وفصل ألب أرسلان أثناء زحفه، قوة عسكرية بقيادة ابنه ملكشاه ووزيره نظام الملك هاجت حصوناً ومدناً بيزنطية منها حصن سُرماري^(٢) ومدينة مريم نشين الحصينة وفتحها واستمرت فتوحاته الكبيرة في الأراضي الأرمنية، ويبدو أن ملك الكرج هاله التوغل السلجوقي في عمق المناطق الأرمنية فهادن ألب أرسلان وصالحه على دفع الجزية، ونتيجة لهذا التوغل السلجوقي أضحى الطريق مفتوحاً أمام السلاجقة للعبور إلى الأناضول بعد أن سيطروا على قلب أرمنية، فأغاروا على المناطق الحدودية واستولوا على دروب الأمانوس في عام ٤٥٩هـ، وهاجموا قيصرية حاضرة كبادوكية في العام التالي^(٣) جرى كل ذلك ولم يبذل الإمبراطور البيزنطي جهداً كبيراً لمقاومة هذه الغارات، مما شجعهم على التوغل في عمق الأناضول فوصلوا إلى نيكسار^(٤)، وعمورية^(٥) في عام ٤٦١هـ وإلى قونية في العام التالي، وإلى خونية القريبة من ساحل بحر إيجه في عام ٤٦٣هـ، شكل فتح السلاجقة لبلاد الكرج والقسم الأكبر من أرمنية، تحدياً لبيزنطة وبخاصة بعد أن أدرك الإمبراطور البيزنطي، أن ألب أرسلان يصبغ غزوه للبلاد بصبغة الجهاد الديني، وهو يطبع المناطق المفتوحة بالطابع الإسلامي، مما جعل نشوب الحرب بين المسلمين والبيزنطيين أمراً لا مفر منه^(٦).

١- تأمر ملك الروم على الإسلام: خرج ملك الروم (رومانوس) في جمع كبير من الروم والروس والكرج والفرنجة وغيرهم من الشعوب النصرانية، حتى قدر ذلك الجمع بثلاثمائة ألف جندي^(٧)، أعدهم الإمبراطور لملاقاة السلطان السلجوقي، الذي ما إن علم باقتراب الروم ومن معهم حتى استعد للأمر واحتسب نفسه ومن معه، وكان في قلة من

(١) الرس: نهر يخرج من قاليبلا ويمر بآران.

(٢) سُرماري: قلعة عظيمة وولاية واسعة بين تفليس وخلاط.

(٣) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص ٤١، ٤٢.

(٤) نيكسار: إحدى مدن ولاية سيواس تقع شمال شرق تركيا.

(٥) عمورية: مدينة في بلاد الروم.

(٦) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص ٤٢.

(٧) الفتوح الإسلامية عبر العصور للعمري، ص ١٩٧.

أصحابه لا تقارن بعدد الروم وأتباعه، قيل إنهم قرابة خمسة عشر ألفاً^(١)، ولم يكن لديه وقت لاستدعاء مدد من المناطق التابعة له وقال قولته المشهورة: أنا أحاسب عند الله نفسي، وإن سعدت بالشهادة ففي حواصل الطيور الخضر من حواصل النور الغبر رمسي، وإن نصرت فما أسعدني وأنا أمسي ويومي خير من أمسي^(٢)، وهجم بمن معه على مقدمة الأعداء وكان فيها عشرون ألفاً معظمهم من الروس، فأحرز المسلمون عليهم انتصاراً عظيماً وتمكنوا من أسر معظم قوادهم^(٣).

٢- عرض السلطان ألب أرسلان المصالحة على ملك الروم: ثم أرسل السلطان ألب أرسلان من قبله وفداً إلى إمبراطور الروم وعرض عليه المصالحة ولكنه تكبر وطغى ولم يقبل العرض^(٤)، وقال: هيهات!! لا هدنة ولا رجوع إلا بعد أن أفعل ببلاد الإسلام مثل ما فعل ببلاد الروم^(٥)، وجاء في رواية: لا هدنة إلا ببذل الري، فحمى السلطان وشاط^(٦)، فقال إمامه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي^(٧): إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح فالقهم يوم الجمعة في الساعة التي يكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين^(٨).

٣- اندلاع المعركة وانتصار المسلمين: أعد المسلمون العدة للمعركة الفاصلة واجتمع الجيشان يوم الخميس الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ٤٦٣هـ، فلما كان وقت الصلاة من يوم الجمعة صلى السلطان بالعسكر ودعا الله تعالى وابتهل وبكى وتضرع وقال لهم: نحن مع القوم تحت الناقص^(٩) وأريد أن أطرح نفسي عليهم في هذه الساعة التي يُدعى فيها لنا وللمسلمين على المنابر، فإما أن أبلغ الغرض وإما أن أمضي شهيداً إلى الجنة، فمن أحب أن يتبعني منكم فليتبني، ومن أحب أن ينصرف فليمض مصاحباً فما هاهنا سلطان بأمر ولا عسكر يؤمر فإنما أنا اليوم واحد منكم، وغاز معكم، فمن تبعني، ووهب نفسه لله تعالى فله الجنة أو الغنيمة، ومن مضى حقت عليه النار والفضيحة. فقالوا: مهما فعلت تبعناك فيه وأعناك عليه^(١٠)، فبادر ولبس البياض وتحنط استعداداً للموت وقال: إن قتلت

(١)، (٢) مختصر تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٤٠.

(٣) المنتظم (٨/ ٢٦١).

(٤) الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ١٩٨.

(٦) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤١٥).

(٥) المنتظم (٨/ ٣٦١).

(٨) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤١٣).

(٧) الدولة العثمانية للصلاحي، ص ٣٠.

(٩) يقصد بهذه العبارة قلة العدد.

(١٠) المنتظم (٨/ ٢٦٢)، الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ١٩٩.

فهذا كفي^(١)، ثم وقع الزحف بين الطرفين ونزل السلطان ألب أرسلان عن فرسه ومرغ وجهه بالتراب وأظهر الخضوع والبكاء لله تعالى وأكثر من الدعاء ثم ركب وحمل على الأعداء، وصدق المسلمون القتال وصبروا وصابروا حتى زلزل الله الأعداء وقذف الرعب في قلوبهم، ونصر الله المسلمين عليهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا منهم جموعاً كبيرة، كان على رأسهم ملك الروم نفسه الذي أسره أحد غلمان المسلمين فأحضر ذليلاً إلى السلطان^(٢)، فقنعه بالمقرعة، وقال: ويلك ألم أبعث أطلب منك الهدنة؟ قال: دعني من التويخ. قال: ما كان عزمك لو ظفرت بي؟ قال: كل قبيح، قال: فما تؤمل وتظن بي؟ القتل أو تُشهرني في بلادك، والثالثة بعيدة: العفو وقبول الفداء. قال: ما عزمت على غيرها، فاشترى نفسه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، وإطلاق كل أسير في بلاده، فخلع عليه، وبعث معه عدة وأعطاه نفقة توصله. وأما الروم فبادروا وملكوا آخر، فلما قرب أرمانوس شعر بزوال ملكه، فلبس الصوف، وترهب، ثم جمع ما وصلت يده إليه نحو ثلاثمائة ألف دينار، وبعث بها، واعتذر وقيل: إنه غلب على ثغور الأرمن^(٣).

لقد غزا ألب أرسلان بلاد الروم مرتين، وافتتح قلاعاً، وأرعب الملوك، ثم سار إلى أصبهان ومنها إلى كرمان وذهب إلى شيراز ثم عاد إلى خراسان، وكاد يملك مصر^(٤).

٤- نتائج ملاذكرد، ٤٦٣هـ:

أ- تعتبر معركة «ملاذكرد» من المعارك الفاصلة في التاريخ ويسميتها بعض المؤرخين باسم الملحمة الكبرى، وتعد أكبر نكسة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وأصبحت الأراضي البيزنطية تحت رحمة السلاجقة، وبذلك يكون السلاجقة قد تابعوا الجهاد الذي قام به المسلمون ضد الروم^(٥).

ب- لم يكن هذا الانتصار انتصاراً عسكرياً فقط بل كان انتصاراً دعوياً للإسلام، إذ انتشر السلاجقة في آسيا الصغرى عقب معركة ملاذكرد وضموا إلى ديار الإسلام مساحة تزيد على ٤٠٠ ألف كم، عم الإسلام تلك الجهات منذ ذلك الوقت ولم يكن دخلها أبداً من قبل^(٦)، فإن هذه المرحلة من تاريخ الإسلام كانت مرحلة امتداد وتوسع أيضاً ولم تكن مرحلة جمود وتوقف كما يتصور كثير من الناس ممن يقرأون التاريخ الإسلامي على عجالة

(١) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الفتوح الإسلامية، ص ١٩٩.

(٢) الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ١٩٩.

(٣) سير أعلام النبلاء (١٨/٤١٦).

(٤) الحروب الصليبية، المقدمات السياسية، علية الجزوري ص ٥١١، ٢١٢.

(٥) التاريخ الإسلامي، الدولة العباسية، محمود شاكر (٦/٣٦٠).

ويتوقفون عند نهاية العصر العباسي الأول ويحملون العصر الثاني بكلمات تدل على الضعف والتفكك والتوقف^(١)، وخصوصاً إذا ذهبنا إلى المغرب والأندلس حيث دولة المرابطين السنية التابعة للخلافة العباسية، فبعد ست سنوات من معركة ملاذكرد، أي في عام ٤٦٩هـ، استطاع المرابطون في المغرب أن يفتحوا عاصمة إمبراطورية غانا «كومي صالح» وأن يفرضوا الإسلام على جميع البلاد، وقد وافق ملك غانا «تنكامنين» على الدخول في الإسلام والخضوع لسلطان المرابطين، وقد دخل كثير من الشعب في الإسلام أيضاً، وبذا تكون ديار الإسلام قد امتدت في إفريقيا على مساحة جديدة تقرب من نصف مليون كيلو متر مربع وفي الوقت نفسه فقد اتسعت ديار الإسلام في الجنوب الشرقي في الهند وفتحت مساحات واسعة من شمال تلك البلاد^(٢).

ج- تعتبر هزيمة البيزنطيين في ملاذكرد نقطة تحول في التاريخ الإسلامي البيزنطي فلأول مرة يقع الإمبراطور نفسه أسيراً في أيدي المسلمين^(٣)، فهي لا تقل أهمية عن اليرموك ونتائجها، فإذا كانت هذه الأخيرة قررت مصير بلاد الشام، فإن الأولى قد قررت مصير آسيا الصغرى، التي نجح الأتراك السلاجقة في فتحها والتوغل فيها، وكانت بذلك لبنة اجتمعت من بناء الدولة البيزنطية فمهدت لسقوطها، فعندما فقدت الإمبراطورية ولاياتها الغنية في آسيا الصغرى، أصبحت القسطنطينية رأساً حُرماً من الجسد الذي يسنده، وبذلك غدت آسيا الصغرى برمتها مكشوفة أمام السلاجقة، وهكذا بضربة واحدة دفعت الحدود التقليدية التي طالما فصلت بين الإسلام والمسيحية ٤٠٠ ميل إلى الغرب، ولأول مرة استطاع الأتراك السلاجقة أن يحرزوا مكاناً ثابتاً في تلك البقاع^(٤)، ومنذ ذلك الحين فقد الرؤساء والجنود شجاعتهم، ولم تحرز الإمبراطورية نصراً على الإطلاق^(٥).

د- ومن نتائج ملاذكرد أن قضى السلاجقة على التحالف البيزنطي الفاطمي، واضطرت بيزنطة إلى مصالحتهم، أما أرمينية فقد زالت منها الإدارة البيزنطية بعد أن هجرها سكانها وخضعت المدن الأرمينية للسلاجقة^(٦)، كما انهار نظام الدفاع البيزنطي الذي تولاه أمراء التخوم، وبذلك تعرض نظام الثغور لضربة قاسية لاسيما أن بيزنطة لجأت بعد المعركة إلى إنزال حاميات من الجند المرتزقة في أرمينية، ولم تحاول الاستعانة بالسكان الأصليين^(٧).

(١)، (٢) التاريخ الإسلامي، الدولة العباسية، محمود شاكر (٦/ ٣٦٠).

(٣) العلاقات الإقليمية والحروب الصليبية، دكتور كمال بن مارس، ص ٦٢.

(٤) المجتمع الإسلامي، أحمد رمضان، ص ٤٩، ٥٠.

(٥)، (٦) العلاقات الإقليمية والحروب الصليبية، ص ٦٢.

(٧) العلاقات الإقليمية والحروب الصليبية، ص ٦٣.

هـ- تُعد معركة ملاذكرد أشد ما وقع في التاريخ البيزنطي من كوارث، بل إنها أكبر كارثة حلت بالإمبراطورية البيزنطية حتى نهاية القرن الخامس الهجري، وجاءت دليلاً على نهاية دور الدولة البيزنطية في حماية النصرانية من ضغط الإسلام، وفي حراسة الباب الشرقي لأوروبا من غزو المسلمين، وتراءى للصليبيين فيما بعد أن البيزنطيين فقدوا على أرض المعركة ما اتخذوه من لقب حماة العالم النصراني، وبررت هذه المعركة ما جرى من تدخل الغرب الأوروبي، لأن بيزنطة لم يعد بوسعها حماية العالم النصراني في الشرق وأصبحت عاجزة عن أن تُلقي بجيش في المعركة لأعوام عديدة^(١). كما أن هذه المعركة مهدت الطريق ويسرت السبل للقضاء على سيطرة البيزنطيين على أكثر أجزاء منطقة آسيا الصغرى، مما ساعد على القضاء على الدولة البيزنطية نفسها، بعد ذلك على أيدي الأتراك العثمانيين^(٢).

و- يعد الأتراك أكثر العناصر العسكرية الأجنبية إفادة من الأوضاع المضطربة التي سادت المجتمع البيزنطي والوضع السياسي بعد معركة ملاذكرد. فقد حاولت الأطراف المتنازعة في بيزنطة أن تستعين بالقوات التركية ضد بعضها البعض مما أتاح للسلاجقة، التوغل في صميم الحياة البيزنطية^(٣).

ز- أقدمت السلطات البيزنطية في القسطنطينية على عزل الإمبراطور رومانوس الرابع وأجلست مكانه ميخائيل السابع بن قسطنطين العاشر دوقاس، وحاول رومانوس في غمرة هذا الصراع أن يستعين بالقوات التركية، غير أن الهزيمة لحقت به وتقرر إلقاء القبض عليه وسمل عينيه.

ح- انتهج معظم الأباطرة البيزنطيين بعد رومانوس الرابع نهجه في الاستعانة بالأتراك كلما واجهتهم محنة، فعندما أعلن روييل بايليل قائد قوات الفرنج المرتزقة العصيان على الدولة البيزنطية استعان ميخائيل السابع بالقوات التركية لقمع حركته، كما استعان بالأخوين منصور وسليمان، من أقارب السلطان ألب أرسلان، للقضاء على ثورة نقفور بوتانياتسى، على أن الأخوين لم يلبثا أن تخليا عن الإمبراطور ودخلا في خدمة بوتانياتس، فأنزلهما في مدينة نيقية^(٤)، وعلى هذا النحو استولى الأتراك على مقاطعتي جالايثا في وسط بلاد الأناضول وفريجيا المجاورة.

ط- لقد حقق ألب أرسلان هدفه، إذ كفل الحماية لجناح جيشه، وأزال خطر التقارب

(١) الحروب الصليبية، رنسيما (١/١١٠).

(٢)، (٣) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص ٥١.

(٤) نيقية من أعمال القسطنطينية على البر الشرقي.

بين بيزنطة والفاطميين، وانصرف بعد ذلك لمواصلة القتال في إقليم ما وراء النهر حيث قضى نحبه عام ٤٦٥هـ ولم ينفذ ابنه وخليفته في الحكم، ملكشاه، إلى آسيا الصغرى، غير أن رعاياه من الأتراك اتخذوا من سهول وسط آسيا الصغرى، مراعى تتجمعها الأغنام، وعهد إلى ابن عمه سليمان بن قتلмыш بأن يستولي على هذا الإقليم لصالح الأقوام التركية^(١).

دروس وعبر وفوائد: تظهر مجموعة من الفوائد والدروس والعبر من معركة ملاذكرد منها:

- أهمية الإخلاص لله والاستعداد للموت في سبيله واللجوء إليه في تحقيق انتصارات المسلمين في معاركهم الكبرى.

- دور العلماء في تثبيت القادة والجنود وتذكيرهم بالله واليوم الآخر وأثر الوعظ والتذكير في شجاعة الجنود واندفاعهم وخصوصاً عندما يكون العلماء في ميادين النزال وساحات المعارك.

- من أسباب النصر وجود القائد الخبير المحنك والجيش القوى المنظم.

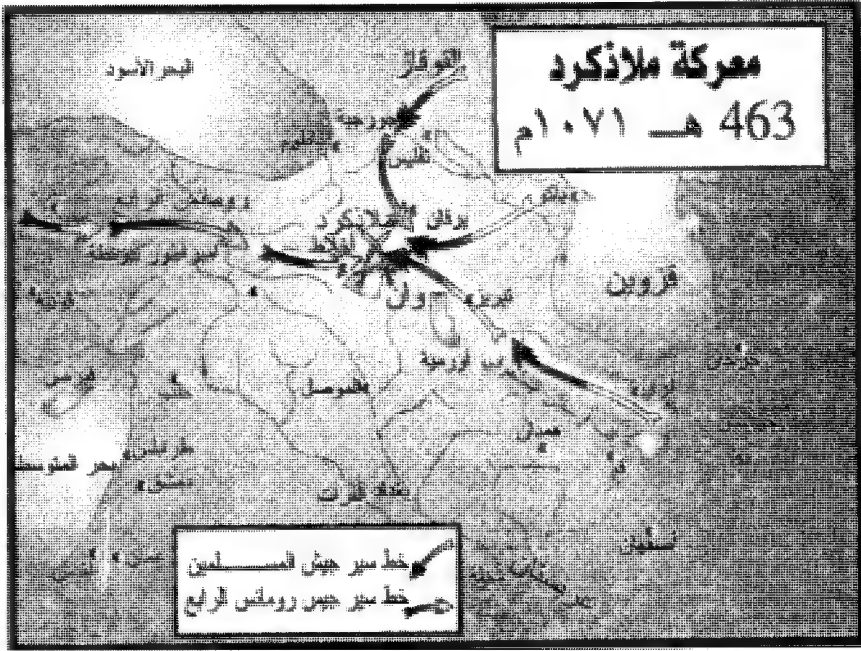
- أهمية الصبر عند مواجهة الأعداء في المعارك، تلك الصفة الربانية التي أمر الله بها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فالجيوش الإسلامية التي تتحلى بهذه الصفة يحالفها نصر الله تعالى.

١- وفاة السلطان ألب أرسلان، الأسد الشجاع: في سنة خمس وستين وأربعمئة قصد السلطان ألب أرسلان ما وراء النهر وعبر نهر جيحون، في مائتي ألف فارس، فأتي بعلج يقال له: يوسف الخوارزمي، كانت بيده قلعة، قد ارتكب جريمة في أمر الحصن، فحمل مقيداً، فلما قرب منه أمر أن تُضرب له أربعة أوتاد لتشد أطرافه الأربعة إليها ويعذبه ثم يقتله فقال له يوسف: يا مخنث، مثلي يقتل هذه القتلة؟ فاحتد السلطان، وأخذ القوس والنشابة، وقال: حلّوه من قيوده، فحلّ، فرماه فأخطأه، وكان مُدلياً برميّه، قلما يخطئ فيه، وكان جالساً على سريره، فنزل فعثر ووقع على وجهه، فبادره يوسف المذكور، وضربه بسكين كانت معه في خاصرته، فوثب عليه فرأش أرمني، فضربه في رأسه بمرزبة فقتله، فانتقل ألب أرسلان إلى خيمة أخرى مجروحاً وأحضر وزيره نظام الملك وأوصى إليه، وجعل ولده ملكشاه أبا شجاع محمد وليّ عهده^(٢)، ثم توفي السلطان وذلك في جمادي الآخرة سنة خمس

(١) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا، ص ٥٢.

(٢) شذرات الذهب (٥١/٢٧٤).

وستين وأربعمائة، وله أربعون سنة ^(١)، وترك من الأولاد ملكشاه، وإياز، ونكش، وبوري برس وأرسلان أرغون وسارة وعائشة وبتاً أخرى ^(٢)، وقيل: توفي عن إحدى وأربعين سنة، ودفن عند والده بالري، رحمه الله تعالى ^(٣)، ويحكى أنه قال لما عاين الموت بعينه: ما كنت قط في وجه قصده ولا عدو أردته، إلا توكلت على الله في أمري، وطلبت منه نصري، وأما في هذه النبوة، فإني أشرفت من تل عال، فرأيت عسكري في أجل حال، فقلت: أين من له قدر مصارعتي، وقدرة معارضتي، وإني أصل بهذا العسكر إلى أقصى الصين، فخرجت عليّ منيبي من الكمين ^(٤)، وجاء في رواية... فقلت في نفسي: أنا ملك الدنيا وما يقدر أحد عليّ فجعّزني الله تعالى بأضعف خلقه وأنا أستغفر الله وأستقيله من ذلك الخاطر وعلى القادة والحكام أن يستشعروا نعائم الله عليهم ويتذكروا فضله وإحسانه وينسبوا الفضل لله تعالى صاحب المنّ والعطاء والإحسان والإكرام. ولما بلغ موته أهل بغداد أقام الناس له العزاء وغُلقت الأسواق وأظهر الخليفة الجزع عليه وتسَلبت ^(٥) ابنته الخاتون وجلست على التراب ^(٦).



- (١) سير أعلام النبلاء (٤١٧/١٨).
 (٢)، (٣) البداية والنهاية (٣٩/١٦، ٤٠).
 (٤) تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٤٨.
 (٥) تسلبت المرأة: أحدثت ولبست السلاب، وهو ثوب أسود تغطي به المحدث رأسها.
 (٦) البداية والنهاية (٣٨/١٦).

المبحث الرابع السلطان ملكشاه

هو السلطان الكبير جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه بن السلطان ألب أرسلان محمد بن جغري بك السلجوقي التركي، تملك بعد أبيه، ودبر دولته النظام الوزير بوصية من ألب أرسلان إليه في سنة خمس وستين^(١).

أولاً: تربية ملكشاه على إدارة السلطنة وتوطيد الملك له:

١- تربيته على إدارة السلطنة: بعد معركة سمرقند التي قام بها السلطان ألب أرسلان سنة ٤٦٥هـ وقبل وفاته على أثر جرحه بيد يوسف الخوارزمي أمر القواد بمبايعة ابنه، ملكشاه، للمرة الثالثة، وعين وزيره النظام وصياً عليه وطلب احترامهما وطاعة أوامرهما^(٢)، وكان قد أعدّه إعداداً ملكياً ودربه تدريباً سلطانياً، مثلماً أعده أبوه - جغري بك - من قبل وقد ساعده على ذلك وزيره النظام حيث رغبه في دراسة العلوم وممرنه على المثابرة والجلد في الحروب، وبهذا تعاون الوالد والوزير معاً على تهيته لعرش آل سلجوق، ولذلك لم يكتف بتدريبه النظري، كما يربى معظم أبناء الملوك وإنما أنزله الميادين وأشركه في القتال حتى مرن على الحرب وعرف خططها وخدعها وكذلك أراد له أن يتعلم أصول الحكم وتدير شئون الرعايا بالممارسة وليس عن ظهر قلب فمنحه حكومة «كيلان» وأصدر بذلك منشوراً^(٣).

٢- تولي السلطنة: وبناء على توصية السلطان الراحل فقد اجتمع قواد الجيش، وأعيان الدولة في حلف خطير لإجراء مراسم الجلوس، وبايعوا السلطان «ملكشاه» سنة ٤٦٥هـ وعمره - حينذاك - ثمانية عشر عاماً، وقال في خطاب العرش - حينما طلب إليه النظام أن يتكلم^(٤) - : الأكبر منكم أبي، والأوسط أخي، والأصغر ابني، وسأفعل معكم ما لم أسبق إليه. فأمسكوا فأعاد القول، فأجابوه بالسمع والطاعة^(٥)، وهي كلمة تدل على نزعته العادلة وامثاله الآداب الإسلامية، وقد تكون من وضع الوصي عليه «نظام الملك»، كما تولى هو وأبو سعد المتولي أخذ البيعة له من الأمراء والوجهاء وأطلق الأموال

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/٥٥).

(٢) المنتظم سنة ٤٦٥هـ، نقلاً عن نظام الملك د. عبد الهادي محبوبة، ص ٣٤٤.

(٣) نظام الملك، د. عبد الهادي محبوبة، ص ٣٤٤. (٤) المصدر نفسه، ص ٣٤٥.

(٥) البداية والنهاية (١٦/٣٨).

عليهم^(١)، لذلك أجمعت المصادر التاريخية على أن «النظام» لعب دوراً كبيراً في تنصيب السلطان الجديد، كما كان له الفضل الأكبر في إرساء دعائم الدولة وانتصاراتها الحربية^(٢) والفكرية والعقائدية على الباطنية والفلاسفة وذلك باهتمامه الكبير بعلماء أهل السنة ونشر المدارس النظامية في أرجاء الدولة السلجوقية، وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل بإذن الله عند الحديث عن المدارس النظامية ودورها في حفظ منهج أهل السنة ودحر المد الباطني.

وقد أثبت السلطان الجديد مقدرة فائقة في الحرب، ورغبة نادرة في الإصلاح والتعمير حتى عده أحد المؤرخين المؤسس الحقيقي للإمبراطورية السلجوقية المتزامية الأطراف وذلك بنشاطه وحنكة وزيره^(٣)، ويعتبر النظام هو الوجه لسياسة الدولة^(٤)، فسواء أكان المؤسس لدولة السلاجقة، طغرل بك، أو ألب أرسلان، أو ملكشاه، فإنهم قد تعاونوا على إنشائها وتوطيد دعائمها ثم اتساع رقعتها حتى كان لثلاثهم من أقصى بلاد الترك إلى أقصى بلاد اليمن، وقد خطب له من حدود الصين إلى آخر الشام^(٥).

٣- خروج عمه والقضاء عليه: لم يترع ملكشاه على العرش السلجوقي حتى صدقت ظنون أبيه في وصيته، وخرج عليه أعضاء أسرته مطالبين بالعرش، وكان أول هؤلاء وأشدّهم بأساً وأقواهم حجة، قاروت ملك كرمان أخو السلطان ألب أرسلان ولم يكن يخفى عليه أن النصر لا يكون له إلا إذا كسب الجيش وربح مؤازرته، فاستمال القواد والجنود بزيادة رواتبهم وتحسين حالتهم إذا أتى إلى الحكم، فقامت بذلك مظاهرتهم مطالبين بمجيء «قاروت» إلى العرش وأحقّيته بالسلطان، وكتب إلى ابن أخيه في نفس الوقت يقول: «إني أحقّ منك بالعرش لأنني الأخ الأكبر للسلطان الراحل وأنت أصغر أبنائه. وسار بجيشه إلى الري^(٦)»، وقد أدرك النظام خطورة هذه الفتنة وشدّتها، وأنها تهدد عرش السلطان ومنصب وزيره وأنها ستقضي عليهما وعلى أهدافه إذا كتب لها النصر، فقرر الإسراع بجيشهما نحو الري حتى بلغها قبل وصوله، وأجاب على رسالة عم السلطان: إن الابن أحقّ بالعرش من الأخ^(٧)، فالتقوا بقرب همدان، فانكسر جمعه، وأتى بعمه أسيراً، فوبّخه، فقال: «أمراؤك كاتبوني، وأحضر خريطة فيها كتبهم، فناولها لنظام الملك ليقراها، فرماها في منقل نار، وفرح الأمراء وبذلوا الطاعة^(٨)»، وأدخل قاروت السجن ولكن ما أدخله في روع الجنود من زيادة

(١، ٢، ٣) نظام الملك، ص ٣٤٥.

(٤، ٥، ٦) المصدر نفسه، ص ٣٤٦.

(٧) النجوم الزاهرة، نقلاً عن نظام الملك، ص ٣٤٧.

(٨) سير أعلام النبلاء (١٩/٥٥).

رواتبهم لم يزل يدفعهم إلى التظاهر والعصيان، والتهديد بمبايعة الأمير السجين إذا لم تلب طلباتهم، وأحس النظام بمرج الموقف ودقته وأنه لا بد أن يتخذ رأياً حاسماً لقطع النزاع، فوافق رؤساء الجيش على مشروعية مطالبهم ووعدهم بأنه سيحدث السلطان ويقنعه بتنفيذها، وهدأت الأحوال، وذهب لمقابلة السلطان وأخبره بما انتهى إليه الحال وأشار عليه - كما يذكر معظم المؤرخين - بقتل عمه في الحال، فأصدر السلطان أمره وقتل وما إن عاد رؤساء الجيش ليستفسروا عما تم بخصوص مطالبهم حتى فاجأهم «النظام» بأنه ما استطاع مفاتحة السلطان بأمرهم حيث وجده حزيناً على فقد عمه الذي امتص السّم من خاتم في أصبعه ومات في السجن، فعادوا واجمين خائفين، ولم يستطع أحدهم القيام بحركة مناوأة، واستتبّ الأمن في البلاد^(١)، ولم يتخلص السلطان من عمه حتى زحف نحو سمرقند وعبر نهر جيحون سنة ٤٦٧ هـ ليأخذ بثأر أبيه من البلاد التي اغتيل فيها، ولكنه لم يصل إليها حتى هرب حاكمها - خاقان البتكين - فتوسط له «النظام» وأجيب لذلك^(٢). ثم استمرت شفاعات «النظام» تترى على السلطان في طلب الصفع عن الخارجين بعد اعتذارهم، وإعادتهم إلى مقر وظائفهم واتخذ وسيلة جديدة هذه المرة في سياسته الحربية كان فيها رسول سلام ابتداءً من سنة ٤٦٧ هـ إلى ٤٧٣ هـ، حيث خرج على السلطان أخوه «تكش» بعد أن التحق بجيشه الجنود الذين فصلهم من سلك الخدمة العسكرية خلافاً لرأي وزيره «النظام»، وكان بـ «بوشنج» واستولى على مرو الروز الشاهجلمان، فسار السلطان إلى خراسان ودخل نيسابور قبل أن يصلها أخوه ثم التقيا «بترمذ» واصطلحا أيضاً سنة ٤٧٣ هـ.

ثانياً: اهتمامه بالرعية وشيء من عدله ومواقفه :

١- تفقده للرعية: زار الأقاليم وتفقد أحوال الرعية واحتياجاتهم بنفسه وبنى المخافر في السبل فانتشر الأمن من حدود الصين إلى البحر المتوسط، ومن جورجيا إلى اليمن جنوباً، وقام بجولة من أصبهان إلى الأنبار ومنها إلى الموصل، ثم سار إلى حلب حيث قضى على بعض أمرائها، وكان وزيره النظام يرافقه في جميع سفراته وجولاته وهو الذي يدبر الأمور له^(٣)، وكانت دولته، صارمة، والطرق في أيامه آمنة، ومع عظمته يقف للمسكين والمرأة والضعيف فيقضي حوائجهم^(٤)، وقد عمّر العمارات الهائلة، وبنى القناطر، وأسقط المكوس والضرائب وحفر الأنهار الكبار، وبنى مدرسة أبي حنيفة والسوق وبنى الجامع الذي يقال له: جامع السلطان ببغداد^(٥).

(٢) الكامل في التاريخ (٦/ ٢٦٥).

(٤)، (٥) البداية والنهاية (١٦/ ١٣٠).

(١) نظام الملك، ص ٣٤٧.

(٣) نظام الملك ٣٤٨.

٢- تشييعه لركب الحجاج العراقي: شيع مرة ركب العراق إلى العُذَيْب^(١)، فصاد شيئاً كثيراً، فبنى هناك منارة القرون من حوافر الوحوش وقرونها، ووقف يتأمل الحجاج، فرقّ ونزل وسجد، وعفّر وجهه وبكى، وقال بالعجمية: بلغوا سلامي إلى رسول الله ﷺ، وقولوا: العبد العاصي الآبق أبو الفتح يخدم ويقول: يا نبي الله، لو كنت ممن يصلح لتلك الحضرة المقدسة، كنت في الصحبة، فضجّ الناس وبكوا، ودعوا له^(٢).

٣- مناصرة المظلومين: كانت لملكشاه أفعال حسنة وسيرة صالحة، من ذلك أن فلاحاً أنهى إليه أن غلماناً له أخذوا له حمل بطيخ هو رأس ماله، فقال: اليوم أرؤد عليك حملك، ثم قال لمن حوله: أريد أن تأتوني ببطيخ، ففتشوا، فإذا في خيمة الحاجب بطيخ، فحملوه إليه، فاستدعى الحاجب فقال: من أين لك هذا البطيخ؟ قال: جاء به الغلمان. فقال: أحضرهم. فذهب فهر بهم، فأرسل إليه، فأحضره وسلمه إلى الفلاح، وقال: خذ بيده، فإنه مملوكي ومملوك أبي، فيأيك أن تفارقه، فرد عليه حمله، فخرج الفلاح يحمله وفي يده الحاجب، فاستفدى نفسه منه بثلاثمائة دينار^(٣).

٤- دعاؤه لله أن ينصر الأصلح للمسلمين: ولما توجه لقتال أخيه تكشى، اجتاز بطُوس، فدخل لزيارة قبر عليّ بن موسى الرضا -على زعم بعض المؤرخين- ومعه نظام الملك، فلما خرجا قال للنظام: بم دعوت؟ قال: دعوت الله أن يظفرك على أخيك. فقال: لکني قلت: اللهم إن كان أخي أصلح للمسلمين فظفره بي، وإن كنت أصلح لهم فظفّرني به^(٤). وقد سار ملكشاه هذا بعسكره من أصبهان إلى أنطاكية فما عرف أن أحداً من جيشه ظلم أحداً من رعيته^(٥).

٥- الاستر على أعراض المسلمين: اشتكى إليه تركماني أن رجلاً افتضّ بكاراة ابنته، وهو يريد أن يمکنه من قتله، فقال له: يا هذا إن ابنتك لو شاءت ما مكّته من نفسها، فإن كنت لا بد فاعلاً فاقتلها معه، فسكت الرجل، ثم قال الملك: أواخر من ذلك؟ قال: وما هو؟ قال: فإنّ بكارتها قد ذهبت، فزوّجها من ذلك الرجل وأمهرها من بيت المال كفايتها، ففعل^(٦).

٦- واعظ مع ملكشاه: وحكى له بعض الوعاظ أن كسرى اجتاز يوماً في بعض أسفاره بقرية منفرداً من جيشه، فوقف على باب دار فاستسقى، فأخرجت إليه جارية إناء فيه ماء قصب السكر بالثلج فشرب منه فأعجبه، فقال: كيف تصنعين هذا؟ فقالت: إنّه سهل علينا

(١) هو ماء بين القادسية والمغيثة، معجم البلدان (٩٢/٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (٥٦/١٩).

(٣)، (٤)، (٥)، (٦) البداية والنهاية (١٦/١٣١).

اعتصاره على أيدينا، فطلب منها شربة أخرى، فذهبت لتأتيه بها فوقع في نفسه أن يأخذ هذا المكان منهم ويُعَوِّضهم عنه، فأبطأت عليه ثم خرجت وليس معها شيء فقال: مالك؟ فقالت: كأن نية سلطاننا تغيرت علينا، فتعسر عليّ اعتصاره - وهي لا تعرف أنه السلطان - فقال: اذهبي فإنك الآن تقدرين، وغير نيته إلى غيرها، فذهبت، وجاءته بشربة أخرى سريعاً فشربها وانصرف. فقال له ملكشاه: هذه تصلح لي، ولكن قصّ على الرعية حكاية كسرى الأخرى حين اجتاز بستان، فطلب من ناطوره، عنقوداً من حصرم، فإنه قد أصابته صفراء، وعطش. فقال له الناطور: إنّ السلطان لم يأخذ حقه منه، فلا أقدر أن أعطيك منه شيئاً. قال: فعجب الناس من ذكاء الملك وحسن استحضاره هذه في مقابلة تلك ^(١).

٧- إقامة العدل على الأمراء: واستعداه رجلان من الفلاحين على الأمير خمارتكين أنه أخذ منهما مالاً جزيلاً وكسر ثنيتيهما وقالاً: سمعنا بعدلك في العالم، فإن أقدتنا منه كما أمرك الله وإلا استعدينا عليك الله يوم القيامة، وأخذاً بركابه، فنزل عن فرسه وقال لهما: خُذا بكمي فاسحباني إلى دار نظام الملك، فهابا ذلك، فعزم عليهما، ففعلا ما أمرهما به، فلما علم النظام بمجيء السلطان إليه خرج مسرعاً من خيمته، فقال له الملك: إني قلدتك الأمر لتُصِفَ المظلوم ممن ظلمه، فكتب من فوره بعزل خمارتكين وحلّ إقطاعه وأن يرد إليهما أموالهما وأن يقلعا ثنيتيه إن قامت عليه البيّنة، وأمر لهما الملك من عنده بمائة دينار ^(٢).

٨- المال مال الله والعباد عبيده: أسقط مرة بعض المكوس، فقال رجل من المستوفين: يا سلطان العالم إن هذا يعدل ستمائة ألف دينار وأكثر. فقال ويحك، إن المال مال الله، والعباد عبيده، والبلاد بلاده، وإلّا يبقى هذا لي عند الله، ومن نازعني في هذا ضربت عنقه ^(٣).

٩- إني أغار على هذا الوجه الجميل من النار: غنّته امرأة حسناء فطرب وتاقت نفسه إليها، فهم بها، فقالت: أيها الملك، إني أغار على هذا الوجه الجميل من النار وبين الحلال والحرام كلمة واحدة، فاستدعى القاضي فزوجه بها ^(٤).

١٠- أقمّت لك جيشاً يسمى جيش الليل: كان نظام الملك يهتم بالعلماء والزهاد والمدارس العلمية وينفق الأموال الضخمة على الأساتذة والطلاب جميعاً، فسعى بالوشاية إلى السلطان ملكشاه خصومه وقالوا له إن النظام ينفق في كل سنة على الفقهاء والصوفية والقراء ثلاثمائة ألف دينار ^(٥)، ولو صرف هذا المال على جيش لرفع رايته على أسوار

(١)، (٢) البداية والنهاية، (١٣٢/١٦).

(٤) المصدر نفسه (١٣٣/١٦).

(٣) البداية والنهاية (١٣٢/١٦).

(٥) في سراج الملوك للطرطوشي: ستمائة ألف دينار، ص ٢٢٧.

القسطنطينية، فاستجوب السلطان وزيره فقال له: يا بني أنا شيخ أعجمي لو نودي عليّ لما زادت قيمتي على ثلاثة دنانير، وأنت تركي لتلك تبلغ المائة دينار، وقد أنعم الله عليك وعليّ بواسطتك ما لم يعطه أحداً من خلقه، أفلا تعوضه عن ذلك في حملة دينه وحفظة كتابه بثلاثمائة ألف دينار.. ثم إنك تنفق على الجيوش المحاربة في كل سنة أضعاف هذا المال مع أن أقوامهم وأرماهم لا تبلغ رميته ميلاً، ولا يضرب سيفه إلا ما قرب منه، وأنا أقمت لك بهذا المال جيشاً يسمى جيش الليل، قام بالدعاء إذا نامت جيوشك، فمدوا إلى الله أكفهم وأرسلوا دموعهم فتصل من دعائهم سهام^(١) على العرش لا يحجبها شيء عن الله، فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون وبدعائهم تثبتون وبركاتهم ترزقون^(٢).. فبكى السلطان وقال: شاباش يا أبت شاباش - بالتركي - ومعناه بالعربي: استكثر من هذا الجيش^(٣).

١١- زواج الخليفة المقتدي بابنة ملكشاه: تزوج الخليفة المقتدي بابنته بسفارة شيخ الشافعية أبي إسحاق، وكان عرسها في سنة ٤٨٠هـ وعملت دعوة بجيش السلطان ما سُمع بمثلها أبداً، فمما دخل فيها أربعون ألف من سكرأ، فولدت له جعفر^(٤)، وكان ملكشاه يريد أن يجعل الخلافة العباسية تتحول إلى من أمه ابنته، كما زوج ابنته الأخرى إلى المستظهر العباسي ولم يتمكن من حصر الخلافة والسلطنة في شخص حفيده^(٥).

١٢- وصف جهاز ابنة السلطان ملكشاه وزفتها: في المحرم نُقل جهاز ابنة السلطان ملكشاه إلى دار الخلافة على مائة وثلاثين جملاً مجلّة بالديباج الرومي، وكان أكثر الأحوال الذهب والفضة وثلاث عمّاريات، وعلى أربعة وسبعين بغلاً مجلّة بأنواع الديباج الملكي، وأجراسها وقلائدها من الذهب والفضة وكان على ستة منها اثنا عشر صندوقاً من فضة لا يقدر ما فيه من الجواهر والحلي، وبين يدي البغال ثلاثة وثلاثون فرساً من الخيل الرائقة، عليها مراكب الذهب مرصّعة بأنواع الجواهر، ومهد عظيم كثير الذهب، وسار بين يدي الجهاز سعد الدولة كوهرائين، والأمير برسق، وغيرهما، ونثر أهل نهر مُعلى عليهم الدنانير والثياب، وكان السلطان قد خرج عن بغداد متصيّداً، ثم أرسل الخليفة الوزير أبا شجاع إلى تركان خاتون، زوجة السلطان، وبين يديه نحو ثلاثمائة موكبيّة، ومثلها مشاعل، ولم يبق في الحريم دكان إلا وقد أشعل فيها الشمعة والاثنتان والأكثر من ذلك، وأرسل الخليفة مع ظفر

(١) نظام الملك، ص ٦٥١.

(٢) الحقيقة في نظر الغزالي، د. سلمان دنيا، ص ١٦.

(٣) نظام الملك، ص ٢٦١، أخبار الدولة السلجوقية، ص ٦٦، ٦٧.

(٤) سير أعلام النبلاء (١٩/٥٧).

(٥) السلاطين في المشرق العربي ص ٣٠، الدولة العثمانية للصّلاحي، ص ٩٢.

خادمه محفة لم يُر مثلاً حسناً وقال الوزير لركان خاتون: سيّدنا ومولانا أمير المؤمنين يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] وقد أذن في نقل الوديعة إلى داره، فأجابت بالسمع والطاعة، وحضر نظام الملك ومن دونه من أعيان دولة السلطان وكل منهم معه من الشمع والمشاعل الكثير، وجاء نساء الأمراء الكبار ومن دونهم كل واحدة منهن منفردة في جماعتها وتجمّلها وبين أيديهن الشمع والموكيات والمشاعل يحمل ذلك جميعه الفرسان ثم جاءت الخاتون ابنة السلطان، بعد الجميع في محفة مجللة، عليها من الذهب والجواهر أكثر شيء وقد أحاط بالحفّة مائتا جارية من الأتراك بالمرائب العجيبة وسارت إلى دار الخلافة وكانت ليلة مشهودة لم يُر ببغداد مثلاً^(١).

ثالثاً: الاستقرار السلجوقي في بلاد الشام؛ بذل السلاجقة جهوداً كبيرة للسيطرة على بلاد الشام، وبعد أن ثبت ملكشاه أقدامه في الحكم واطمأن على سلطنته التفت إلى بلاد الشام، وأحيا مشروع أبيه السلطان ألب أرسلان بغزو هذه البلاد وضم مصر إليها والقضاء على الدولة الفاطمية، فاختار أن يولي على هذه الجبهة البعيدة أميراً سلجوقياً ويشغله في نفس الوقت عن التفكير بالشغب عليه أو منافسته، ويؤمّن الإقطاع لقسم كبير من الجيش السلجوقي المتزايد، وكان تتش قد اختص بمجموعة من الممالك الذين يتولون تربيته وتدريبه وشنّ الحملات باسمه والدفاع عنه، على عادة السلاجقة، لأنه كان لا يزال فتى، وسرعان ما انتشرت الأخبار بما عزم السلطان عليه وبلغت مسامع أئمة الخوارزمي صاحب بلاد الشام، فكتب للسلطان يشرح له ما بذله من جهد في خدمة الدولة السلجوقية، وأنه ما يزال الخادم المطيع، ووعدته بدفع مبلغ ثلاثين ألف دينار في السنة مقابل إبقائه حاكماً على بلاد الشام^(٢)، وأصرّ ملكشاه على تنفيذ مشروعه فولّى أخاه تاج الدولة تتش حكم بلاد الشام وما يفتحه في تلك النواحي، كما أشرنا، وأمره بالمسير إليها، وكتب إلى القوى المتمركزة في إقليم الجزيرة وبلاد الشام بالانضمام إليه ومساعدته كان من بينهم مسلم بن قريش العقيلي أمير الموصل ووثاب بن محمود، وزعماء القوى التركية، غير أن هذه النجدة لم تصل إلى حلب وتشتت قبل ذلك، حيث قضى عليها سابق حاكم حلب بالتعاون مع مسلم بن قريش في وادي بزاغة، فتحرّج موقف تُش نتيجة ذلك، وما إن ابتعدت قواته عن أسوار حلب وهي تطارد البدو حتى خرجت القوات الحلبية من وراء الأسوار وهاجمت معسكراته وغنمت ما كان فيها^(٣)، ويبدو أنه لم يحقق أي نجاح في مطاردته للعرب، عندما علم بنهب معسكراته، قرّر عبور

(٢) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، ص ١٢٥.

(١) الكامل في التاريخ (٦/٣٠٨، ٣٠٩).

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٨.

الفرات للانتقام من مسلم بن قريش، ولكن هذا الأخير كان يقطاً، فاضطر مكرها إلى التخلي عن خطته وذهب إلى ديار بكر حيث أمضى فصل الشتاء في مضارب بني مروان^(١)، وهكذا تفرق التحالف الذي أنشأه السلطان ملكشاه، وأخفق أمام أسوار حلب وكتب تُشش من مشته إلى أخيه يشرح له ما آلت إليه الأوضاع في شمالي بلاد الشام ويطلب منه نجدة أخرى، ثم غادر مع قواته الجديدة التي وصلت إليه متوجها إلى حلب للاستيلاء عليها إلا أنه فشل وغادر وقواته المنهكة مدينة حلب بعد أن أدرك عدم جدوى الاستمرار في الحصار والاستيلاء على حلب، فيمم وجهه نحو دمشق^(٢).

١ - الاستيلاء على دمشق: غادر تُشش وقواته المنهكة مدينة حلب وفي نفسه شيء منها متوجهاً نحو الجنوب، فاستولى على حماة والمعرة وما جاورهما، وأطاعه أمير حمص خلف بن ملاعب، فأقره على حكمها. وإذا كان التوغل السلجوقي في بلاد الشام قد بدأ بوصول تُشش، إلا أنه لم يحقق حتى ذلك الوقت أي إنجاز يذكر وتبين من خلال أعماله أنه كان عسوقاً ذا سطوة وجبروت وظلم وتدمير وسلب ونهب^(٣)، وقد سنحت له الفرصة ليضع يده على مقدرات بلاد الشام ويؤسس دولة سلجوقية في ربوعها وكان لذلك علاقة بالمحاولات الفاطمية الهادفة إلى استعادة نفوذ الفاطميين في هذه البلاد، فقد حدث أن أرسل بدر الجمالي جيشاً فاطمياً بقيادة ناصر الدولة الجيوشي إلى بلاد الشام لإعادة بسط السيادة الفاطمية عليها فحاصر دمشق عام ٤٧١هـ واستولى على أعمالها وأعمال فلسطين^(٤)، وأدرك أتسز أنه لا قبل له بهذا الجيش الكبير فاضطر أن يطلب المساعدة من تُشش، ووعد بتسليمه دمشق ويكون تابعاً له^(٥)، وكان هذا هو الحل الوحيد أمامه، وهو أن يضع نفسه تحت الحماية المباشرة للسلاجقة العظام^(٦)، رحب تُشش بهذه الدعوة، وكان ينوي متابعة زحفه إلى دمشق بعد فشله أمام حلب، وسار قاصداً المدينة لنجدتها ولم يكن يقترب منها حتى فكَّ ناصر الدولة الجيوشي الحصار عنها وانسحب باتجاه الجنوب، لأن قواته كانت عاجزة عن أن تقف في وجه القوة السلجوقية، وبخاصة أن طرابلس وصور امتنعتا عن تقديم المساعدة له، بل إن حاكميهما صانعا السلاجقة بالهدايا والملاطفات^(٧)، وعندما وصل تُشش إلى مرج عذراء الواقع إلى الشمال الشرقي من دمشق استقبله أتسز، فبذل له الطاعة وسلمه البلد وبعد أن أقام بضعة أيام في مرج عذراء توجه إلى المدينة، فاستقبله أتسز عند أسوارها ولم يذهب أبعد من

(١)، (٢) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، ص ١٢٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٩.

(٤)، (٥) تاريخ دمشق لابن القلاسي، ص ١٨٣.

(٦) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، ص ١٢٩.

(٧) تاريخ دمشق لابن القلاسي، ص ١٨٢.

ذلك للقاءه، فاغتاظ منه تُشش وعاتبه على ذلك، فاعتذر بأمور لم يقبلها ^(١)، ويبدو أن تُشش خشي من طموحات أتسز، ولم يطمئن إلى وجوده إلى جانبه، فاتخذ من ذلك حجة وتخلص منه، كما قتل أخاه جاولي وتسلم دمشق دون قتال، وأسس لنفسه ولأسرته حكماً فيها ^(٢)، وبذلك أضحي تشش يسيطر على الأقاليم الوسطى من بلاد الشام، وجهد بعد ذلك للعمل على بسط سلطانه على كامل بلاد الشام وبخاصة المدن الساحلية التي كانت تدين بالطاعة للدولة الفاطمية أو تُحكم من قبلها مباشرة وإنشاء دولة أخرى للسلاجقة في هذه البلاد يتولى حكمها بمعزل عن السلاجقة العظام في خراسان وفارس ^(٣).

٢- زوال الإمارة المرداسية وقيام الإمارة العقيلية في حلب: ضاق الأمر كثيراً بأهل حلب تحت حكم سابق بن محمود المرداسي، فراسلوا مسلم بن قريش ليخلصهم مما هم فيه، فسار إليهم سنة ٤٧٢هـ، فأغلق سابق أبواب حلب في وجهه ومعه بداخل حلب الشريف أبو علي الحسين بن هبة الله الهاشمي العباسي المعروف بالحتيتي ^(٤) فخرج ابن له من داخل حلب إلى الصيد فقبض ابن قريش عليه وجعله رهينة بيده كي تستسلم له المدينة، فاستسلمت له فعلاً ودخلها هي والقلعة بسلام ^(٥)، ويقول ابن الجوزي: إن سابق ابن محمود هو الذي أوحى لمسلم بن قريش بالقدوم إليه لتسليمه المدينة، ومما قاله له: أنت أولى بي من الغير والعربية تجمعنا، فإن كنت مأكولاً فكن أنت أكلي.. وسار مسلم بن قريش إلى حلب فوصلها ثاني عشر من ذي الحجة ومعه بنو كلاب وكلب وغير جميع القبائل وقد أطاعوه خوفاً من الغز وأنفق عليهم الأموال فكسر الأحداث ^(٦) الأبواب يوم الجمعة لعشر بقين من ذي الحجة ودخل أصحابه إليها ولم يتأذ أحد من أهلها، ولا أغلق فيها دكان وراسل سابق بن محمود وهو في القلعة مراسلة انتهت إلى أن يزوجه سابق بابنته ويعوضه مالاً على أن يسلم القلعة فرضي وحط سابق رحله وماله في البلد ولم يبق إلا أن ينزل فوثب أخواه شبيب ووثاب فقبضا عليه واستوليا على القلعة، فجمع مسلم مقدمي بني كلاب وقال: علمتم أنني أنفقت أموالاً وبعدت عن بلادي في حراسة بلادكم وأموالكم وكف عادية الغز عنكم، وهذه مقابلة ما أعرفها فإن كنتم رجعتم فهأنذا راجع بلادي ومبرئ منكم فأنكروا ما جرى وشرطوا السعي فيه وإزالة ما تجدد منه، فدخل حلب واستقامت له ^(٧). والذي

(١) الكامل في التاريخ (٦/ ٤٧١).

(٢) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، ص ١٣٠.

(٣) زبدة الحلب (٢/ ٦٧، ٦٨).

(٤) المتنظم (٨/ ٣٢٣).

(٥) منتظمة الأحداث تتولى المحافظة على مصالح السكان في المدينة وعلى النظام العام وحماية الأسوار والأبواب ومساعدة الجيوش النظامية.

(٦) مرآة الزمان، سبط ابن الجوزي ٢٠٢، ٢٠٣.

يتضح أن أوضاع حلب تردت كثيراً بسبب ما تعرضت له من حصار ومنازعات بين السلاجقة وغيرهم من الأمراء العرب مما جعل سابق بن محمود يوصي إلى مسلم بن قريش العقيلي كي يأتي إليه ليسلمه المدينة، أما الرواية التي تقدمت بأن مسلم بن قريش جاء وحاصر حلب ولم تستسلم له في بادئ الأمر لامتناع سابق عليه، فإنه يمكن القول إنه كان متردداً في ذلك، وقد أوصى لمسلم بن قريش عندما كان السلاجقة يهددونه، وعندما جاء مسلم بن قريش وزال الخطر تراجع عن التسليم إليه، ثم وجد ألا مناص فتنازل له عن حلب وانتهى الأمر على ذلك بالرغم من معارضة أخويه وثاب وشيب^(١)، وقد أرسل شرف الدولة مسلم بن قريش إلى السلطان السلجوقي ملكشاه يخبره بما فعل وطلب منه إقراره على حلب، وتعهد أن يرسل في كل سنة ثلاثمائة ألف دينار فأقره السلطان^(٢)، وهكذا تبدو سياسة الأمير العقيلي مسلم بن قريش، سياسة تنبع من المصلحة الشخصية التي كانت قائمة على سياسة المد والجزر، فهو يلاين السلطان ويسايره، ويعده بالولاء والطاعة وإرسال الأموال، وفي الوقت نفسه يعمل على تقليص النفوذ السلجوقي من الشام والجزيرة، لينبئ له زعامة مستقلة عن حكمهم، والآن وقد انقسمت الشام إلى إمارتين كبيرتين إحداهما في الجنوب ومقرها دمشق لتتش ابن السلطان ألب أرسلان وثانيتها في الشمال ومقرها حلب لمسلم بن قريش العقيلي، فما العلاقة التي قامت بين هاتين الإمارتين اللتين تدّعي إلى كل منهما الولاء والطاعة لبني سلجوق؟^(٣).

٣- علاقة مسلم بن قريش مع تتش ابن السلطان ألب أرسلان في الشام: بدأت أعمال التوتر والاستفزاز تظهر بينهما، كما بدأ كل واحد منهما يوسع من دائرة أحلافه وأنصاره استعداداً للمعركة الفاصلة^(٤) وقام مسلم بن قريش بمهاجمة حمص سنة ٤٧٥هـ، وكان يليها خلف بن ملاعب، مطيعاً لتتش السلجوقي، فكتب إليه: إن هذا صاحبي ومنتم إليّ فأرحل عنه. فبعث مسلم إليه: إن هذا رجل مفسد في أعمال السلطان، قاطع سبلها، فإن كان صاحباً لك فخذة إليك. فسار تتش لنجدته، فخاف ابن قريش عتب السلطان ملكشاه في مقاتلة أخيه تتش، فانسحب عنه، وفي طريقه قبض على ما يقرب من ثلاثمائة فارس من التركمان وفرقهم في القلاع، فكان آخر العهد بهم^(٥).

٤- حملة مسلم بن عقيل على دمشق سنة ٤٧٥هـ: وردت كتب في هذه السنة من بعض أمراء العرب إلى مسلم بن قريش يحثونه فيها على ضرورة تخليص بلاد الشام مما هي

(١) سلاجقة الشام والجزيرة، د. أرشيد يوسف، ص ٨٠.

(٢) تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٧٢.

(٣، ٤، ٥) سلاجقة الشام والجزيرة، أرشيد يوسف، ص ٨١.

فيه وكان عندئذ مقيماً في الجزيرة^(١)، وتصادف مع ذلك خروج تتش من دمشق إلى نواحي أنطاكية^(٢)، فانتهاز ابن قريش هذه الفرصة وجمع عساكره من العرب والأكراد وأسرع بهم نحو دمشق ليأخذها من السلاجقة، ثم اتصل بالفاطميين طالباً العون منهم^(٣)، غير أن هذه الحملة فشلت وارتد مسلم بن قريش عائداً عنها إلى الجزيرة، وقد ذكر المؤرخون أن فشله يعود إلى جملة أسباب منها: أن الفاطميين تقاعسوا عن نصرته، ثم عاد تتش مسرعاً عندما علم بحملته، كما عصى أهل حران عليه في الجزيرة مما أجبره على العودة إليها^(٤).

٥- مقتل شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي سنة ٤٧٨هـ: استولى سليمان بن قتلمش السلجوقي على أنطاكية من أيدي الروم سنة ٤٧٨هـ بعد أن كانت بيدهم منذ سنة ٣٥٨هـ، فلما ملكها سليمان أرسل إليه شرف الدولة مسلم بن قريش يطلب منه ما كان يحمله إليه الفردوس من المال، ويخوفه معصية السلطان، فأجابته: أما طاعة السلطان، فهي شعاري، ودياري، والخطبة له، والسكّة في بلادي، وقد كاتبته بما فتح الله على يدي بسعاده من هذا البلد، وأعمال الكفار^(٥)، وأما المال الذي كان يحمله صاحب أنطاكية قبلي، فهو كان كافراً، وكان يحمل جزية رأسه وأصحابه، وأنا - بحمد الله - مؤمن، ولا أحمل شيئاً، فنهب شرف الدولة بلد أنطاكية، ونهب سليمان أيضاً بلد حلب، فلقى أهل السواد يشكون إليه نهب عسكره فقال: أنا كنت أشد كراهية لما يجري، ولكن صاحبكم أحوجني إلى ما فعلت، ولم تجر عادتي بنهب مال مسلم، ولا أخذ ما حرّمته الشريعة، وأمر أصحابه بإعادة ما أخذوه منهم فأعاده، ثم إن شرف الدولة جمع الجموع من العرب والتركمان، وكان ممن معه جبق أمير التركمان في أصحابه وسار إلى أنطاكية ليحصرها، فلما سمع سليمان الخبر جمع عساكره، وسار إليه فالتقيا في الرابع والعشرين من صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة في طرف من أعمال أنطاكية واقتتلوا، فمال تركمان جبق إلى سليمان، فانهزمت العرب، وتبعهم شرف الدولة منهزماً، فقتل بعد أن صبر، وقُتل بين يديه أربعمائة غلام من أحداث حلب، وكان يوم قتل في يده ديار ربيعة ومضر من أرض الجزيرة والموصل وحلب، وما كان لأبيه وعمّه قرواش، وكان الأمن في بلاده عاماً، والرخيص شاملاً وكان يسوس بلاده سياسة عظيمة، بحيث يسير الراكب والراكبان فلا يخافان شيئاً، وكان له في كل بلد وقرية عامل، وقاض، وصاحب خبر، بحيث لا يتعدى أحد على أحد، ولما قتل قصد بنو عقيل أخاه

(١) زبدة الحلب (٢/٧٩).

(٢) النجوم الزاهرة (٥/١١٥)، سلاجقة الروم والجزيرة، ص ٨١.

(٤) خطط الشام (١/٢٦٦، ٢٦٧)، سلاجقة الروم والجزيرة، ص ٨٢.

(٥) الكامل في التاريخ (٦/٢٩٤).

إبراهيم بن قريش، وهو محبوس، فأخرجوه وملكوه أمرهم^(١)، وتزوج صفية خاتون عمه السلطان ملكشاه (زوجة مسلم أخيه سابقاً) غير أن السلطان ملكشاه لم يعترف بهذه الزعامة، فأمر إبراهيم بن قريش بالقدوم عليه بأصفهان، فقبض عليه وسجنه وأرسل مكانه على بني عقيل، أبا عبد الله محمد بن مسلم بن قريش وأقطعته الرحبة وحرّان والرقّة وسروج في الجزيرة، ثم زوجه بأخته زليخة خاتون سنة ٤٧٩هـ^(٢).

٦- النزاع بين تتش وسليمان بن قتلمش: انسحب سليمان بن قتلمش إلى أنطاكية بعد المعركة التي قتل فيها مسلم بن قريش وأرسل إلى ابن الحتّيتي «القائم بأعمال حلب بعد ابن قريش» يطلب منه طاعته والتبعية له فرد عليه بمأطله ويعتذر حتى يكاتب السلطان السلجوقي في هذا الأمر، وفي الوقت نفسه قام ابن الحتّيتي بمراسلة تتش للقدوم إليه لتسليمه المدينة^(٣)، اتجه كل من سليمان بن قتلمش وتتش إلى حلب طمعاً فيها، فالتقت عساكرهما في شهر صفر ٤٧٩هـ فانهزم أصحاب سليمان وثبت هو في القلب، فلما رأى انهزام عساكره أخرج سكيناً معه فقتل نفسه، وقيل: بل قتل في المعركة، واستولى تتش على عسكره، وكان سليمان بن قتلمش في السنة الماضية في صفر قد أنفذ جثة شرف الدولة إلى حلب على بغل ملفوف في إزار وطلب من أهلها أن يسلموها إليه، وفي هذه السنة في صفر أرسل تُتش جثة سليمان في إزار ليسلموها إليه، فأجابه ابن الحتّيتي أنه يكاتب السلطان، ومهما أمره فعل، فحصر تُتش البلد، وأقام عليه، وضيق على أهله، وكان ابن الحتّيتي قد سلم كل برج من أبراجها إلى رجل من أعيان البلد ليحفظه، وسلم برجاً فيها إلى إنسان يعرف بابن الرعوي. ثم إن ابن الحتّيتي أوحشه بكلام أغلظ له فيه، وكان هذا الرجل شديد القوة، ورأى ما الناس فيه من الشدة، فدعاه ذلك إلى أن أرسل إلى تتش يستدعيه، وواعده ليلة يرفع الرجال إلى السور في الجبال، فأتى تُتش للميعاد الذي ذكره، فأصعد الرجال في الجبال والسلام، وملك تُتش المدينة، واستجار ابن الحتّيتي بالأمير فشفع فيه، وأمّا القلعة فكان بها سالم بن مالك بن بدران، وهو ابن عم شرف الدولة مسلم بن قريش، فأقام تُتش يحصر القلعة سبعة عشر يوماً، فبلغه الخبر بوصول مقدمة أخيه السلطان ملكشاه، فرحل عنها^(٤).

٧- السلطان ملكشاه يتسلم حلب: كان ابن الحتّيتي قد كاتب السلطان ملكشاه يستدعيه ليسلم إليه حلب، لما خاف تاج الدولة تُتش، فسار إليه من أصبهان في جمادى الآخرة، وجعل على مقدمته الأمير برسق، وبوزان وغيرهما من الأمراء، وجعل طريقه إلى

(٢)، (٣) سلاجقة الشام والجزيرة، ص ٨٣.

(١) الكامل في التاريخ (٦/٢٩٥، ٣٩٤).

(٤) الكامل في التاريخ (٦/٣٠٠).

الموصل، فوصلها في رجب، وسار منها، فلما وصل إلى حران سلّمها إليه ابن الشاطر، فأقطعها السلطان لمحمّد بن شرف الدولة، وسار إلى الرّها، وهي بيد الروم فحصرها وملكها، وكانوا قد اشتروها من ابن عطير، وسار إلى قلعة جعبر، فحصرها يوماً وليلة وملكها، وقتل من بها من بني قشير، وأخذ جعبر من صاحبها^(١) -وهو شيخ أعمى- ولدين له، وكانت الأذية بهم عظيمة يقطعون الطرق ويلجأون إليها، ثم عبر الفرات إلى مدينة حلب، فملك في طريقه مدينة منبج، فلما قارب حلب رحل عنها أخوه تُتش، وكان قد ملك المدينة، كما ذكرنا، وسار عنها يسلك البرية، ومعه الأمير أرتق، فأشار بكبس عسكر السلطان، وقال: إنهم قد وصلوا وبهم وبدوابهم من التعب ما ليس عندهم معه امتناع؛ ولو فعل لظفر بهم. فقال تُتش: لا أكسر جاه أخي الذي أنا مستظل بظله، فإنّه يعود بالوهن عليّ أولاً. وسار إلى دمشق، ولما وصل السلطان إلى حلب تسلم المدينة، وسلّم إليه سالم بن مالك القلعة على أن يعوّضه عنها قلعة جعبر، وكان سالم قد امتنع بها أولاً، فأمر السلطان أن يُرمي إليه رشقاً واحداً بالسهم، فرمى الجيش، فكادت الشمس تحتجب لكثرة السهام، فصانع عنها بقلعة جعبر وسلمها، وسلم السلطان إليه قلعة جعبر، فبقيت بيده ويبد أولاده إلى أن أخذها منهم نور الدين محمود زنكي، على ما نذكره إن شاء الله تعالى، وأرسل إليه الأمير نصر بن علي بن منقذ الكناني، صاحب شيزر، فدخل في طاعته، وسلم إليه اللاذقية، وكفر طاب، وأفامية، فأجابه إلى المسالمة، وترك قصده، وأقر عليه شيزر، ولما ملك السلطان حلب سلمها إلى قسيم الدولة آق سنقر، فعمرها، وأحسن السيرة فيها، وأمّا ابن الحُتّي فإنّه كان واثقاً بإحسان السلطان ونظام الملك إليه، لأنّه استدعاهما، فلما ملك السلطان البلد وطلب أهلها أن يعفيهم من ابن الحُتّي، فأجابهم إلى ذلك، واستصحبه معه، وأرسله إلى ديار بكر، فافتقر، وتوفي بها على حال شديدة من الفقر وقتل ولده بأنطاكية، قتله الفرنج لما ملكوها^(٢).

رابعاً: تأسيس سلطنة سلاجقة الروم: ٤٧٠هـ - ٤٧٩هـ؛ أتاحت معركة ملاذكرد ٤٦٣هـ للسلالة السلاجقة الأنشيان إلى جوف آسيا الصغرى، وشجعتهم النزاعات والحروب الداخلية التي نشبت بين البيزنطيين على الاستقرار في ربوعها، وتأسيس سلطنة عُرفت في التاريخ باسم «سلطنة سلاجقة الروم» أسسها سليمان بن قتلмыш الذي يعد بحق جد سلاطين آسيا الصغرى، أخذ سليمان على عاتقه إدارة شؤون المنطقة الشمالية الغربية بعد رحيل ألب

(١) الكامل في التاريخ، ص (٣٠٠/٦).

(٢) المصدر نفسه (٣٠١/٦).

أرسلان عن آسيا الصغرى، وعزم على أن يقيم لنفسه سلطنة في قونية وأقسرا وغيرهما من المدن التي كانت تحت حكم قُلمش، ويتولى حكمها مع الاعتراف بسيادة ملكشاه سلطان السلاجقة العظام الذي خلف أباه ألب أرسلان وكان الأول قد عهد إليه بإدارة المنطقة لصالح الأتراك^(١)، وقد ساعد سليمان في تحقيق غايته عاملان:

أ- التغير الديمجرافي الناتج عن الفتوح، إذ أضحت المناطق الشمالية والشرقية شبه خالية بعد أن هجرها سكانها، ذلك أن القبائل التركية التي ساندت سليمان في فتوحه، كانت تطوف أرجاء الأناضول تلتمس الماء والكلا، فاضطر السكان إلى مغادرة قراهم ومزارعهم إلى مناطق أكثر أمناً فدخل إليها السلاجقة واستقروا فيها وغيروا معالمها.

ب- الأوضاع البيزنطية المضطربة، استفاد السلاجقة خلال الأعوام التي انقضت بعد ملاذكرد من الأوضاع المضطربة داخل الأجهزة البيزنطية، وراحوا يتدخلون في الشؤون الداخلية لأطراف النزاع وظهروا كحلفاء ومساعدين لبعضهم، مما يسّر لهم التوغل بعيداً حتى وصلوا إلى المقاطعات الغربية في آسيا الصغرى^(٢).

وقد ازدادت الفوضى في بلاد الأناضول نتيجة استمرار الانفضاضات على الحكومة المركزية، بالإضافة إلى التوسع السلجوقي، وفقدت الدولة البيزنطية سيطرتها على المنطقة، وتعطلت طرق المواصلات بفعل تدمير البدو لها، ولم يكن ثمة سياسة بيزنطية مدروسة، ويبدو أن ما جرى من استخدام القوات التركية هياً للسلاجقة الاستقرار والإقامة في غربي آسيا الصغرى، واعترف الأتراك بسليمان زعيماً، ولم تكد تنتهي سنة ٤٧١هـ إلا وكانت حامية نيقية السلجوقية قد أعلنت العصيان على نفقور الثالث الذي أقامها في هذه المدينة، وبذلك فقدت الإمبراطورية البيزنطية أهم مدنها بعد أن سيطر عليها السلاجقة، وكان السلطان ملكشاه يراقب تحركات سليمان ونشاطه في آسيا الصغرى عن بعد، ورأى أن يعينه حاكماً على سلاجقة الروم بعد أن ضمَّ إليه قونية وأقسرا وقيصرية وتوابعها^(٣)، وفي الحقيقة استطاع سليمان أن يضع أساس سلطنة سلاجقة الروم^(٤)، وأن يجعل من مدينة نيقية عاصمة لها^(٥).

(١) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص ٥٣، ٥٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٧.

(٣) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا، ص ٥٦.

(٥) تاريخ سلاجقة بلاد الشام، ص ١٣٩.

خامساً: الحسن بن الصباح والدعوة النزارية الإسماعيلية «الحشيشية»: نشأت الدعوة

الإسماعيلية النزارية بصورة خاصة في المشرق الإسلامي، وكان أنصارها يعرفون كذلك بالباطنية والحشيشية أو الحشاشين، وتعود جذور الدعوة النزارية إلى سنة ٤٧٨هـ حين توفي الخليفة الفاطمي المستنصر دون أن يبايع لابنه الأكبر نزار رغم أنه أبدى رغبته في ذلك في أواخر أيامه إلا أن الحاشية وعلى رأسها أمير الجيوش الوزير بدر الجمالي حالت دون ذلك، وقد بويغ بعد وفاة المستنصر ابنه الأصغر المستعلي بالله وبذلك انشقت الدعوة الإسماعيلية إلى شقين: النزارية والمستعلية وكان الحسن بن الصباح الحميري قد نشأ بالري في بلاد فارس، وتأثر في شبابه بالدعوة الإسماعيلية الفاطمية وزار مصر والتقى بالمستنصر^(١). وظل الحسن بن الصباح مقيماً في مصر زهاء ثمانية عشر شهراً، كان خلالها موضع حفاوة المستنصر، فأمدّه بالأموال، وأمره بأن يدعو الناس إلى إمامته في بلاد العجم^(٢)، وكان الحسن بن الصباح يرى أن تولية نزار تتفق مع التعاليم الإسماعيلية التي تشترط في الإمام أن يكون أكبر أبناء أبيه^(٣)، ولا شك أن إقامة الحسن بن الصباح في مصر أتاحت له التعرف على أحوال الدولة الفاطمية، وما آلت إليه الدعوة الإسماعيلية في ظل سيطرة بدر الجمالي، وقد عزم على إقامة الدعوة للمستنصر في فارس وخراسان وحرص على تكوين مجتمع إسماعيلي^(٤) صرف وحين عاد إلى بلاد فارس بدأ بنشر دعوته إلى نزار رافضاً البيعة للمستعلي معتبراً نفسه نائب الإمام مخططاً لإنشاء دولة إسماعيلية جديدة في المشرق الإسلامي^(٥).

١ - السيطرة على قلعة الموت عام ٤٨٣هـ: اتصل الحسن بن الصباح ببلاط السلاجقة - قبل ذهابه لمصر - مع نظام الملك لدى السلطان ملكشاه، ثم هرب من الري، بسبب نشاطه في الدعوة الإسماعيلية وإيوائه لمجموعة من دعاة الفاطميين، وخرج إلى مصر تلبية لطلب الداعي الكبير عبد الملك بن عطاش ليحضر دروس العلم الباطنية في مصر وليقابل إمامهم المستنصر ويعلن له الولاء وبشكل مباشر، وخرج من الري في طريقه إلى مصر عام ٤٦٧هـ داعياً إلى نحلة القوم، في كل بلد يمر بها، ووصل القاهرة عام ٤٧١هـ، فاستقبله المستنصر بحفاوة في قصره وتحادثا في شئون الدعوة، وكيف تقام في بلاد العجم، وقال الحسن للمستنصر: من إمامي بعدك؟ قال: ابني نزار، وقد أكرمه المستنصر وأعطاه مالاً، وأمره أن يدعو الناس إلى إمامته^(٦)، وبعد أن رجع إلى فارس، وبلغ أصفهان سنة ٤٧٣هـ باشر دعوته

(١) الخلافة العباسية، فاروق فوزي (٢/١٨٨).

(٢)، (٣)، (٤) التاريخ الفاطمي د. محمد طقوس، ص ٣٩٢، ٣٩٣.

(٥) الخلافة العباسية (٢/١٨٨).

(٦) الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري، ص ٣١.

السرية، ولما ضيق نظام الملك عليه الخناق، رحل إلى قزوين، واستولى هناك على قلعة «الموت» الحصينة، وجعلها مقراً له ولجماعته^(١)، فتوسعوا وأكثروا الفساد في البلاد^(٢).

٢- مراتب ودرجات أعضاء الدعوة النزارية الباطنية: منذ البداية حاول الحسن الصباح أن يحصن نفسه وأتباعه في قلاع متناثرة في أقاليم وعرة مثل أقاليم بحر قزوين وثبت مركزه في قلعة الموت بنواحي قزوين سنة ٤٨٣هـ، كما اعتمد أسلوبه على العنف والاغتيال وبث الرعب في نفوس الناس، وكان أول ضحاياه الوزير السلجوقي نظام الملك الذي شدد على الدعوة النزارية وحاربها، كما شارك الحشاشون - فيما بعد - في قتل الخلفاء العباسيين المسترشد والراشد وهددوا ملكشاه السلجوقي وصلاح الدين الأيوبي وأمراء مسلمين. وروج الحسن بن الصباح لنظرية الإمام المستور، وألقى على نفسه مهمة الدعوة له معتبراً نفسه رئيس الدعوة ونائب الإمام، أما الإمام المستور فهو نزار بن المستنصر ومن بعد مقتله أبنائه، كما ادعى الحسن الصباح بأنه مصدر المعرفة لأنه نائب الإمام المستور وأنه تعلم معرفته من الإمام المعصوم مباشرة وزعم وأخذ يبشر بالعقيدة الباطنية التي تقول إن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً وأن الباطن هو المهم لأنه اللب، وكانت تأويلاته تتفق مع نزعتة السياسية وأهدافه التي يريد تحقيقها وكانت الدعوة النزارية دعوة منظمة بدقة وأعضاؤها منقسمون إلى مراتب ودرجات^(٣).

المرتبة الأولى: مرتبة رئيس الدعوة أو داعي الدعاة، وكان أيضاً يسمى نائب الإمام المستور في بلاد الشام، وسمي «شيخ الجبل».

المرتبة الثانية: كبار الدعاة.

المرتبة الثالثة: الدعاة.

المرتبة الرابعة: الرفاق.

المرتبة الخامسة: الضراوية وهم الفئة المسلحة في الدعوة التي يشترط فيها التفاني والتضحية في خدمة الدعوة حتى ولو أدى ذلك إلى الموت الذي اعتبروه أشرف نهاية لأنه يضمن لهم السعادة في جنة الإمام.

المرتبة السادسة: اللاصقون.

(١) حركة الحشاشين: محمد عثمان الخشت، ص ٦٥، ٦٦.

(٢) الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري، ص ٣٢.

(٣) الخلافة العباسية، (٢/ ١٨٩).

المرتبة السابعة: المستجيبون وهم عامة الناس المؤيدون للدعوة^(١). وإليك تفصيل مهام دعاة الباطنية:

٣- مهام الدعاة: لقد أنيطت بالدعاة مهام يجب عليهم العمل بموجبها وتحقيقها وتمثل تلك المهام في الآتي:

أ- أن يبدأ الدعاة بمناقشة الطالب في المسائل الدينية وتفسير القرآن ويعلموه أن مسائل الدين أمور شديدة التعقيد، ولا يستطيع فهمها إلا رجال كالدعاة الذين تبجروا في درسها، ويأخذون عليه العهد بالألا يذيع شيئاً مما يعلمونه من النظريات والشروح.

ب- يعلم الطالب أن كل التفسير والأحكام التي قال بها المجتهدون السابقون خاطئة، باطلة، وأن الأحكام الصحيحة هي التي يقول بها الأئمة الذين تلقوها من الله.

ج- أن هؤلاء أئمة الإسماعيلية وهم سبعة آخرهم محمد بن إسماعيل.

د- أن الأنبياء الذين تقدموا آل البيت سبعة أيضاً هم: آدم ونوح وإبراهيم وموسى والمسيح ومحمد ﷺ ومحمد بن إسماعيل.

هـ- يبدأ الدعاة بتنفيذ مهمتهم الحقيقية وهي هدم العقيدة الدينية، فيعلمون الطالب ألا يؤمن بالسنة وأن يرفض تعاليم محمد ﷺ.

و- يسعون إلى إقناع الطالب بأن كل الأديان وما أمرت به من الفروض كالصوم والصلاة وغيرها إن هي إلا أكاذيب وحيل ابتكرت لإخضاع المجتمعات البشرية وأن جميع الشرائع لا بد أن تخضع لشرعية العقل والعلم، ويدللون على أقوالهم بنظريات أرسطو وأفلاطون وفيثاغورس، مما يدل على قوة ارتباطهم وتأثرهم بالفلسفة اليونانية.

ز- يلقي الطالب تعاليم الثنوية، وبذلك تهدم عقيدة التوحيد الإسلامية وكل صفات الألوهية.

ح- يشكك الطالب في حقيقة الرسالة، ويعلم بأن الرسل الحقيقيين هم رسل العمل الذين يعنون بالشئون الدنيوية كالنظم وإنشاء الحكومات المثلى.

ط- ويدخل الطالب إلى حظيرة الأسوار، ويعلم أن كل التعاليم الدينية أوهام محضة^(٢). وهكذا يبدأ الباطنية مع من يدعونه إلى الدخول بمذهبهم فيشككونه في مبادئ الدين

(١) الخلافة العباسية (٢/ ١٩٠).

(٢) تاريخ الحركات السرية، محمد عنان، ص ٤٢.

ونصوصه وتعاليمه ويتتهون به في النهاية إلى الخروج من الدين بالجملة^(١).

الدكتور الخطيب يربط بين هذه الأساليب والحيل لهذه الفرقة وبين أساليب ومراحل التدرج عند الماسونية في عصرنا الحاضر، فيقول: والمطلع على أساليب الماسونية في العصر الحاضر، وطرق الدخول فيها، والتكريس الذي تمارسه على الدخول في محافلها، يستطيع أن يقارن بين أساليب الباطنية عموماً وبالأخص الإسماعيلية، وأساليب التكريس الماسوني، بحيث لا نتعد عن الحقيقة إذا قلنا إن هناك خيطاً رفيعاً يجمع بين الباطنية والماسونية، يمكن أن نرده إلى اليهودية العالمية التي استطاعت أن توجد الباطنية وفرقها في القديم، والماسونية العالمية ومؤسساتها في العصر الحديث^(٢). من هذا العرض يتضح أن الغاية القصوى من هذه الأساليب والحيل التي اتخذها دعاة الإسماعيلية إثارة الشكوك وزعزعة العقيدة الإسلامية وهدم المبادئ والقيم الاجتماعية والأدبية ومحاربة النظم السياسية^(٣)، وقد كان لتلك الدعوة وما قامت عليه من أسس وتنظيمات سرية دقيقة أثر كبير في نشر المذهب الإسماعيلي، ويعزز أحد دعاة الإسماعيلية المعاصرين هذه الحقيقة^(٤) فيقول: إنه بفضل هذا التنظيم الدقيق انتشرت الحركة الإسماعيلية بشكل لم تعهده أية دعوة في العالم^(٥)، بل إن الحركة في جملتها مدينة لوجودها حتى اليوم إلى تلك التنظيمات وتلك المراتب. كما يقول عارف تامر^(٦).

٤- مراحل الدعوة: وللإسماعيلية حيل ووسائل يصطادون الناس بها، يتدرج بها الداعي مع المستجيب من مرحلة، ابتدعوها ليسلحوا أتباعهم بها اعتقاداً منهم أن كل هذه الحيل والمراحل مشروعة لبلوغ المآرب الدنيوية: لا حقيقة في هذا الوجود. وكل أمر مباح^(٧).

وأولى هذه الحيل والمراحل:

أ- التفرس: ومن شروطه القوة على التلبس، ومعرفة حال المدعو؛ لذا منعوا إلقاء البذرة في الأرض السبخة، والتكلم في بيت فيه سراج؛ بمعنى أن من لا أمل في إغوائه لا ينبغي أن يضيع الوقت معه، كما لا ينبغي محاولة نشر الدعوة في بلد فيه شخص

(١) الإسماعيلية المعاصرة، محمد أحمد الجوير، ص ٦٥.

(٢) الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، د. محمد أحمد الخطيب، ص ١٢٩.

(٣)، (٤) الإسماعيلية المعاصرة، ص ٦٦.

(٥) تاريخ الدعوة الإسماعيلية، مصطفى غالب، ص ٣٤. (٦) القرامطة، عارف تامر، ص ٦٩.

(٧) الإسماعيلية المعاصرة، ص ٦١.

متنور بنور الإسلام^(١).

ب- التأسيس: بعث الأمن والطمأنينة في نفوس المدعويين وتزيين مذهب الشخص في عينه، ثم سؤاله عن تأويل ما يعتقد.

ج- التشكيك: زعزعة عقيدة المدعو بإلقاء أسئلة عليه، كسؤاله عن معاني حروف الهجاء في أوائل السور مثلاً.

د- التعليق: ترك المدعو متارجحاً في عقيدته متلهفاً إلى معرفة المذهب الإسماعيلي.

هـ- الربط: وهو أن يربط لسان المدعو بأيمان مغلفة وعهود مؤكدة بالألا يفشى ما سمعه.

و- التدليس: وهو لجوء الداعي إلى التمويه وإغراء المدعو، وتشويقه للدخول إلى المذهب الإسماعيلي، مع بيانهم للمدعو أن الظواهر عذاب وأن الرحمة في الباطن، متأولين الآية الكريمة ﴿فَضْرِبْ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد، ١٣].

ز- التأسيس: تثبيت المعلومة والحقائق التي أدلى بها الداعي للمستجيب حتى تستقر في ذهنه.

ح- الخلع أو السلخ: يقصد به إقصاء المدعو عن المذهب السني نهائياً^(٢).

٥- منطلقات الحركات الباطنية: إذا أراد الباحث أن يفهم أساليب الدعوة الباطنية وكيفية نشرها بين الناس وسر انتشارها، ينبغي له الوقوف على طبيعة منطلقاتها العامة التي انطلقت منها أولاً والتي يمكن تلخيصها بما يأتي:

أ- الشمولية: حاولت الحركة الباطنية تشكيل بنية الفكر الباطني في صورة مذهب جامع شامل، يقوم على الجمع والتلفيق بين عقائد شتى، متنوعة ومتباينة في أصولها ومصادرها بحيث تجذب هوى في نفوس جماعات مختلفة في العنصر والدين من مزدكيين ومانويين وصابئين ويهود ومسيحيين ومسلمين^(٣)، وهي قاعدة فكرية مركبة من شأنها أن تستهوي أناساً من مشارب شتى باعتبارها تبشر بحرية الفكر والعقيدة، وتدعو إلى ديانة أعمية تزول فيها الفوارق ودواعي الاختلاف، وقد نقلت المصادر جملة من عباراتهم الدالة على

(١) الإسماعيلية المعاصرة، ص ٦١.

(٢) فضائح الباطنية، ص ١٢١، ١٣٢.

(٣) أصول الإسماعيلية، ص ١٩٤، ١٩٥.

هذا المعنى لعل من أكثرها تعبيراً عن ذلك قولهم ^(١): وينبغي لإخواننا أيدهم الله ألا يعادوا علماء من العلوم أو يهجوا كتاباً من الكتب ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم جميعها ^(٢).

ب- انتقاء الدعاة: عملت هذه الحركة على انتقاء الداعي إلى دعوتهم في حدود مواصفات دقيقة تواضعوا على ضرورة توافرها فيه، إذ هو الأداة التي يتوصل بها إلى أفراد المجتمع والنافذة التي تظل بها الدعوة الباطنية على العالم الخارجي، ومن أبرز الصفات التي ينبغي أن تتوافر في الداعي أن يكون فطناً ذكياً صحيح الحُدى صادق الفراسة متفطناً للبواطن بالنظر إلى الشرائط والظواهر، وأن يكون في أسلوب عمله متبعاً لثلاثة أمور:

- أن يميز من يجوز أن يطمع في استدراجه بلين عريكته لقبول ما يلقي إليه من العقائد والمبادئ المخالفة لما ألفه واعتقد به أصلاً.

- أن يكون ذكي الخاطر قوي الحُدى في القدرة على تعبير الظواهر وردّها إلى البواطن.

- أن يدرس عقيدة المدعو وميله في طبعه ومذهبه قبل الإقدام على مخاطبته.

ولكي يتمتع الداعي بهذه الصفات لابد من إعدادة إعداداً خاصاً في مدارس معينة تستطيع أن تقدم له كل أساليب الحيلة وصنوف المعرفة، وقد قامت الدولة الفاطمية العبيدية، بإنشاء المدارس السرية الخاصة بإعداد الدعاة، فكانت أولى هذه المدارس في مدينة المهديّة قاعدة الدولة الفاطمية العبيدية في عهد مؤسسها عبيد الله المهدي ثم راجت في المنصورية في عهد حفيده المنصور، ثم في القاهرة في عهد المعزّ ومن جاء بعده من حكام العبيديين فكانت هذه المدارس تخرج الدعاة الذين ينشئون في عامة البلاد الإسلامية ينشرون هذا المذهب ويكونون على اتصال دائم بمركز الدعوة والدولة ^(٣).

ج- السرية: تشكل البنية التنظيمية للجمعيات الباطنية بصورة جمعيات سرية لها درجاتها ورموزها ومراتبها ودعاتها وقادتها وأساليب عملها المتقنة، ولهذه الجمعيات السرية عهود ومواثيق مقدسة واحتفالات دينية تضفي من خلالها على هياكلها التنظيمية معنى القداسة الروحية ^(٤)، ويشير ابن النديم إلى هذه السرية عند كلامه عن بني القداح أساس البلاء في الحركات الباطنية بقوله: وقد كان قبل بني القداح قريب ممن يتعصب للمجوس ودولتها،

(١) التسلسل الباطني في العراق، مكّي خليل، ص ١٢٦.

(٢) رسائل إخوان الصفا، نقلاً عن التسلسل الباطني في العراق، ص ١٢٦.

(٣) عبيد الله المهدي، حسن إبراهيم حسن، ص ٥٨. (٤) التسلسل الباطني في العراق، ص ١٢٩.

وتجرد لردّها في أوقات، منها بالمجاهرة، ومنها بالحيلة سراً، فأحدثوا لذلك في الإسلام حوادث منكراً^(١)، وكانت هذه السرية تشمل سرية الوسائل وسرية الأهداف معاً، كما تشمل السرية رجالاً هذه الحركة^(٢)، ويشير الدكتور حسن إبراهيم حسن إلى شدة السرية في الحركة العبيدية^(٣) الفاطمية، ولذلك آمنت معظم الفرق الباطنية باستتار الإمام الذي لا ينبغي أن يتفوه باسمه، أو قالت بغيبته وعدم ظهوره إلّا حينما يجد الوقت المناسب لذلك^(٤).

د- اختيار البيئة الملائمة: اهتمت الدعوة الباطنية بدراسة البيئة التي تحاول أن تبث فيها أفكارها وعقائدها وتنشئ فيها تنظيماتها، فكانت تشترط على دعائها الذين تميزوا بقوة الذكاء وحضور الفطنة، أن يكونوا متوقفي الفراسة في اختيار المناطق التي ينشرون فيها أفكارهم وانتقاء الشرائع الاجتماعية التي يمكن أن تتقبل دعوتهم وأن يميزوا «بين من يجوز أن يطمع في استدراجه ويوثق بدين عريكته لقبول ما يلقي إليه على خلاف معتقده، فربّ رجل جمود على ما سمعه لا يمكن أن ينتزع من نفسه ما يرسخ فيه، فلا يضعف الداعي كلامه مع مثل هذا، وليقطع طمعه منه، وليلتزم من فيه انفعال وتأثر بما يلقي إليه من الكلام»^(٥) لذلك انتشرت الدعوة الباطنية في البيئات التي يكثر فيها الجهل والضلالات، وبلاد الأعاجم التي جهل عوامهم فيها الإسلام بسبب جهل عوامهم باللغة العربية ورسوخ كثير من الديانات والمذاهب القديمة، كبلاد المشرق، وقد اهتم دعاة الباطنية بهذه الأصناف من الناس في دعوتهم^(٦):

- العوام والجهلاء من أهل السواد وجفاة الأعاجم وسفهاء الأحداث، ممن لم يطلعوا على الإسلام حق الاطلاع، قال الغزالي: ولعل هذا الصنف هم أكبر الناس عدداً، وكيف يستبعد قبولهم لذلك ونحن نشاهد جماعة في بعض المداين القريبة من البصرة يعبدون أناساً يزعمون أنهم ورثوا الربوبية من آبائهم المعروفين بالشباسبية^(٧). وقد اعتقدت طائفة في عليّ عليه السلام أنه إله السماوات والأرض رب العالمين^(٨).

- الموتورون الحاقدون من أبناء الأكاسرة والدهاقين وأولاد المجوس الذين انقطعت الدولة عن أسلافهم بدولة الإسلام فاستمكن الحقد في صدورهم كالداء الدفين، فإذا ما وجد من يحركه اشتعلت نيرانه في قلوبهم، فأذعنوا لآية دعوة تشوقهم إلى إدراك ثأرهم من المسلمين.

(٢) التسلسل الباطني في العراق، ص ١٢٩.

(٤) التسلسل الباطني في العراق، ص ١٣٠.

(١) الفهرست، لابن النديم، ص ٣٩.

(٣) عبيد الله المهدي، ص ٢٧٠، ٢٧١.

(٥) المصدر السابق، ص ١٣٢.

(٦) منسوبة إلى شباس أوابن الذي كان بالبصرة في سنة ٥٤٥٠هـ.

(٨) التسلسل الباطني في العراق، ص ١٣٣.

(٧) فضائح الباطنية، ص ٣٤.

- **الطامحون إلى التسلط والاستيلاء على مقاليد الأمور من غير كفاءة في أنفسهم ولا مزية يمتازون بها، ممن يريدون القفز إلى الحكم على أكتاف المضلل بهم من جهلة الناس، ويظهر ذلك جلياً من دراسة سير الطامعين الذين قاموا بحركات مسلحة وقوادهم، واستمالة بعض رجالات الدولة العباسية. كما حدث مع البساسيري.**

- **أدعياء العلم والمعرفة ممن يعملون على التمييز عن عامة الناس ويرفعون عن مشابھتهم، ويزعمون أنهم المطلعون وحدهم على الحقائق وأن بقية الخلق لا يفهمون من الأمور إلا ظواهرها، فيجتهدون بتعلم هذه المعارف الغريبة مخالفة لبقية الناس^(١).**

- **اتباع فرق الغلاة ممن شوّهوا الإسلام واعتقدوا فيه اعتقادات ليست منه، وتدينوا بسب الصحابة من المهاجرين والأنصار حيث وجدوا في الحركة الباطنية ما يساعدهم على تحقيق أغراضهم، ونشر مبادئهم الخسيسة.**

- **الملحدون من الفلاسفة والثنوية والمتحيرة في الدين ممن اعتقدوا أن الشرائع قوانين ملفقة وقد عمل زعماء الباطنية على إكرامهم وإغداق ذخائر الأموال عليهم فأنحازوا إليها طلباً للدنيا وحطامها وهؤلاء الذين ألفوا لهم الكتب ولفقوا الشبه مستخدمين معارفهم في شروط الجدل وحدود المنطق، ودلوا مكانم التلبس والمغالطة فيها تحت عبارات كلية وألفاظ مجملة مبهمة قلما يهتدي الناظر الضعيف إلى فك تعقيداتها وكشف الغطاء عن مكانمها، وتدليسها، بل يقف في كثير من الأحيان معجباً بها هياباً منها لعدم قدرته على فك رموزها ومعرفة المقصود منها^(٢).**

- **الإباحيون ممن استولت عليهم الشهوات فاستدرجتهم متابعة اللذات واشتد عليهم وعيد الشرع وثقلت عليهم تكاليفه، فسارعوا إلى هذه الدعوة واستحسنوها لتوافق مذهبها مع مذهبهم في هذا المجال ودافعوا عنها وحاولوا نشرها بين الناس تحقيقاً لأغراضهم، ونشراً لمبادئهم.**

- **هـ- طبيعة المرشد الروحي: يتضح من دراسة تاريخ الحركات الباطنية أن زعماءها وقادة جمعياتها السرية وحركاتها المسلحة كانوا في الأغلب الأعم شخصيات تحسن استخدام أساليب الشعوذة والمخاريق والتظاهر بالولاية والتأله، وتضفي على ذاتها سمات المرشد الروحي، الذي يختص بصفات المنقذ الإلهي الموعود، ونظراً لما لهذا الداعي المتزعم من**

(١) التسلل الباطني في العراق، ص ١٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٥.

صفات روحية فائقة فليس أمام حشد المريدين وقطعان الأتباع المقلدين له إلا الدخول في طاعته، والامتثال لأوامره والانصياع لتوجيهاته، بلا نظر وتبصر وتحقيق، فيتحولون في الغاية والنهائية إلى أدوات صماء جامدة لا إرادة لها ولا تدبير يحركها الزعيم المتأله الروحي، كما شاء وأراد فهو المطاع الذي تنحسر إزاء إرادته ومشيتته إرادة الجميع.. يفعلون ما يؤمرون بلا عقل أو وعي أو ضمير^(١).

و- التدرج في الدعوة: قامت الحركات الباطنية على أساس من التشكيلات الهرمية المتدرجة في القيادة والمسئولية وكسب المؤيدين والأتباع وعدم كشف أسرارهم الكبرى إلى كل أحد من الناس إلا بعد تدرجه في مراتب التنظيم على وفق خطة مدروسة دقيقة يتوقف فيها الداعي مع من يريد كسبه إلى المرحلة التي يراها مناسبة له، ثم يستمر مع من يجد في نفسه قبولاً واستعداداً، فيكشف له أسرار الدعوة الخفية في نهاية الأمر بعد أن يكونوا قد وثقوا به الوثوق كله وأخذوا عليه العهود والمواثيق. وقد ذكر ابن النديم ما يؤيد التدرج في الدعوة الباطنية من خلال كتابهم «البلاغات السبعة» وقال: لهم البلاغ الثاني لفوق هؤلاء قليلاً، كتاب البلاغ الثالث لمن دخل في المذهب سنة، كتاب البلاغ الرابع لمن دخل في المذهب ستين، كتاب البلاغ الخامس لمن دخل في المذهب ثلاث سنين، وكتاب البلاغ السابع وفيه نتيجة المذهب والكشف الأكبر^(٢) وذكر ابن النديم أن كتب الباطنية كانت شائعة متداولة بين الناس أيام معز الدولة البويهية وأن الدعاة منبثون في كل صقع وناحية^(٣).

٦- من أساليب الباطنية: حاول دعاة الباطنية خداع جماهير الناس بأساليب عديدة منها:

أ- مظاهر التدين: عمل زعماء الدعوة الباطنية على التظاهر بالإسلام والالتزام بتعاليمه والغلو فيه من أجل الوصول إلى غاياتهم وتحقيق برامجهم الداعية إلى هدم الشريعة الإسلامية ومن ثم إدخال التأثيرات الغربية في دائرة الفكر الديني الإسلامي^(٤)، يقول ابن الجوزي: إن الثنوية والمجوس أرادوا إرجاع ممالكهم وإبطال الإسلام ولكنهم رأوا ضرورة إخفاء مقاصدهم بالتستر بالإسلام^(٥).

وقد أشار الغزالي إلى تظاهر دعائهم بالتدين والأخلاق الفاضلة في أول اجتماعهم مع المبتدئين، قال: وقد رسموا للدعاة والمؤذنين أن يجعلوا مبيتهم كل ليلة عند واحد من المستجيبين، ويجتهدوا في استصحاب من له صوت طيب في قراءة القرآن ليقراً عندهم زماناً،

(١) المصدر نفسه، ص ١٣٦.

(٢) التسلسل الباطني في العراق، ص ١٣٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٠.

(٤) المتظم (٥/١١٠).

(٥) المصدر نفسه، ص ١٤٨.

ثم يتبع الداعي ذلك كله بشيء من الكلام الرقيق وأطراف من المواعظ اللطيفة الآخذة بمجامع القلوب، ثم يردف ذلك بالطعن في السلاطين وعلماء الزمان وجهال العوام، ويذكر أن الفرج منتظر من كل ذلك ببركة أهل بيت رسول الله وهو فيما بين ذلك يبكي أحياناً ويتنفس الصعداء، وإذا ذكر آية أو خبراً ذكر أن الله سرّاً في كلماته لا يطلع عليه إلا من اجتباه الله من خلقه وميزه بمزيد لطفه، فإن قدر على أن يتهجّد بالليل مصلياً وباكياً عند غيبة صاحب البيت بحيث يطلع عليه صاحب البيت، ثم إذا أحس بأنه اطلع عليه عاد إلى ميته واضطجع كالذي يقصد إخفاء عبادته^(١).

ب- الانتساب إلى آل البيت والدعوة إليهم: يقول أبو عثمان العراقي الحنفي: ومن وصاياهم أن يتشيع الداعي لأهل الشيعة ويستميلهم ويظهر من نفسه أنه منهم ويظهر لهم ما فعل بأهل البيت، كيف قتلوا وكيف سببت ذراريهم ونساؤهم، ويكتب معائب الصحابة^(٢)، بالكذب والافتراء. ويقول الدكتور عبد الله سلوم:..... إن التستر في الولاء لآل بيت الرسول ﷺ وسيلة تحقق لهم غرضين في آن واحد:

- الإمعان في التستر والحماية على مواقفهم وعدم تعرضهم للاتهام والانتقام.
- الإساءة لآل البيت من خلال إضفاء صفات عليهم لا يقرها الشرع^(٣). والأدلة التاريخية تبين أن عدداً كبيراً منهم إما ادعى نصرة آل البيت والأخذ بحققهم، وإما ادعى أنه من صلبهم يعمل على الأخذ بحقه في ولاية المسلمين^(٤)، وكانت أشد الدعوات خطورة دعوة العبيدين الذين زعموا أنهم فاطميون وتمكنوا من تكوين دولة استولت على كثير من بقاع العالم الإسلامي وهددت الخلافة الإسلامية العباسية^(٥).

ج- نصرة المستضعفين: من الشعارات التي رفعتها الحركات الباطنية الدعوة إلى نصرة المستضعفين وتحقيق العدل والإنصاف وقهر الظالمين وإقامة دولة العدالة والإنصاف^(٦).

د- التقية: أجازت الشريعة الإسلامية استعمال التقية في حالات قليلة جداً وفي حدود ضيقة جداً أيضاً، ولكن الغلاة والباطنية استعملوها بأكثر من الحد الذي تميزه شريعة الله عز وجل بل أصبحت ديناً لهم يتدينون به^(٧). فقد عملت الحركات الباطنية على مخاطبة الفئات والشرائع الاجتماعية المتنافرة بما تشتهي وبما يحقق مصالحها الذاتية، ويميزون لخطاب كل فئة

(١) التسلل الباطني في العراق، ص ١٤٩.

(٢) الفرق المتفرقة بين أهل الزيغ والزندقة، ص ١٠٩.

(٣) الغلو والفرق الغالية، ص ١٦٤.

(٤) التسلل الباطني في العراق، ص ١٥٤.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٥٨.

(٦، ٥) المصدر نفسه، ص ١٥٦.

عبارات يلبسونها ثوب الخداع ويتسترون على حقيقتها، ويقدمون لبعضهم وعوداً مختلفة عن الوعود التي يقدمونها للبعض الآخر من أجل جمع كمية من المؤيدين^(١)، ويقول الغزالي عن الحركة الباطنية ودراسة دعائها لطبائع الناس وميولهم ووضع الخطط المناسبة لكسبهم ومخاطبتهم بما تشتهي أنفسهم: فإن رآه مائلاً إلى الزهد والتقشف دعاه إلى الطاعة والانقياد واتباع الأمر من المطاع وزجره عن اتباع الشهوات وندبه إلى وظائف العبادات، وتأدية الأمانات؛ من الصدق وحسن المعاملة، والأخلاق الحسنة، وخفض الجناح لذوي الحاجات، ولزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كان طبعه مائلاً إلى المجنون والخلاعة قرر في نفسه أن العبادة بله وأن الورع حماقة وأن هؤلاء المعذنين بالتكاليف مثالم مثل الحمر المعناة بالأحمال الثقيلة، وإنما الفطنة في اتباع الشهوة ونيل اللذة وقضاء الوطر من هذه الدنيا المنقضية التي لا سبيل إلى تلاقي لذاتها عند انقضاء العمر^(٢).. إلخ.

هـ- استمالة بعض رجالات الدولة والتنسيق معهم: من الأساليب التي اتبعتها هذه الحركات في محاولة السيطرة على الدولة العباسية، كسب بعض ذوي النفوذ من الأمراء والقواد والأعاجم المحيين للسلطان والسيطرة من غير اعتبار لمبدأ أو دين، ومن أمثلة ذلك ما قام به المؤيد هبة الله الشيرازي من استهداف مقدم الأتراك أبي الحارث البساسيري بالدعوة الفاطمية وقد كان هذا المقدم يشغل آنذاك منصب رئيس الأتراك في عهد الخليفة القائم وقد تلقى دعماً مادياً وعسكرياً للسيطرة على العراق^(٣) وقد مر ذكر فتنته.

و- استخدام الإرهاب والعنف: ومن أساليبها استخدام الإرهاب والهجمات المسلحة ضد الخصوم^(٤)، فسوف نرى بإذن الله أعمالهم الوحشية في هذا المضمار.

٧- رسالة السلطان جلال الدين ملكشاه إلى حسن الصباح: كانت سياسة ملكشاه تجاه حركة حسن الصباح تتراوح بين المهادنة لهم حيناً، ومقاومتهم حيناً آخر، فعندما استولى الحسن الصباح على قلعة الموت في عام ٤٨٣هـ وانتشر فدائيوه يغتالون الأمنين، أرسل له ملكشاه الإمام أبا يوسف يعقوب بن سليمان وكان فقيهاً عالماً بالأصول على مذهب أهل السنة لمناظرتهم، ولكن يبدو أن هذه المناظرة لم تحقق الهدف الذي تطلع إليه ملكشاه من محاولة إقناعهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ومن ثم لجأ إلى العمل المسلح فأرسل الأمير أرسلان طاش سنة ٤٨٥هـ فحاصر قلعة الموت، ولكن هزم، كما أرسل في العام ذاته أحد قواده فحاصر قلعة «ديرة» وهي مركز آخر من مراكزهم، ويبدو أن الباطنية التابعة لحسن

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٦٤.

(١) التسلل الباطني في العراق، ص ١٥٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٦٢، ١٦٣.

الصباح أصبحوا شوكة حتى إن ابن كثير عندما تحدث عن أهم أحداث عام ٤٩٤هـ قال: فيها عظم الخطب بأصبهان ونواحيها بالباطنية، فقتل السلطان منهم خلقاً كثيراً، وأبيحت ديارهم وأموالهم للعامة، كلٌّ من يقدر على قتلهم قتلته وماله، وكانوا قد استحوذوا على قلاع كثيرة، وأول قلعة ملكوها في سنة ٤٨٣هـ، وكان الذي ملكها الحسن الصباح، أحد دعائهم، وكان قد دخل مصر وتعلّم من الزنادقة الذين كانوا بها، ثم صار إلى تلك النواحي ببلاد أصبهان، فكان لا يدعو إلا غيباً لا يعرف يمينه من شماله، ثم يطعمه العسل بالجوز والشونيز^(١)، حتى يحترق مزاجه ويفسد دماغه، ثم يذكر له شيئاً من أخبار أهل البيت ويكذب له من أقاويل الرافضة الضلال، أنهم ظلموا ومُنُوا حقهم، ثم يقول له: فإذا كانت الخوارج تقاتل مع بني أمية لعليّ، فأنت أحقُّ أن تقاتل في نصرته إمامك علي بن أبي طالب، ولا يزال يسقيه من هذا وأمثاله حتى يستجيب له، ويصير أطوع له من أبيه وأمّه، ويظهر له أشياء كثيرة من المخرفة والتبرنجات والحيل التي لا تروج إلا على الجهال، حتى التفّ عليه بشر كثير وجم غفير، وقد بعث إليه السلطان ملكشاه يتهدده ويتوعّده وينهاه عن بعثه الفداوية إلى العلماء^(٢)، وهذا نص رسالة ملكشاه إلى الحسن الصباح: أنت حسن صباح قد أظهرت ديناً وملة جديدة فأغريت الناس وخرجت على ولي عصرك، فجمعت حولك بعض سكان الجبال ثم أغويتهم بكلامك حتى حملتهم على قتل الناس وطعنات في الخلفاء العباسيين الذين هم خلفاء الإسلام وبهم استحكم قوام الملك والملة ونظام الدين والدولة، فعليك أن ترجع عن هذه الضلالة وتكون مسلماً وإلا فقد عينت لك جيوشاً وأرجأت توجهها حتى تحييء إلينا أنت وجوابك، وحذار حذار على نفسك ونفوس تابعيك فارحمها ولا تلقها في ورطة الهلاك، ولا تغتر باستحكام قلاعك ولتعتقد حقيقة أن قلعة (الموت) المستحكمة لو كانت برجاً من بروج السماء لجعلتها أرضاً يباباً ولساويتها مع التراب بعناية الله تعالى^(٣). فلما قرأ الكتاب بحضرة الرسول، قال لمن حضره من الشباب: إني أريد أن أرسل منكم رسولاً إلى مولاه، فاشرب وجوه الحاضرين منهم، ثم قال لشاب منهم: اقتل نفسك. فأخرج سكيناً فضرب بها غلصمته^(٤)، فسقط ميتاً، وقال لآخر منهم: ألق نفسك من هذا الموضع، فرمى نفسه من رأس القلعة إلى أسفل خندقها فتقطع. فقال للرسول: هذا الجواب^(٥). وجاء في رواية: أخبر سيدك أن عندي من هؤلاء عشرين ألفاً هذا حد طاعتهم لي. فعاد الرسول إلى السلطان فأخبره بما رأى فعجب من ذلك،

(١) الشونيز: الحبة السوداء.

(٢) البداية والنهاية (١٦/١٧٥).

(٣) نظام الملك، عبد الهادي محمد رضا، ص ٦٠٥.

(٤) الغلصمة: رأس الخلقوم بشواريه.

(٥) البداية والنهاية (١٦/١٧٦).

وترك كلامهم^(١). وقد وضعت وفاة ملكشاه في عام ٤٨٥هـ حداً لهذه المحاولات التي قام بها^(٢)، على أنه يلاحظ أن ملكشاه لم يبذل في مقاومتهم جهداً يتناسب مع قوته ومكانته فلم يتوجه بنفسه - مثلاً - لحربهم كما فعل في مناسبات كثيرة عندما كان يتهدد دولته خطر من الأخطار، كما أنه صم أذنيه عن نصائح وزيره نظام الملك عندما حذره من أخطار هذه الفتنة، ولعل العذر الوحيد الذي يغفر لملكشاه سلوكه هذا أنه لم يمتد به العمر طويلاً بعد استيلاء الحسن على قلعة الموت، وربما لو أنه مد في أجله لكان من الممكن أن يكون له مواقف^(٣) أكثر حزمًا.

٨- جواب حسن الصباح إلى السلطان ملكشاه السلجوقي: حرص الحسن الصباح على مراسلة السلطان ملكشاه لعله يؤثر فيه أو يجعله يتعاطف معه وإليك شيئاً من الرسالة:.... والآن أشرح شيئاً من أحوالي واعتقادي متمنياً أن يصغى السلطان إليّ ويعبرني فكره وألا يشاور في أمري من أركان دولته لا سيما «نظام الملك» لأن عدائي وخصومي معهم غير خافية على السلطان، ثم بعد ذلك لا بد لي ولا مفر من اتباع رأي الملك المطاع الذي يحصل لديه كلامي ويتحققه من كتابي، وإذا خالفت أنا حسن ذلك الرأي السديد فإني أعد نفسي خارجاً عن دين الإسلام، أما إذا اتبع السلطان في أمري هؤلاء الخصوم فإنه يجب عليّ حينذاك أن احتاط لنفسي وأفكر في أمري لأن أمامي خصماً قوياً يجعل الباطل حقاً ويضع الحق محل الباطل، كما فعل كثيراً ولا سيما بالنسبة إليّ فلا يكن ذلك خفياً عن رأي السلطان وفكره. أما حال هذا العبد فإن أبي كان مسلماً على مذهب الإمام الشافعي المطليبي، ولما بلغت الرابعة من عمري أرسلني أبي إلى المكتب لتحصيل العلوم ولم أبلغ الرابعة عشرة حتى مهت في سائر أنواع العلوم خصوصاً، علوم القرآن والحديث ثم جاء دور الدين، فنظرت في كتب الشافعي فرأيت في فضل أولاد النبي ﷺ وآله وإمامتهم روايات كثيرة، فملت إلى جانبهم وأصبحت أفحص وأتجسس وأفش عن إمام الوقت، ثم بلغ بي الحال بواسطة حكام العصر أن وقعت في أعمال الدين التي يستكبرها ويستعظمها الناس حتى نسيت تلك الفكرة وغفلت عن ذلك الجد والعمل الأولى وأصبح قلبي كله منصرفاً إلى الدنيا وخدمة المخلوق، أما عمل الآخرة فقد جعلته ورائي ظهرياً ولكن الله تعالى لم يرض لي بذلك فحرك عليّ خصمائي حتى أخرجوني منه بالقهر والاضطراب فهربت وسحت في البلدان والصحاري وقد لحقتني من ذلك أتعاب وزحمت كثيرة. كما لم يخف على السلطان

(١) المنتظم (٩/١٢١).

(٢) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص ١٣٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٦.

حالي مع نظام الملك ولما أخرجني الله من تلك الهلكة علمت أن الإعراض عن الخالق والتوجه إلى المخلوق لا يثمر إلا كما أئمر لي، لذلك قمت بعزم الرجال إلى العمل الديني وطلب الآخرة وانتقلت من الري إلى بغداد وأقمت هناك مدة غير قصيرة حتى اطلعت على الأحوال والأوضاع وتفحصت عن حال الخلفاء وزعماء الدين فرأيت أن هؤلاء العباسيين خارجون عن مراتب المروءة والفتوة الإسلامية حتى أيقنت أن بناء الإسلام والديانة إن كان قائماً على إمامة هؤلاء وخلافتهم فإن الكفر والزندقة أولى وأحسن من ذلك الدين، فغادرت بغداد إلى مصر وفيها خليفة الحق الإمام المستنصر بالله ففتشت حاله وقست خلافته بخلافه العباسيين فرأيت أنه أحق فأقررت به ورفضت خلافة العباسيين، لذلك فقد أرسل بنو العباس إلى أمير الجيوش ثلاثة بغال ذهباً عدا سواها من الأموال والهدايا وأوعزوا إليه أن يرسل إليهم حسن صباح أو يبعث إليهم برأسه، وحيث إن عناية المستنصر كانت تشمليني يومذاك فقد نجوت من تلك الهلكة، ثم لما كان العباسيون قد حركوا أمير الجيوش وأغروه بالأموال ارتأى ترشيحي إلى الروم داعياً للإفرنج والكفار إلى دين الحق، ولما سمع الإمام بذلك جعلني في كنفه وتحت رعايته ثم بعد ذلك دفع إلي منشوراً وأمرني بإرشاد الناس إلى طريق الحق بكل ما أوتيت من قوة ومعرفة وأن أطلعهم على إمامة خلفاء مصر وحقيقتهم، فإذا نظر السلطان إلى سعادة ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. فلا بد أنه لم يعرض. وجاء في الرسالة أنه قال: بل إن هذا الدين الذي أنا عليه اليوم هو الذي كان في زمن رسول الله ﷺ وأصحابه، وسيبقى هذا مذهب الحق حتى يوم القيامة، والآن فإن ديني هو دين الإسلام. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. لم ألتفت إلى الدنيا ولا إلى أعمالها بل كل عمل أعمله وكل قول أقوله لم يكن إلا خالصاً مخلصاً لدين الحق، وإني لأعتقد أن أولاد النبي ﷺ أحق بخلافة أبيهم من أولاد العباس وأليق بها من غيرهم، فإن رضيت أنت (ملكشاه) أن تكون هذه المملكة العظيمة التي تحملت في قبضها واستملاكها هذه الزحام والمشقات الكثيرة وبذلت نفوس هاتيك الجنود المجندة حتى ملكتها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ومن محاذة القطب الشمالي إلى الهند تصبح خارجة من أيدي أولادك ويصبح أولادك مشردين في أنحاء المعمورة أينما وجدوا قتلوا وصلبوا. أقول: إذا رضيت بهذا فسترضى بالخلافة هؤلاء، فكيف ببني العباس وهم أناس أذكر لك قليلاً مما شاهدته أنا بنفسي منهم فأقول: إنهم في كل دين وملة لا يرتضيهم كل أحد ولن يرتضيهم وإذا حصل من لم يقف على حالهم فيعتقد بهم ويرى أحقية خلافتهم فإني قد وقفت على أعمالهم وأحوالهم كيف يسوغ لي أن أقبلهم وأعتقد بأحقيتهم؟ فإذا كان السلطان بعد اطلاعه ووقوفه على هذا الحال لن ينهض إلى دفعهم ورفع شرهم عن رءوس المسلمين فإني

لا أعلم كيف يجب ربه يوم القيامة عندما يسأله عنهم؟ وكيف ينجو من جوابه؟ هذا هو ديني منذ كنت وما دمت حياً، لم أنكر ولا أنكر الخلفاء الراشدين الأربعة ولا العشرة المبشرة بل إن حبهم في قلبي كان ويكون وهو كائن ولم أجد ديناً جديداً لم أكن اتخذه قبلاً ولم أظهر ديناً ومذهباً لم يكن قبلي، وأن مذهبي هو المذهب الذي كان لدى الصحابة في زمن الرسول ﷺ وسيكون إلى يوم القيامة، والآن نأتي إلى القول بأني وأتباعي قد عصينا بني العباس وطغينا عليهم: إن كل مسلم مطلع عارف بدينه وملته، كيف لا يشنع على قوم بدوهم ونهاتهم كان وهو كائن وسيكون على التزوير والتدليس والفسق والفجور والفساد وإن أحوالهم وأفعالهم وإن لم تكن مستورة ومختفية على العالم، غير أنني أجملها لتكون لي الحجة على حضرة السلطان، نذكر أولاً أعمال أبي مسلم الخراساني، ذلك الرجل الذي سعى ذلك السعي الحثيث وتحمل تلك الزحامات العظيمة، ولم يبق من عقله وتديره وقوته حتى قصر يد ظلمة بني مروان عن إراقة الدماء وأخذ أموال المسلمين وأزال عن بيت النبوة الطاهر ذلك اللعن^(١) الذي كان ألقى بهم من آل الرسول، ورفع الظلم عن الدنيا، ثم أقامها بالعدل والإنفاق، انظر إلى هذا الرجل المحسن كيف غدروا به حتى أراقوا دمه ظلماً وقتلوا الألوفاً من أولاد رسول الله الطاهرين في أطراف البلاد وأكتافها وخلفوا الآخرين مشردين وفي الزوايا مختفين حتى خلع بعضهم ثوب السيادة حفظاً لأرواحهم ومات الكثير منهم على ذلك الحال ولم يعرفوا. ثم لم يبلغوا الخلافة «أي بنو العباس» حتى شغلوا بشرب المدام والزنا واللواط وقد بلغ فسادهم إلى أن هارون الرشيد وهو أعلمهم وأفضلهم كان يحضر النساء مجلس شرايه ولم يمنع ندماءه من ذلك المجلس حتى إن جعفر بن يحيى البرمكي الذي كان من المقيمين في مجلسه قد تصرف -أو قل زنى- بأخت الرشيد «العباسة» وولدت منه ولداً أخفوه عن الرشيد إلى أن حج في السنين ورآه هناك فقتل جعفر وكانت له أخت أصغر منها فائقة الحسن والجمال قد قربها إليه ذات يوم وزنى بها^(٢) ومن اللطائف المشهورة: أن الأمين ابن الرشيد لما ولي الخلافة بعد أبيه قرب هذه الجميلة إليه وهي عمته فزنى بها ظاناً أنها لم تزل بكرًا، ولما سألها عن ذلك، أجابت: أي بكر في بغداد لم يفضها أبوك حتى يدع أخته بكرًا^(٣)، وبالجملة فلو أردنا تعداد أعمال هؤلاء لما وفي العمر بعددها، هؤلاء هم الخلفاء

(١) هذه من الروايات التاريخية الموضوعة والضعيفة، ونلاحظ توظيف حسن الصباح لأكاذيب أسلافه لإضلال الناس، ونرى حقارة أخلاق الباطنية في بهتان رموز الأمة كهارون الرشيد وغيره والدفاع عن المجرمين كأبي مسلم الخراساني.

(٢) هذه من الأكاذيب التي دست في سيرة هارون الرشيد.

(٣) من الأكاذيب والأباطيل.

الراشدون وهؤلاء هم أركان المسلمين الذين بهم يكون قوام الملك والملة ونظام الدين والدولة فلتعط النصف إذا طعنت بهم أنا أو طعن بهم غيري، إنا عصيناكم فهل هذا حق منا أم باطل؟ وأما القول: بأننا أغرينا الجهال، فإن من الواضح عند أرباب البصائر أن ليس من شيء أشرف من الروح وما من أحد يعاف نفسه ولا سيما رجل مثلي قليل البضاعة قليل الاستطاعة في إنجاز مثل هذا العمل^(١)...

من حدود خراسان جمع من غلمان السلطان ومن النظامية وأرباب المعاملات كانوا قد انحرفوا أكثر من هذا بين المسلمين عن العرف والمرسوم فبعضهم مد يده إلى عورات المسلمين وحريم الزهاد والعباد حتى اختطفوا النساء بحضور أزواجهن، وبعضهم خان معاملات الديوان ولم ينصفه، وكلما استغاث الناس بأركان الدولة لم يغاثوا بل كان البلاء ينزل عليهم وعلى من تكلم وصرح بحقه. هذا «نظام الملك» مدير المملكة ووزيرها قد قتل الخواجة أبا نصر الكندري وهو الوزير الوحيد الذي لم يعهد مثله في أي ملك وفي أي عصر، إذ كان عاملاً ناصحاً وذلك بتهمة تصرفه في أملاك السلطان وأمواله حتى أعدمه من الوجود. أما اليوم فقد أشرك معه الظلمة في أعماله إذ كان الخواجة أبو نصر يقبض العشرة دراهم فيوصلها إلى الخزينة، أما هذا فإنه يقبض الخمسين درهماً ولا يعرف النصف درهم من أعمال السلطان. أما ما يصنعه في الطين والآجر في أطراف المملكة فذلك أظهر من الشمس؛ أين كان للخواجة أبي نصر من ولد أو بنت وهل صرف ديناراً واحداً في الخشب والطين؟ فهل لهذا العصر مع هذا العجز والصنعة أمل في النجاة؟ فإذا ما اضطر أحدهم لرفع العار أن يبذل روحه ويتركها ليدفع واحداً أو اثنين من هؤلاء الظلمة فليس ذلك ببعيد وإذا فعل فهو معذور.... فما لحسن الصباح وهذه القضايا؟ وما حجته بها وما هو نافع له إذا أغرى أحداً؟ وأي عمل من أعمال الدنيا يمكنه إيجاده ما لم يتعلق به تقدير سماوي؟^(٢) وأما أمركم بأني أترك هذا النوع وإلا نعوذ بالله أن يصدر مني عمل يخالف رأي السلطان ولكن لما كان لي أضداد وكانوا يسعون في طلبي، اخترت هذه الزاوية وجعلتها ملجأ لي وسكناً حتى أنهى حالي إلى أعتاب السلطان بعد السكون والدعة واستقرار البال، فإذا فرغت من أمر خصومي فسأتوجه إلى عتبة حضرة السلطان وأنخرط في سلك خدامه لأعمل بكل ما أوتيت من قوة على النصيح بما أوجبه النصيحة من تحسين دنيا السلطان وما تبقى من أمر آخرته. أما إذا صدر مني خلاف، ولم أطع أوامر السلطان فسأكون ملوماً في الدنيا مطعوناً من البعيد والقريب، وسيقال إنني خالفت ولي الأمر ولم أحظ بسعادة ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾

(١) الظاهر أنه هنا قد سقطت عبارة تربط الكلام.

(٢) نظام الملك، ص ٦١٠، ٦١١.

وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» [النساء: ٥٩]. كما أن خصومي سوف يفترون عليّ عند السلطان بما لا علم لي به ويزلزون قدري وحرمتي لديه، كما يشهرون أعمالي على الناس بالسوء والشناعة وإن كانت حسنة حتى يقضوا على سمعتي وذكرى الحسن، وإذا قدمت على السلطان ومثلت بين يديه مع وجود «نظام الملك» وخصومته لي وما عمله معي من الظلم، وما سيعمله غير مبال بكل ذلك مضافاً إلى التزام السلطان بمتابعة بني العباس، وعدم مخالفته أوامرهم ونواهيهم ومع علمه بسعيهم الخيث في طلي والقبض عليّ حتى ذهبت إلى مصر ولم يظفروا بي في الطريق رغم كثرة رسلهم خلفي وجواسيسهم عليّ حتى خدعوا أمير الجيوش وأقنعوه بالأموال ليقصدني ولولا عناية المستنصر بالله الخليفة الحق لكنت من الهالكين.. وأخيراً.. وأخيراً أرسلني أمير الجيوش إلى الإفرنج من طريق البحر لأدعو الكفار إلى الحق، وبفضل الله نجوت أيضاً من تلك الورطة، ثم توجهت إلى العراق بعد جهد جهيد وبعد تلك المشقات والزحمت، وكان بنو العباس لم يزالوا ساعين في طلي^(١) واليوم وقد بلغت هذا المقام وأظهرت دعوة الخلفاء العلويين وحصلت على عدد من المجتمعات في طبرستان وقهستان والجلال واجتمع حولي كثير من الأحباب والمؤنسين والشيعة والعلويين حتى أصبح بنو العباس يخشون جانبي ويخافون سطوتي، وإذا ما تغير مزاج السلطان عليّ وسعى في قصدي لإمكان طلب العباسيين إياي منه لا يعلم ماذا سيكون وماذا سيحدث، وإذا حدث شيء على أي نوع كان فإنه لا يخلو من شناعة إذ لو أجابهم السلطان إلى طلبهم فإنه لا يعذر في شرع المروءة والإنصاف وإن لم يجب التماسهم تقوّل عليه بعض الجهال ونالوا منه وامتد على السلطان لسان التشنيع وقيل فيه: «ما هذه الغاشية التي تحملها السلطان منهم وما هو عدم تسليمه حسن صباح لهم»^(٢). ومن المحتمل أيضاً أن تحصل بينهم المقاومة والنزاع وفي الأخير لا تعلم نهاية الأمر. وأما حديث «سرسنك» وأمرهم بأنه لو كان برجاً من بروج السماء.. فإن أهالي سرسنك يعتقدون ويثقون من قول الدهر الحق^(٣)، بأن هذا البرج لا يخرج من أيديهم إلى زمن بعيد ومدة قصيرة لأنه يتعلق بعناية الله تعالى، والآن وأنا قابع في هذه الزاوية عاملاً بكل فرض وسنة أرجو وأطلب من الله تعالى ورسوله أن يهتدي السلطان وأركان دولته إلى طريق الصواب، وأن يرزقهم الله دين الحق وأن يرفع فسق بني العباس وفجورهم عن الناس^(٤).

(١) نظام الملك، ص ٦١٢.

(٢) فقد ورد في حوادث سنة ٤٥٨هـ أن السلطان «ألب أرسلان» ولي ابنه ملكشاه وحمل بين يديه الغاشية. دول الإسلام (٤٠٧/١).

(٣) المقصود هنا: هو المستنصر بالله الخليفة الفاطمي في مصر.

(٤) نظام الملك، ص ٦١٣.

وفي هذه الرسالة محاولة من حسن الصباح لزراعة ملكشاه في معتقده في البيت العباسي والخلافة العباسية وحشد لها أكاذيب وأباطيل، كما أراد أن يضعف العلاقة بين ملكشاه ونظام الملك وعمل على التأثير الفكري والعقائدي على السلطان نفسه، ولا ندرى مدى تأثير هذه الرسالة على ملكشاه وإن كان ابن الجوزي ذكر عن ابن عقيل؛ أن السلطان ملكشاه، كان قد فسدت عقيدته بسبب معاشرته بعض الباطنية، ثم تَنَصَّل من ذلك ورجع إلى الحق^(١)، وهذا يظهر خطورة الدعوات الباطنية الباطلة على حكام المسلمين والنخب وإن كانوا صالحين ما لم يتحصنوا بعقيدة أهل السنة والجماعة ويتواصلوا مع العلماء الربانيين، كما أننا نلاحظ أثر الرسائل في دعوة الآخرين والتأثير عليهم سلباً أو إيجاباً، والذي يبدو أن هبة الخليفة والخلافة العباسية قد زالت من نفس السلطان ملكشاه، فقد عزم على نفي الخليفة من بغداد، وسيأتي بيان ذلك في محله بإذن الله.

٩ - دولة الإسماعيلية في إيران:

لم يكد الحسن الصباح يستولي على قلعة ألموت حتى بادر بالاستيلاء على القلاع المجاورة، فأطلق دعاته لتحقيق هذا المأرب^(٢). ولم يمض وقت طويل حتى كان الصباح قد استولى على المنطقة الواقعة جنوبي بحر قزوين برمتها بعد أن سيطر دعاته على القلاع المتناثرة في أرجائها، والتي تبلغ نحو الستين قلعة، كانت هذه القلاع تقع في الغالب وسط وديان صالحة للزراعة وبالقرب من موارد ثابتة للمياه، فالملاحظ أن القلاع الرئيسية في أراضي الإسماعيلية كانت تقع بالقرب من نهر «شاهرود» وفروعه^(٣)، وكانت القلعة تكون وحدة اقتصادية عسكرية مستقلة بذاتها، يعيش أهلها معتمدين على أنفسهم في زراعة الأرض والدفاع عن القلعة وما حولها في مواجهة أي غزو أو اعتداء، ولقد كان للوفرة والتنوع الذي امتازت به المحاصيل التي يمكن أن تزرع في هذه المنطقة أكبر الأثر في تحقيق استقلالها وتكاملها الاقتصادي، وكانت المحاصيل تزرع في الأرض المحيطة بالقلاع، ويبدو أن الإسماعيلية كانوا يضطرون إلى التحصن بقلاعهم في أثناء الحملات التي كان يشنها عليهم أعداؤهم ويتركون الأراضي المزروعة حول القلعة دون حماية مما كان يعرض محاصيلهم ومزروعاتهم للنهب والغارة والتلف، ولكن ذلك لا يعني أن هذه القلاع كانت تعيش في معزل عن بعضها البعض أو يحكمها مقدموها دون رقيب أو معقب، وإنما كانت كل واحدة من هذه القلاع تكون وحدة محلية تابعة للسلطة المركزية في قلعة ألموت، فقد كان رؤساء هذه القلاع يتبعون

(١) البداية والنهاية (١٦/١٣٣).

(٢) دولة الإسماعيلية في إيران، محمد السعيد، ص ٩٥.

(٣) دولة الإسماعيلية في إيران، ص ٩٥.

مباشرة الحاكم الإسماعيلي في قلعة الموت الذي كان يمثل السلطة العليا^(١)،... وكانت المناطق التي تسيطر عليها هذه القلاع جميعاً تمثل رقعة واحدة من الأرض تقع جنوبي بحر قزوين وتمتد فتشمل الطالقان في الجنوب الشرقي حتى حدود قزوین جنوباً كما تمتد غرباً حتى بهرام آباد ورودبار على الحدود المتاخمة لشرقي آذربيجان وذلك يعني أن المناطق التي سيطر عليها الإسماعيلية كانت ذات حدود سياسية تفصلها عن المناطق المجاورة لها والتي تقع تحت سيطرة غيرهم، غير أن هناك ولاية تقع خارج نطاق هذه الحدود استطاع الإسماعيلية الاستيلاء عليها وهي ولاية قهستان^(٢) المجاورة لخراسان منذ سنة ٤٨٤هـ، فأصبحت تابعة للدولة، وظل حكامها المحليون يتبعون ملوك الإسماعيلية في الموت حتى قضى عليهم المغول^(٣).

١٠ - نظام الملك ومشروعه في محاربته للهدم الباطني:

إن كتب الفرق من السنة يعتبرون الإسماعيلية بجميع فروعها من فاطمية «عبيدية» أو قرامطة أو نزارية «حشيشية» أو غيرها من فرق الغلاة الباطنية لأنهم تطرفوا في العقيدة وانحرفوا عن الإسلام الصحيح، وللدرد على مزاعم الإسماعيلية الباطنية، ألف - مثلاً - أبو حامد الغزالي كتابه الموسوم بـ «فضائح الباطنية» داحضاً لادعاءاتهم، ثم إن السلطنة السلجوقية حاربت البدع الإسماعيلية، وتميز من السلاجقة وزيرهم نظام الملك الذي أدرك نشاط الدعوة الإسماعيلية في كسب أعداد كبيرة من عامة الناس، فبدأ بتأسيس عدد من دور الثقافة والتعليم من أجل نشر الوعي والثقافة الإسلامية الصحيحة لتحسين الفرد ضد دعوات الإسماعيلية وهذه المؤسسات عرفت بالمدارس النظامية، وقد أنشئت في بغداد والموصل وأصفهان ونيسابور ومرو وبلخ وهراة وغيرها من المدن، بل إن رواية تاريخية تشير إلى أنه أنشأ في كل مدينة عراقية وخراسانية مدرسة^(٤). وسيأتي الحديث عن المدارس النظامية في العهد السلجوقي بالتفصيل بإذن الله تعالى.

(١) دولة الإسماعيلية في إيران، ص ٩٦.

(٢) هي الجبال التي بين هراة ونيسابور.

(٣) دولة الإسماعيلية في إيران، ص ٩٧.

(٤) الخلافة العباسية (١٩١/٢).

المبحث الخامس

وفاة الخليفة القائم بأمر الله وتولي أمر الخلافة المقتدي بالله

أولاً: وفاة الخليفة القائم بأمر الله :

في عهد السلطان ملكشاه وفي سنة ٤٦٧ هـ^(١) توفي أمير المؤمنين القائم بأمر الله، أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتدر بالله جعفر بن المعتضد العباسي البغدادي، كان مولده في سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة وأمه أرمينية تُسمى بدر الدجى وقيل: قطر الندى، كان - رحمه الله - جميلاً وسيماً أبيض بحمرة ذا دين وخير وبر وعلم وعدل، بويغ سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، وأنه نكب سنة خمسين في نائبة البساسيري، ففر إلى البرية في ذِمَام أمير للعرب، ثم عاد إلى خلافته بعد عام بهمة السلطان طغرل بك، وأزيلت خطبة خليفة مصر المستنصر بالله من العراق وقتل البساسيري^(٢). وقد مرّ ذلك مفصلاً. ظهر عليه مَاشِراً^(٣) فافتصد ونام، فانفجر مضاده، وخرج دم كثير، وضعف، وخارت قواه، وكان ذا حظ من تعبد وصيام وتهجد، لما أعيد إلى خلافته قيل: إنه لم يسترد شيئاً مما نُهب من قصره، ولا عاقب من آذاه، واحتسب وصبر. وكان تاركاً للملاهي - رحمه الله - وكانت خلافته خمساً وأربعين سنة وغسله شيخ الحنابلة أبو جعفر بن أبي موسى الهاشمي، وعاش ستاً وسبعين سنة، وبويغ بعده ابن ابنه المقتدي بالله^(٤).

ثانياً: خلافة المقتدي بالله

هو أبو القاسم عَدَّة الدين عبد الله بن الأمير ذخيرة الدين محمد بن الخليفة القائم بأمر الله عبد الله بن القادر العباسي وأمه أرمينية تسمى أرجوان، وتدعى قرّة العين، وأدركت خلافته وخلافة ولديه المستظهر والمسترشد، وقد كان أبوه توفي وهو حمل، فحين ولد ذكراً فرح جده والمسلمون به فرحاً شديداً؛ إذ حفظ الله على المسلمين بقاء الخلافة في البيت القادري، لأنّ من عداهم يتذلون في الأسواق مع العوام، وكانت القلوب تنفر من تولية مثل أولئك الخلافة على الناس، ونشأ هذا في حجر جدّه القائم بأمر الله يُربيه بما يليق بأمثاله، ويدربه على أحسن السجاياء، وكان عمر المقتدي حين ولي الخلافة عشرين سنة وهو في غاية الجمال خلقاً وخلقاً، وكانت بيعته يوم الجمعة الثالث عشر من شعبان من هذه السنة،

(٢) المصدر نفسه (٣٠٧/١٨).

(١) سير أعلام النبلاء (٣١٨/١٨).

(٣) الماشرا: في عرف الأطباء هو ورم حارّ عن دم صفراوي يعم الوجه.

(٤) سير أعلام النبلاء (٣٠٨/١٨).

وجلس في دار الشجرة بمقيص أبيض، وعمامة بيضاء لطيفة... وجاء الوزراء والأمراء والأشراف ووجوه الناس فبايعوه، فكان أول من بايعه الشريف أبو جعفر بن أبي موسى الحنبلي وأشدّه قول الشاعر:

إذا سيّد منا مضى قام سيّد

ثم أرتج عليه فلم يدر ما بعده، فقال الخليفة:

قَتُول لما قال الكرام فَعُولُ

وبايعه من شيوخ العلم الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، والشيخ أبو نصر بن الصَّبَّاح، الشافعيان، والشيخ أبو محمد التميمي الحنبلي، وبرز فصلى بالناس العصر، ثم بعد ساعة أخرج تابوت جده بسكون ووقار من غير صراخ ولا نواح فصلى عليه وحمل إلى المقبرة رحمه الله، وقد كان المقتدي بالله شهماً شجاعاً، أيامه كلها مباركة، والرزق دار، والخلافة معظمة جدّاً، وتصاغت الملوك له، وتضاءلوا بين يديه، وخطب له بالحرمين وبيت المقدس، والشامات كلها، واسترجع المسلمون الرُّها وأنطاكية من أرض العدو، وعُمِّرت بغداد وغيرها من البلاد، واستوزر ابن جهير ثم أبا شجاع، ثم أعاد ابن جهير وقاضيه الدِّمَغانِي، ثم أبو بكر الشامي وهؤلاء من خيار القضاة والوزراء والله الحمد^(١)، وفي شعبان من خلافته أخرج المفسدات من الخواطى من بغداد على حُمُرَات ينادين على أنفسهن بالعار والفضيحة، وخرَّب دورهن وأسكنهن الجانب الغربي، وخرَّب أبرجة الحمام، ومنع من اللعب بها، وألزم الناس بالمآزر في الحمامات ومنع أصحاب الحمامات أن يصرفوا فضلاتها إلى دجلة وألزمهم بحفر آبار لتلك المياه القذرة صيانة لماء الشرب^(٢).

ثالثاً: تدهور العلاقة بين ملكشاه والمقتدي:

أخذت علاقة الخليفة بالسلطان تسوء شيئاً فشيئاً، وكانت بداية هذه الانتكاسة تعود إلى سوء التفاهم الذي وقع بين المقتدي وزوجته خاتون ابنة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٢هـ، وقد تطور هذا الخلاف وانكشف أمره عندما أخبرت خاتون أباهما بالأمر وشكت له إعراض المقتدي عنها، وعلى الفور أرسل السلطان إلى الخليفة يطلب ابنته التي توجهت إلى بيت أبيها في أصبهان بموكب يليق بها مع ابنها الأمير أبي الفضل جعفر بن المقتدي وما كادت تستريح في بيت والدها حتى فارقت الحياة في السنة نفسها، فتمت التعزية بها في أصبهان ومدينة بغداد، وبدأ السلطان ملكشاه من الآن فصاعداً يخطط لإزعاج الخليفة والانتقام منه عندما

(١) البداية والنهاية (١٦/٤٩، ٥٠).

(٢) المصدر نفسه (١٦/٥١).

تسبح الفرصة ^(١) وفي سنة ٤٨٤ هـ دخل السلطان مدينة بغداد ومكث في دار المملكة حتى يكون على مقربة من المقتدي، الذي بدأ نفوذه يتقلص أكثر فأكثر حتى لم يعد له من الأمر إلا الاسم، لا يتعدى حكمه بابه ولا يتجاوز جنباه ^(٢)، وأقام السلطان أيضاً عيد ميلاده على نهر دجلة وازدانت بغداد بزينة باهرة في هذه المناسبة، في البر والنهر، وبعد كل ما جرى من تحطيم لعنويات المقتدي، أقدم السلطان ملكشاه على التدخل المباشر في مصير الخلافة العباسية، وطلب من المقتدي أن يجعل أبا الفضل جعفر ابن بنت السلطان ولياً لعهدده بدلاً من ابنه الأكبر الإمام المستظهر بالله الذي كان المقتدي قد بايع له بالخلافة من بعده ^(٣)، وحاول الخليفة أن يتملص من هذا الأمر، إلا أن السلطان كان مصمماً على الانتقام من المقتدي وإجلائه نهائياً عن مدينة بغداد، فحين دخلها سنة ٤٨٥ هـ، بعث إلى الخليفة يقول له: لا بد أن تترك لي بغداد وتنصرف إلى أي البلاد شئت، فانزعج الخليفة من هذا انزعاجاً شديداً ثم طلب من السلطان أن يمهله شهراً واحداً فرفض السلطان وقال: ولا ساعة واحدة. ثم اتصل الخليفة بوزير السلطان تاج الملك أبي الغنائم الذي تمكن من إقناع السلطان أن يمهّل الخليفة عشرة أيام كي يرتب أموره ويرحل إلى البصرة أو إلى أي بلد يختاره ^(٤). وهكذا حل بالمقتدي ذل وهوان لا مثيل له في حياته كلها وهو لا يستطيع أن يرد عن نفسه ولا يستطيع أن يقف في وجه ملكشاه، فالتجأ إلى ربه يدعو ليلاً ونهاراً أن يفرج عنه ويخرجه من هذا المأزق وكان يقوم الليل ويصوم النهار خاشعاً متضرعاً إلى الله تعالى، وفي هذه الفترة خرج السلطان إلى الصيد فعاد مريضاً ومات قبل أن تنتهي فترة الإنذار التي أعطاها للخليفة وعد هذا الأمر كرامة للمقتدي، وقد تخلص من عار محقق ومأساة واقعة، وهكذا وصل الخليفة إلى درجة من الضعف لا يحسده عليها عدو ^(٥). وقد علق ابن كثير على دخول ملكشاه إلى بغداد وإرادته إخراج الخليفة منها بقوله: وقدم السلطان بغداد في رمضان بنية غير صالحة، فللقاه الله في نفسه ما يتمناه لأعدائه، وذلك أنه لما استقر ركابه ببغداد، وجاء الناس للسلام عليه والتهنئة بقدومه، وأرسل إليه الخليفة يهنئهُ بعث إلى الخليفة يقول له: لا بد أن تترك لي بغداد وتتحول إلى أي البلاد شئت، فأرسل إليه الخليفة يستنظره شهراً، فقال: ولا ساعة واحدة، فأرسل يتوسل إليه في إنظاره عشرة أيام، فأجاب إلى ذلك بعد تمثُّع شديد، فما استتم الأجل حتى خرج السلطان يوم عيد الفطر إلى العيد، فأصابته حمى شديدة،

(١) المنتظم (٩/٤٦، ٤٧)، الحضارة الإسلامية في بغداد، محمد حسين، ص ٣٧.

(٢) المنتظم (٩/٥٧). (٣) وفيات الأعيان (٥/٢٨٨).

(٤) المنتظم (٩/٦٢)، الحضارة الإسلامية في بغداد، ص ٣٩.

(٥) وفيات الأعيان (٥/٣٨٩)، الحضارة الإسلامية في بغداد، ص ٣٩.

فاتصد فما قام منها حتى مات قبل العشرة أيام والله الحمد والمنة ^(١).

وبموت السلطان ملكشاه انقضى العصر الذهبي للسلطة السلجوقية وبدأ عهد الانقسامات السياسية والحروب بين ورثة العرش السلجوقي مما أدى إلى تشتت صفوفهم وإضعاف سلطتهم، ولكن رغم هذا الضعف فقد حرص سلاطين السلاجقة على الاستمرار بالسلطة دون الخلفاء وكانوا يتنهبون كل فرصة للتعبير عن هذه الرغبة ^(٢)، وقبل الحديث عن عهد تدهور الدولة السلجوقية لا بد من الإشارة إلى شيء من سيرة نظام الملك رحمه الله.

رابعاً: نظام الملك:

قال عنه الذهبي: الوزير الكبير، نظام الملك، قوام الدين، أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، عاقل، سائس، خير سعيد متدين، محتشم، عامر المجلس بالقراء والفقهاء، أنشأ المدرسة الكبرى ببغداد وأخرى بنيسابور، وأخرى بطوس، ورغب في العلم وأدر على الطلبة الصلوات، وأملى الحديث، وبعد صيته ^(٣) تنقلت به الأحوال إلى أن وزر للسلطان ألب أرسلان، ثم لابنه ملكشاه، فدبر ممالكه على أتم ما ينبغي، وخفف المظالم، ورفع بالرعايا، وبني الوقوف، وهاجرت الكبار إلى جانبه ^(٤)، وأشار إلى ملكشاه بتعيين القواد والأمراء الذين فيهم خلق ودين وشجاعة، وظهرت آثار تلك السياسة فيما بعد، ومن هؤلاء القواد الذين وقع عليهم الاختيار آق سنقر جد نور الدين محمود، الذي ولي على حلب وديار بكر، والجزيرة، قال عنه ابن كثير: من أحسن الملوك سيرة وأجودهم سريرة ^(٥)، وقام ولده عماد الدين زنكي ببداية الجهاد ضد الصليبيين، ثم قام من بعده نور الدين محمود، هذه الأسرة هي التي وضعت الأساس لانتصارات صلاح الدين والظاهر بيبرس وقلالون ضد الصليبيين، وافتتحت عهد التوحيد والوحدة في العالم الإسلامي ^(٦)، وكذلك كان آق سنقر البرسقي من قواد السلطان محمود السلجوقي، وكان أميراً للموصل، واشتغل بجهاد الصليبيين، وفي سنة ٥٢٠هـ قتله الباطنيون وهو يصلي في الجامع الكبير في الموصل، قال عنه ابن الأثير: وكان مملوكاً تركياً خيراً، يحب أهل العلم والصالحين ويرى العدل ويفعله، وكان خير الولاة، يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويصلي من الليل متهجداً ^(٧). ويحدثنا المؤرخ

(١) البداية والنهاية (١٦/١٢٢، ١٢٣).

(٢) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، ص ٤٠.

(٣) سير أعلام النبلاء (١٩/٩٤).

(٤) المصدر نفسه (١٩/٩٥).

(٥) البداية والنهاية (١٢/١٥٧).

(٦) أيعيد التاريخ نفسه؟، ص ٦٨.

(٧) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: أيعيد التاريخ نفسه؟ ص ٦٨.

أبو شامة عن آثار السلاجقة لا سيما في زمن نظام الملك: فلما ملك السلجوقية جددوا من هيئة الخلافة ما كان قد درس لاسيما في وزارة نظام الملك، فإنه أعاد الناموس والهيئة إلى أحسن حالاتها^(١).

١ - ضبطه لأموار الدولة: لما تولى ملكشاه أمور الدولة انفلت أمر العسكر وبسطوا أيديهم في أموال الناس وقالوا: ما يمنع السلطان أن يعطينا الأموال إلا نظام الملك، وتعرض الناس لأذى شديد، فذكر ذلك نظام الملك للسلطان، وبين له ما في هذا الفعل من الضعف، وسقوط الهيئة والوهن ودمار البلاد، وذهاب السياسة، فقال له: افعل في هذا ما تراه مصلحة، فقال له نظام الملك: ما يمكنني أن أفعل إلا بأمرك، فقال السلطان: قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد، وحلف له، وأقطعه إقطاعاً زائداً على ما كان، وخلع عليه، ولقبه ألقاباً من جملتها: أتابك، ومعناه الأمير الوالد، فظهر من كفايته وشجاعته وحسن سيرته ما أثلج صدور الناس، فمن ذلك أن امرأة ضعيفة استغاثت به، فتوقف يكلمها وتكلمه، فدفعها بعض حجاب، فأنكر ذلك عليه، وقال: إنما استخدمتك لأمثال هذه، فإن الأمراء والأعيان لا حاجة لهم إليك. ثم صرفه عن حجابته^(٢).

٢ - التصور النظري للدولة عند نظام الملك: كان النظام مؤمناً بالإسلام مقدساً لتعاليمه كما كان شغوفاً بعلومه محترماً لأعلامه حتى صار دينه ودولته على السواء، وأن كلا منهما يكمل الآخر كما تستكمل الأرض بالسماء.. ولفرط تميم النظام للدين وشدة دفاعه عن الدولة يحار فإنه يرى الدولة وسيلة من وسائل نشر الإسلام وإذاعته بين الناس وقد ظهر علماء كرام في عهد النظام، بينوا ارتباط الدين بالدولة، بحيث صار وسيلة لها وغاية في آن واحد، فالإمام الغزالي والماوردي يقولان: إنه ليس دين زال سلطانه إلا بدلت أحكامه وطمست أعلامه وكان لكل زعيم فيه بدعة، كما أن السلطان إن لم يكن على دين تجتمع به القلوب حتى يرى أهل الطاعة فيه فرضاً والتناصر له حتماً^(٣). وقيل: الدين أس والسلطان حارس، وما لا أس له فمهزوم وما لا حارس له فضائع^(٤).

وشاعت هذه المقولة أيضاً في شرق العالم الإسلامي وأخذ يرددها الطرطوشي وابن خلدون^(٥) وغيرهم في غربهم^(٦)... وبذلك الدافع من إيمانه القوي في الدين واعتقاده الراسخ

(١) الروضتين في أخبار الدولتين، نقلاً عن: أعياد التاريخ نفسه؟.

(٢) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: الدولة العثمانية للصلاحي.

(٣) أدب الدين والدنيا، ص ١١٥، نظام الملك، ص ٤١٢. (٤) الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي، ص ١٣٥.

(٥) المقدمة، ص ١١٥، نظام الملك، ص ٤١٣. (٦) نظام الملك، ص ٤١٣.

في إصلاحه للحياة الفانية، وبذلك اليقين من أعماق نفسه بضرورة الدولة العادلة لرعاية الناس وإسعادهم كتب رسالته في السياسة ووضع فيها الأسس العامة للدولة الجديدة التي كان ولم يزل يدأب من أجلها ويضع الخطط اللازمة لتكوينها^(١)، وما كان النظام خيالياً حالماً وهو يخطط لمعالم دولته المنشودة، كمن يرسم صورة زيتية على ورقة بيضاء استجابة لداعي الفن أو كمن سبقه من أصحاب الجمهوريات والمدن الفاضلة وإنما كان أقرب إلى الواقع منه إلى الخيال^(٢)، وقد انطلقت رؤيته للدولة من أصول المذهب السني والتي نظّر لها علماء عصره - كالفزالي والجويني - وهؤلاء دعمهم النظام دعماً معنوياً ومادياً يأتي بيانه في محله بإذن الله تعالى، وقد كان سلاطين السلاجقة الأوائل يدينون بالإسلام وكانوا في أشد الحاجة لفهمه ولذلك فقد حاول وزيرهم الكبير نظام الملك أن يوجه عنايتهم إلى العلم، وحرمتهم للعلماء^(٣) فقد تكلم في الكتاب عن السلطان وعن واجباته واختصاصه، وعن خزينة الدولة والمراسيم السلطانية، والحاشية السلطانية، والمائدة السلطانية، والاستقبالات السلطانية، والحرس السلطاني، وناظر الخاصة، والوزير والوزارة، والموظفين في الدولة، والسفراء بين الدول، والقضاة والقضاء، والمحتسبين للمراقبة، والولاة وأمراء الإقطاع، والغلمان والتجنيد، والجيش وإعداده، والألقاب وتحديداتها^(٤).

٣- اهتمام نظام الملك بالتنظيمات الإدارية: اهتم نظام الملك بالتنظيمات الإدارية فكان اليد الموجهة لأداء الدولة في عهد السلطان ألب أرسلان، واتسعت سلطاته في عهد السلطان ملكشاه^(٥)، فأشرف بنفسه على رسم سياسة الدولة الداخلية والخارجية بشكل كبير، مستفيداً من فهمه ومعرفته لنظم الإدارة، وقد تضمن كتاب «سياست نامه» الذي ألفه هذا الوزير في الآراء والنظريات الإدارية التي تعتبر أساساً لنظام الحكم وإدارة الدول والممالك^(٦)، وتظهر من خلال كتاب «سياست نامه» أهم الطرق الإدارية التي اتبعها الوزير نظام الملك في إدارته للدولة السلجوقية، ويأتي في مقدمتها وقوفه بشدة ضد تدخل أصدقاء السلطان المقربين في شئون الدولة، حتى لا يتسبب ذلك في اضطراب إدارتها^(٧). كذلك كان يهتم بشكل خاص بالبريد الذي كان رجاله يوافون الحكومة بكل أخبار البلاد الخاضعة لها^(٨). هذا فضلاً عن حرصه الشديد على إرسال المخبرين إلى جميع الأطراف في هيئة التجار والسياح والمتصوفة وال دراويش

(١)، (٢) نظام الملك، ص ٤١٣.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٠٩ - ٤٥١.

(٥)، (٦) نظام الوزارة في الدولة العباسية، د محمد الزهراني ١٧٢.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٠٢.

(٧) نظام الملك: سياست نامه، ص ٢٣٤.

والعقارين^(١)، يتنسمون الأخبار، ويرسلونها للسلطان أولاً بأول حتى لا يخفى عليه شيء من أمور مملكته^(٢). وقد نجح نظام الملك في إحباط عدد من المؤامرات ضد الحكومة المركزية بفضل ما كان يصل إليه عن طريق أولئك المخبرين^(٣)، كما عمل نظام الملك على الحد من استغلال الموظفين والعمال لسلطاتهم حتى لا يرهقوا الرعية بالرسوم والضرائب الباهظة^(٤)، وكان يغير الولاة والعمال مرة كل سنتين أو ثلاث ضماناً لعدم تلاعبهم في أعمالهم^(٥)، ولما ألغى السلطان ألب أرسلان وظيفة «صاحب البريد» ووظيفة «صاحب الخبر»^(٦)، رتب وزيره نظام الملك في كل مدينة رجلاً نزيهاً لمراقبة السوالي والقاضي والمحاسب ومن يجري مجراهم من الموظفين وموافاتهم بأخبارهم أولاً بأول، كذلك كان نظام الملك يدقق في اختيار الموظفين، فيختار من كان منهم أغزر علماً وأزهد نفساً وأعف يداً وأقل طمعاً. وكان يختار لوظيفتي «صاحب البريد» و«صاحب الخبر» أناساً لا يرقى الشك إليهم لحساسية هذا العمل، ويتم تعيينهم من قبل السلطان نفسه، وكان نظام الملك يصرف مرتبات مجزية لموظفي الدولة، خشية أن يضطر الموظف إلى الاختلاس من مال الدولة، أو يستغل منصبه ويتسلط على أموال الرعية^(٧). كما كان حريصاً على مراجعة حسابات الدولة في نهاية كل عام لمعرفة الدخل والمنصرف والموازنة بينهما، ولكي يضمن هذا لنظام الملك تنفيذ خطته الإدارية بدقة استعان بعدد من كبار موظفي الدولة المخلصين والأكفاء، وكون منهم ما يشبه المجلس الاستشاري^(٨)، مهمته - فيما يبدو - دراسة ما يعرض عليه من أمور مهمة ووضع الحلول الملائمة لها، ومن ثم متابعة تنفيذها بدقة^(٩)، وكانت شئون دولة السلاجقة قبل تولي نظام الملك الوزارة غير منظمة، فطرق الخلل إلى إدارة الولايات التابعة لها، وساءت الحالة المالية فيها نتيجة لخراب أراضيها، ولعدم قيام المشرفين عليها بما تحتاج إليه من عمارة وإصلاح، فلما جاء نظام الملك إلى الوزارة نظم شئون تلك الولايات، وعمر أراضيها، وأقر سلطة الدولة في النواحي التي كادت تخرج من حظيرتها.

٤- نظام الملك والتفكير الاقتصادي: كان لنظام الملك دور مهم في إصلاح الأراضي الزراعية، وتنظيم توزيعها، فقد جرت العادة لدى الخلفاء والأمراء أن تجني الأموال في البلاد، وتجمع في العاصمة^(١٠)، فلما اتسعت رقعت الدولة السلجوقية في عهد نظام الملك لاحظ أن دخل الدولة من خراج الأراضي الزراعية قليل لحاجتها إلى الإصلاح، فضلاً عن عدم اهتمام

(٢)، (٣) سياست نامه، ص ١٠٧.

(٥) المصدر نفسه، ص ٦٩.

(١) العقارين: باعة العقاقير الطبية.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥١، ٥٢.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٠٢.

(٧، ٨، ٩، ١٠) نظام الوزارة في الدولة العباسية للزهراني، ص ١٧٤.

الولاية بها^(١)، فوجد أن من الأصح للدولة أن توزع النواحي على شكل إقطاعات على رؤساء الجند، على أن يدفع كل مقطع مبلغاً من المال لخزانة الدولة مقابل استثماره للأراضي التي أقطعت له، فكان هذا الإجراء سبباً في تنمية الثروة الزراعية إذ اهتم المقطعون بعمارتها مما أدى إلى زيادة إنتاجها، وظل هذا النظام قائماً حتى زالت الدولة السلجوقية^(٢)، ويلاحظ أن نظام الإقطاع في العهد السلجوقي يختلف كثيراً عن الإقطاع في العهد البويهى، لأن الإقطاع في العهد البويهى لم يكن عاماً شاملاً، ولم يشمل كل العسكريين، وكان الهدف منه تعويض الجند عن أرزاقهم المتأخرة، وليس الإصلاح الزراعي حتى إن بعض القواد البويهيين كانوا يخربون إقطاعاتهم ثم يردونها ويعتاضون عنها بإقطاعات أخرى يختارونها من أجل تحسين دخلهم الشخصي لا دخل الدولة^(٣) أما في العهد السلجوقي فيتعلق حق المقطع بخراج الأرض لا بالأرض ذاتها وليست له سيطرة على المشتغلين بها، كما أنه يخضع لسلطة الحكومة وعليه ألا يسيء استعمال إقطاعه، كما يجوز نزع الإقطاع من المقطع إذا لم يقيم بالالتزامات المفروضة عليه^(٤)، وكان الإقطاع في العهد السلجوقي لفترة محددة، لهذا عمل المقطعون جهدهم على تحسين إقطاعاتهم وتنظيمها والاستفادة منها، وتنفيذ جميع الالتزامات المفروضة عليهم كي يكسبوا رضا الحكومة ويستمرروا في استثمار الأراضي التي أقطعت لهم^(٥)، وكذلك طلب الوزير نظام الملك من العمال والولاة أن يكونوا على صلة تامة بالمزارعين، ويتفقدوا أحوالهم، ويمدوا لهم يد المساعدة بتزويد من يحتاج منهم بالبذور والدواب، وأن يحسنوا معاملة الزراع، حتى لا يضطروا إلى هجر مواطنهم^(٦)، ويبدو أن الوزير نظام الملك استهدف من توزيعه الأراضي على رؤساء الجند كإقطاعات عدة أمور، وهي أنه أدرك أن معظم أفراد الجيش السلجوقي من قبائل مختلفة العناصر، فأراد أن يجعل تلك الجماعات تستقر في أراض تقطع لها، فترتبط بالأرض، وتشعر بشعور المواطنة، مما يسهل على الدولة السيطرة عليها، وتقل المنازعات فيما بينها، مما يخفف أعباء الحكومة المركزية الإدارية والحربية، إذ تصبح تلك الإقطاعيات مستقلة بتنظيم أحوالها وتستطيع الوقوف في وجه من يحاول الاعتداء عليها، كما أن سكن تلك الجماعات في أراض زراعية محددة يدفعها إلى استصلاح الأرض وزراعتها والاستفادة من خيراتها، فتزدهر الزراعة التي تعد من موارد الثروة^(٧).

(١) آل سلجوق للبنداري، ص ٥٥.

(٢) طبقات الشافعية (٤/٣١٧).

(٣) تجارب الأمم مسكويه (٢/٧٦، ٩٧).

(٤) العراق في العصر السلجوقي، حسين أمين، ص ٢٠٧. (٥) سياست نامه، ص ٦٩.

(٦)، (٧) نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ١٨١.

٥ - عناية نظام الملك بالمنشآت المدنية: كان للوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي اهتمام كبير بالمنشآت المدنية، خاصة دور العبادة، فبنى كثيراً من المساجد في مختلف البلاد الخاضعة للسلاجقة^(١)، كما اهتم بعمارة الحرمين الشريفين بمكة المكرمة والمدينة النبوية، وأقام العديد من الرباطات بالعراق وفارس للعباد والزهاد وأهل الصلاح والفقراء، ورتب لهم ما يحتاجون إليه من غذاء وكساء^(٢)، وبنى الوزير نظام الملك مارستاناً بمدينة نيسابور^(٣).

٦ - أثره في النهوض بالحركة العلمية والأدبية: بذل الوزير نظام الملك جهداً واضحاً للنهوض بالحركة العلمية والأدبية وكان محباً لأهل العلم، كثير الإحسان إليهم، حتى إنه رتب للعلماء رواتب ثابتة تصرف لهم بانتظام^(٤)، وكان يقوم بصرف مرتبات ثابتة لاثني عشر ألف رجل من رجال العلم في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية، وكان مجلس الوزير نظام الملك يضم فحول العلماء في شتى فنون المعرفة، وقام بإنشاء المكتبات وزودها بالكتب، فكانت سوق العلم في أيامه - كما يقول ابن الجوزي - قائمة والعلماء في عهده مرفوعي الهامة^(٥)، وقام بتأسيس المدارس النظامية، وقد انتشرت في كل من بغداد والبصرة والموصل وأصفهان وآمل وطبرستان ومرو ونيسابور وهراة وبلخ^(٦)، وقام نظام الملك بإنشاء هذه المدارس في عهد السلطان السلجوقي ألب أرسلان^(٧) وسيأتي الحديث عنها في مبحث مستقل بإذن الله تعالى. كان النظام رحمه الله يحب العلم وخصوصاً الحديث، شغوفاً به وكان يقول: إني أعلم بأنني لست أهلاً للرواية ولكني أحب أن أربط في قطار^(٨) نقله حديث رسول الله^(٩)، فسمع من القشيري، وأبي مسلم بن مهر بن يزيد، وأبي حامد الأزهري^(١٠)، وكان حريصاً على أن تؤدي المدارس التي بناها رسالتها المنوطة بها، فعندما أرسل إليه أبو الحسن محمد بن علي الواسطي الفقيه الشافعي أبياتاً من الشعر يستحثه على المسارعة للقضاء على الفتن التي حدثت بين الحنابلة والأشاعرة فقام نظام الملك وقضى على الفتنة^(١١). وكان مجلسه عامراً بالفقهاء والعلماء حيث يقضي معهم جُلَّ نهاره فقيل له: إن

(١) دول الإسلام (١/٢٦٩)، نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ١٩٧.

(٢) طبقات الشافعية (٤/٣١٢)، نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ١٩٧.

(٣) آل سلجوق، للبنداري، ص ٥٦. (٥) نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ١٩٠.

(٦) المدارس النظامية في بغداد، مجلة سومر ج ٢، المجلد التاسع، ص ٣١٧.

(٧) نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ١٩٠. (٨) قطار: قافلة.

(٩) البداية والنهاية (١٢/١٥٠). (١٠) سير أعلام النبلاء (١٩/٩٥).

(١١) الكامل في التاريخ (٦/٢٧٦)، الدولة العثمانية للصُلَّابِي، ص ٣٥.

هؤلاء شغلوك عن كثير من المصالح، فقال: هؤلاء جمال الدنيا والآخرة، ولو أجلستهم على رأسي لما استكثرت ذلك، وكان إذا دخل عليه أبو القاسم القشيري، وأبو المعالي الجويني قام لهما وأجلسهما معه في المقعد، فإن دخل أبو علي الفارندي قام وأجلسه مكانه، وجلس بين يديه، فعوتب في ذلك فقال: إنهما إذا دخلا عليّ قالاً: أنت وأنت، يطرونني، ويعظمونني ويقولون فيّ ما لا فيّ، فأزداد بهما ما هو مركز في نفس البشر، وإذا دخل عليّ أبو علي الفارندي ذكرني عيوبي وظلمي، فأنكسر، فأرجع عن كثير مما أنا فيه ^(١).

٧- شيء من عبادته وتواضعه ومدح الشعراء له: قال عنه ابن الأثير: وأما أخباره، فإنه كان عالماً ديناً، وجواداً عادلاً، حليماً، كثير الصفح عن المذنبين، طويل الصمت، كان مجلسه عامراً بالقراء، والفقهاء، وأئمة المسلمين، وأهل الخير والصلاح ^(٢) كان من حفظة القرآن، ختمه وله إحدى عشرة سنة واشتغل بمذهب الشافعي، وكان لا يجلس إلا على وضوء، وما توضع إلا تنفّل ^(٣)، وإذا سمع المؤذن أمسك عن كل ما هو فيه وتجنبه فإذا فرغ لا يبدأ بشيء قبل الصلاة، وكان إذا غفل المؤذن ودخل الوقت أمره بالأذان، وهذا قمة حال المنقطعين للعبادة في حفظ الأوقات، ولزوم الصلوات، وكانت له صلة بالله عظيمة، وكان يواظب على صيام الإثنين والخميس، وله الأوقاف الدارة الصدقات البارة ^(٤). وقال ذات مرة: رأيت في المنام إبليس فقلت له: ويحك خلقتك الله وأمرتك بالسجود له مشافهة فأبيت، وأنا لم يأمرني بالسجود له مشافهة وأنا أسجد له في كل يوم مرات، فأنشد يقول:

من لم يكن للوصلال أهلاً فكل إحسانه ذنوب

وقد أجلسه المقتدي مرة بين يديه وقال له: يا حسن رضي الله عنك رضا أمير المؤمنين عنك ^(٥).

وكان يتمنى أن يكون له مسجد يعبد الله فيه مكفول الرزق، قال في هذا المعنى: كنت أتمنى أن يكون لي قرية خالصة، ومسجد أنفرد لعبادة ربي، ثم تمنيت بعد ذلك أن يكون لي رغيف كل يوم، ومسجد أعبد الله فيه ^(٦)، ومن تواضعه أنه كان ليلة يأكل الطعام، وبجانبه أخوه أبو القاسم، وبالجانب الآخر عميد خراسان، وإلى جانب العميد إنسان فقير، مقطوع اليد، فنظر نظام الملك فرأى العميد يتجنب الأكل مع المقطوع فأمره بالانتقال إلى الجانب الآخر، وقرب المقطوع إليه

(١) البداية والنهاية (١٦/١٢٩).

(٢) الكامل في التاريخ (٦/٣٣٧).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٩/٩٦).

(٤) البداية والنهاية (١٦/١٢٦).

(٥) المصدر نفسه (١٦/١٢٧).

(٦) الكامل في التاريخ (٦/٣٣٨)، الدولة العثمانية للصلاحي، ص ٣.

فأكل معه. وكانت عادته أن يحضر الفقراء طعامه ويقربهم إليه ويدنيهم^(١)، ومن شعره:

بعد الثمانين ليس قوة قد ذهبَت شهوة الصبوة
كأنني والعصا بكفِّي موسى ولكن بلا بُوة^(٢)
وينسب إليه أيضاً:

تقوس بعد طول العُمر ظهري وداسني الليالي أي دوس
فأمشي والعصا تمشي أمامي كأن قوامها وتر بقوس
وكان يتأثر بسماع الشعر، فعندما دخل عليه أبو علي القومساني في مرضة مرضها
يعوده فأنشد يقول:

إذا مرضنا توينا كل صالحة فإن شفيْنَا فمنا الزيف والزَّلْ
نرجو الإله إذا خفنا، ونسخطه إذا أَمْنَا فما يزكو لنا عمل
فبكى نظام الملك وقال: هو كما يقول^(٣).
وقد مدحه الشعراء ومما قالوا فيه:

إذا زاره العافي تهلل وجهه وبشَّره منه التبسمُ والبشر^(٤)
وقالوا فيه:

ما خلق الله تعالى وجلَّ مثل وزير الوزراء الأجلَّ
أروع كالتَّصل ولكتُّه أمضى من النصل إذا ما يسَلَّ^(٥)

٨- وفاته ٤٨٥هـ: في عام ٤٨٥هـ يوم الخميس في العاشر من شهر رمضان وحان وقت الإفطار، صلى نظام الملك المغرب، وجلس على السباط، وعنده خلق كثير من الفقهاء والقراء والصوفية، وأصحاب الحوائج فجعل يذكر شرف المكان الذي نزلوه من أراضي نهاوند، وأخبار الوقعة التي كانت بين الفرس والمسلمين، في زمان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عليه السلام، ومن استشهد هناك من الأعيان، ويقول: طوبى لمن لحق بهم، فلما فرغ من إفطاره، خرج من مكان قاصداً مضرب حرمه فبدر إليه حدث ديلمي، كأنه مُستميح أو مستغيث، فعلق به وضربه، وحمل إلى مضرب الحرم، فيقال: إنه أول مقتول قتلته الإسماعيلية

(١) الكامل (٦/٣٣٨).

(٢) طبقات الشافعية (٤/٣٢٨).

(٣)، (٤)، (٥) حول الأدب في العصر السلجوقي، ص ١٢٨.

«الباطنية»، فانبث الخبر في الجيش وصاحت الأصوات، وجاء السلطان ملكشاه حين بلغه الخبر، مظهرًا الحزن، والنحيب والبكاء، وجلس عند نظام الملك ساعة، وهو يجود بنفسه حتى مات، فعاش سعيداً فقيداً حميداً^(١)، وكان قاتله قد تعثر بأطناب الخيمة، فلحقه مماليك نظام الملك وقتلوه، وقال بعض خدامه: كان آخر كلام نظام الملك أن قال: لا تقتلوا قاتلي، فإني قد عفوت عنه وتشهد ومات^(٢) ولما بلغ أهل بغداد موت نظام الملك حزنوا عليه وجلس الوزير والرؤساء للعزاء ثلاثة أيام، ورثاه الشعراء بقصائد منهم مقاتل بن عطية حيث قال:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة يتيمة صاغها الرحمن من شرف

عزّت فلم تعرف الأيام قيمتها فردّها غيرة منه إلى الصدف

قال عنه ابن عقيل: بهر العقول سيرة النظام جوداً وكرماً وعدلاً وإحياء لمعالم الدين، كانت أيامه دولة أهل العلم، ثم ختم له بالقتل وهو ماراً إلى الحج في رمضان فمات ملكاً في الدنيا ملكاً في الآخرة، رحمه الله^(٣)، وقيل إن قتله كان بتدبير السلطان، فلم يُمهّل بعده إلا نحو شهر^(٤).

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٤/٣٢٢، ٣٢٣).

(٢) المصدر نفسه (٤/٣٢٣)، سير أعلام النبلاء (١٩/٩٥).

(٣)، (٤) سير أعلام النبلاء (١٩/٩٦).

عهد التفكك والضعف وانحيار الدولة السلجوقية

بعد وفاة السلطان ملكشاه تفككت الدولة السلجوقية وبدأت عوامل الضعف والانحيار تدب في أوصالها بين أبنائه وإخوته وأحفاده، فضعفت بالتالي سيطرة الدولة على مختلف أقاليمها، ومن الأسباب التي أدت إلى هذا الضعف تنافس الأمراء على عرش السلطنة، الأمر الذي أحدث انقساماً كبيراً وبصفة خاصة بين بركيارق الابن الأكبر للملكشاه وأخيه الأصغر محمود، وكان لكل منهم مؤيدون وموازرون حين كان يؤيد بركيارق نظام الملك قبل وفاته ومن بعده أبنائه وأتباعه وأفراد أسرته في حين أن محمود كانت أمه ترکان خاتون^(١)، تقف إلى جانبه والوزير تاج الملك الشيرازي الذي خلف نظام الملك، وانقسم السلاجقة إلى فريقين متنازعين كل منهما يجاهر بالعداء للآخر وصولاً إلى عرش السلطنة، وقد استطاعت ترکان خاتون بالاتفاق والتدبير مع تاج الملك إخفاء نبأ وفاة السلطان ملكشاه حتى يتسنى لها أن ترتب أمورها وحتى تتم البيعة لابنها محمود الذي كان يبلغ من العمر وقتئذ أربع سنين وشهوراً^(٢)، وكان عند وفاة أبيه في بغداد، أما بركيارق فكان في الثالثة عشرة من عمره عندما مات أبوه وكان حينئذ في أصفهان^(٣).

أولاً: اعتراف الخليفة العباسي بمحمود بن ملكشاه سلطاناً:

كانت الظروف في صالح محمود في أول الأمر، وقد بايعه العسكر لأمر أحدها أن أمه «ترکان خاتون» كانت مستولية ومسيطرة على الأمور في أيام السلطان ملكشاه، وكانت محسنة للأجناد ومن ثم قدموا ولدها وبايعوه. والثاني: أنها كانت من نسل الملوك الترك، وقيل إنها من نسل أفراسياب، والثالث: أن الأموال كانت بيدها ففرقتها فيهم فبايعوه وأخذوه معهم وعادوا به إلى أصفهان^(٤)، وقد بعثت ترکان خاتون إلى الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله في بغداد تطلب منه أن يعهد بالسلطنة لابنها محمود بن ملكشاه وأن تكون الخطبة باسمه، ولكن الخليفة لم يجبها إلى ما طلبت ورد عليها قائلاً: إن ابنك طفل صغير وهو لا يليق بالملك. غير أن الخليفة العباسي ما لبث أن اضطر إلى الاعتراف به سلطاناً عقب وفاة

(١) هي ابنة طغراج الملك وهم من نسل أفراسياب وهم الأيلخانيون حكام بلاد ما وراء النهر وتركستان. وباشرت أمور الدولة بعد ملكشاه وكانت حازمة قادت الجيوش بنفسها.

(٢) مرآة الزمان (١/ ٢٢١)، السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص ٤٥.

(٣)، (٤) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر، ص ٢٨.

أبيه^(١)، ومما قيل في هذا الصدد أن الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله اضطر إلى الاعتراف بسلطنة محمود، لأن ملكشاه كان يحتفظ بابنه الأمير جعفر^(٢) عنده ليهدد به الخليفة، وقد كان برفقة جده السلطان ملكشاه بعد وفاة والدته خاتون وكان السلطان ملكشاه عازماً على توليته الخلافة بدلاً من أخيه المسترشد الذي ولي عهد الخليفة المقتدي بأمر الله، ولكن وفاة السلطان ملكشاه غيرت مجرى الأمور وعاد أبو الفضل جعفر إلى والده المقتدي بعد وفاة جده السلطان ملكشاه^(٣). فخشي الخليفة من تكرار التجربة مع سلاطين السلاجقة ولذلك وافق على ما رآته خاتون من إنفاذ الأمير جعفر إلى بغداد لقاء اعتراف الخليفة بسلطنة ولدها محمود^(٤)، ومهما يكن من أمر، فإن الخليفة العباسي منزوع النفوذ والسلطان ولا يملك القدرة على الاعتراض.

وفي ٢٢ من شوال سنة ٤٨٥هـ، أقيمت الخطبة لمحمود في مساجد بغداد ومنحه الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله الخلع السلطانية ولقبه «ناصر الدنيا والدين»^(٥)، واشترط الخليفة العباسي على تركان خاتون أن تكون السلطنة لولدها محمود، والخطبة له، بينما يختص الأمير أنر^(٦) بتدبير الجيوش ورعاية البلاد، ويختص تاج الملك بحماية الأموال، وترتيب العمال، إلا أن تركان خاتون في بداية الأمر كانت غير موافقة على هذه الشروط، وكان أبو حامد الغزالي يقوم بدور الوساطة بين الخليفة العباسي وأم محمود، وبعد ذلك أقنع أبو حامد الغزالي تركان خاتون بالموافقة على شروط الخليفة، ومن ثم وافقت على تلك الشروط^(٧). ثم أرسلت تركان خاتون أحد أتباعها ليقبض على بركيارق، وبالفعل تم القبض على بركيارق وإيداعه السجن من قبل أتباعها لكي لا يكون طليقاً ومن ثم يصبح محمود في مأمن منه، غير أن الأمر لم ينته عند هذا الحد الذي تخيلته تركان خاتون بأنه لو تم القبض على بركيارق لأصبحت في مأمن من كل محاولة لمنازعة ابنها في الحكم، فأتباع نظام الملك ومؤيدو بركيارق في أصفهان تمكنوا من إخراجه من سجن أصفهان ونصبوه سلطاناً في أصفهان وذلك نكاية في تركان خاتون.

وهكذا وجد سلطانان في وقت واحد: محمود في بغداد وبركيارق في أصفهان، ومن ثم أصبحت المنازعة بينهما على عرش السلطنة أمراً حتمياً^(٨).

(١) مرآة الزمان (١/ ٢٢١، ٢٢٣).

(٢) (٣، ٢٩) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر، ص ٢٩.

(٤) الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق، ص ٩٩.

(٥) المنتظم (٩/ ٦٢، ٦٣)، دولة السلاجقة، لحسنين، ص ٧٥.

(٦) هو من أمراء عسكر تركان خاتون والدة محمود.

(٧) الكامل في التاريخ (٦/ ٣٤١).

(٨) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر، ص ٣٠.

١ - القتال على عرش السلطنة بين بركيارق وتركان خاتون: كانت تركان خاتون هي البائدة بالتزاع والهجوم فسارت من بغداد إلى أصفهان مع الجيش ومعها ابنها السلطان محمود والوزير تاج الملك الشيرازي، ولما قاربت تركان خاتون أصفهان خرج منها بركيارق ومن يؤيده من النظامية متجهين نحو الري فأرسلت تركان خاتون الجيش إلى قتال بركيارق، والتقى الجيشان في بروجرد^(١)، وكان ذلك في أواخر ذي الحجة ٤٨٥ هـ وجرت الحرب بينهم، واشتد القتال وانحاز جماعة من عسكر تركان خاتون إلى بركيارق، فلحققت الهزيمة بتركان خاتون وابنها وعادوا إلى أصفهان وتبعهم بركيارق وحاصروهم فيها^(٢)، واتفق الطرفان على الصلح بشرط أن تدفع تركان خاتون خمسمائة ألف دينار لبركيارق، وأن تكون بلاده أصفهان، وبلاد فارس لتركان خاتون وابنها، أما باقي البلاد فتكون لبركيارق وهو السلطان^(٣). وفي شهر المحرم من سنة ٤٨٦ هـ نشبت معركة عنيفة بين المعسكرين: المعسكر الأول لبركيارق والمعسكر الثاني لمحمود وأمه تركان خاتون، وكانت الغلبة والكفة الراجحة للمعسكر الأول بسبب مساعدة أتباع نظام الملك وبسبب انحياز جماعة من الأمراء الذين يتبعون المعسكر الثاني لتركان خاتون وابنها محمود منهم الأمير ورجحت كفة بركيارق وقوى أمره والتقى العسكران مرة أخرى وانهزم عسكر تركان خاتون وابنها، ومن ثم هربت إلى مدينة أصفهان وتحصنت بها، وفر الوزير تاج الملك الشيرازي هارباً إلا أن النظامية قبضوا عليه وأخذوه وانتهى الأمر بقتله في المحرم سنة ٤٨٦ هـ، وبعد أن لاذت تركان خاتون بالفرار إلى أصفهان، وقوى بركيارق بمساعدة النظامية تتبع تركان خاتون وحاصرها في أصفهان، ولكن سرعان ما عدل عن ذلك حتى يجد الفرصة سانحة للاستيلاء على أصفهان، فتوجه إلى همدان وسعى جاهداً في تكوين جيش قوي العتاد كبير العدد حتى يستطيع به الاستيلاء على أصفهان، وقد تم له ما أراد حيث توجه بجيشه الذي أعده كما يريد إلى أصفهان وتم فتحها وقضى على تركان خاتون وأنصارها. واعترافاً من بركيارق بجميل النظامية عليه اتخذ عز الملك الحسين بن نظام الملك وزيراً له^(٤)، وكان مقيماً في أصفهان عند وقوع هذه الأحداث^(٥) ولقد اتفقت تركان خاتون مع خال بركيارق إسماعيل ياقوتي^(٦)، ووعدته بالزواج على أن يتقدم لمحاربة بركيارق، وبالفعل توجه إسماعيل ياقوتي على رأس جيشه

(١) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر، ص ٣٠.

(٢) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن (٣٨/٤).

(٣) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر، ص ٣١.

(٤، ٥) المصدر، ص ٣٣.

(٦) العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٦٠٢.

لمحاربة ابن أخته، والتقى الجيشان في رمضان ٤٨٦هـ، حيث كان النصر حليف بركيارق، أما إسماعيل ياقوتي فقد أسر وقتل في نفس السنة المذكورة^(١)، وفي سنة ٤٨٧هـ سار بركيارق إلى أصفهان، وفي بداية الأمر لم يسمح له بالدخول إليها، وبعد ذلك سمحوا له بالدخول خديعة كي يتم القبض عليه، وعندما قارب أصفهان خرج إليه محمود فلقية ودخل البلد وأحاطوا به^(٢).

٢- وفاة محمود بن ملكشاه: ولقد حم وجدر محمود ومات في شوال من العام نفسه، وكان ذلك بمثابة الفرج بعد الشدة وجلس بركيارق للعزاء في أخيه محمود، ثم إن بركيارق جدر بعد أخيه ولكنه شفى، ولما تم شفاؤه كاتب وزيره مؤيد الملك أمراء العراق وخراسان ومن ثم عادوا إلى بركيارق، فكثر جنده وأصبح شأنه عظيماً^(٣).

ثانياً: انتصار بركيارق واعتراف الخليفة العباسي به سلطاناً للسلاجقة سنة ٤٨٧هـ:

توجه بركيارق إلى بغداد في السابع عشر من ذي القعدة عام ٤٨٦هـ، وكان برفقته وزيره الجديد عز الملك الحسين بن نظام الملك، حيث طالب الخليفة العباسي المقتدى بأمر الله بأن يعترف به سلطاناً على السلاجقة، فما كان من الخليفة العباسي المقتدى بأمر الله إلا أن أجابه إلى طلبه واعترف به سلطاناً على السلاجقة في ١٤ محرم سنة ٤٨٧هـ، ولقبه بركن الدين^(٤)، ونودي بركيارق سلطاناً ببغداد في ١٤ محرم سنة ٤٨٧هـ، وخطب له على المنابر وشاء القدر أن توفي الخليفة العباسي المقتدى بأمر الله في ١٥ محرم سنة ٤٨٧هـ، وخلفه ابنه وولي عهده أبو العباس أحمد الذي لقب المستظهر بالله الذي ما كان منه إلا أن اعترف أيضاً ببركيارق سلطاناً للسلاجقة، كما بايعه بركيارق بالخلافة، وظل بركيارق في بغداد حتى ربيع الأول من سنة ٤٨٧هـ ثم سار عنها متجهاً إلى الموصل^(٥).

١- النزاع بين بركيارق وعمه تتش على عرش السلطنة ٤٨٨هـ: لم يقتصر النزاع بين بركيارق وأخيه الأصغر محمود فحسب بل ظهر منافس آخر له ينازعه على عرش السلطنة وهو عمه تاج الدولة تتش^(٦)، الذي كان والياً على دمشق وما جاورها من بلاد الشام، والذي ولاه البلاد أخوه السلطان ملكشاه، ولما علم بوفاة أخيه رأى أنه أحق بأمور السلطنة من أبناء أخيه لأن أكبرهم بركيارق لم يكن يزيد على الثانية عشرة من عمره، إضافة إلى النزاع بينه وبين أخيه الأصغر محمود على السلطنة، وقد بدأ تتش في السعي للسيطرة على

(١) (٢) العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٦٠٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ٣٩.

(٥) الدولة السلجوقية في عهد سنجر، ص ٣٧.

السلطنة وراسل ترکان خاتون أرملة أخيه قبل وفاتها واتفق معها على الزواج وتواعدا على اللقاء والتعاون، فقدمت إليه فماتت في الطريق فتفرق عساكرها وانضم أكثرهم إلى برکیارق^(١)، ومضى تتش في مشروعه، فاستطاع أن يغتصب حلب من آق سنقر ويمد نفوذه إلى أنطاكية ويخطب لنفسه بالسلطنة فيها سنة ٤٨٦هـ، كما استطاع أن يستولى على نصيبين ويقتل من أهلها عدداً كبيراً ثم يمد نفوذه على الموصل وميا فارقين وديار بكر ويتوجه إلى أذربيجان، وكان نفوذ برکیارق في ذلك الوقت قد قوى، فسار لملاقاة عمه الشائر المغتصب، فلما التقى الجمعان، انضم آق سنقر بجيوشه إلى برکیارق كما تفرقت جيوش تتش فانهارت قوته ولم يستطع مواجهة جيوش برکیارق ففقل راجعاً إلى بلاد الشام، وقد أقام آق سنقر عند برکیارق فترة عاد بعدها إلى بلاده ليكون عيناً على تتش^(٢)، ولم تهدأ نفس تتش بعد هذه الهزيمة، إذ صمم على الانتقام من آقسنقر، وقد استمر النزاع بين برکیارق وعمه تتش إلى أن تمكن برکیارق من إلحاق الهزيمة به في النهاية سنة ٨٨هـ وقيل: إن قتله كان على أيدي جماعة من أنصار آق سنقر كانوا قد أقسموا على أن يثأروا له^(٣). وقد استمرت البلاد الشامية وأتابكية الموصل مسرحاً لحروب كثيرة بين صغار الأمراء، وبيئة صالحة لدسائس البيت السلجوقي في بغداد حتى استطاع عماد الدين زنكي ونور الدين محمود من بعده أن يوحدوا هذه البلاد من جديد ويخضعوها لسلطة واحدة^(٤). ويجب أن نشير هنا إلى أن هذا التفكك الذي حدث في قلب الدولة السلجوقية كان من أكبر عوامل نجاح الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام، إذ لم تكن هناك القوة الإسلامية التي تستطيع أن تقف في وجهها، فضلاً عن المنازعات التي قامت بين رضوان ودقاق ابني تتش فإن هذه البلاد كانت مسرحاً لنشاط الفاطميين في مصر^(٥)، كما سيأتي بيان ذلك في محله بإذن الله. وهكذا نجد أن النزاع الذي قام بين أفراد البيت السلجوقي في هذا الجزء من الشرق الإسلامي قد أدى إلى انتزاع الصليبيين معظم بلاد الشام من المسلمين^(٦).

٢- منافسة أرسلان أرغون برکیارق على السلطنة: ظهر منافس آخر للسلطان برکیارق ينازعه في أمور السلطنة وهو عمه أرسلان أرغون، الذي كان مقيماً في بغداد عند أخيه ملكشاه، ولما توفي ملكشاه وحدث نزاع بين برکیارق وأخيه الأصغر محمود على عرش

(١) سلاجقة الشام والجزيرة، ص ١٠١.

(٢) تاريخ الدولة الأتابكية، ملوك الموصل، ص ٢٤، ٢٥.

(٣) الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، ص ٥٣.

(٤) تاريخ الدولة الأتابكية، ملوك الموصل، ص ٣٠ - ٣٧.

(٥)، (٦) الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، ص ٥٤.

السلطنة توجه أرسلان أرغون إلى نيسابور، وأراد أن يفرض نفوذه عليها ولكن امتنع أهلها عن تسليمها له فسار منها إلى مرو حيث قام شحنتها -حاكمها- بتسليمها له وبذلك قوى نفوذ أرسلان أرغون بمساعدته وتوسعت مملكته وامتد سلطانه على بلخ وترمذ ونيسابور وسائر خراسان، وكاتب أرسلان أرغون ابن أخيه السلطان بركيارق يخبره بأنه تم بسط نفوذه وسلطانه على الأقاليم التي كانت لجده داود، وأنه راض كل الرضا بما سيطر عليه من هذه الأقاليم ولن يتعدها، أو يطمع في غيرها من أقاليم أخرى، إضافة إلى أنه لن يخرج عن طوعه وأنه منفذ لما يأمره به، وكان السلطان بركيارق آنذاك مشغولاً بأخيه محمود، فأظهر موافقته على ما كاتبه به عمه أرسلان أرغون، بينما لم يكن في حقيقة الأمر موافقاً على ذلك، ومالبث أن سير عمه الآخر بوري برس بن ألب أرسلان لقتال أرسلان أرغون إلى حدود خراسان، والتقى العسكران فانهزم أرسلان أرغون وعاد إلى بلخ، حيث جمع الكثير من الأجناد وانضمت إليه حشود كبيرة من التركمان، وحينما شعر بقوته سار إلى مرو وفتحها عنوة بعد ما خرب أسوارها وقتل الكثير من أهلها، وسار إليه بوري برس بقصد قتاله، واجتمع إليه العسكران عند مرو فانهزم بوري برس وأسره واعتقله أخوه أرسلان أرغون في ترمذ، وهناك تم قتله، وبعد ذلك استبد أرسلان أرغون في حكم خراسان فهدم كل حصن فيها وخرب البلاد وظلم العباد، وكان أرسلان أرغون شديد الهيبة والظلم لغلमानه، فكانوا يخافونه خوفاً شديداً، مما دفع إلى قتله سنة ٤٩٠هـ^(١)، وقد أرسل السلطان بركيارق جيشاً إلى خراسان لمحاربة عمه أرسلان أرغون ولم يكن قد علم بوفاة عمه على يد أحد غلمان، وجعل أخاه معز الدين أبا الحارث سنجر بن ملكشاه على خراسان -الذي ولد بمدينة سنجر عام ٤٧٩هـ وهي إحدى مدن الجزيرة والتي سمى على اسمها على عادة الأتراك- على رأس الجيش وأرسل معه الأمير قماج ليعاونه حتى يقضيان على فتنة عمه. وكان بركيارق قد أصدر أمراً بتولية سنجر حاكماً على خراسان حينما علم باستيلاء عمه عليها^(٢)، وبعد أن حاربه عمه سار بركيارق على رأس جيش آخر إلى خراسان، وقبل أن يصل إلى خراسان علم بمقتل عمه، ومن ثم دانت له بلاد خراسان، ثم أجلس أخاه سنجر على عرش خراسان سنة ٤٩٠هـ ثم رجع إلى بغداد، وقد تولى سنجر الحكم على بلاد خراسان في عهد أخيه السلطان بركيارق لمدة عشرين عاماً وكان والياً على بلاد ما وراء النهر ومن ثم فقد سمي ملك المشرق^(٣).

(١) تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٢٣٨، الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر، ص ٥٠.

(٢) السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص ٤٨.

(٣) العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٦١٠.

ثالثاً: النزاع بين بركيارق وأخويه محمد وسنجر على عرش السلطنة:

عاد النزاع على عرش السلطنة من جديد داخل البيت السلجوقي مرة أخرى بين بركيارق وأخويه محمد وسنجر، وقد استمر هذا النزاع خمس سنوات من عام ٤٩٢ هـ حتى ٤٩٧ هـ، وليس من المهم أن نذكر أن محمداً استطاع أن يدخل بغداد وأن يقيم الخطبة لنفسه فيها سنة ٤٩٢ هـ بموافقة الخليفة المستظهر العباسي الذي خلع عليه الخلع والهدايا، وكان بركيارق في هذه الأثناء مريضاً^(١)، ثم استمرت الحرب مع محمد طوال عهد بركيارق الذي تمكن من إعادة الخطبة لنفسه في بغداد، ومن المهم أن نذكر أن الخليفة هو الذي كان يسمح بإعادة الخطبة لكل من دخل بغداد من هذين السلطانين المتنازعين، وهذا يدلنا على مقدار ما وصلت إليه الخلافة من ضعف، ويلاحظ أن سنجر بن ملكشاه كان قد انضم إلى أخيه محمد في صراعه مع بركيارق، ويرجع السبب في ذلك لكونهما كانا ولدين لأم واحدة^(٢)، وقد انتهت الحرب بين محمد وبركيارق سنة ٤٩٧ هـ، إذ عقد الصلح بين الطرفين في هذه السنة، يقول السيوطي: إن الحروب لما تطاولت بينهما وعم الفساد وصارت الأموال منهوبة، والدماء مسفوكة، والبلاد مخربة، والسلطنة مطموعة فيها، وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قادرين.. دخل العقلاء بينهما في الصلح وكتبت العهود والأيمان والمواثيق^(٣). ولقد تقرر أن يكون للصلح قواعد نوردها فيما يلي:

- ألا يعترض بركيارق أخاه محمد في الطبل^(٤).
- ألا يذكر اسم بركيارق بجانب اسم محمد في البلاد التي صارت له.
- أن يكون الاتصال بينهما عن طريق الوزراء.
- ألا يعترض أحد العسكريين الآخر في داخل حدود كل منهما.
- أن يمتد نصيب محمد من نهر اسيندروذ^(٥)، إلى باب الأبواب^(٦)، وديار بكر والجزيرة والموصل والشام، ويكون له في العراق البلاد التي كانت تحت حكم سيف الدولة

(١) الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، ص ٥٥، وفيات الأعيان (٢/ ٦١).

(٢) تاريخ الخلفاء، ص ٢٨٣ الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، ص ٥٥.

(٣) تاريخ الخلفاء، ص ٢٨٣.

(٤) كان من شعائر السلطنة أن تضرب الطبلخانات للسلطان خمس مرات في اليوم. انظر الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر، ص ٦٥.

(٥) نهر اسيندروذ: يطلق عليه النهر الأبيض وهو على بعد عدة فراسخ من همدان.

(٦) باب الأبواب: تقع في أقصى شمالي بلاد شروان وهي ميناء على بحر قزوين.

صدقة بن مزيد^(١) وأرسل بركيارق إلى الخليفة العباسي المستظهر بالله الرسل حاملة شروط وقواعد الصلح بينه وبين أخيه محمد، فما كان من الخليفة إلا أن أجابه وأمر بإقامة الخطبة لبركيارق سنة ٤٩٧ هـ^(٢). وقد عين بركيارق سنجرأ والياً على خراسان، لما يتمتع به من هبة كبيرة وخبرة بقواعد وقوانين السلطنة والحكم في البلاد مما جعل حكمه يستمر واحداً وستين عاماً، منها عشرون عاماً ملكاً على خراسان من قبل أخيه بركيارق، وواحد وأربعون عاماً سلطاناً للسلاجقة^(٣)، ومن هنا يتبين أنه بعدما طالت الحروب والنزاعات من أبناء السلطان ملكشاه، وما ترتب على ذلك من ويلات لتلك الحروب من سفك الدماء، والدمار والخراب الذي عم البلاد وانتشر بسبب النزاع على عرش السلطنة، مما أدى إلى ضعف وتفكك السلاجقة - أدرك الإخوة المتصارعون ما عم البلاد من خراب فتداعوا إلى الصلح^(٤).

رابعاً: وفاة بركيارق وتولي محمد بن ملكشاه السلطنة:

توفي السلطان بركيارق في سنة ٤٩٨ هـ بروجرد^(٥) على أثر مرض أصابه، وقد عين السلطان بركيارق قبيل وفاته ابنه ملكشاه ولياً لعهد، وكان طفلاً صغيراً لم يبلغ الخامسة من عمره آنذاك، ولذلك عين الأمير أياز^(٦)، أتابكاً له، وسار الأمير أياز وبرفقته ملكشاه بن بركيارق إلى بغداد ونال موافقة الخليفة العباسي المستظهر بالله بإقامة الخطبة له في بغداد ولقبه بلقب جلال الدولة^(٧)، وكان السلطان محمد وقتذاك قد توجه إلى الموصل يخبره بأن الموصل جكرمش إلا أن رفض تسليمها إياه مدعياً بأن ما وصل إليه من كتب السلطان بركيارق بعد الصلح تأمره ألا يسلمها إلى غيره، ولما وصل الخبر بوفاة السلطان بركيارق إلى جكرمش لم يكن أمامه مفر من أن يبذل الطاعة للسلطان محمد، وأن يسلم الموصل له^(٨)، وقد أسرع السلطان محمد إلى بغداد بعد أن أقيمت الخطبة بها لملكشاه بن بركيارق ودخلها من الجانب الغربي وخطب له في مساجد هذا الجانب، بينما كانت الخطبة قائمة باسم جلال الدولة لملكشاه بن بركيارق في الجانب الشرقي ومن ثم أصبح هناك سلطتان في وقت واحد^(٩).

(١) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر، ص ٦٦.

(٢) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي (٤١/٤)، ٤٢.

(٣) السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص ١١٤.

(٤) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر، ص ٦٦.

(٥) بروجرد: مدينة حسنة عرضها أكثر من طولها بنحو نصف فرسخ من مدن إقليم الجبال.

(٦) من ممالك السلطان ملكشاه وقد جعله بركيارق أتابكاً لابنه.

(٧) الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق، ص ٢٠٤. (٨) دول الإسلام، ص ٢٢٧.

(٩) الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق، ص ٢٠٥.

واستشار الأتابك أياز أتباع السلطان ملكشاه بن بركيارق فيما يفعله مع السلطان محمد، فاستقر بهم الرأي على قتاله ومنعه من السلطنة ولكن وزيره الصفي أبا المحاسن، أشار عليه بالصلح مع السلطان محمد وتسليمه السلطنة، فأرسل أياز وزيره الصفي أبا المحاسن إلى السلطان محمد طلباً للصلح، وتسليمه السلطنة، واعتذاره عما بدر منه، وطلب العهد والأمان لملكشاه بن بركيارق ولنفسه وللأمراء الذين معه، وأجاب السلطان محمد الأمير أياز إلى ما التمس منه ^(١)، وكان الذي أخذ البيعة بالصلح إلكيا الهراس مدرس النظامية ^(٢)، فهذا الفقيه لم يقف أمام تلك الصراعات الدامية التي كانت تهدد كيان الدولة الإسلامية آنذاك موقف المتفرج، وإنما كان له دور كبير في فض كثير من المنازعات القائمة بين الحكام والملوك في بعض البلدان الإسلامية حرصاً على تماسك المسلمين ووحدتهم، وقد نجح بالفعل إلى حد كبير في الصلح بين ملكشاه بن بركيارق وعمه السلطان محمد ^(٣)، وأصبحت السلطنة لمحمد دون منازع وخطب له في سنة ٤٩٨هـ، يقول ابن كثير فيمن توفي من الأعيان عام ٤٩٨هـ: بركيارق بن ملكشاه ركن الدولة السلجوقي، خطب له ببغداد ست مرات وعزل عنها ست مرات وكان عمره يوم مات أربعاً وعشرين سنة وشهوراً وقام من بعده ولده ملكشاه، فلم يتم أمره بسبب منازعة عمه محمد له ^(٤). وقال الذهبي: وكان بركيارق شاباً شهماً شجاعاً لعباً، فيه كرم وحلم، وكان مدمناً للخمر، تسلطن وهو حدث، له ثلاث عشرة سنة، فكانت دولته في نكد وحروب بينه وبين أخيه محمد، يطول شرحها وهي مذكورة في الحوادث... مات بعلّة السلّ والبواسير، وكان في أواخر دولته قد توطّد ملكه وعظم شأنه ولما احتضر، عهد بالأمر من بعده لابنه ملكشاه بمشورة الأمراء، فعقدوا له، وهو ابن خمسة أعوام ^(٥) وقد تولى محمد بن ملكشاه وحكم أكثر من ثلاثة عشر عاماً عمت الفوضى في أثنائها جميع أنحاء الدولة فضعف الشرق الإسلامي أمام الصليبيين في بلاد الشام وأمام القوات الأخرى المعادية في جوف الدولة الإسلامية وأهمها الطائفة الإسماعيلية ^(٦). وانقسمت الدولة السلجوقية بعد وفاة بركيارق وأصبح كل جزء من الدولة السلجوقية تابعاً لوال مستقل، فالأجزاء الشرقية تخضع لحكم سنجر، والأجزاء الشمالية تخضع لحكم أخيه محمد، وبلاد الشام تحت سيطرة أبناء تتش، وآسيا الصغرى تحت حكم أبناء سليمان ابن قتلمش،

(١) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر، ص ٧٠.

(٢) البداية والنهاية (١٦/١٨٨).

(٣) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأقصى في الجهاد ضد الصليبيين، ص ٨٣.

(٤) الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، ص ٥٦. (٥) سير أعلام النبلاء (١٩/١٩٦).

(٦) الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، ص ٥٦.

وتفككت وحدة الدولة عما كانت عليه في عهد السلاجقة العظام^(١).

١ - موعظة رهيبة بليغة يحضرها السلطان محمد بن ملكشاه: في سنة ٥٠١ هـ من يوم الجمعة زار السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي مشهد الإمام أبي حنيفة، وكان معه الوزير أحمد نظام الملك، والبرسقي صاحب الشرطة ببغداد، وجماعة من الأمراء والأعيان، ثم أدى صلاة الجمعة، في جامع المهدي بالرصافة^(٢)، وقد خطب الجمعة الشيخ أبو سعد المعمر ابن علي، فكانت خطبته رهيبة وقد وجّه الكلام فيها إلى الوزير أحمد نظام الملك قال: الحمد لله ولي الإنعام، وصلى الله على من هو للأنبياء ختام، وعلى آله سرج الظلام، زينه الله بالتقوى، وختم أعماله بالحسنى، وجمع له بين خيري الآخرة والدنيا. معلوم يا صدر الإسلام أن آحاد الرعية من الأعيان، مخيرون في القاصد والوافد، إن شاءوا وصلوه وإن شاءوا فصلوه، فأما من توشّح بولائه، وشرّش لآلائه، فليس خيراً في القاصد والوافد، لأنّ من هو على الحقيقة أمير، فهو في الحقيقة أجير، قد باع نفسه وأخذ ثمنه، فلم يبق له من نهاره، ما يتصرف فيه على اختياره، ولا له أن يصلي نفلًا، ولا يدخل معتكفًا، دون التبتّل لتدبيرهم، والنظر في أمورهم، لأن هذا فضل، وهذا فرض لازم، وأنت يا صدر الإسلام، وإن كنت وزير الدولة، فأنت أجير الأمة، استأجرك جلال الدولة بالأجرة الوافرة، لتنوب عنه في الدنيا والآخرة، فأما في الدنيا ففي مصالح المسلمين، وأما في الآخرة فلتجب عند ربّ العالمين، فإنه سيقفه بين يديه، ويقول له: ملكتك البلاد، وقلدتك أزمة العباد فما صنعت في إقامة البذل وإفاضة العدل؟ فلعله يقول: يا رب اخترت من دولتي شجاعاً عاقلاً حازماً، وسمّيته قوام الدين نظام الملك، وها هو قائم في جملة الولاة، وبسطت يده في السوط والسيف والقلم، ومكنته في الدينار والدرهم فاسأله يا ربّ ماذا صنع في عبادك وبلادك؟ أفتحسن أن تقول في الجواب: نعم تقلدت أمور البلاد وملكيت أزمة العباد، ودنوت من تلقائك، اتخذت الأبواب والنّواب، والحجاب والحجّاب، ليصدّوا عني القاصد، ويردّوا عني الوافد؟ فأعمر قبرك كما عمّرت قصرك، وانتهاز الفرصة، ما دام الدهر يقبل أمرك، فلا تعتذر فما تمّ من يقبل عذرك. فهذا ملك الهند، وهو عابد صمّ، ذهب سمعه، فدخل عليه أهل مملكته يعزّونه في سمعه فقال: ما حزني لذهاب هذه الجارحة من بدني ولكن لصوت مظلوم كيف لا أسمعه فأغيثه! ثم قال: إن كان ذهب سمعي، فما ذهب بصري، فليؤمر كل ذي ظلامه أن يلبس أحمر، حتى إذا رأته عرفته وأنصفته، وأنت يا صدر الإسلام أحق بهذه المأثرة، وأولى بهذه المعدلة،

(١) الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، ص ٥٦.

(٢) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر، ص ٧١.

وأحرى من أعد جواباً لتلك المسألة، فإنه الله الذي تكاد السماوات يتفطرن منه، في موقف ما فيه إلا خاشع أو خاضع أو مقنع، ينخلع فيه القلب، ويحكم فيه الرب، ويعظم الكرب، ويشيب الصغير والكبير ويُعزل الملك والوزير ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾. وقد استجلبت لك الدعاء وخلدت لك الثناء مع براءتي من التهمة، فليس لي في الأرض ضيعة ولا قرية، ولا بيني وبين أحد خصومه، ولا بي بحمد الله فقر ولا فاقة^(١). فلما سمع الوزير أحمد نظام الملك هذه الموعظة بكى بكاء شديداً، وأمر له بعد الصلاة بمائة دينار، فأبى أن يأخذها الخطيب. وقال: أنا في ضيافة أمير المؤمنين الخليفة، ومن يكون في ضيافة الخليفة يقبح أن يأخذ عطاء غيره. فقال له الوزير: فضّها على الفقراء. فأجابته الشيخ الخطيب: الفقراء على بابك أكثر منهم على بابي. ولم يأخذ شيئاً^(٢)، وبعد انتهاء الصلاة، اجتمع الفقهاء بمحضرة السلطان محمد بن ملكشاه فقال لهم: هذا يوم قد انفردت فيه مع الله تعالى، فخلّوا بيني وبين المكان، فصعدوا إلى أعاليه، فأمر غلمانه بغلاق الأبواب وألا يمتكنوا الأمراء من الدخول إليه، وقام يصلى ويدعو ويخشع وأعطاهم خمسمائة دينار، وقال: اصرفوا هذه في مصالحكم وادعوا لي^(٣).

٢- نصيحة الإمام الغزالي لمحمد بن ملكشاه: عندما علم الإمام أبو حامد الغزالي أن السلطان محمد بن ملكشاه تولى الحكم، أرسل له كتاباً يخاطبه فيه قائلاً: اعلم يا سلطان العالم أن بني آدم طائفتان: طائفة غفلاء نظروا إلى مشاهد حال الدنيا، وتمسكوا بتأميل العمر الطويل ولم يتفكروا في النفس الأخير، وطائفة عقلاء جعلوا النفس الأخير نصب أعينهم لينظروا إلى ماذا يكون مصيرهم وكيف يخرجون من الدنيا، ويفارقونها وإيمانهم سالم، وما الذي ينزل من الدنيا في قبورهم وما الذي يتركون لأعاديهم من بعدهم ويبقى عليهم وباله ونكاله^(٤). ولا شك أنها نصيحة غالية ودرس عظيم فقد نصح الإمام الغزالي محمد بن ملكشاه بعدم الغفلة والاعتراض بمباهج الدنيا ونسيان الآخرة والأعمال الصالحة التي تنفع صاحبها في آخرته ظناً منه بامتداد العمر، موضحاً له أنه من العقل ألا يتجاهل الإنسان أن الأجل قريب وأنه لا بد أن يسرع بعمل الأعمال الصالحة ويؤدي ما عليه لله تعالى حتى يخرج من الدنيا كامل الإيمان، فالإنسان لن يأخذ معه إلى قبره إلا العمل الصالح، ثم ينصحه

(١) المنتظم (٩/ ١٥٥، ٧٣ - ١٧٤)، تاريخ الأعظمية، ص ٢٦١.

(٢)، (٣) المنتظم، نقلاً عن: تاريخ الأعظمية، ص ٢٦١.

(٤) وفيات الأعيان (٥/ ٧٢، ٧٣).

الإمام الغزالي نصيحة غير مباشرة يتفجر من كل حرف فيها الحث على جهاد الأعداء، فيخبره أن العقلاء يخططون ويدرسون ما الذي يتركون لأعدائهم من بعدهم ويبقى عليهم وباله ونكاله، أي يجب أن يتخذوا حيال أعدائهم أعمالاً من شأنها أن تظل مؤثرة فيهم حتى بعد أن يموت هؤلاء العقلاء، وتظل آثار أعمالهم في ذاكرة أعدائهم، فكان لهذه النصيحة العظيمة رد فعل كبير عند السلطان محمد بن ملكشاه، فبمجرد أن انفرد بالسلطنة بدأ في بعث حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين^(١)، وسيأتي تفصيل ذلك في محله بإذن الله تعالى. وقد جاءت روايات أخرى في نصيحة الإمام الغزالي ذكر فيها: ويجب أن تعلم أن صلاح الناس في حسن سيرة الملك، فينبغي للملك أن ينظر في أمور رعيته، ويقف عند قليلها وكثيرها وعظيمها وحقيقها، لا يشارك رعيته في الأفعال المذمومة، ويجب احترام الصالحين، وأن يثبت على الفعل الجميل، ويمنع من الفعل الرديء الويل، ويعاقب في ارتكاب القبيح، ولا يحابي من أصر على القبيح، ليرغب الناس في الخيرات ويحذروا من السيئات، ومتى كان السلطان بلا سياسة وكان لا ينهى المفسد عن فساده ويتركه عن مراده، أفسد سائر أموره في بلاده. وقال الحكماء: إن طباع الرعية نتيجة طباع الملك، لأن العوام إنما ييخلون، ويركيون الفساد، وتضيق أعينهم اقتداء منهم بملوكهم، فإنهم يتعلمون منهم، ويلزمون طباعهم، ألا ترى أنه قد ذكر في التاريخ أن الوليد بن عبد الملك - من بني أمية - كان مصروف الهمة إلى العمارة والزراعة وكان سليمان بن عبد الملك همته في كثرة الأكل وتطيب الطعام، وقضائه الأوطار، وبلوغ الشهوات^(٢)، وكانت همّة عمر بن عبد العزيز في العبادة والزهادة. قال محمد بن علي بن الفضيل: ما كنت أعلم أمور الرعية تجري على عادة ملوكها، حتى رأيت الناس في أيام الوليد بن عبد الملك قد اشتغلوا بعمارة الكرم والبساتين، واهتموا ببناء الدور، وعمارة القصور، ورأيتهم في زمان سليمان بن عبد الملك قد اهتموا بكثرة الأكل وتطيب الطعام، حتى كان الرجل يسأله صاحبه: أي لون اصطنعت، وما الذي أكلت؟ ورأيتهم في أيام عمر بن عبد العزيز قد اشتغلوا بالعبادة، وتفرغوا لتلاوة القرآن وأعمال الخيرات، وإعطاء الصدقات لتعلم أن في كل زمان تقتدي الرعية بالسلطان، ويعملون بأعماله، ويقفون بأفعاله من القبيح والجميل، واتباع الشهوات، وإدراك الكمالات، كما يقال^(٣).

وقد ذكر بعض المؤرخين أن كتاب الغزالي «التبر المسبوك في نصيحة الملوك» هو عبارة عن توجيهات للسلطان محمد بن ملكشاه الذي كان مستولياً في عهد المستظهر بالله العباسي،

(١) دور العلماء والفقهاء المسلمين في الشرق الأدنى، ص ٨٤.

(٢) قد ناقشت ما نسب إلى سليمان بن عبد الملك في كتابي عن الدولة الأموية.

(٣) التبر المسبوك، نقلاً عن صلاح الأمة (٢٠١/٣).

خاطب فيه الغزالي السلطان محمد وذكره بنعم الله عليه وأهم تلك النعمة الإيمان، وبين له أن للإيمان عشرة أصول وعشرة فروع: أما أصول الإيمان فهي: اعلم أيها السلطان أنك مخلوق ولك خالق وهو خالق العالم وجميع الكون: اعلم أن الباري تعالى ليس له صورة ولا مثل، وأنه على كل شيء قدير، وأن علمه محيط بكل شيء، وأنه سميع بصير ويقول للشيء كن فيكون، وأمره تعالى على جميع الخلق نافذ، وأن جميع ما في العالم مخلوق له تعالى وليس معه شريك، وبعد الموت حساب وسؤال وصراط وجنة ونار.

وجعل الله رسوله ﷺ آخر الأنبياء وأوصل نبوته إلى درجة الكمال وأمر الخلائق من الإنس والجن بطاعته^(١)، وأما فروع شجرة الإيمان فهي: العدل والإنصاف، واستماع نصيحة العلماء المخلصين، وأن يحارب الظلم من أي جهة صدر، ويتعد عن الغضب ويميل إلى العفو والكرم والتجاوز، ويرضى لنفسه ما يرضاه للمسلمين، وقضاء حوائج المسلمين أفضل من نوافل العبادات، وأن يتعد عن الشهوات، والرفق واللطف خير من الشدة والعنف، وكسب رضا الرعية ضمن موافقة الشرع، ألا يطلب رضا أحد بمخالفة الشرع، ومن نصائحه أن يعرف لماذا وجد الإنسان في الدنيا، وأن يعرف مصيره، ثم يحذره من الجور والفساد، وأن يتعد عن أعمال اللهو كلعب الشطرنج والنرد وشرب الخمر وضرب الكرة والصولجان والصيد لأن ذلك يمنعه من أمور الرعية وعلى السلطان أن يعين رعيته في أوقات الأزمات الاقتصادية، وأن يكون عالي المهمة، وأن يتحلى بالحكمة، وأن يستعمل عقله. ثم ذكر شروط الوزير: أن يكون كاتباً، صالحاً عادلاً، وهو حاجة ملحة، كما يذكر شروط الكاتب ومنها: خفة الروح، عالماً براءة القلم، وأن يعطى كل حرف حقه. كما يتعرض لخير النساء وهي الولود الخفيفة المهر، صاحبة الديانة والعفاف والستر^(٢). ويبدو أن هذا السلطان كان يصغى لنصائح الغزالي وأخذ ببعضها فقد حرص على العدل والإحسان وتقريب أهل الدين والمعرفة.

٣- محاربته للباطنية: انتهزت الباطنية الإسماعيلية فرصة الاضطرابات التي حدثت بعد وفاة ملكشاه والصراع الذي وقع بين أبناء البيت السلجوقي، فسعوا إلى التمكن لأنفسهم عن طريق الاستيلاء على مزيد من القلاع والأماكن الحصينة والتسلل إلى بلاد السلاطين وإلى جيوشهم، وكان جيش بركيارق من الجيوش التي تزايد فيها نفوذهم، وانتشر فيه دعائهم، ويبدو أن بركيارق لم يشأ أن يصطدم معهم بسبب انشغاله في الصراعات الدائرة

(١) التبر المسبوك، نقلاً عن الحضارة الإسلامية في بغداد، ص ٢٣٤.

(٢) المنتظم (١٢١/٩).

مع أهل بيته إلى أن اتهم بالميل إليهم، وتبين له خطرهم وأشار عليه أعوانه أن يفتك بهم قبل أن يعجز عن تلافي أمرهم، فأذن السلطان في قتلهم في عام ٤٩٤هـ فأخذوا من خيامهم، وأخرجوا إلى ميدان عام فقتلوا فيه: ولم يفلت منهم إلا من لم يعرف^(١)، ويذكر أبو الفرج بن الجوزي: أن القتلى بلغوا ثلاثمائة^(٢) وسرعان ما تتبعهم أمراء الأقاليم فقد قتل «جاولي سقاو» خلقاً كثيراً منهم بمنطقة «خوزستان» يقارب الثلاثمائة^(٣)، وأرسل بركيارق إلى الخليفة العباسي يشير عليه بتتبع الموجودين منهم في عاصمة الخلافة، فأمر بالقبض على قوم يظن فيهم ذلك «ولم يتجاسر أحد أن يشفع في أحد لئلا يظن ميله إلى ذلك المذهب»^(٤). وطاردهم السلطان سنجر في نفس العام ٤٩٤هـ فقتلت عساكره منهم خلقاً كثيراً، وحاصروا قلعة «طبس» وخربوا سورها وأوشكت على السقوط، فلجأ الباطنية إلى رشوة قائد العسكر الأمير «بزغش» واستنزوه عما كان يريده منهم فرحل عنهم وتركهم فأعادوا عمارة ما انهدم من سورها وملأوها ذخائر من سلاح وأقوات وغير ذلك ثم عاودهم «بزغش» سنة ٤٩٧هـ ومعه كثير من المتطوعة إلى قلعة «طبس» مرة أخرى فخرّبها هي وما جاورها من القلاع والقرى، وأكثر فيهم القتل والنهب والسي، ومع ذلك فإن أصحاب سنجر أشاروا عليه بأن يؤمنهم مقابل ألا يبنوا حصناً ولا يشتروا سلاحاً، ولا يدعوا أحداً إلى مذهبهم^(٥).

وقد أثار هذا الصلح سخط كثير من الناس على سنجر، بسبب ما وقع عليهم من أذى بأيدي هذه الفئة، ولعلمهم أيضاً بأنهم لن يحترموا هذا الأمان ولا هذا الصلح، وهذا ما حدث بالفعل، ففي عام ٤٩٨هـ خرج جمع كبير منهم من قلعة «طريثيت» قرب مدينة بيهق وأغاروا على النواحي المجاورة لهم، وأكثروا من القتل ونهب الأموال، وسبي النساء «ولم يقفوا على الهدنة المتقدمة»^(٦)، وكان عام ٤٩٨هـ هو نهاية المرحلة التي قاوم السلاجقة فيها نفوذ الباطنية مقاومة فيها الكثير من الحذر بسبب الخلاف الذي كان محتدماً بين أفراد البيت السلجوقي، واستغلال الباطنية هذا الخلاف في التسلل إلى المراكز المهمة في بلاط السلاطين وليس أدل على وجود هذا النفوذ من موقف قائد سنجر عندما قبل رشوتهم في عام ٤٩٤هـ ورحل عنهم بعد أن أوشكت قلعتهم على السقوط، ثم عندما عقد معهم سنجر معاهدة الأمان في عام ٤٩٧هـ بعد أن أنزل بهم عساكره خسائر فادحة، إن هذا التهاون معهم في

(١) الكامل في التاريخ، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص ١٣٨.

(٢) المنتظم (١٢١/٩).

(٣) الكامل في التاريخ، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص ١٣٨.

(٤) المنتظم (١٢١/٩).

(٥) الكامل في التاريخ، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص ١٣٨.

(٦) دائرة المعارف الإسلامية (٣/٣٧٧)، مادة إسماعيلية.

هاتين الحادثتين رغم النصر الذي حققته عساكر سنجر عليهم فيه دليل على تغلغل نفوذهم داخل بلاط السلاطين، أو على الأقل فيه دليل على تخوف السلاطين وحذرهم منهم، وقد كان لهذه المقاومة الحذرة ردود فعل من جانب الباطنية بدأوها باغتيال نظام الملك عندما أرسل عسكرياً قاموا بحصار الحسن بن الصباح إثر استيلائه على «الموت» في عام ٤٨٣هـ^(١)، وفي عام ٤٩٠هـ قتلوا «أرغش النظامي» مملوك نظام الملك بمدينة الري، كما قتلوا في العام ذاته الأمير «برسق» من كبار قواد طغرل بك، وأول من تولى شحنة بغداد، وفي عام ٤٩٨هـ خرجوا على قافلة الحجاج القادمة مما وراء النهر وخراسان عند مدينة الري فقتلوا من فيها، وغنموا أموالهم ودوابهم، كما قتلوا في نفس العام شيخ الشافعية بمدينة «الري» الفقيه أبا جعفر^(٢) المشاط

* مرحلة أخرى في محاربة الباطنية: نهبت هذه الجرائم - وأمثالها - التي ارتكبتها الباطنية سلاطين السلاجقة إلى أنه لا بد من مقاومة جديّة لهذه الطائفة وإلا استشرى خطرهما، وعم ضررها وهددت أمن الدولة ونظامها، وتميزت هذه المرحلة بأنه قد بدا فيها واضحاً حرص السلطان محمد - الذي استقرت له الأمور بعد وفاة أخيه بركيارق في عام ٤٩٨هـ - على استئصال هذا الداء، ولم يكن هذا الهدف واضحاً في المرحلة السابقة التي كانت تستهدف - فقط - الحد من خطرهم، وسنركز على عمليتين كبيرتين - كنموذج - قام بهما السلطان محمد في مجال محاولة القضاء على هذه الفئة:

أ- إسقاطه لقلعة أصبهان «شاه دز» وقتل الزعيم الكبير ابن عطاش الذي كان متحصناً بها.

ب- حصاره لقلعة الموت مدة تزيد على ست سنوات.. بدأ السلطان محمد حصاره لقلعة أصبهان في عام ٥٠٠هـ بعد أن استفحل بها أمر الداعي أحمد بن عطاش، فكان يرسل أصحابه لقطع الطريق وأخذ الأموال، وقتل من قدروا على قتله.. وجعلوا له على القرى السلطانية، وأملاك الناس ضرائب يأخذونها ليكفوا عنها الأذى، فلما صفت السلطنة لمحمد ولم يبق له منازع لم يكن عنده أمر أهم من قصد الباطنية وحربهم، فرأى البداية بقلعة أصبهان لأن الأذى بها أكثر، وهي متسلطة على سرير ملكه، فخرج بنفسه فحاصرهم^(٣). ولأول مرة نرى سلطاناً سلجوقياً يخرج بنفسه لقتال الباطنية، وقد تمكن من الاستيلاء على هذه القلعة في ذي القعدة من عام ٥٠٠هـ بعد حصار دام حوالي ثلاثة شهور، ووقع ابن

(١)، (٢) الكامل في التاريخ، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص ١٣٩.

(٣) الكامل في التاريخ، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص ١٤٠.

عطاش أسيراً هو وابنه فقتلا، وحمل رأسهما إلى بغداد^(١)، لم يحصل السلطان محمد على هذا النصر في أول لقاء مباشر بينه وبين هذه الطائفة بثمن بخس، وإنما واجه كثيراً من المواقف الحرجة التي صمد أمامها حتى تحقق هدفه، ومن ذلك أنه لما عزم على حربهم في رجب من عام ٤٩٨ هـ استخدم المشايخون لهم في عسكره حرب الشائعات، ليصرفوه عن غايته، فادّاعوا أن قلع أرسلان سلطان سلاجقة الروم، قد ورد بغداد وملكها، وافتعلوا في ذلك مكاتبات ثم أظهروا أن خللاً حدث بخراسان، وكان هدفهم من ذلك كله إبعاد السلطان عن أصفهان حتى لا يتحقق الهدف الذي يسعى إليه، لكن السلطان توقف حتى تحقق من بطلان الشائعات فانصرف لغايته^(٢).

- محاولة الباطنية الإسماعلية هدم شرعية قتالهم: عندما شدد السلطان محمد بن ملكشاه الحصار عليهم لجأ الباطنية إلى الخداع، فكتبوا إلى الفقهاء السنيين يطلبون فتواهم في قوم يؤمنون بالله ورسوله، ولكن يخالفون الإمام هل يجوز للسلطان مهادنتهم وموادعتهم، وأن يقبل طاعتهم، ويجرسهم من كل أذى؟ وكادت اللعبة تنجح بعد أن أفتى أكثر الفقهاء بجواز ذلك، وتوقف البعض عن الفتوى، فجمع السلطان الفقهاء للمناظرة، فانتصر رأي الفقيه الشافعي أبي الحسن علي بن عبد الرحمن السمنجاني الذي أفتى بإباحة دمائهم نظراً لرأيهم في الإمام الذي يستطيع أن يحرم عليهم ما أحل الله، ويحل لهم ما حرم الله، وتكون طاعته في هذه الحالة - حسب اعتقادهم فيه - واجبة^(٣). كان هدف الباطنية من هذه الخطوة أن يهدموا شرعية قتالهم، حتى يضعف السلطان وينصرف الجند والناس عنه ما دام يقاتل قوماً مؤمنين، ولما لم تفلح هذه الخطة لجأوا إلى المطاولة وكسب الوقت، فطلبوا من السلطان أن يرسل إليهم من يناظرهم، فصعد إليهم بعض العلماء، ثم عادوا بغير طائل، وأخيراً طلبوا أن يؤمنوا ويتركوا القلعة مقابل أن يوصلهم السلطان إلى بعض قلاعهم الأخرى على دفعات، فإذا عاد إليهم من أخبرهم بوصول الدفعة الأولى إلى القلاع سالمين، نزل ابن عطاش ومن بقي معه ليوصلهم السلطان إلى الحسن الصباح في «الموت»، ووافق السلطان محمد على ذلك، ووصل الفوج الأول إلى القلاع التي عينوها، فلما تأكد ابن عطاش أن أتباعه وصلوا سالمين نقض عهده، واستمر في العناد إلى أن انتهت مقاومته وسقط أسيراً^(٤). وكان هذا النصر الذي حققه السلطان محمد على أحمد بن عبد الملك بن عطاش في أصفهان دافعاً إلى ملاحقة الباطنية، وخاصة في عاصمتهم «الموت» ففي عام ٥٠٣ هـ، أرسل وزيره أحمد بن

(١)، (٢) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص ١٤٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤١.

(٤) الكامل في التاريخ، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص ١٤١.

نظام الملك فحاصر هذه القلعة لكنه اضطر للرحيل عنها عند حلول الشتاء، وحاول الباطنية الانتقام من هذا الوزير في نفس العام فطعنوه بالسكاكين في أحد مساجد بغداد إلا أن الطعنات لم تكن قاتلة فبرئت جراحه^(١).

- الاستمرار في محاربة الباطنية: وكرر السلطان المحاولة في عام ٥٠٥هـ ونذب لقتال الحسن أحد الأمراء واسمه أنوشكين شيركير، فملك من الباطنية عدة قلاع ولكنه وقع في الخطأ الذي وقع فيه سلطانه قبل ذلك، فأمن من كانوا في هذه القلاع، وسيرهم إلى الموت ثم سار هو بعد ذلك بحصارها بعد أن ازدادت قوة ومنعة باطنية القلعة بمن توجه إليها من الباطنية، وأمداه السلطان بعدد من الأمراء وانعقد عزمهم على إسقاط هذه القلعة مهما كلفهم من جهد، فبنوا المساكن حولها، وعين لكل طائفة من الأمراء - بالتناوب - أشهراً يقيمون فيها لحصارها، على أن يقيم القائد العام «أنوشكين» إقامة دائمة، ولم يتوقف السلطان في هذه الظروف عن إمدادهم بالمؤن والذخائر والرجال حتى اشتد الأمر على الباطنية، وعدمت عندهم المؤن بسبب طول الحصار، ولم يجدوا بداً من إنزال نسايتهم يطلبن الأمان لهم، على أن يسلموا القلعة ويوسع لهم كي يمضوا إلى أي طريق شاءوا، ولكن أنوشكين أدرك الأخطار التي ترتبت على منحهم الأمان في الماضي، وكان من أبرز هذه الأخطار أن هذه القلعة «الموت» أضحت أكبر مركز لتجمعاتهم بعد أن وفد عليها الكثيرون من القلاع الأخرى التي سقطت قبل ذلك، لهذا رفض أن يمنحهم الأمان، وأعاد النساء إلى القلعة قصداً كي يموت الجميع جوعاً، لكن ما أمله هذا القائد لم يتحقق بسبب وفاة السلطان محمد في عام ٥١١هـ وإصرار الأمراء والجنود على الرحيل بعد سماعهم هذا النبأ. وذلك بعد أن استمر حصار القلعة ما يقرب من ست سنوات وبعد أن كان سقوطها وشيك الوقوع، ولم يبق أمام القلعة بعد وفاة السلطان غير أنوشكين، فانتعشت آمال الباطنية، وقويت نفوسهم واضطر هذا القائد إلى الانسحاب بجنده فغنم الباطنية ما تخلف منهم^(٢). وبوفاة السلطان محمد توقف تنفيذ مشروعاته للقضاء على هذه الفئة ووجد الباطنية فرصة مجددة لتقوية أنفسهم مستفيدين من الصراع على السلطة الذي أعقب وفاة السلطان محمد بين ولده محمود وعمه السلطان سنجر، وخلال الخمس عشرة سنة التي أعقبت وفاته استطاعوا بوسائلهم المتعددة أن يمدوا نفوذهم إلى بلاد الشام، وأن يستولوا فيها على بعض القلاع والحصون^(٣).

٤- وفاة السلطان محمد بن سنجر: سنة ٥١١هـ: كان السلطان محمد فحل آل

(٢) الكامل في التاريخ (٦/٥٣٣).

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص ١٤١.

(٣) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص ١٤٢.

سلجوق وله بر في الجملة وحسن سيرة مشوبة، فمن عدله أنه أبطل ببغداد المكس والضرائب ومنع من استخدام يهودي أو نصراني، وكسا في نهار أربعمئة فقير، وقد كان كف ماليكه عن الظلم، ودخل يوماً إلى قبة أبي حنيفة، وأغلق على نفسه يُصلي ويدعو، وقيل: إنه خلف من الذهب العين أحد عشر ألف ألف دينار ومات معه في العام صاحب قسطنطينية، وصاحب القدس بغدوين لعنهما الله^(١)، قال أحمد القرماني: ... ثم مرض زماناً طويلاً فقبل له: مرضك سحري، وإنما سحرتك زوجتك، فأعضل داؤك وأبطل دواؤك! وحلوا السلطان إلى أن كحلها وحبسها في بيت ضيق، واعتقلها، وأخرجوا خاتم السلطان وقالوا إنه أمر بخنقها، ومن عجيب القدر أن الزوجين توفيا في ساعة واحدة، فالتحتون في بيتها خنقت، والسلطان على فراشه نفسه زهقت في أواخر سنة إحدى عشرة وخمسمئة وخلف خمسة بنين، وهم محمود، ومسعود، وطغرل، وسليمان وسلجق^(٢)، وكلهم تولوا السلطنة سوى سلجق، ولما أيس السلطان من نفسه أحضر ولده محموداً وبكى كل منهما، وأمره أن يخرج ويجلس على سرير الملك، وينظر في أمور الناس، فقال له ولده: فإن هذا اليوم غير مبارك، فقال: صدقت، ولكن على أبيك، وأما عليك، فمبارك، فامثل أمره وجلس على سرير الملك أبو القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه مكان والده وأحكم قواعده، وهو يومئذ في سن الحلم قوي المعرفة باللغة العربية^(٣)، مات السلطان محمد بن ملكشاه في آخر سنة إحدى عشرة وخمسمئة بأصبهان، ودفن بمدرسة كبيرة له، وقد تزوج المقتضي بابنته فاطمة، وعاش ثمانياً وثلاثين سنة^(٤).

خامساً: الخليفة العباسي المستظهر بالله:

هو الإمام أمير المؤمنين، أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله بن الدخيرة محمد بن القائم بأمر الله عبد الله بن القادر الهاشمي العباسي البغدادي^(٥) استخلف عند وفاة أبيه في تاسع عشر المحرم، وله ست عشرة سنة وثلاثة أشهر، وذلك في سنة سبع وثمانين وأربعمئة^(٦)، فكان أول من بايعه الوزير أبو منصور بن جهير، ثم أخذت البيعة له من الملك ركن الدولة بركيارق بن السلطان ملكشاه ثم من بقية الأمراء والرؤساء وصلى على الخليفة الأمراء والوزراء، ومن العلماء حضر الغزالي والشاشي وابن عقيل وبايعوه يوم ذلك، وقد كان المستظهر بالله كريم الأخلاق حافظاً للقرآن فصيحاً

(١) سير أعلام النبلاء (٥٧/١٩).

(٢)، (٣) أخبار الدول وآثار الأول (٤٥٨/٢، ٤٥٩).

(٤) سير أعلام النبلاء (٥٠٧/١٩).

(٥)، (٦) سير أعلام النبلاء (٣٩٦/١٩).

بليغاً شاعراً مُطَبِّقاً، ومن لطيف شعره قوله:

أَذَابَ حَرُّ الْجَوَى فِي الْقَلْبِ مَا حَمَدَا
كَيْفَ أَسْلُكُ نَهْجَ الْإِصْطِبَارِ وَقَدْ
يَوْمًا مَدَدْتَ عَلَى رَسْمِ الْوَدَاعِ يَدَا
أَرَى طَرَائِقَ فِي مَهْوَى الْهَوَى قَدَدَا
قَدْ أَخْلَفَ الْوَعْدَ بَدْرٌ قَدْ شَغَفَتْ بِهِ
مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ وَفَى دَهْرًا بِمَا وَعَدَا
إِنْ كُنْتَ أَنْقَضَ عَهْدَ الْحُبِّ فِي خُلْدِي
مِنْ بَعْدِ هَذَا فَلَا عَايَتَهُ أَبَدَا^(١)

وفوض المستظهر أمور الخلافة إلى وزيره أبي منصور عميد الدولة ابن جهير فدبرها له أحسن تدبير، ومَهَّدَ الأمور أتم تهديد، وساس الرعايا، وكان من خيار الوزراء، وفي ثالث عشر من شعبان سنة ٤٨٧هـ عزل الخليفة أبا بكر الشاشي عن القضاء وفوضه إلى أبي الحسن بن الدامغاني، وفي السنة نفسها وقعت فتنة بين السنة والروافض فأحرقت محال كثيرة وقتل ناس كثيرون، فإنا لله وإنا إليه راجعون^(٢).

١- قيام المستظهر للتراويح واهتمامه بالقرآن الكريم: حكى أبو طالب بن عبد السميع عن أبيه أن المستظهر بالله طلب من يُصلي به، ويُلقن أولاده، وأن يكون ضريراً، فوق اختياره على القاضي أبي الحسن المبارك بن محمد بن الدَّوَّاس مقررئ واسط قبل القلانسي، فكان مكرماً له، حتى إنه من كثرة إعجابه به كان أول رمضان قد شرع في التراويح، فقرأ في الرُّكْعَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ آية آية، فلما سلم، قال له المستظهر: زدنا من التلاوة، فتلا آيتين آيتين، فقال له: زدنا، فلم يزل حتى كان يقوم كل ليلة بجزء، وإنه ليلة عطش، فنأوله الخليفة الكُوز، فقال خادم: ادع لأمير المؤمنين، فإنه شَرَّفَكَ بمناولته إِيَّاكَ^(٣). وقال السلفي: قال لي أبو الخطاب بن الجراح: صليت بالمستظهر في رمضان، فقرأت «إِنْ ابْنُكَ سُرِّقَ»^(٤) (يوسف: ٨١)، رواية روينها عن الكسائي، فلما سلمت قال: هذه قراءة حسنة فيه تنزيه أولاد الأنبياء عن الكذب^(٥). قال الذهبي: قلت: كيف بقولهم «فأكله الذئب» «وجاءوا على قميصه بدم كذب»^(٦) وهذه لفظة جميلة من الذهبي تدل على سعة علمه وقدرته العقلية الكبيرة على النقد واستقامة موازينه العلمية.

٢- من أقوال المستظهر: قال أبو طالب بن عبد السميع: كان من ألفاظ المستظهر:

- خير ذخائر المرء لديناه ذكر جميل، ولآخرته ثواب جزيل.

(١)، (٢) البداية والنهاية (١٦/١٤٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٩/٣٩٧).

(٤)، (٥)، (٦) سير أعلام النبلاء، (١٩/٣٩٧).

- شُحُّ المرء بفلسه من دناءة نفسه.
- الصبر على الشدائد ينتج الفوائد.
- أدب السائل أنفع من الوسائل.
- بضاعة العاقل لا تحسر ورمحها يظهر في المحسر^(١).

٣- موقف الإمام الغزالي من المستظهر: إن خير كتاب يعطينا صورة لموقف الغزالي من الخليفة المستظهر هو كتابه «فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية»، والغزالي ألف هذا الكتاب بناء على طلب المستظهر نفسه حتى يرد به على عقيدة الباطنية^(٢)، والباب التاسع من الكتاب خصصه الغزالي بأكمله لإقامة البراهين الشرعية على أن الإمام الحق القائم بالحق الواجب على الخلق طاعته هو الإمام المستظهر، كما بين أنه يجب على علماء الدهر الفتوى على البت والقطع بوجوب طاعته على الخلق ونفوذ أقضيته بمنهج الحق وصحة توليته للولاية وتقليده للقضاة وأنه خليفة الله على الخلق وأن طاعته على جميع الخلق فرض^(٣)، وهذا الباب يمتد من الصفحة ١٦٩ إلى الصفحة ٢٢٥، وهو من أوله إلى آخره دعوه لطاعة المستظهر وللالتفاف حول منصب الخلافة، وقد أورد صفات الإمام وواجباته السياسية والدينية^(٤)، ونلاحظ أن الإمام الغزالي رمى بثقله الفكري والثقافي والعقائدي لدعم مشروعية الخلافة العباسية والخليفة المستظهر وذلك ليقينه من الخطر الباطني الذي يريد إسقاط المرجعية العباسية وتثبيت الشرعية الفاطمية الباطنية تحت شعار الإنتساب زوراً لأهل البيت فكراً ونسباً. وعلم الغزالي أنه إذا تمّ هذا الأمر فإن في ذلك ضياع الدولة السنية، لذلك رمى بثقله للحفاظ على الشرعية السنية العباسية أمام المد الباطني.

٤- علاقة المستظهر بالمرابطين: كانت الخلافة الفاطمية في مصر والسلطنة السلجوقية في إيران في تنافس مستمر من أجل السيطرة على البلاد الإسلامية، ونفوذ المستظهر الديني مرتبط بامتداد حكم السلاجقة السنيين، أما في الشمال الإفريقي، فقد سيطر المرابطون على مراكش وسواحل الأطلسي ثم على بلاد الأندلس بعد معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ، وتمكن يوسف بن تاشفين من إقامة دولة قوية متشعبة الأطراف، هذه الدولة رفضت أن تعطي ولاءها للخليفة الفاطمي بالقاهرة بسبب اعتناقه المذهب الشيعي وهم سنيون حريصون على انتمائهم للخلافة العباسية وهذه محمداً كبيرة تحسب للمرابطين وتفيدنا درساً مهماً وهو أن

(١) سير أعلام النبلاء، (١٩/٣٩٧).

(٢) فضائح الباطنية، ص ٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٦٩.

(٤) الحضارة الإسلامية في بغداد، ص ٢٣٠.

الأخوة في الدين والعقيدة الإسلامية والسعي لإيجاد علاقات حمية فيها تعاون على البر والتقوى، وحرصاً على وحدة الأمة وخصوصاً في وقتنا الحاضر^(١)، لذلك أراد يوسف بن تاشفين أن يتقرب من الخليفة العباسي، ويأخذ منه البيعة كي يتصف حكمه بالصفة الشرعية، وحتى تصبح طاعته على الكافة واجبة، وهذا الرأي أشار به فقهاء المغرب^(٢)، وقبل أن يبادر أمير المرابطين إلى الاتصال بالمستظهر نفذ في بلاده عدة خطوات؛ فقد نقش المرابطون اسم الخليفة العباسي على السكة وكانت نقودهم تحمل «عبد الله» ويقصد به الخليفة العباسي حتى لا تتغير السكة بتغير الخلفاء العباسيين، ويدل على ذلك الرسالة التي بعث بها علي بن يوسف بن تاشفين إلى المستظهر ذاكراً لفظة «عبد الله» مع أن اسم الخليفة «أحمد» وبعد أن اتسعت دولة المرابطين رأى زعماءها أن يتخذ أميرهم يوسف بن تاشفين لقب «أمير المؤمنين»، ولكنه رفض هذا الاقتراح تقريباً إلى خلفاء بني العباس، واحتراماً لهم وقال: حاشا لله أن نسمى بهذا الاسم، وإنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة، ولأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة وأنا رجلهم والقائم بدعوتهم^(٣). ثم اتخذ المرابطون السواد -شعار العباسيين- شعاراً لهم في ملابسهم وراياتهم، وخطبوا للخليفة العباسي على منابر بلادهم^(٤) وبعد ذلك أرسل يوسف بن تاشفين بعثة إلى المستظهر سنة ٤٩٨هـ تحمل إليه البيعة والهدايا وكتاباً يذكر فيه البلاد التي فتحها وحروبه مع الفرنج، ثم طلبت البعثة من الخليفة أن يعضد ليوسف بن تاشفين على المغرب والأندلس وما يفتحها بالمستقبل بسيف أمير المؤمنين، فأجابه المستظهر لما أراد ولقبه «بأمير المسلمين وناصر الدين» وسير معه الخلع واللواء، وكتب له عهداً بذلك، كما أن الإمام الغزالي والقاضي الطرطوشي، أرسلوا إليه خطاباً يثنيانه على خدمة الإسلام ويفتيانه في ملوك الطوائف^(٥)، وبعد وفاة يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠هـ، ملك ابنه علي بن يوسف بن تاشفين الذي واصل سياسة والده في موالاة الخليفة العباسي ومناصرة الشريعة الإسلامية، وفي سنة ٥١٢هـ أرسل إليه المستظهر مرسوماً، جواباً عن رسالة سابقة يطلب فيها عهداً من المستظهر، وتبدأ الرسالة بحمد الله وشكره والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله ﷺ الذي حمل الدعوة الإسلامية، فأنقذ الأمة من الضلال وأثار القلوب وأعز الدين، ثم الصلاة على العباس عم الرسول ﷺ وذريته، ثم يذكر مواهب الله على أمير المسلمين الذي يحكم بالعدل

(١) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، لابن الخطيب، ص ١٦.

(٢) مرآة الجنان للياضي (٣/١٦٤).

(٤) النجوم الزاهرة (٥/١٩١)، الحضارة الإسلامية في بغداد، ص ١٣٢.

(٥) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الحضارة الإسلامية في بغداد، ص ١٣٢.

ويحرص على مصلحة الرعية ويرد عنها نوائب الأيام، ثم يدعو بالنصر والظفر لجيوشه على أعدائهم، يوافقهم على جهاد الكفرة والتوسع في البلاد المحاذية لمملكته، ثم يأمره أن يتخذ القرآن والسنة ويتمسك بالثقوى وأن يثابر على الجهاد ضد الأعداء، وأن يدعو لأمير المؤمنين على منابر دولته أن يكون ظاهراً وظافراً ثم يختتمها بالسلام عليه وعلى أهل الطاعة^(١)، وبقيت دعوة بني العباس قائمة في المغرب حتى انقطعت دولة المرابطين^(٢).

٥- موقف المستظهر من الحملات الصليبية: واجهت الخلافة العباسية في عهد المستظهر خطرين داهمين: الخطر الأول جاء من الشرق على يد الحركة الباطنية التي صممت على مناهضة الخلافة العباسية عسكرياً وفكرياً.

والخطر الثاني جاء من الغرب وقد أحدثته الحركة الصليبية التي استهدفت احتلال الشرق وتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين. حدثت الحروب الصليبية في وقت كان فيه المشرق الإسلامي يعاني من شر الانقسامات السياسية والمذهبية، فالسلطنة السلجوقية تتصارع مع الخلافة الفاطمية المصرية، وكانت بلاد الشام مسرحاً أساسياً لسباق السيطرة بين الطرفين، وأما على صعيد الدولة السلجوقية الذاتي فالأمر كان أدهى وأمر، فقد غرق سلاطين الدولة السلجوقية بعد وفاة ملكشاه في حروب مدمرة حول عرش السلطنة، وهذه الحروب أتت على الأخضر واليابس، مما ترك المجال واسعاً أمام أعداء السلطنة في الداخل والخارج، وكانت فرصة مناسبة للصليبيين الذين سيطروا على سواحل بلاد الشام بدون مقاومة تذكر^(٣)، هذا التفكك الذي أصاب الدولة السلجوقية كان من أكبر عوامل نجاح الحملات الصليبية^(٤)، وسيأتي الحديث عن الحروب الصليبية في محله بإذن الله تعالى.

٦- صراع سلاطين السلاجقة وموقف المستظهر منهم: رغم العلاقة الحسنة التي كانت قائمة بين المستظهر وسلاطين السلاجقة فإنه لم يتمكن من تحقيق أي نوع من الاستقلال ولو في إدارة شئون مدينة بغداد الداخلية، كما أنه وقف متفرجاً أمام النزاعات العنيفة التي عصفت بوحدة البيت السلجوقي ولم ينتهز الفرصة السانحة كي يحقق لنفسه شيئاً من القوة والسيادة، إلا أن هيئته قوية في عهد السلطان محمد بن ملكشاه^(٥)، واغتنم المستظهر فرصة الصفاء والاحترام القائمة بينه وبين السلطان محمد فأراد أن يوثق صلته أكثر فأكثر بالبيت السلجوقي، فأرسل سنة ٥٠٢ هـ إلى السلطان يطلب أخته تركان خاتون

(١) الحلل الموشية لابن الخطيب، ص ٦٤، ٦٥.

(٢) الحضارة الإسلامية في بغداد، ص ١٣٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ١١٦.

الثانية بنت ملكشاه زوجة له، فاستقبل طلبه بالترحاب وتحولت العلاقة بين السلطان محمد والخليفة إلى نوع من المحبة والمودة انعكست آثارها علي حياة الناس ببغداد، رفاهية ورخاء وازدهاراً^(١).

٧- وفاة المستظهر عام ٥١٢هـ: كان المستظهر موصوفاً بالسخاء والجود ومحبة العلماء وأهل الدين، والتفقد للمساكين، مع الفضل والنبل والبلاغة، وعلو الهمة، وحسن السيرة، وكان رضي الأفعال، شديد الأقوال^(٢)، راغباً في البر والخيرات مسارعاً إلى ذلك، لا يرد سائلاً، وكان جميل المعاشرة لا يُصغى إلى أقوال الوشاة في الناس ولا يثق بالمباشرين، قد ضبط أمور الخلافة جيداً، وأحكمها وعرفها وعلمها، ولديه علم وفضل كثير وفضل كبير وتوفي عام ٥١٢هـ وقد ولي غسله الإمام ابن عقيل وابن السني وصلى عليه ولده أبو منصور الفضل، وكبر أربعاً، ودفن في حجرة كان يسكنها، والعجب أنه لما مات السلطان ألب أرسلان مات بعده الخليفة القائم بأمر الله، ثم لما مات السلطان ملكشاه مات بعده الخليفة المقتدي بأمر الله، ثم لما مات السلطان محمود مات بعده الخليفة المستظهر بالله، رحمهم الله، وكانت وفاة المستظهر بالله سادس عشر ربيع الآخر من هذه السنة - ٥١٢هـ - وله من العمر إحدى وأربعون سنة، وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً^(٣).

سادساً: سنجر والسلطنة السلجوقية:

بعد وفاة السلطان محمد بن ملكشاه عام ٥١١هـ بدأت المنازعات من جديد حول عرش السلطنة مما أحدث انقساماً كبيراً بين السلاجقة، ويرجع السبب في هذه المنازعات إلى أن السلطان محمد قبيل وفاته أمر بإسناد السلطنة إلى ابنه محمود، الذي ارتقى عرش السلطنة بعد وفاة أبيه، وكان حينئذ في الرابعة عشرة من عمره، ووافق الخليفة العباسي المستظهر بالله «٤٨٧ - ٥١٢هـ» على إقامة الخطبة للسلطان محمود ببغداد في يوم الجمعة الموافق الثالث والعشرين من محرم سنة ٥١٢هـ، ولكن عمه سنجر لم يرض عن تولي ابن أخيه عرش السلطنة لأنه يعتبر نفسه أحق منه بالسلطنة بعد وفاة أخيه محمد، فأعلن نفسه سلطاناً على السلاجقة فغير لقبه من ناصر الدين إلى لقب معز الدين وهو لقب أبيه ملكشاه، وأدى ذلك إلى انقسام الدول السلجوقية^(٤) واندلاع القتال بين سنجر وابن أخيه، وقد التقى محمود بعمه سنجر بالقرب من مدينة ساوة سنة ٥١٣هـ، واستعان سنجر في هذه المعركة بفرقة من الفيلة كانت السبب في انتصاره، على أن الصلح لم يلبث أن تم بين الفريقين وسار محمود إلى

(٢) سير أعلام النبلاء (١٩/٣٩٧).

(١) الحضارة الإسلامية في بغداد، ص ١٢٥، ١٢٦.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٣) البداية والنهاية (١٦/٢٣٧).

عمه سنجر فأكرمه وصفح عنه وسأحه على بدر منه، وعامله معاملة حسنة وقبل شفاعته في آخرين، واستقر الرأي على أن يبقى محمود بن محمد شهراً في خدمة عمه السلطان سنجر بالري وألا يدق له البوق^(١) في حالة ركوبه أو نزوله، وأن يسير مترجلاً في ركاب عمه، وأن يترك كل ما يتعلق بشعائر السلطنة ورسومها^(٢). وأطاع محمود عمه السلطان سنجر ونفذ ما استقر عليه الرأي بينهما، فقرر السلطان سنجر اختياره ولياً لعهد و نائباً عنه في العراق سنة ٥١٣هـ، وسمح السلطان سنجر له بأن يلقب بلقب سلطان؛ وبذلك يعتبر أول من جلس على عرش سلطنة السلاجقة بالعراق هو السلطان محمود بن محمد، وأصبح سلطان العراق من الناحية الرسمية خاضعاً وتابعاً لسلطنة السلطان الأعظم سنجر في خراسان، بمعنى أن سلطنة العراق في عهد السلطان سنجر لا تكون إلا لمن ارتضاه وأقره سنجر، وكان سلاطين العراق يخضعون للسلطان سنجر ويذكرون اسمه في الخطبة قبل أسمائهم، وقد اعترف الخليفة العباسي المسترشد بالله بمحمود بن محمد سلطاناً على سلاجقة العراق رغم صغر سنه^(٣)، وفي سنة ٥١٤هـ خطب للسلطان سنجر وابن أخيه السلطان محمود معاً^(٤)، وبذلك أصبح هناك سلطانان في آن واحد إلا أن محموداً كان يحكم بأمر من السلطان سنجر ومن ثم فهو خاضع له خضوعاً كاملاً في جميع أمور السلطنة، وقد أعاد السلطان سنجر لابن أخيه محمود بن محمد جميع البلاد التي كانت تحت سلطانه وحوزته ما عدا الري التي كان يراقب منها السلطان سنجر أعمال محمود خشية أن يخرج عليه ويعصيه مرة أخرى، وفي واقع الأمر فإن سلطان محمود الفعلي كان مقصوراً على العراقيين العربي والعجمي، وظل يحكم أربعة عشر عاماً حاملاً لقب سلطان حتى توفي عام ٥٢٥هـ^(٥). قال عنه ابن كثير: كان من خيار الملوك وكان فيه حلم وأناة وبر وصلابة وجلسوا لعزائه ثلاثة أيام، سأحه الله^(٦).

١- بسط نفوذ سنجر على بقية أقاليم الدولة السلجوقية: وافق الخليفة العباسي المسترشد بالله في سنة ٥١٣هـ على تنصيب سنجر سلطاناً أعظم للسلاجقة وإقامة الخطبة باسمه بعد الخليفة في جميع أقاليم الدولة السلجوقية^(٧)، وبناء على ذلك اتسع نفوذه وسلطانه وشمل بالإضافة إلى خراسان أكثر أقاليم إيران والعراق. هذا وقد أكرم سنجر - بعد أن أصبح سلطاناً أعظم للدولة السلجوقية - أبناء أخيه محمد فوزع عليهم حكم مدن وأقاليم إيران والعراق، واستطاع السلطان سنجر أن يعيد بسط نفوذه وسلطانه على أراضي

(١) البوق: هي أداة مجوفة ينفخ فيها وزمر.

(٢) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر، ص ٩٤.

(٣) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر، ص ٩٤.

(٤) دول الإسلام (٢/ ٤١).

(٥) العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٦١٧.

(٦) البداية والنهاية (١٦/ ٢٩٠).

(٧) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر، ص ٩٧.

ما وراء النهر بعد العملية الناجحة التي خاضها ضد محمد خان، ويعتبر السلطان سنجر من السلاطين السلاجقة الذين أبدوا اهتماماً خاصاً بمجريات الأمور في بلاد ما وراء النهر، فكان يضطر دائماً للذهاب إلى أقاليم ما وراء النهر للتأكد من استقرار سلطته على هذه الأقاليم^(١)، واستطاع أن يخضع حركات التمرد في دولته، وأمر السلطان سنجر بجمع الضرائب من مدن العراق وجميع البلاد التي بسط نفوذه عليها وأصبح يلقب بالسلطان الأعظم «سلطان جميع الممالك السلجوقية» وامتد نفوذه إلى سائر البلاد حتى قيل إن الخطبة له وصلت إلى كاشغر، وأقصى بلاد اليمن ومكة والطائف ومكران وأذربيجان وغزنة وسمرقند، وخراسان وطبرستان، وكرمان، وسجستان، وأصفهان، وهمدان، والري، وآرنيه، وآرمينية، وبغداد والعراقين، والموصل، وديار بكر، وديار ربيعة^(٢)، والشام والحرمين، كما كانت تضرب له السكة في هذه الأقاليم جميعها، وأصبحت جميع هذه البلدان تخضع لنفوذ السلطان سنجر آخر السلاجقة العظام لأنه استطاع أن يعيد للدولة السلجوقية هيبتها ووحدتها، وأن يجعل كل أجزائها خاضعة لأمر سلطان واحد، وأعاد بذلك عصر السلاجقة العظام^(٣).

٢- النزاع بين محمود ومسعود ابني محمد بن ملكشاه: كثرت النزاعات وظهرت الفتن بين سلاطين السلاجقة في العراق أبناء السلطان محمود ملكشاه، وكذلك فيما بينهم وبين الخلفاء العباسيين، وكان للسلطان سنجر دور كبير في التدخل في تلك النزاعات وإخماد الفتن وقمعها والقضاء عليها لإقرار الأوضاع واستتباب الأمن في أجزاء الدولة السلجوقية^(٤)، فبعد أن تولى السلطان محمود أمر السلطنة جعل أخاه مسعوداً على الموصل مع أتاكبه جيوش بك، وفي سنة ٥١٤ هـ دب النزاع بين الأخوين وخرج مسعود عن طاعة السلطان محمود، وكان سبب ذلك أن دبيس بن صدقة صاحب الحلة، كاتب جيوش بك أتاك مسعود وأغراه بالعصيان على السلطان محمود، ووعد به بطلب السلطنة لمسعود وشرع جيوش بك في جمع العسكر وبلغ ذلك الخبر للسلطان محمود فأرسل إليه وإلى أخيه مسعود ووعدهما بالإحسان والصفح إن عادا إلى طاعته وتهدهما إن أصرا على معصيته ولم يستجيبا للسلطان محمود وواصلتا عصيانهما له. وسار كل من جيوش بك ومسعود نحو السلطان مسعود والتقى الجمعان عند أسد آباد^(٥) وسير محمود إلى السلطان سنجر القاضي أبا سعد الهروي، يفيده ويخبره بما استجد على الساحة من النزاع بينه وبين أخيه مسعود، وقد

(١) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر، ص ١٠١.

(٢) ديار ربيعة: تقع في إقليم الجزيرة بالعراق. (٣) زبدة التاريخ للحسيني، ص ١٨٠.

(٤) العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٦١٧.

(٥) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر، ص ١٠٦.

أسفر اللقاء عن هزيمة جيش مسعود وجيوش بك، وأسر أبو إسماعيل الحسين بن علي الطغرائي^(١)، وزير مسعود الذي قتله السلطان محمود، ثم أرسل مسعود إلى أخيه السلطان محمود يطلب منه الأمان والصفح، وجاء إليه وتعانقا وتصافيا، وأرسل السلطان محمود إلى السلطان سنجر يخبره بما فعل مع أخيه مسعود، فما كان من السلطان سنجر إلا أن سعد بتصافى الأخوين وإنهاء الخلاف والنزاع بينهما^(٢).

٣- البداية الفعلية للنزاع بين الخلافة العباسية والدولة السلجوقية: في سنة ٥١٩ هـ كانت البداية الفعلية للنزاع بين الخلافة العباسية والدولة السلجوقية، عندما لجأ ديبس بن صدقة إلى طغرل بن محمد حيث حسن له الاستيلاء على العراق وطلب السلطنة، فاستجاب طغرل لإغراء ديبس له فسار الاثنان على رأس جيش كبير إلى بغداد لقتال الخليفة المسترشد بالله والسلطان محمود بن محمد، وكان سبب مسيرة ديبس بن صدقة لحرب الخليفة ما بينهما من نزاع وخلاف، بينما كان هدف طغرل هو انتزاع لقب السلطان من أخيه محمود بن محمد، وحينما بلغ الخليفة أن طغرل وديبس بن صدقة أعدا جيشاً لقتاله، أعد هو الآخر جيشاً وخرج لصددهما إلا أن طغرل مرض فجأة ومن ثم لم يشارك في الحرب ضد الخليفة المسترشد بالله، وتقابل جيش الخليفة مع جيش ديبس بن صدقة، إلا أن ديبساً طلب العفو من الخليفة وقبل الأرض بين يديه، مما جعل الخليفة يصفح عنه^(٣).

٤- اضطراب الأحوال بين الخليفة العباسي المسترشد بالله والسلطان محمود: وكان سبب هذا الاضطراب بينهما أن الخليفة هدد الشحنة^(٤)، فاضطر إلى مغادرة بغداد خوفاً من أن يصيبه أذى فلاحق بالسلطان محمود الذي أغراه بالخليفة في رجب سنة ٥٤٠ هـ وحذره من الخليفة وأخبره أنه يعد العدة ضده ليمنعه من دخول بغداد، فلما علم الخليفة بذلك أرسل إليه يطلب منه تأجيل خروجه إلى حين إصلاح البلاد على أثر ما سببه ديبس وجيشه من فساد وكثرة الغلاء، ثم استعد الخليفة لإرسال المال على شرط أن يتأخر في القدوم إلى بغداد، فما كان جواب السلطان إلا أن نفذ ما قرره له الزكوى، وصمم العزم على التوجه إلى بغداد، ونزل بباب الشماسية^(٥)، فلما بلغ الخبر الخليفة العباسي المسترشد بالله عبر مع أهله إلى الجانب الغربي راحلاً من بغداد، فغضب السلطان لقوله وتوجه إلى بغداد وبقي الخليفة بالجانب الغربي، وكان لخطبته في عيد الأضحى أثر كبير في نفوس الناس

(١) وفيات الأعيان (٢/ ١٨٥ - ١٩٠).

(٢) دول الإسلام (٢/ ٤١).

(٣) الدولة السلجوقية في عهد سنجر، ص ١٠٧.

(٤) الشحنة: مندوب الخليفة أو السلطان ويرأس شرطة المدينة.

(٥) الشماسية: تقع خارج بغداد وينسب إليها باب الشماسية أحد أبواب بغداد.

طبع عليهم طابع الحزن مما هم فيه، ويبدو أن خطبة الخليفة أوعزت إليهم بالاستعداد لدخول الحرب مع السلطان محمود^(١).

٥- القتال بين عماد الدين زنكي وأحد خواص الخليفة: أرسل الخليفة المسترشد عفيفاً الخادم، أحد خواصه إلى واسط ليمنع عنها نواب السلطان، فوصلها ونزل بالجانب الغربي وكان عماد الدين زنكي بن آق سنقر^(٢)، بالجانب الشرقي، فأرسل عماد الدين زنكي إلى عفيف يطلب منه الرحيل فرفض، فعبر إليه عماد الدين وحدث القتال وانهزم عسكر عفيف وقتل منهم عدد كبير بالإضافة إلى الأسرى، وقد نجا عفيف من القتل ودخل جماعة من عسكر السلطان محمود في دار الخلافة في أول محرم سنة ٥٢١هـ ونهبوا التاج وحجر الخليفة، وخرج عليهم عسكر الخليفة العباسي المسترشد بالله من مخابثهم وهم منشغلون بالنهب، ونالوا من عسكر السلطان محمود وأسروا جماعة من الأمراء وقتل آخرون في الطريق^(٣)، ثم عبر الخليفة إلى الجانب الشرقي ومعه ثلاثون ألف مقاتل، وخوفاً من تسلل جيش السلطان محمود إلى بغداد أمر الخليفة الجند بجفر خندق حول بغداد فسارعوا بتنفيذ ذلك ليلاً، وعندما وصل جيش السلطان صعب عليه دخول بغداد مما أدى إلى حدوث قتال بين الجيشين، وكاد جيش الخليفة ينتصر لولا أن غدر بهم الأمير أبو الهيجاء الكردي^(٤) صاحب أربل، وانضم إلى جيش السلطان، ولعل الذي دفعه إلى هذا اعتقاده بكثرة جيش السلطان محمود خاصة بعد وصول الإمدادات العسكرية البرية والبحرية برفقة عماد الدين زنكي، هذا الموقف جعل الخليفة يفكر جدياً في الأمر خاصة بعد أن أرسل السلطان رسلاً بعرض الصلح عليه، وكان السلطان يهدف من وراء ذلك إلى إرضاء الخليفة لما يتمتع به من مكانة دينية عند الناس وتغاضيه في سبيله، وترددت الرسل بينهما ثم تم الصلح بينهما في العاشر من ربيع الآخر من السنة نفسها، وعفا السلطان محمود عن أهل بغداد وأهداه الخليفة المسترشد بالله مالاً وخيلاً وسلاحاً، ونظراً للمواقف السامية التي وقفها عماد الدين زنكي مع السلطان محمود، قام السلطان بالتشاور مع رجال دولته بإضافة ولاية العراق إليه، فلقى تأييداً منهم على ذلك^(٥)، ثم رحل السلطان محمود إلى همدان^(٦).

٦- حكمة السلطان سنجر في التعامل مع محمود ابن أخيه: أثار دبيس بن صدقة

(١) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر، ص ١٠٩.

(٢) عماد الدين زنكي مؤسس الدولة الزنكية سوف يأتي الحديث عنه بإذن الله.

(٣، ٤) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر، ص ١١٠.

(٥، ٦) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر، ص ١١١.

السلطان سنجر على كل من الخليفة العباسي المسترشد بالله والسلطان محمود وأخبره أنهما اتفقا على إبعاده وأن السلطان محمود خرج عن طاعته، مما أثار نفس سنجر عليه وهنا يتضح مدى الحقد في نفس ديبس على الخليفة وهذا يرجع إلى سوء علاقته بالخليفة، وقد استطاع أن يؤثر على السلطان سنجر مما دفعه إلى أن يسير جيشاً إلى العراق سنة ٥٢٢هـ، ولما وصل إلى الري أرسل في طلب السلطان محمود، وهنا يأتي دور الحنكة السياسية القوية التي تربطه بالسلطان محمود، حيث إنه ابن أخيه وزوج ابنته وكذلك تأثير والده سنجر (جدة محمود) عليه، كل هذا جعله يستدعي السلطان محمود من همذان كي يتثبت مما أخبره به ديبس بن صدقة وتؤكد سنجر أن السلطان محمود ما زال على طاعته وأجلسه معه على التخت، وأقام محمود عند السلطان سنجر حتى آخر هذه السنة ومن هذه الحادثة أو القصة يتضح لنا دور المفسدين وأصحاب الأغراض الخبيثة في التفريق بين أمراء المسلمين، فلا بد من الحذر من تقريب أمثال هذه النوعيات المفسدة وإبعادها عن أصحاب القرار والسعي لتقريب المصلحين من أصحاب الكفاءات العالية، لتتم الاستفادة الحقيقية من دروس التاريخ، وبعد ذلك عاد سنجر إلى خراسان وأوصى محموداً بإعادة ديبس إلى بلده وأن يسأل الخليفة الصفيح عنه، محرم سنة ٥٢٣هـ، وأعاد ديبساً إلى بلده واسترضى الخليفة فرضى عنه وطلب منه الصفيح فصفيح عنه^(١)، مقابل بذل مائة ألف دينار نظراً لرغبة السلطان محمود في انتقال ولاية الموصل من عماد الدين زنكي إلى ديبس بن صدقة تقديراً لاهتمام عمه سنجر به^(٢)، إلا أن عماد الدين زنكي أقنع السلطان محمود بأهميته في ولاية الموصل.

٧- السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي: استمر النزاع بين أبناء البيت السلجوقي بعد وفاة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه عام ٥٢٥هـ، فقد انقسم السلاجقة أنفسهم إلى معسكرات ثلاثة، لكل أطماعه الخاصة في السلطنة، ولكل مؤيدوه من القواد والجنود؛ معسكر على رأسه داود بن السلطان محمود الذي نودي به سلطاناً عقب وفاة أبيه، ومعسكر على رأسه كل من مسعود وسلجوقشاه شقيقي السلطان المتوفى، ومع أن هذين الأخوين كانا متفقين على مبدأ عزل ابن أخيهما داود، إلا أنهما كانا مختلفين فيما بينهما، إذ كل منهما يعمل على أن تكون السلطنة لنفسه بعد إسقاط عدوهما المشترك، ولذا دارت بين الفريقين حروب طويلة، واستعان مسعود في هذا النزاع بعماد الدين زنكي الذي كان قد استطاع أن يوطد سلطانه في شمال العراق وسوريا في ذلك الوقت، واستمرت الحرب سجالاً

(١) العبر في خبر من غير (٤/ ٥٠)، الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر، ص ١١٢.

(٢) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر، ص ١١٢.

بين الأخوين المتحاربين إلى أن اضطرا إلى عقد الصلح بعد أن تدخل الخليفة المسترشد العباسي بينهما، واتفق الطرفان على أن تكون السلطنة لمسعود، وأن تؤول إلى سلجوقشاه من بعده ويرجع السبب في نجاح مسعى الخليفة في هذا الصلح إلى ظهور العدو المشترك، وهو سنجر بن ملكشاه وأما المعسكر الثالث فكان يتكون من طغرل بن السلطان محمود، يناصره عمه سنجر، وقد استطاع سنجر أن يجمع من إقليم خراسان عدداً كبيراً من الجند هزم به مسعوداً وأنصاره عند مدينة همذان، ونادى بالسلطنة لابن أخيه طغرل^(١). ولم يكن من المعقول أن يرضى المعسكران الآخران عن تولية طغرل السلطنة؛ لذا تضاربت مصالح البيت السلجوقي وتعتقدت، فنشبت الحروب بين هذه القوى الثلاث، وأدى ذلك كله إلى اضطراب الشرق الإسلامي في ذلك الوقت وقد انتهت أدوار النزاع بين أفراد السلاجقة بجلوس السلطان مسعود على عرش السلطنة عام ٥٢٨هـ، قال ابن خلكان عن السلطان مسعود: كان عادلاً ليناً، كبير النفس، فرق مملكته على أصحابه وما ناواه أحد إلا وظفر به، وقتل خلقاً من كبار الأمراء... وأقبل مسعود على اللذات والبطالة، وحدث له علّة الغثيان مدة، وجرت بينه وبين عمه سنجر منازعة ثم تصالحا^(٢). كان كثير المزاح، حسن الخلق كريماً، غفياً عن أموال الرعية، من أحسن السلاطين سيرة والينهم عريكة^(٣). قال عنه الذهبي: أبطل مكوساً ومظالم كثيرة، وعدل، واتسع ملكه، وكان يميل إلى العلماء والصالحين، ويتواضع لهم^(٤). ويستجيب للوعظ ففي يوم الجمعة المنتصف من ذي القعدة جلس ابن العبادي الواعظ، فتكلم والسلطان مسعود حاضر، وكان قد وضع على الناس مكساً في البيع فاحشاً فقال في جملة وعظه: يا سلطان العالم، أنت تطلّق في بعض الأحيان للمعني إذا طربت قريباً ثم وضعت على المسلمين من هذا المكس فهبني مغنياً وقد طربت فهب لي هذا المكس شكراً لنعم الله عليك وأسقطه عن الناس، فأشار السلطان بيده أن قد فعلت فضج الناس بالدعاء له، وكتب بذلك سجلات، ونودي في البلد بإسقاط ذلك المكس، وفرح الناس بذلك^(٥). كان السلطان مسعود بطلاً شجاعاً، ذا رأي وشهامة، تليق به السلطنة^(٦) مات في جمادي الآخرة سنة سبع وأربعين وخمسمائة. قال عنه ابن كثير: حصل له من التمكن والسعادة شيء كثير لم يحصل لغيره، وجرت له خطوب كثيرة وحروب طويلة^(٧).

- وفاة السلطان مسعود عام ٥٤٧هـ: توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان عام ٥٤٧هـ، وعهد إلى ابن أخيه ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد، وخطب له

(١) الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، ص ٥٨. (٢) سير أعلام النبلاء (٢٠/٣٨٥).

(٣، ٤) المصدر نفسه (٢٠/٣٨٥).

(٥) البداية والنهاية (١٦/٣٤٠).

(٦) سير أعلام النبلاء (٢٠/٣٨٥).

(٧) البداية والنهاية (١٦/٣٦٧).

ببلاد الجبل، وكان الغالب على البلاد والعساكر أيام السلطان مسعود خاصبك بن بلنكري، فقام بأمر ملكشاه، ولم يمهله غير قليل حتى قبض عليه، وكتب إلى أخيه الملك محمد بن محمود، وهو بخوزستان، يستدعيه إليه ليخطب له بالسلطنة، وكان غرض خاصبك أن يقبض عليه أيضاً فيخلو وجهه من منازع من السلجوقية وحينئذ يطلب السلطنة لنفسه، فلما كاتب محمداً أجابه على الحضور عنده، وسار إليه وهو بهمدان، واجتمع به وخدمه خدمة عظيمة، فلما كان الغد دخل عليه خاصبك فقتله محمد، وألقى رأسه إلى أصحابه، ففرقوا، واستقر محمد وثبت قدمه، واستولى على بلاد الجبل جميعها، وكان قتل خاصبك سنة ثمان وأربعين وبقي مطروحاً حتى أكلته الكلاب^(١) وذكر الوزير يحيى بن هبيرة في كتاب «الإفصاح» أنه لما تناول على الخليفة المقتفي أصحاب مسعود وأساءوا الأدب، ولم يمكن المجاهرة بالمحاربة، اتفق الرأي على الدُّعاء على مسعود بن محمد شهراً، كما دعا رسول الله ﷺ على رغل وذكوان^(٢) وهما قبيلتان من بني سُلَيْم، أجابتا عامر بن الطفيل إلى قتل القراء الدعاة الذين بعثهم رسول الله ﷺ لأهل نجد سنة ٤هـ، وسموا قتلى بثر معونة^(٣). واستمر الوزير يحيى ابن هبيرة والخليفة المقتفي في الدُّعاء شهراً، فابتدأ هو والخليفة سراً، كل واحد في موضعه يدعو شهراً، من ليلة تسع وعشرين من جمادى الأولى سنة سبع وأربعين وخمسمائة واستمر الأمر على ذلك كل ليلة، فلما كان ليلة تسع وعشرين من جمادى الآخرة كان موت مسعود على سريرته، لم يزد على الشهر يوماً ولا نقص يوماً.. فأزال الله يده ويد أتباعه عن العراق، وأورثنا أرضهم وديارهم، فتبارك الله رب العالمين، محجب دعوة الدّاعين. قال: وكان الشيخ محمد بن يحيى يقول: لا أدلّ على وجود موجود أعظم من أن يُدعى فيجيب^(٤).

سابعاً: الخليفة المسترشد بالله العباسي:

هو أمير المؤمنين أبو منصور الفضل بن المستظهر بالله أحمد بن المقتدي بأمر الله عبد الله بن محمد بن القائم عبد الله بن القادر القرشي الهاشمي العباسي البغدادي^(٥).

١- بيعته: بويغ له بالخلافة سنة ٥١٢هـ، وخطب له على المنابر وقد كان ولي العهد من مدة ثلاث وعشرين سنة، وكان الذي أخذ البيعة له قاضي القضاة أبو الحسن الدّامغاني، ولما استقرت البيعة له هرب أخوه أبو الحسن في سفينة ومعه ثلاثة نفر، وأحسن إليه، فقلق المسترشد بالله من ذلك فراسل دُبَيْساً في ذلك مع نقيب النقباء الزّيني، فهرب أخو الخليفة

(٢) المصدر نفسه (١/٢٨٧).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/٢٨٧).

(٣) سيرة ابن هشام (٣/١٩٣ - ١٩٩).

(٥) سير أعلام النبلاء (١٩/٥٦١).

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/٢٨٨).

من دبّيس فأرسل إليه جيشاً فالجأوه إلى البرية، فلحقه عطش شديد فلقّيه بدويّان فسقياه ماء وحمله إلى بغداد، فأحضره أخوه إليه، فتعانقا وبكيا، وأنزله الخليفة داراً كان يسكنها قبل الخلافة وأحسن إليه، وطيب نفسه، وكان مُدّة غيبته عن بغداد أحد عشر شهراً واستقرت الخلافة بلا منازعة للمسترشد^(١).

٢- من صفاته وشعره: كان له خط بديع، ونثر صنيع، ونظم جيّد، مع دين ورأي وشهامة وشجاعة، وكان خليفاً للإمامة، قليل النظر^(٢)، كان يتنسك في أوّل زمنه، ويلبس الصوف، ويتعبد، وختم القرآن، وتفقه، ولم يكن من الخلفاء من كتب أحسن منه، وكان يستدرك على كتابه، ويصلح أغاليط في كتبهم^(٣)، وكانت أيامه مكدّرة بتشويش المخالفين، وكان يخرج بنفسه لدفع ذلك ومباشرته، إلى أن خرج، فكُسّر وأسر، ثم استشهد على يد الملاحدة، وقد سمع الحديث^(٤)، وكان له نظم ونثر مليح ونبل رأي^(٥) وكان شاعراً فمن شعره:

قالوا تُقيم وقد أحاط	بك العدو ولا تُفرُّ
فأجبتهم: المرء مالم	يستعظ بالوعظ غرُّ
لا نلت خيراً ما حييت	ولا عداني الذّهر شرُّ
إن كنت أعلم أن غير	الله ينفع أو يضُرُّ

ومن شعره أيضاً:

أنا الأشقر الموعود بي في الملاحم

ستبلغ أرض الروم خيلي وتُنضى
وقيل: إنه قال لما أسر مستشهداً:

ولا عجباً للأسد إن ظفرت بها
فحربة وحشي سقت حمزة الرّدى

٣- جهود الخليفة المسترشد بالله في إرجاع هيبة الخلافة: قام الخليفة المسترشد بالله

(٢) سير أعلام النبلاء (١٩/٥٦١).

(١) البداية والنهاية (١٦/٢٣٧).

(٣، ٤، ٥) المصدر نفسه (١٩/٥٦٢).

(٧) المصدر نفسه (١٩/٥٦٣).

(٦) سير أعلام النبلاء (١٩/٥٦٢).

بأعمال إصلاحية جذبت إليه تأييد الناس، ثم دعاهم للجهاد ضد المتمردين الذين عاثوا فساداً في بغداد وما حولها وبخاصة ديبس بن صدقة صاحب الحلة ودخلت أعداد كبيرة تحت راية الخليفة الذي قادهم ضد ديبس وانتصر عليه^(١) في عام ٥٢٦هـ، وكان لهذا الانتصار أثر كبير في نفوس الناس فكسب الخليفة تأييد الرأي العام وولاءه واستطاع أن يستعيد بعض نفوذه السياسي^(٢). وفي عهد الخليفة المسترشد بالله، بدأت حركة اليقظة الشعبية العامة في بغداد والتي كان من زعمائها الشيخ عبد القادر الجيلاني، وسيأتي الحديث عنه لاحقاً عند حديثنا عن الزنكيين ودورهم في الجهاد ضد الصليبيين بإذن الله تعالى.

٤ - حصار الخليفة المسترشد بالله للموصل: حاصر الخليفة المسترشد بالله الموصل قرابة ثلاثة شهور، ولم تجد نفعاً عروض عماد الدين زنكي بدفع الأموال للخليفة مقابل أن يفك الحصار عن هذه المدينة، ولما أدرك الخليفة عدم جدوى الحصار عاد إلى بغداد^(٣)، ويظهر أن عماد الدين زنكي خشي مغبة خلافه مع الخلافة العباسية، فأراد أن يصلح ما أفسده سابقاً بعدائه لها، فأرسل في سنة ٥٢٨هـ إلى الخليفة المسترشد بالله أحد قضاة الموصل، ومعه التحف والهدايا والخيل والسلاح طالباً الصلح، فوافق الخليفة^(٤)، وكانت موافقة الخليفة على الصلح مع عماد الدين زنكي أكبر دليل على حكمته وحنكته السياسية حيث أتاح له هذا الصلح التفرغ الكامل للسلاجقة فضلاً عن كونه استطاع أن يحول عداؤ زنكي إلى صداقة وولاء^(٥).

٥ - القتال بين الخليفة والسلطان مسعود ووقوعه في الأسر ومقتله: لم تنته متاعب الخليفة المسترشد بالله مع السلاجقة، فقد نقض السلطان مسعود اتفاقه مع الخليفة، فكان رد الفعل المباشر لهذا هو قطع الخطبة له في بغداد، كما أن السلطان مسعود ضعفت سلطته ٥٢٨هـ بعد أن انضم معظم عسكره إلى أخيه طغرل^(٦)، على أن الخليفة المسترشد بالله ما لبث أن دعا مسعوداً إلى القدوم إلى بغداد يعيده إلى منصبه، فلبى مسعود دعوته^(٧)، وكان هدف الخليفة هو الاستفادة قدر الإمكان من نزاع السلاجقة لإضعافهم، ولهذا أخذ يحرض السلطان مسعود على السير لحرب أخيه طغرل. ولكن السلطان مسعوداً لم يجب طلبه^(٨)، وتجدد الخلاف بعد ذلك بين الخليفة المسترشد بالله وبين السلطان مسعود، فقد اكتشف وزير الخليفة خطباً أرسله طغرل إلى بعض الأمراء المواليين له في بغداد، فقبض الخليفة على

(١) سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية، أحلام النقيب، ص ١١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢. (٣) مختصر الدول لابن العبري، ص ٣٥٤.

(٤) الأنباء في تاريخ الخلفاء لابن العمراني، ص ٢١٨.

(٥، ٦، ٧، ٨) نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ٥٤.

أحدهم، بينما لجأ الباقون إلى السلطان مسعود ورفض أن يسلمهم للخليفة، فغضب الخليفة منه، وأمره بالرحيل عن بغداد فخرج منها في شهر ذي الحجة من عام ٥٢٨هـ^(١). غير أن الخليفة علم بمسير طغرل على رأس جيشه إلى العراق، فاضطر إلى مصالحة السلطان مسعود ليقفا معاً في وجه عدوهما المشترك^(٢)، ثم جاءت الأخبار بوفاة طغرل وهو في طريقه إلى بغداد، فسار السلطان مسعود إلى همذان، وتولى الحكم في أول عام ٥٢٩هـ^(٣)، ولما استقرت السلطنة لمسعود في همذان، أخذ الأمراء الذين لجأوا إليه خوفاً من الخليفة يجرؤونه على المسير لحرب الخليفة لإخضاعه للنفوذ السلجوقي، فانصاع السلطان مسعود إليهم، وأخذ يجهز جيشه لمهاجمة بغداد مما حمل الخليفة على قطع الخطبة له، وأخذ يعد العدة لحربه^(٤)، ثم خرج الخليفة المسترشد بالله من بغداد لقتال السلطان مسعود، ويذكر ابن الأثير أن جيش الخليفة المسترشد بالله كان سبعة آلاف جندي، بينما لم يتجاوز جيش عدوه ألفاً وخمسمائة جندي، إلا أن السلطان مسعود لجأ إلى السياسة وأخذ يستميل أمراء الأطراف الذين كانوا على اتصال بالخليفة. ولكن تريت الخليفة في الطريق ساعد السلطان مسعوداً على استمالة أولئك الأمراء، وضمهم إلى جيشه، وكان الخليفة يعتقد أنه إذا خرج للقتال فيكون الناس إلى جانبه ضد السلاجقة^(٥)، لكن الأمور لم تسر وفق ما خطط لها المسترشد بالله، بل حدث العكس، فلما التقت قواته بجيش السلطان مسعود، غدر به الأمراء الأتراك وأتباعهم فانسحبوا من جيشه، وانضموا إلى جيش السلاجقة، فانهزم جيش الخلافة، ووقع الخليفة نفسه في الأسر^(٦)، مع خواصه، فحبسهم السلطان مسعود بقلعة بقرب همذان، فبلغ أهل بغداد ذلك فحثوا على رءوسهم التراب في الأسواق، وبكوا وضجّوا، وخرجت النساء حاسرات يندبن الخليفة ومنعوا الصلاة والخطبة وكسروا منابر الجوامع^(٧). قال ابن الجوزي: وزلزلت بغداد مراراً كثيرة والناس يستغيثون فأرسل السلطان سنجر إلى ابن أخيه مسعود يقول: ساعة وقوف الولد على هذا الكتاب يدخل على أمير المؤمنين ويقبل الأرض بين يديه ويسأل العفو والصفح، فقد ظهر عندنا من الآيات السماوية والأرضية ما لا طاقة لنا بسماع مثلها فضلاً عن المشاهدة من العواصف والبروق والزلازل وتشويش العساكر وانقلاب البلدان. ولقد خفت على نفسي من جانب الله تعالى وظهور آياته وامتناع الناس من الصلوات في الجوامع ومنع الخطباء مما لا طاقة لي بحمله، فالله الله بتلافي أمرك وتعيد أمير

(١) المنتظم (٣٦/١٠).

(٢) المصدر نفسه (٤١/١٠).

(٣) نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ٥٤.

(٤) المنتظم (٤٣/١٠).

(٥) نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ٥٥.

(٦) المنتظم (٤٤/١٠).

(٧) أخبار الدول وآثار الأول (١٦٩/٢).

المؤمنين إلى مقر عزه وتحمل الغاشية بين يديه ^(١)، كما جرت به عادة السلاطين من قبلنا، ففعل السلطان مسعود جميع ما أمر به وهم فيما هم فيه، إذ هجم سبعة عشر رجلاً من الباطنية على الخليفة وهو في خيمته، فقتلوه وقتلوا معه جماعة من أصحابه ^(٢)، فما شعر بهم العسكر إلا وقد فرغوا من شغلهم فأخذوهم وقتلوهم، فلما وصل الخبر إلى بغداد واشتد ذلك على الناس وخرجوا حفاة مخرقي الثياب والنساء ناشرات الشعور، يلطمن على خدودهن، ويقلن المراثي، لأن المسترشد كان محبباً فيهم ^(٣)، وكانت دولته سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وعاش ستاً وأربعين سنة ^(٤).

ثامناً: الخليفة الراشد بالله :

أمير المؤمنين أبو جعفر منصور بن المسترشد بالله الفضل بن أحمد العباسي، ولد سنة اثنتين وخمسمائة في رمضان، فقيل: ولد بلا مخرج ففتق له مخرج بآلة من ذهب، وأمه أم ولد خطب له بولاية العهد سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، واستخلف في ذي القعدة سنة تسع وعشرين ^(٥). وقد بايعه الأعيان ببغداد والأمراء، وخطب له على المنابر ببغداد وسائر البلاد ^(٦).

١ - الخلاف بين السلطان مسعود والخليفة الراشد: وقع الخلاف بين الخليفة والسلطان بسبب أنه أرسل إلى الخليفة يطلب منه ما كان كتب له والده المسترشد حين أسره، التزم به بأربعمائة ألف دينار، فامتنع من أداء ذلك وقال: ليس بيننا وبينكم إلا السيف فوقع بينهما الخلاف، فاستجاش السلطان العساكر، واستنهض الخليفة الأمراء وأرسل إلى عماد الدين زنكي فجاء، والتفّ عليه خلائق، وجاء في عُيون ذلك السلطان داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه، فخطب له الخليفة في بغداد وخلع عليه وبايعه على الملك، فتأكدت الوحشة بين السلطان والخليفة جدّاً، وبرز الخليفة إلى ظاهر بغداد، ومشى الجيش بين يديه، كما كانوا يعاملون به أباه قبله، وخرج السلطان داود من جانب، فلما بلغهم كثرة جيوش السلطان مسعود حسنّ عماد الدين زنكي للخليفة أن يذهب معه إلى بلاد الموصل واتفق دخول السلطان مسعود إلى بغداد في غيبتهم، فاستحوذ على دار الخلافة بما فيها جميعه، ثم استخلص من نساء الخليفة وحظاياها الحليّ والمصاغ والثياب التي للزينة، وغير ذلك ^(٧).

(١) الغاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب.

(٢) أخبار الدول وآثار الأولى (٢/ ١٧٠).

(٣) المصدر نفسه (٢/ ١٧٠)، التبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، ص ١٣٩.

(٤) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٦٧).

(٥، ٦) سير أعلام النبلاء، (١٩/ ٥٦٩).

(٧) المصدر نفسه (١٦/ ٣٠٩).

وهذا ظلم وعسف وجور.

٢- عزل الخليفة الراشد: جمع السلطان مسعود القضاة والفقهاء وأبرز لهم خط الراشد أنه متى خرج من بغداد لقتال السلطان فقد خلع نفسه من الخلافة فأفتى الفقهاء بخلعه، فخلع في يوم الإثنين سادس عشر من شهر ذي القعدة بحكم الحاكم وفتياً أكثر الفقهاء^(١). وجاء في رواية عن خلعه:.. اجتمع الوزير أبو القاسم علي بن طراد الزيني، وكاتب الإنشاء ابن الأنباري وصاحب المخزن أبو الفتوح طلحة يوم الإثنين سادس عشر من ذي القعدة سنة ثلاثين، وكتبوا محضراً فيه شهادة جماعة من العدول بما جرى من الراشد بالله من الظلم وأخذ الأموال، وسفك الدماء، وشرب الخمر وذكروا فسقه وعدوا أفعاله وارتكابه المحارم واستفتوا الفقهاء فيمن فعل ذلك، هل تصح إمامته أم لا؟ وهل إذا ثبت فسقه بما ذكر عنه يجوز لسلطان الوقت أن يخلعه، ويستبدل به من أهل بيته من هو خير منه طريقة ودينياً؟ فأفتى الفقهاء الذين في ذلك الوقت بخلعه، وفسخ عهده، وحل عقده، والاستبدال به غيره إذا كان بهذه الصفة، وعرضت هذه الفتوى والمحضر على السلطان مسعود، فقال: هذا أمر قد قلدتكم إياه وأنا منه بريء عند الله. ثم قال: اختاروا رجلاً من هذا البيت يصلح لهذا الأمر، فوقع الاختيار بواسطة الزيني أن يولي أبا عبد الله محمد بن المستظهر بالله، فلما كان يوم الثلاثاء السابع عشر من ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسائة، حضر السلطان مسعود والجماعة الذين حضروا دار الخلافة في الدار التي على دجلة، وتعرف بالثمينة، وأحضر أبو عبد الله، محمد بن المستظهر بالله ولقب بالمقتفي لأمر الله، وعاد السلطان مسعود إلى داره، ثم فتح باب الدار القائمة، بكرة يوم الأربعاء، ثامن عشر ذي القعدة، فبايعه الفقهاء والقضاة والشهود وأعيان الناس، ثم خلع الراشد وكان مقيماً بالموصل^(٢). وهذه الفتوى كان لها حظ من سخط السلطان مسعود على الخليفة الراشد ولولا الخلاف الذي وقع بين الخليفة والسلطان لما سمعنا بها أصلاً.

٣- تتبع السلطان مسعود للراشد: كتب السلطان مسعود إلى عماد الدين زنكي أمير الموصل في القبض على الراشد وإرساله إلى بغداد، فمنعه من ذلك زين الدين أبو الحسن علي بن بكتكين صاحب أربل وقال لعماد الدين: هو ضيف عندنا وفي كرامتنا وقد كان بالأمس خليفتنا، والله لا سلمناه، ولو أريق دونه الدماء ما دامت الأرض والسماء، فاعتذر عماد الدين للسلطان مسعود وقال: إني أخرجته من ولايتنا، فأرسل إليه أنت عسكرياً يقبض

(١) سير أعلام النبلاء، (١٦/٣٠٩).

(٢) النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، ص ١٤١.

عليه في غير جهتنا، وأعد له زين الدين جماعة من الأكراد، فساروا بين يديه على طريق قريبة لا يعرفها من الناس إلا آحاد أو بعض آحاد فوصل مراغة أذربيجان^(١).

٤- مقتل الراشد: كان الراشد حسن السيرة، مؤثراً للعدل، فصيحاً عذب العبارة، أديباً شاعراً، جواداً، لم تطل أيامه حتى خرج إلى الموصل ثم إلى أذربيجان، وعاد إلى أصبهان، فأقام على بابها مع السلطان داود محاصراً لها، فقتلته الملاحدة - الباطنية - هناك وكان بعد خروجه من بغداد محجىء السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه^(٢)، ومن كلامه الجميل: إنا نكره الفتن إشفاقاً على الرعية ونؤثر العدل والأمن في البرية، ويأبى المقدور إلا تصعب الأمور واختلاط الجمهور، فنسأل الله العون على لم شعث الناس بإطفاء نائرة الباس^(٣)، وقد أعطى الله الراشد مع الخلافة صورة يوسفية وسيرة عمرية^(٤). وقد ذكر الذهبي في مقتله؛ بأن الراشد خرج من الموصل إلى بلاد أذربيجان إلى مراغة وكان معه جماعة فصادروا أهلها، وعاثوا ثم ذهبوا إلى همدان فقتلوا بها، وحلقوا لحي جماعة من الفقهاء، وعتوا ومضوا إلى نواحي أصبهان، فانتهبوا القرى، وحاصروا البلد في جمع من أجناد داود بن محمد بن محمد بن ملكشاه، فمرض الراشد مرضاً أشفى منه، بلغنا أن جماعة من العجم فراشين كانوا في خدمته، اتصلوا به هناك، فدخلوا عليه في رمضان سنة اثنتين وثلاثين فقتلوه بالسكاكين، وقتلوا بعده كلهم. وقيل: كان قد سقي سُمّاً، ثم دفن بالمدينة العتيقة في حجرة من بناء نظام الملك وجاء الخبر إلى عمه المقتفي، فعقدوا له العزاء يوماً واحداً^(٥). ومع محجىء عهد المقتفي يبدأ عصر جديد للدولة العباسية حيث حرص على إعادة هبة الخلفاء بذكاء ودهاء ونجح في ذلك إلى حد كبير، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

تاسعاً: مظاهر السيطرة السلجوقية على الخلافة:

على الرغم من أن السلاجقة دخلوا بغداد بدعوة من الخليفة العباسي القائم فإنهم عدوا أنفسهم فاتحين ومنقذين للخلافة العباسية التي هدد زوالها النفوذ الفاطمي، وأصبح الجيش السلجوقي هو جيش الخلافة^(٦)، لذا لم تختلف علاقة السلاجقة مع خلفاء بني العباس عن علاقة البويهيين بالخلافة، على الرغم من اختلاف النظرة الدينية للسلاجقة إلى الخلافة، فعلى الرغم من اعترافهم بشرعية الخليفة العباسي باعتباره خليفة الله فإن هذا الأمر

(١) النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، ص ١٤٣.

(٢) سير أعلام النبلاء (١٩/٥٦٩).

(٣) (٤، ٣) سير أعلام النبلاء (١٩/٥٧٠).

(٥) سير أعلام النبلاء (١٩/٥٧٢).

(٦) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية، ص ٢٤٣.

لم يغير من العلاقة بين السلاجقة والخلفاء العباسيين كثيراً وازداد نفوذ السلاجقة في العراق بعد أن قضى طغرل بك على حركة البساسيري، فسيطر على البلاد جميعاً وتنازل الخليفة له عن صلاحياته حيث فوض إليه الأمور، وانزوى في قصره يعيش على وارد بعض الإقطاعات التي خصصها له السلاجقة. ومن مظاهر السيطرة السلجوقية على الخلافة:

١- نقل مقر الحكومة خارج بغداد: لم يتخذ سلاطين السلاجقة بغداد مقراً لحكمهم، بل جعلوا العراق إقليماً من أقاليم دولتهم الواسعة، وأرسلوا نواباً عسكريين ولم تعد بغداد مقر الحكومة في الإسلام^(١)، فقد تنقل السلاجقة بين مرو وأصفهان وهمدان وأنابوا عنهم في حكم العراق موظفاً سلجوقياً يعرف بالعميد وهو نائب السلطان في بغداد وموظف آخر يعرف بالشحنة وهو مسئول عن الأمن في بغداد، ووضعت تحت تصرفهما قوة من الجند السلجوقي^(٢).

٢- الإصهار إلى البيت السلجوقي: ظهرت في عصر السيطرة السلجوقية مسألة إصهار السلاجقة إلى البيت العباسي وذلك لتوثيق علاقتهم بالخلفاء ولنيل الشرعية الدينية والسياسية وعلى الرغم من أن الخلفاء أرغموا على هذه المصاهرة إلا أنهم حاولوا من ورائها تحقيق مكاسب سياسية كبقائهم في الحكم وضمان سلامتهم واستمرار الدعم السلجوقي لهم، ففي سنة ٤٥٣هـ طلب طغرل بك من الخليفة القائم ابنته، فدهش الخليفة وغضب غضباً شديداً^(٣)، إلا أن ضعف الخليفة وضغط السلطان وتهديده أجبره على الموافقة وتزوج الخلفاء من بنات السلاطين، فقد تزوج القائم من ابنة أخ السلطان طغرل بك^(٤).

٣- تفويض السلطة: تنازل الخلفاء عن سلطاتهم واكتفوا باسم الخلافة واستقبال الملوك والسلاطين وتقديم العهود والخلع وفوضوا الأمور إلى السلاطين السلاجقة، ففي سنة (٤٤٩هـ) فوض الخليفة القائم بأمر الله السلطان طغرل بك تفويضاً كاملاً بالسلطة، إذ قال عن طريق الترجمان: إن أمير المؤمنين حامد لسعيك شاكر لفضلك، آنس بقربك... وقد ولاك جميع ما ولاه الله تعالى من بلاده ورد إليك فيه مراعاة عباده فاتق الله فيما ولاك^(٥). وفوض الخليفة المقتدي بأمر الله السلطان ملكشاه سنة ٤٧٩هـ، أمر البلاد والعباد^(٦) وبهذا التفويض

(١) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية، ص ٢٤٣.

(٢) المنتظم (٢١٦/٨).

(٣) المصدر نفسه (٨/٣٢٢، ٩/١٥٩، ١٠/٨٥).

(٤) المصدر نفسه (٨/١٨٢)، تاريخ آل سلجوق، ص ١٦.

(٥) تاريخ آل سلجوق، ص ٧٩، ٨٠.

يكون الخلفاء قد جردوا أنفسهم من كل نفوذ ومع هذا فقد أحصى السلاجقة على الخلفاء حركاتهم، ودسوا بينهم موظفين يقومون بمراقبتهم ورفع المطالعات عن تحركاتهم^(١).

٤- ولاية العهد: تدخل السلاجقة في تعيين ولي العهد، فبعد أن عين الخليفة المقتدي بالله ابنه الأكبر المستظهر بالله ولياً للعهد اعترض السلطان ملكشاه، وأراد أن يكون جعفر ابن الخليفة من ابنة السلطان ملكشاه ولياً للعهد بدل المستظهر، ولما رفض المقتدي، قدم ملكشاه إلى بغداد سنة ٤٨٥هـ عازماً على خلع الخليفة حيث كتب إليه: تخرج من بغداد وتسكن أي بلد شئت، فطلب المقتدي أن يمهل شهرًا، فقال ملكشاه: ولا ساعة واحدة، وبعد وساطة تاج الملك وزير ملكشاه وافق على أن يؤخره عشرة أيام^(٢)، إلا أن وفاة السلطان فجأة أنقذت الخليفة^(٣)، ويروي أن السلطان ملكشاه فكر في نقل مركز الخلافة إلى أصفهان، إلا أن وفاته أمانت المحاولة^(٤) وعلى الرغم من أن السلاجقة تدخلوا في تعيين ولي عهد الخليفة فإنهم تجاوزوا موافقته أو حتى إعلام الخليفة في حالة تعيين السلاطين لمن يخلفهم، ففي سنة ٤٥٨هـ أخذ السلطان ألب أرسلان العهود والمواثيق لولده ملكشاه وخلع على جميع الأمراء وأمرهم بإقامة الخطبة له في جميع البلاد الخاضعة لنفوذه^(٥).

٥- شارات الخلافة: تظهر سلطة السلاطين ونوابهم على الخلافة من خلال استيلائهم على شاراتها وعدوها حقاً من حقوقهم لا ينازعهم فيها أحد، فقد ذكرت أسماء السلاطين في خطبة الجمعة في بغداد^(٦)، وضربت أسماؤهم وألقابهم على السكة^(٧). وحذا نواب السلاجقة حذو سلاطينهم، فشارك بعضهم الخليفة العباسي امتيازاته، فكانت الطبول تقرر على باب كوهرائين شحنة بغداد في أوقات الصلوات^(٨)، وقرعت الطبول أمام دار الوزير السلجوقي مؤيد الملك بن نظام الملك أثناء إقامته في بغداد سنة ٤٧٥هـ وعد ذلك من منكرات الأحداث^(٩).

٦- الألقاب: تجاوز السلاطين السلاجقة الحد في اتخاذهم الألقاب التي تعكس قوتهم وسلطانهم من جهة وضعف الخلافة من جهة أخرى، فنقشت ألقابهم على السكة وكتبت في المخاطبات فعند دخول طغرل بك بغداد لقبه الخليفة القائم بلقب ركن الدولة يمين أمير المؤمنين^(١٠)، ثم تلقب بلقب ملك المشرق والمغرب^(١١)، وتلقب السلطان ألب أرسلان

(١، ٢) المنتظم (٩/ ٦٢).

(٤)، (٥)، (٦)، (٧) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة، ص ٢٤٥.

(٨)، (٩) المصدر نفسه، ص ٢٤٦.

(١٠) راحة الصدور، ص ١٦٩.

(١١) المنتظم (٨/ ١٨١، ١٨٣)، أخبار الدولة السلجوقية، ص ١٧، ١٨.

بلقب عضد الدولة برهان أمير المؤمنين^(١)، وبعد موقعة ملاذكرد سنة ٤٦٣ هـ التي انتصر فيها السلاجقة على الروم وأسروا الإمبراطور رومانوس ذكره الخليفة القائم بخطاب التهئة (الولد السيد الأجل) المؤيد المنصور المظفر، السلطان الأعظم مالك العرب والعجم، سيد ملوك الأمم، ضياء الدين غياث المسلمين، ظهير الإيمان، كهف الأنام، عضد الدولة القاهرة، تاج الملة الباهرة، سلطان ديار المسلمين برهان أمير المؤمنين^(٢)، وعرف السلطان ملكشاه بن أرسلان بلقب السلطان معز الدنيا والدين قسيم أمير المؤمنين^(٣)، ثم لقب بلقب السلطان المعظم شاهنشاه ركن الإسلام معز الدنيا والدين ومولى العرب والعجم، سلطان أرض الله ركن الإسلام والمسلمين يمين أمير المؤمنين^(٤).

٧- إعادة تشكيل الجيش: حرمت الخلافة العباسية خلال فترة السيطرة العسكرية على مقاليد الأمور فيها من القوة العسكرية التي تدين لها بالولاء، ومُنذ مقتل المتوكل أصبح الجند المتعددي الأجناس يدينون بولائهم إلى قادتهم أكثر من ولائهم للخليفة، وهم لا يقاتلون عن دين ولا حمية ولا غيرة على سيادة الدولة، بل تتحكم في تصرفاتهم مصالحهم الشخصية من أموال وسيطرة ونفوذ، واستمر حال الخلافة على هذا الوضع بعد أن فقدت السيطرة على الجند الذين تنقلوا من قائد إلى آخر بحثاً عن الامتيازات، ولكي يتخلص الخليفة من تدخلاتهم وتجاوزاتهم وشغبهم المتواصل للمطالبة بالأموال استحدث منصب أمير الأمراء وهو القائد العام للجيش، ومن الطبيعي أن يكون لكل أمير من الأمراء جيش خاص يدين له بالولاء، ولفشل أمير الأمراء في السيطرة على الجيش، ازداد الاضطراب والفوضى فاستعان الخليفة بقوة البويهيين العسكرية، ولسيطرة البويهيين على الخلافة لم تعد الخلافة تملك جيشاً قائماً حتى بالشكل الذي عرفته سابقاً بعد أن أصبح الجيش البويهي هو جيش الخلافة وحاميها، وكذلك هذا السلاجقة حذو البويهيين بموقفهم من جيش الخلافة حيث لم يسمحوا للخليفة بتجنيد الجنود أو اتخاذ حرس خاص به وعدوا أنفسهم عسكر الخليفة^(٥)، ومما لاشك فيه أن افتقاد الخلافة لجيش خاص بها موال لها، كان أحد الأسباب التي أدت إلى ضعفها.. وخلق حالة من الفوضى ذهبت ضحيتها الخلافة ومؤسساتها^(٦). ولما كان الجيش هو أحد أركان الدولة ومثلاً لهيئتها وسيادتها على رعاياها فقد سعى المتغلبون على حرمانها من أسباب قوتها لتسهيل عليهم عملية الهيمنة عليها والتحكم بأمورها، وعليه نلاحظ أن

(١) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية، ص ٢٤٦.

(٢) المنتظم (٨/ ٢٦٥ - ٢٦٥). (٣) راحة الصدور، ص ١٧٩.

(٤) الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ١٩٧.

(٥)، (٦) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية، ص ٢٤٧.

بعض الخلفاء شرعوا في العمل لإعادة هبة الخلافة وسلطتها، ففكروا في تشكيل جيش الدولة الخاص بها، لتتمكن من خوض صراعها ضد المتغلبين عليها، وبما أن الجيش يشكل خطراً على سيطرة المتغلبين، فقد سعى السلاجقة إلى حرمان الخلافة من هذه القوة، لذا امتازت الفترة من ٤٤٧هـ - ٥١٢هـ والتي حكم فيها ثلاثة من الخلفاء هم (القائم بأمر الله، والمقتدى لأمر الله، والمستظهر بالله) بالخضوع التام لسلطين السلاجقة ونوابهم في بغداد حتى تقلد المسترشد بالله الخلافة سنة ٥١٢هـ^(١)، فكان أول خليفة في هذه الفترة يتنبه لضرورة تكوين جيش خاص بالخلافة مستغلاً ضعف السلاجقة ونزاعهم على السلطنة بعد وفاة السلطان ملكشاه^(٢)، فبعد أن انفرد السلطان محمد بن ملكشاه بالحكم ٤٩٨هـ - ٥١١هـ نشب النزاع بين ورثته بعد وفاته، على الرغم من أن الخلافة سمحت بالخطبة لسلطانيين في آن واحد^(٣)، غير أن الخليفة المسترشد حاول أن يستفيد من الصراع القائم بين العائلة السلجوقية على السلطنة، فاستعان في بداية الأمر بجيش السلطنة في بغداد وقوات بني عقيل ودعا إلى الجهاد لملاقاة ديبس بن صدقة المزيدي صاحب الحلة وتمكن من القضاء على نفوذه^(٤)، ثم استغنى عن الوزير السلجوقي وطلب نقل الشحنة من بغداد^(٥)، كما استطاع الوقوف بوجه السلطان طغرل وديبس بن صدقة وانتصر عليهما وفي هذه الأثناء كان المسترشد قد أمر وزيره بإعادة ديوان الجند، وتسجيل العرب والأكراد والأتراك في الديوان وابتدأ في شراء الممالك الأتراك وأمر بتدريبهم على فنون القتال^(٦) وعقد محالقات مع أمراء الأطراف العربية والكردية، وتقرب من العامة وأمر بإعلان النفي العام للتجنيد^(٧)، حتى بلغ جيشه سنة ٥٢٥هـ ثلاثين ألف مقاتل من أهل بغداد والسواد^(٨)، وتبين من كتاب السلطان سنجر الذي أرسله إلى السلطان محمود مدى خشية السلاجقة من هذا الجيش حين كتب إليه يقول: إن الخليفة قد عزم على أن يمكر بي وبك، فإذا اتفقتما على فرغ مني وعاد إليك... ويجب بعد هذا أن تمضي إلى بغداد ومعك العساكر فتقبض على وزير الخليفة وتقتل الأكراد الذين دونهم وتأخذ التزل الذي قد عملته وجميع آلة السفر وتقول: أنا سيفك

(١) المنتظم (١٩٧/٩).

(٢) الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير، ص ٤١.

(٣) السلطان محمود والسلطان سنجر، المنتظم (٢١٦/٩).

(٤) المنتظم (٢١٧/٩، ٢١٨).

(٥) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية، ص ٢٤٨.

(٦) المنتظم (٢٥٤/٩، ٢٥٥).

(٧) المصدر نفسه (٦٠٧/١٠).

(٨) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية، ص ٢٤٩.

وخادمك^(١). وعندما علم المسترشد بقدوم السلطان محمود إلى بغداد عزم على مواجهته وقال: فوضنا أمورنا إلى آل سلجوق، فبغوا علينا، فطال عليهم الأمد فقتل قلوبهم وكثير منهم فاسقون^(٢). فاستعد الخليفة للمواجهة وعبر بالناس إلى الجانب الغربي من بغداد، ثم عبر إلى الجانب الشرقي حيث نزل السلاجقة وأرغمهم على الخروج من بغداد إلا أن الخليفة أذعن لشروط الصلح مع السلطان محمود بعد أن خذله أصحابه من الأمراء^(٣)، فسلم الخليفة وقبل بشروط عدم تجهيز الجيوش وتدوين العسكر وما لبثت الأمور أن جاءت لصالح الخليفة، حيث خرج على السلطان محمود أخوه مسعود وعمه سنجر وعدد من الأمراء، فرحل السلطان محمود عن بغداد فبعث إليه المسترشد يقول له: إنك تعلم ما بيني وبينك من العهد واليمين وإني لا أخرج ولا أدون عسكرياً، وإذا خرجت عاد العدو وملك الحلة وربما تجدد منه ما تعلم، فكتب إليه السلطان محمود قائلاً: متى رحلت عن العراق وجدت له حركة، وخفت على نفسك وعلى المسلمين وتجدد لي أمر مع أخي فلم أقدر على الجيء فقط نزلت عن اليمين التي بيننا، فمهما رأيت من المصلحة فافعله^(٤)، فشرع المسترشد بتعبئة الجند استعداداً لمد نفوذ الخلافة وخرج بنفسه يقود الجيش ويباشر القتال^(٥)، واستطاع أن يصد جيوش عماد الدين زنكي ودبيس بن صدقة الذين توجهوا إلى بغداد^(٦)، وحاصر الموصل وأخضع تكريت لسلطان الخلافة^(٧)، إلا أن صحوة الخلافة ونهضتها بعد طول سيطرة وتصميم على التخلص نهائياً من سيطرة السلاجقة، جعلت المسترشد أكثر اندفاعاً دون أن يستكمل قوته ويستغل الظروف الملائمة وكان لإصراره على الخروج من بغداد للملاقاة السلطان مسعود دون أن يلتفت لنصيحة خاصته ومستشاريه في البقاء في بغداد^(٨)، أثر في تفكك جيش الخلافة بعد أن تحاذل بعض القادة الأتراك وانضموا إلى السلطان مسعود، فلم يبق مع الخليفة سوى من تبعه من أهل بغداد مما سهل على السلاجقة أسره واشترطوا عليه على مال يؤديه وألا يعود لجمع العساكر ولا يخرج من داره^(٩)، ثم قتل كما بينا سابقاً. وتولى الخلافة بعد مقتل المسترشد ابنه أبو جعفر الملقب بالراشد^(١٠)، وحدد

(١) المتظم (٩/٢٥٤، ٢٥٥).

(٢) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية، ص ٢٤٩.

(٣) المتظم (٣/١٠).

(٤) المصدر نفسه (١٠/٢٠).

(٥) المصدر نفسه (١٠/٤٥-٥٠).

(٦) الباهر لابن الأثير، ص ٤٧.

(٨) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص ٢٥٠، ٢٥١.

(٩) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية، ص ٢٥٠.

(١٠) المتظم (١٠/٥٠).

السلطان مسعود مسئوليات الخليفة بقوله: لا أريد أن يجلس إلا من لا يداخل نفسه في غير أمور الدين ولا يجند ولا يتخذ ولا يجمع علي ولا على أهل بيتي^(١)، لذا اشترط على الخليفة الراشد ألا يقوم بتجنيد الجند أو الخروج لحرب السلطان أو أحد أصحابه ومتى فعل ذلك فقد خلع نفسه^(٢)، وانتهى أمر الراشد إلى ما قد علمنا.

٨- بداية انتعاش الخلافة العباسية: ولي السلاجقة أبا عبد الله محمد بن المستظهر الذي تلقب بالمقتفي لأمر الله ٥٣٠هـ - ٥٥٥هـ وحرص السلطان مسعود بعد قضائه على جيش الخلافة، أن يقضي على أسباب قوتها ونهوضها بوجه السيطرة السلجوقية، فاستولى على جميع ما كان في دار الخلافة من خيل وبغال وأثاث وذهب وفضة.. ولم يترك في الإصطبل الخاص سوى أربعة رؤوس من الخيل وثلاثة من البغال يرسم الماء... وبائعوا على ألا يكون عنده خيل ولا آلة سفر^(٣)، كما استخلف المقتفي على ألا يشتري مملوكاً تركياً^(٤)، وأخذت عليه العهود بالآلا يلجأ إلى تجنيد الجند، وأن يحسن السيرة ولا يتعرض لمحاربة أحد^(٥)، وضيقوا عليه وسلبوا أمواله حتى باع عقاره^(٦)، كما سيطروا على دار الضرب في بغداد^(٧)، ولم يكن للخليفة المقتفي في بداية حكمه إلا الاسم، فنراه يكتب إلى وزير السلطان مسعود بعد أن ضيق عليه بالأموال: وما بقي إلا أن نخرج من الدار ونسلمها^(٨)، إلا أن المقتفي كان يرقب ما يدور من نزاع بين أفراد البيت السلجوقي على السلطنة ومحاولة استغلاله في محاولة لاسترجاع سلطاته^(٩)، وفي سنة ٥٤٣هـ حاصر قسم من أمراء السلاجقة بغداد مخالفين أمر السلطان مسعود فهرب شحنتها^(١٠)، فكتب المقتفي إلى السلطان مسعود يقول له: أما الشحنة الذي من قبلك فقد هرب هو وأمير الحج إلى تكريت وقد أحاط العسكر بالبلد، وما يمكنني أن آخذ عسكرياً لأجل العهد الذي بيننا، فدبر الآن، فكتب إليه: قد برئت ذمة أمير المؤمنين من العهد الذي بيننا، وقد أذنت لك أن تجند عسكرياً وتحتاط لنفسك وللمسلمين، فجند، وأظهر السراقات والحيم وحضر الخنادق وسد العقود^(١١).

(١) مفرج الكروب (١/٦١، ٦٢).

(٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٥٧، ٢٥٨.

(٣) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية، ص ٢٥١.

(٤) تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٢١٧، الجيش وتأثيراته، ص ٢٥٢.

(٥) مفرج الكروب (١/١٣١).

(٦) المنتظم (١٠/٦٢).

(٧) المصدر نفسه (١٠/٦٦).

(٨) المصدر نفسه (١٠/٦٦، ١١٩).

(٩) مآثر الإنافة (٢/٣٧، ٣٨).

(١٠) المنتظم (١٠/١٣٢).

(١١) المنتظم (١٠/١٣٢).

وحرص وزير الخليفة أبو المظفر يحيى بن هبيرة على تجنيد الأتراك والعامة في بغداد^(١)، واستمر القتال بين عساكر السلاجقة، وعساكر بغداد وأهلها إلى أن تفرق المحاصرون وكفوا عن القتال^(٢). وبموت السلطان مسعود سنة ٥٤٧هـ مات معه سعادة البيت السلجوقي، فلم يبق له بعده راية يعتد بها ولا يلتفت إليها^(٣)، فسيطر الخليفة على ما كان للشحنة في بغداد بعد هربه إلى تكريت^(٤). وجمع الرجال والعساكر وأكثر التجنيد وأعلن: إنه من تخلف من الجند ولم يحضر الديوان ليدون ويجري على عادته في إقطاعه أبيح دمه وماله^(٥)، وكان لإعادة تشكيل الجيش العباسي أثر كبير في استعادة هيبة الخلافة وبسط سلطانها على الولايات المحيطة بها، ومناوأة أعدائها، فقد تمكن من تحرير الخلافة من الهيمنة الأجنبية بعد طول سيطرة وخضوع، وبسطت الخلافة سيطرتها على الحلة والكوفة وواسط والبصرة^(٦)، وتمكن الجيش من مقاومة الحصار السلجوقي لبغداد بقيادة محمد شاه السلجوقي في سنة ٥٥٢هـ، وأفشل محاولة دخوله إلى المدينة بعد حصار دام ثلاثة أشهر^(٧)، وكان انسحابه نهاية لحكم السلاجقة في العراق فلم تنجح كل المحاولات التي قاموا بها بعد ذلك لدخول بغداد^(٨)، يقول ابن الأثير: الخليفة المقتفي: هو أول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم إلى الآن، وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره وأصحابه من حيث تحكم الممالك على الخلفاء^(٩). إن عودة هيبة الخلافة ونفوذها وقوتها من العوامل التي ساعدت الزنكيين في محاربة الصليبيين وتحقيق انتصارات كبيرة عليهم، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

عاشراً: نهاية الدولة السلجوقية وزوالها:

زال سلطان السلاجقة في فارس بوفاة آخر سلاطينهم الأقوياء وهو السلطان سنجر عام ٥٥٢هـ، قال عنه الذهبي، هو السلطان ملك خراسان، معز الدين، سنجر بن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان بن جفريك بن ميكائيل بن سلجوق الغزي التركي السلجوقي

(١) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية، ص ٢٥٣.

(٢) المنتظم (١٣٢/١٠)، ١٣٣.

(٤) راحة الصدور، ص ٢٥٤.

(٤) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الجيش وتأثيراته، ص ٢٥٣.

(٥) المنتظم (١٤٧/١٠)، الجيش وتأثيراته، ص ٢٥٤.

(٧)، (٨) المنتظم (١٧٠/١٧١).

(٨) الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير، ص ٦١.

(٩) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية، ص ٢٥٤.

صاحب خراسان وغزنة وبعض ما وراء النهر، كان وقوراً حياً، كريماً سخياً، مشفقاً، ناصحاً لرعيته كثير الصبح، جلس على سرير الملك قريباً من ستين سنة^(١). كان من أعظم الملوك همّة، وأكثرهم عطاءً، ذكر أنه اصطبح خمسة أيام متوالية ذهب بها في الجود كل مذهب، فبلغ ما وهب من العين سبعمائة ألف دينار سوى الخلع والخليل^(٢)، واجتمع له في خزائنه من الجوهر ألف وثلاثون رطلاً، ولم يسمع بمثل هذا، ولا بما يقاربه عند أحد من الملوك واجتمع أيضاً في جملة ثيابه ألف ديباج أطلس أعطاها في يوم واحد. وأخبر خازنه أنه اجتمع في خزائنه من الأموال ما لم يسمع عن أحد من الأكاسرة أنه اجتمع له مثله^(٣)، ولم يزل في ازدياد إلى أن ظهرت عليه الغز في سنة ٥٤٨ هـ وهي وقعة مشهورة استشهد فيها الفقيه محمد ابن يحيى، فكسروه وانحل نظام ملكه، وملكوا نيسابور، وقتلوا خلقاً كثيراً، وأخذوا السلطان، وضربوا رقاب عدة من أمرائه، ثم قبلوا الأرض، وقالوا: أنت سلطاننا، وبقي معهم مثل جندي يركب أكديشا ويجوع وقتاً، وأتوا به، فدخلوا معه مرو، فطلبها منه أميرهم بمختيار إقطاعاً، فقال: كيف يصير هذا؟ هذه دار الملك. فصفى له وضحكوا، فنزل عن الملك، ودخل إلى خانقاه مرو، وعملت الغز ما لا تعمله الكفار من العظائم، وانضمت العساكر، فملكوا مملوك سنجر آييه، وجرت مصائب على خراسان، وبقي في أسرهم ثلاث سنين وأربعة أشهر، ثم أفلت منهم، وعاد إلى خراسان^(٤) وزال بموته ملك بني سلجوق عن خراسان، استولى على أكثر مملكته خوارزم شاه أئيز بن محمد بن نوشتكين ومات أئيز قبل سنجر^(٥)، وقد ذكر أبو شامة في كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» في حوادث سنة اثنتين وخمسين وفاة السلطان سنجر عقيب خلاصه من الشدة التي وقع فيها والأسر الذي حصل فيه وكان قد ورد كتابه في أواخر صفر من سنة ٥٥٢ هـ إلى نور الدين محمود زنكي بالتشوق إليه والإحاح لخلاله، وما ينتهي إليه من جميل أفعاله، وإعلامه ما من الله عليه من خلاصه من الشدة التي وقع فيها، والأسر الذي بُلي به في أيدي الأعداء الكفرة، من ملوك تركمان، بجيلة دبرها، وسياسة أحكمها وقررها، بحيث عاد إلى منصبه من السلطنة المشهورة واجتماع العساكر المتفرقة عنه إليه^(٦)، ومع وفاة سنجر أخذت الدولة السلجوقية في الضعف والتضعع ثم الانهيار وكان ذلك في عهد الخليفة الناصر لدين الله، فقد استقر رأيه على الاستعانة بعلاء الدين تكش خوارزم شاه ضد السلطان طغرل، فأرسل إلى

(١) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية (٣٦٣/٢٠).

(٢) المصدر نفسه (٣٦٤/٢٠).

(٣) الشهب اللامعة، ص ٤٣٢.

(٤) سير أعلام النبلاء (٣٦٤/٢٠).

(٥) المصدر نفسه (٣٦٥/٢٠).

(٦) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٣٥٩/١)، ٣٦٠.

خوارزمشاه شاكياً من السلطان طغرل السلجوقي، ويطلب من خوارزمشاه أن يساعده عليه، وأرفق الرسالة بمنشور يقضي بإقطاع خوارزمشاه كل البلاد التي كانت آنذاك تحت نفوذ السلاجقة^(١)، فلبى خوارزمشاه رغبة الخليفة العباسي وسار على رأس جيشه لقتال السلطان طغرل، والتقى به قريباً من الري، وذلك بمنتصف عام ٥٩٠هـ فدارت الدائرة على الجيش السلجوقي وقتل السلطان طغرل^(٢)، وهكذا زالت الدولة السلجوقية^(٣).

كان سوء سياسة السلاجقة الداخلية وعدم إيجاد قانون لوراثة العرش يحترمه الجميع، من أهم العوامل التي أدت إلى انحلال دولتهم ثم زوالها، وبذلك وجدها الخوارزميون لقمة سهلة ولم يجدوا صعوبة في ابتلاعها، فورثوا ما كان للسلاجقة من سلطان، على أننا نلاحظ أن النزاع الذي قام بين الخلفاء العباسيين وبين البويهيين والسلاجقة، نلاحظ أن هذا النزاع قد استمر أيضاً بينهم وبين الخوارزميين، وقد استفحل النزاع بين الطرفين، ولم ينته إلا بانتهاء كل من الخوارزميين والخلافة العباسية بعد أن قضى المغول على القوتين الواحدة تلو الأخرى^(٤).

لقد تضافرت عوامل عديدة في سقوط السلطنة السلجوقية التي مهدت بدورها لسقوط الخلافة العباسية ومن هذه العوامل:

- ١- الصراع داخل البيت السلجوقي بين الإخوة والأعمام والأبناء والأحفاد.
- ٢- تدخل النساء في شئون الحكم.
- ٣- إذكاء نار الفتنة بين الحكام السلاجقة من قبل بعض الأمراء والوزراء والأتابك.
- ٤- ضعف الخلفاء العباسيين أمام القوة العسكرية السلجوقية، فلم يتورعوا عن الاعتراف بشرعية كل من يجلس على عرش السلطنة السلجوقية والخطبة لكل منتصر قوي^(٥).
- ٥- عجز الدولة السلجوقية عن توحيد بلاد الشام ومصر والعراق تحت راية الخلافة العباسية.
- ٦- الانقسام الداخلي بين السلاجقة والذي وصل إلى المواجهة العسكرية المستمرة، وهذا ما أنهك قوة السلاجقة حتى انهارت سلطنتهم في العراق.

(١) الكامل في التاريخ، نقلاً عن نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ٦٧.

(٢) دولة آل سلجوق، ص ٢٧٧، ٢٧٨.

(٣) نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ٦٧.

(٤) الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، ص ٦٠. (٥) السلاطين في المشرق العربي، ص ٥٠.

٧- المكر الباطني الخبيث بالدولة السلجوقية، وتمثل ذلك في حملة التصفيات والمحاولات المستمرة لاغتيال سلاطين السلاجقة وزعمائهم وقادتهم.

٨- الغزو الصليبي القادم من وراء البحار وصراع الدولة السلجوقية مع جحافل الغزو الوحشية القادمة من أوروبا.. وغير ذلك من الأسباب والعوامل. إلا أن سلاطين السلاجقة كانت لهم أعمال جليلة من أهمها:

أ- كان لهم دور في تأخير زوال الخلافة العباسية، حوالي قرنين من الزمان حيث أوشكت قبل مجيئهم على الانقراض في ظل سيطرة البويهيين الشيعة الروافض.

ب- منعت الدولة السلجوقية الدولة العبيدية في مصر من تحقيق أغراضها الهادفة إلى توحيد المشرق الإسلامي تحت الراية الباطنية العبيدية الفاطمية الرافضة.

ج- كانت الجهود التي بذلتها الدولة السلجوقية تمهيداً لتوحيد المشرق الإسلامي والذي تم على يد صلاح الدين الأيوبي وتحت راية الخلافة العباسية السنية^(١).

د- قام السلاجقة بدور ملموس في النهوض بالمنطقة الخاضعة لهم علمياً وإدارياً ونشروا الأمن والاستقرار فيها.

هـ- وقفوا في وجه التحركات الصليبية من جانب الإمبراطورية البيزنطية، وقام نوابهم بمحاربة الجحافل الصليبية التي احتلت بيت المقدس وطرابلس والرها، وجزءاً من بلاد الشام وسواحلها. ومن أبرز هؤلاء الأمراء عماد الدين زنكي.

و- رفعوا من شأن المذهب السني وعلمائه في تلك المناطق^(٢)، فهذه نبذة موجزة عن سلاطين السلاجقة السنيين ودورهم في نصرة الإسلام، وإن كان للقوم أخطاء وملاحظات على سيرتهم إلا أن من الظلم والزور والبهتان أن نطلق على أولئك الأبطال كلمة الشراذم كما فعل الأستاذ نجيب زيبب في الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس^(٣)، وفي المباحث القادمة سنتكلم عن مؤسسات الدولة المهمة ودور السلاجقة الحضاري، وخصوصاً ما يتعلق بالمدارس النظامية وعلمائها وتأثيرها على عموم الأمة، ونجاحها في حسر المد الشيوعي الرافضي الباطني الفاطمي وإحياء الأمة في دورها الجهادي ضد الصليبيين.

(٢) قيام الدولة العثمانية، ص ٢٤.

(١) السلاطين في المشرق العربي، ص ٥١.

(٣) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/١٠).

الفصل الثاني

نظام الوزارة العباسية في العهد السلجوقي

في ظل نفوذ السلاجقة صار للخليفة العباسي الحق في اتخاذ وزراء له، فالخليفة القائم بأمر الله اتخذ في سنة ٤٥٣هـ أبا الفتح منصور بن أحمد بن دارست وزيراً له^(١)، إلا أن الخليفة القائم بأمر الله عزل هذا الوزير في سنة ٤٥٤هـ واستوزر بدلاً عنه فخر الدولة أبا نصر بن جهير في نفس العام، وخلال فترة انتعاش الخلافة العباسية، انتعشت معها الوزارة بحيث أصبحت للوزير مكانة مرموقة، وظهرت عليه الأبهة والاحترام والوقار^(٢)، مما دفع إلى زيادة مخاوف السلاجقة سلاطين ووزراء وتدخلهم في عزل بعض الوزراء^(٣). ففي عام ٤٨٤هـ أصبح موقف السلطان ملكشاه من الوزير أبي شجاع وزير الخليفة المقتدى موقفاً متزمتاً ومتشدداً، وحاول جاهداً عزله من منصب الوزارة، وبالفعل طلب من الخليفة فعزله^(٤)، وتميز هذا العصر بوقوف وزراء بني العباس موقفاً مشرفاً ونبيلاً تجاه خلفائهم، خاصة في المواقف الصعبة التي مرت بها الدولة العباسية، كما تميز هذا العهد بوجود وزيرين أحدهما للخليفة العباسي والآخر للسلطان السلجوقي، وكان الأخير أقوى نفوذاً لأنه يستمد قوته من مركز السلطان صاحب النفوذ الفعلي^(٥). وفي هذا العصر برزت ظاهرة استحداث منصب نائب الوزير، ففي سنة ٤٨١هـ خرج الوزير ظهير الدين محمد بن الحسين أبو شجاع وزير الخليفة المقتدى بأمر الله لأداء فريضة الحج، فأبقى ابنه ربيب الدولة الحسين بن محمد، ونقيب النقباء على بن طراد الزيني نائباً له^(٦).

(١) الوزارة العباسية من ٤٤٧هـ / ٥٩٠هـ في العهد السلجوقي، ص ٢٩.

(٢) الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق، فاضل الخالدي، ص ٢٩.

(٣) الوزارة العباسية من ٤٤٧هـ / ٥٩٠هـ، ص ٢٩.

(٤) الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ٢٠٢.

(٥) العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٥٨٠.

(٦) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الوزارة العباسية، ص ٣٢.

المبحث الأول

صفات وزير الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي

أولاً: صفات وزير الخليفة العباسي:

كان خلفاء بني العباس حريصين أشد الحرص على الالتزام ببعض الصفات في اختيارهم لوزرائهم، فالشخص الراغب للوصول إلى منصب الوزارة كان لا بد من أن تتوفر فيه بعض الصفات منها الصدق والأمانة ووزارة العلم^(١)، ومنها:

١- العلم: فالوزير فخر الدولة أبو نصر محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن جهمير الذي ولى الوزارة للخليفة العباسي القائم بأمر الله كان من رجال العلم رئيساً جليلاً^(٢). وعرف الوزير أبي شجاع محمد بن الحسين الروذراوري وزير الخليفة المقتدى بأمر الله بوزارة علمه وثقافته، وقد عد من خيرة علماء عصره، فكان عالماً باللغة العربية، وله تصانيف منها ذيل تجارب الأمم^(٣).

٢- الراي السديد: ويشترط في الوزير أن يتصف بالرأي السديد^(٤)، فالوزير أبو القاسم بن الحسن بن المسلمة رئيس الرؤساء عرف بسداد الرأي ورجاحة العقل^(٥). وأما الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي الذي وزر للخليفة المسترشد بالله والمقتفي لأمر الله، فقد عرف عنه سداد الرأي.

٣- العدل: ومن الصفات الواجب توافرها في الوزير العدل؛ ليكون منصفاً في حكمه وتسلم الرعية من ظلم غيره وظلمه^(٦). فالوزير أبو شجاع ظهير الدين محمد بن الحسين الروذراوري عرف بعدله للرعية فكان يصلي الظهر ويجلس لكشف المظالم إلى وقت العصر^(٧)، وعرف الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة الشيباني، الذي وزر للخليفة المقتفي لأمر الله والمستنجد بالله بالعدل لذا نال مكانة مرموقة^(٨) ويقال عنه إنه كان شامة بين الوزراء لعدله^(٩).

(١) الأحكام السلطانية، ص ٢٢ الوزارة العباسية، ص ٣٤.

(٢) شذرات الذهب (٣/ ٣٠١). (٣) المتظم (٩/ ٩٠، ٩١).

(٤) الأحكام السلطانية، ص ٢٢، الوزارة العباسية، ص ٣٦.

(٥) النجوم الزاهرة (٥/ ٦٤). (٦) الوزارة العباسية، ص ٣٦.

(٧) تحفة الأمراء للثعالبي، ص ٦١. (٨) الوزارة العباسية، ص ٣٦.

(٩) النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، ص ١٥٧.

٤- الكفاية: فضلاً عن ذلك يجب أن تتوافر بالوزير الكفاية: وهي العلم بالأعمال السلطانية، والتصرفات، ووجوه تمييز الأموال والاستخراجات فيضع الأمور في مواضعها، ويرتب الأعمال على قواعدها^(١)، فقد كان الوزير رئيس الرؤساء أبو القاسم علي بن الحسين بن المسلمة يمتاز بالفضل والكفاية^(٢)، وقد قضى الوزير عميد الدولة بن جهير على الفوضى والاضطرابات وأدى مهامه الإدارية بنجاح^(٣)، وكان الوزير أبو علي بن الحسن بن علي بن صدقة، له دراية وخبرة بأمور الحساب وأعمال السواد^(٤)، لذا نجح في إدارة أمور البلاد^(٥).

٥- السياسة: ويشترط بعض الفقهاء أن يكون عالماً بأمور السياسة؛ فيعرف مداراة الجند، وتأليفهم، وجمعهم، وتفريقهم ويكون خبيراً بالمكائد الحربية، والخدع، وحفظ البلاد، والثغور والقلاع^(٦)، فالوزير رئيس الوزارة أبو القاسم علي بن الحسن بن المسلمة عرف عنه حسن معرفته وتدبيره لأمور السياسة^(٧) ففي سنة ٥٤٤ هـ ولي أبو المظفر يحيى بن هبيرة وزارة المقتضي لأمر الله^(٨)، فظهرت منه عظمة كفايته السياسية عندما نزل المعسكر السلجوقي بظاهر بغداد، فاستطاع بحسن تدبيره ردهم على أعقابهم، فرغب الخليفة فيه، فاستوزره^(٩).

٦- الشئون الدينية: ومن الشروط الواجب توافرها في الوزير هي معرفته للشئون الدينية والفقه والحديث النبوي وما إلى ذلك من أمور تتعلق بالشريعة الإسلامية، وعلى هذا الأساس نال رئيس الرؤساء علي بن الحسين، الوزارة وكان عالماً وفقهياً بارعاً وله دراية بالحديث^(١٠)، وكان الوزير أبو الفتح محمد بن منصور بن دارست وزير الخليفة القائم بأمر الله، إذا جلس في دار الوزارة حضر أئمة الفرق وفقهاؤها للمناظرات^(١١). وكان الوزير جلال الدين أبو علي الحسن بن علي بن صدقة وزير الخليفة المسترشد بالله، حسن السيرة والسلوك، تقياً عالماً فاضلاً^(١٢)، وكان الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة الشيباني الذي وزر

(١) شذرات الذهب (٤/ ١٩١).

(٢) راحة الصدور، ص ١٧٢، الوزارة العباسية، ص ٣٧.

(٣) البداية والنهاية، نقلاً عن الوزارة العباسية، ص ٣٧.

(٤)، (٥) الوزارة العباسية، ص ٣٧.

(٦) تحفة الأمراء للثعالبي، ص ٦١، ٦٢.

(٨) الوزارة العباسية، ص ٣٨.

(٩) دولة آل سلجوق، ص ٢٠٥، الوزارة العباسية، ص ٣٨.

(١٠) الوزارة العباسية، ص ٣٨.

(١١) دولة آل سلجوق، ص ١٩٧.

(١٢) النجوم الزاهرة (٥/ ٢٣٣)، الوزارة العباسية، ص ٣٨.

للخليفة المقتفي لأمر الله من أعيان الفقهاء الصالحين^(١)، صنف كتاب الإفصاح وقرأ القرآن، والحديث وتفقه على مذهب الإمام أحمد، صنف كتباً جيدة من ذلك الإفصاح في مجلدات، شرح فيه الحديث وتكلم فيه عن مذاهب العلماء^(٢). وكان عالماً في الفقه والأحاديث والقرآن الكريم وتفسيره.

٧- **قوانين الوزارة:** واشترط الخلفاء العباسيون وسلاطين السلاجقة في الوزير أن يكون عالماً بقوانين الوزارة، فقد كان الوزير جلال الدين أبو علي الحسن بن علي بن صدقة وزير الخليفة المسترشد بالله حافظاً لقوانين الوزارة وعالماً بأمور الرياسة^(٣). وأما الوزير أبو القاسم علي بن طراد الزينبي، فكان ملماً بقوانين الوزارة عارفاً بأمور السياسة، فلما استوزره الخليفة المسترشد بالله قال له: كل من ردت إليه الوزارة شرف بها، إلا أنت فإن الوزارة شرفت بك^(٤).

٨- **البلاغة وحسن الترتيل:** وفضل الخلفاء أن تتوافر بعض الصفات الأخرى كأن يكون بليغاً وحسن الترتيل وأديباً وشاعراً وعالماً في النحو^(٥)، فالوزير محمد بن محمد بن جهمير الذي وزر للخليفين القائم بأمر الله والمقتدي بأمر الله، عرف بتراسله البديع وأشعاره الرقيقة^(٦)، وكان الوزير أبو شجاع محمد بن الحسين الروذراوري كاتباً بليغاً وشاعراً مرهفاً وعرف عنه حسن نثره وروعة رسائله ومعرفته بالأدب وبراعته في رواية الأخبار^(٧)، وعرف عن الوزير جلال الدين أبو علي الحسن بن علي بن صدقة فصاحة اللسان وبلاغة الكلام، بحيث طغت على كتاباته صفة البلاغة مما جعله موضع إعجاب خلفاء بني العباس^(٨)، وأما الوزير أبو شروان بن خالد القاشاني الذي وزر للخليفة المسترشد بالله وللسلطان مسعود السلجوقي، فعرف عنه حبه للأدب، وإليه يعود الفضل في عمل وتطوير مقامات الحريري^(٩)، وكان الوزير يحيى بن هبيرة فصيح اللسان، بليغاً، كاتباً بارعاً وعالماً بأمور النحو واللغة وشاعراً رقيقاً^(١٠).

٩- **المحبة لدى العامة والخاصة:** فضل الخلفاء في الوزير أن يكون محبوباً لدى العامة

(١) المنتظم (١٠/٢١٧).

(٢) البداية والنهاية، نقلاً عن الوزارة العباسية، ص ٣٩. (٣) الوزارة العباسية، ص ٣٩.

(٤) المنتظم (٩/٢٣٤)، الوزارة العباسية، ص ٣٩. (٥) الوزارة العباسية، ص ٣٩.

(٦) النجوم الزاهرة (٥/١٣٠)، الوزارة العباسية، ص ٤٠.

(٧) المنتظم (٩/٩٠، ٩١)، الوزارة العباسية، ص ٤٠.

(٨) الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ٢٠١ الوزارة العباسية، ص ٤٠.

(٩) تاريخ ابن الوردي (٢/٢٩)، الوزارة العباسية، ص ٤٠.

(١٠) الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ٢٢٥، الوزارة العباسية، ص ٤١.

والخاصة من الناس، وهذا واضح عندما عاد الوزير فخر الدولة أبو نصر محمد بن محمد بن جهير إلى منصب الوزارة في عهد الخليفة المقتدي بأمر الله، فرح الناس فرحاً شديداً وخرجوا لاستقباله، وقاموا بنحر الذبائح^(١).

وأما الوزير الحسن بن علي بن صدقة أبو علي جلال الدين وزير الخليفة المسترشد بالله، فقد كان محبوباً لدى الخاصة والعامة مما ساعده على أداء مهماته الإدارية بنجاح^(٢).

١٠ - المعرفة بقواعد ديوان الخلافة: من الصفات اللازم توافرها في الوزير إلمامه بقواعد ديوان الخلافة، ونتيجة هذا الشرط عزل خلفاء بني العباس بعض الوزراء لجهلهم بقواعد ديوان الخلافة، فقد قبض الخليفة المسترشد بالله على الوزير سديد الملك أبي المعالي ابن عبد الرزاق في سنة ٤٩٦ هـ بسبب جهله بقواعد ديوان الخلافة^(٣).

وتجدر الإشارة إلى أن الماوردي حدد الصفات الواجب توافرها في الوزير وهي: الصدق والأمانة وغزارة العلم والفضل والرأي السديد والكفاية في تصريف الأعمال والأموال وحسن التصرف في مخاطبة الأعداء والأصدقاء^(٤). أما الثعالبي فقد حدد الصفات الواجب توافرها في الوزير بقوله: أن تجتمع فيه الأخلاق الحميدة، والأفعال الرشيدة، والآراء السديدة، وجودة التدبير، وصواب الآراء المفيدة، فتكون فيه العدالة والنزاهة والشجاعة والسياسة، إذا كان زمان السلم والهدنة يصلح أن يكون الوزير حليماً ساكناً، وإذا كان زمان الفتن والحروب يصلح أن يكون شجاعاً صارماً^(٥). ومن الوزراء الذين جمعوا بين الثقافة العامة وحسن إدارته للبلاد يحيى بن هبيرة وزير الخليفين المقتفي لأمر الله والمستنجد بالله، حيث جمع معلومات وافية عن الدولة العباسية، وله دراية في معرفة مشاكلها، مما جعل له القابلية على حل مشاكل الخلافة العباسية، بما فيها تخلص الدولة العباسية من سيطرة السلاجقة^(٦).

ثانياً: صفات الوزير السلجوقي:

حدد سلاطين السلاجقة بعض الصفات الواجب توافرها في الوزير ومن هذه الصفات:

١ - محبة العلم والعلماء: أن يكون محباً للعلم والعلماء وفاضلاً وكرماً، فقد عرف

(٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢٤.

(١) الوزارة العباسية، ص ٤١.

(٣) الوزارة العباسية، ص ٤٢.

(٤) الأحكام السلطانية، ص ٢٢، الوزارة العباسية، ص ٤٢.

(٥) تحفة الأمراء، ص ٦١، الوزارة العباسية، ص ٤٣.

(٦) خلفاء بني العباس ووزرائهم، ص ١٢٨، الوزارة العباسية، ص ٤٣.

عن الوزير نظام الملك أبي علي الحسن بن إسحاق الطوسي حبه للعلم والعلماء، وهذا واضح من خلال إنشائه العديد من المدارس^(١).

٢- سداد الرأي: ويجب أن تتوافر في الوزير صفة سداد الرأي، فالوزير عميد الملك أبو نصر محمد بن منصور الكندري، وزير السلطان طغرل بك عرف بسداد الرأي ووفور العقل^(٢).

٣- العدل: أن يكون الوزير عادلاً بعيداً عن ظلم الرعية فالوزير نظام الملك أبو علي الحسن بن إسحاق الطوسي كان رجلاً عادلاً منصفاً، حافظاً لرعيته، فيقال عنه: إذا اجتاز بضیعة فأفسدها العسكر غرم لصاحبها ما أفسدوا^(٣)، وفي سنة ٥٣٣هـ نال الوزير كمال الدين محمد بن علي الخازن الرازي وزارة السلطان مسعود، فأخذ يعمل على نشر العدل وإزالة الظلم^(٤).

٤- الصلاح والفقه: يجب أن يكون الوزير صالحاً فقيهاً وسمع الحديث وقرأ القرآن وشجع علماء الدين، فالوزير نظام الملك أبو علي الحسن بن إسحاق الطوسي، اشتغل بالحديث والفقه، وكان يجب علماء الدين والفقهاء ويجزل صلاتهم، وينفق عليهم أموالاً^(٥)، كما سمع الحديث وتفقه على مذهب الشافعية وقرأ القرآن واشتغل بالعلم^(٦).

٥- إجادة اللغتين العربية والفارسية: فيجب أن يكون الوزير أديباً بليغاً وكاتباً ناجحاً وشاعراً يجيد اللغتين العربية والفارسية بفصاحة فالوزير محمد بن منصور عميد الملك الكندري وزير السلطان طغرل بك كان مترجماً بارعاً^(٧)، وكاتباً يجمع في العربية والفارسية بين الفصاحتين^(٨). وكان أديباً وشاعراً ناجحاً ومن شعره:

إذا كان بالناس مزاحمتي فأموت قد وسع الدنيا على الناس
قضيت والشامت المغرور يتبعني إن المينة كأس كلنا حاس^(٩)

٦- الكفاية: لا بد أن تتوافر في الوزير صفة الكفاية، فالوزير سعد الملك أبو المحاسن سعد بن محمد الأبّي الذي استوزر للسلطان محمد بن ملكشاه، عرف بسداد الرأي ووفور

(١) التاريخ الباهر، ص ٩.

(٢) شذرات الذهب (٣/٣٠١).

(٣) ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦، الوزارة العباسية، ص ٤٥.

(٤) دولة آل سلجوق، ص ١٧٠، أخبار الدولة السلجوقية، ص ١٢٢.

(٥) ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦ الوزارة العباسية، ص ٤٥.

(٦) الوزارة العباسية، ص ٤٥.

(٧) دولة آل سلجوق، ص ٣١، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٥٧٣، ٥٧٤.

(٨) دولة آل سلجوق، ص ٣١، الوزارة العباسية، ص ٤٥.

(٩) النجوم الزاهرة (٥/٧٦).

العقل والكفاية العالية، فقد استطاع هذا الوزير جمع العساكر على الطاعة السلطانية، وبذلك استطاع أن يزيل الخلافات والفتن في دولة السلاجقة^(١).

٧- **تدبير البلاد والجيش:** ويجب أن يمتاز الوزير بحسن تدبيره للبلاد والجيش، فقد كان الوزير نظام الملك أبو علي الحسن الطوسي عارفاً بأمور البلاد، وناجحاً في تدبيرها^(٢). وكان يهتم بأمور الجيش وتفريقه وبحفظ البلاد، فلما عاد ملك شاه من محاربة عمه قاورد تطاول جند السلطان قائلين: إنا قد ظفرنا بهذا الفتح وهزمتنا جيشاً جراراً فنريد زيادة أرزاقنا وإذا لم تزد أرزاقنا وقطائعنا فسوف ندعو بالسعادة إلى قاورد. إلا أن الوزير نظام الملك أبا علي الطوسي استطاع أن يخمد غضب الجند ويجددوا ولاء الطاعة للسلطان^(٣).

٨- **الشهامة والصبر:** فهناك بعض الصفات التي لا بد أن تتوافر في الوزير السلجوقي مثل الشهامة والصبر، فقد عرف الوزير عميد الملك أبو نصر محمد بن منصور الكندري بشهامته وكرمه^(٤). أما أبو علي الحسن الطوسي فقد عرف عنه ثباته وصبره خاصة في الأزمات التي مرت بها الدولة السلجوقية والأزمات التي مر بها الوزير شخصياً، فكان شهماً^(٥)، وكان الوزير نظام الملك محبوباً لدى الناس، وكان شديد الاحترام والنفوذ في مملكة السلطان ملكشاه^(٦).

والجدير بالذكر أن سلاطين السلاجقة كانوا حريصين في اختيار وزرائهم وحددوا بعض الصفات التي تتوافر في الوزير، لأن أغلب سلاطين السلاجقة كانوا جاهلين بالعلوم والمعارف واللغة والفقه وبطبيعة المؤسسات الإدارية، وكيفية إدارة أمور البلاد، فأوكلوا هذه المهام لوزرائهم لتمشية المهام السياسية والإدارية والمالية، بينما بقيت أمور الجيش والحرب بأيدي السلاطين لأنهم بطبيعتهم رجال حرب^(٧)، وعلى الرغم من ذلك فإن سلاطين السلاجقة قاموا باختيار بعض الوزراء الذين لم تتوافر فيهم صفات الوزير الجيد، وإنما كان اختيارهم بدافع حصول السلاطين على الأموال، وبحكم الظروف العصيبة والصراع الذي دار بين الأسرة السلجوقية حول كرسي السلطنة^(٨).

(١) دولة آل سلجوق، ص ٨٨.

(٢) الوزارة العباسية، ص ٤٦.

(٣) راحة الصدور، ص ٢٠٠.

(٤، ٥) شذرات الذهب (٣/ ٣٠١) الوزارة العباسية، ص ٤٧.

(٦) المنتظم (٨/ ٢٠٧)، الوزارة العباسية، ص ٤٧.

(٧، ٨) الوزارة العباسية، ص ٤٨.

المبحث الثاني

مميزات وخصائص ومراسيم تقليد الوزير العباسي والسلجوقي وألقابهم

أولاً: مراسيم تقليد الوزير العباسي:

كان الخليفة العباسي يختار وزيره بناء على معرفته للشخص المرشح للوزارة وثقته فيه، نتيجة لما قدمه من خدمات للدولة تثبت كفايته لهذا المنصب وعلى سبيل المثال استوزر الخليفة المقتضي لأمر الله عون الدين يحيى بن هبيرة بناء على ما بذله ابن هبيرة من جهد أثناء توليه ديوان الزمام، ولما قدمه من آراء صائبة للخليفة بشأن علاقة الخلافة العباسية بالسلطنة السلجوقية^(١)، وفي بعض الأحيان كان الخليفة يستشير المقربين إليه فيمن يرويه أهلاً لتولي وزارته، فيشيرون عليه بتولية شخص معين لخبرته الإدارية وأمانته، فيقبل الخليفة تزكيتهم، ويسند وزارته إلى ذلك الشخص، وهذا ما حدث عندما استوزر الخليفة القائم بأمر الله أبا الفتح منصور بن أحمد بن دارست سنة ٤٥٣هـ^(٢). وقد يحدث أن يرشح السلطان السلجوقي شخصاً معيناً ليكون وزيراً للخليفة، فيوافق الخليفة على ترشيح السلطان أو يرفضه كما حدث عندما رفض الخليفة القائم بأمر الله ترشيح السلطان ألب أرسلان لأبي العلاء محمد بن الحسين سنة ٤٦٤هـ^(٣)، بينما قبل الخليفة المسترشد بالله في سنة ٥١٦هـ ترشيح السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه لأحمد بن نظام الملك واستوزره الخليفة فعلاً^(٤). وإذا استقر رأي الخليفة على إسناد منصب الوزارة إلى شخص معين، أمر باستدعائه إلى دار الخلافة، وفي اليوم المقرر لإجراء مراسيم التعيين يحضر الشخص المرشح إلى دار الخلافة ومعه كبار رجال الدولة قاضي القضاة وصاحب المخزن، وكاتب الإنشاء، وحاجب دار الخلافة فيبلغ الخليفة الشخص المرشح مشافهة باختياره وزيراً له^(٥)، ويخلع عليه خلع الوزارة، وتشمل جبة وعمامة وسيفاً ومركباً وفرساً، ويسلم إليه العهد بالوزارة، ثم يركب الوزير من دار الخلافة إلى مقر الوزارة والناس بين يديه، ومن بينهم كبار الدولة، وعندما يجلس في دست الوزارة يقرأ كاتب الإنشاء عهد الخليفة له بالوزارة^(٦).

ويختتم الحفل بقراءة ما تيسر من القرآن، وإنشاد ما نظمته الشعراء لهذه المناسبة من

(١) أخبار الدولة السلجوقية، ص ١٢٠، وفيات الأعيان (٦/ ٢٣١، ٢٣٢).

(٢) تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٢١. (٣) المصدر نفسه، ص ٤٢.

(٤) الكامل في التاريخ، نقلاً عن نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ١٢٧.

(٥) المنتظم (١٠/ ١٢٥). (٦) وفيات الأعيان (٦/ ٢٣٣).

مدائح^(١) وقد جرت العادة أن الوزير الجديد إذا وصل إلى الديوان، وجلس في دست الوزارة أن يبادر إلى كتابة رسالة للخليفة تتضمن الدعاء والثناء له إشعاراً بتسلمه مهام منصبه^(٢). وكان الخليفة العباسي إذا أراد أن يزيد من تكريم من يختاره للوزارة أو لنيابة الوزارة، أصدر توقيعاً موجزاً، يثني فيه على الشخص المرشح ويشيد فيه بصفاته الحميدة ليرفع من شأنه أمام الناس، وكانت إجراءات تعيين نائب الوزير لا تختلف كثيراً عما كان يتبع عند تعيين الوزير غير أن الخليفة كان ينبب عنه من يتولى تقليد نائب الوزير وتسليمه العهد ومنحه الخلع^(٣).

ثانياً: مراسيم تقليد الوزير السلجوقي:

يقوم السلطان السلجوقي بتحديد الشخص المراد توليه منصب الوزارة معتمداً على بعض الضوابط في اختياره لوزيره منها: مدى ممارسة الشخص للمهام الإدارية كأن يكون كاتباً للإشياء أو صاحب ديوان، وفي بعض الأحيان يعتمد على استشارة بعض المقررين إليه^(٤)، ولذا تدرج بعض الأشخاص في المناصب الإدارية حتى وصلوا إلى منصب الوزارة، فالوزير نظام الملك أبو علي الحسن الطوسي كان كاتباً للأمير تاجر صاحب بلخ^(٥)، وكان يكتب لأبي علي بن شاذان، إلا أن أبا علي كان يصادر نظام الملك أبا علي الحسن الطوسي لذلك هرب نظام الملك، واتجه للعمل في دواوين السلطان داود بن ميكائيل، فأثبت للسلطان قدراته الإدارية ونجح في أداء مهامه الإدارية بحيث أصبحت بيده جميع الأمور، بعدها يقوم السلطان بإرسال حاجبه لاستدعاء الشخص المراد توليه منصب الوزارة ومثوله أمام حضرة السلطان، وبعد مشول الشخص أمام حضرة السلطان، تجري محادثات ومشاورات واتفاقيات بين السلطان والشخص المراد له نيل الوزارة لتحديد المهمات الإدارية والسياسة والمالية، وتحديد الحقوق والواجبات لكلا الطرفين^(٦)، ومن المتعارف عليه أن الشخص المراد توليه منصب الوزارة، عندما يستدعى إلى حضرة السلطان ليقرأ عليه عهد السلطان بتولية منصب الوزارة، يأتي الوزير محملاً بالهدايا الثمينة بما فيها الخيول والخيم والسيوف والذهب، فلما جاء فخر الملك أبو علي عمار بن محمد بن نظام الملك سنة ٥١٢هـ من خراسان لنيل منصب الوزارة جاء محملاً بالهدايا الثمينة بما فيها الذهب والخيول، والسيوف والخيم والطبول، فقدمها هدية للسلطان بمناسبة توليه الوزارة^(٧).

(١) وفيات الأعيان (٢٣٣/٦)، ذيل طبقات الحنابلة (٢٥٣/١).

(٢) مضممار الحقائق للأيوبي، ص ٢٠٥، نظام الوزارة، ص ١٢٨.

(٣) رسوم السلاجقة ونظمهم الاجتماعية، ص ٨١. (٤) المنتظم (٩/٦٤، ٦٥)، الوزارة العباسية، ص ٥٦.

(٥) المنتظم (٩/٦٤)، النجوم الزاهرة (٥/١٣٧).

(٦) المصدر نفسه، ص ٥٧.

(٧) الوزارة العباسية، ص ٥٦.

ثالثاً: ألقاب الوزير العباسي:

استمر خلفاء بني العباس في العهد السلجوقي في تلقيب وزرائهم كسابق عهدهم في عهد بني بويه، غير أنه كانت هناك فروق واضحة بين العهدين البويهي والسلجوقي بالنسبة للألقاب وتتمثل فيما يلي:

١- كان للألقاب في العهد السلجوقي احترامها، فهي مصنونة، ولا تمنح إلا لمن يستحقها^(١) فعلاً من كبار رجال الدولة، وفي مقدمتهم الوزراء، وكان الخلفاء والسلاطين لا يسرفون في بذل الألقاب.

٢- يرجع تعدد الألقاب في العهد السلجوقي إلى عاملين، أولهما: أن بعض الوزراء كان يحمل لقباً قبل أن يلي الوزارة، فلما ولي هذا المنصب لقبه الخليفة لقباً ثانياً كالتبعية في تقليد الوزراء إذ ذاك. أما العامل الثاني في تعدد الألقاب، فيرجع إلى حرص الخلفاء والسلاطين على منح الوزراء الذين يبذلون جهداً كبيراً في خدمة الدولة ألقاباً تقديراً لكفائتهم، وقد ظهر تعدد ألقاب وزراء الخلافة العباسية بشكل واضح في نزاع الخلافة مع السلطنة السلجوقية للتخلص من نفوذها.

٣- تجلت في الألقاب ظاهرة الإضافة إلى الدين بالنسبة لوزراء الخلفاء العباسيين، كظهير الدين، وجلال الدين، وعون الدين، أما بالنسبة لوزارة سلاطين السلاجقة فكان يضاف إلى ألقابهم الملك، مثل نظام الملك وعميد الملك وفخر الملك وتاج الملك، ويذكر السيوطي أن أول تلقيب أضيف إلى الدين كان سنة ٤٧٦هـ، عندما استوزر الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله أبا شجاع محمد بن الحسين الروذراوري ولقبه «ظهير الدين»^(٢)، وقد تجلت ظاهرة تعدد ألقاب وزراء الخلفاء العباسيين بشكل واضح أثناء فترة نزاع الخلافة العباسية مع السلطنة السلجوقية، أما قبل ذلك فلم يتلقب بأكثر من لقب سوى الوزير محمد بن محمد بن جهير، وكان يتلقب بعميد الدولة، شرف الدين^(٣)، وقيل بل كان يتلقب بلقب واحد، هو عميد الدولة^(٤)، ولما ولي الخليفة المسترشد بالله الخلافة أخذ بمنح الألقاب لوزرائه، ويبدو أن الخليفة قصد من ذلك دفعهم لبذل جهد أكبر في تنفيذ سياسة الخلافة التي انطوت على التخلص من نفوذ سلاطين السلاجقة واستعادة هيبة الخلافة وسلطتها^(٥)، ولما استوزر المسترشد بالله أبا علي الحسن بن علي بن صدقة، منحه عدة ألقاب هي: جلال الدين سيد الوزراء،

(١) الروضتين في أخبار الدولتين (١/٢٤).

(٢) تاريخ الخلفاء نقلاً عن نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ١٣٢.

(٣) حسن المحاضرة (٢/١٩٨) نظام الوزارة، ص ١٣٣. (٢) المنتظم (٩/١١٨).

(٤) المصدر نفسه، ص ١٣٤. (٥) نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ١٣٣.

صدر الشرق والغرب، صفى أمير المؤمنين^(١)، وقيل: صدر الوزراء، صفى أمير المؤمنين^(٢). هذا فضلاً عن لقبه السابق عميد الدولة^(٣)، وفي سنة ٥٤٤ هـ استدعى الخليفة المقتفي لأمر الله يحيى بن هبيرة إلى دار الخلافة وقلده منصب الوزارة وقد أثبت هذا الوزير كفاءته ومقدرته الإدارية العالية حتى نال ثقة الخليفة، كما كانت له اليد القوية في إنهاء النفوذ السلجوقي في بغداد، لذا لقبه الخليفة باللقاب الرنانة منها: عون الدين، جلال الإسلام، صفى الإمام، شرف الأنام، معز الدولة، مجير الملة، عماد الأمة، مصطفى الخلافة، تاج الملوك والسلطين، صدر الشرق والغرب، سيد الوزراء^(٤). إلا أن الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة رفض مناداته بلقب سيد الوزراء وقال: لا تقولوا في ألقابي سيد الوزراء، فإن الله تعالى سمي هارون وزيراً^(٥).

رابعاً: ألقاب الوزير السلجوقي:

وأما بالنسبة للسلطان السلجوقي فقد سار على المنوال نفسه الذي سار عليه خلفاء بني العباس في تلقيب وزرائهم باللقاب الرنانة، فقد أخذ سلاطين السلاجقة يلقبون الوزراء ممن تتوافر فيهم صفة الكفاءة الإدارية الناجحة وما يقدمه الوزير من أعمال جليلة للسلطان بحيث يكسب ود ورضا السلطان عنه، ففي سنة ٤٥٥ هـ خلع السلطان طغرل بك أبو شجاع محمد بن ميكائيل بن سلجوق على وزيره عميد الملك أبي نصر محمد بن منصور الكندري وزاده في ألقابه جزاء على توصله لرضا السلطان عنه^(٦). وخلال هذا العصر استفحلت ظاهرة تعدد الألقاب^(٧) ويعتبر الوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي أول وزير تلقب بأكثر من لقب في العهد السلجوقي، ويرجع هذا بلا شك إلى إخلاص نظام الملك في عمله، ومكافأة له على جهوده التي بذلها في إدارة الدولة السلجوقية، إذ كان اليد الموجهة لها في عهد السلطانين ألب أرسلان وابنه ملكشاه، كان لقب هذا الوزير في عهد السلطان ألب أرسلان هو: نظام الملك خواجه بزرگ^(٨)، ثم زاد الخليفة القائم بأمر الله في تكريم نظام الملك فلقبه بقوام الدين والدولة، رضي أمير المؤمنين^(٩). ولما ولي ملكشاه السلطنة زاد في ألقاب نظام الملك لقب: «أتابك الجيوش»^(١٠)، ويأتي الوزير السلجوقي أحمد بن نظام الملك في المرتبة الثانية بعد والده نظام الملك في التلقب بأكثر من لقب، فكان يلقب قبل إسناد الوزارة إليه «ضياء الملك»^(١١). فلما استوزره السلطان محمد بن

(١) نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ١٣٤. (٢)، (٣) الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ٢١٠.

(٤)، (٥) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٦/ ٣٢١).

(٦) المنتظم (٨/ ٢٣٠)، الوزارة العباسية، ص ٦٢. (٧) الوزارة العباسية، ص ٦٢.

(٨) المنتظم (٨/ ٤٣٥)، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢١.

(٩)، (١٠) البداية والنهاية نقلاً عن نظام الوزارة، ص ١٣٢.

(١١) دولة آل سلجوق، ص ٨٨، نظام الوزارة في العهد العباسي، ص ١٣٢.

ملكشاه سنة ٥٠٠ هـ منحه ثلاثة ألقاب هي: قوام الدين، نظام الملك، صدر الإسلام^(١). ويبدو أن السلطان محمد قد منح أحمد بن نظام الملك هذه الألقاب الثلاثة وفاء لحق والده نظام الملك وتقديراً لإخلاصه في خدمة دولة السلاجقة، كما يظهر في النص التالي: استشار السلطان فيمن يجعله وزيراً، فذكر له جماعة، فقال السلطان إن آبائي رأوا على نظام الملك البركة، وله عليهم الحق الكثير، وأولاده أغذياء نعمتنا، ولا معدل عنهم^(٢).

خامساً: امتيازات وشارات الوزير العباسي:

نال الوزير العباسي امتيازات واسعة بعد نياله دست الوزارة، ومن أول هذه الامتيازات تملكه داراً يقيم فيها وإنجاز مهامه الإدارية^(٣)، وأصبح للوزير الحق في الجلوس في صدر الرواق، ويجلس بين يديه الحجاب والقواد، وعندما ينال الوزير دست الوزارة يقوم الخليفة العباسي بتعيين مجموعة من الحرس يقفون على بابه ويكون واجبهم هو حماية الوزير والمحافظة عليه^(٤)، وإذا حضر الوزير مجلسه فسرعان ما يحضر معه عدد من الغلمان المسلحين لحمايته، وإذا خرج الوزير فسرعان ما يخرج معه الغلمان شاهرين أسلحتهم، وقد نال وزراء العباسيين مكانة مرموقة لدى خلفائهم بحيث زادت امتيازاتهم ومنها أن الخليفة سمح لهم بأن يضرب البوق عندما يخرجون لأداء أعمالهم^(٥)، ومن امتيازات الوزير أنه سُمح له حضور مجلس الخليفة في أيام محددة من الأسبوع أو في المناسبات وإذا حضر المجلس فإنه لا بد أن يجلس في المكان المخصص له، وغالباً ما يكون مواجهاً للخليفة ومعه دواته^(٦). أما من حيث شارات الوزير، فقد كان الوزير العباسي يلبس الملابس السوداء وهو اللباس الرسمي له لأنه يعبر عن شعار الدولة العباسية، فلباسه يتكون من الجبة على العادة والفرجية والعمامة السوداء^(٧)، وكان الوزير العباسي يلبس في الاحتفالات الرسمية ملابس خلعة الوزارة التي خلعها عليه الخليفة حينما ولي دست الوزارة، وهي ملابس رسمية مكونة من قباء وسيف بمنطقة وقميص وعمامة سوداء^(٨)، وحينما يخرج الوزير لاستقبال الوفود الآتية إلى حضرة الخليفة أو لأداء فريضة الحج كان يخرج في موكب فخم ويمشي بين يديه أصحاب المناصب العالية، ففي عهد الخليفة القائم بأمر الله عندما خرج الوزير رئيس الرؤساء أبو القاسم على بن أحمد بن المسلمة لاستقبال السلطان السلجوقي طغرل بك، خرج في موكب فخم ومعه أصحاب المناصب العالية والمراتب وقاضي القضاة والشهود

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن نظام الوزارة، ص ١٣٢. (٢) المصدر نفسه، ص ١٣٣.

(٣)، (٤) الوزارة العباسية، ص ٦٥.

(٥) المتظم (٢٧٣/١٠). (٦) الوزارة العباسية، ص ٦٦.

(٧) الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ٢١٢. (٨) المتظم (٢٢٢/١٠).

والجنود^(١). وأما بالنسبة إلى راتب الوزير العباسي خلال هذا العصر، فقد اتضح أن الغالبية العظمى من وزراء بني العباس الذين وصلوا إلى دست الوزارة، كانوا بالأساس من الطبقات الغنية وهذا ما دفع الكثير منهم إلى رفض رواتبهم الشهرية ففي سنة ٤٥٣ هـ، نال الوزير ابن الفتح منصور بن أحمد بن دارست الوزارة حيث رفض استلام رواتبه خلال توليه الوزارة وبذلك فإنه خدم بغير إقطاع، علماً بأنه كان غنياً ويعمل تاجراً^(٢) وعندما ولي الخليفة المقتدي بأمر الله الوزارة لظهير الدين أبي شجاع محمد بن الحسين الروذراوري، كان الوزير يمتلك ستمائة ألف دينار، وقد أنفقها جميعاً على الفقراء والمحتاجين واليتامى والأرامل حال استلام دست الوزارة^(٣)، أما الوزير ظهير الدين أبو بكر منصور بن أبي القاسم نصر بن العطار الذي استوزر للخليفة العباسي المستضيء، كان غنياً ويعمل تاجراً في ابتداء أمره^(٤)، وعلى الرغم من ثراء وزراء بني العباسي فإن الخلفاء العباسيين أصروا على منح وزرائهم الرواتب، والمخصصات والقطائع والمنح، كبديل لما يقدمونه من خدمات وأعمال جليلة تخدم بها كيان الدولة العباسية، ففي سنة ٤٧٧ هـ أقطع الخليفة المقتدي بأمر الله وزيره أبا شجاع محمد بن الحسين بن عبد الله الروذراوري: قطائع تقدر ببضعة عشر ألف دينار^(٥)، وفي زمن الخليفة المقتفي لأمر الله نال عون الدين، يحيى بن هبيرة الوزارة، وكانت إيرادات مشاهرتة في كل سنة مائة ألف دينار^(٦)، ولما نجح الخليفة المقتفي لأمر الله في استعادة سلطته في العراق أقطع وزيره عون الدين يحيى بن هبيرة جميع ما كان لووزير السلطان السلجوقي وعماله في بلاد العراق من إقطاعات^(٧)، وفي بعض الأحيان كان الخليفة العباسي يعطي للوزير الرواتب العينية من أرزاق وملابس، فالوزير فخر الدولة أبو نصر محمد بن جهير وزير الخليفة المقتدي بأمر الله، كان راتبه في كل يوم ألف رطل لحم هذا سوى الشوايا والدجاج والحلواء والفاكهة، إضافة إلى الملابس^(٨)، ويتضح أن راتب الوزير في العصر السلجوقي شهد زيادة ملحوظة، فبينما كان راتب الوزير البويهري خمسين ألف دينار في العام أصبح راتب وزير الخليفة في عصر السلاجقة مائة ألف دينار^(٩).

سادساً: امتيازات وشارات الوزير السلجوقي؛

من أولى امتيازات الوزير السلجوقي أن تخصص له دار يجلس فيها عند استدعائه لنيل الوزارة،

(١) دولة آل سلجوق، ص ١٢، الوزارة العباسية، ص ٦٧.

(٢) دولة آل سلجوق، ص ٢٤، الوزارة العباسية، ص ٦٧.

(٣) المنتظم (٩٠/٩)، الوزارة العباسية، ص ٦٨. (٤) الفخري، ابن طباطبا، ص ٦٨.

(٥) المنتظم (١٠/٩)، الوزارة العباسية، ص ٦٨. (٦) الوزارة العباسية، ص ٦٨.

(٧) دولة آل سلجوق، ص ٢١٥، نظام الوزارة، ص ١٣١. (٨) رسوم السلاجقة ونظمهم الاجتماعية، ص ٨٦.

(٩) الفخري، ابن طباطبا، ص ٢٢٧، الوزارة العباسية، ص ٦٩.

ومن امتيازات الوزير السلجوقي، أنه كان يضرب على بابه الطبول في أوقات الصلوات دلالة على فخامته وعظمة منزلته، فعندما نزل الوزير مؤيد الملك بن نظام الملك بداره في سنة ٤٧٥هـ ضرب له النوبة على بابه، وكان يحق للوزير مرافقة السلطان السلجوقي في الأعياد والمناسبات وأثناء تفقده الأقاليم والولايات، وكان يحق له حضور المجلس العام للسلطان^(١)، ويمتاز موكب الوزير أثناء خروجه مع السلطان، أو لاستقبال وفد الخليفة والدول، بالفخامة والأبهة، ويذكر البنداري أن موكب الوزير عميد الملك الكندري أبي نصر محمد بن منصور، عندما دخل مع السلطان طغرل بك إلى بغداد سنة ٤٤٧هـ امتاز بالفخامة والهيبة بحيث لا يقل عن هيئة موكب السلطان^(٢)، ومن امتيازات الوزير السلجوقي، عندما يخرج من الديوان متجها للجامع أو للبيت كان يسير في موكب فخم بين يديه الغلمان حاملين السيوف، فعندما خرج الوزير كمال الملك أبو الحسن بن أحمد السميرمي من بغداد إلى همدان، ركب الوزير وكان بين يديه الغلمان حاملين السيوف^(٣)، فضلاً عن ذلك كان للوزير السلجوقي علامة خاصة به وهي بمثابة التوقيع، فالوزير نظام الملك أبو علي الطوسي كانت علامته «الحمد لله على نعمه»^(٤). و«الحمد لله المنعم»^(٥) وأما بالنسبة لراتب الوزير، فلكون هؤلاء الوزراء من الأغنياء فإنهم لم يكن الراتب الشهري دافعاً لهم للتطلع إلى الوزارة^(٦).

كما كان أغلب وزراء السلاجقة يقدمون الكثير من الهدايا الثمينة والأموال إلى السلطان لينالوا منصب الوزارة، فالوزير فخر الملك أبو الفتح المظفر بن نظام الملك أبو علي الطوسي، قدم الكثير من الأموال والهدايا الثمينة للسلطان بركيارق بن ملكشاه، عندما أراد الوصول إلى دست الوزارة^(٧). وعلى الرغم من غنى وزراء السلاطين، فإن سلاطين السلاجقة خصصوا لوزرائهم رواتب شهرية أو منحة مالية، حيث أخذ الوزير نظام الملك أبو علي الحسن الطوسي راتباً قدره عشر مال السلطان^(٨)، كما خلع السلطان ملكشاه على الوزير نظام الملك أبي علي الطوسي عندما نال الوزارة خلعاً وأعطاه عشرين ألف دينار. كما نال وزراء السلاطين الكثير من المنح والقطائع عند توليهم دست الوزارة، فقد أعطى ملكشاه وزيره نظام الملك أبا علي الطوسي بلدة طوس^(٩).

(١) رسوم السلاجقة ونظمهم الاجتماعية، ص ٨٦.

(٢) دولة آل سلجوق، ص ١٢، الوزارة العباسية، ص ٧٠. (٣) الوزارة العباسية، ص ٧٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٠، دولة آل سلجوق، ص ٥٩. (٥) الوزارة العباسية، ص ٧٠.

(٦) نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ١٢٩. (٧) الوزارة العباسية، ص ٧٠.

(٨) المصدر نفسه، ص ٧١، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٤١٢.

(٩) الوزارة العباسية، ص ٧١.

صلاحيات الوزير العباسي والسلجوقي

أولاً: صلاحيات الوزير العباسي:

١- الإدارية:

ازداد عدد الدواوين في العصر العباسي وكثرت واجباتها وتركبت وتعقدت تشكيلاتها الإدارية، لكي تلبي حاجة الدولة والمجتمع الكبير الذي تنظم شئونه وقد أصبح توزيع أعمال الدواوين دقيقاً بحيث لم يكن هناك مرفق من مرافق الدولة والمجتمع إلا وله ديوان يختص بشئونه ويعنى بمشاكله، ونتيجة لأهمية الدواوين فقد أوكل خلفاء بني العباس لوزرائهم الإشراف على هذه الدواوين وخوّلوا لهم تعيين رؤساء هذه الدواوين وعزلهم^(١). فضلاً عن أن الوزراء العباسيين كانوا حريصين على تنفيذ أوامر الخليفة، حيث يقوم الوزير باستدعاء القضاة إلى دار الوزارة وإبلاغهم بقرار تعيينهم أو عزلهم^(٢). وفي زمن الخليفة المقتدى بأمر الله، نال الوزير عميد الدولة محمد بن محمد بن جهير منصب الوزارة، وأصبحت له مكانة عالية عند المقتدى لدرجة أن الخليفة فوضه جميع أمور الدولة^(٣)، كما فوض الخليفة المستظهر بالله أمور الخلافة إلى وزيره أبي منصور عميد الدولة محمد بن جهير، فأجاد في إدارة أمور البلاد، ونظم شئونها^(٤). ولما بويع الخليفة المستنجد بالله بالخلافة سنة ٥٥٥ هـ نصب عون الدين يحيى بن هبيرة على الوزارة، وفوض إليه أمور البلاد وقال له: انهض أنت إلى الديوان لتنفيذ المهام وتثق بشمول الإنعام ولتأمر بالحاضرين بالانكفاء إلى الخدمات. وعندما استلم الوزير مهامه قبض على القاضي علي بن المرخم الذي عرف بسوء تصرفه وسوء عدله وأخذ الرشاء من الرعية، وأخيراً أمر الوزير بمصادرة أمواله^(٥)، ومن صلاحيات الوزير العباسي أنه كان ينوب عن الخليفة في بعض المناسبات فمنها أن الوزير كان يجلس نيابة عن الخليفة في مجلس العزاء^(٦)، ففي سنة ٤٨٦ هـ توفي جعفر بن الخليفة المقتدي بأمر الله فجلس الوزير عميد الدولة محمد بن جهير للعزاء به ثلاثة أيام^(٧).

ومن صلاحيات الوزير أنه يجلس نيابة عن الخليفة في مجلس الهناء، فعندما ولد للقائم

(١) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الوزارة العباسية، ص ٧١.

(٢) تحفة الأمراء، ص ٨٤، الوزارة العباسية، ص ٧٣. (٣) الوزارة العباسية، ص ٧٤.

(٤) المنتظم (٨٢/٩)، الوزارة العباسية، ص ٧٤. (٥) المنتظم (١٠/١٩٣، ١٩٤).

(٦) الوزارة العباسية، ص ٧٥.

(٧) المنتظم (١٦٥/٩)، الوزارة العباسية، ص ٧٥.

ولده ذخيرة الدين أبو العباس بن القائم سنة ٤٤ هـ جلس الوزير رئيس الرؤساء أبو القاسم علي بن حسن بن مسلمة ثلاثة أيام للهناء، وحضر عميد الملك أبو نصر بن منصور الكندري وجماعة الأمراء^(١). فضلاً عما تم ذكره، فإن صلاحيات الوزير العباسي بدأت تزداد اتساعاً لدرجة أنه أخذ على عاتقه متابعة موظفيه فيما يقومون به من أعمال وعندما يثبت لديه سوء أعمال موظفيه والاشتباه بسوء نياتهم سرعان ما يقوم بحسابتهم واعتقالهم ومصادرة أموالهم، كما قام باعتقال ومحاسبة الوزراء السابقين وأولادهم وموظفيهم^(٢). وعلى هذا الأساس كان من المحتمل أن بقاء الوزير في منصبه يتوقف على مدى نجاحه في اختيار الموظفين والعمال الأكفاء ومراقبة أعمالهم بدقة، ولذا عمد بعض الوزراء عند توليهم الوزارة إلى عزل الموظفين السابقين، واختيار غيرهم ممن يعتقد أنهم سيتعاونون معه في القيام بأعمال الدولة الإدارية على أفضل وجه، وبذلك أصبح من صلاحيات الوزير العباسي الإشراف على الأعمال الإدارية والمالية للدولة^(٣)، وتعيين وعزل ولاة الأقاليم^(٤)، خاصة الأقاليم التي كانت خاضعة للنفوذ الخليفة العباسي فسرعان ما يقوم الوزير العباسي باختيار الموظفين الذين يكونون محل ثقة فيعينهم ولاة لهذه الأقاليم، لكي يؤمنوا وصول جبايات الأقاليم إلى خزانة الخلافة^(٥)، وخلال العصور العباسية المتأخرة، أصبحت صلاحيات الوزير واسعة لدرجة أنه أخذ ينظر في المظالم بعد أن كانت من صلاحيات الخليفة العباسي، فالوزير أبو شعجاع محمد بن الحسن الروذراوري^(٦) وزير الخليفة المقتدى بأمر الله ٤٦٧ هـ، كان يجلس للمظالم بعد صلاة الظهر، وكان الحجاب ينادون في الناس لرفع قصص المظالم إلى الوزير للنظر فيها^(٧)، وأنيط بالوزير العباسي مسئولية حفظ الأمن والنظام في الدولة وكشف المؤامرة والدسائس التي تهدد كيان الدولة العباسية، من ذلك أن الوزير رئيس الرؤساء أبا القاسم علي بن حسن بن أحمد بن مسلمة أعلم الخليفة القائم بأمر الله بنوايا البساسيري^(٨)، ومراسلته لليازوري وزير المستنصر بالله الفاطمي بمصر مستهدفاً خلع القائم بأمر الله، فلما تحقق من صحة ما نسب إلى البساسيري، حاول التخلص منه نهائياً^(٩). ويقول الثعالبي إن من صلاحيات الوزير هي: يتعين على الوزير أن يمعن النظر في دقائق المملكة، وتحسينها وما يعود بقوتها، وتمكينها، ويذكي العيون، ويستعلم الأخبار، ولا يغفل عن خلل يتوهم، وفساد

(١) دولة آل سلجوق، ص ١٤، الوزارة العباسية، ص ٧٦.

(٢) الحياة السياسية في العراق، ص ١٥٨، الوزارة العباسية، ص ٧٦.

(٣) الأحكام السلطانية، ص ٢٧، الوزارة العباسية، ص ٧٧. (٤) المصدر نفسه.

(٥)، (٦) الوزارة العباسية، ص ٧٧. (٧) النجوم الزاهرة (١١١/٥).

(٨) تاريخ بغداد (٩/ ٤٥٠)، الوزارة العباسية، ص ٧٨. (٩) المتظم (٨/ ١٦٣).

يظهر، فقد قال الحكيم: لا تتهاون بصغير يحتمل الزيادة^(١).

٢- السياسية: كان الوزير العباسي من صلاحياته السياسية أنه مسئول عن استقبال الوفود قبل دخولهم إلى حضرة الخليفة، ويقوم بأداء مراسيم الضيافة والتوديع^(٢)، فعندما خرج السلطان السلجوقي ملكشاه من بغداد متوجهاً نحو أصفهان وكان معه وزيره نظام الملك أبو علي الحسن بن إسحاق الطوسي، خرج الوزير العباسي محمد بن حسين بن عبد الله أبو شجاع لتوديعه، فودعه في النهروان^(٣)، وكذلك عندما دخل السلطان السلجوقي مسعود بن محمد بن ملكشاه بغداد في سنة ٥٤٦هـ، خرج الوزير العباسي عون الدين يحيى بن هبيرة، وأرباب الدولة في موكب فخيم لاستقباله^(٤)، فضلاً عن ذلك، فإن صلاحيات الوزراء ازدادت بحيث كانوا يتولون أخذ البيعة للخليفة عند توليه ويشرفون على المراسم الخاصة بذلك^(٥)، ومن صلاحيات الوزير العباسي أنه كان يقوم بدور السفير بين الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي حاملاً الرسائل إلى أمراء السلاطين وناقلاً إليهم آراء وأوامر الخليفة وبالعكس، فقد كان الخليفة القائم بأمر الله والخليفة المقتدي بأمر الله يوفدان الوزير عميد الدولة محمد بن محمد بن جهير في رسائل إلى سلاطين السلاجقة^(٦). فضلاً عن ذلك أصبح الوزير له الحق أن يجلس مع الخليفة ويتشاور معه في أمور البلاد، لدرجة أن الخليفة المقتفي لأمر الله عندما استوزر شرف الدين علي بن طراد الزنبي، كان لا يستطيع الخليفة أن يثبت في أمر من أمور الخلافة إلا بمشورته^(٧)، ونال الوزير العباسي صلاحيات واسعة حيث أخذ يكتب ويراسل ويتفاوض مع أمراء الأطراف والإمارات المتاخمة الذين أبدوا العصيان للخليفة العباسي، فعندما نال فخر الدولة، أبو نصر محمد بن جهير منصب الوزارة، كانت بعض الأطراف المتاخمة ترفض إبداء الولاء للخليفة العباسي، إلا أن حسن مراسلة الوزير وطيب علاقته وحسن سفارته مع أمراء الأطراف، استطاع أن يعيد هذه الإمارات وأن تبدي ولاءها للخليفة العباسي^(٨)، فضلاً عن ذلك فإن الوزير العباسي أخذ يحضر مجلس الخليفة، عند قدوم سلاطين السلاجقة وأمراء الأطراف، ثم يقوم بقراءة القرارات التي اتخذها الخليفة، وإبلاغها للوفود الحاضرة في مجلس الخليفة^(٩).

٣- المالية: اتسعت صلاحيات الوزير المالية خلال العصور العباسية المتأخرة خاصة في

(٢) الحياة السياسية في العراق، ص ١٠٨.

(٤) الوزارة العباسية، ص ٧٩.

(٦) الوزارة العباسية، ص ٨١.

(١) تحفة الأمراء، ص ٨٠، الوزارة العباسية، ص ٧٨.

(٣) المتظم (٣٧/٩).

(٥) النظم الإسلامية، دراسة تاريخية، فاروق عمر، ص ٦٦.

(٧) المتظم (٨٥/١٠).

(٨)، (٩) الوزارة العباسية، ص ٨٣.

ظل الوزراء الأقوياء الذين سيطروا على زمام الأمور، فقد أصبح الوزير يشرف على القطاعات الخاصة بالخليفة العباسي فالوزير عميد الدولة محمد بن محمد بن جهير عندما نال دست الوزارة كسب ود الخليفة وأثبت مقدرته الإدارية، باشر هذا الوزير بالإشراف على قطائع الخليفة^(١)، كما حمل الوزراء على عاتقهم مسئوليات توفير المواد الغذائية للسكان وبأسعار ثابتة - معقولة - فالوزير ظهير الدين أبو شجاع الروذراورى عندما نال الوزارة في سنة ٤٧٦هـ منع وعاقب الموظفين الذين يحاولون استغلال مناصبهم لتحقيق رغباتهم الشخصية كالاكتداء على أموال الناس وبذلك عم الرخاء، وانخفضت أسعار المواد الغذائية^(٢). ويذكر الثعالبي: أن من أهم الصلاحيات المالية للوزير العباسي هي السعي في عمارة البلاد، وإصلاح خللها، وتثمين الأموال والمزروعات، وبالأموال تشمخ وتكثر الأعوان^(٣)، فضلاً عن الإشراف على دخل الدولة من الأموال والمجوهرات والمواد النفيسة التي تضاف إلى بيت المال، ومعرفة مصروفاتها على مؤسسات الدولة، وما يصرف على بلاط الخليفة وغيرها من الأموال^(٤)، وأشرف الوزراء على إصلاح الأراضي الزراعية وسد البثوق وعمارة البلاد وزيادة واردات المال، كما نال الوزراء صلاحيات واسعة بينها الماوردي قائلاً: يجوز للوزير أن يتصرف في أموال بيت المال يقبض ما يستحق له ويدفع ما يجب فيه^(٥).

٤- العسكرية: نال الوزراء مكانة مرموقة لدى خلفاء بني العباس، ولذا أوكلوا إليهم قيادة الجيوش العباسية لمحاربة أي عدوان أجنبي، كما خولوا لهم الإشراف على الجيوش العباسية، فقد لعب الوزير يحيى بن هبيرة دوراً لامعاً في قيادة الجيوش العباسية التي سرعان ما هددت كيان الدولة السلجوقية والقضاء عليها في العراق^(٦)، وقد شارك كثير من وزراء بني العباس خلفاءهم في قيادة الجيوش لمحاربة، فعندما خرج الخليفة المسترشد بالله لقتال السلطان مسعود السلجوقي في سنة ٥٢٩هـ خرج الوزير علي بن طراد الزيني معه إلا أنه وقع في الأسر مع الخليفة العباسي، كما وقف الوزير علي بن الحسن بن صدقة إلى جانب الخليفة العباسي المسترشد بالله في قيادة العساكر ومقارعة السلاجقة^(٧)، فضلاً عن ذلك فإن الوزير يتولى استعراض الجيوش في المناسبات وقيادة الجيوش العباسية لقمع الفتن والاضطرابات في الأقاليم التابعة والخاضعة لنفوذ الخليفة العباسي^(٨)، كما خول للوزير

(١) دولة آل سلجوق، ص ٣٧، الوزارة العباسية، ص ٨٤. (٢) وفيات الأعيان (٥/ ١٣٥، ١٣٦).

(٣) تحفة الأمراء، ص ٦٩، الوزارة العباسية، ص ٨٥. (٤) الأحكام السلطانية، ص ٢٧.

(٥) الوزارة العباسية، ص ٨٦.

(٦) المنتظم (١٠/ ٢١٤).

(٧) الوزارة العباسية، ص ٨٦.

(٨) المنتظم (١٠/ ٢١٤).

العباسي صلاحيات تقديم المشورات العسكرية للخليفة العباسي ولما طلب السلطان محمد شاه من السلطان محمود بن الخليفة العباسي المقتضي لأمر الله، مبلغاً من المال مقداره ثلاثون ألف دينار مقابل رفع الحصار عن بغداد، أشار الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة على الخليفة بعدم دفع المبلغ المحدد للسلطان، وإن وجب صرفه لإعداد جيش جرار للخلافة يمكن من خلاله صد قوات السلطان محمد شاه فقبل الخليفة رأي الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة، وفوض إليه إعداد هذا الجيش^(١)، ولذلك كان للوزير عون الدين يحيى بن هبيرة الدور الفاعل في قمع إمارة السلاجقة^(٢)، كما أصبحت مهام الوزير مقتصرة على تسيير الجيوش وتدبير الحروب^(٣)، ويذكر الثعالبي أن من مهمات الأمور أن ينظر في أمر الأجناد فيسوسها على ما يليق بها، ويولي عليهم العراض فيكتب حللهم وشتات خيلهم، وصفات أسلحتهم، ويثبت أقطاعهم، وأرزاقهم، ويعجل ما يستحق منها^(٤)، ويضيف الثعالبي أن صلاحيات الوزير هي: حسن النظر في أمور الجند، فلا يؤخر عنهم العطاء، ولا يلجئهم إلى الشعب والغوغاء، ويسوسهم، ويؤلف كلمتهم^(٥).

ثانياً: صلاحيات الوزير السلجوقي:

١- الإدارية: أصبح الوزير السلجوقي ثاني شخصية مهمة في الدولة يأتي بعد السلطان السلجوقي حيث وكل للوزير الإشراف على جميع مرافق الدولة^(٦)، فعندما دخل السلطان السلجوقي طغرل بك محمد بن ميكائيل بن سلجوق إلى بغداد في سنة ٤٤٧هـ، استقبله أصحاب المناصب العالية، وعندما استقر ببغداد أطلق يد وزيره عميد الملك أبي نصر محمد بن منصور الكندري في الحل والعقد والحبس والإطلاق والنظر في المظالم^(٧)، وعندما استقر السلطان السلجوقي ألب أرسلان على عرش السلطنة في عام ٤٥٥هـ، أسند منصب الوزارة إلى الوزير نظام الملك أبي علي الحسن بن إسحاق الطوسي، فحول إليه مطلق الصلاحيات من حل وعقد، وقبض وبسط وتفويض وعزل^(٨)، وبذلك سيطر الوزير السلجوقي على جميع مرافق الدولة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولم يترك للسلطان سوى قيادة الجيوش^(٩). وبالرغم من الصلاحيات الواسعة للوزير السلجوقي إلا أنه كان مسئولاً عن تصرفاته أمام السلطان

(١) دولة آل سلجوق، ص ٢٠٥.

(٢) البداية والنهاية، نقلاً عن الوزارة العباسية، ص ٨٨.

(٣) الأحكام السلطانية، ص ٢٧.

(٥) المصدر نفسه، ص ٦٩، الوزارة العباسية، ص ٨٨.

(٦) السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص ٢١٠.

(٨) الوزارة العباسية، ص ٨٩.

(٧) دولة آل سلجوق، ص ١٣.

(٩) السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص ٢١٠.

السلجوقي، وغالباً ما كان يجذره في حالة وقوعه في بعض الأخطاء ويمنعه من تكرارها وإلا فسوف يخضع لأشد العقوبة، كما يتضح من خلال الدراسة أن الصلاحيات الإدارية للوزير السلجوقي في العصور العباسية المتأخرة كانت أقوى من صلاحيات الوزير العباسي، وذلك لأنه يستمد قوته من قوة السلطان السلجوقي صاحب النفوذ الفعلي في الدولة العباسية^(١).

٢- السياسية: يعد الوزير السلجوقي أهم شخصية سياسية بعد السلطان حيث يشغل أرفع منصب في الدولة^(٢)، فكان يشرف على شئون الدولة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، خاصة إذا كان الوزير يمتلك خبرة إدارية عالية، وملماً بقوانين الوزارة كنظام الملك أبي علي الحسن بن إسحاق الطوسي، فالوزير السلجوقي نال صلاحيات سياسية واسعة، حيث كان الوزير يجلس مع السلطان ويتشاور معه لتحديد ورسم سياسة الدولة السلجوقية^(٣)، وقد أصبح الوزير السلجوقي مفوضاً في تنفيذ وصية السلطان، فالوزير نظام الملك أبو علي بن الحسن الطوسي أصبح مفوضاً في تنفيذ وصية السلطان ألب أرسلان بجعل ابنه ملكشاه أبي شجاع محمد ولياً لعهدده وأن يكون سلطاناً من بعده، فنفذ الوزير ذلك^(٤)، وبذلك لعب وزراء السلاجقة الأقوياء دوراً كبيراً في تنصيب بعض الشخصيات كسلاطين لدولة السلاجقة، خاصة الوزير نظام الملك أبا علي بن الحسن الطوسي وأولاده^(٥). وقد نال وزراء السلاجقة صلاحيات واسعة لدرجة أنهم تحكموا بسلاطينهم، فالسلطان ملكشاه كان لا يستطيع مخالفة أوامر نظام الملك أبي علي الحسن الطوسي لكثرة مماليكه ومحبة الأمراء والعساكر له^(٦)، وكان الوزير السلجوقي مسئولاً عن تنظيم وصول أمراء السلاجقة ودخولهم إلى حضرة الخليفة العباسي، وإعطاء نبذة عن حياة كل أمير، وقد قام بعض وزراء السلاجقة بفض النزاعات الدائرة بين سلاطين السلاجقة حول عرش السلطنة، ومن ثم إجراء مفاوضات الصلح بينهم، مثل ما قام بذلك الوزير كمال الملك ما بين السلطان محمود وعمه سنجر، كما أدى الوزير السلجوقي مهام المترجم في ديوان الخليفة، فعندما دخل السلطان السلجوقي طغرل بك على الخليفة القائم بأمر الله كان مع السلطان وزيره محمد بن منصور الكندري الذي أخذ يترجم كلمات الخليفة العباسي من اللغة العربية إلى الفارسية وبالعكس ليفهمها السلطان السلجوقي^(٧).

٣- المالية: اتخذ سلاطين السلاجقة سياسة جديدة هي توزيع الأراضي على الأمراء وقادة

(٢) السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص ٢١٠.

(١) الوزارة العباسية، ص ٩٤.

(٣) الوزارة العباسية، ص ٩٤.

(٤)، (٥) النجوم الزاهرة (١٣٤/٥)، الوزارة العباسية، ص ٩٦.

(٦) التاريخ الباهر، ص ١٠، الوزارة العباسية، ص ٩٨.

(٧) الوزارة العباسية، ص ١٠٠، المتنظم (١٨٢/٨).

الجيش، وقد أوكلت هذه المهام إلى الوزير السلجوقي حيث حمل على عاتقه مراقبة القطائع وتنظيمها وتحديد قطائع الأمراء^(١)، وكان الوزير مسئولاً عن خزانة السلطان الخاصة، والمكلف بجمع الأموال من الولايات الخاضعة لنفوذ السلطان السلجوقي وتأمين وصولها إلى خزائن السلطان الخاصة، وقد اتسعت صلاحيات الوزير السلجوقي لدرجة أنهم أخذوا يتصرفون بخزائن السلطنة، وقد ذكرت والددة السلطان محمود بن محمد في سنة ٥١٢ هـ للسلطان سنجر، فقالت له: أدرك ابن أخيك وإلا تلف فإن الأموال قد تمزقت والبلاد أشرفت على الأخذ، وهو صبي وحوله من يلعب بالملك. فكان الوزير أبو القاسم علي بن القاسم الانسبادي^(٢)، سعى التدبير حيث أنفق ما في خزائن محمد شاه في أربعة أشهر وباع الجواهر والأثاث لصرفها على العساكر لكسبهم إلى جانبه خوفاً من مجيء السلطان سنجر شاه إلى البلاد^(٣).

٤- العسكرية: تميزت إمارة السلاجقة بكونها دولة حرب استطاعت أن تكون إمبراطورية عظيمة معتمدة على قوتها العسكرية، ولذا كان لا بد من توفير مستلزمات ديمومتها وبقائها من خلال توفير احتياجات الجيش الفعلية، من أرزاق ومصروفات، ولذا أوكلت هذه المهام إلى الوزير السلجوقي بحيث أصبحت من صلاحياته العسكرية، فالوزير كمال الدين محمد بن علي الخازن، كان يعطي للجيش مؤناً بقدر وحساب^(٤). فضلاً عن ذلك فإن الوزير السلجوقي عمل جاهداً لجباية الأموال من البلاد والإمارات الخاضعة تحت نفوذ السلطان السلجوقي، لغرض توفير الرواتب والمخصصات المالية وصرفها للجند؛ ولذا قرر لكل جندي ألف دينار في السنة^(٥)، كما حاول بعض الوزراء الأقوياء كنظام الملك أبي علي الحسن الطوسي أن يحدد الأهداف للدولة السلجوقية، والعمل على تحقيقها، مما دفعه إلى الاهتمام بالجيش لتحقيق الأهداف المرسومة له ومنها التوسع في آسيا الصغرى^(٦). كما أصبح الوزير السلجوقي مسئولاً عن إعداد الجيوش وتسليحها بأنواع الأسلحة لغرض إخماد الحركات التي ثارت ضد سياسة السلطان السلجوقي طوال مدة حكمهم، فعندما نشبت الحرب بين السلطان ألب أرسلان وقتلمش^(٧)، في سنة ٤٥٦ هـ قام الوزير نظام الملك أبو علي الطوسي بتعبئة الكتائب وتسليحهما ومن ثم قيادة الجيش، مما أدى إلى تحقيق النصر على قتلمش^(٨)، وقد اهتم وزراء السلاجقة اهتماماً كبيراً بنواحي الجيش بحيث شمل جميع مرافقها، خاصة نظام الملك أبا علي الحسن بن إسحاق الطوسي الذي أعطى للجيش أهمية كبيرة^(٩).

(١) العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٥٨٢، ٥٨٣.

(٢) الوزارة العباسية، ص ١٠٣. (٣) النجوم الزاهرة (٨/ ١٦٩).

(٤) راحة الصدور، ص ٣٣٣، الوزارة العباسية، ص ١٠٤.

(٥)، (٦) دولة آل سلجوق، ص ٦٠، الوزارة العباسية، ص ١٠٤.

(٧) الوزارة العباسية، ص ١١٠. (٨) المصدر نفسه، ص ١٠٥.

(٩) الوزارة في عهد السلاطين، ص ٣٩، الوزارة العباسية، ص ١٠٨.

المبحث الرابع العزل والمصادرة لوزراء بني العباس والسلاجقة

أولاً: العزل والمصادرة لوزراء بني العباس:

تظاهرت عدة عوامل لظاهرة العزل والمصادرة للوزراء في العصر العباسي، وبعد العامل السياسي من أهم العوامل التي دفعت خلفاء بني العباس إلى عزل وزرائهم ومصادرتهم، حيث برزت خلال هذا العصر ظاهرة وجود وزيرين في آن واحد^(١)، أحدهما للخليفة العباسي والثاني للسلطان السلجوقي، فكان الاثنان في صراع مستمر للحصول على النفوذ السياسي المرموق والسيطرة، مما دفع الاثنين إلى توجيه الاتهامات السياسية لبعضهما البعض عند خلفائهم وسلاطينهم لغرض عزلهم^(٢)، كما أن ظلم الوزير لرعيته من الأسباب التي دفعت الخليفة العباسي إلى عزل وزيره^(٣)، ففي سنة ٥٦٣ هـ نال أبو جعفر أحمد بن محمد بن البلدي، منصب الوزارة، وأصبح ظلم هذا الوزير على الكتاب والعمال وأولاد الوزراء السابقين أمراً مألوفاً فذهب ضحية لهذه المعاملة الجائرة كل من أولاده الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ورئيس الرؤساء، فصادر أموالهم وسلب قطائعهم، وبذلك ساءت سمعة هذا الوزير، مما دفع الخليفة المستنجد بالله إلى عزله^(٤)، ومن الأسباب في العزل، قلة خبرة الوزير الإدارية وقصور كفايته، وعجزه في إدارة أمور البلاد، مما دفع خلفاء بني العباس إلى عزل وزرائهم^(٥)، ففي سنة ٤٥٤ هـ عزل الخليفة القائم بأمر الله وزيره أبو الفتح محمد بن منصور بن دارست من وزارته، وذلك لما ثبت قصور هذا الوزير بالحفاظ على الأموال وجمعها من عمال الولايات^(٦)، ومن الأسباب في العزل عدم ولاء الوزير للخليفة وخيائته له مما دفع كثيراً من خلفاء بني العباس إلى عزل وزرائهم^(٧) ففي سنة ٤٦٠ هـ كتب قاضي القضاة محمد بن علي الدماغاني محضراً صادراً من الخليفة العباسي القائم بأمر الله يوعز فيه بعزل وزيره فخر الدولة أبي نصر محمد بن محمد ابن جهير وذلك لما ارتكبه هذا الوزير من أخطاء في حق الخليفة^(٨)، ولما تبين للخليفة المقتضي لأمر الله خيانة الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي، عزله ونسب إليه مواطاة الأتراك وتآمره مع السلطان السلجوقي ضد الخليفة العباسي الراشد بالله^(٩). حيث كتب محضراً وقع

(١)، (٢) الوزارة العباسية، ص ١١٠.

(٣) قوانين الوزارة، للماوردي، ص ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧ الوزارة العباسية، ص ١١٢.

(٤) الوزارة العباسية، ص ١١٢. (٥) قوانين الوزارة للماوردي، ص ١٢١، ١٢٢، ١٢٣.

(٦)، (٧)، (٨) الوزارة العباسية، ص ١١٣.

(٩) الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ٢٢٥، الوزارة العباسية، ص ١١٤.

عليه عدد من القضاة شهدوا فيه زوراً بتعدد المنكرات والكبائر التي اتهموا بها الخليفة العباسي الراشد بالله وبتأييد صريح من السلطان السلجوقي مما أدى على خلع الخليفة ^(١) وزيادة على ذلك كان للوشاة طريق في عزل الوزراء، حيث سخر الواشون العديد من الأساليب لعزل الوزراء، فمنهم من سخر الشعراء في تشويه سمعة الوزير والتقليل من مكانته وإثبات قصوره في إدارة شئون البلاد، مما يدفع الخليفة وعامة الناس إلى المطالبة بعزله وخير دليل على ذلك ما حدث في عام ٥٥٥هـ حيث ذهب بعض الوشاة إلى الخليفة المستنجد بالله لكي يلقفوا الكثير من الكبائر للوزير عون الدين يحيى بن هبيرة، فكتب الخليفة إلى الوزير يعلمه بما جرى في حقه من وشاية في بلاطه، فكتب الوزير للخليفة يقول:

زرعت زروعاً تجتني ثمراتها فلا ذنب لي أن حنظلت شجراتها
فهم نقلوا عن الذي أمه بها وما آفة الأخبار إلا رواتها
يطول على مثلى بأنني كلما سمعت نباحاً من كلاب خسأتها ^(٢)

ومن الملاحظ أن أغلب الوزراء الذين تعرضوا لعملية العزل، لم يفلتوا من التعذيب والتنكيل والقتل والمصادرة ^(٣)، وبالرغم من ذلك حدثت حالات شاذة حيث عزل بعض خلفاء بني العباس بعض وزرائهم على أحسن حال، حيث انصرف هذا المعزول مع حاشيته إلى داره معزلاً مكرماً، وهذا ما حدث في عام ٤٨٤هـ، حيث عزل الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله وزيره أبو شجاع ظهير الدين محمد بن الحسين المروذراوري على أحسن حال، بحيث لم يعزل وزيراً مثله من قبل ^(٤). ومن الملاحظ أن العزل يحدث بطريقتين، إما أن يصدر الخليفة العباسي قراراً بعزله شفاهاً وإما أن يحدث العزل بتقرير خطي مكتوب من قبل الخليفة ^(٥)، وأما المصادرة، فغالباً ما كانت تصاحب ظاهرة العزل، وقد عمد بعض خلفاء بني العباس إذا ما اختلفوا مع وزرائهم إلى عزلهم ومن ثم مصادرة أموالهم المنقولة وغير المنقولة ^(٦).

ثانياً: العزل والمصادرة لوزراء سلاطين السلاجقة:

لم تختلف ظاهرة عزل سلاطين السلاجقة لوزرائهم، عن خلفاء بني العباس من حيث أسباب العزل، فقد لعب العامل السياسي الدور المهم في العزل، خاصة بعد

(١) النجوم الزاهرة (٥/٢٥٨)، الوزارة العباسية، ص ١١٤.

(٢)، (٣) الوزارة العباسية، ص ١١٥.

(٤) الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية، أنور الرفاعي، ص ١١٢.

(٥) الوزارة العباسية، ص ١١٦. (٦) الوزارة العباسية ١١٧.

ازدياد النفوذ السياسي للوزير السلجوقي مما أدى في النهاية إلى توسيع دائرة الصراع بينهما^(١)، ومن أسباب العزل أيضاً، أن بعض الوزراء عندما نالوا منصب الوزارة عجزوا عن تمشية أمور البلاد بشكل صحيح، مما دفع سلاطين السلاجقة إلى عزلهم، فالسلطان بركيارق أراد أن يرد جميل أسرة نظام الملك ومساندتهم له بتعيين أحد أبنائهم وزيراً له ولذلك عين عز الملك الحسن بن نظام الملك وزيراً، إلا أن هذا الوزير كان قليل الخبرة الإدارية لذا عجز عن تمشية أمور الرعية وشئون الدولة بشكل صحيح، مما دفع السلطان بركيارق إلى عزله، واستوزر بدلاً منه أخاه مؤيد الملك عبيد الملك بن نظام الملك^(٢)، ومن الأسباب في العزل أن الوزير الذي تتوافر فيه صفات النزاهة في أداء أعماله وثبوت كفاءته الإدارية، سرعان ما يكون مكروهاً من قبل رجال البلاط لأن نزاهة الوزير تتضارب مع مصلحة رجال البلاط الذين يرغبون في استغلال الناس لتحقيق رغباتهم الشخصية، فعندما نال الوزير، كمال الدين محمد الحسين بن الخازن وزارة السلطان مسعود بن محمد، أثبت هذا الوزير كفاءته الإدارية، وضرب على أيدي رجال البلاط المتلاعبين بقدرات الدولة، وحدد مخصصات الجند، وقطائعهم، ونتيجة لذلك واجه صراعاً حاداً مع رجال البلاط الذين حرضوا أمراء الولايات على التمرد، مما أدى بالنتيجة إلى عزل الوزير وقتله^(٣)، ومن العوامل التي أدت إلى عزل الوزير السلجوقي ظلمه للرعية، كما أسهمت الوشايات كثيراً في عزل الوزراء، ومن المعلوم أن أغلب الوزراء الذين تم عزلهم، تعرضوا لعملية التنكيل والقتل على أيدي سلاطينهم^(٤).

ثالثاً: المنافسة والمساومة على منصب الوزارة العباسية:

يعد منصب الوزارة من أرفع المناصب في الدولة العباسية، وتأتي منزلة الوزير بعد منزلة الخليفة، ولأهمية هذا المنصب أصبح محل منافسة ونزاع لدى رجال البلاط والخاصة لكي ينالوا هذا المنصب^(٥) وخلال العصور العباسية المتأخرة بدأت حالات الضعف تظهر على خلفاء بني العباس من جهة وسلاطين السلاجقة من جهة أخرى، ومما دفع رجال البلاط إلى اتباع طريق الرشوة والفساد وازدياد حالة المنافسة للوصول إلى كرسي الوزارة ومن العوامل التي أدت إلى زيادة حدة الصراع بين الوزير ورجال البلاط والخاصة، قوة الوزير الشخصية وثبات مقدرته الإدارية والسياسية، بحيث تضارب نفوذ الوزير مع نفوذ بعض رجال البلاط، مما أدى إلى توسيع دائرة المنافسة وحدوث التمرد، ففي زمن الخليفة القائم بأمر الله ازدادت

(١) الوزارة العباسية، ص ١٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢١.

(٣) دولة آل سلجوق، نقلاً عن الوزارة العباسية، ص ١٢١. (٤) الوزارة العباسية، ص ١٢٢.

(٥) الوزارة العباسية، ص ١٣٢.

المنافسة بين الوزير رئيس الرؤساء أبي القاسم علي بن الحسن بن مسلمة، وقائد الجيش التركي ابن الحارث أرسلان الباسيري - الذي تأثر بالدعوة الفاطمية العبيدية - وبالنتيجة تمرد الباسيري على الخليفة القائم بأمر الله، واستطاع أن يخرج الخليفة من بغداد - ويحدث انقلاباً خطيراً - ثم إلقاء القبض على الوزير رئيس الوزراء فعذبه وقتله^(١). وقد أدت الأحداث السياسية والصراعات الدائرة بين الخليفة العباسي وأصحاب الولايات والأقاليم الخاضعة لنفوذ الخليفة العباسي إلى نشوء منافسة حادة بين أصحاب الولايات ووزراء الخليفة العباسي، لدرجة أنهم أخذوا يطلبون من الخليفة أن يعزل وزيره، فعندما أراد الخليفة العباسي المسترشد بالله أن يعيد العلاقة مع ديبس بن صدقة صاحب الحلة ويعقد معه الصلح اشترط ديبس على الخليفة أن يقبض على وزيره، فاستجاب الخليفة لطلبه^(٢)، وكذلك فإن إخلاص الوزير في أداء مهامه الإدارية، وحرصه على تطبيق قواعد الشريعة الإسلامية، كالضرب على أيدي رجال البلاط الذين حاولوا اختلاس أموال الرعية، والعمل على زيادة خزانة الدولة وتحديد البلاط، جعلهم يتآمرون على الوزير لعزله، ففي سنة ٥٦٤هـ طبق الوزير شرف الدين أحمد بن محمد بن سعيد بن البلدي قانون الشريعة الإسلامية بقطع أيدي الموظفين الذين سرقوا أموال الرعية، إلا أنه واجه صراع حاد من قبل رجال البلاط كأستاذ الدار وقائد الجيش قيمار التركي^(٣)، ومن الواضح أن الوزير العباسي لم يواجه منافسة من قبل رجال بلاط الخليفة فحسب، وإنما أخذ يواجه منافسة رجال بلاط السلطان السلجوقي ووزرائهم ويتضح من ذلك أن ظاهرة المنافسة التي واجهت الوزير العباسي جاءت نتيجة عدة عوامل وأسباب منها سياسية واقتصادية واجتماعية تضافرت فيما بينها لتؤثر على الوزير وبالتالي على عزله^(٤). وأما بالنسبة للمساومات على الوزارة، فبالنظر لأهمية منصب الوزارة، وما يتمتع به الوزير من مكانة مرموقة لدى الخليفة العباسي أصبح واسع النفوذ سياسياً، واقتصادياً واجتماعياً^(٥)، ولذلك حاول كثير من رجال البلاط والخاصة من ديوان الخليفة الوصول إلى منصب الوزارة بأي ثمن كان، ولذا دفعت هذه الرغبة إلى تفشي ظاهرة المساومات وبذل الأموال لنيل منصب الوزارة^(٦).

رابعاً: المنافسة والمساومة على الوزارة السلجوقية:

ولي منصب الوزارة في العهد السلجوقي عدد كبير من الوزراء حظي بعضهم بشهرة

(١) الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ١٨٨.

(٢) المنتظم (٩/ ٢٣٣).

(٣) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الوزارة العباسية، ص ١٣٤.

(٤)، (٥) الوزارة في عهد السلاجقة، عباس إقبال، ص ٤٣.

(٦) الوزارة العباسية، ص ١٣٥.

واسعة، ومكانة رفيعة، وأسهم بعضهم في توسيع نفوذ السلاجقة، ومن أولئك الوزراء عميد الملك الكندري ونظام الملك أبو علي الحسين الطوسي، وقد استطاع هؤلاء الوزراء أن يستمروا في مناصبهم مدة طويلة بفضل ما كانوا يتمتعون به من كفاية إدارية وعسكرية، بالإضافة إلى ثقافتهم العالية التي أكسبتهم احترام الناس وتقديرهم^(١)، وقد حدث صراع عنيف وحاد بين ترکان خاتون زوجة السلطان ملكشاه والوزير نظام الملك أبي علي الحسن بن إسحاق الطوسي حول تسمية ولي العهد، فترکان خان ترغب في أن يكون ولدها محمود ولياً للعهد بينما كان هوى الوزير في بركيارق -لكونه أكبر إخوته- فاحتدم الصراع بينهما، وكانت الغلبة للخاتون التي تمكنت من تعيين تاج الملك أبي الغنائم بعد مقتل نظام الملك، فضلاً عن ذلك فقد أدت الوشايات إلى استفحال حدة المنافسة وأخذ الواشون يطلقون الاتهامات الباطلة ضد خصومه لغرض عزله من منصبه^(٢)، ففي سنة ٤٧٦هـ وشى به كل من أبي الرضا وابنه سيد الرؤساء أبي المحاسن كمال الملك اللذين كانا يشغلان منصب ديوان الرسائل والطغراء في عهد ملكشاه حيث اتهمهما الوزير نظام الملك بأخذ أموال الدولة لصالحه، فطلباً من السلطان أن يسلمهما إلى الوزير نظام الملك أبي علي الطوسي مقابل مبلغ قدره مليون دينار تدفع للسلطان، إلا أن الوزير علم بالوشاية فجمع الغلمان بسلاحهم وأرسل للسلطان يقول: أفنيت عمري في خدمتك وخدمة أبيك وجدك ولي على هذه الدولة حق الخدمة، لقد قال الوشاة إنني آخذ عشر أموال الدولة، وهذا حق لكبي أنفقها على هؤلاء الغلمان الذين جلبتهم لخدمتك، كما أتصدق ببعض المال وأهب بعضه، وأرصد جانباً منه وقفاً يعود ثوابه على السلطان، وإن أموالي وكل ممتلكاتي في يد مولاي السلطان، إن أرادها أخذها، وسأخذ نفسي موقفاً في زاوية. فأمر السلطان بالقبض على أبي المحاسن وسمل عينيه^(٣).

وتجدر الإشارة إلى أن معظم حالات المنافسة التي ظهرت بين الوزراء ورجال البلاط كانت تنتهي بمقتل الوزير، فقد حدث في سنة ٥١٧هـ أن بعث السلطان سنجر بطلب الوزير عثمان بن نظام الملك وزير السلطان محمود بن ملكشاه إلا أن المنافسين لهذا الوزير أوغروا صدر السلطان لقتله، فقال أبو نصر المستوفي للسلطان: متى بعث به حياً إلى عمك سنجر شاه لم تأمنه، اقتله وابعث برأسه. فبعث عنبر الخادم لقتله فقتله^(٤). وقد حدث أن اصطدم الوزير كمال الدين محمد بن الحسين الخازن وزير السلطان مسعود بن محمد مع رجال البلاط حول تحديد مخصصاتهم وقطائعهم، مما أدى إلى زيادة حدة

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٩.

(١) الوزارة العباسية، ص ١٣٦.

(٣) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الوزارة العباسية، ص ١٤٠.

(٤) المنتظم (٩/٢٤٥، ١٤٦)، الوزارة العباسية، ص ١٤١.

المنافسة بين رجال البلاط والوزير كمال الدين الخازن، مما دفع رجال البلاط إلى تحريض أمراء الولايات والمطالبة بخلع الوزير، ولذلك وقعت وحشة بين الوزير وأمراء الولايات وأخذوا يطالبون بعزله^(١). فكتبوا الأتابك قره سنقر قائلين: لقد ضيقنا بظلم هذا الوزير ويثسنا من الحياة. فأرسل قره سنقر رسالة للسلطان قائلاً: إذا لم ترسل إلى رأس محمد الخازن ويده، ورجحت كفة ذلك الخائن علي فإني لن أذهب إلى المهمة التي كلفت بها، ومعاذ الله أن أتهم بالتمرد والعصيان^(٢). وبذلك أذن السلطان بقتل الوزير^(٣)، وتعد المنافسة من أهم العوامل التي أدت بأي شكل من أشكالها إلى حدوث تنازعات بين الوزراء ورجال البلاط، وبين الوزراء والسلاطين، وبالتالي انعكست على الأسرة السلجوقية، فأصابتها الانقسامات والضعف وبدا الصراع واضحاً بين سلاطين السلاجقة، مما أدى إلى إضعاف الدولة السلجوقية وانهارها^(٤)، وقد لعبت المساومة دوراً بارزاً في إيصال بعض العناصر الهزيلة إلى دست الوزارة والذين عرف عنهم قلة كفاءتهم الإدارية وجهلهم بأمور الدولة لدرجة أنهم أصبحوا العوبة بيد رجال الهلاط^(٥)، كما برزت المساومات واستفحلت لدرجة أن أمراء الولايات تخلصوا من منافسيهم من الوزراء، وساعدهم في ذلك حب السلطان للمال^(٦)، ففي سنة ٥٢٣هـ طلب الوزير كمال الدين أبو البركات الدركزني من السلطان سنجر أن يتوسط له لدى السلطان محمود لنيل دست الوزارة مقابل تعهد الوزير كمال الدين الدركزني بدفع مبلغ من المال للسلطان محمود قدره (٣٠٠٠٠٠٠) دينار على سبيل الرشوة، فاستجاب السلطان محمود لذلك^(٧)، ولكن بالرغم من ذلك ظهرت حالات شاذة رفض فيها بعض سلاطين السلاجقة أسلوب المساومة لنيل دست الوزارة، ففي سنة ٤٧٦هـ، رفض السلطان ملكشاه مساومة أبي الرضا وابنه سيد الرؤساء أبي المحاسن كمال الملك اللذين يعملان في ديوان الرسائل والطغراء، فعمل الاثنان على إرشاء السلطان بإعطاء الكثير من الأموال مقابل عزل وزيره حيث قال أبو المحاسن للسلطان: سلم إليّ نظام الملك أبا علي الحسن الطوسي وأصحابه، وأنا أسلم إليك منهم ألف ألف دينار^(٨)، إلا أن السلطان رفض تلك المساومة وألقي القبض على أبي المحاسن وسمل عينيه^(٩).

(٢،١) راحة الصدور، ص ٣٣٣، ٣٣٤ الوزارة العباسية، ص ١٤٢.

(٣) الوزارة العباسية، ص ١٤٢. (٤) دولة السلاجقة، ص ١٤٠، ١٤١.

(٥) الوزارة العباسية، ص ١٤٢. (٦)، (٧) المصدر نفسه، ص ١٤٣.

(٨) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الوزارة العباسية، ص ١٤٤.

(٩) الوزارة العباسية، ص ١٤٤.

المبحث الخامس

أشهر وزراء الخلفاء العباسيين والسلالة

أولاً: أشهر وزراء الخلفاء العباسيين:

١ - **فخر الدولة بن جهير:** هو محمد بن محمد بن جهير أبو النصر فخر الدولة، ولد بالموصل عام ٣٩٨هـ وبها نشأ، عاش بداية حياته في هذه المدينة خالياً من المال والجاه فقيراً معدماً يكاد لغرض نيل العيش الرغيد، واستمرت به الأحوال هكذا حين اتصل بإمبراطور الروم عندما مضى برسالة إليه، فمن خلالها منحه الإمبراطور مبلغاً قدره عشرون ألف دينار، وبذلك تغير أمره من فقير معدم إلى ثري مالك^(١)، وبعد ذلك اتصل الوزير فخر الدولة محمد بن جهير بصاحب ميافارقين وديار بكر^(٢)، استوزره معز الدولة بن صالح بن مرداس، بعدها نال وزارة أحمد بن مروان بن دوستك الكردي^(٣)، وراسل الخليفة القائم بأمر الله فخر الدولة وتم تعيينه وزيراً للخليفة القائم بأمر الله عام ٤٥٤هـ بعدما عزل الوزير أبو الفتح منصور بن أحمد بن دارست^(٤)، ولم تدم حالة الاستقرار عند الوزير فخر الدولة لأنه واجه صراعاً حاداً وطلب الوزير نظام الملك من القائم بأمر الله عزله، فاستجاب الخليفة لطلبه^(٥)، وعلى أثر هذا الصراع قرر الوزير فخر الدولة بن جهير أن يترك بغداد ويتجه إلى الحلة ويستقر بها ليقوم بخدمة نور الدولة ديبس بن مزيد^(٦) وفعلاً مكث هناك مدة من الوقت^(٧). إلا أن الخليفة القائم بأمر الله بعد مدة من الوقت أخذ يطالب بفخر الدولة بن جهير ويطلب منه العودة إلى بغداد لاستلام الوزارة ثانية سنة ٤٦١هـ^(٨) ولما ولي المقتدي بأمر الله الخلافة سنة ٤٦٧هـ أقر فخر الدولة بن جهير على وزارته، بناء على وصية من الخليفة القائم بأمر الله^(٩)، وبعد أربع سنوات عزل فخر الدولة بن جهير من الوزارة للمرة الثانية تلبية لطلب الوزير السلجوقي نظام الملك الذي اتهمه بتدبير الفتنة التي قامت بين الحنابلة والشافعية ببغداد وقتل فيها جماعة من طلاب المدرسة النظامية^(١٠). وعلى إثر ذلك

(١) المختصر في أخبار البشر (٢/ ١٨١).

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٧.

(٥) دولة آل سلجوق، ص ٥٥، الوزارة العباسية، ص ١٤٨.

(٦) الوزارة العباسية، ص ١٤٨.

(٨) دولة آل سلجوق، ص ٣٦.

(٩) الكامل في التاريخ، نقلاً عن نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ١٤٦.

(١٠) وفيات الأعيان (١٢٨/٥)، نظام الوزارة، ص ١٤٧.

(٢) الوزارة العباسية، ص ١٤٦.

(٤) نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ١٤٦.

(٧) النجوم الزاهرة (٥/ ١١).

لزم فخر الدولة داره، وخلفه ابنه عميد الدولة في وزارة الخليفة^(١). وفي سنة ٤٧٦هـ استدعى السلطان ملكشاه فخر الدولة، وعقد له على ديار بكر، وسيره على رأس جيش كبير لانتزاعها من بني مروان وسمح السلطان لفخر الدولة بأن يخطب لنفسه بها، وينتش اسمه على السكة فسار فخر الدولة إلى ديار بكر واستولى عليها^(٢). ويروى أن فخر الدولة عندما رأى احتلال دولة بني مروان اتصل بنظام الملك، ووصف له ما يوجد بديار بكر من ذخائر وأموال، وضمن له الاستيلاء عليها دون عناء، فتحدث نظام الملك مع السلطان ملكشاه في ذلك، فوافق على توجيه فخر الدولة للاستيلاء عليها^(٣). وانتهت حياة فخر الدولة بن جهير بوفاته سنة ٤٨٣هـ، بمدينة الموصل^(٤).

٢- عميد الدولة بن جهير: وكان عميد الدولة أديباً فاضلاً بليغاً، سخيّاً وقائداً عسكرياً محنكاً قاد الجيوش لفتح الموصل، وكان من أعظم الوزراء وأبعدهم أثراً في سياسة الدولة وتديرها، فضلاً عن ذلك فقد عرف بحسن سفارته وأداء مهامه بنجاح، بحيث كسب ثقة الخلفاء وسلاطين السلاجقة، وتعد هذه الصفة من عوامل وصول عميد الدولة بن جهير إلى منصب الوزارة، ففي عام ٤٦٢هـ أرسله الخليفة القائم بأمر الله إلى الري^(٥). وكان الهدف من سفارته هذه هو تحقيق اتفاقية مراسيم خطبة ابنة السلطان لولي العهد المقتدي بأمر الله^(٦)، ولما أثبت عميد الدولة بن جهير حسن سفارته وأداء مهمته بنجاح، زاد من استحسان ورضا الخليفة عليه، مما دفع إلى استوزاره وتكريمه بالخلة^(٧)، كما نال الوزير عميد الدولة بن جهير إحسان ورضا السلطان السلجوقي، مما دفع بالسلطان إلى أن يأمر أتباعه بتقديم الهدايا الثمينة والخلع لعميد الدولة، ومن ثم توديعه بموكب فخم أثناء مروره في مدينة أصفهان^(٨)، كما نال عميد الدولة رضا الوزير السلجوقي نظام الملك أبي علي الحسن الطوسي، حيث زوجه ابنته زبيدة في هذه السفرة^(٩). بحيث أصبح هذا الزواج محل خير لعميد الدولة، حيث أعيد للوزارة بعد أن خلعه الخليفة العباسي^(١٠)، ويذكر ابن

(١) الكامل في التاريخ، نقلاً عن نظام الوزارة، ص ١٤٧.

(٢) وفيات الأعيان (١٢٨/٥)، نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ١٤٧.

(٣) نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ١٤٧.

(٤) المنتظم (٥٤/٩)، نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ١٤٧.

(٦) دولة آل سلجوق، ص ٤٥، ٤٦، الوزارة العباسية، ص ١٥٢.

(٧) خلفاء بني العباس ووزرائهم في العهد السلجوقي، ص ١٢١.

(٨) دولة آل سلجوق، ص ٤٥، ٤٦.

(٩) البداية والنهاية، نقلاً عن الوزارة العباسية، ص ١٥٣.

(١٠) المنتظم (٦/٩)، دولة آل سلجوق ص ٣٧.

الجوزي أن الخليفة القائم بأمر الله كان معجباً بابن جهير، فقد خاطب المقتدي بقوله: يا بني قد استوزت ابن المسلمة وابن دارست وغيرهما فما رأيته مثل ابن جهير^(١). بقي عميد الدولة وزيراً للخليفة المقتدي بأمر الله حتى عام ٤٧٦هـ ثم عزل، وخلفه أبو شجاع الروذراوري، فخرج عميد الدولة مع والده وأسرتهم من بغداد، وساروا إلى الري، حيث عقد لأبيه فخر الدولة على ديار بكر^(٢). أما هو فقد سيره السلطان ملكشاه على رأس جيش كبير لفتح الموصل، ونجح عميد الدولة في إعادة الموصل إلى حظيرة الدولة السلجوقية بدون قتال^(٣). وفي سنة ٤٨٤هـ ولي عميد الدولة ابن جهير الوزارة للمرة الثانية بوساطة الوزير نظام الملك، ويروى أن هذا الوزير وكبار أمراء السلاجقة ساروا إلى عميد الدولة، وهنأوه بالوزارة^(٤). ولما تولى المستظهر بالله الخلافة في سنة ٤٨٧هـ، أقر عميد الدولة في الوزارة، وفوضه في تدبير أمور دولته^(٥)، فظل يلي وزارته حتى عام ٤٩٣هـ، ثم قبض عليه الخليفة، وسجنه فتوفي في محبسه^(٦). وكان عزل هذا الوزير بتدبير من الوزير السلجوقي مؤيد الملك بن نظام الملك^(٧). كان عميد الدولة بن جهير من أكفأ وزراء الخلافة العباسية في العهد السلجوقي، ويصفه المؤرخون بأنه كان حسن التدبير، كافياً في المهمات، كثير الصدقات واسع المعروف، خاصة على العلماء^(٨)، ويذكر ابن خلكان أن الوزير نظام الملك كان معجباً بعميد الدولة، وكان يستشيريه في أهم أمور الدولة، ويقدمه على أكفأ الموظفين في الإدارة السلجوقية^(٩). كما كان هذا الوزير من المهتمين بالأدب والحديث والفقه، ودرس مختلف أنواع العلوم^(١٠).

٣- الوزير أبو شجاع محمد بن الحسين الروذراوري: هو الوزير ظهير الدين أبو شجاع محمد بن الحسين بن عبد الله بن إبراهيم من أهالي رودراور، ولد سنة ٤٣٧هـ، يقول ابن الجوزي إن الوزير أبا شجاع يعود أصله إلى بلدة رودراور من نواحي همذان، أحوازي المولد^(١١). ولي أبو شجاع الوزارة للمرة الأولى في سنة ٤٧١هـ، خلفاً للوزير فخر الدولة

(١) المنتظم (١٨١/٩)، الوزارة العباسية، ص ١٥٣.

(٢) تاريخ الفارقي، ص ٢٠٨، نظام الوزارة العباسية، ص ١٥١.

(٣) الكامل في التاريخ نقلاً عن نظام الوزارة العباسية، ص ١٥١.

(٤) المنتظم (٥٧/٩)، دولة آل سلجوق، ص ٧٣.

(٥) المنتظم (٥٨/٩)، نظام الوزارة، ص ١٥١.

(٦) وفيات الأعيان (١٣٢/٥)، نظام الوزارة، ص ١٥١.

(٧) نظام الوزارة، ص ١٥١.

(٨) المنتظم (١١٨/٩).

(٩) وفيات الأعيان (١٣١/٥)، نظام الوزارة، ص ١٥٢. (١٠) نظام الوزارة، ص ١٥٢.

(١١) المنتظم (٩٠/٩)، الوزارة العباسية، ص ١٥٦.

بن جهير ثم عزل في السنة التالية بعد أن أصلح بنو جهير حالهم مع الوزير نظام الملك. ولما عاد بنو جهير إلى الوزارة بعث السلطان ملكشاه إلى الخليفة يطلب إخراج أبي شجاع من بغداد، فسير الخليفة أبا شجاع إلى أصبهان، ومعه رسول يحمل رسالة بخط الخليفة لنظام الملك ذكر فيها الخليفة منزلة أبي شجاع لديه وفضله ودينه، وطلب من نظام الملك عدم الاستماع لأعداء أبي شجاع. ولما اطلع نظام الملك على رسالة الخليفة، أعاد أبا شجاع إلى بغداد^(١) ويبدو أن طلب إبعاد أبي شجاع من بغداد كان بتدبير بني جهير، خوفاً من منافسته لهم بالوزارة، خاصة أنه كان يتمتع بتقدير واحترام الخليفة، وقد صدق حدس بني جهير فقد عُزل عميد الدولة سنة ٤٧٦هـ وخلفه أبو شجاع في الوزارة^(٢). كان الوزير أبو شجاع رجلاً ديناً خيراً كثير البر والصدقات^(٣)، نجح في ضبط أمور الدولة أثناء وزارته وحفظ للخلافة هيبتها واحترامها^(٤). وكان شديداً في تطبيق قوانين الشرع^(٥)، ولم يترك فرصة للموظفين والعمال لاستغلال وظائفهم والاعتداء على أموال الناس^(٦)، فعم الأمن، وزاد الرخاء، وانخفضت الأسعار^(٧). وكان -رحمه الله- يملك ثروة هائلة بلغت حوالي ستمائة ألف دينار أنفقها على الفقراء والضعفاء والمحتاجين^(٨)، يقول أبو جعفر الخرقى: كنت أنا من أحد عشر يتولون إخراج صدقاته، فحسبت ما خرج على يدي فكان مائة ألف دينار، ووقف الوقوف وبنى المساجد وأكثر الإنعام على الأرامل^(٩). وكان هذا الوزير محبوباً محترماً يؤيده أكثر العامة^(١٠). ويصف ابن خلكان حالة الخلافة في عهده، فيقول نقلاً عن ابن الهمداني: كانت أيامه (أبو شجاع) أوفى الأيام سعادة للدولتين^(١١)، وبركة على الرعية، وأعمها أمناً، وأشملها رخصاً، وأكملها صحة، لم يغارها^(١٢) بؤس ولم تشبها^(١٣) مخافة، وقامت للخلافة في نظره من الحشمة والاحترام ما أعادت سالف الأيام^(١٤)، وظل أبو شجاع يلي وزارة الخليفة المقتدي بأمر الله حتى عام ٤٨٤هـ ثم عزل منها وجاء أمر العزل وهو في الديوان،

(١) طبقات الشافعية (١٣٧/٤)، نظام الوزارة، ص ١٤٨.

(٢) المنتظم (٦/٩)، نظام الوزارة، ص ١٤٨.

(٣) البداية والنهاية نقلاً عن نظام الوزارة، ص ١٤٨.

(٤) وفيات الأعيان (١٣٦، ١٣٥/٥)، نظام الوزارة، ص ١٤٨.

(٥) نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ١٤٨.

(٦) طبقات الشافعية (١٣٨/٤).

(٧) وفيات الأعيان (١٣٦، ١٣٥/٥)، نظام الوزارة، ص ١٤٨.

(٨) الوزارة العباسية، ص ١٥٧.

(٩) المنتظم (٩٠/٩، ٩١).

(١٠) يقصد بالدولتين: الخلافة العباسية والدولة السلجوقية.

(١١) يغارها: أي يصيبها.

(١٢) تشبها: أي تخالطها.

(١٣) وفيات الأعيان (١٣٦، ١٣٥/٥).

تولاهما وليس له عدو وفارقهما وليس له صديق^(١)

ويذكر بعض المؤرخين عدة أسباب لعزل الوزير أبي شجاع، منها أنه كان يعارض طلبات رجال الديوان والجيش التي تتنافى مع الشرع^(٢). ومنها أنه كان شديداً على أهل الذمة، وقد ألزمهم بلبس الغبار^(٣). ولما عزل أبو شجاع من الوزارة خرج إلى الجامع ماشياً، ومعه جماعة من العلماء والزهاد^(٤)، فالتف الناس حوله يصافحونه، ويدعون له، فقبل للخليفة إن أبا شجاع أراد بهذا التشنيع عليه، فصدر أمر الخليفة بأن يلزم أبو شجاع داره، ولا يخرج منها، فبنى أبو شجاع في دهليز داره مسجداً يصلي فيه، وردت أوامر الوزير نظام الملك، بإخراج أبي شجاع من بغداد إلى بلده رودزاور، فسار إليها، وأقام بها مدة^(٥)، ثم توجه منها إلى الحج^(٦)، قال عنه ابن كثير: كان من خيار الوزراء كثير الصدقات والإحسان إلى العلماء والفقهاء وسمع الحديث من الشيخ أبي إسحاق الشيرازي وغيره وصنف كتباً.. ووقف الوقوف الحسنة وأكثر الإنعام على الأرامل والأيتام قال له رجل: إلى جانبنا أرملة لها أربعة أيتام وهم عراة وجياع، فبعث إليهم مع رجل من خاصته نفقة وكسوة وطعاماً، ونزع عنه ثيابه في البرد الشديد، وقال: والله لا ألبسها حتى ترجع إليّ بخبرهم، فذهب الرجل مسرعاً ففقد حاجتهم وأوصلهم ذلك الإحسان، ثم عاد والوزير يركض من البرد فلما أخبره عنهم بما سره لبس ثيابه. وجيء إليه مرةً بقطائف سكر، فلما وضعت بين يديه تنغص عليه بمن لا يقدر عليها، فأرسلها كلها إلى المساجد وكانت كثيرة جداً، فأطعمها الفقراء والعميان وكان لا يجلس في الديوان إلا وعنده الفقهاء فإذا وقع له أمر مشكل سألهم عنه فحكم بما يفتونه، وكان كثير التواضع مع الناس، خاصتهم وعامتهم، ثم عزل عن الوزارة فسار إلى الحج وجاور المدينة^(٧). قال عنه الذهبي: وكان كثير التلاوة والتهجد، ويكتب مصاحف، ويجلس للمظالم، فيغتص الديوان بالسادة والكبراء ويُنَادِي الحُجَّاب: أين أصحاب الخواص؟ فيُنصِف المظلوم، ويؤدِّي عن المحبوس، وله في عدله حكايات في إنصاف الضعيف من الأمير، وخلعت عليه بنت السلطان ملكشاه حين تزوّجت بالمقتدي، فاستعفى من لبس

(١) وفيات الأعيان (١٣٥/٥)، سير أعلام النبلاء (٣٠/١٩).

(٢)، (٣) نظام الوزارة، ص ١٤٩، المنتظم (٥٦/٩).

(٤) المنتظم (٥٦٩/٩)، نظام الوزارة، ص ١٤٩.

(٥) دولة آل سلجوق، ص ٧٣، نظام الوزارة، ص ١٥٠. (٦) نظام الوزارة، ص ١٥٠.

(٧) البداية والنهاية (١٥١/١٦).

الحرير، فنُفذت له عمامة ودبقيّة^(١)، بمائتين وسبعين دينار فلبسها... وكان كاملاً في فنون، وله يد بيضاء في البلاغة والبيان وكتابه طبقة عالية على طريقة ابن مقلّة^(٢)، وزر سبع سنين وسبعة أشهر ثم عزل بأمر السلطان ملكشاه للخليفة لموجدة^(٣). ثم قال الذهبي: ثم حج بعد موت النظام والسلطان والخليفة ونزل المدينة وتزهد. ومات بها ودفن بالبيع سنة ٤٨٨هـ عن إحدى وخمسين سنة^(٤). ونلاحظ من حديثنا عن الوزراء أن أهل الخير والصلاح والعدل هم الذين أثروا في الناس وبقي ذكرهم في المحافل وثناء الخلق عليهم، وما عند الله خير وأبقى، كما أن من الدروس المستفادة تغير الزمان ودوام الحال من المحال فعلى العاقل ألا يركن إلى الدنيا ويبني آماله عليها وعليه أن يحتسب في عماله ويتقي الله ما استطاع.

٤- الوزير الحسن بن علي بن صدقة: نال الوزير جلال الدين أبو الرضا محمد بن أحمد بن صدقة وزارة الخليفة المسترشد بالله عام ٥١٣هـ وعزل عنها في سنة ٥١٦هـ. ويبدو أنه كان لهذا الوزير دور كبير في صد الغارات التي كان يشنها والي الحلة ديبس بن صدقة على بغداد، فلما تقرر الصلح بين هذا والي وبين الخليفة المسترشد بالله، اشترط ديبس على الخليفة أن يعزل وزيره ابن صدقة مقابل عودته إلى طاعة الخلافة فاستجاب له الخليفة، وعزل هذا الوزير^(٥)، ويذكر ابن طباطبا أن عزل جلال الدين بن صدقة، كان تحقيقاً لرغبة الوزير السلجوقي عثمان بن نظام الملك^(٦)، الذي كان يرغب في تولية أخيه أحمد الوزارة للخليفة المسترشد بالله، فولي أحمد بن نظام الملك وزارة الخليفة فعلاً بطلب من السلطان السلجوقي ووزيره^(٧)، ولم يكتف الوزير السلجوقي بذلك، بل طلب من الخليفة أن يخرج جلال الدين بن صدقة من بغداد حتى تخلو الوزارة لأخيه، فلم يجد الخليفة بداً من إخراج وزيره المعزول من حاضره الخلافة^(٨). ولما عزل السلطان محمود وزيره عثمان بن نظام الملك في سنة ٥١٧هـ بادر الخليفة إلى عزل أخيه أحمد بن نظام الملك، وكتب إلى جلال الدين بن صدقة يستدعيه للعودة إلى الوزارة^(٩) قائلاً: أجب يا جلال الدين داعي التوفيق مع من حضر من الأصحاب لتعود في هذه الساعة إلى مستقر عزك مكرماً^(١٠)، وهذا يدل على أن الخليفة

(١) سير أعلام النبلاء (٢٩/١٩). والدبقيّة نوع من الثياب يتسبب إلى دبيق، وهي بلدة بين الفوما وتنيس.

(٢) ابن مقلّة الوزير الكاتب المشهور يضرب بحسن خطه المثل. توفي سنة ٥٣١٦هـ.

(٣)، (٤) سير أعلام النبلاء (٣٠/١٩).

(٥) المنتظم (٢٣٣/٩)، نظام الوزارة، ص ١٥٤.

(٦) الفخري، ص ٢٢١، نظام الوزارة، ص ١٥٥.

(٧)، (٨) المنتظم (٢٣٤/٩)، نظام الوزارة، ص ١٥٥.

(٩) المنتظم (٢٤٥/٩)، (٢٤٦).

(١٠) المصدر نفسه (٢٤٦/٩)، نظام الوزارة، ص ١٥٥.

المسترشد بالله كان مكرها على عزل ابن صدقة من وزارته في السنة السابقة^(١)، وظل جلال الدين بن صدقة يلي وزارة الخليفة المسترشد بالله حتى توفي سنة ٥٥٢هـ وقد قام بدور مهم في مناهضة النفوذ السلجوقي في العراق، فقاد جيشاً لمحاربة السلطان طغرل في سنة ٥١٩هـ الذي قصد بغداد وأرغمه على العودة^(٢)، فلما تولى السلطان محمود السلطنة، حذره السلطان سنجر من الوزير ابن صدقة، ونصحه بالقبض عليه إذا أراد أن يستقر له الحكم^(٣)، ولما عزم السلطان سنجر على المسير إلى بغداد، وقف الوزير ابن صدقة في وجهه، وكتب إليه يمنعه من القدوم إليها، ويهدده بالحرب إن فعل ذلك^(٤). ولما مرض هذا الوزير سنة ٥٢٢هـ عاد الخليفة المسترشد بالله في بيته لما كان له من منزلة رفيعة لديه، وتوفي في العام نفسه^(٥).

٥- الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي: أبو القاسم، وكان نقيب النقباء في أيام الخليفة المستظهر بالله وهو أول هاشمي يلي الوزارة لخلفاء بني العباس^(٦)، كانت له مكانة مرموقة ومنزلة عظيمة، وهو من أصل له حسب ونسب عظيم^(٧)، وقد امتاز هذا الوزير بصفات حميدة جعلته يتصدر وظائف الدولة المهمة، فقد امتاز بحسن تدبيره للأمور، وكان داهية، شجاعاً، مهيباً^(٨)، فضلاً عن ذلك كان عالماً محباً لأهل العلم يقرأ القرآن والحديث، وكان مجلسه عامراً بالفقهاء، ويخلو بنفسه للعبادة^(٩)، وكان حنفي المذهب بارعاً به^(١٠)، وقد كسب ود الخليفة العباسي المسترشد بالله، فتقرب منه، وبعد وفاة الوزير علي بن صدقة سنة ٥٢٢هـ، ناب على بن طراد الوزارة من بعده ثم بعد مدة قصيرة ولاه الخليفة المسترشد بالله الوزارة^(١١)، وعندما جلس الوزير في دست الوزارة قال له الخليفة المسترشد بالله: كل من ردت إليه الوزارة شرف بها إلا أنت فإن الوزارة شرفت بك^(١٢)، وبعد مقتل الخليفة المسترشد السلجوقي وتولية الخلافة لأبي عبد الله بن المستظهر بالله، الذي بويع بالخلافة سنة ٥٣٠هـ وتلقب بالمقتفي لأمر الله استوزر شرف الدين بن طراد الزينبي، فتمتع بسلطة واسعة في وزارته حتى إن الخليفة كان لا يستطيع أن يبيت في أمر من أمور الخلافة إلا بمشورته، وبلغ من نفوذه أنه عندما عين الخليفة بعض الموظفين والعمال سنة ٥٣٤هـ دون أخذ رأيه، استاء

(١)، (٢) نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ١٥٥.

(٣) المنتظم (٩/٢٥٤، ٢٥٥)، نظام الوزارة، ص ١٥٥.

(٤) الفخر بن طباطبا، ص ٢٢٢، نظام الوزارة، ص ١٥٦.

(٥) نظام الوزارة، ص ١٥٦.

(٦) الفخر بن طباطبا، ص ٢٢٢، نظام الوزارة، ص ١٥٦.

(٧) الكامل في التاريخ، نقلاً عن نظام الوزارة، ص ١٥٦.

(٨) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢٤.

(٩)، (١٠) الوزارة العباسية، ص ١٦٢.

(١١) المنتظم (٩/١٠)، الوزارة العباسية، ص ١٦٢. (١٢) الوزارة العباسية، ص ١٦٣.

الوزير من ذلك، وانقطع عن العمل حتى صالحه الخليفة^(١). ولما ازداد تدخل هذا الوزير في شئون الخليفة لم يستطيع الخليفة عزله بل لجأ إلى السلطان السلجوقي مسعود يشكو له من تصرفاته، فأصدر السلطان أمراً بعزل الوزير الزينبي من الوزارة^(٢)، كان شرف الدين الزينبي فقيهاً بارعاً في مذهب الإمام أبي حنيفة، وكان يتمتع بمنزلة رفيعة لدى الناس^(٣). هذا فضلاً عما كان يتصف به من حلم وكرم مع معرفة واسعة بقوانين الوزارة ومتطلباتها^(٤)، بقي شرف الدين الزينبي بعد عزله ملازماً داره حتى توفي في ٥٣٨ هـ^(٥) وكان عمره ستاً وسبعين سنة^(٦)، وقد نسب لهذا الوزير العباسي تعاونه مع الأتراك في عزل الراشد وعد هذا العامل مع عوامل أخرى دفعت بالخليفة العباسي المقتفي لأمر الله إلى عزله وبهذه المناسبة قال الخليفة المقتفي لأمر الله: إذا فعلوا هذا مع غيري فهم يفعلونه معي^(٧).

٦- الوزير عون الدين بن هبيرة: تدرج عون الدين يحيى بن هبيرة في المناصب الإدارية، حيث شغل أولاً منصب كاتب ديوان الزمام ببغداد عام ٥٤٢ هـ، وفي سنة ٥٤٤ هـ نال وزارة الخليفة المقتفي لأمر الله^(٨)، ونتيجة لمكانته المرموقة لدى الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله لقبه، عون الدين^(٩)، كما وزر للخليفة العباسي المستنجد بالله^(١٠). وقد اشتهر الوزير يحيى بن هبيرة باطلاعه الواسع على علوم الفقه والحديث، وكان عالماً بأمور النحو، بليغاً في كتاباته^(١١). شجع العلم والمعرفة من خلال مساهمته ببناء المدرسة في باب البصرة عام ٥٥٧ هـ، وعندما توفي الوزير ابن هبيرة دفن جثمانه في هذه المدرسة، ولشدة تمسكه بمبادئ الدين الإسلامي، رفض لبس الحرير، وكان عادلاً، يخصص جزءاً من وقته للنظر في المظالم ونصرة المظلوم^(١٢). فضلاً عن ذلك فقد عرف عنه سداد الرأي وحسن التدبير^(١٣)، وقد أورد المؤرخون عدة أسباب لتولي ابن هبيرة الوزارة، منها أن الخليفة أمر ابن هبيرة - وكان يتولى ديوان الزمام - أن يكتب للسلطان

(١)، (٢) المتظم (٨٥/١٠) نظام الوزارة، ص ١٥٨.

(٣) النجوم الزاهرة (٢٧٤/٥).

(٤) نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ١٥٨.

(٥) نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ١٥٨.

(٦) البداية والنهاية (٣٣٤/١٦).

(٧) النجوم الزاهرة (٢٦٠/٥)، الوزارة العباسية، ص ١٦٤.

(٨) الوزارة العباسية، ص ١٦٦، تاريخ ابن الوردي (٤٩/٢).

(٩) الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ٢٢٥.

(١٠) دولة آل سلجوق، ص ٢٠٥.

(١١) الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ٢٢٥.

(١٢)، (١٣) النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، ص ١٥٧.

السلجوقي، فكتب ابن هبيرة رسالة طويلة للسلطان السلجوقي ذكر فيها ما عرف عن سلاطين السلاجقة من حسن الطاعة، والتأدب مع الخلفاء، والحرص على الذب عنهم عن محاول النيل منهم، وأشار إلى شكوى الخليفة من الشحنة. فكان لرسالته أبلغ الأثر في نفس السلطان فكتب للخليفة يعتذر ويستنكر ما فعله الشحنة، كما أوقف الشحنة عند حده. فسرَّ الخليفة من ابن هبيرة، وزاد تقديره له، فولاه وزارته^(١)، ومن المرجح أن السبب في إسناد الوزارة إليه يرجع إلى مشورته على الخليفة المقتفي لأمر الله بألا يؤدي أي مبلغ من المال لمحمد شاه بن السلطان محمود، مقابل رفع حصاره عن بغداد، لأن هذا سيكون حافزاً للسلاجقة للمطالبة بالمزيد، وأشار بصرف المبلغ المطلوب، وقدره ثلاثون ألف دينار في إعداد جيش للخلافة من الترك والأكراد وأهل بغداد وأعمال العراق لصد قوات محمد شاه، فقبل الخليفة رأي ابن هبيرة، وفوضه في إعداد هذا الجيش، فلم تمض أيام قليلة حتى اجتمع عسكر كثير فخرج به ابن هبيرة لقتال محمد شاه وأصحابه، فهزمهم، فلما أيقن الخليفة بحسن رأي ابن هبيرة استدعاه وولاه الوزارة سنة ٥٤٤هـ^(٢) وظل ابن هبيرة وزيراً للمقتفي لأمر الله، حتى توفي هذا الخليفة سنة ٥٥٥هـ وخلفه المستنجد بالله، فأقر ابن هبيرة في الوزارة. ويذكر ابن كثير أن الخليفة المستنجد بالله، وعد ابن هبيرة بأن يظل محتفظاً بمنصبه حتى وفاته^(٣)، وقد قام الوزير بدور كبير في تخليص الخلافة العباسية من النفوذ السلجوقي واستعادة سلطة الخلفاء العباسيين في الدولة، وقد استطاع بمساعدة الجيش الذي أعده تخليص العراق وجميع أعماله من سيطرة السلاجقة^(٤). ويصف المؤرخون ابن هبيرة بأنه كان عالماً فاضلاً، ذا رأي صائب، يقرب أهل العلم من الفقهاء والمحدثين والأدباء، ويبالغ في إكرامهم^(٥)، وكان ينفق عليهم وعلى الفقراء كل ما يدخل عليه من مال، حتى قيل إنه لم تجب عليه زكاة قط^(٦). وقد لاحظنا أن حركة النهوض التي قام بها نور الدين محمود ونجاحه في حرب الصليبيين من أسباب خروج مؤسسة الخلافة والوزارة من الركود والضعف إلى النشاط والحيوية والقوة، ودعمها المعنوي والمادي لنشاطات نور الدين الجهادية وكذلك صلاح الدين، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى. توفي الوزير ابن هبيرة سنة ٥٦٠هـ، وكان يوم وفاته يوماً

(١) وفيات الأعيان (٦/٢٣١، ٢٣٢)، نظام الوزارة، ص ١٦٠.

(٢) أخبار الدول المقطعة، ص ١٦٢، دولة آل سلجوق، ص ٢٠٢، ٢٠٣.

(٣) البداية والنهاية، نقلاً عن نظام الوزارة، ص ١٦١.

(٤) نظام الوزارة، ص ١٦١.

(٥) وفيات الأعيان (٦/٣٣٣).

(٦) ذيل طبقة الخنابلة (١/٢٥٦)، المنتظم (١٠/٢١٥).

مشهوداً، فحضر جنازته خلق كثير، وأغلقت الأسواق، ودفن في المدرسة التي بناها بباب البصرة^(١)، وأيد سنة وفاته ابن الجوزي، وقال: عندما غسل الوزير ابن هبيرة رأيت في وقت غسله آثاراً بوجهه وجسده تدل على أنه مسموم^(٢).

ثانياً: من وزراء سلاطين دولة السلاجقة:

تحدثت فيما مضى من الصفحات عن الوزير عميد الملك الكندري ونظام الملك الطوسي كل في محله، ولذلك لا داعي للإعادة هنا وإنما نتحدث عن بعض الوزراء الآخرين منهم:

١- الوزير نصير الدين أبو المحاسن سعد الأبّي: سعد الملك سعد بن محمد الأبّي، كان يعمل في أول الأمر مع الوزير تاج الملك أبي الغنائم، ثم ولي ديوان الاستيفاء في وزارة مؤيد الملك بن نظام الملك، وولي الوزارة إثر ذلك للسلطان محمد بن ملكشاه^(٣). يعد هذا الوزير من أكفأ وزراء سلاطين السلاجقة، ومن أكثرهم نزاهة وإخلاصاً، وفهماً للأعمال الإدارية^(٤) وقد لعب دوراً بارزاً في نزاع السلطان محمد مع أخيه السلطان بركيارق، ونجح في جمع العساكر حول السلطان محمد^(٥)، فحفظ له السلطان تلك الخدمة، وزاد في إقطاعه، وفوضه في تدبير دولته^(٦)، كذلك نجح الوزير سعد الملك في قيادة عدة حملات ضد الباطنية، وفتح بحسن تدبيره، قلعتين من قلاعهم الحصينة، وهما: قلعة «شاهدز»^(٧)، وقلعة «خان لنجان» بالقرب من أصفهان^(٨)، أثار النفوذ الكبير الذي تمتع به الوزير سعد الملك حقد كبار موظفي الدولة عليه، فعملوا على عزله من الوزارة، وكان حاكم أصفهان من قبل السلطان محمد -ويدعى عبد الله الخطيبي- على رأس أعداء هذا الوزير، بسبب عزمه على عزله من منصبه لعدم كفايته، فخشي الخطيبي أن يحرم من عمله، فاتهم الوزير بالميل إلى مذهب الباطنية، وساعده في ذلك بعض خواص السلطان، فقبض السلطان على وزيره، وكان لدى الوزير سعد الملك ما يثبت اتصال الخطيبي بزعيم الباطنية، ومع ذلك لم ينج من القتل^(٩).

(١) البديّة والنهاية، نقلاً عن نظام الوزارة، ص ١٦١.

(٢) المنتظم (٢١٧/١٠).

(٣) الكامل في التاريخ، نقلاً عن نظام الوزارة، ص ١٥٢.

(٤) أخبار الدولة السلجوقية، ص ٨٣.

(٥) دولة آل سلجوق، ص ٨٣، نظام الوزارة، ص ١٥٢.

(٦) الكامل في التاريخ، نقلاً عن نظام الوزارة، ص ١٥٢.

(٧) شاهدز: قلعة حصينة على جبل أصفهان، كان يتحصن زعيم الباطنية بها.

(٨) دولة آل سلجوق، ص ٨٣، ٨٤، نظام الوزارة، ص ١٥٢.

(٩) دولة آل سلجوق ٨٤، ٨٥، نظام الوزارة، ص ١٥٣.

ويروى أن السبب في قتله يرجع إلى اتهام السلطان محمد له بتدبير مؤامرة ضده، باتفاق مع أخيه السلطان سنجر^(١).

٢- **الوزير كمال الملك السميرمي**: تمتع الوزير كمال الملك بنفوذ واسع في الدولة أثناء وزارته وذلك لكفايته وحزمه وحسن إدارته، ولعلمه، فله مؤلفات في الفارسية منها: رياض ناضرة المناظرين. وضع فيه قوانين الوزارة وقواعدها^(٢). عمل في أول الأمر ضمن موظفي كاتب كهرخاتون زوجة السلطان محمد بن ملكشاه ثم ناب عنه في كتابتها، واستطاع أن ينظم ديوانها من حيث المرتبات وعدد الوظائف، فارتاحت كهرخاتون له، وولته كتابتها، ثم توسطت له لدى السلطان فولاه ديوان «أشراف المملكة» فارتفعت منزلته بذلك^(٣)، ولما توفي ربيب الدولة بن أبي شجاع، وزير السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه في سنة ٥١٢هـ ولي كمال الملك الوزارة خلفاً له^(٤) وكانت الحرب في تلك الأثناء قائمة بين السلطان محمود وعمه سنجر بن ملكشاه، فعمل كمال الملك على إزالة الخلاف بينهما وقال للسلطان محمود: هذا عمك وهو في مقام والدك والكبير في البيت، والرأي موافقته^(٥). وتعهده بالإصلاح بينهما فوافق السلطان محمود، وسار كمال الملك إلى السلطان سنجر، وأقنعه بقبول الصلح وإنهاء الحرب، فاستجاب له السلطان سنجر، وبالتالي اجتمع السلطان سنجر بابن أخيه محمود، وتم الصلح بينهما، ثم عاد السلطان سنجر بجيشه إلى خراسان^(٦). وقد قتل الوزير كمال الملك السميرمي في سنة ٥١٥هـ وكان آنذاك مع السلطان محمود ببغداد، حيث وثب عليه جماعة من الباطنية وقتلوه^(٧). ويروى أن هذا الوزير قتل بيد أحد غلمان الوزير السلجوقي مؤيد الدين الطغرثاي^(٨) وكان كمال الملك قد اتهم هذا الوزير بالإلحاد، فقتل نتيجة لذلك، مما أثار حقد غلمانه على كمال الملك، فعزموا على قتله انتقاماً لسيدهم، وتم لهم ذلك سنة ٥١٥هـ^(٩).

٣- **الوزير كمال الدين محمد بن الحسين الخازن**: كان من أفضل من ولي الوزارة

(١) النجوم الزاهرة (١٩٤/٥).

(٢) الوزارة العباسية، ص ٨٢، دولة آل سلجوق، ص ١٢٤.

(٣) دولة آل سلجوق، ص ٨٤، ٨٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ١١٥.

(٥) أخبار الدولة السلجوقية، ص ٨٨، نظام الوزارة، ص ١٥٣.

(٦) أخبار الدولة السلجوقية، ص ٨٨، ٨٩.

(٧) المنتظم (٢٤٠/٩)، دولة آل سلجوق، ص ١٢٣.

(٨) نظام الوزارة، ص ١٥٤.

(٩) وفيات الأعيان (١٨٩/٢).

لسلاطين السلاجقة سيرة وتديراً، ولي الوزارة سنة ٥٣٣هـ، للسلطان مسعود، فأخذ يعمل على إصلاح أوضاع الدولة، وإقرار العدل، وإزالة الظلم^(١)، ونجح في ذلك، يقول البنداري عنه: وأحيا معالم للملك قد دثرت، ونظم عقوداً للمصالح انتشرت، وابتدأ بكسر الجبارين، وجبر المنكسرين^(٢) كان مما ساعد هذا الوزير على القيام بكثير من الإصلاحات أثناء وزارته شجاعته وجراته في تنفيذ الأحكام، فضلاً عن عدله^(٣). ويذكر ابن الجوزي أن الوزير كمال الدين الخازن لما ألغى الضرائب والمكوس التي كانت تثقل كاهل الرعية، دخل عليه رجلان يعرضان عليه أن يدفعاً له مائة ألف دينار مقابل أن يفوضهما في استخلاص الضرائب والمكوس الملغاة، فرفع أمرهما إلى السلطان، وشهر بهما في البلد مسودي الوجوه، ثم أودعهما السجن^(٤)، ونجح الوزير كمال الدين في ضبط وإصلاح الحالة المالية للدولة السلجوقية، فانتظم دخل الدولة، وصارت الأموال تحمل إلى خزانة السلطان بانتظام من أماكن معينة^(٥). واستطاع بذكائه كشف المساوئ المالية التي كانت تتم دون علم السلطان^(٦) ومنع الأمراء من التدخل في إدارة الدولة، وقرر للجيش ما يحتاج إليه من نفقات^(٧)، أثار إخلاص هذا الوزير حفيظة الأمراء وكبار الموظفين الذين حد من نفوذهم، فأخذوا يتآمرون للتخلص منه قبل أن يستفحل نفوذه فاتصلوا بالأتابك قرا سنقر حاكم أذربيجان، وأقنعوه بأن الوزير أثار السلطان مسعود عليه، فأنفذ قرا سنقر إلى السلطان مسعود يطلب منه التخلص من وزيره، ويهدده بالخروج عن طاعته إذا لم يتم ذلك، فأشار الموظفون الحاقدون على الوزير على السلطان بقتله تلافياً للفتنة، فاستمع لمشورتهم^(٨).

* * *

(١) المنتظم (٧٨/١٠)، دولة آل سلجوق، ص ١٧٠.

(٢) نظام الوزارة، ص ١٥٩.

(٣) الكامل في التاريخ، نقلاً عن نظام الوزارة، ص ١٥٩.

(٤) المنتظم (٧٩/١١).

(٥) دولة آل سلجوق، ص ١٧٠، نظام الوزارة، ص ١٥٩.

(٦)، (٧) الكامل في التاريخ، نقلاً عن نظام الوزارة، ص ١٥٩.

(٨) راحة الصدور، ص ٣٣٣، ٣٣٤ نظام الوزارة، ص ١٥٩.

الفصل الثالث

النظم الحربية عند السلاجقة

المبحث الأول

أسس الإدارة العسكرية السلجوقية

يعتبر الوزير السلجوقي الشهير نظام الملك الرأس المدبر لتطوير وتدعيم البنية الإدارية في مختلف المجالات، فقد ضمّن كتابه «سياست نامه» الكثير من هذه النظم التي قام عليها بناء الإدارة العسكرية عند السلاجقة^(١)، وقد أثر فكره الإداري على قادة عصره ومن جاء بعده حتى نهاية القرن الخامس الهجري، حتى عده ريجارد كوك أعظم إداري أنجبته آسيا كلها^(٢)، وقد تأثرت الدولة الزنكية والأيوبية ودولة المماليك - فيما بعد - بالنظم الحربية عند السلاجقة، والأسس الإدارية، والمدارس النظامية التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً، وهذا يعطى مفاهيم عميقة في النهوض الحضاري للأمة، بأن التأثير في الأجيال يحتاج إلى عقود من الزمن، حتى تجني الأمة ثماراً يانعة للجهود التي يبذلها قادتها العسكريون والسياسيون والإداريون والمفكرون والعلماء، وقد أراد الساسة السلاجقة أن تسير الإدارة العسكرية السلجوقية، على أسس واضحة، فقد تطلع نظام الملك إلى تثبيت تقسيمات الوظائف الإدارية مدنية كانت أو عسكرية وحذر من تعدد وتداخل الألقاب بين المدنيين والعسكريين؛ ولذلك تعد وفاته حداً فاصلاً لسيطرة المدنيين على المناصب الإدارية في الدولة، وبداية لتأثير العسكريين في هذه المناصب إضافة إلى مناصبهم العسكرية، فأصبح نفوذهم كبيراً في جميع أنحاء الدولة السلجوقية مما مكنهم من توجيه الأحداث والتدخل المباشر في الصراعات بين سلاطين السلاجقة وتحديد نتائجها^(٣)، ومن أهم الأسس التي قامت عليها الإدارة العسكرية السلجوقية:

أولاً: مقومات الفكر العسكري السلجوقي؛

كان لدى السلاجقة فكرهم العسكري الخاص بهم والذي ميزهم عن غيرهم وأسهم

(١) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٤٥ للدكتور نائف بن حمود أبو قريحة. وهذا الكتاب مرجعي الرئيسي في هذا الفصل، فجل ما فيه مختصر منه، وأصل هذا الكتاب رسالة دكتوراه، اختصر لنا بها الباحث جهوداً ضخمة، فأشرت إلى ذلك للأمانة العلمية، وفضل الله واسع لي وله ولمن شارك في هذا الجهد.

(٢) بغداد مدينة السلام (١/١٥٧).

(٣) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٤٦.

في بروزهم على مسرح الأحداث قوة عسكرية ضاربة سيطرت على مناطق واسعة بقضائها على كثير من القوى التي اصطدمت بها، فقد وصف الراوندي السلاجقة بأنهم: كانوا أناساً يمتازون بالتقوى والدين واليقظة وعدم الإهمال^(١)، كما وصفهم الحسيني بأنهم: أقوام نفوسهم ربطت بآداب الوغى^(٢) فكانت انتصاراتهم ونجاحاتهم التي حققوها في معاركهم نتيجة مقومات وأسس اتخذها السلاجقة ركائز لفكرهم العسكري، وهذا الأمر من سنن الله التي حث الرسول ﷺ المؤمنين على الأخذ بها، فمن أخذ بالأسباب وأحسن التعامل معها بأكبر قدر ممكن وصدق في توكله على الله فإن الله ينصره ويوفقه. ومن أهمها:

١- التنشئة العسكرية للأبناء: كان اهتمام سلاطين السلاجقة بالفنون العسكرية كبيراً منذ بداية أمرهم ولذلك اهتموا بتربية أبنائهم على فنون الحرب والقتال وإتقانها، ولهذا نجد جدهم الأول سلجوق، يجتهد - قدر طاقته - في تربية وتنشئة حفيديه: طغرل بك، وجغري بك تنشئة عسكرية، آتت أكلها بعد ذلك في نجاح كل منهما في قيادة السلاجقة وإدارة معاركهم ضد أعدائهم، وقد أسهمت إلى حد ما هذه التنشئة في تولي أكثر زعماء السلاجقة للقيادة العامة للجيش بل ويقاثلون بأنفسهم في أرض المعركة نظراً للتدريب المبكر لهم على ذلك، فقد غزا ميكائيل بن سلجوق بلاد الأتراك وباشر القتال بنفسه حتى استشهد في سبيل الله^(٣)، ووصف البيهقي - وهو شاهد عيان - بلاء جغري بك في أرض المعركة بقوله: يا له من فارس مغوار^(٤)، وكان ألب أرسلان، يجيد الرمي بالقوس الذي لم يكن يفارقه في أي مكان^(٥)، كما كان ملكشاه أرمى الناس لم يخطئ قط، وأطعن الناس برمح^(٦)، وكان يجيد أيضاً استعمال الأسلحة جميعها مع مهارة كبيرة في ركوب الخيل^(٧). فهذه الروح العسكرية المتوثبة عند أمراء السلاجقة انعكست على قوادهم وجندهم وكانت - بدون شك - وراء النجاحات التي حققها السلاجقة في حروبهم وعكست مهارات عسكرية مكنتهم من قيادة الجيوش في أرض المعارك، وخوض غمارها وتحقيق النصر على الأعداء في عدد من الجبهات^(٨).

٢- الجهاد في سبيل الله: أعلن السلاجقة منذ بدايتهم دفاعهم عن الإسلام والذود عنه، فشكل الجهاد أساساً من الأسس المهمة في فكرهم العسكري، فقد قام جدهم الأول سلجوق - بعد اعتناقه وقبيلته الإسلام - بحماية المسلمين سكان المناطق المجاورة له من

(١) راحة الصدور، ص ١٤٥.

(٢) أخبار الدولة السلجوقية، ص ٨. الوغى: الحرب.

(٣) العرب والأتراك، ص ٧٤، النظم الحربية، ص ٤٨. (٤) تاريخ البيهقي، ص ٦٢٢.

(٥) أخبار الدولة السلجوقية، ص ٥٤. (٦) المصدر نفسه، ص ٧٣.

(٧) راحة الصدور، ص ١٩٧، النظم الحربية، ص ٤٩. (٨) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٤٩.

غارات بني جلدته من الكفار^(١)، كما استشهد ابنه ميكائيل في جهاده ضدهم^(٢)، وتنطق رسالة السلاجقة للخليفة العباسي القائم بأمر الله بالتأكيد على ذلك: ولقد اجتهدنا دائماً في غزو الكفار وإعلان الجهاد^(٣). ويذكرون فيها أيضاً «وشكراً لله على ما آفأ علينا من فتح ونصر، فنشرنا عدلنا وإنصافنا على العباد وابتعدنا عن طريق الظلم والجور والفساد ونحن نرجو أن نكون في هذا الأمر قد نهجنا وفقاً لتعاليم الدين ولأمر أمير المؤمنين»^(٤) وقد قام السلطان طغرل بك - كما مر معنا - بغزو الروم معلناً بذلك جهاده ضدهم^(٥)، والذي تميز بقوة كبيرة زرعت الهلع في قلوبهم حتى أسر بعض ملوكهم وأطلقه دون فداء^(٦)، كما عبر السلطان ألب أرسلان نهر جيحون^(٧)، مجاهداً سنة ٤٦٥هـ، وكان قد أبلى بلاء حسناً - قبل ذلك - في جهاده ضد الروم في ملاذكرد^(٨) سنة ٤٦٣هـ، وتؤكد خطبته قبيل نشوب المعركة ساعات روحاً جهادية متوثبة تتوق للاستشهاد في سبيل الله أو النصر، حيث يقول: أنا أحسب عند الله نفسي، وإن سعدت بالشهادة ففي حواصل الطيور الخضر من حواصل النور العُبر رمسي، وإن نصرت فما أسعدني وأنا أمسي ويومي خير من أمسي^(٩)، بالإضافة إلى مشاركته السابقة مع عمه طغرل بك في عمليات الجهاد^(١٠)، واستطاع سليمان ابن قتلمش أن يضم مدينة أنطاكية إلى أملاك السلاجقة^(١١)، حيث سار على خطى أبيه الذي كان قد قام بعده بمجملات جهادية على كرجستان^(١٢)، وديار الروم فاستولى على كثير من قلاع الروم هناك^(١٣)، وإذا كان السلاجقة قد اعتراهم الضعف بعد وفاة ملكشاه سنة خمس وثمانين وأربعمائة فإن قلعج أرسلان، نجح في إحراز انتصارات باهرة على البيزنطيين، كما كان موفقاً في معاركه مع الصليبيين^(١٤)، وتابع السلطان محمد بن ملكشاه مسيرة الجهاد

(١) مالك الأبصار، للعمري، نقلاً عن: النظم الحربية، ص ٤٩.

(٢) الكامل في التاريخ نقلاً عن النظم الحربية، ص ٥٠.

(٣)، (٤) راحة الصدور، ص ١٦٦، ١٦٧، النظم الحربية، ص ٥٠.

(٥) المنتظم (٨/١٦٠)، فن الحرب الإسلامي للعسلي (٣/٣٤٢).

(٦) فن الحرب الإسلامي (٣/٣٤٤)، النظم الحربية، ص ٥٠.

(٧) جيحون: نهر يصب في بحيرة خوارزم عليه مدن عديدة ويتشعب منه عدة أنهار.

(٨) ملاذكرد: مدينة حصينة على نهر الفرات وتكتب أيضاً: ملازكرد ومنازكرد، ومنزكرت وملاسكرد، معجم البلدان (٥/٢٠٢).

(٩) تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٤٠.

(١٠) فن الحرب (٣/٣٤٣)، النظم الحربية، ص ٥١.

(١١) تاريخ الخلفاء، ص ٤٢٤، النظم الحربية، ص ٥١.

(١٢) كرجستان: الإقليم المسمى الآن جورجيا وعاصمته تفليس.

(١٣) النظم الحربية، ص ٥١. (١٤) المصدر نفسه، ص ٥٢.

ضد الصليبيين وكان مهتماً بتجهيز الجيوش مرات عديدة لهذا الغرض^(١)، كما اعتبر جهاده ضد الإسماعيلية وصددهم جهاداً في سبيل الله^(٢)، ولم يغفل السلطان سنجر جهاده في الشرق ضد كفار الأتراك، فقام بعدة حملات عسكرية عليهم^(٣) وعلى الرغم مما تعرضت له الفكرة الجهادية من بعض الفتور أثناء الصراعات بين أفراد الأسرة السلجوقية على السلطة أو مع غيرهم من الحكام، فقد ظل الجهاد في سبيل الله لدى السلاجقة يشكل ركيزة مهمة في فكرهم العسكري^(٤)، فقد كان مفهوم الجهاد واضحاً في حروب السلاجقة، وعرف ذلك عنهم معاصروهم وعلى رأسهم عدد من الفقهاء وقتذاك، يقول الإمام الجويني في وصفهم: أليس بهم (أي السلاجقة) انحصار الكفار في أقاصي الديار؟ وبهم تحفّق بنود الدين على الخافقين، وبهم أقيمت دعوة الحق في الحرمين^(٥)، فإذا كانوا عصاماً لدين الإسلام ووزراً للشرعية، فما القول في أقوام بذلوا في الذب عن دين الله حشاشات الأرواح وركبوا نهايات الغرر متجردين لله تعالى في الكفاح^(٦).

٣- الحرص على كسب ولاء الجيش وقادته: حرص سلاطين السلاجقة على كسب ولاء جندهم لمن يشرح من أبناء الأسرة السلجوقية لاعتلاء عرش السلطنة واهتموا بهذا الأمر اهتماماً كبيراً إيماناً منهم بأهمية ذلك ودوره في كفاءة السلطان الجديد وتأيد الناس له واستقرار الأحوال في عهده ونجاحه في إدارتها، فقد كان تعيين طغرل بك سلطاناً على السلاجقة، وقائداً أعلى لجيوشهم - بالرغم من أنه لم يكن الابن الأكبر لميكائيل حيث كان أخوه جغري بك أكبر منه سناً - بناءً على قدرته وشخصيته الأمر الذي أدى إلى التفاف الجند والقبائل حوله ودعمهم له^(٧)، فقد كان متسامحاً معهم، وعندما أراد تولية الحكم من بعده لسليمان ابن أخيه داود وزّع على الجند سبعمائة ألف دينار وثماناً وأسلحة تساوي مائتي ألف دينار استمالة لهم ولكنهم في النهاية مالوا إلى ألب أرسلان^(٨)، وكلّف السلطان ألب أرسلان بعد إصابته وإحساسه بدنو أجله الوزير نظام الملك بالقيام بأخذ العهود على الجند بالتأييد والمبايعة لابنه ملكشاه^(٩). وتعطينا هذه الحادثة تصوراً لهذه الأهمية بدليل تكليف الوزير للقيام بها بنفسه، ولم يكتف السلطان بذلك، بل أخذ العهود على نظام الملك، وأوصاه به كما أوصى الجند كذلك^(١٠)، تأكيداً منه على ضمان ولائهم

(١) النظم الحربية، ص ٥٢.

(٢) النظم الحربية، ص ٥٢.

(٣) النظم الحربية، ص ٥٣.

(٤) غياث الأمم، ص ٢٣٠.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٣١.

(٦) المتنظم (٢٣١/٨).

(٧) النظم الحربية، ص ٥٢.

(٨) النظم الحربية، ص ٥٢.

(٩) غياث الأمم، ص ٢٣٠.

(١٠) دولة السلاجقة، حسنين، ص ٣١.

(١١) المصدر نفسه (٢٧٩/٨)، النظم الحربية، ص ٥٥.

(١٢) وفيات الأعيان (٢٨٣/٥)، أخبار الدولة السلجوقية، ص ٥٥.

لابنه ملكشاه الذي ما إن تولى الحكم سنة ٤٦٥هـ حتى أنفق أموالاً طائلة استمال بها قلوب أمراء العسكر والحشم^(١).

٤- الخبرة والتجربة: يذكر الماوردي (توفي ٤٥٠هـ) أن انعدام الاستفادة من هذين الجانبين من الدلالات الظاهرة على ضعف الدول^(٢). وعبارة الماوردي هذه مهمة وخطيرة جداً تحتاج لتأمل من قيادة الفكر والرأي والاستفادة منها ومن التاريخ بشكل عام ومن دروسه وعبره لمن يريد النهوض بالأمة في هذا العصر، وقد مثلت الاستفادة من قبل السلاجقة من الخبرة والتجربة فكر عصرهم بالفعل، ولهذا استعمل بعض سلاطين السلاجقة المشورة العسكرية في أرض المعركة للاستفادة الكاملة من الخبرات المتواجدة في الجيش السلجوقي، خاصة ممن لهم خبرة ودراية واسعة في المجال الحربي، فقد ذكر البيهقي - وهو شاهد عيان - مدى الخبرة والتدريب الموجودة لدى جند السلاجقة وقادتهم^(٣)، وأظهر السلطان طغرل بك اهتماماً بالنصائح التي قُدِّمت له من ذوي الخبرة والتجربة الواسعة حتى بلغ به الأمر إلى طلبها منهم بنفسه^(٤)، وقد كان للسلطان ألب أرسلان في بعض معاركه مجلس حرب، وقد عقد اجتماعاً مع كبار قادته قبيل معركة ملاذكرد وناقش معهم خطة المعركة. ثم بدأ بعد ذلك بخطبته المشهورة ثم عاد مرة أخرى للاجتماع بقادته بعد انتهاء خطبته في الجند، حيث بحث معهم الوسائل لتحقيق النصر على أعدائه^(٥)، كما استأنس برأي فقيهه أبي نصر محمد بن عبد الملك البخاري الذي أشار عليه بالقتال يوم الجمعة بعد الزوال والخطباء على منابرهم طلباً للنصر باعتباره يدافع عن دين الله^(٦)، فكانت هذه المعركة خير مثال للاستفادة الكاملة من الخبرة والتجربة العسكرية^(٧). وبلغ من اهتمام الوزير السلجوقي نظام الملك بالخبرة أن عقد فصلاً لها في كتابه يقول فيه: ينبغي تدبر الأمور باستشارة الحكماء المسنين وذوي التجارب والأسفار^(٨)، فاستشارة ذوي الخبرة والتجربة سبيل للوصول إلى الرأي الصائب^(٩)، كما يسوق احترام السلاجقة للخبرة ومعرفة قيمتها بقوله: كان من عادة الملوك اليقظين أن يرعوا حرمة المسنين المجريين جوابي الآفاق... والعارفين بشئون الحرب، بأن يجعلوا لكل منهم مقاماً ومنزلة أثيرة لديهم... وكان إذا جدَّ

(١) المنتظم (٢٧٧/٨)، أخبار الدولة السلجوقية، ص ٥٥.

(٢) التحفة الملوكية، ص ٨٠، النظم الحربية، ص ٥٧.

(٣) تاريخ البيهقي، ص ٦٧٤، ٦٨٣.

(٤) النظم الحربية، ص ٥٨.

(٥) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٥٨.

(٦) تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٤٢.

(٧) تاريخ إيران، مكاريوس، ص ١٢٤، النظم الحربية، ص ٥٨.

(٨) سياست نامه، ص ١٢٨.

(٩) المصدر نفسه، ص ١٣٠.

طارئ عدواني وحربي يتخذون التدابير كلها مع من مارسوا الحروب، ولهم فيها خبرات وتجارب كثيرة فيأتي الأمر موافقاً للهدف المرسوم، وكانوا إذا ما نشبت الحرب يرسلون إليها من خاض غمار المعارك الكثيرة، وهزم الجيوش العديدة واحتل القلاع، وذاع اسمه في العالم باسم الرجل الشجاع، وكانوا على الرغم من كل هذا يرسلون شخصاً مسناً ممن جابوا البلاد من ذوي الخبرات لتجنب الوقوع في الخطأ^(١).

٥- الإخلاص والتضحية: عندما أراد الخليفة العباسي القائم بأمر الله البقاء في معسكر السلطان طغرل بك والخروج معه للقتال قال السلطان: الله الله! ما هذا مما يجوز أن يكون مثله، ونحن الذي يصلح للحرب والسفر والتهجم والخطر، دون أمير المؤمنين، وإذا خرج بنفسه فأبي حكم لنا وأي خدمة تقع منا، وامتنع أن يجيبه إلى ذلك^(٢)، وفي ذلك دلالة على إخلاص السلطان في حماية الخليفة من خطر المعركة، كما تمتع بعض قواد السلاجقة كذلك بإخلاص نادر وصل إلى حد التضحية بأنفسهم في سبيل خدمة السلطان وحمايته فعندما هجم قاتل السلطان ألب أرسلان عليه، كان سعد الدولة كوهرائين^(٣)، شحنة بغداد واقفاً في خدمة السلطان فرمى بنفسه على السلطان يريد حمايته فأصابه هو أيضاً جرح، ولكنه لم يكن مميتاً^(٤).

٦- الحيلة والحذر والمتابعة: عمد السلاجقة إلى وضع الحيلة والحذر نصب أعينهم، فقد ظل طغرل بك - بعد انسحابه من فراوة^(٥)، أمام الغزنويين - مستعداً للحرب أياماً فلم يخلع حذاه، ولم ينزع عنه الزرد وكان يتوسد درعه حين ينام، وإذا كان حال قائد هذه الجماعة على هذا النحو فمن اليسير معرفة حال الآخرين^(٦)، وعندما هزم السلاجقة جيش مسعود الغزنوي، لم يُنزل - أي داود قائد السلاجقة - عسكره ثلاثة أيام عن ظهور دوابهم لا يفارقونها إلا لما بد لهم منه من مأكول ومشروب وغير ذلك^(٧)، مما يدل على اتخاذه الحذر والاحتياط من عودة العدو إليهم، وبات جند السلاجقة على ظهور خيلهم أثناء حصارهم لمدينة مريم نشين في عهد السلطان ألب أرسلان^(٨)، وعندما أحضر رسول ملك الروم الجزية أخذه نظام الملك معه إلى كاشغر^(٩)، حيث أذن له هناك في العودة إلى بلاده وقال:

(١) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٥٩.

(٢) المنتظم (٢٠٨/٨) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٦٠.

(٣) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٦٠. (٤) راحة الصدور، ص ١٩١.

(٥) فراوة: مدينة في إقليم جرجان يعتقد أنها تطابق قزل أروا الحديثة.

(٦) تاريخ البيهقي، ص ٦٦٨.

(٧) الكامل في التاريخ، نقلاً عن النظم الحربية، ص ٦١. (٨) أخبار الدولة السلجوقية، ص ٣٦.

(٩) كاشغر: مدينة في إقليم سيجون قرب بلاساغن، بلدان الخلافة، ص ٥٣٠.

أحب أن يذكر عنا في التواريخ أن ملك الروم حمل الجزية وأوصلها إلى باب كاشغر؛ لينهي إلى صاحبه سعة ملك السلطان ليعظم خوفه منه ولا يحدث نفسه بخلاف الطاعة^(١)، وهذا احتياط من جانب الوزير السلجوقي بإظهار عظمة سلطان السلاجقة وسعة بلادهم لرسول ملك الروم^(٢)، وكان السلاجقة يرون ضرورة المتابعة لأحوال الحرس والخفر والبوابين ومعرفتهم جميعاً والاطلاع على أحوالهم سرّاً وعلانية، لأنهم أسرع انخداعاً بالمال والإغراء^(٣)، وإذا ما شوهد بينهم غريب فينبغي السؤال عنه والتأكد منه، ويجب أن يراقبوا ويتأكد منهم ويوضعوا تحت الإشراف المباشر كل ليلة عندما يتسلمون واجباتهم، وينبغي عدم إغفال هذا الأمر ليلاً أو نهاراً لأنه دقيق جداً^(٤). ويرى نظام الملك الوزير السلجوقي أن على السلاطين تحري أخبار الجيش فيقول: على الملوك أن يتحروا أحوال الرعية والجيش، وكل بعيد وقريب وأن يعرفوا كل كبيرة وصغيرة في المملكة^(٥).

٧- العلاقة بين الجند وقادتهم والتدرج في الرتب العسكرية: اتخذ السلاجقة من التنظيم الدقيق للعلاقة بين الجند وقادتهم واحترام التدرج في الرتب العسكرية وربط ذلك بمبدأ الثواب والعقاب أساساً من أسس فكرهم العسكري، ويفصل الوزير السلجوقي الشهير نظام الملك هذا التنظيم قائلاً: إن تكن للجند حاجة ما ينبغي أن تطلب بالسنة قاداتهم ورؤسائهم؛ لأنهم إن أُجيبوا إلى ذلك إجابة حسنة يكونوا قد توصلوا إلى احتياجاتهم بأنفسهم ويكسبوا احترام أفرادهم؛ لأنهم طلبوا ما يحتاجون بأنفسهم فنالوه دون حاجة إلى وساطة تذهب باحترامهم لو لجأوا إليها. فإذا ما تناول جندي على قائده ولم يحترمه أو يرع حرمة، بل تجاوز حده يجب أن يعاقب كيما يمتاز الرئيس عن المرءوس^(٦). وهذا النظام هو القائم إلى الآن في العالم.

٨- الجمع بين الرأي والتدبير والقوة العسكرية: كان الفكر العسكري السلجوقي يعتمد على الرأي الصائب والحكم السديد بجانب استخدام القوة^(٧)، ولذلك يرى بعض المؤرخين أن السلطانين السلجوقيين الأول والثاني، طغرل بك وألب أرسلان تميزا بأنهما فاتحان عسكريان، أما خلفهما ملكشاه فمهمته كانت تنظيم إدارة الدولة، ولدى الحاجة إلى توسيعها كان يلجأ إلى العمليات العسكرية وإلى الوسائل الدبلوماسية أيضاً^(٨)، وهو أمر

(١) الكامل في التاريخ، نقلاً عن النظم الحربية، ص ٦٢. (٢) النظم الحربية، ص ٦٢.

(٣) سياست نامه، ص ١٦٨. (٤) النظم الحربية، ص ٦٢.

(٥) سياست نامه، ص ١٠٠، النظم الحربية، ص ٦٢.

(٦) سياست نامه، ص ١٦٣، النظم الحربية، ص ٦٣.

(٧) سياست نامه، ص ٢٠٠، النظم الحربية، ص ٦٤.

(٨) الشرق الإسلامي في العصر الوسيط، ص ٣٥٦.

طبيعي في نشأة الدولة في أن يعتمد مؤسسوها على القوة والغلبة ثم يأتي خلفاؤهم، فيعتنون بالإدارة وإعادة ترتيب الأولويات فيها، مما يؤكد أن السلاجقة كانوا رجال حرب وإدارة وحسن تدبير يحق في تلك الفترة ^(١). وكان الوزير نظام الملك يقول: إن المشورة في الأمور من قوة الرأي، خاصة إذا كانت الاستشارة لمن هم على قدر كبير من الخبرة وسعة التجربة وصولاً إلى الرأي الصائب الذي يتحتم العمل على أساسه ^(٢)، كما يؤكد الوزير السلجوقي أن انعدام الشورى ومناقشة الآراء المختلفة والاستبداد بالرأي من الدلالات الواضحة على ضعفه وعدم جدوى العمل به ^(٣)، وكانت نصيحة نظام الملك لسلطانته في مجال سياسة الأعداء أن يحارب الأعداء حرباً تترك باب الصلح مفتوحاً، وأن يصالحهم صلحاً لا يوصد باب الحرب، وأن يوطد علاقاته مع الصديق والعدو بنحو يمكنه من أن يفصم عراها، أو يعيد بناءها متى يشاء ^(٤). وهي قاعدة مهمة في الفكر العسكري تتم عن رأي خبير في سياسة الحروب وإدارة الدول لا يقل حصافة وسداداً عن أي فكر حديث حصيف ^(٥)، والعبارة السابقة قريبة لدرجة كبيرة من القاعدة التي تقول: لا صداقات دائمة ولا عداوات دائمة وإنما مصالح دائمة. ونحن نوجه كلمة المصالح إلى مصالح الإسلام، وكان من بين النصائح التي قدمها الغزالي لسلطانته محمد بن ملكشاه قوله: إنه مهما أمكنك الأمور بالرفق واللفظ فلا تعملها بالشدة والعنف ^(٦)، ويقول أيضاً: وترتيب الوزراء مهما أمكنهم أن يحاربوا بالكتب فليحاربوا فإن لم تتأت الأمور بالاحتياط والتدبير فليجتهدوا في تأتيها بعطاء الأموال وبذل الصلات والنوال ^(٧)، فإنه من رأيه عدم التسرع في الأمور لأنه: قد يمكن قتل الأحياء ولا يمكن إحياء القتلى ^(٨) فهو ينصح بالتدرج في ذلك والبدء أولاً بإعمال الرأي والفكر في أفضل الوسائل للعمل بها، وجعل استخدام القوة والعنف آخر الحلول تطبيقاً وفي ذلك حفاظ على قدرات الدولة من أن تهدر في أمور يمكن العمل على حلها بالرأي والتدبير دون الحاجة إلى تسيير الجيوش وإرهاق الدولة بياض تكاليفها ^(٩)، لأن الحرب في سائر الأحوال تفني ذخائر الأموال وفيها تبذل كرائم النفوس ومصونات الأرواح ^(١٠). فكان من أسس الفكر عند السلاجقة سلاطين ووزراء وعلماء الجمع بين الرأي والتدبير والتدرج في استخدام القوة العسكرية واستعمال كل منها في الموقف الذي يلائمه،

(١) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٦٤.

(٢) النظم الحربية، ص ٦٥.

(٣) سياست نامه، ص ١٢٩، ١٣٠.

(٤) سياست نامه، ص ٢٩٨، ٢٩٩، النظم الحربية، ص ٦٥. (٥) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٦٥.

(٦) (٧)، (٨) المصدر نفسه، ص ٢٧٨، ٢٧٩.

(٩) التبر المسبوك في نصيحة الملوك، ص ١٣٨.

(١٠) التبر المسبوك في نصيحة الملوك، ص ٢٧٨.

ودرة القوة ما أمكن غيرها^(١).

ثانياً: الاعتماد على أجناس مختلفة:

اعتمد السلاجقة في جيشهم على أجناس مختلفة من الأتراك وجميع الطوائف المتمثلة في القبائل التركمانية والأكراد والديلم والعرب والفرس وغيرهم من الأجناس الأخرى، وكان التركمان هم العنصر المهم فيه يليهم الأكراد ثم المماليك المتمرسون على القتال وخوض المعارك^(٢). ويؤكد الوزير السلجوقي نظام الملك ذلك في حديثه عن الرهائن ووجوب أخذهم من أمراء العرب والأكراد والديلم والروم وغيرهم^(٣)، مما يؤكد حقيقة اعتماد السلاجقة على عدد كبير من الأجناس والشعوب، ويضيف أنه: ينبغي أن يؤسس الجيش من كل جنس وملة وأن يربط بالقصر ألفا رجل من الديلم وخراسان يحتفظ بالموجود منهم الآن ثم يهيا الباقي بعد ذلك. ولا ضير في أن يكون بعض هؤلاء من الكرجيين^(٤)، وشبانكاربي فارس^(٥)، لأنهم قوم طيبون لا غبار عليهم^(٦)، ويضرب مثلاً على نجاح ذلك بجيش محمود الغزنوي المكون من أجناس عدة، ففيه الترك والخراسانيون والعرب والهنود والغوريون والديلم^(٧)، ويدافع الوزير السلجوقي عن تأييده لتعدد الأجناس بأن: اتخاذ الجيش من جنس واحد مدعاة لظهور الأخطار والتخريب والفساد، وعدم الجدية والبلاء في الحرب^(٨). وتكمن خطورة الاعتماد على جنس واحد في انعدام التنافس بين أفراد الجيش في مجال الخدمة العسكرية^(٩) أما في حالة التعدد في الأجناس فإن كل جنس منهم يقاتل في المعارك والحروب، ببسالة ومضاء حفاظاً على سمعته وخوف العار والهزيمة، وكى لا يقول أحد بأن الجنود من الجنس الفلاني وهنوا في القتال وتقعاسوا، وكان كل فريق في القتال يُبلي بلاء حسناً ويبذل غاية جهده إظهاراً لقدرته وتفوقه على الآخرين، ولما كانت قاعدة اختيار المحاربين تتم على ذلك النحو، فقد كانوا جميعهم جادين مستبسلين وطلاب سمعة وشهرة، ولا جرم أنهم إذا ما هرعوا إلى السلاح لم يكونوا يتراجعون قبل أن يهزموا الجيش المعادي ويتصرفوا عليه^(١٠). وهناك فائدة مهمة كان السلاجقة يضعونها بعين الاعتبار في اتخاذ

(١) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٦٦.

(٢) السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص ٦٩.

(٣) سياست نامه، ص ١٤٢.

(٤) الكرجيين: نسبة إلى إقليم كرجستان في جورجيا حالياً.

(٥) شبانكاربي فارس: نسبة إلى قرية من قرى إقليم فارس.

(٦) سياست نامه، ص ١٤٠، النظم الحربية، ص ٦٩.

(٧) النظم الحربية، ص ٧٠.

(٨) سياست نامه، ص ١٤٠.

(٩) الحضارة الإسلامية، أحمد عبد الرازق ص ١٨٩.

(١٠) سياست نامه، ص ١٤٠، ١٤١، النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٧٠.

الجيش من أجناس مختلفة وقبائل شتى وهي ألا يتهاى لهم الاتفاق على رأي واحد في الخلاف^(١).

ثالثاً: زيادة عدد أفراد الفرق العسكرية:

كان حرص سلاطين السلاجقة واضحاً على زيادة عدد أفراد الفرق العسكرية وعدم الاستغناء عن أي فرقة منها - إلا في حالات نادرة جداً - حتى كان حجم الجيش السلجوقي الكبير عددياً مجالاً رجباً لافتخار السلاطين على أعدائهم وتهديدهم به، وقد واجه نظام الملك الدعوة المناوئة له والتي تقول بعدم الحاجة إلى الأعداد الكبيرة للفرق العسكرية السلجوقية احتجاجاً بالتوفير وعدم قوة الأعداء متهماً من يقف وراء هذه الدعوة بالسعي لتدمير الدولة فكان مما قاله: لقد ادعى، لهذا، أن لا حاجة لأربعمائة ألف رجل لهم رواتب في الدولة، وأنه يجب أن يكتفي بسبعين ألف فارس يُدْخرون لما قد يطرأ من أحداث ومهام، فبهذا تسترد الدولة جرايات الجند الآخرين غير السبعين ألفاً ورواتبهم، فتؤمن لخزانة الدولة في كل سنة بضعة ألف ألف دينار، بالذهب والمال في مدة يسيرة^(٢). ثم يقول مخاطباً السلطان:... إن يكن لديك أربعمائة ألف رجل، فليس من شك في أن تستحوذ على خراسان وما وراء النهر إلى حدود كاشغر، لقد كنت أطمح أن يكون لك سبعمائة ألف رجل بدلاً من هذه الأربعمائة ألف، فلو كان رجالك أكثر لحزت غزنين والسند والهند وكل تركستان والصين.. ولكانت لك ثمة أشياء في المغرب والشام.. ولحطت لك الروم عصا الطاعة. إن عدد ولايات كل ملك رهن بعدد جيشه، تكثر بكثرته وتقل بقلته، وكلما قل عدد الجيش تناقص عدد الولايات، وبالعكس^(٣). إن تعليمات هذا الوزير السلجوقي وفلسفته في إدارة الدولة وتركيزه على قوتها العسكرية يجعلنا نضعه باطمئنان في مصاف قادة الفكر السياسي في الحضارة الإسلامية ونظمها الحربية، بل إن نصائحه لسلطانته توحى لنا بأننا ننصت إلى أحد قواد، بل علماء، الحرب الحديثة^(٤).

رابعاً: التقسيم العشري:

قسم السلاجقة قاداتهم العسكريين بشكل هرمي ابتداء من كبار القادة أمراء المائة مروراً بأمراء الطبلخاناه ثم العشرات فالخمسائيات وهي أقل من هذه الدرجات، فهناك في المصادر ما يؤكد نسبة هذا التقسيم للسلاجقة، فقد قدم الوزير السلجوقي نظام الملك للخليفة العباسي

(١) كتاب الإشارة، للمرادي، ص ١٢٥، النظم الحربية، ص ٧٠.

(٢) سياست نامه، ص ٢٠٩، النظم الحربية، ص ٧٣.

(٣) النظم الحربية، ص ٧٣. (٤) المصدر نفسه، ص ٧٥.

أمراء الجيش في عهد ملكشاه واحداً بعد الآخر قائلاً للخليفة في تقديمه هؤلاء الأمراء: هذا العبد الخادم فلان بن فلان ولايته كذا وعسكره كذا وذلك الأمير يقبل الأرض وكانوا أكثر من أربعين أميراً^(١)، وترتبط الإمرة في هذا التقسيم بشكل وثيق بعدد الجند تحت قيادة كل منهم فهناك:

١- أمراء المئين مقدمو الألوف: ويطلق على أحدهم أمير مائة وتقرن عادة بلقب مقدم ألف، والمقصود بهذه التسمية المركبة مرتبة واحدة يكون في خدمة حاملها مائة مملوك، ويقع تحت قيادته في الحرب ألف أو ألوف من الجند وربما زاد العدد عن ذلك، وهي أعلى مراتب الأمراء، من عهد السلاجقة إلى المماليك بمصر ومنهم أصحاب المناصب العليا في الدولة^(٢).

٢- أمراء الطبلخاناه: يرتبط اسم هذه الطبقة بأن لهم الحق في دق الطبول وغيرها في المواكب الرسمية، تشريفاً لهم، كما يفعل السلطان وأمراء المئين ولكن بصورة مصغرة، ويتزعم كل منهم أربعين فارساً يزيد بعضهم على ذلك إلى سبعين وثمانين فارساً فيكون في خدمته ما يساوي هذا العدد ويطلق عليهم - نتيجة لذلك - أمراء سبعين أو ثمانين، ولا تكون هذه الرتبة لمن كانت إمرته على أقل من أربعين، وأمراء هذه الطبقة تحت قيادة أمراء المئين فكان جندهم - تبعاً لذلك - أقل منهم، وكان عدد أمراء الطبلخاناه أكثر من أمراء المئين، ومن أمراء الطبلخاناه يكون أكابر الولاية^(٣).

٣- أمراء العشرات: ربما كان منهم من له أكثر عدداً من ذلك إلى أقل من الأربعين، ومع ذلك يُعد في أمراء العشرات ومنهم صغار الولاية^(٤).

٤- أمراء الخمسات: وكان عددهم قليلاً وأكثرهم من أولاد الأمراء المتوفين، تعطى للواحد منهم هذه الرتبة رعاية لسلفه، فكانوا يعتبرون كأكابر الأجناد^(٥). أما عن أصل هذا التقسيم العشري فيبدو أن الرأي القائل بأن السلاجقة نقلوه من أوطانهم الأولى هو الأقرب^(٦)، فقد كان معروفاً - فيما يبدو - لدى إحدى قبائل التركمان حيث قام زعيمها باستدعاء أصحاب المئات والعشرات استعداداً للحرب^(٧)، فاستفاد السلاجقة بعد ذلك من هذا النظام فطبقوه في جيوشهم وأصبح أحد أسس تقسيماتها، ثم شاع هذا التقسيم في

(١) المتظم (٣٥/٩)، تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٧٩.

(٢) الخطط (٢/٢١٥، ٢١٦)، جيش مصر، ص ٢٧.

(٣، ٤) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٧٧.

(٥) جيش مصر، ص ٢٧، ٢٨، تاريخ السلاجقة ص ٢٩٣.

(٦)، (٧) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٧٨.

الجيش بعدهم، فيذكر المقريري أن جنكيز خان: رتب لعساكره أمراء وجعلهم أمراء ألوف وأمراء مئين وأمراء عشرات^(١) وعمل به الممالك في مصر بعد ذلك^(٢).

خامساً: الإقطاع العسكري: ينقسم الإقطاع إلى قسمين هما:

١- إقطاع تملك.

٢- إقطاع استغلال^(٣)، ومن هذا النوع ما أطلق عليه بعض الباحثين الإقطاع العسكري أو الحربي، وذكر الماوردي في حديثه عن إقطاع الاستغلال أن «أهل الجيش هم أخص الناس بجواز الإقطاع»^(٤)، ويُعد قدوم السلاجقة علامة مهمة في تاريخ امتلاك الأرض نظرياً وعملياً، فلم يصبح السلطان مجرد حاكم للناس بل أصبح يتمتع بحقوق الملكية للأراضي التي يحكمها^(٥)، فقد جرت العادة أن يقوم السلطان بالصرف على شئون الدولة من الإيرادات التي ترد من الولايات التابعة لها والخاضعة لسلطانها، وكان على رأس ذلك مصروفات الجيش والإنفاق على شئونه المختلفة فضلاً عن مرتبات الجند، فلما كان عهد السلطان ملكشاه قام وزيره نظام الملك بتعميم نظام الإقطاع في جميع أنحاء الدولة السلجوقية وذلك بتوزيع ولايات الدولة على شكل إقطاعات للأمراء والجند للاستفادة منها عوضاً عن إعطائهم المرتبات النقدية^(٦)، فكان صاحب الإقطاع يستفيد منه مادياً مقابل تجهيزه لجنده الذين يشارك بهم في الجيش السلجوقي عند الاستنفار للحرب^(٧)، ولم يكن هذا التنظيم يتعارض مع الملكية الفردية أو يمسه لأنه كان يتعلق بخراج الأرض دون الأرض نفسها^(٨). ويعتبر كثير من المؤرخين هذا الوزير السلجوقي أول من قام بتوزيع الإقطاعات^(٩)، وقد عارض بعض المؤرخين ذلك^(١٠)، ويبدو أنه بالإمكان الاطمئنان إلى الرأي القائل إن الإقطاع العسكري قد وجد قبل السلاجقة وأصبح عاماً شاملاً منذ مطلع العصر السلجوقي، حيث أعطاه الوزير السلجوقي نظام الملك شكله النهائي وأقامه في مناطق لم يوجد بها من قبل^(١١)، مستفيداً من تجارب الدول التي سبقته خاصة الدولة البويهية بدليل إدخاله بعض

(١) الخطط (٢/ ٢٢١)، النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٧٨.

(٢) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٧٨.

(٣) الأحكام السلطانية، ص ١٩٠ - ١٩٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٩٥.

(٥) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٧٩.

(٦) تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٦٠.

(٧) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٧٩.

(٨) السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص ٢٠١.

(٩) أخبار الدولة السلجوقية، ص ٦٨.

(١٠) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٨٠.

(١١) السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص ٨٣.

الإصلاحات بهدف تجنب المساوى التي أسفر عنها تطبيق هذا النظام في العهد البويهي^(١). فكانت المحصلة النهائية لذلك أن تميّز الإقطاع العسكري عند السلاجقة بخصائص، وضوابط خاصة جعلت له كيانه مستقلاً عن غيره من الأنظمة التي سبقته، وسنعرض لدراسة هذه الخصائص فيما يلي:

١- خصائص الإقطاع عند السلاجقة: اهتم الوزير السلجوقي نظام الملك بالإقطاع اهتماماً بالغاً يدل عليه إفراده الفصل الخامس في كتابه في المستقطعين والتحقق من معاملتهم للرعية، حيث وضع فيه القواعد المعتبرة في العلاقة بين صاحب الإقطاع ومن يعملون عنده، والعقوبات اللازمة في حقه في حالة قسوته عليهم، فيقول في ذلك: ليعلم المستقطعون أن لا شأن لهم على الرعايا سوى تحصيل الأموال المستحقة عليهم بالحسنى على أن يكونوا بعد ذلك آمنين على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأبنائهم وضياعهم وما يملكون، دون أن يكون لأصحاب الإقطاعات عليهم من سبيل أو يمنعوهم من الذهاب إلى القصر، لبسط أحوالهم بأنفسهم إذا ما رغبوا في ذلك، أما من لا يلتزم بهذا، أو يتقيد، فينبغي الضرب على يده، ونزع إقطاعاته منه، ومجازاته؛ ليكون عبرة للآخرين، على أصحاب الإقطاعات أن يعلموا أيضاً، أن الملك والرعية جميعاً في حقيقة الأمر، للسلطان وعليهم وعلى الولاة، وهم رؤساء ومسؤولون، أن يعاملوا الناس معاملة الملك للرعية ليحظوا بتأييده، وقبوله، ويسلموا من عقابه، وينجوا من عذاب الآخرة^(٢) ويرى نظام الملك أنه يجب إطلاق أيدي أصحاب الإقطاع في إقطاعاتهم، ولكن بنظام معلوم، والتأكيد عليهم - في حالة غياب أحد الجند بوفاته أو لسبب آخر - الإعلان عن ذلك وعدم كتمانهم، وهو إجراء لا يختلف كثيراً عن الأنظمة الحديثة في هذا المجال. ويذكر كذلك وجوب بث العيون والجواسيس على أصحاب الإقطاع للتعرف على أحوالهم مخافة خروجهم عن طاعة السلطان^(٣)، ولذلك ينبغي استبدال المستقطعين كل سنتين أو ثلاث قبل أن يشتوا أقدامهم ويحصنوا أنفسهم، أو يصبحوا مبعث قلق، وحتى يحسنوا معاملة الناس وتظل الولاية عامرة^(٤). وفي حالة وصول أخبار عن خراب في ناحية من النواحي يرسل أحد الثقات إليها - دون علم أحد بمهمته - فيقيم فيها الفترة اللازمة لاستطلاع أحوالها والاستماع لما يقال عن صاحب الإقطاع والعودة بحقيقة الحال للتصرف على أساسها^(٥)، وذلك نوع من إحكام الرقابة الإدارية على الولاة

(٢) سياست نامه، ص ٦٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٦.

(١) النظم الحربية، ص ٨٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١١.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٧٤.

والقواد وهو إجراء مشهور عند العباسيين من قبل وما زالت له نظائر في الأنظمة الحديثة^(١). ومن المعروف أن كبار القادة كانوا يمنحون إقطاعات بدلاً من الرواتب بصفة عامة^(٢).

٢- عوامل التوسع في الإقطاع العسكري: يرى بعض المؤرخين أن الوزير السلجوقي نظام الملك في تطبيقه لنظام الإقطاع أراد توطين القبائل المختلفة العناصر التي تكون منها الجيش السلجوقي حتى تستقر وترتبط بالأرض المقطعة^(٣)، ويمكن تلخيص عوامل التوسع في الإقطاع العسكري فيما يلي:

- صعوبة تحصيل الأموال من ولايات الدولة.
- كثرة الأعباء المالية على خزانة الدولة والرغبة في تخفيفها.
- اتساع الدولة وصعوبة السيطرة عليها.
- الرغبة في عمارة الأرض والحفاظ عليها.
- توطين قبائل الجيش السلجوقي واستقرارها^(٤).

وعندما قام الحكام والموظفون بنهب الأموال من الفلاحين اضطر هؤلاء إلى ترك أراضيهم، ذلك أن المسؤولين كانوا يجمعون الضرائب قبل حصاد المحصول وليس بعده، كما هو معروف، بالإضافة إلى المعاملة السيئة التي يتعرض لها الفلاحون من قبل الإقطاعيين وممثلهم وإخضاعهم للسخرة مما اضطر نظام الملك وزير السلطان ملكشاه أن يسعى إلى إيجاد تحديد دقيق لحقوق وواجبات أصحاب الإقطاع^(٥)، ويبدو أن الأمر في الاستفادة من نظام الإقطاع من عدمها يتعلق بمدى المتابعة الدقيقة له من قبل المسؤولين عنه، لأن استعراض القواعد التي حددها الوزير السلجوقي نظام الملك للإقطاع في مختلف الجوانب يدل على مدى كفاءتها في تحقيق الاستفادة من هذا النظام، وهو ما حدث بالفعل في بداية تطبيق السلاجقة لنظام الإقطاع بفضل المتابعة له، ثم بدأت عوامل الفساد تدخل فيه، فبرزت سلبياته بشكل واضح حتى أصبح عبئاً على الدولة وسبباً في تفكك أجزائها^(٦).

٣- موقف العلماء من الإقطاع: أثار الخوف المتزايد على الأرض اهتمام العديد من العلماء، فعبر الغزالي عن عدم رضاه عن الفوضى في الريف، لأنه لا يمكن أن يكون تقدم دون أن يكون هناك عدل، وأن الدولة لن تزدهر في ظل الظلم والطغيان، وسيضطّر الفلاحون لترك أراضيهم معطياً أمثلة عدة للازدهار الذي وجد في العصر الساساني في ظل

(١) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٨٥.

(٢) راحة الصدور، ص ٥٠١، النظم الحربية، ص ٨٥.

(٣) تاريخ العراق في العصر السلجوقي، حسين أمين، ص ٢١٠. (٤) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٨٩.

(٦) المصدر نفسه، ص ٩١.

(٥) المصدر نفسه، ص ٩٠.

الحكام العادلين، وأن الحكام مستولون عن سوء تصرفات موظفيهم ضد رعاياهم^(١)، ويقول: عمارة البلاد بالعدل في العباد^(٢)، يعقد الغزالي فصلاً كاملاً عن كيفية التعامل مع الحكام الظالمين^(٣)، ويحذر من الدخول عليهم وأخذ الأموال منهم والتي يعتبرها حراماً لأنها مجموعة من الخراج المضروب على المسلمين^(٤)، بالرغم من علاقته بالسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه حيث ألف كتابه: التبر المسبوك، وفيه يخاطب السلطان مذكراً إياه بنعم الله مضمناً إياه نصائح من أهمها الالتزام بالعدل^(٥) ولم يكن الغزالي الوحيد الذي وقف في وجه الظلم ضد الفلاحين بل وافقه مجموعة من العلماء كنجم الدين الرازي والإمام السبكي ممن جاءوا بعده، وبيزاء ذلك كله يذكر الماوردي موقفه من إقطاع الجند بقوله عنهم: إن أهل الجيش هم أخص الناس بجواز الإقطاع، لأن لهم أرزاقاً مقدرة تصرف إليهم مصرف الاستحقاق، لأنها تعويض عما أرسدوا نفوسهم له من حماية البيضة والذب عن الحرم^(٦). والفرق بينه وبين آراء العلماء الآخرين أن موقفه يبدو مؤيداً للإقطاع العسكري بينما يعارض بعض العلماء السلبيات التي أفرزها تطبيق هذا النظام^(٧).

سادساً: الرهائن:

قامت فكرة أخذ الرهائن عند السلاجقة من الأمراء بمختلف أجناسهم ومن أصحاب الإقطاع - خاصة من الداخلين في طاعة الدولة حديثاً - ضماناً للولاء والطاعة^(٨) للسلطان السلجوقي، فإذا ما حدث هؤلاء أنفسهم بالعصيان كان التلويح لهم بقتل رهائنهم الذين كانوا من ذوي القربى لهم، بالإضافة إلى الاستفادة من وجود هؤلاء الرهائن في القيام بمهمات البلاط السلطاني، وقد دخل هذا النظام عند السلاجقة حيز التنفيذ منذ بداية دولتهم، كواحد من النظم التي جلبها السلاجقة معهم من أوطانهم الأولى، حيث كان هذا النظام سائداً لدى بعض القبائل التركية قبل دخولهم الإسلام، ومن خلال الدراسة لهذا الموضوع في التراث السلجوقي نستنتج بعض الضوابط التي قام عليها نظام الرهائن عندهم والتي منها:

- أخذ الرهائن على الأمراء من الأجناس المختلفة ممن دخلوا في طاعة السلاجقة.
- أن تكون الرهينة من ذوي القربى هؤلاء الأمراء ابناً أو أخاً ومن في حكمهم.

(١) التبر المسبوك في نصيحة الملوك، ص ١٠٨ - ١٤٠، ١٧١ - ٢٨١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨٦.

(٣) (٤) إحياء علوم الدين (٢/ ١٤٢ - ١٥٢).

(٥) التبر المسبوك، ص ٩٢، ٩٣، ١٠٧، ١٢٩.

(٧) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٩٣.

(٦) الأحكام السلطانية، ص ١٩٥.

(٨) المصدر نفسه، ص ٩٣.

- ألا يقل عدد الرهائن عن خمسمائة.
- أن تتم عملية استبدالهم سنوياً بأخرين غيرهم.
- أن يتم الاحتفاظ بالرهائن حتى وصول البدلاء إلى القصر.
- تقديم أصحاب الإقطاع خمسمائة رجل منهم ليقيموا في البلاط السلطاني.
- اختيار ألف من أبناء التركمان غلماناً في القصر يقومون مقام الرهائن ضماناً للولاء^(١).

سابعاً: الإعداد المعنوي للجيش:

اعتبر السلاجقة حروبهم جهاداً في سبيل الله كما سبقت الإشارة إليه في الفكر العسكري؛ مما شكل عاملاً بارزاً في رفع الروح المعنوية لديهم، وتُعد معركة ملاذكرد خير مثال لارتفاع الروح المعنوية لدى جند السلاجقة، فقد برزت غيرتهم على الإسلام فاستماتوا في القتال بحماس شديد حتى النصر^(٢). ولم يكن أثر الجانب المعنوي خافياً على الوزير السلجوقي نظام الملك فكان يعطيه حقه من الاهتمام في مواضع متعددة، فعندما خاف السلطان ألب أرسلان من قتلش السلجوقي بعد خروجه عن طاعته ثبته الوزير نظام الملك ورفع من روحه المعنوية قائلاً: قد جعلت لك من خراسان جنداً ينصرونك ولا يخذلونك ويرمون ذلك بسهام لا تخطئ، وهم العلماء والزهاد، فقد جعلتهم بالإحسان إليهم من أعظم أعوانك^(٣) وجاء في رواية ابن كثير: ... لا تحف فإنني قد استدتمت لك جنداً ما بارزوا عسكرياً إلا كسروه كائناتاً ما كان.. جند يدعون لك وينصرونك بالتوجه في صلواتهم وخلواتهم وهم العلماء والفقراء والصلحاء^(٤). فكان نظام الملك يرى أن الانتصار المتكرر يعمل على بث روح النصر في نفوس الجند دائماً^(٥)، وينصح الغزالي سلطانه محمد بن ملكشاه بالعمل على إطلاق الأسرى من الجند من أيدي الأعداء عن طريق شرائهم بالأموال وذلك: لسمع الجند بصنيعه فتقرى قلوبهم إذا باشروا حروبهم^(٦)، ولا شك أن للمدارس النظامية دوراً عظيماً في الإعداد المعنوي للجيش السلجوقي والأمة عموماً، ويأتي بيان ذلك في محله بإذن الله تعالى.

* * *

-
- (١) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٩٦.
 - (٢) السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص ٣٥.
 - (٣) الكامل في التاريخ، نقلاً عن النظم الحربية، ص ٩٨.
 - (٤) البداية والنهاية، نقلاً عن النظم الحربية، ص ٩٨.
 - (٥) النظم الحربية، ص ٩٨.
 - (٦) التبر المسبوك، ص ٢٧٩.

المبحث الثاني

نظم الإدارة العسكرية عند السلاجقة

تمثلت هذه النظم بالمناصب العسكرية المتعددة عند السلاجقة التي أسهمت في تحديد المهام المنوطة بكل منصب من ناحية وإيجاد التدرج في الرتب العسكرية بشكل هرمي يضمن النجاح في تنفيذ هذه المهام من ناحية أخرى^(١) وإليك تفصيل نظم الإدارة العسكرية السلجوقية.

أولاً: المناصب القيادية:

يجسد الوزير السلجوقي نظام الملك النظر إلى كبار قادة الجيش على أنهم زينة الملك^(٢)، وأن الحفاظ على ألقاب الأشخاص ومراتبهم وأقدارهم جزء من شرف المملكة^(٣)، كما كان ينصح بضرورة عدم اللجوء إلى إسناد عملين لشخص واحد أو عمل واحد إلى شخصين قط^(٤)، فقد أراد تثبيت تقسيمات الوظائف التي ميزت عصر السلاجقة، وحذر من تداخل الألقاب بين المدنيين والعسكريين وأنها لا بد أن تتناسب مع القائمين على هذه المناصب^(٥)، كما يرى الوزير السلجوقي نظام الملك وجود وضع العيون على أصحاب المناصب القيادية فهو يقول: أما أصحاب المناصب الهامة الرفيعة، فيجب أن يعين عليهم من يراقبهم سراً دون أن يعلموا ليكونوا على اطلاع دائم بأعمالهم وأحوالهم^(٦). وأما أهم المناصب العسكرية القيادية عند السلاجقة حسب تدرجها فهي:

١- الأمير الحاجب الكبير: وهو من المناصب الرئيسية لدى سلاطين السلاجقة، فكان الأمير الحاجب الكبير هو الذي يسمع مشافهة السلطان ويؤديها إلى الوزير، فهو الناهي الأمر^(٧)، فكانت مهامه في البداية تنحصر في تنظيم الدركاء (باب السلطان) حيث يشرف على سير الأمور في بلاط السلطان، فكان بذلك حلقة الوصل بينه وبين رجال الدولة والرعية^(٨)، ثم أضيفت إليه مهمة قيادة الجيوش التي يوجهها السلطان للقضاء على أعدائه^(٩). وقد بين المؤرخون أن

(١) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٠٣.

(٢) سياست نامه، ص ٢١٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٩١.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٠١.

(٥) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٠٣.

(٦) سياست نامه، ص ٦٦.

(٧) تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١١١.

(٨) رسوم السلاجقة، ص ٩٣، النظم الحربية، ص ١٠٥.

(٩) النظم الحربية، ص ١٠٥.

التدرج في الخدمة العسكرية يصل في النهاية إلى الحجابة وهي قمة الهرم العسكري عند السلاجقة وأسمى الألقاب التي كانت تعطي القادة عند السلطان^(١) ويعتبر الحاجب هو عارض السلطان الذي يتولى أمور الجيش وقيادته وهو أعلى المناصب القيادية السلجوقية بعد السلطان والوزير، فكان في المرتبة الثالثة في مناصب الدولة^(٢).

١- صفات قائد الجيش: يفضل نظام الملك أن توكل قيادات الجيش إلى الكهول المجربين لا الشبان الناشئين^(٣)، تأكيداً منه على أهم الشروط الواجبة في القائد وهو وجود الخبرة والتجربة فلا يتولى المناصب العليا من لم يبلغ الخامسة والثلاثين أو الأربعين من عمره^(٤). حتى يتحقق له النجاح في منصبه بقوة واقتدار، ويسانده في ذلك الغزالي -وهو من علماء السلاجقة- بقوله فإن الرجل يصير رجلاً في أربعين سنة^(٥). ويذكر صاحب كتاب آثار الأول أن من صفات القائد أن يكون قدره كبيراً وأمره نافذاً، خبيراً بالحُلا^(٦)، والعروض ومعرفة الرجال ورتبهم وأقدارهم وموقعه من الدولة، ويتقن أمر الحلية فلا يشتبه عليه شخص بشخص وشيأة الدواب والسلاح، ولتكن له هبة وحرمة كبيرة حتى لا يجسر أحد على التدليس ولا غيره، ويحترز عند العروض فهو الأصل في انتظام أمر الجيش^(٧)، ويذكر ابن الأزرقي أربع صفات للقائد هي: الشجاعة والحزم، وحسن التدبير، والسخاء^(٨)، ويقول إن من صفات نجاح قائد الجيش في منصبه معرفته بمواطن طاعة جنده^(٩) ومن الصفات اللازمة لقائد الجيش أن يكون: كامل العقل ثابت القلب تام الشجاعة، وافر اليقظة كثير الحذر شديد الحزم بصيراً بأحكام الحروب ومواضع الفرص منها عارفاً بالحيل والمكايد والخداع فيها، عالماً بتدبير العساكر وترتيب الجيوش خبيراً بالطرق.. عارفاً بالخليل.. وأصناف السلاح^(١٠).

ب- واجبات قائد الجيش: وهي الاهتمام بحماية الجيش من مفاجأة العدو له، واختيار الموقع المناسب للجيش، وإعداد ما يحتاج إليه الجيش من مؤن، ومعرفة أخبار عدوه لئلا يتعرض لمكروهه، وترتيب الجيش في أرض المعركة، وتقوية عزيمة الجند وبث روح الانتصار فيهم، وأن يعدهم بثواب الله في الآخرة والغنيمة في الدنيا، ومشاورة

(١) النظم الحربية، ص ١٠٨.

(٢) العرب والأترك، ص ٩٦.

(٣) سياست نامه، ص ٢٢٣.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٤٥.

(٥) التبر المسبوك، ص ٢٧٩، النظم الحربية، ص ١٠٩.

(٦) الحُلا: ما يُحلي به من أدوات الزينة.

(٧) النظم الحربية، ص ١٠٩.

(٨) بدائع السلك (١/٢٠٣، ٢٠٤).

(٩) النظم الحربية، ص ١٠٩.

(١٠) تفريغ الكروب في تدبير الحروب، نقلاً عن النظم الحربية، ص ١١٠.

ذوي الرأي فيما يشكل عليه لثلا يخطئ^(١).

ج- رواتب الجند: كان كبار القادة يمنحون إقطاعات بدلاً من الرواتب - كما سبق أن أشرنا إلى ذلك في حديثنا عن الإقطاع - بصفة عامة، فقد كان الأمراء الأربعون الذين قدمهم الوزير نظام الملك تحت أيديهم أربعون ولاية على سبيل الإقطاع، وأحياناً يقطع الأمير بضع ولايات، فقد منح السلطان بركيارق الأمير أنر ولاية فارس أولاً ثم ولاية العراق وكان إيرادهما السنوي يتجاوز المليون دينار، وفي عهد السلطان محمد بن ملكشاه أقطع الأمير أحمديل ولاية أذربيجان ذات الإيراد السنوي الذي يبلغ أربعمائة ألف دينار^(٢)، وهكذا كان الأمراء والولاة يقطعون هذه الإقطاعات بمثابة الراتب لهم، بينما كان الغلمان من ذوي الرواتب يحصلون على رواتبهم من الخزانة أربع مرات في السنة^(٣).

٢- الأسفهلار^(٤)، وهو قائد القواد أو القائد العام: وُجد هذا اللقب قبل السلاجقة، فيذكر البيهقي وجوده عند الغزنويين في عهد السلطان مسعود^(٥)، وكان الأسفهلار: زمام كل زمام وإليه أمور الأجناد^(٦)، ويؤكد الغزالي وجود منصب الأسفهلار عند السلاجقة^(٧)، وقد أشار بعض المؤرخين إلى أن من يصل إلى مرتبة أمير الأمراء أو ملك الأمراء يكون بذلك القائد العام للجيش السلجوقية ويطلق عليه أسفهلار، أو بيليري^(٨)، ويمكن قبول تولي الأسفهلار قيادة الجيش في حالة غياب الحاجب الذي يتولى إمرة الجيش وعرضه، أما في حالة وجوده في المعركة فهو القائد الأعلى للجيش ويصبح الأسفهلار حلقة الاتصال بينه وبين قادة الفرق المتقدمين^(٩).

٣- أمير الحرس: كانت إمارة الحرس من المناصب المهمة في كل العصور، فكانت لها أهميتها في العصر السلجوقي؛ إذ لم يكن في البلاط أعظم وأكثر أبهة بعد الأمير الحاجب العظيم من أمير الحرس^(١٠) ويبرر الوزير السلجوقي نظام الملك أهمية هذا المنصب بقوله: لأن عمله مختص بالعقوبات، والجميع يخشون غضب الملك وعقابه^(١١)، فإذا غضب

(١) الأحكام السلطانية، ص ٤٣.

(٢) سياست نامه، ص ١٣٩.

(٣) الأسفهلار معناه مقدم العسكر، مركب من لفظين فارسي وتركي، فأسفه بالفارسية بمعنى المقدم وسلار بالتركية بمعنى العسكر.

(٤) تاريخ البيهقي، ص ٣٦٣، النظم الحربية، ص ١١٥.

(٥) الخطط (٤٠٣/١)، النظم الحربية، ص ١١٥.

(٦) التبر المسبوك، ص ١٨٢.

(٧) النظم الحربية، ص ١١٧.

(٨) أمير الأمراء القائد الأعلى للجيش.

(٩) سياست نامه، ص ١٧٧.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٧٧، النظم الحربية، ص ١١٨.

السلطان على شخص ما فإنه يأمر أمير الحرس بضرب العنق، أو قطع اليد والرجل، أو الشنق أو الجلد أو الزج به في السجن، أو الإلقاء في إحدى الآبار حتى كان الناس لا يترددون في افتداء أنفسهم وأرواحهم بالمال^(١)، مما يؤكد أن من المهام التنفيذية لأمير الحرس إيقاع كثيرة من العقوبات بالإضافة إلى متابعة المشرفين على الحرس واحتياجاتهم اللازمة حتى لا يتعرضوا للإغراءات من قبل من يحاول ذلك، فيتهادونوا في أداء واجباتهم المنوطة بهم، ولم يقتصر هذا المنصب على البلاط السلطاني، بل كان لكل أمير من أمراء السلاجقة حرس ينحصر يرأسهم شخص يطلق عليه أمير الحرس^(٢).

٤- المقدم: يطلق على القادة الذين تولوا قيادة الفرق في الجيش السلجوقي، وهو ما ذهب إليه بعض المؤرخين حول هذا المنصب^(٣)، وإذا كان المقدم أميراً للحرس أطلق عليه لقب جندر، وإن كان قائداً لقلعة حمل لقب دزدار^(٤)، كما أطلق على قائد الأقاليم الثغرية المتاخمة للأعداء لفظ سالار^(٥)، وأطلق عليه لقب غازي، وكانت الدولة تعفي الثغور من الضرائب والخراج، بل تقدم لهم المساعدات المالية والرواتب^(٦) حتى يكونوا على مستوى من القوة والولاء تساعدهم على الصمود.

٥- العميد: استحدثت السلاجقة وظيفة العميد^(٧)، الذي يعاون الشحنة في إدارة الولاية وتوجيه القوات العسكرية في حال الاضطرابات، وكانت سلطات العميد أوسع من سلطات الشحنة، فهو يشرف على العراق بأكمله بينما يشرف الشحنة على بغداد فقط^(٨)، ويذكر نظام الملك أن من المناصب عميد بغداد وعميد خراسان وعميد خوارزم في حصره للمناصب المهمة التي تضاف ألقابها إلى الملك، لتتضح درجة العظمى ومرتبته عما دونه^(٩)، وهو ما يثبت لنا وجود هذا المنصب وأهمية صاحبه في الدولة السلجوقية^(١٠). وأما عن مهام ومسؤوليات هذا المنصب فهي ضمان بغداد بمبلغ معين والنظر في أعمالها وعمارتها^(١١).

(١) رسوم السلاجقة، ص ١١٢، النظم الحربية، ص ١١٨. (٢) دولة السلاجقة، حسنين، ص ١٤٨.

(٣) آثار الأول، نقلاً عن النظم الحربية، ص ١١٩. (٤) العرب والأتراك، ص ٩٧.

(٥) الكامل في التاريخ، نقلاً عن النظم الحربية، ص ١٢٠.

(٦) قيام الدولة العثمانية، محمد كوبريلي ص ١٢٩.

(٧) نظام الإقطاع عند السلاجقة، ص ٧٥، النظم الحربية، ص ١٢١.

(٨) السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص ١٥٩.

(٩) سياست نامه، ص ٢٠٠، النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٢٢.

(١٠) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٢٢.

(١١) الكامل في التاريخ، نقلاً عن النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٢٢.

والمحافظة على الأمن والقضاء على الفتن في مركز الخلافة^(١) والنظر في المظالم، والاهتمام بأمر الحج وتعيين الخفراء للحجيج وترتيب إقامة السلطان في بغداد^(٢)، وقد تقلّص نفوذ العميد ومهامه بمرور الزمن، فأنيطت أكثر مهامه بالشحنة^(٣).

٦- الشحنة^(٤): وهو منصب جديد استحدثته السلاجقة، فقد اعتادوا منذ بداية دولتهم على تعيين الشحنة على القبائل التركمانية، وإعطائه صلاحيات خاصة، وكان عمل صاحب هذا المنصب يتلخص في حسم القضايا الخفيفة في البلد الذي يتولاه^(٥)، وهو مشابه لعمل العميد فيما عدا ضمان العميد لبغداد بمبلغ من المال، ومن ثم لم يكن لعمله حدود واضحة ولكنه بعد أن تقلد نظام الملك الوزارة أصبح الشحنة بمثابة الوالي أو النائب عن السلطان، فهو المسئول عن إدارة المصالح السلجوقية وإقرار الأمن والنظام^(٦)، فهو قائد الحامية العسكرية في المدينة وله صلاحيات أمنية وإدارية واسعة^(٧)، وهي أشبه ما تكون بوظيفة الحاكم العسكري في عصرنا الحاضر^(٨). وأما عن شروط من يعتلى هذا المنصب فتقوم على أساس قدرته على ضبط الأمور وإدارتها بدقة، بالإضافة إلى أمن السلطان في بغداد^(٩)، ولذلك أعطى هذا المنصب مثل آق سنقر^(١٠)، وعماد الدين زنكي^(١١).

٧- الأتابك^(١٢): من الوظائف السلجوقية المهمة منصب الأتابك، ويذكر ابن الأثير والسيوطي أن معنى أتابك هو الأمير الوالد^(١٣) بينما يذكر ابن خلكان أنه الذي يرسي أولاد الملوك، فالأتابا بالتركية هو الأب وبك هو الأمير^(١٤)، وعبر القلقشندي عن هذا اللفظ بقوله: ويعبر عن صاحبها بأتابك العساكر... وأصله أتابك ومعناه الوالد الأمير، وأول من لقب بذلك نظام الملك وزير ملكشاه بن ألب أرسلان حين فوض إليه ملكشاه تدبير المملكة سنة خمس وستين وأربعمائة، ولقبه باللقاب منها هذا، وقيل أتابك أمير أب والمراد أبو الأمراء

(١) تاريخ ابن أبي الهيجاء، ص ١٠٧.

(٢)، (٣) النظم الحربية، ص ١٢٢.

(٤) يشبه منصب المحافظ والمتصرف حالياً.

(٥) تاريخ ابن خلدون، نقلاً عن النظم الحربية، ص ١٢٣.

(٦) العرب والأتراك، ص ٩٧. (٧) النظم الحربية، ص ١٢٣.

(٨) نور الدين محمود، عماد الدين خليل، ص ٧٤.

(٩) الكامل في التاريخ، نقلاً عن النظم الحربية، ص ١٢٤.

(١٠) تاريخ حلب، ص ٣٥٤. (١١) النظم الحربية، ص ١٢٤.

(١٢) يطلق على من يعهد إليه بتربية الأمراء ومراقبتهم وتصريف أمورهم وحمايتهم.

(١٣) تاريخ الخلفاء، ص ٤٢٢، النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٢٥.

(١٤) وفيات الأعيان (١/٣٦٥).

وهو أكبر الأمراء المقدمين^(١).

ثم حمل لقب الأتابك العسكريون الموكلون إليهم تربية الأمراء الفتيان من مختلف فروع العائلة السلجوقية، ومنذ عهد السلطان بركيارق أصبح الأتابك عسكرياً من القادة ذوي الشهرة، حيث يلعب دور الأب تماماً، فيتزوج أم الفتى عندما تصبح أرملة وبلغ الأمر بالأتابك من الناحية العملية حد توريث وظيفته حتى على مستوى امتلاك الحكم^(٢)، ولا شك أن في هذا الرأي استقرار لتطور هذا اللقب عند السلاجقة وتحوله من أصحاب المناصب المدنية في البداية إلى القادة العسكريين بعد ذلك^(٣).

٨- قاضي العسكر: كان القضاة هم الذين يرعون الشؤون الشرعية في البلاد في عهد السلاجقة، وكانوا على قسمين: أحدهما للعساكر والآخر لعامة الناس، فكان قاضي الجيش ينظر في القضايا الخاصة التي توجد داخل الجيش^(٤)، ويذكر الوزير نظام الملك أن من شروط القاضي أن يكون عالماً أميناً زاهداً ويرى وجوب عزل كل من لا يتصف بهذه الصفات، وأن يعطى القاضي راتباً شهرياً يكفيه حتى لا تضطره الحاجة إلى الخيانة لما فيها من خطر كبير، لأن دماء المسلمين وأموالهم بيد القضاة ومعاقبتهم على أخطائهم إضافة إلى عزلهم، وأن من واجب السلطان مساعدة القاضي في أداء مهام منصبه بإجبار من يرفض الحضور إلى مجلس القضاء كي يسود العدل وينصف المظلوم^(٥)، لأن القضاة نواب السلطان فيجب عليه أن يشد أزهرهم ويحفظ لهم مكانتهم، كما يجب تحري أحوال القاضي صغيرها وكبيرها وإرسال الثقة للقيام بذلك^(٦)، ويرى المرادي أن من واجب القاضي أن يتصف بالوقار والفتنة والاحتباس والعبادة وفصاحة اللسان^(٧)، وكانت المنازعات التي تنشأ بين منسوبي الجيش السلجوقي يفصل فيها قاضي العسكر^(٨)، الذي التزم أيضاً الفصل في القضايا التي تخص الجند كقضايا الميراث والغنائم والبيع والشراء وغيرها، وبيان أحكام الشرع لهم^(٩).

٩- الدردار: تشير المصادر السلجوقية إلى منصب آخر هو الدردار، فيذكر ابن ببي أنه

(١) صبح الأعشى (٤/١٨)، النظم الحربية، ص ١٢٦.

(٢) الشرق الإسلامي، ص ٣٦٧، النظم الحربية، ص ١٢٦.

(٣) النظم الحربية، ص ١٢٦. (٤)، (٥) المصدر نفسه، ص ١٢٨.

(٦) سياست نامه، ص ٨٣، النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٢٨.

(٧) تاريخ البيهقي، ص ٦٠٣، ٦٠٤.

(٨)، (٩) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٢٩.

يطلق على القائد الذي يقوم بحراسة القلعة^(١)، كما يفسر البعض معناها بحاكم الحصن^(٢)، وصاحب هذا المنصب مستقل في منصبه عن حاكم الإقليم كما يذكر الفلقشندي وعادة ما تكون رتبته القيادية أمير طبلخاناه يتزعم أربعين وقد يصل إلى سبعين وتحت إمرته حراس يتناوبون العمل على حراسة القلعة في الليل والنهار، كما هو الحال في قلعتي دمشق وحلب على سبيل المثال^(٣).

١٠- سلاح دار: وتعني هنا أمير السلاح، فقد جاء مصطلح سلاح دار في كتاب سياست نامه^(٤)، وفي تاريخ البيهقي، أنه يطلق على الشخص الذي يقوم بمهمة حراسة دار السلاح أو الذي يحمل سلاح الحاكم أثناء المراسم والاحتفالات، وتحق إمرته لأشخاص أُطلق على الواحد منهم سلاح دار^(٥)، ويفرق ابن كنان بين أمير السلاح الذي يجلس إلى جانب السلطان على المسيرة وهو من أكابر الأمراء وهو المختص بالسلاح خاناه^(٦)، وبين سلاح دار الذي يحمل آلة من آلات الحرب التي تختص بالسلطان حين القتال^(٧)، والذي هو واحد ممن يتزعمهم أمير السلاح^(٨).

ثانياً: ديوان عرض الجيش:

كان هذا الديوان يرعى مهمات الجيش واحتياجاته وأسماء الجند في السجلات الموجودة في هذا الديوان، فهو يقابل وزارة الحرب في عصرنا ويسمى رئيس هذا الديوان العارض^(٩)، حيث يُخبر السلطان بأحوال هذا الديوان إما بنفسه مباشرة أو بمن يرسله إليه^(١٠)، ويسمى أحياناً ديوان الإقطاع^(١١) ومن مهام هذا الديوان:

١- تنظيم سجلات أسماء الجند: ترصد في الجريدة السوداء^(١٢) سنوياً أسماء الرجال وأنسابهم ومبالغ أرزاقهم وسائر أحوالهم وهي الأصل الذي يرجع إليه في ديوان الجيش في كل شيء، ويتم هذا الرصد تحت قياداتهم قائداً قائداً^(١٣)، ويُصرح الراوندي بوجود الجرائد

(١) العرب والأتراك، ص ١٣٠، النظم الحربية، ص ١٣٠.

(٢) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٣٠.

(٣) صبح الأعشى (٤/٢٢٤، ٢٢٥).

(٤) سلاح دار: داراي ممسك، تعني الذي يحمل سلاح السلطان.

(٥) تاريخ السلاجقة، ص ٢٩٣، النظم الحربية، ص ١٣١.

(٦)، (٧)، (٨) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٣١.

(٩) دولة السلاجقة، ص ١٤٧، نظم دولة سلاطين المماليك (١/١٣٩).

(١٠) صبح الأعشى (٤/١٨).

(١١) الحرب عند العرب، ص ٣٢٧.

(١٢) الجريدة السوداء: وهي من دفاتر ديوان الجيش تكتب فيها الأسماء.

(١٣) تاريخ البيهقي، ص ١٣٤.

الديوانية لدى السلاجقة في عهد السلطان ملكشاه وأنه كانت تكتب فيها أسماء الجند ويُرصد فيها توزيع الإقطاعات عليهم^(١) ويعتبر تسجيل أسماء الجند في السجلات الخاصة بديوان الجيش، هو أحد مظاهر التنظيم الإداري العسكري الدقيق في عهد السلاجقة العظام^(٢).

٢- عرض الجيش: كان العارض - رئيس هذا الديوان - يشرف بنفسه على عرض الجيش، فيجب عليه الحذر عند العرض: فهو الأصل في انتظام أمر الجيش^(٣)، وقد اعتاد سلاطين السلاجقة - بحكم تربيتهم وميولهم العسكرية - على الاهتمام بجندهم اهتماماً بالغاً وكان من مظاهر هذا الاهتمام متابعة إعداد الجيش واستعراضه، وتفقد أحوال الجند ومدى استعدادهم للمعركة في مكان متسع قبل خوض المعارك^(٤)، ويقدم لنا ابن العبري وصفاً جيداً للعرض العسكري الذي يتم بشكل يومي في عهد السلطان طغرل بك فقد اعتاد الجنود أن يتوافدوا كل يوم فوجاً ليؤدوا الطاعة لطغرل بك يتألف كل فوج من ألفي شخص، وكانوا ينحدرون عن خيلهم من بعيد ويقبلون الأرض ويقفون، ثم يشير الحاجب إليهم بأن تحيتهم قد قبلت فكانوا يقبلون الأرض ثانية ويركبون وينصرفون فيأتي فوج ثان، ولم يكن يدنو منه أحد أو يحدثه^(٥)، كما كان السلطان سنجر يزود قواده بضرورة استعراض جندهم أمامه، وكان من النصائح العسكرية المقدمة للسلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه في عرض الجيش قوله: واختبرهم عند العرض ولا تثبت منهم إلا الوفي الكمي، الذي لا يعدل عن الوفاء ولا ينكل عن الهيجاء فإن المراد بهم قوة العدة لا كثرة العدد^(٦).

٣- تحديد المهام الموكلة إلى الجند: اهتم السلاجقة منذ بداية أمرهم بتحديد المهام الموكلة لفرسانهم وقوادهم وجندهم، فقد كلف السلطان طغرل بك الحاجب آيتكين بالمحافظة على الطرق المؤدية إلى بغداد وحراستها^(٧)، ويذكر نظام الملك أهمية تحديد المهمة بدقة متناهية، وأن يصدر بها أمر من البلاط السلطاني فيقول: ينبغي ألا يرسل أي غلام ما لم تكن ثمة مهمة وألا يكون إرساله دون أمر.. لتجري الأمور على نصابها^(٨)، ويقول في تعظيم الأوامر السامية والمراسيم الصادرة عن البلاط السلطاني: فإذا لم يكن ثمة أمر مهم ينبغي ألا

(١) راحة الصدور، ص ٢٠٤، ٢٠٥ النظم الحربية، ص ١٣٤.

(٢)، (٣) النظم الحربية، ص ١٣٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٣٥.

(٥) تاريخ الزمان، ص ٩٣، النظم الحربية، ص ١٣٦.

(٦) راحة الصدور، ص ٣٤٤. (٧) المصدر نفسه، ص ١٧٣.

(٨) سياست نامه، ص ١١٠، النظم الحربية، ص ١٣٨.

يصدر عن الديوان العالي أمر خطي البتة^(١).

٤- الإشراف على النواحي التموينية: كان إشراف الديوان على هذه النواحي دقيقاً في البداية عند السلاجقة، فقد اهتم بعض قادة الجيش السلجوقي بشراء المؤن لجيشهم في عهد السلطان ألب أرسلان ووضع نظام الملك حلولاً صائبة للقضاء على ما قد يعترض الجيش السلجوقي من صعوبات في مجال التموين وتجنب إرهاق الرعية ووقوع الظلم عليهم ووزع مؤن الجيش على مختلف أقاليم الدولة خاصة المناطق الواقعة على الطرق الرئيسية، وقد أسهمت حلول نظام الملك بشكل فاعل في حل مشكلة التموين للجيش، فاستطاع الديوان بهذه الطريقة أن يوفر المؤن اللازمة للجيش بكل يسر وسهولة^(٢).

٥- الإشراف على النواحي المالية: أشار الغزالي إلى وجوب المحافظة على أرزاق الجند^(٣) ودفعها لهم كل إنسان منهم على قدر^(٤)، فكان ديوان الجيش يتولى متابعة هذه الأرزاق، ويذكر ابن الأزرق أن من أسس الحكم تعجيل أرزاق الجند لهم في مواعيدها وعدم تأخيرها عليهم^(٥)، لما في ذلك من الأضرار البالغة على الجند أولاً وعلى الدولة ثانياً^(٦)، ويعبر المرادي عن ذلك بقوله: إن الجيش أعوان يكفلهم المال^(٧)، في إشارة منه لأهمية الأموال للجيش وصرف مستحقات الجند في أوقاتها^(٨)، وكان السلطان ملكشاه قد جعل تخصصات الجند ورواتبهم مقسمة على مختلف الأقاليم وأمر لهم بمخصصات في كل مكان ينزلون منه على الرعايا من إمداد الجيش السلجوقي واحتياجاته^(٩)، وأما فيما بعد فقد أدت العوامل التي سبق ذكرها في الإقطاع إلى الاستعاضة عن المرتبات النقدية للمحاربين بالإقطاعات من الأرض من قبل وزير ملكشاه -نظام الملك- حتى صار الإقطاع الحربي هو القاعدة، فكان ديوان عرض الجيش هو المشرف على تنظيم الرواتب والإقطاعات على حد سواء^(١٠).

٦- الإشراف على التسليح: ذكر ابن الجوزي أن الجيش السلجوقي في عهد السلطان طغرل بك كان يحوي - ضمن محتوياته المتعددة - النجارين القادرين على تلبية احتياجات تسليحه صناعة وصيانة، كما أنه عند مسيره من بغداد سنة ثمان وأربعين وأربعمائة كان قد

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٩.

(١) النظم الحربية، ص ١٣٨.

(٣) التبر المسبوك، ص ٢٧٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٧٩.

(٥)، (٦)، (٧)، (٨) النظم الحربية، ص ١٤١.

(٩) راحة الصدور، ص ٢٠٤، ٢٠٥ النظم الحربية، ص ١٤٢.

(١٠) النظم الحربية، ص ١٤٢.

انتهى من صناعة الأسلحة الثقيلة اللازمة للجيش كالعراصات والمنجنقات^(١)، ويذكر ابن الأثير أن جيش طغرل بك كان يحتوي على خزائن السلاح والمنجنقات^(٢)، ومن الطبيعي أن تحوي هذه الخزائن مختلف أنواع الأسلحة اللازمة للجند على سبيل الاحتياط إضافة إلى وجود الصناع القادرين على صنع الأسلحة وصيانتها عند الحاجة، كما أكد ابن الأثير أن عملية تأمين احتياجات الجيش من الأسلحة والعتاد تتم حتى في أثناء المعركة^(٣)، فكان ديوان الجيش يقوم بالإشراف على هذه النواحي^(٤).

٧- الإشراف على زي الجند: حافظ السلاجقة على ملابسهم الخاصة التي عرفوها في آسيا الوسطى فكانت هذه الملابس الخاصة بالأتراك سبباً في تعرف السلاجقة الأتراك - أثناء موقعة ملاذكرد - على أبناء عمومهم من الأوزو البجناق الذين كانوا يحاربون في صفوف الجيش البيزنطي الذين انضموا لجيش السلاجقة بعد ذلك، فكانت الهزيمة على البيزنطيين^(٥)، وقد يكون ذلك أيضاً من خلال معرفة بعض أنواع أسلحتهم التي يتمنقون بها وهيئتهم التي يقفون عليها، فكان من مهام الديوان الإشراف على زي الجند.

٨- ثكنات الجند: كانت إقامة الجند تتم في العنابر الملحقة بقصر السلطان السلجوقي، فكانوا بذلك قريبين من السلطان لتنفيذ أوامره، ويطلق على هذه العنابر أتااق^(٦)، وحرّفت الكلمة إلى وثاق^(٧)، وهذا الأمر خاص بالغلمان الذين جعلوا لخدمة السلطان خاصة بالإضافة إلى الحرس السلطاني، أما بقية الجيش فلهم ثكنات خاصة بهم في أماكن أخرى.

ثالثاً: أقسام الجيش السلجوقي:

كان الجيش السلجوقي سبباً من الأسباب الرئيسية في نجاح السلاجقة وتفوقهم على القوة المعاصرة لهم وقد كان للجيش السلجوقي أقسام متعددة هي:

١- القوة النظامية: والمقصود بها الجيش النظامي الثابت في خدمته للدولة بشكل دائم، وتتألف القوة النظامية من الغلمان العبيد، أو ممن نالوا حريتهم منهم للقيام بالواجبات

(١) النظم الحربية، ص ١٤٣، المنتظم (١٧٣/٨).

(٢) الكامل في التاريخ، نقلاً عن النظم الحربية، ص ١٤٣.

(٣) الكامل في التاريخ، نقلاً عن النظم الحربية، ص ١٤٣.

(٤) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٤٣.

(٥) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٤٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٤٤.

(٧) تاريخ البيهقي، ص ٨٠٥، النظم الحربية، ص ١٤٥.

اليومية، وطريقة الحصول على هؤلاء الغلمان الشراء، والهدايا للسلاجقة من حكام آخرين، بالإضافة إلى أسرى الحروب والرسوم المقررة على الدول الخاضعة لهم^(١)، كما استفادوا بشكل كبير من العناصر التي دخلت في خدمة الدولة بعد قيامها^(٢).

٢- القبائل التركمانية: كانت هذه القبائل تعيش حياة بدوية تحت قيادة زعماء العشائر سواء وجدت هذه القبائل في خدمة الدولة أم لا، كما حافظوا على أساليبهم التقليدية في القتال والمعتمدة على رماة السهام من الفرسان^(٣)، وحتى النساء والأطفال كانوا يعيشون حياة عسكرية تحت زعامة رئيس القبيلة الذي يلقب بباش بوغا، وكانت القبائل التركمانية التي تعيش في الثغور أكثر أهمية وكان يطلق على صاحبها لقب سالار - وهو منصب أعلى من وظيفة الشحنة الذي كان يُعين على القبائل التركمانية الأخرى، ولكن بصلاحيات خاصة - وكانت الدولة تُعفي الثغور من الضرائب والخراج بل وتقدم لهم المساعدات المالية، وتمنح الغزاة والسالارات فيها رواتب ثابتة^(٤) كما اضطر سلاطين السلاجقة إلى إعطاء أفراد القبائل التركمانية - أحياناً - رواتب ثابتة اتقاء لخطرهم الذي يظهر مباشرة حين توقف الدولة هذه المرتبات^(٥)، وعلى أي حال فقد لعبت القبائل التركمانية الدور الأساسي في مرحلة تأسيس الدولة السلجوقية^(٦). ويرى الوزير السلجوقي نظام الملك أنه: على الرغم من النفرة والملاحة من التركمان وكثرة عددهم فإن لهم حقاً ثابتاً على الدولة؛ إذ أسهموا في خدمتها أبان قيامها، وتحملوا في سبيلها المتاعب والمشاق فضلاً عن أنهم من ذوي القربى^(٧).

٣- فرق الولايات: تشكل قوات حكام الولايات جزءاً كبيراً من القوات التي تلتحق بجيش الدولة في حالة إعلان الحرب وفقاً لما تعهد به هؤلاء الحكام خلال إسناد مهمة الولاية لهم حيث تكونت من عناصر متعددة حسب حالتها^(٨)، فكان لدى الحاكم قوة دائمة يحتفظ بها إضافة إلى من يستدعيه وقت الحرب^(٩)، ويضاف إلى هؤلاء الفرق التابعة لأصحاب الإقطاع^(١٠). والتي يختلف عددها تبعاً لعدد الأفراد الموجودين تحت إمرة صاحب الإقطاع

(١) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٥٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٠.

(٣) إمارة حلب، محمد صامن، ص ١٣٠، النظم الحربية، ص ١٥٤.

(٤) النظم الحربية، ص ١٥٤.

(٥) دولة السلاجقة، ص ٢٠، النظم الحربية، ص ١٥٤.

(٦)، (٧) سياست نامه، ص ١٤٣.

(٨) الحرب عند العرب، ص ٣٢٩.

(٩)، (١٠) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٥٧.

وإن كانوا أقل عدداً من تلك القوات التي يجلبها حكام الولايات^(١).

٤- قوات الأمراء: والمقصود بها تلك القوات التي تساعد الجيش السلجوقي في حروبه في حالة إعلان الحرب، ويدخل في ذلك نوعان من الأمراء، الأول: الغلمان الذين تدرجوا في المناصب حتى أصبحوا أمراء، والثاني: الأمراء العرب الذين كان لقواتهم دور فاعل في الانتصارات التي حققها جيش السلاجقة، فقد كان للأمير العربي مسلم بن قريش أثر فاعل في القضاء على حركة قاورد ضد السلطان ملكشاه، فعندما التقى الجيشان قام بالهجوم بقواته على ميسرة قاورد فهزمها^(٢)، كما كان اجتماع قوات العرب من بني كلاب إلى تتش بن ألب أرسلان عندما وصل إلى الشام سبباً مهماً من أسباب قوته^(٣) إلا أن توثق العلاقة بينهم وبين سلاطين السلاجقة لم يستمر طويلاً فقد قام السلطان مسعود بالقضاء على اثني عشر أميراً كانوا قد وقعوا في أسرهم، منهم صدقة بن دبيس أمير العرب فأمر بقتلهم جميعاً^(٤)، مما يعطي إشارة إلى تحول سلاطين السلاجقة عن الاعتماد على هؤلاء الأمراء وقواتهم^(٥).

٥- قوات المدن والمنتطوعة والأوباش: لم يكن الجيش السلجوقي يتكون من القوة النظامية والقبائل التركمانية وفرق الولايات وأصحاب الإقطاع وقوات الأمراء فقط، بل يوجد عدا هذه الأقسام جحافل كثيرة من القوات التي تنضم إلى الجيش من المدن القريبة من ميدان الحرب والتي تختلف أعدادها باختلاف هذه المناطق، فكانت تسمى بأسماء المدن والأقاليم التي جاءت منها، فتذكر في بعض المصادر عبارة عساكر العراق وغيرها^(٦)، ويضم الجيش السلجوقي كذلك المنتطوعة الذين يلتحقون بالجيش لفترة محددة، أو دائمة لتأدية فريضة الجهاد^(٧)، ويعرفهم الماوردي بأنهم الخارجون عن ديوان الجيش من أهل البادية وسكان المدن ممن انضموا للجيش حين النفرة للحرب^(٨) وهناك طوائف ذكرت في المصادر باسم أوباش ورغم إضافتها للجيش لم يكن لها تأثير يُذكر في نتيجة الحرب مثل القوى الرئيسية في الجيش السلجوقي^(٩)، وهذا لا يقلل من الجهود البارزة لهاتين الطائفتين في

(١) النظم الحربية، ص ١٥٧.

(٢) أخبار الدولة السلجوقية، ص ١٥٨.

(٣) ذيل تاريخ دمشق، نقلاً عن النظم الحربية، ص ١٥٨.

(٤) أخبار الدولة السلجوقية، ص ١١٠.

(٥) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٥٨.

(٦) الكامل في التاريخ، نقلاً عن النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٥٩.

(٧) الحرب عند العرب، ص ٣٣٠.

(٨) الأحكام السلطانية، ص ١٥٩.

(٩) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٦٠.

الجيش واستفادته منهما؛ فقد كان لإخلاص المتطوعة واستماتتهم في القتال طلباً للشهادة دور فاعل في إثارة حماس الجند للقتال^(١)، وعلى سبيل المثال، كيف استفاد الجيش السلجوقي في عهد السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان من جهود الأوباش في أعمال الردم للخذق حول مدينة ترمذ، فنجح الجيش بعد ذلك في فتح المدينة وقلعتها^(٢).

٦- **الطلائع:** كانت الطلائع تسير متقدمة أثناء تحرك الجيش وتتبعها المقدمة على مسافة كافية، وكان عمل الطلائع ينحصر باستطلاع الإقليم واحتلال النقاط المهمة فيه ولم يكن واجبها خوض المعركة بل اكتشاف مكان العدو وقوته، فإذا اصطدمت بقوة صغيرة من العدو فغالباً ما تكون قوات استطلاع مماثلة^(٣)، ويذكر البيهقي أن السلاجقة جعلوا في طلائع جيشهم المحاربين الممتازين^(٤)، إيماناً منهم بأهميتها ودورها الحيوي في تحقيق سلامة الجيش وتأمين سيره، يضاف إلى ذلك الدقة الكاملة في اختيار قيادة هذه الطلائع، فقد كانوا يشترطون في قائدها أن يكون رجلاً مذكوراً ثقة ناصحاً عاقلاً مدبراً جسوراً شديداً الحذر^(٥).

٧- **الجاويفية:** مفردها جاویش، وهو لفظ تركي مهمته القيام بالنداء في الجيش^(٦). وكان في الجيش فئة من الضباط برتبة جاویش كانوا يؤدون وظيفتهم ضباطاً للجند، كل حسب درجته في الجيش، وكانوا بصفة عامة يعملون على تحقيق الانضباط في الجيش إلى جانب عملهم ضباطاً، وكانوا يتقدمون موكب السلطان يفسحون له الطريق^(٧)، ومراقبة الطريق أثناء سير الجيش إضافة إلى المراسلة وإيصال البريد، فكان لرجال الدولة السلجوقية جاويفية أيضاً ذكرت خدماتهم في سرعة إيصال البريد، فأطلق عليهم لفظ بيكان أي الذي يمشي بسرعة، وظلت وظيفة الجاویش حتى عند العثمانيين بمسمى جاویش الديوان السلطاني^(٨).

٨- **فرق المنزل:** هناك تشكيلات يطلق عليها تشكيلات المنزل يكون عملها الاهتمام بإعداد المنازل التي سيمر بها الجيش على الطريق، فتقوم بإعداد ما يلزمه من مأكّل ومشرب^(٩)، وكان لعمل هذه الفرق أثر واضح في اختيار المواقع المناسبة لنزول الجيش

(١) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٦٠.

(٢) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٦٠، أخبار الدولة السلجوقية، ص ٦٠، ٦١.

(٣) فن الحرب (٤٤٢/٣)، النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٦٠.

(٤) تاريخ البيهقي، ص ٦٢٥، ٦٢٦، ٦٣٣، ٦٨٧.

(٥) مختصر سياسة الحروب، ص ٤٨، النظم الحربية، ص ١٦٠.

(٦) النوادر لابن شداد، ص ٦٢.

(٧) الدر المنتخب، لابن الشحنة، ص ٢٥٨، النظم الحربية، ص ١٦٢.

(٨) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٦٢.

(٩) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٦٣.

وكيفية إقامة الخيام وتوزيعها على شكل مجموعات متناسقة فيما بينها^(١). وبالإضافة إلى هذه الأقسام المحاربة يضم الجيش السلجوقي فئات أخرى غير محاربة مثل منسوبي الحرم السلطاني، والخزانة وحملة الأثقال وكتبة الجيش والعلماء، والندماء ومنسوبي المطبخ الخاص والمتعاملين في سوق الجيش وغيرهم ممن لا يشتركون في القتال^(٢).

رابعاً: عناصر الجيش:

تكوّن الجيش السلجوقي من عناصر متعددة، كالترك والغز والأعاجم والكرد والديلم والعرب وغيرهم من الأجناس. وأهم العناصر في الجيش السلجوقي:

١- الأتراك: اعتمد السلاجقة على بني جلدتهم من الأتراك، ويتضح ذلك من النصوص الواردة في بعض المصادر عن تفضيل بعض سلاطين السلاجقة لبني جنسهم، يقول السلطان ألب أرسلان مخاطباً جنده الأتراك: "... لقد قلت لكم مرة ومرتين ومائة مرة: أنتم الأتراك جيش خراسان وما وراء النهر، إنكم لغرباء في هذه الديار، لقد أعز الله عز وجل الترك اليوم وسلطهم على رقاب الديلم، لأنهم مسلمون خلّص أطهار لا يعرفون البدع والأهواء^(٣). وقد صدق السلطان ألب أرسلان في هذه العبارة حيث جعل اتباع السنة والتمسك بها والابتعاد والبعد عن الأهواء سبباً في إعزاز الله لهم ونصرتهم، كما أن في قوله ذلك دلالة واضحة على تقديره الأتراك وتفضيله لهم على بقية العناصر واعتبارهم العماد الأول لجيشه، بل كانوا العنصر الرئيسي للقوة النظامية في الجيش السلجوقي^(٤).

٢- العرب: اشتهر العنصر العربي منذ القدم بصفاته الحربية الثابتة في المعارك ومهارته العالية في ركوب الخيل فيها، وإجادتهم استخدام الرماح الطويلة^(٥)، ويعد العرب أحد عناصر الجيش السلجوقي^(٦) وله أهميته في بعض المعارك الحاسمة^(٧).

٣- الأكراد: كان الأكراد أحد العناصر التي تكون منها الجيش عند السلاجقة، فقد اجتمع إلى السلطان ألب أرسلان عشرة آلاف من العنصر الكردي في معركة ملاذكرد الشهيرة^(٨)، ويتميز الأكراد بالشجاعة في القتال رجالة وفرسانا^(٩).

٤- الفرس: هم أحد العناصر التي شكلت الجيش السلجوقي بوضوح وأهم ما يميزهم

(١)، (٢) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٦٣.

(٣)، (٤)، (٥)، (٦) المصدر نفسه، ص ١٦٥.

(٧) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٦٧، ١٦٨.

(٨) تاريخ ابن أبي الهيجاء، ص ١١٨، ١١٩.

(٩) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٦٩.

– عسكرياً – الشجاعة والصبر وإجادة الرمي بالنشاب^(١).

٥- الديلم^(٢): هم أحد العناصر التي دخلت في تكوين الجيش السلجوقي وهم أهل فروسية وشجاعة ويمجدون الرمي بالمزاريق^(٣).

٦- الأرمن: ورد ذكر الأرمن ضمن عناصر الجيش السلجوقي من خلال بعض الحوادث، وما يدل على ذلك أنه عندما عُهد إلى سعد الدولة كوهرائين بالقضاء على قاورد – عم السلطان ملكشاه – أسند المهمة إلى أحد الأرمن الذي قام بقتله خنقاً^(٤)، وكان عنصر الأرمن ثابتاً في جيوش السلاجقة في هجومهم على آسيا الصغرى أو مواجهة جيوش الصليبيين كفرق وجنود أيضاً^(٥). هذه هي أهم العناصر التي تكون منها الجيش السلجوقي^(٦).

خامساً: فرق الجيش:

١- الرجالة: كانت الفئة المحاربة في الجيش السلجوقي تتكون – بصفة عامة – من الرجالة (المشاة) والخيالة (الفرسان) وكانت الرجالة تتقدم على الفرسان في الجيش^(٧).

٢- الفرسان: تمثل فرقة الفرسان القوة الضاربة الرئيسية للجيوش، وكانت الفئة المحاربة في الجيش السلجوقي ويمثلون الجزء الفعال من جيش السلاجقة لما توافر لديهم من سرعة ومرونة ساعدهم عليها خفة حركتهم وسرعة عدو خيلهم وخفة أسلحتهم التي يحملونها^(٨)، وتمثل في الغالب في القوس وهو السلاح الرئيسي لهم، ولكنهم كانوا يحملون أيضاً الترس والرمح والسيف والهراوة^(٩)، وكان استخدامهم للسهم على ظهور الخيل مميزاً، فكانوا يطلقونها ببراعة دون الحاجة إلى التوقف أو الترجل عن خيلهم، وكانت هذه الميزة لديهم حتى في أثناء تراجعهم عن أرض المعركة فكانوا يدورون فوق السرج ليطلقوا السهم على مطارديهم بفعالية واضحة^(١٠)، وقد مكنت خفة الأسلحة الفرسان من حملها واستعمالها بسهولة على ظهور الخيل^(١١).

(١) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٦٩.

(٢) الديلم هم أهل طبرستان والجلال.

(٣) المزاريق: نوع من أنواع الرماح يُزرق بها. تبصرة أرباب الألباب، ص ١١.

(٤) النجوم الزاهرة (٩٤/٥)، النظم الحربية، ص ١٧١.

(٥)، (٦) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٧١.

(٧) مختصر سياسة الحروب، ص ٣٧، النظم الحربية، ص ١٧٣.

(٨) النظم الحربية، ص ١٧٦. (٩) الحروب الصليبية، سميل، ص ٧٧.

(١٠)، (١١) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٧٧.

٣- النشابة والنفاطيون والمجنقيون والدبابون: النشابون هم رماة النشاب ^(١)، حيث أجاد السلاجقة الرمي بالنشاب حتى أصبح ميزة من مميزات الجيش السلجوقي، ويذكر أحد شهود العيان أن النشابة كانوا في مقدمة الجيش السلجوقي وأن عددهم وصل إلى عشرة آلاف من الرجال، وفي الكثافة العددية للنشاب في المعركة دلالة قاطعة على كثرة تعداد من يقوم بإطلاقها، وكان الفرسان أيضاً يستخدمون النشاب في قتالهم كذلك، ويؤكد كثير من المؤرخين وجود النشابة في الجيش السلجوقي وفعاليتهم في معاركهم ^(٢). والنفاطون هم رماة النبط لإحراق حصون الأعداء ^(٣)، وغيرها من العوائق التي تعوق تقدم الجيش ^(٤)، فمثلاً عندما سار السلطان ألب أرسلان إلى ناحية شكي ^(٥)، من بلاد الأبخاز ووجد بها غياضاً وآجماً يحتمي بها للصمص أمر السلطان النفاطين بإحراقها، إدراكاً منه لما تشكله هذه المنطقة من خطورة على الجيش السلجوقي، وأما المجنقيون فهم رماة المنجنيق ^(٦) التي تشبه المدفعية الميدانية الثقيلة في عصرنا الحاضر ويؤكد كثير من المؤرخين وجودهم في الجيش واعتماد السلاجقة عليهم، وأن المنجنيقات كانت أهم أسلحة جيشهم الثقيلة ^(٧)، وكانت الفرقة التي تقوم عليها ترافق الجيش في كثير من الميادين ^(٨)، وأما الدبابون فقد كانوا يدخلون داخل الدبابة وهي آلة حربية على هيئة هودج كبير، يتسع لمجموعة من المقاتلين يحتمون ويزحفون في داخلها حتى يقتربوا من السور للمدينة المحاصرة، ومن ثم يقومون بنقبة في نقاط الضعف فيه ^(٩).

سادساً: التعليم والتدريب العسكري؛

حرص زعماء السلاجقة على تدريب أبنائهم وتنشئتهم على إجادة الفنون العسكرية بأنواعها المختلفة، ووصف شاهد عيان حروب السلاجقة مع الغزنويين أن لدى السلاجقة الكثير من الرجال المدربين ^(١٠)، فقد كان القصر يمثل مدرسة للتدريب تتخرج منها العناصر العاملة في الجيش والتي تؤدي دوراً مهماً في حياة الدولة باعتبار مواقعهم الدائمة في الجيش وليس باعتبار وظائفهم المؤقتة في قصر الحاكم ^(١١). ومن

(١) أخبار الدولة السلجوقية، ص ٨٠.

(٢) تاريخ البيهقي، ص ٦٢٨، أخبار الدولة السلجوقية، ص ٨٠.

(٣)، (٤) الحرب عند العرب، ص ٣٣٠.

(٥) شكي: ناحية من بلاد الأبخاز.

(٦) أخبار الدولة السلجوقية، ص ٤٤، النظم الحربية، ص ١٧٩.

(٧)، (٨) النظم الحربية، ص ١٧٩.

(٩) تاريخ السلاجقة، ص ٢٧٦.

(١٠) تاريخ البيهقي، ص ٦٧٤، ٦٨٣.

(١١) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٨١.

مميزات الجيش التركي أن أفرادهم كانوا يهبون أنفسهم دائماً لواجبهم العسكري، وكانوا يتخذون من العسكرية مهنة دائمة فكان أفراد الجيش يمحسون أوقاتهم في التدريب العسكري وإجراء المناورات، ولهذا السبب كانوا يفتخرون بمهارتهم العسكرية بين المحاربين وانعكست حياة الجد على الألعاب التي يمارسونها في أوقات اللهو عندهم - أيضاً - فكانوا يقضونها في التدريب على بعض الأسلحة كاللعب بالسيف والترس والرمية وسباق الخيل إلى جانب الألعاب المختلفة الأخرى^(١)، ويفهم من التدرج الذي ذكره الوزير السلجوقي نظام الملك في خدمة الغلمان وطول فترة إعدادهم إلى أن يبلغوا سن الخامسة والثلاثين أو الأربعين من العمر فيولون منصباً قيادياً متقدماً^(٢) أن التدريب العسكري عند السلاجقة يعتمد على جانبين مهمين هما: الدقة في التدريب المتمثل في تتبع أحوال الغلام بدقة متناهية، والثاني: إكسابه الخبرة العسكرية اللازمة والتي تتأتي من طول فترة ممارسته للأعمال العسكرية وتدريبه عليها حتى يصل إلى منصب قيادي متقدم مثل منصب الحجابة^(٣)، رغبة في تدريبهم تدريجياً وإكسابهم الخبرة اللازمة بالتدرج ريثما يصبحون مؤهلين للوظائف العسكرية الأعلى، كما يذكر أن مهام الوزير: أن يدرّب الرجال الشجعان بآلات الحرب^(٤).

سابعاً: حجم الجيش السلجوقي:

يذكر ابن الأزرقي أن كثرة الجيش من الأمور الظاهرة المسببة للنصر^(٥)، وتبرز المصادر التاريخية عظم الجيش السلجوقي وكثرة جنده، ويصف البيهقي - وهو شاهد عيان الحروب السلجوقية الغزنوية - السلاجقة بقوله: ومعهم جيش كبير العدد^(٦)، وذكر الراوندي أنهم: كانوا جنوداً موفقين وأناساً كثيرين، تعدادهم كبير ومالهم وفي^(٧)، وعندما سار السلطان طغرل بك إلى العراق كان: معه جند اهتزت الأرض لوطأتهم، واضطربت الجبال من كثرتهم^(٨)، وذكر العنبري أنه عندما دخل طغرل بك بغداد امتد جيشه من دار الخلافة إلى النهر وان مسافة أربعة فراسخ^(٩)، وعندما وضع السلطان ألب أرسلان لجيشه جسراً على نهر جيحون، أقام العسكر يعبر عليه شهراً^(١٠)، وفي مجال تحديد تعداد الجيش السلجوقي.

(١) دولة السلاجقة، عبد المنعم حسنين، ص ١٦٧.

(٢) سياست نامه، ص ١٤٤، ١٤٥.

(٣) تاريخ البيهقي، ص ٦٨٣، النظم الحربية، ص ١٨٢.

(٤) التبر المسبوك، ص ٢٧٩، النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٨٢.

(٥) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٨٣.

(٦) تاريخ البيهقي، ص ٦٦، النظم الحربية، ص ١٨٣. (٧) راحة الصدور، ص ١٤٥.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٧٥. (٩)، (١٠) وفيات الأعيان (٦٩/٥، ٧٠).

ذكر البيهقي أن عدد جيش السلاجقة عندما دخلوا سرخس كانوا عشرين ألف فارس^(١)، وذكر ابن العمراني أن جيش طغرل بك عندما ذهب إلى بغداد كان خمسين ألف فارس^(٢)، وذكر الحسيني العدد نفسه لجيش ألب أرسلان سنة خمس وستين وأربعمائة^(٣)، وفي الوقت الذي ورد فيه أن جيش السلاجقة في عهد السلطان ألب أرسلان قُدّر بأربعمائة ألف من الجند^(٤)، يذكر ابن كثير أن جند السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان كانوا مائتي ألف^(٥)، ويذكر الوزير السلجوقي نظام الملك أن الجيش كان أربعمائة ألف رجل واقترح زيادة عدده ليصل إلى سبعمائة ألف^(٦).

ثامناً: العيون والجواسيس:

استخدم السلاجقة نظام العيون والجواسيس وحرصوا على توافر صفات وشروط معينة فيمن يتولاه وأن تكون مهمته شاملة وذلك لتأمين وصول أخبار أعدائهم إليهم لاتخاذ التدابير اللازمة حيالها، فهو من أهم نظمهم في مواجهة الأعداء منذ بداية ظهورهم، ويذكر بعض المؤرخين أن بث العيون في جيش الأعداء من واجبات السلطان للتعرف على أخبارهم^(٧)، وكان الوزير السلجوقي نظام الملك يرى أنه يجب بعث العيون في كل الأطراف دائماً في زي تجار وسياح ومتصوفة وبائعي أدوية ودراویش لنقل كل ما يسمعون من أخبار حتى لا يظل ثمة شيء خافياً وحتى يمكن تلافي أي طارئ جديد في حينه. فما أكثر ما كان الولاة والمستقطعون والعمال والأمراء يضمرون للملك خلافاً وعصياناً ويتربصون به الدوائر سراً لكن الجواسيس كانوا يكتشفون ذلك ويخبرون الملك به فيركب من وقته، وينقض عليهم بغتة، فيحقيق بهم ويحبط مآربهم ويفشل مقاصدهم... ولهذا كانوا ينهون إليه أخبار الرعية خيراً وشرها أولاً بأول، فيتعهدهم السلاطين بدورهم^(٨). يقول الوزير نظام الملك أيضاً: ينبغي وضع السعاة على الطرق المعروفة دائماً وتخصيص أجور شهرية ومكافآت لهم فبهذا يهتمون بنقل ما يقع من أحداث وأخبار ليل نهار من على بُعد خمسين فرسخاً، وكما جرت به العادة من قبل يجب تعيين نقيباً لمراقبتهم والإشراف عليهم حتى لا

(١) تاريخ البيهقي، ص ٦٢٤، النظم الحربية، ص ١٨٥.

(٢) الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ١٨٩.

(٣) أخبار الدولة السلجوقية، ص ٥٣.

(٤) خطط الشام (١/١٤٧، ٢٣٦).

(٥) البداية والنهاية نقلاً عن النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٨٦.

(٦) سياست نامه، ص ٢٠٩، النظم الحربية، ص ١٨٦.

(٧) تبصرة أرياب الألباب، ص ٢٤ النظم الحربية، ص ١٨٨.

(٨) سياست نامه، ص ١١١.

يتوانوا في أداء واجباتهم^(١)، ولا يكاد يختلف نظامهم في هذا المجال عن نظم الاستخبارات في الجيوش الحديثة^(٢).

تاسعاً: الإسناد العسكري:

استخدم السلاجقة كل الوسائل المتاحة في عصرهم لتقديم المساعدة التي يحتاجها الجيش في معاركه، حيث تمثل الإسناد العسكري عندهم في جوانب متعددة هي:

١- الإمدادات العسكرية بالجند: حرص سلاطين السلاجقة على إمداد جيشهم بقوات إضافية بالسرعة المطلوبة، حين الحاجة إليها، ففي صراع السلطان طغرل بك مع أخيه إبراهيم ينال، طلب المساعدة من أبناء أخيه داود فقام ألب أرسلان بن داود بنجده مسرعاً، حيث قطع المسافة من سجستان إلى حدود العراق في عشرة أيام فقط سالكاً طريق الصحراء، طلباً لاختصار الوقت وطول الطريق، كما أنجده أيضاً زوجته التي سارت مع جيش من الأتراك من بغداد متجهة إلى همدان^(٣)، كما اهتموا بتأمين احتياجات جندهم للأسلحة والعتاد حتى في وسط المعارك، ففي الصراع بين السلطان بركيارق بن ملكشاه وأخيه محمد احتاج الرجالة في جيش بركيارق إلى تراس - جمع ترس - أمر السلطان بركيارق بتوزيعها مباشرة على الجند^(٤).

٢- المهندسون: ويطلق عليهم الفعلة، ومهمتهم تمهيد الطرق، وإزالة العوائق أمام الجيش، وتنظيم عبور الجيش للمضائق حيث يحملون معهم العتاد اللازم لمساعدتهم في عملهم هذا^(٥). فقد استصحب السلطان طغرل بك - عند مسيره من بغداد إلى الموصل - النجارين، كما عمل المهندسون العرادات والمجانيق^(٦)، حيث يمثل صانعو الأسلحة بأنواعها المختلفة وبناء الجسور جزءاً من وحدات الجيش السلجوقي عند سيره^(٧)، ويدل استخدام السلاجقة للجسور لعبور الأنهار^(٨)، على وجود المهندسين المهرة في الجيش السلجوقي الذين يقومون ببناء مثل هذه الجسور التي يستطيع الجيش العبور عليها، وكان الجيش

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٣، النظم الحربية، ص ١٨٩.

(٢) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٨٩.

(٣)، (٤) الكامل في التاريخ، نقلاً عن النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٩١.

(٥) فن الحرب (٤٤٣/٣)، النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٩١.

(٦) المنتظم (١٧٣/٨)، النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٩١.

(٧) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٩١.

(٨) وفيات الأعيان (٦٩/٥، ٧٠)، فن الحرب (٣/٣٤٦).

السلجوقي قد عمل سفناً عندما وصل إلى مدينة نقجوان^(١)، لحصارها في عهد السلطان ألب أرسلان كما أعد نظام الملك في حصار مدينة مريم نشين^(٢)، ما يحتاج إليه الجيش ومنها السفن حتى فتحها^(٣).

٣- حمل الأثقال: أعطى السلاجقة اهتماماً خاصاً بالأثقال في جيشهم ممثلة في أنواع الأسلحة والأعلاف وغيرها^(٤)، فقد اعتمدوا على الجمال لحمل هذه الأثقال منذ هجرة جدتهم الأولى سلجوق^(٥)، واستمروا في اعتمادهم عليها لهذا الغرض بعد قيام دولتهم، وبالإضافة إلى الجمال فقد اعتمد السلاجقة في حمل أثقال الجيش على البغال^(٦).

٤- التموين: كان اهتمام السلاجقة بتوفير التموين لجيشهم كبيراً منذ بداية عهدهم، ويذكر البيهقي أن إمدادات الجيش السلجوقي دائماً معه^(٧)، وعندما دخل السلاجقة نيسابور في عهد طغرل بك كان هناك تموين كاف للجيش كله، ويروي الوزير نظام الملك أن السلطان طغرل بك كان حريصاً على توفير المؤن في كل الظروف حتى كان إذا أراد السفر أمر بحمل الكثير منها على سبيل الاحتياط فكانت كثرتها تعجب الأمراء والأتراك أثناء تناولهم الطعام^(٨)، ويبدو أن اهتمامه هذا قد انعكس على الجيش السلجوقي وعدم تعرضه لنقص المؤن في عهده واستمر هذا الاهتمام في عهد ألب أرسلان وملكشاه. ويشير ابن خلكان إلى أن دخول الجيش السلجوقي في عهده إلى بلد من البلدان كان مقروناً برخص الأسعار لما يدخل معه من مؤن كثيرة تزيد عن حاجته فترخص أسعارها، كما يحصل التجار من وجوده على مكاسب كبيرة^(٩). وهي نتيجة طبيعية لكثرة تعداد الجيش وضخامته، وكانت مدينة حلب قد اتخذت - من قبل بعض السلاطين السلاجقة - مركزاً تموينياً استراتيجياً يحصلون منه على احتياجاتهم أثناء حروبهم ضد البيزنطيين^(١٠).

(١) نقجوان: مدينة في إقليم أذربيجان.

(٢) مريم نشين: مدينة حصينة سورها من الحجر المشدود بالرصاص.

(٣) فن الحرب (٣/٣٤٥)، النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٩٢.

(٤)، (٥) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٩٢.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٩٣.

(٧) تاريخ البيهقي، ص ٦٦٦، النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٩٤.

(٨) سياست نامه، ص ١٦٩، النظم الحربية عند السلاجقة ١٩٤.

(٩) وفيات الأعيان (٥/٢٨٦)، النظم الحربية عند السلاجقة ١٩٤.

(١٠) إمارة حلب، ص ١٢٩.

ترجع بعض المراجع استخدام السلاجقة للمستشفى إلى وقت مبكر من تاريخهم^(١)، وكان يعرف في وقتهم بالبيمارستان^(٢)، فكان اهتمام وزير السلطان طغرل بك عميد الملك كبيراً بتنظيم بيمارستانان بغداد سنة ٤٤٩هـ^(٣)، وكان للسلطان محمد بن ملكشاه دور كبير في دعم البيمارستانات في بغداد بالأموال؛ إذ أمر بصرف مائة ألف دينار في مصالحها سنة إحدى وخمسة^(٤)، وتدل بعض المصادر التاريخية على أن السلاجقة لم يكتفوا بذلك بل تجاوزوه إلى استخدام المستشفى المتنقل في حلهم وترحالهم، فكان البيمارستان^(٥) المحمول^(٦)، في جيش السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي كبيراً جداً، بحيث كان يحتاج حمله إلى أربعين جملًا، وكان هذا البيمارستان ملازماً للجيش السلجوقي دائماً^(٧)، حرصاً منهم على توفير الإسناد الطبي الدائم للجيش، وقد كان أبو الحكم عبيد الله بن المظفر الباهلي الحكيم الأديب المعروف بالمغربي طبيب هذا المستشفى، كما كان أبو الفداء يحيى بن سعيد ابن يحيى المظفر المعروف بابن المرخم - الذي صار أفضى القضاة ببغداد في أيام المقتفي - فاصداً وطبيباً فيه أيضاً^(٨)، وفي معركة قطوان سنة ٥٣٦هـ ما يدل على وجود الأطباء ومصاحبتهم للجيش السلجوقي في عهد السلطان سنجر، فكان من نتائج هذه المعركة وفاة الطبيب شرف الدين محمد إيلقي^(٩)، وهو ما يؤكد اشتراكه في المعركة وعمله طبيباً في الجيش، ويدل المرض الذي أصاب السلطان مسعود بن محمد سنة ٥٤٦هـ وأدى إلى وفاته على أن الأطباء كانوا في البلاط السلطاني بشكل دائم حيث أشرفوا على تطبيب السلطان إضافة إلى من تم استدعاؤهم من أطباء العراق حيث اشتركوا جميعاً في معالجته التي لم يكتب لها النجاح لاستئراء المرض الذي أدى إلى وفاته^(١٠)، وهو شاهد من الشواهد على تواجد الأطباء بالقرب من السلطان دائماً^(١١).

(١) تاريخ إيران، ص ١٢٦.

(٢) وفيات الأعيان (٣/١٢٤)، العرب والأترك، ص ٩٧.

(٣) تاريخ البيمارستانات، ص ١٨٩.

(٤) الخدمات العامة في بغداد، ص ٣٠٠.

(٥)، (٦) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٩٦.

(٧) وفيات الأعيان (٣/١٢٤)، تاريخ البيمارستانات، ص ١٤.

(٨) وفيات الأعيان (٣/١٢٣، ١٢٤).

(٩) السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص ٣٩٨.

(١٠) راحة الصدور، ص ٣٥٤.

(١١) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ١٩٧.

الحادي عشر: الخيل ودورها في الجيش السلجوقي؛

كان الأتراك في مقدمة الشعوب قدرة على ترويض الخيل وركوبها، وكانت بعض قبائلهم أقدر على ذلك من غيرها، وكان من واجبات قائد الجيش تفقد الخيل ومدى سلامتها في جيشه، كتفقدته للجند، وأن يمنع ما يصلح منها للحرب^(١)، وأما عن طرق توفير إعداد الخيل فتأتي غنائم الحروب في مقدمة تلك الطرق ثم تربيتها عندهم، وبعد ذلك عن طريق الشراء من الأسواق المختلفة في المدن، وتأتي كذلك عن طريق الهدايا التي تقدم لهم فقد كانت الخيل في مقدمة ما يهدي لهم^(٢) وقد تميزت الخيل عند السلاجقة بصغر حجمها وتوسط طول قامتها، حيث استخدموا النوع المعروف بالحصان التركماني^(٣)، الذي اشتهر بسرعة العدو ورشاقة الجسم^(٤)، نتيجة التدريب الجيد لها، كما كان لها لباس خاص لحمايتها ووقايتها^(٥). فعملت لها التجفاف^(٦) أو الجلل أو البركستونات^(٧)، وهي الدروع الواقية التي كانت تتخذ من الحديد والفولاذ المبطن باللبود^(٨)، حماية لها من أسلحة الأعداء في أرض المعركة^(٩)، ويحرص السلاجقة على تعويد خيلهم على الجرأة وانتزاع الخوف منها تحسباً لأي طارئ في المعارك فكانوا يدربون خيلهم على معايشة الحيوانات الأخرى الأكبر حجماً منها كالجمال والفيل والدب، فإذا رأوا بعض خيلهم تخاف من أي من هذه الأنواع قاموا بتكثيف فترات وجودها مع هذا النوع حتى تتعود عليه، كما قاموا بتدريتها على الرياضات المعروفة عندهم^(١٠).

الثاني عشر: الموارد المالية للجيش السلجوقي؛

اعتمد السلاجقة في مواردهم المالية على تعددها، فكانت الغنائم والجزية والخراج والمكس، وضمنان المدن من أهم الإيرادات التي ساعدت سلاطين السلاجقة على الإنفاق في دولتهم خاصة في مجال استكمال النفقات الأساسية ليتمكن الجيش من أداء واجباته في المحافظة على كيان الدولة^(١١) وقد استفاد السلاجقة من قتال الغزنويين في حصولهم على

(١) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٠١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٣.

(٤) النظم الحربية عند السلاجقة ص ٢٠٣.

(٥) التجفاف: وهو ما يجلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح.

(٦) البركستونات: حافظ لحم الصدر.

(٧) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٠٣.

(٨) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٠٣.

(٩) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٠٣.

(١٠) النظم الحربية، ص ٢١٥.

غنائم وصلت قيمتها إلى خمسمائة ألف دينار^(١)، بينما ارتفعت بعد ذلك لتصل في معركة نسا إلى نحو عشرة ملايين دينار من الألبسة والأسلحة والدواب والأمتعة^(٢)، كما غنموا ما لا حصر له من الذهب والفضة والملابس والدواب في معركة داندانقات^(٣)، وكانت الغنائم التي حصلوا عليها بعد معركة ملاذكرد توزن بالأرطال من الذهب والفضة لكثرتها^(٤) ويذكر البنداري نزول الأسعار بشكل كبير بسبب هذه الغنائم السلجوقية، وقد صاحب انتصارات الجيش السلجوقي في معاركه المختلفة بعد ذلك حصوله على الكثير من الغنائم^(٥)، أما عن الجزية باعتبارها مورداً من الموارد المالية للسلاجقة، فقد ذكر بعض المؤرخين أن الروم كانوا قد اعتادوا دفع الجزية للسلاجقة سنوياً قبل هذه المعركة^(٦)، كما تؤكد المصادر استمرارهم بدفعها بعد ذلك، فقد وصل رسول إمبراطور الروم ومعه الجزية سنة ٤٨٢هـ، ومما يدل على استمراره في دفعها أن السلطان ملكشاه كان يأخذ خراج ملك القسطنطينية كل سنة^(٧)، وكان مقدارها ثلاثمائة ألف دينار سنوياً^(٨)، وكان السلطان ألب أرسلان قد قنع من الرعايا بالخراج الأصلي يؤخذ منهم كل سنة دفعتين رفقا بهم^(٩).

الثالث عشر: شعار السلاجقة وأعلامهم:

تشير بعض المصادر إلى أنه كان للسلاجقة نظمهم في اتخاذ الأعلام والسفارات، فقد اتخذوا منذ بدايتهم شعار القوس والسهم في رسائلهم دلالة على دولتهم، كما اتخذ السلاجقة السواد لوناً لأعلامهم في المعارك، وهو شعار الدولة العباسية^(١٠).

(١) العرضة لابن النظام، ص ٣٣، النظم الحربية، ص ٢١٥.

(٢) راحة الصدور، ص ١٥٦، النظم الحربية، ص ٢١٥.

(٣) تاريخ البيهقي، ص ٦٩٥، النظم الحربية، ص ٢١٥.

(٤) تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٢١٥. (٥) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢١٥.

(٦) تاريخ الزمان، ابن العبري ص ١٠٩، النظم الحربية عند السلاجقة ٢١٦.

(٧) الباهر لابن الأثير، ص ١١. (٨) تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٧١.

(٩) الكامل في التاريخ، نقلا عن النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢١٦.

(١٠) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢١٧، ٢١٨.

المبحث الثالث الأسلحة والتحصينات الحربية

أولاً: الأسلحة الفردية الخفيفة:

١- الأسلحة الهجومية: ومن أهمها:

- أ- القوس^(١): ب- السيف^(٢). ج- الرمح^(٣). د- الدبوس ه- السكين. و- الطبر^(٤). ز- المقاليع^(٥).

٢- أسلحة الوقاية والدفاع عن النفس:

- ١- الترس: وهو من أسلحة الوقاية من ضرب الوجه وما حوله، ويُسمى الجُنة وتتخذ من الحديد والجلد، وله أصناف متعددة كل صنف منها يصلح لاستعمال معين^(٦).
ب- الدرع: وهو جبة من الزرد المنسوج يلبسه المقاتل للوقاية من السيوف والسهام وله أنواع متعددة^(٧).

ج- البيضة: وهي خوذة من الحديد أو الفولاذ تُبطّن بالمواد اللينة كالقطن وغيره لحماية الرأس^(٨).

ثانياً: الأسلحة الجماعية الثقيلة:

- ١- المنجنيق والعرادة: المنجنيق آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف، وفيه تجعل كفة المنجنيق التي تحمل الحجر، يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه، ثم يرسل فيرتفع عموده الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئاً إلا أهلكه^(٩)، وهو من أعظم آلات الحصار فعالية ونكاية، وله أنواع وأحجام متعددة، ويرمى

(١) فصل ابن سلام في القوس وأنواعها وأسماء أجزائها في كتاب السلاح، ص ٢٢ - ٢٨.

(٢) ذكر ابن سلام أنواع السيوف وأسماءها وأجزاءها تفصيلاً.

(٣) الرمح: ذكر ابن سلام تفصيلاً للرمح وأنواعها وأسمائها في كتاب السلاح.

(٤) الطبر: وتسمى المدية وتختلف أحوالها بحسب الحاجة إليها.

(٥) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٤٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٤٩.

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٥٠.

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٥٢، الحرب عند العرب، ص ٧٤.

(٩) صبح الأعشى (٢/١٥٢)، النظم الحربية، ص ٢٥٤.

به الحجارة والنفط وغيرها، ويشبه المنجنيق المدفعية الميدانية الثقيلة في عصرنا الحاضر، وقد استخدمه الجيش السلجوقي^(١) وأما العرادة: فهي منجنيق لطيف أصغر حجماً من المنجنيق^(٢) فما يقذف الحجارة الثقيلة، هو المنجنيق وما يقذف الحجارة الخفيفة نسبياً يقال له عرادة^(٣).

٢- الدبابة والبرج ورأس الكبش: الدبابة آلة سائرة تتخذ من الخشب وتغلف باللبود أو الجلد المنقوع بالخل لمنع النار من أن تحرقها، وتركب على عجل مستدير وتحرك، وربما جعلت برجا من الخشب فيدفعها الرجال وهي عريضة من أسفل دقيقة من أعلى على شكل مربع مصلع تدفع إلى السور، وتكون أعلى منه فيصعد الرجال أعلاها فيسيطر به على سور المدينة^(٤). وكانت تلبس بصفائح الحديد^(٥)، وهي من أسلحة الهجوم الجماعية، وتختلف في أحجامها كبراً وصغراً بحسب الحاجة^(٦)، ويستخدم في الدبابة أو البرج رأس الكبش، وهو عبارة عن عمود خشبي طوله عشرة أمتار أو أكثر يركب في نهايته مما يلي السور رأس من الحديد أو الفولاذ يشبه رأس الكبش تماماً يعلق بالبرج للأمام والخلف حتى يتأرجح، فيصطدم بالسور حيث تعاد الكرة مرات عديدة حتى تنهار أمامه حجارة السور^(٧)، وتحتل الأبراج التي يُزحف بها على الحصون^(٨) والبرج المتحرك منها مكان الصدارة في الأسلحة الثقيلة المستخدمة في حصار المدن المحصنة^(٩) فقد قام السلاجقة ببناء الأبراج لإضعاف مقاومة المدن المحاصرة، وكذلك القيام من خلالها بعمليات الحراسة والمراقبة. كان ذلك في عهد طغرل بك وألب أرسلان وملكشاه^(١٠).

ثالثاً: أسلحة العرض والزينة:

وهي الأسلحة المرصعة بالجواهر وغيرها، والتي يحتفظ بها في الخزانة ويتم إخراجها وقت الاحتفالات أو وصول رسل إلى السلطان، الذي يأمر باتخاذ مظاهر الزينة ومنها الأسلحة المحلاة بالذهب والفضة أو الجواهر^(١١)، وفي عهد ملكشاه اقترح نظام الملك أن

(١) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٥٤.

(٢)، (٣) المصدر نفسه، ص ٢٥٦.

(٤) الإسلام في حضارته ونظمه، أنور الرفاعي، ص ١٩٨، النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٥٩.

(٥) النوادر لابن شداد، ص ١٤٠.

(٦) تبصرة أرباب الألباب، ص ١٨.

(٧) الجيش الأيوبي، ص ٣٠٩، ٣١٢، ٣١٣، النظم الحربية ص ٢٥٩.

(٨) تبصرة أرباب الألباب، ص ١٨.

(٩) عالم الصليبيين، ص ٢٠٣.

(١٠) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٦٠.

(١١) المصدر نفسه، ص ٢٦٠.

يكون عدد أسلحة الزينة عشرين قطعة لعشرين غلاماً يلبسون الألبسة الجميلة ويقفون بها حول سرير الملك مراعاة لهية السلطان وزينة مجلسه^(١)، وكان من رأي نظام الملك أن تكون لأمير الحرس أحسن الوسائل وأدوات الزينة والتجمل وأبهاها^(٢).

رابعاً: نظام حماية المدن:

وهي الوسائل التي تعتمد عليها المدن في حمايتها من هجمات أعدائها، وقد استخدمت في العصر السلجوقي لحماية المدن؛ الأسوار والخنادق، والقلاع والحصون^(٣).

خامساً: وسائل الحصار:

من وسائل الحصار التي استخدمها الجيش السلجوقي، المنجنيق والعرادة والدبابة والأبراج ورأس الكبش بالإضافة إلى الجسور، وسلام الحصار، والسفن والزوارق^(٤).

سادساً: صناعة الأسلحة وخزائنها:

اشتهر الأتراك بصناعة الأسلحة التي كانوا يجاربون بها، ومهارتهم معروفة في صنع السهام والنبال وتطويع الحديد وصناعة السلاح مثل السيوف والرماح، وغيرها^(٥).

(١) سياست نامه، ص ١٣٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧٧، النظم الحربية، ص ٢٦١.

(٣) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٦٦، ٢٦٧.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٧٠.

المبحث الرابع الخطط والفنون القتالية

كان لدى السلاجقة تعبئة عسكرية محكمة تجلت في كثير من الخطط والفنون على النحو التالي:

أولاً: القدرة على التحرك:

اشتهر الجيش السلجوقي بسرعة الحركة على العموم مما أتاح له المرونة اللازمة لتطبيق العديد من الفنون العسكرية التي أثرت في خطته العسكرية خلال حروبه الطويلة وكان بعضها يشبه قتال سكان الصحاري المعتمد على الكر والفر، وكانت أهم مظاهر قدرة الجيش السلجوقي على التحرك^(١):

١- السرعة: كانت السرعة واحدة من أبرز سمات حروب الترك، ومن أهم العوامل التي ساعدتهم على سرعة الحركة، معرفتهم للأرض شبراً شبراً مما جعلهم سريعى الحركة للتفرق والتجمع في وقت قصير^(٢)، ومن ثم ساعدتهم في تحقيق انتصاراتهم فكان داود قائد جيش السلاجقة يرى أن الفارس المتخفف يصبح أكثر جرأة^(٣) ويقول مخاطباً جنده: أما نحن فخفاف لا متاع لنا^(٤)، وكانت سرعة الحركة في الجيش السلجوقي قد حققت له العديد من الانتصارات على جيوش البيزنطيين^(٥)، كما أكسبته تميزاً واضحاً على الجيوش الصليبية، حيث اكتشفوا نقطة الضعف فيها المتمثلة في ثقلها^(٦)، ويمكن إرجاع هذه السرعة التي تميز بها الجيش السلجوقي - بالإضافة إلى ما ذكرناه سابقاً من معرفتهم بالأرض وطرقها - إلى خفة الأسلحة التي يحملها فرسان الجيش السلجوقي من ناحية، والحركة السريعة للخيال المدربة^(٧)، بالإضافة إلى التبديل المستمر للخيال المتعبة أثناء الحرب، بمجموعة خيل أخرى معدة بالقرب من مكان المعركة للاستعانة بها عند الحاجة^(٨)، ولهذا كان الجيش يزخر بالحركة والجري المستمر^(٩)، ومرونة تتيح له المواجهة أو المناورة في الوقت المناسب^(١٠).

٢- استخدام الكمائن: استخدم السلاجقة الكمائن في أرض المعركة، ففي عهد

(١)، (٢) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٨٠.

(٣) تاريخ البيهقي، ص ٦٨٣، النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٨١.

(٤)، (٥) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٨١. (٦) عالم الصليبيين، ص ٢١٧.

(٧) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٨١. (٨)، (٩) تاريخ ابن أبي الهيجاء، ص ١٨٨.

(١٠) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٨٢.

السلطان طغرل بك كانت الكمائن سبباً في هزيمة العرب الذين خرجوا عن طاعته ^(١)، كما كان للكمائن دورها في انتصار السلطان ألب أرسلان على البيزنطيين في معركة ملاذكرد، فقد اعتمد في حرب الكمائن على الجناحين، عندما اختبأت أجنحة اليمين واليسار في التلال الموجودة بجانب ميدان المعركة ففاجأت الجيش البيزنطي، مما أدى إلى هزيمته ^(٢)، حيث حدد بعض المؤرخين عددها بأربعة كمائن ^(٣)، وفي سنة ٤٩١هـ، استخدم القائد كريبوقا الكمائن في معركته ضد الصليبيين في أنطاكية ^(٤)، كما حقق السلاجقة بواسطتها انتصارات عديدة ومهمة في حروبهم الأخرى المتكررة ضد الصليبيين ^(٥).

٣- التراجع الزائف: استخدم السلاجقة هذه الخطة وكانت أكثر وضوحاً في صراع السلاجقة مع البيزنطيين، ففي عهد السلطان ألب أرسلان تظاهر جيش السلاجقة خلال معركة ملاذكرد بالفرار من أرض المعركة في محاولة ناجحة لإغراء البيزنطيين بملاحقتهم ^(٦)، ويعبر البنداري عن ذلك بقوله عن خيل السلاجقة: واستجرت الروم إلى أن صار الكمين من ورائها ^(٧)، وفي الوقت الذي كانوا يقومون فيه بتطبيق خطة التراجع الزائف تلك كانوا يستخدمون سهامهم بمهارة فائقة ^(٨)، فكانت الوحدات المتقدمة في الجيش تشتبك مع العدو لفترة وجيزة، ثم تنسحب تدريجياً باتجاه الكمائن المعدة متظاهرة بالهزيمة، وحينما تقدم وحدات العدو لتعقب تلك الوحدات المنسحبة تنقض عليها الكمائن ^(٩)، وطبقوا هذا التراجع الزائف - كذلك - في المعارك الأخرى التي خاضوها ضد البيزنطيين بعد ملاذكرد، مثل معركة ميريو كيفالون سنة ٥٧٢هـ ^(١٠)، وفي حروب السلاجقة مع الصليبيين كان تظاهر الجيش السلجوقي بالهرب من أرض المعركة بتطبيق خطة التراجع الزائف نحو الكمائن عاملاً مهماً في هزيمتهم للصليبيين في معركة صور يليوم تحت قيادة قلع أرسلان سنة ٤٩١هـ ^(١١).

٤- خطة تطويق العدو: كان السلاجقة في حربهم مع الغزنويين يفرقون قواتهم حتى يتمكنوا من محاولة تطويق جيش أعدائهم بالرغم من ضخامة جيش الغزنويين ^(١٢)، وقد

(١) الكامل في التاريخ، نقلاً عن النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٨٣.

(٢) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٨٣. (٣) تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٤٢.

(٤) الكامل في التاريخ، نقلاً عن النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٨٤.

(٥) العلاقات السياسية والكنسية، ص ٨٥، النظم الحربية، ص ٢٨٤.

(٦) الصليبيون في الشرق، ص ٣٠. (٧) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٣.

(٨)، (٩) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٨٥.

(١٠) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٨٥. (١١) المصدر نفسه، ص ٤٨٦.

(١٢) الكامل في التاريخ، نقلاً عن النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٨٦.

طبق السلاجقة هذا التطويق لأعدائهم في حروبهم ضد البيزنطيين، فكان انقضاض السلاجقة على أعدائهم في معركة ميروكيفالون ٥٧٢هـ من جهات عديدة، كما كانت معركة ضور يليوم بين السلاجقة والصليبيين ميداناً آخر لتطبيق هذه الخطة حيث هاجم السلاجقة أعداءهم من الصليبيين وأحاطوا بهم من كل جانب^(١)، ويذكر شاهد عيان لبعض حروب السلاجقة مع الصليبيين أن السلاجقة لجأوا إلى محاولة تطويق عدوهم في معظم هذه المعارك^(٢).

٥- **المباغطة والمفاجأة:** استخدم الجيش السلجوقي عنصر المباغطة والمفاجأة واعتبرها من ثوابت خطته في حربه ضد البيزنطيين^(٣)، وكانوا يفاجئون المدن البيزنطية في هجماتهم مما ساعدهم على فتح كثير منها^(٤)، وقد عانى الصليبيون من اعتماد السلاجقة على المباغطة لهم^(٥)، حتى وصف شاهد عيان هجوم السلاجقة المفاجئ وحصارهم للصليبيين بقوله: نظام كهذا لم يكن معروفاً لنا^(٦).

ثانياً: الرمي بالسهم:

ارتبط تاريخ السلاجقة بإجادتهم الرمي بالسهم، فكانوا يطلقونها وهم على ظهور الخيل بإتقان دون التوقف أو الترجل عنها^(٧)، كما أثر عن سلاطينهم إجادة معظم الفنون العسكرية ومنها الرمي بالسهم^(٨)، وفي عهد السلطان طغرل بك كان إمطار الجيش السلجوقي مدينة قزوين سنة ٤٣٤هـ بوابل من السهم سبباً في عدم مقدرة أهلها على الوقوف على سور المدينة للدفاع عنها مما اضطرهم إلى الدخول في طاعة السلاجقة^(٩)، ويذكر سبط بن الجوزي أن جيش السلاجقة كان يخرج منه أثناء المعركة عشرة آلاف نشابة دفعة واحدة^(١٠)، وقد وصل عدد رماة السهم في مقدمة الجيش السلجوقي إلى حوالي عشرة آلاف رجل^(١١)، وهو ما يفسر ذكر بعض المصادر أن السلاجقة كانوا يمحطرون أعداءهم بوابل من السهم الغزيرة^(١٢)، فكانت الكثافة العددية لهذه السهم - المترتبة على كثرة تعداد

(١) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٨٧.

(٢) تاريخ الحملة إلى القدس، ص ٤٩، ١٣٨، النظم الحربية، ص ٢٨٧.

(٣)، (٤)، (٥)، (٦) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٨٩.

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٩٠.

(٨) راحة الصدور، ص ١٨٦، أخبار الدولة السلجوقية، ص ٥٤، ٧٣.

(٩) الكامل في التاريخ، نقلاً عن النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٩٠.

(١٠) مرآة الزمان (٢/ ٥٠٠).

(١١) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٩١.

(١٢) تاريخ البيهقي، ص ٦٢٨، مرآة الزمان (٢/ ٥٠٠).

من يقوم بإطلاقها أو استخدام قوس الحسان المتعدد السهام- من أهم عوامل فعاليتها البالغة، وقد وزع السلطان ألب أرسلان أثناء حصار حلب ثمانين ألف نشابة^(١)، وعندما تسلّم السلطان مدينة حلب استعصت عليه قلعتها فأمر برشقها بالسهم دفعة واحدة فرشقها الجيش حتى كادت الشمس تحجب لكثرة السهام، فسلمت القلعة له نتيجة لذلك^(٢)، وقد أثبت استخدام السلاجقة للسهم في حروبهم ضد الصليبيين فعالية واضحة في إلحاق الهزائم بأعدائهم عن طريق إجادتهم استخدامها بدقة بالغة فضلاً عن غزارتها^(٣)، فقد استطاع رماة النشاب في الجيش السلجوقي سنة ٥١٥هـ أن يفنوا الجيش الصليبي بكامله عندما دخل أرضاً موحلة فلم يفلت منهم أحد^(٤).

ثالثاً: الالتحام مع العدو:

يظهر أن الالتحام مع العدو عند السلاجقة يتم على مرحلتين:

١- مرحلة الالتحام الأولى: يقوم الجيش السلجوقي بالالتحام مع الأعداء في البداية لإيهام العدو ببداية المعركة، وهو ما وصفه ابن الأثير بقوله: فصر لهم ساعة^(٥)، في ذكره أحداث المعركة بين السلاجقة والعرب الذين خرجوا عن الطاعة في عهد السلطان طغرل بك^(٦)، فقد التحم السلاجقة مع أعدائهم لفترة وجيزة ثم تراجعوا كالمهزمين نحو كمائنهم، فكان هذا الالتحام المبدي لإقناع الجانب الآخر بالبداية الفعلية للمعركة ثم الانتظار قبل بدء تطبيق خطة التراجع الزائف لإيهام الأعداء بالهزيمة ومن ثم نجاح الكمائن في مفاجأة الأعداء ومباغتتهم، وتحقيق النصر عليهم^(٧).

٢- مرحلة الالتحام الكامل: لم يقتصر استخدام السلاجقة للقوس والسهم على الالتحام المبدي فقط، بل نجد استخدام السلاجقة لها في الالتحام الكامل كذلك، فقد استخدموها بفعالية واضحة في جميع الحروب الميدانية التي خاضوها ضد أعدائهم^(٨) وكان السيف أحد الأسلحة الخفيفة التي يستخدمها السلاجقة في الالتحام مع العدو، بل كان من أهم الأسلحة التي استخدمها المحارب السلجوقي في التحامه مع العدو^(٩). ويصف

(١) تاريخ بلاد الشام، ص ١٢٩.

(٢) الكامل في التاريخ، نقلاً عن النظم الحربية، ص ٢٩١.

(٣) عالم الصليبيين، ص ٢١٥، النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٩٢.

(٤) الكامل في التاريخ، نقلاً عن النظم الحربية، ص ٢٩٢. (٥) المصدر نفسه، ص ٣٩٣.

(٦)، (٧) الكامل في التاريخ، نقلاً عن النظم الحربية، ص ٣٩٣.

(٨) تاريخ البيهقي، ص ٦٢٨، أخبار الدولة السلجوقية، ص ٢٩٣.

(٩) الحروب الصليبية، عزيز عطية، ص ٤٦، ٤٧.

اليهقي -وهو شاهد عيان لحروب السلاجقة مع الغزنويين- ذلك بقوله: وعلت قعقعة السيوف^(١)، كما استخدمه السلطان ألب أرسلان في معركة ملاذكرد أثناء اشتباكه مع أعدائه البيزنطيين^(٢)، كما وجد استخدام السيف عند السلاجقة في حروبهم مع الصليبيين^(٣)، كما استخدم السلاجقة الرمح والخنجر عند الالتحام^(٤).

رابعاً: الاستنزاف:

طبق السلاجقة سياسة الاستنزاف ضد أعدائهم، فكانوا يؤجلون الالتحام مع أعدائهم، حتى يتم استنزاف قوة جيش الأعداء، ويصل إلى درجة كبيرة من الإنهاك فيتسنى لهم هزيمته، وتبدو الأهمية الكبرى للنتائج التي حققها الجيش السلجوقي من الاستنزاف لقوة الأعداء في حروبهم ضد الصليبيين، فكان تطبيق السلاجقة لهذا الفن الحربي سبباً في التعب والإنهاك الذي لحق بجيش الصليبيين^(٥)، فضلاً عن المجاعة الكبيرة التي أحدثت بهم^(٦). وسيأتي بيان ذلك في محله بإذن الله.

خامساً: سياسة الأرض المحروقة:

أدرك السلاجقة أهمية مصادر المياه للجيش المحاربة، ولذلك قاموا أثناء حروبهم الأولى مع الدولة الغزنوية بتدمير مصادر المياه أثناء انسحابهم كواحدة من الوسائل المستخدمة في سياسة الأرض المحروقة، ففي معركة دندانقان سنة ٤٣١هـ بادر السلاجقة على الفور بتغوير مياه آبارها وتخريبها^(٧). ويصف السلطان مسعود الغزنوي ذلك بقوله: وجدنا الأعداء قد ردموا الآبار... وجعلوها قبوراً^(٨)، بأن قاموا بإلقاء الجيف فيها مما حرم الجيش الغزنوي من الاستفادة من مياهها وتعرض بالتالي للعطش الشديد^(٩)، وقد قاسى البيزنطيون كثيراً من الأثر التدميري الكبير الذي خلفته حملات السلاجقة على الأقاليم والمدن التي هاجموها، خاصة تلك الحملة الكبرى التي قادها السلطان طغرل بك على أرمينية سنة ٤٤٦هـ^(١٠). وقد فشل البيزنطيون في منع السلاجقة في تخريب المناطق التي يمرون بها قبل لقائهم معهم في معركة ميريو كيفالون سنة ٥٧٢هـ التي انتصر فيها السلاجقة^(١١).

(٢) أخبار الدولة السلجوقية، ص ٤٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٩٧.

(١) تاريخ الیهقي، ص ٦٣٥.

(٣)، (٤) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٩٤.

(٦) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٩٨.

(٨) تاريخ الیهقي، ص ٦٩٩.

(٧) تاريخ الیهقي، ص ٦٨٨، ٦٩٩، راحة الصدور، ص ١٦٣.

(٩) راحة الصدور، ص ١٦٣، النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٩٨.

(١٠) الكامل في التاريخ، نقلاً عن النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٢٩٩.

(١١) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٣٠٠.

وعندما دمر السلاجقة الآبار ومجاري المياه التي طالتها أيديهم عانى الصليبيون ودوابهم الكثير من العطش خاصة مع حرارة الصيف واشتداد الحاجة إلى الماء^(١)، وفي المقابل كانوا عند انسحابهم يأتون على كل ما يمكن أن يستفيد منه عدوهم حرقاً وهدماً وتخريباً^(٢).

سادساً: التأثير على جيش العدو:

حاول السلاجقة التأثير على جيش أعدائهم بمكاتبة بعض قادته وجنده لاستمالتهم وإرسال المرجفين لتفرقة كلمتهم فينشغلون عن الاستعداد الأمثل للمعركة، وقد استهدفوا العناصر التركية بالتأثير، وقد تعدى نشاط السلاجقة في تحقيق ذلك حدود الجند في أرض المعركة إلى شراء ولاء عيون الأعداء وجواسيسهم، فقد ذكر أحد المرافقين للجيش الغزنوي في حربه ضد السلاجقة قوله: وكان جواسيسنا قد كذبوا كثيراً في هذا الشأن، وقد أغرتهم الرشوة وتبين اليوم أن كل ما قالوه كان بهتاناً وزوراً^(٣). ويذكر ابن الأثير أن السلاجقة نجحوا في مراسلتهم لقائد الجيش الغزنوي نفسه؛ فاستمالوه ورغبوه فنفس عنهم وتراخى في تتبعهم^(٤)، وفي معركة ملاذكرد نجح السلاجقة في استقطاب أبناء عموماتهم من الأوزو البجناق الذين كانوا يحاربون مع الجيش البيزنطي إلى جانبهم في الوقت الحاسم من المعركة بدافع العصبية لهم، ويذكر بعض المؤرخين أن انضمامهم كان سبباً مباشراً في انتصار السلاجقة على البيزنطيين في هذه المعركة^(٥).

سابعاً: السيطرة على الطرق:

أدرك السلاجقة أهمية الدراية الواسعة بمعرفة الأرض معرفة كاملة تشمل المناطق التي يعيشون فيها^(٦)، ففي حربهم مع الغزنويين في معركة دنقدانقان كان السلاجقة قد استولوا على الطرق وسيطروا على الجبال والمرتفعات^(٧)، حيث وضعوا الحراس فوقها لمراقبة جيش العدو^(٨)، وبذلك سيطر السلاجقة على الطرق المحيطة بأرض المعركة وحاولوا قطع خطوط الإمداد والتموين للجيش الغزنوي^(٩)، وفي سنة ست وخمسين وأربعمائة جهز السلطان ألب

(١)، (٢) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٣٠٠.

(٣) تاريخ البيهقي، ص ٦٢٧، النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٣٠١.

(٤) الكامل في التاريخ، نقلاً عن النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٣٠١.

(٥) بناء الجبهة الإسلامية، ص ٢٣.

(٦) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٣٠٣.

(٧) زين الأخبار، ص ٣٣١، النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٣٠٣.

(٨) تاريخ البيهقي، ص ٦٦٦، النظم الحربية عند السلاجقة ٣٠٣.

(٩) تاريخ البيهقي ٦٢٨، ٦٣٤ النظم الحربية، ص ٣٠٣.

أرسلان جيشاً للقضاء على قطاع الطرق الأكراد^(١) وسيطر السلاجقة على معظم الطرق في آسيا الصغرى أثناء صراعهم مع البيزنطيين، حتى وصف بعض معاصريهم هذا الوضع بقوله إنه لم يوجد طريق لم يحتلوه^(٢)، فكانت سيطرتهم على كل الطرق، والخطوط الرئيسية المهمة، ولهذا كانوا في مركز يؤهلهم للنجاح في التقدم في آسيا الصغرى^(٣)، كما يؤمنون هذه السيطرة على الطرق بحراستها وإشغال نيران المراقبة فوق المرتفعات ليلاً^(٤).

ثامناً: السيطرة على موارد المياه:

أدرك السلاجقة أهمية المياه للجيش والمحاربة فكان اهتمامهم كبيراً بالسيطرة على الموارد المائية قرب أرض المعركة، ففي المعارك التي خاضها السلاجقة ضد الجيوش الغزنوية، يقول البيهقي - وهو شاهد عين - بعد معركة سرخس: إن السلاجقة كانوا يعملون على تحويل مجرى هذا النهر الذي نقيم على شاطئه^(٥)، ثم يقول بعد ذلك: إذا بماء هذا النهر ينقطع جريانه... وبعد عنا الماء الجاري واضطربنا إلى التعويل على مياه الآبار^(٦). ويؤكد بعض المؤرخين أن جيش السلطان مسعود الغزنوي عانى من قلة المياه في ملاحقته لجيش السلاجقة وأن ذلك كان سبباً مباشراً في انتصار السلاجقة عليه في المعركة التي حدثت في الصحراء الواقعة بين سرخس ومرو في مكان يُعرف بدندانقان سنة ٤٣١هـ.

تاسعاً: التامين العسكري:

ذكر قائد جيش السلاجقة في بداية دولة جغري بك داود أن الأحوال الثقيلة هي نقطة الضعف الوحيدة في جيش الغزنويين لارتباطهم بها، فكانت سبباً في هزائمهم المتكررة من قبل السلاجقة^(٧)، وتبعاً لما أكدته الرسائل التي بعث بها جواسيس الجيش الغزنوي إلى السلطان مسعود فقد اعتبر السلاجقة خلوه جيشهم من الأثقال والأمتعة التي تعوق تحركاته من تقاليدهم الحربية التي يجب المحافظة عليها^(٨)، ويذكر البيهقي أن السلاجقة جعلوا أثقالهم خلفهم على بعد ثلاثين فرسخاً^(٩) (تسعين ميلاً) فكانوا - حينما يشعرون بالخطر يرسلون عيالهم وأمتعتهم وأثقالهم إلى مخابئ آمنة في الصحراء يعرفونها بواسطة جزء من فرسانهم لحراستها، حتى يتهيأ لهم القتال بحرية أكبر، وهو ما

(١) أخبار الدولة السلجوقية، ص ٣٤، ٣٥، النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٣٠٤.

(٢)، (٣) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٣٠٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٠٥.

(٥) تاريخ البيهقي، ص ٦٣٣.

(٦) المصدر نفسه، ص ٦٣٤.

(٧) المصدر نفسه، ص ٦٢٤، ٦٢٥.

(٨) المصدر نفسه، ص ٦٣٣.

(٩) المصدر نفسه، ص ٦٢٥، النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٣٠٧.

أكدته كثير من المصادر التاريخية وذلك رغبة منهم في تأمينها بعيداً عن متناول يد العدو في أرض المعركة^(١)، ففي اعتقادهم العسكرية أن الفارس المتخفف يصبح أكثر جرأة، كما يقول قائد الجيش السلجوقي داود^(٢). وظل السلاجقة على نظرتهم تلك للأثقال حتى إن السلطان ألب أرسلان عندما أراد ملاقات البيزنطيين في ملاذكرد أمر بإبعاد الأثقال مع زوجته ووزيره نظام الملك إلى همدان وسار بجيشه نحو المعركة^(٣).

عاشراً: المهام الخاصة الطارئة:

اهتم السلاجقة اهتماماً كبيراً بالمهام الطارئة منذ بداية أمرهم فأعدوا العدة لها، واهتموا بتحديد المهام الموكلة لفرسانهم وقوادهم وجندهم، فاهتم رجال الدولة بهذه المهام حتى كان من رأي الوزير السلجوقي نظام الملك أنه ينبغي أن تسجل في الديوان باستمرار أسماء أربعة آلاف رجل من كل الأجناس احتياطاً، ألف للملك خاصة، وثلاثة آلاف لأفواج الأمراء وقادة الجيش للاستعانة بهم في الملومات وحين الحاجة^(٤)، وتشمل تطبيقات السلاجقة لهذه المهام الخاصة عدة جوانب أهمها:

١- المهام الحربية (العسكرية): ففي قتال السلطان طغرل بك للباساسيري أرسل السلطان سرية من الجيش بقيادة خمارتكين عن طريق الكوفة لإشغاله عن الذهاب إلى الشام^(٥)، كما عهد إلى فرقة مكونة من عشرين فارساً بإخضاع دير كمّول فقاموا بتنفيذ هذه المهمة^(٦) وعندما خرج السلطان ألب أرسلان لقتال الإمبراطور البيزنطي رومانوس عام ٤٦٣ هـ وأرسل في البداية وحدة عسكرية من المماليك تحت قيادة أحد الحجاب استطاعت أن تهزم قوة بيزنطية مكونة من عشرة آلاف شخص، وحينما أعيد الإمبراطور بعد أسره في موقعة ملاذكرد إلى بلاده أمر السلطان بأن ترافقه وحدة عسكرية من الغلمان تتكون من مائة غلام تحت قيادة حاجين^(٧)، وفي سنة تسعين وأربعمائة كلف السلطان بركيارق فرقة من الجيش السلجوقي بمفاجأة أمير أميران الذي خرج عن طاعته فقامت بتنفيذ هذه المهمة على أكمل وجه وعادت به أسيراً بعد قتال يسير^(٨). وقد أبدى السلاطين السلاجقة اهتماماً بالغاً

(١) تاريخ بخاري، ص ١٢٩، ١٣٢، النظم الحربية، ص ٣٠٧.

(٢) تاريخ البيهقي، ص ٦٨٣.

(٣) الكامل في التاريخ، نقلاً عن النظم الحربية، ص ٣٠٧.

(٤) الكامل في التاريخ، نقلاً عن النظم الحربية، ص ٣٠٧.

(٥) المنتظم (٨/٢٠٨، ٢٠٩)، تاريخ ابن أبي الهيجاء، ص ٩.

(٦) تاريخ الزمان، ص ١٠١.

(٧) بنو مرداس، ص ١٧٨، النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٣١٥.

(٨) الكامل في التاريخ، نقلاً عن النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٣١٥.

بتجهيز العوامل وتهيئة الظروف المناسبة لتمكين قادتهم من تحقيق المهام الحربية المنوطة بهم، كاختيار المواقع العسكرية الإستراتيجية المناسبة وإسناد المهام الكبرى إلى القادة الأكفاء. وفي مواجهة السلاجقة لخطر الذين هددوا المصالح السلجوقية في آسيا الصغرى وسوريا نجد اهتمام السلاجقة بالموصل لموقعها المهم فأتخذوها - بمرور الزمن - قاعدة لانطلاق القوات السلجوقية لمواجهة الصليبيين، كما عينوا عليها أهم قوادهم مثل كربوقا وجاولي سقاوة، والأمير مودود وآق سنقر البرسقي وعماد الدين زنكي، كما وضعوا تحت تصرفهم عدداً كبيراً من الجيوش ليتمكنوا من تحقيق المهام التي كلفوا بها فأبلاوا بلاءً حسناً في قتال الصليبيين^(١).

٢- مهام الحراسة: تدخل الحراسة كجانب من جوانب المهام الخاصة الطارئة عند السلاجقة، وتزداد أهميتها في حالة دخولهم معركة من المعارك، يقول شاهد عيان في وصفه حراس الجبال عند السلاجقة: كان الحراس (الديدبانات) المعينون فوق الجبل يجري بعضهم إلى بعض ويقولون إن السلطان مسعود الغزنوي قد جاء وأبلغ الخبر إلى طغرل وداود^(٢). وهو ما يحمل معنى متقدماً من أن السلاجقة لم يكتفوا بحراسة الطرق بل تجاوزوا ذلك إلى مراقبة العدو وحراسته للتعرف على اتجاه سيره لأخذ الاحتياطات اللازمة لذلك، وتتبوا الحراسة العسكرية ليلاً مكانة مهمة في تأمين الجيش^(٣)، فقد ساعدت سيطرة السلاجقة على المرتفعات والجبال على سهولة الحراسة والمراقبة، فكانوا يشعلون النيران عليها ليلاً لهذا الغرض^(٤).

الحادي عشر: نظام التعبئة:

تؤكد كثير من المصادر التاريخية أن كثيراً من سلاطين السلاجقة استخدموا نظام التعبئة القائم على توزيع الجيش إلى مقدمة وميمنة وقلب وميسرة وساقة^(٥). هذه هي أهم الخطط والفنون القتالية التي استخدمها السلاجقة.

(١) السياسة السلجوقية في العراق، فاضل مهدي بيان، ص ١١٥.

(٢) تاريخ البيهقي، ص ٦٦٦، النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٣١٦.

(٣) بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق (١/١٦٨).

(٤) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٣١٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣١٩.

المبحث الخامس

أثر نظم السلاجقة في الدولة الزنكية والأيوبية والمماليك

أولاً: الدولة الزنكية:

أحدث السلاجقة تأثيراً واضحاً في الدول التي حلت محلهم أو جاءت بعدهم في مختلف الجوانب العسكرية، فيذكر ابن الأثير أن ديوان زنكي كان يشبه إلى حد كبير دواوين السلاجقة في نظمه من كثرة الحاشية وجمال الزينة ونفاذ الأمر^(١)، وهذا - بدون شك - من آثار نظم السلاجقة الواضحة في أتابكتهم الذين ترسموا خطاهم فساروا عليها في جميع أحوالهم، وبهذا كان الزنكيون أول من طبق النظم السلجوقية وعلى رأسها النظم العسكرية^(٢)، فكان عماد الدين زنكي (ت ٥٤١هـ) رجلاً عسكرياً اعتنى بجيشه وتنظيماته فجعل ديواناً خاصاً يعنى بطعامهم ومرتباتهم وأسلحتهم، وكان يتولى أمور الجيش أمير حاجب يرجع للسلطان مباشرة^(٣)، وكل هذه التنظيمات قد وجدت عند السلاجقة. وجاء من بعده ابنه سيف الدين غازي (ت ٥٤٤هـ) الذي تربى في بلاط السلاجقة، فكان لهذا تأثير كبير في سياسته وإطلاعه على أمور الحرب وإدارة الدواوين فكان يقلد سلاطين السلاجقة في زيه وركوبه وإظهار قوته^(٤)، ونظراً للاتصال الكبير بين السلاجقة وعماد الدين فقد تأثر بكثير مما وجد لدى السلاجقة، فكان يشارك السلطان محمود السلجوقي في لعب الكرة على ظهور الخيل وسار أولاده على نهجه^(٥)، حتى كان نور الدين محمود يداوم على اللعب بالكرة تدريباً للخيال ومنعاً لبدانتها حتى أتقن اللعب بها تماماً^(٦)، وكان يأمر قواده أن يلعبوا بالكرة مع أفراد الجيش كل يوم بعد صلاة العصر خشية أن يركن الجيش إلى الكسل^(٧)، وهذا يدل على تأثر الزنكيين بالنظم السلجوقية الفكرية والثقافية والعلمية كما سيأتي بيانه بإذن الله.

ثانياً: الأيوبيون والمماليك:

أشار القلقشندي إلى أن أهم الدول والإمارات التي قامت في المنطقة كانت تستمد نظمها من السلاجقة في معظم الأحيان، وذكر بعض المؤرخين أن بعض تلك الدول قد حذت حذو

(٢) تاريخ الموصل، سعيد الديوه جي، ص ٢٨٣.

(٤)، (٥) المصدر نفسه، ص ٣٤٠.

(٧) تاريخ الموصل، ص ٤٤٦.

(١) الباهر، ص ٨٣.

(٣) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٣٤٠.

(٦) الباهر، ص ١٦٨، ١٦٩.

السلاجقة في كل شيء كالدولة الأيوبية^(١) فقد اعتاد الجيش المصاحب لشركوه على الأنظمة المتوارثة عن السلاجقة، فكانت أنظمتها العسكرية وسياستها الحربية مستمدة من الأنظمة السلجوقية التي عايشها الأيوبيون الأوائل عندما كانوا في كنف عماد الدين زنكي، بل كان مجيء صلاح الدين إلى مصر في جيش من جيوش نور الدين بن عماد الدين زنكي، فقد اعتمد نور الدين محمود نفس النظم التي كان السلاجقة قد أرسوا قواعدها والتي كان أبوه زنكي قد اعتمدها - من قبل - وأفاد منها إلى حد كبير وجاء الأيوبيون والمماليك في أعقابهم ليسيروا بهذه النظم نحو مزيد من النضج والشمول^(٢)، حيث يذكر القلقشندي أن المماليك تأثروا في نظمهم بالسلاجقة بفعل ما أخذوه عن الأيوبيين الذين نقلوه بدورهم عن السلاجقة عن طريق أتابكتهم^(٣)، ومن هنا يؤيد عماد الدين خليل الرأي القائل بأن المنطقة كلها قد تأثرت في هذه المرحلة التاريخية بشكل كبير، أو صغير، بما أنشأه السلاجقة من نظم حربية مختلفة^(٤) ويذكر حسن حبشي أن السلاجقة كانوا من أسباب التأثير الحضاري غير المباشر للشرق على الغرب والذي نجم عن الاحتكاك العسكري عبر الحروب الصليبية^(٥)، كما تأثرت الأجهزة المدنية والعسكرية في الدولة العثمانية بما وجد لدى السلاجقة حتى اعتبرت امتداداً لتلك التنظيمات^(٦)، ليس بحكم أصل النشأة، فالجميع أتراك، وإنما بتأثير الامتداد والتعاقب الحضاري، ويمكن محاولة تتبع هذه التأثيرات السلجوقية بدراسة المجالات العسكرية المتنوعة والتي منها:

١- أجناس وعناصر الجند: قام السلطان صلاح الدين بإعادة تنظيم الجيش بعد فتحه لمصر، فصار مكوناً من الأكراد والأتراك والتركمان بشكل رئيسي^(٧)، وفي هذا التغيير دلالة على ثقته الكبيرة في هذه العناصر العسكرية من خلال المعرفة السابقة لها في جيش نور الدين وإقصاء العناصر التي كان يتألف منها الجيش الفاطمي، وما زالت متأثرة بالولاء للدولة الفاطمية^(٨)، ويذكر المقرئ التزم المماليك بعد الأيوبيين في الاعتماد على هذه العناصر بقوله إنه بعد زوال دولتهم بقيام عبيدهم المماليك الأتراك فحذوا حذو مواليتهم بني أيوب واقتصروا على الأتراك وشيء من الأكراد واستجدوا من المماليك التي تجلب من بلاد الترك شيئاً كثيراً^(٩).

(١) نور الدين محمود، عماد الدين خليل، ص ٦٧، النظم الحربية، ص ٣٤١.

(٢) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٣٤٢. (٣) صبح الأعشى (٤/ ٣، ٤).

(٤) نور الدين محمود، عماد الدين خليل، ص ٦٧.

(٥) السلاجقة، مجلة الرسالة، عدد ٦٦٣، ص ٣٠٢. (٦) قيام الدولة العثمانية، ص ١٧١.

(٧) الصليبيون في الشرق، ص ١٨٩، النظم الحربية، ص ٣٤٣.

(٨) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٣٤٣. (٩) الخطط للمقرئ (١/ ٩٥).

٢- تكوين الجيش: تكون الجيش الأيوبي من فرق كانت تعرض أمام السلطان فرقة بعد فرقة وموكباً بعد موكب، بلغ عددها مائة وسبعة وستين فرقة، وكانت تعرف وقتذاك باسم طلب يتكون ما بين مائتي فارس إلى مائة إلى سبعين فارساً^(١)، وكانت عملية جمع الجيش الأيوبي للقيام بالحملات الكبرى مشابهة في أساسها ومضمونها لما عند السلاجقة، فيتم استدعاء فرق الأمراء الذين أقطعوا المدن والأقاليم للمشاركة بجيوشهم في هذه الحملات^(٢).

٣- فرق الجيش: كان في الجيش الأيوبي فرقة النشايين الذين يرمون بالنشاب وفرقة النفاطين وهم الذين يرمون النفط لإحراق حصون الأعداء، والمنجنقيين وهم رماة المنجنيق والعيارين رماة الحجارة كانوا يملأون مخالي^(٣)، الخيل بها^(٤)، كذلك أتباع العسكر أو الأوباش والرعاع ويسمون سوقة أو حواش^(٥) ويذكر المقرئ أن الجاوشية قد وجدوا عند الممالك وكانت مهمتهم تنظيم سير مواكب سلاطينهم^(٦)، وهذه كلها تنظيمات و فرق مشهورة في الجيش السلجوقي ووجودها عند الأيوبيين والمماليك يدل دلالة واضحة على التأثير السلجوقي في الجيش الأيوبي والمملوكي^(٧).

٤- الخطط والفنون القتالية: استعمل الأيوبيون في قتالهم طريقة المصاف، بتقسيم الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب بالإضافة إلى المقدمة والساقة، فيصف شاهد عيان كيف قسم السلطان صلاح الدين جيشه إلى ميمنة وميسرة وقلب استعداداً للقتال^(٨)، كما استخدم التقسيم في معركة الرملة كذلك^(٩)، وهو من الأساليب التي اتخذها السلاجقة في قتالهم، ومعلوم أن هذا التقسيم نظام قديم ومعروف ولكن التشابه في استخدامه يشير إلى التأثير السلجوقي على الأيوبيين كجانب من جوانب التأثير لديهم^(١٠) وعندما نأتي لدراسة عهد الدولة الأيوبية - بإذن الله تعالى - سوف نرى الخطط والفنون القتالية التي تأثر بها الأيوبيون بالسلاجقة، كالحرب الخاطفة والمباغلة، وتطويق العدو، والكمائن، واستدراج العدو، ومحاولة تحديد مكان المعركة^(١١)، وغير ذلك.

٥- وسائل نقل الأخبار ووسائل الاتصال: تأثرت وسائل الاتصال الأيوبية في عهد

(١) الخطط (١/٨٦)، جيش مصر، نظير سعداوي، ص ٩.

(٢) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٣٤٤.

(٣) ما يجعل على ظهر الخيل من جلد أو غيره يوضع بها ما يراد حمله على الخيل.

(٤) الفتح القسي، للعماد الأصفهاني ص ٥٦٥.

(٥) جيش مصر، ص ٢٠.

(٦) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٣٤٥.

(٧) الخطط (٢/٢٠٩).

(٨) النوادر لابن شداد، ص ٣٤، النظم الحربية، ص ٣٤٥.

(٩) النوادر، ص ٥٣، النظم الحربية، ص ٣٤٥.

(١٠) النظم الحربية، ص ٣٤٥.

(١١) المصدر نفسه، ص ٣٥١.

صلاح الدين بما وجد لدى سيده نور الدين محمود في مجال استخدام الحمام الزاجل الذي كانت تعلق فيه الكتب حيث تعود بها إلى أوكارها فيوصل المسئول عنها الكتاب إلى من وجه إليه، ونسب بعض الباحثين إلى عماد الدين زنكي استخدام الحمام الزاجل قبل ابنه نور الدين^(١)، ويعتبر عماد الدين من ولادة السلاجقة، وقد أظهر الخليفة العباسي الناصر في العصر السلجوقي العناية بالحمام وتربيته^(٢)، واستخدمه الفاطميون وبالعوا في الاهتمام به حتى أفردوا له ديواناً بأنسابه^(٣)، فاستفاد صلاح الدين من الحمام وإيصاله لأخبار العدو إليه، حتى كان بعض الجند يتخذ حماماً يدرّبه تدريجياً على الطيران من مسافات بعيدة، وعمل له الأبراج الخشبية قرب خيمته حيثما نزل، كما استفاد منه في التعرف على أخبار مدينة عكا وحصار الصليبيين لها والتنسيق مع أهلها لمقاومته^(٤)، وأسهم استخدام الحمام في مباغته صلاح الدين للصليبيين أثناء محاولتهم الاستيلاء على الإسكندرية ودمياط نتيجة لوصول أخبارهم إليه مباشرة بهذه الوسيلة^(٥)، وكان تأثر الصليبيين بهذه الوسيلة في نقل الأخبار كبيراً، فأعجبوا بها ونقلوها إلى بلدانهم^(٦)، وقد استخدم الحمام الزاجل بعد ذلك في عصر المماليك فأطلق على المشرف على أبراجه برّاج^(٧).

٦- الإقطاع العسكري: يقول المقرئزي بعد حديثه عن الوزير نظام الملك والإقطاع موضحاً التأثير السلجوقي في هذا المجال على من جاء بعدهم: واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك من أعوام بضع وثمانين وأربعمائة إلى يومنا هذا^(٨). هذا كما وجد عند الأيوبيين كناية من نواحي التأثير المتعددة للسلاجقة على الدولة الأيوبية، ويرى بعض المؤرخين أن الإقطاع ذا الصبغة العسكرية في عهد صلاح الدين كان استمراراً لوجوده السابق عند السلاجقة وأتابكتهم^(٩)، ووجد الإقطاع أيضاً عند المماليك بعد ذلك بينما احتفظ العثمانيون بما كان متبعاً لدى السلاجقة في مجال الإقطاع^(١٠)، وفي ذلك كله دلالة واضحة على التأثير الذي أحدثه نظام الإقطاع

(١) النظم الحربية، ص ٣٥١.

(٢) صبح الأعشى (١٤/٤٣٥، ٣٤٦)، النظم الحربية، ص ٣٥١.

(٣) صبح الأعشى، نقلاً عن النظم الحربية، ص ٣٥١.

(٤) الحرب عند العرب، ص ٣٣٧، النظم الحربية، ص ٣٥١.

(٥)، (٦) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٣٥١.

(٧) الإسلام في حضارته ونظمه، ص ١٤٥، النظم الحربية، ص ٣٥٢.

(٨) الخطط (١/٩٥)، النظم الحربية، ص ٣٥٥.

(٩) الجيش الأيوبي، محسن محمد، ص ١٢٩، النظم الحربية، ص ٣٥٥.

(١٠) قيام الدولة العثمانية، محمد فؤاد، ص ١٧٠، ١٧١.

العسكري السلجوقي لدى الدول التي جاءت بعد السلاجقة^(١).

٧- التقسيم العشري: اتبع السلاجقة التقسيم القائم على تقسيم القادة العسكريين ابتداءً من كبار القادة أمراء المائة ومروراً بأمراء الطبلخاناء ثم العشرات فالخمس، وهي أقل هذه الدرجات، وهي من التنظيمات المهمة في عصر السلاجقة، وكان لها تأثيرها البالغ في بعض من جاء بعدهم من الدول، فكان عماد الدين زنكي قد اتبع هذا التنظيم العسكري، ثم اتخذ أساساً لتنظيمات الأيوبيين في هذا المجال^(٢)، وبلغ أوج استقراره ونضجه لدى المماليك بعد ذلك^(٣).

٨- الألقاب العسكرية:

١- الأتابك: كانت بداية هذا اللقب عند السلاجقة، وتطور حتى وصل بالأتابك من الناحية العملية بعد ذلك إلى حد توريث وظيفته حتى على مستوى امتلاك الحكم، فكان صلاح الدين قد تدرّج بكونه أتابكاً للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين، وعن هذا الطريق ضم سوريا - كما سيأتي بيانه عند حديثنا عن صلاح الدين في الدولة الأيوبية بإذن الله - كما ظلّ هذا اللقب حرفة مستقلة كذلك حتى عهد المماليك^(٤).

ب- الأسفهلار: وكانت مهمته الإشراف على الجند في العصر السلجوقي، ثم انتقل اللقب عن طريق الدولة النورية إلى الدولة الأيوبية^(٥).

ج- اللباس العسكري: يفصل الفلقشندي التأثيرات السلجوقية في هذا المجال على الأيوبيين عن طريق أتابكتهم، فكان اللباس العسكري الأيوبي ماثلاً، سواء في ذلك القادة أو الجند، فكانوا يلبسون الكلوتات^(٦) الصفر على رؤوسهم مكشوفة بغير عمام، وذوائب شعورهم مرخاة تحتها، سواء في ذلك المماليك والأمراء وغيرهم^(٧)، ويوافقه محسن محمد على ذلك حتى إن التغييرات التي أحدثها بعض الأتابكة، كسيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي ثاني أتابكة الموصل (٥٤٤هـ) حينما استحدث حمل السنجق^(٨)، على رأسه،

(١)، (٢) النظم الحربية، ص ٣٥٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٥٦، الخطط (٢/ ٢١٥ - ٢١٩).

(٤) النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٣٥٧.

(٥) الألقاب الإسلامية، حسن الباشا، ص ١٥٧.

(٦) الكلوتات نوع من اللباس يوضع على الرأس.

(٧) النظم الحربية، ص ٣٥٨، صبح الأعشى (٤/ ٥، ٤١).

(٨) السنجق لفظ تركي يطلق في الأصل على الرمح، والجمع سناجق، وهي رايات صفر صفار يحملها السنجدار في موكب السلطان.

وألزم الجند بشد السيوف في أوساطهم، وجعل الدبابيس تحت ركبهم عند الركوب، قام السلطان صلاح الدين بتطبيق ذلك^(١)، ويؤكد ذلك القلقشندي بقوله عن صلاح الدين إنه: جرى على هذا النهج أو ما قاربه^(٢)، ومعلوم أن اللباس عند الأتابكة قبل تعديلات سيف الدين غازي هو بذاته لباس السلاجقة، وبذلك يكون التأثير السلجوقي قد انتقل بواسطة أتابكتهم، وكان من عادة السلاجقة استخدام الجاليش في مقدمة الجيش السلجوقي وهو عبارة عن خصلة من شعر الحصان توضع في أعلى الراية أمام الجيش ثم انتقلت على مقدمة الجيش، وقد انتقلت هذه العادة إلى الأيوبيين^(٣)، فهذه بعض الإشارات العابرة حول أثر نظم السلاجقة في الدول الأخرى.

(١) الجيش الأيوبي، ص ١٢٢، ١٢٣.

(٢) صبح الأعشى (٦/٤)، النظم الحربية عند السلاجقة، ص ٣٥٨.

(٣) التاريخ العباسي، إبراهيم الأيوب ص ١٩٦.

المبحث السادس

المرأة في العهد السلجوقي

رغمًا مما وجد في العصر السلجوقي من فكر عن ضعف المرأة تمثل في نظرة كبار رجال الدولة وبعض علمائها فإنه كان لبعضهن دور كبير في الميادين العسكرية والسياسية والاجتماعية، ويرى الوزير نظام الملك أن النساء: محجبات مستورات، ناقصات العقول، الغاية منهن الإنجاب لحفظ النسل^(١)، ويعقد الغزالي للنساء باباً خاصاً في كتابه التبر المسبوك يرى فيه: أن المرأة أسيرة الرجل، ويجب على الرجال إدارة النساء لنقص عقولهن، ويسبب عقولهن لا يجوز لأحد أن يتدبر بآرائهن ولا يلتفت إلى أقوالهن، ومن اعتمد على آرائهن ودبر نفسه بمشورتهن خسر^(٢) فهو يتفق مع الوزير السلجوقي نظام الملك في مقصوده وهو وجوب إبعاد النساء عن التدخل في شئون الدولة وبيان الوزير رأيه هذا على شكل استقراء تاريخي يقول فيه: لقد اختط الملوك وأولو العزم من الرجال لأنفسهم طرقاتاً، وعاشوا حياة لم يكن للنساء أو وصيفاتهن فيها أدنى علم بأسرارهم، وقضوا حياتهم في منأى عن قيودهن، وأهوائهن وأوامرهن ولم يقعوا تحت ربة نيرهن قط^(٣)، ويحذر من نتائج وصولهن إلى مواقع السلطة بقوله: إن كل من يجعل النساء قيماً على الرجال يستحمل وحده جرم أي خطأ أو انحراف، لأنه هو الذي سمح بذلك وتخطى العادة المتبعة^(٤). ولكن على الرغم من هذا الرأي فقد شاركت المرأة في العصر السلجوقي، في النشاط العسكري والسياسي والاجتماعي، وإليك بعض الأمثلة:

أولاً: زوجة طغرل بك:

كانت زوجة السلطان طغرل بك -كما يقول ابن تغري بردي-: صاحبة رأي وتدبير وحزم وعزم، وكان زوجها السلطان طغرل بك سامعاً لها ومطيعاً، والأمور مردودة إلى عقلها، وكانت تسير بالعساكر وتنجده وتقاتل أعداءه^(٥)، فقد سارت نجدة لزوجها السلطان طغرل بك في صراعه مع أخيه إبراهيم ينال متخفية آراء المعارضين لها في هذا العمل

(١) سياست نامه، ص ٢٢٤.

(٢) التبر المسبوك، ص ٣٨١.

(٣) سياست نامه، ص ٢٢٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٣١.

(٥) النجوم الزاهرة (١٠١/٥).

العسكري^(١). كما كلف السلطان ألب أرسلان قبل معركة ملاذكرد سنة ٤٦٣هـ زوجته بالمسير مع الوزير نظام الملك لإيصال أثقال الجيش إلى همدان^(٢)، وعندما صادر الوزير السلجوقي نظام الملك أموال كوهر خاتون عمة السلطان السلجوقي ملكشاه حاولت التحرك بجمع الجيوش لقتال الوزير الذي أشار على السلطان بقتلها فقتلها سنة ٤٧٦هـ، وقضى بذلك على حركتها^(٣).

ثانياً: تركان خاتون زوجة السلطان ملكشاه:

عندما توفي زوجها استولت على السلطة بعده وساست الأمور سياسة عظيمة، وأنفقت الأموال التي كانت تزيد على عشرين مليون دينار، فأرضت بها العسكر وانفقت مع الخليفة على ترتيب ولدها محمود في السلطنة وعمره يومئذ خمس سنين وعشرة شهور، وخطب له على منابر الحضرة وترتب لوزارته تاج الملك أبو الغنائم المرزبان بن خسرو، وجاء عميد الدولة بخلع من الخليفة، فأفاضها على محمود ودخل إلى أمه فعزاها وهناها عن الخليفة، ثم خرجت إلى أصفهان^(٤)، وكان ينافس ابنها أخوه بركيارق، فجرت بين عساكر الطرفين معارك انتصر فيها بركيارق، بعد أن قتل تاج الملك، وعندما فشلت في مواجهة بركيارق أثارت ضده خاله إسماعيل بن ياقوتي أمير أذربيجان ولكنه هزم أمام قوات بركيارق، وكانت مصممة على الاتصال بتاج الدولة تتش بن ألب أرسلان حين وافتها المنية سنة ٤٦٧هـ، وكان بيدها أصفهان ومعها عشرة آلاف فارس من الأتراك^(٥)، وهكذا باشرت الحروب ودبرت الجيوش وقادت العساكر وبموتها انحل أمر ابنها محمود وعقد الأمر لبركيارق بن ملكشاه^(٦).

ثالثاً: خاتون بنت ملكشاه الثانية زوجة المستظهر:

في سنة ٥٠٢هـ تزوج المستظهر خاتون بنت ملكشاه، وقد جرى عقد الزواج في مدينة أصفهان، عاصمة الدولة السلجوقية وفي سنة ٥٠٤هـ بعث الخليفة زين الإسلام أبا سعد محمد نصر الهروي إلى أصفهان لاستدعاء زوجته الخاتون فدخلت بغداد ونزلت بدار المملكة عند أخيها السلطان محمد، وزينت بغداد ونقل جهازها في رمضان، فكان على مائة واثنين

(١) تاريخ بغداد (٩/٤٠٠، ٤٠١).

(٢) الكامل في التاريخ، نقلاً عن النظم الحربية، ص ٢٢٨.

(٣) النجوم الزاهرة (٥/١٠١).

(٤) المنتظم (٩/٦٢).

(٥) الكامل في التاريخ، نقلاً عن النظم الحربية، ص ٢٢٨.

(٦) الحضارة الإسلامية في بغداد ١٧٢.

وستين جملاً وسبعة وعشرين بغلاً، وجاءت النجائب والمهور والجواري والمزينات وغلقت الأسواق ونصبت القباب وتشاغل الناس بالفرح، وكان الزفاف في ليلة العاشر من رمضان، وكانت ليلة زفافها من ليالي السرور العظيمة^(١)، وفي سنة ٥١٧ هـ، أمر المسترشد بعمارة السور على بغداد الشرقية، وقد تناوب على العمارة أهل كل محلة لمدة أسبوع، وكانوا يخرجون بالطبول والملاهي وعزم الخليفة على ختان أولاده، وزينت بغداد وعمل الناس القباب وعملت خاتون زوجة المستظهر قبة باب النوبي وعلقت عليها من الثياب والجواهر والديباج ما أدهش الناس وعملت قبة في درب الدواب وعليها غرائب منحوتة مع الحلل ونصب عليها سترات من الديباج الرومي^(٢) وفي سنة ٥٣٠ هـ حصلت لها محمدة، وذلك حين حاصر السلطان مسعود^(٣)، الخليفة الراشد بن المسترشد وخاف أهل بغداد فحمل كثير منهم أموالهم إلى دار الخليفة ودار الخاتون ثم خرج الراشد من بغداد بعد أن سلم دار الخلافة ومفاتيحها إلى خاتون فأخرجت أصحابها لحفظ باب النوبي وهو باب من أبواب دار الخلافة وترك الراشد نساءه وأولاده عند الخاتون أيضاً، ودخل مسعود بغداد واستولى على ممتلكات الراشد، فذهبت إليه خاتون وردت إلى أهل الراشد كل ما أخذه تقريباً وهكذا عظمت منزلتها كثيراً^(٤). وقد لعبت هذه السيدة دوراً مهماً في الأحداث الكبرى، يقول عنها ابن الساعي: كانت رئيسة جليلة من أعقل النساء، وأشدهن حزماً وسداداً، وأنشأت مدرسة بشارع سوق العسكر ووقفتها على أصحاب الإمام أبي حنيفة وليس في الدنيا مدرسة أكبر منها^(٥).

رابعاً: قهرمانه المقتدي:

ومن النساء اللواتي كان لهن التأثير المباشر في وصول المستظهر إلى مركز الخلافة قهرمانه المقتدي التي كانت تتمتع بنفوذ كبير فهي تنفذ مهام الدار العزيزة كما ينفذ الوزير مهام الديوان العزيز، وحين قدمت الطبق للمقتدي كان عنده جارية صغيرة، فمات فجأة، فأغلقت باب الحجرة ووكلت بالباب من يحرسه وأرسلت إلى الوزير، وتعاهدت وإياه على تأمين مصلحة أصحابها وأصحابه، وعندما أخذت منه اليمين قالت: أحسن الله عزاءك في أمير المؤمنين، فقط زمت أمر الدار، فزم أنت أمر البلد، ثم أدخلته على ولي العهد المستظهر، وأخبره بموت المقتدي وخلافته بعده، ومضى الوزير إلى السلطان بركيارق وتدارس معه

(١) المنتظم (٩/١٥٩، ١٦٠، ١٦٥، ١٦٦).

(٢) الحضارة الإسلامية في بغداد، ص ١٧٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧٤.

(٤) المنتظم (٢٧/١٠)، الحضارة الإسلامية، ص ١٧٥.

(٥) نساء الخلفاء، ص ١٠٨، ١٠٩، الحضارة الإسلامية، ص ١٧٥.

الأمر ثم عاد وأجلس المستظهر وأشاع موت المقتدى، كل ذلك كان بتدبير القهرمانة^(١).

خامساً: خاتون السفيرية:

كانت حظية ملكشاه ومن جواريه فولدت له محمداً وسنجر، وكانت تتدين، وتبعث حمال السبيل إلى طريق مكة ولما حصلت على الملك بحث عن أهلها وأمها وأخواتها حتى عرفت مكانهم ثم بذلت الأموال لمن يأتيها بهم، فلما وصلوا إليها ودخلت أمها كانت قد فارقتها منذ أربعين سنة، فجلست البنت بين جوار يقاربونها في الشبه حتى تنظر هل تعرفها أم لا، فلما سمعت الأم صوتها نهضت إليها فقبلتها وأسلمت الأم، فلما توفيت خاتون قعد لها السلطان محمود في العزاء^(٢).

سادساً: عالمات وزاهدات وواعظات في العهد السلجوقي:

وأما على الصعيد العلمي فقد اشتهر عدد من النساء منهن:

١- دلال بنت أبي الفضل محمد بن عبد العزيز بن المهدي، سمعت أباه، توفيت سنة ٥٠٨هـ.

٢- رابعة بنت أبي الحكم بن أبي عبد الله الخيري، سمعت من الجوهري وابن المسلمة وابن النقور وغيرهم، وحدثت وروى عنها ولدها وكانت خيرة^(٣).

٣- الحرائية وبنت الجنيد وبنت الغراد: تتلمذ عليهن في الزهد أبو الوفاء علي بن عقيل وهو فريد دهره وإمام عصره، وبنت الغراد كانت منقطعة إلى قعر بيتها لم تصعد قط، ولها كلام في الورع^(٤).

٤- فاطمة بنت عبد الله الخيري الفرضي: سمعت الحديث وحدثت به. وأما في ميدان الزهد والتعبد فقد اشتهرت ببغداد:

٥- السيدة فاطمة بنت الحسين بن الحسن بن فضلوته الرازي، كانت واعظة متعبدة لها رباط تجتمع فيه الزاهدات، سمعت أبا جعفر بن المسلمة وأبا بكر الخطيب وسمع منها صاحب المنتظم بقراءة شيخه أبي الفضل بن ناصر كتاب ذم الغيبة لإبراهيم الحربي، وروت مسند الشافعي^(٥).

(١) الحضارة الإسلامية في بغداد، ص ١٧٦.

(٢) المنتظم (١٠/٨٧، ٨٨).

(٣) الحضارة الإسلامية في بغداد، ص ١٧٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٧٧.

(٥) المنتظم (٩/٢١٢، ٢٢٩)، الحضارة الإسلامية في بغداد، ص ١٧٧.

سابعاً: اختلاط النساء بالرجال:

لم يكن المجتمع البغدادي يستسيغ الاختلاط بين النساء والرجال في الطرق، وكان المحتسب لا يسمح حتى للزوجين أن يجتمعا في طريق خال من المارة، وكان يفصل بين النساء والرجال أثناء ركوب الزوارق عند عبور دجلة، ولم يكتف المحتسب بذلك بل أصدر أمره سنة ٥٠٢ هـ بمنع النساء من العبور مع الرجال في نفس الزورق، وصدر التشديد على النساء من المستظهر سنة ٤٩٤ هـ حين أمر المحتسب بمنعهن من الخروج ليلاً للتفرج عند افتتاح جامع القصر، ومع عناية المستظهر بحفظ أخلاق الناس، كانت تقع حوادث فيها مخالفة للقوانين الشرعية فبعضها يفلت من مراقبة الحكومة والبعض الآخر تتمكن من التعرف عليه^(١)، وكان بعض الناس يخرجون على القيم الاجتماعية، فكان الرجال يلتقون بالنساء خفية في الليل ولكن ذلك كان من قبيل المغامرة إذ إنهم بمحاولتهم الالتقاء بالنساء يعرضون أنفسهم لانتقام ذويهن كما حدث سنة ٥٠٠ هـ، عندما دخل صبي إلى داره فوجد فيها رجلاً غريباً عند أخته فما كان منه إلا أن أسرع إلى قتل ذلك الرجل، وقد يقوم بمهمة القتل هذه زوج المرأة إذا علم باتصالها برجل آخر ولا يعبأ بالنتائج المترتبة على هذا القتل بسبب الغيرة على العرض^(٢).

(١) الحضارة الإسلامية في بغداد، ص ١٧٨.

(٢) المتظم (٩/ ١٢٣، ١٤٨، ١٥٧، ١٥٩)، الحضارة الإسلامية في بغداد، ص ١٧٨.

الفصل الرابع

المدارس النظامية في عهد السلاجقة

المبحث الأول

نشأة المدارس وأهدافها

أولاً: نشأتها:

اختلف المؤرخون وأهل العلم حول بداية نشأة المدارس الإسلامية، فمنهم من قال إنها ظهرت في عهد نظام الملك الذي أنشأ المدرسة النظامية سنة ٤٥٩هـ ومنهم من قال إنها كانت قد ظهرت قبل ذلك بكثير، ولكن بالرجوع إلى المصادر والكتب المتخصصة نجد أن أول ظهور للمدرسة كان في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري، وهذه المدرسة هي مدرسة الإمام أبي حفص الفقيه البخاري «١٥٠هـ - ٢١٧هـ» ويبدو من نسبتها إلى مؤسسها أنها قد أسست أثناء حياته، وأبو حفص البخاري من الفقهاء الذين تزعموا الحركة الفكرية في مدينة بخارى، ثم نشطت حركة إنشاء المدارس في بلاد المشرق بعد هذا التاريخ، فقد تم إنشاء مدرسة بنيسابور منذ بداية القرن الرابع الهجري^(١) أنشأها الإمام أبو حاتم محمد بن حبان التميمي الشافعي (٢٧٠ - ٣٥٤هـ). وقد كانت المدارس التي أسست في ذلك الوقت مدارس أحادية المذهب تفردت بتدريس مذهب واحد، ذلك لأن التنافس المذهبي الذي كانت تعيشه بغداد حاضرة الخلافة قد امتد إلى بلاد ما وراء النهر^(٢)، ومن الجدير بالذكر أن المدارس كانت قد ظهرت في دمشق قبل ظهورها في بغداد، فقد تم إنشاء أول مدرسة فيها عام ٣٩١هـ وهذه المدرسة هي المدرسة الصادرية المنسوبة إلى منشئها، صادر بن عبد الله، وتبعه بعد ذلك مقرئ دمشق «رشأ بن نضيف» حيث قام بتأسيس المدرسة الرشائية في حدود الأربعمائة، وإلى هذه المدارس خرج الطلبة من الحلق التي كانت تعقد في المسجد إلى مكان يختص بتلقي علم معين فيوقف عليهم وعلى شيوخهم المال وتوفر لهم أسباب التعليم^(٣)، وفيما يلي ذكر لبعض المدارس التي أنشئت قبل المدرسة النظامية وهي حسب التسلسل الزمني لظهورها وعلى سبيل المثال لا الحصر:

(١) الإدارة التربوية في المدارس في العصر العباسي، ص ٩٤.

(٢) المدرسة مع التركيز على النظاميات للسامرائي، ص ٣٣٦، ٣٣٧.

(٣) نظم التعليم عند المسلمين، عارف عبد الغني، ص ٨٩، الإدارة التربوية في المدارس في العصر العباسي، ص ٩٥.

- ١- مدرسة الإمام أبي حفص الفقيه البخاري (١٥٠هـ - ٢١٧هـ).
- ٢- مدرسة ابن حيان، في بداية القرن الرابع الهجري وفي حوالي سنة ٣٠٥هـ شيد أبو حاتم بن حيان البستي داراً في بلده بست وجعل فيها خزانة كتب وبيتاً للطلبة.
- ٣- مدرسة أبي الوليد، قبل سنة (٣٤٩هـ) أنشئت مدرسة أبي الوليد حسان بن أحمد النيسابوري الشافعي (ت ٣٤٩هـ) ويذكر أنه كان كثير الملازمة لها.
- ٤- مدرسة محمد بن عبد الله بن حماد (ت ٣٨٨هـ) الذي وصفه السبكي بأنه كان إلى أن خرج من دار الدنيا وهو ملازم لمسجده ومدرسته.
- ٥- المدرسة الصادرية التي أنشأها الأمير شجاع الدولة صادر بن عبد الله سنة ٣٩١هـ في مدينة دمشق.
- ٦- المدرسة البيهقية بنيسابور والتي أنشئت قبل أن يولد نظام الملك -وقد ولد سنة ٤٠٨هـ- فتكون هذه المدرسة أنشئت قبل هذا التاريخ.
- ٧- مدرسة أبي بكر البستي (ت ٤٢٩هـ) والتي بناها لأهل العلم بنيسابور على باب داره ووقف جملة من ماله عليها وكان هذا الرجل من كبار المدرسين والناظرين بنيسابور.
- ٨- مدرسة الإمام أبي حنيفة التي أنشئت بجوار مشهد أبي حنيفة وأسسها أبو سعد ابن المستوفي حيث تم افتتاحها قبل افتتاح المدرسة النظامية بخمسة شهور^(١). وقد ذكر بعض المؤرخين أن الغزنويين اهتموا بالمدارس من خلال بعض أمرائهم، كالنصر بن سبكتكين حينما كان والياً على نيسابور وسماها السعدية^(٢)، وجاء نظام الملك فوجد أمامه هذه النماذج العديدة من المدارس، ورأى الفاطميين قد سبقوه إلى تشييد الأزهر، والاعتماد عليه في دعوتهم ودراسة مذهبهم فكانت هذه مصادر إحياء وتحفيز للقيام بإنشاء مجموعة من المدارس وليست مدرسة واحدة لتشارك المجاهدين في حربهم ضد المبتدعين بنفس السلاح^(٣)، لقد تسربت الباطنية في سوريا وفارس والعراق وأخذت بفضل إغراء الدعاة وإنارتهم فطاف ناصر خسرو ومن بعده حسن الصباح يدعوان للمذهب الباطني الإسماعيلي الشيعي الرافضي، وقام إبراهيم ينال ثم البساسيري في الموصل وبغداد بثورتين عنيفتين كادتا تقضيان على الخلفاء السلاجقة جميعاً، وكان لدار الحكمة والأزهر اللذين أسسهما الفاطميون في القرن العاشر الهجري بالقاهرة الفضل الأكبر في بث مبادئ التشيع الإسماعيلي ونشر الحكم

(١) التعليم الإسلامي بين الأصالة والتجديد، ص ٣٥١.

(٢)، (٣) نظام الملك، ص ٣٦٥.

الفاطمي^(١)، ولم يكن إيقاف حركة الباطنية هذه -فضلاً عن القضاء عليها- بالأمر الهين، فجدورها قد تغلغلت في جسم البلد الإسلامي الكبير بحيث لم يبق عضو منه سليماً وبخاصة إقليم خراسان فإنه كان موطن المغذين لها بالأراء الفلسفية والبراهين المنطقية إن لم يكن من المؤسسين لها، وقد اتخذ هؤلاء وسيلتهم الإقناع والحجة عن طريق الحوار والمناقشة^(٢)، لقد بدأ التفكير الفعلي في إنشاء هذه المدارس النظامية للوقوف أمام المد الشيوعي الإمامي والإسماعيلي الباطني عقب اعتلاء السلطان ألب أرسلان عرش السلاجقة في عام ٤٥٥هـ، فقد استوزر هذا السلطان رجلاً قديراً وسنياً متحمساً هو الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، الملقب بنظام الملك، فرأى هذا الوزير أن الاقتصار على مقاومة الشيعة الإمامية والإسماعيلية الباطنية سياسياً لن يكتب له النجاح إلا إذا وازى هذه المقاومة السياسية مقاومة فكرية، ذلك أن الشيعة -إمامية كانوا أو إسماعيلية- نشطوا في هذه الفترة وما قبلها إلى الدعوة لمذهبهم بوسائل فكرية متعددة، وهذا النشاط الفكري ما كان ينجح في مقاومته إلا نشاط سني مماثل يتصدى له بالحجة والبرهان، خاصة أن السلاجقة ورثوا في فارس والعراق نفوذ بني بويه الشيعيين، وهؤلاء لم يألوا جهداً في تشجيع الإمامية على نشر فكرهم، كما غضوا الطرف عن نشاط دعاة الإسماعيلية في فارس والعراق وترتب على ذلك كله تزايد نفوذ الشيعة فيهما، خاصة بعد أن لجأ الشيعة إلى إنشاء مؤسسات تعليمية تتولى الترويج لعقائدهم، وتعمل على نشرها، فقد أنشاء أبو علي بن سوار الكاتب أحد رجال عضد الدولة (ت ٣٧٢هـ) دار كتب في مدينة البصرة وأخرى في مدينة رام هرمز وجعل فيها إجراء على من قصدهما، ولزم القراءة والنسخ وكان في الأولى منهما شيخ يدرس عليه علم الكلام على مذهب المعتزلة^(٣)، كما أسس أبو نصر سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة (ت ٤١٦هـ) داراً للعمل في الكرخ في عام ٣٨٣هـ، ووقف فيها كتباً كثيرة، ذكر ابن الأثير أنها بلغت عشرة آلاف وأربعمائة مجلد في أصناف العلوم، وأسند النظر في أمرها ورعايتها إلى رجلين من العلويين يعاونهما أحد القضاة^(٤)، وبعد وفاة سابور آلت مراعاة هذه الدار إلى الشريف الرضي نقيب الطالبين^(٥) كذلك اتخذ الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ) الشاعر الإمامي المشهور داراً أسماها دار العلم، وفتحها لطلاب العلم، وعين لهم جميع ما يحتاجون

(١) نظام الملك، ص ٣٥٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٥٣، ٣٥٤.

(٣) تاريخ التربية عند الإمامية، عبد الله فياض، ص ٨٧ - ٨٩.

(٤) المنتظم (٨/ ٢٠٥)، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع (١/ ٣٣٠).

(٥) التاريخ السياسي والفكري د. عبد المجيد أبو الفتوح، ص ١٧٧.

إليه ^(١). ويدل مجرد اسم هذه المؤسسات على الفرق بينها وبين دور الكتب القديمة، فكانت دار الكتب تسمى قديماً خزانة الحكمة، وهي خزانة كتب ليس غير، أما المؤسسات الجديدة فتسمى دور العلم، وخزانة الكتب جزء منها ^(٢). وهذا يشير إلى أن هذه الدور الجديدة كانت لها وظيفة تعليمية أيضاً ^(٣)، وإلى جانب دور العلم هذه كان كثير من أئمة الشيعة الإمامية يقومون بالدعوة إلى مذهبهم ونشر عقائدهم في بيوتهم الخاصة، أو في مشاهدهم وأعنى بها المساجد التي دفن فيها أئمتهم - على حد قولهم لأن بعضها لا يثبت - والتي عرفت عندهم بالعتبات المقدسة ^(٤). فقد كان الشيخ المفيد محمد بن محمد النعمان، شيخ الإمامية المتوفي في عام ٤١٣ هـ يعقد مجلس نظر بدار يحضره جميع العلماء وكانت له منزلة عند أمراء الأطراف يميلهم إلى مذهبه ^(٥) وأما أبو جعفر الطوسي محمد بن الحسن فقيه الإمامية (ت ٤٦٠ هـ)، فقد فر إلى النجف بعد أن هوجمت داره في بغداد، ونهبت محتوياتها في عام ٤٤٨ هـ في حملة الضغط التي تعرض لها الشيعة في بغداد عقب دخول السلاجقة إليها وتمكن الطوسي في مقره الجديد من مواصلة نشاطه العلمي والتعليمي فألف مجموعة من الكتب في الفقه والحديث على مذهب الإمامية احتلت مكاناً بارزاً في الدراسات الشيعة الإمامية، كالتهذيب والاستبصار، وهما من الكتب الأربعة المعول عليها عندهم والتي تحفل بالروايات الضعيفة والموضوعة والتي لا وزن لها في الميزان العلمي الصحيح، كما أملى الطوسي - في مشهد النجف - على طلبته كثيراً من الدروس جمعها في كتاب سماه الأمالي ^(٦). هذه بعض الجهود التي قام بها الإمامية للترويج لمذهبهم والدعاية له، أما الإسماعيلية، فكانوا أساتذة هذا الميدان ولهم القدم الراسخة فيه إذ حازوا قصب السبق في إنشاء المؤسسات التعليمية، وتوجيهها وجهة مذهبية. ^(٧) بدأ الفاطميون نشاطهم في هذا المجال منذ قيام دولتهم في الشمال الإفريقي، وكان عهدهم الذهبي بإنشاء الجامع الأزهر عام ٣٥٩ هـ وجعلوا منه مؤسسة تعليمية تعنى بنشر مذهبهم في عام ٣٧٨ هـ عندما سأل الوزير يعقوب بن كلس الخليفة العزيز في صلة رزق جماعة من الفقهاء فأطلق لهم ما يكفي كل واحد منهم، وأمر لهم بشراء دار وبنائها فبنيت بجانب الجامع الأزهر، فإذا كان يوم الجمعة حضروا إلى الجامع وتحلقوا فيه بعد الصلاة إلى أن تصلى العصر، وكان لهم من مال الوزير صلة في كل سنة. ثم

(١) تاريخ التربية الإسلامية، د. أحمد شلي ص ١٣٩.

(٢)، (٣) التاريخ السياسي والفكري د. عبد المجيد أبو الفتوح، ص ١٧٧.

(٤)، (٥) المنتظم (١١/٨)، التاريخ السياسي والفكري، ص ١٧٨.

(٦) تاريخ التربية عند الإمامية، ص ٢٧٥، ٢٧٦.

(٧) التاريخ السياسي والفكري، عبد المجيد أبو الفتوح، ص ١٧٨.

أنشأ الحاكم بأمر الله دار العلم «دار الحكمة» للغرض ذاته في عام ٣٩٥هـ وحملت الكتب إليها من خزائن القصور، ومن خزائن مقر الدولة الفاطمية، وأجرى الأرزاق على من رسم له بالجلوس فيها، والخدمة لها من فقيه وغيره، وحضرها الناس على طبقاتهم فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعليم وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الخبر والأقلام والورق والمحابر^(١)، هذا بالإضافة إلى البرامج التعليمية التي كانت تعد بعناية خاصة في عاصمة الخلافة الفاطمية لإعداد الدعاة، وتثقيفهم ثقافة مذهبية واسعة قبل إرسالهم إلى البلاد الإسلامية لنشر المذهب الإسماعيلي، وكان لذلك أثره في رواج هذا المذهب في بعض مناطق الشرق الإسلامي نتيجة هذه الجهود المنظمة المستمرة في نشر هذه الدعوة^(٢)، لذلك كله فكر نظام الملك في أن يقاوم النفوذ الشيعي بنفس الأسلوب الذي ينتشر به، ومعنى ذلك أنه رأى أن يقرن المقاومة السياسية للشيعية بمقاومة فكرية أيضاً^(٣)، وتربية الأمة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعقيدة أهل السنة والجماعة المستمدة من الوحي الإلهي. ومن هنا كان تفكيره في إنشاء المدارس النظامية التي نسبت إليه، لأنه الذي جد في إنشائها وخطط لها، وأوقف عليها الأوقاف الواسعة، واختار لها الأكفاء من الأساتذة فكان من الطبيعي أن تنسب إليه من دون السلاجقة^(٤). لقد كان نظام الملك شافعيًا سنيًا حريصاً على الإسلام الصحيح وقد عاصرت آراء وأفكار متباينة مختلفة كانت منتشرة في العالم الإسلامي كالمعتزلة والباطنية وبقايا القرامطة وغيرهم من أصحاب الملل والنحل. وكان نظام الملك يرمي بدرجة كبيرة إلى توجيه الرعاية وجهة تخدم مصلحة الدولة وتبعث على الاستقرار والسكينة والأمن، لذا كان هم نظام الملك التأكيد في مواضع الدراسة على إفهام الناس عامة ومنتسبي النظامية خاصة أصول الدين الصحيحة، ولما كان نظام الملك شافعيًا، كان يرى أن يدرس الفقه والأصول المستمدة من أفكار وآراء الشافعية، وكان من شروط النظامية أن يكون المدرس من الشافعية أصلاً وفرعاً^(٥).

إن من الأخطار العظيمة التي تواجه الأمة اليوم المد الباطني في أنحاء المعمورة، وقد استهدف عقيدة الأمة وكتاب ربها وسنة نبيها وتاريخها وعظماؤها، والكثير من رموز الأمة الإسلامية في عالم السياسة والفكر والعلم والتاريخ والثقافة في حالة استرخاء وفتور، والبراكين المدمرة تجري من تحتهم، فهلا نستلهم الدرس، ونستخرج العبرة، ونعمل بالسنن

(١) خطط المقرئ (٢/ ٢٧٢)، التاريخ السياسي والفكري عبد المجيد أبو الفتوح، ص ١٧٨.

(٢)، (٣)، (٤) التاريخ السياسي والفكري، ص ١٧٩.

(٥) بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٠٥.

والقوانين الإلهية في الدعوة إلى الإسلام الصحيح الذي جاء به محمد ﷺ، فيكون من حكامنا، مثل ألب أرسلان في غيرته، ومن وزرائنا كنظام الملك في همته، ومن علمائنا كالجويني والغزالي، وابن عقيل والبغوي وغيرهم في دفاعهم عن الكتاب والسنة والصحابة، وقضايا الفكر، ونوظف الوسائل الحديثة في بث عقائد الإسلام الصحيحة وتاريخه الموثق وفكره البديع من خلال الفضائيات والإنترنت والمطابع والجرائد والمجلات والكتب والندوات والمؤتمرات والمناهج والمدارس والجامعات ووسائل الدعوة بأنواعها، نريد بذلك وجه الله وأجره ومثوبته ومرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ثانياً: الأهداف التعليمية للمدارس الإسلامية وخصوصاً النظامية؛

إن من أبرز الأهداف التي عملت المدارس على تحقيقها في بداية ظهورها:

١- تحقيق العبودية الخالصة لله تعالى، وذلك بأن يكون العبد يعبد رباً واحداً. وأن تستقيم وتنظم حياة البشر ضمن هذه الغاية، ولا يتوصل إلى المعرفة الحقة والعبودية الخالصة لله إلا بوجود دوائر تعمل على تحقيق هذه الغاية، ولذلك كانت المدرسة التي عملت وسعت لتحقيق وتوضح هذا الهدف في نفوس طلابها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

٢- الأداء الأمثل للتكاليف الشرعية المختلفة، وذلك لأن معالم الشريعة لا تكون واضحة ولا تعرف أحكام الدين إلا عن طريق التعليم الإسلامي القويم، والتعليم الصحيح هو الطريق الأمثل للوصول إلى مراد الشارع سبحانه وتعالى إذ يقول في كتابه الكريم: ﴿وَوَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. إذ إن العبادات كافة التي شرعت ما كانت إلا لعبادة الله سبحانه وتعالى، التي يترتب عليها الهداية والرحمة.

٣- ويترتب على الهدف السابق هدف آخر هو إعداد الإنسان الصالح بنفسه المصلح لغيره، ولذلك اعتبر هذا الهدف مهماً من وجهة نظر التعليم الإسلامي، فالتعليم الإسلامي يعد الفرد لكي يكون آمراً بالمعروف معيناً عليه وعلى فعله، وناهياً عن المنكر داعياً إلى تركه بعد أن يكون هو نفسه قد امتثل هذا الأمر أو النهي^(١).

٤- توفير جو علمي، تهدف المدرسة الإسلامية إلى توفير جو علمي يساعد الأساتذة والمعلمين على أن يفكروا ويؤلفوا ويبتكروا، فيضيفوا كل جديد إلى العلوم المختلفة بصفة مستمرة.

(١) الإدارة التربوية للمدارس في العصر العباسي، ص ١٠٩.

٥- العمل على توسيع الأفق الفكري لدى الطلاب، فالمدرسة لا تكتفي بتنمية الخبرات، بل تعمل على أن تكسب الطالب الخبرات الجديدة الناتجة عن تجارب الأمم السابقة والمعاصرة، وهذا ما يسمى عند علماء التربية الإسلامية «نقل التراث»^(١)، وهذا يكون من خلال إطلاع الطلبة على التراث الحضاري والفكري لدى الأمة مما يؤدي إلى توسيع الأفق لديهم نتيجة لإطلاعهم على تلك الخبرات^(٢).

٦- إعداد الكوادر الفنية، تهدف المدرسة من وراء تعليمها للطلبة إلى إعداد الكوادر الفنية المؤهلة لممارسة الأعمال المختلفة سواء في الجهاز الحكومي أو في غيره، خصوصاً أن الوظائف قد تشعبت وكثرت وتضخمت، ولذلك قامت المدرسة بتخريج الأفراد الذين عملوا على تحمل مسؤولياتهم في تلك الوظائف^(٣) فهذه الأهداف للمدارس الإسلامية تشترك فيها المدارس النظامية بالإضافة إلى:

- نشر الفكر السني لمواجهة تحديات الفكر الشيوعي ويعمل على تقليص نفوذه.
- إيجاد طائفة من المعلمين السنيين المؤهلين لتدريس المذهب السني ونشره في الأقاليم المختلفة.
- خلق طائفة من الموظفين السنيين ليشاركوا في تسيير مؤسسات الدولة وإدارة دواوينها، وبخاصة في مجال القضاء والإدارة^(٤).

ثالثاً: وسائل نظام الملك في تحقيق الأهداف وحله للمشاكل:

أبدى نظام الملك اهتماماً كبيراً بوسائل تحقيق أهداف المدارس النظامية؛ فاختار الموقع الجغرافي الذي يمكن أن تثمر فيه والمدرسين الممتازين، وأظهر ذكاء ملحوظاً في تحديد المنهج العلمي الذي ستسير عليه، ثم بذل أقصى جهوده لتوفير الإمكانيات المادية التي تعين هذه المدارس على العطاء الفكري السخي^(٥).

١- الأماكن: فمن ناحية الأماكن التي أنشئت النظاميات فيها يقول السبكي عن نظام الملك: إنه بنى مدرسة ببغداد ومدرسة ببلخ، ومدرسة بنيسابور، ومدرسة بهراة، ومدرسة بأصفهان، ومدرسة بالبصرة، ومدرسة بمرو، ومدرسة بآمل طبرستان ومدرسة بالموصل^(٦).

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها للنحلوي، ص ١٣٥.

(٢) الإدارة التربوية للمدارس، ص ١١٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١١.

(٤)، (٥) التاريخ السياسي والفكري، ص ١٧٩.

(٦) طبقات الشافعية، ص ١٨٠.

هذه إذن هي أمهات المدارس النظامية التي أنشئت في المشرق الإسلامي، ويتضح من توزيعها الجغرافي أن معظمها أنشئ إما في بعض المدن التي تحتل مركز القيادة والتوجيه الفكري، كبغداد وأصفهان، حيث كانت الأولى عاصمة للخلافة العباسية السنية، ويتركز فيها عدد كبير من المفكرين السنيين أيضاً. والثانية كانت عاصمة للسلطنة السلجوقية في عهد ألب أرسلان وملكشاه (عصر نظام الملك)، وإما في بعض المناطق التي كانت مركزاً لتجمع شيعي في تلك الفترة كالْبصرة ونيسابور، وطبرستان، وخوزستان، والجزيرة الفراتية^(١). إن هذا التوزيع الجغرافي يشير بوضوح إلى أن وضع المدارس النظامية في الأماكن السابقة لم يأت اعتباطاً، وإنما كان أمراً مقصوداً ومدرّساً حتى تقوم بدورها في محاربة الفكر الشيعي في هذه المناطق، وتفتح الطريق أمام غلبة المذهب السني.

٢- اختيار الأساتذة والعلماء: وإلى جانب الاختيار المدروس لأماكن المدارس النظامية فإنه تم اختيار أساتذتها بعناية تامة بحيث كانوا أعلام عصرهم في علوم الشريعة، ويشير العماد الأصفهاني إلى دقة نظام الملك في هذه الناحية فيقول عنه: وكان بابه مجمع الفضلاء، وملجأ العلماء، وكان نافذاً بصيراً ينقب عن أحوال كل منهم، فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولأه.. ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه، ورتب له ما يكفيه حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره وتدريسه، وربما سيره إلى إقليم خال من العلم ليحلّي به عاطله، ويحيي به حقه، ويميت به باطله^(٢). وفي كثير من الأحيان كان نظام الملك لا يعين الواحد منهم إلا بعد أن يستمع إليه ويثق في كفاءته، حدث ذلك مع الإمام الغزالي الذي كان يتفقه على إمام الحرمين في نظامية نيسابور، فلما مات أستاذه في عام ٤٧٨هـ قصد مجلس نظام الملك، وكان مجمع أهل العلم وملاذهم، فناظر الأئمة العلماء في مجلسه، وقهر الخصوم، وظهر كلامه عليهم واعترفوا بفضله وتولاه الصاحب «نظام الملك» بالتعظيم والتبجيل وتولاه تدريس مدرسته ببغداد^(٣). وفعل مثل ذلك مع أبي بكر محمد بن ثابت الخجندي (ت ٤٩٦هـ) الذي سمعه نظام الملك وهو يعظ بمرو، فأعجب به وعرف محله من الفقه والعلم، فحمّله إلى أصفهان وعينه مدرّساً بمدريستها فنال جاهاً عريضاً^(٤). كما استدعى الشريف العلوي الدبوسي (ت ٤٨٣هـ)، ليدرس بنظامية بغداد، لأنه كان بارعاً في الفقه والجدل^(٥). وفي بعض الأحيان كان نظام الملك يكتشف الأستاذ أولاً فينبئ له مدرسة باسمه، حدث هذا مع

(١) التاريخ السياسي والفكري، ص ١٨٠.

(٢) تاريخ آل سلجوق، ص ٥٦، ٥٧.

(٣) طبقات الشافعية (٤/١٠٣).

(٤) الكامل في التاريخ، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص ١٨١.

(٥) المنتظم (٩/٢٧، ٥٠)، التاريخ السياسي والفكري، ص ١٨١.

الشيخ أبي إسحاق الشيرازي (ت ٤٧٦هـ) الذي بنى له نظامية بغداد، ومع إمام الحرمين الذي بنى له نظامية نيسابور، وكان نظام الملك يحوط هؤلاء العلماء برعايته، ويمدهم بتأييده، حتى احتلوا منزلة عليا في البلاد التي حلوا بها، وصار لبعضهم وجاهة في بلاط السلطان كأبي إسحاق الشيرازي الذي اختاره الخليفة المقتدي في عام ٤٧٥هـ، ليحمل شكواه من عميد العراق أبي الفتح بن أبي الليث إلى السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك، فأكرماه وأجيب إلى جميع ما التمسه، وجرت بينه وبين إمام الحرمين مدرس نظامية نيسابور مناظرة، بحضرة نظام الملك، ولما عاد أبو إسحاق إلى بغداد أهين العميد، ورفعت يده على جميع ما يتعلق بالخليفة^(١).

٣- تحديد منهج الدراسة: كما عنى نظام الملك باختيار الأساتذة الأكفاء لمدارسه، فإنه حدد منهج الدراسة الذي ستسير عليه هذه المدارس، ويتضح هذا المنهج مما ورد في وثيقة وقفية نظامية ببغداد من أنها: وقب على أصحاب الشافعي أصلاً وفرعاً، وكذلك شرط في المدرس الذي يكون بها والواعظ الذي يعظ بها، ومتولي الكتب^(٢). وينقل الأستاذ سعيد نفيسي عن المفروخي، مؤلف كتاب محاسن أصفهان قوله: إن نظام الملك أمر بابتناء مدرسة تجاور جامع أصفهان للفقهاء الشافعية: فابتنت كأحسن ما رئي هيئة وهيكل وصنعة وعملاً ومحللاً ومنزلاً^(٣)، ومما لا شك فيه أن تراث الإمام الشافعي في الفقه والأصول والعقائد وسيرته الذاتية كان لها أثر على تلك المدارس، وليس في الفقه فقط المتعلق بالأحكام الشرعية العملية، وقد اعتاد بعض الباحثين القول بأن معظم الشافعية -في هذه الفترة- يتبعون أصول مذهب الإمام الأشعري، كما أن أبا الحسن الأشعري في مجال الاعتقاد مر بأطوار واستقر في آخر حياته على مذهب السلف، والأشاعرة من أهل السنة والجماعة، ولذلك سنبين -بإذن الله تعالى- شيئاً من سيرة الإمامين الشافعي وأبي الحسن الأشعري اللذين على تراثهما العلمي قامت المدارس النظامية التي كانت تخرج العلماء الذين يتبنون عقيدة الدولة السلجوقية، كان اهتمام المدارس النظامية قد انصرف إلى التركيز على مادتين أساسيتين هما: الفقه على المذهب الشافعي، وأصول العقيدة على مذهب الأشعري، وإلى جانب ذلك كانت تدرس بعض المواد كالحديث، والنحو، وعلمي اللغة والأدب، ويشير ابن الجوزي إلى أن وقفية نظام الملك الخاصة بمدرسة بغداد نصت على أن يكون في المدرسة نحوي يدرس العربية^(٤)، وقام بتدريس الأدب في نظامية بغداد أبو زكريا التبريزي، شارح ديوان الحماسة

(٢) المتنظم (٩/٦٦).

(٤) المتنظم (٩/٦٦).

(١) طبقات الشافعية (٣/٩١، ٩٢).

(٣) التاريخ السياسي والفكري، ص ١٨٣.

(ت ٥٠٢هـ) ثم خلفه في التدريس العالم اللغوي المشهور أبو منصور الجواليقي (ت ٥٤٠هـ)، كانت المدرسة الأشعرية السنية مؤهلة لمواجهة الشيعة فكرياً، وهم الذين تسلحوا بدراسة الفلسفات المختلفة واستخدموا الجدل في الدفاع عن عقائدهم، وأخذوا عن المعتزلة معظم أصولهم فأصبحت تشكل لبنات مهمة في منهجهم الكلامي، لقد كانت من الفئات القادرة على الجهاد الدعوي في هذا الميدان الفكري وهم الذين استوعبوا تراث أبي الحسن الأشعري ولذلك نقول: إن نظام الملك وفق تماماً في اختيار المنهج الملائم لتحقيق الهدف الذي سعى إليه^(١). ويأتي تفصيل ذلك في محله بإذن الله.

٤- توفير الإمكانيات المادية: لم يبخل نظام الملك بتوفير الإمكانيات المادية التي تعين هذه المدارس على النهوض برسالتها على أكمل وجه، ولذا نراه يتفق عليها بسخاء ويخصص لها الأوقاف الواسعة، فيذكر ابن الجوزي أن نظام الملك وقف على مدرسته ببغداد ضياعاً وأملاكاً، وسوقاً بنيت على بابها وأنه فرض لكل مدرس وعامل بها قسطاً من الوقف، وأجرى للمتفقهة (الطلاب) أربعة أرطال خبز يومياً لكل واحد منهم^(٢)، أما مدرسة أصفهان فقدرت نفقاتها وقيمة أوقافها بعشرة آلاف دينار، وكان للمدرسة النظامية في نيسابور أوقاف عظيمة^(٣)، وقد اهتم نظام الملك بتوفير السكن للطلاب داخل هذه المدارس، ويفهم من بعض الروايات التاريخية أن كل طالب كانت له غرفة خاصة به، إذ روي أن واحداً من طلابها ويدعى يعقوب الخطاط توفي في عام ٥٤٧هـ وكانت له غرفة في النظامية، فحضر متولي التركات، وختم على غرفته في المدرسة^(٤)، كما حرص نظام الملك على توفير الحياة المعيشية الكريمة لطلاب مدارسه، فإنه حرص أيضاً على تهئية المناخ العلمي الذي يساعدهم على الدراسة والبحث فاهتم اهتماماً كبيراً بتوفير المراجع العلمية داخل هذه المدارس، فكانت في كل مدرسة مكتبة عامرة يتولى أمرها قوام على شئونها، وأشار ابن الجوزي إلى أن وقفية نظامية بغداد نصت على أن يكون متولي الكتب بها أيضاً شافعيّاً، كما أشارت إلى أن نظام الملك وقف على هذه المدرسة كثيراً من الكتب^(٥)، وكان نظام الملك يتفقد هذه المدارس خاصة نظامية بغداد- ففي المحرم من عام ٤٨٠هـ زار هذه المدرسة وجلس في خزنة كتبها، وقرأ بها كتباً، ثم شارك في التدريس، فقرأ الفقهاء عليه شيئاً من

(١) التاريخ السياسي والفكري، ص ١٨٥.

(٢) المنتظم (٨/٢٤٧، ٢٥٦)، التاريخ السياسي والفكري، ص ١٨٥.

(٣) التاريخ السياسي والفكري، ص ١٨٥.

(٤) المنتظم (١٠/١٤٦).

(٥) المصدر نفسه (٩/٦٦)، التاريخ السياسي والفكري، ص ١٨٦.

الحديث الشريف، وأملى عليهم بعضاً منه^(١)، وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه الجهود التي بذلها نظام الملك في تشييد هذه المدارس وتيسير سبل العلم فيها، وتوفير الحياة الكريمة بداخلها، إلى رواج سوق العلم بها، فأقبل عليها طلاب العلم والجاه حتى بلغ عددهم في نظامية بغداد سنة ٤٨٨هـ ثلاثمائة طالب كانوا يتفقهون على الإمام الغزالي^(٢)، أما نظامية نيسابور فكان يقعد بين يدي إمام الحرمين كل يوم نحو من ثلاثمائة رجل من الأئمة ومن الطلبة^(٣).

٥- تطلع الأساتذة إلى التدريس بالنظامية: ولم يكن الإقبال على هذه المدارس مقصوراً على الطلاب فقط، بل شمل أيضاً الأساتذة الذين تطلعوا إلى التدريس بها حتى وصل الأمر ببعضهم إلى أن يضحي في سبيل هذه الغاية بالتخلي عن مذهبه في عصر كان التعصب المذهبي سمة من سماته البارزة، ومن هؤلاء: أبو الفتح أحمد بن علي بن تركان المعروف بابن الحمامي (ت ٥١٨هـ)، كان حنبلياً، فانتقل إلى مذهب الشافعي، وتفقه على أبي بكر الشاشي والغزالي، فجعله أصحاب الشافعي مدرساً بالنظامية^(٤)، ويبدو أن انتقال الحنابلة إلى مذهب الشافعي في هذه الفترة كان أمراً كثيراً الحدوث بدرجة أزعجت أحد أئمتهم وهو أبو الوفاء بن عقيل (ت ٥١٣هـ) حيث ينقل عنه أبو الفرج بن الجوزي قوله: إن أكثر أعمال الناس لا يقع إلا للناس إلا من عصم الله. أي أن معظم الناس لا يبتغون بأعمالهم وجه الله، وإنما يحاولون التقرب بها إلى ذوي النفوذ والجاه طمعاً في متاع الدنيا، وقد ضرب أبو الوفاء المثل على ذلك بما حدث عندما جاءت دولة نظام الملك، وعظم شأن الأشعرية والشافعية، فوجد كثيراً من أصحاب المذاهب انتقلوا عن مذاهبهم، وتوثقوا بمذهب الأشعري والشافعي طمعاً في العز والجرایات^(٥).

٦- حله للمشاكل: كان النظام حريصاً على أن تؤدي المدارس التي بناها رسالتها المنوطة بها، فعندما أرسل إليه أبو الحسن محمد بن علي الواسطي الفقيه الشافعي أبياتاً من الشعر يستحثه على المسارعة للقضاء على الفتن التي حدثت بين الحنابلة والأشاعرة قام نظام الملك وقضى على الفتنة، ومما قاله أبو الحسن الواسطي من الشعر:

يا نظام الملك قد حلَّ بيغداد النظام

(١) المنتظم (٣٦/٩)، الكامل في التاريخ نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص ١٨٩.

(٢) التاريخ السياسي والفكري، ص ١٨٦.

(٣) طبقات الشافعية (٣/٢٥٢).

(٤) المنتظم (٩/٢٥١).

(٥) المصدر نفسه (٩/٩٣).

وابنك القاطن فيها
وبها أودى لقتلى
والذي منهم تبقى
يا قوم الدين لم
عظم الخطب وللحرب
فمتى لم تحسم الداء
ويكف القوم في
فعلى مدرسة فيها
واعتصم بمحريم
مستهان مستضام
غلام، وغلام
سالماً فيه سهام
ييق بيغداد مقام
اتصل بالودام
أياديك الحسام
بغداد قتل وانتقام
ومن فيها السلام
لك من بعد حرام^(١)

وكانت سياسة نظام الملك تجنب الانحياز إلى جانب دون الآخر من عقائد أهل السنة، وكان يعمل على شدة أزر رجال الدين لا العمل على إدخال الخلاف والشقاق في صفوفهم، وأعلن استحالة تغيير أي شيء من عقائد أصحاب مذهب سني^(٢) وقال إنه لا يمكن تغيير المذاهب ولا نقل أهلها عنها وصرح بأن الغالب على تلك الناحية مذهب أحمد وبأن محله معروف عند الأئمة وقدره معلوم عند السنة^(٣)، وسرّ الخنابلة بهذا التوجه الحكيم^(٤). وأول صراع وخلاف حاد بين الخنابلة والأشاعرة كان في عهد نظام الملك، وتعرف هذه الحقبة بفتنة ابن القشيري^(٥).

رابعاً: تنظيم الهيئة التدريسية:

تعد الهيئة التدريسية على درجة كبيرة من الأهمية في أي مدرسة كانت، وذلك لأن نجاح أي مدرسة مقرون بنجاح المدرسين فيها وأدائهم لمهامهم على أفضل وجه^(٦)، وإليك بعض الأمور المتعلقة بتنظيم الهيئة التدريسية وهي:

١- تعيين الأساتذة وفصلهم: كان اختيار الأساتذة للتعليم في النظاميات يجري وفق

(١) الكامل في التاريخ (٦/٢٧٦).

(٢) شرح اللمع لأبي إسحاق الشيرازي (١/٤٢).

(٣)، (٤) المصدر نفسه (١/٤١).

(٥) ابن الخنيلي وكتابه الرسالة الواضحة، ص ٥٠.

(٦) الإدارة التربوية في المدارس في العصر العباسي، ص ١٣٢.

تقاليد تشبه أرقى الجامعات الحديثة، فقد كان «النظام» يختبر معلوماتهم خلال المناظرات التي كان يعقدها في المناسبات المختلفة، ويلقى عليهم أسئلة كان قد فكّر وأعدّها، فإذا لمس في أحدهم علماً وذكاء وجهه إلى المسلك الذي يريده، فالذين يكونون أهلاً للتعليم عيّنهم أساتذة في الحال وأسّس لهم مدرسة ومكتبة أو يوفدهم إلى ولاية سكانها جهلاء^(١)، وإذا صدر الأمر بالتعيين سار المدرس إلى الجهة التي اختير لها، فإذا كان إلى بغداد مثلاً توجه إلى دار الخلافة عند وصوله حيث يوافق على التعيين، ثم يخلع عليه طرحة زرقاء وأهبة سوداء^(٢)، ويحتفل به في المدرسة حين يقدم لأول مرة ويحضر درسه كبار رجال الدولة والأساتذة والشعراء، وحين ينتهي من درسه تلقى الخطب والقصائد في الترحيب به والثناء عليه^(٣). وإذا ما أريد فصل مدرس لسبب ما استدعى من قبل ممثل «نظام الملك» وغالباً ما كان أحد أولاده، وينزع منه كسوته^(٤).

٢- مراقب التدريس: وقد جرى العرف أنه إذا تم تعيين من تتوافر فيه شرائط القدم والشهرة أن يبقى في منصبه طوال حياته، فإذا دنت منه الوفاة فغالباً ما يوصي بمن يخلفه من كبار أبنائه أو المتفوقين من طلابه، إلا في مدارس «النظام» فقد خرجت على هذا المتعارف لأسباب سياسية بعد أن خضعت هذه المدارس لحكم وإرادة مؤسّسها، وقد يتناوب مدرسان على كرسي واحد خلافاً للمألوف.

أ- المدرس: كان هذا اللفظ لا يطلق إلا على المختص بتدريس الفقه، وإلقاء الدروس التي لا يقصد بها في العادة سوى مواضيع الفقه فإذا بلغ المدرس مرحلة عالية من الشهرة في الاطلاع والتأليف صار أستاذاً وأصبح له كرسي المادة دون منازع فيه.

ب- النائب: وهو المكلف بالقيام بتدريس الموضوع نيابة عن المدرس إذا كان مشغولاً بعمل إداري أو قضائي أو لمرض أو سدّ الشاغر في فترة لا يوجد فيها مدرس^(٥).

ج- المعيد: يختار المدرس من بين طلبته معيدين لدروسه وقد يكفي بواحد حسب حاجته، ومهمته أن يلقي الدرس على الطلبة وأن يساعدهم في فهمه، لذلك فهو يحتاج إلى لباقة واطلاع، لذا كان من هؤلاء المعيدين مدرسون في مكان آخر^(٦).

٣- مرتبة المصدر: وصاحب هذه المرتبة له الصدارة المطلقة في المدرسة، ويشغلها من

(١) تاريخ آل سلجوق، ص ٤٥، نظام الملك، ص ٣٥٦.

(٢) الأهبة: البزة الرسمية، كما في تاريخ المماليك، أو السلاح التام.

(٣)، (٤)، (٥) نظام الملك، ص ٣٥٧.

(٦) المصدر نفسه، ص ٣٥٨.

كان يطلق عليه لفظ الصدر، والظاهر أن الصدر هو إمام العصر في الفقه أو الحديث أو التفسير، أو في أي علم من العلوم، أو هو من أكبر الأئمة في عصره، وأكثرهم تمكناً من مادته العلمية، وعلى يديه يتخرج الكثير من نوابغ المدرسين، وإليه يذهب الملوك والأمراء والوزراء والفضلاء لسماعه والإفادة منه، وليس من الضروري أن يكون في كل مدرسة صدر، فأولئك قلة، ومن حسن حظ المدرسة وكمال شهرتها أن يتصدر للتدريس بها أحدهم^(١).

٤- **مراقب المتعلمين:** لعل أولى درجات الدارس أن يطلق عليه اسم تلميذ أو طالب ثم بعد أن يصل إلى المرحلة العالية في المعرفة يقال له: مثقف ثم فقيه، فإذا أكمل دراسة منهجه وبقي ملازماً لأستاذه ليستكمل علومه يسمى بالصاحب، وقد يعتمد عليه أستاذه فيعينه معيداً لدروسه، وناسخاً لمؤلفاته تحت إشرافه^(٢).

٥- **الكتاب المدرسي:** كان التأليف من الاعتبارات التي تراعي عند اختيار أساتذة النظامية، وكانت الدرجات العلمية التي تمنح لهم أو يعينون بها أو يتقلون بموجبها إنما تعتمد على هذا الأساس في الغالب، وكان الكتاب المدرسي الذي يضم مجموعة محاضرات الأستاذ سرعان ما ينتشر فما إن يمله على طلبته ويسمعوا عنه حتى يستنسخوه ويتبادلوا النسخ المصححة أو المجازة من قبل مؤلفها، ولا تمر فترة قصيرة حتى يتدارسه المعينون بموضوعه، وقد يطلق على مجموعة تقارير الأستاذ في الفقه اسم التعليقة، فيحفظها الطلبة ويتناقلونها، ومن هذه التعليقات ما يبلغ بضعة مجلدات، وكلما كانت التعليقة أكثر أصالة كانت أكثر انتشاراً وتدارساً من قبل المعينين وكان من عادات الأساتذة إذا ختموا كتاباً احتفلوا لذلك، وما يروى بهذا الشأن أن الإمام الجويني عندما أتم تصنيف كتابه - نهاية المطلب في دراسة المذهب - وكان قد درسه للخواص من تلاميذه، عقد مجلساً حضره الأئمة الكبار، وختم الكتاب على رسم الإملاء والاستملاء، ودعا له الجماعة^(٣).

٦- **القبول والتخرج:** ليست هناك سن محددة للقبول في هذه المدارس فقد يدخلها الطالب وهو ابن الثلاثين أو أكثر إلا أنه لا يقل عن العشرين في العادة حيث قضاها في التعليم بين المسجد والكتاتيب، فإذا انتمى لإحدى النظاميات وانتظم في سلك طلبتها وتلقى دروسها، فليست هناك سن معينة تمنع من سماعها فقد يحضرها وهو في سن الثمانين، وليس

(١) الإدارة التربوية في المدارس في العصر العباسي، ص ١٣٥.

(٢) نظام الملك، ص ٣٥٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٥٩.

هناك وقت محدد للمادة التي يستغرقها الدرس أو عدد الدروس اليومية فقد يستمر ساعة أو ساعتين وهناك نصّ يمكننا الاستفادة منه في تحديد أقل مدة يصل فيها الطالب مرحلة الاعتماد على نفسه، والاستغناء عن الجلوس بين يدي أستاذه حيث ذكر ابن الجوزي في ثنائه ترجمته لأبي علي الفارقي أحد تلاميذ أبي إسحاق الشيرازي أنها أربع سنوات^(١).

٧- الإجازة: (شهادة التخرج): هي الوثيقة المدرسية، وكان الاستماع للمحاضرات من شرائطها، لأنها لا تفي بالقصد من الدراسة والغرض من التعلم إذا لم يصحبها حضور، وهذا ما علّل به الماوردي عدم صحة حمل الإجازة والرواية بها فقال: ولو جازت لبطلت الرحلة^(٢). وقد يمنح الطالب عدة شهادات من شيوخ متعددين، والحصول عليها في العادة يكون بناء على طلب يتقدم به للمدرسة بعد أن ينهى دراسته، وقد أصبحت هذه ضرورة بعد تأسيس النظاميات وانتشار المدارس، فإذا نال إجازته فقد أصبح مهياً لأن يشغل أحد مناصب القضاء، أو الإفتاء، أو التدريس، أو المناظرة، وقد يحظى بأكثر من واحدة منها فيكون قاضياً ومفتياً ومدرساً في آن واحد، أو أن يكون حراً، فيعمل ليكون محدثاً أو متكلماً أو واعظاً أو خطيباً في أحد المساجد^(٣).

خامساً: أثر المدارس النظامية في العالم الإسلامي:

وفق الله تعالى النظام توفيقاً قل نظيره في التاريخ السياسي والعلمي والديني، فقد عاشت مدارسه أمداً طويلاً وعلى الخصوص نظامية بغداد التي طاولت الزمن زهاء أربعة قرون، إذ كان آخر من عرفنا ممن درس فيها صاحب القاموس الفيروز آبادي المتوفي ٨١٧هـ حيث زالت في نهاية القرن التاسع الهجري^(٤). وأدت رسالتها من تخريج العلماء على المذهب السني الشافعي وزودت الجهاز الحكومي بالموظفين رداً من الزمن وبخاصة دوائر القضاء والحسبة والاستفتاء، وهي أهم وظائف الدولة في ذلك العصر، وانتشر هؤلاء في العالم الإسلامي حتى اخترقوا حدود الباطنية^(٥) في مصر وبلغوا الشمال الإفريقي ودعموا الوجود السني بها، لقد تخرج في هذه المدارس جيل تحقق على يديه معظم الأهداف التي رسمها نظام الملك فوجدنا كثيراً من الذين تخرجوا فيها يرحلون إلى أقاليم أخرى ليقوموا بتدريس الفقه الشافعي والحديث الشريف، وينشروا عقيدة أهل السنة في الأمصار التي انتقلوا إليها أو يتولوا مجالس القضاء والفتيا، أو يتولوا بعض الوظائف الإدارية المهمة في

(١) طبقات السبكي (٢٠٩/٤)، المتظم - حوادث سنة ٥٢٨هـ.

(٢)، (٣) نظام الملك، ص ٣٦٤.

(٤)، (٥) المصدر نفسه، ص ٤٠١.

دواوين الدولة، وينقل السبكي عن أبي إسحاق الشيرازي - أول مدرس بنظامية بغداد قوله: خرجت إلى خراسان فما بلغت بلدة ولا قرية إلا وكان قاضياً أو مفتياً أو خطيباً تلميذاً أو من أصحابي^(١) وقد أسهمت هذا المدارس في إعادة دور منهج السنة في حياة الأمة بقوة، وكان من أبرز آثارها أيضاً تقلص نفوذ الفكر الشيعي خاصة بعد أن خرجت المؤلفات المناهضة له من هذا المدارس، وكان الإمام الغزالي على قمة المفكرين الذين شنوا حرباً شعواء على الشيعة وخاصة الباطنية الإسماعيلية فقد ألف كتباً عدة، أشهرها فضائح الباطنية الذي كلف بتأليفه عام ٤٨٧هـ من قبل الخليفة المستظهر^(٢)، وسيأتي الحديث عن مؤلفاته عند الحديث عن ترجمته بإذن الله. هذا وقد نجحت المدارس النظامية في نشر مذهب الإمام الشافعي وقوى عوده، ودخل مناطق جديدة وبدأ يشق له طريقاً في العراق وفي المشرق الإسلامي بعد أن كانت السيادة في هذه الأقاليم - عدا بغداد - من أتباعه^(٣) وقد صارت النظاميات مدعاة لبناء المدارس ومثاراً للتنافس بقدر ما أصبحت نموذجاً يحتذىه مؤسسو المعاهد منذ بداية تشييدها إلى ما بعد ذلك بعصور طويلة^(٤)، وقد مهدت المدارس النظامية بترائها ورجالها وعلمائها السبيل ويسرته أمام نور الدين زنكي والأيوبيين كي يكملوا المسيرة التي من أجلها أنشئت النظاميات، وتتمثل في العمل على سيادة الإسلام الصحيح، خاصة في المناطق التي كانت موطناً لنفوذ الشيعة^(٥)، في تلك المرحلة كالشام ومصر وغيرها.

لقد كانت المدارس من خير ما اهتدى إليه العقل البشري للتفرغ للعلم وفق معطيات ذلك العصر، وكانت «النظاميات» من أفضل الوسائل لنشره وتعميمه وتحقيق الأهداف التي رسمها نظام الملك من سيادة الكتاب والسنة وعقيدة أهل السنة والجماعة على الدولة والأمة الإسلامية ودحر المد الشيعي الباطني الرافضي الذي كانت الدولة الفاطمية بمصر تدعمه.

(١) طبقات الشافعية (٣/ ٨٩)، التاريخ السياسي والفكري، ص ١٩٠.

(٢) التاريخ السياسي والفكري، ص ١٩٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٩٩.

(٤) نظام الملك، ص ٤٠١.

(٥) التاريخ السياسي والفكري، ص ٢٠٣.

المبحث الثاني

الإمام الشافعي وأثره في المدارس النظامية

قامت المدارس النظامية على فقه الإمام الشافعي وتراثه في الأصول والفقه، كما كان لتراثه تأثير كبير في المدارس النظامية، ولذلك رأيت من المناسب أن نعرف بهذا الإمام الكبير الذي يعتبر من أقرب الأئمة الأربعة لبيت رسول الله ﷺ، فهو قرشي، ولربما كان من أسباب اختيار نظام الملك للمذهب الشافعي قربه من النسب النبوي حيث إن من أهداف المدارس النظامية تقويض المذهب الشيعي الباطني الذي تبنته الدولة الفاطمية والتي يزعم مؤسسوها أنهم من أهل البيت وأنهم أحق بالخلافة من غيرهم كما أن لمكانة الإمام الشافعي في المذهب السني سبباً في اختيار تراثه وفقهه حيث إن المالكية يفتخرون به لكونه من تلاميذ الإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل يحله ويحترمه ويعتبره من شيوخه، كما أن الشافعي تتلمذ على يدي محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة فهو واسطة العقد بين المذاهب السنية الأربعة الشهيرة، كما أن نزعته النقليّة وانتصاره للدليل، وحدة ذكائه واستخدامه للعقل في إقامة الحجة على الخصوم وما تميزت به كتابته في أصول الفقه وبيان الخاص والعام والمطلق والمقيد والجمل والمفصل.. إلخ ربما كانت من أسباب اعتماد تراثه في المدارس النظامية.

أولاً: اسمه ونسبه وشيء من سيرته:

١- اسمه ونسبه: هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب أبو عبد الله القرشي الشافعي المكي؛ نسب رسول الله ﷺ وابن عمه ^(١). قال النووي رحمه الله: الشافعي رحمه الله قرشي مطلب يجمع أهل النقل من جميع الطوائف وأمه أزدية ^(٢). وينسب إلى جده شافع بن السائب صحابي صغير لقي النبي ﷺ وهو شاب مترعر، ويروى أن النبي ﷺ كان ذات يوم في فسطاط إذ جاءه السائب بن عبيد ومعه ابنه - يعني شافع بن السائب - فنظر النبي ﷺ إليه فقال: «من سعادة المرء أن يشبه أباه» ^(٣).

٢- لقبه: يلقب - رحمه الله - بناصر الحديث وذلك لما اشتهر عنه من نصرته للحديث وحرصه على اتباعه.

(١) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ١٩.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/١٤٤).

(٣) الإصابة (٢/١١)، ضعفه الألباني في ضعيف الجامع رقم ٥٣٠١.

٣- مولده ونشأته: اتفق المؤرخون على أنه ولد عام ١٥٠ هـ وهو العام الذي توفي فيه الإمام أبو حنيفة رحمه الله ^(١).

٤- مكان ولادته: اختلفت الروايات في مكان ولادته فأشهرها أنه ولد بغزة وقيل بعسقلان وقيل باليمن ^(٢). وقد قال ابن حجر في ذلك: إنه لا مخالفة بين الأقوال لأن عسقلان هي الأصل في قديم الزمان وهي وغزة متقاربتان وعسقلان هي المدينة، فحيث قال الشافعي غرة أراد القرية وحيث قال عسقلان أراد المدينة. والذي يجمع بين الأقوال أنه ولد بغزة عسقلان، ولما بلغ ستين حولته أمه إلى الحجاز ودخلت به إلى قومها وهم من أهل اليمن لأنها كانت أزدية فنزلت عندهم، فلما بلغ عشرين خافت على نسبه الشريف أن ينسى ويضيع فحولته إلى مكة ^(٣)، وبهذا الجمع يذهب اللبس في اختلاف الروايات، والله أعلم ^(٤).

٥- نشأته وطلبه للعلم: قال الشافعي: كنت يتيماً في حجر أمي ولم يكن معها ما تعطي المعلم فرضي مني أن أخلفه إذا قام فلما ختمت القرآن دخلت المسجد فكنت أجالس العلماء فأحفظ الحديث أو المسألة وكانت دارنا في شعب الخيف فكنت أكتب في العظم، فإذا كثر طرحته في جرة عظيمة ^(٥). وقد وازب الإمام الشافعي على طلب العلم، فحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين وحفظ الموطأ وهو ابن عشر، وأفتى وهو ابن خمس عشرة سنة وقيل ابن ثمانين عشرة، أذن له شيخه مسلم بن خالد الزنجي، وعنى بالشعر واللغة وحفظ شعر الهذليين وأقام عندهم نحواً من عشر سنين وقيل عشرين سنة فتعلم منهم لغات العرب وفصاحتها وسمع الحديث الكثير على جماعة المشايخ والأئمة وقرأ بنفسه الموطأ على مالك من حفظه فأعجبه قراءته وهمته وأخذ عنه علم الحجازيين بعد أخذه عن مسلم بن خالد الزنجي، وروى عن خلق كثير وقرأ القرآن على إسماعيل بن قسطنطين عن شبل عن ابن كثير عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ ^(٦).

وأما اهتمامه بالفقه فيروى أن الذي أشار عليه بتعلم الفقه هو شيخه مسلم بن خالد الزنجي، فقد قال الشافعي: خرجت أطلب النحو والأدب فلقيني مسلم بن خالد فقال: يا فتى من أين أنت؟ قلت: من أهل مكة، قال: وأين منزلك بها؟ قلت: بشعب الخيف، قال: من أي قبيلة أنت؟ قلت: من ولد عبد مناف، قال: بخ بخ لقد شرفك الله في الدنيا والآخرة

(١)، (٢) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٢١.

(٣) توالي التأسيس، ص ٥٢، ٥١ بتصرف.

(٤) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٢٣.

(٥) توالي التأسيس، ص ٥٤.

(٦) البداية والنهاية (١٠/٢٦٣)، منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٢٤.

ألا جعلت فهمك هذا في الفقه فكان أحسن بك^(١). فالشافعي بعد أن حفظ القرآن رحل إلى هذيل ومنازلها في أطراف مكة ثم بعد أن حفظ أشعارهم ولغتهم حوال همتة إلى الفقه وتعلم على مفتي مكة مسلم بن خالد الزنجي، فلما أتقن ما عنده رحل رحلته الأولى إلى المدينة^(٢).

٦- رحلته إلى المدينة ولقاؤه بالإمام مالك: يحكي الشافعي قصة ذهابه إلى مالك فيقول: خرجت من مكة فلزمت هذيلاً في البادية أتعلم كلامها وأخذ بلغتها وكانت أفصح العرب، فأقمت معهم أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم، فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار وأذكر أيام الناس فمر بي رجل من الزهرين فقال لي: يا أبا عبد الله، عز علي ألا تكون في العلم والفقه هذه الفصاحة والبلاغة. قلت: من بقي ممن يقصد؟ فقال: مالك بن أنس سيد المسلمين قال: فوق ذلك في قلبي فعمدت إلى الموطأ فاستعرت من رجل بمكة وحفظته ثم دخلت على والي مكة فأخذت كتابه إلى والي المدينة وإلى مالك بن أنس فقدمت المدينة فبلغت الكتاب، فلما قرأ والي المدينة الكتاب قال: يا بني إن مشي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافياً راجلاً أهون علي من المشي إلى باب مالك فإني لست أرى الذل حتى أقف على بابه. فقلت: إن رأى الأمير أن يوجه إليه ليحضر، فقال: هيهات. لست أني إن ركبت أنا ومن معي وأصابنا تراب العقيق يقضي حاجتنا. فواعدته العصر وقصدناه فتقدم رجل وقرع الباب، فخرجت إلينا جارية سوداء فقال لها الأمير: قولي لمولاي إنني بالباب، فدخلت فأبطأت ثم خرجت فقالت: إن مولاي يقول: إن كانت مسألة فارفعها إلى في رقعة حتى يخرج إليك الجواب، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف. فقال لها: قولي له إن معي كتاب والي مكة في مهم، فدخلت ثم خرجت وفي يدها كرسي فوضعتة فإذا بمالك شيخ طوال قد خرج وعليه المهابة وهو متطليس فدفع إليه الوالي الكتاب فبلغ إلى قوله: إن هذا الرجل شريف من أمره وحاله فتحدثه. فرمى الكتاب من يده وقال: يا سبخان الله قد صار علم رسول الله ﷺ يؤخذ بالوسائل، قال: فرأيت الوالي وهو يهابه أن يكلمه فتقدمت إليه فقلت: أصلحك الله إني رجل مطلي من حالي وقصتي، فلما أن سمع كلامي نظر إلي ساعة وكانت لمالك فراسة فقال لي: ما اسمك؟ فقلت: محمد قال: يا محمد اتق الله واجتنب المعاصي فإنه سيكون لك شأن من الشأن. فقلت: نعم وكرامة. فقال إذا كان غدا تهيء من يقرأ لك الموطأ. فقلت: إني أقرأه ظاهراً. قال فغدوت إليه وابتدأت فكلما تهيمت مالكاً وأردت أن أقطع أعجبه حسن قراءتي وإعرابي. يقول: يا فتى زد، حتى قرأته عليه في

(١) مناقب البيهقي (١/٩٧).

(٢) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٢٦.

أيام يسيرة ثم قمت بالمدينة إلى أن توفي مالك بن أنس رحمته الله ثم ذكر خروجه إلى اليمن ^(١). وفي نصيحة الرجل الزهري للإمام الشافعي دروس وعبر منها: أهمية النصيحة في تغيير مسار الإنسان نحو الأفضل وكما كان لأثر هذه النصيحة على الشافعي والأمة الإسلامية.

٧- رحلته إلى اليمن: لما ولي بعض الطالبين اليمن مشى أمه إلى بني عمه ليكلموه ليصحبه معه إلى اليمن فوافق ولم يكن عندها ما تعطيه فرهنت دارها بستة عشر ديناراً وأعطته إياها ^(٢)، يقول الشافعي عن ذهابه إلى اليمن: فتحملت بها معه فلما قدمنا اليمن استعملني على عمل فحُمِدت فيه فزاد في عملي وقدم العمال مكة في رجب فأتونا علي وصار لي بذلك ذكر، فقدمت من اليمن فلقيت ابن أبي يحيى وقد كنت أجالسه فسلمت عليه فويحني وقال: تجالسونا وتضعون فإذا شرع لأحدكم شيء دخل فيه أو نحو هذا من الكلام. قال: فتركته، ثم لقيت سفيان بن عيينة فسلمت عليه فرحب بي وقال: قد بلغني ولايتك فما أحسن ما انتشر عنك وما أدبت كل الذي لله تعالى عليك ولا تعد قال: فجاءت موعظة سفيان إياي أبلغ مما صنع ابن أبي يحيى، ثم ذكر رجوعه إلى اليمن وذكر بعض أعماله وحرصه على إشاعة العدل وحرصه على طلب العلم حتى شاع ذكره بين الناس وربما حسده لذلك أهل الدنيا أو خافوا من ميل الناس له أن يحدث انقساماً في الدولة ولذلك كتب بعض قواد هارون الرشيد إلى هارون كتاباً يخوفونه فيه من شأن العلويين وأن عندهم رجلاً يقال له محمد بن إدريس يعمل بلسانه ما لا يعمل المقاتل بسيفه فإن كانت لك بالحجاز حاجة فاحملهم منها، فحمل مقيداً إلى العراق مع بعض العلويين ^(٣).

٨- محنته: جاء في بعض الروايات عند ابن عبد البر قال: دخل الشافعي ومن معه من العلويين على الرشيد وكان دخولهم واحداً واحداً يكلم أحدهم وهم يسمعون من خلف الستر. قال الشافعي: إلى أن بقي حدث علوي من أهل المدينة وأنا، فقال للعلوي: أنت الخارج علينا والزاعم أنني لا أصلح للخلافة؟ فقال العلوي: أعوذ بالله أن أدعي ذلك أو أقوله قال: فأمر بضرب عنقه فقال له العلوي إن كان لابد من قتلي فأنظرنني أكتب إلى أمي بالمدينة فهي عجوز لم تعلم بخبري فأمر بقتله فقتل ثم قدمت ومحمد بن الحسن جالس معه فقال لي مثل ما قال للفتى فقلت: يا أمير المؤمنين لست بطالبي ولا علوي وإنما دخلت في القوم بغياً علي وإنما أنا رجل من بني المطلب بن عبد مناف من قصي ولي مع ذلك حظ من

(١) المناقب للبيهقي (١/١٠٢، ١٠٣)، توالى التأسيس، ص ٥٣ - ٥٦.

(٢) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٢٩.

(٣) المناقب للبيهقي (١/١٠٥ - ١٠٧)، منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٣٠.

العلم والفقه والقاضي يعرف ذلك، أنا محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف. فقال لي: أنت محمد بن إدريس؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين قال: ما ذكرك لي محمد بن الحسن. ثم عطف على محمد ابن الحسن فقال: يا محمد، ما يقول هذا هو كما يقوله؟ قال: بلى وله من العلم محل كبير وليس الذي رفع عليه من شأنه. قال: فخذ إليك حتى أنظر في أمره^(١). قال ابن كثير: فحمل الشافعي على بغل في قيد إلى بغداد فدخلها في سنة أربع وثمانين ومائة وعمره أربع وثلاثون سنة فاجتمع بالرشيد فتناظر هو ومحمد بن الحسن بين يدي الرشيد وأحسن القول فيه محمد بن الحسن وتبين للرشيد براءته مما نسب إليه وأنزله محمد بن الحسن عنده، وكان أبو يوسف قد مات قبل ذلك بسنة أو ستين وأكرمه محمد بن الحسن وكتب الشافعي عنه وقرعير^(٢). وكان الإمام الشافعي معظماً لمحمد بن الحسن تمام التعظيم مع ما يجري بينهما من مناظرات وخلافات مشهورة بين المذهبيين فالشافعي -رحمه الله- على مذهب أهل الحديث ومحمد بن الحسن -رحمه الله- على مذهب أهل الرأي ومعلوم ما بين المذهبيين من اختلاف^(٣) ومع هذا يقول الشافعي عن محمد بن الحسن: ما رأيت أحداً يسأل عن مسألة فيها نظر إلا رأيت الكراهة في وجهه إلا محمد بن الحسن^(٤).

٩- رجوعه إلى مكة وحضور الإمام أحمد إلى مجالسه: بعدما حصل الشافعي على ما استطاع من علم العراق وعلم الحجاز شعر أن الوقت حان لنشر ما عنده من علم فقرر العودة إلى مكة بعد أن ذاع ذكره واشتهر أمره وعلا قدره وبدأ يلقي دروسه في الحرم المكي، وكان الحجاج من ديار الإسلام قد سمعوا عن فتى من قریش قد بهر الناس علمه وفقهه فكانوا يحرصون على السماع منه فشاع بذلك ذكره في البلاد^(٥) والتقى به في هذه المدة كثير من العلماء وكانوا يعجبون بسعة اطلاعه واستحضاره للدليل وحرصه على متابعة السنة وعظم فقهه واستنباطه وكانوا يعجبون من أصوله التي أصلها وقواعده التي قعدها وكلها مأخوذة من الكتاب والسنة وأكثرها لم يسمع به من قبل، ومن أشهر من سمع منه هذه المرة الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- الذي وفد حاجاً إلى مكة ودخل المسجد الحرام للالتقاء بكبار العلماء والمحدثين وكان أشهرهم سفيان بن عيينة شيخ الإمام الشافعي لكنه وجد شيئاً في حلقة الشافعي لم يجده عند غيره لذلك بدأ الإمام بالاقتراب من حلقة الإمام الشافعي

(١) الالتقاء، ص ٩٧، منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٣٣.

(٢) البداية والنهاية، نقلاً عن منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٣٣.

(٣) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٣٣. (٤) مناقب البيهقي (١/١٥٩).

(٥) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٣٥.

فرأى منه شيئاً جديداً غير رواية الأحاديث رأى فيه فقها وفهما ثاقبين وقواعد لم يكن سمعها من قبل فبدأ بحضور حلقة وترك من أجل ذلك حلقات كبار المشايخ، قال محمد بن الفضل القراء: سمعت أبي يقول: حججت مع أحمد بن حنبل، فنزلت في مكان واحد معه فخرج باكراً وخرجت معه فدرت في المسجد فلم أره في مجلس ابن عيينة ولا غيره حتى وجدته جالساً مع أعرابي^(١). فقلت: يا أبا عبد الله تركت ابن عيينة وجئت إلى هذا! فقال لي: اسكت إنك إن فاتك حديث بعلو وجدته بنزول وإن فاتك عقل هذا أخاف ألا تجده، ما رأيت أحداً أفقه في كتاب الله من هذا الفتى، قلت: من هذا؟ قال: محمد بن إدريس^(٢)، وعن إسحاق بن راهويه قال: كنت مع أحمد بمكة فقال لي: تعال حتى أريك رجلاً لم تر عينك مثله، فأراني الشافعي^(٣). وتوثقت العلاقة بين الفقيهين العظيمين الكبيرين ومدح الإمام أحمد الشافعي، فقد روى البيهقي بسنده عن أبي إسماعيل الترمذي قال: سمعت أحمد ابن حنبل ذكر الشافعي فقال: لقد كان يذب عن الآثار^(٤)، وبسنده عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: قال أبي: قال لنا الشافعي: إذا صح عندكم الحديث عن النبي ﷺ فأعلمني به أذهب إليه^(٥)، وبسنده عن أحمد بن أبي عثمان قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول: كان أحسن أمر الشافعي أنه كان إذا سمع الخبر لم يكن عنده قال به وترك قوله^(٦).

١٠- رحلته الثانية إلى العراق: رحل الشافعي إلى العراق عام ١٩٥هـ فقد روى البيهقي بسنده عن أبي ثور قال: لما ورد الشافعي ﷺ العراق جاءني حسين الكرابيسي - وكان يختلف معي إلى أصحاب الرأي- فقال: قد ورد رجل من أصحاب الحديث يتفقه قم بنا نسخر منه، فقام وذهبنا حتى دخلنا عليه، فسأله الحسين عن مسألة فلم يزل الشافعي يقول: قال الله عز وجل وقال رسول الله ﷺ، حتى أظلم علينا البيت فتركنا بدعتنا واتبعناه، وهناك التقى به أحمد بن حنبل وكان قد التقى به قبل ذلك وأخذ عنه وأثنى عليه وقال: كانت أقضيتنا أصحاب الحديث في أيدي أصحاب أبي حنيفة ما تنزع حتى رأينا الشافعي، وكان أفقه الناس في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ما كان يكفيه قليل الطلب في الحديث^(٧) وعن الحسن بن محمد الزعفراني قال: كان أصحاب الحديث رقوداً حتى أيقظهم الشافعي ﷺ^(٨)، وقال إبراهيم الحربي رحمه الله تعالى: قدم الشافعي بغداد وفي المسجد الجامع

(١) شبه الشافعي بالأعرابي لأنه كان يلبس لباسهم لإقامته بينهم أو لفصاحته وحفظه كلامهم. والله أعلم.

(٢) توالي التأسيس، ص ٥٦.

(٣) صفة الصفوة (٢/ ٢٥٠).

(٤) المصدر نفسه (١/ ٤٧٦).

(٥) المناقب للبيهقي (١/ ٤٧١).

(٦) المصدر نفسه (١/ ٤٧٦)، منهج الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٤٣.

(٧)، (٨) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٣٧.

الغربي عشرون حلقة لأصحاب الرأي فلما كان في الجمعة الثانية لم يثبت منها إلا ثلاث حلقات أو أربع حلقات، ولم تكن إقامته في العراق مستمرة بل كان يتردد بينها وبين مكة، قال الحسن بن محمد الزعفراني: قدم علينا الشافعي سنة خمس وتسعين ومائة فأقام عندنا سنتين ثم خرج إلى مكة ثم قدم علينا سنة ثمان وتسعين ومائة فأقام عندنا أشهراً ثم خرج إلى مصر^(١).

١١- رحلته إلى مصر: كانت نفسه تتوق إلى مصر رغماً عنها، وكان لا يدري حقيقة هذه الرغبة ولكنه استسلم أخيراً لقضاء الله وخرج من العراق إلى مصر وفي ذلك يقول:

لقد أصبحت نفسي تتوق إلى مصر ومن دونها أرض المهامه والقفور
فوالله ما أدري أ لل فوز والغنى أساق إليها أم أساق إلى القبر^(٢)

وحين قدم الشافعي - رحمه الله - مصر ذهب إلى جامع عمرو بن العاص وتحدث به لأول مرة فأحبه الناس وتعلقوا به^(٣). قال هارون بن سعيد الأيلي: ما رأيت مثل الشافعي قدم علينا مصر فقيل قدم رجل من قريش فجئناه وهو يصلي فما رأينا أحسن صلاة منه ولا أحسن وجهاً منه فلما تكلم ما رأينا أحسن كلاماً منه فافتننا به^(٤)، وهناك برز للناس علم الشافعي وسعة اطلاعه واستفاد هو من رحلاته وعمد إلى كتبه التي كتبها من قبل يراجعها ويصحح ما أخطأ فيه ورجع عن كثير من أقواله وأظهر مذهبه الجديد وأعاد تأليف كتبه ولازمه كثير من العلماء الذين أثر فيهم علم الشافعي ومنهجه وحرصه على متابعة السنة^(٥). ومما مضى من سيرة الشافعي نستفيد الدروس الآتية:

* في نصيحة الرجل الزهري خير عظيم ترتب عليه للشافعي والأمة، فتظهر أهمية النصيح الصادق لخير الأمة، وأهمية الاستجابة لهذا النصيح الكريم.

* في والدته الشافعي نموذج للأمة الصالحة التي تستحق الاقتداء بها وتقديرها، فرغم فقرها وحاجتها فإننا نرى كيف تبذل وتضحى في سبيل تعليم ابنها وقد أقر الله عينها، فرأت ثمار تعبها في هذا الإمام العظيم.

* التلطف وحسن الخلق في النصيح وحسن المدخل عندما قال الرجل الزهري: يا أبا عبد الله يعز علي ألا تكون في العلم والفقه هذه الفصاحة.

(١) توالي التأسيس، ص ٧٢، منهج الإمام الشافعي، ص ٣٧.

(٢) مناقب البيهقي (١/ ٤٦٣).

(٣) ديوان الشافعي، ص ٤٧.

(٤) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٣٩.

(٥) المصدر نفسه (٢/ ٢٨٤).

١٢- وفاته: مكث الشافعي آخر عمره مشغلاً بنشر العلم والتصنيف في مصر حتى أضر ذلك بجسده، فأصيب بالبواسير التي كانت تسبب له خروج الدم ولكن حبه للعلم جعله يؤثر طلبه ونشره والتصنيف فيه على نفسه، واستمر هكذا حتى وافته منية الموت في آخر شهر رجب سنة ٢٠٤هـ رحمه الله رحمةً واسعة^(١). وقال المزي: دخلت على الشافعي -رحمه الله- في مرضه الذي مات فيه فقلت له: كيف أصبحت يا أستاذ؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً، وإخواني مفارقاً، ولكأس المنية شارباً، وعلى الله وإرداً، ولسوء عملي ملاقياً ما أدري أروحي إلى الجنة فأهنيها، أم إلى النار فأعزيها؟ ثم رمى بطرفه إلى السماء واستعبر وأنشد:

إليك إله الخلق أرفع رغبتي	وإن كنت يا ذا المن والجود مجرماً
ولما قسا قلبي وضافت مذاهبي	جعلت الرجا مني لعفوك سلماً
تعاطمني ذنبي فلما قرنته	بعفوك ربي كان عفوك أعظماً
وما زلت ذا عفو عن الذنب لم تنزل	تجود وتعفو منه وتكرماً
فلولاك لم يصمد لإبليس عابد	فكيف وقد أغوى صفيك آدماء
فإن تعف عني تعف عن متمرّد	ظلوم غشوم ما يزايل مائماً
وإن تنتقم مني فلست بآيس	ولو أدخلت نفسي بجرمي جهنماً
فجرمي عظيم من قديم وحادث	وعفوك يا ذا العفو أعلى وأجسماً ^(٢)

ثانياً: أصول الشافعي في إثبات العقيدة:

سار الإمام الشافعي على منهج أهل السنة في إثبات العقيدة، ومن أهم أصول الشافعي في هذا المجال:

الأصل الأول: الالتزام بالكتاب والسنة وتقديهما على العقل: والأخذ بظاهر الكتاب والسنة أول أصل من أصول أهل السنة والجماعة وذلك لأنهما المصدران الوحيدان لتلقي العقيدة الإسلامية ولا يجوز للمسلم أن يستبدل بهما غيرهما فما أثبتاه وجب أن يثبتهما المسلم وما نفياه وجب على المسلم نفيه، ولا هدى ولا صلاح إلا بالتمسك بهما^(٣). قال

(١) المناقب للبيهقي (٢/ ٢٩١)، منهج الإمام الشافعي، ص ٣٩.

(٢) ديوان الشافعي، ص ٧٨، آداب الشافعي ومناقبه، ص ٧٧.

(٣) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٨٠.

تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. وهذا شأن المؤمنين بالله ورسوله ولذلك نفى الله الإيمان عن أبي وتكبر عن متابعة النبي ﷺ فقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. وأمر الله المؤمنين عند التنازع بأن يردوا ما تنازعوا فيه إليهما فإن فيهما حلاً لكل ما تنازع فيه الناس فقال تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] والشافعي -رحمه الله- أحد أئمة السلف حيث ذهب في ذلك مذهب السلف الصالح فهو يرى أن الكتاب والسنة هما مصدر التشريع وإليهما يرجع المقتضى ولذلك تراه عند إثبات مفردات العقيدة يبدأ بذكر النصوص الواردة في ذلك من الكتاب والسنة ويحتج بما جاء بهما على المخالف، ولم نسمع أنه تعرض -رحمه الله- إلى تأويلها وإلى ردها بشيء من حجج أهل الكلام^(١).

ويرى الإمام الشافعي -رحمه الله- أن السنة مثل القرآن في التشريع فما ثبت في السنة كالذي ثبت في القرآن وما حرم في السنة كالذي حرم في القرآن، والسبب في ذلك أنهما جميعاً من الله^(٢)، وبين -رحمه الله- أن سنة النبي ﷺ هي الحكمة التي قرنها الله مع كتابه في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال -رحمه الله-: كل ما سن رسول الله مما ليس فيه كتاب وفيما كتبنا في كتابنا هذا -الرسالة- من ذكر ما من الله به على العباد من تعلم الكتاب والحكمة دليل على أن الحكمة سنة رسول الله ﷺ، ثم بين منزلة السنة من القرآن وأنها شارحة له مبينة لمراد الله فيها، وأنها قد تستقل ببعض الأحكام وإن لم يرد لها أصل في الكتاب، فقال: مع ما ذكرنا مما افترض الله على خلقه من طاعة رسوله وبين من موضعه الذي وضعه الله به من دينه الدليل على أن البيان في الفرائض المنصوصة في كتاب الله من أخذ هذه الوجوه، منها ما أتى الكتاب على غاية البيان فيه فلم يُحتج مع التزليل فيه إلى غيره.

ومنها ما أتى الكتاب على غاية البيان في فرضه، وافترض طاعة رسوله فيين رسول الله عن الله: كيف فرضه وعلى من فرضه ومتى يزول بعضه ويثبت ويجب.

ومنها: ما بينه عن سنة نبيه بلا نص كتاب ولكل شيء منها بيان في كتاب الله. فكل من

(١) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٨١. (٢) المصدر نفسه، ص ٨٦.

قبل عن الله فرائضه في كتابه قبل عن رسول الله ﷺ سننه بفرض الله طاعة رسوله على خلقه وأن ينتهوا إلى حكمه، ومن قبل عن رسول الله فعن الله قبل، لما افترض الله من طاعته^(١) ثم ذكر الأدلة على حجية السنة، ومما لا شك فيه أن هذا الأصل قد درّس في المدارس النظامية والتي كان من نظم مناهجها كتب الإمام الشافعي.

الأصل الثاني: خبر الآحاد ومكانته عند الإمام الشافعي: قسم علماء الحديث والأصول حديث النبي ﷺ إلى قسمين:

- متواتر. - وآحاد.

والتواتر: ما رواه عدد كبير تحيل العادة تواطؤهم على الكذب عن مثلهم وأسندوه إلى شيء محسوس. والآحاد: هو ما فقد شروط المتواتر أو أحدها^(٢). وهو من حيث القبول والرد على أقسام، فمنه المقبول ومنه المردود على حسب حال رواته من حيث العدالة وعدمها وغير ذلك من شروط قبول الرواية، وقد ذكر الشافعي رحمه الله هذا التقسيم وسماه علم عامة وعلم خاصة. فقال: قال لي قائل: ما العلم وما يجب على الناس في العلم؟ فقلت له: العلم علمان: علم عامة لا يسع بالغاً غير مغلوب على عقله جهله، قال: مثل ماذا؟ قلت مثل الصلوات الخمس وأن الله على الناس صوم شهر رمضان وحج البيت إذا استطاعوه وزكاة في أموالهم وأنه حرم الزنا والقتل والسرقة والخمر وما كان في معنى هذا مما كلف العباد أن يعقلوه ويعملوه ويعطوه من أنفسهم وأموالهم وأن يكفوا عنه ما حرم عليهم منه وهذا الصنف موجود نصاً في كتاب الله وموجود عاماً عند أهل الإسلام ينقله عوامهم عمن مضى من عوامهم يحكونه عن رسول الله ﷺ ولا يتنازعون في حكايته ولا وجوبه عليهم وهذا العلم العام الذي لا يمكن فيه الغلط من الخبر ولا التأويل ولا يجوز فيه التنازع. قال: فما الوجه الثاني؟ قلت له: ما ينوب العباد من فروع الفرائض وما يخص به من الأحكام وغيرها مما ليس فيه نص كتاب ولا في أكثره نص سنة وإن كانت في شيء منه سنة فإنما هي من أخبار الخاصة لا أخبار العامة وما كان منه يحمل التأويل ويستدرك قياساً^(٣).

شروط صحة الحديث وقبوله عند الشافعي:

وضع الإمام الشافعي في كتابه «الرسالة» شروطاً في قبول الحديث هي أصل الشروط التي وضعها علماء المصطلح وهي:

(١) الرسالة، ص ٣٢، ٣٣.

(٢) نخبه الفكر، ص ٤ - ٨، الإحكام للآمدي (٢/ ٣١). (٣) الرسالة، ص ٣٥٧ - ٣٥٩.

أ- اتصال السند. ب - عدالة الرواة. ج - أن يكون الراوي ضابطاً.

د - سلامته من الشذوذ وهو مخالفة الراوي لمن هو أوثق منه.

هـ - سلامته من العلة القادحة ^(١).

وهذه الشروط ذكرها الإمام الشافعي في كتابه «الرسالة» وإن لم يرتبها كما رتبها علماء الحديث بعده مما يدل على عظم فهمه لعلم الحديث ولذلك فقد ملأ كتبه بالأدلة على حجية السنة والرد على من أنكر حجيتها أو احتج ببعضها وأنكر حجية البعض الآخر ^(٢).

العمل بخبر الواحد: أجمع الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من التابعين وسلف الأمة على وجوب العمل بخبر الواحد سواء من قال: إنه يفيد العلم أو يفيد الظن، ولم يخالف في هذا إلا من لا اعتبار بخلافه كبعض المعتزلة والرافضة ^(٣). وقد نصر الإمام الشافعي رحمه الله مذهب السلف في العمل بخبر الواحد في جميع مسائل الدين ويدخل في ذلك أمور العقيدة، ولم يرد عنه أنه فرق بين أمور العقيدة وبقية المسائل بل روي عنه أنه قال في حديث الرؤية لما سأله سعيد بن أسد: ما تقول في حديث الرؤية؟ فقال لي: يا بن أسد أقضى عليّ حيثُ أو ميتُ: أن كل حديث يصح عن رسول الله ﷺ فإني أقول به وإن لم يبلغني ^(٤).

الأصل الثالث: تعظيمه لفهم الصحابة وإتباعه لهم ﷺ:

وقال في ذلك: ما كان الكتاب والسنة موجودين فالعذر عمن سمعهما مقطوع إلا باتباعهما فإذا لم يكن صرنا إلى أقاويل أصحاب رسول الله ﷺ أو واحد منهم ثم كان قول الأئمة أبي بكر أو عمر أو عثمان إذا صرنا فيه إلى التقليد أحب إلينا ^(٥). إلى أن قال: والعلم طبقات شتى الأولى: الكتاب والسنة إذا ثبتت السنة. الثانية: الإجماع فيما ليس فيه كتاب ولا سنة.

الثالثة: أن يقول بعض أصحاب النبي ولا نعلم له مخالفاً منهم. **الرابعة:** اختلاف أصحاب النبي صلى الله وسلم في ذلك.

الخامسة: القياس على بعض الطبقات ولا يصار إلى شيء غير الكتاب والسنة وهما موجودان وإنما يؤخذ العلم من أعلى ^(٦). ومما يدل على إتباعه للصحابة رضي الله عنهم وتعظيمه لفهمهم ما ذكره البيهقي من كلام الشافعي - رحمه الله - في الرسالة القديمة برواية

(١)، (٢) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ١٠٩.

(٣) إرشاد الفحول، ص ٤٨، ٤٩.

(٤) المناقب للبيهقي (١/ ٤٢١).

(٥) الأم (٧/ ٢٦٥)، منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ١٢٩.

(٦) الأم (٧/ ٢٦٥).

الحسن بن محمد الزعفراني حيث يقول الشافعي: وقد أثنى الله تبارك وتعالى على أصحاب رسول الله ﷺ في القرآن والتوراة والإنجيل وسبق لهم على اللسان رسول الله ﷺ من الفضل ما ليس لأحد بعدهم. فرحمهم الله وهئاهم بما آتاهم من ذلك يبلوغ أعلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين هم أدوا إلينا سنن رسول الله ﷺ وشاهدوه والوحي ينزل عليه، فعلموا ما أراد رسول الله ﷺ عاماً وخاصاً وعزماً وإرشاداً وعرفوا من سنته ما عرفنا وجهلنا وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل وأمر استدرك به علم واستنبط به وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من آرائنا عندنا لأنفسنا^(١).

الأصل الرابع: مجانبة أهل الأهواء والبدع والكلام وذمهم:

حذر السلف - رحمهم الله - من مجالسة أهل البدع والأهواء وأوجبوا هجرهم وأخرجوهم من مجالسهم، وسار على هذا النهج الإمام الشافعي، وقد روي أن سبب تركه بغداد وهجرته إلى مصر ظهور المعتزلة ببدعهم وتسلطهم على الناس وقد كانت الدولة خاضعة لهم، ومن أقواله رحمه الله في هجر المبتدعة قوله: ما ناظرت أحداً علمت أنه مقيم على بدعة^(٢). قال البيهقي: وهذا لأن المقيم على البدعة قلما يرجع بالمناظرة عن بدعته وإنما كان يناظر من يرجو رجوعه إلى الحق إذا بينه له وبالله التوفيق^(٣)، وقد جعل الشافعي رحمه الله علامة الإيمان متابعة السنة وعلامة البدعة مخالفة السنة ولم ينظر إلى ما سوى ذلك مما يدل على به المبتدعة على الناس بما يظهرونه من شعوزة ودجل ويسمونهم كرامة^(٤) فعن يونس بن عبد الأعلى قال: قلت لمحمد بن إدريس الشافعي: قال صاحبنا الليث بن سعد: لو رأيت صاحب هوى يمشي على الماء ما قبلته. فقال الشافعي: أما إنه قصر، لو رأيت يمشي في الهواء ما قبلته^(٥). وقد ذم الإمام الشافعي علم الكلام فقال فيه: لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء والله ما توهمته قط ولأن يبتلى المرء بجميع ما نهى الله عنه ما خلا الشرك بالله خير من أن يبتليه الله بالكلام^(٦). وقال: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويجعلوا على الإبل ويطاف بهم في العشائر والقبائل وينادي عليهم، هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام^(٧). هذه بعض الأصول في إثبات العقيدة التي نظر لها الإمام الشافعي وكتب عنها ولا شك أن المدارس النظامية اعتمدتها في مدارسها.

(١) إعلام الموقعين (١/ ٨٠)، منهج الشافعي في إثبات العقيدة، ص ١٣٠.

(٢) مناقب البيهقي (١/ ١٧٥).

(٣) المصدر نفسه (١/ ١٧٥)، منهج الشافعي في إثبات العقيدة، ص ١٣٨.

(٤) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ١٣٩. (٥) مناقب البيهقي (١/ ٤٧٠).

(٦) المصدر نفسه (١/ ٤٥٤). (٧) شرح السنة، للبغوي (١/ ٢١٨).

ثالثاً: عقيدته في الإيمان ومنهجه في إثباتها:

١- حقيقة الإيمان ودخول الأعمال في مسماه: اتفق أهل السنة والجماعة على أن الإيمان اعتقاد بالجنان ونطق باللسان وعمل بالأركان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي كما استفاض ذلك في كتبهم^(١)، ومن تتبع ما روى لنا عن الإمام الشافعي رحمه الله وما حكاه لنا الأئمة في كتبهم من أقواله نجد مذهبه مطابقاً لمذهب السلف - رحمهم الله - تمام المطابقة فهو يقول إن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص^(٢)، قال الحافظ اللالكائي: قال الشافعي في كتاب الأم في باب النية في الصلاة: نحتج بأنه لا يجزئ صلاة إلا بنية لحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ». ثم قال: وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ممن أدركناهم: أن الإيمان: قول وعمل ونية ولا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر^(٣). وروى أبو نعيم في كتابه «الحلية» بسنده عن الربيع بن سليمان قال: سأل رجل من أهل بلخ الشافعي عن الإيمان فقال للرجل: فما تقول أنت فيه؟ قال: أقول: إن الإيمان قول. قال ومن أين قلت؟ قال: من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧]. فصارت الواو فصلاً بين الإيمان والعمل فالإيمان قول والأعمال شرائعه. فقال الشافعي: وعندك الواو فصل؟ قال: نعم، قال: فإذا كنت تعبد إلهين إلهاً في المشرق وإلهاً في المغرب لأن الله تعالى يقول: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] فغضب الرجل وقال: سبحان الله أجعلتني وثنيّاً؟! فقال الشافعي: بل أنت جعلت نفسك كذلك قال: كيف؟ قال بزعمك أن الواو فصل، فقال الرجل: فإني أستغفر الله مما قلت بل لا أعبد إلا رباً واحداً ولا أقول بعد اليوم إن الواو فصل بل أقول إن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص، قال الربيع: فأنفق على باب الشافعي ما لا عظيماً وجمع كتب الشافعي وخرج من مصر سنياً^(٤).

٢- زيادة الإيمان ونقصانه: قال الربيع: سمعت الشافعي يقول: الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١]^(٥) وعن نقل القول عن الإمام الشافعي - رحمه الله - بالزيادة والنقصان ابن أبي حاتم، والحافظ اللالكائي، والنووي، وابن تيمية والذهبي وابن القيم وابن حجر - رحمهم الله - كلهم - نقل عن الإمام الشافعي القول بزيادة الإيمان ونقصانه، بل نقل بعضهم أن الشافعي حكى الإجماع على ذلك من السلف، كابن تيمية وابن رجب^(٦).

(١) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ١٥٥. (٢) فتح الباري (١/٤٧).

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٥/٨٨٦).

(٤) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ١٦٤. (٥) الحلية (٩/١١٥).

(٦) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ١٧٣.

٣- حكم مرتكب الكبيرة: يرى الإمام الشافعي أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإسلام بذنبه وأنه إن تاب تاب الله عليه وإن أقسم عليه، الحـد فهو كفارة له، وإن مات مصراً على ذنبه فهو إلى الله إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه، إلا أنه لا يخلد في النار^(١) والله أعلم.

رابعاً: توحيد الألوهية:

يرى الإمام الشافعي أن توحيد الألوهية هو إفراد الله بالعبادة وهو حقيقة التوحيد فمن أتى به فقد أدى حق الله تبارك وتعالى عليه لأنه متضمن للإقرار بربوبية الله على خلقه وللإيمان بأسمائه وصفاته، ويرى أن هذا النوع هو الذي قاتل النبي - ﷺ - الناس من أجله ولولا أنه حقيقة دين الإسلام لما قاتل النبي - ﷺ -، وهم يقرون بربوبية الله سبحانه وتعالى على خلقه^(٢) ولهذا لما جاء رجل إلى المزني - وهو من كبار تلاميذ الإمام الشافعي - وسأله عن شيء من الكلام قال له: إني أكره هذا بل أنهى عنه كما نهى عنه الإمام الشافعي، لقد سمعت الشافعي يقول: سئل مالك عن الكلام والتوحيد فقال: محال أن نظن بالنبي - ﷺ - أنه علم أمته الاستتجاء ولم يعلمهم التوحيد^(٣). والتوحيد ما قاله النبي - ﷺ -: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله»^(٤)، فما عصم به الدم والمال حقيقة التوحيد^(٥).

١- الحكمة من خلق الجن والإنس: قال الشافعي: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] قال الشافعي: خلق الله الخلق لعبادته^(٦) وقال في موضع آخر: وأنزل الله عز وجل فيما يثبت به إذا ضاق من أذاهم - المشركين - ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَصِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ففرض عليه إبلاغهم وعبادته.. وأبان ذلك في غير آية من كتابه ولم يأمره بعزلتهم^(٧)، وأنزل عليه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ٢٠١]. فيتبين من كلام الشافعي أن الحكمة من خلق الجن والإنس وإرسال الرسل إفراد الله سبحانه بالعبادة^(٨) وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿أَيُخْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] قال: لم يختلف أهل العلم بالقرآن فيما علمت أن السدى الذي لا يؤمر ولا ينهى^(٩).

(١) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٢٠٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٤٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٤١.

(٤) سير أعلام النبلاء (١٠/٢٦).

(٥) مسلم ٢١، ٢٢.

(٦) الأم (٤/١٥٩، ١٦٠).

(٧) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٢٤٣.

(٨) الرسالة، ص ٢٥.

(٩) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٢٤٣.

٢- تسوية القبر: قال الإمام الشافعي: وأحب ألا يزاد في القبر من غيره، وليس بأن يكون فيه تراب من غيره بأس إذا زيد فيه تراب من غيره ارتفع جداً وإنما أحب أن يشخص على وجه الأرض شبراً أو نحوه^(١)، وهذا الذي ذكره الإمام الشافعي رحمه الله هو السنة وقد دلت النصوص على تحريم رفع القبر، منها حديث أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ألا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً إلا سويته^(٢).

٣- البناء على القبور وتجصيصها: قال الشافعي: وأحب ألا يبنى ولا يخصص، فإن ذلك يشبه الزينة والخيلاء وليس الموت موضع واحد منها ولم أر قبور المهاجرين والأنصار مخصصة.. وقد رأيت من الولاة من يهدم بمكة ما يبنى فيها فلم أر الفقهاء يعيرون ذلك. قال: وأكره وطء القبر والجلوس والاتكاء عليه^(٣)، ثم ساق بسنده عن أبي هريرة ؓ قال: لأن أجلس على جمرة فتحرق ردائي ثم قميصي ثم إزارتي ثم تفضي إلى جلدي أحب إلي من أن أجلس على قبر امرئ مسلم^(٤).

٤- بناء المساجد على القبور: قال الإمام الشافعي: وأكره أن يُبنى على القبر مسجد وأن يسوى أو يصلى عليه وهو غير مسوى أو يصلى إليه وإن صلى إليه أجزاءه وقد أساء^(٥) أخبرنا مالك أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا يبقى دينان في جزيرة العرب»^(٦). هذا رأي الإمام الشافعي في مسألة بناء المساجد على القبور فهو يكره ذلك والكره هنا - والله أعلم - للتحريم وهو ما دلت عليه النصوص الصريحة التي لعنت من فعل ذلك وقد علل سبب ذلك بثبوت النهي عن ذلك وإلى الخوف من تعظيم القبور مما قد يقع بسبب المعظم إلى الغلو المؤدي إلى الشرك، ثم تكلم عن حكم الصلاة على القبور فكرهها وعلل ذلك بنجاسة المقابر^(٧).

٥- زيارة القبور: قال الشافعي: ولا بأس بزيارة القبور. وساق بسنده عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «فهيتمكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرأ»^(٨). قال: ولكن لا يقال عندها هجر من القول وذلك بالدعاء بالويل والثبور والنياحة، فأما إذا زرت

(١) شرح النووي على مسلم (٢/٦٦٦).

(٢) المصدر نفسه (٢/٣٣٥).

(٣) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٢٥٨.

(٤) صحيح مسلم (١/٦٦٧).

(٥) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٢٦١.

(٦) موطأ مالك (٢/٨٩٢) مرسل.

(٧) مسلم (٢/٦٧٢).

تستغفر للميت ويرق قلبك وتذكر أمور الآخرة فهذا مما لا أكرهه^(١).

٦- رأى الإمام الشافعي في الحلف بغير الله: يمكن تلخيص رأي الإمام الشافعي في الحلف بما يأتي:

- كراهية الحلف مطلقاً وقد دل على ذلك الكتاب والسنة.

- أن من حلف بالله أو باسم من أسمائه فحنت فعلية الكفارة.

- أن الحلف بغير الله مكروه.

- أن من حلف بغير الله فحنت فلا كفارة عليه لأنها ليست يميناً.

- جواز الحلف بالله واستجابته إذا كان في طاعة كالجهاد ونحوه. سواء فهمت الكراهة على التنزيه أو على التحريم، فقد كره الإمام الشافعي الحلف بغير الله.^(٢)

خامساً: طريقة الشافعي في الاستدلال على وجود الله:

روى أبو نعيم بسنده مناظرة حدثت بينه وبين بشر المريسي بحضرة هارون الرشيد. قال بشر: أخبرني ما الدليل على أن الله تعالى واحد؟ فقال الشافعي: يا بشر ما تدري من لسان الخواص فأكلمك على لسانهم^(٣)، إلا أنه لا بد لي أن أجيبك على مقدارك من حيث أنت الدليل عليه به ومنه وإليه واختلاف الأصوات من المصوت إذا كان المحرك واحداً واختلاف الصور دليل على أنه واحد^(٤) وعدم الضد في الكل على الدوام دليل على أنه واحد^(٥)، وأربع نيران مختلفات في جسد واحد متفقات الدوام على تركيبه في استقامة الشكل دليل

(١) الأم (١/٢٧٨).

(٢) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٢٧١، ٢٧٢.

(٣) الخواص عند الإمام الشافعي هم علماء السنة أهل الحديث والأثر وليس علماء الكلام، فإن بشراً المريسي من أهل الكلام ويعرف لسانهم ولكن الذي لا يعلمه بشر هو طريقة السلف في الاستدلال لذلك ذكر له دليل الآيات المشهور.

(٤) يعني أن آلات الصوت والكلام في الإنسان من لسان وأسنان وشفتين وحلق وحنجرة وحبال صوتية وقوة دافعة للهواء واحدة في كل بني آدم ومع ذلك تجد بين الأفراد اختلافاً كبيراً بل نجد الاختلاف في ذلك بين الوالد وأبنائه فمن الذي فرق بين الأصوات بهذا الشكل الدقيق الذي لا نجد اثنين مهما كانت قرابتهما متفقين في صوتهما؟! فهذا يدل على وجود الله ووحدانيته في الربوبية.

(٥) قوله وعدم الضد في الكل على الدوام معناه أن الإنسان مع ما فيه من تغير وتبدل من حال إلى حال فهو قد كان نقطة ثم علقه ثم تطور إلى أن خرج وصار طفلاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً ومع ما يعترضه في حياته من مرض وصحة وسمن وهزال ومع ذلك فالإنسان هو هو لم يتغير صوته ولم يتغير صورته.

على أن الله تعالى واحد^(١)، وأربع طبائع مختلفات في الخافقين أضداد غير أشكال مؤتلفات على صلاح الأحوال دليل على أن الله واحد^(٢). قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاختِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. وروي عن الشافعي أنه قال: استقبلني سبعة عشر زنديقاً في طريق غزة فقالوا: ما الدليل على الصانع؟ فقلت لهم: إن ذكرت دليلاً شافياً هل تؤمنون؟ قالوا: نعم، قلت ورق الفرصاد^(٣) طعمها ولونها وريحها سواء فيأكلها دود القز فيخرج من جوفها الإبريسم ويأكلها النحل فيخرج من جوفها العسل، وتأكلها الشاة فيخرج من جوفها البعر فالطبع واحد وإن كان موجباً عندك فيجب أن يوجب شيئاً واحداً لأن الحقيقة الواحدة لا توجب إلا شيئاً واحداً ولا توجب متضادات متنافرة، ومن جوز هذا كان عن المنقول خارجاً وفي التيه والجأ، فانظر كيف تغيرت الحالات عليها فعرفت أنه فعل صانع عالم قادر يحول عليها الأحوال ويغير التيارات، قال: فبهتوا ثم قالوا: لقد أتيت بالعجب فآمنوا وحسن إيمانهم. وقال الشافعي لقد أتيت قلعة حصينة ملساء ولا فرجة فيها ظاهرها كالفضة وباطنها كالذهب وجدرانها حصينة محكمة ثم رأيت الجدار ينشق فيخرج من القلعة حيوان سميع بصير مصوت، فعلمت ضرورة أن الطبيعة لا تقدر على ذلك وأنه فعل صانع حكيم، فالقلعة هي البيضة والحيوان هو الدجاجة^(٤). وكان -رحمه الله- كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات:

فيا عجباً كيف يعصى الإله	أم كيف يحجده الجاحد
ولله في كل تحريكة	وتسكينة أبداً شاهد
وفي كل شيء له آية	تدل على أنه واحد ^(٥)

(١) وتفسيره أن في البدن نيراناً أربعاً إحداها: نار الشهوة وثانيتها حرارة الغضب، وثالثتها الحرارة القائمة بأعضاء الغذاء ورابعها الحرارة الغريزية المتولدة في قلبه وهي الحرارة المؤثرة التي يتم بها أمر الحياة، فهذه الأنواع الأربعة من الحرارة نيران مختلفة بالماهية ثم إنها اجتمعت في بدن الإنسان تبقى كل واحدة منها على صفتها المخصوصة وطبيعتها المخصوصة وهي كامنة في بدن الإنسان لا تظهر إلا عند الحاجة إليها ثم إنها مع اختلافها وتباينها متوافقة على تحصيل مصلحة الإنسان وموجبة لاستقامة سلامة ذلك الجسد.

(٢) وتفسيره أن أبدان الحيوانات على قول الأطباء متولدة من الأرض والماء والهواء والنار ثم إنها أضداد متغايرة متنافرة متعاندة بطبائعها فاجتماعها في البدن الواحد لا بد أن يكون بقدرة قادر وتدبير مدبر قدير.

(٣) الفرصاد: التوت. انظر: لسان العرب (٣/ ٣٣٣).

(٤)، (٥) مفيد العلوم للقزويني، ص ٢٥، ٢٦.

سادساً: توحيد الأسماء والصفات:

قال الشافعي في أول خطبة الرسالة: الحمد لله الذي هو كما وصف به نفسه وفوق ما يصفه به خلقه ^(١)، فبينَ رحمه الله - أن الله موصوف بما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ^(٢)، ومن هذا النص وغيره نعرف مذهب الشافعي فقد ذكر أبو يعلى بسنده عن يونس بن عبد الأعلى المصري قال: سمعت أبا عبد الله محمد بن إدريس الشافعي يقول وقد سئل عن صفات الله وما ينبغي أن يؤمن به فقال: لله تبارك وتعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه وأخبر بها نبيه ﷺ أمته لا يسع أحداً قامت عليه الحجة ردها لأن القرآن نزل بها وصح عن رسول الله ﷺ القول بها فيما روى عنه العدل، فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو بالله كافر، فأما قبل ثبوت الحجة عليه من جهة الخبرة فمعذور بالجهل لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا بالرؤية والفكر.. فإن هذه المعاني التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ مما لا تدرك حقيقته بالفكر والرؤية فلا يكفر بالجهل بها أحد إلا بعد انتهاء الخبر إليه بها، فإن كان الوارد بذلك خبراً يقوم في الفهم مقام المشاهدة في السماع وجبت الدينونة على سامعه بحقيقته والشهادة عليه كما عاين وسمع من رسول الله ﷺ، ولكن يثبت هذه الصفات وينفي التشبيه كما نفى ذلك عن نفسه تعالى ذكره فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وقال ابن كثير وقد روي عن الربيع وغير واحد من رءوس أصحابه ما يدل على أنه كان يمر بآيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف على طريقة السلف ^(٣)، ومما سبق يتضح لنا مذهب الشافعي رحمه الله في الباب ويتخلص في القواعد الآتية:

الأولى: يثبت لله جميع الأسماء والصفات التي نطق بها القرآن أو دلت عليها السنة الصحيحة إثباتاً بلا تشبيه وتزويهاً بلا تعطيل على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

الثانية: ينزه الله سبحانه وتعالى عن مشابهة خلقه مع إثبات حقيقة هذه الصفات.

الثالثة: التوقف عن الخوض فيما لا مجال للعقل فيه من اليأس وقطع الطمع عن إدراك كيفية هذه الصفات كما روى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي إسحاق بن محمد قال: سمعت الشافعي يقول: إن للعقل حداً ينتهي إليه كما أن للبصر حداً ينتهي إليه ^(٤).

(٢) الرسالة، ص ٧، ٨.

(١) المناقب لليهقي (٢/ ١٠٩).

(٣) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٣٣٥.

(٤) آداب الشافعي ومناقبه، ص ٢٧١.

إن الإمام الشافعي يؤمن بجميع ما وصف الله سبحانه وتعالى به نفسه أو وصفه به
 ورسوله ﷺ على مذهب السلف وأنه كان يمر بآيات الصفات كما جاءت من غير تكيف ولا
 تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف^(١). قال الربيع بن سليمان: سألت الشافعي رحمه الله عن
 صفات الله تعالى فقال: حرام على العقول أن تمثل الله تعالى وعلى الأوهام أن تحده وعلى
 الظنون أن تقطع وعلى النفوس أن تفكر وعلى الضمائر أن تعمق وعلى الخواطر أن تحيط
 وعلى العقول أن تعقل إلا ما وصف به نفسه أو على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام^(٢)
 قال رحمه الله: آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله وآمنت برسول الله وبما جاء عن
 رسول الله على مراد رسول الله^(٣).

سابعا: عقيدته في الصحابة:

قال الشافعي رحمه الله: وقد أثنى الله تبارك وتعالى على أصحاب رسول الله ﷺ في
 القرآن والتوراة والإنجيل - يشير إلى قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى
 الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَتَذَكَّرُونَ فَضَلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ
 السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَى
 سَوَاقِهِ يُفْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا
 عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩] وسبق لهم على لسان رسول الله ﷺ من الفضل ما ليس لأحد بعدهم،
 فرحمهم الله وهنأهم بما آتاهم من ذلك أعلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين، هم أدوا
 إلينا سنن رسول الله ﷺ وشاهدوه والوحي ينزل عليه فعملوا ما أراد رسول الله ﷺ عاماً
 وخاصاً وعزماً وإرشاداً، وعرفوا من سنته ما عرفنا وجهلنا، وهم فوقنا في كل علم واجتهاد
 وورع وعقل وأمر استدرك به علم واستنبط به، وآراؤهم لنا أحد وأولى بنا من آرائنا عندنا
 لأنفسنا، ومن أدركنا ممن نرضى أو حكي لنا عنه ببلدنا، وما صاروا فيما لم يعلموا لرسول
 الله ﷺ فيه سنة إلى قولهم أن اجتمعوا وقول بعضهم أن تفرقوا فهكذا نقول ولم تخرج من
 أقاويلهم وإن قال واحد منهم ولا يخالفه أحد غيره أخذنا بقوله^(٤)، وفي هذا النص تعظيم
 عظيم للصحابة ومعرفة لحقهم ولعلو منزلتهم في الإسلام وهو ما يعتقده كل أهل السنة
 والجماعة^(٥). وقال رحمه الله: ما أرى أن الناس ابتلوا بشتم أصحاب رسول الله ﷺ إلا
 ليزيدهم الله - أي الصحابة - بذلك ثوابا عند انقطاع عملهم، وفي رواية الربيع بمعناه وقال:

(١) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٣٨٧.

(٢)، (٣) مجموع الفتاوى نقلاً عن منهج الإمام الشافعي، ص ٣٨٨.

(٤) مناقب الشافعي (١/ ٤٤٢، ٤٤٣).

(٥) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٤٤٦.

إلا ليعجزى الله عز وجل لهم الحسنات وهم أموات ^(١)، ولا شك أن هذا حاصل لهم بإذن الله لأن الله توعد من اغتاب المسلمين أو سبهم بالأخذ من حسناته إلى من سبهم كما في حديث المفلس وفيه: إن رسول الله ﷺ سأل أصحابه عن المفلس فقالوا: المفلس فينا من لا دينار له ولا درهم فقال ﷺ: «المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام، كأمثال الجبال ويأتي وقد شتم هذا وضرب هذا وأخذ مال هذا فياخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته ثم يلقي في النار» ^(٢)، فإذا كان هذا ثابتاً لعامة المسلمين فيبوته لصفوتهم وخيرهم وأفضلهم من باب أولى ^(٣).

١- فضل الخلفاء الراشدين ودرجتهم بين الصحابة: قال -رحمه الله- في فضل الخلفاء الراشدين ودرجتهم بين الصحابة: أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضوان الله عليهم ^(٤)، وقال: التفضيل يبدأ بأبي بكر وعمر، وعثمان وعلي ^(٥)، وقال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول في التفضيل: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ^(٦).

٢- سكوته عما شجر بين الصحابة: ومن اعتقاده -رحمه الله- في أصحاب رسول الله ﷺ سكوته عن كل ما شجر بينهم رضي الله عنهم، وروى رحمه الله بسنده أن عمر بن عبد العزيز سئل عن قتلى صفين فقال: تلك دماء طهر الله منها يدي فلا أحب أن أخضب لساني بها. قال الشافعي رحمه الله معلقاً على هذا القول: هذا حسن جميل لأن سكوت الإنسان عما لا يعنيه هو الصواب ^(٧)، وكان رحمه الله يقول للربيع: اقبل مني ثلاثة أشياء: لا تخض في أصحاب النبي ﷺ فإن خصمك النبي ﷺ يوم القيامة، ولا تشتغل بالكلام فأني اطلعت من أهل الكلام على أمر عظيم، ولا تشتغل بالنجوم فإنه يجر إلى التعطيل ^(٨).

٣- موقفه من أصحاب الفرق البدعية والشيعة الرافضة: قال البويطي: سألت الشافعي: أصلى خلف الرافضي؟ قال: لا تصل خلف الرافضي ولا القدري ولا المرجئ. قلت: صفهم لنا. قال: من قال الإيمان قول فهو مرجئ، ومن قال: إن أبا بكر وعمر ليسا بإمامين رافضي، ومن جعل المشيئة إلى نفسه فهو قدري ^(٩)، وقال أبو حاتم: سمعت يونس

(١) مناقب البيهقي (١/٤٤١)، منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٤٤٦.

(٢) مسلم، كتاب البر (٤/١٩٩٧).

(٣) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٤٤٧.

(٤)، (٥)، (٦) المصدر نفسه (١/٤٣٢).

(٤) مناقب البيهقي (١/٤٣٣).

(٧) مناقب ابن أبي حاتم، ص ٣١٤، منهج الإمام الشافعي، ص ٤٥٣.

(٨) توالي التأسيس، ص ٧٣.

(٩) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٤٨٠.

ابن عبد الأعلى يقول: سمعت الشافعي يقول: أجيز شهادة أهل الأهواء كلهم إلا الرافضة فإنهم يشهد بعضهم لبعض^(١)، وكان الشافعي إذا ذكر الرافضة عابهم أشد العيب فيقول: شر عصابة^(٢)، وقال: لم أر أحداً أشهد بالزور من الرافضة. وقال في الرافضي: يحضر الوقعة ولا يعطى من الفيء شيئاً لأن الله تعالى ذكر آية الفيء ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠٩]، فمن لم يقل بها لم يستحق. قال القرطبي: هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة لأنه جعل لمن بعدهم حظاً من الفيء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم، وأن من سبهم أو واحداً منهم أو اعتقد فيهم شراً أنه لا حق له في الفيء، روي ذلك عن مالك وغيره قال مالك: من كان يبغض أحداً من أصحاب محمد ﷺ أو كان في قلبه عليهم غل فليس له حق في فيء المسلمين، ثم قرأ ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾^(٣). ولعل الإمام الشافعي - رحمه الله - أخذ هذا القول عن الإمام مالك فهو شيخه كما هو معلوم^(٤).

٤- الشافعي واتهامه بمذهب الشيعة الرافضة: ومع هذا الوضوح في عقيدة الإمام الشافعي وبعده عن مذهب الشيعة الرافضة وتبديعه لهم ورده لشهادتهم ومنعه من الصلاة خلفهم نجد من يتهم الإمام بالتشيع، وهذا من أعجب العجب؛ فمن صدرت منه كل هذه الأقوال في حق الشيعة كيف يتهم بالتشيع؟! وقد مر بنا موقفه من الصحابة عموماً وموقفه من الخلفاء الراشدين وموافقته لأهل السنة في ترتيب الخلفاء فكيف ينسب إلى التشيع؟!^(٥). قال البيهقي: ومما حكى عن أبي داود السجستاني أن أحمد بن حنبل أخبر أن يحيى بن معين ينسب الشافعي إلى التشيع فقال أحمد: تقول هذا لإمام المسلمين!! قال يحيى: إني نظرت في كتابه في قتال أهل البغي، فإذا قد احتج من أوله إلى آخره بعلي ﷺ، فقال أحمد: عجباً لك، فمن كان يحتج الشافعي في قتال أهل البغي وأول من ابتلى من هذه الأمة بقتال أهل البغي علي بن أبي طالب؟! وهو الذي سن قتالهم وأحكامهم، وليس عن النبي ﷺ ولا عن الخلفاء غيره فيه سنة فبمن كان يستن؟! فخلج يحيى من ذلك^(٦)، وروى البيهقي بسنده عن أبي عبد الله أحمد بن حنبل وسئل عن محمد بن إدريس الشافعي قال أحمد: لقد من الله علينا به، لقد كنا تعلمنا كلام القوم وكتبنا كتبهم حتى قدم علينا الشافعي، فلما سمعنا كلامه علمنا أنه أعلم من غيره وقد جالسناه الأيام والليالي، فما رأينا معه إلا كل خيراً - رحمه الله عليه -

(٢) مناقب البيهقي (١/٤٦٨).

(١) آداب الشافعي ومناقبه، ص ١٨٩.

(٣) تفسير القرطبي (١٨/٣٢).

(٤)، (٥) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٤٨٧.

(٦) مناقب البيهقي (١/٤٥٠ - ٥٤١).

فقال له رجل: يا أبا عبد الله فإن يحيى بن معين وأبا عبيد لا يرضيانه -يعني في نسبتهم إياه إلى التشيع- فقال أحمد لمن حوله: اعلموا -رحمكم الله تعالى- أن الرجل من أهل العلم إذا منحه الله شيئاً من العلم وحرمة قرناؤه وأشكاله حسدوه فرموه بما ليس فيه. وبُست الخصلة في أهل العلم^(١). وقال ابن كثير بعد ذكر بعض النصوص من عقيدة الإمام الشافعي في الخلفاء: وفيها موافقته لأهل السنة في ذلك فهذه أسانيد صحيحة، ونصوص صريحة عن الإمام أبي عبد الله الشافعي في مذهب أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفاً^(٢). فتبين لهذا قول أحمد بن عبد الله العجلي في الشافعي أنه شيعي وهذا القول من العجلي مجازفة بلا علم وإنما غره في ذلك ما قدمناه من أن أهل اليمن لما رموه في جملة أولئك القرشيين وحمل معهم إلى الرشيد وكان فيهم تشيع اعتقد من لا يعلم أن الشافعي إذ ذاك على مذهبهم وإلا فالإمام الشافعي أعظم محلاً وأجل قدراً من أن يرى رأي الشيعة الرافضة وهو ذو الفهم التام والذكاء الزائد والحفظ الخارق والفكر الصحيح والعقل الرجيح، ثم ذكر الأدلة على متابعتهم لمذهب السلف من الصحابة... ثم ذكر الأبيات الموهمة لتشييعه وهي:

يا راكباً قف بالمحصب من منى واهتف بقاعد خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى فيضاً كملتطم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أنني رافضي^(٣)

ثم قال: قلت: ليس برفض حب آل محمد، وكل أهل السنة يحبون آل محمد ﷺ ويجب عليهم ذلك كما يجب عليهم حب أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين، ومع حب الآل يقدم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي كل نص عليه الشافعي وأئمة الإسلام^(٤). وكما رد ابن كثير هذه التهمة فقد ردها الذهبي حيث يقول: من زعم أن الشافعي يتشيع فهو مفتر لا يدري ما يقول. وقال: لو كان شيعياً -وحاشاه من ذلك- لما قال: الخلفاء الراشدون خمسة بدأ بالصديق وختم بعمر بن عبد العزيز^(٥)، والصحيح أن خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي ﷺ، وقد بينت ذلك في كتابي عن الحسن بن علي ﷺ ونقلت أقوال أهل العلم في ذلك. وما يشهد للشافعي على سلامته من عقيدة الشيعة غير ما سبق رده على زعم الشيعة أن النبي ﷺ نص على إمامة علي ﷺ قوله: «من كنت مولاه فعلي مولاه»^(٦)، فقال: يعني

(١) مناقب البيهقي (٢/٢٥٩).

(٢) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٤٩٢. (٣) طبقات السبكي (١/٢٩٩).

(٤) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٤٩٣. (٥) السير (١٠/٥٨، ٥٩).

(٦) مسند أحمد (١/٨٤)، إسناده صحيح، صحيح الجامع رقم ٦٣٩٩.

بذلك ولاء الإسلام، وذلك قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]. وبهذا يتبين لنا براءة الإمام الشافعي مما اتهم به من التشيع وبعده عن ذلك، وموافقته لمذهب أهل السنة والجماعة^(١). قال الإمام سحنون: لم يكن في الشافعي بدعة، فصدق -والله- فرحم الله الشافعي وأين مثل الشافعي -والله- في صدقه وشرفه ونبله وسعة علمه وفرط ذكائه ونصره للحق وكثرة مناقبه رحمه الله تعالى^(٢). إن تراث الإمام الشافعي في العقائد تلقته الأمة بالقبول لموافقته منهج أهل السنة والجماعة، واستفادت منه المدارس النظامية في عهد السلاجقة وأسهم في البعث الحضاري للأمة، وكان من اللبنيات التي أسست البناء الشامخ لأهل السنة والذي أسهم في صد المد الباطني الرافضي الذي كانت تدعمه الدولة الفاطمية، وكان فكر الإمام الشافعي وتراثه الفقهي من الأسس المهمة التي بنى عليها مشروع النهوض والتصدي للصليبيين في عهد الزنكيين والأيوبيين والمماليك. ومن الدروس المهمة التي نستخرجها أهمية التراث الفكري والعقائدي للعلماء في بناء النهوض الحضاري، فلربما يسهم تراث بعض المصلحين في نهضة الأمة بعد وفاته بقرون، كالذي نراه في دراستنا الحالية لسيرة الإمام الشافعي، ولذلك اعتبره بعض الباحثين من المجددين لكون كتبه وآثاره ذائعة مشهورة، وأحدث نقلة نوعية في حياة الناس، فلعل أحداً من المجددين لم يبلغ الإمام الشافعي في ذلك، فقد ذاع صيته، وطارت شهرته في الآفاق، وتناقل العلماء وطلبة العلم كتبه، ورحل إليه أهل الحديث والفقهاء من شتى أطراف العالم الإسلامي ليأخذوا عنه العلم، وظلت كتبه وآثاره محجة للأجيال التي جاءت من بعده وإلى يوم الناس هذا^(٣).

ثامناً: عناصر المنهج في فقه الإمام الشافعي:

يسير البحث عند الإمام الشافعي -رحمه الله- في الموضوعات والمسائل الفقهية بطريقة منتظمة وفق الخطوات التالية:

- ١- استقراء آيات الكتاب الحكيم.
- ٢- استقراء السنة المطهرة، والآثار عن الصحابة رضوان الله عليهم.
- ٣- الاعتماد على اللغة العربية في فهم النصوص.
- ٤- تطبيق القواعد الأصولية.
- ٥- الاستدلال بالمعقول ومظاهره.
- ٦- ضبط المسائل والأحكام المستنبطة بالقواعد والضوابط الفقهية.

(١) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ٤٩٤. (٢) سير أعلام النبلاء (٩٣/١٠ - ٩٥) بتصرف.

(٣) التجديد في الفكر الإسلامي، ص ٩٥.

٧- التوضيح بالفروق الفقهية. فهذه أهم عناصر المنهج في فقه الإمام الشافعي^(١)، وقد تحدث عنها وشرحها بالتفصيل الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان في كتابه «منهجية الإمام محمد بن إدريس الشافعي في الفقه وأصوله- تأصيل وتحليل».

تاسعاً: هل الإمام الشافعي من المجددين؟

توافرت في الإمام الشافعي مآثر وصفات رفعتة إلى مصاف المجددين، ولعل من أبرزها:

١- دفاعه عن عقيدة النبي ﷺ وأصحابه وحربه للمنحرفين عنها.

٢- تدوينه علم أصول الفقه: ويعد الشافعي أول من صنف في أصول الفقه، وأرسى قواعده بلا اختلاف ولا ارتياب، وذلك في كتابه «الرسالة».

٣- نصرته للسنة: وقد برزت نصرته للسنة في عدة ميادين:

أ- وضعه لقواعد أصول الحديث: يقول أحمد شاكر: وليس كتاب الرسالة أول كتاب ألف في علم أصول الفقه، بل هو أول كتاب في علم أصول الحديث، لأن ما عرض له الشافعي في كتاب الرسالة من بيان لحجية خبر الواحد، وشروط صحة الحديث، وعدالة الرواة، وردّ الخبر المرسل والمنقطع إلى غير ذلك، هو أدق وأعلى ما كتب العلماء في أصول الحديث، بل إن المتفقه في علوم الحديث يعرف أن ما كتب بعده، إنما هو فروع منه وعالة عليه، وأنه جمع ذلك وصنفه على غير مثال سبق^(٢).

ب- تعظيم السنة ورد شبهات المنكرين لحجيتها أو حجية بعضها.

ج- جمعه بين رواية السنة ودرايتها: فقد كان أصحاب الحديث يعنون بالرواية والنقل، أكثر من عنايتهم بالفقه والاستنباط مما جعلهم عاجزين عن المناظرة والمجادلة، وغير قادرين على تزيين طريق أصحاب الرأي، فجاء الإمام الشافعي، فأقام توازناً بين الفقه والحديث، وبين الرواية والدراية، من غير غلو ولا شطط، وأعاد الناس إلى منهج الاعتدال والوسطية؛ لذلك فرح أصحاب الحديث بالشافعي فرحاً شديداً وأثنوا عليه ثناء حاراً، وسموه ناصر السنة^(٣)، وقال إبراهيم الحربي: سألت أبا عبد الله عن الشافعي فقال: حديث صحيح ورأي صحيح^(٤). وقال محمد بن الحسن: إن تكلم أصحاب الحديث يوماً فبلسان الشافعي، يعني لما وضع من كتبه^(٥)، وقال أحمد: ما كان أصحاب الحديث يعرفون معاني

(١) منهجية الإمام محمد بن إدريس الشافعي، ص ٣١.

(٢) تحقیقات کتاب الرسالة للإمام الشافعي، أحد شاكر، ص ١٣.

(٣) سیر أعلام النبلاء (٨/ ٣٩٥).

(٤) التجديد في الفكر الإسلامي، ص ٩٣.

(٥) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٧١).

أحاديث رسول الله ﷺ فيئنها لهم^(١).

د- إنصافه ورجوعه إلى الدليل وعدم تعصبه: فقد قال: إذا صح عندكم الحديث عن رسول الله ﷺ فقولوا به ودعوا قلوي، فإني أقول به وإن لم تسمعوا مني وفي رواية: فلا تقلدوني. وفي رواية: فلا تلتفتوا إلى قلوي. وفي رواية: فاضربوا بقلوي عرض الحائط، فلا قول لي مع رسول الله ﷺ^(٢)، وقال الحميدي: روى الشافعي يوماً حديثاً فقلت: أتاخذ به؟ فقال: رأيته خرجت من كنيسة أو عليّ زنار حتى إذا سمعت عن رسول الله حديثاً لا آخذ به؟!^(٣). وكان يقول لأحمد: يا أبا عبد الله إذا صح عندكم الحديث، فأعلمني به أذهب إليه حجازياً كان أو شامياً، أو عراقياً أو يمينياً^(٤).

هـ - عموم علمه ونفعه أهل الإسلام: ومن خلال ما مضى عن سيرة الإمام الشافعي يتضح لنا أن اختيار نظام الملك لثراث الإمام الشافعي وفقهه في مناهج المدارس النظامية كان صحيحاً، وقد كانت جهود الوزير نظام الملك في نصرة المذهب الشافعي ذات أثر بالغ الأهمية في تثبيت دعائمه في المشرق، وتزامنت هذه الجهود مع وفرة عدد من كبار فقهاء الشافعية المتبحرين من الذين رسخت أقدامهم في العلم، وليس أدل على المكانة المرموقة التي حظي بها الوزير نظام الملك عند علماء الشافعية من تصنيف إمام الحرمين الجويني - وهو من أكابر الشافعية - كتاباً في أحكام الشريعة وجهه لنظام الملك وسماه بالنظامي، ثم تصنيفه لكتاب الغيائي، والمسمى أيضاً غياث الأمم في التياث الظلم، وهو في أحكام السياسة الشرعية كذلك، حيث جعل قسماً كبيراً منه موجهاً للوزير نظام الملك، بعد أن أثنى عليه في مقدمة الكتاب ثناء حسناً ومدحه ببعض أبيات الشعر^(٥).

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٨٠).

(٢)، (٣) البداية والنهاية، نقلاً عن التجديد في الفكر الإسلامي، ص ٩٤.

(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٨٣).

(٥) المدخل إلى مذهب الشافعي، ص ٣٥٦، الغيائي، ص ١٠ - ١٢.

المبحث الثالث

الإمام أبو الحسن الأشعري

أسهم الإمام أبو الحسن الأشعري بترائه وأفكاره التي وضعها في كتبه وبواسطة تلاميذه في نشاط المدارس النظامية التي اعتمدت ما وصل إليه من بحوث في عقائد أهل السنة والردود على المعتزلة والمخالفين لأصول أهل السنة والجماعة.

أولاً: اسمه ونسبه وموطنه ومولده ومكانته العلمية:

١- اسمه ونسبه: هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أمير البصرة بلال بن أبي بردة بن صاحب رسول ﷺ أبي موسى عبد الله بن قيس بن حضار الأشعري اليماني البصري، وكنيته أبو الحسن^(١) فالأشعري من أولاد الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري^(٢).

٢- موطنه ومولده: ولد أبو الحسن الأشعري في البصرة، وبعد خروجه على الاعتزال غادرها وسكن بغداد، ولهذا يقولون عنه: بصري سكن بغداد^(٣)، وأما عن مولده فقد اختلف المؤرخون في تحديد ولادة الأشعري: فابن عساكر يذكر عن أبي بكر الوزان رواية مفادها: أنه وُلد سنة ستين ومائتين ثم يؤكد ابن عساكر صحة هذه الرواية بقوله: لا أعلم لقائل هذا القول في تاريخ مولده مخالفاً^(٤). وأما ابن خلكان فيرى أن مولد الأشعري كان سنة سبعين ومائتين^(٥) ولهذا قال الذهبي رحمه الله: مولده سنة ستين ومائتين، وقيل: بل ولد سنة سبعين^(٦)، والمقرئبي يذكر أن مولده كان سنة ست وستين ومائتين، وقيل سنة سبعين^(٧) ولكن أكثر المصادر التاريخية التي ترجمت للأشعري تذكر أنه ولد سنة ستين ومائة^(٨).

٣- مكانته العلمية وثناء العلماء عليه: كان الأشعري -رحمه الله- من العلماء الذين حملوا لواء العلم في كل ميادينته وصنوفه، ويعد من العلماء الذين جمعوا بين شتى المعارف

(١) سير أعلام النبلاء (١٥/٨٦).

(٢) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه، ص ٢٠.

(٣) تبين كذب المفترى، ص ٣٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٤٦.

(٥) وفيات الأعيان (٣/٣٠٧).

(٦) سير أعلام النبلاء (١٥/٨٥).

(٧) الخطط للمقرئبي (٣/٣٠٧).

(٨) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه، ص ٢١.

والعلوم والفنون^(١). قال الخطيب البغدادي: أبو الحسن الأشعري المتكلم، صاحب التصانيف في الرد على الملاحدة وغيرهم من المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج وسائر أصناف المبتدعة^(٢). وقال الذهبي عنه: العلامة إمام المتكلمين أبو الحسن... وكان عجباً في الذكاء وقوة الفهم، ولما برع في معرفة الاعتزال، كرهه وتبرأ منه، وصعد للناس، فتاب إلى الله تعالى منه، ثم أخذ يرد على المعتزلة ويهتك عوارهم. قال الفقيه أبو بكر الصيرفي: كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى نشأ الأشعري فحجزهم في أقماع السمسم. وعن ابن الأثير قال: أفضل أحوالي أن أفهم كلام الأشعري^(٣)، وذكر الذهبي عنه أيضاً: ولأبي الحسن ذكاء مفرط، وتبحر في العلم، ويقول: رأيت لأبي الحسن أربعة تواليف في الأصول يذكر فيها قواعد مذهب السلف في الصفات وقال فيها: تمر كما جاءت، ثم قال: وبذلك أقول وبه أدين، ولا تؤول^(٤) وقال عنه القاضي عياض: وصنف لأهل السنة التصانيف، وأقام الحجج على إثبات السنة وما نفاه أهل البدع من صفات الله تعالى ورؤيته وقدم كلامه وقدرته، وأمور السمع الواردة من الصراط، والميزان، والشقاعة، والحوض وفتنة القبر التي نفتها المعتزلة، وغير ذلك من مذاهب أهل السنة والحديث، فأقام الحجج الواضحة عليها من الكتاب والسنة والدلائل الواضحة العقلية، ودفع شبه المبتدعة ومن بعدهم من الملحدة والرافضة، وصنف في ذلك التصانيف المبسوطة التي نفع الله بها الأمة^(٥)، وأما ابن عساكر فقد أفرد كتاباً في الدفاع عنه، ومدحه كثيراً، وجعله من المجدين، وذكر الروايات الواردة في مدح قومه وأسرته^(٦) وكذلك السبكي في طبقات الشافعية، وكان مما قال فيه: شيخنا وقودتنا إلى الله تعالى الشيخ أبو الحسن الأشعري البصري شيخ طريقة أهل السنة والجماعة، وإمام المتكلمين، وناصر سنة سيد المرسلين والذاب عن الدين، والساعي في حفظ عقائد المسلمين، سعيًا يبقى أثره إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين، إمام حبر، وتقى برّ، حمى جناب الشرع من الحديث المفتري، وقام في نصرة الإسلام فنصرها نصراً مؤزراً^(٧). وغيرهم من العلماء الذين مدحوه وأثنوا على ما قام به من نصر السنة والرد على المبتدعة من المعتزلة وغيرهم^(٨).

ثانياً: المراحل التي مر بها:

مر أبو الحسن الأشعري بأطوار ثلاثة في حياته الاعتقادية:

- (١) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمتنبيين إليه، ص ٢٢.
- (٢) تاريخ بغداد (٣٤٧/١١).
- (٣) (٤) سير أعلام النبلاء (٨٦/١٥).
- (٤) ترتيب المدارك (٢٤/٥).
- (٥) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٣٣٩/١).
- (٦) طبقات السبكي (٣٤٧/٣).
- (٧) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٣٤٠/١).

الطور الأول: تكاد تجمع كل المصادر التي ترجمت للأشعري على أنه عاش طوره الأول في ظل المعتزلة والاعتزال وأنه بقي فيه ملازماً شيخه وزوج أمه الجبائي حتى بلغ أربعين سنة من عمره^(١).

الطور الثاني: بعد خروجه على المعتزلة، سلك طريق عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري^(٢)، وبدأ يرد على المعتزلة معتمداً على القوانين والقضايا التي قالها عبد الله بن كلاب^(٣)، يقول ابن تيمية رحمه الله: وكان أبو الحسن الأشعري لما رجع عن الاعتزال سلك طريق أبي محمد بن كلاب^(٤)، وهذا الطور يمثل كتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع^(٥) وكان ابن كلاب يرد على المعتزلة والجهمية ومن تبعهم بطريقة يميل فيها إلى مذهب أهل السنة والحديث، ولكن لما كثر جداله معهم وردده عليهم ومناظرته لهم بالطرق القياسية، سلّم لهم أصولاً هم واضعوها، فمن هنا دخلت البدعة في طريقته^(٦)، وكان ابن كلاب قد أحدث مذهباً جديداً، فيه ما يوافق السلف وفيه ما يوافق المعتزلة والجهمية^(٧)، وفي هذا يقول ابن تيمية رحمه الله: كان الناس قبل أبي محمد بن كلاب صنفين: فأهل السنة والجماعة يُثبتون ما يقوم بالله تعالى من الصفات والأفعال التي يشاؤون ويقدر عليها، والجهمية من المعتزلة وغيرهم تنكر هذا وهذا، فأثبت ابن كلاب قيام الصفات اللازمة به، ونفى أن يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال وغيرها^(٨)، ووافقه على ذلك أبو العباس القلانسي وأبو الحسن الأشعري^(٩)، وهذا الأصل الذي أحدثه ابن كلاب دفع الإمام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السلف إلى أن يحذروا منه ومن أتباعه الكلابية^(١٠)، وهذه الطريقة التي أحدثها ابن كلاب البصري لم يسبقه إليها غيره، ووافقه عليها الأشعري وردّ من خلاها على الجهمية والمعتزلة^(١١).

الطور الثالث: مكث الأشعري زمناً على طريقة ابن كلاب يرد على المعتزلة وغيرهم من خلال ما اعتقده في هذه الطريقة ولكن الله تعالى منّ عليه بالحق فنور بصيرته وذلك

(١) شعبة العقيدة بين أبي الحسن والمتسبين إليه، ص ٣٩. (٢) سير أعلام النبلاء (١١/١٧٤).

(٣) شعبة العقيدة بين أبي الحسن والمتسبين إليه، ص ٤٢. (٤) الفتاوى (٣/١٠٣) (٥/٥٥٦).

(٥) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمتسبين إليه، ص ٤٢.

(٦) المصدر نفسه، ص ٤٣. (٧) المصدر نفسه، ص ٤٤.

(٨) الفتاوى (١٣/١٣١ - ١٥٤).

(٩) موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول - على هامش منهاج السنة (٢/٤، ٥).

(١٠) مجموع الفتاوى (١٢/٣٦٨).

(١١) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمتسبين إليه، ص ٤٥.

بالرجوع التام إلى مذهب أهل السنة والجماعة، والتزام طريقتهم، واتباع منهجهم ومسلكتهم، وكان هذا الذي أراد أن يلقي الله تعالى عليه، متبرئاً من المذاهب التي عاشها، وداعياً إلى طريقة السلف ومذهبهم، ومنتسباً إلى الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- وهذا الطور نظراً لأهميته في المجال الاعتقادي فقد أثبتناه له - بعد توفيق الله - بثلاثة وجوه: (١)

الوجه الأول: أقوال العلماء: لقد شهد كثير من العلماء والأئمة برجوع الأشعري الرجوع التام إلى مذهب السلف الصالح، وهؤلاء الأئمة ما قالوا هذه الشهادة إلا بعد أن سبروا حياته وعرفوا ما كان عليه وما استقر عليه، ومن هؤلاء العلماء (٢):

* شيخ الإسلام ابن تيمية (٣).

* تلميذه الحافظ ابن القيم (٤).

* الحافظ ابن كثير، وقد قال رحمه الله: ذكروا للشيخ أبي الحسن الأشعري ثلاثة أحوال:

أولها: حال الاعتزال التي رجع عنها لا محالة.

الحال الثاني: إثبات الصفات العقلية السبع: وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام. وتأويل الخبرة، كالوجه واليد والقدم والساق ونحو ذلك.

الحال الثالث: إثبات ذلك كله من غير تكييف ولا تشبيه جرياً على منوال السلف، وهي طريقتهم في الإبانة التي صنفها آخر (٥).

* الشيخ نعمان الآلوسي (٦).

* الشيخ أبو المعالي محمود الآلوسي (٧).

* العلامة محب الدين الخطيب. وقال رحمه الله في بيان أطوار الأشعري ورجوعه التام إلى مذهب السلف: أبو الحسن الأشعري علي بن إسماعيل من كبار أئمة الكلام في الإسلام، نشأ أول أمره على الاعتزال، وتعلم فيه على الجبائي. ثم أيقظ الله بصيرته وهو في منتصف عمره وبداية نضجه، فأعلن رجوعه عن ضلالة الاعتزال، ومضى في هذا الطور نشيطاً يؤلف وينظر ويُلقي الدروس في الرد على المعتزلة، سالكاً طريقاً وسطاً بين طريقة الجدل والتأويل، وطريقة السلف، ثم محض طريقتهم وأخلصها لله بالرجوع الكامل إلى طريقة السلف في إثبات

(١، ٢) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمتسبين إليه، ص ٤٧.

(٣) الفتاوى (٥٣/٦). (٤) اجتماع الجيوش الإسلامية، ص ١١٢.

(٥) إتحاف السادة الثقلين للمرتضى الزبيدي، ص ٤٨. (٦) جلاء العينين، ص ٢١٣.

(٧) غاية الأمان في الرد على النبهاني (٤٠٨/٢).

كل ما ثبت بالنص من أمور الغيب التي أوجب الله على عباده إخلاص الإيمان بها. وكتب بذلك كتبه الأخيرة ومنها في أيدي الناس كتاب «الإبانة» وقد نص مترجموه على أنه آخر كتبه، وهذا ما أراد أن يلقي الله عليه، وكل ما خالف ذلك مما يُسبب إليه، أو صارت تقول به الأشعرية، فإن الأشعري رجع عنه إلى ما في كتاب الإبانة وأمثاله^(١).

الوجه الثاني: التقاؤه بالحافظ زكريا الساجي: بعد خروجه من الاعتزال والتخلص من طريقة ابن كلاب لجأ إلى الأئمة من أهل الحديث ممن عُرفوا بسلامة عقيدتهم وصفاء منهجهم ليأخذ منهم مقالة السلف وأصحاب الحديث، ومن أشهرهم الحافظ الثبت محدث البصرة زكريا الساجي^(٢)، يقول ابن تيمية عن الأشعري: وأخذ عن زكريا الساجي أصول الحديث بالبصرة، ثم لما قدم بغداد أخذ عن حنبلية بغداد أموراً أخرى، وذلك آخر أمره، كما ذكره هو وأصحابه في كتبهم^(٣)، وقال الذهبي عندما ترجم للحافظ الساجي: وعنه أخذ أبو الحسن الأشعري الأصولي تحرير مقالة أهل الحديث والسلف^(٤)، وقال في مكان آخر عن الساجي: أخذ عنه أبو الحسن الأشعري مقالة السلف في الصفات واعتمد عليها أبو الحسن في عدة تأليف^(٥)، ومن الذين أثبتوا للأشعري هذا اللقاء مع المحدث الحافظ زكريا الساجي، وجعلوه نقطة تحول كبيرة عند الأشعري^(٦)؛ الإمامان: ابن القيم^(٧) وابن كثير^(٨)، وغيرهما^(٩).

الوجه الثالث: تأليفه كتاب الإبانة وإثباته له. إن آخر الكتب التي ألفها الأشعري رحمه الله هو كتاب الإبانة، وقد ذكر في هذا الكتاب انتسابه للإمام أحمد رحمه الله، والتزامه بعقيدة السلف الصالح، واتباع أئمة الحديث، وذكر بعد هذا عقيدة السلف الصالح في أمور الدين، ولقد أثبت هذا الكتاب للأشعري جمع كثير من الأئمة، من المتقدمين والمتأخرين^(١٠)، وأقرب العلماء زمناً بزمن الأشعري هو ابن النديم (ت ٣٨٥هـ) فقد ذكر في كتابه «الفهرست» ترجمة للأشعري وذكر جملة من كتبه التي ألفها، ومنها كتاب «التيبين عن أصول الدين» وجاء بعده ابن عساكر وانتصر للأشعري، وأثبت له كتاب «الإبانة» ونقل منه كثيراً

(١) انظر المتقى للذهبي، تعليق محب الدين رقم ٣، ص ٤١.

(٢) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمتسبين إليه، ص ٤٩.

(٣) الفتاوى (٢٨٨/٣).

(٤) تذكرة الحافظ الذهبي (٧٠٩/٢).

(٥) سير أعلام النبلاء (١٩٨/١٤).

(٦) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمتسبين إليه، ص ٥٠.

(٧) اجتماع الجيوش الإسلامية، ص ٩٧.

(٨) البداية والنهاية (١٣١/١١).

(٩) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمتسبين إليه، ص ٥٠.

(١٠) كتب الشيخ حماد الأنصاري رسالة أثبت فيها رجوع الأشعري إلى مذهب السلف.

في كتابه التبيين «للإشادة بحسن عقيدة الأشعري» قال ابن عساكر عن الأشعري: وتضافه بين أهل العلم مشهورة معروفة، بالإجادة والإصابة للتحقيق عند المحققين موصوفة، ومن وقف على كتابه المسمى «الإبانة»، عرف موضوعه من العلم والديانة^(١). ثم جاء ابن ورياس (ت ٦٥٩هـ)، وألف كتاباً في الذب عن الأشعري وأثبت له كتاب الإبانة. وقال: أما بعد.. فاعلموا معشر الإخوان وفقنا الله وإياكم للدين القويم وهدانا جميعاً للصراط المستقيم بأن كتاب «الإبانة عن أصول الديانة» الذي ألفه الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، هو الذي استقر عليه أمره فيما كان يعتقد، وبما كان يدين الله سبحانه وتعالى بعد رجوعه عن الاعتزال لمن الله ولطفه، وكل مقالة تنسب إليه الآن مما يخالف ما فيه، فقد رجع عنها، وتبرأ إلى الله سبحانه منها، كيف وقد نصّ فيه على أنه ديانتها التي يدين الله سبحانه بها. وروى وأثبت ديانة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث الماضين، وقول أحمد بن حنبل رضي الله عنهم أجمعين: وأنه ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله، فهل يسوغ أن يُقال: إنه رجع إلى غيره؟ فإلي ماذا يرجع تراه، يرجع عن كتاب الله وسنة نبي الله، خلاف ما كان عليه الصحابة والتابعون، وأئمة الحديث الماضون، وقد علم أنه مذهبهم ورواه عنهم. هذا لعمرى ما لا يليق نسبته إلى عوام المسلمين كيف بأئمة الدين؟! وقد ذكر هذا الكتاب، واعتمد عليه وأثبتته عن الإمام أبي الحسن رحمه الله وأثنى عليه بما ذكره فيه، وبرأه من كل بدعة نسبت إليه، ونقل منه إلى تصنيفه جماعة من الأئمة الأعلام من فقهاء الإسلام، وأئمة القراء وحفاظ الحديث وغيرهم^(٢) ثم ذكر - رحمه الله - جماعة من هؤلاء الأئمة الذين أثبتوا كتاب «الإبانة» للأشعري ومنهم:

- إمام القراء أبو علي الحسن بن علي بن إبراهيم الفاسي (ت ٤٤٦هـ).

- الحافظ أبو عثمان الصابوني (ت ٤٤٩هـ).

- الفقيه الحافظ أبو بكر البيهقي (ت ٤٥٨هـ).

- الإمام الفقيه أبو الفتح نصر المقدسي (ت ٤٩٠هـ).

- الفقيه أبو المعالي مجلي صاحب كتاب الذخائر في الفقه (ت ٥٥٠هـ)^(٣).

وهناك جمع كثير من العلماء ممن أثبت كتاب «الإبانة» للأشعري، غير الذين ذكرهم ابن ورياس ومنهم.

(١) تبيين كذب المفتري، ص ٢٨.

(٢) رسالة الذب عن أبي الحسن الأشعري لابن ورياس، ص ١٠٧.

(٣) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمتسبين إليه، ص ٥٢.

- الإمام ابن تيمية رحمه الله (ت ٧٢٨هـ).
- الحافظ الذهبي (ت ٧٤٨هـ) وقال: وكتاب الإبانة من أشهر تصانيف أبي الحسن، شهره الحافظ ابن عساكر واعتمد عليه ونسخه بخط الإمام محي الدين النووي^(١).
- الإمام ابن القيم (ت ٥٧١هـ).
- الحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ).
- العلامة ابن فرحون المالكي (ت ٧٩٩هـ)^(٢). وهناك جمع كثير لا يُحصى عددهم من العلماء والأئمة الذين أثبتوا كتاب الإبانة للأشعري وأنه آخر ما صنف^(٣).
- وقد ذكر المؤرخون مجموعة من الأسباب في سبب رجوع أبي الحسن إلى مذهب أهل السنة وترك الاعتزال، وأهمها رحمة الله به وهدايته له.

ثالثاً: سرّ عظمة الأشعري في التاريخ:

نهض أبو الحسن الأشعري بعد هذا التحول العظيم، يدعو إلى عقيدة أهل السنة، ويدافع عنها في حماسة وإيمان، ويرد على المعتزلة ويتبّعهم في مجالسهم ومراكزهم يحاول إقناعهم بما اقتنع به أخيراً من عقائد أهل السنة، ومذاهب السلف، وكان نشاطه في ذلك أعظم من نشاطه في السابق، وكان يقصدهم بنفسه يناظرهم، فكلم في ذلك وقيل له: كيف تُخالط أهل البدع وتقصّدهم بنفسك وقد أمرت بهجرهم؟ فقال: هم أولو رئاسة، منهم الوالي والقاضي، ولرياستهم لا ينزلون إليّ، فإذا كانوا هم لا ينزلون إليّ، ولا أسير أنا إليهم، فكيف يظهر الحق، ويعلمون أن لأهل السنة ناصراً بالحجة^(٤)؟ وهذه الجهود العظيمة والمثابرة الصابرة في مناصرة مذهب أهل السنة تستحق الثناء والتقدير.

وكان أبو الحسن الأشعري مستواه العقلي أعلى من مستوى معاصريه وأقرانه، وكان صاحب نبوغ وابتكار في العقلية، وكان يرد على حُجج المعتزلة وعقائدهم في سهولة وينقّضها بمقدرة وثقة، كما يرد الأستاذ الكبير على شبه تلاميذه، ويحل مشاكلهم، وقد كان أبو الحسن الأشعري إماماً مجتهداً في علم الكلام، وأحد مؤسسيه، وقد خضع كل من جاء بعده من المتكلمين لعبقريته، وعمق كلامه، ودقة نظره وإصابة فكره^(٥).

(١) مختصر العلو، ص ٢٣٩.

(٢) الديباج المذهب، ص ١٩٥.

(٣) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمتيسين إليه، ص ٥٣.

(٤) تبين كذب المفترى، ص ١١٦.

(٥) رجال الفكر والدعوة في الإسلام (١/١٤٣، ١٤٤).

١- أبو الحسن الأشعري يشرح عقيدته التي يدين بها: فيقول: وقولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب ربنا عز وجل، وبسنة نبينا عليه السلام، وما رُوي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتمدون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل - نضر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته - قائلون، ولما خالف قوله مخالفون؛ لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق، ورفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيع الزائغين، وشكَّ الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مُقدَّم، وخليل معظم مضخم. ولم تقتصر خدمة الأشعري على تأييد عقائد أهل السنة والسلف تأييداً إجمالياً، فقد كان الحنابلة والمحدثون قائلين به غير مقصّرين فيه، إن عبقريته تتجلى في أنه أقام البراهين والدلائل العقلية والكلامية على هذه العقائد، وناقش المعتزلة والمتفلسفة عقيدة عقيدة، وذلك كله في لغة يفهمونها، وأسلوب يالفونه ويُجلّونه، وبذلك أثبت أن هذا الدين وعقيدته الواضحة مؤيدان بالعقل، وأن العقل الصحيح يؤيد الدين الصريح، ولا صراع بينهما^(١) ولا تناقض.

٢- مصدر العقيدة عن أبي الحسن الأشعري: كان الأشعري مؤمناً بأن مصدر العقيدة والمسائل التي تتصل بالإلهيات وما وراء الطبيعة هو الكتاب والسنة وما جاء به الأنبياء، وليس العقل المجرد والمقياس والميتافيزيقا اليونانية، ولكنه لم يكن يرى السكوت والإعراض عن المباحث التي حدثت بتطورات الزمان، واختلاط هذه الأمة بالأمم والديانات والفلسفات الأجنبية، حتى تكونت على أساسها فرق ونحل، وكان يرى أن السكوت عن هذه المباحث يضر بالإسلام، ويُفقد مهابة السنة ويحمل على ذلك ضعف السنة العلمي والعقلي، وعجز علماء الدين ومثليه عن مواجهة هذه التيارات ومقاومة هذه الهجمات، ويهتبله أهل الفرق الضالة، فينفذون في أهل السنة والعقيدة الصحيحة، فينفثون سموهم فيهم، ويزرعون الشكوك، ويستميلون شبابهم الذكي المثقف إلى أنفسهم، وكان الأشعري مؤمناً بأن مصدر العقيدة هو الوحي والنبوة المحمدية، والطريق إلى معرفته هو الكتاب والسنة وما ثبت عن الصحابة رضي الله عنهم، وهذا مُفترق الطريق بينه وبين المعتزلة، فإنه يتجه في ذلك اتجاهاً معارضاً لاتجاه المعتزلة، ولكنه رغم ذلك يعتقد مخلصاً أن الدفاع عن هذه العقيدة السليمة، وغرسها في قلب الجيل الإسلامي الجديد، يحتاج إلى الحديث بلغة العصر العلمية السائدة، واستعمال المصطلحات العلمية، ومناقشة المعارضين بأسلوبهم العقلي، ولم يكن يسوغ ذلك، بل يعدّه أفضل الجهاد وأعظم القربات في ذلك العصر، وهذا مفترق الطرق بينه

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ص ٥.

وبين - بعض - من الحنابلة والمحدثين الذين كانوا يتأثمون ويخرجون من النزول إلى هذا المستوى^(١).

٣- العلاقة بين العقلية والحسيات والعقيدة والديانات: كان يعتقد أن المباحث التي تتصل بالعقلية والحسيات لا صلة لها في الحقيقة بالعقيدة والديانات، ولكن المعتزلة والفلاسفة مزجوا البحث فيها بالبحث في العقيدة، بل جعلوها بذلاقة لسانهم وذكائهم مقدمات للبحث في الدين، بل فارقاً بين الحق والباطل، وكان الأشعري يعتقد أن الفرار من البحث فيها، بحجة أنها لا تتصل بالدين والعقيدة لا يصح، بل بالعكس من ذلك، يجب على من قام لنصرة السنة أن يواجههم فيها ويثبت مذهب أهل الحق، وكان يعتقد أن النبي ﷺ وأصحابه لم يسكتوا عن هذه المسائل جهلاً، بل لأن هذه المسائل ما نشأت في عصرهم، ولم تمس الحاجة إلى البحث فيها شأن الفقه والجزئيات الكثيرة التي حدثت بعد عصرهم فتأمل فيها الفقهاء والمجتهدون، وأبدوا رأيهم فيها، واستنبطوا وفرعوا وحلوا المشكلات الجديدة، وبذلك عصموا الأمة والجيل الجديد عن الإلحاد والفوضى في العمل والتعطل، كذلك يجب على حراس الشريعة، ومتكلمي أهل السنة، أن يواجهوا الأسئلة الجديدة التي أثارها المعتزلة والمتفلسفة في موضوع الإلهيات، ويُجيبوا عن الاعتراضات والمطاعن التي يوجهونها إلى أهل السنة ومطابقتها للعقل والمنطق، وقد ألف في هذا الموضوع رسالة أسماها: استحسان الخوض في الكلام، وقد سار الأشعري في طريقه مجاهداً، ومناضلاً، متجاً، معرضاً عن سخط - المعارضين - لا يعاب بما يقال فيه مؤمناً بأنه هو الذي ينفع الدين في عصره ويرد إلى الشريعة الإسلامية مهابتها وكرامتها ويحرس للناشئة دينها وعقيدتها، حتى استطاع بعمله المتواصل، وشخصيته القوية وعقله الكبير، وإخلاصه النادر، أن يرد سبيل الاعتزال والتفلسف الجارف الذي كان يتهدد الدين، ويثبت كثيراً من الذين تزلزلت أقدامهم، واضطربت عقولهم وعقيدتهم، وأن يوجد في أهل السنة ثقة جديدة بعقيدتهم، ونشاطاً جديداً في دعوتهم، وزالت سطوة المعتزلة على العقول والأفكار، واشتغلوا بالدفاع عن الهجوم، وتعرضت حركة الاعتزال ودعوتها للخطر، وقد خمدوا وانطفأوا بمعارضة إمام كبير، كآبي الحسن الأشعري^(٢).

٤- اجتماع أهل السنة على المعتزلة وأهل البدع: دخل أهل السنة والجماعة في صراع جدلي عنيف في القرنين الثاني والثالث مع المخالفين الذين شذوا عن منهج الحق، وقد اشتهر أهل السنة آنذاك بالانتساب إلى الحديث النبوي، فكانوا يسمون «أهل الحديث»، ولما

(١) رجال الفكر والدعوة (١/١٤٩).

(٢) رجال الفكر والدعوة (١/١٤٨).

برز الإمام أحمد بن حنبل في الدفاع عن السنة تُسبب أهل السنة إليه فكانوا يسمّون «الحنابلة»، وقد ظلت المعارك الجدلية قائمة بين علماء السنة ومخالفهم من المعتزلة والجهمية وتقوى علماء السنة بانضمام أبي الحسن الأشعري، إليهم وكان دفاعه عن الكتاب والسنة ورده القوي على المعتزلة والجهمية سبباً في مكانته المرموقة عند أهل الحديث وقد سُمي أتباع أبي الحسن الأشعري بالأشاعرة وظل الوثام بين أهل الحديث وبين الأشاعرة، وأصبحوا جميعاً ضد المعتزلة ونحوهم^(١) وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية: والأشعرية فيما يشبّونه من السنة فرع على الحنبلية، كما أن متكلمة الحنبلية فيما يحتجون من القياس العقلي فرع عليهم، وإنما وقعت الفرقة بسبب فتنة القشيري^(٢)، وكان من أكبر المنظرين لطريقة أبي الحسن الأشعري فيمن بعده أبو بكر الباقلاني، الإمام العلامة، وأحد المتكلمين، مقدم الأصوليين، القاضي أبو بكر، محمد بن الطيب الباقلاني، صاحب التصانيف، وكان يضرب المثل بفهمه وذكائه^(٣)، وكان ثقة إماماً بارعاً، صنّف في الرد على الرافضة والمعتزلة والخوارج والجهمية والكرامية وانتصر لطريقة أبي الحسن الأشعري، وقد يخالفه في مضائق فإنه من نظرائه، وقد أخذ علم النظر عن أصحابه^(٤)، وقد ذكره القاضي عياض في طبقات المالكية، فقال: هو الملقب بسيف السنة، ولسان الأمة، المتكلم على لسان أهل الحديث، وطريق أبي الحسن، وإليه انتهت رئاسة المالكية في وقته، وكان له بجامع البصرة حلقة عظيمة^(٥)، وقد سار القاضي رسولاً عن أمير المؤمنين إلى طاغية الروم، وجرت له أمور، منها أن الملك أدخله عليه من باب خوخة ليدخل راعماً للملك ففطن لها القاضي ودخل بظهره^(٦)، ومنها أنه قال لراهبهم: كيف الأهل والأولاد؟ فقال الملك: مه، أما علمت أنّ الراهب يتنزّه عن هذا؟ فقال: تُنزّهونه عن هذا، ولا تُنزّهون ربّ العالمين عن الصاحبة والولد؟!^(٧)، وقيل: إنّ الطاغية سأله: كيف جرى لزوجتي نبيكم - يقصد توبيخاً - فقال: كما جرى لمريم بنت عمران، وبرأهما الله، لكنّ عائشة لم تأت بولد، فأفحمه^(٨)، وكان الحافظ الدارقطني يحترمه ويقدره، فعن أبي ذر الهروي قال: إني كنت ماشياً ببغداد مع الحافظ الدارقطني، فلقينا أبا بكر بن الطيب فالتزمه الشيخ أبو الحسن وقبّل وجهه وعينيه، فلما فارقناه، قلت له: من هذا الذي صنعت به ما لم اعتقد أنّك تصنعه وأنت إمام وقتك؟ فقال: هذا إمام المسلمين، والدّأب عن الدّين، هذا القاضي أبو بكر محمد بن الطيب^(٩). قال الذهبي: هو الذي كان ببغداد يناظر عن السنة

(١) الرسائل الشمولية، د. عبد العزيز الحميدي، ص ٦٤.

(٢) مجموع الفتاوى (٥٣/٦)، والقشيري هو أبو نصر عبد الرحيم.

(٣)، (٤) سير أعلام النبلاء (١٧/١٩٠).

(٥)، (٦) المصدر نفسه (١٧/١٩١).

(٧)، (٨)، (٩) المصدر نفسه (١٧/١٩٢).

وطريقة الحديث بالجدل والبرهان وبالخضرة رءوس المعتزلة والرافضة والقدرية والوان البدع، ولهم دولة وظهور بالدولة البويهية، وكان يردُّ على الكرامية، وينصر الحنابلة عليهم، وبينه وبين أهل الحديث عامرٌ، وإن كانوا قد يختلفون في مسائل دقيقة فلهذا عامله الدارقطني بالاحترام، وقد ألف كتاباً سمَّاهُ الإبانة، يقول فيه: **فإن قيل: فما الدليل على أن الله وجهاً ويدياً؟** قال: قوله **﴿وَيَقَى وَجْهَ رَبِّكَ﴾** [الرحمن: ٢٧] وقوله: **﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾** [ص: ٧٥] فأثبت تعالى لنفسه وجهاً ويدياً. إلى أن قال: **فإن قيل: فهل تقولون: إنَّه في كل مكان؟** قيل: معاذ الله، بل هو مستور على عرشه كما أخبر في كتابه. إلى أن قال: وصفاته ذاته التي لم يزل ولا يزال موصوفاً بها: الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والإرادة والوجه واليدان والعينان والغضب والرضا. فهذا نصُّ كلامه^(١). وقال نحوه في كتاب «التمهيد» له، وفي كتاب «الدَّبَّ عن الأشعري». وقال: قد بيَّنا دين الأمة وأهل السنة أن هذه الصفات تمر كما جاءت بغير تكييف ولا تحديد ولا تجنيس ولا تصوير^(٢). قال الذهبي: فهذا المنهج هو طريقة السلف، وهو الذي أوضحه أبو الحسن وأصحابه، وهو التسليم لنصوص الكتاب والسنة، وبه قال ابن الباقلاني وابن فورك، والكبار إلى زمن أبي المعالي، ثم زمن الشيخ أبي حامد - يقصد الغزالي - فوقع اختلاف وألوان نسأل الله العفو^(٣).

ومن الدروس المستفادة معاملة الدارقطني للباقلاني، وأهمية وجود الأذكياء المناظرين لمنهج أهل السنة المستوعبين لشبهات وحجج المخالفين والذين يملكون القدرات الكافية عقلاً وفصاحة وتأليفاً وعلماً والنية الصادقة للدفاع عن دين الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ولا يخلو عصر من أهل الضلال، ولا بد من وجود أهل الحق المدافعين عن عقيدة الأمة، ولا بد من إعطاء من يقوم بهذا الدور قدره من الاحترام والتقدير والمحبة والنصرة لكونهم على ثغر كبير يحتاج من يسده. وقد مات الإمام أبو بكر الباقلاني عام ٤٠٣ هـ وصلى عليه ابنه حسن وكانت جنازته مشهودة وكان سيفاً على المعتزلة والرافضة والمشبهة وغالب قواعده على السنة، وقد أمر شيخ الحنابلة أبو الفضل التيميُّ منادياً يقول بين يدي جنازته: هذا ناصر السنة والدين والذاب عن الشريعة^(٤).

٥- اتجاهات أهل السنة في بداية القرن الرابع: بعد ظهور أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي في بداية القرن الرابع صار أهل السنة على اتجاهين، الأول: التمسك بظاهر النصوص الشرعية وذلك في إثبات معاني الصفات مع تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين، وقد سُمي هؤلاء أهل الحديث ثم غلبت عليهم التسمية بالحنابلة.

(٤) المصدر نفسه (١٧/١٩٣).

(١)، (٢)، (٣) سير أعلام النبلاء (١٧/٥٥٩).

والثاني: التمسك بظاهر النصوص في بعض الصفات مع تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين وتأويل بعضها الآخر لأنه في نظرهم يوهم التشبيه، وقد اشتهر بهذا المذهب الأشاعرة والماتريدية، وكان هؤلاء مقبولين عند أهل الحديث من بداية القرن الرابع إلى ما بعد منتصف القرن الخامس، لدفاعهم عن السنة ووقوفهم القوي ضد الجهمية والمعتزلة، ولم يتجاوز الخلاف بينهم حدود الحوار العلمي مع التورع عن الاتهام في العقيدة والحكم بالضللال أو البدعة، وإنما كانوا يعتمدون على مبدأ الحكم بالخطأ على المخالف إذا كان من أهل الاجتهاد، إلى أن ظهر ابن القشيري وكان متعصباً لمذهبه إلى حد الغلو والتشدد، فحول الخلاف الدائر بين طائفتين من أهل السنة إلى شقاق ونزاع^(١)، ولخص ابن رجب هذه الفتنة بعد أن ذكر ما قام به الحنابلة من إنكار المنكرات عام أربعة وستين وأربعمائة: ومضمون ذلك أن أبا نصر القشيري ورد بغداد سنة تسع وستين وأربعمائة، وجلس في النظامية، وأخذ يذم الحنابلة وينسبهم إلى التجسيم، وكان المتعصب له أبو سعد الصوفي، ومال إلى نصره أبو إسحاق الشيرازي، وكتب إلى نظام الملك الوزير يشكو الحنابلة ويسأله المعونة، فاتفق جماعة من أتباعه على الهجوم على الشريف أبي جعفر في مسجده، والإيقاع به، فرتب الشريف جماعة أعدهم لرد الخصومة إن وقعت، فلما وصل أولئك إلى باب المسجد رماهم هؤلاء بالأجر، فوقعت الفتنة، وقتل من أولئك رجل من العامة وجرح آخرون وأخذت ثياب، وأغلق أتباع ابن القشيري أبواب سوق مدرسة النظام وصاحوا: المستنصر بالله يا منصور - يعنون العبيدي الفاطمي صاحب مصر - وقصدوا بذلك التشنيع على الخليفة العباسي وأنه ممالئ للحنابلة، ولاسيما والشريف أبو جعفر ابن عمه^(٢)... إلخ وللأسف أن يصل بهؤلاء الخلاف إلى حد إظهار الاستعانة بالباطني على الخليفة الشرعي. ومن ذلك الوقت كان الصراع العنيف يظهر على فترات من التاريخ وأصبح الحكم على المخالفين يتسم بالاتهام بالضللال والبدعة وبالكفر أحياناً، وفي العصر الحديث بلغ الصراع العقدي أشده بين بعض علماء الطرفين وتبادل بعضهم الاتهامات بالضللال والبدعة، خصوصاً من طلاب العلم، والمنهج الحق أن تتسع صدور الفريقين للنقد الهادف وأن تكون هناك حوارات علمية تقوم على اعتبار قواعد الأخوة الإسلامية والأدب العلمي، مع استبعاد قضية البراءة من المخالفين ووصفهم بالابتداع والضللال فضلاً عن الفسق والكفر^(٣).

٦- ميادين الصراع الفكري في العصر الحديث: إن هذا الصراع الفكري بين علماء

(١) الرسائل الشمولية، ص ٦٧.

(٢) ذيل طبقة الحنابلة (١٩/١ - ٢١)، الرسائل الشمولية، ص ٦٥.

(٣) الرسائل الشمولية، ص ٦٧.

المسلمين قد شغلهم عن ميادين المعركة الحقيقية مع المخالفين من الأعداء أو المتسبين للإسلام، وإن من أهم علامات نجاح الداعية أن يدرس واقع الجاهلية المعاصرة له بتمعن وتعمق مع فهم واقع المسلمين الفكري والسلوكي، ثم يركز دعوته على محاربة المخالفات السائدة في عصره، فهذا يجاهد في ميدانه الحقيقي الحيوي^(١). هذا، ومن أبرز الأمثلة على النجاح في هذا المجال دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فإنه قد نجح نجاحاً باهراً، حيث قام بتشخيص المخالفات المعاصرة له، فقام بالرد على المخالفين بعلم راسخ وهدوء وروية أحياناً، وبشدة أحياناً أخرى حينما يقتضي المقام ذلك، فاستطاع أن يشد طلاب العلم إلى الكتاب والسنة، وأن يقلص من الآثار الفكرية البعيدة عن هذا المنهج، ولكن ليس من الحكمة ولا من الدعوة أن نعيد المعارك العلمية التي خاضها ابن تيمية في هذا العصر، لأن لكل عصر مخالفات متميزة وصوراً للجاهلية تختص به، كذلك فإن من أبرز أمثلة هذا النجاح دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فإنه قد نجح في دعوته نجاحاً كبيراً، فهو قد قرأ كتب ابن تيمية واستفاد منها، ولكنه لم يسر على منهاجه، وإنما قام بتشخيص المخالفات المعاصرة له، ثم قام بتركيز دعوته على تصحيح المفاهيم الإسلامية حول تلك المظاهر، فنجد مثلاً في كتابه المتميز الذي يعتبر أهم كتبه وهو كتاب «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» يركز في جُلِّ أبوابه على تصحيح المفاهيم حول توحيد الألوهية، وذلك بعد دراسة المخالفات في عصره وعلاجها في ضوء الكتاب والسنة، بينما لم يعقد للحكم بما أنزل الله إلا باباً واحداً، وذلك لأن المحيط الذي يعيش فيه لا يحتاج إلى ذلك، حيث إن الأحكام تقوم على المحاكم الشرعية، كما أننا نجد أنه لم يعقد للأسماء والصفات إلا باباً واحداً، لأن المخالفات السائدة في محيطه ليست في هذا المجال، فكان ذلك من أسباب نجاحه في تصحيح المفاهيم السائدة في مجتمعه وإقامة دولة إسلامية كبيرة^(٢)، ولو أنه طبق منهج ابن تيمية بالكامل فشغل نفسه بالردود على المخالفين من أصحاب المناهج العقلية والباطنية وغلاة الصوفية ونحوهم لوافاه الأجل ولم يصنع شيئاً سوى إضافة كتب حول هذه الموضوعات إلى المكتبة الإسلامية^(٣)، وقد تغيرت الأوضاع في عصرنا الحاضر، فظهرت صور للجاهلية لم توجد من قبل كالمازج الفكري المنبثقة من الشيوعية والحضارة الغربية وتضخم وجود بعض الصور التي كانت ضئيلة في الماضي كالحكم بغير ما أنزل الله تعالى، وتوجيه السياسة على غير منهج الإسلام، وحصر مفاهيم الإسلام في نطاق ضيق، وتضاءلت في بعض البلاد صور انحرافات كانت كبيرة في العصور الماضية، كعبادة الأموات والأشجار والأحجار، فليس المطلوب من

(١) الرسائل الشمولية، ص ٦٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٩.

الدعاة أن يركزوا على دراسة صور من الجاهليات القديمة، ولا أن يعيدوا دراسة المباحث الكلامية في مجالات النقد والردود على المخالفين بالمنهج نفسه الذي سار عليه المصلحون السابقون، وإنما لكل عصر دولة ورجال، والبراعة كل البراعة في دراسة الأوضاع المعاصرة دراسة دقيقة عميقة، ثم تسليط الأضواء عليها من خلال الكتاب والسنة، مع الاستفادة من اجتهادات أعلام الدعوة السابقين في دراستهم أوضاع مجتمعاتهم والقيام بالدعوة في تصحيح المفاهيم الخاطئة وتوجيه الأمة على هدى الإسلام الحنيف^(١).

٧- بعض مؤلفات أبي الحسن الأشعري: لم يقتصر أبو الحسن الأشعري على المناظرة والمعارضة، بل خلف مكتبة كثيرة من مؤلفاته في الدفاع عن السنة، وشرح العقيدة الحسنة، وقد ألف تفسيراً للقرآن، أقل ما قيل في أجزائه إنه في ثلاثين مجلداً، وقد ذكر بعض المؤلفين أن مؤلفاته تبلغ ثلاثمائة مؤلف^(٢)، أكثرها في الرد على المعتزلة، وبعضها في الرد على مذاهب و فرق أخرى، ومنها كتاب «الفصول» الذي رد فيه على الفلاسفة والطبيعيين، والدهرية، والبراهمة، واليهود، والنصارى، والمجوس، وهو كتاب كبير يحتوي على اثني عشر كتاباً، وقد ذكر ابن خلكان من مؤلفاته كتاب «اللمع» و«إيضاح البرهان» و«التبيين عن أصول الدين» و«الشرح والتفصيل في الرد على أهل الإفك والتضليل». وله - عدا العلوم العقلية والكلام - مؤلفات في علوم الشريعة منها: «كتاب القياس»، و«كتاب الاجتهاد»، و«خبر الواحد» وكتاب في الرد على ابن الراوندي في إنكاره للتواتر، وقد ذكر في كتابه «العمد» مؤلفاته التي فرغ منها سنة ٣٢٠هـ، يعنى قبل وفاته بأربع سنوات، وهي ثمانية وستون مؤلفاً، وكثير منها يقع في عشرة مجلدات أو أكثر، وقد ألف في آخر حياته كتباً كثيرة، ويدل كتابه «مقالات الإسلاميين» على أنه لم يكن متكلماً، فحسب، بل كان مؤرخاً أميناً لعلم العقائد، وقد اعترف بدقته وأمانته وتحريه للصدق في النقل المستشرقون^(٣)، وكتب الفرق والديانات تدل على أمانته ودقته في النقل^(٤).

٨- اجتهاده في العبادة: لم يكن أبو الحسن الأشعري رجل علم وعقل وبحث ونظر فحسب، بل كان - مع وصوله إلى درجة الإمامة والاجتهاد في العلم والعقل - مجتهداً في العبادات متحلياً بالأخلاق الفاضلة، وذلك ما يمتاز به العلماء الأقدمون؛ فإن اشتغالهم بالعلم لم يكن مانعاً عن الاجتهاد في العبادات والحرص على الطاعات، وكانوا يجمعون بين الدراسة والإفادة والعبادة والزهادة. قال أحمد بن علي الفقيه: خدمت الإمام أبا الحسن

(١) الرسائل الشمولية، ص ٧٠.

(٣)، (٤) رجال الفكر والدعوة (١/ ١٥٠).

(٢) تبين كذب المفترى، ص ١٣٦.

بالبصرة سنين، وعاشرته ببغداد إلى أن توفي -رحمه الله- فلم أجد أروع منه، وأغض طرفاً، ولم أر شيخاً أكثر حياءً منه في أمور الدنيا، ولا أنشط منه في أمور الآخرة^(١) ويحكى أبو الحسين السروي من عبادته في الليل واشتغاله، ما يدل على حرصه وقوته في العبادة^(٢)، قال ابن خلكان: وكان يأكل من غلة ضيعة وقفها بلال بن أبي بردة بن أبي موسى على عقبه، وكانت نفقته في كل يوم سبعة عشر درهماً، هكذا قاله الخطيب^(٣).

رابعاً: عقيدة أبي الحسن الأشعري التي مات عليها:

قال أبو الحسن الأشعري: هذه حكاية جملة ما عليه أهل الحديث والسنة:

- ١- الإقرار بالله وملائكته ورسله وأن محمداً عبده ورسوله.
- ٢- وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور.
- ٣- وأن الله سبحانه وتعالى على عرشه كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥].
- ٤- وأن له يدين بلا كيف كما قال: ﴿خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ [طه: ٧٥].
- ٥- وأن له عينين بلا كيف كما قال: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤].
- ٦- وأن له وجهاً كما قال: ﴿وَيَقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].
- ٧- وأن أسماء الله لا يقال إنها غير الله كما قالت المعتزلة والخوارج.
- ٨- وأقروا أن لله سبحانه علماً كما قال: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦] وقال: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١].
- ٩- وأثبتوا السمع والبصر ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفته المعتزلة.
- ١٠- وأثبتوا لله القوة كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].
- ١١- وقالوا: إنه لا يكون في الأرض من خير ولا شر إلا ما شاء الله.
- ١٢- وأن الأشياء تكون بمشيئة الله، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩]. وكما قال المسلمون: ما شاء الله كان وما لا يشاء لا يكون.
- ١٣- وقالوا: إن أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله أو يفعل شيئاً علم الله أنه لا يفعله.

(٢) رجال الفكر والدعوة (١/١٥١).

(١) تبين كذب المفتري، ص ١٤١.

(٣) وفيات الأعيان (١/٤١٢).

- ١٤- وأقروا أنه لا خالق إلا الله، وأن سيئات العباد يخلقها الله، وأن أعمال العباد يخلقها الله عز وجل، وأن العباد لا يقدرُونَ أن يخلقوا شيئاً.
- ١٥- ويقولون إن القرآن كلام الله غير مخلوق.
- ١٦- والكلام في الوقف واللفظ، ومن قال باللفظ أو الوقف فهو مبتدع عندهم لا يقال اللفظ بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق.
- ١٧- ويقولون إن الله سبحانه يُرى بالأبصار يوم القيامة كما يُرى القمر ليلة البدر، يراه المؤمنون ولا يراه الكافرون لأنهم عن الله محجوبون، قال الله عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] وأن موسى عليه السلام سأل الله سبحانه الرؤية في الدنيا وأن الله سبحانه تجلّى للجبل فجعله دكا فاعلمه أنه لا يراه في الدنيا بل يراه في الآخرة.
- ١٨- ولا يكفّرون أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه كنحو الزنا والسرقة وما أشبه ذلك من الكبائر ومعهم بما هم من الإيمان مؤمنون وإن ارتكبوا الكبائر.
- ١٩- والإيمان عندهم هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره حلوه ومره، وأن ما أخطأهم لم يكن ليصيبهم وما أصابهم لم يكن ليخطئهم.
- ٢٠- والإسلام هو أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله على ما جاء في الحديث، والإسلام عندهم غير الإيمان.
- ٢١- ويقولون بأن الله سبحانه مقلب القلوب.
- ٢٢- ويقولون بشفاعة رسول الله ﷺ وأنها لأهل الكبائر من أمته، ويعذاب القبر، وأن الحوض حق والصراط حق، والبعث بعد الموت حق.
- ٢٣- والمحاسبة من الله عز وجل للعباد حق والوقوف بين يدي الله حق.
- ٢٤- ويقولون بأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، ولا يقولون مخلوق ولا غير مخلوق.
- ٢٥- ويقولون: أسماء الله هي الله.
- ٢٦- ولا يشهدون على أحد من أهل الكبائر بالنار ولا يحكمون بالجنة لأحد من الموحدين، حتى يكون الله سبحانه ينزلهم حيث شاء، ويقولون: أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، ويؤمنون بأن الله سبحانه يخرج قوماً من الموحدين من النار على ما جاءت به الروايات عن رسول الله.
- ٢٧- وينكرون الجدال والمراء في الدين، والخصومة في القدر، والمناظرة فيما يتناظر فيه

أهل الجدل ويتنازعون فيه من دينهم بالتسليم للروايات الصحيحة، والآثار التي رواها الثقات عدلاً عن عدل حتى ينتهي ذلك إلى رسول الله ﷺ.

٢٨- ويقولون: إن الله لم يأمر بالشر بل نهى عنه وأمر بالخير ولم يرض بالشر وإن كان مريداً له.

٢٩- ويعرفون حق الذين اختارهم الله سبحانه لصحبة نبيه ﷺ ويأخذون بفضائلهم ويمسكون عما شجر بينهم صغيرهم وكبيرهم.

٣٠- ويقدمون أبا بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علياً رضوان الله عليهم.

٣١- ويقولون أنهم الخلفاء الراشدون المهديون أفضل الناس كلهم بعد النبي ﷺ.

٣٢- ويصدقون بالأحاديث التي جاءت عن رسول الله ﷺ: «إن الله سبحانه يرسل إلى السماء الدنيا فيقول هل من مستغفر؟» كما جاء الحديث عن رسول الله.

٣٣- ويأخذون بالكتاب والسنة كما قال الله عز وجل: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

٣٤- ويرون اتباع من سلف من أئمة الدين لا يتدعون في دينهم ما لم يأذن به الله.

٣٥- ويقولون أن الله سبحانه يجيء يوم القيامة، كما قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

٣٦- وأن الله يقرب من خلقه كيف شاء، كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

٣٧- ويرون العيد والجماعة خلف كل إمام بر وفاجر.

٣٨- ويثبتون المسح على الخفين سنة ويرونه في الحضر والسفر.

٣٩- ويثبتون فرض الجهاد للمشركين منذ بعث الله نبيه ﷺ إلى آخر عصاة تقاتل الدجال وبعد ذلك.

٤٠- ويرون الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح وألا يخرجوا عليهم بالسيف وألا يقاتلوا في الفتنة.

٤١- ويصدقون بخروج الدجال وأن عيسى بن مريم يقتله.

٤٢- ويؤمنون بمنكر ونكير والمعراج والرؤيا في المنام.

- ٤٣- وأن الدعاء لموتى المسلمين والصدقة عنهم بعد موتهم تصل إليهم.
- ٤٤- ويصدقون بأن في الدنيا سحرة وأن الساحر كافر كما قال الله، وأن السحر كائن موجود في الدنيا.
- ٤٥- ويرون الصلاة على كل من مات من أهل القبلة، برهم وفاجرهم، وموارثتهم.
- ٤٦- ويقرون أن الجنة والنار مخلوقتان.
- ٤٧- وأن من مات مات بأجله وكذلك من قتل قتل بأجله.
- ٤٨- وأن الأرزاق من قبل الله سبحانه يرزقها عباده حلالاً كانت أم حراماً.
- ٤٩- وأن الشيطان يوسوس للإنسان ويشككه ويخبطه.
- ٥٠- وأن الصالحين قد يجوز أن يخصهم الله بآيات تظهر عليهم.
- ٥١- وأن السنة لا تنسخ القرآن^(١).
- ٥٢- وأن الأطفال أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء فعل بهم ما أراد.
- ٥٣- وأن الله عالم ما العباد عاملون وكتب أن ذلك يكون وأن الأمور بيد الله.
- ٥٤- ويرون الصبر على حكم الله والأخذ بما أمر الله به والانتها عما نهى عنه، وإخلاص العمل والنصيحة للمسلمين، ويدينون بعبادة الله في العابدين والنصيحة لجماعة المسلمين، واجتناب الكبائر والزنا وقول الزور والعصية والفخر والكبر والإزراء على الناس والعجب.
- ٥٥- ويرون مجانبة كل داع إلى بدعة.
- ٥٦- ويرون التشاغل بقراءة القرآن وكتابة الآثار والنظر في الفقه مع التواضع وحسن الخلق وبذل المعروف وكف الأذى وترك الغيبة والنميمة والسعاية وتفقد المأكّل والمشرب.
- فهذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويروونه. وبكل ما ذكر من قولهم نقول وإليه نذهب وما توفيقنا إلا بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل وبه نستعين وعليه نتوكل وإليه المصير^(٢). هذه عقيدة الإمام الأشعري التي استقر عليها وصرح بها، وهي من الآثار التي تركها بعد وفاته، وقد أسهمت بلا شك في توعية الأمة وتربيتها على أصول أهل السنة والجماعة سواء في

(١) مسألة فيها خلاف يطول عند أهل السنة.

(٢) اعتقاد أهل السنة أصحاب الحديث، شرح جملة ما حكاه عنهم أبو الحسن الأشعري وقرّره في مقالاته د. محمد عبد الرحمن الخميس، ص ١١ إلى ١٧١ وقد قام الدكتور بشرح هذه الأصول.

المدارس النظامية في عهد السلاجقة أوفى عهد الزنكيين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين وإلى يومنا هذا، ومن الإنصاف العلمي القول بأن المذهب الأشعري لم يستقر على ما مات عليه الإمام أبو الحسن الأشعري، بل حدث تطور في المذهب الأشعري بحيث إن أقوال الأشاعرة تعددت واختلفت في مسائل عديدة، ومن أشهر الذين اجتهدوا وخالفوا أبا الحسن الأشعري، في بعض المسائل، أبو بكر الباقلاني وابن فورك وعبد القاهر البغدادي، والبيهقي والقشيري، والجويني والغزالي وغيرهم على درجات متفاوتة بينهم في ذلك، وقد قام الدكتور عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود بتتبع هذا التطور بنوع من التفصيل في كتابه القيم «موقف ابن تيمية من الأشاعرة».

- وفاته: وكانت وفاته سنة ٣٢٤هـ ودفن ببغداد في مشرعة الروايا^(١)، ونودي على جنازته: اليوم مات ناصر السنة^(٢).

خامساً: جهود الأشاعرة في الدفاع عن الكتاب والسنة:

كانت للأشاعرة جهود مشكورة في الدفاع عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وقد أشار إلى هذه الجهود ابن تيمية في كتبه حيث:

١- وصفهم بأنهم من أهل السنة في مقابل المعتزلة والرافضة: يقول ابن تيمية: وإن كان في كلامهم من الأدلة الصحيحة وموافقة السنة ما لا يوجد في كلام عامة الطوائف، فإنهم أقرب طوائف أهل الكلام إلى السنة والجماعة والحديث، وهم يعدون من أهل السنة والجماعة عند النظر إلى مثل المعتزلة والرافضة وغيرهم، بل هم أهل السنة والجماعة في البلاد التي يكون أهل البدع فيها هم المعتزلة والرافضة ونحوهم^(٣)، ويلاحظ وصفه لهم بأنهم هم أهل السنة في البلاد التي يغلب فيها أهل البدعة من الرافضة والمعتزلة، وهذا منتهى الإنصاف والاعتراف^(٤). وذكر عنهم ابن تيمية بأنهم من المتكلمين المتسبين إلى السنة^(٥). ويصنفهم مع بقية أهل السنة^(٦).

٢- ردودهم على الباطنية والملاحدة وغيرهم: فالباطنية لما استفحل أمرهم كان لهم علماء أهل السنة بالمرصاد، ومن أبرز علماء السنة الذين فضحوهم علماء الأشاعرة^(٧)، يقول ابن تيمية: وكانت الرافضة والقرامطة - علماؤها وأمرؤها - قد استظهرت في أوائل

(١) رجال الفكر والدعوة (١/ ١٥١).

(١) وفیات الأعيان (١/ ٤١٢).

(٣)، (٤) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/ ٧٠٣).

(٦) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/ ٧٠٣).

(٥) الجواب الصحيح (١/ ٢٥٢).

(٧) المصدر نفسه (٢/ ٧٠٥).

الدولة السلجوقية، حتى غلبت على الشام والعراق، وأخرجت الخليفة القائم ببغداد إلى تكريت وحبسوه بها في فتنه البساسيري المشهورة، فجاءت بعد ذلك السلجوقية حتى هزموهم وفتحوا الشام والعراق وقهروهم بخراسان وحجروهم بمصر، وكان في وقتهم من الوزراء مثل «نظام الملك»، ومن العلماء مثل أبي المعالي الجويني، فصاروا بما يقيمونه من السنة ويردونه من بدعة هؤلاء ونحوهم لهم من المكانة عند الأمة بحسب ذلك، وكذلك المتأخرون من أصحاب مالك الذين وافقوه كأبي الوليد الباجي، والقاضي أبي بكر بن العربي ونحوهما لا يعظمون إلا بموافقة السنة، والحديث^(١)، والوزير نظام الملك هو صاحبنا الذي تحدثنا عنه فيما مضى، ويعتبر من أبرز من نصر مذهب الأشعري من خلال المدارس النظامية التي أنشأها في أنحاء متفرقة من العراق وخراسان، وهو يذكر فضله فيما قام به من دعم للسلاجقة السنة في مقابل البويهيين الشيعة^(٢). والدولة الفاطمية العبيدية ودعاتها.

٣- دفاعهم عن السنة وردودهم على أهل البدع: يقول ابن تيمية بعد كلام طويل عن الأشاعرة: ثم إنه ما من هؤلاء إلا له في الإسلام مساع مشكورة، وحسنات مبرورة، وله في الرد على كثير من أهل الإلحاد والبدع، والانتصار لكثير من أهل السنة والدين ما لا يخفى على من عرف من أحوالهم، وتكلم فيهم بعلم وصدق وعدل وإنصاف، لكن لما التبس عليهم هذا الأصل المأخوذ ابتداء من المعتزلة، وهم فضلاء عقلاء، احتاجوا إلى طرده والتزام لوازمه فلزمهم بسبب ذلك من الأقوال ما أنكره المسلمون من أهل العلم والدين، وصار الناس بسبب ذلك: منهم من يعظمهم لما لهم من المحاسن والفضائل، ومنهم من يذمهم لما وقع في كلامهم من البدع والباطل، وخير الأمور أوساطها، وهذا ليس مخصوصاً بهؤلاء، بل مثل هذا وقع لطوائف من أهل العلم والدين، والله يتقبل من جميع عباده المؤمنين الحسنات ويتجاوز لهم عن السيئات ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٣) [الحشر: ١٠]. وفي موضع آخر يذكر ما لهؤلاء من حسنات، فإنها إما موافقة لأهل السنة، أو رد على أهل البدعة.^(٤) فيقول: ولم يتبع أحد مذهب الأشعري ونحوه إلا لأحد هذين الوصفين أو كليهما، وكل من أحبه وانتصر له من المسلمين وعلمائهم فإنه يحبه ويتنصر له بذلك، فالمصنف في مناقبه، الدافع للطعن واللعن عنه - كالبيهقي والقشيري أبي القاسم، وابن عساكر الدمشقي - إنما يحتجون لذلك بما يقوله

(١) مجموع الفتاوى (١٨/٤).

(٢) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٧٠٥/٢).

(٣) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٧٠٥/٢)، درء التعارض (١٠٣، ١٠٢/٢).

(٤) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٧٠٨/٢).

من أقوال أهل السنة والحديث، أو بما رد من أقوال مخالفينهم. لا يحتجون له عند الأمة وعلمائها وأمرائها إلا بهذين الوصفين، ولولا أنه كان من أقرب بني جنسه إلى ذلك لأحقوه بطبقته الذين لم يكونوا كشيخه الأول أبي علي، وولده أبي هاشم، لكن كان له من موافقة مذهب السنة والحديث في الصفات والقدر، والإمامة، والفضائل، والشفاعة، والخوض، والصراط والميزان، وله من الردود على المعتزلة والقدرية، والرافضة، والجهمية، وبيان تناقضهم ما أوجب أن يمتاز بذلك عن أولئك، ويعرف له حقه وقدره ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]. وبما وافق فيه السنة والحديث صار من القبول والاتباع ما صار، لكن الموافقة التي فيها قهر المخالف وإظهار فساد قوله هي من جنس المجاهد المنتصر، فالراؤ على أهل البدع مجاهد^(١).

٤- جهودهم في كسر سورة المعتزلة والجهمية: وللأشاعرة جهود في كسر سورة المعتزلة والجهمية، يقول ابن تيمية عن أعلامهم كابن مجاهد والباقلاني والإسفرائيني وابن فورك: وصار هؤلاء يردون على المعتزلة ما رده عليهم ابن كلاب والقلانسي، والأشعري وغيرهم من مثبتة الصفات، فيبينون فساد قولهم بأن القرآن مخلوق وغير ذلك، وكان في هذا من كسر سورة المعتزلة والجهمية ما فيه ظهور شعار السنة، وهو القول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الله يُرى في الآخرة، وإثبات الصفات والقدر وغير ذلك من أصول السنة^(٢)، وفي موضع آخر يذكر ما رده الأشعرية من بدع المعتزلة والرافضة والجهمية وغيرهم، وبينوا تناقضهم، وعظموا الحديث والسنة ومذهب الجماعة، فحصل بما قالوه من بيان تناقض أصحاب البدع الكبار وردهم ما انتفع به خلق كثير^(٣)، وكان ابن تيمية -رحمه الله- يرى أن لهم حسنات وفضائل وسعيًا مشكوراً وخطوهم بعد الاجتهاد مغفور^(٤).

٥- إنصاف ابن تيمية لأعلام الأشاعرة يرحمهم الله جميعاً: أنصف ابن تيمية أعلام الأشاعرة، وعلى الرغم من مناقشاته الشديدة لهم إلا أنه ذكر ما عندهم من إيجابية وما لهم من جهود عظيمة في خدمة الإسلام والدفاع عنه، ويعتمد منهج ابن تيمية في ذلك على أمرين:

أحدهما: أن القاعدة عنده التي يطبقها على الأشاعرة وغيرهم هي التفريق بين العقيدة المسيطرة في الكتب وبين أصحابها، فهو يحكم على ما هو مدون أو منقول من عقائد هؤلاء

(٢) مجموع الفتاوى (٥/٥٥٧ - ٥٥٨).

(١) مجموع الفتاوى (٤/١٢، ١٣).

(٣) المصدر نفسه (١٣/٩٩).

(٤) النبوات، ص ٢٢٠، موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/٧٠٩).

وأدلتهم ومناقشاتهم، ويبين ما في ذلك من خطأ أو صواب، فإذا ما وصل في الحديث إلى الشخص نفسه صاحب العقيدة، فإنه ينظر إليه نظرة أخرى مبنية على أنه قد يكون صادقاً في خدمته للإسلام، ولا يحمل غشاً لأهله، ولذلك فهو لا يتعمد الكذب والافتراء، وأنه مجتهد، وأن هذا الذي قاله هو مبلغ علمه، أو أنه كان مقلداً لغيره في هذه المسائل.

وأنه ربما ما مات على هذا الظلم، فقد يكون ممن رجع وتاب، وصرح بذلك، أو أنه في آخر عمره رضي مسلك أهل الحديث.

والثاني: أن هؤلاء الأعلام - على أخطائهم - جهوداً لا تنكر في الجهاد في سبيل الله، والدفاع عن العقيدة، والرد على أعدائها من الملاحدة والمتفلسفة والرافضة وغيرهم، وهي جهود تكون في موازينهم يوم القيامة ولا يجرمون أجرها عند الله تعالى ^(١).

١- موقف ابن تيمية من أبي الحسن الأشعري: دافع ابن تيمية عن شيوخ الأشاعرة - وعلى رأسهم ابن كلاب - وكثيراً ما يقرن الأشعري بابن كلاب والكلائية، فيقول مثلاً: لهذا كان المتكلمة الصفاتية كابن كلاب والأشعري وابن كرام خيراً وأصح طريقاً في العقلية والسمعية من المعتزلة، والمعتزلة خيراً وأصح طريقاً في العقلية والسمعية من المتفلسفة، وإن كان في قول كل من هؤلاء ما ينكر عليه وما خالف فيه العقل والسمع، ولكن من كان أكثر صواباً وأقوم قِلاً كان أحق بأن يقدم على من هو دونه تنزيلاً وتفصيلاً ^(٢). وأما كلامه عن أبي الحسن الأشعري فقد دافع عنه وذكر أنه: ابتلى بطائفتين، طائفة تبغضه وطائفة تحبه، كل منهما يكذب عليه، ويقول: إنما صنف هذه الكتب تقية وإظهاراً لموافقة أهل الحديث والسنة من الحنبلية وغيرهم، وهذا كذب على الرجل، فإنه لم يوجد له قول باطن يخالف الأقوال التي أظهرها، ولا نقل أحد من خواص أصحابه ولا غيرهم عنه ما يناقض هذه الأقوال الموجودة في مصنفاته، فدعوى المدعي أنه كان يبطن خلاف ما يظهر دعوى مردودة شرعاً وعقلاً، بل من تدبر كلامه في هذا الباب - في مواضع - تبين له قطعاً أنه كان ينصر ما أظهره، ولكن الذين يحبونه ويخالفونه في إثبات الصفات الخبرية، يقصدون نفي ذلك عنه لئلا يقال: إنهم خالفوه، مع كون ما ذهبوا إليه من السنة قد اقتدوا فيه بحجته التي على ذكرها يعولون، وعليها يعتمدون، والفريق الآخر دافعوا عنه لكونهم رأوا المنتسبين إليه لا يظهرون إلا خلاف هذا القول، ولكونهم اتهموه بالتقية، وليس كذلك، بل هو انتصر للمسائل المشهورة عند أهل السنة التي خالفهم فيها المعتزلة كمسألة الرؤية، والكلام، وإثبات الصفات، ونحو ذلك، لكن كانت خبرته بالكلام مفصلة،

(٢) شرح الأصفهانية، ص ٥٥.

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٥/ ٧١٠).

وخبرته بالسنة مجملة^(١)، كما ذكر أن الأشعري كان ينتسب إلى الإمام أحمد، وأنه أقرب إليه من بعض الحنابلة، يقول: وكان الأشعري أقرب إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل وأهل السنة من كثير من المتأخرين المنتسبين إلى أحمد الذين مالوا إلى بعض كلام المعتزلة كابن عقيل وصدقة بن الحسين، وابن الجوزي وغيرهم^(٢). ويقول: والأشعري كان من أجل المتكلمين المنتسبين إلى الإمام أحمد - رحمه الله - المتصيرين لطريقه، كما يذكر الأشعري ذلك في كتبه.. ثم يقول: وأما الأشعري فهو أقرب إلى أصول أحمد من ابن عقيل وأتبع لها، فإنه كلما كان عهد الإنسان بالسلف أقرب كان أعلم بالمعقول والمنقول.. ويقول: ولما أظهرت كلام الأشعري - ورآه الحنابلة - قالوا: هذا خير من كلام الشيخ الموفق...^(٣). ويذكر أيضاً أن الأشعري أخذ مذهب أهل الحديث والسنة من شيخه المشهور زكريا بن يحيى الساجي^(٤)، كما ذكر ما تميز به الأشعري من حرص على نصرة مذهب أهل الحديث بقوله عنه: وهو دائماً ينصر في المسائل التي فيها النزاع بين أهل الحديث وغيرهم قول أهل الحديث^(٥)، وذكر أنه بين طريقة السلف في أصول الدين، واستغناها عن الطريقة الكلامية، كطريقة الإعراض ونحوها، وإن القرآن نبه على الأدلة، ليس دلالاته - كما يظنه بعض أهل الكلام - من جهة الخبر فقط، وأين هذا من أهل الكلام الذين يقولون: إن الكتاب والسنة لا يدلان على أصول الدين بحال، وإن أصول الدين تستفاد بقياس العقل المعلوم من غيرهما^(٦)، ويذكر ابن تيمية أن الأشعري من مثبتة الصفات الخبرية، ويرد على الذين يزعمون أن له فيها قولين؛ يقول: وأما الأشعري نفسه وأئمة أصحابه فلم يختلف قولهم في إثبات الصفات الخبرية، وفي الرد على من يتأولها، كمن يقول: استوي بمعنى استولى، وهذا مذكور في كتبه كلها كالموجز الكبير والمقالات الصغيرة، والكبيرة، والإبانة، وغير ذلك، وهكذا نقل سائر الناس عنه، حتى المتأخرون كالرازي والآمدي، ينقلون عنه إثبات الصفات الخبرية، ولا يحكون عنه في ذلك قولين. فمن قال: إن الأشعري كان ينفيها، وإن له في تأويلها قولين فقد افترى عليه ولكن هذا فعل طائفة من متأخري أصحابه كأبي المعالي ونحوه، فإن هؤلاء أدخلوا في مذهبه أشياء من أصول المعتزلة^(٧). كما دافع عن الأشعري فيما نسب إليه من أنه يقول: إن الله لم يكن قادراً على الفعل في الأزل. وبين ابن تيمية أن من يبغض الأشعري

(١) مجموع الفتاوى (٢٠٤/١٢).

(٢) درء التعارض (٢٧٠/١)، شرح الأصفهانية، ص ٧٨.

(٣) مجموع الفتاوى (٢٢٦/٣، ٢٢٧).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٨٦/٥).

(٥) الإيمان، ص ١١٥، موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٧١٣/٢).

(٦) الاستقامة (٦/١).

(٧) مجموع الفتاوى (٢٠٣/١٢).

ينسب إليه هذا لتنفّر عنه قلوب الناس^(١)، وكثيراً ما يشير ابن تيمية إلى أنه أقرب إلى السلف من كثير ممن أتى بعده^(٢). وكثيراً ما ينقل من كتب الأشعري ويستشهد بأقواله^(٣).

ب- موقف ابن تيمية من الباقلاني: يرى ابن تيمية أن الباقلاني فحل الطائفة الأشعرية، ويقول عنه: إنه أفضل المتكلمين المنتسبين إلى الأشعري، ليس فيهم مثله، ولا قبله ولا بعده^(٤)، ويذكر عنه أنه: أكثر إثباتاً بعد الأشعري في الإبانة^(٥)، وقد امتدحه كثيراً في ردوده على الباطنية، ومواقفه العظيمة من النصارى^(٦).

ج- موقف ابن تيمية من الجويني: وأما الجويني فيدافع عنه على الرغم من كونه ممن مال إلى المعتزلة أكثر ممن سبقه من الأشاعرة، وبعد أن نقل عنه الأقوال في الكلام ونسبته إلى أهل السنة ما ليس من مذهبهم^(٧)، رد عليه ابن تيمية وقال: وأبو المعالي وأمثاله أجلّ من أن يتعمد الكذب، لكن القول المحكي قد سمع من قائل لم يضبطه، وقد يكون القائل نفسه لم يحجر قولهم^(٨). ويحتج بأقواله ويصححها في معرض ردوده على الجهمية^(٩)، وابن رشد^(١٠).

د- ثناء ابن تيمية على الغزالي: ومع أن ابن تيمية نقد الغزالي كثيراً وفي مناسبات مختلفة، ونقل ردود العلماء عليه، فإنه أنصفه ومدحه وذلك من خلال:

* بيانه أن الغزالي لا يتعمد الكذب، ولذلك لما نسب إلى الإمام أحمد أنه يقول بالتأويل رد عليه ابن تيمية بأن: نقله عن المجهول لا يعرف، وذلك المجهول أرسله إرسالاً عن أحمد، ولا يتنازع من يعرف أحمد وكلامه أن هذا كذب مفترى عليه، ونصوصه المنقولة عنه بنقل الثقات الأثبات والمتواتر عنه يرد هذا الهذيان الذي نقله عنه، بل إذا كان أبو حامد ينقل عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة والتابعين من الأكاذيب ما لا يحصى إلا الله، فكيف ما ينقله عن مثل أحمد. ثم يعقب ابن تيمية مدافعاً عن الغزالي: ولم يكن ممن يتعمد الكذب، فإنه كان أجلّ قدراً من ذلك، وكان من أعظم الناس ذكاء، وطلباً للعلم وبحثاً عن الأمور، وكان من أعظم الناس قصداً للحق، وله من الكلام الحسن المقبول أشياء عظيمة بليغة، ومن حسن التقسيم والترتيب ما هو به من أحسن المصنفين، لكن كونه لم يصل إلى ما جاء به الرسول من

(١) درء التعارض (٢/ ٢٦٤).

(٢) شرح الأصفهانية، ص ٧٧، ٧٨، درء التعارض (٢/ ٣٠٨).

(٣) القاعدة المراكشية، ص ٦٧ - ٧١، درء التعارض (١/ ٢٥٦ - ٢٦١).

(٤) مجموع الفتاوى (٥/ ٩٨).

(٥) المصدر نفسه (٥/ ٥٢).

(٦) منهاج السنة (٢/ ٣٩).

(٧) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/ ٧١٥).

(٨) درء التعارض (٢/ ٣١٠).

(٩) المصدر نفسه (٥/ ١٨٦ - ١٩٠).

(١٠) المصدر نفسه (٩/ ١١٠ - ١١٢).

الطرق الصحيحة كان ينقل ذلك بحسب ما بلغه لا سيما مع هذا الأصل، إذ جعل النبوات فرعاً على غيرها ^(١).

* يعترف للغزالي بجهوده في ردوده على الفلاسفة، ويمتدحه كثيراً في ذلك، ولما احتج الفلاسفة على نفي الصفات بالتركيب وما يلزم، رد عليهم الغزالي ووافقه ابن تيمية فقال: ما ذكره أبو حامد مستقيم مبطل لقول الفلاسفة، وما ذكره ابن رشد إنما نشأ من جهة ما في اللفظ من الإجمال والاشتراك ^(٢). ثم قال مناقشاً ابن رشد: وهذه الطريق التي سلكها أبو حامد عن احتجاجهم بلفظ المركب جواب صحيح ^(٣)، ويقول ابن تيمية عن ابن رشد: وقد رد على أبي حامد في «تهافت التهافت» رداً أخطأ في كثير منه، والصواب مع أبي حامد... وقد تكلمت على ذلك وبينت تحقيق ما قاله أبو حامد في ذلك من الصواب الموافق لأصول الإسلام، وخطأ ما خالفه من كلام ابن رشد وغيره من الفلاسفة، وإن ما قالوه من الحق الموافق للكتاب والسنة لا يرد، بل يقبل، وما قصر فيه أبو حامد من إفساد أقوالهم الفاسدة، فيمكن رده بطريق أخرى يعان بها أبو حامد على قصده الصحيح ^(٤)، كما امتدح ابن تيمية ردود الغزالي على الفلاسفة في مسألة إثبات الصانع ونقل ما ذكره من الطعن في طريقة ابن سينا وأمثاله، ثم يقول ابن تيمية معقباً: وهذا الوجه الذي ذكره أبو حامد أحسن فيه، وكنت قد كتبت على توحيد الفلاسفة ونفيهم الصفات كلاماً بينت فيه فساد كلامهم في طريقة التركيب قبل أن أقف على كلام أبي حامد، ثم رأيت أبا حامد قد تكلم بما يوافق ذلك الذي كتبه ^(٥).

* ذكره لرجوعه في آخر عمره إلى الحديث وأنه مات وهو يشتغل البخاري ومسلم ^(٦)، ويذكر أنه رجع واستقر أمره على التلقي من طريقة أهل الحديث، بعد أن أيس من نيل مطلوبه من طريقة المتكلمين والمتفلسفة والمتصوفة أيضاً ^(٧). هذه بعض مواقف ابن تيمية الإيجابية من الأشاعرة وفيها من بيان الحق والإنصاف ما يشهد له بالأمانة، وكان -رحمه الله- يناقش الأشاعرة، ويبين لمن أخطأ منهم خطأه بعلم وإنصاف.

ومن الفائدة أن نقول: إن كان تراث الإمام الشافعي وأبي الحسن الأشعري قامت على أسسه المدارس النظامية في العهد السلجوقي، فإن تراث ابن تيمية قامت عليه حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وتأثرت به كثير من الحركات المعاصرة والعلماء وطلاب العلم والدعاة

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/٧١٦).

(٢) درء التعارض (٣/٤٠٢).

(٣) المصدر نفسه (٣/٤٣٨).

(٤) المصدر نفسه (٣/٢٥٢، ٢٥٣).

(٥) المصدر نفسه (٨/١٥٦).

(٦) الصفدية (١/٢١٢)، درء التعارض (١/١٦٢).

(٧) درء التعارض (٦/٢١٠)، موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/٧١٧).

المبحث الرابع

أشهر علماء المدارس النظامية

في العهد السلجوقي

أولاً: أبو إسحاق الشيرازي: هو الشيخ، الإمام، القدوة، المجتهد، شيخ الإسلام، أبو إسحاق، إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز آبادي، الشيرازي، الشافعي، نزيل بغداد، قيل: لقبه جمال الدين ^(١)، كان مولده سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة ^(٢).

١- شيوخه وتلاميذه: تفقه على أبي عبد الله البضاوي، وعبد الوهاب بن رامين بشيراز، وأخذ بالبصرة عن الخرز، وقدم بغداد سنة خمس عشرة وأربعمائة، فلزم أبا الطيب الطبري، وبرع وصار مُعَيِّده، وكان يُضرب المثلُ بفصاحته وقوة مناظرته، وسمع من أبي علي بن شاذان، وأبي بكر البرقاني ومحمد بن عبيد الله الخرجوشي، وحدث عنه: الخطيب، وأبو الوليد الباجي، والحميدي، وإسماعيل بن السمرقندي، والزاهد يوسف بن أيوب، وأبو نصر أحمد بن محمد الطوسي، وأبو الحسن بن عبد السلام، وأحمد بن نصر بن جَمَان الهمداني خاتمة من روى عنه ^(٣).

٢- مكافته وثناء الناس عليه: قال السمعاني: هو إمام الشافعية ومدرس النظامية، وشيخ العصر، رحل الناس إليه من البلاد وقصدوه، وتفرد بالعلم الوافر مع السيرة الجميلة والطريقة المرضية، جاءته الدنيا صاغرة، فأبأها، واقتصر على خشونة العيش أيام حياته، صنف في الأصول والفروع والخلاف والمذهب، وكان زاهداً، ورعاً، متواضعاً، ظريفاً، كريماً، جواداً، طلق الوجه، دائم البشر، مليح المحاوره ^(٤). وقال أبو بكر الشاشي: أبو إسحاق حجة الله على أئمة العصر ^(٥)، وقال الموفق الحنفي: أبو إسحاق أمير المؤمنين في الفقهاء ^(٦). ولما قدم أبو إسحاق نيسابور رسولاً ثلَّقه، وحمل إمام الحرمين غاشيته، ومشى بين يديه وقال: أفتخر بهذا ^(٧). وكان عامة المدرسين بالعراق والجلال تلامذته وأتباعه - وكفاهم بذلك فخراً - وكان ينشد الأشعار المليحة ويوردها، ويحفظ منها الكثير ^(٨). وكان الوزير ابن جهير كثيراً ما يقول: الإمام أبو إسحاق وحيد عصره، وفريد دهره، ومستجاب الدعوة ^(٩). وأثنى

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء (١٨/٤٥٣).

(٣)، (٤) المصدر نفسه (١٨/٤٥٤).

(٥)، (٦) طبقات السبكي (٤/٢٢٧).

(٧) المنتظم (٨/٩)، طبقات السبكي (٤/٢٢٢).

(٨) تهذيب الأسماء واللغات (٢/١٧٣).

(٩) طبقات السبكي (٤/٢٢٧).

نظام الملك على أبي إسحاق، وقال: كيف حالي مع رجل لا يُفرّق بيني وبين نهروز الفَرَّاش في المخاطبة؟ قال لي: بارك الله فيك، وقال له لما صبَّ عليه كذلك^(١). وقال محمد بن عبد الملك الهمداني: حكى أبي قال: حضرت مع قاضي القضاة أبي الحسن الماوردي عزاءً، فتكلم الشيخ أبو إسحاق واجلاً، فلما خرجنا قال الماوردي: ما رأيت كأبي إسحاق، لو رآه الشافعي لتجمل به^(٢)، وقال السلفي: سألت شجاعاً الدَّهلي عن أبي إسحاق فقال: إمام أصحاب الشافعي والمقدم عليهم في وقته ببغداد، كان ثقة، ورعاً، صالحاً، عالماً بالخلاف علماً لا يشاركه فيه أحد^(٣)، قال محمد بن عبد الملك: ندب المقتدى بالله أبا إسحاق للرسولية إلى المعسكر، فتوجّه في آخر سنة خمس وسبعين، فكان يخرج إليه أهل البلد بنسائهم وأولادهم يمسحون أردانه^(٤)، ويأخذون تراب نعليه يستشفون به، وخرج الخبازون ونثروا الخبز، وهو ينهاتهم، ولا ينتهون، وخرج أصحاب الفاكهة والحلواء، ونثروا على الأساكفة، وعملوا مداسات صغاراً ونثروها، وهي تقع على رءوس الناس، والشيخ يعجب، وقال لنا: رأيت النثار، وما وصل إليكم منه؟ فقالوا: يا سيدي وأنت أي شيء كان حظك منه؟ قال: أنا غطيت نفسي بالحفّة^(٥). وهذا الأثر يدل على محبة الناس له ومكانته في قلوبهم، وقد حاول الشيخ أن ينهاهم عن هذه التصرفات، وهذه هي أخلاق العلماء، ولكن العوام تصدر منهم مثل هذه الأمور نتيجة العاطفة وإن كان فيها بعض التجاوزات. وقال شيرويه الدَّيلمي في تاريخ همدان: أبو إسحاق إمام عصره قدم علينا رسولاً إلى السلطان ملكشاه، سمعت منه، وكان ثقة زاهداً في الدنيا على التحقيق، أوحّد زمانه^(٦)، وقال الذهبي عنه: درّس بها - أي المدرسة النظامية - بعد تمنع، ولم يتناول جامكية^(٧)، أصلاً، وكان يقتصر على عمامة صغيرة وثوب قطني، ويقنع بالقوت، وكان الفقيه رافع الحمال رفيقه في الاشتغال، فيحمل شطر نهاره بالأجرة، وينفق على نفسه وعلى أبي إسحاق، ثم إن رافعاً حجَّ وجاور، وصار فقيه الحرم في حدود الأربعين وأربعمائة^(٨).

٣- مؤلفاته وشيء من شعره: قال الشيخ أبو إسحاق: كنت أعيد كل قياس ألف مرة، فإذا فرغت أخذت قياساً آخر على هذا، وكنت أعيد كل درس ألف مرة، فإذا كان في المسألة

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/٤٥٩).

(٢) المصدر نفسه (١٨/٤٥٩)، طبقات السبكي (٤/٢٢٧). (٣) سير أعلام النبلاء (١٨/٤٦٠).

(٤) الأردن: جمع رُدن وهو أصل الكم. وفي طبقات السبكي: أركانه.

(٥) طبقات السبكي (٤/٢٢٠)، سير أعلام النبلاء (١٨/٤٦٠).

(٦) سير أعلام النبلاء (١٨/٤٦٠). (٧) الجامكية: رواتب خدم الدولة.

(٨) سير أعلام النبلاء (١٨/٤٦١).

بيت يُستشهد به حفظت القصيدة التي فيها البيت ^(١). وكان يصلى عند فراغ كل فصل من المذهب ^(٢)، وكان إماماً في الفقه والأصول والحديث وفنون كثيرة، وله المصنفات الكثيرة النافعة ^(٣)، وبحسن نيته في العلم اشتهرت تصانيفه في الدنيا ^(٤)، كالمهذب في المذهب، والتنبيه، والنكت في الخلاف، واللمع في أصول الفقه، والتبصرة والمعونة، وطبقات الفقهاء وغير ذلك ^(٥)، ومن شعره الذي نظمه:

أحبُّ الكأس من غير المدام وألهو بالحساب بلا حرام
وما حُبِّي لفاحشة ولكن رأيت الحُسبَ أخلاق الكرام
وقال:

سألت الناس عن خِلٍّ وفيَّ فقالوا: ما إلى هذا سبيل
تمسك إن ظفرت بوُدِّ حُرٍّ فإن الحُرَّ في الدنيا قليل ^(٦)
وقال:

ولو أنني جُعِلْتُ أمير جيش لما قاتلت إلا بالسُّوَال
لأنَّ الناس ينهزمون منه وقد ثبتوا لأطراف العوالي ^(٧)
وقد امتدحه الشعراء في حياته، ومنهم عاصم بن الحسن حيث قال فيه:

تراه من الدَّكَاءِ كَحَيْفَ جِسم عليه من توقُّده دليل
إذا كان الفتى ضخم المعاني فليس يضيره الجسم النحيل ^(٨)

٤- وفاته: توفي ليلة الحادي والعشرين من جمادي الآخرة سنة ستّ وسبعين وأربعمائة ببغداد، وغسَّله أبو الوفا بن عقيل الحنبلي، وصُلِّي عليه بباب الفردوس من دار الخلافة وشهد الصلاة عليه المقتدي بأمر الله، وتقدم للصلاة عليه أبو الفتح المظفرُ ابن رئيس الرؤساء، وكان نائب الوزارة، ثم صُلِّي عليه مرة ثانية بجامع القصر ودُفن بباب أبرز في ثربة مجاورة للناحية، رحمه الله تعالى ^(٩)، وعمل العزاء بالنظامية، ثم رُتب، المؤيد ابن نظام الملك

(١) صفة الصفوة (٦٦/٤)، تهذيب الأسماء واللغات (١٧٣/٢).

(٢) طبقات السبكي (٢١٧/٤).

(٣) سيرة أعلام النبلاء (٤٦٢/١٨).

(٤) سيرة أعلام النبلاء (٤٦٢/١٨).

(٥) وفیات الأعيان (٣٠/١).

(٦) البداية والنهاية (٨٧/١٦).

(٧) المصدر نفسه (٤٦٤/١٨).

(٨) البداية والنهاية (٨٧/١٦).

بعده في تدريس النظامية أبا سعد المتولي، فلما بلغ ذلك النظام، كتب بإنكار ذلك، وقال: كان من الواجب أن تُغلق المدرسة سنة من أجل الشيخ، وعاب على من تولّى، وأمر أن يُدرّس الإمام أبو نصر عبد السيد بن الصباغ بها^(١). ومن رثاه أبو القاسم بن نقياء الأديب الشاعر حيث قال:

أجرى المسمامع بالدم المهرق خطب أقام قيامة الآماق
خطب شجاً منّا القلوب بلوعة بين التراقي ما لها من راق
ما لليلي لا تُؤلف شملها بعد ابن بجدها^(٢) أبي إسحاق
إن قيل مات فلم يمت من ذكره حي على مر الليالي باق^(٣)

ومات أبو إسحاق، ولم يخلف درهماً ولا عليه درهم، وكذا فليكن الزهد، وما تزوج فيما أعلم^(٤)، ولم يمت إلا بعد أن ترك أثراً نافعاً خلفه من المصنفات والعلماء والخطباء والقضاة، فعن أبي إسحاق قال: خرجت إلى خراسان فما دخلت بلدة إلا كان قاضيها أو خطيبها أو مفتيها من أصحابي^(٥).

ثانياً: إمام الحرمين عبد الملك الجويني:

الإمام الكبير، شيخ الشافعية، إمام الحرمين، أبو المعالي، عبدُ الملك، ابن الإمام أبي عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيويه الجويني، ثم النيسابوري، ضياء الدين الشافعي صاحب التصانيف، ولد في أول سنة تسع عشرة وأربعمئة^(٦).

١- شيوخه: دأب إمام الحرمين منذ صغره على تحصيل العلم، وبذل من أجل ذلك جهداً عظيماً، فكان يصل الليل بالنهار^(٧)، تلقياً عن كبار علماء ومشايخ عصره، واستمر الجويني في ذلك حتى بعد أن قعد للتدريس في مجلس والده^(٨)، ومن أشهر شيوخه والده أبو محمد الجويني، وأبو القاسم الإسفراييني، وكان من رؤساء متكلمي الأشاعرة، وأعيان الشافعية، والمعروفين في الفتوى، وكان يميل إلى الزهد والورع، وله قدم في النظر والتدريس مع ميل إلى طريق السلف، وتلمذ على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وكان إمام الحرمين،

(٢) سير أعلام النبلاء (١٨/٤٦١).

(٢) البجدة: دخلة الأمر وباطنه، يقال للعالم بالشيء ابن بجدها.

(٣) سير أعلام النبلاء (١٨/٤٦٣).

(٤) المصدر نفسه (١٨/٤٦٢).

(٥) المصدر نفسه (١٨/٤٦٣).

(٦) المصدر نفسه (١٨/٤٦٨).

(٧) طبقات الشافعية (٥/١٧٥).

(٨) العقيدة النظامية لإمام الحرمين عبد الله الجويني، ص ٨١.

يلازمه ويقرأ عليه الأصول حتى تخرج بطريقته^(١)، ومن شيوخه أبو عبد الله الخبازي، اختص بالقراءة حتى أصبح شيخ القراء في عصره، وكان إمام الحرمين يكرر كل يوم قبل الاشتغال بالتدريس إلى مجلس الخبازي ويقرأ عليه القرآن^(٢)، ومن شيوخه القاضي حسين بن محمد بن أحمد، أبو علي المروذي، كان فقيه خراسان في عصره وشيخاً للشافعية، ويقال حبر الأمة تفقه على إمام الحرمين وكان يقول فيه: إنه حبر المذهب على الحقيقة^(٣)، ومن شيوخه أبو نعيم الأصفهاني الحافظ، وكان من كبار الصوفية والمحدثين الحفاظ الثقات، والفقهاء الكبار، وأتقن الحديث دراية ورواية، من تصانيفه المشهورة: حلية الأولياء، ودلائل النبوة، وتاريخ أصبهان، ومعرفة الصحابة، والمستخرج على البخاري ومسلم، أخذ عنه إمام الحرمين وحصل على الإجازة منه^(٤)، ومن شيوخه أبو القاسم الفوراني، اشتغل بالفقه وأصوله، وله مصنفات كثيرة في المذهب والأصول والخلاف والجدل والملل والنحل، كان الجويني يحضر درسه وهو شاب بمرور^(٥)، ومن شيوخه أبو الحسن المجاشعي الذي اشتهر بالنحو لذا يقال له: النحوي، صنف العوامل والهوامل، وشرح عنوان الإعراب، والإشارة في تحسين العبارة^(٦)، ومن شيوخه أبو سعيد الميهني وكان من أهل التصوف، له أحوال وكرامات، نقده الذهبي وتكلم فيه ابن حزم الأندلسي ودافع عنه السبكي وقال: وكان صحيح الاعتقاد حسن الطريقة أحواله تبهر العقول^(٧).. روى عنه إمام الحرمين، ويمكن أن تكون نفحة الصوفية التي لازمت إمام الحرمين بفعل أبي سعيد الميهني^(٨)، وغير أولئك من المشايخ.

٢- تلامذته: لا خلاف بين أصحاب التراجع، بأن الجويني قد أصبح في نيسابور محط أنظار العلماء والتلامذة، لذا رحل إليه الطلبة والمشايخ من مختلف الأرجاء، وثابروا على حضور مجالسه العلمية، وحلقات درسه، فتخرج على يديه كثير من العلماء، ومما أسهم في كثرة تلامذة إمام الحرمين؛ تسلمه عمادة أمر النظامية التي بنيت في نيسابور والتدريس بها، واستمر على هذا الحال زهاء عشرين عاماً وكان يجلس في حلقات درسه كل يوم نحو ثلاثمائة رجل من الطلبة والأئمة^(٩) وفي السنة التي توفي بها الجويني، كان عدد تلامذته في النظامية قريباً من أربعمائة طالب علم، وتلامذة الجويني في أغلبهم لم يكونوا من العلماء

(١) العقيدة النظامية لإمام الحرمين عبد الله الجويني، ص ٨٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٣، تذكرة الحفاظ (٣/١١٢٧).

(٣) العقيدة النظامية، ص ٨٣، تاريخ الإسلام حوادث ٤٦١ - ٤٧٠ هـ، ص ٦٢.

(٤) العقيدة النظامية، ص ٨٤، وفيات الأعيان (١/٩١).

(٥) العقيدة النظامية، ص ٨٤، سير أعلام النبلاء (١٨/٢٦٤).

(٦) العقيدة النظامية، ص ٨٥، المنتظم (٩/٣٣).

(٧)، (٨) العقيدة النظامية، ص ٨٥، سير أعلام النبلاء (١٧/٦٢٢).

(٩) طبقات الشافعية (١/٢٥٥، ٢٥٦).

المغمورين، وإنما قد اشتهر كثير منهم، وذاع صيته، وأصبح علماً للعلم في ميدانه، ومن هؤلاء التلامذة^(١):

أ- الإمام الغزالي. ب - أبو نصر القشيري. ج - الكياهراس^(٢).

٣- ثناء العلماء عليه: عاش إمام الحرمين في عصر كثر فيه العلماء الأعلام من مختلف المذاهب العامة، والأقطاب الشافعية، ففي وقت قصير نسبياً، تمكّن بواسع علمه، وعمق ثقافته، من دفع أقرانه من الشافعية والأشاعرة على حد سواء، إلى الاعتراف بعلو مكانته، وأقروا له بزعامتهم ورئاستهم، إذ «قُلْد زعامة الأصحاب ورياسة الطائفة»^(٣)، كذلك تولي الجويني مناصب أخرى، كان أغلب معاصريه يحرصون على توليها، ومن هذه المناصب: أمور الأوقاف، والمحارب والمنبر، ومجلس التذكير يوم الجمعة، والخطابة^(٤)، ومما يؤكد المكانة العالية التي تبوأها هذا الإمام، أنه عندما بُنيت نظامية نيسابور، طلب إليه تولي إدارتها، والتدريس بها، والخطابة، والمناظرة بها^(٥)، وكان لتولي الجويني أمر هذه النظامية دور كبير في نجاحها، وإقبال الطلبة عليها من كل حذب وصوب، ويذكر المؤرخون أن عدد الطلبة في هذه المدرسة أيام إمام الحرمين كان يصل إلى نحو من أربعمئة رجل من الأئمة والطلبة^(٦). وقال عنه أبو محمد الجرجاني: إمام عصره، ونسيج وحده، ونادرة دهره، عديم المثل في حفظ لسانه^(٧). وقال سعيد السمعاني: كان أبو المعالي، إمام الأئمة على الإطلاق، مُجمِعاً على إمامته شرقاً وغرباً، لم تر العيون مثله، تفقه على والده، وثو في أبوه ولأبي المعالي عشرون سنة فدرس مكانه، وكان يتردّد إلى مدرسة البيهقي، وأحكم الأصول على أبي القاسم الإسفراييني الإسكافي. وكان ينفق من ميراثه ومن معلوم له، إلى أن ظهر التعصب بين الفريقين، واضطربت الأحوال فاضطر إلى السفر عن نيسابور، فذهب إلى المعسكر، ثم إلى بغداد وصحب الوزير أبا نصر الكندري مدة يطوف معه، ويلتقي في حضرته بكبار العلماء، وينظرهم، فتحكّك بهم، وتهدّب، وشاع ذكره، ثم حجّ وجاور أربع سنين يدرّس ويفتي، ويجمع طرق المذهب، إلى أن رجع إلى بلده بعد مُضي نوبة التعصب، فدرّس بنظامية نيسابور، واستقام الأمر، وبقي على ذلك ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع، مُسلماً له المحراب والمنبر والخطبة والتدريس، ومجلس الوعظ يوم الجمعة، وظهرت تصانيفه وحضر درسه الأكابر والجمع العظيم من الطلبة، كان يقعد بين يديه نحو من ثلاثمائة، وتفقه به أئمة^(٨).

(١)، (٢) العقيدة النظامية، ص ٨٧ - ٨٩.

(٣) طبقات الشافعية (١٧٧/٥).

(٤)، (٥) وفيات الأعيان (١٦٨/٣).

(٦) طبقات الشافعية للإسنوي (١٩٩/١).

(٧) المصدر نفسه (١٧٣/٥).

(٨) سير أعلام النبلاء (٤٧٠/١٨).

٤- من أخلاقه وصفاته: حياه الله صفات عالية وأخلاقاً سامية هيأت له تلك المنزلة التي شغلها بين العلماء، وجعلته جديراً بالمكانة التي اعتلاها بين الحكماء، ومن هذه الأخلاق:

أ- التواضع: فقد ذكروا أنه كان من التواضع لكل أحد بمحل يتخيل منه الاستهزاء لمبالغته فيه، وما كان يستصغر أحداً حتى يسمع كلامه، ولا يستنكف أن يعززو الفائدة المستفادة إلى قائلها، ويقول: هذه الفائدة مما استفدته من فلان^(١). وكان يتعلم من تلاميذه بعصد الفنون التي ينبغون فيها، ولا يجد في ذلك حرجاً ولا غضاضة، وجاء في ترجمة الإمام عبد الرحيم، ابن الإمام أبي القاسم القشيري: تخرج على إمام الحرمين.. وواظب على درسه، وصحبه ليلاً ونهاراً... وكان الإمام يعتد به ويستفرغ أكثر أيامه معه مستفيداً منه بعض مسائل الحساب في الفرائض، والدور، والوصية^(٢). وكان يُعنى بأقواله في الفقه، قال السبكي عن ذلك: وأعظم ما عظم به الإمام عبد الرحيم أن إمام الحرمين نقل عنه في كتاب الوصية، وهذه مرتبة رفيعة^(٣).

ب- حرا الرأي والضمير: كان حر الرأي والضمير لا يقلد أحداً، فمنذ شبابه رفض أن يقلد والده وأصحابه، وأخذ في التحقيق^(٤). وفي هذا المجال لم يكن يحابي أحداً ولو كان أباه، أو أحد الأئمة المشهورين. قال في اعتراض عن والده: وهذه زلة من الشيخ رحمه الله^(٥).

ج- قوة الذاكرة: كان يتمتع بذاكرة نادرة وحافظة لاقطة. روي عنه أنه كان يذكر دروساً يقع كل واحد منها في عدة أوراق ولا يتلعم في كلمة منها ولا يحتاج إلى إبدال كلمة منها مكان غيرها، بل يمر فيها مرأ كالبرق الخاطف بصوت مطابق كالرعد القاصف^(٦).

د- صبره في طلب العلم: تميز -رحمه الله- بصبر ودأب نادرين في طلب العلم والبحث، فمع أنه قعد للتدريس مكان أبيه لم يشغله ذلك عن البحث والدرس، فكان يكرر قبل الاشتغال بدرس نفسه إلى مسجد الأستاذ أبي عبد الله الخبازي يقرأ عليه القراءات ويقتبس من كل نوع من العلوم^(٧)، وعن أبي الحسن بن أبي عبد الله بن أبي الحسين: سمعت إمام الحرمين في أثناء كلام له يقول: أنا لا أنام، ولا آكل عادة، وإنما أنام إذا غلبني

(١) فقه إمام الحرمين، د. عبد العظيم الديب، ص ٥٦.

(٢) طبقات الشافعية (١٦٥/٧)، فقه إمام الحرمين، ص ٥٧.

(٣) النهاية لإمام الحرمين (٢٦/٤)، نقلاً عن فقه إمام الحرمين، ص ٥٧.

(٤) فقه إمام الحرمين، ص ٥٧.

(٥) شذرات الذهب، نقلاً عن فقه إمام الحرمين، ص ٥٧. (٦) وفيات الأعيان (٢/٣٤١).

(٧) كذب المقرئ، نقلاً عن فقه إمام الحرمين، ص ٥٨.

النوم ليلاً أو نهاراً، وأكل إذا اشتهيت الطعام أي وقت كان... ثم يقول أبو الحسن: كان لذته وهوه وتفنته في مذاكرة العلم، وطلب الفائدة من أي نوع كان^(١)، قال عنه المجاشعي النحوي: ما رأيت عاشقاً للعلم مثل هذا الإمام^(٢).

هـ- رقة القلب وخشوعه: رزقه الله رقة القلب وخشوعه، وشفافية نادرة، قالوا: ومن رقة قلبه أنه كان يبكي إذا سمع بيتاً أو تفكر في نفسه ساعة، وإذا شرع في حكاية الأحوال، خاصة في علوم الصوفية، في فصول مجالسه بالغدوات أبكى الحاضرين ببكائه، وقطر الدماء من الجفون بزعمائه وإشاراته لاحتراقه في نفسه، وتحققه مما يجري من دقائق الأسرار^(٣). ويصور السبكي هذا قائلاً: وإذا وعظ ألبس الأنفس من الخشية ثوباً جديداً، ونادته القلوب: إننا بشر فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحديد^(٤). إن التصوف في حقيقته هو التزكية وحفظ الجوارح من المعاصي، وتطهير النفوس من أمراضها، والزهد في الدنيا، والتعلق بالله وحده، مع الخلو من البدع والانحرافات والخرافات والغلو التي ما أنزل الله بها من سلطان، وهو في جوهره جزء من الإسلام، لأنه عبارة عن تربية النفس لتوثيق صلتها بالله تعالى، وتعميق مراقبتها له في كل لحظة، واستمرار القلب واللسان في ذكر الله تعالى، وكان العلماء في سلف هذه الأمة يهتمون بتزكية نفوسهم والإكثار من الذكر والأوراد، ويحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا، إلا أن طريق التصوف في وقتنا الحالي يحتاج إلى تنقية وعرض تراثه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فقد تسربت بعض الأفكار الدخيلة إلى العقيدة مما ينكره الدين والإسلام، فعلم التزكية له أصوله من عهد الرسول ﷺ والصحابة الكرام والتابعين بإحسان، من أمثال الحسن البصري ومالك بن دينار ومحمد بن واسع وعبد الله بن المبارك وغيرهم كثير.

و- كرمه وجوده: وأما كرمه وسخاؤه، فقد كان مضرب المثل، لم يشغل بمال يثمره، ولا براتب يدخره، فقد كان ينفق على طلبه العلم، ويبحث عمن يدرس الفقه لينفق عليهم^(٥). هذه بعض صفاته التي ذكرها المؤرخون.

٥- القيمة العلمية لكتاب الإمام الجويني غياث الأمم: من مقدمة كتاب «غياث الأمم في التياث الظلم» يمكن الاستنتاج بأن هذا الكتاب قد وضع أصلاً لتبيان حقيقة الدين الإسلامي في أمور الإمامة والولاية وجملة الشريعة وفق اجتهاده، والخطاب فيه موجه إلى وزير الدولة نظام الملك، فقد حاول تبيان أهمية الدور الذي لعبه الوزير نظام الملك في تثبيت أركان المذهب السني وإعزاز

(١)، (٢) كذب المفترى، نقلاً عن فقه إمام الحرمين، ص ٥٨. (٣) فقه إمام الحرمين، ص ٥٩.

(٤) طبقات الشافعية، نقلاً عن فقه إمام الحرمين، ص ٥٩.

(٥) الإمام الجويني، ص ٢٠٨، طبقات الشافعية (٥/ ١٧٠، ١٧٥).

مكانته في الدولة السلجوقية، وقد بالغ في وصفه في مقدمة الكتاب حيث قال: سيد الورى وموصل الدين والدنيا، وملأ الأُمم، مستخدم السيف والقلم، ومن ظلّ ظل الملك بيمين مساعيه ممدوداً، ولواء النصر معقوداً، فكم باشر أوار الحرب، وأدار رحي الطعن والضرب^(١)، الخ.

إن كتاب «غياث الأُمم في التياث الظلم» كتاب شامل في مسائل الإمامة وما يتصل بها من أمور، وهي شمولية لا تتصف بها كتب السابقين وخصوصاً كتاب «الأحكام السلطانية»، كما أنه لا يقوم على الاجتهاد المحض كما هو الأمر لدى الماوردي، بل على الأدلة الشرعية التي تخص المسألة المطروحة للبحث^(٢)، والبنية الأساسية لموضوع الكتاب هي الرد على المخالفين لأهل السنة وعلى الأخص الفرق الإسلامية من الشيعة في موضوع الإمامة، ولذا أصبح مرجعاً في هذا الشأن، كما يعد كتاب غياث الأُمم في التياث الظلم أوسع كتاب ظهر في الفكر السياسي الإسلامي في مسائل الإمامة إذا قارناه بالأحكام السلطانية للماوردي، والسياسة الشرعية لابن تيمية، وتحرير الأحكام لابن جماعة، إضافة إلى المنهج النقدي الذي اتبعه إمام الحرمين في دراسته، إذ لا يكتفي بعرض الموضوع من الناحية الشرعية فقط وآراء الفقهاء السابقين عليه حوله، بل يُمحص هذه الآراء ويفتد الخاطئة منها، وهذا أمر قلّ حدوثه في المؤلفات الإسلامية في حقل السياسة^(٣)، وقد ناقش الإمام الجويني في كتابه غياث الأُمم، نظرية الإمامة وما يدور حولها، كوجوب نصب الأئمة وقادة الأمة، والجهات التي تعين الإمامة وتوجب الزعامة، وصفات أهل الحل والعقد واعتبار العدد فيمن إليه العهد، وصفات الإمام القوام على أهل الإسلام، والطوارئ التي توجب الخلع والانحلال، وإمامة المفضول، ونصب إمامين، وتفصيل ما إلى الأئمة والولاء^(٤). وكتاب غياث الأُمم والتياث الظلم يعطي صورة واضحة عن الفكر السياسي السني في ظل الذروة التي وصل إليها المذهب السني على يد السلاجقة واستقرار الأمن الفكري على يد الوزير نظام الملك^(٥).

إن شخصية الإمام الجويني - رحمه الله - تتميز بالاستقلالية، والإضافة، والأمانة - بالنسبة لكتابه - وهذه الأمور الثلاثة هي أكثر ما نحتاج إليه في البحوث الإسلامية المعاصرة، إنه لم يكن يرضى بتقليد والده مع أنه كان إماماً في عصره، وكان لا يستنكف أن يعزو الفائدة المستفادة إلى قائلها ويقول: إن هذه الفائدة مما استفدته من فلان، وأخيراً فإن هناك ثلاثة كتب تعد من أنفع

(١) غياث الأُمم، ص ٩، ١٠.

(٢) دراسة في السياسة الشرعية عند فقهاء أهل السنة للبغدادي، ص ١٨٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٨٣.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٨٤.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٧٩.

كتب التراث للاقتصاديين المسلمين، وهي: الغياثي لإمام الحرمين وهو أسبقها، وقواعد الأحكام لسلطان العلماء وهو أمتعها، ومقدمة ابن خلدون وهو أشملها^(١).

٦- عودته إلى مذهب السلف ورجوعه عن علم الكلام:

يعتبر الجويني إمام الحرمين من أعظم أعلام الأشاعرة، ولا يكاد يذكر المذهب الأشعري إلا يسبق إلى الذهن هذا الإمام المشهور كأحد من يتمثل هذا المذهب في أقواله وكتبه، وقد قام إمام الحرمين باجتهادات داخل المذهب الأشعري، فالجويني وإن تبنى أقوال شيوخه السابقين ونقلها إلا أنه رد أو ناقش منها ما يرى أنه يستحق الرد والمناقشة^(٢)، ولما كان الجويني ممن خاض في مسائل علم الكلام أكثر من سبقه وما تميزت به شخصيته من استقلال واعتداد، بحيث لا يرى غضاضة في مخالفة شيوخه ولو كانوا أعلاماً كالأشعري والباقلاني وابن فورك وأبي إسحاق الإسفراييني وغيرهم، فقد برز في كتبه ما يدل على تراجعته على بعض أقواله ويمكن عرض الشواهد التالية:

١- حيرته في مسأله العلو: وسئل عن قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] فقال: كان الله ولا عرش. وهو الآن على ما كان عليه، فرد عليه أحد العارفين، لكن الضرورة في قلوبنا تطلب العلو ولا نلتفت بمنة ولا يسرة، وما قال عارف قط يا رباه إلا وسبقه نظره إلى فوق، فما كان من إمام الحرمين إلا أن ضرب بكمه السرير، وصاح بالحيرة والدهشة^(٣)، وجاء في رواية الذهبي: أخبرني أبو جعفر الحافظ، سمعت أبا المعالي وسئل عن قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥٠] فقال: كان الله ولا عرش. وجعل يتخبط، فقلت: هل عندك للضرورات من حيلة؟ فقال: ما معنى هذه الإشارة؟ قلت: ما قال عارف قط: يا رباه إلا قبل أن يتحرك لسانه قام من باطنه قصد لا يلتفت بمنة ولا يسرة - يقصد الفوق - فهل لهذا القصد الضروري عندك من حيلة؟ فتبثنا نتخلص من الفوق والتحت؟ وبكيت وبكى الخلق، فضرب بكمه على السرير، وصاح الحيرة، ومزق ما كان عليه، وصارت قيامة في المسجد، ونزل يقول: يا حبيبي: الحيرة الحيرة والدهشة^(٤)، وجاء في رواية: حيرني الهمذاني^(٥).

ب- عودته إلى مذهب السلف في الصفات: قال أبو المعالي في كتاب الرسالة النظامية:

(١) الفكر الاقتصادي عند إمام الحرمين الجويني للدكتور رفيق يونس، ص ٨٧، ٨٨.

(٢) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/٦٠٢).

(٣) طبقات الشافعية (٥/١٩٠)، العقيدة النظامية، ص ٧٨.

(٤) سير أعلام النبلاء (٤٧/١٨)، العلو للذهبي، ص ١٨.

(٥) مختصر العلو للألباني، ص ٢٧٧، إسناد هذه القصة صحيح مسلسل بالحفاظ.

اختلفت مسالك العلماء في الظواهر التي وردت في الكتاب والسنة، وامتنع على أهل الحق فحواها^(١)، فرأى بعضهم تأويلها والتزم ذلك في القرآن، وما يصح من السنن، وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردّها، وتفويض معانيها إلى الرب تعالى، والذي نرتضيه رأياً، وندين لله به عقداً اتباع سلف الأئمة، فالأولى الاتباع، وترك الابتداع^(٢)، والدليل السمعي القاطع في ذلك أن إجماع الأمة حجة متبعة، وهو مستند معظم الشريعة، وقد درج صحبُ الرسول ﷺ على ترك التعرض لمعانيها ودرك ما فيها وهم صفوة الإسلام المستقلون بأعباء الشريعة، وكانوا لا يألون جهداً في ضبط قواعد الملة والتواصي بحفظها وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها، فلو كان تأويل هذه الظواهر مسوغاً أو مختوماً؛ لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، فإذا تصرم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل؛ كان ذلك قاطعاً بأنه الوجه المتبع، فحقّ على ذي الدين أن يعتقد تنزّه الباري عن صفات المحدثين، ولا يخوض في تأويل المشكلات، ويكل معناها إلى الرب، فليجُرْ آية الاستواء والحيء - أي ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] وقوله: ﴿لَمَّا خَلَّطَ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] و﴿وَيَقَى وَجْهَ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]، و﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]- وما صح من أخبار الرسول كخبر النزول وغيره على ما ذكرناه^(٣). وحكى الفقيه أبو عبد الله الحسن بن العباس الرُستمي قال: حكى لنا أبو الفتح الطبري الفقيه قال: دخلت على أبي المعالي في مرضه، فقال: أشهدوا عليّ أني قد رجعت عن كل مقالة تخالف السنة، وإني أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور^(٤)، وقال في كتابه الغيائي - الذي ألفه بعد النظامية فهو من آخر كتبه - موصياً مغيث الدولة الذي هو نظام الملك قائلاً: والذي أذكره الآن لائقاً بمقصود هذا الكتاب أن الذي يحرص الإمام عليه جمع عامة الخلق على مذاهب السلف السابقين، قبل أن نبغت الأهواء وزاغت الآراء، وكانوا - رضي الله عنهم - ينهاون عن التعرض للغوامض والتعمق في المشكلات، والإمعان في ملابسة العضلات، والاعتناء بجميع الشبهات، وتكلف الأجوبة عما لم يقع من السؤالات، ويرون صرف العناية إلى الاستحاث على البر والتقوى، وكف الأذى، والقيام بالطاعة حسب الاستطاعة، وما كانوا ينكفون - رضي الله عنهم - عما تعرض له المتأخرون عن وعي وحصر، وتبلد في القرائح، هيهات، قد كانوا أذكى الخلائق أذهاناً، وأرجحهم بياناً^(٥).

(١) في النظامية المطبوعة بتحقيق العلامة الكوثري، ص ٢٣ بعد هذه العبارة ما نصه: وإجراؤها على موجب تبرزه أفهام أرباب اللسان.

(٢) العقيدة النظامية، ص ٧٤.

(٣)، (٤) سير أعلام النبلاء (١٨/٤٧٤).

(٥) غياث الأمم، ص (١٩٠، ١٩١).

ج- نهيه أصحابه عن علم الكلام: فقد رجع عن علم الكلام وهو من الأمور المشهورة عنه، ومن أقوله ما رواه الفقيه غانم الموشلي: سمعت الإمام أبا المعالي يقول: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما اشتغلت بالكلام^(١) وروي عنه أنه قال: قرأت خمسين ألفاً في خمسين، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة، وركبت البحر الخضم، وغصت في الذي نهى أهل الإسلام، كل ذلك في طلب الحق، وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد، والآن فقد رجعت إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطف بره فأموت على دين العجائز، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل على كلمة الإخلاص: لا إله إلا الله، فالويل لابن الجريني^(٢).

٧- مؤلفاته: ترك الإمام الجريني - رحمه الله - ثروة هائلة من الكتب والمصنفات، ومن أهم مؤلفاته:

* في العقيدة:

- لمع الأدلة في قواعد أهل السنة.
- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد.
- الشامل في أصول الدين.
- شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل.
- رسالة في أصول الدين.
- مسائل الإمام عبد الحق الصقلي وأجوبتها.
- مختصر الإرشاد للباقلاني.
- العقيدة النظامية.
- كتاب النفس.
- كتاب الكرامات.
- مدارك العقول.

* كتبه في الفقه وأصوله:

- نهاية المطلب في دراية المذهب.
- مختصر النهاية.
- البرهان في أصول الفقه.
- الورقات.
- التلخيص في أصول الفقه.

* مؤلفات في الخلاف والجدل والسياسة:

- مغيث الخلق في اختيار الأحق.
- الأساليب في الخلاف.
- الدرة المعنية فيما وقع من خلاف بين الشافعية والحنفية.

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/٤٧٤). (٢) المنتظم (٩/١٩)، موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/٦٢٠).

- غياث الأمم في التياث الظلم^(١). ومن أراد التوسع فليراجع مقدمة كتاب العقيدة النظامية. فقد أفاض محقق الكتاب الدكتور محمد الزبيدي في سيرة الجويني وآثاره، وكذلك كتاب فقه إمام الحرمين للدكتور عبد العظيم الديب، وكتاب الإمام الجويني إمام الحرمين للدكتور محمد الزحيلي.

٨- وفاته: أصيب الجويني قبل وفاته بمرض اليرقان عدة أيام، انقطع خلالها عن المجالس وحلقات التدريس بالنظامية ثم تعافى من المرض ورجع إلى التدريس والمناظرة، وأضفى ذلك سروراً بالغاً على تلامذته ومحبيه، لكن المرض عاوده من جديد واشتد عليه، فزاد ضعفه، ولم يقو على مزاولة أعماله، ثم نقل إلى بلدة بشتقان إحدى قرى نيسابور، وكانت معروفة باعتدال هوائها. إلا أن المرض تمكّن منه وبدت عليه أحوال الموت، ثم توفي في هذه البلدة وقت صلاة العشاء في الخامس والعشرين شهر ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة للهجرة، وكان عمره تسعاً وخمسين سنة^(٢)، ثم نقل جثمان الجويني في تلك الليلة إلى نيسابور، وحمل في يوم الأربعاء بين الصلاتين إلى ميدان الحسين في المدينة وصلى عليه ثم أعيد إلى داره ودفن فيها، لكن جثمانه نقل فيما بعد إلى مقبرة الحسين في نيسابور ودفن إلى جانب والده^(٣). وكان لوفاة الجويني وقع شديد على أهالي نيسابور والبلاد المجاورة بعامه، وعلى تلامذته ومحبيه بخاصة^(٤)، فقد كسروا منبره، وغلقت الأسواق، ورثي بقصائد، وكان له نحو من أربعمائة تلميذ، كسروا محابرهم وأقلامهم، وأقاموا حولاً، ووضعت المناديل عن الرؤوس عاماً، بحيث ما اجتراً أحد على ستر رأسه، وكان الطلبة يطوفون في البلد نائحين عليه، مبالغين في الصياح والجزع^(٥). وقد علق الذهبي على ذلك فقال: هذا كان من زيّ الأعاجم لا من فعل العلماء المتبعين^(٦)، ومما رثي به:

قلوب العالمين على المقالي وأيام الورى شبه الليالي
أيثمر غصن أهل العلم يوماً وقد مات الإمام أبو المعالي^(٧)

(١) العقيدة النظامية، ص ٩٣ - ١٠٢.

(٢) طبقات الشافعية للإسنوي (١٨٧/٥)، العقيدة النظامية، ص ٧٩.

(٣) وفیات الأعيان (١٦٩/٣).

(٤) العقيدة النظامية، ص ٨٠.

(٥)، (٦) سير أعلام النبلاء (٤٧٦/١٨).

(٧) وفیات الأعيان (١٧٠/٣).

المبحث الخامس

الإمام الغزالي، من كبار علماء المدارس النظامية

أولاً: اسمه ونسبه ونشأته:

١- اسمه ونسبه: الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام، أعجوبة الزمان، زين العابدين، أبو حامد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، الشافعي، الغزالي، صاحب التصانيف والذكاء المفرط^(١). وقد نسبته البعض إلى غزالة - بتخفيف الزاي - وهي بلدته التي ولد فيها، وهي نسبة صحيحة من حيث اللغة، والبعض نسبته إلى: الغزالي - بتشديد الزاي - نسبة إلى الغزال حرفة والده التي كانت يكتسب منها وهي نسبة صحيحة أيضاً من حيث اللغة.

٢- نشأته ومولده: ولد «بطوس»^(٢)، سنة خمسين وأربعمائة هجرية، وأما والده فقد كان فقيراً صالحاً لا يأكل إلا من كسب يده حيث كان يغزل الصوف ويبيعه في دكانه بطوس، وكان يختلف في أوقات فراغه إلى مجالسة العلماء ويطوف عليهم ويتوفر على خدمتهم، ويجد في الإحسان إليهم والتفقه بما يمكنه عليهم، وكان إذا سمع كلامهم بكى وتضرع إلى الله أن يرزقه ابناً يجعله فقيهاً وواعظاً، فرزقه الله بولدين هما أبو حامد وأخوه أحمد^(٣)، غير أن الأقدار لم تمهله حتى يرى رجاءه قد تحقق ودعوته قد استجيب، فقد توفي وما يزال أبو حامد صغيراً لم يبلغ سن الرشد. أما أم (أبي حامد) فقد عاشت حتى شهدت بزوغ شمس ابنها في سماء المجد وتبوأه أكبر مركز علمي في ذلك العهد^(٤)، وكان والده قد أوصى به وبأخيه إلى صديق له متصوف من أهل الخير وقال له: إن لي لتأسفاً عظيماً على تعلم الخط، وأشتهي استدراك ما فاتني في ولدي هذين، فعلمهما ولا عليك أن تنفذ في ذلك جميع ما أخلفه بهما، فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما إلا أنه ما فتى أن نفذ ذلك التزير اليسير الذي خلفه لهما أبوهما، وتعذر على الصوفي القيام بقوتهما، فقال لهما: اعلمنا أنني قد أنفقت عليكم ما كان لكما، وأنا رجل من الفقر والتجريد لا مال لي فأواسيكمما به، وأصلح ما أرى لكما أن تلجأ إلى مدرسة فإنكما من طلبة العلم فيحصل لكما قوت يعينكما على قوتكما، ففعلاً ذلك، وكان هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهم، وكان الغزالي يحكي

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/٣٢٢، ٣٢٣).

(٢) مدينة بخراسان تقع شمال شرق إيران وتسمى الآن بشهر.

(٣) وفيات الأعيان (١/٢٠٧)، التصوف بين الغزالي وابن تيمية، ص ٤٦.

(٤) طبقات الشافعية (٦/١٩٣، ١٩٤) بتصرف.

هذا ويقول: طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا الله^(١).

٣- اجتهداه في طلب العلم: قرأ في صباه طرفاً من الفقه ببلده طوس على أستاذه أحمد بن محمد الرازكاني^(٢)، وكان أستاذه الأول بها (يوسف النساج)، وبعد تناول الغزالي هذا القدر اليسير من الفقه في بلدته يشد الرحال إلى جرجان، حيث التقى بأستاذه أبي نصر الإسماعيلي ويدون ما يسمعه منه كمرحلة أولى من التلقي والتعليم، ثم يرجع إلى طوس وفي أثناء رجوعه حدث له ما جعله يحفظ ما كتب ويفهم ما علم، وفي هذا يقول: قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع ما معي، ومضوا فتبعتهم، فالتفت إلى مقدمهم وقال: ارجع ويحك وإلا هلك، قلت له: أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد عليّ تعليقي فقط فما هي بشيء تنتفعون به، فقال لي: وما هي تعليقاتك؟ فقلت: كتب في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها، فضحك، وقال: كيف تدعى أنك عرفت علمها، وقد أخذناها منك، فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم؟ ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلى المخلاة. قال الغزالي: هذا منطق أنطقه الله ليرشد به أمرى، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته، وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمي^(٣).

٤- ملازمته إمام الحرمين: قدم الغزالي نيسابور - وهي عاصمة السلجوقيين، ومدينة العلم بعد بغداد - ولازم إمام الحرمين - وهو من عرفنا شخصيته وجلالته في العلم والتدريس - وجد واجتهد حتى برع في المذهب والخلاف والجدل والأصول، وكانت العلوم السائدة في عصره، وأعجب بذكائه وغوصه على المعاني الدقيقة واتساع معلوماته إمام الحرمين، فكان يقول: الغزالي بحر مغدق^(٤). وفاق أقرانه - وهم أربعمائة - حتى أصبح معيداً لأستاذه ونائباً عنه^(٥)، وقيل إنه ألف المنحول، فرآه أبو المعالي، فقال: دفتني وأنا حي، فهلا صبرت الآن، كتابك غطى على كتابي^(٦).

٥- تعيينه مدرساً على نظامية بغداد: ولما مات إمام الحرمين عام ٤٧٨ هـ خرج الغزالي إلى المعسكر قاصداً الوزير نظام الملك، وهو لم يتجاوز الثامنة والعشرين من سنه، وقد ظهر فضله وذاع صيته، وكان مجلس الوزير مجمع أهل العلم وملاذهم، وكانت المجالس

(١) الإمام الغزالي، صالح الشامي، ص ١٩.

(٢) الرازكاني: نسبة إلى بلدة صغيرة بنواحي طوس.

(٣) الإمام الغزالي، صالح أحمد الشامي.

(٤) طبقات الشافعية (١٩٥/٦)، التصوف بين الغزالي وابن تيمية، ص ٤٧.

(٥) رجال الفكر والدعوة (١٧٢/١). (٦) سير أعلام النبلاء (١٩/٣٣٥).

حتى المآتم لا تخلو من المناظرات الفقهية والمطارحات الكلامية، فناظر الغزالي الأئمة العلماء في مجلس نظام الملك، وقهر الخصوم، وظهر كلامه عليهم، واعترفوا بفضله، وتلقاه صاحب بالتعظيم والتبجيل، وولاه تدريس مدرسته النظامية ببغداد، وكان ذلك غاية ما يطمح إليه العلماء ويتنافسون فيه، فقدم بغداد في سنة أربع وثمانين وأربعمائة ولم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره، وقلماً تقلد هذا المنصب الرفيع عالم وهو في هذه السن، درّس الغزالي بالنظامية، وأعجب الخلق حسن كلامه، وكمال فضله، وفصاحة لسانه، وتكته الدقيقة، وإشاراته اللطيفة، وأحبوه^(١). قال معاصره عبد الغافر الفارسي: وعلت حشمته ودرجته في بغداد حتى كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة^(٢)، وكان يقرأ عليه جم غفير من الطلبة المحصلين: يقول في «المنقذ من الضلال» في وصف حاله والنظامية: وأنا مهتم بالتدريس والإفادة لثلاثمائة نفس من الطلبة ببغداد^(٣). وأخذ في تأليف الأصول والفقه والكلام والحكمة^(٤).

٦- من أسباب نبوغ الغزالي وشهرته: تجمعت عدة عوامل كانت سبباً في نبوغ الغزالي وشهرته منها:

- نشأته العلمية، فقد كان شغوفاً بالعلم باحثاً عن اليقين، وعن حقائق الأمور، ودرس علوم عصره ونبع فيها وفاق أقرانه.
- ما كان يتمتع به من حافظه قوية.
- ما كان يتمتع به من شدة الذكاء، فقد كان شديد الذكاء شديد النظر، مفرط الإدراك، بعيد الغور، غواصاً على المعاني الدقيقة.
- تدريسه بالمدرسة النظامية التي أنشأها السلاجقة لتعليم مبادئ أهل السنة، فقد كان ذلك من أسباب شهرته^(٥).

٧- التحول الكبير الذي غير مجرى حياته: بلغ الغزالي في تلك الأيام قمة المجد، وأتته الدنيا خاضعة ذليلة، أتته بالمال والشهرة وذيوع الاسم، كما أتته بالجاء ونفوذ الكلمة، واستمتع بذلك كله، ومع ذلك لم ينقطع عن طلب العلم، فطالع العلوم الدقيقة والكتب المصنفة فيها. مما كان له كبير الأثر في التحول الكبير الذي غير مجرى حياته فيما بعد^(٦).

(٢) رجال الفكر والدعوة (١/١٧٣).

(٤) سير أعلام النبلاء (١٩/١٧٣).

(١) طبقات الشافعية (٤/١٠٦).

(٣) المنقذ من الضلال، ص ٨٥.

(٥) التصوف بين الغزالي وابن تيمية، ص ٥٠.

(٦) الإمام الغزالي، صالح الشامي، ص ٢٣.

ولنترك للإمام الغزالي الحديث، فهو خير من يشرح لنا قصته في هذا التحول: ابتدأت بمطالعة كتبهم مثل «قوت القلوب» لأبي طالب المكي رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات الماثورة عن الجنيد... فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسمع والتعليم، بل بالدوق والسلوك، وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكفّ النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا، بالتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكنهه المهمة على الله تعالى، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال، والهرب من الشواغل والعلائق، ثم لاحظت أحوالي، فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أهدت بي من الجوانب، ولاحظت أعمالي - وأحسنها التدريس والتعليم - فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة، ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا هي غير صالحة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه، وانتشار الصيت، فتيقنت أنني على شفا جرف هار، وأني أشفيت على النار، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال، فلم أزل أفكر فيه مدة، وأنا بعد على مقام الاختيار، أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً، وأحل العزم يوماً، وأقدم فيه رجلاً، وأؤخر عنه أخرى، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة، إلا وتحمل عليها جنود الشهوة جملة فتفترها عشية، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني سلاسلها إلى المقام، ومنادي الإيمان ينادي: الرحيل الرحيل، فلم يبق من العمر إلا القليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخيل، فإن لم تستعد الآن للآخرة، فمتى تستعد؟ وإن لم تقطع هذه العوائق فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية، وينجزم العزم على الهرب والفرار، ثم يعود الشيطان ويقول: هذه الحال عارضة، إياك أن تطاوعها، فإنها سريعة الزوال، فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص، والأمن المسلم الصافي عن منازعة الخصوم، ربما التفتت إليك نفسك ولا يتيسر لك المعادة، فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة، قريباً من ستة أشهر، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ قفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً للقلوب المختلفة إليّ، فكان لساني لا ينطق بكلمة واحدة، ولا أستطيعها البتة... ثم لما أحسست بعجزتي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله تعالى، التجاء المضطر، الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأولاد

والأصحاب^(١). وغادر الغزالي بغداد في شهر ذي القعدة سنة ثمان وثمانين، فحج وتوجه إلى الشام، فأقام بها عشر سنين، قضى بعضها في بيت المقدس، وكان غالب وقته فيها عزلة وخلوة، ورياضة ومجاهدة للنفس، واشتغلاً بتزكيتها، وتصفية القلب لذكر الله تعالى، وكان يعتكف في منارة مسجد دمشق طول النهار^(٢)، ويصف معاصره عبد الغافر انقلابه هذا فيقول: وسلك طريق الزهد والتأله، وطرح ما نال من الدرجة للاشتغال بأسباب التقوى وزاد الآخرة، فخرج عما كان فيه.. وأخذ في مجاهدة النفس وتغيير الأخلاق، وتحسين السمائل، فانقلب شيطان الرعونة وطلب الرياسة والجاه والتخلق بالأخلاق الذميمة إلى سكون النفس، وكرم الأخلاق، والفراغ عن الرسوم والترتيبات، وتزياً بزي الصالحين، وقصر الأمل.. والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية^(٣) وأخذ في التصانيف المشهورة مثل إحياء علوم الدين والكتب المختصرة منه، مثل الأربعين وغيرها من الرسائل، التي من تأملها علم محل الرجل من فنون العلم^(٤).

٨- عودته للتصدي للتعليم: ثم عاد بعد تلك العزلة التي استمرت عشر سنوات إلى بلده طوس، ليتابع عزلته سنة أخرى وتحت إلهام الولاة وتكرار طلبهم بالخروج إلى الناس.. خرج إلى نيسابور ليدرس بالمدرسة النظامية فيها، وكان ذلك في شهر ذي القعدة سنة ٤٩٩هـ وقال في ذلك: ويسر الله الحركة إلى نيسابور للقيام بهذا المهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وبلغت مدة العزلة إحدى عشرة سنة^(٥)، ويشرح لنا الغزالي عودته إلى التعليم، وأنها كانت بأسلوب جديد، ونية جديدة، وهدف جديد يختلف كل الاختلاف عما كان عليه سابقاً، فيقول: وأنا أعلم أنني وإن رجعت إلى نشر العلم، فما رجعت، فإن الرجوع عود إلى مكان. وكنت في الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه وأدعو إليه بقولي وعملي، وكان ذلك قصدي ونيتي، وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه ويعرف به سقوط رتبة الجاه، هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيته يعلم الله ذلك مني، وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري، ولكني أؤمن بإيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم، وأني لم أتحرك لكنه حركني، وأني لم أعمل لكنه استعملني، فأساله أن يصلحني أولاً، ثم يصلح بي، ويهديني، ثم يهدي بي، وأن يريني الحق حقاً ويرزقني اتباعه، ويريني الباطل باطلاً ويرزقني اجتنابه^(٦)، ولم تطل إقامته في نيسابور وكانت المدة التي درسها في النظامية فيها يسيرة، ثم

(٢) الإمام الغزالي للشامي، ص ٢٥.

(١) المنقذ من الضلال، ص ١٣٩ - ١٤٣.

(٣)، (٤) المصدر نفسه، ص ٢٦.

(٥) المنقذ من الضلال، ص ١٥٩.

(٦) المنقذ من الضلال، ص ١٥٩ - ١٦٠.

ترك ذلك، وعاد إلى بيته في طوس، واتخذ في جواره مدرسة للطلبة، وخانقاه للصوفية، وورّع أوقاته على وظائف: من ختم القرآن، ومجالسة ذوي القلوب، والقعود للتدريس، حتى توفي بعد مقاساة لأنواع من القصد، والمناوأة من الخصوم والسعي فيه إلى الملوك، وحفظ الله له عن نوش أيدي النكبات^(١). وكانت خاتمة أمره إقباله على طلب الحديث ومجالسة أهله، ومطالعة الصحيحين، ولو عاش، لسبق الكل في ذلك الفن بيسير من الأيام، وهذا توفيق من الله تعالى كبير للإمام الغزالي أن جعل خاتمته على الحديث والسنة، ونحسب أن الله تعالى وفقه لهذه النهاية بكرم وفضل منه ومنه. ولم يتفق له أن يروي، ولم يعقب إلا البنات وكان له من الأسباب إرثاً وكسباً ما يقوم بكفايته، وقد عُرضت عليه أموال فما قبلها^(٢). ومما كان يعترض به عليه وقوع خلل من جهة النحو في أثناء كلامه، وروجع فيه فأنصف، واعترف أنه ما مارسه واكتفى بما كان يحتاج إليه في كلامه، مع أنه كان يؤلف الخطب، ويشرح الكتب بالعبارة التي يعجز الأدباء والفصحاء عن أمثالها^(٣).

٩- الترتيب الزمني لمؤلفات الغزالي المقطوع بصحة نسبتها إليه حسب تاريخ تأليفها:

* المرحلة الأولى: من ٤٦٥هـ - ٤٧٨هـ: أي قبل وفاة شيخه أبي المعالي الجويني:

- التعليقة في فروع المذهب، وهي التي أخذها منه قطاع الطرق ثم ردوها إليه.
- المنخول في أصول الفقه.

* المرحلة الثانية: من ٤٧٨هـ - ٤٨٨هـ:

- البسيط في فروع المذهب. قال فيه ابن خلكان: ما صنف في الإسلام مثله.
- الوسيط (ملخص من البسيط).
- الوجيز.

- خلاصة المختصر ونقاوة المعتصر، أو الخلاصة في الفقه الشافعي.

- المتحل في علم الجدل (في المناظرة والخلاف).

- مآخذ الخلاف.

- تحصين المآخذ (في علم الخلاف).

- المبادئ والغايات (في أصول الفقه).

- شفاء الغليل (في القياس والتعليل).

- فتوى لابن تاشفين (من جملة فتاوى الغزالي).

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/٣٢٥).

(٢)، (٣) المصدر نفسه (١٩/٣٢٦).

- الفتوى الزيدية (في حكم من كفر يزيد بن معاوية).
 - مقاصد الفلاسفة (بيان مبادئ الفلسفة).
 - تهافت الفلاسفة.
 - معيار العلم. بعد التهافت وقبل سفره إلى دمشق^(١).
 - معيار العقول.
 - محك النظر في المنطق. ويذكر الذهبي أنه ألفه بدمشق.
 - ميزان العقل.
 - المستظهري - وهو رد على الباطنية.
 - حجة الحق، كذلك بيان فساد مذهب الباطنية.
 - قواصم الباطنية؛ يرد فيه على شبههم.
 - الاقتصاد في الاعتقاد.
 - الرسالة القدسية في العقائد.
 - المعارف العقلية والأسرار الإلهية.
- هذه أهم كتبه في هذه المرحلة
- * المرحلة الثالثة: من ٤٨٨هـ - ٤٩٩هـ: وكتب هذه المرحلة كثيرة أهمها:

- إحياء علوم الدين.
 - * المرحلة الرابعة (بين ٤٩٩هـ - ٥٠٣هـ) وأهم كتب هذه المرحلة:
 - المنقذ من الضلال.
 - المستصفى في علم الأصول.
 - * السنوات الأخيرة من ٥٠٣هـ - ٥٠٥هـ:
 - منهاج العابدين في الزهد والأخلاق والعبادات.
 - إجماع العوام عن علم الكلام. وهو آخر كتبه التي ألفها عام ٥٠٥هـ وقيل موته
- بأيام. جرى على مذهب السلف ونسب ما دونه من المذاهب إلى البدعة^(٢).

ثانياً: موقف الغزالي من الشيعة الباطنية:

إذا كانت إحدى ثمرات المدارس النظامية أنها مهدت الطريق لسيادة المذهب السني الأشعري، فإنه كان من أبرز آثارها أيضاً تقلص نفوذ الفكر الشيعي، خاصة بعد أن خرجت المؤلفات المناهضة له من هذه المدارس، وكان الإمام الغزالي - العالم السني - على قمة

(١)، (٢) أبو حامد الغزالي والتصوف، عبد الرحمن دمشقية، ص ٣٥-٤٠.

المفكرين الذين شنوا حرباً شعواء على الشيعة خاصة الباطنية الإسماعيلية إذ يذكر هو أنه ألف في ذلك كتباً عدة: أشهرها فضائح الباطنية الذي كلف بتأليفه في ٤٨٧هـ من قبل الخليفة المستظهر^(١)، على أن الشيء المثير للإعجاب هو شجاعة الغزالي في حملته على الإسماعيلية الباطنية التي جاءت في وقت انتشر فيه دعائهم في فارس، وتزايد خطرهم حتى أقاموا الحصون والقلاع، وهددوا أمن الناس وسلامتهم، وقاموا بالاغتيالات على نطاق واسع فشملت كثيراً من الساسة والمفكرين وعلى رأسهم نظام الملك نفسه، والغزالي قام بهذه الحملة بتوجيه من السلطة، مع رغبة الغزالي العالم السني في القيام بواجبه في الدفاع عن الإسلام الحقيقي^(٢)، وهذا شيء جميل أن تلتقي جهود السلطة السياسية مع علمائها في تحقيق أهداف الإسلام من خلال مؤسسات نافعة للمجتمعات والدول والحضارات، كالذي قامت به المدارس النظامية في مقاومة الفكر والنفوذ الشيعي الباطني. كانت الدولة الفاطمية قد تدرعت بالفلسفة وظهرت في مظهر ديني سياسي، فكانت -كما يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي- أشد خطراً على الإسلام من الفلسفة، فقد كانت الفلسفة تعيش في برجها العاجي بعيداً عن الشعب والجمهور^(٣)، وأما الباطنية، فكانت تتسرب إلى المجتمع وتنفض سمومها فيه، وكانت لها الإغراءات المادية القوية، ولم يكن في العالم الإسلامي في آخر القرن الخامس أحد أجدر بالرد عليها، والكشف عن أسرارها، ونقض ما تبني عليه دعوتها، من الغزالي.

١- بنية كتاب «فضائح الباطنية»: الكتاب قسمان: القسم الأول خصصه الغزالي لإظهار «فضائح الباطنية»، وخصص القسم الثاني لإثبات شرعية خلافة المستظهر بالله. ويمكن أن نتبين تقسيماً داخلياً للقسم الأول يحتوي على أكثر من عشرة فصول، مشروعية الرد عليهم، بيان صفاتهم، منشوئهم، أغراضهم، أتباعهم، مذهبهم ويشمل الإلهيات والنبوة والإمامة والحشر والنشر، استدلالهم بالأعداد والحروف، الكشف عن فتوى الشرع في حقهم من التكفير وسفك الدماء، أحكام من قضي بكفر منهم، في قبول توبتهم أو ردها، العهد معهم كيف يبطل ومتى..^(٤) إلخ.

فالغزالي بدأ حديثه بمشروعية الرد على الباطنية ذاكراً أن التأليف في الرد عليهم هو فرض عين^(٥)، ثم عمد فيما بعد إلى الخوض في المسائل العملية محدداً من منهم يستحق

(١) التاريخ السياسي والفكري، عبد المجيد بدوي، ص ١٩٤.

(٢) رجال الفكر والدعوة (٢٠٤/١)، الغزالي للقرضاوي، ص ٥٧.

(٣) الجهاد من الهجرة إلى الدعوة والدولة، محمد الرمحوني، ص ١٤٧.

(٤) الجهاد من الهجرة إلى الدعوة والدولة، محمد الرمحوني، ص ١٤٧.

(٥) فضائح الباطنية، ص ٤، الجهاد للرمحوني، ص ١٤٧.

التكفير ومن منهم يستحق التبديع، ومتى تقبل توبتهم ومتى ترد. إلخ.

فالغزالي لا يواجه كفّاراً مقطوعاً بكفرهم وإنما يواجه مجموعة ما فتت تؤكد من خلال أفكارها وعقائدها وعمارساتها أنها من داخل الأمة بل هي تقدم نفسها على أنها تروم تطهير الدين من الضلالات كما يقول إخوان الصفا، لذلك كان عليه أن يجتهد في إخراج هذه الجماعة من حظيرة الإسلام حتى يكون جهادها مشروعاً، ولا يتسنى له ذلك إلا بالكشف عن أصولها وأتباعها وعقائدها وغايتها القريبة والبعيدة، وحينما يتم ذلك تصبح معاملتهم معاملة الكفار «أي جهادهم» أمراً مشروعاً ويجري عليهم حيثنذ ما يجري على الكفار من شروط وأحكام وطرائق^(١).

٢- مضمون الكتاب: منذ فاتحة الكتاب وإلى نهاية القسم الأول يطالعنا الغزالي بجرصه الشديد على الربط بين مذهب الباطنية والكفر.

١- فهم كفّار في نشاطهم: ولكن تشاور جماعة من المجوس والمزدكية وشرذمة من الثنوية الملحدون وطائفة كبيرة من ملحدة الفلاسفة المتقدمين وضربوا سهام الرأي في استنباط تدبير يخفف عنهم ما نابهم من استيلاء أهل الدين وينفس عنهم ما دهاهم من أمر المسلمين^(٢).

ب- وهم كفّار في صفاتهم: لا يرجون الله وقاراً، ولو خاطبهم دعاة الحق ليلاً ونهاراً لم يزددهم دعاؤهم إلا فراراً، فإذا أطل عليهم سيف أهل الحق آثروا الحق إشاراً، وإذا انقشع عنهم ظلّه أصروا واستكبروا استكباراً^(٣).

ج- وهم أيضاً كفّار إذ غرضهم الأقصى إبطال الشرائع: ففي مستوى الإلهيات هم يقولون بإلهين قديمين لا أول لوجودهما من حيث الزمان^(٤)، وهم بذلك يلتقون مع الثنوية والمجوس، وفي مستوى النبوات «رؤيتهم للنبي والنبوة» هم يرون أن النبي عبارة عن شخص فاضت عليه من السابق «الإله الأول» بواسطة التالي (الإله الثاني) قوة قدسية صافية مهيأة لأن تنتقش عند الاتصال بالنفس الكلية بما فيها من الجزئيات^(٥).

د- أما القرآن في مفهومهم فهو تعبير عن المعارف التي فاضت على الرسول من العقل

(١) الجهاد من الهجرة إلى الدعوة إلى الدولة، ص ١٤٨.

(٢) فضائح الباطنية، ص ٢٨.

(٣) فضائح الباطنية، نقلاً عن الجهاد من الهجرة إلى الدعوة إلى الدولة، ص ١٤٨.

(٤، ٥) فضائح الباطنية، ص ٣٧.

الذي هو المراد باسم جبريل^(١).

هـ- أما عن الإمامة، فقد اتفقوا على أن الإمام يساوي النبي في العصمة والاطلاع على حقائق الحق في كل الأمور، إلا أنه لا ينزل إليه الوحي وإنما يتلقى ذلك من النبي خليفته وبإزاء منزلته^(٢).

و- وأما القيامة والمعاد فقد أنكروهما وأولوهما على أنهما مجرد رمز خروج الإمام وقيام قائم الزمان^(٣).

ز- وأما موقفهم من التكاليف الشرعية، فبنى على استباحة المحظورات واستحلالها وإنكار الشرائع^(٤). إن هذه الصفات والمعتقدات تسوي الباطنية بالكفار إلا أن الكفار يهددون الإسلام من الخارج، في حين أن الباطنية يهددونه من الداخل، فهم عنصر مخرب من داخل العقيدة ذاتها بما أنهم يتسبون إلى الإسلام ويستظنون برايته ويدعون أنهم حماة والمعبرون عنه بصدق، لذلك فإن طريقة التعامل معهم يجب أن تكون أشد وأقسى من تلك التي يعامل بها الكفار^(٥)، كان لكتابات الغزالي أثر قوي في مجال الرد على الباطنية، فقد استطاع بفكره القوي وبما نال من شهرة أن يكون ذا تأثير قوي في مقاومة الباطنية، وأن يناصر المذهب السني، فقد استطاع توظيف العلوم الشرعية، والعلوم العقلية، من الفلسفة والمنطق والكلام، في نسف جذور المذهب الباطني، وقال فيهم كلمته التي سارت مسير الأمثال: ظاهرهم الرضا وباطنهم الكفر المحض، فهم يتسترون بالتشيع وما هم من الشيعة في شيء، وإنما هو قناع يخفون وراءه كيدهم لأهل الإسلام^(٦)، ومما يذكر للغزالي: استمراره على نقد هذه الطائفة، وكشف اللثام عن تناقض أفكارها، وفضائح أعمالها، وسوء نواياها، برغم ما كان معلوماً في ذلك الوقت أن هذا النقد قد يكلفه حياته، وقد رأى بنفسه مصرع رجل الدولة الكبير، الوزير نظام الملك وفخر الملك ابن نظام الملك أيضاً، فلم يجد بداً أمام ضغطه من الإذعان، وكان الباطنية يهددون كل من يروونه خطراً عليهم - من رجال الملك أو رجال العلم - بالانتقام في صورة طعنة في خنجر، أو سم يدس في طعام أو غير ذلك من الأساليب التي أتقنها ونفذوها بكل دقة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على شجاعة الغزالي في صدعه بالحق، ومواجهة الباطل، مهما تكن النتيجة ولن يصيبه

(١)، (٢)، (٣) المصدر نفسه، ص ٤٢.

(١) فضائح الباطنية، ص ٤١

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٤.

(٥) الجهاد من الهجرة إلى الدعوة إلى الدولة، ص ١٤٩.

(٦) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه للقرضاوي، ص ٦٠.

إلا ما كتب الله له ^(١). وهذا درس وتذكير للعلماء المعاصرين أن يصدقوا الله في مقاومة الباطنيين الجدد، وقد رأيت بعض المحسوبين على العلماء يخشونهم، ويخافون من القتل والاغتيال أو تهمة الوهم بالطائفية أو وقوعهم تحت إبر التخدير الباطنية، أو نتيجة مجاملات لا وزن لها في ميزان الشريعة أو حسابات دنيوية زائلة، ولذلك تركوهم يعبثون بعقائد الأمة ومقدساتها، وأسهم بعض علماء الأمة في تخدير الجمهور العريض من أبناء المسلمين مع علم هؤلاء العلماء بمخطر هؤلاء القوم على عقائد الأمة وأخلاقيها، أما يخشى هؤلاء الناس من يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار ويسأل الله فيه الصادقين عن صدقهم؟!.

٣- البعد السياسي في كتابات الغزالي: يعتبر الغزالي المنظر الكبير للدولة السلجوقية السنية، ولم يكن يعيش بعيداً عن الأحداث وصراعات السلاجقة مع خصومهم الفاطميين الإسماعيليين، فقد كان قبل عزله وتركه للنظامية «فيلسوف الدولة» الذي عاش في كنفها، بالمعنى الإيديولوجي الكامل لكلمة «فيلسوف». لقد انخرط في سلك حاشية الوزير السلجوقي نظام الملك منذ الثامنة والعشرين من عمره، وباستثناء كتابين في الفقه (التعليق والمنخول)، فإن جميع ما كتبه الغزالي كتبه بعد انخراطه في سلك كبار رجال الدولة السلجوقية، وكما هو معروف فلقد كان الخصم الأساسي والخطير لهذه الدولة الإسماعيلية الباطنية - إسماعيلية «الموت» - بزعامة الحسن بن الصباح. وقد ركزت الإسماعيلية آنذاك في دعوتها السياسية على القول بضرورة «المعلم» أي الإمام، وكما هو معروف فقد كتب الغزالي في الرد على الباطنية، وقد كتبه كما صرح هو بنفسه بأمر من الخليفة العباسي المستظهر بالله، فأهداه إليه وسمي الكتاب أيضاً «المستظهري»، ومذهب الإسماعيلية مذهب ديني فلسفي سياسي، وإبطال آرائهم السياسية والدينية يتطلب أيضاً إبطال فلسفتهم، ولم تكن فلسفتهم شيئاً آخر غير الفلسفة التي كان يلتقي عندها في المشرق فلاسفة العصر يومئذ ^(٢) أعني الأفلاطونية المحدثة في صيغتها المشرقية الهرمسية. ومن هنا كان هجوم الغزالي على الفلسفة ^(٣) وعندما نفحص كتاب فضائح الباطنية، نبين بوضوح كيف أن التهافت قد كتب فعلاً من أجل فضائح الباطنية، إذ هناك أمور تفهم بقراءة الفضائح، في مقدمة تلك الأمور الدافع إلى الهجوم على الفلاسفة والذي هو دافع عقائدي واضح، لأن الفلاسفة يمدون الباطنية بالجانب التنظيري لمذهبهم، فقد كان الفلاسفة نصيراً قوياً ومعيناً لهم من ذلك، مثلاً عقيدتهم في المعاد، فالملاحظ - كما يقول الغزالي - أن مذهبهم في المعاد هو بعينه مذهب

(١) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه للقرضاوي، ص ٦٢.

(٢) أبو حامد الغزالي، دراسات في فكره وعصره وتأثيره، ص ٦٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩١.

الفلاسفة، وإنما شاع فيهم لما انتدب لنصرة مذهبهم جماعة من الثوية والفلاسفة، فكل واحد نصر مذهبهم طمعاً في أموالهم وخلعهم واستظهاراً بأتباعهم لما كان قد ألفه في مذهبه، فصار أكثر مذهبهم موافقاً للثنوية والفلاسفة في الباطن، وللروافض والشيعة في الظاهر^(١)، فقد انتشر مذهب الباطنية عندما انتصر له الفلاسفة، وانتصر له الفلاسفة طمعاً في أموالهم وصلاتهم، والنتيجة وجود المصلحة المتبادلة التي ينتج عنها توافق في القول بين الفلاسفة والباطنية^(٢) ولذلك كان الهجوم الكبير من الغزالي على الفلاسفة، واستطاع تحويل المعركة التي كانت تدور فيما سبق بين الأشاعرة والمعتزلة إلى معركة بين الأشاعرة والفلاسفة، وكتاب تهافت الفلاسفة ألفه الغزالي في المرحلة التي كان فيها أستاذاً للمدرسة النظامية دون منازع^(٣)، وأما الجانب الآخر فهو أن دعوى «المعلم» و«التعليم» التي ركزت عليها الإسماعيلية يومئذ هناك من يقول إنه لا سبيل إلى إبطالها إلا بطرح بديل؛ والبديل - عند الغزالي - هو المنطق، وبالتالي فلحاح الغزالي على ضرورة اصطناع المنطق منهجاً وحيداً في تحصيل العلم لم يكن من أجل المنطق ذاته، بل كان ضد نظرية «التعليم» العرفانية الإسماعيلية الباطنية، ومن أجل تقوية المذهب الأشعري الذي كانت الدولة السلجوقية قائمة على أسسه الفكرية والعقائدية، وبالتالي كان هذا البعد يعتبر توجيه ضربية قوية لخصوم السلاجقة كالدولة الفاطمية الإسماعيلية ودعاتها في مرتكزاتها الفكرية. ويبقى الجانب الثالث وهو الدعوة إلى التصوف، والتصوف - كما هو معروف - كان الأساس الإيديولوجي والتنظيمي لكيان الدولة السلجوقية، وإذن فموقف الغزالي من هذه الناحية مفهوم ومبرر، ليس هذا فحسب، بل إن الغزالي من هذه الناحية قد أدرك بوضوح أن الجانب الروحي في العرفان الشيعي عامة لا يمكن تعويضه باصطناع المنطق، فلم يبق إذن إلا تجريد التصوف الباطني من طابعه السياسي الذي طبعت به الشيعة الإمامية والإسماعيلية، ومحاولة توظيفه توظيفاً سنياً، وقد فعل الغزالي ذلك انطلاقاً من التراث السني العظيم.. إذن فالأطراف الثلاثة: الدعوة إلى التصوف، ومهاجمة الفلاسفة، والدعوة إلى اصطناع المنطق ربما تجسم فعلاً تناقضاً واضحاً، ولكن فقط على صعيد الفكر المجرد، أما على صعيد السياسة والإيديولوجيا، فقد كانت - في وقتها - أسلحة ثلاثة متكاملة موجهة نحو خصم واحد^(٤).

(١، ٢) أبو حامد الغزالي، دراسة في فكره وعصره وتأثيره، ص ٩١

(٣) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/ ٦٣٠).

(٤) أبو حامد الغزالي، دراسة في فكره وعصره وتأثيره، ص ٦٨.

ثالثاً : موقف الغزالي من الفلاسفة والفلسفة :

يمتاز الغزالي عن كل من سبقه في محاربة الفلسفة، أنهم اتخذوا موقف الدفاع عن الإسلام وعقائده، والاعتذار عن الدين الإسلامي، فكانت الفلسفة تهاجم الإسلام، وهؤلاء يدافعون عن الإسلام وينفون التهم الموجهة إليه، ويحاولون أن يبرروا موقفه، ويلتمسوا العذر لعقائده ونظرياته، فكأن علم الكلام كان جُنة تتلقى هجمات الفلسفة وتُحصّن العقيدة الإسلامية، ولم يجترئ أحد من المتكلمين أن يُهاجم الفلسفة ويغزوها في عقر دارها، لعدم تعمقهم في الفلسفة وتضلّعهم من أصولها وفروعها، ولعدم تسليحهم بالأسلحة التي يُواجهون بها الفلسفة ويوسعونها جرحاً ونقداً؛ فكان موقفهم موقف الدفاع عن قضية، وموقف الدفاع دائماً ضعيف، أما الغزالي، فقد هاجم الفلسفة وتناولها بالفحص والنقد، وهجم عليها هجوماً عنيفاً مبنياً على الدراسة والبحث العلمي، حجة مثل حجة الفلسفة، وعقل مثل عقل الفلاسفة الكبار، ومدوّني الفلسفة، وألجأ الفلسفة إلى أن تقف موقف المتهم، وألجأ مُمثليها إلى أن يقفوا موقف المدافعين، فكان تطوراً عظيماً في موقف الدين والفلسفة، وكان انتصاراً عظيماً للعقيدة الإسلامية عادت به الثقة إلى نفوس أتباعها والمؤمنين بها وزالت عنهم مهابة الفلسفة وسيطرتها العلمية^(١).

١- دراسته للفلسفة: لم يتهور الغزالي في الهجوم على الفلسفة، وإنما درس الفلسفة أولاً كما حكى هو بنفسه في «المنقذ من الضلال» وكان يؤمن بأنه: لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته. فجد واجتهد في دراستها ومعرفته حقيقتها وأغوارها، حتى اطلع على منتهى علومهم، ثم لم يستعجل كذلك ولم يبدأ بالهجوم، بل رأى أن المباحث الفلسفية لا تزال غامضة معقدة ليست في تناول الأوساط من الناس، وأن الكتب الفلسفية قد ألّفت في لغة رمزية وفي أسلوب غير واضح وكأنّ مؤلفيها قد تعمدوا ذلك ليقيموا سياجاً حول الفلسفة يحوطها من تناول العامة، أو لم يكونوا يُحسنون التأليف، فرأى أن يؤلف كتاباً يذكر فيه المباحث الفلسفية ونظريات الفلسفة ومسائلها في لغة سهلة واضحة، وفي أسلوب مشرق، وقد رُزق الغزالي قدرة عجيبة في تبسيط المسائل العلمية وإيضاحها، فكسر ذلك السياج، ورفع الاحتكار العلمي، وألف كتاب «مقاصد الفلاسفة»^(٢) وذكر فيه المصطلحات الفلسفية، وبحوث الفلسفة، وعرضها أحسن عرض، الأمر الذي لم يحسنه رجال الفلسفة، وذلك دون أن ينتقدها أو يعلق عليها، وقد برهن الدكتور سليمان دنيا في مقدمته الثانية

(١)، (٢) رجال الفكر والدعوة (١/٩٦٩).

لكتاب «تهافت الفلاسفة» على أن عرض الغزالي لمسائل الفلسفة كان أحسن من عرض الفلاسفة أنفسهم لهذه المسائل، عندما قارن في بعض المسائل بين أسلوب الغزالي، وأسلوب ابن سينا، وخلص إلى القول بأن منهج الغزالي أوضح وأدق^(١). وبطرح كتاب «مقاصد الفلاسفة» استطاع الغزالي أن يحقق أموراً مهمة ساعدته على كسب المعركة القادمة منها أنه:

- أزال الهالة الكبيرة عن الفلسفة وجعلها في المتناول.

- اعترف له الجميع - بمن فيهم الفلاسفة - بالأستاذية في هذا الفن كما هو شأنه؛ الأمر الذي مهد له السبيل إلى أن يقول كلمته فيما بعد... فيجد من يستمع إليها، وقد ظن الفلاسفة يومئذ أنهم كسبوا إلى صفهم علماً جديداً من أساطين الفلسفة.

- حدد الغزالي ما ينبغي الوقوف عنده من الفلسفة حين أرجعها إلى ستة أصول، وأن أكثر هذه الأصول لا تتعارض مع الدين، فألقى الأضواء بذلك على مكان المعركة المرتقب.

وقد بين الإمام الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) أن الفلسفة انتصرت ووقفت على رجليها بأفتين إحداهما تابعة من جهل المندفعين في الدفاع عن الإسلام بإنكار الفلسفة كلياً^(٢). وقال في بيان هاتين الأفتين: الأولى أن من ينظر فيها «أي في الرياضيات التي هي من الفلسفة يومئذ» يتعجب من دقائقها، ومن ظهور براهينها، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة، فيحسب أن جميع علومهم - في الوضوح، وفي وثاقة البرهان - كهذا العلم، ثم يكون قد سمع من كفرهم، وتعطيلهم، وتهاونهم بالشرع، ما تداولته الألسنة، فيكفر بالتقليد المحض، ويقول: لو كان الدين حقاً لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم.. فهذه آفة عظيمة. والآفة الثانية: نشأت من صديق للإسلام جاهل، ظن أن الدين ينبغي أن يتصر بإنكار كل علم منسوب إليهم، فأنكر جميع علومهم وادعى جهلهم فيها، حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع، فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع، لم يشك في برهانه، لكن اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل، وإنكار البرهان القاطع، فازداد للفلسفة حباً، وللإسلام بغضاً، ولقد عظمت على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والإثبات، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية^(٣).

٢- ضربة قاصمة: وبعد أن أخذ الغزالي مكانته في المجتمع كفيلسوف يشهد له الجميع..

(١) تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، ص ٢٣، ٢٩.

(٢) الإمام الغزالي للشامي، ص ٨١.

(٣) المنقذ من الضلال، ص ١١٤، ١١٥.

ألف كتابه «تهافت الفلاسفة» الذي قيل عنه: إنه طعن الفلسفة طعنة لم تقم لها بعد في الشرق قائمة^(١)، يقول الدكتور سليمان دنيا: واختار له اسم (تهافت الفلاسفة) وعنى بهذا الاسم - فوق دلالاته على الكتاب - الشهير بالفلاسفة، والإعلان عنهم بأنهم متهافتون، فحسب من يقرأ عنوان الكتاب فقط، أو حتى يسمع به، أن يعرف أنه محاولة لإثبات تهافت الفلاسفة، وعنى بالتهافت ما أوضحه في المقدمة الأولى من الكتاب نفسه بقوله:.. فلنقتصر على إظهار التناقض في رأي مقدمهم الذي هو الفيلسوف المطلق والمعلم الأول. فالتهاافت الذي اختاره مضافاً إلى الفلاسفة، معناه التناقض، أي تناقض الفلاسفة، يعني تناقض أفكارهم وتعارضها وتساقطها، وليس كالتناقض اسم يؤدي ما يؤديه من دلالة على هوان الفكر الموصوف به، وسخفه وحقارته، فكان الغزالي أقسى ما يكون على الفلاسفة بهذه التسمية^(٢). يقول الشيخ الأستاذ أبو الحسن الندوي في وصف الكتاب: ويتسم هذا الكتاب بقوة التعبير، وسلامة العبارة، وسهولة الأسلوب، بخلاف عامة الكتب التي أُلِّفت في الموضوع، ويدل على أن مؤلفه ممتلئ بالإيمان والثقة بدينه، والاعتداد بشخصيته وتفكيره. ينظر إلى الفلاسفة القدماء كأقران وزملاء، ورجال من مستواه العقلي والفكري، يناقشهم ويباحثهم بحرية، ويقرع الحجة بالحجة، وكان المسلمون في حاجة شديدة إلى هذا الطراز من المؤلفين، والباحثين، الذي يواجه الفلسفة بإيمان وثقة، وعقل حر، وشجاعة علمية، يكفر بعصمة الفلاسفة وقدسيتهم وعبقريتهم وكونهم فوق مستوى البشر في العقل والتفكير. وبهذه الصفة يتجلى الغزالي في كتابه (تهافت الفلاسفة) فجاء في أوانه وقضى حاجة زمانه^(٣). ويشعر الغزالي - بعد أربع مقدمات ذكر فيها منهاجه - في البحث، وشرح حال الفلاسفة، وفرق علومهم التي تصادم الشريعة، والتي لا تصادمها، وناقش الفلاسفة في شرائعهم ومقدماتهم للبحوث الإلهية، وبعد هذا كله يشرع الغزالي في بيان مسائل الفلاسفة ومناقشتهم في ذلك في ضوء البحث العلمي والحجة العقلية، وهي ست عشرة مسألة في الإلهيات وما بعد الطبيعيات، وأربع في الطبيعيات، ويبين فيها ضعف استدلالهم وتناقضهم واختلافهم وتهافت عقيدتهم^(٤). وقد ساعد الغزالي على نجاحه في تسديد هذه الضربة القاصمة أمور منها:

التمهيد لها كما رأينا.

- تحديد ميدان المعركة وهو الجانب الإلهي من الفلسفة، واستبعاد الجوانب الأخرى

(١)، (٢) تهافت الفلاسفة، تحقيق د. سليمان دنيا، ص ١٥.

(٣) رجال الفكر والدعوة (١/٢٠١، ٢٠٢).

(٤) المصدر نفسه (١/٢٠١).

- مكانة الإمام الغزالي وعلمه بدقائق الفلسفة، كما يعلمها كبار الفلاسفة.

- استعماله كل الأسلحة التي توافرت لديه، فهو يقول في حديثه عن ذلك: ليعلم أن المقصود تنبيه من حسن اعتقاده في الفلاسفة وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض، ببيان وجوه تهاافتهم، فلذلك أنا لا أدخل في الاعتراض عليهم ما اعتقدوه مقطوعاً بالزمامات مختلفة، فالزمهم تارة مذهب المعتزلة، وأخرى مذهب الكرامية، وطوراً مذهب الفرق إلماً واحداً عليهم، فإن سائر الفرق ربما خالفونا في التفصيل، وهؤلاء يتعرضون لأصول الدين فلنتظاهر عليهم، فعند الشدائد تذهب الأحقاد^(١).

وقد كان الغزالي واثقاً من انتصاره بعد أن أحكم الوسائل وخطط للمعركة التخطيط السديد، ولذلك نجده - وقد نزل إلى ساحة المعركة - غير مبال بخصمه، ساخراً منه، مستهزئاً بعقله الذي يتججج به. ولنتنظر إلى بعض النصوص التي أوردها في كتابه «تهافت الفلاسفة» وهو يستعمل سلاح السخرية^(٢) قلنا: ما ذكرتموه تحكمات، وهي على التحقيق ظلمات فوق ظلمات، لو حكاها الإنسان عن منام رآه لاستدل به على سوء مزاجه^(٣). وقال ذلك في مقام الحديث عن نشأة الكائن الأول الواحد عن الإله ونشأة ثلاثة كائنات عن هذا الكائن الأول الواحد. وقال: فلست أدري كيف يقنع المجنون من نفسه بمثل هذه الأوضاع، فضلاً عن العقلاء الذين يشقون الشعر - بزعمهم - في المعقولات^(٤). ومما دفعه إلى هذا الأسلوب موقفهم المشابه من الإسلام والمسلمين وإلا فالغزالي يحترم العلم ويقدر أهله ولكن هؤلاء جاھروا بالكفر وترفعوا على الناس وظنوا بأنفسهم الفطنة - كما يقول في المقدمة - فاستحقوا هذا الأسلوب. وفي مقدمة الكتاب هجوم عنيف، فيصبح عاجزاً عن تدارك أمره، وكان هذا الهجوم في نص أدبي رائع في معناه ومبناه^(٥). وعلق الإمام الغزالي على بحثهم واجب الوجود، وأنه يعقل نفسه ولا يعقل غيره بكلمته اللاذعة القوية: فقد انتهى بهم التعمق في الفطنة، إلى أن أبطلوا كل ما يُفهم من العظمة، وقربوا حاله تعالى في حال الميت الذي لا خبر له بما يجري في العالم، إلا أنه فارق الميت في شعوره بنفسه فقط، وهكذا يفعل الله سبحانه بالرأغبين عن سيّله، والتاكبين عن طريق الهدى، المنكرين لقوله تعالى ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١]، ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السُّوءِ﴾ [الفتح: ٦] المعتقدين أن أمور الربوبية، تستولي

(١) تهافت الفلاسفة، ص ٨٢.

(٢) الإمام الغزالي، للشامي، ص ٨٥.

(٣) تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا ص ١٤٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٥٣.

(٥) الإمام الغزالي، ص ٨٦.

على كُنهها القوى البشرية، المغرورين بعقلهم زاعمين أن فيها مندوحة عن تقليد الرسول - صلوات الله عليهم وسلامه - وأتباعهم - رضوان الله عليهم - فلا جرم اضطروا إلى الاعتراف بأن لُبَّاب معقولاتهم رجع إلى ما لو حكى في منام لتعجب منه^(١). وهكذا يستمر الغزالي في نقد الفلاسفة وتشريحههم إلى آخر الكتاب، حتى يأتي على جميع المسائل التي تكفل الرد عليها، وهي عشرون مسألة، أكثرها في الإلهيات، وكفرهم في ثلاث مسائل، إحداها: مسألة قدم العالم، وقولهم أن الجواهر كلها قديمة، والثانية: قولهم إن الله تعالى لا يُحيط علماً بالجزئيات الحادثة في الأشخاص. والثالثة: إنكارهم بعث الأجساد وحشوها. قال: فهذه المسائل الثلاثة، لا تلائم الإسلام بوجه، ومعتقدها معتقد كذب الأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه - وأنهم ذكروا ما ذكروه على سبيل المصلحة، تمثيلاً لجماهير الخلق وتفهيماً، وهذا هو الكفر الصراح الذي لم يعتقده أحد من فرق المسلمين^(٢).

٣- تأثير كتاب تهافت الفلاسفة: ليست أهمية الكتاب في تكفير الفلاسفة، بل إن غاية الكتاب هو إسقاط قيمة الفلسفة العلمية، والخطأ من مكانتها، وإثبات أنها مجموع أفكار وتخييلات، وقياسات وتخمينات، وبذلك خدم الغزالي الدين خدمة باهرة، وخلف الفلسفة التي كانت وتَحُلُّ من نفوسهم محلَّ القدسية والإجلال، خلفها الغزالي بضرباته الموجعة وهجماته العنيفة إلى الوراء، أو وقفها على الأقل وشغلها بنفسها والدفاع عن نفسها، ولم تستطع الأوساط الفلسفية أن تُقدم كتاباً قوياً جديراً بالذكر يرد على «تهافت الفلاسفة»^(٣)، يقول علماء الإفرنج: إن الغزالي طعن الفلسفة في الشرق العربي طعنة قاضية، وكاد يكون نصيبها في الغرب كذلك، لو لم تلق في ابن رشد حامياً لها أحيائها قرناً من الزمان^(٤).

٤- خلاصة عمل الغزالي في ميدان الفلسفة: نستطيع تلخيص عمل الغزالي في ميدان الفلسفة بما يلي:

- * حاربها دفاعاً عن الإسلام وخدمة لدينه، وقد كانت الفلسفة حرباً على الدين.
- * لم يحارب الفلسفة كلها، إنما حدد معركته مع الفلسفة الإلهية الإغريقية.
- * أبعد عن الفلسفة العلوم الأخرى التي كانت منضوية تحت لوائها، فجعلها وحيدة بعيدة عن جنودها الذين كانت تستخدمهم كسلاح في الدفاع عنها، وقد أصبحت هذه العلوم

(١) المنقذ من الضلال، ص ١١٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣١٣ - ٣١٥.

(٣) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢٠٤).

(٤) المصدر نفسه (١/ ٢٠٤).

فيما بعد مستقلة قائمة بذاتها مثل: الرياضيات، والطبيعة -الفيزياء- والمنطق، وعلم الأخلاق، والسياسة.

* رفع الحصانة عنها، وأزال تلك الهالة التي كانت تضيء عليها التقديس والاحترام وأثبت أنها مجموعة أفكار، وتحيلات وقياسات وتخمينات. وهكذا لم ير الغزالي فيها بعد تعريتها ما يصلح أن يكون «علماً»، ولذلك عندما تحدث في كتابه «الإحياء» عن العلوم لم يعد الفلسفة علماً، وأوضح ذلك بقوله: «وأما الفلسفة فليست علماً برأسها بل هي أربعة أجزاء:
أحدها: الهندسة والحساب.

الثاني: المنطق: وهو بحث عن وجه الدليل وشروطه.

الثالث: الإلهيات.. وكما أن الاعتزال ليس علماً برأسه بل أصحابه طائفة من المتكلمين.. فكذلك الفلاسفة.

الرابع: الطبيعيات: وبعضها مخالف للشرع. وبعضها بحث عن صفات الأجسام^(١). ويعطينا خلاصة رأيه في كتابه المنقذ من الضلال فيقول: ثم إنني لما فرغت من علم الفلسفة، وتحصيله، وتفهمه وتزييف ما يزيغ منه، علمت أن ذلك أيضاً غير واف بكمال الغرض، وأن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات^(٢).

٥- موقف الغزالي بين العقل والنقل: يؤكد الغزالي هنا مبدأ مهماً - عمقه ووسعه ابن تيمية فيما بعد في كتابه الكبير درء تعارض العقل والنقل - على اختلاف بينهما في تطبيقه - وهو أن العقل والشرع لا يتعارضان تعارضاً حقيقياً من الناحية النظرية لأن كليهما نور من عند الله، فلا ينقض أحدهما الآخر، ولا من الناحية العملية، فلم يثبت أن اصطدمت حقيقة دينية بحقيقة عقلية، بل يرى الغزالي أن أحدهما يؤيد الآخر ويصدق^(٣)، بل نراه في (المستصفى) وهو من أواخر ما صنف، يعتبر العقل قاضياً، والشرع شاهداً، حيث يقول بعد الديباجة: أما بعد فقد تناطق قاضي العقل، وهو الحاكم الذي لا يعزل ولا يبدل، وشاهد الشرع، وهو الشاهد المزكى المعدل بأن الدنيا دار غرور لا دار سرور.. ومحل تجارة، لا مسكن عمارة، ومتجر بضاعتها الطاعة، والطاعة طاعتان؛ عمل وعلم، والعلم أنجحها وأربحها فإنه أيضاً من العمل، ولكنه عمل القلب الذي هو أعز الأعضاء، وسعي العقل

(١) الإمام الغزالي للشامي، ص ٨٧، إحياء علوم الدين (١/ ٢٢).

(٢) المنقذ من الضلال، ص ١٣٠.

(٣) الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص ٤٣، ٤٤.

الذي هو أشرف الأشياء لأنه مركب الديانة، وحامل الأمانة، إذ عرضت على الأرض والجبال والسماء، فأشفقن من حملها وأبين أن يحملنها غاية الإباء^(١). وها هو في الإحياء نراه يدعو إلى المزج بين العلوم العقلية والعلوم الدينية ويبين الحاجة إلى كل منهما، ويقرر أنه لا غنى بالعقل عن السمع، ولا غنى بالسمع عن العقل. فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور، فإياك أن تكون من أحد الفريقين، وكن جامعاً بين الأصلين، فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية، والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء، وكذلك أمراض القلوب، لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة^(٢). ثم يحمل الغزالي بقوة على من يظن أن هناك تناقضاً بين العقلية والشرعية فيقول: وظن من يظن أن العلوم العقلية متناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن، هو ظن صادر عن عمى في عين البصيرة نعوذ بالله منه، بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعز عن الجمع بينهما، فيظن أنه تناقض في الدين، فيتحير به، فينسل من الدين، انسلا الشجرة من العجين، وإنما ذلك لأن عجزه في نفسه خيل إليه نقصاً في الدين وهيئات^(٣).

٦- انتصار الفكر السني في العهد السلجوقي: إن المارك الفكرية ليست بأقل خطراً في حياة الأمة من المارك العسكرية، ذلك أن الغزو الفكري أسوأ وأشد خطراً على الأمة من الغزو العسكري. ولقد انتصر الغزالي في معركته مع الفلسفة دفاعاً عن الإسلام، فاستطاع في أقل التقديرات أن يرد الفلسفة، فيجعلها في موقع الدفاع بعد أن كانت في موقع الهجوم، واستحق بمجداة أن يلقب بحجة الإسلام، وانفرد بهذا اللقب الذي يبين مكانة الرجل في تاريخ الفكر^(٤). إن الأمة اليوم في أشد الحاجة لحجة إسلام جديد يفضح المناهج الغربية والدساتير الوضعية، والشعارات البراقة في مجال الحريات، والعدل، وحقوق الإنسان والمرأة، ونظام الحكم، ومحاسبة الحكام، وغير ذلك من الشعارات والمبادئ الزائفة، فيقدم البدائل الصحيحة من خلال كتاب الله وسنة رسوله وعقيدة الأمة وتراثها، فينتصر للإسلام في المعركة الفكرية الخطيرة التي تدار رحاها بين الثقافات والحضارات، فيبين عوار مناهج الخصوم، ويستفيد من الحق الذي معه ويطرح المشروع الفكري الإسلامي في أبهى حلة، مع جمال الألفاظ في العرض، وعمق المعاني في الأسلوب مؤيداً لأفكاره بالحجج الدامغة والبراهين الساطعة والأدلة الواضحة.

(١) المستصفى (٣/١).

(٢) الإحياء (١٧٩/٣)، الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص ٤٦.

(٤) الإمام الغزالي للشامي، ص ٨٨.

رابعاً: الغزالي وعلم الكلام:

ما من شك أن الغزالي ألف كتباً في علم الكلام، وترك الغزالي يتحدثنا عما استقر رأيه في هذا العلم فقد قال: إني ابتدأت بعلم الكلام، فحصلته، وعقلته، وطالعت كتب المحققين منهم، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف، فصادفته علماً وفيماً بمقصوده، غير وافٍ بمقصودي. وإنما مقصوده، حفظ عقيدة أهل السنة، وحراستها من تشويش أهل البدعة، فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق، على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار، ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة، فلهجوا بها، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها، فأنشأ الله طائفة المتكلمين، وحرك دواعيهم لنصر السنة بكلام مرتب، يكشف عن تليسات أهل البدعة المحدثه، فمنه نشأ علم الكلام وأهله^(١). هكذا نشأ علم الكلام وصرح الغزالي أنه لم يف بمجافته عند الفحص، ووجده قاصراً عن أداء المهمة الموكلة إليها، خاصة أن أصحابه قد أكثروا الخوض فيه، وخاضوا في البحث عن الجوهر والأعراض وأحكامها.. ولم يحصل من علمهم ما يحو ظلمات الحيرة^(٢). ولهذا لما تحدث الغزالي في كتابه (الإحياء) عن العلوم قال: اعلم أن حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي يتفجع بها، فالقرآن والأخبار مشتملة عليه، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهي من البدع.. وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق لها، وتطويل بنقل لمقالات أكثرها ترهات وهذيانات، تزديها الطباع وتمجها الأسماع، وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين^(٣). ثم بين أن ذلك لم يكن في الصحابة فقال:.. فلقد قبض رسول الله ﷺ عن آلاف من الصحابة -رضي الله عنهم- كلهم علماء بالله أثنى عليهم رسول الله ﷺ ولم يكن فيهم أحد يحسن صنعة الكلام^(٤). وقد بين الغزالي أن بعض الفرق ضلت بسلوكها طريق علم الكلام، ولفت النظر إلى أن القرن الأول لم يسلكوا هذا المسلك فقال: ولكنه عميت بصيرته، فلم يلتفت إلى القرن الأول، فإن النبي ﷺ شهد لهم بأنهم خير الخلق، وأنهم قد أدركوا كثيراً من أهل البدع والهو، فما جعلوا أعمارهم ودينهم عرضاً للخصومات والمجادلات.. وإذا رأوا مصراً على ضلالتهم هجروهم وأعرضوا عنه وأبغضوه في الله ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر، بل قالوا: إن الحق هو الدعوة إلى السنة، ومن السنة ترك الجدل في الدعوة إلى السنة، إذ روى أبو أمامة الباهلي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ضل قوم قط بعد هدى كانوا عليه أوتوا الجدل»^(٥).

(١) المنقذ من الضلال، ص ٩٦ وما بعدها.

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٢٢).

(٣) المصدر نفسه (١/ ٢٣).

(٤) سنن الترمذي، قال الترمذي: حسن صحيح.

ثم إنهم رأوا رسول الله ﷺ وقد بعث إلى كل أهل الملل، فلم يقعد معهم في مجلس مجادلة لإلزام وإفحام وتحقيق حجة، ودفع سؤال وإيراد إلزام، فما جادلهم إلا بتلاوة القرآن المنزل عليهم، ولم يزد في المجادلة عليه، لأن ذلك يشوش القلوب ^(١).

وبين الغزالي الغلط في إطلاق لفظ «التوحيد» على علم الكلام فقال: لفظ التوحيد: وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام، ومعرفة طريق المجادلة، والإحاطة الآن عبارة عن صناعة الكلام، ومعرفة طريق المجادلة، والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم والقدرة على التصدق فيها. حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد، وسمي المتكلمون: العلماء بالتوحيد، مع جميع ما هو خاصة هذه الصناعة، لم يكن يعرف منها شيء في العصر الأول، بل كان يشتد منهم النكير على من كان يفتح باباً من الجدل والمماراة، فأما ما يشتمل عليه القرآن من الأدلة الظاهرة التي تسبق الأذهان إلى قبولها في أول السماع، فلقد كان ذلك معلوماً للكل، وكان العلم بالقرآن هو العلم كله، وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر، لا يفهمه أكثر المتكلمين، وإن فهموه لم يتصفوا به، وهو أن يرى الأمور كلها من الله عز وجل ^(٢). وأنكر الغزالي على عوام الناس أن يشتغلوا بعلم الكلام. وقال: إن دين عوام الناس ينبغي أن يكون صافياً نقياً بعيداً عن تعقيدات الجدليين المتكلمين؛ ولهذا ينبغي إلجام العوام عن علم الكلام ^(٣). ثم بين الإمام الغزالي أن إيمان العوام الحاصل لهم بتواتر السماع إنما يقوى بكثرة العبادة والذكر فيقول: والإيمان الراسخ على الحقيقة هو إيمان العوام الحاصل على قلوبهم من الصبا بتواتر السماع، وتام تأكيده بلزوم العبادة والذكر، فإن من تبادت به العبادة إلى حقيقة التقوى وتطهير القلب من كدورات الدنيا وملازمة ذكر الله دائماً تجلت أنوار المعرفة وصارت الأمور - التي كان قد أخذها تقليداً - عنده كالمعاينة والمشاهدة.. والكلام المستفاد من الدليل الكلامي ضعيف جداً مشرف على الزوال بكل شبهة ^(٤). وقال: لست أنكر أنه يجوز أن يكون ذكر أدلة المتكلمين أحد أسباب الإيمان في حق بعض الناس، لكن ليس ذلك بمقصود عليه وهو أيضاً نادر، بل الأنفع الكلام الجاري في معرض الوعظ كما يشتمل عليه القرآن. فأما الكلام المحرر على رسم المتكلمين، فإنه يُشعر نفوس المستمعين بأن فيه صنعة وجدلاً، ليعجز عنه العامي، لا لكونه حقاً في نفسه؛ وربما يكون ذلك سبباً لرسوخ العناد في قلبه، ولذلك لا ترى مجلس مناظرة للمتكلمين ولا للفقهاء ينكشف عن واحد انتقل من الاعتزال أو بدعة إلى غيره، ولا عن مذهب الشافعي إلى مذهب أبي حنيفة،

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٩٤ - ٣٩٥).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٣٣).

(٣) إلجام العوام عن علم الكلام، ص ٣٨.

(٤) فيصل التفرقة للإمام الغزالي، ص ٢٠٤.

ولا على العكس، وتجري هذه الانتقالات بأسباب أخرى حتى في القتال بالسيف، ولذلك لم تجر عادة السلف بالدعوة لهذه المجادلات، بل شددوا القول على من يخوض في الكلام ويستغل بالبحث والسؤال^(١). وازداد الغزالي - مع الأيام، وبعد التجارب العلمية - اقتناعاً بأن أسلوب القرآن في الإقناع أبلغ وأنفع وأعم وأشمل للطبقات والمستويات الفكرية المختلفة، وبأن علم الكلام علاج مؤقت ومختص بمن نشأ عنده شكوك وشبهات ولا حاجة للطبائع السليمة والعقول المستقيمة له. أما القرآن فكان الغذاء الصالح، والماء السائغ، يحتاج إليهما كل إنسان ويتنفع، ولا ضرر فيه ولا خطر. يقول في كتابه «إلجام العوام عن علم الكلام» الذي هو من آخر مؤلفاته^(٢): فأدلة القرآن مثل الغذاء، يتنفع به كل إنسان، وأدلة المتكلمين مثل الدواء، يتنفع به آحاد الناس، ويستضرُّ به الأكثرون؛ بل أدلة القرآن كالماء الذي يتنفع به الصبي الرضيع، والرَّجل القوي، وسائر الأدلة كالأطعمة التي يتنفع بها الأقوياء مرة، ويمرضون بها أخرى، ولا يتنفع بها الصبيان أصلاً^(٣). ويذكر تجربته ومشاهدته كشاهد على ذلك: والدليل على تضرر الخلق به، المشاهد والعيان والتجربة، وما ثار من الشر منذ نبغ المتكلمون وفشت صناعة الكلام، مع سلامة العنصر الأول من الصحابة عن مثل ذلك^(٤).

وهكذا تتجلى شخصية الغزالي في نقد الفلسفة وعلم الكلام شخصية فريدة مستقلة التفكير، قوية التأثير تمتاز بسلامة الفكر، واتزان العقل، وحصافة الرأي، وعمق النظر، والثقة بالنفس، له منهج خاص في نقد الفلسفة، وعلم الكلام، وإثبات العقيدة الإسلامية، وهو ممن توفرت عنده أدوات الاجتهاد في هذا الموضوع، فكان من أئمة هذا الفن المجتهدين، ومن كبار المؤلفين المنتجين^(٥).

خامساً: الغزالي والتصوف:

كان التصوف أحد العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخارف الدنيا وزينتها، والانفراد عن الخلق وهذه الصفات كانت عامة في الصحابة والسلف، ولما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة^(٦). ويغلب على الظن أن هذا

(٢) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢١١).

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٠.

(١) فيصل التفرقة، ص ٦٩ - ٧٠.

(٣) إلجام العوام عن علم الكلام، ص ٢٠.

(٥) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢١١).

(٦) الإمام الغزالي للشامي، ص ٩٩ نقلاً عن مقدمة ابن خلدون.

المصطلح كان إفرازاً أنتجه الواقع عندما بدأت تخصصات العلوم تأخذ أبعادها، فقد كانت كلمة «الفقه» تشمل كل ما انضوى تحت كلمة التصوف، فلما اقتصر مفهوم كلمة الفقه على فقه العبادات وفقه المعاملات في جانبها الظاهر، واستبعدت منه بحوث الأخلاق والسلوك، كان لا بد لهذه الجوانب المستبعدة من الاستقلال والانضواء تحت عنوان يمثلها، فكان التصوف ومن السهل تعداد ما يشتمل عليه هذا العنوان: فالأخلاق الكريمة هي الأساس والزهد الذي يعني الترفع عن الدنيا ولا يعني ذلك أن الفقر هو الطريق، وكثرة العبادة هي وسيلة القرب إلى الله تعالى، وبتطبيق العلم مع الإخلاص تكون النجاة^(١)، يقول الغزالي في رسالته «أيها الولد»: ينبغي لك أن يكون قولك وفعلك موافقاً للشرع، إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة، وينبغي لك ألا تغتر بشطح الصوفية وطاماتهم، لأن سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة وقطع شهوة النفس، لا بالطامات والترهات^(٢). تلك هي العناصر التي انضوت تحت هذا العنوان.. ثم تبعها فضوليات ليست في الإسلام في شيء وهي التي أشار إليها الغزالي بالطامات والترهات، وظهرت مصطلحات أخرى مثل «أهل الإرادة» و «أرباب السلوك» التي استعملها ابن القيم رحمه الله. ولكنها لم تنتشر انتشار المصطلح الأول، ومن غير الصواب أن ينظر إلى الفضوليات التي أدخلت على التصوف على أنها الأصل، وتنسى العناصر الأصلية، فيحارب التصوف كله بما فيه من حق وباطل وهو المسلك الذي سلكه ابن تيمية^(٣) رحمه الله حيث قال في شأن الصوفية عندما علق على كلام أبي القاسم القشيري: والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ (الصوفية) يوافق ما كان عليه السلف. وهذا هو الذي كان يجب أن يذكر، فإن في الصحيح الصريح المحفوظ عن أكابر المشايخ مثل الفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني، ويوسف بن أسباط، وحذيفة المرعشي، ومعروف الكرخي إلى الجنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله التستري، وأمثال هؤلاء ما بين حقيقة مقالات المشايخ، وقد جمع المشايخ إما بلفظه أو بما فهمه هو - أي القشيري - غير واحد، فصنف أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي كتاب «التعرف لمذاهب التصوف» وهو أجود مما ذكره أبو القاسم وأصوب، وأقرب إلى مذهب سلف الأمة وأئمتها وأكابر مشايخها، وكذلك معمر بن زياد الأصفهاني شيخ الصوفية، وأبو عبد الرحمن السلمي جامع كلام الصوفية، هما في ذلك أعلى درجة وأبعد عن البدعة والهووى من أبي القاسم، وكذلك عامة المشايخ الذين سماهم أبو القاسم في «رسالته» لا يعرف عن شيخ منهم أنه كان ينصر طريقة

(١) الإمام الغزالي، ص ١٠٠.

(٢) أيها الولد للغزالي نقلاً عن الإمام الغزالي للشامي، ص ١٠٠.

(٣) الإمام الغزالي، ص ١٠١.

الكلاية^(١)، وبعد أن أثنى ابن تيمية على عقيدة هؤلاء المشايخ من الصوفية، عتب على أبي القاسم القشيري أنه لم يذكر في رسالته الأولياء الكاملين الذين كانوا في القرون الثلاثة الأولى^(٢)، فقال: وما ذكره أبو القاسم في رسالته في اعتقادهم وأخلاقهم وطريقتهم، فيه من الخير والحق والدين أشياء كثيرة، ولكن فيه نقص عن طريقة أكثر أولياء الله الكاملين، وهم نقاوة القرون الثلاثة ومن سلك سبيلهم، ولم يذكر في كتابه أئمة المشايخ من القرون الثلاثة^(٣).

وهكذا نرى أن ابن تيمية لم ينكر طريقة الصوفية في أصلها بل أثنى على مشايخها الذين استقاموا على الطريق، ولم يعدهم خارجين على طريق السلف^(٤)، وقد نقل كلام القشيري التالي: اعلّموا أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد، صانوا بها عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد، ليس فيه تمثيل ولا تعطيل. ثم قال ابن تيمية: قلت: هذا كلام صحيح، فإن كلام أئمة المشايخ الذين لهم في الأمة لسان صدق، كانوا على ما كان عليه السلف وأهل السنة، من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل، وهذه الجملة يتفق على إطلاقها عامة الطوائف المنتسبين إلى السنة، وإن تنازعوا في مواضع^(٥). وهكذا يثني ابن تيمية على الصوفية - السليمة - بأن اهتمامهم بالعمل أكثر من اهتمامهم بالقول. ولا بد من هذه التوطئة عند الحديث عن الغزالي والصوفية ولا ندعي العصمة للغزالي ولا غيره لأن العصمة للأنبيا والمرسلين أما غيرهم من الناس فيخطئ ويصيب.

١- بدء طريق التصوف عند الغزالي: قد تحدثت فيما مضى عن التحول الكبير الذي حدث للغزالي، وكيف استطاع أن يتغلب على أمراض النفس من حب الصيت والجاه والمنصب والشهرة بعد أن أعانه الله على ذلك، ويبدو أن الغزالي اختار طريق الصوفية بعد جهد جهيد وهو بنفسه يوضح لنا كيف سلك الطريق فقد قال: ثم إنني أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل عملهم، قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة، وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتخليته بذكر الله. وكان العلم أيسر عليّ من العمل، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم، مثل «قوت القلوب» لأبي طالب المكي، رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد، والشبلي، وأبي يزيد البسطامي،

(٢) الإمام الغزالي للشامي، ص ١٣.

(٤) الإمام الغزالي للشامي، ص ١٣.

(١) الاستقامة (١/ ٨٢-٨٤).

(٣) الاستقامة (١/ ٨٩).

(٥) الاستقامة (١/ ٩٠-٩١).

قدس الله أرواحهم، وغير ذلك من كلام مشايخهم، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعليم والسماع، فظهر لي أن أخص خواصهم: ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق، والحال وتبدل الصفات. ثم قال: وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة وحد الشبع، وأسبابهما، وشروطهما، وبين أن يكون صحيحاً وشبعان وبين أن يعرف حد السكر.. وبين أن يكون سكران بل السكران لا يعرف حد السكر، والصاحي يعرف حد السكر وأركانه، وما معه من السكر شيء. والطبيب - في حالة المرض - يعرف حد الصحة وأسبابها، وأدويتها، وهو فاقد الصحة، وكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها، وأسبابها، وبين أن يكون حالك «الزهد» وعزوف النفس عن الدنيا. ثم تحدث عن خلاصة ما توصل إليه بشأن المتصوفة، فقال: فعلمت - يقيناً - أنهم أرباب «الأحوال» لا أصحاب «الأقوال» وأن ما يمكن تحصيله من طريق العلم، فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك^(١).

٢- نتائج الدراسة: كان من نتائج دراسة الغزالي للتصوف أنه نظر في نفسه وتفحص ما هو فيه، فإذا به يرى غوراً كاذباً، وحياة غلبت عليها المظاهر، ففقدت روحها وهويتها وقاس نفسه بمقاييس الإسلام الحق، فأشفق على نفسه.. لقد تبين له من نفسه:

أنه كان جل اهتمامه بالجانب النظري من العلم دون الجانب العملي وأن ما كان يعدّه عملاً يتقرب إلى الله تعالى به من التدريس والتعليم، كان فاقداً لشرط القبول وهو النية.. وإذا به فجأة يجد نفسه بلا رصيد في مقياس الآخرة.

وأنه يفتقد عنصراً مهماً في ميداني النظر والعمل وهو «الإخلاص».

فاكتشف من نفسه ما دفعه إلى الخوف، وإلى الحرص على الوقت فيما تبقى من عمره أن يصرف في مرضاة الله^(٢). وانتهى به المطاف إلى طريق الصوفية، فعلم يقيناً - كما يقول هو - أنهم هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكم الحكماء الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً.. وأن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور النبوة، وليس على وجه الأرض نور يستضاء به^(٣). وبالجملة فماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى.. ومفتاحها

(٢) الإمام الغزالي للشامي، ص ١٠٦.

(١) المنقذ من الضلال، ص ١٣٩ - ١٤١.

(٣) الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص ١١٨.

الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة - استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله؟. وهذا الآخر بالإضافة إلى ما يدخل تحت الاختبار والكسب ولكن الترقى مستمر حتى ينتهي إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، ولا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح، لا يمكن الاحتراز عنه، قال: وعلى الجملة: ينتهي الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة «الحلول» وطائفة «الاتحاد» وطائفة «الموصل».. وكل ذلك خطأ ويأخذ على الغزالي دخوله إلى التصوف. وقد كان دخول المحب العاشق لا دخول الفاحص الناقد، فلم ينظر إلى علوم الصوفية وتراثهم بعين النقد التي نظر بها إلى علوم الفلسفة والمتكلمين والباطنية بل بعين الرضا والحب:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا
وقال الشاعر:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيق

لقد تعامل مع التصوف بقلبه قبل عقله، وبذوقه قبل فقهه، وهذا ما جعله يقبل أشياء مما أخذ على القوم في الفكر، وفي السلوك دون أن يعرضها على قانون الفقه أو منطق العقل، ومن أجل هذا أنكر عليه العلامة ابن الجوزي وغيره من الناقدين قوله لكثير من أفكار الصوفية وأعمالهم وأحوالهم، وهي مخالفة لقانون الشرع، منحرفة عن الكتاب والسنة الصحيحة. وربما اعتذر أبو حامد في بعض الأحيان عن تجاوزات بعض القوم باعتذارات لا يقبلها منه الفقهاء، كقوله بعد حكاية الصوفي الذي عرفه الناس بالإصلاح في محله، فخاف على نفسه الفتنة، فدخل الحمام، وسرق بعض الثياب الفاخرة، ولبسها وخرج.. فلحقه الناس وأخذوا منه الثياب وصفعوه... وصار يعرف بعد ذلك (لص الحمام)؟ فسر بذلك وسكنت نفسه^(١). قال أبو حامد: فهكذا كانوا يروضون أنفسهم، حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق، ثم من النظر إلى الخلق، ثم من النظر إلى النفس، وأرباب الأحوال ربما عاجلوا أنفسهم بما لا يفي به الفقيه، مهما رأوا صلاح قلوبهم، ثم يتداركون ما فرط منهم من صورة التقصير^(٢)، وابن الجوزي شدد النكير على أبي حامد في حكاية هذا وأمثاله واستحسنه وتبريره^(٣).

(١) الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص ١٢٠.

(٢) تليس إبليس، ص ٣٥٤، ٣٥٥، الإحياء (٣/٢٨٨).

(٣) الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص ١٢١.

٣- تصوف بغير شيخ: بدأ الغزالي تصوفه في شهر رجب عام ٤٨٨ هـ - كما ذكر في المنقذ - حيث التجاذب في نفسه بين شهوات الدنيا ودواعي الآخرة، فلم يزل يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، وتصدق رغبته بكرة وتضعف عشية حتى صمم أخيراً على سلوك طريق الآخرة، واستمر هذا التردد قرابة ستة أشهر - كما قال - وما طول هذه المدة إلا لأن الأمر الذي يقدم عليه هي الخطوة الأولى في هذه النقلة البعيدة المدى مادياً ونفسياً، ولم يكن هناك من يستشير في هذا الأمر، فيكون في مشورته مساعدة على البت فيه، إنما كان تصرفاً شخصياً، كان الباعث عليه وقوفه على علم التصوف الذي أيقظ فيه حساب نفسه وتدبر أمره. وأما ما تذكره بعض المصادر من أنه تتلمذ على الفارمدي وأخذ منه استفتاح الطريقة، وامتل ما كان يشير به عليه من القيام بوظائف العبادات والإمعان في النوافل^(١)، فذلك أمر فيه نظر ذلك أن «الفارمدي» توفي عام ٤٧٧ هـ والغزالي لم يبدأ مشوار التصوف إلا في أواخر عام ٤٨٨ هـ أي بعد أكثر من عشر سنوات من وفاة الرجل، ولعله كان مرشداً في علم التصوف لا في التطبيق، ذلك أن عام ٤٧٧ هـ وما قبله كانت الفترة التي سيطر فيها على الغزالي التطلع على الجاه والمنزلة.. الأمر الذي يتعارض مع مفهوم التصوف. نستطيع القول إذن بأن الغزالي قطع طريق التصوف بمجاهدته الشخصية دون الاعتماد على شيخ تتوافر فيه المواصفات اللازمة المهمة وليس هذا بمستغرب على الغزالي، فقد كان له من الهمة والعزم ما تصغر معه عظام الأمور^(٢).

٤- نقد الغزالي للصوفية: على الرغم من أن الغزالي يزكي طريقة الصوفية؛ لأنها تتضمن العلم والعمل معاً، وأنه انحاز إلى طريقتهم الذوقية في نهاية الأمر، بعد التجربة والممارسة وإتقان العلم، فإنه لم يتوان عن نقد معظم فرق الصوفية التي سادت في عصره وما قبله، نقداً شديداً^(٣)، وسلط الأضواء على أخطاء وانحرافات بعض المتصوفة.

١- قلة المتصوفين: يرى الغزالي أن التصوف غير موجود، وذلك لعدم وجود من يسلك الطريق، وإذا وجد السالكون، فهم غير منضبطين مع ما يتطلبه الطريق من سلوك. يقول: والأمور الدينية كلها قد فسدت وضعفت، إلا التصوف، فإنه قد انمحق بالكلية وبطل لأن العلوم لم تدرس بعد والعالم - وإن كان عالم سوء - فإنما فسادته في سيرته لا في علمه، فيبقى عالماً غير عامل بعلمه والعمل غير العلم. وأما التصوف فهو عبارة عن تجرد القلب لله تعالى، واستحقاق ما سوى الله، وحاصله يرجع إلى عمل القلب والجوارح، ومهما فسد

(١) طبقات الشافعية للسبكي (١٠٩/٤).

(٢) الإمام الغزالي، ص ١٠٨.

(٣) مسألة المعرفة ومنهج البحث عند الغزالي، د. أنور الزعبي، ص ١٨٧.

العمل فات الأصل^(١). ويوضح أن المشايخ الذين يقتدى بهم لا وجود لهم فيقول: وقد خلت البلاد الآن عن شيخ يقتدى به في علمه وسيرته^(٢). ويبين لنا سبب هذا فقدان للمتصوفة فيقول:.. إن القلوب كلها مريضة إلا ما شاء الله. ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه فلذلك يغفل عنه، وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه، فإن دواءه مخالفة الشهوات، وهو نزع الروح، فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه، لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه، فإن الأطباء هم العلماء، وقد استولى عليهم المرض، فالطبيب المريض، قلما يلتفت إلى علاجه، فلهذا صار الداء عضالاً، والمرض مزمناً، واندرس هذا العلم، وأنكر طب القلوب، وأنكر مرضها^(٣). وإذا كان الشيخ المربي مفقوداً والسالك غير موجود، حلّ مكانهما المتفنعون واللصقاء، وهنا كان على الغزالي أن يبين الأخطاء ويظهر الانحرافات حتى لا يساء فهم الدين^(٤).

ب- فساد المتصوفة: ويعطينا الغزالي صورة عما آل إليه أمر المتصوفة من فساد فيقول:.... إن أكثر متصوفة هذه الأعصار - لما خلت بواطنهم عن لطائف الأفكار، ودقائق الأعمال، ولم يحصل لهم أنس بالله تعالى وبذكره في الخلوة، وكانوا بطالين غير محترفين ولا مشغولين - قد ألفوا البطالة، واستثقلوا العمل، واستوعروا طريق الكسب، واستلأنوا جانب السؤال والكدية، واستطابوا الرباطات المبنية لهم في البلاد، واستسخروا الخدم المنتصين للقيام بخدمة القوم، واستخفوا عقولهم وأديانهم، من حيث لم يكن قصدهم من الخدمة إلا الرياء والسمعة، وانتشار العبث، واقتناص الأموال بطريق السؤال، تعللاً بكثرة الأتباع، لم يكن لهم في الخانقاهات حكم فاقده.. فلبسوا المرقعات، واتخذوا في الخانقاهات متزهات.. ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ويعتقدون أن كل سواد تمره.. فهو لاء بغضاء الله^(٥).

ج- الغرور والجهل: ويرى الغزالي أن الغرور قد هيمن على كثير من المتصوفة، وقد عد نماذج كثيرة من غرورهم ثم قال: وأنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله تعالى لا تحصى في مجلدات، ولا تستقصى، ثم بين أن مصدر ذلك كله الجهل وعدم سلوك الطريق بشكل صحيح بحيث يكون بعد العلم، فالكثير منهم جهلة، ومع ذلك ادعوا المعرفة، بترديد كلمات هي طامات، ويظن أنه أوتي علم الأولين والآخرين، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء فضلاً عن العوام^(٦). وكل ذلك بناءً على أغاليط

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٥٠).

(٣) المصدر نفسه (٣/ ٦٣).

(٥) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٥٠).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٢٥٠).

(٤) الإمام الغزالي للشامي، ص ١١٨.

(٦) الإمام الغزالي، ص ١٢٠.

ووساوس^(١)، يخدعهم الشيطان بها، لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم، ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدين والعلم، صالح للاقتداء به^(٢).

د- سقوط التكاليف: ويحدثنا الغزالي عن انحراف آخر لبعض الصوفية، لعله من أسوأ انحرافاتهم، ذلك أن بعضهم وقع في الإباحة، وطووا بساط الشرع ورفضوا الأحكام، وسووا بين الحلال والحرام.. وهم فئات^(٣). ومن هؤلاء طائفة ظنت أن المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل وبعد الوصول يستغنى عن الوسيلة والحيلة، فتركوا السعي والعبادة، وزعموا أنه ارتفع عن محلهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتحنوا بالتكاليف، وإنما التكاليف على عوام الخلق^(٤). وحكم الغزالي على هذه الفئات بأنها مذاهب باطلة وضلالات هائلة^(٥).

إن الغزالي لم يقبل التصوف بعجره وبجره، بل رفض في حزم تصوف أهل الحلول والاتحاد كالحلاج وأشباهه ولم يقبل إلا التصوف السني القائم على الكتاب والسنة، واجتهد أن يرد كل فكرة أو خلق أو سلوك أو حال، مما يقول به المتصوفة إلى أصول إسلامية وأن يستدل عليها بالقرآن والحديث والأثر^(٦)، وقد حاول أن يخفف من غلواء القوم في فهمهم للتوكل والزهد ونحوهما وإن أصابه شيء من رذاذهم^(٧)، ونقول ما قاله الذهبي: فرحم الله أبا حامد، فأين مثله في علومه، ولكن لا ندعي عصمته من الغلط والخطأ^(٨).

٥- أثر الغزالي في التصوف: أثر الغزالي أثر كبير في التصوف ولا زال هذا الأثر إلى يومنا الحاضر، فقد استطاع أن يصنع معالم لطريق التصوف ومقاييس له، تكشف الزيف وتظهر الخطأ، الأمر الذي يساعد على الإصلاح ويسهل طريقه. ومما يذكر له في هذا الميدان:

أ- ضرورة العلم الشرعي: نبّه الغزالي على ضرورة العلم الشرعي لسالك طريق الآخرة، خلافاً لما كان شائعاً بين كثير من الصوفية أن العلم حجاب، وقد جعل أول كتاب من كتب «الإحياء» الأربعين كتاب العلم، وأول عقبة يجب أن يجتازها «العابد» هي العلم كما في منهاج العابدين. وأكد في مواضع لا تحصر: أن السعادة لا تنال إلا بالعلم والعمل

(٢) المصدر نفسه (٣/ ٤٠٥).

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٤٠٤ - ٤٠٧).

(٣) المصدر نفسه (٣/ ٤٠٥).

(٤) الإمام الغزالي للسامي، ص ١٥٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٢١.

(٥) الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص ١٢١.

(٧) الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص ١٢١، ١٢٢.

وقال في رسالة «أيها الولد»: إن العلم بدون عمل جنون، والعمل بدون علم لا يكون، والإحياء هو الكتاب الذي وضعه لسالكي الطريق. إذن فهو ينكر كل الإنكار أن تكون المجاهدة رياضات النفس قبل العلم. ويرى الغزالي أن نظرة العالم أدق وأصوب من نظرة الصوفي^(١). ولذلك قال:.. ونور العلم إذا أشرق أحاط بالكل وكشف الغطاء ورفع الاختلاف^(٢).

ب- رفض الغزالي للتأويلات الباطنية التي تخرج بالنصوص الشرعية عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل، فإن هذا يقتضي بطلان الثقة بالألفاظ، وتسقط من منفعة كلام الرسول ﷺ، فإن ما يسبق إلى الفهم لا يوثق به، والباطن لا ضابط له، ومثل لذلك بقول بعضهم في قوله تعالى: «اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ»: أي إشارة إلى قلبه. وقوله «وَأَنْ أَلْقِي عَصَاكَ» أي ما يتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله فينبغي أن يلقيه، ومثله حديث: «تسحروا فلان في السحور بركة» وتأويله بأنه الاستغفار في الأسحار، وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها^(٣).

ج - جعل من التصوف علماً أخلاقياً عملياً: فقد نقله من مجرد الذوق والتحليق والشطح والتهويل إلى علم أخلاقي عملي يعالج أمراض القلوب وآفات النفوس ويزكيها بمكارم الأخلاق. ومن نظر إلى (الإحياء) عرف أن لبابه وغايته في نصفه الأخير وهو يتكون من ربعين: ربع (المهلكات) وربع (المنجيات) وكل من هذه وتلك عشرة كاملة وكلها تدور حول «الأخلاق»، فهو - كما ذكر في مقدمة الكتاب - يذكر في (المهلكات) كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته وتركبة النفس عنه وتطهير القلب منه. ويذكر في (المنجيات) كل خلق محمود، وخصلة مرغوب فيها، من خصال المقربين والصديقين التي بها يتقرب العبد من رب العالمين^(٤). كما أخذ عليهم من الناحية العلمية عدم دقتهم في تعريفاتهم لأعمال القلوب، لغلبة أحوالهم الذاتية والآنية عليهم. ومن تتبع الإحياء وغيره من كتب الغزالي، بإنصاف، وجد أنه حاول كبح جماح القوم، والوقوف بهم عند الحدود والحواجز الشرعية، وضبط أقوالهم وأعمالهم، بتقييد مطلقها، وتحديد مبهمها، وإعطائها معنى مقبولاً، ونجح في ذلك إلى حد بعيد^(٥).

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(١) الإمام الغزالي للشامي، ص ١٣٤.

(٣) إحياء علوم الدين (١/ ٢٧).

(٤) الإحياء (٣/ ١)، الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص ١٢٣.

(٥) الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص ١٢٤.

د- تصحيح مفهوم الزهد: الزهد أصل كبير من أصول التصوف، نتج عنه الإعراض عن الدنيا، وهو المسلك الذي يجاهد الصوفية نفوسهم من أجله كمرحلة أولى من طريقهم، ولكن بعضهم بالغ في هذا، بل وعلى حد تعبير الغزالي: أضلهم الشيطان في الإعراض عنها^(١). وقد ساق لنا نموذجاً من هذا الإعراض، وبين خطأهم، ثم بين لنا السلوك الصحيح في هذا الموضوع بقوله:.. وإنما الناجي منها فرقة واحدة وهي السالكة ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه وهو: أن لا يترك الدنيا بالكلية، ولا يقمع الشهوات بالكلية. أما الدنيا: فيأخذ منها قدر الزاد. وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل، ولا يتبع كل شهوة، ولا يترك كل شهوة، بل يتبع العدل، ولا يترك كل شيء من الدنيا، ولا يطلب كل شيء من الدنيا بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حد مقصوده: فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة، ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص، والحر والبرد.

ومن الكسوة كذلك حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن، أقبل على الله تعالى بكنه همته، واشتغل بالذكر والفكر طوال العمر. وبقي ملازماً لسياسة الشهوات، ومراقباً لها، حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى، ولا يعلم ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة الناجية، وهم الصحابة وقد كانوا على النهج القاصد، وعلى السبيل الواضح،.. فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا، بل للدين، وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية، وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط بل كان أمرهم بين ذلك قواماً وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين، وهو أحب الأمور إلى الله تعالى... والله أعلم^(٢).

والخلاصة: أنه مما لا شك فيه أن أثر الغزالي كان كبيراً على التصوف، إذ أرادته تصوفاً سنياً، على طريقة الجنيد، وقد أفلح إلى حد كبير في الإصلاح في هذا الميدان ولا يمكن تقدير ذلك إلا بالمقارنة بين ما كان عليه التصوف قبل الغزالي وما آل إليه بعده^(٣). ومن عرف كيف كان التصوف قبل الغزالي، ثم كيف صار بعده عرف فضل الغزالي على التصوف وأهله، وما ترك فيه من أمر واضح، يشهد به المتخصصون في علم هذا الجانب من جوانب الثقافة والحياة الإسلامية، وهذا ما اعترف به وقرره الذين عنوا بدراسة التصوف ورجاله وتاريخه^(٤)، ومهما يكن من أمر في هذا الباب الخطير، فالغزالي إمام كبير،

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٢٣٠).

(٢) الغزالي للشامي، ص ١٤٠.

(٣) إحياء علم الدين (٣/ ٢٣٠).

(٤) الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص ١٢٤.

وما من شرط العالم أنه لا يخطئ^(١).

سادساً: دور أبي حامد الغزالي في الإصلاح:

١- منهج الغزالي في الإصلاح: ذكر الدكتور ماجد عرسان الكيلاني أن القواعد التي قام عليها منهج الغزالي في الإصلاح والتجديد ثلاث قواعد:

القاعدة الأولى: إن الأساس في وجود الأمة المسلمة هو إخراجها لحمل رسالة الإسلام إلى العالم كله، وحين قعد المسلمون عن تبليغ الرسالة امتلأت الأرض بالفتنة والفساد الكبير، وأصبح المسلمون وغيرهم ضحايا هذا القعود.

القاعدة الثانية: وترتبط القاعدة الثانية بالأولى ارتباطاً متلاحماً، فما دام المسلمون مسئولين عن حمل رسالة الإصلاح إلى العالم، وما داموا قاعدين عن حمل هذه الرسالة، فإنه من الواجب أن يجري البحث في أسباب هذا القعود من داخل المسلمين أنفسهم.

القاعدة الثالثة: فقد جاءت مكملية للقاعدة الثانية، فما دامت الحاجة ماسة إلى تلمس أسباب القعود، فإن الغاية من هذا التلمس يجب أن تستهدف التشخيص وتقديم العلاج لا مجرد تواترات «سلبية» تقوم على التلاوم وتبادل الاتهام^(٢).

٢- صفات منهج الغزالي في الإصلاح: تميز منهج الغزالي في الإصلاح بصفات عدة منها:

الصفة الأولى: خلو كتاباته من تحريض المسلمين على جهاد الصليبيين، وخلوها من التنديد بوحشيتهم، وجرائمهم التي كانوا يقتربونها في أطراف العالم الإسلامي.

الصفة الثانية: هي اعتماد النقد الذاتي، ولذلك لم يلجأ إلى تلمس التبريرات وإلقاء المسؤولية على القوى المهاجمة التي جذبتها عوامل الضعف وقابلية الهزيمة من الخارج، وهذا منهج في البحث يتفق مع المبدأ الإسلامي القائل: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] فكان الغزالي يحاول أن يعالج قابلية الهزيمة، فالمشكلة حسب تصور الغزالي في فساد المحتويات الفكرية والنفسية عند المسلمين في أمور العقيدة والاجتماع وما سوى ذلك هي مضاعفات تزول بزوال المرض الأساسي^(٣).

الصفة الثالثة: التي اتصف بها منهج الغزالي في الإصلاح هي انطلاقه من منطلق

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/٣٣٩).

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ١٠٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٧.

إسلامي أصيل، فاهتم بجانب الإصلاح الفكري والنفسي. وهذا مبدأ قرآني واضح ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] وبدأ الغزالي بخاتمة نفسه أولاً، ثم أخذ بتغيير ما بأنفس الآخرين، واستمر أصحابه وتلامذته في تطبيق هذا المنهاج^(١)، فأسهمت هذا الجهود مع جهود أخرى في ظهور جيل نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي كما سنرى في مكانه.

الصفة الرابعة: إن الغزالي لم يعالج قضايا المسلمين باعتبارهم قومية منفصلة تصارع قوميات أخرى، وإنما باعتبار هذه القضايا بعض مضاعفات قعود المسلمين وعجزهم عن حل واجبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٢).

٣- تشخيص الغزالي لأمراض المجتمع الإسلامي:

١- فساد رسالة العلماء: ركز الغزالي في مواقع حجة على نقد العلماء المنتسبين إلى الدين وهم في الحقيقة علماء الدنيا، وهو يحملهم مسئولية كبيرة في فساد الملوك والحكام وفساد العوام، ويرى أن الداء العضال فقد الطبيب، والأطباء هم العلماء، وهم أنفسهم مرضوا مرضاً شديداً^(٣)، فتحدث عما وقع فيه أهل العلم ورجال الدين من طلب الجاه والرياسة، ونيل الخطوة عند أهل الحكم والسياسة، والجدل الفارغ والنقاش الحاد، والاكتفاء بمسائل الفروع والأحكام والانصراف عن علم الآخرة، وتهذيب النفس، وحقيقة ما فيه المتدبون للإصلاح والدعوة من الكلام المزخرف، واللفظ المسجع، والقصاص الملهية، ورأى عموم الفساد، وغفلة الناس، وسكوت العلماء، وفقدان النذير^(٤) فالغزالي يرى أن أدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وقد شغل منهم الزمان ولم يبق إلا المتمرسون، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان، واستهوهم الطغيان، وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغولاً؛ فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً حتى ظل علم الدين مندرساً، ومنار الهدى في منطقة الأرض منطمساً، ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغام، أو الجدل يتذرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام، أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام إذا لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام، وشبكة للحطام. فأما علم طريق الآخرة، ما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه فقهاً وحكمة، وعلماً وضياء ونوراً، وهداية ورشداً، فقد أصبح بين الخلق

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ١٠٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٧.

(٣) الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص ٧٩.

(٤) رجال الفكر والدعوة (١/٢١٤).

مطويًا، وصار نسيًا منسيًا، ولما كان هذا ثلماً في الدين ثُلماً، وخطباً مُذهلباً، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مُهمّاً لإحياء الدين، وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين، وإيضاحاً لمناحي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين^(١). ويعتقد الغزالي أن التبعة الكبرى في هذا الفساد الشامل، والضعف في الدين والانحلال في الأخلاق، تقع على العلماء، ورجال الدين، وهم السبب الأول في فساد الأوضاع؛ لأنهم ملح الأمة، وإذا فسد الملح فما الذي يُصلحه؟ ويتمثل الغزالي ببيت خوطب فيه العلماء:

يا معشر القراء يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد

ويذكر كيف مرضت قلوب الناس، واشتدت الغفلة عن المعاد ويذكر أسباب ذلك، فيذكر منها مرض العلماء واعتلالهم، وهم أطباء القلوب فيقول: والثالثة: وهو الداء العضال.. فقد الطبيب، فإن الأطباء هم العلماء، وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضاً شديداً، وعجزوا عن علاجه. ويقول في موضع آخر: فإن الأطباء هم العلماء وقد استولى عليهم المرض، فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه، فلهذا صار الداء عُضالاً، والمرض مزمنًا، واندرس هذا العلم، وأنكر بالكلية طبُّ القلوب، وأنكر مرضها، وأقبل الخلق على حب الدنيا، وعلى أعمال ظاهرها عبادات وباطنها مُراءاة^(٢). ويردُّ الغزالي فساد الملوك والأمراء إلى ضعف العلماء وإهمالهم لواجبهم يقول: بالجملة إنما فسدت الرعية بفساد الملوك، وفساد الملوك لفساد العلماء، فلولا القضاة السوء والعلماء السوء لقل فساد الملوك، خوفاً من إنكارهم^(٣). ويلوم الغزالي العلماء على تقاعدهم عن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكلمة الحق عند سلطان جائر ويعلل ذلك بوقوع العلماء في شباك الأمراء، وحبهم للدنيا وطلبهم للجاه^(٤). ولا حظ الغزالي - وقد مضى مدة طويلة في التدريس والإفتاء، وعاش بين العلماء وخبر سيرتهم - أنه قد شغل الناس بالجزئيات الفقهية، والمسائل الخلافية، ووقع الاكتفاء بعلم الفقه والفتيا، وانصرف بذلك العلماء وطلبة العلم عن العلوم النافعة، والأشغال المفيدة الأخرى، وشغلوا عن العلم الذي يُصلحون به نفوسهم، وينالون به سعادة الدنيا والآخرة^(٥). وقد ترتب عن فساد رسالة العلماء وانتشار الشكليات الدينية في المجتمع الإسلامي آثار من أهمها:

(١) إحياء علوم الدين (٣/١).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/٥٤).

(٣) رجال الفكر والدعوة (٢١٧/١) نقلاً عن إحياء علوم الدين.

(٥) المصدر نفسه (٢١٨/١).

- البعد عن قضايا المجتمع والاشتغال بقضايا هامشية لا طائل تحتها.
- التعصب المذهبي واختفاء الفضائل العلمية.
- تفتيت وحدة الأمة وظهور الجماعات والمذاهب.
- انتشار التدين السطحي والفئات التي مثلته، كفتة العلماء وفئة أصحاب العبادة والعمل والمغرورين، وفئة المتصوفة، وفئة أرباب المال، وقد فصل الإمام الغزالي في الحديث عن هذه الفئات في كتابه إحياء علوم الدين^(١).

ب- انحراف الألفاظ عن مدلولاتها: وقد فطن الغزالي - لذكائه الباهر وتجربته العلمية - أن من أسباب الالتباس وانخداع الناس بالمظاهر، وبُعدهم عن الحقائق، هو أنه قد فشا في هذا العصر استعمال كلمات القرآن والحديث في غير محلها، وفي غير معناها الأصيل القديم، وصار يُفهم منها ما لم يكن يفهم في العصر الأول، يعقد في كتاب «الإحياء» فصلاً خاصاً في بيان ما بُدِّل من ألفاظ العلوم ويقول في مُفتتحه: اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسماء المحمودة، وتبديلها ونقلها، بالأعراض الفاسدة إلى معان غير ما أرادها السلف الصالح والقرن الأول وهي خمسة ألفاظ: الفقه، والعلم، والتوحيد، والتذكير، والحكمة، فهذه أسماء محمودة، والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين ولكنها نُقلت الآن إلى معان مذمومة، فصارت القلوب تنصر عن مذمة بمعانيها لشبوح إطلاق هذه الأسماء عليهم^(٢)، ثم شرح الألفاظ المذكورة:

- **فالفقه:** كان يطلق في العصر الأول على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب، فحُصِّص في هذا العصر بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى، والوقوف على دقائق عللها، واستكثار الكلام فيها، وحفظ المقالات المتعلقة بها.

- **العلم:** وكان لفظ العلم يُطلق على العلم بالله تعالى، وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه، وتصرف فيه أهل الزمان بالتخصيص، حتى شهروه في الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها.

- **التوحيد:** وكان التوحيد عند الأولين، وهو أن يرى الإنسان الأمور كُلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط، فلا يرى الخير والشرَّ كله إلا منه جلَّ جلاله، وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام، ومعرفة طريق المجادلة والإحاطة بطرق

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ١١٣ - ١٣٢ وقد أخذ الكثير من الأفكار من إحياء علوم الدين.

(٢) الإحياء (٢٨/١).

مناقضات الخصوم، والقدرة على التشدق فيها، بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات، وتأليف الإلزامات، حتى لُقّب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد، وتسمّى المتكلمون العلماء بالتوحيد.

- التذكير: والتذكير هو الذي عناء الله سبحانه وتعالى، فنقل ذلك إلى ما ترى أكثر الوعاظ في هذا الإيمان يواظبون عليه، وهو القصص والأشعار، والشُّطح والطامات.

- والحكمة: والحكمة هي التي أثنى الله عز وجل عليها فقال: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. فصار اسم الحكيم يُطلق على الطبيب والشاعر والمنجم؛ حتى على الذي يُدحرج القرعة على أكفّ السَّوَادِيَةِ في شوارع الطرق^(١).

وبعد هذه المقارنة بين معاني هذه الألفاظ القديمة ومحلّ استعمالها وبين معانيها المُحدثة ومحلّ استعمالها وبيان التحريف الذي وقع في إطلاق هذه الكلمات وتفسيرها يقول: فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعي الخلق عن العلوم المحمودة إلى المذمومة، فكل ذلك من تلبس عُلماء السوء بتبدّل الأسماء، فإن اتبعت هؤلاء اعتماداً على الاسم المشهور من غير التفات إلى ما عُرف في العصر الأول، كنت كمن طلب الشرف بالحكمة باتباع ما يُسمى حكماً؛ فإن اسم الحكيم صار يُطلق على الطبيب والشاعر والمنجم في هذا العصر، وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ^(٢). وهكذا يهيب الغزالي بالعلماء، في قوة وصراحة وشجاعة وإخلاص وعمق وتحليل علمي، ويثير فيهم الغيرة والشعور، ويستحثهم على الرجوع إلى مركزهم في الأمة، وهو خلافة الأنبياء والوصاية الدينية والخلقية على المجتمع الإسلامي والحسبة على الحكومة والحكام، والخواص والعوام، معتقداً بأنهم حجر الزاوية في إصلاح المجتمع، وبصلاحهم صلاح العالم، وبفسادهم فساد العالم، ثم يلتفت إلى السلاطين والأمراء، لأنهم الركن الثاني في إصلاح النوع الإنساني^(٣).

ج- نقد السلاطين الظلمة: لم يكن نقد الغزالي ولا نصحه موجهاً للجمهور فحسب ولا للعلماء والمتصوفة ونحوهم من الطبقات فحسب، بل شمل نصحه وتوجيهه السلاطين والوزراء، الذين بأيديهم أمر المسلمين وطالما ذكر أن صلاح الأمة لا يتم إلا بصلاح هاتين الفئتين: أهل العلم والفكر، وأهل السياسة والسلطة، فهما الصنفان اللذان إذا صلحا صلح

(١) الإحياء (٢٨/١ - ٣٤)، رجال الفكر والدعوة (١/٢٢١). مفهوم التوكل: الأخذ بالأسباب والتعلق بالله سبحانه وتعالى دون الاعتماد عليها.

(٢) رجال الفكر والدعوة في الإسلام (١/٢٢٢).

(٣) المصدر نفسه (١/٢٢٢).

الناس، وإذا فسدا فسد الناس، وطالما حكى قول بعض السلف: لو كان لي دعوة مستجابة لدعوتها للسلطان، فإن الله يصلح بصلاحه خلقاً كثيراً والناس يمنعهم من إسداء النصيح وقول الحق المرأمان: الخوف والطمع. وهو في حياته الجديدة ليس عنده ما يخاف عليه، وليس عندهم ما يطمع فيه، وقد خبت في قلبه جمرة الحرص، وحب المال والجاه، بعد أن جعل الدنيا طريقاً لسفره لا محلاً لإقامته واتخذ منها قنطرة يعبرها ولا يعمرها؛ زاره وزير الخليفة أنوشروان في بيته تكريماً له، وإقراراً بمنزلته وفضله، وما كان ليحدث من هؤلاء الكبراء إلا لمثل الغزالي، ولكن أبا حامد قال له: زمانك محسوب عليك وأنت كالمستأجر للأمة، فتوفرك على ذلك أولى من زيارتي^(١). وقد أدرك الغزالي ببصيرته وثقافته الواسعة أن أول ما نقص من عرى الإسلام ما يتعلق بالحكم والسياسة، وأن أبرز ما انحرف فيه الحكم عن صراط الإسلام كان في سياسة المال، ولهذا شدد النكير على السياسة المالية للسلطين، وشدد على العلماء في الدخول عليهم أو مخالطتهم، أو قبول الهدايا منهم لأنها رشوة على الدين، ولأن أموالهم جلها سحت^(٢)، وإليك آراء الغزالي في هذا المجال:

- تحريم التعامل مع السلطين الظلمة.
- تحريم التجارة في الأسواق التي بناها السلطين الظلمة.
- تحريم التعامل مع قضاة السلطين الظلمة وخدمهم وشرطتهم.
- تحريم الانتفاع بالمرافق والمؤسسات التي بناها السلطين الظلمة. وقد فصل هذه الأمور في كتابه أحياء علم الدين^(٣). وقد تحدث الغزالي عن سلطين عصره فقال:.. فلا تسمح نفوس السلطين بعطية إلا لمن طمحوها في استخدامهم والتكسر بهم، والاستعانة بهم على أغراضهم، والتجمل بغشيان مجالسهم، وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء والتزكية والإطراء في حضورهم ومغيبيهم، فلو لم يُذل الآخذ نفسه بالسؤال أولاً وبالتردد في الخدمة ثانية، وبالثناء والدعاء ثالثاً، وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعاً، وبتكبير جمعه في مجلسه وموكبه خامساً، وبإظهار الحب والمودة والناصره له على أعدائه سادساً، وبالستر على ظلمه ومقابجه ومساوئ أعماله سابعاً، لم يُنعم عليه بدرهم واحد ولو كان في فضل الشافعي رحمه الله مثلاً؛ فإذا لا يجوز أن يؤخذ منهم في هذا الزمان ما يُعلم أنه حلال لإفضائه إلى هذه المعاني فكيف ما يُعلم أنه حرام أو يشك فيه، فمن استجراً على أموالهم وشبه نفسه بالصحابة والتابعين، فقد قاس الملائكة بالحدادين^(٤). وقيمة هذه الكلمة الجريئة

(٢) الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص ٨٩.

(٤) إحياء علوم الدين (١/١٢٢، ١٢٣).

(١) المتنظم لابن الجوزي (٩/١٧٠).

(٣) المصدر نفسه، ص ٨٩.

لا تُعرف إلا في جَوِّ الحكومات الشخصية الرهيبة التي كانت كلمة واحدة تصدر من عالم أو مؤلف في نقد ملك أو حاكم تطيح بحياته^(١). ولم يقتصر الغزالي على إبداء آرائه في السلاطين الجائرين في مؤلفاته، بل أبدى رأيه وجهر بالحق والنصيحة أمام الملوك كُلِّماً سنحت له فرصة، وقد قال للسلطان «سنجر بن ملك شاه السُّلجوقي» الذي كان يحكم خراسان من أقصاها إلى أقصاها: إن رقاب المسلمين كادت تنقض بالمصائب والضرائب، ورقاب خيلك كادت تنقضُ بالأطواق الذهبية^(٢)، وقد كتب إلى أخيه الأكبر محمد بن ملك شاه - وكان أكبر ملوك عصره - رسالة ذكَّره فيها بمسئوليته، وحذره من عقاب الله وغضبه، ولفت نظره إلى إصلاح المملكة^(٣). وكتب إلى وزراء المملكة رسائل مستفيضة، ولفت نظرهم بكل جرأة وصراحة إلى فساد الأوضاع، وجور الحكام وابتزازهم للأموال، وما كان يعانیه الشعب من حيف الأمراء، وغفلة المسؤولين، وطمع الموظفين، وحذرهم عقاب الله وبطشه، وذكرهم بمصير الوزراء السابقين، والحكام الظالمين، وحثَّهم على إصلاح الجهاز الإداري، وتنظيم الحكومة والضرب على يد الظلمة، ورسائله الفارسية التي وجهها في هذا المعنى إلى الوزراء مثال الشجاعة والصُّدع بالحق، ومثال لقوة الإنشاء وبلاغة التعبير، كالتى أرسلها إلى فخر الملك، ومجير الدين^(٤).

ولم يقتصر الغزالي على بذل النصيحة للملوك عصره ووزرائهم وتوجيههم الديني، وتحذيرهم من سخط الله، بل كان يبحث - لعلو همته وحرصه على إقامة الدين وإسعاد المسلمين - عن دولة فنية تقوم على أساس ديني متين، وفكر سليم، وقد قامت في عصره دولة نشيطة بريئة من كثير من علل الحكومات الإسلامية التي عاصرها، وهي دولة المرابطين بالمغرب، كان على رأسها رجل هو أقوى ملوك المسلمين في عصره وأنشطهم، هو يوسف بن تاشفين، صاحب مراكش، ومحدثنا ابن خلكان، أن الغزالي قصده لعله يتعاون معه على توجيه الحكومة^(٥)، يقول ابن خلكان: وبلغني أن الإمام حجة الإسلام، أبا حامد الغزالي - تغمدته الله تعالى برحمته - لما سمع ما هو عليه من الأوصاف الحميدة، وميله إلى أهل العلم، عزم على التوجه إليه، فوصل إلى الإسكندرية، وشرع في تجهيز ما يحتاج إليه، فوصله خبر وفاته، فرجع عن ذلك العزم^(٦).

د- نقده للبدع والمنكرات التي حدثت في المجتمع: لم يكن نقد الغزالي مقتصرًا على

(١) رجال الفكر والدعوة (١/٢٢٤).

(٢) المصدر نفسه (١/٢٢٥).

(٣) المصدر نفسه (١/٢٢٥).

(٤) المصدر نفسه (١/٢٢٥، ٢٢٦).

(٥) المصدر نفسه (١/٢٢٧).

(٦) وفيات الأعيان نقلاً عن رجال الفكر والدعوة (١/٢٢٧).

العلماء والسلاطين والأمراء، بل إنه استعرض المجتمع الإسلامي المعاصر كله، فذكر ما انتشر فيه من بدع ومنكرات وأوهام ومغالطات، ويدل كتاب الإحياء على أنه - وإن كان نشأ نشأة علمية وعاش بين الكتب والتلاميذ - كان متصلاً بالمجتمع اتصالاً وثيقاً، وقد درسه دراسة عميقة، وكان واسع الإطلاع على المدنية في عصره، وأساليب الحياة، وأجواء الطبقات. وأن ما ذكره من أخلاق مختلف الطبقات وعللها ليدل دلالة واضحة على قوة ملاحظته، ودقة نظره. وقد عقد في كتابه باباً مستقلاً في المنكرات المألوفة في العادات والتقاليد التي ألفها الناس، فلا يشعر كل واحد بأنها منكرات دخيلة على الحياة الدينية، وقد دقق فيها واستوعبها استيعاباً لا يقدر عليه إلا من عاش الناس معايشة طويلة، وخبر الحياة ودرسها دراسة واسعة عميقة ذكر فيها منكرات المساجد ومنكرات الأسواق ومنكرات الشوارع ومنكرات الحمامات، ومنكرات الضيافة والمنكرات العامة^(١). وخصّص الغزالي جزءاً من الكتاب بدم الغرور، ذكر فيه أصناف المغترين وفرق كل صنف، ذكر منهم المغترين من أهل العلم وفرقهم، والمغترين من المتصوفة، والمغترين من أرباب الأموال وفرقهم، وقد ذكر منافذ الشيطان ومداخل النفس في هذه الطبقات وأصنافها، وذكر في أفكارهم ومزاجهم وعقدتهم النفسية ما لا يطالع عليها إلا عالم كبير من علماء النفس، ومصالح اجتماعي ذكي له تجارب طويلة ونظر نافذ^(٢). وقد انتقد العلماء والمشتغلين بالعلم في غلوهم في الإكثار من الجزئيات الفقهية، والخلافات، والكلام والجدل، والتعمق في العلوم الآلية: كالنحو، واللغة، والشعر، والغريب، والانهماك به، وانتقد الصوفية بالاكتماء بحفظ أقوال المشايخ وأخبارهم... وذكر من التباسات الصوفية ومبالغاتهم شيئاً كثيراً يدل على إنصافه وتدقيقه^(٣). وقد ذكر عن المغترين من أرباب الأموال طرائف وحقائق تدل على النظر العميق، والفهم الديني الصحيح يقول: ربما يحرصون على إنفاق المال في الحج، فيحسبون مرة بعد أخرى، وربما تركوا جيرانهم جياً^(٤). ويقول: وفرقة أخرى من أرباب الأموال اشتغلوا بها، يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا تحتاج فيها إلى نفقها، كصيام النهار وقيام الليل، وختم القرآن وهم مغرورون لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم، فهو يحتاج إلى قمعه بإخراج المال، وقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها، ومثاله مثال من دخل في ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السكنجين يسكن به الصفرء، ومن قتلته الحية متى يحتاج إلى السكنجين؟ ولذلك قيل لبشر الحافي: إن فلاناً الغني كثير الصوم والصلاة؟ فقال: المسكين؛ ترك حاله، ودخل في حال غيره، وإنما حال هذا إطعام

(٢) رجال الفكر والدعوة (١/٢٢٩).

(٤) المصدر نفسه (٣/٣٥١).

(١) إحياء علوم الدين (٢/٢٩٤ - ٣٠٠).

(٣) إحياء علوم الدين (٣/٣٤٥ - ٣٥٠).

الطعام للجياع، والإنفاق على المساكين، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه، ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدينار ومنعه للفقراء^(١)، وقد تحدث الغزالي عن صور كثيرة من الأخطاء والبدع التي وقعت في المجتمع واستطاع تصويرها بريشته البارعة، فصور مخايل، وقسمات وجه ذلك المجتمع، وجسم دقائقه وتجاعيده، ويظهر في ذلك كله ذكاؤه، وسعة إطلاعه، ودقة ملاحظته وبراعة تصويره، وسلامة تفكيره^(٢).

٤- ميادين الإصلاح عند الغزالي: لم يكتف الغزالي بتشخيص الأدواء التي ضربت المجتمع في زمانه وإنما جعل هذا التشخيص مقدمة لاستخلاص ميادين العلاج، وكذلك يمكن القول إن ميادين الإصلاح عند الغزالي اشتملت على الميادين التالية^(٣):

١- العمل على إيجاد جيل جديد من العلماء والمربين: يرى الغزالي أهمية العلماء الربانيين في الإصلاح، ولذلك خالص إلى وجوب هذا النوع من العلماء وتحديد وظيفتهم وعلاقاتهم بالسلطين^(٤): فالعلماء هم أطباء الدين عليهم أن يطلبوا مرضى العقول والنفوس لعلاجهم لأنهم ورثة الأنبياء، والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم، ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء ويطلبونهم واحداً واحداً فيرشدونهم. فإن مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم... وهذا فرض عين على العلماء، وعلى السلطين كافة أن يرتبوا في كل قرية ومن كل محلة فقيهاً متديناً يعلم الناس دينهم، فإن الخلف لا يولدون إلا جهالاً فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع، والدنيا دار المرضى إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم، ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان، والعلماء أطباء، والسلطين قوام دار المرضى، فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم إلى السلطان ليكف شره كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحمي أو الذي غلب عليه الجنون إلى القيم ليقيده بالسلاسل والأغلال ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس^(٥). وللعلماء الذين يقومون بوظيفة تطبيب الناس من مرض الدنيا شروط وصفات حددها الغزالي فيما يلي:

- أن لا يطلب العالم الدنيا بعلمه.
- أن تكون عناية العالم بتحصيل العلم النافع في الآخرة المرغب في الطاعات مجتنباً

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٥٢)، رجال الفكر والدعوة (١/ ٢٣٠).

(٢) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢٣١).

(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ١٣٣.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٣٤.

(٥) إحياء علوم الدين (٤/ ٥٠).

العلوم التي يقل نفعها ويكثر فيها الجدل والقليل والقال.

- أن يكون العالم غير مائل للترف في المطعم والمشرب والملبس والأثاث بل يؤثر الاقتصاد في جميع ذلك.

- أن يكون العالم مستقصياً عن السلاطين محترزاً عن مخالطتهم.

- أن لا يكون مسارعاً إلى الفتيا بل يحترز في ذلك ما وجد إلى الخلاص سبيلاً.

- أن يكون شديد العناية بتوبة اليقين.

- أن يكون أكثر بحثه في علم الأعمال وعما يفسدها ويشوش الشكوك ويثير الشر^(١).

ولقد أسهب الغزالي في تحديد صفات العلماء المطلوبين لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وميز بين علماء الآخرة وبين علماء الدنيا أو علماء السوء. وأطنب في التمييز بين أخلاق الطرفين العلمية والاجتماعية ونوع علاقاتهم مع السلاطين والعوام والأغنياء والفقراء، وميز بين أساليب الطرفين في الإرشاد والوعظ والمناقشة، كل ذلك في ضوء الوظيفة الأساسية التي حددها الإسلام للعلماء^(٢).

ب- وضع منهاج جديد للتربية والتعليم: امتاز المنهاج الذي وضعه الغزالي عن المناهج المعاصرة بأنه تخطى الجزئية التي أفرزتها المذهبية، فلم يقتصر ذلك المنهاج على علوم الفقه التي حددها المذهب، وإنما تكاملت فيه العلوم الدينية كلها كالتوحيد، والتصوف والفقه، كذلك تكاملت فيه العلوم الدنيوية والمهن الدنيوية، لأن العلوم - حسب مفهوم الغزالي - كلها إسلامية ولكنها تنقسم إلى قسمين: شرعية وغير شرعية، فالشرعية ما استفيد من الأنبياء، وغير الشرعية ما أرشد إليها العقل كالمطب والحساب، والعلوم الشرعية فرض كفاية فلو خلا بلد منها سارع إلى الهلاك^(٣). ومن يقتصر على العلوم الدنيوية دون الشرعية يضيع عمره فيما لا ينفعه في الآخرة^(٤). وتدلل مؤلفات الغزالي التي درّسها لطلابه أنه قد صنفها لتغطي الميادين الآتية:

- بناء العقيدة الإسلامية: والهدف منه تكوين عقيدة واضحة حية تكون بمثابة الأيديولوجية التي تحدد مسار السياسات المختلفة وتوجهها، وأوضح الكتب التي مثلت ميدان بناء العقيدة هو كتاب «الحكمة من مخلوقات الله عز وجل»، ومن يطالع الكتاب يحال

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٥٨ - ٧٦).

(٢) المصدر نفسه (٤/ ٧٥ - ٧٦)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ١٣٥.

(٣) إحياء علوم الدين (١/ ١٧).

(٤) أيها الولد للغزالي، ص ٢٢، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ١٣٨.

نفسه أمام طبيب مختص بالتشريح، أو فلكي عالم بالفضاء. فقد اشتمل على أبواب معنوية بـ «التفكير في خلق السماء وفي هذا العالم» و«في حكمة الشمس» و«حكمة القمر والكواكب» و«حكمة خلق الأرض» والبحر والماء والهواء والنار والإنسان وتشكيل أجسام كل من الإنسان والبهائم والطيور والنحل والنبات وغير ذلك من المخلوقات. ولقد عرض الغزالي هذه الموضوعات بأسلوب قائم على تشريح الأجسام وتحليل عمل الأجرام وبيان تناسق وظائف كل عضو وإبراز دقة الخليقة وحكمتها^(١).

- ميدان تهذيب النفس والإرادة: وهدفه الارتقاء بالإنسان عن مستوى الخضوع للشهوات والأهواء إلى مقام العبودية لله حيث يتحرر الفرد من الخضوع للشهوات أو الخوف، ويتصرف طبقاً لمراد الله سبحانه وتعالى عن قناعة ورضا، ولتحديد متطلبات هذا الميدان ووسائله وضع الغزالي أطراً مطولة في التحليل النفسي ومراتب تطور النفس وأحوالها والمؤثرات التي تؤثر في السلوك والفكر، والممارسات التي يجب أن يمر بها المتعلم. ولقد استقى الغزالي مكونات هذا المنهج من القرآن والسنة ومصادر تراث السلف وأوائل الصوفية التي تتسق مع الكتاب والسنة. ولقد طبق الغزالي هذا المنهج - في تهذيب النفس - على نفسه عندما هجر التدريس في النظامية وهجر الأهل والموطن والجاه أحد عشر عاماً حتى صفت نفسه، ثم طبقه على تلاميذه عندما عاد لبلده ليشغل بتعليم الآخرين وتهذيبهم^(٢).

- ميدان دراسة العلوم الفقهية وما اشتملت عليه من أنظمة ومبادئ تتطلبها المعاملات الجارية والقضايا الحياتية القائمة والمتجددة، ولقد كانت دراسات هذا الميدان متحررة من التقليد المذهبي متصلة اتصالاً مباشراً بالقرآن^(٣).

- ميدان الحكمة والإعداد الوظيفي. ولقد أدرج الغزالي تحت هذا الميدان جميع السياسات والإدارات والمهن التي يحتاجها المجتمع وكيفية توزيع الأفراد حسب استعداداتهم وقدراتهم، وأشار إشارة صريحة إلى أن علوم هذا الميدان لا تقتصر على ما عرفه الإنسان وإنما سيزر الكثير منها في المستقبل بسبب تطور هذه الحياة وتجدد الحاجات^(٤)، ومن جهود الغزالي في هذا المجال كتاب «النبر المسبوك في نصيحة الملوك» الذي أورد فيه أخباراً تظهر أهمية العدل، وسياسة السلطان، وسياسة الوزراء مستشهداً بتاريخ الحكومات في فارس

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ١٣٩ نقلاً عن الحكمة من مخلوقات الله عز وجل في مجموعة: رسائل الفوائد.

(٢، ٣، ٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ١٣٩.

والروم وبتاريخ الخلفاء. وهكذا الكتاب يشكل منطلقات معينة لتحديد مفهوم الإدارة الحكومية كما يتصورها الغزالي^(١). وتكشف أبحاث الغزالي في هذا الميدان عن اطلاع واسع وخبرات عميقة في ميدان الإدارة والسياسة والآثار التي تترتب على حسن الإدارة أو سوءها، كذلك بحث الغزالي في تقدم العلوم وتجددها، وفي نظريات التعلم وفي التطور الثقافي والتطور الذي يصيب المجتمعات عبر الزمان والمكان وغير ذلك من أصول التربية سواء منها الاجتماعية أو العقائدية أو التربوية^(٢). ولقد طبق الغزالي هذه الآراء التربوية في مدرسته التي أنشأها واستقل بالتدريس بها هو وبعض أصحابه، وكان لها أكبر الأثر في تخريج أنماط جديدة من الرجال أسهموا فيما بعد في الحركة الإصلاحية إسهاماً فعالاً^(٣)، وأصبح منهاج مدرسة الغزالي نموذجاً احتذته المدارس الخاصة التي نشأت متأثرة بدعوته وأهمها المدرسة القادرية في بغداد التي لعبت دوراً رئيسياً^(٤) في نهوض الأمة ودعم حركة الجهاد في عهد نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي.

ج- إحياء رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - عند الغزالي - دوائر بعضها أوسع من بعض أولها: أن يبدأ الفرد بنفسه ليضع منها نموذج المؤمن المطلوب: فكن أحد رجلين إما مشغولاً بنفسك، وإما متفرغاً لغيرك بعد الفراغ من نفسك، وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك^(٥). وثانيها: أن يعلم أهل بيته. وثالثها: أن يدعو جيرانه. ورابعها: أهل محلته. وخامسها: أهل بلده. وسادسها: أهل المناطق الحضرية في البلاد عامة. وسابعها: أهل البوادي. وثامنها: الإنسانية كلها. وفي ذلك يقول الغزالي: فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات، ثم يعلم أهل بيته، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه، ثم إلى أهل محلته، ثم إلى أهل بلده، ثم إلى أهل السواد المكتنف ببلده، ثم إلى أهل البوادي من الأكراد والعرب وغيرهم. وهكذا إلى أقصى العالم. فإن قام به الأدنى سقط عن الأبعد، ولا حرج به على كل قادر عليه قريباً كان أو بعيداً، ولا يسقط الحرج ما دام يبقى على وجه الأرض جاهل بفرض من فروض دينه^(٦). على أن الغزالي في هذه الدوائر خص السلاطين ببحث أسمائه «باب أمر الأمراء بالمعروف ونهيهم عن المنكر» وكان الغزالي عنيفاً في تحريض العلماء على

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ١٤٠.

(٢) تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية، ماجد عرسان، ص ١٥٢ - ١٧٤.

(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ١٤٠. (٤) المصدر نفسه، ص ١٣٦.

(٥) إحياء علوم الدين (١/٣٩).

(٦) المصدر السابق (٢/٣٣٦).

الوقوف من الأمراء موقف الأمر الناهي مستهدفاً بذلك إرساء القاعدة التي يؤمن بها وهي أن «السياسة تدور في فلك العقيدة» وليس العكس. ولقد حشد في سبيل ذلك الأدلة الكثيرة من القرآن والسنة، وأطنب في سرد قصص علماء السلف مع الخلفاء الراشدين والأمويين وأوائل العهد العباسي^(١). وهكذا في عشرات الأمثلة إلى أن خلص من ذلك كله إلى القول: إن واجب العالم أن يُقرّع السلطان الظالم كقوله: يا ظالم، يا من لا يخاف الله وما يجري مجراه. فذلك أن لا يحرك فتنة يتعدى شرها إلى غيره لم يجز، وإن كان لا يخاف إلا على نفسه فهو جائز بل مندوب^(٢). ويكرر الغزالي هذا المعنى في أكثر من موضع: للمحتسب، بل يستحب له، أن يعرض نفسه للضرب والقتل إن كان لحسبته تأثير في رفع المنكر أو في كسر جاه الفاسق وفي تقوية قلوب أهل الدين^(٣). ولقد اعتبر الغزالي أن المسلمين مسئولون عن النهوض لمواجهة المنكر والأمر بالمعروف، وأن التقاعس ذنب ومعصية، ومما قاله في هذا المجال: اعلم أن كل قاعد في بيته أينما كان فليس خالياً من هذا الزمان من منكر من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف. فأكثر الناس جاهلون الشرع في شروط الصلاة في البلاد، فكيف في القرى والبوادي ومنهم الأعراب والأكراد والتركمانية، وسائر أصناف الخلق. وواجب أن يكون في كل مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلم الناس دينهم وكذا في كل قرية، وواجب كل فقيه فرغ من فرض عينه وتفرغ لفرض الكفاية أن يخرج إلى من يجاور بلده من أهل السواد ومن العرب والأكراد وغيرهم. ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم، ويستصحب مع نفسه زاداً يأكله ولا يأكل من أطعمتهم فإن أكثرها مغصوب^(٤). وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مراحل: أولها: التعريف بالتعليم، وثانيها: الوعظ، وثالثها: الزجر، ورابعها: المنع بالقهر^(٥).

د- فقد السلاطين الظلمة: اعتبر الغزالي السلاطين والأمراء في عصره ظلمة متعددين لحدود الله، يحرم على العلماء المخلصين الاختلاط بهم أو التعامل معهم حتى يفيثوا إلى شرع الله^(٦). وقد تحدثنا عن ذلك فيما مضى.

هـ- محاربة المادية الجارفة والسلبية الدينية، وتصحيح التصور السائد عن الدنيا والآخرة: عالج الغزالي المادية والسلبية الدينية اللتين جرفتا العالم الإسلامي في زمانه بروح

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ١٤٢.

(٢) إحياء علوم الدين (٢/٣٣٧).

(٣) المصدر نفسه (٢/٣١٦) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ١٤٣.

(٤) إحياء علوم الدين (٢/٣١٦). (٥) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ١٤٣.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٤٧.

الفقيه بأمر الدنيا والآخرة، لذلك لجأ إلى الأسلوب الهادئ التحليلي الذي يخاطب العقل ويستهدف الإقناع وتجنب لهجة الخطيب الواعظ الذي تشغله ظواهر الأمور وأعراض المرض الثانوية فيجئ إلى إثارة العواطف ودغدغة المشاعر.. وقد عمل الغزالي على تبصير الناس بحقيقة الدنيا والصورة التي يجب أن يكون عليها الإنسان بها^(١)، وحث الناس على الاقتداء بعهد النبوة وجيل الصحابة في حل هذه الإشكاليات من مادية جارفة، وتصور مغلوط عن الدنيا والآخرة^(٢).

و- الدعوة للعدالة الاجتماعية: ركز الغزالي على الدعوة للعدالة الاجتماعية بالقدر الذي ركز على أمور العقيدة والدعوة للإصلاح. وأساس آرائه في هذا المجال أن المال آلة صلبها الله في أيدي عباده لتكون آلة لدفع حاجاتهم ووسيلة ليتفرغوا لطاعته. فمنهم من أكثر ماله فتنة وبلية فأقحمه في الخطر، ومنهم من حماه وأحبه وفرغه لعبادته وساق إليه حاجته على أيدي الأغنياء، ولذلك عليه أن يأخذ بقدر الحاجة^(٣). وقد فصل الغزالي في أنماط الحياة الاجتماعية التي تحقق العدالة الاجتماعية المطلوبة، فقد صنف كتاباً في «آداب الكسب والمعاش» ضمنه آراءه في الحث على العمل وتبيان فضيلته، والبيع وأركانه وشروطه وسائر مظاهر المعاملات التجارية والحياة الاقتصادية^(٤)، كذلك وضع كتاب «الحلال والحرام» في الإحياء وأراد منه تحديد أنماط الحياة الاجتماعية وكيف ينقي المجتمع من العادات المخالفة للإسلام في أساليب المعيشة والتكامل^(٥)، ومحاربة الاحتكار والكنز لأن: الاحتكار ظلم في المعاملة، وبائع الطعام الذي يحتكر الطعام ينتظر غلاء الأسعار، هو ظلم عام وصاحبه مذموم في الشرع يبرأ منه الله تعالى^(٦). وأفرد الغزالي كتاباً خاصاً في «حقوق الأخوة والصحة»^(٧) فذكر أن هناك حقاً في المال وحقاً في الإعانة بالنفس. ولقد فسر قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُرَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٢٨] أي خلطاء من الأموال لا يميز بعضهم رحله عن بعض^(٨). وكان الغزالي يرى: أن في المال حقاً سوى الزكاة، لذلك يجب على الأغنياء مهما وجدوا الفقراء في حاجة أن يزيلوا حاجتهم. ومهما أرهقت الفقير حاجته كانت إزالتها فرض كفاية إذ لا يجوز تضييع المسلم^(٩).

ز- محاربة التيارات الفكرية المنحرفة: لم يغفل الغزالي التيارات الفكرية المضادة التي

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ١٥٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦.

(٣) إحياء علوم الدين (٢/ ٦٢ - ٨٩).

(٤) إحياء علوم الدين (٢/ ٨٩ - ١٣٣).

(٥) المصدر نفسه (٢/ ١٧٠ - ١٩٠).

(٦) المصدر نفسه (١/ ٢١٥).

(٧) المصدر نفسه (٢/ ٧٤).

(٨) المصدر نفسه (٢/ ١٧١).

(٩) إحياء علوم الدين (١/ ٢٢٣ - ٢٢٤).

استهدفت العقيدة الإسلامية من أصولها، والتي تمثلت بتيارين هما: الباطنية والفلاسفة، وقد بينا موقف الغزالي من كليهما. وفي مجابهته لهذين التيارين لم يلجأ الغزالي إلى الشتائم والقذف وإنما اعتمد الأسلوب العلمي القائم على الدراسة والاطلاع اطلاعاً يتفوق على أصحاب الفكر نفسه^(١)، ولقد ركز الغزالي في تفنيده لهذين التيارين على الأصول الأساسية لكل منهما، وبذلك اقتلعهما من جذورهما حتى آكل أمرهما إلى البوار والانحسار، ولنا أن نقدر للغزالي هذه الجرأة الفكرية خصوصاً إذا تذكرنا الإرهاب الفكري الذي أشاعته الباطنية وهي تغتال كل معارض أو منتقد حتى سقط نتيجة لهذا الإرهاب مئات العلماء والأعيان^(٢). ولقد ترتب على جهود الغزالي انحسار للتيارات الفكرية المنحرفة التي مثلها الباطنية والفلاسفة، وركدت سوقهما بين الجماهير وآكل أمرهما فيما بعد إلى البوار والسقوط^(٣).

ح- الإصلاح في ميدان الفكر: اجتهد الغزالي في إيقاظ الوعي في المجتمع الإسلامي وذلك بتحرير العقل من رق التقليد، وبالعودة إلى منابع الإسلام الأصيلة من كتاب وسنة، والتأكيد على النظرة الكلية الشاملة للمنهج الإسلامي^(٤).. وإليك شيء من التفصيل:

- دور العقل: قرر الغزالي بأنه لا تعارض بين العقل والشرع وفي ذلك يقول: فلا غنى بالعقل عن السماع، ولا غنى بالسماع عن العقل، فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور، فإياك أن تكون من أحد الفريقين، كن جامعاً بين الأصلين، فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية^(٥). ثم يقرر بناء على هذا عدم تعارض العلوم العقلية مع العلوم الشرعية فيقول: وظنُّ من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية، وأن الجمع بينهما غير ممكن هو ظن صادر عن عمى في عين البصيرة نعوذ بالله منه، بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم لبعض فيعجز عن الجمع بينهما فيظن أنه تناقض في الدين، فيستحير به، فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين، وإنما ذلك لأن عجزه في نفسه خيل إليه نقصاً في الدين وهيئات^(٦).

- رفض التقليد: يرى الغزالي - بعد أن حدد مصدر التلقي - أن العالم ينبغي أن لا

(١) المنقذ من الضلال، ص ٦ - ٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧٣، ١٧٤.

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٦٣، ١٦٤.

(٥) إحياء علوم الدين (١٧/٣).

(٤) الإمام الغزالي، صالح الشامي، ص ١٩٧.

(٦) المصدر نفسه (١٧/٣).

يكون مقلداً. ويشرح لنا ذلك عندما تحدث عن صفات علماء الآخرة فيقول: ومنها: يكون اعتماده في علومه على بصيرته وإدراكه بصفاء المقلد^(١)، صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فيما أمر به وقاله. وإنما يقلد الصحابة - رضي الله عنهم - من حيث إن فعلهم يدل على سماعه من رسول الله ﷺ. ثم إن العالم عليه أن يعمل عقله في تفهم أسرار أقواله ﷺ وأفعاله، لأنها لا تخلو من أسرار، واكتشاف ذلك هو مهمة العالم.. قال: ثم إذا قلد صاحب الشرع ﷺ في تلقي أقواله وأفعاله بالقبول، فينبغي أن يكون حريصاً على فهم أسرارهم، فإن المقلد إنما يفعل الفعل لأن صاحب الشرع ﷺ فعله، وفعله لا بد أن يكون لسر فيه، فينبغي أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال، فإنه إن اكتفى بحفظ ما يقال كان وعاءاً للعلم ولا يكون عالماً. ولذلك كان يقال: فلان من أوعية العلم، فلا يسمى عالماً إذا كان شأنه الحفظ من غير اطلاع على الحكم والأسرار.. ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما من أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله ﷺ^(٢). وينبغي للعالم أن يعرف الحق، وبه يُعرف الرجال، وإلى هذا يوجه الغزالي: فاعلم إن عُرف الحق بالرجال، حار في متاهات الضلال، فاعرف الحق تعرف أهله إن كنت سالكاً طريق الحق^(٣)، ويتحدث الغزالي عن الحجب التي تحول دون الفهم فيذكر منها التقليد، فيقول: ومنها: أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد، وحمد عليه، وثبت في نفسه التعصب له، بمجرد الاتباع للمسموع، من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة. فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكن أن يخطر بباله غير معتقده، فصار نظره موقوفاً على مسموعه، فإن لمع برق على بُعد، وبدله معنى من المعاني التي تباين مسموعه، حل عليه شيطان التقليد حلة وقال: كيف يخطر هذا ببالك، وهو خلاف معتقد آبائك، فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله^(٤). وتحدث الغزالي عن التقليد وبين أن النظر ليس حفظ الدليل، وإنما هو البحث وأعمال الفكر للوصول إلى الدليل الذي به تكون قناعة العقل. وبهذا المنطق يدعو الغزالي إلى تحرر العقل من رق التقليد، وذلك بإعمال عقولهم وعندها يمكنهم أن يؤديوا دورهم في أداء واجبهم. ولعل الدافع للغزالي إلى هذا الموقف من التقليد، إنما كان بفعل ما رآه من جمود علماء عصره على مذاهب أئمتهم - سواء أكان ذلك في الفقه أو الاعتقاد - وتعطيل عقولهم، بحيث لا يخالفونهم حتى ولو كان الدليل مؤيداً لغير ما ذهبوا إليه^(٥).

- الدعوة إلى الكتاب والسنة: قال الغزالي في رسالته «أيها الولد»: اعلم أن الطاعة

(١) المقصود بالتقليد هنا: الاتباع.

(٢) إحياء علوم الدين (١/٧٨).

(٣) إحياء علوم الدين (١/٢٣).

(٤) المصدر نفسه (١/٢٨٤).

(٥) الإمام الغزالي للشامي، ص ٢٠٥.

والعبادة، متابعة الشرع في الأوامر والنواهي، بالقول والفعل. يعني: كل ما تقول وتفعل، وتترك قوله وفعله، يكون باقتداء الشرع وقال: أيها الولد، ينبغي لك أن يكون قولك وفعلك موافقاً للشرع، إذ العلم والعمل بلا اقتداء بالشرع ضلالة^(١)، ويقول في «ميزان العمل»: اعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل، والمدعي فيه كثير، ونحن نعرفك علامتين له، العلامة الأولى: أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع، موقوفة على حد توقيفاته، وإيراداً وإصداراً، وإقداماً وإحجاماً، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها^(٢).

١- الالتزام بمنهج السلف: ويؤكد الغزالي على الحرص على معرفة سيرة الصحابة والتزام نهجهم: فتقليد الصحابة رضي الله عنهم إنما كان من حيث إن فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله ﷺ^(٣). فالقلد لهم إنما هو - في الحقيقة - متبع للرسول ﷺ. وبهذا كان للصحابة ميزة على غيرهم من الناس، فالغزالي ينصح من أراد التقليد أن يلتزم بهم فيقول: وإن قنعت بالتقليد والنظر إلى ما اشتهر من درجات الفضل بين الناس، فلا تغفل عن الصحابة وعلو منصبهم، فقد أجمع على تقدمهم، وأنهم لا يدرك في الدين شأوهم ولا يشق غبارهم^(٤)، ولذا ينبغي أن يكون الصحابة هم المقياس الذي يقاس بهم العلماء، فمن كان أشبه بهم فهو الأقرب إلى منهج الحق وطريق السلف، واعلم تحقيقاً أن أعلم أهل الزمان وأقربهم للحق، أشبههم بالصحابة، وأعرفهم بطريق السلف، فمنهم أخذ الدين^(٥).. وبعد أن عرّف بالعلم الحمود والعلم المذموم يقول: وإليك الخيرة في أن تنظر لنفسك فتقتدي بالسلف، أو تتدلى بجبل الغرور وتشبه بالخلف، فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس وما أكب الناس عليه فأكثره مبتدع ومحدث^(٦). وإذا كان الأمر كذلك فينبغي عدم الاغترار بما أحدث ولو أجمع عليه الناس، وينبغي البحث عما كان عليه الصحابة. وتلك صفة من صفات علماء الآخرة، ومنها أن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور، وإن اتفق عليها الجمهور، فلا يغرّنه إطباق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة رضي الله عنهم. وليكن حريصاً على التفتيش على أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم^(٧). ويؤكد الغزالي على هذا الأمر، لما يترتب عليه من انحراف في الأمة، وتطابق أكثر الناس على أمر لا يعني صوابه،

(١) الإمام الغزالي للشامي، ص ٢٠٦.

(٢) الغزالي للشرياضي، ص ١٦٤.

(٣) إحياء علوم الدين (١/٧٨).

(٤) المصدر نفسه (١/٢٣).

(٥) المصدر نفسه (١/٢٣).

(٦) المصدر نفسه (١/٣٨).

(٧) المصدر نفسه (١/٧٩).

ويبرهن على ذلك ببرهان واقعي، وهو أن صناعة الكلام التي تواضع الناس عليها.. لم تكن في السلف^(١)، فيقول... ودع عنك ما تطابق أكثر الناس عليه، وعلى تضخيمه وتعظيمه، لأسباب ودواع يطول تفصيلها، فلقد قبض رسول الله عن آلاف من الصحابة رضي الله عنهم، كلهم علماء بالله، أثنى عليهم رسول الله ﷺ، ولم يكن فيهم أحد يحسن صناعة الكلام^(٢). فهذه صيحة الغزالي التي دعا فيها إلى أعمال العقل، ونبد التقليد والتزام منهج السلف، هي حلقة من سلسلة صيحات دوى بها المجتمع الإسلامي من قبل رجال الإصلاح في كل عصر^(٣)، وقد كانت دعوة الغزالي في أواخر القرن الخامس الهجري قد أثرت تأثير كبيراً في عصره والذي بعده.

سابعاً: الغزالي وعلم الحديث:

من أهم ما أخذ على الغزالي تقصيره في علم الحديث، وإن شئنا الدقة قلنا في علوم الحديث، وقد رأينا ابن الجوزي يصفه بأنه في الحديث «حاطب ليل» أي يأخذ كل ما وجده دون تمحيص ولا انتقاء، ويرجع هذا إلى أن المدرسة التي نشأ فيها الغزالي، وتكونت في حلقاتها شخصيته العلمية - مدرسة إمام الحرمين خاصة - كان يغلب عليها الطابع العقلي الجدلي، وكان أهم ما يدرس فيها علوم الكلام والأصول والفقه والمنطق والجدل، ولم تكن لها عناية كافية بالحديث وعلومه، وقلما يسلم المرء من تأثير بيئته، وقد عيب على شيخه إمام الحرمين بعض ما عيب عليه في ذلك، ولكن الغزالي زاد على أستاذه في هذا كثيراً، لأن الموضوعات التي عاجلها - في التصوف والسلوك - تتسع للضعيف من الحديث أكثر مما يتسع للفقه الذي يتعلق بالأحكام وبيان الحلال والحرام، ومثل ذلك علم «الأصوليين»: أصول الدين، وأصول الفقه، وهي التي اشتهر بها شيخه^(٤).

ومن الإنصاف أن نبين أن الغزالي لم يكن هو وحده الذي سقط في أحاييل الأحاديث الواهية والموضوعة، فقد سقط في ذلك المتصوفة من قبله، وهو أخذ ما في كتبهم وأبقاه في كتبه، والمتصوفة معروفون بالتساهل في ذلك؛ لأن مجالهم «الرقائق»^(٥)، بل إن الفقهاء لم ينجوا من الوقوع فيما وقع فيه الصوفية، فكثيراً ما ذكروا في كتبهم أحاديث معلقة غير مسندة ولا ثابتة، وكتب التفسير حشيت بما لا يصح ولا يثبت من الحديث والإسرائيليات^(٦). والذي

(١) الإمام الغزالي للشامي، ص ٢٠٨.

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٢٣).

(٣) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه للقرضاوي، ص ١٣٦.

(٤)، (٦) المصدر نفسه، ص ١٣٧.

يعرف الصحيح من السقيم والمقبول من المردود، الخبراء الذين آتاهم الله المعرفة بالحديث رواية ودراية، ولم يكن الغزالي منهم بحكم بيئته العلمية وما غلب عليها من ثقافته، وهذه نقطة ضعف عند الغزالي وكذلك عند كثير من الصوفية: أنه لم يتعمق في العلوم المنقولة من التفسير الأثري والحديث وآثار السلف التي هي أساس العلوم الشرعية، وقد اعترف في كتابه «قانون التأويل» بأن بضاعته في علم الحديث مزجاة، فهذا جعله يستدل بأحاديث ضعيفة أو لا أصل لها، أو موضوعة مختلفة، كما يغفل عن أحاديث صحيحة، أو متفق عليها، في موضوعه، كان يجب أن يذكرها، وربما لو عرفها لغيرت من مسار تفكيره^(١). وقد ذكر ابن تيمية أن الغزالي في أواخر عمره قطع بأن كلام الفلاسفة لا يفيد علماً ولا يقيناً، بل وكذلك قطع في كلام المتكلمين^(٢)، قال: وآخر ما اشتغل به النظر في صحيح البخاري ومسلم، ومات وهو مشغول بذلك^(٣). وقد اعتذر مجموعة من العلماء عن الغزالي عن استناده للأحاديث الضعيفة وخاصة في الأحياء بأن الكتاب في الرقائق والترغيب وفضائل الأعمال، والعلماء أجازوا رواية الضعيف في هذا المجال، ومن اعتذر بذلك للغزالي ابن كثير حيث قال عن الإحياء: وهو كتاب عجيب، يشتمل على علوم كثيرة من الشرعيات، وممزوج بأشياء لطيفة من التصوف وأعمال القلوب، لكن فيه أحاديث كثيرة غرائب ومنكرات وموضوعات كما يوجد في غيره من كتب الفروع التي يستدل بها على الحلال والحرام، فالكتاب الموضوع للرقائق والترغيب والترهيب أسهل أمراً من غيره^(٤). وما ينبغي ذكره هنا أن الحافظ زين الدين العراقي، قد خدم الكتاب خدمة جلييلة بتخريجه الموجز لأحاديثه المطبوع معه في حاشيته، والمسمى «المغني عن حمل الأسفار، بتخريج ما في الإحياء من الأحاديث والأخبار» فعلى كل قارئ للإحياء يجب مراجعة تخريج العراقي ليعرف منه درجة الحديث، وإن كان فيه ما يتعقب، ولكنه مهم ونافع على كل حال^(٥).

ثامناً: كتاب إحياء علوم الدين؛

كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي من الكتب التي تباينت فيها الأنظار، فمن مداح له مطلقاً ساكت عن طوامه، ومن قادح فيه مطلقاً، ساكت عن محاسنه، والأئمة الراسخون في العلم توسطوا فيه فأعطوه حقه من المدح والقدح، وأنزلوه منزلته التي

(١) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه للقرضاوي، ص ١٣٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٩.

(٤) البداية والنهاية (١٦/٢١٤).

(٥) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص ١٤٣.

يستحقها بدون غلو أو جفاء^(١)، قال ابن تيمية في معرض تقويمه لكتابي: إحياء علوم الدين وقوت القلوب لأبي طالب المكي: أما كتاب قوت القلوب وكتاب الإحياء تبع له فيما يذكره من أعمال القلوب: مثل الصبر، والشكر، والحب، والتوكل، والتوحيد ونحو ذلك، وأبو طالب أعلم بالحديث والأثر وكلام أهل علوم القلوب من الصوفية من أبي حامد الغزالي، وكلامه أسد وأجود تحقيقاً، وأبعد عن البدعة، مع أن في قوت القلوب: أحاديث ضعيفة وموضوعة وأشياء كثيرة مردودة. وأما ما في الإحياء من الكلام في المهلكات مثل: الكلام على الكبر، والعجب والرياء والحسد ونحو ذلك، فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي في الرعاية، ومنه ما هو مردود، ومنه ما هو متنازع فيه والإحياء فيه فوائد كثيرة لكن فيه مواد مذمومة، فإن فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد، فإذا ذكر معارف الصوفية كان بمنزلة من أخذ عدواً للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين. وقد أنكر أئمة الدين على أبي حامد هذا في كتبه وقالوا: مرّضه الشفاء يعني: شفاء ابن سينا في الفلسفة وفيه أحاديث وآثار ضعيفة، بل موضوعة كثيرة، وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وتُرّهاتهم، وفيه - مع ذلك - من كلام مشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة ومن غير ذلك من العبادات والأدب ما هو موافق للكتاب والسنة، ما هو أكثر مما يرد منه، فلهذا اختلف فيه اجتهد الناس وتنازعوا فيه^(٢). وقال أيضاً: والغزالي في كلامه مادة فلسفية كبيرة بسبب كلام ابن سينا في الشفا وغيره، ورسائل إخوان الصفا، وكلام أبي حيان التوحيدي، وأما المادة المعتزلية في كلامه فقليلة أو معدومة، كما أن المادة الفلسفية في كلام ابن عقيل قليلة أو معروفة، وكلامه في الإحياء غالبه جيد، لكن فيه مواد فاسدة: مادة فلسفية، ومادة كلامية ومادة من ترهات الصوفية، ومادة من الأحاديث الموضوعة^(٣). وقال الذهبي: وأما الإحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملة وفيه خير كثير، لولا ما فيه من آداب ورسوم وزهد من طرائق الحكماء ومنحرفي الصوفية، نسأل الله علماً نافعاً، تدري ما العلم النافع؟ هو ما نزل به القرآن، وفُسّرهُ الرسول ﷺ قولاً وفعلاً، ولم يأت نهى عنه، قال عليه السلام: «من رغب عن سنتي، فليس مني»^(٤)، فعليك يا أخي بتدبر كتاب الله، وبإدمان النظر في «الصحيحين»، وسنن النسائي، ورياض النووي وأذكاره، تُفلح وتُنجح^(٥). وقال الذهبي: الغزالي إمام كبير وما

(١) منهج أهل السنة في تقويم الرجال ومؤلفاتهم للصويّات، ص ١٤٣.

(٢) مجموع الفتاوى (٥٥/١٠)، الفتاوى الكبرى (١٩٤/٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٥٤/٦ - ٥٥).

(٤) البخاري رقم ٥٠٦٣، مسلم رقم ١٤٠١.

(٥) سير أعلام النبلاء (٣٤٠/١٩).

من شرط العالم أنه لا يخطئ^(١). وقال أيضاً: فرحم الله أبا حامد فأين مثله في علومه وفضائله ولكن لا ندعي عصمته من الغلط والخطأ ولا تقليد في الأصول^(٢). وقال الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر: وإذا وجد العلماء في كتاب الإحياء مأخذ معدودة، فإنه من صنع بشر غير معصوم من الزلل، وكفى كتاب الإحياء فضلاً وسمو منزلة: أن تكون درر فوائده فوق ما يتناول العد، وأن يظفر منه طلاب العلم وعشاق الفضيلة بما لا يظفرون به في كتاب غيره^(٣). وقال الدكتور القرضاوي: وكما أتمنى أن يختصر من الكتاب - أعني: الأحياء - «منتقى» يبقى على روحه وحرارته كما يبقى على فوائده العلمية والتربوية - وهي كثيرة وفيرة - ويحذف التجاوزات والمبالغات، والأحاديث الضعيفة أو الشديدة الضعف على الأقل، وبهذا تقدم للثقافة الإسلامية خدمة جليلة^(٤). وقال العلامة أبو الحسن الندوي: ويدلُّ كتاب الإحياء على مكانته العالية بين علماء الأخلاق، وقد بحث عن الأخلاق ودوافعها ومنشئها وأصنافها بحثاً دقيقاً عميقاً، وتكلم في أمراض القلب وأسبابها وعلاجها كلاماً يجمع بين الحكمة والعلم والتجربة والتربية، وإنَّ من يقرأ بحثه المستفيض في بيان سبب كون الجاه محبوباً بالطبع، حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة، ليخضع ويقر بذكائه ودراسته للطبيعة البشرية، وتحليله العلمي وعقله الكبير^(٥)، وقد استحقَّ الغزالي ببحوثه العميقة في الأخلاق، وبتأليفه العظيم «إحياء علوم الدين» أن يوضع في الصف الأول من علماء الأخلاق، وأن يكون موضع دراسة وعناية من الباحثين في علم الأخلاق، وعلم النفس، والمؤرخين لهذا الموضوع. ويرى الندوي أن كتاب الإحياء كتاب ترغيب وتهذيب وأن من أشدَّ أجزاء الكتاب تأثيراً في النفس، ما يشمل على الترغيب والترهيب، ويصوِّر الغزالي غرور الدنيا وخلود الآخرة، والحاجة إلى الإيمان والعمل الصالح وتهذيب النفس، ويدافع عنها، ويعتذر كأحسن ما يعتذر صديق محب، ومحام بارع، ثم يجيب عن ذلك ويُقيم عليها الحجة كأحسن ما يفعل ذلك قاض نابغة، ومُشرع بصير، ثم يُرقق القول ويصف العلاج، كأحسن ما يفعل طبيب حاذق، ومُربِّ عطوف، ويحيي بالعجب العُجاب، ويسحر الألباب، ويُدَمِّع العيون، ويُرقق القلوب، وقد أثَّرت هذه المواعظ الحكيمة الرقيقة في قلوب الألوِّف، وأحدثت في حياتهم انقلاباً وتحولاً عظيماً، ومن شاء فليقرأ المرباطة السادسة في توبيخ النفس ومعاتبتها^(٦). وقد أصبح كتاب الإحياء بذلك كُلُّه كتاب إصلاح وتربية، وكان

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/٣٣٩).

(٢) المصدر نفسه (١٩/٣٤٦).

(٣) الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص ١٥٨.

(٤) إحياء علوم الدين (٤/٣٥٦ - ٣٥٨).

(٥) الإمام الغزالي للشامي، ص ١٦٠.

(٥) رجال الفكر والدعوة (٣/٢٤١ - ٢٤٤).

المصنف حاول أن يكون هذا الكتاب - كمرشد ومرب - مغنياً عن غيره، قائماً مقام المكتبة الإسلامية؛ لذلك جعله يحتوي على العقائد، والفقه وتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، والحصول على مرتبة الإحسان^(١). ولكن مما يلاحظ أن كثيراً ممن يقتصر على مطالعة هذا الكتاب، أو يكثر من قراءته ويشغف به، ينشأ عنده غلوٌ في الزهد والتقشف، ومخالفة النفس في المباحات، والكرهية للحياة، والإكثار من الرياضات والمجاهدات؛ حتى تتأثر بذلك صحته وعقله، خصوصاً في هذا العصر الذي ضُعفت فيه القوى والأجسام، لذلك يمنع بعض المريين الحكماء عن مطالعة هذا الكتاب في بداية الحال، خصوصاً الذين عندهم تأثر قويٌّ وانفعال سريع، لعل السبب في ذلك أن الغزالي صنّفه في حالة قد غلب عليه فيها الخوف والهيبة، وكان متأثراً شديداً بالتأثر، فجاء كلامه صورة نفسيته وتأثره، وقد جمع فيه أقوالاً كثيرة في الزهد وقهر النفس وعصيانها، لا تخلو من المبالغة والإسراف، والحق أن السيرة النبوية - ويدخل فيها الحديث الصحيح - على صاحبها الصلاة والتحية - هي المدرسة الوحيدة التي تربي تلاميذها على الاعتدال الكامل والتوازن الصحيح. و «كل يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر»^(٢)، ويُمثل ذلك بعض التمثيل قدوة دينية تجمع بين العلم الراسخ، والسيرة المستقيمة، والقلب الحي النابض قد تشرب السيرة وتذوق السنة، وذاق حلاوة الإيمان، وحاز اليقين، ولم يزل ولا يزال الدين يؤخذ من الأحياء ويقوم بالأحياء، ولم يكن الإنسان في دور من الأدوار غنياً عن القدوة والصحبة^(٣)، ورغم ما تُعقب على الغزالي في الإحياء من إيراد أحاديث ضعيفة بل موضوعة في كثير من الأحيان، وأشياء من كلام الصوفية الممعنة في الغلو، وهضم النفس وترك المباحات وقد لا يتفق مع أصول الدين، ومع ما ورد فيه من مواد كلام الفلاسفة.. إلى غير ذلك من مآخذ تعقبها العلامة الحافظ ابن الجوزي^(٤) وشيخ الإسلام ابن تيمية، مع اعترافهما بفضل الكتاب فإن كتاب الإحياء في مقدمة الكتب الإسلامية، التي انتفع بها خلائق لا تحصى في كل عصر وجيل، وأُثرت في النفوس تأثيراً لا يُعرف إلا عن كتب معدودة، ولا يزال الكتاب الذي يكثر قراؤه والمعجبون به والمتأثرون به في أكثر البلاد، ولا يزال ثروة زاخرة في الدين، ومصدراً قوياً من مصادر الإصلاح والتربية.^(٥) وخلاصة القول في كتاب الإحياء أنه من صنع البشر، ولا يعيبه وجود

(١) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢٣٢).

(٢) من كلام الإمام مالك.. رجال الفكر والدعوة (١/ ٢٣٣).

(٣) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢٣٣).

(٤) المنتظم (٩/ ١٦٩ - ١٧٠).

(٥) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢٣٤).

مأخذ معدودة عليه. ونضيف إلى ذلك: أن كتاب الإحياء موسوعة علمية ضخمة وليس هو الكتاب الصغير ووجود الأخطاء لا يلغي مكانة الكتاب وأهم ما انتقد على الكتاب في نقاط:

- * استشهاده بالأحاديث الضعيفة والموضوعة.
- * وجود بعض الأحكام التي بنيت على هذه الأحاديث.
- * ذكر كثير من القصص التي تحمل المبالغات في السلوك الصوفي.
- * الحديث عن الكشف والمكاشفة التي يتحدث عنها في الإحياء^(١)
- * بعض المواضع التي ذكر فيها مواد فلسفية.

قال الدكتور القرضاوي: على أن من أخطر ما يؤخذ على الغزالي - بالنسبة إلى التصوف - هو قضية «الكشف» أو «المكاشفة» التي يحصل الصوفي على علومها وأنوارها بعد الرياضة والتصفية الروحية، وبعد الترقى في مدارج السالكين ومنازل السائرين، وقد صرح الغزالي أن «علم المكاشفة» مما لا يجوز أن يودع الكتب^(٢)، ومهما يكن من أمر فإن الغزالي كما قال الذهبي: إمام كبير، وما من شرط العالم أنه لا يخطئ^(٣).

تاسعاً: موقف الغزالي من الاحتلال الصليبي:

مع مجيء السلاجقة بدأ الوعي بالجهاد يدبّ من جديد في نفوس المسلمين، ولقد استطاع السلاجقة في الفترة الممتدة من دخولهم بغداد إلى سنة ٤٩٠ هـ تاريخ بداية الهجمة الصليبية على الشام، استرجاع شمال الشام كله، من أيدي البيزنطيين، بل دخلوا آسيا الصغرى وتمكنوا من أسر الإمبراطور البيزنطي في معركة ملاذكرد الشهيرة، وهو أمر يحدث لأول مرة في تاريخ الحروب الإسلامية البيزنطية. إلا أنه ابتداء من ٤٩٠ هـ ستخذه هذه الحروب منعرجاً جديداً إذ ستتحول إلى حرب صليبية^(٤)، وقد احتل الصليبيون عدداً من بلاد الإسلام لاسيما بيت المقدس، الذي دخلوه غازين، وأسالوا فيه الدماء أنهاراً، وقتلوا من أهله نحو ستين ألفاً، وتفككت الأمة أمام هذه الغارات الوحشية^(٥)، إلا أننا لم نسمع صوتاً للغزالي، وهو صاحب الكلمة المسموعة، والصيت المدوي، والبيان المؤثر، والحجة

(١) الإمام الغزالي للشامي، ص ١٨١.

(٢) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه للقرضاوي، ص ١٣٩.

(٣) سير أعلام النبلاء (٣٣٩/١٩).

(٤) الجهاد من الهجرة إلى الدعوة إلى الدولة، ص ٧٦.

(٥) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص ١٥٤.

البالغة، ما له لا يتحدث عن الجهاد؟ وما له لا يحرك الجماهير، كما فعل شيخ الإسلام من بعده ابن تيمية؟ ما سر هذه السلبية، والحق أن هذا موقف محير من أبي حامد - رحمه الله - ومثله لا يجهل ما يجب أن يقال، وما يجب أن يعمل في زمن الإغارة على أهل الإسلام، وقد سجل حكم الجهاد في مثل هذه الحالة، وأنه فرض عين في كتبه الفقهية، وربما يقال إن هذه الأحداث الكبيرة إنما برزت وتفاقت في العالم الإسلامي في نفس الوقت الذي اتجه فيه الغزالي إلى حياة العزلة والتصوف سنة ٤٨٨هـ وهجر الدنيا بما فيها من صراع البقاء أو صراع الفناء، فكان محور تفكيره حينذاك إنقاذ نفسه من النار ونقلها من المهلكات إلى المنجات، فقد غزا الصليبيون أنطاكية سنة ٤٩١هـ ثم معرة النعمان في الشهر الأخير من تلك السنة حتى قالوا: إنهم قتلوا فيها مائة ألف، ثم اجتاحوا البلاد كلها يقتلون ويدمرون، واقتحموا القدس سنة ٤٩٢هـ وذبحوا من ذبحوا مما يذكره التاريخ ولا ينساه، وكان الغزالي لا يزال في عزلته، إذ لم يفارقها إلا في سنة ٤٩٩هـ ولكنه بعد ترك العزلة والعودة إلى حياة الإفادة والتدريس والدعوة لم يئد منه ما يدل على عنايته بهذا الأمر، الذي يتعلق بمصير الأمة، وسيادتها^(١).

آراء بعض المعاصرين في سكوت الغزالي عن الحروب الصليبية:

١- الدكتور زكي مبارك: يعتبر الدكتور زكي مبارك أحد أبرز النقاد المعاصرين الذين كتبوا عن الغزالي وله كتاب «الأخلاق عند الغزالي» تعرض فيه لمسائل كثيرة عنه، وقد وقف وقفة وجيزة عند الغزالي والحروب الصليبية قال فيها: أتدري لماذا ذكرت لك هذه الكلمة عن الحروب الصليبية؟ لتعرف أنه بينما كان بطرس الناسك يقضي ليله ونهاره في إعداد الخطب وتحجير الرسائل لحث أهل أوروبا على امتلاك أقطار المسلمين، كان الغزالي (حجة الإسلام) غارقاً في خلوته، منكباً على أوراده، لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة والجهاد^(٢).

٢- الدكتور عمر فروخ: أما الدكتور عمر فروخ فقد التمس العذر في سكوته عما جرى في القدس قائلاً: كان الصوفية يعتقدون بأن الحروب الصليبية كانت عقاباً للمسلمين على ما سلف لهم من الذنوب والمعاصي، ولعل الغزالي قد شارك سائر الصوفية في هذا الاعتقاد^(٣). وغير صحيح تعميم القول بأن الصوفية لا يشاركون في الجهاد، بل مشاركة كثير من الصوفية

(١) الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص ١٥٦.

(٢) الأخلاق عند الغزالي، ص ٢٥.

(٣) أبو حامد الغزالي والتصوف، دمشق، ص ٣٥٢.

في حركة الجهاد ضد الصليبيين أثبتته الحقائق التاريخية في عهد السلاجقة والزنكيين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين، وفي العصر الحديث فبعد القادر الجزائري الذي قاد حركة الجهاد الأولى ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر من كبار المتصوفة، والسنوسيون في ليبيا وعلى رأسهم محمد المهدي السنوسي مات مرابطاً في أحد الثغور أثناء قتاله لفرنسا في تشاد وأحمد الشريف السنوسي وعمر المختار من زعماء حركة الجهاد في ليبيا من الصوفية، كما شارك بعض الصوفية في الجهاد حالياً ضد الغزو الأمريكي للعراق، فإطلاق القول بأن الصوفية لا تشترك في الجهاد على العموم غير صحيح. وتحقيق المسألة أن من يقوم بالجهاد من الصوفية هم أتباع التصوف السني والذي يقوم على أصول أهل السنة عقيدة ومنهجاً مع الإكثار من العبادة والذكر والزهد، وقد لا يخلو الأمر من بعض الأخطاء. أما التصوف المنحرف القائم على الاستغائة بالموتى والغلو في الأشخاص وترويج البدع والتواكل وبث روح الانهزامية فهم عادة هم مطية للاستعمار والغزاة. ونجد للدكتور فروخ رأياً آخر في كتابه التصوف في الإسلام^(١) يقول فيه: ألا يعجب القارئ إذا علم أن حجة الإسلام - أبا حامد - الذي وقف بنفسه وعلمه في خدمة الدين لحفظ الإيمان على العامة، شهد القدس تسقط في أيدي الإفرنج الصليبيين وعاش اثني عشرة سنة بعد ذلك ولم يُشر إلى هذا الحادث العظيم^(٢).

٣- الدكتور يوسف القرضاوي: حيث قال: والحق أن هذا الموقف محير من أبي حامد رحمه الله ومثله لا يجهل ما يجب أن يقال إلى أن قال:..ولعل عذر الإمام الجليل أن شغله الشاغل كان الإصلاح من الداخل أولاً، وأن الفساد الداخلي هو الذي يمهد للغزو الخارجي، كما تدل على ذلك أوائل سورة الإسراء، فإن بني إسرائيل كلما أفسدوا في الأرض، سلط عليهم عدوهم، وكلما أحسنوا وأصلحوا ردت لهم الكرة عليهم، لقد وجه أكبر همه إلى إصلاح الفرد، الذي هو نواة المجتمع وإصلاح الفرد إنما يكون بإصلاح قلبه وفكره، وبذلك يصلح عمله وسلوكه وتصلح حياته كلها، وهذا هو أساس التغيير الاجتماعي وهو ما أرشد إليه القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. ويدخل في ذلك إصلاح الحكام بحسن توجيههم والنصيحة لهم والله أعلم بحقيقة عذره^(٣).

٤- الدكتور ماجد عرسان الكيلاني: حيث قال:.. بالنسبة لموضوع الجهاد يلاحظ أن الغزالي تناول محتواه واسمه ضمن موضوع «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» حيث اعتبره في أكثر من موضع أحد أشكال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. والأمثلة على ذلك كثيرة

(١) أبو حامد الغزالي والتصوف، دمشق، ص ٣٥٢. (٢) التصوف في الإسلام، ص ٩.

(٣) الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص ١٥٦.

قوله: أفلا ينبغي أن يبالي بلوازم الأمر بالمعروف وممتهاه تجنيد الجنود في رضا الله ودفع معاصيه. ونحن نجوز للأحاد من الغزاة أن يجتمعوا ويقاتلوا من أرادوا من فرق الكفار قمعاً لأهل الكفر، فكذلك قمع أهل الفساد جائز لأن الكافر لا بأس بقتله، والمسلم إن قتل فهو شهيد، فكذلك الفاسق المناضل عن فسقه لا بأس بقتله، والمحتسب الحق إن قتل مظلوماً فهو شهيد وكذلك قوله: الشرط الخامس «من شروط المحتسب»: كونه قادراً ولا يخفى أن العاجز ليس عليه حسبه إلا بقلبه إذ كل من أحب الله يكره معاصيه وينكرها. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: جاهدوا الكفار بأيديكم فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفروا في وجوههم فافعلوا^(١). وكذلك قوله: فنقول: وهل لشارب الخمر أن يغزو الكفار ويحتسب عليهم بالمنع من الكفر؟ فإن قالوا: لا، خرقوا الإجماع إذ جنود المسلمين لم تزل مشتملة على البر والفاجر وشارب الخمر وظالم الأيتام ولم يمنعوا من الغزو ولا في عصر رسول الله ﷺ ولا بعده^(٢)... والذي يبدو من معالجة الغزالي للقضايا الاجتماعية المختلفة أن موقفه من الجهاد اتصف بأمرين اثنين:

الأول: إن مفهوم الجهاد عند الغزالي ليس دفاعاً عن أقوام وأوطان وممتلكات، بل هو وسيلة لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي هي السبب الحقيقي لإخراج الأمة المسلمة إلى الوجود، ومادام المجتمع الذي عاصره الغزالي قد توقف عن حمل هذه الرسالة وفسح للمنكر أن يشيع فيه واستساعت أذواقه هذا المنكر... وانتهت جماهيره عند الملبس والمأكل والمنكح كما وصفهم المؤرخ أبو شامة، فإن أية دعوة للجهاد العسكري لن تكون ذات فائدة إلا إذا سبقه جهاد نفسي يبذل ما بأنفس القوم ويجعلهم يتذوقون معنى التضحية بالأنفس والأموال في سبيل الله.

الأمر الثاني: إن الغزالي كان واعياً بمفهوم الجهاد الشامل والمراحل التي تطبق فيها مظاهره. فالجهاد له مظاهر ثلاثة هي: الجهاد التربوي، والجهاد التنظيمي، والجهاد العسكري. والفهم الصائب لهذه المظاهر الثلاثة وحسن ترتيبها وتوقيتها هو أحد مظاهر الحكمة التي جعلها الله أولى طرق الدعوة إليه حين قال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. فالدعوة إلى الجهاد العسكري وندب العامة له في أمة متوفاة يدور فيها «الأفكار والأشخاص» في فلك «الأشياء» ستكون بمثابة استنفار الأموات الذين في القبور^(٣). إلى أن قال:... لعل هذا الاستعراض يتضمن الجواب عن الاعتراض

(١) الغزالي بين مادحيه وناقديه (١٤٤/٢)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ١٤٤.

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ١٤٤، إحياء علوم الدين (٣٠٩/٢).

(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ١٤٦.

الذي يتهم الغزالي بالعزلة عن قضايا العالم الإسلامي.. ولعل الميادين الأربعة التالية التي تضمنتها ميادين الإصلاح عند الغزالي دليل واضح على أن الرجل اختار البدء بالجهاد التربوي في أمة ضربها الخور والتشاغل، وشاع فيها التنكر للقيم الإسلامية تهيداً لإخراج «الحكماء السياسيين والعسكريين» الذين يقودون الجهاد التنظيمي والعسكري الذي يرفع لواء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله، وهذه الميادين هي: نقد السلاطين الظلمة، ومحاربة المادية الجارفة، والدعوة للعدالة الاجتماعية، ومحاربة التيارات الفكرية المنحرفة^(١).

* كتاب إجماع العوام في آخر عمره: يعتبر كتاب «إجماع العوام عن علم الكلام» من آخر مصنفات الإمام الغزالي على الإطلاق وفي هذا الكتاب تظهر أمور مهمة فيما وصل إليه الغزالي في مسيرته للبحث عن الحقيقة، ومن هذه الأمور:

- أنه انتصر في هذا الكتاب لعقيدة السلف منبهاً على أن الحق هو مذهب السلف، وأن من خالفهم في ذلك هو مبتدع^(٢).

- أنه نهى عن التأويل أشد النهي، داعياً إلى إثبات صفات الله، وعدم تأويلها بما يؤدي بها إلى التعطيل قائلاً بأن: علاج وهم التشبيه أسهل من علاج التعطيل. إذ يكفي أن يقال مع هذه الظواهر «ليس كمثله شيء»^(٣) وقال: الدليل على أن مذهب السلف هو الحق: أن تصنيفه بدعة، والبدعة مذمومة وضلالة، والخوض من جهة العوام في التأويل والخوض بهم من جهة العلماء بدعة مذمومة. وكان نقيضه - وهو الكف عن ذلك - سنة محمود^(٤). وذكر بأن: الصحابة والتابعين في طول عصرهم إلى آخر أعمارهم ما دعوا الخلق إلى البحث والتفتيش والتفسير والتأويل والتعرض لمثل هذه الأمور، بل بالغوا في زجر من خاض فيه وسأل عنه وتكلم به. فلو كان ذلك من الدين - أو من مدارك الدين - لأقبلوا عليه ليلاً ونهاراً، ودعوا إليه أولادهم وأهلهم وتشمروا عن ساق الجسد في تأسيس أصوله، وشرح قوانينه تشمراً أبلغ من تشمرهم في تمهيد قواعد الفرائض والمواثيق وأضاف قائلاً: فنعلم بالقطع من هذه الأصول أن الحق ما قالوه. والصواب ما رأوه لاسيما وقد أثنى عليهم رسول الله ﷺ وقال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»^(٥). فمن النتائج التي

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ١٤٦، ١٤٧.

(٢) إجماع العوام، ص ٦٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٨، أبو حامد الغزالي والتصوف، ص ٣٦٠.

(٤) إجماع العوام، ص ٩٦، أبو حامد الغزالي والتصوف، ص ٣٦٠.

(٥) مسلم رقم ١٩٦٧، البخاري، كتاب الشهادات (٣/١٥١).

وصل إليها الغزالي في حياته العلمية هي اعتماد مرجعية الصحابة في علمهم وسيرتهم وسلوكهم ويعتبرهم حجة على من بعدهم، وأنهم معيار لصحة الاعتقاد والسلوك، وهذا صحيح ويعني ضرورة اهتمامنا بمعرفة سيرهم وسلوكهم وعبادتهم وجهادهم وخصوصاً الخلفاء الراشدين الذين حثنا رسول الله ﷺ على التمسك بستمهم.

*** شد التنكير على المتكلمين:** حيث قال: والدليل على تضرر الخلق به: المشاهدة والعيان والتجربة، وما ثار من الشر منذ نبغ المتكلمون وفشت صناعة الكلام مع نهى العصر الأول من الصحابة عن مثل ذلك، ويدل عليه أيضاً أن رسول الله ﷺ والصحابة بأجمعهم ما سلكوا في الحاجة مسلك المتكلمين في تقسيماتهم وتدقيقاتهم. لا لعجز منهم عن ذلك، فلو علموا أن ذلك نافع لأطنبوا فيه، ولخاضوا في تحرير الأدلة خوفاً يزيد على خوضهم في مسائل الفرائض^(١). وأشار إلى مسألة مهمة وهي: أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا محتاجين إلى محاجة اليهود والنصارى في إثبات نبوة محمد ﷺ، فما زادوا على أدلة القرآن شيئاً، وما ركبوا ظهر اللجاج في وضع المقاييس العقلية وترتيب المقدمات، كل ذلك لعلمهم بأن ذلك مثار الفتن ومنبع التشويش، ومن لا يقنعه أدلة القرآن لا يقمعه إلا السيف والسنان، فما بعد بيان الله بيان^(٢).

*** توسع في النهي عن البدعة والابتداع في مواضع كثيرة من هذا الكتاب** حيث يقول: وكذلك العوام إذا طلبوا بالسؤال عن هذه المعاني يجب زجرهم ومنعهم، وضربهم بالدرة كما كان يفعل عمر رضي الله عنه بكل من سأل عن الآيات المتشابهات، وكما فعله رسول الله ﷺ في الإنكار على قوم رآهم خاضوا في مسألة القدر وسألوا عنه فقال عليه السلام: فهذا أمر قم؟ وقال: إنما هلك من كان قبلكم بكثرة السؤال^(٣). ويضيف قائلاً: ولذلك أقول: يحرم على الوعاظ على رؤوس المنابر الجواب عن هذه الأسئلة بالخوض في التأويل والتفصيل بل الواجب عليهم الاقتصاد على ما ذكرناه وذكره السلف^(٤).

*** إقبال الغزالي على القرآن الكريم وصحاح الأحاديث:** فقد عرف عنه -رحمه الله- أنه أقبل في أواخر عمره على الأحاديث الصحاح، فاتخذ لنفسه معلمين يحفظ عليهم الصحيحين، وكان يسمع في آخر حياته صحيح البخاري من أبي سهل محمد بن عبد الله

(١) إجماع العوام، ص ٨٨، ٨٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٩، ٩٠.

(٣) مسلم رقم ٢٦٦٦ بلفظ آخر.

(٤) إجماع العوام، ص ٧٠، هذا إذا سألوا عن الكيفية كقول القائل لمالك: كيف استوي؟

الحفصي، وسنن أبي داود من القاضي أبي الفتح الحاكمي الطوسي^(١). وهذا الأمر يلفت النظر إلى ميزة كبيرة في شخصية الغزالي حيث تواضعه في طلب العلم وعدم استكباره في الأخذ على أيدي العلماء وهو في هذه السن والمكانة والعلم. ويحكي تلميذه - عبد الغافر الفارسي - آخر مراحل حياته قائلاً: وكانت خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى ومجالسة أهله، ومطالعة الصحيحين - البخاري ومسلم - اللذين هما حجة الإسلام. ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن بيسير من الأيام يستفرغه في تحصيله، ولا شك أنه سمع الأحاديث في الأيام الماضية، واشتغل آخر عمره بسماعها^(٢). وقد كان ابن تيمية - رحمه الله - ممن يذكرون بهذه المرحلة الأخيرة التي تعرض لها الغزالي، ومكرراً ذلك في غالب كتبه مؤكداً على أن الغزالي مال أخيراً إلى أهل الحديث، ومات وصحيح البخاري على صدره^(٣)، وذكر ابن كثير ترجمة وجيزة عن الغزالي قال في آخرها: ثم عاد إلى بلده طوس فأقام بها وابتنى رباطاً، واتخذ داراً حسناً، وغرس فيها بستاناً أنيقاً، وأقبل على تلاوة القرآن، وحفظ الأحاديث الصحاح^(٤).

* وفاته: توفي الإمام الغزالي يوم الاثنين الرابع عشر من جمادي الآخرة من هذه السنة، ودفن بطوس - رحمه الله تعالى - وقد سأله بعض أصحابه وهو في السياق فقال: أوصني! فقال له: عليك بالإخلاص، فلم يزل يُكرِّرها حتى مات، رحمه الله^(٥). قال أخوه أحمد: لما كان يوم الاثنين وقت الصبح توضأ أخي أبو حامد، وصلى، وقال: عليّ بالكفن، فأخذه وقبله، وتركه على عينيّه، وقال: سمعاً وطاعة للدخول على الملك، ثم مد رجله، واستقبل القبلة ومات قبل الإسفار^(٦)، ورثاه الأبيوري الشاعر المشهور، بأبيات فائقة من جملتها:

مضى وأعظم مفقود فُجعتُ به من لا نظير له في الناس يخلفه^(٧)

فرحة الله على الغزالي فقد قام بمجهود كبير في سبيل التنظير لأهل السنة في العهد السلجوقي، والذي ساهم بمجاده الفكري والعلمي في تقوية الخلافة العباسية، ومقاومة الخطر الباطني الصاعد آنذاك، وهو الخطر الرئيسي الذي كان يهدد الخلافة، وقد ظل الغزالي طوال

(١) طبقات السبكي (٤/ ١١٠).

(٢) طبقات السبكي (٤/ ١٠٩ - ١١١)، سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٢٣ - ٣٢٤).

(٣) أبو حامد الغزالي والتصوف، ص ٣٦٧.

(٤) البداية والنهاية (١٦/ ٢١٥).

(٥) المصدر نفسه (١٦/ ٢١٥).

(٦) سكب العبرات للموت والقبر والسكرات (١/ ٢٨٢).

(٧) وفيات الأعيان (٤/ ٢١٩).

حياته ومن خلال مؤلفاته يدعو إلى محاربة الباطنية بكل الوسائل الممكنة، وقد اقترح على الخليفة فيما اقترحه تعيين قائم بالحق في كل قطر وصقع لمقاومة دعاة المبتدعة^(١). لقد كانت الباطنية تشكل خطراً عظيماً على الإسلام فهم حسب رأيه: عنصر مقلق للعقيدة من داخلها^(٢)، شأنهم شأن الفلاسفة شنّ عليهم الغزالي حملة عنيفة^(٣)، ولقد قام رحمه الله بجهود إصلاحية ضخمة في إحياء فقه القديوم على الله وتقوية الجانب الروحي، وتهذيب النفوس، وتنوير العقول، وإصلاح النوايا ومحاربة الأمراض القلبية وإحياء المعاني الإيمانية، وأخلاقيات التضحية والورع، والصبر، والإنابة والاستعانة بالله تعالى. ولقد ساهمت جهوده في توعية الأمة، وتلقف بعض المصلحين الكبار، كعبد القادر الجيلاني شيئاً من منهجه التربوي وأقام مدرسة شعبية كبيرة ساهمت في توعية عوام المسلمين، ودعم حركة الجهاد التي قادها نور الدين وصلاح الدين فيما بعد، فالمدارس النظامية، والتي من كبار مدرسيها الإمام الغزالي ساهمت في حركة الإصلاح التي تتابعت حلقاتها حتى انتهت بدحر الغزاة الصليبيين واسترجاع الأرض والمقدسات عبر قرنين من الزمن في صراع رهيب، يبين دور علماء أهل السنة في توعية الأمة ورص الصفوف، وكشف الانحراف، وتبيين الحقائق وبذل الغالي والرخيص حتى تكون كلمة الله هي العليا.

عاشراً: الإمام البغوي وجهوده في خدمة الكتاب والسنة في العهد السلجوقي:

يعتبر الإمام البغوي من العلماء الذين ساهموا في إحياء المشروع السني ومحاربة المبتدعة من خلال التدريس والتعليم والتأليف، وكانت لجهوده الأثر الكبير في تعلق الناس بكتاب الله وفهمه وتفسيره، وهدى سنة رسول الله ﷺ، ولذلك رأيت الترجمة له لكونه من علماء العهد السلجوقي.

هو الإمام العلامة القدوة الحافظ، شيخ الإسلام، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي المفسر، صاحب التصانيف، كشرح السنة، ومعالم التنزيل، والمصابيح^(٤) وغيرها من التصانيف، توفي عام ٥١٦ هـ، وقد عاصر الإمام البغوي من ملوك الدولة السلجوقية، طغرل بك، وألب أرسلان، وملكشاه، والسلطان محمود، وبركياروق، وملكشاه الثاني، وغيث الدين أبو شجاع محمد^(٥)، وحظي الإمام البغوي بشناء وتقدير

(١) الجهاد من الهجرة إلى الدعوة إلى الدولة، ص ٨١، ٨٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٢.

(٣) الاقتصاد في الاعتقاد، ص ٨.

(٤) سير أعلام النبلاء (٤٣٩/١٩).

(٥) البغوي ومنهجه في التفسير، عفاف عبد الغفور، ص ١٤، ١٥.

العلماء، بما اتصف به من ورع، وزهد، وكثرة مصنفات تحف بها المكتبة الإسلامية، وأضحى بسببها علماً من أعلام الأمة الإسلامية^(١)، وقد وضع الله لكتبه القبول، وبارك الله له في تصانيفه، ورزق فيها القبول التام، لحسن قصده، وصدق نيته، وتنافس العلماء في تحصيلها؛ قال فيه الذهبي: وكان البغوي يلقب بمحبي السنة وبركن الدين، وكان سيداً إماماً، عالماً، زاهداً قانعاً باليسير، كان يأكل الخبز وحده، فعدل في ذلك، فصار يأتم بزيته، وكان أبوه يعمل الفراء ويبيعها، بورك له في تصانيفه، ورزق فيها القبول التام، لحسن قصده، وصدق نيته، وتنافس العلماء في تحصيلها، وكان لا يلقي الدرس إلا على طهارة وكان مقتصداً في لباسه، له ثوب خام، وعمامة صغيرة على منهاج السلف حالاً وعقداً، وله القدم الراسخة في التفسير، والباع المديد في الفقه - رحمه الله^(٢) -، ومن أشهر كتبه التي وضع الله لها القبول والانتشار وتنافس العلماء في تحصيلها وأثرت في عصره والأجيال التي بعدها:

(١) معالم التنزيل في التفسير: قال عنه ابن تيمية: صان تفسيره من الأحاديث الموضوعية والآراء البدعية^(٣)، وقد سار البغوي في منهجه للتفسير على اعتماده على الكتاب والسنة، فيفسر القرآن بالقرآن، والقرآن بالسنة، وبعده عن البدع، وقلة الإسرائيليات والموضوعات، وعنايته باللغة والنحو والقراءات، والجوانب النحوية والصرفية وذكره قضايا العقيدة والأحكام الفقهية^(٤)، واهتم بمباحث علوم القرآن في تفسيره، كالملكي والمدني، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ^(٥)، وقد أثنى العلماء عليه وذكروا بالتقدير والاستحسان تفسيره معالم التنزيل^(٦)، قال الذهبي: وله القدم الراسخة في التفسير^(٧)، وقال السبكي: وقدره عال في الدين والتفسير^(٨) ويقول السيوطي: وكان إماماً في التفسير وقد تلقى العلماء تفسيره بالقبول والإعجاب وكان نصيبه الرواج والانتشار، فاعتمدوا عليه واعتنوا به، وألفوا عليه التفاسير المفصلة والمختصرة^(٩)، وقال الإمام الخازن في مقدمة تفسيره عن تفسير البغوي: من أجل المصنفات في علم التفسير، وأعلاها وأنبليها وأسنائها، جامعاً للصحيح من الأقاويل، عارياً عن الشبه والتصحيف والتبديل، محلى بالأحاديث النبوية مطرزاً بالأحكام الشرعية، موشى بالقصص الغريبة وأخبار الماضين العجيبة، مرصعاً

(١) جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري في الرد على الصوفية، ص ٥٦٨.

(٢) سير أعلام النبلاء (٤٤١/١٩). (٣) الفتاوى (٣٥٤/١٣).

(٤) البغوي ومنهجه في التفسير، ص ٧٤ إلى ١٢٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٢٩ إلى ١٣٤. (٦) المصدر نفسه، ص ١٤٤.

(٧) سير أعلام النبلاء (٤٤١/١٩). (٨) طبقات الشافعية (٧٦/٧).

(٩) البغوي ومنهجه في التفسير، ص ١٤٥.

بأحسن الإشارات، مخرجاً بأوضح العبارات، مفرغاً في قالب الجمال بأفصح مقال^(١)، وقد انتفع الإمام برهان الدين الزركشي في «البرهان» ببعض آراء الإمام البغوي خاصة فيما له صلة بمباحث علوم القرآن، كما أثنى عليه ابن تيمية، وامتدح تفسيره وفضله على غيره من التفاسير وجعله أقرب التفاسير إلى الكتاب والسنة وأبعدها وأسلمها من البدعة والأحاديث الضعيفة^(٢)، ويعتبر معالم التنزيل من التفاسير المتوسطة المعتمدة على الكتاب والسنة في المقام الأول، والمأثور من أقوال الصحابة والتابعين بالدرجة الثانية^(٣)، ولتفسير البغوي مزايا وقيمة علمية مهمة منها:

١- جاء تفسير البغوي جامعاً شاملاً لجوانب متعددة واتجاهات مختلفة، مما جعله مفيداً لأعداد كبيرة من القراء والمهتمين بفهم كتاب الله وتدبره على الوجه الأمثل.

٢- اختصر الإمام البغوي في تفسيره حذف الأسانيد التي تروى بها أقوال الصحابة، وآراء التابعين وتفسيرات من تبعهم من المفسرين أمثال قتادة، وعكرمة، ومقاتل وغيرهم وذلك لذكره طرقة وأسانيده في مقدمة التفاسير.

٣- تجنب البغوي في تفسيره ذكر التفاصيل الدقيقة في المسائل التي تتعلق باللغة والنحو، كما تجرد تفسيره من الاصطلاحات العلمية الخاصة بعلوم العربية والفقه والعقيدة مما جعله سهل الفهم واضحاً لدى سائر الدارسين والقراء.

٤- لم يكن البغوي خلال تفسيره ناقلاً ذاكراً للآراء المأثورة عن الصحابة والتابعين وتفسيرات القرن الثاني فحسب، بل كان يوجه التفسير ويسوقه بالطريقة المناسبة، كما يختار في بعض الأحيان الرأي الأدنى للصواب بين الأقوال التي يسوقها خاصة إن كان فيها خلاف.

٥- استخدمه لأسلوب السؤال في حل الإشكالات، وهو أسلوب حسن لتحقيق الفهم وإيضاح المسائل، ففي مستهل سورة الفاتحة وبعد أن يذكر معنى البسملة يقول: فإن قيل ما معنى التسمية من الله؟ قيل: هو تعليم العباد كيف يستفتحون القراءة.

٦- اهتم الإمام البغوي في تفسيره بالقراءات «القرآنية»، فكان ينبه إليها ويوضحها ويبين ما يترتب عليها من المعاني والفوائد.

٧- لم يغفل البغوي خلال التفسير الإشارة إلى المسائل البلاغية بصورة سريعة تعين على فهم معنى الآيات دون تعمق وتوسع وذكر للاصطلاحات، بل يكتفي في ذلك بمقدار ما

(١) لباب التأويل (٣/١).

(٢) مقدمة أصول التفسير، ص ٧٦.

(٣) البغوي ومنهجه في التفسير، ص ١٤٧.

يكشف عن معنى الآية في السياق القرآني للكشف عن دقة التعبير وبيان الأسلوب الرائع المعجز خاصة وهو يقرر أن أسلوب كتاب الله في الطبقة الأولى من البلاغة وحسن النظم والتأليف ^(١)، يقول البغوي: والقرآن معجز في النظم والتأليف والإخبار عن الغيوب وهو كلام في أعلى طبقات البلاغة لا يشبهه كلام الخلق لأنه غير مخلوق، ولو كان مخلوقاً لأتوا بمثله ^(٢). وأما الأمور البلاغية التي يشير إليها البغوي خلال التفسير، فأنواع الاستفهام في القرآن الكريم، من الإنكاري، والتقرير أو التضخيم، وذلك في مواضع مختلفة من تفسيره ^(٣). هذه بعض مزايا تفسير البغوي، ويعتبر هذا التفسير من أشهر التفاسير في العهد السلجوقي وقد تنافس العلماء في تحصيله.

(٢) شرح السنة للحافظ البغوي:

- موضوع الكتاب: أفصح عن ذلك مؤلفه في مقدمته فقال: أما بعد فهذا كتاب في شرح السنة يتضمن - إن شاء الله سبحانه وتعالى - كثيراً من علوم الحديث، وفوائد الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ من حل مشكلها، وتفسير غريبها، وبيان أحكامها، وما يترتب عليه من الفقه واختلاف العلماء جل لا يستغنى عن معرفتها المرجوع إليه في الأحكام، والمعول عليه في دين الإسلام، ولم أودع هذا الكتاب من الأحاديث إلا ما اعتمده أئمة السلف الذين هم أهل الصنعة المسلم لهم بالأمر من أهل عصرهم، وما أودعوه كتبهم، فأما ما أعرضوا عنه من المقلوب والموضوع والمجهول واتفقوا على تركه فقد صنت الكتاب عنها، وما لم أذكر أسانيداً من الأحاديث فأكثرها مسموعة، وعامتها في كتب الأئمة غير أنني تركت أسانيداً حذراً من الأطلالة، واعتماداً على نقل الأئمة ^(٤).

- سبب تأليفه لهذا الكتاب: أوضح ذلك - رحمه الله - في المقدمة فقال: والمقصود بهذا الجمع - مع وقوع الكفاية فيما عملوه وحصول الغنية فيما فعلوه - الاقتداء بأفعالهم والانتظام في سلك أحد طرفيه متصل بصدر النبوة، والدخول في غمار قوم جدوا في إقامة الدين واجتهدوا في إحياء السنة، شغفاً بهم، وحباً لطريقتهم، وإن قصرت في العمل عن مبلغ سعيهم - طمعاً في موعود الله سبحانه وتعالى على لسان رسوله ﷺ أن: «المرء مع من أحب» ^(٥) ولأنني رأيت أعلام الدين عادت إلى الدروس، وغلب على أهل الزمان هوى النفوس فلم يبق من الدين إلا الرسم، ولا من العلم إلا الاسم حتى تصور الباطل عند أكثر أهل الزمان بصورة الحق، والجهل بصورة

(١) البغوي ومنهجه في التفسير، ص ١٦٨ إلى ١٧٤.

(٢، ٣) المصدر نفسه، ص ١٧٥.

(٥) البخاري رقم ٦١٦٨ - ٦١٧١.

(٤) شرح السنة عن مقدمة المؤلف (١/ ٢ - ٤).

العلم، وظهر فيهم تحقيق قول الرسول ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذوا رؤساء جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»^(١). ولما كان الأمر على ما وصفته لك، أردت أن أجدد لأمر العلم ذكراً لعله نشط فيه راغب متنبه، أو ينبعث له واقف متشبط^(٢).

(٣) مصابيح السنة:

- موضوعه وسبب تأليفه: قال - رحمه الله - : أما بعد، فهذه ألفاظ صدرت عن صدر النبوة، وسنن سارت عن معدن الرسالة، وأحاديث جاءت عن سيد المرسلين وخاتم النبيين، هن مصابيح الدجى، خرجت عن مشكاة التقوى، مما أوردها الأئمة في كتبهم جمعتها للمنقطعين إلى العبادة لتكون لهم بعد كتاب الله تعالى حظاً من السنن، ووعواً على ما فيه من الطاعة^(٣).

- عناية العلماء بمصابيح السنة: تقبل الناس هذا الكتاب بالقبول الحسن، فعكفوا عليه رواية ونسخاً وقراءة وحفظاً، ثم ألفوا حوله الشروح والمختصرات والتخریجات، وقد ذكر حاجي خليفة وبروكلمان أكثر من اثنين وأربعين شرحاً ومختصراً وتخریجاً لهذا الكتاب^(٤)، إلا أن مشكاة المصابيح لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي ت ٧٤٠هـ^(٥) فاق جميع الشروح والتخریجات الأخرى، ولذلك عكف الناس عليه، وشرحوه واختصروه وخدموه، إذ ألف عليه تسعة شروح ومختصرات^(٦).

- وفاته: اختلفت المصادر التي ترجمت للإمام البغوي في سنة وفاته على ثلاثة أقوال وهي سنة ٥١٠هـ، وسنة ٥١٥هـ، وسنة ٥١٦هـ ولكن هذه المصادر تكاد تجمع على أن وفاته كانت في شهر شوال سنة ست عشرة وخمسمائة وهو القول الراجح لاختياره عند أكثر المصادر^(٧)، وكانت وفاته في مرو الروذن ودفن عند شيخه القاضي حسين بمقبرة الطالقان، وقبره مشهور هنالك^(٨)، وقالوا إنه عاش ثلاثاً وثمانين سنة، ويرى البعض أنه قد عاش بضعاً وسبعين سنة^(٩)، كما يرى آخرون أنه أشرف على التسعين وذلك لعدم تحديددهم سنة

(٢) شرح السنة (١/ ٢ - ٤) مقدمة المؤلف.

(١) البخاري رقم ١٠٠.

(٣) مصابيح السنة (١/ ١٠٩ - ١١٠).

(٤) كشف الظنون، ص ١٦٩٨، تاريخ الأدب العربي (٦/ ٢٤٥).

(٥) طبع كتابه مشكاة المصابيح بتحقيق ناصر الدين الألباني.

(٦) تدوين السنة النبوية د. محمد مطر الزهراني، ص ٢١٩. (٧) البغوي ومنهجه في التفسير ٢٦.

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٧، البداية والنهاية (١٦/ ٢٦٢). (٩) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٤٢).

ميلاده وإن كان الأرجح أنه جاوز الثمانين ^(١). قال ابن كثير: صاحب التفسير وشرح السنة وتهذيب في الفقه والجمع بين الصحيحين والمصاييح في الصحاح والحسان وغير ذلك، اشتغل على القاضي حسين، وبرع في هذه العلوم وكان علامة زمنه فيها، وكان ديناً ورعاً زاهداً عابداً صالحاً ^(٢).

فالبغوي رحمه الله كان ممن أكرمهم الله تعالى بنشر مذهب أهل السنة وتربية الناس على تعاليمه في العهد السلجوقي، ووضع الله لكتبه القبول والانتشار وساهمت في بلورة المشروع السني الكبير الذي توج بانتصار الإسلام وتقليص النفوذ الباطني ودحره، وتحرير البلاد الإسلامية من أيدي الصليبيين فيما بعد.

الحادي عشر: شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري الهروي:

الإمام القدوة، الحافظ الكبير، أبو إسماعيل، عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري مصنف كتاب «ذم الكلام»، وشيخ خراسان من ذرية صاحب النبي ﷺ أبي أيوب الأنصاري، مولده في سنة ست وتسعين وثلاثمائة ^(٣). كان رحمه الله: آية في لسان التذكير والتصوف من سلاطين العلماء، سمع ببغداد من أبي محمد الخلّال وغيره يروي في مجالس وعظه الأحاديث بالإسناد، وينهي عن تعليقها وكان بارعاً في اللغة، حافظاً للحديث قرأ عليه السلفي كتاب ذم الكلام، وكان يدخل على الأمراء والجبابة فما يبالي، ويرى الغريب من المحدثين، فيبالغ في إكرامه ^(٤)، وكان شيخ الإسلام أثرياً قحاً، ينال من المتكلمة ^(٥).

- اعتزازه بالمذهب الحنبلي: قال محمد بن طاهر: سمعت أبا إسماعيل الأنصاري يقول: إذا ذكرت التفسير، فإنما أذكره من مائة وسبعة تفاسير وسمعته ينشد على منبره:

أنا حنبلي ما حييت وإن أمّت فوصيتي للناس أن يتحنلوا
وقال في قصيدته النونية:

أنا حنبلي ما حييت وإن أمّت فوصيتي ذاكم إلى الإخوان
إذ دينه ديني وديني دينه ما كنت إمعة له دينان ^(٦)

- كتابه منازل السائرين والمحن التي تعرض لها: قال الذهبي: ولقد بالغ أبو

(١) تذكرة الحفاظ (٤/١٢٥٨)، البغوي ومنهجه في التفسير، ص ٢٧.

(٢) البداية والنهاية (١٦/٢٦٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٨/٥٠٣).

(٤) المصدر نفسه (١٨/٥٠٦).

(٥) المصدر نفسه (١٨/٥٠٧).

(٦) المصدر نفسه (١٨/٥٠٧).

إسماعيل في ذمّ الكلام على الاتباع فأجاد، ولكنه له نفس عجيب لا يشبه نفس أئمة السلف في كتابه «منازل السائرين»، ففيه أشياء مطربة وفيه أشياء مشككة، ومن تأمله لاح ما أشرت إليه، والسنة المحمدية صُلْفَة، ولا ينهض الذوق والوجد إلا على تأسيس الكتاب والسنة. وقد كان هذا الرجل سيفاً مسلولاً على المتكلمين، له صولة وهية واستيلاء على النفوس ببلده يُعظمونه، ويتغالون فيه، ويبدلون أرواحهم فيما يأمر به. كان عندهم أطوع وأرفع من السلطان بكثير، وكان طوداً راسياً في السنة لا يتزلزل ولا يلين، لولا ما كدر كتابه «الفاروق في الصفات» يذكر أحاديث باطلة يجب بيانها وهتكها، والله يغفر له بحسن قصده، وصنف «الأربعين» في التوحيد، و«الأربعين» في السنة. وقد امتحن مرات وأوذى، ونفي من بلده، قال ابن طاهر: سمعته يقول: عُرضت على السيف خمس مرات، لا يقال لي: ارجع عن مذهبك. لكن يقال لي: اسكت عمن خالفك، فأقول: لا أسكت وسمعتة يقول: أحفظ اثني عشر ألف حديث أسردها سرداً^(١). وكان شيخ الإسلام أبو إسماعيل بكر الزمان وواسطة عقد المعاني وصورة الإقبال في فنون الفضائل وأنواع المحاسن منها نصرة الدين والسنة، من غير مدهانة ولا مراقبة لسلطان ولا وزير. وقد قاسى بذلك قصد الحساد في كل وقت، وسعوا في رُوحه مراراً وعمدوا إلى إهلاكه أطواراً، فوقاه الله شرهم، وجعل قصدهم أقوى سبب لارتفاع شأنه^(٢). قال الذهبي: قد انتفع به خلق، وجهل آخرون، فإن طائفة من صوفية الفلسفة والاتحاد يخضعون لكلامه في «منازل السائرين» ويتحولونه، ويزعمون أنه موافقهم. كلا، بل هو رجل أثري لهج بإثبات نصوص الصفات منافر للكلام وفي منازل إشارات إلى المحو والفناء، وإنما مراده بذلك الفناء هو الغيبة عن شهود السّوى، ولم يُرد محو السّوى في الخارج ويا ليته لا صُفّ ذلك، فما أحلى تصوف الصحابة والتابعين ما خاضوا في هذه الخطرات والوساوس، بل عبدوا الله، وذُلُّوا له وتوكلوا عليه وهم من خشيته مشفقون، ولأعدائه مجاهدون، وفي الطاعة مسارعون، وعن اللغو معرضون، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم^(٣).

- من مكائد خصومه: لما قدم السلطان ألب أرسلان هَراة في بعض زياراته، اجتمع مشايخ البلد ورؤساؤه، ودخلوا على أبي إسماعيل، وسلموا عليه، وقالوا: ورد السُّلطان ونحن على عزم أن نخرج ونُسلمَ عليه، فأحيينا أن نبداً بالسلام عليك وكانوا قد تواطأوا على أن حملوا معهم صنماً من نحاس صغيراً وجعلوه في المحراب تحت سجادة الشيخ، وخرجوا،

(٢) المصدر نفسه (١٨/٥١٠).

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/٥٠٩).

(٣) المصدر نفسه (١٨/٥١٠).

وقام الشيخ إلى خلوته، ودخلوا على السلطان، واستغاثوا من الأنصاري وأنه مُجَسَّم، وأنه يترك في محرابه صنماً يزعم أن الله تعالى على صورته، وإن بعث السلطان الآن يجده، فعظم ذلك على السلطان، وبعث غلاماً وجماعة، فدخلوا وقصدوا المحراب فأخذوا الصنم، فألقى الغلام الصنم، فبعث السلطان من أحضر الأنصاري، فأتى فرأى الصنم والعلماء وقد اشتد غضب السلطان، فقال له السلطان: ما هذا؟ قال: صنم يعمل من الصُّفْر شبه اللعبة. قال: لست عن ذا أسألك قال: فعمَّ يسألني السلطان؟ قال: إن هؤلاء يزعمون أنك تعبد هذا، وأنت تقول: إن الله على صورته. فقال شيخ الإسلام بصولة وصوت جهوري: سبحانك هذا بهتان عظيم، فوقع في قلب السلطان أنهم كذبوا عليه، فأمر به فأخرج إلى داره مُكْرَماً وقال لهم: اصدقوني وهذدُّهم، فقالوا: نحن في يد هذا في بليَّة من استيلائه علينا بالعمامة، فأردنا نقطع شره عنا، فأمر بهم، ووكل بهم وصادرهم، وأخذ منهم وأهانهم^(١).

- دعاء الإمام الجويني له: قال أبو الوقت السجزي: دخلت نيسابور، وحضرت عند الأستاذ أبي المعالي الجويني، فقال: من أنت؟ قلت: خادم الشيخ أبي إسماعيل الأنصاري، فقال: **ﷺ**. قال الذهبي: اسمع إلى عقل هذا الإمام، ودع سبَّ الطغام، إن هم إلا كالأنعام^(٢).

- تقديمه لكتاب أبي عيسى الترمذي على البخاري ومسلم: قال أبو إسماعيل الأنصاري: كتاب أبي عيسى الترمذي عندي أفيد من كتاب البخاري ومسلم. قال ابن طاهر قلت: ولم؟ قال: لأنهما لا يصل إلى الفائدة منهما إلا من يكون من أهل المعرفة التامة، وهذا كتاب قد شرح أحاديثه وبينها فيصل إلى فائدته كل فقيه وكل مُحدث^(٣).

- في مجلس نظام الملك: قال ابن طاهر: حكى لي أصحابنا أن السلطان ألب أرسلان قدم هراة ومعه وزيره نظام الملك فاجتمع إليه أئمة الحنفية وأئمة الشافعية للشكوى من الأنصاري ومطالبته بالمناظرة، فاستدعاه الوزير، فلما حضر، قال: إن هؤلاء قد اجتمعوا لمناظرتك، فإن يكن الحق معك؛ رجعوا على مذهبك، وإن يكن الحق معهم، رجعت أو تسكت عنهم، فوثب الأنصاري، وقال: أناظر على ما في كُفِّي. قال: وما في كُفِّك؟ قال: كتاب الله - وأشار إلى كُمة اليمين - وسنة رسول الله - وأشار إلى كمة اليسار - وكان فيه «الصحيحان» فنظر الوزير إليهم مستفهماً، فلم يكن فيهم من ناظره من هذا الطريق^(٤).

- مصدر رزقه: كان أبو إسماعيل الأنصاري على حظ تام من معرفة العربية والحديث والتواريخ والأنساب، إماماً كاملاً في التفسير، وحسن السيرة في التصوف، غير مشغل

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/٥١٢).

(٢) المصدر نفسه (١٨/٥١٣).

(٣) المصدر نفسه (١٨/٥١٣).

(٤) المصدر نفسه (١٨/٥١١).

بكسب، مكتفياً بما يُبَاسِطُ به المريدين والأتباع من أهل مجلسه في العام مرة أو مرتين على رأس الملاء فيحصل على ألوف من الدنانير وأعداد من الثياب والحُلِيِّ، فيأخذها، ويُفَرِّقُها على اللِّحَامِ والحَبَازِ، وينفق منها، ولا يأخذ من السلطان ولا من أركان الدولة شيئاً، وقلَّ ما يُراعيهم ولا يدخل عليهم، ولا يُبالي بهم، فبقي عزيزاً مقبولاً قبولاً أتم من المَلِكِ، مطاع الأمر نحواً من ستين سنة من غير مزاحمة، وكان إذا حضر المجلس لبس الثياب الفاخرة، وركب الدواب الثمينة ويقول: إنما أفعل هذا إعزازاً للدين، ورغماً لأعدائه، حتى ينظروا إلى عِزِّي وتَجَمُّلي، فيرغبوا في الإسلام ثم إذا انصرف إلى بيته، عاد إلى المِرْقَعَةِ والقعود مع الصوفية في الخانقاه يأكل معهم، ولا يتميز بحال، وعنه أخذ أهل هراة التبكير بالفجر، وتسمية الأولاد غالباً بعبد المضاف إلى أسماء الله تعالى^(١).

- سنة وفاته: توفي شيخ الإسلام في ذي الحجة سنة إحدى وثمانين وأربعة مائة، عن أربع وثمانين سنة وأشهر^(٢). وكان كثير السهر بالليل وروى الحديث وصنف وكانت وفاته بهراة^(٣). ونلاحظ في فصل المدارس النظامية الدور الكبير الذي قام به نظام الملك في تأسيسها وتحديد أهدافها وبرامجها، وتعيين النوابغ المبدعين من العلماء بها كالجويني وأبي إسحاق الشيرازي والغزالي الذين تفرغوا لتعليم طلاب العلم والكتابة لمناصرة منهج أهل السنة والتصدي للفكر الشيعي الباطني الإسماعيلي، فكانت لجهودهم آثار ملموسة في نصره الإسلام وإن كانت الدولة السلجوقية قامت بدعم مؤسسات المدارس النظامية لمناصرة الكتاب والسنة، إلا أن مجموعة من علماء أهل السنة لم يكونوا من ضمن مشايخ المدارس النظامية قاموا بتنشيط الدعوة الإسلامية بالوعظ والإرشاد والتعليم والتربية والتصنيف، كالبلغوي، وأبي إسماعيل الأنصاري وهم على سبيل المثال لا الحصر، ومن الدروس الكبيرة في هذا الفصل أن البعد العقدي والفكري لا بد منه لأي مشروع سياسي أو عسكري أو حضاري، يراد له النجاح في أوساط المسلمين، وأن من عوامل نهوض الحضارة، أن تكون القيادة السياسية مبدعة في التفكير، وفي تحديد الأهداف، صادقة في الانتماء لعقيدة الأمة وتراثها ودينها وتاريخها وقادرة على توظيف الطاقات العلمية وتحويلها من أعمال فردية إلى أعمال جماعية، عاملة على وحدة الصف ومحاربة الانشقاق، كما أن قدرة العلماء على النزول بأفكارهم وعلمهم للجمهور الإسلامي العريض من عوامل نهوض الحضارة.

(٢) المصدر نفسه (١٨/٥١٥).

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/٥١٤).

(٣) البداية والنهاية (١٦/١١٢).

الفصل الخامس

الحروب الصليبية في العهد السلجوقي

المبحث الأول

الجدور التاريخية للحروب الصليبية واستمرارها إلى يومنا هذا

إن مما يجدر ذكره أن الحرب الصليبية والصراع بين أهل الإيمان وأهل الكفر من النصارى الغربيين وغيرهم، الذين عبدوا عيسى عليه السلام، واتخذوه إلهاً من دون الله، وقالوا: هو الله وابن الله وثالث ثلاثة، لم تبدأ في نهاية القرن الخامس الهجري ولم تنته في القرن السابع الهجري، بل هذه الحملات هي سلسلة في هذا الصراع الطويل، الذي بدأ بظهور الإسلام^(١)، واستمر بصيغ دورية متعاقبة كادت تغطي المدى الزمني بين ظهور الإسلام والعصر الحديث، ويمكن تقسيمه على ستة من المحاور التي استمر عليها هذا الصراع، ولم يكن أوار الصراع على كل واحد من هذه المحاور يفتقر قليلاً حتى يشب ثانية في محور جديد لا يقل عنه ضراوة وعنفاً واستزافاً للطاقات الإسلامية في مساحات واسعة من الأرض وهذه المحاور^(٢) هي:

أولاً: البيزنطيون:

ترجع بدايات التحرك البيزنطي المضاد للإسلام إلى عصر الرسالة نفسه، فمنذ العام الخامس للهجرة وعبر معارك دومة الجندل، وذات السلاسل، ومؤتة، وتبوك، وانتهاء بحملة أسامة بن زيد رضي الله عن الصحابة أجمعين، كان المعسكر البيزنطي يتحسّس الخطر الإسلامي الجديد القادم من الجنوب، لاسيما بعد ما تمكنت الدولة الناشئة من فك ارتباط العديد من القبائل العربية شمالي الجزيرة من سادتهم القدماء الروم، وسواء كان البيزنطيون يتحركون ضد القوات الإسلامية بفعلهم ابتداء، أو كرد فعل لتحرك إسلامي، فإن المحصلة الأخيرة هي أن هذا المعسكر بدأ يدرك أكثر فأكثر حجم التحدي الجديد، ويعد العدة لوقفه، صحيح أن هذه العدة لم تكن - أحياناً - بالحجم المطلوب، ربما بسبب عدم دقة المعلومات التي كانت القيادة البيزنطية تبني عليها مواقفها، إلا أن النتيجة هي أن النار اشتعلت عبر هذا

(١) دروس وتأملات في الحروب الصليبية لأبي فارس، ص ٣٠.

(٢) هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي، د. عماد الدين، ص ٢٦.

المحور، وازدادت اشتعالاً بُعيد وفاة الرسول ﷺ وتدفق القوات الإسلامية في البلاد التي يسيطر عليها البيزنطيون^(١)، وبعد إخراج البيزنطيين من ممتلكاتهم في آسيا وأجزاء من إفريقيا على يدي القيادة الراشدة، التي شهدت المراحل التالية من العصر الراشدي، محاولات النفاق، ردود أفعال عديدة وهجمات مضادة نفذها هذا المعسكر في البر والبحر، ولكنها آلت في معظمها إلى الخسران، ثم مال بث البيزنطيون أن انحسروا عبر العقود التالية، وبفضل الملاحقة الدؤوبة التي قام بها الأمويون^(٢) - ابتداء من معاوية ؓ مؤسس الدولة الأموية وعهد عبد الملك وبنه خصوصاً الوليد وسليمان - وقد تم شرح ذلك وتفصيله في كتابي الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار - واستمرت الملاحقة النشطة للبيزنطيين بعد الأمويين في الشام ومصر وشمال إفريقيا، وانحسروا بالكلية عن الشمال الإفريقي، ومساحات واسعة من البحر المتوسط، وانزروا هناك في شبه جزيرة الأناضول، فضلاً عن ممتلكاتهم في أوروبا نفسها، وهكذا، وبمرور الوقت، أصبح خطر هجماتهم المضادة محدوداً لأنها تركزت عند خط الثغور في الأناضول والجزيرة الفراتية دون أن تتعداه إلى العمق إلا نادراً بسبب من يقظة القيادات الإسلامية وتحصينها خط الحدود من جهة، وقيامها بهجمات مستمرة ضد الدولة البيزنطية، وتوغلها في العمق باتجاه القسطنطينية نفسها من جهة أخرى، الأمر الذي لم يدع للإمبراطور البيزنطي - في معظم الأحيان - أن يأخذ زمام المبادرة وأن يوسع نطاق هجومه المضاد اللهم إلا عند مطلع القرن الرابع الهجري حيث كانت الدولة العباسية قد ضعفت إلا أنه حل محلها هناك، ذلك الكيان الإقليمي «الحمداني» الذي تشكل في حلب قريباً من خط الثغور، ووقف بالرصد لهذه المحاولة، واستطاع أن يكسر حداثها وأن يمتص الكثير من اندفاعها، رغم أنها وصلت في أحد اندفاعاتها إلى حلب نفسها وتوغلت في الجزيرة الفراتية وشمال الشام، ثم كانت وقعة ملاذكرد التي حقق فيها السلاجقة عام ٤٦٣ هـ في قلب الأناضول نجاحاً ساحقاً ضد العمود الفقري للقوات البيزنطية بمثابة نهاية لتحديات الدولة البيزنطية وهجومها المضاد، واستمر على تلك الحال حتى سقوطها بعد عدة قرون على يد العثمانيين^(٣). وقد فصلت ذلك في كتابي الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط^(٤).

ثانياً: الإسبان؛

شهدت الساحة الأندلسية، منذ بدايات مبكرة هجمات مضادة متواصلة قادمة من

(١) هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي د. عماد الدين، ص ٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦، ٢٧. (٣) المصدر نفسه، ص ٣٧.

(٤) الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، ص ١٢٥ - ١٤٠.

الشمال حيث يتحصن الإسبان في المناطق الأشد وعورة، ولقد تمخضت هذه الهجمات عن صراع مرير قدرت القيادة الأموية عبره أن تجابه الهجوم المضاد لمدى ما يقرب من القرون الثلاثة، وأن تحتويه وترغمه على الانحسار في الجيوب الشمالية لشبه الجزيرة الإيبيرية، ثم جاءت دفقة الحيوية الإسلامية الجديدة مرتين إحداهما على يد المرابطين القادمين من المغرب^(١)، الذين سجلوا لنا في صفحات المجد انتصارهم العظيم في معركة الزلاقة على النصارى الإسبان في عام ٤٧٩هـ^(٢)، والأخرى على أيدي الموحدين الذين جاءوا من بعدهم الذين حققوا انتصاراً ساحقاً على النصارى في معركة الأرك عام ٥٩١هـ التي سجلت على صفحات الزمان بماء الذهب الصافي^(٣) وبذلك تمكّن الإسلام في الأندلس من الصمود بمواجهة التحدي ومقارعة الهجوم الإسباني المضاد بسلاح شبه متكافئ لمدى يقرب من القرون الأربعة^(٤). لكن المسلمين هناك مالبثوا أخيراً أن استنزفوا، وزادهم ضعفاً انقسامهم على أنفسهم وصراعهم الدموي الطاحن فيما بينهم، الأمر الذي حول الميزان لصالح القيادة النصرانية التي تمكّنت في نهاية المطاف من إسقاط آخر كيان إسلامي هناك؛ مملكة غرناطة عام ٨٩٧هـ لكي ما تلبث -تحت زعامة فرديناند وايزابيلا- أن تنفذ أبشع مجزرة رهيبة في التاريخ البشري، اشتركت فيها السلطة والكنيسة ومحاكم التحقيق، وقدرت -بأساليبها التي تتجاوز البدايات والقيم الإنسانية، فضلاً عن الدينية- على تدمير الوجود الإسلامي في الأندلس وإزالته من الخارطة الإسبانية، ودمج الجماعات الإسلامية قسراً بالمجتمع النصراني ديناً وثقافة وسلوكاً^(٥). ومما يستحق أن يفهم أن الصراع المذهبي والحضاري ذا الطابع المصري الذي حكم علاقات آسيا بأوروبا عبر التاريخ، هو الذي جعل أوروبا تتشنج إزاء امتداد الإسلام إلى أراضيها، غرباً في الأندلس وجنوبي فرنسا، وشرقاً في جهاتها الجنوبية الشرقية، وتبذل جهوداً مريرة ومحاولات متواصلة من أجل إزاحة الوجود الإسلامي من هناك بأي أسلوب، وبأية صيغة حتى لو تنافت مع أبسط قواعد التعامل الشريف مع الجماعات والأديان، من أجل التفرد بحكم القارة، ومجابهة التحدي الإسلامي فيما وراء الحدود^(٦).

ثالثاً: الحركة الصليبية:

إن الحركة الصليبية هي رد الفعل المسيحي تجاه الإسلام، تمتد جذورها إلى بداية ظهوره،

(١) هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي، ص ٢٨.

(٢) تاريخ دولتي المرابطين والموحدين للصّلاّبي، ص ١٠١.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٨٣، ٣٨٤.

(٤) هجمات مضادة، ص ٢٨.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٨ من أراد التفصيل. نهاية الأندلس محمد عنان.

(٦) هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي، ص ٢٩.

وخروج المسلمين من جزيرتهم العربية واصطدامهم بالدولة البيزنطية، وأن هذه الحركة تطورت كالكائن الحي على مدى القرون ما تكاد تخرج من طور إلا لتدخل في طور جديد، وما كانت الفترة الزمنية الممتدة بين سنتي (٤٨٨هـ - ٦٩٠هـ / ١٠٩٥ - ١٢٩١م) إلا أحد أطوارها فقط، وأن بروز هذا الطور بهذا الشكل الذي كاد يطغى على باقي أطوارها يعود إلى عوامل عديدة معقدة ومتشابكة يستطيع الباحث أن يتلمسها في الدوافع والأسباب التي أدت إلى إطلاق الموجة الصليبية العاتية من عقابها في هذه الفترة^(١)، وسيأتي بيان هذه العوامل والأسباب بإذن الله تعالى.

وقد تصالح المؤرخون على إطلاق الحروب الصليبية على الحركة الاستعمارية الصليبية التي ولدت في غرب أوربا واتخذت شكل هجوم مسلح على بلاد المسلمين في الشام والعراق والأناضول، ومصر وتونس لاستئصال شأفة الإسلام والمسلمين والقضاء عليهم، واسترجاع بيت المقدس وقبر المسيح، وجذور هذه الحركة نابع من الأوضاع الدينية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية والسياسية التي سرت في غرب أوربا في القرن الحادي عشر، واتخذت من الدين وقوداً لتحقيق أهدافها^(٢). لقد كانت تكاليف حقبة الحروب الصليبية باهظة بمعنى الكلمة، واستنزفت من الطرفين الكثير من الإمكانيات والقدرات، ولعبت دوراً خطيراً في عرقلة مسيرة الحضارة الإسلامية ومع ذلك فإن التحديات التي صنعتها الهجمات الصليبية والقيم التي صاغها المسلمون وهم يتصدون للغزاة تمثل لا ريب رصيذاً كبيراً يضاف إلى ما يتضمنه تاريخنا الطويل من تجارب وخبرات^(٣)، لقد كانت الحروب الصليبية حلقة من سلسلة طويلة في صراع الإسلام والباطل سبقتها حلقات على الطريق الطويل، وأعقبها حلقات^(٤)... فالغزو الصليبي ليس أمراً جديداً، ولا ظاهرة غريبة أو استثنائية وإنما هو القاعدة وغيره الاستثناء^(٥)، ولذلك نقول: إن التحديد الزمني للحركة الصليبية بين سنتي ٤٨٨هـ - ٦٩٠هـ هو تحديد خاطئ كما يقول الأستاذ الدكتور سعيد عاشور: لا يقوم على أساس سليم ولا يعتمد على دراسة الحركة الصليبية دراسة شاملة، وإنما يكتفي بعلاج مبتور يشمل جزءاً من تلك الحركة ولا يعبر عن جذورها وأصولها من ناحية، ولا عن ذيلها وبقاياها من ناحية أخرى^(٦).

لقد كانت المقاومة الإسلامية لهذا الغزو تعبيراً فذاً عن استمرار تيار العقيدة في نفوس

(١) الحروب الصليبية في شمال إفريقيا وأثرها الحضاري، ص ١٠.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد عمران، ص ١٥، من أجل فلسطين، حسني أدهم جرار، ص ٢٩.

(٣) هجمات مضادة، ص ٣١. (٥) المصدر نفسه، ص ٣٢.

(٦) الحركة الصليبية، سعيد عاشور (٢٦/١).

المسلمين، على مستوى القمة حيناً، وعلى مستوى القواعد معظم الأحيان، لقد صنعت الحقبة مجاهدين على درجة كبيرة من الفاعلية والقدرة، وقد انتشر هؤلاء المجاهدون في كل الجبهات وقاموا بمقاومة الغزاة في كل الفترات، وعلى مدى قرنين من الزمن لم يضعفوا ولم يستكينوا أو يضعفوا السلاح، كانوا على استعداد في كل لحظة لركوب خيولهم والانطلاق سراعاً إلى الأهداف، والجهاد لا تصنعه النظريات والأمانى، والمجاهد لا يتحرك في الفراغ، ولكنها التحديات التاريخية الكبيرة هي التي تصنع الجهاد وتبعث المجاهدين وتنفع في المقاتل المسلم روح البطولة والتضحية والاستشهاد. لقد كانت الحروب الصليبية تحدياً كبيراً، لكن المسلمين عرفوا كيف يستجيبون له ويكونون «مجاهدين» كما أراد لهم الله ورسوله أن يكونوا وليس الجهاد عملاً سريعاً وانتظاراً لقطاف سريع، إنه صبر طويل وممارسة دائمة وتضحية بالغالي والرخيص، وزهد في المغامم القريبة والمنافع العاجلة، وقدرة على تعليق الرغبة المتعجلة بحلول النتائج وربطها بقدر الله ومشيئته^(١).

إن أجيالاً من المجاهدين قد تنطوي قبل أن تنكشف النتائج، وقبل أن يطالب أحد منهم بقبض الثمن أو رؤية النتيجة الحاسمة، فمصائر الصراع تبقى دائماً بيد الله، قد يكشفها على المدى القريب وقد يطول السرى ويلتوي الطريق. لقد استغرقت الحروب الصليبية مائتين من السنين، لكن هذا المدى الطويل للعدوان لم يدفع رجال المقاومة المجاهدين إلى اليأس والتشاؤم وإلقاء السلاح، ظلوا يقارعونه بالنفس القوي ذاته، وتسلم الأجيال منهم الراية للأجيال حتى أذن الله بزوال العدوان وجلاء آخر غاز صليبي عن أرض الإسلام. هل كان أحد يتصور - في بدايات الحقبة المريرة - أنها ستدوم قرنين؟ ومن كان يتصور - أيضاً - أن إمارات ثلاثاً ومملكة كبيرة ستطوي الواحدة تلو الأخرى من صفحة الوجود، والحق أن طول أمد العدوان وامتداده على مسافة قرنين من الزمن، لم يكن بسبب من نقص القدرات البشرية والاقتصادية لعالم الإسلام أو ضعف في التزام الجماهير العقائدي وروحه الجهادية، وإنما في غياب القيادة الموحدة المؤمنة الملتزمة الواعية عبر مساحات من الصراع الطويل، ويوم كانت تبرز قيادات كهذه كانت تتحقق الإنجازات الكبيرة، وكانت النتائج الحاسمة تختزل حيثيات الزمن والمكان، وتحقق من المعطيات ما شهد به الغربيون أنفسهم^(٢). إن زمن قيادة رجل كمودود ونور الدين محمود والناصر صلاح الدين هو الزمن الذي تلقى فيه الصليبيون أقصى الضربات، وتمكن المجاهدون خلاله من تحقيق أكبر الإنجازات، ولكن كم من هؤلاء القادة برزوا عبر الحقبة الطويلة؟ إن قيادة المقاومة لو أتيح لها أن تتواصل كما

(١) هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي، ص ٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٤.

تواصلت - مثلاً - بين نور الدين وصلاح الدين، لما طال العدوان، ولاختزلت أيام المحنة والاستنزاف.. يقيناً. ومع غياب القيادة المؤمنة في مراحل شتى من الصراع، كانت القيادات السياسية والعسكرية تتطاحن فيما بينها فستنزف الكثير من قدراتها من جهة، وتدير ظهرها للغزاة من جهة أخرى، وإلى جانب هذا فعدد غير قليل من الأمراء المحسوبين على عالم الإسلام مارسوا أنماطاً من الخيانة وصنوفاً من الغدر من أجل منافعهم ومصالحهم العاجلة لعبت دورها في عرقلة حركة المقاومة ووضع العراقيين والحواجز في طريقها، وكثيراً ما كان هؤلاء يوجهون طعناتهم القاضية في أشد المراحل حساسية وخطورة، فجلبوا بذلك على حركة المقاومة الكوارث والويلات، ورغم أن قيادات المجاهدين ما كانت تأبه للغدر فإنها كانت تحتاج دوماً لزمناً إضافي كي تجدد القدرة على مواصلة الطريق، وفضلاً عن هذا وذاك، فإن الخليفة العباسي الذي كان يعاني الضعف وهبوط الفاعلية كان حاجزاً مكانياً وعقدياً وسياسياً أمام قيام الأمراء المجاهدين بدور «الرجل الأول» الذي يدين له العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، والذي يستطيع من خلال مركزه القيادي الشامل أن يوظف جل الطاقات والقدرات الإسلامية من أجل المعركة ضد الغزاة. لقد كان الخليفة مجرد ظل سياسي وعسكري، ولكن تربعه قمة الهرم، وتردده في العمل في كثير من الأحيان، أعاق مهمة احتواء التحدي من قبل رجل قيادي كبير يقف القمة شكلاً ومضموناً.

إن الخليفة إما أن يكون قادراً على الفعل التاريخي، والتحرك الشمولي أو ألا يكون على الإطلاق. لأنه في حالة ضعفه وتهافته وعدم أخذه زمام المبادرة وحضوره الكامل في قلب الحدث، لن ينسحب بشكل نهائي لكي يتيح المجال لظهور القيادة القمة التي تمارس الحضور التاريخي، وسيبقى ظله يحجب - بشكل أو آخر - تحقيق هذا الهدف الكبير، صحيح أن رجلاً كنور الدين محمود أو الناصر صلاح الدين أديا دورهما كاملاً ومارسا حضوراً تاريخياً فذاً، كما سيأتي تفصيل ذلك - بإذن الله - ولكن ماذا لو أن نور الدين نفسه أو صلاح الدين نفسه كان خليفة المسلمين؟

لقد انتهت الحروب الصليبية، وطهرت الأرض الإسلامية من آخر جيب للغزاة بعد قرنين من الزمن، واستطاعت حركة المقاومة أن تحقق هدفها وتطرّد المعتدين عن آخرهم في نهاية المطاف، ومعنى هذا أن «الاستعمار» - أيّا كانت الصيغ التي يعتمد عليها والأردية التي يتزى بها والأهداف التي يسعى لتحقيقها، لن يكون - مهما طال به الأمد - بأكثر من ظاهرة عرضية موقوتة لن تقدر على مد جذورها في الأرض والتحقق بالاستمرارية والدوام، إنه أشبه بالجسم الغريب الذي يزرع في كيان غير متجانس مع مكوناته وعناصره، إن هذا الكيان

سلفظه إذ ليس ثمة ما يحقق التوافق المطلوب الذي يربط بين الطرفين ويوحّد تجربتهما ويختم على مصيرهما. إن الأجسام الغربية محكوم عليها بالطرد، ولن تكون الأرض التي تسطو عليها وطناً لها في يوم من الأيام. تلك هي حتمية التاريخ والقرآن الكريم يقولها بوضوح: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فليس ثمة أمة أو جماعة أو دولة أو قوة في الأرض بقادرة على تجاوز حتمية التاريخ.. إنما لكلمات ثلاث ولكنها تلخص التاريخ البشري كله وتمنحه قيمته وحيويته وقدرته على الحركة في الوقت نفسه^(١). وسنمضي بإذن الله تعالى قدماً لدراسة الحروب الصليبية من عهد السلاجقة إلى الزنكيين ثم الأيوبيين ثم المماليك لنرى العبرة ونستلهم الدروس، ونستخرج سنن وقوانين الصراع لكي نوظفها لنصرة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

رابعاً: حركة التفاف الصليبيين:

ما لبثت أوروبا بعد سحق الوجود الإسلامي في إسبانيا، أن بدأت بقيادة إسبانيا والبرتغال، ومن بعدهما بريطانيا وهولندا وفرنسا، عملية الالتفاف التاريخية المعروفة على عالم الإسلام عبر خطوطه الخلفية في إفريقيا وآسيا، والتي كانت بمثابة حركة الاستعمار القديم التي ابتلي بها العالم الإسلامي فيما بعد، والتي استمرت حتى العقود التي أعقبت سقوط الخلافة العثمانية، كان المماليك في مصر والشام قد بلغوا مرحلة الإعياء، وكان اكتشاف الطريق البحري الجديد حول رأس الرجاء الصالح قد وجّه لتجارتهم -التي هي بمثابة العمود الفقري لمقدراتهم المادية- ضربة قاصمة، أما العثمانيون فكان جهدهم منصباً على اختراق أوروبا من الشرق، ولم تكن لديهم الجسور الجغرافية التي تمكنهم من وقف محاولة الالتفاف تلك في بداياتها الأولى، ولكنهم ما لبثوا بعد عدة عقود أن تحركوا لمجابهة الموقف ومع ذلك فقد دافعت الشعوب والقيادات الإسلامية المحلية في المناطق التي ابتليت بالغزو دفاعاً مستميتاً، وضربت مثلاً صلباً في مقاومتها المتطاولة للعدوان، وألحقت بالغزاة خسائر فادحة على طول الجبهات والمواقع الساحلية التي سعى هؤلاء إلى أن يجدوا فيها موطئ قدم لهم^(٢). يقول جورج كيرك: لقد كان هدف هنري الملاح هو استمرار الصليبيين بواسطة التغلب على دار الإسلام حربياً وتجارياً، وانتزاع تجارة الذهب وغيره من أيدي المسلمين والاتصال في جنوبي الصحراء بجون (حنا) نجاشي الحبشة للتعاون معه على مهاجمة المسلمين من الجنوب، ومن هنا بدأت في أوائل القرن التاسع الهجري «الخامس عشر الميلادي» وخلال القرن العاشر حركة يقودها البرتغاليون والإسبانيون في الاستيلاء على موانئ شاطئ إفريقيا

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٧.

(١) هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي، ص ٣٦.

(مراكش والجزائر) سبتة وطنجة ومليلة والمرسى الكبير، ثم اتصلت هذه المحاولات باحتلال البرتغاليين للبحرين ومسقط بقصد محاصرة الأساطيل العربية في البحر الأحمر والخليج^(١). وكان البرتغاليون قد وصلوا إلى رأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٧هـ واستطاع ألفونسو البوكرك إقامة دولة في الشرق واستولى على مدينة هرمز. ثم سيطر البرتغاليون على الخليج العربي خلال القرن السادس عشر، أو أبحر فاسكودي جاما إلى موزمبيق، وفي عام ١٥٠٢م سيطر على زنجبار، وعام ١٥٠٥م خرج من البرتغال أسطول تعداده عشرون سفينة فاحتلوا سفالة وكلوة ومباسا وبلغوا مسقط وهرمز عام ١٥٠٩م، وفي عام ١٥١٩م احتلوا السواحل الإفريقية وانتزعوها من أيدي المسلمين^(٢). غير أن هذه الحركة لم تصل إلى ما كانت تطمح فيه فقد أوقفتها القوة الإسلامية العثمانية النامية التي استطاعت أن تقضي عليها، فقد ظهر العثمانيون في مياه الخليج ١٥٨٥م وقابلهم أهل الساحل بحماس شديد، كما دخلت دولة المماليك مع البرتغال في حروب بحرية، ثم خلف الفرنسيون والهولنديون والإنجليز والبرتغال وإسبانيا وخطوا خطوات واسعة كان أبرزها استيلاء هولندا على أرخبيل الملايو، وفرنسا وإنجلترا على إفريقيا واستأثرت إنجلترا بالهند، كما ناهض الإنجليز البرتغاليين وأرسلوا سفنهم إلى بلاد فارس عام ١٦١٦م، وقد استطاع العثمانيون إنقاذ العالم الإسلامي من الغزو البرتغالي الإسباني الذي استهدف خنق التجارة الإسلامية، وحين حاولوا السيطرة على ساحل المغرب الإسلامي للإغارة عليه وضربه، سارع العثمانيون بالسيطرة على المغرب كله ما عدا مراكش واستطاعوا مواجهة الإسبان في حوض المتوسط وجزائره وسواحله، وأدالوا منهم، وبذلك استطاعت القوة البحرية العثمانية أن تحفظ شاطئ البحر المتوسط للإسلام والمسلمين، واستطاع العثمانيون أن يسيطروا على ساحل شرق إفريقيا وشمال المحيط الهندي في مطلع القرن الثامن عشر فأرهب ذلك الأوربيين. واستطاع أحمد بن سعيد ١٧٤٠هـ أن يقف في وجههم في عمان حيث فقد البرتغاليون الأمل في استرداد هذه المنطقة، وقد كانت عمان بعد سقوط الأندلس أكبر قوة عربية ودامت نهضتها من عام ١٠٠٠هـ إلى ١٢٥٠هـ وقد استولت على ثغور البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج، إفريقيا الشرقية إلى رأس الرجاء الصالح، وفي بضعة أجيال صار أهل عمان سادة هذه البحار العظمى الثلاثة، وصار لهم أسطول ضخم هاجم الأسطول البرتغالي وأجلاه عن جميع الثغور الهندية والفارسية والإفريقية.. ولم يصبر الإنجليز على هذه الدولة البحرية التي كانت تهددهم في أملاكهم في آسيا وإفريقيا؛ فعملوا على مدى ثمانين عاماً على إضعافها والقضاء عليها وضرب

(١) هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي، ص ٣٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٨.

خامساً: الاستعمار:

وجاءت الموجة الأوروبية المضادة التالية على يد القوات الاستعمارية التي دفعتها الثورة الصناعية إلى البحث عن مجالاتها الحيوية في القارات القديمة لتصريف بضائعها والحصول على الخامات الضرورية، وتسخير الطاقات البشرية (الرخيصة) المستعبدة في إفريقيا عن طريق نقلها بالقوة فيما يعرف بحركة تهجير العبيد التي كانت بمثابة إحدى العلامات السوداء في تاريخ الصراع بين أوروبا والشرق، والتي ذهب ضحيتها عدد كبير من أبناء الشعوب الإسلامية في إفريقيا، واستمرت هذه الموجة التي قادتها بريطانيا وفرنسا وهولندا وبلجيكا وإيطاليا وألمانيا إلى حد ما، حتى العقود الأولى من القرن العشرين وكان العالم الإسلامي فريستها الأولى بل إنه كان فريستها الوحيدة، إذا استثنينا مساحات محدودة قطنتها أكثريات غير إسلامية، وكانت رغم أهدافها الاقتصادية تتحرك على خلفية صليبية عبّرت عن نفسها في أكثر من واقعة، وقدمت عبر التاريخ أكثر من دليل، إن «غلاستون» رئيس الوزراء البريطاني يقولها بصراحة أمام مجلس العموم البريطاني وهو يمسك بالمصحف الشريف: ما دام هذا في عقول المصريين وقلوبهم فلن نقدر عليهم أبداً^(٢) وعندما دخل القائد البريطاني الصليبي القدس بعد الحرب العالمية منتشياً وحلفاء بريطانيا يستقبلونه بحفاوة وتكريم إلا أنه لم يخف حقه الصليبي على الإسلام والمسلمين، وأظهر سروره وجوره كقائد صليبي متتصر فتح القدس وفلسطين تحت الانتداب البريطاني الصليبي فقال: الآن انتهت الحروب الصليبية.^(٣) يزعم بهذه العبارة أن هدف الحروب الصليبية باحتلال القدس وفرض السيادة الصليبية عليها وعلى فلسطين قد تحقق، وهو بهذا يشير إلى أن الحروب الصليبية التي استمرت قرنين من الزمان واحتلت القدس وفلسطين سنة ٤٩٢ هـ وحررها المسلمون في عام ٥٨٣ هـ لم تحقق هدفها، أما الحرب العالمية الأولى فقد حققت فيها الصليبية هدفها واستولت على فلسطين والقدس وكانت السيادة لها. وأما القائد الصليبي الفرنسي فقد ذهب إلى قبر صلاح الدين في دمشق وقال عند القبر: ها نحن عدنا يا صلاح الدين^(٤). واستمرت الحرب الصليبية فلم تتوقف فقامت بريطانيا بإعطاء وطن لليهود على أرض فلسطين وإقامة دولة يهودية، واتخذت من القرارات والإجراءات الإدارية والعسكرية ما تقيم هذه الدولة،

(١) الإسلام وحركة التاريخ، أنور الجندي، ص ٣٩٢ - ٣٩٣.

(٢) هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي، ص ٤٠.

(٣، ٤) دروس وتأملات في الحروب الصليبية، ص ٣٥.

بتدريب اليهود على السلاح وفنون القتال وتوفير السلاح لهم، بل إعطاء بعض أسلحة الجيش البريطاني لهم، وبخاصة عندما أعلنت بريطانيا انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين في ١٥/٥/١٩٤٨م بل سلمت كثيراً من المدن والقرى الفلسطينية إلى اليهود ليعملوا إقامة دولة يهودية عليها، وفي الوقت ذاته قد حرمت على الفلسطينيين المسلمين التدريب على السلاح واقتناء السلاح، وشنت عقوبات ظالمة على كل فلسطيني يكتني السلاح أو العتاد، فكانت عقوبة الإعدام هي الشائعة، ولقد علق من المجاهدين المسلمين على أعواد مشانق الصليبيين الإنجليز في تلك الفترة آلاف الشهداء، وزج في غياهب السجون عشرات الألوف^(١). هذا وقد تزامنت الحركة الاستعمارية وارتبطت عضواً بمركبة التبشير النصرانية، بجانبيها الكاثوليكي والبروتستانتي، والتي انتشرت مراكزها في طول بلاد الإسلام وعرضها تمهد للاستعمار بأنشطتها المختلفة، وتفتح أمامه الطريق وتحظى تحت سلطانه بالكثير من المساعدات والميزات^(٢)، إلا أن هذا الهجوم الاستعماري الصليبي المضاد لم يمحض بسلام ولم ترع الشعوب الإسلامية أمام إرادة القوة التي اعتمدها الغزاة، بل شملوا عن ساعد الجد واستجاشوا قدرات الإيمان الدافقة ووازنوا بتضحياتهم، وعشقهم الموت، وركضهم إلى الشهادة، نقص إمكانياتهم العسكرية والمادية ووضعوا بذلك الأعاجيب التي أذهلت الغربيين وعرقلة استمرارية حركتهم، ألحقت بهم الهزائم والويلات ووضعت في طريقهم الأسلاك الشائكة والألغام، ليس هذا فحسب، بل إن الاستجابة للتحدي الاستعماري النصراني بعث حركات إسلامية أصيلة تخلقت في مناخ جهادي قاس، واستهدفت مقارعة العدوان وتحرير الأرض والعقيدة والإنسان، وقدمت نماذج من أعمال المقاومة تحدث بها الغربيون قبل الشرقيين وملأت صفحات ناصعة بيضاء في معطيات التاريخ^(٣)، ونحن نذكر على سبيل المثال لا الحصر^(٤) مقاومة كل من: محمد عبد الكريم الخطابي بالمغرب وعبد القادر الجزائري وجمعية علماء المسلمين بالجزائر التي قادها عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي، وعمر المختار بليبيا، وغير ذلك من حركات التحرر التي تحتاج إلى أقلام صادقة لبحثها وكتابتها والأمة في أشد الحاجة إلى مثل هذه الدراسات الجادة.

إن الحرب الصليبية لم تنته ولن تنتهي، وما يحدث في أفغانستان والعراق من احتلال دليل على ما نقول، ومن أهم دوافع هذه الحروب أبعاد دينية وسياسية وعسكرية واقتصادية يطول شرحها.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤١.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٣.

(١) هجمات مضادة في التاريخ، ص ٤١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٢.

المبحث الثاني

أهم أسباب ودوافع الصليبيين

كان المجتمع الأوربي الغربي في هذه الفترة تسوده المنازعات والحروب المحلية بين الأمراء الإقطاعيين مما يساعد على ازدياد سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في الغرب الأوربي^(١)، كما كان للصراعات القائمة بين رأسي العالم المسيحي الغربي حينذاك، وهما البابا والأمبراطور أثر كبير في مجريات الأحداث الأوربية، فلقد بلغت البابوية درجة عظيمة من القوة واتساع النفوذ في هذه الفترة، مما فتح أمامها المجال لكي تصبح القوة العالمية بمعنى أن يكون البابا هو الزعيم الروحي لجميع المسيحيين في الشرق والغرب على حد سواء^(٢)، بجانب الخلافات المستمرة الموجودة بين الكنيستين الأرثوذكسية الشرقية والكاثوليكية الغربية، إذ أصرت كل منهما على أن تسود وجهة نظرها، وأن تكون لها الأولوية على الأخرى، ولهذا السبب عندما عرضت فكرة الحرب المقدسة على البابا أوربان الثاني (٤٧١ - ٤٩١هـ) (١٠٧٨ - ١٠٩٧م) وجد في تنفيذها فرصة كبيرة لإنهاء الخلاف بين الكنيستين والسيطرة على الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية وإدماجها في الكنيسة الغربية تحت زعامته، على أن يتم ذلك كله تحت ستار محاربة المسلمين وحماية البيزنطيين واسترداد الأراضي المقدسة في فلسطين^(٣)، هذا بالإضافة إلى أغراض أخرى عديدة كانت البابوية ترغب في تحقيقها من وراء تمسكها بفكرة الحرب المقدسة، منها التخلص من نفوذ كبار رجال الإقطاع في الغرب، وإنهاء الحروب المستمرة عن طريق توجيه هذه الطاقات واستغلالها في الحرب المقدسة، عليها تفتح لهم بذلك منفذاً لحياة أفضل في الشرق بدون منازعات^(٤). وقد اختلفت الآراء في تفسير طبيعة الحركة الصليبية والدوافع الكامنة وراءها؛ فمنها ما هو مادي والبعض يرى أنها وليدة الحماس أو التعصب الديني الذي عرفت به أوروبا في العصور الوسطى، وأن الباعث الحقيقي لتلك الحروب كان في الواقع هو الهوس الديني المزوج بأغراض أخرى كالميل إلى تأسيس ممالك جديدة والحصول على الثروات الطائلة، وقد اعتبر غالبية المؤرخين القدامى والمحدثين تلك الحروب أنها حروب دينية، وأن العامل الديني كان الدافع الأساسي وراءها من أجل استعادة قبر المسيح والأراضي المقدسة من أيدي المسلمين. والآخرين يعتبرونها أحد مظاهر

(١) الحروب الصليبية، أرنست باكر ص ٢١، ٢٤.

(٢) الحروب الصليبية، سعيد عاشور (١/٣٢).

(٣) دور الفقهاء والعلماء في الجهاد ضد الصليبيين في آسيا، ص ٣٢.

(٤) مملكة بيت المقدس الصليبية، عمر كمال توفيق، ص ١٨، ١٩، ٣٢، ٣٣.

التوسع الاقتصادي الاستعماري في العصور الوسطى. وحقيقة الأمر، أن الحروب الصليبية كانت نتيجة لتفاعل هذه العوامل مجتمعة، لأنها قامت لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية، واتخذت الدين وقوداً أو وسيلة لإخفاء أغراضها المذكورة^(١)، ولا يمكن التقليل من الدافع الديني في تلك الحروب بأي وجه من الوجوه وإليك تفصيل تلك الدوافع والأسباب:

أولاً: الدافع الديني؛

كان الدافع الديني من الأسباب الرئيسية التي دفعت بالجموع الصليبية إلى قلب المعركة، وما يظهر أهمية الجانب الديني أنهم قد وضعوا إشارة الصليب على أسلحتهم والأمتعة الخاصة بهم وقصدوا فلسطين بالذات^(٢)، وقد كانت حركة الإحياء الديني قد ظهرت في غرب أوروبا في القرن العاشر الميلادي، وبلغت أشدها في القرن الحادي عشر، وقد أدت إلى تقوية مركز البابوية، وإثارة الحماسة الدينية في نفوس الناس، هذه الحماسة استغلتها الكنيسة في متنفس خارجي، وعندما ظهرت فكرة الحرب الصليبية اتخذت الكنائس الغرب الأوروبي ميداناً واسعاً لاستغلال نشاطه المكبوت وحماسه المنطلقة^(٣)، وكان ذلك باسم تخليص القدس من أيدي المسلمين^(٤)، ومن أشهر من تبنى الدعوة إلى الحروب الصليبية هو «أوربان الثاني» والذي يعتبر المسئول الأول عن الترويج لحرب المسلمين والتحريض على إرسال الحملة الأولى إلى بلاد الشام، وكانت الظروف مهيأة، فسارع إلى عقد اجتماع في مدينة «كليرمنت» في فرنسا، واستمر المؤتمر عشرة أيام حضره أكثر من ثلاثمائة من رجال الكنيسة^(٥)، كما حضره أمراء من مختلف أنحاء أوروبا، ومندوبون عن الإمبراطور البيزنطي، وممثلون عن المدن الإيطالية.. واستطاع البابا أن يثير حماس السامعين في «خطابه» فتجاوب في أرجاء المجتمع هتاف بترديد عبارة «هكذا أراد الله»، وبأد الحاضرون إلى اتخاذ الصليب شارة لهم^(٦)، كما أن البابا أشار إلى ما أسماه بالخطر الإسلامي المهدق بأوروبا من جهة القسطنطينية، وأعلن أن الناس في المشرق يعانون من ظلم المسلمين، وأن الكنائس والأديرة قد أصابها

(١) العدوان الصليبي على العالم الإسلامي صلاح الدين نوار، ص ٢٢.

(٢) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، شاكراً أحمد أبو زيد، ص ١٧.

(٣) الحركة الصليبية، سعيد عاشور (١/ ٢٠)، الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري، محمد حامد الناصر، ص ٨٠.

(٤) الجهاد والتجديد، محمد حامد، ص ٨٠.

(٥) أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية، ص ٨١.

(٦) الشرق الأدنى، السيد الباز العريبي، ص ١٣، ١٤.

الدمار، وحث الحاضرين على الانتقام من المسلمين^(١)، والحقيقة إن ما أثاره البابا من تعرض نصارى المشرق إلى اضطهاد هو ادعاء باطل، لا يتفق وروح الإسلام وطبيعة الدعوة إليه، وما أحاط النصارى به، من رعاية وعناية^(٢).

وكان من الشعارات التي رفعت في هذه الحرب أن الحجاج من النصارى كانوا يتعرضون للاضطهاد والعدوان وهم في طريقهم إلى بيت المقدس - قبيل الحروب الصليبية - وهذا ادعاء باطل كذلك^(٣)، يقول أحد كبار المؤرخين الأوربيين: إن حالات الاضطهاد الفردية التي تعرض لها المسيحيون في البلدان الإسلامية في الشرق الأدنى في القرن العاشر الميلادي بالذات لا يصح أن تتخذ بأي حال سبباً حقيقياً للحركة الصليبية، لأن المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية وغير الدينية في ظل الحكم الإسلامي، فلم يسمح لهم فقط بالاحتفاظ بكنائسهم القديمة، وإنما سمح لهم أيضاً بتشييد كنائس وأديرة جديدة جمعوا في مكتباتها كتباً دينية متنوعة في اللاهوت^(٤). كما أن الادعاء بتخريب الكنائس وهدم الأديرة أو مصادرتها لم يرق عليه دليل، وإنما هي شائعات ربما أدى إليه تصرف بعينه في قرية بعينها، لا يمكن بحال من الأحوال أن يعتبر هو الأصل في معاملة المسلمين للمسيحيين وكنائسهم في البلاد الإسلامية^(٥). ويقرر أكثر من مؤرخ منصف أن النصارى الذين خضعوا لحكم السلاجقة، كانوا أسعد حالاً من إخوانهم الذين عاشوا في قلب الإمبراطورية البيزنطية ذاتها، وما وجد أي دليل على اضطهاد السلاجقة للنصارى في المشرق^(٦). إلا أن صيحات البابا كانت محمومة حاكمة لا تعقل ولا تفكر في العواقب الوخيمة^(٧). وقد وعد البابا الجموع المشاركين بالحرب، برفع العقوبات عن المذنبين منهم، وبإعفائهم من الضرائب، كما وعدهم برعاية الكنسية لأسرهم مدة غيابهم^(٨)، ولعل ما يدخل ضمن الدافع الديني أيضاً أنه ذاعت في الغرب أخبار الكرامات والمعجزات التي بثتها الكنيسة، وساد الاعتقاد بأن نزول المسيح ثانية إلى الأرض أصبح وشيكاً، ولا بد من المضي في الاستغفار وعمل الخير، قبل هبوطه، كما ساد تصور مفاده أنه ينبغي استرداد الأرض قبل عودة المسيح^(٩). وقد أدرك البابا أن فورة الحماس الديني لن تستمر طويلاً، فدعا إلى القسم وبأن تؤدي الصلاة في كنيسة القيامة، وأشاع أن اللعنة والنقمة، ستحل على كل

(١) قصة الحضارة (٤/١٦).

(٢) الجهاد والتجديد، ص ٨١.

(٣) الغزو الصليبي والعالم الإسلامي د. علي عبد الحليم محمود، ص ١٠٨.

(٤) الحركة الصليبية، سعيد عاشور (١/٣٠).

(٥) الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، ص ١٠٩.

(٦) الحركة الصليبية (١/٢٦ - ٢٨).

(٧) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، د. أحمد شلي (٥/٤٣٨).

(٨) أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي، ص ٢٦.

(٩) الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط، ص ١٥٢.

من يستولي عليه الجبن والضعف أو نکص على عقبيه، وهدد بأن يتعرض كل من لا يلبي نداء الكنيسة بالتوجه صوب الديار الإسلامية بالحرمان من الكنيسة^(١). لقد أثرت الكنيسة -لما لها من سلطان على قلوب الناس في غرب أوروبا في تلك العصور- على الدعوة بهذه الغزوة، وترتب على دعوة الكنيسة خروج الناس أفواجا في حملات صليبية ضخمة متلاحقة إلى المشرق الإسلامي^(٢). ولا ننسى الحقد الصليبي على الإسلام وأهله، فقد انتزع من أيديهم أرضاً كانت تحت سلطتهم، وحرر منهم عبيداً كان يرزحون تحت وطأتهم، واستلب منهم ملكاً كان في قبضتهم، فغلت مراحل الحقد في صدورهم، وتأججت نار العداوة في قلوبهم، وأخذوا يتحينون الفرص يستردون ما فقدوا واثقموا لأنفسهم ممن نكبوهم، ومزقوا مملكتهم^(٣)، وهذا المستشرق المشهور الأمير ليون كايثاني (١٨٦٩م - ١٩٢٦م) الذي بذل معظم أمواله ليسرّخ لحركة الفتح الإسلامي في كتابه المعروف: «حوليات الإسلام» يوضح لنا سر الحقد على الإسلام والمسلمين في مقدمة كتابه حيث يقول: إنه يريد أن يفهم من عمله ذلك سر المصيبة الإسلامية (كانا ستروفيكا وإسلاميكا) التي انتزعت من الدين المسيحي ملايين من الأتباع في شتى أنحاء الأرض ما يزالون يدينون برسالة محمد ﷺ ويؤمنون به نبياً ورسولاً^(٤)، قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنَّ آفْوَءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ثانياً: الدافع السياسي:

كان الملوك والأمراء الذين أسهموا في الحركة الصليبية يسعون وراء أطماع سياسية لم يستطيعوا إخفاءها، سواء قبل وصولهم الشام وفلسطين أو بعد استقرارهم فيها. والمعروف أن النظام الإقطاعي ارتبط دائماً بالأرض وبقدر ما يكون الإقطاع كبيراً والأرض واسعة بقدر ما تكون مكانة الأمير سامية في المجتمع، وفي ظل هذا النظام كانت المشكلة الكبرى التي يمكن أن تواجه الأمير والفارس هي عدم وجود إقطاع أو أرض له، مما يجعله عديم الأهمية مسلوب النفوذ، وأدى هذا إلى بقاء عدد كبير من الفرسان والأمراء بدون أرض، لأن من القواعد الأساسية في هذا النظام أن الابن الأكبر وحده هو الذي يرث الإقطاع فإذا مات

(١) الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط، ص ١٥٢.

(٢) تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ٢٢.

(٣) أسباب الضعف في الأمة الإسلامية للوكيل، ص ١٥٧.

(٤) الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، ص ١١٠.

صاحب الإقطاع انتقل الإقطاع بأكمله إلى أكبر أبنائه ^(١)، وهذا يعني بقاء بقية الأبناء دون أرض، وهو وضع محقوت في المجتمع الإقطاعي، الأمر الذي جعل الفرسان والأمراء المحرومين من الأرض يتحايلون للتغلب على هذه العقبة عن طريق الزواج من وريثة إقطاع، أو الالتجاء إلى العدوان والحرب للحصول على إقطاع. وكان أن ظهرت الحركة الصليبية لتفتح باباً جديداً أمام ذلك النفر من الأمراء والفرسان، فلبوا نداء البابوية، وأسرعوا إلى الإسهام في تلك الحركة لعلهم ينجحون في تأسيس إمارات لأنفسهم في الشرق، تعوضهم ما فاتهم في الغرب. أما الأمراء والفرسان الذين كانوا يمتلكون إقطاعات فقد وجدوا في المشاركة في الحركة الصليبية فرصة طيبة لتحقيق مجد أكبر والحصول على جاه أعظم. وبدارستنا لمراجع الحروب الصليبية نرى أن أطماع أمراء الحملة الأولى تجلت في عدة مظاهر سياسية، فقد أخذوا يقسمون الغنيمة وهم في الطريق أي قبل أن يستولوا على الغنيمة فعلاً، وسوف نرى -ياذن الله تعالى- كيف استحكم النزاع فيما بينهم أمام أنطاكية لرغبة كل واحد منهم في الفوز بها وكيف من استطاع منهم أن يحقق لنفسه كسباً في الطريق قنع به وتخلّى عن مشاركة بقية الصليبيين في الزحف على البيت المقدس، وهو الهدف الأساسي للحملة، وكثيراً ما دب الخلاف بينهم - بعد استقرارهم - حول إمارة أو الفوز بمدينة، وعشاً حاولت البابوية أن تتدخل لفض المنازعات بين الأمراء وتحذّره بأن المسلمين يحيطون بهم، وأن الواجب الصليبي يستدعي تضامنهم لدفع الخطر عن أنفسهم، ولكن تلك الصيحات ذهبت أدراج الرياح، لأن هدف الأمراء كان ذاتياً سياسياً، ولم يكن يهمهم كثيراً رضا البابا أو سخطه، بل إن بعض الأمراء لم يحجموا عن مخالطة القوى الإسلامية المجاورة ضد إخوانهم الصليبيين مما يدل على أن الوازع الديني كثيراً ما ضعف عند أولئك الأمراء أمام مصالحهم السياسية ^(٢)، أما بالنسبة للإمبراطور البيزنطي (الكسيوس) فإنه لم يعترض على أهداف أمراء الحملة، لأنه إذا تسنى للدولة البيزنطية استرداد ما كان لها من أملاك قبل غارات الأتراك عليها، جاز أن تقوم في تخومها إمارات مسيحية حاضرة، لها حق السيادة عليها، ولضمان الحصول على ذلك حرص الإمبراطور على الحصول على يمين الولاء من أمراء الغرب، وبذلك توافقت مصالح كلا الجانبين المسيحيين في القيام بالحرب والعدوان على الأرض الإسلامية. والواقع أنه من العسير الفصل بين العوامل المادية والعوامل المعنوية التي دفعت المسيحيين إلى الحروب الصليبية، فالفقر والرغبة في الكسب، وروح المغامرة كانت عوامل هيأت الجو المناسب للحروب، غير أن هذه العوامل لم تظهر إلا بما نجم عن فكرة للحرب «المقدسة» وتخليص

(١) أوربا في العصور الوسطى (٤٩/٢)، الوسيط في تاريخ فلسطين، ص ١٥٤.

(٢) الوسيط في تاريخ فلسطين، ص ١٥٥.

الأرض، من حماس ديني، والواضح أن فكرة الحرب نبعت من السياسة البابوية، وسياسة الدولة البيزنطية والحروب الإسبانية الإسلامية، فمما سهل أمر إعلان الحرب على المشرق الإسلامي، ما درج عليه الإسبان والفرنسيون في قتال المسلمين في بلاد الأندلس، حيث اتخذ هذا القتال صفة الحرب المقدسة، سواء من جهة المسلمين، حيث أثار «المرابطون» في المغرب الإسلامي الجهاد الديني، أو من جهة المسيحيين في الحالة النفسية التي اقترنت بتوجيه الحرب الصليبية إلى الشرق، حتى إن المؤرخ الكبير (ابن الأثير) نظر إلى الخطر الخارجي نظرة شمولية، واعتبر أي عدوان على طرف من أطراف العالم الإسلامي - سواء في الشرق والغرب - رافداً يصب في النهر الأكبر، وهو الغزو الأجنبي المنظم على أكبر قوة حضارية في العصور الوسطى، وهي الدولة الإسلامية^(١)؛ الأندلس، صقلية، الشام - فلسطين «والتي تكمن في الفرقة، والأطماع الذاتية، وفقدان الروح الوثابة التي تميز بها الحكام والمسلمون الأوائل بناء الدولة الإسلامية^(٢)». هذا وقد كان واضحاً للعيان أن الكنيسة الغربية كانت محمومة لتوسيع رقعتها الإقطاعية، والسيطرة على الكنائس الشرقية، إضافة إلى رغبتها في حرب المسلمين، ومن حقائق التعصب الديني، وجود الجماعات الدينية التي كانت ترتبط بالكنيسة مباشرة وكانت ذات أثر فعال في تلك الحروب، منها فرسان الاستتارية الذين كانوا ملتزمين بالدفاع عن ممتلكات الصليبيين في المشرق، وحماية الأماكن المقدسة، وكانوا يرتبطون بالبابا مباشرة، وكانت كنائس بيت المقدس قد خصصت عشر دخلها لمساعدتهم في أداء رسالتهم الدينية المزعومة، وهناك هيئة الفرسان الداوية التي اتخذت مقرها في جزء من هيكل سليمان عليه السلام في المسجد الأقصى، وسميت باسم: فرسان المعبد، ثم حرفت إلى اسم الداوية^(٣). هذا وقد كانت للبابوية ورجال الكنيسة القدرة على التأثير والضغط والتهديد بالنسبة لمن لا ينفذ رغبة الكنيسة بإصدار قرارات الحرمان التي تقضي بالحرمان من النعيم في الآخرة ونبد طاعته في الدنيا^(٤) على حد زعمهم.

ثالثاً: الدافع الاجتماعي:

ساد المجتمع الأوروبي - في العصور الوسطى - تمايز طبقي كبير، فقد سادت فيه طبقة رجال الدين وطبقة المحاربين من النبلاء والفرسان^(٥)، وكانت طبقة الفلاحين تمثل الطبقة الأكبر المغلوبة على أمرها، والتي كان أفرادها يكدحون، ليسدوا حاجة الطبقتين الأوليين.

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن الوسيط في تاريخ فلسطين، ص ١٥٦.

(٢) (٣، ٢) الوسيط في تاريخ فلسطين، ص ١٥٦.

(٤) جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، فايد حامد عاشور، ص ٨٦.

(٥) تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ٢٤.

كان الفلاح الأوربي مغلوباً على أمره، وكان مطالباً بالتزامات عديدة لأصحاب الإقطاع، وكان البابا على دراية بأحوال الفلاحين الكادحين، فوعدهم بإلغاء التزاماتهم نحو أسيادهم، وأغراهم بخيرات الشرق الإسلامي، كان آلاف الفلاحين يعيشون عيشة منحطة في نظام الإقطاع، حيث شيدوا لأنفسهم أكواخاً من جذوع الأشجار وفروعها وغطيت سقوفها بالطين والقش، دون أن يكون لها نوافذ، ولا يوجد داخلها أثاث بل كان ما يجمعه الفلاح يعتبر ملكاً خاصاً للسيد الإقطاعي، كما يعتبر محروماً من الملكية الشخصية^(١)، وكانوا مثقلين بالتزامات من منتجاتهم. وبذلك يظهر مدى التعاسة والبؤس الذي كان يعيشه غالبية شعوب أوربا في القرن الحادي عشر الميلادي وهكذا لما ظهرت الدعوة الصليبية، وجدت هذه الغالبية العظمى فرصتها للخلاص من حياتها الشاقة المليئة بالذل والهوان، ونظروا إلى أخطار الاشتراك في هذا الغزو نظرة هينة أمام ما كانوا يعيشون فيه، فإن ماتوا في هذه الحرب كان لهم الخلاص، وإن نجوا كانت لهم حياة جديدة أفضل مما كانوا عليه^(٢)، ولقد عرفت الكنيسة كيف تلعب بعقول هؤلاء، وتوغر صدورهم ضد الإسلام وأهله، وخدعتهم بأنهم سيحررون بيت المقدس والقبر المقدس، يباركهم الرب، والبابا، لذلك لم يردعهم رادع عن الذبح والقتل، بل كان قتل المسلم مرضاة ينال عليها الصليبي ثواباً يوم الدينونة^(٣).

رابعاً: الدافع الاقتصادي:

يعتبر التطلع إلى خيرات الشرق الإسلامي، من أقوى دوافع الحروب الصليبية بعد الدوافع الدينية، وقد عبر البابا (أوربان) نفسه في خطابه عن أهمية العامل الاقتصادي بالنسبة لواقع أوربا آنذاك فقال: لا تدعوا شيئاً يقعد بكم.. ذلك أن الأرض التي تسكنونها الآن -والتي تحيط بها البحار وتلج الجبال- ضيقة على سكانها الكثيرين، وتكاد تعجز عن كفايتهم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً، ويلتهم بعضهم بعضاً.. إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها بل هي فردوس المباهج^(٤). وإن جميع الوثائق تشير إلى سوء الأحوال الاقتصادية في غرب أوربا في أواخر القرن الحادي عشر، وكانت فرنسا بالذات تعاني من مجاعة شاملة قبيل الحملة الصليبية الأولى، ولذلك كانت نسبة المشاركين منها تفوق نسبة الآخرين، فقد كانت الأزمة طاحنة حيث ألجأت الناس إلى أكل الحشائش والأعشاب، وبذلك جاءت هذه الحرب لتفتح أمام أولئك الجائعين باباً جديداً للخلاص من أوضاعهم الصعبة وهذا ما يفسر أعمال السلب والنهب للحملة الأولى ضد الشعوب النصرانية التي

(١) الجهاد والتجديد، ص ٨٤.

(٢) تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ٢٤.

(٣) أثر الشرق الإسلامي د. عبد الله الربيعي، ص ١٣٨. (٤) المصدر نفسه، ص ٣٤.

مروا في أراضيها^(١)، كذلك اشترك عدد كبير من تجار المدن الإيطالية والفرنسية والإسبانية في الحروب الصليبية بغرض استغلالهم بحث من أجل السيطرة على الطرق التجارية للسلع الشرقية التي أصبحت مصدر ثراء للمشتغلين بها، لذلك قامت أساطيلهم بدور فعال في الاستيلاء على المراكز الرئيسية في الشام، فساعد الجنوية الفرنج في الاستيلاء على أنطاكية سنة ٤٩٠ هـ - ١٠٩٧ م، وأسهم البنادقة بعد ذلك بعامين في استيلاء اللاتين على بيت المقدس، وكان هدف هذه الجاليات الأول والأخير هو الربح الكسب المادي، ولم يكن يعينها الباعث الديني إلا بالقدر الذي يحقق مصالحها، ويكفي أن نعرف أن شعار البنادقة الذين عرفوا به وقتذاك كان: لنكن أولاً بنادقة ثم لنكن بعد ذلك مسيحيين^(٢)، ولذلك قامت جمهوريات إيطاليا (جنوة - بيزا - البندقية) بعقد معاهدات مع أمراء الصليبيين بالشرق حصلت بمقتضاها على امتيازات اقتصادية مهمة^(٣).

خامساً: تبدل ميزان القوى في حوض البحر المتوسط:

أصبح ميزان القوى منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) لصالح الغرب الأوربي مركز الحركة الصليبية، فضعف الدولة البيزنطية وترنحها تحت ضربات السلاجقة القوية جعلها تسارع إلى الاستنجاد بأوروبا الغربية من ناحية، ثم اختلال أوضاع المسلمين في الجناح الغربي من العالم الإسلامي خاصة في الأندلس وصقلية، وما قابل ذلك من تيسير أسباب القوة والظهور لدى أعدائهم، مما جعل الغرب الأوربي يرفد النصارى الإسبان بشتى صنوف الدعم والمساندة في صراعهم مع مسلمي الأندلس، وتسليط النورمان على صقلية، الأمر الذي أجبر مسلمي الأندلس على الاستنجاد بالمرابطين، ومسلمي صقلية على الاستنجاد بإفريقية من ناحية ثانية. كل ذلك أدى إلى دخول الحركة الصليبية في طورها الجديد الذي اتخذ صفة العالمية^(٤). وكانت البابوية تدعم هذه الحرب بالموافقة والتوجيه والدعاية والدعم المعنوي، فهذه حروب صليبية متقدمة على إعلان البابا أوربان الثاني بدء الزحف الصليبي إلى المشرق سنة ٤٨٨ هـ - ١٠٩٥ م^(٥). وتعتبر إفريقية بمدلولها التاريخي أحد هذه الميادين في الصراع الصليبي، فقد كانت الجبهة الإفريقية ميدانا نشطت فيه قوى العدوان الصليبي لعدة قرون، يتمثل ذلك في حملات عديدة وجهت إليها الواحدة تلو الأخرى، ولم تفت

(١) الحركة الصليبية، د. سعيد عاشور (١/ ٣٠-٣٢).

(٢) الحروب الصليبية، المقدمات السياسية، د. عليّة الجنزوري، ص ٢٤٩.

(٣) الجهاد والتجديد، محمد حامد الناصر، ص ٨٣.

(٤) الحروب الصليبية في شمال إفريقية، ص ١١-١٣. (٥) المصدر نفسه، ص ١٢.

للصليبيين في ذلك همة، ولم يوهن الفشل لهم عزيمة، فكما أن بلدان المغرب الإسلامي كانت أول من اكتوى من البلاد الإسلامية بنار الاستعمار الأوربي الحديث، كانت بلدان الجناح الغربي من العالم الإسلامي ومن ضمنها إفريقية هي التي تلقت الضربات الأولى للصليبيين، والسبب في ذلك يعود إلى عدة اعتبارات جغرافية وتاريخية من أهمها قربها الشديد من غرب أوربا مركز الحركة الصليبية، ومعرفة الأوربيين الواسعة نسبياً لأوضاع المسلمين في هذه المنطقة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً لسهولة الاتصال بين الطرفين، ثم الحقد الشديد الذي كان يكنه الأوربيون للمسلمين المغاربة^(١)، وبالذات لكونهم هم الذين تولوا عبء الجهاد في أوربا أكثر من غيرهم من المسلمين، وما كان يشعر به الأوربيون من خطر هؤلاء إذ تهيأت لهم الوحدة والقيادة المخلصة، لكل ذلك كانت أوربا تتربص بمسلمي هذه المنطقة الدوائر، وتحفز للوثوب عليهم منتظرة الفرصة المناسبة، وأخذت هذه الفرصة التي طالما انتظرها محركو قوى العدوان الصليبي تتهياً منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد)، إذ أصاب الجناح الغربي من العالم الإسلامي من التمزق ما جعله يسير بخطى حثيثة نحو التردى إلى الهاوية، ولم يكن وضع إخوانهم في المشرق بأحسن حالاً منهم، فكان هذا التمزق وافتراق الكلمة هو السبب الأهم في البلاء الذي نزل بالمسلمين في المشرق والمغرب على حد سواء، وما أشبه اليوم بالأمس، لقد كان ولا يزال تفرق العرب والمسلمين هو الباب الواسع الذي يدخل إليهم أعداؤهم منه لضربهم في عقر ديارهم، فكان أن انطلقت القوى الصليبية في موجة عاتية تضرب المسلمين في ثلاث جهات في آن واحد في الأندلس وصقلية وإفريقية^(٢).

١- الأندلس: فقد شهدت الجهة الأندلسية منذ أواسط ذلك القرن نشاطاً ملحوظاً تمثل في شن هجوم قوي مستمر من قبل النصارى الإسبان بزعمامة مملكة قشتالة على مسلمي الأندلس، حيث أخذت المدن والمعازل الإسلامية تسقط في أيديهم تباعاً، وأحرزوا النصر على المسلمين في معارك عديدة، وتوجت تلك الانتصارات بسقوط مدينة طليطلة سنة ٤٧٨هـ في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة، تلك الكارثة التي روعت العالم الإسلامي بأسره. وحيال هذا الضغط المتواصل من النصارى الإسبان اضطر مسلمو الأندلس إلى الاستنجاد بالمرابطين من العدو المغربية، فكانوا يرسلون الاستغاثة تلو الأخرى لهذه القوة الفتية، حتى إذا ما قضى أميرها يوسف ابن تاشفين على جيوب المقاومة لدولته في المغرب عبر البحر إلى الأندلس بمجموع غفيرة حيث

(١) كلمة المغاربة كانت تطلق على سكان المغرب الإسلامي بأسره، والذي كان يضم الأندلس والجزر الإسلامية غرب المتوسط إلى جانب أقطار المغرب العربي، وليس كما درج في العصر الحديث بقصرها على أهل المغرب الأقصى.

(٢) الحروب الصليبية في شمال إفريقيا، ص ١٣.

التقى بالفونسو السادس في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ التي سطر المرابطون ومن ساعدتهم من الأندلسيين بانتصارهم الرائع فيها صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي، وانتصار المسلمين في تلك المعركة أوقف المد المسيحي الإسباني حتى تهيأت له ظروف أخرى فيما بعد.

ب- صقلية: وأما الجبهة الصقلية فقد أدى ظهور النورمان كقوة جديدة في ميدان السياسة الدولية إلى تغير ميزان القوى في غرب المتوسط لصالح القوى النصرانية، إذ ما كاد هؤلاء القادمون الجدد يجدون موطنهم في جنوب إيطاليا ويحصل جيسكارد أكبر زعمائهم على اعتراف البابا نقولا الثاني به في مؤتمر ملفي سنة ١٠٥٩م، وأعلن عن مشروعه في توجيه قواه ضد مسلمي صقلية إرضاء للبابوية التي كانت ترى في ذلك تحقيقاً لأهدافها الصليبية من ناحية وإبعاداً للخطر النورماني عن ممتلكاتها من ناحية أخرى، فشجعت هذا المشروع، وكدليل على موافقتها وتشجيعها أرسل البابا إلى جيسكارد راية مقدسة لينال هو وجنده بركتها النصر على المسلمين، وأصر على أن الفتوحات المرتقبة من أجل المسيح عليه السلام هي أكثر أهمية من إرسال الهدايا إلى روما^(١)، وتم الاستيلاء على الجزيرة في سنة ٤٨٤هـ في عهد رجار الأول ثم وثبت قواته على مالطة في العام التالي واحتلتها وأخذ يتحين الفرصة للانقضاض على إفريقية^(٢).

ج- إفريقية: وأما الجبهة الإفريقية، فقد نالت حظها هي الأخرى من العدوان الصليبي في تلك الآونة بفعل قوة ناشئة هي المدن البحرية الإيطالية، فقد استغلت هذه المدن غياب القوى البحرية القديمة المتمثلة في الأسطولين الإسلامي والبيزنطي عن مياه البحر الأبيض المتوسط منذ أوائل ذلك القرن لانشغال كلا الطرفين بمشاكله الداخلية، وأخذت أساطيلها تمخر مياه ذلك البحر القرية من الشواطئ الأوربية أولاً خوفاً من أسطول مجاهد العامري صاحب دانية الذي استطاع تجميد نشاطها لفترة من الوقت حتى إذا ما تمكنت من إزالة ذلك الخطر بدأت منذ أواسط القرن المذكور تجوب مياه البحر الأبيض المتوسط شرقاً وغرباً، وقد وضعت هذه المدن قوتها البحرية في خدمة الأهداف الصليبية منذ البداية لتحقيق مكاسب خاصة بها، فبتشجيع البابا لاون التاسع استولى تحالف من جنوة وبيزا على جزيرة سردينيا الإسلامية سنة ٤٤٢هـ - ١٠٦٣م حيث خرب أرباضها ومينائها وغنم غنائم كبيرة، وكما اشتركت هذه الأساطيل في حروب الجبهة الصقلية اشتركت في حروب الجبهة الأندلسية، فأسهمت في مطاردات المسلمين الأندلسيين عن طريق البحر وأخذت نصيبها من الغنيمة، وفرضت حصاراً بحرياً على المرية حتى دفعت لها تلك المدينة فدية ضخمة تقدر بمبلغ ١١٣

(١) الحروب الصليبية في شمال إفريقية، ص ١٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥.

ألف دينار ذهبي، كما أجبرت بلنسية على دفع إتاوة ماثلة تقدر بمبلغ ٢٠ ألف دينار ذهبي لتفتدي نفسها بذلك من النهب والسلب^(١)، وهاجت الجزائر الشرقية (جزر البليار) عدة مرات. ونتيجة لذلك، أصبحت القوة البحرية الإيطالية هي المتحكمة في مياه البحر الأبيض المتوسط مما دفعها إلى مزيد من المغامرة، فوجهت نشاطها إلى إفريقية التي كانت لا تزال تحتفظ بقوة بحرية بمد يد المساعدة لإخوانهم في صقلية أو غيرها من ناحية ثانية، ثم لتحقيق أهداف الحركة الصليبية في إفريقية من ناحية ثالثة، فقامت قوة بحرية ضخمة مكونة من أسطولي جنوة وبيزا مدعومة بفرق من مدينة أمالفي وقوة عسكرية أخرى أمدها بها البابا بمهاجمة مدينة المهديّة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م أي بعد الاستيلاء على طليطلة بعامين وقبيل الاستيلاء الكامل على صقلية واستولت عليها باستثناء قلعتها، وظلت في يدها إلى أن دفع صاحبها تميم بن المعز للحقوى المتحالفة فدية مالية ضخمة وعقد مع الغزاة معاهدة نصّ أحد بنودها على تعهد تميم بعدم التعرض للسفن الإيطالية في المياه الإفريقية، ومنحهم امتيازات تجارية في بلاده، كما سيذكر في موضعه.

وما تقدم يتضح أن هذا الهجوم الصليبي على القسم الغربي من العالم الإسلامي منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) والذي كانت تدير دفته البابوية قد احتدم في ثلاث جهات كانت إفريقية إحداها، ولا شك أن هذا الهجوم كان وجهاً من أوجه الحركة الصليبية، وهذا يؤكد أن الحروب الصليبية بدأت في إفريقية قبل الزحف الصليبي إلى المشرق، ويؤكد هذه الحقيقة ما ذكره ابن الأثير في حوادث سنة ٤٩١هـ إذ يفهم من النص الذي أورده أن تلك الحوادث كانت مترابطة يحركها محرك واحد وأنها كانت بداية لموجة الحروب الصليبية في ذلك الطور من أطوار الحركة الصليبية إذ يقول: كان ابتداء ظهور دولة الفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم إلى بلاد الإسلام واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فملكوا طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس.. ثم قصدوا سنة أربعة وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها.. وتطرقوا إلى إفريقيا فملكوا منها شيئاً وأخذ منهم - ثم ملكوا غيره على ما تراه - فلما كان سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام^(٢)، وعلى الرغم من اتجاه معظم قوى الحركة الصليبية إلى المشرق، إلا أن ذلك لم يمنع من بقاء فكرة احتلال إفريقية ماثلة في أذهان ذوي الأفكار الصليبية، وبقي تطلع النورمان للاستيلاء عليها قائماً حتى تم لهم ذلك في عهد رجار الثاني حيث استولى على معظم سواحلها من طرابلس

(١) القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط، أريبالد لويس، ص ٣٧٢.

(٢) الكامل في التاريخ نقلاً عن الحروب الصليبية في شمال إفريقيا، ص ١٧.

شرقاً إلى مدينة تونس غرباً في سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م، فكانت الحرب الصليبية مشتتة في الجبهة الإفريقية أثناء احتدامها في جبهة المشرق، وبقي الوجود النورماني ماثلاً فيها حتى قام عبد المؤمن بن علي زعيم دولة الموحدون بطردهم من المهديّة آخر معاقلهم فيها سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م^(١)، وعندما حدث نوع من تبدل ميزان القوى في المغرب الإسلامي نجد ذلك ساهم في جبهة المقاومة الإسلامية في المشرق في عهد نور الدين محمود زنكي وصلاح الدين الأيوبي، كما سيأتي بيانه بإذن الله في دراستنا عن الزنكيين والأيوبيين.

سادساً : استنجد إمبراطور بيزنطة بالبابا أوربان الثاني :

استنجد الإمبراطور الكيسوس كومنين (١٠٨١ - ١١١٨م) ضد السلاجقة، لم يكن في الحقيقة الأول من نوعه بل سبقه استنجد الإمبراطور (ميخائيل السابع) بالبابا (جريجوري السابع) عقب موقعه ملاذكرد ٤٦٣هـ السالفة الذكر، المعروف أن الحرب على الترك كانت من الأغراض التي تنطوي عليها الدعوة البيزنطية، فالأناضول يعتبر أكثر أهمية من بيت المقدس عند الدولة البيزنطية^(٢)، ولذلك لما أصبحت عاصمة البيزنطيين مهددة من قبل السلاجقة كان لزاماً على الإمبراطور أن يستنجد بالغرب في مقابل اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية، وقد أرسل البابا جريجوري السابع إلى الإمبراطور ميخائيل السابع رداً مرضياً بدافع العاطفة المسيحية من جهة، وبدافع سياسي من جهة أخرى، فما يحشده من جيش سوف يقضي على الانشقاق بين الكنيستين، ويزيد من نفوذ البابوية في الشرق مثلما زاد في الغرب. غير أن الحرب التي نشبت بين (جريجوري السابع) والإمبراطور (هنري الرابع) منعت في المضي في مشروعه ولما خلف الإمبراطور (الكيسوس كومنين) الإمبراطور ميخائيل السابع، بعث برسالة إلى البابا أوربان الثاني وإلى كبار رجال الإقطاع سنة ٤٨٧هـ يدعوهم لإرسال المساعدات لنجدة إخوانهم في الشرق وحماية القسطنطينية ضد الخطر السلجوقي^(٣)، ولقد كان (الكيسوس) يرغب في أن يبعث له الغرب ببعض الجند المرتزقة ولكن البابا أوربان لم يشأ أن يجعل نفسه في خدمة الدولة البيزنطية، بل أراد أن تتولى البابوية تقديم المساعدة للمسيحيين في الشرق، وهذا التغيير في الفكرة يؤدي إلى أن يحشد العالم المسيحي اللاتيني جيشاً ضخماً، لا أن يبعث بمجنود مرتزقة تخضع لأهواء الأمراء، وأشار هذا الاختلاف في التفكير إلى المتاعب منذ البداية مما أساء العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين. والثابت تاريخياً أن المستول الأول عن قيام الحركة الصليبية هو البابا أوربان الثاني، فهو الذي أنذر بقيام تلك

(١) الحروب الصليبية في شمال إفريقية، ص ١٨.

(٢) الحروب الصليبية، د. عليّة الجتزوري، ص ٢٥٣. (٣) العرب والروم اللاتين (١/ ١٥٠).

الحروب^(١) يؤيده في دعواه الجهاز الكنسي في الغرب، وينسب إليه جميع المؤرخين اللاتين المعاصرين له، الدور الرئيسي في تحقيق هذه الفكرة^(٢).

سابعاً: شخصية البابا أوربان الثاني ومشروعه الشامل للغزو الصليبي؛

ولد أوربان الثاني عام ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م في شاتيون سير مارن واسمه أودو، وقد درس على يدي القديس برنو الذي أسس نظام الكاروسيين، وفي عام ٤٦١هـ/ ١٠٦٨م أصبح راهباً في دير علوني بالقرب من ماكون، وقد التحق بخدمة البابا المتسلط المؤمن إيماناً راسخاً بتفوق البابوية على الإمبراطورية ونعني به جريجوري السابع وتم تعيينه كاردينالاً أسقفياً لاوستياً في عام ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م، وخدم الكنيسة في ألمانيا خلال المرحلة من ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م، وقد ساند على نحو شرعي البابا جريجوري السابع في خلال صراعه مع الإمبراطور هنري الرابع، وقد ارتبط أوربان الثاني بسينودس (مجمع كنس) في ساكسوني الذي عقد عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م)، وعند وفاة البابا فيكتور الثالث في ١٦ سبتمبر ١٠٨٧م في مونت كاسينو تمت السيطرة على روما عن طريق كاينت الثالث، وتم انتخاب أوربان الثاني بعد تأخير طويل في تراكينا إلى الجنوب من روما بالقرب من جايتا وحمل اسم أوربان الثاني (٤٨١ - ٤٩٣هـ/ ١٠٨٨ - ١٠٩٩م)^(٣). ونلاحظ من خلال سيرة هذا الرجل أنه اتسم بالنشاط الوافر، وإحكام سيطرته على كل مناطق نفوذ الكنيسة الأم، ولعل موقفه من إسبانيا يمثل لنا بعداً مهماً، فقد أيد ذلك البابا الحرب ضد المسلمين وعندما أمكن للإسبان إخضاع بعض المناطق التي كانت من قبل تحت سيادة أعدائهم سارع البابا بجعلها ضمن نفوذ كنيسة روما. ولا شك أن أوربان الثاني في دعمه الحرب ضد المسلمين هناك كان يسير على خطى وهدي البابا ألكسندر الثاني، وهذا يؤكد لنا على حقيقة محورية وهي وجود استراتيجية عليا للبابوية في روما تتجه نحوها وتنفذها بجرص في القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري على نحو خاص بغض النظر عن تغير وتقلب البابوات، وأهم ملامح هذه الاستراتيجية هي توسيع نفوذ كنيسة روما، وتوحيد الكنائس، ومحاربة الإسلام أينما وجد باعتباره العدو اللدود الذي لا مناص من مواجهته ومحاولة الانتصار عليه بأي ثمن^(٤)، ومن الملاحظ أن من خلال الاستغاثات البيزنطية المتعددة، وانشغال من سبق أوربان الثاني بأمور متعددة، جاءت الفرصة السانحة لهذا البابا، وفي مجمع بياكترز بإيطاليا في

(١) الحروب الصليبية، عليّة الجزوري، ص ٢٥٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٤، العرب والروم اللاتين (١/٥٦).

(٣) الحرب الصليبية.. العلاقات بين الشرق والغرب، محمد مؤنس، ص ٦٣.

(٤) المصدر نفسه ص ٦٥.

مارس ١٠٩٥م - ٤٨٨هـ اتجه إلى الاستجابة لدعوة الإمبراطور الكسيوس الأول كومينيوس (٤٧٤ - ٥١٢هـ) (١٠٨١ - ١١١٨م) غير أن مجمع بياكتزا أخفق فيه البابا في الدعوة لشن حرب صليبية ضد المسلمين في الشرق^(١).

١- أوربان الثاني يعقد مجمعاً كنسياً في جنوب فرنسا: إن إخفاق مجمع بياكتزا لم يثن ذلك البابا العنيد الطموح عن تحقيق هدفه بكل الوسائل الممكنة، وقد اتجه إلى بلاده الأصلية فرنسا من أجل معاونته على نجاح مشروعه المرتقب، وقد دل ذلك الاختيار على ذكائه خاصة أن جنوب فرنسا التقليدي المحافظ كان بمثابة منطقة تماس مع الحرب التي شنها الإسبان ضد المسلمين في إسبانيا، بالإضافة إلى أن مجرد طرح الفكرة على الأرض الفرنسية كان من الممكن أن يحقق نجاحاً فورياً من خلال أنها الموطن الأصلي للبابا، وهو أدرى بشعابها، خاصة أنها - في نفس الحين - ذات تاريخ خاص مع الإسلام خلال معركة بواتيه المعروفة لدى المسلمين بمعركة بلاط الشهداء عام (١١٤هـ - ٧٣٢م) والتي هزم فيها المسلمون وتم وقف المد الإسلامي وإعاقته عن الامتداد فيما وراء جبال البرانس، وسوف ندرك من خلال تحليل خطاب البابا في مجمع كليرمونت أن كل تلك الزوايا، لم تغب عن ذهن ذلك الرجل الحاد الذكاء، القوي الإرادة منذ أن تربى في أحضان حركة الكاروسيان الرهبانية الصارمة، مهما يكن من أمر، فإن البابا اتجه إلى كليرمونت فران بجنوب فرنسا وعقد مجمعاً كنسياً هناك، وفي اليوم العاشر عقد المجمع الذي تناول فيه العديد من القضايا التي تهم الكنيسة: ألقى البابا على مستمعيه خطاباً بالغ الأهمية والخطورة وذلك في يوم ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م^(٢).

ب- الخطبة التي ألقاها أوربان الثاني: كان للخطبة التي ألقاها البابا أوربان الثاني في المجمع الديني الذي انعقد في كليرمونت عام ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م أثرها البالغ في نفوس المسيحيين المجتمعين في هذا المجمع فقد ألهمت حماسهم وأصابتهم بحالة عبر عنها المؤرخ جويستون لوبون في كتابه (حضارة العرب): بأنها نوبة حادة من الجنون^(٣)، إذ قال البابا: يا شعب الفرنجة، يا شعب الله المحبوب المختار، لقد جاءت من تخوم فلسطين، ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنساً لعيناً أبعد ما يكون عن الله قد طفى وبغى في تلك البلاد، وبلاد المسيحيين في الشرق، وقلب موائد القرايين المقدسة، ونهب الكنائس وخربها

(١) الحروب الصليبية، العلاقات بين الشرق والغرب د. محمد مؤنس، ص ٦٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٦.

(٣) حضارة العرب نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى.

وأحرقها، وساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم، وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أشنع تعذيب، ودنسوا الأماكن المقدسة برجسهم، وقطعوا أوصال الإمبراطورية البيزنطية، وانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها في شهرين كاملين. على من أذن تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم، واستعادة تلك الأصقاع إذا لم تقع عليكم أنتم؟ أنتم يا من حباكم الله أكثر من أي قوم آخرين بالمجد في القتال، وبالبسالة العظيمة وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون في وجوهكم؟ ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوي قلوبكم - أجداد شارلمان وعظمته، وأجداد غيره من ملوككم وعظمتهم، فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا - الضريح الذي تمتلكه الآن أمم نجسة، وغيره من الأماكن المقدسة التي لوئت ودنست - لا تدعوا شيئاً يقعد بكم من أملاككم أو من شئون أسركم، ذلك بأن هذه الأرض التي تسكنونها الآن والتي تحيط بها من جميع جوانبها البحار، وتلج الجبال، ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيكم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً، وتتحاربون، ويهلك الكثيرون منكم في الحروب الداخلية. طهروا قلوبكم إذن من الحقد، واقتضوا على ما بينكم من نزاع، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم، إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها، هي فردوس المباح. إن المدينة العظيمة القائمة في وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها. فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم، وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجداً لا يفنى في ملكوت السموات^(١). وهكذا كان لهذه الكلمات الحماسية التي ألقاها البابا أوربان الثاني أثرها البالغ في نفوس المسيحيين المجتمعين فبعد أن أنهى البابا خطبته مباشرة صاح المجتمعون صيحة رجل واحد قائلين: هكذا أراد الله^(٢). ولم يكد البابا أوربان الثاني ينتهي من خطابه هذا، حتى نهض إليه الأسقف أدهمير دي مونتيل، وركع أمام قدمي البابا، والتمس منه الإذن بأن يلحقه بالحملة المقدسة، وأمام هذا الموقف المؤثر تحركت مشاعر المجتمعين وتدفخوا بالثبات يركعون أمام البابا مثل أدهمير في حماس منقطع النظير وحملوا الصليبان وحلفوا جميعاً على تحليص المدينة المقدسة، ويعقب المؤرخ المعاصر للأحداث وهو - روبرت الراهب - فيقول: ياله من عدد كبير من الناس، من كل الأعمار ومن مختلف المستويات الذين تقلدوا الصليبان خلال مجمع كليرمونت، وقد حلفوا على

(١) قصة الحضارة (١٥/١٥، ١٦)، وثائق الحروب الصليبية، ص ٩٩ - ١٠٠.

(٢) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص ٢٣٧.

تخليص المدينة المقدسة. وقد وصل عددهم إلى ٣٠٠ ألف^(١). وإزاء هذا الموقف من المتحمسين لأدهمير عينه البابا أوربان الثاني ممثلاً شخصياً ونائباً عنه ليوضح للجميع أن الحملة تحت إشراف الكنيسة، بل تحت إشرافه هو مباشرة^(٢).

ج - ما يستنتج من خطاب البابا أوربان الثاني؟ قام الدكتور محمد مؤنس عوض بدراسة واعية للحروب الصليبية واستفاد من مراجعهم وقام بتحليل لخطاب البابا من خلال أربعة نصوص لأربعة من المؤرخين المعاصرين، هم فوشيه الشارترى، وروبير الراهب، وجوبرت النوجتي، ويودريك الدولى، وهناك تصور بأن فوشيه الشارترى كان من بين الذين حضروا مجمع كليرمنت، وبصفة عامة، من الممكن عقد مقارنة بين النصوص الواردة في مؤلفات المؤرخين الأربعة من أجل التوصل إلى حقيقة ما أعلنه البابا في خطبته الشهيرة، وعند مقارنة تلك النصوص يمكن استنتاج الآتي:

- وجه البابا حديثه إلى جنس الفرنجة من أجل التركيز على البعد الإثني أو العرقي، وأوضح أن الله قد ميزهم بموقع بلادهم، وبعقيدتهم الكاثوليكية، وعمل على تذكيرهم بالبعد التاريخي من خلال أمجاد شارل مارتل وشارلمان وما قدماه للمسيحية من خدمات جليلة، على نحو عكس أهمية حافز «الذاكرة التاريخية» في تشكيل تلك الظاهرة التاريخية الكبرى^(٣).

- أشار البابا إلى أن هناك أخباراً مؤسفة ومزعجة قدمت من الشرق مفادها أن جنساً ملعوناً وهم عرق ملعون غريب تماماً عن الله وهم حقاً جيل لم يتوجه بقلبه أو يعهد بروحه إلى الله^(٤)، ويقصد بذلك الأتراك السلاجقة، ذبحوا المسيحيين الشرقيين، وحولوا الكنائس إلى أسطبلات لخيولهم وأن دماء أولئك المسيحيين تنادي مسيحيي الغرب من أجل إنقاذهم من براثن أعدائهم الكفار.

- عمل البابا على إثارة مظالم سامعيه في ثروات الشرق فأوضح أن الأرض في الغرب الأوربي ولاسيما في فرنسا ضاقت بسكانها، وطلب من الناس الذهاب إلى الشرق حيث أرض كنعان التي تفيض لبناً وعسلاً وفي ذلك الدليل الجلي الذي لا يقبل ارتياب مرتاب على أن البعد الاقتصادي للحركة الصليبية، قد تم الإعلان عنه بصراحة كاملة منذ اللحظات الأولى لميلادها.

(١) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص ٢٣٧.

(٢) الحرب الصليبية، حسن حبشي، ص ٥١ دور الفقهاء، ص ٢٣٨.

(٣) الحروب الصليبية.. العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٦٧.

(٤) الحروب المقدسة. الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم، كارين أرمسترونغ، ص ٣٥.

- وعد البابا كل من يحمل السلاح ويتجه إلى الشرق بأن تغفر ذنوبه وآثامه وبمعنى آخر قدم لهم الغفران الكنسي، أما إذا استشهد المرء في سبيل تحقيق هدفه فإنه يعد شهيداً من شهداء المسيحية الأبرار، وجميعها مغريات مهمة في عصر سادته ظاهرة الهوس الديني العاطفي في العالم المسيحي الأوربي.

- اتجه البابا إلى الإشارة إلى بيت المقدس، وهي الجنة الأرضية قلب العالم، التي شهدت ميلاد السيد المسيح وطهرها بموته، وذكر لمستمعيه أنها تناديكم من أجل تخليصها من براثن محتليها من الكفار، وأود أن أقرر هنا أن تلك المدينة مثلت محوراً على قدر عظيم من الأهمية من أجل إثارة الشعور الديني لدى مستمعي البابا، وفي أغلب النصوص التي وردت إلينا بشأن الخطاب المذكور نجد أن بيت المقدس تحتل مكاناً بارزاً ومحورياً، وهو أمر منطقي تماماً من خلال مكانتها وقداستها الدينية، كذلك أنها مثلت الحلم الجماعي الخاص بالحج المسيحي في ذلك العصر.

- حرص البابا على تدعيم خطابه بعدد من النصوص الواردة في الكتاب المقدس من أجل إثارة الشعور الديني لمستمعيه، أو ربما من أجل أن يعطي لخطابه قداسة خاصة مثل عبارات ذلك الكتاب في العقل الجمعي الأوربي في ذلك العصر، ومن أمثلة ذلك العبارة الواردة في إنجيل متى وهي: من أحب أباً وأماً أكثر مني فلا يستحقني، ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني^(١). كذلك العبارة القائلة: من لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني^(٢). والتي وردت في نفس الإنجيل المذكور.

- ترتيب الأولويات عند البابا أوربان الثاني: كان البابا أوربان الثاني بارعاً في عرض أفكاره وكذلك في إخفاء بعضها، وقد ركز على أمر بيت المقدس حتى يقدم طريقاً واحداً على الغرب الأوربي السير فيه دون تردد ويخلق لمعاصريه (وحدة الهدف) من خلال وحدة المؤسسة الدينية الداعية له في صورة البابوية، وعلى هذا الأساس، لم يرد في الخطاب المذكور أية عبارات عن رغبته العارمة في توحيد الكنائس وإخضاع كنيسة القسطنطينية لسيطرة الكنيسة الأم في روما، كذلك لم يرد فيه ما يدل على الهدف التنصيري وهو هدف محوري للبابوية من خلال المشروع المرتقب، وتعليل ذلك الإخفاء يكمن في أن البابوية أدركت أن هناك أولويات في طرح المشروع ينبغي عدم تخطيها، وأن وحدة العالم المسيحي تتطلب عدم تشعيب الأهداف وطرحها حتى لا يغيب الأمر منذ اللحظات الأولى، ويلاحظ هنا أن لغة

(١) الحروب الصليبية.. العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٦٨.

(٢) الكتاب المقدس العهد الجديد، متى، الإصحاح م ١٠، ٢٧، ٢٨.

البابوية في الخطاب ذات طابع متكتم في عرض الأهداف الأخرى لها، أما فيما بعد نجاح المشروع والاستيلاء على الرمز الديني المسيحي في صورة بيت المقدس، وجدنا - والأمثلة هنا أكثر من أن تحصى - الإفصاح عن الأهداف الأخرى بوضوح وصراحة كاملتين، وفي هذا دليل واضح على أن تلك المؤسسة الدينية ذات التأثير الفعال رأت تحقيق أهدافها جزءاً جزءاً وليس دفعة واحدة، وهو أخطر ما في المشروع برمته، وفي تقديري ^(١) أن البابا أوربان الثاني لم يغب عن تفكيره ذلك الجانب بحكم أنه المهندس الأول للمشروع والداعي الأصلي لفكرته، وفي واقع الأمر: أن الخطاب الذي القاه البابا في مجمع كليرمونت يعد على جانب كبير من الأهمية التاريخية، فلم نسمع من قبل في تاريخ أوربا القرون الوسطى أن خطاباً كان معبراً عن عصره يمثل هذه الصورة كما لم نسمع عن خطاب حرك الجماهير الأوربية الغفيرة عن مواطنها الأصلية إلى الشرق يمثل تلك الدرجة التي تحدثنا بها المصادر التاريخية المعاصرة، ولذلك لا ننظر إليه على أنه مجرد خطاب عادي، بل أنه إعلان ما يشبه «الحرب العالمية» في العصور الوسطى من جانب الغرب الأوربي ضد الشرق الإسلامي، وذلك دونما مبالغة قولية أو اعتساف في الأحكام، بل من خلال شواهد التاريخ التي وقعت في أعقابه. ويلاحظ أنه في أعقاب إلقاء البابا لخطابه صاح الحاضرون صيحة واحدة وهي: الله يريد ذلك، وكانت صيحة المسيحية لمحاربة الإسلام وأهله، وأخذوا الصليب شعاراً، ومن هنا كانت تسميتهم بالصليبيين ^(٢).

- قدرة البابا أوربان الثاني على تقديم مشروع عام: استطاع أوربان الثاني أن يوحد شعوب الغرب في مشروع عام على الرغم من أن لغات هذه الشعوب وعاداتها المحلية، واهتمامات أبنائها كانت تختلف اختلافاً بيناً. ولكن الفكرة الصليبية التي جمعت جماهير الغرب الأوربي لم تكن لتنجح لو لم تكن متوافقة مع حركة المجتمع، هذا التوافق بين الفكر والواقع، بين التبرير الأخلاقي للحرب، وحركة المجتمع هو الذي خلق الإيديولوجية التي تحركت الجماهير الأوربية في إطارها، فعلى المستوى الشعبي كان تفكير الناس في أوربا الغربية في القرن الحادي عشر يتوازى مع السياسة البابوية وفكرة الحرب المقدسة إلى حد ما، إذ أن أوربا كانت قد بدأت حركة إحياء دينية مع مشرق شمس القرن الحادي عشر. ومع اقتراب الألف الأولى بعد المسيح من اكتمالها سرت موجة بالإحساس بالذنب والرغبة في التوبة في غرب أوربا، فقد تعمق لدى الإنسان الغربي الشعور بالخطيئة والإحساس بالذنب، والحقيقة أن من يقرأ مصادر تاريخ القرن الحادي عشر في غرب أوربا لا يمكن أن يغفل إصرار الناس في ذلك

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٩.

(١) الحروب الصليبية.. العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٦٨.

الزمان على أن يضمّنوا لأنفسهم غفران خطاياهم، وكان هذا نتاجاً للمشاعر الألفية والأخروية التي ملكت على الناس وجدانهم وعقولهم مع توقعاتهم لمجئ الدينونة، وانتشر الوعظ الجوالون في كل أنحاء الغرب الأوربي يحثون الناس على الزهد والتوبة والتشبه بحياة الفقر التي عاشها الحواريون. وفي غمرة هذا التدين العاطفي الذي حكم تصرفات المجتمعات الغربية سادت مشاعر الكراهية والتعصب ضد أتباع الديانات الأخرى، بل وضد من يعتقدون مذهباً غير المذهب الكاثوليكي. وثمة دليل قوى على هذا في طيات الملحمة الصليبية المعروفة باسم «أنشودة أنطاكية» التي تعكس، بشكل أمين، روح الانتقام التي سرت في المجتمع الكاثوليكي ضد «الوثنيين المخذولين» - على حد زعمهم - كما أن القصيدة لا تعتبر أن الأمة المعادية للمسيح هم المسلمون فقط، وإنما يصدق هذا الوصف أيضاً على كل من لا يعترفون بعقيدة الكنيسة الكاثوليكية، وهي بهذا تجسد التفكير الشعبي في أوربا القرن الحادي عشر، هذا التفكير الشعبي كان هو الآخر واحداً من ملامح الإيديولوجية العامة التي أفرزت الحركة الصليبية. لقد تمثل نجاح أوربان الثاني في أن خطبته التي دعا فيها إلى الحملة الصليبية كانت بمثابة بؤرة تجمعت فيها كل الأفكار التي مثلت الإطار الإيديولوجي لحركة المجتمع الغربي آنذاك على الرغم من الاختلافات اللغوية والعادات والتقاليد، وهكذا لم تكن استجابة جماهير المستمعين إلى البابا في كليرمونت مجرد رد فعل لبلاغة كلماته، وإنما كانت هذه الاستجابة تعبيراً عن فرحة أولئك المستمعين بالمشروع الذي مس أوتار الآمال التي كانت تداعب كلاً منهم تقريباً، وجاءت الحرب المقدسة ستاراً مدهشاً يمكن للجميع أن يتحركوا من خلاله لضمان تحقيق أحلامهم الدنيوية وخلصهم الأخروي، وبوسعنا أن نورد عشرات التعبيرات الواردة في المصادر التاريخية والحواليات المعاصرة تصف الصليبيين بأنهم «فرسان المسيح» و«رجال المسيح» أولئك الذين يكونون «جيش المسيح» و«الشعب المقدس» و«شعب الرب» وهي كلها تعبيرات تشير بأن فكرة الحرب الصليبية كانت قد رسخت في الأذهان بحيث كان الناس على اقتناع كامل بأنهم حين يشاركون في هذه الحملة لا يفعلون ذلك استجابة لأوامر أي مخلوق، ولا حتى البابا نفسه، وإنما هم يطيعون الرب^(١).

- الاجتماع الاستشاري للبابا بعد خطابه: كان البابا أوربان الثاني يجتمع مع رجال الدين النصراني ويستشيرهم في حشد الطاقات الرسمية والشعبية لغزو المسلمين، فقد اجتمع مع أساقفته وبعد هذا الاجتماع الاستشاري خرجوا بالقرارات الآتية:

١- كل من ارتكب جرماً يعاقب عليه، يصبح في حل من العقوبة إذا اشترك

(١) الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية، د. قاسم عبد الله، ص ٢٤، ٢٥.

في هذه الحرب المقدسة.

٢- كل مال من عقار أو متاع يتركه المحارب الذاهب إلى الأرض المقدسة يكون تحت حماية الكنيسة أثناء غيابه.. وترده كاملاً حين يعود المحارب إلى وطنه.

٣- ينبغي لكل مشترك في الحملة أن يحمل علامة الصليب.

٤- على كل من اتخذ الصليب أن يفى بالوعد بالمسير إلى بيت المقدس، فإذا رجع عن عزمه طرد من الكنيسة.

٥- كل بلد يخلص من أيدي الكفار «المسلمين» يجب أن يرد للكنيسة.

٦- ينبغي أن يكون كل فرد جاهزاً لمغادرة وطنه في عيد العذراء.

٧- ينبغي أن تلتقي الجيوش في القسطنطينية. ولقد قام البابا هذا فأرسل أساقفته بهذه القرارات لتبليغها للملوك العالم المسيحي وأمرائه في الغرب^(١).

- **حملة الدعاية الصليبية:** افتتح خطاب البابا أوربان الثاني مرحلة على جانب كبير من الأهمية في صورة الدعاية الصليبية وهي دعاية قامت على أساس الانتقال الشخصي للعديد من المواقع، ومخاطبة قطاعات مختلفة من البشر، وقد كان لها دورها الفعال من أجل إنجاح ذلك المشروع، ومن الممكن ملاحظة أن الحملة الصليبية الأولى - على نحو خاص - تم الإعداد الدعائي لها بمتهى البراعة والاتقان منذ الخطاب المذكور وفي هذا الصدد تم حشد جيش من الدعاة من أجل مخاطبة كل قطاعات المجتمع الأوروبي كل على قدر تصوره، وقد قام البابا أوربان الثاني بعد عقد مجمع كليرمونت بالانتقال إلى مدن تور، وبوردو، ونميرز ومكث تسعة أشهر داعياً لمشروعه الجديد^(٢)، كذلك فإنه قام بإرسال العديد من الخطابات، من أجل الدعوة لمشروعه الصليبي، ومن ذلك الرسائل التي أرسلها لجميع المؤمنين بالمسيحية في القلاندروز، وكذلك إلى بولونا وقالوا مبروز وكذلك إلى كونتات سردانيا وروسيللون، وبيسالون وامبورياس، ويلاحظ أن الخطابات المذكورة لا يمكن فصلها عن دور البابا في مجمع كليرمنت فهي تكملة ومواصلة حقيقية لدوره الدعائي للحروب الصليبية^(٣).

- **العقلية التنظيمية لأوربان الثاني:** ويلاحظ أن الخطابات التي أرسلها البابا من أجل مشروعه الصليبي، تقدم لنا عدداً من التفاصيل التي لم ترد في خطاب كليرمونت ومن بينها تقريره بدور المندوب البابوي أدهيمار أسقف لي بوى، ويذكر ضرورة طاعة أوامره

(١) دروس وتأملات في الحروب الصليبية، ص ١٨.

(٢) الحروب الصليبية.. العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٦٩. (٣) المصدر نفسه، ص ٧٠.

كأنها صادرة من البابا شخصياً، كذلك قرر أنه لا يسمح للرهبان أو القساوسة بالاتجاه إلى الشرق إلا بعد الحصول على إذن من أساقفتهم، وكذلك مقدمو الأديرة تجنباً للتمرد والفوضى، وينبغي أن ندرك أن تلك المصادر الوثائقية التي بأيدينا تكشف لنا عن العقلية التنظيمية الدقيقة لأوربان الثاني، ولذلك نراه امتلك رؤية شاملة للمشروع الصليبي - في تلك المرحلة المبكرة على الأقل - وقد حرص الحرص أجمعه على نصيحة من سيساركون في الرحلة إلى الشرق بضرورة الطاعة العمياء لأوامره، وكذلك أوامر رؤسائهم المباشرين، كما نستشعر أن البابا ألح على فكرة وحدة العالم المسيحي، وكأن ما حدث في الشرق للمسيحيين - في زعم الدعاية الأوربية المغرضة - هو أمر يدخل في صلب اهتمامات قاطن الغرب الأوربي، وأن مساعدة الفرنجة وغيرهم للمسيحيين الشرقيين هو جزء رئيسي من واجباتهم كمسيحيين^(١)، على أية حال، فإن الثمرة الطبيعية للدور التنظيمي والتخطيطي والدعائي الذي قام به البابا وكبار رجال الكنيسة الذين معه هي قيام الحرب الصليبية ومما ساعدهم على ذلك اختيار التوقيت المناسب للحرب.

- **بطرس الناسك:** تأثر بطرس الناسك بخطاب البابا أوربان الثاني وكان له تأثير شديد على كل من يستمع إليه، كان يركب حملاً ينتقل به من بلد إلى آخر، وكان يسير حافي القدمين ويرتدي ملابس رثة، ويتحدث المؤرخ روبرت الراهب عنه فيقول: إن بطرس هذا هو رائد الحرب الصليبية، وإنه كان يفوق في ورعه القسيسين والأساقفة، وكان تمتنعاً عن تناول الخبز واللحم بل جعل غذاءه السمك، وكان لا يسمح لنفسه إلا بقليل من النبيذ وبعض الطعام الغليظ^(٢). وعلى الرغم من مظهر بطرس الناسك وحالته الرثة إلا أنه كانت له قوة غريبة تثير حماس الرجال والنساء وتجذب الجماهير إليه، فاستطاع أن يجذب وراءه حوالي خمسة عشر ألف شخص من الفقراء الذين كانوا يتبعونه من بلد إلى آخر بحماس شديد على الرغم من أن غالبيتهم كانوا لا يدرون شيئاً عن استعمال السلاح أو الفروسية، بل لم يشتركوا في أي حرب من قبل إلا أن تأثرهم بكلمات بطرس الناسك الحماسية ومظهره جعلهم يندفعون في حماس جارف وراءه دون التفكير في أي احتمالات أخرى، فلقد كانت خطبه نارية مزوجة بالبكاء والويل وصب اللعنات على الكافرين، وبوعد الرب للذين يزحفون لإنقاذ قبر المسيح بالمغفرة، وتؤثر فصاحته التمثيلية الخيالية في قلوب الجموع^(٣). ومما نحب الإشارة إليه أن الوعاظ الذين قاموا بدور مماثل لبطرس الناسك في

(١) الحروب الصليبية.. العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٧٠.

(٢) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية، ص ٢٣٩.

(٣) حضارة العرب نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء، ص ٢٣٩.

التبشير بالحروب الصليبية والدعاية لها إنما كانوا يعدون بالمئات والآلاف^(١)، وقد تأثر الناس بهؤلاء الوعاظ. ويصف المؤرخ بودري بوصفه معاصراً لأحداث هذه الفترة الزمنية أن بعض العامة من المسيحيين كانوا يرسمون على صدورهم علامة الصليب بواسطة الحديد المحمي على النار ليتباهوا بإظهار حماسهم وليوهموا الآخرين بأن هذه العلامات إنما جاءتهم عن طريق معجزة^(٢). وهكذا انطلق الجميع يتجهزون للذهاب للأراضي المقدسة بالشام بعد تلك الكلمات التي سمعوها، وكان معظمهم يبيعون ما يملكون ليجهزوا أنفسهم للرحيل طمعاً في محو ذنوبهم ورضاء الله عنهم، وكان الآباء سعداء برؤية أولادهم يرحلون، كما كانت الزوجات في غاية الفرح لدى رؤيتهن لأزواجهن وهم يتأهبون للرحيل، فحماس الجميع كان منقطع النظر، واقتناعهم بهذا العمل كان شديداً^(٣)، وعلى قدر الفرحة الكبيرة التي شعر بها أولئك الذين غادروا بلادهم للالتحاق بالحملة الصليبية الأولى كان الأسى والحزن يخيم على أولئك الذين لم يخرجوا في تلك الحملة^(٤).

- غفلة المسلمين عما يدبر لهم: كانت الدولة الإسلامية في العهد الأموي مثلاً لها جهاز استخبارات اخترق البلاط البيزنطي، وقد بينت ذلك في كتابي عن الدولة الأموية، وأما بالنسبة لعهد الدولة العباسية فإننا لم نثر في المصادر الإسلامية على أية خطبة حماسية لأي من الخليفين العباسي أو الفاطمي كرد فعل على خطبة البابا أوربان الثاني أو على الأقل نشعر من أن المسلمين علموا بما جرى في مؤتمر كليرمونت. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى انشغال كل من الدولتين العباسية والفاطمية بالتنازع فيما بينهما ومحاولة كل منهما التغلب على الأخرى لتكون لها السيادة، فظلوا في سبات عميق حتى وصلت الحملة الصليبية الأولى بالفعل إلى بلاد الشام^(٥)، ولعل ما يؤكد هذا ما جاء في كتابات ابن القلانسي من أن أخبار الصليبيين لم تصل للمسلمين في بلاد الشام إلا في سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م، فيقول في ذلك: وتواصلت الأخبار بهذه النوبة المستبشرة في حق الإسلام فعظم القلق وزاد الخوف والفرق^(٦)، ومع ذلك فإن رد الفعل الإسلامي الوحيد الذي ظهر قبيل وصول الحملة الصليبية الأولى في بلاد الشام، كان من جهة السلاجقة في آسيا الصغرى عندما استطاعوا القضاء بكل سهولة على القسم الأول من القوات الصليبية المعروفة باسم «حملة العامة» فضلاً عما قاموا به من عمليات دفاعية عن ممتلكاتهم في آسيا الصغرى^(٧)، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

(١) دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٢١.

(٢، ٣، ٤) دور الفقهاء والعلماء، ص ٢٤٠. (٥)، (٦) المصدر نفسه، ص ٢٤١.

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٤١.

المبحث الثالث

بدء الحرب الصليبية الأولى

بعد خطبة البابا أوربان الثاني في كليرمونت بفرنسا التي دعا فيها إلى الحرب الصليبية، طلب من رجال الكنيسة أن يعودوا إلى بلادهم، كيما ييشروا بالحرب، واجتهد رجال الكنيسة في ذلك وكانت الثمرة الطبيعية للدور الدعائي الكبير الذي قام به البابا ومن وثق فيهم، قيام الحرب الصليبية الأولى والتي انقسمت إلى قسمين، حملة العامة، والثانية حملة الأمراء، واحتلت الحملة الصليبية الأولى بشقيها اهتماماً كبيراً لا نظير له من جانب المؤرخين المعاصرين سواء اللاتين أو البيزنطيون أو المسلمون وكذلك من جانب المؤرخين المحدثين الذين تخصصوا في دراسة الحروب الصليبية، ولعل مرجع ذلك يكمن في النتائج الخطيرة التي نتجت عن تلك الحملة على نحو خاص، حيث أدت إلى تأسيس إمارات صليبية في الشرق طال عمر بعضها إلى قرنين من الزمان^(١).

أولاً: حملة العامة الغوغاء:

على إثر دعوة البابا، قامت حركة شعبية ضخمة ارتبطت باسم «بطرس الناسك» الذي بدأ يتجول غرب أوربا، بشيابه الرثة وقدميه العاريتين وحماره الأعرج، يدعو العامة والدهماء، وقد استجابوا له في سرعة غريبة، استجاب له الفلاحون والمعدمون بسبب الظروف القاسية التي كانوا يعيشون فيها، فلا داعي للخوف لديهم من الموت، وهم في حال أقرب إلى الموت البطئ فعلاً، ومن ثم ظهر زعيم آخر من زعماء العامة هو «والتر المفلس» وسرعان ما قاد أتباعه عبر «هنغاريا» ثم أراضي الدولة البيزنطية. وفي الطريق إلى بلاد المشرق الإسلامي، اخترقت تلك الجموع الصليبية بلاداً نصرانية فأخذوا ينهبون ويسلبون ويعتدون على الأهالي الآمنين. ورغم كل ذلك فقد رحب الحكام البيزنطيون في أول الأمر في البلقان بتلك الجموع الهائلة، رغم مظهرها الرث، وتنظيمها السيئ وجهل أفرادها بأبسط مبادئ القتال، وشق حملة الصليب طريقهم إلى صوفيا وأدنة حتى بلغوا القسطنطينية في يولييه سنة ١٠٩٦م وهناك سمح لهم إمبراطور بيزنطة بالانتظار خارج أسوار العاصمة حتى وصول بطرس الناسك، أما بطرس الناسك فقد غادر كولونيا في أبريل عام ١٠٩٦م على رأس جمع غفير مخترباً ألمانيا وهنغاريا، وقد أحدثوا مذبحاً بين أهالي هنغاريا في بلدة «سملين» أسفرت عن

(١) دور الفقهاء والعلماء، ص ٢٤١.

مقتل أربعة آلاف من أهلها الأبرياء وذلك بسبب الحصول على الميرة اللازمة لهم.. واستمر الغوغاء من أتباع بطرس الناسك، في طريقهم إلى البوسفور ينهبون ويسلبون كل ما يصل إلى أيديهم، حتى وصلوا إلى أسوار القسطنطينية، حيث وجدوا والتر المفلس وجوعه في الانتظار، وهكذا أحس الإمبراطور البيزنطي وشعبه بخيبة أمل واضحة بوصول آلاف الدهماء هؤلاء إلى بلاده، ليحصلوا على الغذاء والكساء، إن لم يكن بالطرق السلمية، فليكن عن طريق السلب والاعتداء على الرعايا الآمنين، ولذلك بدأ الإمبراطور بنقل تلك الجموع إلى الشاطئ الآسيوي للبوسفور، وأشار عليهم بالانتظار قرب البوسفور حتى تصل الجيوش النظامية من الغرب^(١)، ونظراً إلى ما اتصفت به الحملة منذ البداية من عدم وجود قيادة موحدة، يُفسر ما حدث عقب الانتقال مباشرة إلى آسيا الصغرى، إذ أن جموع الألمان والايطاليين والفرنسيين راحت تتسابق وتتنافس في شن الغارات على المناطق الزراعية، فسلبوا سكان القرى دون تفرقة بين المسلمين والنصارى، واقتربوا من مدينة نيقية عاصمة قلعج أرسلان، كما أنهم لم يستجيبوا لنصيحة الأمبراطور البيزنطي بوجوب البقاء في قلعة كيفتوت حيث المعسكر الصليبي وعدم القيام بأي تحرك قبل وصول الحملة النظامية^(٢)، وقد ابتدأت الاصطدامات الأولى بين الجموع الصليبية والسلاجقة عندما قرر الصليبيون الزحف باتجاه نيقية، وتجاوز رينالد النورماني هذه المدينة ووصل إلى قلعة أكسيريون واستولى عليها، واتخذ منها قاعدة انطلاق للإغارة على الأراضي الزراعية المجاورة للقرى القريبة^(٣). وقد أثارت هذه التعدادات حفيظة قلعج أرسلان، فأرسل القائد إيلخانوس على رأس جيش كبير لاسترداد القلعة، فضرب الحصار عليها، فاستبد اليأس بالمحاصرين^(٤)، وقرر رينالد أن يستسلم ففتح أبواب القلعة للجيش السلجوقي بعد أن حصل على وعد من قائده بالإبقاء على حياته إذا اعتنق الإسلام، وسبق رينالد وأتباعه ممن اعتنقوا الإسلام إلى أنطاكية وحلب وخراسان، وقتل من بقي على نصرانيته^(٥). بلغت أنباء استيلاء النورمان على القلعة مسامع الصليبيين في كيفتوت، ولجأ السلاجقة إلى خطة ذكية كي يستدرجهم إلى كمين سبق إعداده، فأشاعوا نبأ استيلاء القوات النورمانية على نيقية، وأنهم بصدد اقتسام الغنائم^(٦)، فاشتد الاضطراب في المعسكر، وطلب الجنود السماح لهم بالزحف إلى نيقية ليشاركوا النورمان حصصهم من الغنيمة، وهكذا راحت جموع الصليبيين تتوغل عبر آسيا الصغرى في

(١) الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري، ص ٩٠.

(٢) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص ٨٠. (٣) المصدر نفسه، ص ٨١.

(٤) المصدر نفسه، ص ٨١. (٥) المصدر نفسه، ص ٨١.

(٦) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا، ص ٨١.

الطريق إلى نيقية وهم على غير تعبئة ودون تقدير لمقدرتهم القتالية، إلى أن جرى اكتشاف صدق ما حاق برينالد، فتحوّلت الإثارة إلى ذعر^(١)، وما إن اقتربت هذه الجموع البالغ عددها نحو عشرين ألفاً، من رافد نهر داركون، حتى تلقّتهم القوات السلجوقية وأبادتهم ولم ينج منهم سوى ثلاثة آلاف^(٢)، وعندما سمع الإمبراطور البيزنطي نبأ الكارثة بادىء إلى إرسال بعض السفن نقلت الناجين إلى القسطنطينية^(٣).

وبهذا تأكد الإخفاق الكامل لحملة العامة التي هي بمثابة التجربة الأولى للصليبيين في قتال السلاجقة ولا مرأى في أن النتائج التي تمخضت عن حملة العامة كانت على درجة كبيرة من الأهمية في تاريخ الحروب الصليبية منها:

أ- تأكد للغرب الأوروبي أن الاندفاع العاطفي والنوعيات غير المدربة عسكرياً لا تجدي مع الفروسية السلجوقية.

ب- لا بد من بديل عسكري فروي منظم من أجل تحقيق أية مكاسب عسكرية مستقبلية.

ج- أدى الفتك بالآلاف من الصليبيين إلى اعتقاد عناصر عديدة في الغرب الأوروبي بمسئولية الإمبراطورية البيزنطية عن تلك الكارثة على الرغم من أن الإمبراطور الكسيوس كوميني أوصى جحافل العامة بضرورة التريث دون جدوى.

د- نلاحظ أن الإمبراطورية البيزنطية ستكون بمثابة الجهة التي سيحملها الغرب الأوروبي كل فشل يحل بأية حملة صليبية تصل إلى المنطقة والعجز عن تحقيق أهدافها لأسباب عديدة وفق الظروف التاريخية المختلفة والتي قد لا يكون لبيزنطة مسئولية عنها بالضرورة.

هـ- ومن الملاحظ أن فشل حملة العامة كانت رصيذاً إضافياً لميراث الكراهية والحقد الذي نشأ بين الغرب الأوروبي وبيزنطة، وسيتصاعد الأمر عند حدوث كارثة ١٢٠٤م/٦٠٢هـ والتي ستسقط من خلالها العاصمة البيزنطية تحت أقدام الصليبيين.

و- زد على ذلك، أن من نتائج حملة العامة أن ظهر الإصرار من جانب الغرب الأوروبي على قيام حملة جديدة هي حملة الأمراء التي ستمكن من تحقيق نجاحات كبيرة في الشرق ستقلب موازين القوى العسكرية وبالتالي السياسية لصالح الصليبيين إلى حد كبير^(٤).

(١)، (٢)، (٣) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا، ص ٨١.

(٤) الحروب الصليبية.. العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٧٢.

ثانياً: حملة الأمراء:

كانت هذه الحملة أكثر تنظيماً من حملة العامة؛ إذ بدت فيها الروح الإقطاعية واضحة، وتولى زعامتها عدد من الأمراء، لكل منهم اتجاهاته وجنده وسياسته الخاصة، مما جعل تلك الحملة في حقيقتها عبارة عن عدة حملات، ربما عملت أحياناً في اتجاهات متعارضة^(١)، ويمكن تقسيم حملة الأمراء إلى أربع مجموعات، اعتمد تنظيمها على التقسيمات الجغرافية، وكذلك الوضع الجنسي، واللغوي للعناصر المشاركة فيها، أما المجموعة الأولى فكان على رأسها جود فرد البويوني وأخوه بلديون وقد قادا جيش القلاندرز، واللورين، وشمال غرب فرنسا، وبالنسبة للمجموعة الثانية: كان على رأسها بوهيمند النورماني وهو ابن روبرت جويسكارد الزعيم النورماني البارز وقد قام بقيادة النورمان الإيطاليين، وكذلك ابن اخته تانكرد، ثم نجد المجموعة الثالثة على رأسها ريموند كونت تولوز ومعه المندوب البابوي أدهيمار، وقد قادا جيوش جنوب فرنسا والبروفنس، أما المجموعة الرابعة المذكورة فحكمت الثقل العسكري للصليبية الأمراء، وفي نفس الحين حملت عناصر القوة والضعف في آن واحد، نظراً للتنافس والتناحر الذي توافر لدى القيادات العسكرية وهو الأمر الذي سينعكس بدوره على أحداث تلك الحملة الصليبية.

١- موقف اليهود من الحروب الصليبية: ومن الزوايا المهمة التي ينبغي التعرض لها: أمر اليهود في الغرب الأوروبي عشية قيام الحروب الصليبية، حيث نلاحظ أنهم مثلوا قوة اقتصادية ذات شأن كبير، واستقروا في المدن الكبرى لاسيما تلك الواقعة على خطوط التجارة العالمية ومن أمثلتها حوض الراين بألمانيا، ونجد أن التجار اليهود قد حرصوا على إقراض من اتجه للاشتراك في الحملة الصليبية الأولى بفوائد باهظة من خلال انتشار ظاهرة الربا حينذاك، ولا نغفل أن اليهود منذ بداية المشروع الصليبي توجسوا منه خيفة على مصالحهم التجارية مع تجارة الشرق، ويذكر البعض أن اليهود الألمان في مناطق مثل مينز، وكولونيا جمعوا الأموال، وحاولوا تقديمها لجودفري البويوني من أجل إثناؤه عن عزمه عن المشاركة في أحداث تلك الحملة خوفاً من تهديد مصالح اليهود التجارية في الشرق^(٢). زد على ذلك أن اليهود في الغرب الأوروبي نظرت إليهم الدوائر الكنسية - صاحبة النفوذ الكبير في تشكيل عقلية ذلك العصر - نظرة عدا وارتياب دائمين من خلال مواقفهم العدائية من المسيحية في تاريخها الباكر، ثم أن اليهود عاشوا في المدن التي أقاموا فيها في أحياء خاصة بهم

(١) الحروب الصليبية الأولى، د. حسن حبشي، ص ٦٥.

(٢) العلاقات بين الشرق والغرب، أحمد رمضان، ص ١٠٧.

أو ما عرف بالجيئو اليهودي، ومثلوا كيانات منعزلة ومتفوقة ترفض الاندماج في المجتمعات الأوروبية المحلية الأكبر على نحو أدى إلى توافر نظرة عدائية عميقة تجاههم تزايدت مع تعاقب السنين، مع ملاحظة أن اليهود أنفسهم لم يعملوا من جانبهم على تغيير تلك النظرة العدائية لدى خصومهم، والواقع أننا لا نورد كل تلك الاعتبارات كتبرير للمذابح التي اقترفها الصليبيون ضد اليهود في حوض الراين كما حدث في مدن سياير وكولونيا ويراين وغيرها^(١). وكان الصليبيون يخبرون اليهود بين الارتداد عن دينهم واعتناق المسيحية أو الموت، وقد ظهر عدد من القادة الذين قادوا هذه المذابح ضد اليهود من أمثال فولكمار، وجوتشوك وامبخو، وقد سقط المئات قتلى، على نحو عكس روح التعصب العارمة التي سادت صفوف الصليبيين وعدم قدرة المسيحية على أيدي أبنائها المتعصبين على التجاور مع أهل الأديان الأخرى سواءً على أرض القارة الأوروبية ذاتها أو في بلاد الشام ومصر عندما تصل إليها أقدام الصليبيين، ولا نغفل أن مثل تلك الحوادث دعمت لدى العقل الجمعي اليهودي فكرة الاضطهاد، بل ومعاداة السامية، واستغلوا - فيما بعد - مثل تلك الأحداث من أجل استمرار المكاسب السياسية تكفيراً عن الذنوب التي اقترفت في الماضي^(٢).

٢- موقف الإمبراطور البيزنطي من حملة الأمراء: تقدمت الجماعات الأربع المذكورة نحو الشرق، وكانت أولى الجماعات التي وصلت إلى الأراضي البيزنطية تلك التي كانت بقيادة جودفري البويوني وشقيقه بلدوين، ويلاحظ أن الإمبراطور البيزنطي الكيسوس كومنين أرسل رسله إلى جودفري البويوني للاتفاق على ألا تتعرض بلاده للسلب والنهب مثلما كان الأمر مع حملة العامة، وفي المقابل قدم للصليبيين المؤن والإمدادات إلى أن يصلوا إلى مناطق السلاجقة، غير أن قوات جودفري لم تلتزم بذلك واستباححت أحد المواقع البيزنطية في صورة مدينة سليمان، وقد طلب الإمبراطور البيزنطي من جودفري أن يقسم له يمين الولاء والطاعة واستخدام سلاح قطع المؤن والإمدادات عن قواته إلى أن أرغمه على أن يقسم له ذلك القسم وذلك في أبريل من عام ١٠٩٧م/ ٤٩١هـ وتعهد بأن يرد للإمبراطورية البيزنطية ما فقد منها من مناطق، وتم نقل قوات جودفري بويون بالسفن البيزنطية إلى آسيا الصغرى. وأما فيما يتعلق بالمجموعة التي بقيادة بوهيمند بن روبرت جويسكارد، فقد كانت الإمبراطورية البيزنطية على جانب كبير من الخوف منها، خاصة أن النورمان مثلوا لها أقوى أعدائها وأخطرهم، ولا نغفل أن أطماع النورمان في أملاك الإمبراطورية في جنوب إيطاليا

(١) الحروب الصليبية.. العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٧٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٤.

وسقوط بارى آخر أملاك بيزنطة هناك عام ١٠٧١م/ ٤٦٤هـ .. كل ذلك لم يغب عن أذهان المسؤولين البيزنطيين البتة وهم يتعاملون مع المجموعة المذكورة، وبصفة عامة وافق بوهيمند على أن يقسم قسم الولاء للإمبراطور الكسيوس مع ملاحظة أن البعض الآخر مثل تنكرد ابن أخت بوهيمند لم يقسموا ذلك القسم وبالنسبة للمجموعة التي على رأسها ريموند الرابع كونت تولوز: فنعرف أن تلك القيادة الصليبية لم تقسم بمين الولاء للإمبراطور، غير أنها وافقت على القسم باحترام حياته وعدم الإساءة إليه، وفيما يتعلق بالمجموعة التي على قيادتها روبرت النورمندي، فقد وافق الأخير على القسم للإمبراطور، وعبرت تلك المجموعة مضيق البسفور إلى آسيا الصغرى، شأنها في ذلك شأن المجموعات الأخرى وعلى أية حال فإن المكسب الأكبر - الظاهري - الذي حققه الكسيوس من تعامله مع تلك المجموعات الصليبية: أنه عقد معهم اتفاقية القسطنطينية عام ١٠٩٧م/ ٤٩١هـ^(١)، والتي تعهد فيها الطرف الصليبي بأن يعيد لبيزنطة كل المواقع التي كانت لها من قبل اجتياح السلاجقة لأراضيها، ومن المنطقي تصور أن أنطاكية حاضرة نهر العاصي الكبرى دخلت ضمن ذلك الاتفاق في مقابل تقديم بيزنطة للمؤن والإمدادات للصليبيين. ويلاحظ أن الصليبيين لم يلتزموا بتلك الاتفاقية التي تصورت الإمبراطورية البيزنطية أنه من الممكن إلزامهم بها دون جدوى^(٢).

٣- سقوط نيقية: اندفعت الجيوش الصليبية بعد العبور، باتجاه نيقية للاستيلاء عليها نظراً لموقعها الجغرافي، إذ لو بقيت بأيدي السلاجقة لشكل ذلك خطراً على خطوط مواصلاتهم مع بلاد الشام، وتوحدت أهدافهم وأهداف بيزنطية في هذه القضية^(٣) وعندما وصلت القوات الصليبية عاصمة دولة سلاجقة الروم، كان قلعج أرسلان السلجوقي متغياً عنها، وفرض الصليبيون الحصار عليها، وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بالسلاجقة، وهو الانتصار الأول لهم، وقد اتجهت الحامية السلجوقية للمدينة، إلى الاستسلام، واتصلت بصورة سرية بالبيزنطيين وتم الاتفاق على الاستسلام في مقابل ألا يتعرض أحد للسلب والنهب، وبالفعل فوجئ الجميع بارتفاع الأعلام البيزنطية ترتفع فوق أسوار نيقية وذلك في يونيو ١٠٩٧/ ٤٩١هـ^(٤)، وبذلك سقطت نيقية في أيدي البيزنطيين بعد ستة عشر عاماً من فتح السلاجقة لها، وأضحى بوسع الإمبراطورية التنفس بحرية بعد إجلاء السلاجقة

(١، ٢، ٣، ٤) الحروب الصليبية.. العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٧٦.

عن هذا المعقل الأمامي الحصين^(١).

توجه قلج أرسلان بعد سقوط عاصمته، نحو قونية، واتخذها عاصمة جديدة لسلطته، وقاعدة عسكرية للانطلاق منها والدفاع عن أراضيها، ثم أجرى مفاوضات مع الأمير الدانشمندي من أجل تجميد خلافتهما، والتعاون لمواجهة الغزو الصليبي الذي يهددهما معاً. لقد زاد سقوط نيقية من خوفه على المستقبل، كما أن ضياع أمواله وكنوزه كان أمراً سيئاً^(٢)، وأسفرت المفاوضات بين البيتين التركيين، السلجوقي والدانشمندي، عن عقد هدنة بينهما، كما اتحدا للتصدي للزحف الصليبي الذي وصل إلى كبادوكية، وتناشيا -مؤقتاً- تنافسهما بشأن ملطية، وهكذا اتحد جميع الأتراك في آسيا الصغرى للتصدي للصليبيين في سهول دور يليوم^(٣)، وبما يحسب للإمبراطور البيزنطي تنفيذه للاتفاق المبرم بين الإمبراطور وأهل نيقية، فقد خرج الأتراك من المدينة مع عائلاتهم وأمتعتهم تحت حراسة مشددة إلى القسطنطينية أو إلى المعسكر البيزنطي في بيلكانوم ومن بينهم أخت السلطان وزوجته وأولاده، ولم يلبث الإمبراطور أن أعادهم إلى الزعيم السلجوقي دون فدية^(٤).

٤- معركة دور يليوم: استأنف الصليبيون سيرهم بعد استراحة أسبوع على سقوط نيقية، عبر فريجيا متخذين الطريق الروماني الذي يمر في دور يليوم وفيلوميليوم وقونية وصولاً إلى طرسوس وصحبتهم سرية من القوات البيزنطية بقيادة تانيكيوس المشهور بخبرته وتجربته^(٥)، ثم توقفوا في قرية لويكي حيث عقدوا مجلساً عسكرياً حذّروا خلاله خطة الزحف، وتقرر تقسيم الجيش إلى قسمين لتسهيل عملية التموين أثناء الزحف، والقضاء على المقاومة السلجوقية في أكبر مساحة ممكنة^(٦)، وتقدم الجيش الصليبي بقسميه إلى منطقة السهول التي يسقيها أحد روافد نهر سنغاريوس حيث الأتراك يتربصون بهم، ويُعد هذا المكان مناسباً لممارسة فرسانهم تكتيكهم العسكري، فانطلقوا عبر السهل بخيولهم الخفيفة وراحوا يلتفون حول القسم الأول المتقدم دون أن يصطدموا به، وحرص الصليبيون من جانبهم على ألا يفرقهم الأتراك أو يفاجئوهم بخوض معركة لم يستعدوا لها، لذلك عسكروا في ٢٧ رجب / ٣٠ حزيران قرب خرائب مدينة دور يليوم^(٧)، وظهر الأتراك في صبيحة اليوم التالي وباشروا فوراً تطويق الصليبيين والضغط عليهم. وجرى اشتباك بين الطرفين

(١، ٢، ٣) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص ٨٦.

(٤) تاريخ سلاجقة الروم، ص ٨٥.

(٥) تاريخ سلاجقة الروم، ص ٨٦.

(٦، ٧) المصدر نفسه، ص ٨٧.

أسفر عن انتصار الصليبيين، ورجحت كفة الأتراك في بداية المعركة التي استمرت عدة ساعات قبل أن يصل القسم الثاني ويشارك في القتال، وانسحب قلعج أرسلان إلى داخل هضبة الأناضول، وبلغت الخسائر في الأرواح أقل مما توقع أي من الطرفين، وعانى الأتراك في آخر عشر دقائق من المعركة عندما حاصر الصليبيون جناحهم الأيسر، وأصيب بوهيموند بجراح، واستولى الصليبيون على المدينة^(١).

٥ - نتائج معركة دوريليوم: كان لمعركة دوريليوم تأثير بالغ السوء على أوضاع السلاجقة. إذ بهزيمتهم خسروا بعض ما كسبوه خلال أكثر من عشرين عاماً، إلا أنهم كسبوا احترام الصليبيين وإعجابهم بما تحلوا به من شجاعة، وبما اتبعوه من أساليب علمية في فنون الحرب. وأدرك قلعج أرسلان أن لا جدوى من المحاولة لوقف الزحف الصليبي فلجأ مع أتباعه إلى التلال بعد أن خربوا القرى لحرمان الصليبيين من الاستفادة من خيراتها، ولم يعد قلعج أرسلان يجرؤ بعد ذلك على مواجهة الصليبيين منفرداً وجهاً لوجه.

* ظهور قوة جديدة على مسرح الأحداث في الشرق الأدنى هي قوة الصليبيين الغربيين الذين أثبتوا تفوقهم العسكري على القوة التي طالما عجزت أمامها الجيوش البيزنطية، ألا وهي قوة السلاجقة في بلاد الروم.

* شكّل سقوط نيقية وخسارة دوريليوم طعنة قاتلة لهيبة تلك الأسرة السلجوقية ومكانتها في الأناضول، وكانت نقطة تحول في الشئون السلجوقية بسبب أن الخسارة التي تكبدوها في الأرواح أو في الممتلكات، كانت فادحة.

* فتحت هذه المعركة الطريق للصليبيين إلى بلاد الشام، وكفلت لهم سلامة المرور عبر آسيا الصغرى.

* نجحت بيزنطة في استرداد الجزء الغربي من الأناضول التي خسرتها بعد سقوط نيقية بأيدي السلاجقة في عام (٤٧٤هـ / ١٠٨١م).

* أدّت عملية الاسترداد إلى تغيير مهم في خريطة الأراضي، إذ بينما كانت الحدود السلجوقية البيزنطية تمر في عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م في مدينتي نيقية ونيقوميديّة على مسافة قصيرة من بحر مرمرة ومضيق البوسفور، نرى أن هذه الحدود قد تغيّرت بعد أن تم طرد الأتراك من بيشنيا وأيونيا وفريجيا، ومن ثم عادت هذه المقاطعات بيزنطية، وبذلك تكون الإمبراطورية قد ثارت لنفسها مما حلّ بها على أيدي السلاجقة منذ معركة ملاذكرد.

(١) تاريخ سلاجقة الروم، ص ٨٧.

* حرمت الخسارة السلاجقة من امتلاك هرقله وقيصرية بالإضافة إلى أن مملكة بلدوين التي أسسها الصليبيون في الرها، ومملكة غودفري في فلسطين، وضعتا حداً لتوسعهم شرقاً، كما أن وجود قوة نورمانية على شاطئ البحر المتوسط، حرمهم من الاستفادة من الشواطئ الجنوبية الغربية، وإذا كان عليهم أن يستمروا فإنهم لا بد أن يعيدوا سيطرتهم على الأناضول ويصبحوا أسياده مجدداً^(١).

* بالإضافة إلى تراجع قوة السلاجقة، فقد ساءت علاقتهم بسلاجقة الشرق، لأن قلع أرسلان لم يعترف لهم بالسيادة إلا أنه كان أمامه بصيص أمل، فعرف كيف يستغل استمرار تدفق المهاجرين من الأتراك إلى آسيا الصغرى، بأعداد متزايدة، فجندهم في صفوف جيشه، وخلق منهم جيلاً محارباً قوياً ومدرباً ومنظماً^(٢). ولا مرأى في أن معركة دوريليوم احتلت مكاناً بارزاً في تاريخ الحملة الصليبية الأولى فهي أول صدام عسكري كبير بين الصليبيين والسلاجقة، وتحقق الانتصار للأوليين على نحو كان فاتحة توسعات صليبية غير مسبقة، وقد أفاد الصليبيين في ذلك كثرتهم العددية وحسن تنظيمهم ناهيك عن استبسالهم في القتال^(٣).

٦- سقوط قونية وهرقله: على أية حال: اتجه الصليبيون بعد دوريليوم إلى قونية في أغسطس عام ١٠٩٧ م / ٤٩١ هـ وساروا من بعدها إلى هرقله وتمكنوا من السيطرة عليها هي الأخرى بعد إلحاق الهزيمة بالأتراك السلاجقة، وعندما بلغت القوات الصليبية أرمينية الصغرى رحب بهم الأرمن وقدموا لهم كل مساعدة، ومن بعد ذلك صار هدف الغزاة يتجه نحو مدينة أنطاكية^(٤).

٧- إمارة الرها: استمر الزحف الصليبي نحو بلاد الشام، إذ كانت جيوشهم كالجراد المنتشر، وقد بلغوا قرابة مليون مقاتل، فاحتلوا الرها وأنطاكية، وتوجهوا نحو بيت المقدس، ولم يجدوا مقاومة تذكر نظراً للتمزق السياسي والخراب الاقتصادي في تلك المرحلة، كان معظم سكان الجزيرة الفراتية من نصارى الأرمن الخاضعين لحكم السلاجقة، وخاصة في تل باشر، ومرعش والراوندان^(٥)، فقد رحب الأرمن بالغزاة، واعتبروهم منقذين لهم، وحماة للنصرانية في تلك الجهات^(٦)، وسار الأعوان والمرشدون من رجال الأرمن، حتى سهّلوا مهمة الزحف أمام قادة الغزو الصليبي «بلدوين وتنكرد» وقد تمكن الغزاة من احتلال

(١) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص ٨٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٩.

(٣) الحروب الصليبية بين الشرق والغرب، ص ٧٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٨.

(٥) الجهاد والتجديد، محمد الناصر، ص ٩٤.

(٦) النجوم الزاهرة (١٤٦/٥).

طرسوس والمصيحة، وتل باشر والرواندان وهي قلاع حصينة في شمالي الجزيرة، وذلك بفضل مساعدة أهلها من الأرمن وثورتهم ضد الحاميات التركية، ثم أرسل حاكم مدينة الرها ثوروس الأرمني إلى القائد الصليبي - بلدوين - يدعو للحضور إلى الرها لمساعدته في تسليم المدينة إليه عام ١٠٩٨م لأنه خشى أن يحتلها أمير الموصل من قبل السلاجقة، فأسرع بلدوين على رأس قوة صغيرة استقبلت من قبل أهالي المدينة وحاكمها استقبلاً حافلاً، ومن ثم ثار أهالي الرها ضد حاكمهم، مما أدى إلى قتله، وانتقال مقاليد الأمور إلى بلدوين البولوني، الذي اتهم بأنه كان وراء هذه الثورة ولم يقدّم بواجبه في حمايته^(١)، وقد تمكن بلدوين من السيطرة على الرها في أعالي الفرات، وأسس هناك إمارة صليبية من أجل أن تكون بمثابة دولة حاجزة، بين سلاجقة آسيا الصغرى وسلاجقة العراق وكذلك بلاد فارس، وكي تكون بمثابة محطة إنذار مبكر للصليبيين في مواجهة أية أخطار عسكرية قادمة لهم من الشرق، وفي هذا دليل واضح أن الغزاة الجدد كانوا يدركون أهمية زرع كياناتهم في مواقع جغرافية ذات أهمية استراتيجية خاصة، ويلاحظ هنا أن إمارة الرها - على نحو خاص - ستعرض للعديد من الضربات من جانب المسلمين^(٢)، وقد توسع بلدوين، فاستولى على تل باشر والرواندان وسميساط وسروج^(٣)، بالإضافة إلى كثير من المواقع والمدن في شمالي الجزيرة الفراتية، فامتدت رقعة هذه الإمارة الصليبية فوق مساحة من الأرض تقع شرق نهر الفرات وغربه، وجاورت إمارة الموصل، وهددت مدن ديار بكر، مثل نصيبين وماردين^(٤)، وحران، بل شمالي العراق كله، كما سيطرت على الطريق المؤدية إلى حلب والموصل، وقد كانت هذه الإمارة من أوسع الإمارات الصليبية وأشدّها أذى للمسلمين بسبب أطماع حكامها النورمان واجتهادهم في الحروب والغارات، ولكنها كانت مع ذلك أضعف هذه الإمارات بسبب توسطها بلاد المسلمين، وتعرضها بالضرورة لردود أفعالهم بالإضافة إلى عدم تلقيها دعم الحجاج المسيحيين، ولا إمدادات التجار الإيطاليين^(٥).

٨- إمارة أنطاكية: بعد أن انتصر الصليبيون على السلاجقة في آسيا الصغرى، واستولوا على عاصمتهم نيقية واصلوا تقدمهم ونجحوا في تأسيس أول إمارة لهم بالشرق في الرها، دون أن تقابلهم أية صعوبات تذكر، ثم واصلوا تقدمهم بعد ذلك إلى أنطاكية^(٦). كانت أنطاكية من أقوى مدن ذلك العصر تحصيئاً، وكان لها أهميتها الكبرى لدى النصارى،

(١) الحركة الصليبية (١٤٣/٢ - ١٤٧).

(٢) الحروب الصليبية.. العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٨٦.

(٣) ٤، ٥، تاريخ سلاجقة الروم في آسيا، ص ٩٢.

(٦) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص ٢٤١.

ويكفي أنها كانت ثالث مدن العالم في عصر الإمبراطورية الرومانية، وقد أسس القديس بطرس فيها أول أسقفية للنصارى وقد أحدث وصول الجيش الصليبي إلى مشارف أنطاكية هلعاً كبيراً في نفوس الأهالي بسبب كثرة أعدادهم وطبيعة زحفهم^(١)، وعبر عن ذلك ابن القلانسي بقوله: وصلوا في عالم لا يحصى عدده كثرة، وتتابع الأنباء بذلك، فقلق الناس لسماعها، وانزعجوا لاشتهارها^(٢).

- موقف المندوب البابوي: عندما اقترب الجيش الصليبي من أنطاكية اندفع المندوب أدهيمر بحماس شديد محاولاً حث الصليبيين على ضرورة التمسك بوحدتهم والوقوف صفاً واحداً كي يتحقق لهم النصر والاستيلاء على أنطاكية، فألقى فيهم الكلمات التالية: إخوتي وأبنائي الأعزاء، نحن نقرب من أنطاكية وهي مدينة محصنة بأسوار عالية يعجز الحديد والحجر عن تدميرها.. فلنحترس ولنحرص على الوحدة، ولنوجه جهودنا نحو الهدف المشترك^(٣)، وكان لهذه الكلمات أثر كبير في حماس الجند عندما فرضوا حصارهم حول المدينة في أواخر ذي القعدة عام ٤٩٠هـ أو أواخر أكتوبر ١٠٩٧م ولكن ما أن طال الحصار بسبب مناعة المدينة انتاب الصليبيين اليأس وتدهورت حالتهم المعنوية، وفكر الكثير منهم في العودة إلى بلادهم أو على الأقل الابتعاد عن هذه المنطقة واللجوء إلى مكان آخر يكون أكثر أمناً ويجدون فيه ما يقتاتون به^(٤).

- الحرية المقدسة: انتاب أكثر الصليبيين حالة من اليأس وعندئذ حاول بعض رجال الدين المسيحي انتزاع اليأس والخوف من قلوب الصليبيين المحاصرين لأنطاكية ورفع روحهم المعنوية لمواصلة القتال والمصابرة فيه، وذلك عندما صدقوا الرؤيا التي اختلقها أحد صغار الصليبيين ويدعى بطرس بارثليميو الذي أخبرهم بأنه رأى في رؤياه أحد القديسين يخبره بأن الحرب التي طعن بها المسيح في جنبه، مدفونة في كنيسة القديس بطرس بأنطاكية، وأنهم إذا أخرجوا هذه الحرب وحملوها أمام جيش الصليبيين فسيحصل لهم النصر^(٥)، فكان لتصديق هذه الرؤيا وظهور الحرب المقدسة تأثيره البالغ في ازدياد حماس الصليبيين واندفاعهم لقتال المسلمين، يتقدمهم حامل الحرب المقدسة، فأحدقوا بالمسلمين، وقام الأسقف أدهيمر يخطب في الصليبيين ويحثهم على القتال بكل شجاعة محاولاً نزع الخوف من قلوبهم، قائلاً لهم: أنتم الآن متطهرون

(١) الجهاد والتجديد، محمد حامد الناصر، ص ٩٧.

(٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٤.

(٣) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص ٢٤٢.

(٤، ٥) المصدر نفسه، ص ٢٤٢.

وتائبون لله، فمن أي شيء تخافون؟ إن من يموت منكم سيكون أسعد ممن عاش، لأنه سيغادر هذه الحياة الفانية إلى ملكوت الخلود، أما من سيعيش فسوف ينتصر على أعدائه، وسيغتنى من غنائمهم، فلتتشجعوا فإن القادر المقتدر سيرسل لكم كتائب من السماء لتنتقم من أعدائكم، وسوف ترون هذه الكتائب بأعينكم، فلا تخشوا الأصوات الرهيبة التي سوف تحدثها حولكم، إنها جاءت لنجدتنا بعدما أهدق بنا الخطر، انظروا إلى أعدائكم وهم يتطلعون إليكم في رعب من يسوع المسيح، وليكن القادر على كل شيء معنا^(١)، ويضيف صاحب كتاب أعمال الفرنجة أن الأساقفة والقسس والكهنة والرهبان قد ارتدوا حللهم المقدسة وخرجوا حاملين الصليب بمجدين الرب، ومبتهلين إليه أن ينقذهم من كل شر، بينما اعتلى آخرون الباب رافعين الصليب في أيديهم، ورسموا عليهم علامة الصليب وباركوه، ولما تجهزوا وتدرعوا بالصليب خرجوا للقتال^(٢). ونتيجة لهذا الدور الحماسي الذي قام به رجال الدين المسيحي في تشجيع الصليبيين بأنطاكية ازداد الصليبيون ثقة في أنفسهم^(٣).

- جهود ياغي سيان والي أنطاكية للدفاع عن المدينة: كان والي أنطاكية «ياغي سيان» من التركمان، ويتمتع بدرجة عالية من الكفاية، إلا أن الخلافات والحروب التي كانت بين الأخوين دقاق ورضوان ابني تتش بالشام، وانحياز ياغي سيان إلى هذا مرة وذاك مرة أخرى حرمة من مساعدة أمير حلب، عندما داهمه الغزاة، وقد حاول ياغي سيان آنذاك الحصول على مساعدة جيرانه المسلمين: دقاق ملك دمشق، وجناح الدولة أمير حمص، وكربوقا أتابك الموصل، إلا أن التمزق السياسي، والمطامع الشخصية حالت دون تقديم المساعدات المرجوة، كما أنه طلب النجدة من الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي في فارس ولكن دون جدوى إلا أن ياغي سيان كان قد أعد عدته لحصار فشن القلاع بالجند والمقاتلين، واختزن المؤن الكافية، وقد استمر الحصار مدة تسعة أشهر، حتى كاد شبح المجاعة يهدد الفرنجة، ولم تكفهم المعونة المتقطعة التي كانت تأتيهم من قبرص والغرب، حتى صار بعض الجند يفرون من المعركة^(٤)، وتجمعت قرب «شيزر» نجدة إسلامية لإنقاذ أنطاكية كان على رأسها: دقاق ملك دمشق، وأمير حمص جناح بن ملاعب، ودارت معركة بينهم وبين الفرنجة، وتفوق فيها المسلمون، وقتلوا من الصليبيين جماعة كبيرة عند ضفاف نهر العاصي^(٥). وكان ممن ساهم بالدفاع عن المدينة جماعة من المسلمين يعرفون باسم المطوعة،

(١) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص ٢٤٣.

(٢، ٣) المصدر نفسه، ص ٢٤٣.

(٤) الحركة الصليبية (١٥٠ / ١ - ١٥٣)، الجهاد والتجديد، ص ٩٨.

(٥) الجهاد والتجديد، ص ٩٨.

ظلت تدافع عن أنطاكية رغم قلة عددهم حتى بعد اشتداد هجمات الصليبيين عليها - بعد عثورهم على الحربة المقدسة - وبعد أن تفرق شمل العسكر التركماني عن حاكم المدينة مما أدى في النهاية إلى استشهدهم جميعاً^(١).

- الروح البرجماتية لدى قادة الحركة الصليبية: وينبغي ألا نغفل زاوية مهمة، وهي أن بوهيمند -الذي تآقت نفسه للسيطرة على المدينة هذد- في إحدى المراحل الحرجة من الحصار -بالانسحاب، مالم يوافق الصليبيون على أن يجعلوا المدينة له من بعد سقوطها، وعندما رضوا بذلك قرر بوهيمند البقاء ومواصلة العمليات الحربية ولا شك أن ذلك يثبت لنا أنه أمام أسوار أنطاكية وخلال تلك المرحلة المبكرة من بدايات الغزو الصليبي لبلاد الشام ظهرت الروح البرجماتية لدى قادة الحركة الصليبية على نحو عكس أن من زعم أنه كان من جند المسيح كانوا شرهين للسلطة والنفوذ والمال^(٢).

- سقوط المدينة بيد الصليبيين (٤٩١هـ): رغم حصانة المدينة وكفاءة واليها ودفاع الجند عنها، إلا أن الإمدادات كانت تتوالى على الصليبيين عن طريق ميناء «السويدية» لمحاصرة أنطاكية، وقد طال الحصار وظهر من شجاعة ياغي سيان وجودة رأيه وحزمه واحتياظه مالم يشاهد عند غيره، فقد هلك أكثر الفرنج موتاً وجوعاً، ولما طال مقام الفرنج على أنطاكية، ظهرت الخيانة، إذ راسلوا أحد المشرفين على الأبراج وهو رجل نصراني أرمني تسلم، وبذلوا له مالاً وإقطاعاً، وعند الفجر بعد أن تعب الناس من طول السهر والحراسة، فتح لهم شباك البرج الذي يحرسه، واستيقظ سيان على دخول الفرنجة المدينة فداخله الرعب وفتح باب البلد وخرج هارباً في ثلاثين غلاماً على وجهه وخرج نائبه من باب آخر^(٣)، ثم دخل الصليبيون المدينة وأباحوها أياماً للسلب والنهب والقتل والاعتصاب، وكشرت الصليبية عن أنيابها، وتحول جند المسيح إلى قتلة وسفاكي دماء ومغتصبين^(٤)، فقد تصرف الصليبيون إزاء سكان أنطاكية المغلوبين على أمرهم بهمجية معهودة لهم، لا حدود لها، وبذلك عكسوا وبوضوح الروح العدائية وسالت الدماء أنهاراً وقتل من الناس ما لا يدركه حصر^(٥)، وقال أحد كبار القساوسة: ما من جريمة فظيعة وما من نهب مريع وما من فعلة مخجلة إلا

(١) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص ٢٤٤.

(٢) الحروب الصليبية.. العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٨٠.

(٣) الجهاد والتجديد، ص ٩٨.

(٤) الحروب الصليبية.. العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٨٠.

(٥) إمارة أنطاكية دراسة في علاقتها السياسية بالقوى الإسلامية، ص ١٢٤.

ارتكبوها^(١)، يقول لوبون: يدل سلوك الصليبيون في جميع المعارك على أنهم من أشد الوحوش حماقة^(٢)، وقد هرع السريان والأرمن من أهل أنطاكية يساعدون الغزاة في التعرف على خفاياها وقتل من فيها من المسلمين^(٣).

نهاية ياغي سيان والي أنطاكية: أما ياغي سيان، فإنه لما طلع عليه النهار، رجع إليه عقله، فرأى نفسه وقد بُعد عدة فراسخ فقال لمن معه: أين أنا؟ ف قيل له: على بعد أربعة فراسخ من أنطاكية، فندم كيف خلص سالماً، ولم يقاتل حتى يزيل العدو عن البلد، أو يقتل. وجعل يتلهف ويسترجع على ترك أهله وأولاده والمسلمين ولشدة ما لحقه، سقط عن فرسه مغشياً عليه، وعندما أراد أصحابه أن يركبوه على الفرس، لم يكن به مسكة وقد قارب الموت، فتركوه وساروا عنه، واجتاز به خطاب أرمني، وهو بآخر رمق فقتله، وأخذ رأسه وحمله إلى الفرنج بأنطاكية^(٤).

- من نتائج سقوط أنطاكية: تأكدت قدرة الصليبيين على تغيير الخريطة السياسية لشمال الشام، على الأقل لصالحهم، فها هي أنطاكية تسقط على نحو يجعل حلب مهددة إلى الشرق منها، ويجعل الصليبيين يخضعون موقعاً استراتيجياً مهماً خاصة قرب أنطاكية من ميناء السويدية (حوالي ٢٠ كم) على نحو يجعل إمكانية الاتصال بأوروبا أمراً ميسوراً ومدعماً للصليبيين إلى حد كبير، وبصفة عامة أدى استيلاؤهم على تلك المدينة إلى فتح الطريق إلى بيت المقدس.

- أثبت سقوط أنطاكية بجلاء أن الصليبيين ما نجحوا إلا من خلال فرقة المسلمين، فقد تعاملوا مع كل كيان صغير على حدة، وغابت عن المسلمين فكرة المشروع الحدودي والمصير الواحد، ولم يتناسوا خلافاتهم فكان مصيرهم المحتوم تحت سنابك خيل الصليبيين وسيوفهم البتارة، بالإضافة إلى استبسالهم في قتال المسلمين وهي حقيقة لا بد من الاعتراف بها^(٥).

- تحدد مصير أنطاكية بإحكام السيادة الصليبية عليها خاصة بعد اخفاق كربوغا أتابك الموصل في أمر الدفاع عنها، ومن قبل عندما قتل ياغي سيان حاكمها^(٦).

(١) إمارة أنطاكية دراسة في علاقتها السياسية بالقوى الإسلامية، ص ١٢٤.

(٢) حضارة العرب نقلاً عن إمارة أنطاكية، ص ١٢٤.

(٣) الجهاد والتجديد، ص ٩٨.

(٤) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص ٩٩.

(٥) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٨١.

(٦) المصدر نفسه، ص ٨٢.

- شجع سقوط أنطاكية الصليبيين على استئناف نشاطهم العسكري ضد المناطق المحيطة
بجلب على شكل غارات صغيرة ^(١).

٩- مذبحة معرة النعمان: اشتدت المنازعات الداخلية بين الصليبيين حول إمارة
أنطاكية، على أن كثرة القتلى والجيف في ساحة المدينة نتج عنه انتشار وباء في معسكر
الفرنجية، ذهب ضحيته بضعة آلاف منهم، من بينهم المندوب البابوي (أدهيمر) وقد دفع
ذلك الوضع الغزاة هؤلاء إلى القيام بغزوات وجولات خارج أنطاكية، حتى يتعدوا عن
منطقة الوباء، فكان غزوهم لمعرة النعمان، فاستغاث أهلها بصاحب حلب (رضوان)
وصاحب حمص (جناح الدولة) فلم ينجدهم أحد ^(٢)، ولم يكن لدى أهلها من الإمكانيات، ما
يمكنهم من المقاومة طويلاً فاضطروا إلى الاستسلام، إلا أن الصليبيين كعادتهم لم يحترموا
الأمان الذي أعطوه لأهل المعرة ^(٣)، وإنما غدروا بهم، ورفعوا الصليب فوق البلد.. ونهبوا
ما وجدوه، وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به ^(٤). وقد قدر عدد القتلى من المسلمين في
معركة معرة النعمان، أكثر من عشرين ألف رجل وامرأة وصبي في حين قدرهم ابن الأثير بما
يزيد عن مائة ألف، ويصف تلك المذبحة بقوله: سار الفرنج إلى معرة النعمان، فنازلوها
وحاصروها، وقتلهم أهلها قتلاً شديداً، ورأى الفرنج منهم شدة ونكاية في قتالهم.. ثم
دخلوا المدينة ووضعوا في أهلها السيف ثلاثة أيام قتلوا فيها ما يزيد على مائة ألف، وسبوا
السيبي الكثير وملكوه، وأقاموا أربعين يوماً ^(٥). وقد ذكر (رنسيان) في تاريخه أن الصليبيين
عندما دخلوا المدينة. أمعنوا في قتل كل من يصادفهم، واقتحموا الدور ونهبوها
وأحرقوها ^(٦)، وقد رثاها الشاعر وجيه بن عبد الله التنوخي بأبيات حزينة باكية، تأسف على
موت أهلها، وضياع دورها فقال:

هذه بلدة قضى الله يا صاح	عليها كما ترى بالخراب
فقف العيسى وقفه وابك من	كان بها من شيوخها والشباب
واعتبر إن دخلت يوماً إليها	فهي كانت منازل الأحباب

(١) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، ص ٢٠٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٧.

(٣) زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم (٢/ ١٤١ - ١٤٢).

(٤) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص ١٣٦.

(٥) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص ١٠٢.

(٦) تاريخ الحروب الصليبية (١/ ٣٦٩).

وأخيراً خرج الصليبيون من معرة النعمان على رأس جيش يقوده «ريموند» نحو بيت المقدس، أما «بوهيموند» فاختر البقاء في أنطاكية، وأسس فيها إمارة له. فتحولت الحملة الصليبية الأولى نحو بيت المقدس بعد أن ظلت قرابة خمسة عشر شهراً في شمالي بلاد الشام^(١)، تصول وتجول، ولا نجد من يردّها إلى ديارها خائبة صاغرة.

ثالثاً: تأسيس مملكة بيت المقدس:

استغل الفاطميون فرصة ضعف الأتراك السلاجقة وتخاذل أمرائهم إثر اندحارهم أمام الصليبيين عند أنطاكية، ومقتل عدد كبير منهم فسار أمير الجيوش المصرية الأفضل بن بدر الجمالي في شعبان سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٨م على رأس قواته إلى القدس، وأعتقد الأراقة حكام بيت المقدس التابعون للسلاجقة بأن تحصينات القدس العظيمة، والمقدرة الحربية لقبائلهم التركمانية ستمكنهم من الصمود حتى تأتيهم النجدة من دقاق حاكم دمشق، وكان في القدس آنذاك معظم بني أرتق وهم سقمان وإيلغازي وابن عمهما سونج وابن أخيهما ياقوتي^(٢)، وجماعة من أقاربهما ورجالهما وخلق كبير من الأتراك، وحاول الأفضل في البداية أن يتبع الأساليب السليمة لتحقيق أغراضه فراسل كل من سقمان وإيلغازي يلتمس منهما تسليم القدس من غير حرب ولا سفك دماء، فلم يجيباه إلى ذلك^(٣)، وعند ذاك بدأ بقتال البلد، ونصب عليه نيفا وأربعين منجنيقاً فهدمت مواضع من سورته، وقاتلهم أهل البلد واستمر القتال والحصار نيفاً وأربعين يوماً^(٤)، ويظهر أن الأخوين إيلغازي وسقمان كانا واثقين بجيشهما ومساندة عشيرتهما من التركمان إلا أن الفاطميين العبيدين استطاعوا تضيق الحصار وفتحت المدينة بالأمان عام ٤٩١هـ، وسار سقمان وإيلغازي ومن معهم إلى دمشق سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٨م، ثم غادروا دمشق^(٥). إن الدولة العبيدية الفاطمية ساهمت في احتلال الصليبيين للمنطقة، فبدلاً أن تقف مع السلاجقة ضد الصليبيين راسلتهم وطلبت منهم الصلح، فقد كان الأفضل بن بدر الجمالي صاحب السلطة الفعلية في مصر، عندما سمع بأن الصليبيين، الذين وصلوا إلى بلاد الشام، اشتبكوا مع الأتراك السلاجقة، أعداء الدولة الفاطمية العبيدية، فكّر في عقد تحالف معهم ضد هؤلاء، فأرسل سفارة اجتمعت بزعمائهم أمام أنطاكية في شهر صفر ٤٩١هـ / كانون الثاني ١٠٩٨م وعرضت عليهم مشروع التحالف الذي تضمن البنود التالية:

(١) الجهاد والتجديد للناصر، ص ١٠٣.

(٢) القدس عشية الغزو الصليبي ص ١٠٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ١١٠.

- ينفرد الصليبيون بحكم أنطاكية وشمال بلاد الشام.

- تحتفظ مصر ببيت المقدس وجنوب بلاد الشام.

- يسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، وتكون لهم الحرية الكاملة في أداء شعائرهم الدينية، على ألا تزيد مدة إقامتهم فيها على شهر واحد، وألا يدخلوها بسيوفهم.

- يتعاون الطرفان في القضاء على السلاجقة^(١).

على أن سفارة الأفضل إلى الصليبيين، على الرغم من الحفاوة التي استقبلت بها، لم تؤد إلا إلى نتيجة واحدة، وهي وقوف الصليبيين على مدى الخلاف السائد بين الفاطميين والسلاجقة في بلاد الشام، ومن ثم استقر رأيهم بعد استيلائهم على أنطاكية على إرسال حملة للاستيلاء على بيت المقدس^(٢).

إن المتتبع لدراسة التاريخ في مرحلة اغتصاب أوربا لبلاد الشام وبيت المقدس في بداية القرن الخامس الهجري ونهاية العاشر الميلادي والانفراد بالمسلمين، ومحاولة القضاء عليهم سبقتها عدة أمور منها:

- زرع دولة شيعية مؤسسها يهودي أو مجوسي، سمى نفسه المهدي، ترفع شعار الإسلام، بادعاء انتسابها إلى فاطمة بنت رسول الله ﷺ -ورضي الله عن فاطمة- تهدف إلى عزل دول الشمال الإفريقي، وخاصة مصر عن بقية بلاد الشام أثناء تعرضه للغزو الصليبي. هذه الدولة كانت لها مراسلات وسفارات مع الأوروبيين الصليبيين الذين عادوا لاغتصاب بيت المقدس، وأرض الشام ومصر، وعرضوا التعاون معهم ضد السلاجقة، وسنرى بإذن الله في دراستنا المستقبلية طلبهم من الصليبيين المعاونة ضد نور الدين زنكي وأسد الدين شيركوه وصلاح الدين.

- أن حكام هذه الدولة حرصوا على هدم الخلافة العباسية، التي كانت تحتاج إلى من يدعمها ويساندها ويأخذ بيدها بدلاً من الحرص على هدمها، لأن الخلافة هي السياج الحامي بعد الله لبلاد المسلمين من كيد أعدائها.

- ظهور الباطنية القرامطة ومؤسسها أبو سعيد الجنابي رأس القرامطة سنة خمس وثمانين ومائة هجرية الذين يدعون انتسابهم إلى علي بن أبي طالب ﷺ والذين عملوا على

(١) تاريخ الفاطميين في شمال إفريقيا، محمد طقوش، ص ٤٢٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٢٨.

هدم الخلافة العباسية، وإفساد عقيدة الأمة. العجيب أنهم قصدوا دمشق في جحفل عظيم، فقاتلهم نائبها فهزموه عدة مرات، وكان ذلك بقيادة يحيى بن زكرويه الذي ادعى عند القرامطة أنه محمد بن عبد الله بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب، وقد كذب في ذلك.

- حرص حكام الدولة التي تسمى زوراً وبهتاناً بالدولة الفاطمية على إفساد عقيدة السلف، بفرض عقيدة الرافضة بالقوة على الأمة، وقتل أهل السنة والجماعة، وعلمائهم وفقهائهم، وسب الخلفاء الراشدين وصحابة رسول الله - رضوان الله عليهم - على المنابر، كما أن بعض حكامهم قد ادعوا الألوهية.

- عزل مسلمي مصر عن إخوانهم في بلاد الشام والشمال الإفريقي وأثناء العزل جرى القضاء على المقاومة الإسلامية ببيت المقدس وبلاد الشام والاستيلاء عليها^(١).

لم يكن نجاح النصارى في انتراع بيت المقدس من أيدي الفاطميين مصادفة بلا خلفيات، لا.. بل الذي يدرس تاريخ الروافض، بل إن الذي يدرس تاريخ الشيعة الروافض الباطنيين ويتعرف على هويتهم المشبوهة يسهل عليه استيعاب حقيقة الأمر الذي سارت عليه الأحداث، فالدولة الفاطمية الرافضة كانت إحدى الحركات الباطنية التي أعملت معاول الهدم في صرح الأمة الإسلامية، وكانت أيضاً سبباً في ضعف دولة الخلافة العباسية والتضحية بالأرض المقدسة، وتعامي الطرفان عن الخطر الصليبي منشغلين بالصراع بينهما. وما أشبه الليلة بالبارحة عندما انشغل العرب والترك بالنزاع بينهما حتى استلب النصارى الإنجليز أرض فلسطين ثم أسلموها إلى اليهود ولا تزال الليالي تشبه البارحات، لقد بلغ من عمالة الفاطميين أو بالأحرى الباطنيين العبيدين الروافض - أن استعانوا بالصليبيين للقضاء على السلاجقة الأتراك، وفي الوقت الذي كان الصليبيون في طريقهم إلى القدس، وكانت مدن الشام تتساقط تحت أقدامهم، كان الفاطميون والسلاجقة يتناوبون التنازع على المدينة المقدسة متجاهلين خطر الجيش النصراني، ولم يحرك قائد الفاطميين ساكناً إلا عندما جاء الخبر بحصار الصليبيين للقدس^(٢)، ولاحت الفرصة الذهبية لأهل الصليب لكي ينفثوا أحقاد قرون خلت في جسد الأمة الإسلامية، ولكي يحققوا حلماً دينياً، وهدفاً سياسياً، ومغماً اقتصادياً لا تعوز فرصته خاصة أن الوقت كان في بداية الألفية الثانية التي اعتقدت طوائف كثيرة من النصارى أن المسيح عيسى ابن مريم سيعود فيها إلى الأرض ليحكمها كلها من

(١) أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ. الطريق إلى بيت المقدس، ص ٦٩.

(٢) قبل الكارثة نذير ونفير، ص ١٢٩.

القدس، انطلاقاً مما يسمى بالعقيدة الألفية التي كانت سبباً في عصرنا هذا أيضاً لتعاون النصارى مع اليهود في السيطرة على بيت المقدس كله استعداداً لمقدم الألفية الثالثة، ألفية المسيح^(١).

١- مقدمات الاحتلال: ما أن استولى الصليبيون على نيقية في حزيران عام ١٠٩٧م بعد حصار دام شهراً، حتى زحفوا إلى أسكي شهر التي سقطت بأيديهم في أول تموز/ يوليو من العام نفسه، ثم إلى مدينة الرها، ثم وصلوا إلى أنطاكية، فاحتلوها بعد حصار طويل كما مر معنا، واتجه الصليبيون بعد ذلك جنوباً فاحتلوا معرة النعمان ثم أدخلوها بعد أن أحرقوها وقتلوا من أهلها «ما يزيد على مائة ألف»^(٢)، ثم احتلوا «حصن الأكراد» ثم انطروطوس وهي طرطوس الحالية «بعدد من الأدلاء والجنود»^(٣). وفي ١٦ آيار/ مايو ١٠٩٩م غادر الصليبيون طرابلس وتابعوا تقدمهم جنوباً فاجتازوا البترون وجبيل ووصلوا في ١٩ آيار/ مايو إلى الحدود الفاطمية على نهر الكلب، ولم يكن للفاطمين عساكر في ممتلكاتهم الشمالية، باستثناء بعض الحاميات في بعض المدن الساحلية^(٤)، مما أتاح للصليبيين التقدم بسهولة وبلا مقاومة، فدخلوا بيروت بلا قتال، ثم تقدموا نحو صيدا فبلغوها في ٢٠ آيار ١٠٩٩م، ولكنهم لقوا مقاومة عنيفة من حاميتها، إلا أنهم استطاعوا التغلب عليها وتابعوا تقدمهم نحو صور حيث بقيت حامية صور خلف الأسوار لم تنأجزم العداء^(٥). وتابع الصليبيون تقدمهم بعد أن غادروا صور بتاريخ ٢٣ آيار ١٠٩٩م، فبلغوا ضواحي عكا في ٢٤ آيار دون أن يلقوا مقاومة تذكر، ثم وصلوا إلى حيفا، فقيسارية حيث أقاموا أربعة أيام استأنفوا بعدها، تقدمهم نحو الرملة فبلغوها في ٣ حزيران ١٠٩٩م، وفي ٦ حزيران تابع الصليبيون تقدمهم نحو بيت المقدس فبلغوا أسوارها مساء ٧ حزيران حيث عسكروا^(٦).

٢- القوى المتواجدة:

- القوات الصليبية: بلغ عدد القوات الصليبية التي وصلت إلى أسوار القدس وتمركزت حولها وبدأت بمحاصرتها نحو أربعين ألفاً من مختلف الأعمار ذكوراً وإناثاً، وكان عدد الرجال المقاتلين منهم نحو عشرين ألفاً، وقد انتشر الصليبيون حول القدس، على امتداد

(١) قبل الكارثة نذير ونفير، ص ١٣٠.

(٢) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص ٥٤.

(٣، ٤) المصدر نفسه، ص ٥٤.

(٥) الحروب الصليبية (١/ ٤١١).

(٦) المصدر نفسه (١/ ٤١١ - ٤١٤).

بعض أسوارها، وليس كلها، وذلك بسبب نقص عدد قواتهم^(١)، ورغم أن القوات الصليبية كانت مزودة بأحدث الأسلحة وآلات الحصار والتدمير، فإنها وجدت نفسها عاجزة عن تنفيذ حصار كامل ومطبق حول المدينة بسبب نقص كبير في عدد المقاتلين من جهة وبسبب نقص في آلات الحصار من جهة أخرى، كما أن إطالة أمد الحصار حول القدس سوف يؤثر سلباً على معنويات الجند الذين هم آتون من بلاد باردة إلى أرض قاحلة لا ظل فيها ولا أشجار، وفي صيف حار لاهب لن يستطيع أولئك الجند تحمل حرارته، لذا قرر القادة أن يُعدوا لهجوم عاجل على المدينة^(٢).

١- قوات المسلمين: كان المسلمون في داخل أسوار مدينة القدس، في وضع دفاعي متين، فالمدينة -بحد ذاتها- تعتبر من أضخم المعاقل والحصون في ذلك الزمان، فأسوارها التي يقف الصليبيون قبالتها، تكاد تكون عصية على الاختراق أو الاجتياز، إضافة إلى ذلك تظل القدس عصية على أي هجوم من جهاتها الثلاث: من الشرق والجنوب الشرقي حيث يلفها وادي قدرون أو وادي جهنم، ومن الجنوب حيث يلفها وادي هنوم أو وادي الرابية، ومن الغرب حيث يلفها وادي الروث أو وادي تيروبيون، فهي إذن محصنة، من هذه الجهات بتحصينات طبيعية، إضافة إلى ما تمنحها أسوارها وحصن داود الواقع في منتصف السور الغربي، والذي يسيطر على جزء كبير من محيط المدينة، من مناعة وقوة^(٣). يضاف إلى ذلك الخنادق التي حفرها المدافعون خارج الأسوار، في الزاويتين الشمالية الشرقية والشمالية الغربية، وفي الجهة الشمالية من السور، لكي تعيق تقدم المهاجمين، وهكذا، لم يكن ممكناً مهاجمة المدينة إلا من الجهتين: الشمالية، والشمالية الغربية فقط، وهي الجهات التي ركز الصليبيون، في حصارهم عليها^(٤). وكان في المدينة حامية مؤلفة من مصريين وسودانيين تقدر بألف مقاتل بينما تداعت أعداد كبيرة من الحصون القائمة في المناطق المجاورة ومن الريف للدفاع عن المدينة، فبلغ عدد المدافعين عنها نحو أربعين ألف محارب شجاع مجهزين تجهيزاً رائعاً بحسب قول الصوري^(٥). والصوري لا يؤكد ذلك بل يقول: وذكرت إحدى الروايات ونعتقد أن هذا العدد مبالغ فيه كثيراً^(٦).

- قائد الحامية: كان قائد تلك الحامية هو الحاكم الفاطمي نفسه (افتخار الدولة) الذي

(١) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص ٥٥.

(٢) (٤،٣)، المصدر نفسه، ص ٥٧.

(٥) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص ٥٩.

(٦) المصدر نفسه، ص ٥٩.

ما إن علم باقتراب الصليبيين من أسوار المدينة، حتى باشر باتخاذ التدابير اللازمة لحمايتها، فطمر كل الينابيع والآبار الواقعة خارج المدينة كي يحرم المهاجمين من التزود بمياهها، وأخرج منها المسيحيين أهلها، خيشة أن يتعاطف هؤلاء مع أبناء دينهم المهاجمين، فيوقعوا الاضطراب والفوضى في المدينة، ورغبة منه في توفير ما يمكن أن ينفقوه من زاد وغذاء للمسلمين المحاصرين^(١).

- أسلحة المدافعين عن المدينة: وأما أسلحة المسلمين المدافعين عن المدينة، فإنها كانت بحسب زعم رنسيमान والصوري تضاهي أسلحة الصليبيين نوعية وتفوقها عدداً، خصوصاً وأنهم -أي المسلمين- كانوا قد احتاطوا لهذا الأمر، فجمعوا الأخشاب اللازمة لصنع الآلات الحربية الملائمة للدفاع عن المدينة المحاصرة كالجاننيق وسواها، وأنشأوا داخل الأسوار آلات حربية معادلة في ارتفاعها لارتفاع آلات الصليبيين، وبينما كان الصليبيون يجهدون بدورهم، لإعداد آلات الحصار التي تنقصهم من سلاط ومجاننيق، كان المسلمون لا يفتأون يراقبون تصرفاتهم بواسطة حراس يقظين كانوا قائمين على الأسوار باستمرار، ثم يضاھونهم في صنع آلات مماثلة^(٢)، ويقول الصوري في ذلك: كانت الآلات الحربية التي يصنعونها تُصنع من مواد أفضل من المواد التي صنعت آلاتنا منها، وقد قاموا بهذه الحماسة المثلى، حتى لا تكون آلات حربهم أدنى من آلاتنا في الإنشاء أو في المادة. وكان الحراس يراقبون -من على الأسوار والبروج- كل ما أنجز في جيشنا، وبشكل خاص ما تعلق بالوسائل التي ارتبطت بآلات الحرب، حيث نقلوا على الفور، جميع تفاصيل ما راقبوه إلى الرجال الرئيسيين للقدس، الذين تنافسوا بمهارة، وكافحوا في سبيل محاكاة أعمال المسيحيين^(٣).

٣- الحصار: ركّز الصليبيون كل قواتهم على الأماكن التي تقربهم من الأسوار، وذلك لعدم توافر العدد الكافي من المقاتلين لفرض حصار على المدينة بكاملها، فاتخذ روبرت النورماندي موضعه على امتداد السور الشمالي، في حين حاصر كل من جودفري وتانكرد المدينة من الناحية الغربية، وتمركز ريموند الفضلي إلى الجنوب من موضعهما حيث أقام على جبل صهيون، أما القطاعان الشرقي والجنوبي الشرقي فكانا مكشوفين لم يحرسهما أحد. واجهت المحاصرين، في بادئ الأمر، عدة مشكلات حالت بينهم وبين الاستيلاء على المدينة فوراً لعل أهمها:

(١) الحروب الصليبية (١/٤٢١).

(٢) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص ٦٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦١.

* مقاومة الحامية الفاطمية، إذ توافر لافتخار الدولة المؤن والماء والأسلحة التي تفوّقت على أسلحة الصليبيين، وأمل أن يصمد في وجه الحصار المدة الكافية للوصول النجدة التي طلبها من القاهرة.

* تأمين الماء نتيجة ما اتخذته افتخار الدولة من تدابير كانت ناجعة وقوية الأثر، وللحصول على الماء كان لابد للصليبيين أن يسيروا ستة أميال أو أكثر، مما يعرضهم لهجمات المسلمين كما أخذت مؤنهم في النفاذ.

* الحرارة المرتفعة وقسوتها عليهم.

* تجدد النزاع بينهم حول مصير بيت المقدس، وملكية بعض المراكز المهمة الأخرى مثل بيت لحم.

* انتشار إشاعة بينهم أن جيشاً فاطمياً كبيراً قد خرج من القاهرة، وهو في طريقه لإنقاذ المدينة^(١). وتبين لهم أنهم لن يستطيعوا الصمود لحصار طويل، وينبغي عليهم أن يبادروا بالهجوم على المدينة والاستيلاء عليها^(٢).

٤- الهجوم الأول للقوات الصليبية: قرر القادة الصليبيون شن هجومهم على المدينة في فجر اليوم السادس للحصار (أي في فجر ١٣ حزيران/ يونيو)، وأعطيت الأوامر للقوات بالاستعداد للهجوم بالعتاد الكامل، وبجماية دروعهم، وأذيعت تلك الأوامر «بصوت المنادي» وعلى الجميع من أدناهم على أعلاهم في اليوم السابق للهجوم، أي اليوم الخامس للحصار^(٣). وفي الساعة المحددة، انطلق الصليبيون باتجاه السور بكل ما يدخرون من حماسة. وهاجموا السور الخارجي للمدينة من الجهة الشمالية واستمر القتال ضارياً بين الفريقين من الفجر الباكر وحتى حوالي الساعة السابعة من النهار، حين استطاع المهاجمون أن يدمروا القسم الخارجي من السور الشمالي وأن يتغلبوا على حامية السور التي انكفأت إلى الداخل لتدافع عن الأسوار الداخلية، وأصبح السور الخارجي تحت سيطرة المهاجمين، لولا أن هؤلاء افتقدوا الوسائل اللازمة لتسليق السور الذي احتلوه، من سلاط وأوهاق، وحاولوا تسليقه جاهدين، ولكن دون جدوى فعادوا أدراجهم إلى مراكزهم الأساسية، بعد خسارة لا يستهان بها في الرجال^(٤).

٥- العودة إلى الاستعداد للقتال: تدارس القادة الصليبيون الوضع، بعد فشل

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٣٥.

(١) تاريخ الفاطميين، ص ٤٣٥.

(٣) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص ٦١.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦٢.

هجومهم على المدينة في اجتماع عقد لهذه الغاية بتاريخ ١٥ حزيران، فقررُوا التوقف عن تنفيذ أي هجوم ريثما يتم الإعداد العسكري للمعركة الحاسمة، وكان هذا الإعداد يقتضي الإسراع في إنشاء ما يحتاجه الجيش من آلات التدمير والافتحام، وأهمها المجانيق وسلالم التسلق، وكانوا يفتقرون إلى المواد اللازمة لصنع هذه الآلات، وأهمها الأخشاب والحبال والمسامير والأقفال، ولكنهم دبّروا أمر الأخشاب من المناطق البعيدة عن القدس حيث تكثر الأشجار، واستطاع تانكرد والكونت روبرت كونت النور ماندي، وكونت الفلاندر الحصول على كميات من هذه الأخشاب التي نقلت إلى المعسكرات على ظهور الإبل والعربات والأسرى المسلمين، بينما تدبّروا أمر الحبال والمسامير والأقفال من سفينتين مبحرتين من جنوى رستا في ميناء يافا، وكان المسلمون قد أدخلوا المدينة وهي تحمل لهم مؤناً وأسلحة ومعدات للحصار. ونشط العمال الحرفيون من حدادين ونجارين، بإشراف غودفروا وريموند دي سان جيل في إعداد آلات الحرب اللازمة من مجانيق وعرّادات وأوهاق وكباش دك وآلات أخرى، كما صنعوا أبراجاً خشبية تطل على السور وتشرف عليه وهي برج غودفروا وريموند، وبرج تانكرد^(١). في هذه الأثناء، وبينما كان الاستعداد للهجوم الحاسم يجري ببطء في معسكرات الصليبيين، كانت معاناة هؤلاء من افتقارهم إلى الماء والزاد تزداد، فقد وصلوا، في بحثهم عن الماء حتى نهر الأردن، وكانت الأغنام والأبقار المعدة لإطعام الجند تنفق، بدورها، جوعاً وعطشاً، ومن شدة الحر، وذلك رغم مساعدة المسيحيين من أهل البلاد أولئك الذين أظهروا الولاء للصليبيين، فأضحوا أدلاء يرشدونهم إلى الينابيع والغابات الواقعة من الجهات المجاورة^(٢)، ومع ذلك، فقد كان عليهم أن يدفعوا عن مواقعهم غارات المسلمين وكمائنهم، وسهام حامية المدينة وقذائفها. وفوق ذلك كله، فقد دب الخلاف بين قادة الحملة، وخصوصاً بين تانكرد الذي كان قد استولى على بيت لحم ورفع لواءه فوق كنيسة المهد، مما أغضب باقي القادة، كما دبّ الخلاف بينهم حول مسألة مستقبل القدس بعد احتلالها، هذا بالإضافة إلى المعاناة اليومية للجند، حيث كان يموت العديد منهم، يومياً، ظمأً وحرّاً وجوعاً، مما دفع بالكثيرين إلى التخلي عن الحملة ومحاولة العودة إلى بلادهم^(٣).

ويتحدث كل من «غروسيه» و«الصورى» و«رنسيمان» عن الوسائل التي استخدمها القادة الصليبيون لرفع معنويات جندهم التي انهارت إلى حد كبير، وخصوصاً عندما سرت في صفوفهم إشاعة عن تحرك جيش من مصر باتجاه القدس لتخليصها من حصار الفرنجة لها،

(١) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص ٦٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٣.

وكان ذلك في أول تموز/ يوليو، فعمدوا يوم ٨ تموز إلى إعلان الصوم الكامل، والحج، وجماعة، إلى جبل الزيتون، بقيادة رجال الدين والقادة العسكريين، وسار الصليبيون جميعاً إلى «الجبل المقدس»، وخرج الجند المسلمون إلى الأسواق يشاهدونهم وهم يسخرون. وعلى الجبل ألقى كل من القديس بطرس الناسك وريموند أجيل قسيس ريموند وأرنولف روز قسيس روبرت النورماندي عظة ألهب بها عواطف الجند والقادة وحاستهم، فعادوا وقد نسوا، جميعهم، ما كان بينهم من مشاحنات، ليعملوا يداً واحدة في سبيل «تحرير» بيت المقدس^(١).

٦- **الهجوم الحاسم:** بدأ الصليبيون هجومهم على القدس ليل ١٣ - ١٤ تموز/ يوليو ١٠٩٩ م على محورين:

المحور الأول: شمال - جنوب بقيادة غودفروا دي بويون ومعه روبرت كونت الفلاندر وروبرت كونت النورماندي، وتانكرد، وهو من باب الساهرة باتجاه الحرم الشريف.

المحور الثاني: جنوب - شمال، بقيادة ريموند دي سان جيل كونت تولوز ومعه بعض النبلاء والقادة، وهو من جبل صهيون «قبة باب صهيون»، باتجاه القلعة أو حصن داود. ووفقاً لما ذكره المؤرخ ريموند آغيلرز، وهو شاهد عيان للمعركة، بلغ عدد المهاجمين ١٢ ألف مقاتل من المشاة أو ١٣ ألف مقاتل^(٢). إلا أن المهاجمين لم يتمكنوا من إحراز أي تقدم طيلة اليوم الأول ١٤ تموز، إذ إنهم كانوا يجابهون بما ترميه عليهم آلات الحرب ومعدات القذف من نبال وقسي وسهام وقذائف حجرية وخرق مبللة بالزيت ومشتعلة وقوارير ملتهبة ونار إغريقية، بينما كانت حجارتهم تسقط على أسوار المدينة وتحصينات المسلمين بلا أية فعالية تذكر، نظراً لأن المسلمين حصنوا تلك الأسوار والتحصينات «بأكياس مليئة بالقش والتبن» وبالخبال والمنسوجات والعوارض الخشبية الضخمة والفرش المحشوة بالحرير، وكانت هذه تشكل -بطراوتها وليونها- عازلاً بين الحجارة المقذوفة وتلك الأسوار والتحصينات، إلا أنه في صباح اليوم التالي اعتمد المهاجمون أسلوباً آخر في القتال^(٣).

- **عمليات المحور الأول «المحور الشمالي»:** بدأت عمليات هذا المحور، بقيادة غودفروا دي بويون، ليل ١٣ - ١٤ تموز/ يوليو، بمحاولة تقدم من جهة باب الساهرة نحو السور، يصحبها طمر الخندق العريض، والعميق المحفور حوله من الخارج بغية دفع آلات الحرب

(١) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص ٦٤.

(٢، ٣) المصدر نفسه، ص ٦٦.

والبروج المتقلة نحوه، ولكن الرمايات الكثيفة التي نفذتها حامية المدينة، على هذا المحور، بمختلف أنواع الأسلحة، أعاقَت تقدم المهاجمين إلى حد كبير، فبينما كان المهاجمون يجهدون لدفع بروجهم وآلات حربهم نحو السور بغية السيطرة عليه وعلى التحصينات القائمة خلفه، كان المدافعون يجهدون في عرقلة أعمال المهاجمين هذه برميهم بالقذائف المشتعلة، والنبال المحملة بالكبريت الملتهب والإسفلت والزيت، أو أي شيء آخر يزود ألسنة النيران بالوقود بالإضافة إلى ما كانت ترميه المجانيق وآلات الحرب الأخرى من نبال وسهام وحجارة ضخمة. وكان المهاجمون ينشطون في إطفاء الحرائق التي كانت تشتعل، من جراء ذلك، في آلاتهم الحربية. وهكذا انقضى اليوم كله دون أن يحقق المهاجمون تقدماً يذكر، خصوصاً أن رماياتهم على سور المدينة وتحصينات حاميتها لم تكن فعالة بالقدر الكافي، وذلك بسبب التدابير التي اتخذها المدافعون عن ذلك السور وتلك التحصينات. وما أن بدأ الليل يقترب حتى بدأ النزاع يخفّ ورمايات الفريقين تقلّ تدريجياً، دون أن يتخلى أي منهما عن حذره وسلاحه، ومر ليل ١٤ - ١٥ والفريقان على حذرهما وسلاحهما، يرقب كل منهما تحركات خصمه لمنع وقوع أي ضرر عليه، فبينما كان المدافعون حذرين كي لا يتسلل العدو إلى داخل المدينة عن طريق إحداث ثغرة في الصور، أو تسلق التحصينات^(١)، لذا كان الخوف والحذر مستمرين ومتبادلين بين الفريقين طيلة ليل ١٤ - ١٥ تموز/ يوليو، إلا أن القتال مالَبث أن استؤنف صباح يوم ١٥ تموز، وذلك عندما استأنف غودفروا هجومه بعنف، على السور، محاولاً أن يقترب منه ببرجه المتحرك وآلات حربه، وكان البرج مغطى بجلود الحيوانات المسلحة حديثاً وذلك لحماية الجسور من النار الإغريقية^(٢)، والتي يرميها المسلمون، واستطاع غودفروا، بعد جهد ومشقة، أن يصل ببرجه إلى حافة السور، وأن يمد، عند ظهر ذلك اليوم، جسراً من البرج إلى السور، عند باب الساهرة، وكان «غودفروا» وأخوه «يوستاس» في الطابق العلوي من البرج، عندما تقدم اثنان من مقاتليه «وهما ليتولد وجبلبرت من تورناي» واقتحما السور، فتبعهما كل من غودفروا وأخيه، فكانوا أول من دخل مدينة القدس من المقاتلين الصليبيين صبيحة يوم ١٥ تموز، يوليو ١٠٩٩ م. وما لبث، بعد ذلك، أن تدافع المهاجمون نحو السور يتسلقونه بسلاهم وأوقاهم، على رأسهم روبرت كونت الفلاندر وروبرت كونت النورماندي وتانكرد، مما جعل المدافعين يتراجعون، مذعورين، نحو الحرم الشريف لكي يحموا به ولكن المهاجمين تبعوهم إلى المسجد الأقصى حيث جرت - كما يذكر مؤرخ «صليبي» مجهول - «مجزرة» كان من نتائجها أن «مشى رجالنا

(١) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص ٦٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٨.

في الدم حتى كعوب أقدامهم»^(١). بعد ذلك، وزع غوفروا المهام على قادة الفرق، فأرسل منهم من يفتح «باب العمود» للقوى التي كانت لا تزال خارج المدينة، كما أرسل فرقة اقتحمت المدينة من الشرق، من باب يهوشافاط. أما تانكرد فتقدم، من تلقاء نفسه، نحو «الحرم الشريف» حيث كانت «قبة الصخرة» بما تزخر به من ثروة. ذكر ابن الأثير أنها كانت نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة، وزن كل قنديل ٣٦٠٠ درهم، وتنوراً لا مصباحاً كبيراً «من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي، ومن القناديل الصغار ١٥٠ قنديلاً نقرة، ومن الذهب نيفاً وعشرين قنديلاً» فغنمها كلها وغنم الصليبيون من المسجد الأقصى، كما يذكر ابن الأثير أيضاً ما لا يقع عليه الإحصاء^(٢)، وكان قد لجأ إلى سطح المسجد مئات من المسلمين أعطاهم «تانكرد» الأمان وأعطاهم رايته ضماناً لهم، إلا أنهم، في اليوم التالي، ذبحوا جميعاً، ذبح النعاج، على أيدي جنود صليبيين دخلوا الحرم الشريف وقتلوه جميعاً بلا استثناء لولد أو شيخ أو امرأة، غير عابئين بالأمان الذي أعطاهم إياه تانكرد، ولا بريته التي رفعوها اعتقاداً منهم أنها ستحميهم^(٣).

- عمليات المحور الثاني «المحور الجنوبي»: بدأ ريمون، كونت تولوز، يعد للهجوم قبل ثلاثة أيام من بدئه، أي من تاريخ ١٢ تموز/ يوليو، حيث كان عليه أن يطمر خندقاً عريضاً وعميقاً يفصل بين السور من الخارج وبين مواقعه، ويجعل وصوله إلى السور، مع برجه وآلات حربه، صعباً إن لم يكن مستحيلاً، وقد لاقى ريموند مشقة كبيرة في أداء هذه المهمة، خصوصاً أن نيران الحامية «ومنها النار الإغريقية» التي كانت تقذف عليه من داخل السور، ومن حصن داود أو القلعة لم تكن لتوفر له الراحة والأمان لبلوغ المهمة، ومع ذلك فإن ريموند استطاع مساء ١٤ تموز/ يوليو، أن يدفع برجه المتنقل فوق الخندق، وفي ليل ١٤ - ١٥ تموز بدأ ريموند وقواته محاولة صعبة للتقدم من جبل صهيون قبالة باب النبي داود باتجاه القلعة أو حصن داود. وقد لقي المهاجمون، على هذا المحور، مقاومة أشد من تلك التي لقيها المهاجمون على المحور الأول، خصوصاً أن حاكم المدينة أو قائد حاميتها (افتخار الدولة) كان يقود الجبهة المواجهة لريموند وقواته. واستمر القتال طيلة ظهر ١٥ تموز، وفي هذه الأثناء، كان غودفروا قد احتل الجهة الشمالية وتوغل في المدينة دون أن يعلم ريموند بالأمر، ولا خصمه افتخار الدولة، الذي كان يقاتل في مواجهته إلا أن صرخات الجنود المتصرين

(١) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص ٦٨.

(٢) الكامل في التاريخ (٨/ ٤٠٥).

(٣) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص ٦٩.

وصيحات الرعب والفرع التي كانت تصدر عن المسلمين الهاربين من وجه المهاجمين أيقظت افتخار الدولة على الحقيقة المرة، كما نبهت ريموند إلى انتصار حلفائه في الجهة الشمالية، فانكفاً افتخار الدولة برجاله نحو القلعة أو حصن داود ليعتصم فيها، بينما تقدم ريموند إلى السور فأنزل الجسر عليه من برجه المتنقل بدون مقاومة، ورفع سلاله إلى الأسوار، ودخل المدينة من دون أدنى إعاقة^(١) من قبل المسلمين الذين كانوا قد تخلوا نهائياً عن القتال، وفتح ريموند الباب الجنوبي (باب النبي داود عليه السلام) لمقاتليه فدخلوا المدينة منتصرين. أما افتخار الدولة فقد طلب من ريموند الأمان لكي يخرج ورجاله من القلعة ويغادروا المدينة، فأمنه ريموند، وخرج افتخار الدولة ورجاله إلى عسقلان حيث انضموا إلى ما تبقى في فلسطين من جيوش تابعة للدولة الفاطمية. وهكذا سقطت القدس كلها، بيد الغزاة الصليبيين، يوم الجمعة الخامس عشر من تموز عام ١٠٩٩م الموافق الثالث والعشرين من شعبان عام ٤٩٢هـ، وذلك بعد حصار دام ٣٩ يوماً من ٧ حزيران/ يونيو^(٢).

٧- وحشية الحضارة الغربية الصليبية: يذكر ابن الأثير أن الصليبيين قتلوا في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزهادهم^(٣). أما من كان في القدس من اليهود، في هذه الأثناء -وكان افتخار الدولة قد سمح لهم بالبقاء في المدينة بينما أمر المسيحيين بالخروج منها خشية أن يتعاطفوا مع أبناء دينهم- فقد لجأوا إلى كنيسهم إلا أن المقاتلين الصليبيين حشروهم جميعاً في معبدهم الكبير حيث لجأوا، وأحرقوا المعبد، وهم بداخله، فقتلوا جميعهم حتفهم حرقاً بجحمة أنهم ساعدوا المسلمين^(٤). ويقول ابن القلانسي في ذلك، وهو قد عاش هذه الفترة وزمانها: وقتل خلق كبير وجمع اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم^(٥)، ويذكر رنسيما أن مذبحة القدس تركت أثراً عميقاً في جميع العالم، وأن عدد ضحاياها ليس معروفاً بالضبط. وأن القدس خلت بعد هذه المذبحة من سكانها المسلمين واليهود، وأنه «لم يثر التعصب الإسلامي، من جديد، إلا التعصب المسيحي الذي دلّ عليه ما لجأ إليه الصليبيون من سفك الدماء»^(٦)، ويصف الأسقف وليم الصوري هذه المذبحة وصفاً تقشعر له الأبدان، إذ يقول: بات من الحال النظر إلى الأعداد الكبيرة للمقتولين دون هلع، فقد انتشرت أشلاء الجثث البشرية في كل مكان،

(١) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص ٧٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٠. (٣) الكامل في التاريخ (٨/ ٤٠٥).

(٤) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص ٧٠.

(٥) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢٢.

(٦) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص ٧١.

وكانت الأرض ذاتها مغطاة بدم القتلى، ولم يكن مشهد الجثث التي فصلت الرؤوس عنها، والأضلاع المتبورة المتناثرة في جميع الاتجاهات، هو وحده الذي أثار الرعب في كل من نظر إليها، فقد كان الأرهب من ذلك هو النظر إلى المنتصرين أنفسهم وهم ملطخون بالدم من رؤوسهم إلى أقدامهم.. ويروى أنه هلك داخل حرم الهيكل فقط، قرابة عشرة آلاف من الكفرة بالإضافة إلى القتلى المطروحين في كل مكان من المدينة، في الشوارع والساحات، حيث قَدَّر عددهم أنه كان مساوياً لعدد القتلى داخل حرم الهيكل، وطاف بقية الجنود خلال المدينة بحثاً عن التعساء الباقين على قيد الحياة، والذين يمكنهم أن يكونوا مختبئين في مداخل ضيقة وطرق فرعية للنجاة من الموت، وسحب هؤلاء على مرأى الجميع وذبحوا كالأغنام، وتشكل البعض في زمر واقتحموا المنازل حيث قبضوا على أرباب الأسر وزوجاتهم وأطفالهم وجميع أسرهم، وقتلت هذه الضحايا أو قذفت من مكان مرتفع حيث هلكت بشكل مأساوي^(١).

ووصف شاهد عيان أفرنجي المذبحة التي أحدثها الصليبيون بالقدس بقوله: شاهدنا أشياء عجيبة إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين، وقتل غيرهم رمياً بالسهم أو أرغموا على أن يلقوا بأنفسهم من فوق الأبراج.. وكنا نرى في الشوارع أكوام الرؤوس والأيدي والأقدام^(٢). ووصف ذلك أفرنجي آخر كان مرافقاً للصليبيين: كان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى^(٣)، وقد انطلق الصليبيون في جميع أنحاء المدينة يستولون على الذهب والفضة من داخل المساجد والدور، واستمر الصليبيون في القتل والنهب لمدة أسبوع^(٤). وإصدر قادة الصليبيين أمراً بطرح جثث المسلمين خارج المدينة التي امتلأت بالجثث، فقام بهذه المهمة العدد القليل من المسلمين الذين وقعوا أسرى بيد الصليبيين ولم يقتلوا، وفقراء الجيش الصليبي مقابل راتب يومي والقوهم أمام أبواب المدينة وتعالى أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعاً وما تسنى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة مثل هذه المذبحة الصليبية. لقد رأينا، في كل شوارع المدينة وأحيائها، تلالاً من الرؤوس والأيدي والأرجل. لقد كان الناس يمشون علنا ويهدوء على جثث الرجال والخيل. ويستطرد: إنني لا أقدم -في وصف هذا- سوى القليل من الرعب الذي شاهدته، وإذا أنا وصفت كل ما شاهدته فلن تصدقوني^(٥).

(١) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص ٧١.

(٢) قصة الحضارة (٢٥/٤).

(٣) أعمال الفرنجية، ص ١١٨، القدس عشية الغزو الصليبي، ص ١٢٢.

(٤) القدس عشية الغزو الصليبي ص ١٢٣.

(٥) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص ٧٣.

وإننا نستذكر، أمام وحشية الحضارة الغربية وهمجية الروح الصليبية هذه ما قاله المفكر الفرنسي غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب: لم يعرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب^(١). ولا شك أن رجال الدين المسيحي لهم دور أساسي في هذه المذبحة، فقد كانوا يحفزون الصليبيين للانتقام للسيد المسيح ابتداءً بالبابا أوربان الثاني وانتهاءً برجال الدين المرافقين للحملة الصليبية^(٢).

٨- دور رجال الدين المسيحي في سقوط القدس: ويظهر دور رجال الدين المسيحي في سقوط القدس بصورة جلية، فبعد أن اشتدت مقاومة المسلمين لهم، مع اشتداد درجة حرارة الجو عليهم، وانعدام مياه الشرب، شعر رجال الدين المسيحي بالإحباط والوهن الذي أصاب الصليبيين، وقد قام أحد القساوسة وأشاع بأنه رأى الأسقف أدهيمر في منامه يأمره أن ينه الصليبيين بالكف عن أنانيتهم، وأن يصدقوا النية في أداء المهمة التي خرجوا من أجلها، وأن يتجهوا بقلوب صافية إلى الله، وأكد لهم أن النصر سيتم لهم خلال أيام قلائل، على أن يخرجوا حفاة في موكب يسرون به حول أسوار بيت المقدس^(٣). وعلى الفور عقد قادة الحملة الصليبية الأولى اجتماعاً يدرسون فيه كيفية تنفيذ ما طلبه أدهيمر في هذه الرؤيا. ويصف المؤرخ اللاتيني توديبود - أحد المشاركين في هذه الأحداث - فيقول: عقد قادتنا اجتماعاً أوصاهم فيه المطران والقساوسة بالسير حول أسوار بيت المقدس حفاة الأقدام، يرتدون ملابس الكهنوت المقدسة، يحملون في أيديهم الصليبان، ينشدون المزامير، ويدعون السيد عيسى المسيح لتخليص المدينة المقدسة، والقبر المقدس من أيدي الكفرة، وأن يضعوها بين أيادي المسيحيين حتى يتمكنوا من أداء طقوسهم المقدسة.. وكان جميع رجال الدين يرتدون نفس الملابس ويحيط بهم جميعاً على الجانبين الفرسان وتابعوهم بكل عدتهم وعتادهم^(٤)، وعندما رأى المسلمون موكب الصليبيين الحفاة وهم يطوفون حول أسوار بيت المقدس، وقفوا على طول أسوار المدينة يحملون المصاحف المغطاة بالقماش على أسنة الرماح وينفرد توديبود - كشاهد عيان - بهذا الوصف الدقيق لرد فعل المسلمين على مسيرة الصليبيين حول بيت المقدس، فأوضح أن المسلمين عندما رأوا ذلك المشهد، ساروا على نفس الطريقة على طول أسوار المدينة يحملون رماحاً مغطاة بقماش مرسوم عليه اسم الرسول ﷺ. ولما وصل المسيحيون عند كنيسة القديس ستيفن، بينما وقف المسلمون

(١) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص ٧٣.

(٢) القدس عشية الغزو الصليبي ص ١٢٣.

(٣) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين، ص ٢٤٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٤٥.

يصيحون ويهتفون فوق الأسوار، ويدقون طبولهم في ضجيج وصخب وجعلوا المسيحيين عرضة لكل ما يستطيعون ويقدرّون عليه من سخرية واستهزاء^(١)، ويستكمل توديبود وصفه قائلاً: وكان أسوأ ما في الأمر أن المسلمين أقدموا على تحطيم الصليب المقدس بقطعة من الخشب أمام أعين المسيحيين جميعاً.. ذلك الصليب الذي أراق المسيح دمه عليه وافتدى بذلك خلاص البشرية جميعاً.. وإمعاناً في أذية المسيحيين فقد قذفوا بحطامه من فوق الأسوار وهم يصيحون استهزاء بالصليب^(٢)، وعندئذ ازداد حماس الصليبيين فقاموا بهجوم شامل على بيت المقدس في اليوم التالي للمسيرة، وسقطت المدينة في أيديهم على الرغم من المقاومة العنيفة التي قام بها المسلمون لصد الصليبيين عن مدينتهم، ولما دخل الصليبيون المدينة قاموا بعمل مذبح رهيبة لكل من وجدوه بالمدينة^(٣).

وهكذا يتضح لنا كيف كان رجال الدين المسيحي يستغلون قوة تأثير العامل الديني على عقول المسيحيين فيقومون بترويج الشائعات والأساطير ذات الطابع الديني لإثارة مشاعر المقاتلين ارتفاعاً والتفاني في القتال حتى يتصرفوا ويحققوا أغراضهم وأطماعهم الاستعمارية في الأراضي المقدسة، هذا في الوقت الذي لم نعثر فيه في بطون المصادر الإسلامية ما يفيد عن دور جدي للفقهاء والعلماء في تلك الفترة الزمنية يعتمد على إلقاء الخطب الحماسية التي تذكر المقاتلين بأجداد المسلمين الأول وانصاراتهم أيام الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين - رضوان الله عليهم - من بعده فترداد حماسهم وترفع روحهم المعنوية؛ مما يساعد على مواصلة القتال والانصارات على أعداء الدين، وتحرير بلادهم من براثن الاستعمار الصليبي، ولعل ذلك مرجعه إلى هول المفاجأة التي أصابت العالم الإسلامي وقتئذ بالعدوان الصليبي على المنطقة فضلاً عن انصراف العلماء والفقهاء لفض بعض المنازعات القائمة بين أقطاب العالم الإسلامي حينئذ وهم العباسيون والفاطيون والسلاجقة، والعمل على توحيد جهودهم لمواجهة العدو الصليبي. ومن ناحية أخرى ربما يكون أولئك الفقهاء لم يدركوا أهمية المناطق التي استولى عليها الصليبيون مثل الرها وأنطاكية، ولكن عندما فقدوا بيت المقدس أفاقوا من هول الصدمة وبدأوا يتحركون ويباشرون جهودهم، فقام كثير من الفقهاء والعلماء والقضاة في بلاد الشام بدور كبير في توعية الناس في كل مكان بهذا الخطر الفظيع، وبضرورة الوقوف صفّاً واحداً لصد هذا العدوان الغاشم، فخرجت جماعات كثيرة من مسلمي بلاد الشام وبصحبته الكثير من العلماء والفقهاء، واتجهوا إلى بغداد واستغاثوا بالخليفة العباسي وبالسلطان السلجوقي، واجتمعوا بالناس في المساجد وأعلموا الجميع بما لاقاه المسلمون من مذابح بشعة على أيدي الصليبيين،

(١، ٢، ٣) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين، ص ٢٤٦.

وألقوا الشعر في ديوان الخليفة في بغداد يحثون فيه أولي الأمر على سرعة إنجاد أهل الشام حماية للدين وللمحارم، فاضطر الخليفة إلى الاستجابة وقام بندب الفقهاء للخروج إلى البلاد لتحريض الملوك على الجهاد. وعلى الرغم من قيام الفقهاء بالمهمة على الوجه الأكمل، فإن ذلك لم يأت بطائل ولم يحرك ساكناً، فعاد الفقهاء إلى بغداد^(١)، وجدير بالذكر أن المؤرخ ابن الأثير قام بالتعقيب على حالة التفكك التي أصابت العالم الإسلامي في تلك الفترة، والتي أدت إلى ضياع صرخات واستغاثات المسلمين بلا استجابة من قبل أولى الأمر، فأرجعها إلى اشتغال الحكام والملوك المسلمين وعساكر الإسلام بقتال بعضهم بعضاً، مما ساعد على تفرق المسلمين واختلاف الأهواء وتمزق الأموال^(٢).

٩- فشل الفاطميين في استعادة بيت المقدس: كان سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين بمثابة الضربة القاصمة التي وجهت إلى العالم الإسلامي بصفة عامة، وإلى الدولة الفاطمية بصفة خاصة، وبرز صراع على المصالح بين الفاطميين والصليبيين، فأخذ الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي يفكر جدياً في استعادة هذا الجزء من الأراضي الإسلامية، فأخرج من مصر ثلاث حملات حربية في الفترة الممتدة من ٤٩٥ - ٤٩٩ هـ/ ١١٠١ - ١١٠٥ م موجهة ضد القوات الصليبية الموجودة في فلسطين لكي يثبت للصليبيين مدى يقظة الدولة الفاطمية وغيرتهم على كل شبر من الأراضي التابعة لهم، ولكن باءت هذه المحاولات الثلاث بالفشل، ولم تحقق الهدف المنشود لها وهو استعادة بيت المقدس. وفي أثناء محاولة الصليبيين صد هذه الحملات الثلاث بقيادة بلدوين الأول ملك بيت المقدس، قام بعض رجال الدين المسيحي بأدوار بارزة لحث الصليبيين على الشجاعة والوقوف بصلافة في مواجهة الجيوش الفاطمية، مستخدمين في ذلك كل الوسائل كالشاركة في حمل السلاح للقتال، والوعظ والخطب في جموع الصليبيين، وحمل الصלבان أمام الجيوش لتحسيس الصليبيين على القتال بشجاعة، ومن تلك المواقف التي سجلت لرجال الدين المسيحي موقف رئيس الشمامسة - أرنول مالكورن - الذي خطب خطبة حماسية لإثارة مشاعر المقاتلين لصد حملة المصريين على الرملة سنة ٤٩٥ هـ/ ١١٠١ م، وكذلك ما قام به المندوب البابوي موريس من تلاوة نصوص لإدخال الطمأنينة في نفوس المقاتلين بعد أن انتابهم الرعب عندما رأوا ضخامة القوات الفاطمية، ثم قام الملك بلدوين بعد ذلك بحمل الصليب المقدس أمام المقاتلين الصليبيين ليدخل الطمأنينة في نفوسهم، وخطب في المقاتلين خطبة دينية أعاد لهم الثقة بأنفسهم وتمسكهم بالأمل في النصر^(٣).

(١) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص ٢٤٨.

(٢) المصدر نفسه نقلاً عن الكامل في التاريخ، ص ٢٤٨.

(٣) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، نقلاً عن الكامل في التاريخ، ص ٢٤٩.

وكان لهذه الخطبة بالفعل أثرها الكبير على الصليبيين، فعادت إليهم الثقة والشجاعة وهتفوا بصوت عال قائلين: ساعدنا يارب، ساعدنا يارب. ثم قبلوا الصليب المقدس وقاموا بالصلاة لله حتى ينصرهم في تلك المعركة، وفي الوقت نفسه وصلت معونات من غرب أوروبا لتعزيز هذه القوات فساعدت على زيادة قوة وشجاعة الصليبيين، وتحقق بذلك النصر على المسلمين في حملة الرملة الأولى عام ٤٩٥هـ/ ١١٠١م، وكذلك برز دور روبرت روان - مطران مدينة الرملة - أثناء الحملة الفاطمية الثانية على الرملة سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م حيث تذكر بعض المصادر اللاتينية المعاصرة لتلك الأحداث، أن هذا المطران عقد اجتماعاً مع كبار أهالي المدينة للتشاور معاً، عقب استيلاء المسلمين عليها، وتقرر في هذا الاجتماع ضرورة إرسال مندوب عنهم إلى الملك بلدوين الأول بيافا لطلب النجدة منه^(١)، وهكذا نجد رجل الدين الغربي يقوم أحياناً محل حاكم المدينة في التصدي لقوات العدو عند أي هجوم مفاجئ على المدن الصليبية، وهذا ما نلمسه بالنسبة لوضع الفقهاء والعلماء داخل مدنها. وقد انتهى الصراع عند مدينة الرملة بانتصار الفاطميين انتصاراً كبيراً نتج عنه إبادة كل أفراد الجيش الصليبي باستثناء بلدوين الذي تمكن من الفرار إلى يافا^(٢).

وأما بالنسبة للحملة الثالثة التي أرسلها الوزير الفاطمي الأفضل إلى الرملة سنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٥م، فقد لعب أثناءها أفرimar بطريك بيت المقدس دوراً مهماً وخطيراً، فعندما تقابل الجيشان الفاطمي والصليبي في مفترق الطرق عند الرملة خشى الملك بلدوين من التفوق العددي للقوات الفاطمية فأرسل مندوباً عنه برسالة إلى أفرimar يطلب منه أن يتفرغ إلى الله هو والعامّة من الشعب وأن يكثرُوا من الصلاة والصوم والزكاة ليكون هذا بمثابة فدية أو قربان إلى الله لمساعدة الفرنج حتى النصر، وليحمي الله الفرنج من أية هزيمة قد تلحق بهم. كما طلب منه الملك بلدوين أيضاً أن يعظ الناس ويحثهم على ضرورة التطوع لحمل السلاح والإسراع إلى ميدان القتال للانضمام لإخوانهم لمساندتهم في حروبهم ضد المسلمين^(٣)، وفي الحال أمر أفرimar بدق أجراس الكنائس، فاجتمع الناس جميعاً عنده، فخطب فيهم قائلاً: يا أصدقائي... يا خدام المسيح لقد حضر هذا المبعوث من قبل الملك بلدوين ليخبرنا أن المعركة ستبدأ مع المسلمين عند الرملة. ومن أجل تحقيق النصر يتحتم علينا التضرع إلى الله، وكثرة الصلاة، وأخبرنا هذا المندوب الملكي بأن الملك قد أصر بدء المعركة إلى الغد حتى يوافق هذا اليوم عيد القيامة المجيد، ولذلك فإنني أطلب منكم جميعاً

(١) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص ٢٥٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٥١.

إقامة الصلوات والتعبد طوال هذه الليلة، وعند بزوغ فجر الغد توجهوا حفاة إلى الأماكن المقدسة بالمدينة، تاركين وراءكم كل شهواتكم، مذللين أنفسكم، متضرعين إلى الله بكل التقوى والإيمان لينقذنا من أيدي الأعداء، ولينصرنا عليهم. أما عن نفسي فإنني ذاهب في الحال للوقوف بجوار الملك.. واعلموا جيداً بأنني سوف أحث جميع القادرين منكم على حمل السلاح على أن يأتوا معي لسد حاجة الملك من المقاتلين^(١)، وكان لهذا النداء صدى كبير لدى كثير من المسيحيين الموجودين في القدس، فسرعان ما تقدم أكثر من مائة وخمسين مقاتلاً أبدوا رغبتهم في الانضمام إلى المعسكر الصليبي بالرملة لمناصرة زملائهم. وفي صباح اليوم التالي ذهب برفقة هؤلاء المتطوعين كثير من القساوسة وعلى رأسهم أفريمار بطريرك بيت المقدس حاملاً الصليب المقدس، وقد وصلت هذه الجموع برئاسته إلى الملك بلدوين، وكان أفريمار قد أحضر الصليب المقدس معه حتى تتم البركة به، وعند وصولهم استقبلهم الملك بفرح وسرور عظيمين، وارتفعت الروح المعنوية لدى المقاتلين الصليبيين، وقاموا جميعاً بأداء صلاة الشكر والدعاء لله قبل أن تبدأ المعركة^(٢). وعند طلوع فجر يوم المعركة -يوم الأحد ١٤ ذي الحجة ٤٩٨هـ - ٢٧ أغسطس ١١٠٥م- ركب حصانه وأخذ يغدو ويروح أمام صفوف الصليبيين ويباركهم، ليرفع من روحهم المعنوية ويشجعهم على القتال بنفوس مطمئنة بأن النصر سيكون حليفهم^(٣)، فكان لهذه الجهود جميعها تأثير كبير وشديد في زيادة حماس المقاتلين الصليبيين تحت قيادة الملك بلدوين، فلم يبالوا بقلّة عددهم أمام أعداد المسلمين الهائلة، وكان النصر للجيش الصليبي في نهاية هذه المعركة. وبهذا النصر الصليبي انتهت المحاولات الكبرى التي قامت بها الخلافة الفاطمية لاستعادة فلسطين من قبضة الصليبيين^(٤). وجدير بالذكر أنه على الرغم من كثرة ما كتبه المؤرخون اللاتين القدامى عن بطولات رجال الدين المسيحي أثناء حملات الرملة الثلاث، فإننا لم نجد في كتابات المؤرخين المسلمين الذين تناولوا الكتابة عن تلك الفترة أية إشارات توضح لنا دور علماء الدين الإسلامي وفقهائه في تلك الأحداث، وربما يرجع السبب في ذلك إلى أنهم كانوا يسجلون تاريخهم على منهج الحوليات، فيركزون على أهم الأحداث دون كتابة التفاصيل الدقيقة المصاحبة لهذه الأحداث، ولهذا لم نعثر من قريب أو بعيد على معلومات توضح لنا موقف علماء وفقهاء المسلمين من هذه الحملات^(٥).

(١) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص ٢٥١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٢. (٣) المصدر نفسه، ص ٢٥٢.

(٤) الكامل في التاريخ (٨/٤٧٩)، دور الفقهاء، ص ٢٥٣.

(٥) دور الفقهاء والعلماء، ص ٢٥٣.

رابعاً: سقوط المدن الساحلية لبلاد الشام:

١- سقوط طرابلس: ففي عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م عندما اقتربت جحافل العدو الصليبي من أسوار طرابلس أسرع حاكمها فخر الملك بن عمار إلى مهادنتهم بتقديم الأموال والهدايا وبعض الجياد لهم، لإحساسه بعدم استعداده لمواجهةهم بعد حتى لا يعرض نفسه والمسلمين وإمارته للإبادة على أيديهم. ونحن لا نستبعد أن الدافع وراء انتهاج القاضي فخر الملك بن عمار وغيره من حكام المدن الإسلامية لسياسة المهادنة مع الصليبيين في ذلك الوقت، هو تمزق شمل المسلمين وعدم وجود قوة إسلامية كبرى تستطيع الوقوف في وجه هذا الخطر الصليبي، خاصة بعد أن انكشف أمر الاتفاق الذي تم بين الفاطميين والصليبيين، وما ترتب عليه من هزيمة السلاجقة في أنطاكية، وهو أن يقف الفرنج عند أنطاكية ويستولى الفاطميون على بيت المقدس ويساعدوا الصليبيين ضد السلاجقة. على أية حالة لم تفلح سياسة المهادنة التي اتبعها ابن عمار مع الفرنجة إذ قام ريموند الضجلي بالهجوم على طرابلس وفرض عليها حصاراً شديداً سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠١م حيث كان يطمع في تأسيس إمارة مستقلة بها أسوة برفاقه من القادة الصليبيين في كل من الرها وأنطاكية وبيت المقدس. ولما شعر فخر الملك بخرج موقفه اضطر إلى طلب النجدة من حمص ودمشق غير أنه لم يظفر بطائل وانهزم أمام الصليبيين، فاضطر القاضي ابن عمار إلى مهادنة الصليبيين مرة أخرى على مال وخيل فوافقوا ورحلوا عن طرابلس إلى انطرسوس واستولوا عليها في جمادى الآخرة من السنة نفسها^(١)، ولكن ريموند أعاد الكرة مرة أخرى وهاجم مدينة طرابلس متتهزاً فرصة وصول أسطول جنوي إلى اللاذقية في سنة ٤٩٧هـ/ شتاء ١١٠٣م ولكنه فشل هذه المرة أيضاً بفضل شجاعة القاضي فخر الملك بن عمار وصبره وعدم يأسه وتشجيعه لأهل طرابلس على مواصلة المقاومة لدفع الأعداء عن بلدهم، فاضطر ريموند إلى أن يتجه بالأسطول الجنوبي في العام نفسه لمهاجمة ثغر جبيل التابع لابن عمار فاستولوا عليه وغدروا بأهله^(٢). وهكذا أصبح القاضي فخر الملك بن عمار معزولاً تماماً عن المدن المجاورة بعد أن جرد الصليبيون طرابلس من جميع المدن التابعة لها، ولم يبق أمامه سوى الاستيلاء على مدينة طرابلس نفسها بوصفها العاصمة الطبيعية للإمارة التي يحلم بتكوينها، ولذلك بنى ريموند قلعة على الجبال المواجهة لطرابلس عرفت باسم قلعة صنجيل، ليتخذها قاعدة يسيطر بها على طرابلس، فقام القاضي ابن عمار بمجهود كبيرة مع أهالي طرابلس لهدم هذه القلعة وإحراقها مما ترتب عليه

(٢) تاريخ العظمي، ص ٣٧٧.

موت ريموند الضجلي متأثراً بجروقه التي أصيب بها أثناء حريق هذه القلعة في جمادي الأولى سنة ٤٩٨هـ/ فبراير ١١٠٥م، ولكن الفرنج كانوا قد صمموا بعد ذلك على استئناف الحصار البري حول مدينة طرابلس عن طريق قلعة صنجيل فاضطر القاضي ابن عمار إلى طلب نجدة عاجلة من سقمان بن أرتق التركماني، صاحب حصن كيفا^(١)، فلم يدخر وسعاً في التحرك تجاه طرابلس، ولكنه توفي في الطريق، فانقطع بذلك آخر أمل لابن عمار في الحصول على مساعدة خارجية تمكنهم من إنقاذ طرابلس^(٢) فاضطر القاضي ابن عمار إلى أن يعتمد على أهالي المدينة فأخذ يعد العدة استعداداً لمواجهة الصليبيين بقدر الإمكانات المتاحة في المدينة، فقام بجمع الأموال من بعض التجار الأغنياء من سكان طرابلس ووزعها على المجاهدين لیسد العجز الناتج عن كثرة ما سبق أن قدمه للصليبيين من أموال وذهب عندما عقد الهدنة معهم، وعلى الرغم من أن هذا المسلك الذي اتبعه القاضي ابن عمار مع التجار يعتبر تصرفاً ضرورياً شرعياً لاستكمال العدة وتجهيز الجيش بما يلزمه من معدات لمواجهة العدو^(٣)، فإنه لم يرق بذلك من فراغ وإنما من واقع مسؤوليته التي تحتم عليه كحاكم للبلاد أن يستعين بأموال الرعية أو الاقتراض من التجار والأغنياء لسد هذا العجز في الأموال الموجودة بالبلد لمصلحة الإسلام والمسلمين. وعلى الرغم من كل ذلك فإن هؤلاء التجار المسلمين قد خرجوا إلى الصليبيين وقالوا لهم: إن صاحبنا صادرنا فخرجنا إليكم لنكون معكم^(٤)، ولم يكتفوا بذلك التصرف المشين، وإنما كشفوا للصليبيين عن الأماكن التي ترد منها الميرة والمؤن لابن عمار. فعلوا هذا بدلاً من أن ينفقوا أموالهم في سبيل الله عملاً بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۖ تَوَاصَوْا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠، ١١]. وعلى الفور قام الصليبيون بتشديد الحصار على هذه الأماكن التي كشفها أولئك التجار حتى يمنعوا دخول أي شيء إلى البلد، فيضطر ابن عمار وأهل طرابلس للاستسلام لهم، ولكن على الرغم من ذلك فقد استمرت المدينة في مقاومتها للحصار ثلاث سنوات أخرى بفضل الله ثم بعزيمة ابن عمار وقوة إيمان أهل طرابلس ورفضهم الاستسلام من ناحية، وافتقار الصليبيين إلى أسطول بحري يحكم الحصار على طرابلس من جهة البحر من

(١) هي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على نهر دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر وهي لصاحب آمد من ولد داود بن سقمان بن أرتق.

(٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٦ - ١٤٧، وفيات الأعيان (١/ ١٩١).

(٣) دور الفقهاء والعلماء والمسلمين في الشرق الأدنى، ص ٨٨.

(٤) الكامل في التاريخ (٨/ ٤٩١).

ناحية أخرى، ولكن لما استبد اليأس من فك هذا الحصار وضاعت الأقوات وقلت بطرابلس، اضطر القاضي فخر الملك بن عمار إلى ترك طرابلس والخروج إلى بغداد في رمضان سنة ٥٠١هـ/مارس ١١٠٨م، لطلب النجدة من زعيمي العالم الإسلامي في المشرق آنذاك وهما الخليفة العباسي المستظهر بالله والسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه السلجوقي ٤٩٩هـ - ٥٠٩هـ/١١٠٥ - ١١١٥م. وقبل أن يترك فخر الملك طرابلس استناب بها ابن عمه أبا المناقب فعصى فيها، فقبض عليه أصحاب فخر الملك وتولوا الأمور بطرابلس^(١)، ومكث القاضي فخر الملك ببغداد أربعة شهور أكرمه فيها كل من الخليفة والسلطان أحسن إكرام. ويصف ابن الأثير الحفاوة التي قوبل بها قائلاً: وسير الخليفة خواصه وجماعة أرباب المناصب فلقوه، وأنزله الخليفة وأجرى عليه الجراية العظيمة، وكذلك فعل السلطان وفعل معه مالم يفعل مع الملوك الذين معهم أمثاله. وهذا جميعه ثمرة الجهاد في الدنيا ولأجر الآخرة أكبر^(٢). ومع ذلك فإن فخر الملك لم يظفر بطائل من الخليفة والسلطان. وعاد إلى دمشق في محرم ٥٠٢هـ/١١٠٩م، وهناك علم بأن طرابلس أصبحت تابعة للفاطميين إذ أن أهلها قد ضاق بهم الحصار الصليبي المضروب عليهم، فراسلوا الوزير الأفضل الفاطمي يطلبون منه أن يبعث إليهم والياً من قبله يتولى إدارة المدينة ويرسل لهم الغلة والميرة، فاستجاب لهم الأفضل وأرسل إليهم من قبله شرف الدولة بن أبي الطيب والياً على طرابلس^(٣)، وهكذا عاد القاضي فخر الملك بن عمار من بغداد ليجد نفسه بلا وطن وبلا أهل، إذ أن الوالي الفاطمي قبض على أهل بيته وأصحابه وذخائره وآلاته وأثاثه، وحمل الجميع إلى مصر في البحر^(٤). ولذلك أقام فخر الملك بن عمار في دمشق عند أتابك طغتكين، الذي أقطعة الزبداني وأعمالها^(٥)، ثم ما لبثت طرابلس أن سقطت بأيدي الصليبيين في ذي الحجة ٥٠٢هـ/١١٠٩م، واستمر الحال بفخر الملك على هذا الوضع حتى خرج في سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م إلى مصر حيث يقيم أهله. وهناك قرر له الخليفة الفاطمي الأمر ٤٩٦ - ٥٢٤هـ/١١٠٢ - ١١٢٩م داراً أعدت له وقرر له راتباً في كل شهر^(٦)، ويمكن أجمال أسباب سقوط طرابلس في النقاط الآتية:

(١) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص ١٦٠.

(٢) الكامل في التاريخ (٨/٥١٧، ٥١٨).

(٣) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص ١٦١.

(٤) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص ٩٠.

(٥) المصدر نفسه نقلاً عن ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٥.

(٦) طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص ١٢٢ - ١٣٠.

* ضعف الجبهة الإسلامية.

* استهتار الفاطميين بالموقف في طرابلس.

* مساعدة الجنوية والمردة للصليبيين.

* استيلاء الصليبيين على المدن المحيطة بطرابلس^(١).

وقد حدد أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي ثلاثة أسباب لسقوط طرابلس وهي: تقاعس الفاطميين عن المسير إليها تلك المدة الطويلة، ثانياً: ضعف العسكر الذي أرسلوه مع أسطول مصر، ولو كان لعسكر الأسطول قوة لدفع الفرنج من البحر عن البلد حسب الحال، ثالثاً: عدم خروج الأفضل بنفسه على رأس العساكر المصرية، هذا مع قوتهم من العساكر والأموال والأسلحة^(٢). وقد استسلمت طرابلس للغزاة بشرط عدم الاعتداء على الأهالي والممتلكات، لكنهم كالعادة لم يفوا بشروط الأمان، فنهبوا الأموال، وأسروا الرجال وسبوا النساء والأطفال، وغنموا من الأمتعة وكتب العلم الموقوفة ما لا يحصى^(٣)، وأكمل الصليبيون احتلال بقية مدن إمارة طرابلس فاستولوا على بانياس وجبله، وحصن الأكرد، وبدأت إمارة طرابلس في النمو، وصار تاريخها مرتبطاً بتاريخ إمارة أنطاكية من جهة، وتاريخ مملكة بيت المقدس من جهة أخرى^(٤).

٢- سقوط بيروت: تهيأ للملك بلدوين الحرية ليواصل توسيع حدود مملكته وتطلع إلى المدن الساحلية مثل عسقلان في الجنوب، وصور وصيدا وبيروت في الشمال. والمعروف أن كلاً من عسقلان وصور تُعد من الحصون المنيعة وتزل فيها حاميات عسكرية قوية، وبالتالي يقتضي إخضاعها استعدادات عسكرية قوية وبعد أن سقطت كل من جيل وعرة وطرابلس بيد الصليبيين، وفرت هذه الأخيرة قاعدة مناسبة لهم، فوجهوا اهتمامهم للاستيلاء على بيروت، فحاصرها بلدوين براً وبحراً، ولما لم يتمكن من اقتحامها طلب مساعدة من صليبي طرابلس وغيرهم من الشمال، ومن نصارى لبنان، فاستجاب لطلبه برتراند صاحب طرابلس، وجوسلين صاحب تل باشر، كما اجتمع بأمراء النصارى في جيل، وشنّ الحلفاء غارة مفاجئة على بلاد وقرى الغرب المحيطة ببيروت، فنهبوا وأحرقوها، وقتلوا وأسروا كل من وجدوه من أهلها^(٥)، ثم حاصروا بيروت، ووضعوا أبراجاً لينصبوها على أسوارها، لكنهم جوبهوا بمقاومة شديدة من جانب سكانها بقيادة حاكمها عضد الدولة التنوخي، وفي

(١) النجوم الزاهرة (٥/ ١٧٩ - ١٨٠).

(٢) الكامل في التاريخ (٨/ ٥٣٤).

(٣) المصدر نفسه (٨/ ٥٣٤).

(٤) الحركة الصليبية (١/ ٢٩٧).

(٥) أخبار الأعيان في جبل لبنان، للشدياق (٢/ ٥٠٦، ٥٠٧).

الوقت الذي كان فيه القتال دائراً وصل أسطول فاطمي يتألف من تسع عشرة سفينة، فاصطدم بالأسطول الصليبي المحاصر للمدينة، وتغلب عليه، وأسر بعض قطعه وتمكّن الأسطول الفاطمي من دخول الميناء، وهو يحمل الغلال والميرة، مما أعطى السكان الأمل والصمود والدفاع عن مدينتهم، تجاه هذا الوضع العسكري. استنجد بلدوين بالجنوية، فأمدّوه بأربعين سفينة مشحونة بالمقاتلين، فتقوّى بهم، وضيق الحصار على بيروت، وهاجها بكل قواته البرية والبحرية يوم الجمعة (٢١ شوال ٥٠٣هـ / ١٣ نيسان ١١١٠م) فاشتد القتال بين الطرفين، وقتل قائد الأسطول الفاطمي وخلق كثير من المسلمين، ولم ير الإفرنج من تقدم وتأخر أشد من حرب هذا، لدرجة أن القتال استمر بشكل متواصل ليل نهار، حتى ملك الصليبيون المدينة بالسيف. وفشلت السفن الفاطمية التي قدمت من صور وصيدا في كسر الطوق البحري، وحاول عضد الدولة التنوخي الهرب مع جماعة من أعوانه، لكنه وقع في الأسر، وقتله الصليبيون، ونهبت بيروت، وسُبي من كان فيها، وبلغ عدد القتلى عشرين ألفاً^(١)، وخرجت من مصر نجدة فاطمية لمساعدة بيروت قوامها ثلاثمائة فارس، لكن وقعت في كمين نصبه الصليبيون عند نهر الأردن^(٢).

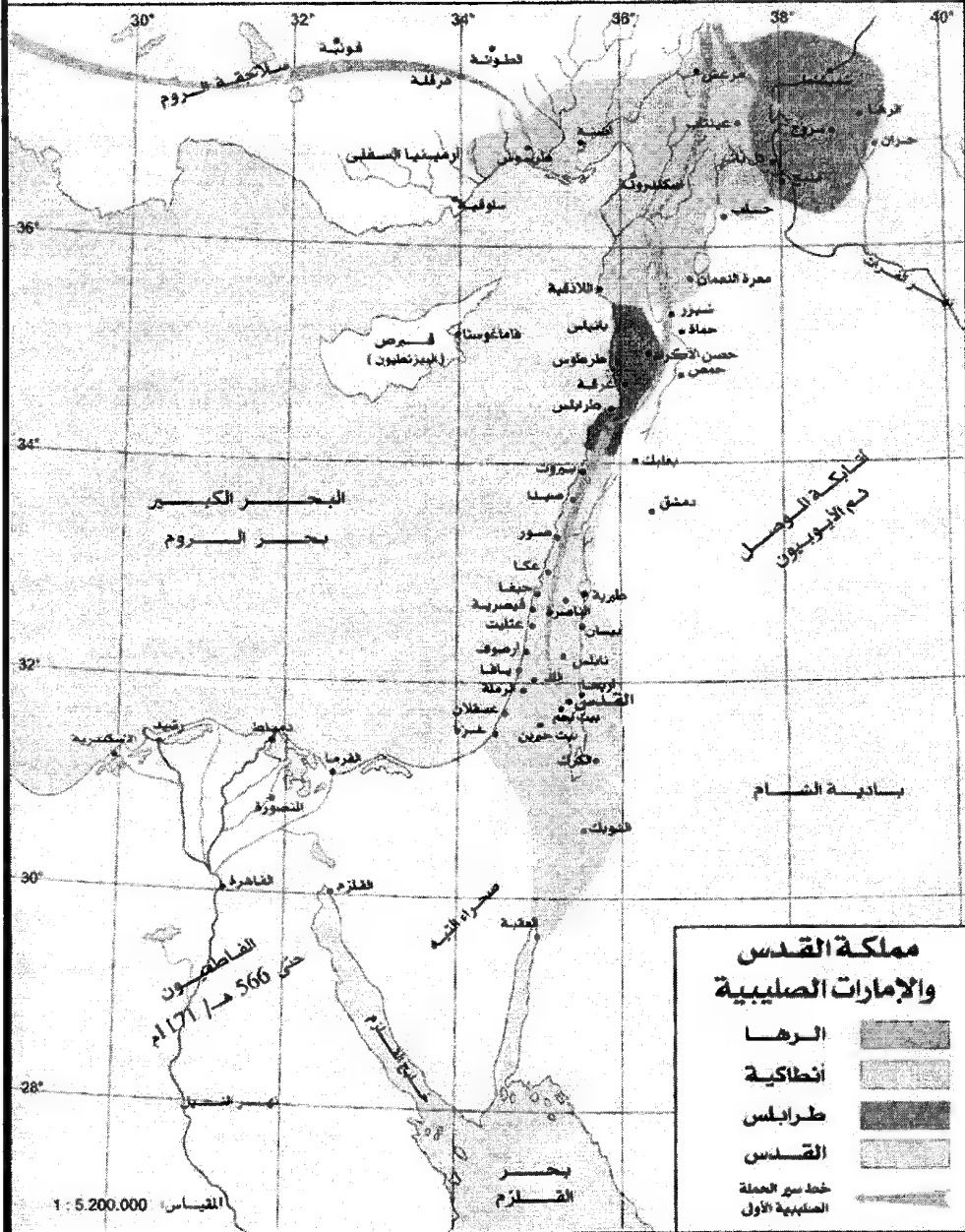
٣- سقوط صيدا: اهتم الفاطميون والسلاجقة الذين تناوبوا على حكم صيدا بتحصينها، فقد قام الوالي الفاطمي سعد الدولة الأفضلي بعمارة برج فيها في (٤٩١هـ / ١٠٩٨م)، وحصنها أميرها مجد الدولة التنوخي في عام ٤٩٤هـ / ١١٠١م مما جعلها تقوى على الصمود في وجه الصليبيين لبعض الوقت^(٣)، وجرت عدة محاولات صليبية للاستيلاء عليها، وفي أوائل عام ٥٠٤هـ / صيف ١١١٠م وصل إلى عطا سبعون مركباً يحمل عشرة آلاف مقاتل نرويجي بقيادة سيجورد، أحد ملوك النرويج. وما إن علم بلدوين بوصولهم حتى سارع لاستقبالهم، وأظهر اغتباطه بقدمهم وأحاطهم بكل مظاهر الحفاوة والتشريف، وأقنع الملك النرويجي بمشاركته في الاستيلاء على صيدا، كما استدعى برتراند حاكم طرابلس، فجاء بقواته وانضم إليهما، وبدأ الحلفاء في فرض حصار بري وبحري على صيدا في ١٣ ربيع الآخر / ١٩ تشرين الأول، وقطعوا طرق الإمدادات إليها، ومع ذلك قام أسطول فاطمي أبحر من ثغر صور بمهاجمة السفن النرويجية، كاد يبيدها كلها، لولا أن وصل في الوقت المناسب أسطول بندقي يقوده دوق البندقية أورديلافو فاليري، فاشترك مع الأسطول النرويجي في حصار المدينة، ومهاجمتها من جهة البحر، وعجزت

(١) تاريخ الفاطميين د. محمد طقّوش، ص ٤٥٥.

(٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٦٩.

(٣) أخبار الأعيان في جبل لبنان (٥٠٦/٢ - ٥٠٧).

الفزو الصليبي



السفن الفاطمية أن تمد أهل صيدا بما يحتاجون إليه من سلاح وعتاد ومقاتلة ومؤن^(١). ولما ضاق الحال بأهل صيدا من شدة الحصار الصليبي المفروض حول المدينة براً وبحراً، وفشلت جميع محاولاتهم لإنقاذ المدينة من الوقوع في براثن الصليبيين ويثسوا من وصول أي نجدة إليهم، لم يجدوا بداً من التسليم بالتفاوض مع الملك بلدوين، فعرج قاضي صيدا ومعه جماعة من شيوخها إلى الملك بلدوين للتفاوض معه من أجل الأمان، فأمنهم بلدوين على أنفسهم وأموالهم وعساكرهم، وترك لهم حرية الاختيار إما البقاء بصيدا آمين، وإما المسير إلى أي مكان يرغبونه دون أن يمنعهم أحد، وحلف لهم على ذلك^(٢)، ثم سلمت المدينة للصليبيين في ٢٠ جمادي الأولى ٥٠٤هـ / ٤ ديسمبر ١١١٠م، وخرج الأهالي في جماعات غفيرة إلى دمشق وبقي فيها من أراد البقاء^(٣).

وقد قام الدكتور محمد مؤنس عوض بدراسة عن الحملة الصليبية النرويجية التي قادها الملك سيجورد ودوره في دعم الحركة الصليبية وظهر بالتنتاج الآتية:

- توافرت عدة دوافع مجتمعة دفعت بالنرويج في عهد سيجورد وأخويه أيستين وأولاف للمشاركة في المشروع الصليبي من خلال الحملة الصليبية النرويجية التي قادها الملك النرويجي سيجورد، وكانت المملكة الصليبية في أشد الحاجة إلى الدعم البشري، والبحري لمواصلة إسقاط المدن الاستراتيجية الهامة على الساحل.

- أفادت المصادر التاريخية النرويجية في تسليط الضوء على رحلة الملك النرويجي وكذلك تعاونه مع الصليبيين، كما قدمت المصادر التاريخية الصليبية الأخرى تفاصيل هامة عن الدعم العسكري النرويجي للمملكة الصليبية.

- أثبتت فعاليات تلك الحملة الصليبية النرويجية أن الحركة الصليبية ظاهرة أوروبية عامة اشتركت فيها كل الشعوب الأوروبية بصورة أو بأخرى، ولم يحل الموقع الجغرافي النائي دون مشاركة النرويجيين في أحداثها، وعلى ذلك لم يكن الأمر مقصوراً على فرنسا، وإنجلترا، وألمانيا، وإيطاليا، بل إن النرويج كانت لها بصمتها هي الأخرى، مع ملاحظة أن الدور النرويجي لم يكن بنفس الحجم الكبير الذي كان للدور الفرنسي والإنجليزي وكذلك فعاليات المدن التجارية الإيطالية.

- أثبتت فعاليات الحملة الصليبية النرويجية أن الوجود الصليبي في بلاد الشام لم يكن يستطيع الاعتماد على إمكاناته الذاتية في مواجهة المحيط الإسلامي العام هناك، خاصة خلال

(١) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٧٣، تاريخ الفاطميين، ص ٤٥٧.

(٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧١.

(٣) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص ٩١.

المرحلة المبكرة من تاريخ الصليبيين في المنطقة. وجاءت أحداث تلك الحملة لتكون حلقة في سلسلة طويلة من النجداث، والحمالات الأوربية القادمة من الغرب الأوربي، ومن الضروري بمكان ملاحظة أن تلك الحملة النرويجية هي جزء لا يتجزأ من المشروع الصليبي العام الذي لم يتوقف طول تلك المرحلة، وهذا يؤدي بنا إلى تصور دراسة تاريخ الحروب الصليبية في بلاد الشام على اعتبار عدد الحملات الرئيسية المعروفة والتي استهدفت الشام ومصر وتونس، من الممكن أن يجعلنا نغفل أهمية حملات صليبية أخرى فرعية مثل الحملة الصليبية النرويجية وغيرها من الحملات الأخرى التي لم تحظ بذات الاهتمام الذي وجه للحملات الرئيسية، وبالتالي فمن الإنصاف القول بأن رؤية المشروع الصليبي كمشروع واحد عام من الممكن أن تمنينا الرؤية المجزأة والتي قد لا تقدر أهمية الحملات الفرعية التي ساهمت بدورها هي الأخرى في تكوين جسد المشروع الصليبي ككل، وقد كان دعم الملك النرويجي سيجورد للحركة الفرنجية الصليبية خلال المرحلة من ١١٠٧ - ١١١٠ م / ٥٠١ - ٥٠٤ هـ^(١).

تقول الكاتبة كارين ارسترونغ: ... إن الحملات الصليبية لم تكن مجرد حركة هامشية في العصور الوسطى، بل كانت حركة محورية بالنسبة للهوية الغربية التي كانت قيد التبلور في ذلك الحين وهي ما فتئت مستمرة إلى يومنا هذا، ناهيك عن أنها أظهرت الدين في أشنع صوره^(٢). .. خلال عام ١٩٨٣ م أمضيت بعض الوقت في إسرائيل لإجراء أبحاث وإعداد سلسلة تلفزيونية عن المسيحية المبكرة للقناة البريطانية الرابعة، وأثناء وجودي هناك، وجدت نفسي المرة تلو المرة وجهاً لوجه مع الحملات الصليبية. وأنت في إنكلترا قد تمر بضعة شهور من غير أن تتبادر إلى ذهنك الحملات الصليبية حتى ولو مرة واحدة، لكن ذلك مستحيل ببساطة وأنت موجود في إسرائيل، ففيها تطالعك باستمرار كنائس وقلاع ومدن بأكملها بناها الصليبيون. ولأول مرة، أصبحت الروح الصليبية حقيقة تاريخية ملموسة بالنسبة لي، فقلت لنفسني: هذه ليست أساطير غامضة، فإنه منذ ما يقرب من ألف عام، حين كانت أوروبا لا تزال ترتع في الهمجية وأبعد ما تكون عن التمدن، شق آلاف المسيحيين طريقهم بجهد جهيد نحو الشرق الأوسط، وأنشأوا دولاً وممالك هناك، وكانت تلك أولى مستعمراتنا، ومجرد حدوث ذلك ليدو للمرء أمراً غير عادي البتة. ولعل ما سحرني بنوع خاص، قلاع الصليبيين وحصونهم الضخمة، واكتشافي أنها بنيت على امتداد حدود دويلاتهم، فثمة

(١) الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية، محمد مؤنس عوض، ص ٤١.

(٢) الحرب المقدسة، ص ١١.

سلسلة من القلاع الصليبية في إسرائيل، ولبنان، وسوريا والأردن، ولا عجب إذن أن يكون الإسرائيليون والفلسطينيون كلاهما على معرفة جيدة بالحملات الصليبية بأدق تفاصيلها، فالإسرائيليون لا يخفون أن مشاريع الاستيطان الضخمة التي ينفذونها على التلال المحيطة بمدينة القدس إنما تشبه الحصون الصليبية شبةا بيئاً؛ فالناس الذين يقطنون تلك المجمعات السكنية يرون أنفسهم حُماة لأورشليم اليهودية من العرب. فلكي يهاجم القدس، سيجد الجيش العربي الغازي أنه مضطر إلى شق طريقه عبر تلك المستوطنات المدنية الكثيفة السكان في خط النار، كما اكتشفت أن الدراسات الصليبية مزدهرة في الجامعة العبرية بالقدس، وهذا ما لم يُفاجئني أبداً. فأطلال وأوابد القلاع الصليبية قميئة بتذكير المرء بأن ثمة دولة غربية أخرى قد زرعت نفسها في عالم إسلامي معاد لها، وأنها كانت قلقة -على ما يبدو- بشأن أمنها القومي، تماماً كقلق دولة إسرائيل اليوم، ولم يكن قد خطر لي في السابق قط أن أقرن المشروع الصليبي الغربي والملتبس جداً في القرون الوسطى، بالنزاع القائم حالياً في الشرق الأوسط، لكن سرعان ما بدا الأمر غاية في السهولة حين كنت في إسرائيل^(١).

(١) الحرب المقدسة، ص ١٥.

المبحث الرابع

أسباب نجاح الحملة الصليبية الأولى

نجحت الحملة الصليبية إلى حد كبير في تثبيت وتأسيس أربع إمارات لاتينية: الأولى في أعالي الفرات وهي الرها، والثانية في أعالي الشام وهي أنطاكية، والثالثة على الساحل الشامي وهي طرابلس، أما الرابعة فكانت في قلب فلسطين وهي بيت المقدس^(١)، إضافة إلى أربع بارونيات كبرى هي: صيدا ويافا وعسقلان والجليل، واثنى عشر إقطاعاً تسلمها أصحابها من الملك الصليبي مقابل تقديم فروض الولاء والطاعة له وتتمثل في: أرسوف، حبرون، الداروم، قيسرية، نابلس، بيسان، حيفا، تبنين بانياس، كيفا، اللد، وبيروت^(٢). وجدير بالذكر أن هذا النجاح الذي حققه يرجع إلى عدة عوامل وأسباب ساهمت فيه منها:

أولاً: انعدام الوحدة السياسية في العالم الإسلامي:

بدأ الضعف يتسرب إلى جسم الدولة العباسية المترامية الأطراف في العقود الأخيرة من القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) عندما بدأت بعض الولايات البعيدة عن مركز الدولة في بغداد، تنفصل مكونة دولاً مستقلة وتعجز الخلافة عن إعادتها للسيطرة المركزية، فقد تأسست دولة الإدراصة في أقصى المغرب عام ١٧٢هـ - ٧٨٨م^(٣)، كما تأسست دولة الأغالبة في تونس ١٨٤هـ - ٨٠٠م، ثم قامت الدولة الفاطمية على أنقاض دولة الأغالبة في تونس عام ٢٩٧هـ / ٩٠٩م، وفي مصر قامت الدولة الطولونية عام ٢٥٤هـ / ٨٦٨م، أعقبتها الدولة الإخشيدية عام ٣٢٣هـ / ٩٣٥م، وفي عام ٣٥٨هـ / ٩٦٩م استولى الفاطميون على مصر وجعلوا القاهرة عاصمة دولتهم، وهكذا خرج المغرب الإسلامي ومصر بشكل تدريجي من حيث الزمان والمكان عن نطاق الدولة العباسية، وظهرت خلافة جديدة تسيطر على النصف الغربي من العالم الإسلامي وتسعى للسيطرة على النصف الشرقي الذي أصابه ما أصاب النصف الأول من حيث قيام الدول المستقلة، فقد قامت الدولة الطاهرية في خراسان عام ٢٠٥هـ / ٨٢٠م وتبعتها الدولة الصفارية عام ٢٥٤هـ / ٨٦٧م، ثم غلبت على المنطقة

(١) دور الفقهاء والعلماء في الشرق الأدنى، ص ٣٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٧.

(٣) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص ٢٤.

السامانية التي تأسست عام ٢٠٤هـ/٨١٩م في بلاد ما وراء النهر، ثم امتد نفوذها لتشمل جميع البلاد التي كانت تتبع الدولة الصفارية، وكان نفوذ الخلافة العباسية يتحول من سلطة سياسية إدارية روحية إلى سلطة روحية فقط، ولم يبق للخليفة سوى ذكر اسمه في خطب الجمعة متبوعاً باسم السلطان الغالب على البلاد، ويعود السبب الرئيسي في ضعف الخلافة العباسية وتلاشي سلطتها^(١) إلى أسباب كثيرة ليس هنا مجال بحثها، وقد تمكن الأتراك في عهد المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ) وكانت لهم حظوة في عهده وقربهم وأسند لهم المناصب العليا في مركز الدولة والولايات، واعتمد عليهم في حراسة قصره، حتى تناولوا على الناس وكثرت شكاوي الناس من ظلمهم في بغداد، فبنى لهم المعتصم مدينة سامراء وجعلها عاصمة لهم ومن حوله حاشيته من الأتراك، فزاد نفوذهم وصاروا وحدهم المتسلطين على أمور الخلافة والدولة حتى صاروا هم الذين ينتخبون الخليفة الذي يريدون، ويعزلون من لا يوافق رغباتهم وأهواءهم. وفي عام ٣٣٤هـ/٩٤٥م استولى البويهيون الشيعة على العراق وأضافوه إلى دولتهم التي تأسست قبل ذلك في فارس وصاروا هم المتسلطين على شئون الخلافة وتعسفوا في معاملة الخليفة حتى إنهم عذبوا بعض الخلفاء وسجنوا بعضهم وقتلوا البعض الآخر، وكان بإمكانهم إنهاء الخلافة العباسية والدعوة للخلافة الفاطمية في العراق وباقي المشرق الإسلامي، خاصة بعد استيلاء الفاطميين على مصر، لكنهم لم يفعلوا ذلك، ليس حفاظاً على الخلافة العباسية، بل حفاظاً على سلطانهم ودولتهم من أن تزول لصالح الفاطميين، الذين تمكنوا من بسط سيطرتهم على بلاد الشام وشبه جزيرة العرب، وأخذوا يثيرون دعائهم في العراق لإنهاء الخلافة العباسية وضم باقي المشرق الإسلامي لدولتهم. وفي عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م استغل أحد دعائهم ضعف سلطة البويهيين وأثار فتنة في بغداد تمكن خلالها مع مؤيديه من إلقاء القبض على الخليفة وحبسه، فاستجد الخليفة بالسلطان طغرل بك سلطان السلاجقة الذين كانوا قد أسسوا دولتهم عام ٤٢٧هـ/١٠٣٧م في بعض مناطق خراسان، ثم توسعوا جنوباً وغرباً في أراضي الدولة البويهية التي كانت قد ضعفت، كما تقدم وسارع سلطان السلاجقة إلى استغلال الفرصة فتوجه إلى العراق وقضى على الفتنة، وعلى الدولة البويهية وأعاد للخليفة اعتباره، ولكن البساسيري الذي تأثر بدعوة الفاطميين استولى على بغداد بعد أن غادرها طغرل بك ٤٥٠هـ/١٠٥٨م وأقام الدعوة فيها للخليفة الفاطمي المستنصر بالله، إلا أن طغرل بك عاد إلى بغداد من جديد وقضى على داعية الفاطميين، واستقرت الأوضاع في العراق لصالح دولة السلاجقة السنيين، الذين أظهروا

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص ٢٥.

قدراً كبيراً من الاحترام للخليفة، ولكنهم أبقوه رمزاً دينياً بدون قوة وصلاحيات، وعندما اجتاحت الصليبيون بلاد الشام عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م كانت الخلافة العباسية عاجزة تماماً عن القيام بأي رد فعل سوى توجيه الرسل إلى سلاطين السلاجقة لمعالجة الأمر^(١).

ثانياً: الصراع على السلطنة في داخل البيت السلجوقي:

خلف السلطان ألب أرسلان السلجوقي عند وفاته سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م دولة متحدة الأركان قوية الجانب يحكمها ولداه السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان الأكبر في المشرق والعراق، وتاج الدولة تتش بن ألب أرسلان الأصغر في بلاد الشام تابع لأخيه الأكبر. واستمر هذا الاستقرار زمن السلطان ملكشاه (٤٦٥هـ - ٤٨٥هـ/ ١٠٧٢ - ١٠٩٢م) لاتباعه سياسة والده ووزيره نظام الملك الذي توفي سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م ثم تبعه ملكشاه ووزيره في السنة المذكورة مما أدى إلى خلق فراغ سياسي في صفوف العالم الإسلامي عامة والسلاجقة خاصة، وكانت سبباً حقيقياً في تفكك وحدة السلاجقة الذين أصبحوا ثلاث قوى تتصارع فيما بينها، قوة السلاجقة بزعامه قلعج أرسلان الأول في آسيا الصغرى، وقوة سلاجقة الشام بزعامه تاج الدولة تتش، وقوة سلاجقة فارس والعراق بزعامه السلطان بركياروق بن ملكشاه ومن ينازعه من إخوته^(٢)، وقد تحدثت بنوع من التفصيل عما جرى من الحوادث بين السلاجقة عامة بعد وفاة السلطان ملكشاه، علماً بأن النزاعات والحروب لم تقتصر على سلاطين وأمراء السلاجقة بل اشترك فيها أمراء بني مزيد في العراق والخليفة العباسي المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩هـ)، وقد أدى هذا الصراع إلى استنزاف إمكانيات دولة السلاجقة وانشغال سلاطينها وولايتها عن الخطر الفرنجي الداهم إلا من بعض الجهود الثانوية التي تم توجيهها لمقاومة الفرنجة تحت ضغط الرأي العام الإسلامي الذي أخذ يتبلور على أيدي بعض رجال الدين من العلماء والقضاة الذين كان لهم الفضل الأكبر بعد الله في يقظة الأمة وإعادتها إلى جادة الصواب، وإثارة الهمم لمقاومة العدوان الفرنجي، وبعد أن تطور الرأي العام في المشرق الإسلامي خاصة في بغداد إلى غضب وانتفاضة شعبية اضطر السلطان محمد لتوجيه والي الموصل الأمير مودود بن التوتكين لجهاد الفرنجة، ومن بعده قام بعض ولاية الموصل والجزيرة بمجهود طيبة للحد من توسع الفرنجة في بلاد الشام والجزيرة، لكنها كانت جهوداً فردية غير منتظمة ولم تلق من سلاطين السلاجقة الاهتمام والدعم المطلوبين، الأمر الذي مكن الفرنجة من الاستيلاء على أغلب بلاد الشام بالإضافة لمنطقة

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص ٢٧.

(٢) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص ٣٥.

الرها في الجزيرة، وظل الوضع على هذا الحال حتى تأسست الدولة «الزنكية» بالموصل عام ٥٢١هـ/١١٢٧م على يد عماد الدين زنكي والد نور الدين محمود زنكي، عندها انتظم أمر الجهاد ضد الفرنجة^(١)، واستمرت الحلقات المباركة في عهد نور الدين وصلاح الدين ودولة المماليك.

ثالثاً: الدولة الفاطمية؛

الفاطيون لا صلة لهم ببيت النبوة، والدولة الفاطمية هي دولة باطنية، وهذا رأي أكثر علماء الأمة الذين حققوا نسبهم وعلموا بواطنهم وأسرارهم. وقد سأل الشريف ابن طباطبا ملكهم المعز العبيدي الذي فتح مصر عن نسبه فسئل سيفه، وقال: هذا نسي، ونثر الذهب، وقال: هذا حسي^(٢)، فهم أولاد ميمون القداح بن ديصان اليهودي، قال أبو سامة عن عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية: كان زنديقاً خبيثاً عدواً للإسلام، متظاهراً بالتشيع، حريصاً على إزالة الملة الإسلامية، قتل من الفقهاء والمحدثين والصالحين جماعة كثيرة^(٣). قال الذهبي: وقد أجمع علماء المغرب على محاربة آل عبيد، لما شهدوه من الكفر الصراح الذي لا حيلة فيه، وقد رأيت في ذلك تواريخ عدة لصدق بعضها بعضاً، وخرج كثير من العلماء والعباد مع أبي يزيد الخارجي لقتال القائم بن عبيد الله وقالوا: نكون مع أهل القبلة ضد من ليس من أهل القبلة^(٤)، وخرب الفاطميون القيروان سنة ٤٤٩هـ وجلا علماءها إلى الأقطار ومات منهم كثير^(٥). وصلتهم بالقرامطة الملاحدة صلة أكيدة ودعوتهم دعوة واحدة^(٦)، يقول ابن خلكان: كان العاضد شديد التشيع متغالياً في سب الصحابة، وإذا رأى شيئاً استحل دمه^(٧). قال الإمام الشاطبي: أما الدجالون فمنهم معد من العبيدية الذين ملكوا إفريقية، فقد حكى عنه أنه جعل المؤذن يقول: أشهد أن معداً رسول الله، فهم المسلمون بقتله «أي المؤذن» ثم رفعوه إلى معد ليروا هل هذا عن أمره، فلما انتهى كلامه إليه قال: اردد عليهم أذانهم لعنهم الله^(٨)، وكل الإرهاب الذي زرعه الحشاشون في العالم الإسلامي، إنما هو ثمرة من ثمار الدعوة الإسماعيلية العبيدية في مصر، وحسن الصباح زعيم قلعة الموت الذي أرسل رجاله يقتلون العلماء والأمراء المجاهدين، وقد تلقى الدعوة على أيدي أصحابها في مصر، والدروز في بلاد الشام من آثار دعوة الدولة العبيدية،

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص ٣٤. (٢) وفيات الأعيان (٢/ ٨٠).

(٣) الروضتين في أخبار الدولتين، ص ٢٠١. (٤) السير (١٥/ ١٥٤).

(٥) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي (٢/ ١٦٥). (٦) واقدسناه (١/ ٢٦٠).

(٧) وفيات الأعيان (٣/ ١١٠).

(٨) الاعتصام للشاطبي (٢١/ ٩٧).

وهم يؤهلون الحاكم العبيدي، وعلاقتهم بإسرائيل علاقة جيدة^(١)، وفي عهد المستعلي والأمر: تولى الوزارة الأفضل بن بدر الجمالي وفي عهده تولى يهودي شتون قصر أم الخليفة فاشتد نفوذه وأسند مناصب الدولة لليهود، والأفضل هذا كان في أيامه نكبة القدس^(٢)، فعندما وصلت أخبار الزحف الفرنجي من آسيا الصغرى باتجاه بلاد الشام وانشغال السلاجقة بمواجهتهم في منطقتي أنطاكية والجزيرة والرها، اعتبر الأفضل أن الفرصة سانحة لاستعادة المناطق الداخلية من بلاد الشام، فأرسل وفداً إلى قادة الحملة الفرنجية وهم يحاصرون أنطاكية ليتفق معهم على اقتسام بلاد الشام بحيث يكون شمالها للفرنجية وجنوبها للفاطمين، واستقبل قادة الحملة الفرنجية الوفد الفاطمي بالترحيب وأظهروا الرغبة في التعاون مع الفاطمين ولكنهم لم يفصحوا عن حقيقة نواياهم حول القدس ولم يحصل الوفد الفاطمي منهم على جواب^(٣) واضح إلا أن الأفضل بدأ بتنفيذ خطته التي كان محورها استعادة القدس ودمشق مستغلاً انشغال السلاجقة بالمواجهة مع الفرنجة، فسار بجيشه إلى فلسطين وحاصر القدس في الوقت الذي كان الفرنجة يحاصرون أنطاكية، وبعد قتال شديد على الأسوار وفي المدينة استولى الفاطميون على القدس في شعبان ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م، وأرسل الأفضل وفداً آخر إلى قادة الحملة الفرنجية بعد أن توغلوا جنوباً باتجاه القدس، يعرض عليهم ما سبق عرضه الوفد الأول بالإضافة إلى السماح لهم بالحج إلى القدس بكل حرية بشرط أن يكونوا بدون سلاح، ولكن الفرنجة كانوا في هذه المرة واضحين في ردهم. سندخل القدس بسلاحنا دون إذن من خليفة القاهرة^(٤)، وهذا ما تم. ووصف الذهبي عموم جيوشهم بأنهم أهل شر وزعارة لاسيما من تزندق منهم، وقد ذاق المسلمون منهم من القتل والنهب والسبي حتى أن أهل صور استجدوا بالنصارى الروم من ظلمهم وجورهم وأخذهم النساء من الحمامات والطرق^(٥). وقد وصف ابن كثير ملوك الدولة العبيدية: بأنهم من أنجس الملوك سيرة، وأخبثهم سريرة، وقد ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات، وكثر أهل الفساد، وقل عندهم الصالحون من العلماء، وكثر بأرض الشام الدرزية والحشيشية، وتغلب الفرنج على الساحل^(٦). فهؤلاء ما دافعوا عن القدس لما حاصرها الصليبيون مقاومة تذكر^(٧). قال ابن خلكان معلقاً: ولو كانت في يد الأرمنية «أمراء الشام من الأتراك» لكان أصلح للمسلمين^(٨)، ولو لم يكن لهؤلاء الباطنية إلا قتلهم للصالحين

(١) واقدسه (١/ ٢٦٠).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٢٦٢).

(٤) المصدر نفسه ص ٣٦.

(٥) سير أعلام النبلاء (١٦/ ٤٦٨).

(٧) واقدسه، ص ٢٦٢.

(٨) وفيات الأعيان (١/ ١٧٩).

(٣) المصدر نفسه (١/ ٢٦٢).

(٦) البداية والنهاية نقلاً عن واقدسه، ص ٢٦٢.

لكفى.. وقبل احتلال الصليبيين للقدس، قتل الباطنية عام ٤٨٥هـ الوزير نظام الملك، وفي التاريخ عظة وعبرة: أنه ما ضعف المسلمون إلا في عهود دول البدع والزنادقة، وكل هوان وذل حلّ بديار المسلمين إنما هو من آثار البعد عن دين الله عز وجل، وتفشي البدع والواقع خير شاهد^(١).

رابعاً: سقوط الخلافة الأموية بالأندلس؛

ففي سنة ٤٢٢هـ سقطت الخلافة الأموية في الأندلس ودخلت البلاد في فترة جديدة عرفت بعصر ملوك الطوائف، امتدت من ٤٢٢هـ إلى ٤٨٤هـ وتسمية هذا العصر كفيلاً للدلالة على ما وصلت إليه الدولة من تحاذل وتفرق واضطراب وتناحر، حتى أنه حكم في النصف الأول من القرن الخامس الهجري نحو عشرين أسرة مستقلة في عشرين مدينة أو مقاطعة، ويسمى هؤلاء بملوك الطوائف ومن أشهرهم بنو عباد بإشبيلية وبنو حمود الأدارسة بمالقة والجزيرة، وبنو زيري بغرناطة وبنو هود بسرقسطة، وكان أقواهم بني ذي النون الذين ملكوا طليطلة وحكموا بلنسية ومرسية والمرية^(٢)، وكان هؤلاء الملوك يدفعون الأتاوات للملك إسبانيا المسيحي الذي استطاع أن يتزعزع من أيديهم كثيراً من المدن والمقاطعات، لذلك استنجد ملوك الطوائف بيوسف بن تاشفين أمير المرابطين بمراكش، ولم تحل سنة ٤٩٥هـ حتى استطاع يوسف بن تاشفين أن يضم الأندلس لدولة المرابطين. وقد فصلت ذلك في كتابي عن دولة المرابطين. وحينما قامت الدعوة للحروب الصليبية في مؤتمر كليرمونت سنة ١٠٩٥م كانت الحرب على أشدها بين المسيحيين والمسلمين في شبه جزيرة أيبيريا^(٣)، وأصبح ميزان القوى متارجحاً بين الفريقين دون أن يتمكن أحدهما من إحراز نصر حاسم على الآخر، وهذه الأسباب لم تكن إسبانيا في حالة تسمح لها بالاشتراك الفعلي في حروب خارج أراضيها سواء من جانب المسلمين أو المسيحيين، فقد كانت إسبانيا مسرحاً لحرب صليبية غريبة أو بمعنى آخر حركة استرداد قام بها المسيحيون الغربيون ضد مسلمي إسبانيا، وحينما استولى الصليبيون على بيت المقدس، أعلن البابا «باسكال الثاني» الحرب الصليبية في إسبانيا ضد المسلمين، لذلك بدأ الإسبان المسيحيون يشهرون الحرب الصليبية في إسبانيا ذاتها، وحاصروا سرقسطة لمدة قصيرة سنة ٤٩٤هـ ولكن الفرصة لم تكن سانحة لتحقيق هذا المشروع لأن المرابطين استعادوا بلنسية بعد ذلك بقليل، ومن ثم اضطر النصارى إلى فك

(١) واقداسه، ص ٢٦٣.

(٢) الحروب الصليبية. المقدمات السياسية، ص ٢٨٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٨٣.

الحصار^(١)، وهكذا لم يكن مسلمو إسبانيا في حالة تسمح لهم بأن يرسلوا أي نجدة ضد الصليبيين في الشرق ذلك لأنهم كانوا مشغولين بالصراع ضد مسيحيي إسبانيا، هذا إلى جانب النزاع فيما بينهم^(٢).

خامساً: دور النصاري الذين كانوا يعيشون في بلاد الشام:

كان المسيحيون يشكلون عنصراً مهماً من العناصر السكانية في بلاد الشام، وكانوا ينقسمون في بلاد الشام إلى عناصر مختلفة، فمنهم المسيحيون السوريون، والأرمن واليونان، أما المسيحيون السوريون فقد قاموا بدور ملحوظ بالنسبة للحملة الصليبية الأولى، فقد تعاونوا مع الصليبيين في انتزاع بيت المقدس من المسلمين. ولتوضيح موقف مسيحي الشام من الحملة الصليبية الأولى نذكر أنه كان لمساعدة مسيحيي «ارتاح» أثر كبير في استيلاء الفرنج عليها سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م، حيث قام سكان البلد المسيحيون بذبح الحامية الموجودة في «ارتاح»^(٣). وعندما اقترب الصليبيون من أنطاكية لم يجدوا صعوبة في التماس الأصدقاء في داخل المدينة، ذلك أنه انضم إلى المعسكر الصليبي عدد كبير من المسيحيين من سكان أنطاكية الذين دأبوا على الاتصال بأقاربهم في داخل المدينة من خلال باب القديس جورج في الغرب، فتيسر للصليبيين الوقوف على ما يحدث داخل أنطاكية^(٤)، وقد قاسى الصليبيون من المجاعة التي لحقت بهم أثناء حصار أنطاكية حتى إنه كان يموت شخص من بين كل سبعة أشخاص، ولذلك سارع النصاري والأرمن بتقديم كل ما استطاعوا جمعه إلى المعسكر الصليبي^(٥)، وكان للنصاري أيضاً دور ملحوظ في استيلاء الفرنج على معرة النعمان ٤٩١هـ - ١٠٩٨م وعندما اشتد الجوع والعطش بالصليبيين المحاصرين لبيت المقدس سنة ٤٩٢هـ قام النصاري بدور المرشدين إلى مناطق الغابات والينابيع، كما أنهم ساعدوا صنجيل الفرنجي في حصار طرابلس سنة ٤٩٥هـ^(٦)، وأما الأرمن فيتضح موقفهم عندما وصل الصليبيون إلى منطقة أرمينية في جبال طوروس فقد مد لهم سكانها من الأرمن المسيحيين يد المساعدة وأحسنوا استقبالهم ومعاملتهم، وزودوهم بكل ما كانوا يحتاجون إليه من مؤن وأقوات، ولولا ذلك لأخفق الفرنج في مواصلة الزحف ولألحق بهم السلاجقة هزيمة منكرة، ولكن هذه المساعدات التي تلقوها من الأرمن هيأت لهم الجو لمواصلة العدوان

(١، ٢، ٣) الحروب الصليبية. المقدمات السياسية، ص ٢٨٤.

(٤) الشرق الأوسط والحروب الصليبية للفرنبي (١/٢٣٧).

(٥) الحروب الصليبية، المقدمات السياسية، ص ٢٦٩.

(٦) الكامل في التاريخ (٨/٤٤٦).

سادساً: موقف بعض الإمارات العربية من الغزو الصليبي:

عندما توجه الصليبيون نحو بيت المقدس بعد احتلال أنطاكية، وجعلوا طريقهم على الساحل، بدأت الاتصالات بينهم وبين أمراء المدن الشامية، الذين رأوا في زوال قوة السلاجقة فرصتهم للاستقلال ببعض المدن مثل حمص، وطرابلس وشيزر، تاركين المصلحة العامة للإسلام والمسلمين خلف ظهورهم، وقد قبل هؤلاء أن يدخلوا في طاعة الصليبيين، والنزول على شروطهم وتقديم المعونة والأدلاء لهم^(٢). وقد فرح بنو منقذ أصحاب شيزر، وبنو عمار أصحاب طرابلس - وهم من البيوتات العربية العريقة - بهزيمة السلاجقة، وأقبلوا يدون المعونة للغزاة من الصليبيين^(٣)، ومن الوقائع الغريبة والمواقف المريبة أن الأمير عز الدين أبو العساكر سلطان بن منقذ صاحب شيزر، أجرى اتصالات مع ريموند عندما كان الأخير في كفر طاب، وتعهد له بالألا يعترض طريق الصليبيين عند اختراقهم إقليم شيزر، وأن يقدم لهم ما يحتاجون إليه من غذاء فضلاً عن أنه أرسل دليلين في ١٧ يناير، ليرشدا الصليبيين في عبور إقليم نهر العاصي، وقد تم فعلاً تنفيذ تلك الاتفاقية^(٤)، وعندما وصلت طلائع الغزو الصليبي مدينة مصياف خرج إليهم أميرها، وعقد معهم اتفاقية اتجه بعدها نحو سهل البقاع، وسروا بما وجدوه فيه من خيرات، ثم توجهوا نحو حصن الأكراد وحاصروه حتى سقط في أيديهم في ٢٩ يناير ١٠٩٩ م^(٥)، ويذكر ابن الأثير أن الصليبيين ساروا إلى حمص وحاصروها فصالحهم صاحبها جناح الدولة^(٦)، وهكذا كان أمراء المدن الشامية متفككي الكلمة في ذلك الوقت، وكل منهم يحاول فقط أن يحتفظ بإمارته دون النظر إلى الهدف العام وهو الوقوف في وجه العدو الغاشم، ولما كان كل واحد منهم لا يستطيع بمفرده أن يقف في وجه الصليبيين، لذلك نجد أن معظمهم أخذ الأمان له ولسكان إمارته في مقابل بعض المساعدات للصليبيين، وهذا يدل على تغلل أسباب الضعف المعنوي في نفوس أولئك الأمراء والتي منها:

* ضعف الوازع الديني عند كثير من الأمراء.

(١) الحروب الصليبية - المقدمات السياسية، ص ٢٧٠.

(٢) جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ص ١٠٧، ١٠٨.

(٣) نور الدين محمود، حسين مؤنس، ص ٨٥.

(٤) الحركة الصليبية، د. سعيد عاشور (١/ ١٧٩).

(٥) المصدر نفسه (١/ ١٠٨).

(٦) الكامل في التاريخ (٥/ ٤٠١).

* الأنانية وحب الذات.

* الجبن والخور الذي أصاب كثيراً من الناس.

* الحرص على المصالح الدنيوية.

* ضعف عقيدة الولاء والبراء.

سابعاً : دور الباطنية الإسماعيلية الرافضة في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين :

شهدت بلاد الشام ظهور فرقة الإسماعيلية أو الباطنية التي أدت إلى زيادة تفكك القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة، ويمكن القول إن وجود الإسماعيلية الباطنية مجلب واتساع نفوذهم في بلاد الشام قد أدى إلى ظهور عامل جديد من عوامل تفكك وحدة المسلمين عامة والسلاجقة خاصة، ذلك التفكك الذي تعرضت له بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، الأمر الذي أدى بهذه الفرقة إلى مساعدة الصليبيين في الاستيلاء على بعض معاقل المسلمين، أو تهئية المناخ المناسب لسقوطها بيد الصليبيين، كما حدث في أفامية سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٧م^(١)، وقد لعبت هذه الفرقة دوراً خبيثاً شريعاً في عرقلة الجهاد في مرحلة الصراع مع الغزاة، إذ كانت خناجر غادرة تطعن قادة الأمة، من فقهاء ووزراء، وكان تاريخها صفحات سوداء ملطخة بدماء الأبرياء من أهل السنة^(٢).

١- تعاونهم مع الصليبيين: كان أول ظهور للحشاشين في بلاد الشام عام ٤٩٨هـ عندما أرسل الحسن بن الصباح داعيتهم الحكيم النجم، الذي تمكن من إفساد ما بين الأخوين دقاق حاكم دمشق، ورضوان صاحب حلب، ثم تحالف مع رضوان، واستماله إلى نخلتهم، وأقام داراً للدعوة الإسماعيلية في حلب، وبعد هلاك رضوان فتك خلفه ألب أرسلان الأخرس بالباطنية وقتل مقدمهم «أبا طاهر الصائغ» وقتل أعيانهم وحبس الباقين، وهرب آخرون منهم قاصدين بلاد الإفرنج وتفرقوا في البلاد^(٣)، واشتد نفوذهم في حلب ثانية أيام داعيتهم «بهرام» وعظم أمره، وهو في غاية التستر، وأخذ يدعو أوباش الناس، فتبعه الجهال وسفهاء العوام، وانتقل إلى دمشق، ودعا إلى مذهبهم، وأظهر شخصيته، وأعانه على ذلك وزير طغتكين «أبو طاهر المزدقاني» فعظم شره.. وخاف من أهل دمشق فطلب من طغتكين حصناً يأوى إليه هو وأتباعه، فأشار عليه المزدقاني بتسليمه قلعة «بانياس» الواقعة غربي دمشق، فاستلمها وتجمع فيها أصحابه^(٤). ويعتبر ابن الأثير أن تسليمهم هذا

(١) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص ٥٩.

(٢) الجهاد والتجديد، محمد الناصر، ص ١٤٠. (٣) المصدر نفسه، ص ١٤٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٤١.

الحصن كان كارثة على البلاد، إذ عظم خطب بهرام، وصار يدعو أوباش الناس وطغاهم إلى مذهبهم، فحلت الحنة بظهوره، واشتد الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين، ولاسيما أهل السنة، إلا أنهم لا يقدرون أن ينطقوا بحرف واحد خوفاً من سلطانهم طغتكين أولاً، ومن شر الإسماعيلية ثانياً^(١). وأفاق طغتكين على شرورهم، لكنه هلك قبل أن يفعل ضدهم شيئاً، وعندما خلفه ابنه تاج الملك بوري في حكم دمشق، أفرط الوزير المزدقاني في حماية الباطنية، والعطف عليهم، ثم تأمر مع الصليبيين، فعرض عليهم أن يسلمهم مدينة دمشق مقابل إعطائه هو والباطنيين مدينة صور بدلاً منها، وأبرمت الاتفاقية، وحدد أحد أيام الجمعة لتنفيذها، بينما يكون المسلمون في المساجد، فتفتح أبواب دمشق للفرنجية بسهولة، ولكن المؤامرة كشفت قبل موعد تنفيذها، فقتل بوري وزيره الخائن، وأحرق جثته، وعلق رأسه على باب القلعة، ونادى بقتل الباطنية، فقتل منهم ستة آلاف نفس، واستمر أهل دمشق يذبحون فيهم، فأفنؤهم تقطيعاً بالسيوف وذبحاً بالخناجر في منتصف رمضان من عام ٥٢٣هـ^(٢). وعند ذلك استنجد داعيتهم إسماعيل العجمي في بانياس بالصليبيين ليحموه وأصحابه، وعرض عليهم مقابل ذلك تسليم بانياس إليهم، وتسلب الباطنية إلى البلدان المجاورة، بعد أن سلموا المدينة لهم^(٣).

٢- اغتيال القادة المسلمين: كان الاغتيال من الأسلحة الرهيبة التي استخدمها الباطنيون لتنفيذ أغراضهم، والتخلص من خصومهم، وظلت حركة الحشاشين الباطنية إسفيناً في قلب المجتمع الإسلامي، ساهمت في تمزيقه ونشر الرعب في أرجائه، مما ساهم في احتلال بلاده^(٤)، فقد كانت حركة الحشاشين مصدراً للانحلال السياسي والاجتماعي طيلة عصر الحروب الصليبية.. وأصبحت عصابة سرية فريدة من نوعها ومدرية على أساليب القتل المنظم.. فذهب ضحية إجرام الباطنيين عدد كبير من قادة الجهاد الإسلامي وخيرة رجاله ولم يسلم من بطشهم المخلصون في المجتمع الإسلامي^(٥). وكان أول ضحايا الاغتيال والغدر الوزير السلجوقي نظام الملك عام ٤٨٥هـ، كما قتلوا عدداً من الوزراء منهم أبو طالب السميري وزير السلطان محمود السلجوقي، ذبحوه ومثلوا به نيفاً وثلاثين جراحة، كما قتلوا وزير السلطان سنجر معين الملك أحمد ابن الفضل^(٦)، وقتلوا الوزير فخر الملك ولد نظام الملك، قتلوه وهو صائم يوم عاشوراء، جاءه

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص ١٤١.

(٢) الكامل في التاريخ (٨/٦٦٨، ٦٦٩).

(٣) المصدر السابق (٨/٦٦٩). (٤) الجهاد والتجديد، ص ١٤٣.

(٥) أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد، ص ١٨٣ - ١٨٤.

(٦) ذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي، ص ٣٢٤.

صبي «وهو خارج من داره» يصيح: ذهب المسلمون ولم يبق من يكشف مظلمة ولا يأخذ بيد ملهوف، فاستمع إليه رحمة به، فطعنه الباطني بسكين وقتله^(١). واغتالوا عدداً من الولاة والأمراء منهم جناح الدولة حسين صاحب حمص، صهر رضوان صاحب حلب، قتلوه عندما نزل من القلعة ليصلي الجمعة في المسجد الكبير، هجم عليه ثلاثة من الخشاشين في لباس الدراويش وقتلوه عام ٤٩٥هـ وكان وقتها يتهاى لقتال الصليبيين، ويتقد رضوان لتهوانه في قتالهم، فتآمر على اغتيال زوج أمه^(٢)، وكان رحمه الله أميراً مجاهداً يباشر الحروب بنفسه^(٣)، ومن جرائم الخشاشين قتلهم القائد المجاهد الأمير مودود بن النوكتين في ساحة المسجد الأموي عام ٥٠٧هـ وقد هزم الصليبيين في أكثر من موقعة، وكان رحمه الله صائماً رفض أن يفطر^(٤)، كما قتلوا والي الموصل، آق سنقر البرسقي عام ٥٢٠هـ هجموا عليه وهو يصلي الجمعة في جامع الموصل، وثب عليه بضعة عشر نفرأ من الفدائيين، وطعنوه بخناجرهم، وقتل -رحمه الله- بعد أن جرح ثلاثة منهم بيده، وكان رجلاً عادلاً عابداً متهجداً قاد الجيوش ضد الصليبيين مراراً^(٥)، ولم يتورع الباطنيون عن قتل من تمكنوا من الوصول إليه من خلفاء الدولة العباسية، ومن هؤلاء الخليفة المسترشد، وكان -رحمه الله- عالماً تقياً فاضلاً بليغاً، عارفاً بالفتوى، هجموا عليه في خيمته واغتالوه ومثلوا به -قاتلهم الله- وكان ذلك عام ٥٢٩هـ^(٦)، كما اغتالوا ولده الخليفة الراشد في أصبهان عام ٥٣٢هـ ودفن فيها رحمه الله، قتله الباطنية وكانوا في خدمته، ودفن في ظاهر أصفهان^(٧).

وأما العلماء والفقهاء: فقد اغتالوا عدداً منهم، نذكر على سبيل المثال، أبو القاسم بن إمام الحرمين، قتله الباطنية غدراً عام ٤٩٢هـ والفقير أحمد بن الحسين البلخي قتله الباطنية غدراً عام ٤٩٤هـ والفقير عبد اللطيف بن الخنجردي قتله الباطنية غدراً عام ٥٢٣هـ والفقير أبو المحاسن الروياني قتله الباطنية غدراً عام ٥٠٢هـ، والقاضي أبو العلاء مساعد النيسابوري قتله الباطنية بجامع أصبهان ٤٩٩هـ، والقاضي عبيد الله بن علي الخطبي قتله الباطنية بالجامع وهو يؤدي صلاة الجمعة عام ٥٠٢هـ، والقاضي صاعد بن عبد الرحمن أبو العلاء قتله الباطنية يوم عيد الفطر بنيسابور عام ٥٠٢هـ، والقاضي أبو سعد محمد بن نصر الهروي هجم عليه قوم من الباطنية في جامع همدان وقتلوه عام ٥١٨هـ، والواعظ

(١) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص ١٤٤.

(٢) الجهاد والتجديد، ص ١٤٥. (٣) النجوم الزاهرة (١٦٨/٥).

(٤) البداية والنهاية نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص ١٤٥.

(٥) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص ١٤٥.

(٦) الكامل في التاريخ (٧١٣، ٧١٢/٨). (٧) الروضتين لأبي شامة (٣١/١).

أبو جعفر بن المشاط كان يدرس للناس في الجامع ولما نزل من على كرسيه وثب عليه باطني وقتله عام ٤٩٨هـ، والواعظ أبو المظفر الخجندي وكان يدرس للناس في الجامع، ولما نزل من على كرسيه وثب عليه باطني وقتله^(١). وقد قام محمد حامد الناصر بعمل جدول أسماء القادة والعلماء الذين اغتيلوا بيد الباطنية^(٢)، وعلق بعد ذلك بقوله: يتبين لنا ضخامة الدور البشع لتلك الحركات في القضاء على فاعلية الأمة وحيويتها في الصراع الدائر بين المسلمين والغزاة الصليبيين ويتضح لنا من سلسلة الاغتيالات وتوقيتها، ونوع شخصياتها ملاحظات في غاية الأهمية منها:

- أن الذين قتلوا على يد الباطنيين، كانوا يمثلون مراكز القيادة والتوجيه في ميادين السياسة والفكر والجهاد في سبيل الله.
- وأن تصفية هؤلاء كان خدمة متعمدة لخدمة الصليبيين من جهة ولقيادة المذهب الإلحادي الخبيث من جهة أخرى.
- أن كثيراً من ضحايا الاغتيال قتل وهو صائم، أو في وقت تأدية صلاة الجمعة أو خلال مجلس للوعظ الديني والإفتاء في بيوت الله.
- أن أكثرهم كان يشهد لهم بالصلاح والتقوى والصيام والتهجد والمحافظة على الصلوات مع جماعة المسلمين والإثخان في جيوش الصليبيين^(٣).

٣- إشاعة الرعب والخوف في المجتمع الإسلامي: لم يقتصر دور الباطنيين على اغتيال القادة، ولا على التعاون مع الصليبيين، وإنما كانوا ينشرون الرعب بين الناس بشتى السبل، كانوا يقطعون الطريق ويعتدون على سكان القرى المجاورة لهم فيذبحونهم ويستولون على ما لديهم من مال ومتاع، ولم تسلم القوافل المارة بجوار قلاعهم من القتل والنهب، فأصبح الناس لا يأمنون على أنفسهم، ولا على أولادهم وأموالهم، وبلغت جرأتهم أنهم كانوا يخطفون الناس من الشوارع والحارات بأغرب الوسائل، وكان الرجل إذا تأخر عن بيته عن الوقت المعتاد، يتقن أهله من قتله، وقعدوا للعزاء به، وحذر الناس، حتى صاروا لا ينفرد أحدهم في مسيره، وقد أخذ الباطنية مؤذناً، عن طريق جار له باطني، فقام أهله للنياحة عليه، فأصعده الباطنية إلى سطح داره، وأروه أهله كيف يلطمون ويكوبون، وهو لا يقدر أن يتكلم خوفاً منهم^(٤)، واشتد الخوف والرعب من جرائمهم حتى إذا جاء الليل أخفوا جميع ما

(١) الجهاد والتجديد، ص ١٤٨، ١٤٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٩، ١٥٠.

(٣) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص ١٥١.

لديهم من مال ومتاع في أماكن مجهولة غير معروفة خوفاً من هجماتهم وأخذهم إياها، فإذا أصبحوا أخرجوها ثانية^(١)، ولم يسلم الحجاج من بطش الباطنيين ففي عام ٤٩٨ هـ تجمعت قوافل الحجاج مما وراء النهر وخراسان والهند، فوصلوا خوار الري، وهي قرية من أعمال بيهق من نواحي نيسابور، فباغتهم الباطنية وقت السحر، ووضعوا فيهم السيوف، وقتلوه، وغنموا أموالهم ودوابهم، ولم يتركوا شيئاً إلا أخذوه^(٢)، وفعلوا مثل ذلك عام ٥٥٢ هـ في حجاج خراسان فقتلوه جميعاً، ولم يبق منهم إلا العدد اليسير، وكان فيهم الأئمة والعلماء والزهاد والصلحاء، وفي الصباح طلع على القتلى والجرحى أحد الباطنية، وهو ينادي: يا مسلمون! ذهبت الملاحدة، فمن أراد الماء سقيته، فكان كلما رفع جريح رأسه وتكلم بكلمة أجهز عليه ذلك الباطني وقتله، حتى لم يبق الخبيث منهم أحداً^(٣). ونتيجة لهذا الوضع، أصبح الناس غير آمنين، فكانهم غرباء عن بعضهم، فقطعت الأرحام، وتفككت الروابط، وزادت الفرقة بين الناس وازداد الخوف بين الناس، حتى صار كثير من العلماء والكتاب لا يتحدثون عنهم إلا بالتلميح والتورية كي لا تنالهم أيدي الباطنية، من هؤلاء مؤرخ الدولة السلجوقية العماد الأصفهاني^(٤) في كتابه: تاريخ آل سلجوق^(٥)، فما أشبه الليلة بالبارحة، وها هو التاريخ يعيد نفسه فهل من متعظ؟^(٦)

٤- فتوى ابن قيمية في الحركات الباطنية: سئل شيخ الإسلام عن الإسماعيلية وما تفرع عنها من حشاشين وقرامطة ومحمرة أو خرمية، وما شابههم فأجاب -رحمه الله-:

إن هؤلاء وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من اليهود والنصارى، بل وأكفر من كثير من المشركين، وضررهم على أمة محمد ﷺ أعظم من ضرر الكفار المحاربين، مثل كفار التتار والفرنجة وغيرهم، فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالنشيع، وموالة أهل البيت، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه، ولا بأمر ولا نهى، ولا ثواب، ولا عقاب، ولا جنة ولا نار، ولا بأحد من المرسلين، قبل محمد ﷺ^(٧).

ثم بيّن رحمه الله أخطارهم على المسلمين فقال: إذا كانت لهم مكنة سفكوا دماء المسلمين، كما قتلوا مرة الحجاج وألقوهم في بئر زمزم، وأخذوا الحجر الأسود، وبقي

(١) الجهاد والتجديد، ص ١٥١.

(٢)، (٣) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص ١٥١.

(٤) أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد، ص ٢١٠. (٥) المصدر نفسه، ص ١٥٢.

(٦) الجهاد والتجديد، ص ١٥٢. (٧) فتاوى ابن قيمية (١٤٩/٣٥).

عندهم مدة وقتلوا من علماء المسلمين ومشايخهم مالا يحصى عدده إلا الله تعالى^(١). ثم بين -رحمه الله- تواطؤهم مع الصليبيين فقال: ومن المعلوم عندنا أن السواحل الشامية، إنما استولى عليها النصارى من جهتهم، وهم دائماً مع كل عدو للمسلمين، فهم مع النصارى على المسلمين، ومن أعظم المصائب عندهم فتح المسلمين للسواحل، وانقهار النصارى، بل ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار^(٢).

وأشار -رحمه الله- إلى مهادنة العبيديين والفاطميين للصليبيين وتفريطهم في بيت المقدس فقال: فهؤلاء المحادون لله ورسوله، كثروا حيثئذ بالسواحل وغيرها، فاستولى النصارى على الساحل، ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف وغيره^(٣).

وبيّن تعاونهم مع المغول فقال: ثم إن التتار مدخلوا بلاد الإسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم فإن منجم هولاكو الذي كان وزيرهم وهو «النصير الطوسي» كان وزيراً للحشاشين في الموت وهو الذي أمر بقتل الخليفة وبولاية هؤلاء^(٤).

وبيّن -رحمه الله- حكم التعامل معهم فقال:.. وأما استخدام هؤلاء في ثغور المسلمين، أو حصونهم، أو جندهم، فإنه من الكبائر، وهو بمنزلة من يستخدم الذئب لرعي الغنم، فإنهم من أغش الناس للمسلمين، ولولاة أمورهم^(٥)، ولا يجوز استخدامهم للحراسة والبوابة والحفاظ، ويجب قتل علمائهم وصلحائهم لئلا يضلوا غيرهم، ويحرم النوم معهم في بيوتهم ورفقتهم والمشي معهم، وتشيع جنازتهم^(٦).

ثامناً: انتشار الفكر الشيعي والرافضي والباطني؛

هل كان يتصور أن يصمد المسلمون أمام الصليبيين وقد نفى الرفض وانتشرت البدع وقامت للمبتدعة دول. فالعبيدون الفاطميون بمصر (٢٩٧ - ٥٦٧هـ)، والبويهيون قد تملكوا مقاليد الأمور في بغداد وأهانوا الخلفاء أسوأ إهانة، والقرامطة وما فعلوه بالحجيج سنة ٣١٧هـ، بل بأهل دمشق سنة ٣٦٠هـ فقد أوقعوا بأهلها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ومحاولتهم إضعاف الدولة العباسية، وبنو حمدان (٣١٧ - ٣٩٤هـ) بحلب، والأسديون في الحلة (٤٠٣ - ٥٤٥هـ) لم يكتفوا بإماراتهم بل شاركوا في أحداث الدولة العباسية من إثارة الفتن على الخليفة، فهذا ديبس أميرهم يرغم على الجلاء عن الحلة فيذهب إلى الشام ويساعد

(١) فتاوى ابن تيمية، ص (٣٥/١٥٠).

(٢) المصدر نفسه (٣٥/١٥١).

(٣، ٤) المصدر نفسه (٣٥/١٥١ - ١٥٢).

(٥)، (٦) المصدر نفسه (٣٥/١٥٥ - ١٦٢).

الروم في حصار حلب على شرط أن يملكها بعد الانتصار على المسلمين، ولكن الحملة تفشل ويعود ديبس إلى الحلة فيقتل من قبل السلطان مسعود السلجوقي. ولقد تعاون الأسديون مع أرسلان البساسيري الداعي إلى طاعة العبيديين في مصر، فالأسديون تشيعهم ساعدوا هذا المارق، كما ساعدوا الروم ضد المسلمين^(١) فانتشار الفكر الشيعي الرفض والباطني كان من العوامل التي ساعدت على احتلال الصليبيين لبلاد الشام في الحملة الصليبية الأولى.

تاسعاً: تدهور الحياة الاقتصادية قبل الغزو الصليبي:

تجمعت الأموال في يد حفنة قليلة لا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً، وتركوا البلاد قاعاً صفصفاً يعانون شظف العيش بدون تأنيب ضمير أو حس^(٢)، ولعلنا نستطيع إيجاد أبرز مظاهر هذا الخراب الاقتصادي وما تبعه من مفاسد فيما يلي:

الإسراف والتبذير: عند علية القوم، إذ أصبح تكديس الأموال عندهم أمراً شائعاً، والنهب من أموال الدولة أمراً عادياً وإليك بعض الأمثلة:

- وجد في قصور العاضد آخر خلفاء الفاطميين: من الحواصل والأمتعة والملابس والمفارش شيء باهر، ومن ذلك سبعمائة يتيمة من الجوهر، عدا الزمرد والياقوت، واستمر بيع محتويات القصر نحواً من عشر سنين^(٣).

- والوزير الفاطمي بدر الجمالي كان قد خلف ثروة وجدت بعد وفاته منها: ستمائة ألف دينار عيئاً، ومائتا وخمسون إردب دراهم، وخمسة وسبعون ألف ثوب أطلسي، وثلاثون راحلة أحقاب ذهب عراقي، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار^(٤). ولما قتل ولده الأفضل وزير الفاطمية بعد أبيه بدر الجمالي، عام ٥١٥هـ نُقل من أمواله - بأمر الخليفة - مالا يعلمه إلا الله تعالى، ووجد من الأعلاق النفسية والأشياء الغريبة مالا يوجد مثله^(٥).

- ويصف ابن كثير جانباً من حياة أبي نصر أحمد بن مروان الكردي والي بلاد بكر وميفارقين المتوفى (٤٥٣هـ) فيقول: ملك هذه البلاد اثنتين وخمسين سنة، وكان عنده

(١) واقدسه (١/٣٥٧).

(٢) الجهاد والتجديد، ص ٧١.

(٣) البداية والنهاية نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص ٧١.

(٤) وفيات الأعيان (٢/١٦٠ - ١٦٢).

(٥) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص ٧٢. (٥) المصدر نفسه، ص ٧٢.

خمسائة سرية سوى من يخدمهن، وعنده خمسمائة خادم، وكان عنده من المغنيات شيء كثير، كل واحدة مشتراها بخمسة آلاف دينار، وكان يحضر مجلسه من آلات اللهب والأواني ما يساوي مائتي ألف دينار^(١).

- ويصف كذلك جهاز زواج ابنة السلطان ملكشاه عام ٤٨٠هـ فيقول: في المحرم من هذا العام نقل جهاز ابنة السلطان ملكشاه إلى دار الخلافة على مائة وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الروحي، غالبها أواني الذهب والفضة، وعلى أربعة وسبعين بغلة مجللة بأنواع الديباج الملكي وأجراسها وقلاندها من الذهب والفضة، وكان على ستة منها اثنا عشر صندوقاً من الفضة، فيها أنواع من الجواهر والحلي^(٢).

- وقلد الجند والأمراء والوزراء في الجشع والنهب، فكانوا إذا نشبت فتنة بين السلاطين والملوك أو بين أمرائهم، استغلوا الفرصة ونهبوا المدن والمحلات التجارية والبيوت وتفنن التجار في رفع الأسعار، وخاصة خلال ندرة الأقوات والحاجات، وكانت عساكر السلاطين تعيث فساداً في أموال الناس وقرى الفلاحين^(٣). هذا وصف موجز لحال الأمراء والوزراء بينما كان الأمر مختلفاً تماماً عند العلماء والأدباء وعامة الناس^(٤).

- غلاء الأسعار وانتشار المجاعات: كثرت الضرائب على المواطنين وتفننت الدولة في طرق الابتزاز حتى إن الحجاج كانوا يدفعون الكثير من الضرائب للبلد الذي يمرون فيه، كما كان يفعل الفاطميون مع حجاج المغرب في مصر، ومن عجز عن الأداء حبس، وربما فاته الوقوف بعرفة، حتى أسقط السلطان صلاح الدين المكوس والضرائب عن الحجاج بمكة^(٥). وغلت الأسعار بشكل مذهل، فقد روى ابن تغري بردي: أن رجلاً باع داراً بالقاهرة، كان اشتراها قبل ذلك بتسعمائة دينار، بعشرين رطل دقيق، وبيعت البيضة بدينار وذلك عام ٤٢٨هـ. وعم الوباء والقحط بالعراق والشام كذلك وسائر أرجاء العالم الإسلامي، فكان الناس يأكلون الميتة من الحيوانات، وينشون قبور الموتى من البشر، أما الأغنياء، فكانوا يشترون الرمانة والسفرجلة بدينار، كان ذلك ما بين ٤٨٤ - ٤٨٩هـ^(٦)، ويصف ابن كثير الحالة العامة من غلاء الأسعار والمجاعات لعام ٤٦٢هـ ومن غرائب ذلك قوله: بأنه قد نزل الوزير في مصر يوماً عن بغلته، فغفل عنها لضعفه من الجوع، فأخذها ثلاثة نفر فذبحوها

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص ٧٢.

(٢) البداية والنهاية (١٠٧/١٦). (٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ٢٢.

(٤) الجهاد والتجديد، ص ٧٣.

(٥) البداية والنهاية نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص ٧٤. (٦) النجوم الزاهرة (١٥/٥ - ١٧).

وأكلوها، فأخذوا وصلبوا، وما أصبحوا إلا وعظامهم بادية، قد أخذ الناس لحومهم فأكلوها وكان لا يجسر أحد أن يدفن ميتة نهراً، وإنما يدفنه ليلاً خفية، لئلا ينبش فيؤكل^(١).

- اضطراب الأمن وإهمال المصالح العامة: أصبحت الصفة العامة للحياة الاجتماعية الشغب واضطراب جبل الأمن، ولطالما تورد اللصوص حتى في قلب العاصمة بغداد، ولربما احتلوا بعض الأماكن وفي غمرة هذه الفوضى انصرف المجتمع إلى الانشغال بقضايا اليومية الصغيرة، فكانوا كأهل الجاهلية همة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً^(٢)، فما أشبه الليلة بالبارحة، وكانت الخلافة العبيدية تقدم الهبات لشيوخ القبائل، فإذا انقطعت الأموال، شقت القبائل عصا الطاعة، فتشن الغارات المدمرة على مختلف بلدان الشام ومدنها^(٣). يضاف إلى ذلك قطع الطرق على قوافل التجار، ونهب أصحابها، وكان التركمان يشتركون في مثل هذه الغارات^(٤). وقد أهملت شئون الزراعة والري، فكثرت الفيضانات، في دجلة والفرات، وأهلكت المرافق العامة، كما أهملت الطرق، وشئون الأمن، ونهبت المحلات التجارية والبيوتات من قبل اللصوص^(٥)، وأضيف إلى ذلك غارات الأعراب على الريف ونهب المحاصيل، ونتيجة لكل ذلك كانت المجاعات، رغم كثرة الخيرات وخصوبة الأراضي لو وجدت لها حافظاً وسلمت من أيدي العابثين^(٦).

عاشراً: ضعف الدولة البيزنطية:

تعرضت الدولة البيزنطية في أواخر القرن الخامس الهجري إلى ضغط شديد من قبل السلاجقة، على إقاليمها الآسيوية، كما تعرضت في الوقت ذاته لخطر النورمان وضغطهم على أقاليمها الأوروبية، الأمر الذي أدى إلى ضعفها، وبالتالي تراجعها أمام هذين الضغطين، فتراجعت أمام السلاجقة بعد هزيمتها في معركة ملاذكرد معهم، كما تراجعَت أمام الذين انتزعوا منها آخر معاقلمهم في إيطاليا، ووجهوا أنظارهم نحو الشاطئ الشرقي للبحر الأدرياتي، وخاصة بعد أن انتزعوا صقلية من المسلمين، بل لقد طمعوا في القسطنطينية نفسها، وأخذ النورمان بعد ذلك يحلمون بمواصلة الحرب ضد المسلمين في الشرق، فاتجه فريق من المغامرين منهم نحو الدولة البيزنطية، واشتبكوا مع البيزنطيين في مواقع كثيرة، كما زحف روبرت النورماني على القسطنطينية نفسها لكنه اضطر إلى العودة إلى

(١) البداية والنهاية نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص ٧٥.

(٢) الروضتين لأبي شامة (٧/١).

(٣) الجهاد والتجديد، ص ٧٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٤.

(٥) هكذا ظهر جبل صلاح الدين، ص ٥٤.

(٦) الجهاد والتجديد، ص ٧٥.

إيطاليا وترك قواته في بلاد البلقان لابنه بوهيمند الذي صار فيما بعد بطلاً من أبطال الحملة الصليبية الأولى، وكان النورمان قد أوقعوا في الإمبراطورية القسطنطينية خسائر كثيرة، حتى كادت تسقط بأيديهم قبل الغزو الصليبي، الأمر الذي فتح لهم طريق الشرق ويسر زحف الصليبيين في هذه الديار ^(١).

الحادي عشر: تمرس فرسان الإفرنج على الحرب والإمدادات الأوربية المستمرة لهم:

ويجب ألا يغرب عن البال تمرس فرسان الإفرنج بالحرب في بلادهم، فالعصر عصر إقطاع وفروسية، ونشأة الفارس منذ الصغر على الفروسية ويذكر المؤرخون المعاصرون أنه كانت لفرسان الإفرنج حملة مشهورة كان المسلمون يفسحون لهم الطريق أو يتظاهرون بالانهزام ليتفرق الفرسان وينفصلوا عن المشاة فيتمكن المسلمون من مهاجمتهم من الجوانب والخلف، واعتمد المسلمون في حربهم معهم على القوس والسهام كثيراً، وماذا تفعل السهام بهذه الكتل الحديدية المتحركة، فالفراس والحصان تغطيها الدروع، ومع الزمن اكتسب المسلمون خبرة في حربهم فكان ذلك سبباً من أسباب انتصارهم عليهم. ويجب عند ذكر قوة الصليبيين أن لا ننسى الإمدادات الأوربية لهم من سفن وحجاج وفرسان تأتي إليهم كل عام ^(٢).

وبعد هذا، فقد لاحظنا من خلال ما مر ذكره في أحوال الأمة قبل الهزائم التاريخية الكبرى عند هجوم الصليبيين على العالم الإسلامي أن الفرقه حفرت بين دوله خنادق بعيدة القاع فأمسى بعضها يتربص بالبعض الآخر، ويتمنى له الدمار، فالدولة الفاطمية في الشمال الإفريقي ومصر تغير على الدولة العباسية في العراق والشام والحجاز، والدولة الأموية في الأندلس تمنى البوار للفرقيين، كي يؤول إليها الميراث الدسم. والفرقاء المشاكسون محصورون في أحقادهم لا يحسون بالزحف الصليبي القادم من الغرب، ولا الزحف التتاري القادم من الشرق، أيرضى الإسلام عن هذه الضغائن الخسيسة، أو ينتظر من أصحابها أن يخدموا عقائده وشرائعه ^(٣). ولاحظنا أن الخلفاء العباسيين في غاية الضعف والهوان، فقد هرب الخليفة العباسي «القائم بأمر الله» بعدما سقطت بغداد في أيدي الفاطميين واعتقله أحد البدو، ولكن الملك السلجوقي «طغرل بك» استنقذه وردّه إلى عاصمة ملكه، فكافأه الخليفة على حسن صنيعه ولقبه ملك المشرق والمغرب، وأطلق يده في إدارة الدولة واضطر إلى تزويجه بابنته رغم أنفه، ومات الملك السلجوقي فورثه ابنه ألب أرسلان، ومات الخليفة

(٢) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص ٢٢.

(١) الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ٣٠.

(٣) هموم داعية، محمد الغزالي، ص ٤٠.

العباسي وورثه عباسي آخر لقب نفسه «بالمقتدي» وكان شاباً في التاسعة عشرة من عمره ولم يكن الشاب الشريف النسب قديراً على الإدارة فتولاها عنه سلجوقي آخر يدعى «ملكشاه» وهو ابن ألب أرسلان الذي توفي بعد حياة عامرة بالجهاد، وقد استبد «ملكشاه» بالسلطة - بعد وفاة نظام الملك الوزير الصالح - وازدري الخليفة، وبلغ من احتقاره له أن أمره بترك بغداد، وتضرع الخليفة إليه أن يمهله شهراً فأبى بعد إلحاح إلا أن يمهله عشرة أيام وحسب، وشاء الله أن يموت «ملكشاه» قبل انقضاء الأجل المضروب وتكتمت زوجته نبأ موته، وذهبت إلى الخليفة المهتد طالبه أن يولي ابنه مكانه، وكان الولد لا يبلغ من العمر خمس سنين، ولكن الخليفة المقتدي ولأه ومنحه لقب ناصر الدين والدنيا. أرأيت هذا الهزل كله؟ إنها مساخر يحار المرء كيف تقع باسم الإسلام في عاصمة الإسلام!! ومتى يحدث هذا السخف في دفة الحكم؟ يحدث وملوك أوربا وبابا الفاتيكان ورجال الكنيسة يصرخون بضرورة الثأر من المسلمين والإجهاز على دين محمد ﷺ، لكن هذه الصيحات لا يبلغ صداها رجال السياسة العليا في بلادنا، إنهم ينادون من مكان بعيد، إنهم غرقى في شهواتهم الشخصية، ومطامعهم العرقية، لقد فهموا من الإسلام شيئاً واحداً، أن الوحي الأعلى نزل ليخص أفراد أسرهم بمكنة ممتازة، فبعد ستة قرون أو أقل أو أكثر من شروق الإسلام يرى شاب مسكين من ولد العباس أنه جدير بقيادة العالم الإسلامي أو يرى نظير له من بني أمية أن المسلمين على شاطئ الأطلسي يجب أن يدينوا له بالطاعة، ألم يكن أجداده الأجداد عُمداً في بطحاء مكة قديماً؟! ولو انتقل الإسلام إلى غرب الأطلسي واعتنقه سكان الأمريكتين فينبغي أن يدخلوا في سلطانه، إن أي عباسي أو فاطمي عديم الكفاية يغنيه هذا الانتساب ليطلب أمراً لا يعرف له رأساً من ذنب، والغريب أن صاحب الرسالة قال لابنته فاطمة: «يا فاطمة بنت محمد - ﷺ - اعملي لنفسك لا أغني عنك من الله شيئاً» ثم جاء بعد ذلك من يتسب إلى فاطمة بالحق أو الباطل ليتذرع بهذا النسب إلى قيادة المسلمين^(١)!!

الحق أن الأجهزة العليا للدولة الإسلامية لحقها عطب مبكر من جراء هذه الدعاوي، وأن غلبة التفاهين على مناصب الخلافة العباسية أو الفاطمية أصاب الأمة الإسلامية بجرح غائر، ما زال ينزف حتى أفقدها الحياة، ومكن منها الأعداء، ثم كان سبباً في أن ناساً من أهل الطموح والقدرة رأوا العجز الفاضح لأبناء هذه الأسر، فنحوهم عن السلطة، واحتازوها لأنفسهم، ولما كان التطلع والادعاء شائعين بين الناس، فقد تهارش على الحكم طامعون كثيرون، وأصبح الاستيلاء على مقاليد الحكم مطلباً ميسوراً لكل من يملك سيف المعز

(١) هموم داعية، ص ٤١.

وذهبه وبديه أن يستخفي في هذا الجو ذوو المروءة والشرف والعفاف والتقوى، فماذا يصنعون؟ وبأي سلاح يقاتلون؟ لنظروا هذا التعليق السريع، ولنعد أدراجنا إلى بلاد الشام قبيل الحملة الصليبية الأولى، عندما كان أولاد العباس، والدولة الفاطمية العبيدية، وأولاد أمية في الأندلس يتنافسون على مقاليد الحكم في العالم الإسلامي. وفي مقدمة جيدة كتبها الشيخ علي محمد يوسف، المدرس بكلية الشريعة بجامعة قطر، عن ابن الجوزي جاءت هذه العبارات في وصف المسلمين قبيل الهجوم الصليبي: بينما هم في غمرة انقسامهم على أنفسهم إذ برز عدو يرفع شعار الصليب يريد القضاء عليهم واقتلاع الإسلام من جذوره.

وقد قدمت أولى الحملات الصليبية سنة ٤٩٢هـ وقال عنها ابن الجوزي: وردت الأخبار بأن الإفرنج ملكوا أنطاكية ثم جاءوا معرة النعمان فحاصروها، وقتلوا ونهبوا وقيل: إنهم قتلوا بيت المقدس سبعين ألف نفس وكانوا قد خرجوا في ألف ألف^(١). ونقف عند عبارة ابن الجوزي، قيل: إنهم قتلوا سبعين ألفاً!! الأمر عنده، وعند سكان بغداد، وفي مركز الخلافة الإسلامية لا يعدو أن يكون إشاعة، إن دار الخلافة آخر من يعلم، وأتى لها العلم ورجال الدولة في شغل بصيد المتع ونشدان الملذات والتقاتل على السلطة.. كان الحكم مغنماً يستحق المخاطرة. أبلغ أولئك الخلفاء والسلاطين أن عمر بن الخطاب ؓ أثر صرف الخلافة عن ابنه ضناً عليه بمتاعبها ومغامرها قائلاً: بحسب آل الخطاب أن يحاسب واحد منهم عن المسلمين، كانت الخلافة أيام الرجل الكبير عبئاً ومغرمًا، ثم جاءت أيام الملك العضوض فأصبحت بقرة حلوباً، فلما هجم الصليبيون على فلسطين كان التقطع في كيان الأمة الكبيرة قد بلغ مداه، ولولا أن مذبحة بيت المقدس طمّت وعمّت واستحال حصر أبنائها لبقى النائمون نياماً، ولم تلبث دولة الخلافة غير قليل حتى دفعت ثمن بلادتها فاجتاحها التتار، وجعلوها خيراً كان، ولم تغن عنها الألقاب الخادعة من مسترشد بالله، ومقتف لأمر الله، ومستنجد بالله، وناصر لدين الله... إلخ. إن الظن لا يغني من الحق شيئاً فكيف بالكذب الصراح؟ والمسلمون إذا لم يصدقوا الله فلا يلومون إلا أنفسهم^(٢).

- أثر الاستبداد على الدين والحياة: قد يقال: أين جهاد العلماء في مقاومة هذه الفوضى؟ والجواب يقتضينا شيئاً من التفصيل، فإن أصحاب العقول الكبيرة والهمم البعيدة حاربهم الاستبداد السياسي وفضّ مجامعهم، فضاقت الدائرة التي يعملون فيها، وتضاءل الأثر الذي يرتقب منهم، والمرء لا يسعه إلا الحزن لمصاير قادة الفكر الديني الذين قتلوا أو أهينوا وحيل بينهم وبين نفع الجماهير، مع غياب هؤلاء انفسح المجال لعارضي الأحاديث

(١) هموم داعية، ص ٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٣.

الذين يخطون في السنة الشريفة خبط عشواء، ولفقهاء الفروع الذين خدعوا العوام بسلعهم وأوهموهم أنهم يشرحون لباب الدين وشعب الإيمان الكبرى، وهم في الحقيقة يذكرون تفاصيل ثانوية يكثر فيها الأخذ والرد ولا تمس جوهر العقيدة أو الشريعة. إن الأحاديث الشريفة - بعد تمحيص سندها - تحتاج إلى الفقيه الذي يضعها موضعها في الإطار العام للإسلام الحنيف^(١).

- معارك في فقه الفروع: أما فقهاء الفروع فقد زادوا الطين بلة وزحموا أوقات الناس بصور من الأحكام تكتنفها التهاويل المزعجة، مع أنها لا تستحق هذا الجهد ولا هذا الوقت، ثم أعلنوا حرباً غير شريفة على من يخالفهم في تلك الأحكام الجزئية. روى ابن الجوزي عن الشيخ ابن عقيل، قال: رأيت الناس لا يعصمهم من الظلم إلا العجز!! لا أقول: العوام، بل العلماء. كانت أيدي بعض الخنايلة مبسطة في أيام ابن يوسف - الحاكم السابق - فكانوا يتسلطون بالبغي على أصحاب الشافعي في الفروع - التي يخالفونهم فيها - حتى لا يمكنهم من الجهر بالقنوت، وهي مسألة اجتهادية - يعني لا حرج في الاختلاف فيها - فلما جاءت أيام النظام ومات ابن يوسف، وزالت شوكة الخنايلة استطال عليهم أصحاب الشافعي استطالة السلاطين الظلمة فاستعدوا عليهم وأدوا عامتهم بالسعايات، والفقهاء بالنبد والالتهام بالتجسيم. قال ابن عقيل: فتدبرت أمر الفريقين فإذا هم لم تعمل فيهم آداب العلم، وهل هذه إلا أفعال العسكر؟ يصولون في دولتهم ويلزمون المساجد في بطالتهم^(٢).

وذكر ابن الجوزي عن أبي نصر الفشيري - الواعظ بالنظامية - أنه كان يذم الخنايلة وينسبهم إلى التجسيم، فرموه بالحجارة حتى وصلت إلى حاجب الباب، وتقاتل القوم مرة بسببه حتى وقع بينهم قتلى وجرحى وحرقت ونهب إلى أن أرسل الخليفة من أخذ الفتنة. يحدث هذا التمزق في الأمة الإسلامية والعالم الصليبي يحترق شوقاً إلى ضرب الإسلام في عقر داره ومحو أعيانه وآثاره. وعلام الخلف والتظالم؟ على قضايا تركها كفعلها، أو فعلها كتركها لا يחדش إيماناً ولا يجرح المروءة وهل في قنوت الفجر إن فعلناه أو تركناه ما يضير؟

إن العُرْي عن الأخلاق، وإبطان الكره للآخرين، والعجب بالنفس هو الجريمة التي ارتكبتها نفر من فقهاء الفروع، غرّتهم بضاعتهم فقدموها للناس مقرونة بالغلو، ولم يبالوا بما تركه من فرقة، وفساد المتدينين من أهل الكتاب صدر عن هذا المنبع، زوّقوا الشعارات وخرّبوا القلوب فقال الله فيهم: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣]. وكانت عقبى الشقاق وعوج الصفوف واضطراب الحكم وحب الرياسة

(١) هموم داعية، ص ٤٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٥.

أن اقتحم الصليبيون والتار حدود الأمة المختلفة وفعلوا بها الأفاعيل^(١)، ما أشبه الليلة بالبارحة لأنني^(٢) أرى العلل القديمة تتجمع، ونذر العاصفة المدمرة تبدو في الأفق البعيد، بل إنَّ الأعداء شرعوا في الهجوم، والأرض الإسلامية تُنتقص من أطرافها، والخطط توضع لضرب القلب بعد قص الأجنحة!! نجح الصليبيون في تنصير أربعة أخماس الفلبين ثم اتجهوا إلى جزر أندونيسيا يحملون الخطة ذاتها، وقد محوا المعالم الإسلامية من «سغافورة»، وهم الآن يبعثرون طلائعهم في شرق وجنوب آسيا، والكاثوليكية تسعى وترى ضرورة إزالة الإسلام من إفريقية، وبابا الفاتيكان يتنقل بين أقطار شتى ليطمئن إلى نجاح الخطة المرسومة ويزيدها ضراوة!! كيف لا يقشعر جلد المؤمن وهو يطالع هذه الأنباء؟ كيف يطيب له منام أو طعام؟^(٣) وموازياً للغزو الصليبي التنصيري الجديد، التغلغل الباطني في إفريقيا وآسيا والجاليات المسلمة في أوروبا وكندا وأمريكا وتواصلهم مع الأقليات في البلدان الإسلامية، فالشاريع الغربية الصليبية والباطنية المفسدة تنخر في هذه الأمة العظيمة، والمسلمون في العالم أجمع ينتظرون من علمائهم ومفكرهم بلورة مشروع إسلامي عقائدي سياسي على أصول الإسلام الصحيح للوقوف أمام هذين الخطرين العظيمين.

وها هي الأمة الإسلامية أحسَّت الخطر المحدق وهبَّت لتحيا، وعلائم الصحو تنتشر بسرعة مع اقتراب الفزع واكفهرار الجو، وإني لمؤمل الخير من وراء هذا الصحو الشامل، بيد أنني أحذر من الأمراض القديمة، من فساد السياسة بالفرقة، وفساد الثقافة بالجهل والهوى، ومن الناحية العلمية يجب أن نتعاون في المتفق عليه، ونتماسح في المختلف فيه، ونساند صفاً واحداً في مواجهة الهجمة الجديدة على ديننا وأرضنا حتى نردها على أعقابها. وعلى أهل المسؤولية الإسراع في جمع القوى، وسد الثغرات وحشد كل شيء لاستنقاذ وجودنا المهدد، إنَّ أي امرئ يشغل المسلمين بغير ذلك إمَّا منافق يمالئ العدو ويعينه على هزيمتنا، وإمَّا أحمق يمثل دور الصديق الجاهل، ويخذل أمته من حيث لا يدري، وكلا الشخصين ينبغي الحذر منه وتنبيه الأمة إلى شره^(٤).

ولا بد من الالتزام بعوامل النهوض والأخذ بأسباب النصر والتي منها، صفاء العقيدة، ووضوح المنهج، وتحكيم شرع الله في الدولة، ووجود القيادة الربانية التي تنظر بنور الله، وقدرتها في التعامل مع سنن الله في تربية الأمم، وبناء الدول وسقوطها، ومعرفة علل المجتمعات، وأطوار الأمم، وأسرار التاريخ، ومخططات الأعداء من الصليبيين والملاحدة

(١) المصدر نفسه، ص ٤٦.

(٢) هموم داعية، ص ٤٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٧.

والفرق الباطنية، والمبتدعة، وإعطاء كل عامل حقه الطبيعي في التعامل معه، فقضايا فقه النهوض والمشاريع النهضة البعيدة المدى متداخلة متشابكة لا يستطيع استيعابها إلا من فهم كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ وارتبط بالفقه الراشدي المحفوظ عن سلفنا العظيم، فعلم معاملة وخصائصه وأسباب وجوده وعوامل زواله، واستفاد من التاريخ الإسلامي وتجارب النهوض، فأيقن بأن هذه الأمة ما فقدت الصدارة قط وهي وفة لربها ونبينا ﷺ، وعلم بأن الهزائم العسكرية عرض يزول، أما الهزائم الثقافية فجرح ممت والثقافة الصحيحة تبني الإنسان المسلم، والأسرة المسلمة، والمجتمع المسلم، والدولة المسلمة، على قواعدها المتينة من كتاب الله وسنة رسوله، وهدى الخلفاء الراشدين ومن سار على نهجهم، وعبقريه البناء الحضاري الصحيح هي التي أبقت صرح الإسلام إلى يومنا هذا بعد توفيق الله وحفظه.

دروس بالغة وعبر مفيدة: لماذا الحديث عن مآسينا في التاريخ وعن هذه الذكريات الفظيعة الآن؟ لأن التاريخ يعيد نفسه، والهجوم على الأرض الإسلامية يتجدد في هذا العصر، فالمطلوب منا طال الزمان أو قصر أن نرتد عن ديننا وأن ننازل عن بلادنا، وأحوال المسلمين صورة قريية الملامح من صورتهم قبل الهجوم الصليبي الأول، والفجوات الواقعة بين شئى الحكومات هي هي، وكذلك البعد عن تعاليم الدين، واتخاذ القرآن مهجوراً ونسيان محمد وسيرته وسنته. والسؤال الذي يبحث عن إجابة: ماذا كان موقف الفقهاء من الأحكام الذين جلبوا هذه الهزائم وأحلوا قومهم دار البوار؟ لا أعنى محاكمة ناس ماتوا، وانتقلوا إلى دار أخرى يلقون فيها جزاءهم، إنما أعنى: كيف بلي المسلمون بأولئك الرؤساء؟ كيف وصلوا إلى مناصبهم؟ هل ناقش الفقهاء الطرق التي وصلوا بها إلى الحكم؟ هل كانت هناك أجهزة تشير عليهم وتضبط أعمالهم؟ وإذا فقدت الدولة هذه الأجهزة فهل اقترح وجودها وضمن بقاؤها؟ هناك حكام ارتدوا بتعاونهم مع الصليبيين، فهل أعلن ارتدادهم؟ وكيف تمر خيانة عظمى بهذه السهولة؟ وهناك حكام أضعفوا الجبهة الداخلية بمظالمهم ومآثمهم، فكيف تركوا يمهدون لسقوط البلاد بين أيدي أعدائهم؟ إن المسلمين الذين جاء في وصفهم أنهم جسد واحد، صعقهم شلل رهيب، فكان كل عضو يقطع ويمزق وبقي الجسد لا يدري أو لا يحس، كيف حدث هذا؟ ومن المسئول؟ ترى ماذا يشغل فقهاءنا ومفكرينا إذا كانت حياة الدين كله في مهب العواصف؟ ما هي القضايا الأهم التي تشد انتباههم ويبدؤون فيها ويعيدون؟ وإذا كان المسلمون حملة دعوة عالمية، فهل درسوا العالم حولهم وعرفوا ما يسوده من ملل ونحل؟ وهل عرفوا العدو والصديق؟ وإذا قيل لهم في كتابهم عن المتربصين بهم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُوكُمْ حَتَّى يَرْدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]. فهل فتحوا

عيونهم على مكان من الخطر واتخذوا أسباب الحيلة؟ كيف بوغتوا بالهجوم الصليبي؟ وبعدها بوغتوا به، كيف تقاعسوا عن رده؟ ما الملدات وأنواع الترف التي فتتهم عن دينهم؟ وهل جفت منابعها أم بقيت تجعل الحكم مغنماً لا مغرمًا؟ وتجعل المناصب العليا مصيدة للحرام لا خدمة للصالح العام؟ إن فساد نفر من الحكام جرّ على ديننا وأمتنا بلايا غليظة، إن الخونة الذين مهدوا لسقوط أنطاكية والقدس وغيرهما نسلوا في عصرنا هذا من يمهّد لضياح عواصم الإسلام كلها^(١)، والسكوت لا يجوز. في القارات الخمس تعطي الشعوب الحق في أن تستبقي الحاكم الذي تحب، وتستبعد الحاكم الذي تكره، فما الذي يجعل الأمة الإسلامية تشذ عن هذه القاعدة في أغلب أقطارها. وارتقت أجهزة الشورى ارتقاءً عظيماً، وتطورت محاسبة الحكام تطوراً جذرياً، فكيف تبقى لحاكم في بلادنا عصمة؟ وكيف يبقى فوق المساءلة؟ وظفر الفرد في أرجاء الدنيا بضمانات لصون دمه وماله وعرضه، ومثوله أمام قضاء عادل حصين إذا بدر منه خطأ، فلماذا يحرم الفرد عندنا مما توفر لغيره من خلق الله؟ وعجبت^(٢) للمتحدثين في الإسلام يسكتون عن هذه القضايا ويستمرثون الثروة في قضايا أخرى لا تمس الحاضر ولا المستقبل، وإنما تشغل الفراغ وتقتل الوقت وحسب، وكل شيء بأذهانهم إلا قضايا الحرية الفكرية والسياسية وحقوق الأفراد والشعوب مع أن هناك من الحاكمين من يرفض علانية الولاء للإسلام، ومن يطوح بنصف أصوله العلمية في التراب، ومن يأبى باستهانة تنفيذ شرائعه، ومن يفخر بتحلله من روابط العقيدة، ومن لا يرى بأساً بتحليل الحرام وتحريم الحلال، ومن لا يبالي بقتل الألوف المؤلفة من الناس توطيداً لسلطاته!! كيف يصح الرضا عن هؤلاء؟ ونريد - والإسلام يتعرض لمحنة كبرى - أن نحدد المواقف.. إن أعداءنا لم يكتفوا من نيّاتهم شيئاً لأنهم لم يروا أمامهم ما يبعث الكتمان أو الحذر. اليهود يقولون: لا قيمة لإسرائيل بدون القدس، ولا قيمة للقدس بدون الهيكل. والمعنى واضح يقولون: خلقت إسرائيل لتبقى.. بل يهددون بنسف هيئة الأمم، إذا اتخذت قراراً بفصل إسرائيل!! هل بقي غموض حول أوضاعنا بعد تصريحات الفريقين؟

إن المعركة - في حقيقتها - ليست حشد بضعة ملايين من اليهود في فلسطين لسبب أو لآخر.. إن المعركة حول الوجود الإسلامي كله، وتساؤل القوم هو: لماذا يبقى الإسلام أكثر مما بقي؟ واليهود والنصارى معاً يؤمنون بالعهد القديم، ويرون أن إسرائيل حقيقة دينية لا تقاوم، ولا يجوز تركها، فإذا تحدد موقف أعداء الإسلام على ما رسموا هم فما هو موقفنا؟

(١) هموم داعية، ص ٥٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٤.

أنستسلم للفناء، وندع ديننا ورسالتنا للجزارين الجدد أم ماذا؟^(١)

- معالم المنهج للصحة الإسلامية: إن العالم الإسلامي لا يبيع دينه، ويؤثر أن يهلك دونه، ولا يغض من موقفه نفر شذاذ من الخونة والجناء، فقدوا الدين والشرف، ونشدوا العيش على أي حاجة، وبأي ثمن!! ولكي نحسن الوقوف أمام عدو الله وعدونا يجب أن تتوافر لجبهتنا العناصر الآتية:

يعود الولاء للإسلام: ويستعلن الانتماء إليه، وفي حرب تعلن علينا باسم الدين لا مجال لإطفائها بالتنكر لديننا^(٢)، ولا بد أن يكون المنهج الذي كان عليه رسول الله وأصحابه وخلفاؤه الراشدون واضحاً لا لبس فيه حتى نخرج من أحوال البدع ومستنقعات الخرافة والأوهام التي تبت في الأمة باسم الإسلام الحبيب العزيز.

إننا نرى الآن في صراع المسلمين مع خصوم الإسلام في بعض دياره يغيب الإسلام، ويضخم البعد الوطني القطري على حسب الدين والعقيدة، وربما يتبنى هذا الطرح بعض المحسوبين على طلاب العالم أو علمائه، وهذا هو الانتحار، وطريق الدمار بل هو قرة عين الأعداء سواء من الداخل أو الخارج.

- الولاء الشكلي للإسلام مخادعة محقورة ويجب أن تعود الروح لعقائدها وشعائرها وشرائعها، والمسلم الذي يستحي من طرح عقيدته ومنهجه وتاريخه بينما يستعلن الباطنيون الجدد ببدعهم وخرافاتهم، ولا يستحي اليهودي من عقيدته وشعائره في أرقى العواصم، فهذه هزيمة تحتاج لعلاج عظيم وإلا إذا استمر هذا الحال يبيع بعض المسلمين فيكون نصر الله بعيداً عنهم حتى يأتي من يستعلي بعقيدته ودينه وأخلاق الإسلام وفرائضه وسنته.. إلخ فيستحق نصر الله.

- يُقصى من ميدان التدين العلماء الذين يحرقون البخور بين أيدي الساسة المنحرفين، ويزينون لهم مجونهم ونكوصهم، والعلماء الذين يشغلون الناس بقضايا نظرية غفى عليها الزمن، أو خلافاً فرعية لا يجوز أن تصدع الشمل أو تمزق الأهل، والعلماء الذين يظلمون الإسلام بسوء الفهم، ويرونه في سياسة الحكم والمال ظهيراً للاستبداد والاستغلال وإضاعة الشعوب. إن المسلمين في المشرق والمغرب مهياؤون لبقطة عامة تحمي كيانهم وتستبقي إسلامهم، وهم كارهون أشد الكره لأن تكون الأحوال المعاصرة صورة طبق الأصل لما كان عليه المسلمون قبل الهجوم الصليبي في العصور الوسطى^(٣).

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٦.

(١) هموم داعية، ص ٥٥.

(٣) هموم داعية، ص ٥٦.

إن سنن الله تعالى تقتص من المستضعفين المفرطين، كما تقتص من المجرمين المعتدين، إن عوامل الهدم وإبر التنويم تعمل في هذه الأمة المثخنة من الداخل والخارج حتى يتم الإجهاز الكامل عليها، وقد استطاع الاستعمار الثقافي والفكر الباطني خلق جيل مهزوز الإيمان والفقه، ضعيف الثقة بربه، ومنهجه ودينه، وأمته ونفسه، فهو يعطي الدنيا في دينه غير مبال بعواقب الأمور، إننا بحاجة إلى نقطة عامة تتناول أوضاعنا كلها حتى نحسن الدفاع عن وجودنا ورسالتنا في عالم لا تسمع فيه إلا أصوات الجبارين من أصحاب المشاريع الشيطانية، ومن ثم نتمكن من الهجوم على أعدائنا في الداخل والخارج في عقائدهم، وأفكارهم وثقافتهم وهويتهم.

الثاني عشر: استراتيجية الحملة الصليبية بعد الاحتلال:

يهمنا هنا أن نشير إلى أن القوى الفرنجية المحتلة والتي قُدر وخُطط لها أن تعيش في بيئة غريبة كان لابد لها من اتباع مجموعة من الاستراتيجيات القابلة للتطوير تهدف في مجملها إلى الإبقاء على صبغة الاحتلال لأمد طويل، ومن هذه الاستراتيجيات:

- المحافظة بقدر الإمكان وبمختلف الوسائل على أهم سبب من أسباب نجاحها ألا وهو العمل على إبقاء المحيط الإسلامي مشتتاً بقدر الإمكان، لأن ذلك يلغي إمكانية مواجهتها بقوة واحدة مقتدرة، وفي سبيل ذلك عملت بدءاً وباستمرار على احتلال مناطق ذات أهمية استراتيجية تخدم غرض عزل مناطق القوة الإسلامية عن إمكانية التلاقي والتوحد، وكان سبيلها في ذلك احتلال الرها لمنع أو تعيق الاتصال بين العراق وبلاد الشام، كما هو الحال لاحقاً بالسيطرة على مناطق جنوبي بلاد الشام -الكرك والشوبك- بهدف إعاقة أو تعطيل الاتصال ما بين مصر وبلاد الشام، هذا على صعيد الجغرافيا الطبيعية. أما على صعيد الجغرافيا البشرية، فقد حرصت القوى الصليبية على إدانة الصراع العرقي والمذهبي بين أطراف المحيط الإسلامي، وقد اتبعت في ذلك وسائل ترغيب وترهيب، وسياسة تحالف مع قوى ضد أخرى، وقد ساعدها في ذلك إلى حدود معينة العداء ما بين طرفي الصراع الإسلامي الشيعة والسنة، كما ساعدها وجود أقلية مسيحية أمكن لها استغلال بعض قواها للتحالف معها، والتآمر على محيطها العربي.

- ركزت القوى الصليبية في احتلالها على مناطق تؤمن لها الاتصال بمركز انطلاقها في الغرب الأوروبي، ولذلك ركزت على احتلال سواحل بلاد الشام ضماناً لذلك، وابتعدت قدر الإمكان عن السيطرة على المناطق الداخلية خشية فقدانها لهذه الميزة، وحتى لا تكون محصورة بين قوى إسلامية على افتراض الخوف من توحيد هذه القوى

لاحقاً بما يلحق بها ضرراً يؤدي إلى زوالها.

- عملت القوى الصليبية على إيجاد تحالفات مع قوى يمكن أن تمدها بالمساعدة في مراحل مختلفة، إما لعداء هذه القوى للمحيط الإسلامي، رغبة في تحقيق امتيازات اقتصادية، وفي هذا الصدد يمكن ملاحظة تحالفها بدءاً مع بيزنطة ثم مع المدن الإيطالية أو بعضها، وأخيراً إمكانية التحالف مع القوى المغولية^(١) التي كانت فيما بعد أخطر قوة تهدد كيانات المنطقة الإسلامية.

- حرصت القوى الصليبية منذ بداية تأسيس كياناتها في الشرق الإسلامي على معالجة المشكلة السكانية التي عانت منها نقصاً مقابل الكثافة الإسلامية، وقد تعاملت القوى الصليبية مع هذه المشكلة على صُعد مختلفة وبوسائل متعددة كانت قابلة للتطوير بحسب مقتضيات الأحوال وتطوراتها، ومن ذلك أنها اتبعت سياسة التقتيل والتهجير للمسلمين من مناطق احتلالها، ثم عدلت ذلك في فترات لاحقة ضمن إطار إبقاء العناصر السكانية إذا كان ذلك يخدم مصالحها، كما عملت في نفس السياق على استقطاب مهاجرين إلى مناطق السيطرة الصليبية سواء أكان ذلك من الغرب الأوروبي أو من مناطق أرمينيا أو من نصارى المنطقة الإسلامية، كما أنها لجأت إلى عسكرة المجتمع الصليبي ليكون المجتمع بكل فئاته وطبقاته قادراً على أداء الخدمة العسكرية لعلاج مشكلة النقص السكاني، ولا أدل على ذلك من أن الجماعات الدينية في المجتمع الصليبي كانت في مراحل من التواجد الصليبي أكثر الفئات تطرفاً في المجال العسكري مثل جماعات الداوية، والاسبتارية^(٢).

- ركزت القوى الصليبية على بناء تحصينات عسكرية بخبراتها الذاتية أو تقليداً للخبرات التي وجدتتها في المنطقة الإسلامية، وروعي في هذه التحصينات أن تكون أشبه بمحطات إنذار مبكر تكون قادرة على رصد التحركات الإسلامية، ولذا روعي في اختيار مواقعها أن تكون في مقابلة التجمعات الإسلامية المهمة أو على مناطق تهدد مصالح إسلامية كتلك التي أقيمت على مقربة من الطرق التجارية.

- اعتمدت القوى الصليبية وبناء على تجارب حروبها مع الطرف الإسلامي أسلوب الحرب السريعة الخاطفة، هذه الحرب التي لا تحتاج إلى قوات كبيرة، وبنفس القدر يُخطط لها أن تختار أهدافاً منتقاة ضمن معايير زمنية نضج المحاصيل مما لا يكلفها قوة عسكرية كبيرة ولكنها بنفس الوقت تكون قادرة وفق هذا الأسلوب على إلحاق أذى كبير بالطرف الإسلامي.

(١) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٢٧.

(٢) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٢٨.

- لجأت القوى الصليبية إلى سياسة عقد الهدن وتقديم بعض التنازلات لبعض الأطراف الإسلامية في سبيل التفرغ لقوى إسلامية أخرى، وكانت هذه الإستراتيجية ناجحة في فترة التفكك الإسلامي، بل وقادها ذلك إلى حد التدخل إلى جانب طرف ضد آخر إما بعرض صليبي على هذا الطرف أو باستدعاء وطلب من بعض الأطراف الإسلامية.

- عملت القوى الصليبية وبمختلف الوسائل على إبقاء روح الحروب الصليبية قوية في الغرب الأوروبي لضمان استمرار الحملات الصليبية واستمرار تقديم المساعدات للكيانات الصليبية في الشرق.

- ركزت القوى الصليبية مع مرور الزمن على تبني استراتيجية مفادها: أن ضمان وجودها في بلاد الشام يقتضي السيطرة على مصر أو إخراجها من ساحة الصراع بأي شكل من الأشكال، وعلى ذلك نجد أن الحملات الصليبية اللاحقة كان جزء منها موجهاً بدرجة رئيسية إلى مصر. والمتبع لتاريخ الحركة الصليبية يدرك أن الصليبيين حققوا بعض النجاحات في هذا الصدد مستغلين حالات عداء كانت تثور بين حكام مصر وبعض مناطق بلاد الشام.

- لجأت بعض الأطراف الصليبية إلى القيام بحملات عسكرية تهدف إلى ضرب المعنويات الإسلامية وتهديد المسلمين في مقدساتهم، كما حصل حين غامرت بعض هذه القوى مثل أمير الكرك والشوبك بالتعدي على الأماكن المقدسة في الحجاز، كما لجأت إلى ضرب بعض المقومات الاقتصادية والدينية مثل تهديد طرق التجارة وقوافل الحج، وقامت بهذا الدور في مراحل معينة إمارة الكرك والشوبك الصليبية التي كانت تتبع لمملكة بيت المقدس الصليبية.

- لم تغفل الإمارات الصليبية والبابوية الداعمة لها وبعض رجال الدين والمفكرين أن يطوروا استراتيجية جاءت نتيجة لفشل الإستراتيجيات العسكرية، هذه الإستراتيجية التي تدعو إلى محاولة السيطرة بطرق بعيدة عن الأسلوب العسكري وإنما عن طريق التنصير والدعوة لزيادة عمليات التبشير بالدين المسيحي بين المسلمين، ونحن هنا لا نناقش إمكانية نجاح وفشل هذه الاستراتيجية بقدر ما يهمنا الإشارة إلى أن ذلك كان أحد البدائل التي سعى الفرنجة لاستخدامها لتحقيق أغراضهم.

- صورت القوى الصليبية نفسها على أنها المدافعة عن المسيحية في بلاد الشرق بغض النظر عن اختلافاتهم المذهبية، حيث صُورت الحركة الصليبية على أنها جاءت لنجدة بيزنطة ضد الخطر الإسلامي السلجوقي، كما صورت زحفها على أراضي المنطقة الإسلامية بأنه

يهدف إلى تحرير المسيحيين الشرقيين من نير السيطرة الإسلامية، وضمنت من وراء ذلك مساعدات من الطوائف الأرمنية والسريانية في بدايات سيطرتها على المناطق الإسلامية، ولكن هذه الاستراتيجية المرحلية بدأت تتلاشى مع مرور الزمن^(١).

إن هذه الاستراتيجيات وإن كانت عامة تخص جميع الصليبيين، إلا أن ذلك لم يمنع من استخدام استراتيجيات مرحلية وخاصة بكل إمارة حسب ظروفها، مما يعني أن بعض هذه الإمارات ربما اتخذ وتبني سياسة تخالف هذه المبادئ العامة. ومن استعراض هذه الاستراتيجيات يبدو لنا أن القوة الإسلامية يقاس نجاحها في مقاومة هذا الخطر الصليبي بمدى تبنيها استراتيجيات واتباعها وسائل تحد من خطر هذه الاستراتيجيات الصليبية، إما عن طريق تبني استراتيجيات مضادة أو منع الطرف الصليبي من تطبيق استراتيجياته على أرض الواقع، وهذا يمكن أن نلمحه من خلال تطورات ردود الفعل الإسلامية على التحدي الصليبي بدءاً من عهد عماد الدين ونور الدين زنكي وصولاً إلى مرحلة صلاح الدين الأيوبي واستكمالاً لما تم في عهد الدولة المملوكية، على أن لا يفهم من ذلك أن هذا التطور في رد الفعل الإسلامي في العهود الزنكية والأيوبيّة والمملوكية كان دائماً في الإطار الإيجابي، بل إن ما حصل أحياناً هو أن الطرف الإسلامي أو بعض قواه أو أفراد ساعد في نجاح الاستراتيجيات الصليبية^(٢)، وهذا ما سيأتي بيانه في دراساتنا بإذن الله تعالى عن الزنكيين والأيوبيين والمماليك.

(١) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٣١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣١.

المبحث الخامس

حركة المقاومة الإسلامية في العهد السلجوقي

ما بين الغزو الصليبي وظهور عماد الدين زنكي

أولاً: الفقهاء والقضاة واستجاباتهم لمقاومة الغزو الصليبي:

أيقظت صدمة سقوط القدس غفوة العديد من الفقهاء والقضاة، وأدركوا حقيقة ذلك الغزو بعد أن هدد وجودهم ومكانتهم في مدن تلك البلاد فضلاً عن الأرض والعقيدة الإسلامية. ولذلك بادروا فقهاء وقضاة الشام من دمشق وحلب وطرابلس للاستنجاد بالسلطة المركزية ببغداد، والإمارات المحلية باعتبارها تملك القوة العسكرية القادرة على مواجهة ذلك الغزو^(١).

١- استنجاد فقهاء وقضاة دمشق بخلافة بغداد: لم تكن دمشق في البداية هدفاً لذلك الغزو، ولكن فقهاء وقضاة أدركو خطورته على مدينتهم التي كانت لا تختلف عن القدس، فهي ملتقى لطلاب العلم والفقهاء والقضاة من أقاليم الخلافة الإسلامية كافة، وخاصة عندما عرفوا ما حل برفاقهم هناك، ولذلك اتفقوا على إرسال وفد من قبلهم (عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م) برئاسة قاضي دمشق زين الإسلام محمد بن نصر أبو سعد الهروي (ت ٥١٩هـ) إلى مركز الخلافة الشرعية ببغداد، وكان اختياره إشارة واضحة لضخامة المخاوف والآمال التي كانت تجول بأذهان فقهاء الشام وقضاة^(٢)، وقد استقبله الخليفة العباسي المستظهر بالله (٤٨٦ - ٥١٢هـ / ١٠٩١ - ١١١٨م) مع جماعته، وأورد في الديوان كلاماً في حال المسلمين في القدس والشام، والتهديدات الصليبية لوجودهم، ولكن دون جدوى، ولذلك فكر القاضي الهروي في خطة ذكية لإثارة السكان في بغداد كوسيلة للضغط على الخليفة حتى يرغمه في التفكير جدياً بطلبهم ودعوتهم عن طريق استخدام الجوامع في بغداد مركز الرأي العام الإسلامي هناك، وهذه هي المرحلة الثانية^(٣) من مهمتهم، وقال ابن الأثير في ذلك: وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد - صحبة القاضي أبي سعد الهروي - فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمع،

(١) موقف فقهاء الشام وقضاة من الغزو الصليبي، ص ٦٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٨، المنتظم (٩/ ١٩٥ - ٢٢٤).

(٣) موقف فقهاء الشام وقضاة من الغزو الصليبي، ص ٦٨.

فاستغاثوا، وبكوا وأبكوا، وذكروا ما داهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال، وسبي الحرير والأولاد، ونهب الأموال، فلشدة ما أصابهم أظفروا فأمر الخليفة أن يسير القاضي أبو محمد الدامغاني، وأبو بكر الشاشي، وأبو القاسم الزنجاني، وأبو الوفاء بن عقيل، وأبو سعد الحلواني^(١) إلى السلطان السلجوقي بركياروق في أصفهان مقر السلطة السياسية والعسكرية الفعلية لمساعدة فقهاء دمشق في طلبهم، ولكي يتخلص من عبئهم، ويحملة مسئولية تلك المهمة حتى أن اختياره لأولئك الفقهاء كان ذكياً هو الآخر، لأن البعض منهم تشير ألقابهم إلى أن أصولهم من مناطق فارس وبلاد ما وراء النهر - دامغان - ميفارقين - زنجان، وأنهم ربما بإمكانهم التأثير في سلاجقة فارس، لإمدادهم بالقوة العسكرية، فالدامغاني ولي قضاء نيسابور، والشاشي ولد بميفارقين، ودامغان لم تبعد كثيراً من أصفهان ولكن هدف الوفد كان بعيداً عن التحقيق، وعند وصول ذلك الوفد إلى مدينة حلوان علم بمقتل الوزير السلجوقي مجد الملك البلاساني، واختلاف سلاطين السلاجقة ببلاد فارس حول حكم المنطقة، وبذلك عاد الوفد من بغداد دون أن يكمل نجاحاً^(٢)، وعاد القاضي ورفقته بغير نجدة ولا قوة إلا بالله^(٣)، ودافعت دمشق عن نفسها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً كما سيأتي بيانه بإذن الله. وفي عام ٥١٣هـ / ١١٢٠م عندما حاصر الصليبيون دمشق أرسل أميرها وفداً آخر للخلافة العباسية في بغداد لطلب نجدة مرة أخرى. وترأس هذا الوفد القاضي عبد الوهاب بن عبد الواحد الشيرازي الدمشقي -الذي كان آنذاك شيخ الحنابلة بالشام- إلى الخليفة المسترشد بالله (٥١٢-٥٢٩هـ) وذلك لمكانة العائلة الشيرازية بدمشق آنذاك لكونها تحتل زعامة الفقه الحنبلي في تلك المدينة، وتدير العديد من المؤسسات الدينية في القضاء والوعظ والتدريس، وإمامة الجوامع وعلى الرغم من أن القاضي الشيرازي قد تمكن من مقابلة الخليفة العباسي في بغداد الذي خلع عليه ووعدته بالإنجاد إلا أن مهمته لم تؤت بالشيء الجديد كما هي الحال بالنسبة لمهمة زميله الهروي، ويبدو أن الخلافة العباسية كانت عاجزة لا تملك شيئاً غير الوعود بالمساعدة. ولعل القاضي الشيرازي أدرك هو الآخر عجز السلطة السياسية والشرعية في بغداد فلجأ للاعتماد على النفس والعودة إلى دمشق وتعبئة سكانها للدفاع عنها، حيث كان له مجلس يعظ فيه للجهاد، ويلقى تأييداً من حكام المدينة حتى وفاته عام ٥٣٦هـ^(٤).

(١) الكامل في التاريخ (٨/٤٠٨).

(٢) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص ٧٠.

(٣) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٣٣، ٢٣٤، موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص ٧٠.

(٤) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (٢/٨٩ - ١٩٩).

٢- القاضي الأمير فخر الملك بن عمار والاستنجاد بالإمارات المحلية وخلافة

بغداد: في بداية الغزو الصليبي لبلاد الشام هادن فخر الملك الغزاة وأمدهم بالمال والمرشدين ليعدهم عنه، لكن ما أن تحقق هدفهم في أخذ بيت المقدس حتى تفرغوا له وحاصروا طرابلس. وتوجه ابن عمار في طلب النجدة من الإمارات المحلية في مدن الشام والجزيرة، واستطاع أن يقاوم الحصار، وراسل السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه شارحاً له حالة طرابلس وأحوال بلاد الشام أمام مخاطر ذلك الغزو^(١). وتتابعت المكاتبات إلى السلطان محمد بن ملكشاه من فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس بعظيم ما ارتكبه الإفرنج من الفساد في البلاد، وتملك المعقل والحصون بالشام والساحل والفتك في المسلمين، ومضايقه طرابلس، والاستغاثة إليه والاستصراخ والحض على تدارك الناس بالمعونة، ولم يكن من أمر ذلك السلطان إلا أن يبادر بالكتابة إلى أميريه في الحلة حيث الأمير سيف بن صدقة، وجكرمش أمير الموصل وحثهما على نجدة ابن عمار وتقويته بالمال والرجال على الجهاد، وأنه سيمنحهما منطقتي الرحبة وما على الفرات إن هما ساعدها^(٢)، وأرسل السلطان محمد حملة بقيادة «جاولي سقاوة» بحجة أنها متجهة لنجدة ابن عمار في طرابلس، فاستولى على الموصل بدلاً من نجدة طرابلس، التي لم يتوجه إليها إطلاقاً^(٣). وأدرك القاضي ابن عمار عجز القوى الإسلامية المحلية كلها عن نجدته، وقرر التوجه بنفسه إلى بغداد مقر الخلافة العباسية، ووصل الأمير محملاً بالهدايا والتحف الثمينة^(٤)، ورغم الحفاوة التي استقبل بها في بغداد إلا أن رحلته لم تحقق نجاحاً في الأهداف التي سعى من أجلها، كما هو الحال لمدينة دمشق وقاضيها الهروي والشيرازي^(٥).

٣- استنجاد فقهاء وقضاة حلب بخلافة بغداد: وكان لعائلة ابن أبي جرادة الدينية

المتولية أمر القضاء والإمامة بحلب دور تحمل تلك المهمة في طلب نجدة من بغداد، عندما تعرضت حلب هي الأخرى بحكم موقعها الاستراتيجي لخطر الغزو الصليبي عام (٥٠٤هـ/ ١١١١م) فقد أرسلت وفداً من الفقهاء وأعيان البلد، والذي يبدو كان برئاسة قاضي حلب أبي غانم هبة بن أبي جرادة إلى بغداد، وكان يعتقد بتحقيق هدفه في نجدتها، لأن وجوده بحلب كان بسبب علاقته الوطيدة بالسلطة الشرعية ببغداد^(٦)، وأمام فشل ذلك القاضي وجماعته في عدم التمكن من مقابلة الخليفة العباسي المستظهر بالله أدركوا حقيقة

(١، ٢، ٣) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص ٧٦.

(٤، ٥) المصدر نفسه، ص ٧٧.

(٦) المصدر نفسه، ص ٧٨.

ضعف ذلك الخليفة عن قرب، وأن السلطة الفعلية ليست بيده بل بيد السلطان السلجوقي، لذا بدأوا به أولاً بإثارة السكان ضده، حيث دخلوا الجامع الذي يقرب من داره يوم الجمعة، فأنزلوا الخطيب عن المنبر وكسروه.. وصاحوا لما لحق الإسلام من الإفرنج. وشرحوا للناس ما حل بإخوانهم المسلمين في حلب وأعماله ومدن بلاد الشام من تدمير وخراب على أيدي الغزاة الصليبيين، مما أدى إلى استجابة الناس وشحن همهم؛ لكنهم لم يستطيعوا الوصول إلى مقر السلطان بركيارق، الذي منعهم حراسه من مقابلته. غير أنه أوعز إلى حراسه ليلغوهم أنه سيرسل قواته لإنقاذهم^(١). وقرّر فقهاء حلب التوجه مرة أخرى إلى الخليفة المستظهر بالله نفسه، فاندفعوا إلى دار الخليفة بعد أن دخلوا جامع القصر، ومنعوا الناس من الصلاة وشرحوا أمرهم لهم، فثار الناس من حولهم^(٢)، وكان ذلك الأمر قد أجبر الخليفة العباسي على ضرورة مقابلتهم وقولهم له: أما تتقي الله أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام حتى أرسل إليك في جهادهم^(٣). وهنا يشير النص السالف الذكر إلى أن وجود فقهاء حلب ببغداد عام ٥٠٤هـ / ١١١١م قد تزامن مع وصول وفد الدولة البيزنطية إلى بغداد أيضاً؛ للتفاهم مع الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي حول إمكانية توحيد جهودهما لمواجهة الخطر الصليبي لبلاد الشام، مؤكداً للجانب الإسلامي بأن الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنيوس قد منعهم من العبور إلى بلاد المسلمين وحاربهم^(٤). ويفهم من هذه الرواية أن الجانب البيزنطي أراد الاستعانة بالجانب الإسلامي لمواجهة ذلك الخطر الصليبي، خاصة بعدما نقض الصليبيون الاتفاقية المبرمة مع البيزنطيين (عام ٤٩٠هـ / ١٠٩٦م) والتي تضمنت إرجاع الممتلكات البيزنطية في بلاد الشام في حالة استعادتها من الجانب الإسلامي. على أية حالة لم يكن فقهاء حلب أوفر حظاً مع خلافة بغداد عن بقية وفود المدن الشامية الأخرى، رغم ما أشار إليه ابن كثير أن فقهاء بغداد وعلى رأسهم الفقيه «ابن الدغواني» قد استجابوا لفقهاء حلب، وقرروا الخروج معهم لجهاد الصليبيين في بلاد الشام، ولما علموا بما آلت إليه تلك المدن من وقوعها تحت الغزو الصليبي رجعوا إلى بغداد ولم يفعلوا شيئاً^(٥)، ومهما يكن من أمر تلك الرواية يبدو أن فقهاء حلب قد سئموا من نجدة الخلافة في بغداد، وتوجهوا للاستغاثة بالإمارات المحلية لنجدتهم^(٦).

(٢) موقف فقهاء الشام، ص ٧٩.

(١) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٧٦.

(٣) الكامل في التاريخ (٨ / ٥٤١).

(٤) الكامل في التاريخ نقلاً عن موقف فقهاء الشام وقضاتها، ص ٨٠.

(٥) البداية والنهاية نقلاً عن موقف فقهاء الشام وقضاتها، ص ٨٠.

(٦) موقف فقهاء الشام وقضاتها، ص ٩١.

٤- دور الفقهاء والقضاة في التحريض على الجهاد بالكتابة والتأليف: لم تكن الاستجابة من قبل الفقهاء والقضاة في بلاد الشام ضد الغزو الصليبيين مقتصرة على الاستغاثة وطلب النجدة، بل تعدت إلى العديد من الوسائل الأخرى التي من بينها الكتابة والتأليف في الجهاد ضد ذلك الغزو، لتهيئة الأجواء الفكرية، وتثقيف المسلمين عامة، حيث نالت اهتماماً كبيراً من جملة الفقهاء والعلماء قبل وأثناء الغزو الصليبي، فقد أصبحت حاجة العصر للتعبة الفكرية، ونشر الثقافة الإسلامية من الأمور الأساسية آنذاك في وقت كانت بلاد الشام تخوض صراعاً سياسياً، ومذهبياً عسكرياً انعكس على تدوين التاريخ في الشرق العربي، وظهور العديد من المصنفات والتراجم حول سير السلاطين والملوك والأسر الحاكمة وأحداث القتال، والصراع ضد الصليبيين. ولذلك اندفعت فئة الفقهاء والقضاة إلى تنوير مجتمعاتها الإسلامية، الذي جاء مجسداً عبر مؤلفاتهم وكتبهم خلال مجموعتين: الأولى ركزت على التأليف والوعظ بصورة تقليدية؛ وتوضيح أمور وأركان الدين الحنيف للناس، والثانية التي توجهت للتحريض والتأليف في الجهاد، وحث المسلمين عليه، لأنها أدركت الضعف العام في إيمان المسلمين عليه وتركهم لأمر دينهم، لذلك كتبت الكثير من المصنفات قبل وأثناء الغزو الصليبي في بلاد الشام. والذي يهمننا هنا المؤلفات التي حرصت على الجهاد الإسلامي وتعبئة المسلمين بأمر دينهم للوقوف بوجه ذلك الغزو^(١).. ومن أبرز أولئك الفقهاء:

- الفقيه علي بن طاهر السلمي (٤٣١ - ٥٠٠ هـ / ١٠٣٩ - ١١٠٦ م): هو علي بن طاهر ابن جعفر القيسي السلمي الدمشقي الشافعي، كان من علماء بلاد الشام وعلى إثر مجيئ ذلك الغزو تحول إلى واعظ ومحرض على الجهاد، بإلقائه الخطب والدروس في المساجد التي تنقل فيها عبر مدن بلاد الشام وفلسطين، حيث جسد ذلك في كتابه الجهاد، الذي جاء عقب سقوط بيت المقدس عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م. وذلك من خلال إحدى خطبه التي حث فيها المسلمين على الجهاد ضد الغزو: فإن المجاهدين لهذه الطائفة الظافرين بهم الموفقين في إخراجهم من بيت المقدس وغيرها من هذه البلاد^(٢)، وركز السلمي في أبوابه الأولى من كتابه الجهاد على العديد من القضايا والأفكار المهمة التي كانت عليها بلاد الشام، والعالم الإسلامي آنذاك؛ مبتدئاً بسياسة صليبية عامة استهدفت الأندلس وصقلية وبلاد الشام. إذ أنه أول من نبه إلى وحدة أهداف الحروب الصليبية سواء في الأندلس، أو في صقلية أو في بلاد الشام، تلك الفكرة التي أخذها المؤرخون فيما بعد، وطوروها فقد ذكر ابن الأثير: وكان

(١، ٢) موقف فقهاء الشام وقضائهم من الغزو الصليبي، ص ٩٣.

ابتداء دولة الإفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم إلى بلاد الإسلام، واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، فملكوا مدينة طليطلة، وغيرها من بلاد الأندلس.. ثم قصدوا سنة أربع وثمانية وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها.. فلما كانت سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام^(١). وأدرك أن ضعف العالم الإسلامي، وتشرذمه وتجزئته هو العامل الرئيسي وراء نجاح الغزو الصليبي في المشرق أو المغرب الإسلاميين وليس قوة الصليبيين أنفسهم. وركز على التجزئة السياسية لبلاد الشام بصورة خاصة، لأنه عاش وأحس بالمعاناة هناك، وثقل السكان عن جهادهم^(٢)، وذكر السلمي المسلمين بفكرة استمرارية الجهاد سواء في الحرب أو السلم كجزء من سياسة عامة يجب على الأمراء والخلفاء المسلمين القيام بها كشرط أساسي للمواجهة الناجحة، ففي كل عام يجب على الأمير المسلم القيام بحملة خارج ديار الإسلام لا لطمع، أو لغنيمة يبتغيها، وإنما للمحافظة على دار الإسلام من عدوان غير المسلمين، وإشعارهم بالرهبة وقوة المسلمين بالاستمرار تجسداً للرأي القائل في العصر الحاضر بضرورة نقل المعارك إلى أرض العدو دوماً^(٣)، وذكر السلمي الأمراء المسلمين بأن ذلك الغزو لم يكن هدفه الأرض والعقيدة فقط وإنما هدفه هو إزالتهم من سلطانتهم، وإخراجهم من البلاد التي تحت أيديهم، وذلك بهدف إثارة حمتهم، وحثهم على الجهاد^(٤)، وطلب من عامة الناس مساندة أمرائهم وقادتهم المجاهدين الذين يتبعون السلف الصالح لمواجهة تلك المحنة، وطرد الصليبيين^(٥). والقارئ لكتاب السلمي في الجهاد يدرك مباشرة عمق المعاناة التي كان يعانيها السلمي وهو الفقيه الذي يرى بيت المقدس تنتهك حرمة، وتداس قدسيته، ولذلك أول ما حث عليه هو تخليص بيت المقدس من أيدي أولئك الغزاة^(٦): فاجتهدوا -رحمكم الله- في هذا الجهاد لعلكم تكونوا الظافرين بمزية هذا الفتح العظيم^(٧)، ويعتبر السلمي أول من أدرك ضرورة الوحدة الجهادية بين بلاد الشام والعراق، ومدن آسيا الصغرى، قبل عصر الوحدة الإسلامية ضد الصليبيين بقيادة آل زنكي والأيوبيين^(٨)، ويعتبر في هذا المجال من الرواد؛ ودعا السلمي المسلمين إلى تطهير النفوس وإصلاحها، فهي في الأساس وحدة إسلامية لعقد العزم والإصرار على مجاهدة ذلك الغزو: وقدموا جهاد أنفسكم على جهاد أعدائكم فإن النفوس أعدى لكم منهم، وأردعوها عما

(١) الكامل في التاريخ (٨/ ٣٩٧).

(٢) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص ٩٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٥.

(٤) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص ٩٥.

(٥) المصدر نفسه، ص ٩٦.

(٦، ٧، ٨) المصدر نفسه، ص ٩٧.

هي عليه من عصيان خالقها سبحانه تظفروا بما تؤملونه من النصرة عليهم^(١).

إن الغزو الصليبي لبلاد الشام من وجهة نظر السلمي لم يأت من فراغ وإنما أدرك ضعف المسلمين لعدم تمسكهم بدين الله الحنيف، ولذلك اجتهد في نصحهم بالعودة إلى الله وتطهير النفوس؛ بالرجوع إلى كتاب الله، والإقلال عما تقدم منهم، والنهوض إلى قرع باب الجهاد: وليكن قصدكم بجهادكم هذا إرضاء ربكم، والذب عن أنفسكم، وعن غيركم من إخوانكم ليمحض لكم ثواب غزوكم^(٢)، ولا يكون ذلك أمام تقدم الغزو الصليبي، وأخذه لمدن عديدة إلا المبادرة إليهم، والمرباطة على المدن التي لم تحصل في أيديهم^(٣)، فإن النفير إليهم وقصدهم في البلاد التي قد تملكوها علينا إنما هو حرب يقصد بها الدفاع عن النفوس، والأولاد والأهل والأموال، والحراسة لما بقي في أيدينا من البلاد^(٤).

وأكد السلمي: إن لم يتناس الحكام المسلمون أحقادهم وخلافاتهم فإنهم ما زالوا على جاهلية غير مقتدين بالمثل التابع من التراث: عند الشدائد تذهب الأحقاد^(٥)، واستمر السلمي في مواضع عديدة من كتاب الجهاد بحث ويحرض ويعظ وينبه، ويعلم الحكام عامة ضرورة الجهاد بخطبه ودروسه التي ألقاها في الجامع الأموي بدمشق، وفي مدن بلاد الشام وفلسطين في اثنين وثلاثين باباً^(٦)، ولم يترك شاردة ولا واردة في الجهاد إلا وتطرق إليها^(٧). ونلاحظ أن السلمي في كتابه الجهاد تطرق إلى توضيح التجزئة والتشردم في المشرق الإسلامي، وخاصة في بلاد الشام من ضعف القوى الإسلامية، وتفككها مع ضعف الإيمان بفرض الجهاد، وهي نقطة استغلها الغزاة، ولكنه عالج ذلك الخلل بطرحه قضية تطهير النفوس، والعودة إلى التمسك بدين الله الحنيف؛ وإصلاح الأمر فيما بينهم، والاقدام على الجهاد لمواجهة ذلك الغزو، وأنه لا يتم ذلك إلا بوحدة القوى الإسلامية، لذا جاء كتابه الجهاد عاماً، لم يخصصه لسلطة سياسية معينة أو لفئة من المسلمين من بلاد الشام مثلاً، وفق رؤية إسلامية مبنية على إسناد متين تمثل في القرآن الكريم، والسنة النبوية، وكتب السير والمغازي، والتفاسير وربط موضوعاتها بالخطر الصليبي على بلاد الشام، وهذا دليل على مدى إطلاعه وفكره الثاقب في جمع المعلومات وتسخيرها في مكانها المناسب^(٨). ونلاحظ من خلال البحث بأن الدعوة الأولى للجهاد لم تصدر عن مجالس الحكام بل صدرت من محافل

(١)، (٢)، (٣)، (٤) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص ٩٨.

(٥) المصدر نفسه، ص ٩٨.

(٦)، (٧) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص ٩٨.

(٨) المصدر نفسه، ص ٩٩.

الفقهاء والعلماء المسلمين من أساتذة وعلماء وفقهاء وكُتّاب، ويعتبر السلمي من أوائل من حث على الجهاد، ومن ضمن تيار الرفض العام الإسلامي المدعوم من قبل الفقهاء والقضاة^(١). لقد كتب السلمي كتابه في فترة مبكرة من تلك الحروب وهذا دليل على ذكائه وفطنته في إدراكه لمشاكل بلاد الشام المعقدة، ولكن إن لم تتوافر الظروف العامة لإنجاح دعوته للجهاد في تلك الفترة المبكرة ذاتها، فهو قد ساهم في كتابه للتمهيد لمرحلة الزنكيين والأيوبيين. ولقد قام الأستاذ رمضان حسن الشاوش بدراسة وتحقيق كتاب الجهاد للسلمي وقدمه كرسالة ماجستير لجامعة الفاتح بطرابلس الغرب عام ١٩٩٢م^(٢).

٥- المشاركة الفعلية للفقهاء والقضاة في ساحات الجهاد: إن من أبرز الأمثلة على مشاركة أولئك الفقهاء للعساكر النظامية في ساحات القتال للتعبير عن حالة الإيمان المثالية بالجهاد، والدفاع عن الأرض والنفس كانت حالة القاضي أبو محمد عبد الله بن منصور المعروف بابن صليحة قاضي حصن جبلة، الذي تولى إمارة وقضاء ذلك الحصن بعد وفاة أبيه منصور عام ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م، وكان ذا خبرة عسكرية جيدة لأنه أحب الجندية واختار الجند فظهرت شهامته^(٣)، وقد برزت مواهب ذلك الأمير القاضي عند محاصرة الإفرنج حصن جبلة للاستيلاء عليه عام (٤٩٤هـ/ ١١٠٠م) واستخدمه لما يسمى اليوم بالحرب النفسية أولاً؛ وذلك عندما خطط بدهاء، لنشر الذعر بين صفوف قوات الفرنج، حيث أظهر أن السلطان بركيارق قد توجه إلى الشام^(٤) لمساعدته، مما أثار القلق بين عسكر الفرنجة، ورحيلهم فيما بعد. وعندما أدرك الفرنجة حقيقة تلك الخدعة، عادوا فحاصروا المدينة مرة أخرى، ولكن كرر ذلك القاضي تلك الحيلة بصورة أخرى، ونشر بين صفوف الصليبيين: أن المصريين قد توجهوا لحربهم ومساعدته هذه المرة ولذلك تركوا محاصرة ذلك الحصن، ويبدو أن الفرنجة لم يكن لديهم المعلومات الكافية عن حالة الحصن، ولا عن عدد قوات ذلك القاضي، وإلا لما تركوا محاصرة ذلك الحصن في المرتين السابقتين، ولكن سرعان ما فطن الإفرنجية لتلك الحرب النفسية وأهدافها، فعادوا لمحاصرة الحصن للمرة الثالثة في شهر شعبان عام ٤٩٤هـ، إلا أن ذلك القاضي أدرك أن الفرنجة قد عرفوا أساليبه القديمة، ولذلك لجأ إلى أسلوب جديد لمواجهة أولئك الفرنجة بأن اتفق مع النصارى الذين معه على إرسال وفد منهم إلى الفرنجة للتفاهم حول

(١) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص ٩٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٣.

(٣) الكامل في التاريخ نقلاً عن موقف فقهاء الشام، ص ١٢٠.

(٤) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص ١٢٠.

تسليم الحصن وإرسال مجموعة من فرسانهم لاستلام الحصن، وأن يبعثوا ثلاثمائة رجل من أعيانهم وشجعانهم، فوافق الفرثجة على ذلك ويبدو أن القاضي ابن صليحة قد نصب الكمين لهم^(١) فلم يزالوا يرقون في الحبال واحداً بعد واحد وكلما صار عند ابن صليحة، وهو على السور رجل منهم قتله إلى أن قتلهم أجمعين، فلما أصبحوا رمى الرؤوس إليهم^(٢)، ورغم ذلك لم يستسلم الصليبيون للطعم والفتح الذي نصبه لهم قاضي جبلة، وتحقيق ذلك النجاش. ولذا قرروا أخذها منه بأية وسيلة، ونصبوا على البلد برجاً خشبياً، وهدموا أبراجاً من أبراجه. ولكن ما يملكه ذلك القاضي من الدهاء والحيلة جعله يفتن لذلك الخطر المحقق به، حيث لم يركن للهدوء والاستسلام، وإنما بادر إلى وضع خطة ذكية على غرار تلك الخطط الناجحة التي كبدت ذلك الغزو الخسائر والفشل أكثر من مرة. ولذلك عمل هذه المرة على استدراج الصليبيين في كمين آخر وضعه لهم بخطة محكمة حيث أحدث ثقباً في أسوار المدينة. ويبدو أنه كان السور الخلفي، وذلك لتسهيل مهمة خروج مجموعة من جيشه ونقب في السور نقباً^(٣)، وعندما خرج القاضي ابن صليحة وجيشه من الأبواب لقتالهم تظاهروا بالهزيمة أمامهم بحيث انطلت الحيلة على أولئك الغزاة الذين لم يفتنوا لها، وبادروا إلى مطاردته حتى أبواب المدينة في الوقت الذي استغل فيه جنده الفرصة في الخروج من تلك الثقوب، والتفوا من حولهم، فأتوا الفرنج من ظهورهم فولوا منهزمين^(٤). إن القاضي ابن صليحة لا بد أنه أطلع على فنون الحرب، وبعض الأساليب العسكرية الإسلامية، فأسلوب الحرب النفسية ليس جديد على التراث العسكري الإسلامي في الفترة الصليبية، إذ استخدم الرسول الكريم ﷺ ذلك الأسلوب في غزوة الخندق من العام الخامس للهجرة عندما حفر الخندق وهزم جيوش الأحزاب، وكذلك معركة مؤتة في السنة الثامنة للهجرة عندما حول القائد خالد بن الوليد المعركة من الهزيمة إلى النصر على الروم، وذلك باستخدامه الحرب النفسية عن طريق تكثيف الغبار بفرسانه حتى ظن أولئك الروم بوصول الإمدادات إلى المسلمين فولوا منهزمين، وانسحب الجيش الإسلامي من أرض المعركة دون أية خسائر أخرى، وقد طبقت تلك الحرب النفسية في العديد من المعارك الأخرى، والتي من بينها معركة اليرموك عام ١٣هـ عندما عمل على تقسيم

(١) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص ١٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢١.

(٣) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص ١٢١.

(٤) الكامل في التاريخ (٨/٤٢٥).

قواته، بحيث جعل الميمنة ميسرة والخلف إلى الأمام وبهذا الأسلوب العسكري التكتيكي أربح جيوش الروم الكبيرة العدد وأوقع بهم الهزائم^(١).

٦- تحريض الفقهاء والقضاة على القتال في ساحات المعارك: تبرز شخصية القاضي أبو الفضل بن الخشاب قاضي حلب المعروف في هذا المجال، فعندما اشتد الحصار الصليبي على حلب عام (٥١٣هـ/ ١١١٩م) أقبل القاضي ابن الخشاب يحرض الناس على القتال وهو راكب على حجر ويده رمح حيث ألقى فيهم خطبة بليغة، استنهض بها همهم وألهب مشاعرهم، فأبكى الناس وعظم في أعينهم، حتى أقدموا على قتال الغزاة^(٢)، ورغم تمكن الحلبيين من تخليص مدينتهم في ذلك العام لم يتردد الصليبيون من محاولة أخرى لأخذ حلب عام ٥١٨هـ/ ١١٢٤م وذلك عندما قاموا بتخريب كل القرى المجاورة لحلب، حتى لا يقدموا المساعدة لمدينة حلب، ونزل الفرنج حران ثم حلب من ناحية مشهد الجف من الشمال، وكان للقاضي ابن الخشاب دور في التحريض على صد ذلك الغزو، بل كان له دور في تحريض الأمير آق سنقر البرسقي أمير الموصل، وسيأتي في بيان ذلك بإذن الله عند الحديث عن دور أمراء السلاجقة في الموصل ودمشق وغيرها في صد هجمات الصليبيين.

ثانياً: الشعراء ودورهم في حركة المقاومة:

قام بعض الشعراء بدور كبير في تحريض المسلمين ووصف أحوال الأمة وطبيعة الغزو الصليبي الذي احتل البلاد وهتك الأعراض، ومن أشهر هؤلاء ما قاله القاضي الهروي وقيل: لأبي المظفر الأبيوردي القصيدة التي أولها:

مزجنا دماءً بالدموع السواجم فلم يبق منا عرضة للمراجع^(٣)

وشر سلاح المرء دمع يفيضه إذا الحرب شُبَّتْ نارها بالصوارم^(٤)

إنه، في هذا المطلع، يصرح ببكاء الناس بكاءً أنزل الدم من العيون لشدته واستمراره، وأنهم بكوا حتى لم يبق فيهم مجال للدم، ولكنه لا يلبث أن يفتن إلى أن البكاء على شدته، لن يغني شيئاً في معركة لا يسعّر نيرانها إلا السيوف القواطع، ومنها:

فإيها بني الإسلام إن وراءكم وقائع يلحقن الدثرا بالمناسم

أنهويمةً في ظل أمن وغبطة وعيش كنوار الخميعة ناعم^(٥)

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٩.

(١) موقف فقهاء الشام وقضاتها، ص ١٢٢.

(٢) شُبَّتْ: سُعِرَتْ واشتدت.

(٣) المراجع: جمع مرجم وهو القبيح من الكلام.

(٥) الهوم: النوم الخفيف. نوار: زهر. الخميعة: الشجر الملتف.

وكيف تنام العين ملء جفونها على هفوات أيقظت كل نائم
 وإخوانكم بالشام يُضحى مقلهم ظهور المذاكي أوبطون القشاعم^(١)
 تسومهم الروم الهوان، وأنتم تجرون ذيل الخفض، فعل المسالم^(٢)

وهنا يستصرخ الشاعر المتخلفين عن القتال مع إخوانهم المسلمين في بلاد الشام، فيبدأ هذه المقطوعة بتوجيه نداء حار للمسلمين: إيهّا بني الإسلام أن اصّحوا من نومكم فما دهمكم من الغزو يجعل أعزّكم أذلة. ثم يعجب لهم ولنومهم، إذ كيف ينامون ملء عيونهم ويعيشون ناعمين آمنين وغير بعيد منهم تجري فظائع الأمور التي تقع على رؤوس إخوانهم من أهل الشام، فلا يجدون وقتاً قصيراً ينامون فيه في بيوتهم، فجلاً أوقاتهم على صهوات خيولهم يجاربون أو تكتب لهم الشهادة فتتخطفهم نسور الجو ولا من يدفن جثثهم، وربما يقعون تحت إذلال أعدائهم من الفرنجة، أما أنتم فيبدو عليكم التقلب في ثبات النعمة كما أنكم مسالمون أو متحالفون مع الأعداء، ومنها:

وكم من دماء قد أبيحت ومن دمي تواري حياءً حسنّها بالمعاصم^(٣)
 بحيث السيوف البيض محمرة الطبا وسمّر العوالي داميات اللهازم^(٤)
 وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة تظل لها الولدان شيب القوادم
 وتلك حروب من يغب عن غمارها ليسلم يقرع بعدها سنّ نادم
 سلّلت بأيدي المشتركين قواصناً ستعتمد منهم في الطّلا والجماجم^(٥)
 يكاد لهن المستجنّ بطيبة ينادي، بأعلى الصوت، يا آل هاشم

وفي هذه الأبيات يصور شراسة المعارك التي وقعت بين المسلمين وأعدائهم من الفرنجة، فقد أبيحت فيها دماء كثيرة من المسلمين، ولقد اقتحم فيها على النساء خدورهن وما وجدن ما يدفن به عن أجسامهن المصونة غير معاصمهن المشبّكة حياءً وخوفاً، وقد اشتدت هذه الحروب واستحر فيها القتل حتى بدت أسنة السيوف والرماح حمراء لاهبة، وحتى إن الصبيان ربما يظهر في شعرهم الشيب لما فيها من هول الطعن والضرب. ثم يعود لتنبئه

(١) المذاكي: مذكيه وهي الفرس قشاعم: جمع قشعم وهو النسر المسن.

(٢) الخفض: الغنى.

(٣) نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية، عمر الساريس، ص ٢٦.

(٤، ٥) المصدر نفسه، ص ٢٦.

المتخلفين بأنهم سوف يندمون على تخلفهم عن الاشتراك في هذه الحروب، التي يعود ليتهاج عن أخطارها فيهن من شأن الأعداء وأسليحتهم فما استلوه من سيوف قاطعة تعود إلى نحورهم وجماجهم. وفي آخر الآيات يؤكد فظاعة هذه الحروب بأن الرسول ﷺ، في ضريحه الطاهر في المدينة المنورة يستنجد على الأعداء، بالعرب والمسلمين وليس بآل هاشم فحسب (١).

أرى أمي لا يشرعون إلى العدا رماحهم، والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ويغضي على ذل كماء الأعاجم (٢)؟
فليتهم إذ لم يذودوا حمية عن الدين، ضنوا غيره بالمحارم
وإن زهدوا في الأجر، إذ حيي الوغى فهلا أتوه رغبة في الغنائم؟

ويرى الشاعر قعود بعض بني قومه عن الجهاد فيتألم لذلك ألماً يصور معه واقعهم المتخاذل عن نصرة دينهم الذي يحاول الأعداء إضعافه، جبناً وخوفاً وغفلة عما يلحق بهم من العار في حالة الهزيمة، ويعجب لشجعان المسلمين، من عرب ومن عجم، كيف يقبلون بهذا كله، ثم يقلب لهم أسباب الدفاع عن الدين وعن البيضة تقليباً منطقياً، فيه الألم الذي يعصر قلبه، والتبكي الذي يهز أحاسيسهم من الأعماق، فيطالبهم بالدفاع عن الدين أولاً فإن لم ينهضوا له فليحموا محارمهم من النساء والبلدان والعقار، وهذا أضعف الإيمان، أن يهتموا بالدنيا وعرضها من غنائم وأسلاب إن فقدوا الثأر للدين والخروج ونيل الشهادة!! وفي نهاية القصيدة يبلغ به الألم مبلغاً أشد فعلاً وتأثيراً، فيكشف لهم عن مستقبل أيامهم وما يلاقون فيه من إذلال وصغار في أيام أبنائهم الوارثين للخنوع إن قبلوا باحتلال الأعداء لبلادهم، ثم يهددهم بعار تسليم النساء للأعداء إن هم ظلوا على ما هم عليه من الخنوع والجبن والقعود عن الجهاد، ولم يزل الشاعر يستصرخهم والحرب مستعرة، ليغيروا على المعتدين غارة شعواء تلقى الفرجة درساً قاسياً، كما تعودوا في كل مرة يهاجمون فيها بلاد الإسلام:

لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى فلا عطست إلا بأجدع رغم (٣)

(١) نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية، عمر الساريس، ص ٢٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦، الصنديد: المقاتل الشديد، والكماة: جمع كمي، وهو لباس السلاح.

(٣) الخيشوم: أقصى الأنف، البري: جمع بُرة وهي حلقة من صفر أو غيره توضع في أحد جانبي البعير للتذليل أو في أنف المرأة للزينة.

دعوناكم والحرب تدعو ملحّة
تراقب فينا غارة عربية
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه

وقال شاعر آخر في الغزو الصليبي لبيت المقدس:

أحلّ الكفر بالإسلام ضيماً
فحقّ ضائع وحى مباح
وكم من مسلم أمسى سليماً
وكم من مسجد جعلوه ديراً
دم الخنزير فيه لهم خلوق
أمور لو تأملهن طفل
أتسبى المسلمات بكل ثغر
أما لله والإسلام حق
فقل لذوي البصائر حيث كانوا

ويبدو للمتأمل في هذه الأشعار أنها تسجل مشاعر الإنسان المسلم في مرحلة غزو الأفرنج وظفرهم من مراحل الحروب الصليبية وأبرز هذه المشاعر:

الشعور الديني: فالأبيوردي يستصرخ بني الإسلام «فأيها بني الإسلام» لأن الأعداء مشركون «سللن بأيدي المشركين» «فهو بعد نداء المسلمين عامة يؤمل ألا يقبل بهذا الغزو لا صناديد الأعراب ولا كماء الأعاجم، كما أنه يرى أن الرسول - عليه السلام - يستفزع هذا الغزو ويدعو قومه لدرئته؛ وفي الوقت الذي يدعوهم للصمود والثبات في وجه الغزاة

(١) القشاعم: جمع قشعم وهو النسر المسن.

(٢) الكامل في التاريخ (٤٠٧/٨).

(٣) صيب: أي سائل.

(٤) الخلق والخلق: ضرب من الطيب أعظم أجزائه الزعفران.

(٥) أي برز وظهر، والعارضان: جانبا الوجه.

(٦) البصائر جميع بصيرة: وهي قوة الإدراك والفتنة، النجوم الزاهرة (١٥١/٥).

يقلب لهم أسباب هذا الصمود وعوامله فيطالبهم بأن يتذكروا أولاً، ثواب الله في الآخرة عليه، فإن تناسوا هذه، فيطالبهم بأن يذبوا عن محارمهم على الأقل وربما كان هذا الشعور الديني في القصيدة البائية أكثر بروزاً ووضوحاً من سابقتها، فمنذ الكلمة الأولى يطلعنا الشاعر على أن الضيم قد حل أولاً بالإسلام، ثم أخذ يعدد ألوان هذا الضيم المتعددة مهتماً بما حدث للمساجد من تحويل إلى أديرة، وبما ارتفع على محاريبها من صلبان، وبما أخذ يفوح فيها من رائحة لحم الخنزير أو المصاحف المحروقة، وإنه ليربط ربطاً محكماً بين ما يكاد يقشعر له شعر رأسه من سبي النساء وبين العيش الهنيء للمسلمين المتخلفين عن الجهاد، ويتجمع الحسن الإسلامي عند هذا الشاعر المؤمن المجاهد، فيصرخ في وجه القعدة المتخاذلين صرخة تهز أعماقهم أما الله والإسلام حق؟ إن هذا هو الأساس الثابت وراء هذا الأدب الإسلامي الملتمز بقضايا الأمة وهمومها؛ إن كل الحروب بما فيها رد للغزو أو نفير للجهاد: أجيئوا الله ويحكم أجيئوا^(١)، والويل والثبور لمن يتخلف عن تلبية نداء هذا الداعي.

أما مكانة القدس في قلوب المسلمين في ذلك العهد وفي كل عهد فهي مما يكمل هذا الشعور ويؤكد عليه؛ فبعد الانتصار على حاكم مملكة أنطاكية النصراني، وبعد فتح مصر ثم توحيدها مع الشام تحت القبضة الإسلامية، وبعد فتح حلب، بعد هذا كله لم يكن النداء التالي إلا الشروع في العمل لتخليص القدس والمسجد الأقصى من أسر المشركين وتطهيره من مظاهر الشرك والدنس^(١).

الشعور الاجتماعي: ويتبع الإحساس بما حاق بالدين إحساس بالهوان الذي ألم بالمسلمين أنفسهم «تسومهم الروم الهوان»، وهم إما على صهوات الخيل وإما في بطون طيور الجو، وكم من دماء قد أبيع، فحق ضائع وحى مباح «وكم من مسلم أمسى سلبياً»، وإنه شعور بالضياع والهزيمة أمام هذه الزخوف الغازية في حالة تقاعس بعض المسلمين عن شد أزr بعض في ساعات العسرة.

أرى أمتى لا يشرعون إلى العدا رماحهم والدين واهي الدعائم

وبما يثقل كاهل الإنسان المسلم، الذي يعيش هذه الآلام، ما يحيق بنساء المسلمين في المجتمع الإسلامي، من سبي وقهر واغتصاب، فما عسى النساء الجميلات أن يدفعن عن أنفسهن إذا دخلت عليهن خدورهن من أقطارها؟ وما عسى المعاصم النسائية التي تشابكت لتواري النفس من الحجل ولثلا تقع عيون علوج الأعداء المهاجمين في عيونهم، ما عساها أن

(١) نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية، ص ٣٢.

تدفع عنهم من الشرور المقتحمة؟ وغاية ما يهدف به هذا الشاعر المتألم بني قومه أن يخلي بين النساء وسائر المحرمات وبين الأعداء إذا هم ظلوا متخاذلين عن المشاركة في الجهاد لدفع عدوان أعداء الله^(١). وما يدل على عمق تأثير هذا الشعور في النفس المسلمة أن شاعر القصيدة البائية عدد أصناف الشقاء التي حاقت بالمسلمين، إثر الغزو الصليبي، بآلم، حتى إذا ما وصل إلى صورة سبي النساء المسلمات صرخ بأعلى صوته، ومن أعماق إحساسه، بسؤال يهز أعماق السامعين أتسي المسلمات بكل ثغر؟! وذلك مقابل ما لا يليق لدى الطرف الثاني من اهتمام المسلمين «وعيش المسلمين إذن يطيب؟» ويتبع هذه الأسئلة سؤال آخر يضرب في أعماق هذه المشاعر كلها، وهو ما ذكرنا من شعور ديني متألم «أما لله والإسلام حق». فإله، سبحانه، لا يرضى أن تسي المسلمات وهو القائل: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ وَلِأَنَّهُمْ عَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]. وهو القائل: ﴿وَاللَّهُ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الناقصون: ٨]. هل في هذا الإلحاح على الألم الشديد مما حاق بنساء المسلمين إثر هذه الحروب، بقايا من الإحساس القبلي بعار العشيرة، إذا أضيئت نساؤها؟ لو سلمنا بوجوده لأننا نلمح في الوقت نفسه، أن الإسلام طالب بالدفاع عن الحمى والحرمات، والنساء أولى هذه الحميات في الإسلام^(٢).

الشعور النفسي: وإذا كان الشعور الاجتماعي يتسع أفقه لحمل موم المجتمع الإسلامي بجميع أفراداه بأن الفرد المسلم، على النطاق الفردي، قد أخذ يحس بمجموعة من الأحاسيس الطاحنة تحت وطأة هذا الغزو الغاشم من جهة، وتخلف الكثيرين من أبناء الإسلام من جهة أخرى، وأول مشاعر الفرد في هذا الجو، هو الحزن الشديد الذي لف نفوس جميع الأفراد لفأ، فأول ما نطق به كلمات الأبيوردي هو البكاء الذي لم يذرف الدموع، فحسب ولكنه استتزال الدم من العيون بعد أن جفت الدموع!! وسرعان ما يزداد هذا الحزن حينما يفتح الشاعر عينيه على الحقيقة المرة: ما نفع الدموع في معركة لا تتكلم فيها إلا السيوف المواضي؟ وهنا تحرق الشرور بنفسية هذا الشاعر، ومن هذا الإحساس العاصف ينبت استنجد الشاعر بأهله من المسلمين، للنهوض والرد على هذا الخطر المحدق «فإيها بني الإسلام» وما نفع الفرد، حينما تحيط به الأخطار، إن لم يكن له هل يمنعونه؟ ونخرج بمثل هذا الحزن العاصف حينما نقرأ القصيدة البائية ونحس بخفقان قلب صاحبها المضطرب، لكثرة ما رأى وأحس وعاش من الأخطار التي تهددت وجوده ووجود أهله، فحقوقهم ضائعة ودماؤهم سائلة، ورجالهم كنسائهم في السبي والنهب، وبلادهم مباحة،

(١)، (٢) نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية، ص ٣٣.

ومساجدهم غدت أديرة، وجدران صلبان، وحينما يبلغ الحزن مبلغ هز الأعماق تخرج الصرخات والاستنجاد والتذكر بحقوق الله في الجهاد والذب عن الحياض. ونكاد نلمح مثل هذه المشاعر الفردية الحزينة حينما يأخذ الشعراء في تزيين فتح القدس للقادة الفاتحين بمختلف ضروب الإقناع، فقد كان هذا الأمل يداعب نفوس المسلمين، جميع المسلمين، منذ أن فتحوا عيونهم على قبلتهم الأولى فوجدوها في أيدي أعداء الله.

تصوير الحروب: وتكاد قصيدة الأبيوردي تنفرد بتصوير ما وقع بين المسلمين وبين أعدائهم المهاجمين من حروب، قبل استيلاء الصليبيين على مقدساتهم، وهذه مائدة إيجابية تحسب لها، فالقدس لم يستول عليها الأعداء دون قتال، وإلا لكان هذا دليلاً على الضعف والخور، فهذه الحروب تسعرها السيوف القاطعة، وحينما كان الهجوم صمد لهم أبناء الشام الأبطال حتى يظل الواحد منهم على صهوة جواده ليل نهار حتى تختلف رجلاه على عنق فرسه فتخطفهم سباع الأرض أو نسور الجو، كما قال أحد خطباء العصر الأموي، كما أن النساء اللواتي اقتحمت عليهن خدورهن دافعن بعد أن استحر القتال بين رجالهن وبين الأعداء:

بحيث السيوف حمرة الظبا وسمر العوالي داميات اللهازم
وبين اخلاص الطعن والضرب وقفة تظل لها الولدان شيب القوادم

إنها صدمات تصير لها الولدان شيئاً، كما ورد في القرآن الكريم عن أهوال يوم القيامة؛ إنها حروب يستل فيها المشركون سيوفاً قاطعة لكن المدافعين عن حرمت الإسلام يردون هذه السيوف المعتدية إلى نحر أصحابها ورؤوسهم، أجل إن المقاومة الإسلامية قد هبت في وجوه المعتدين منذ أن وطئت أقدامهم النجسة أراضي المسلمين في سواحل بلاد الشام الشمالية، وظلت راية الجهاد مرفوعة لرد المعتدين، حتى خرج آخر صليبي معتدٍ من هذه الديار الإسلامية، بعد قرنين من الصراع المستمر^(١).

الدعوات إلى الجهاد: إن أحزان الشعراء والأفراد وشعورهم بالضياع أمام ما رأت أعينهم من مصير الدين الذي صار - بهذا الغزو الصليبي - واهي الدعائم، ومن فظائع شنت شمل أهلهم للمسلمين وسبت نساءهم وأذلت رجالهم، بعد القتال الشديد، وحولت مساجدهم إلى كنائس إن هذا الحزن الجارف لم يقعد بهؤلاء الشعراء عند مرحلة البكاء وذرف الدموع وتصوير ما حاق بالناس من مصائب، إنه حملهم على أن يسلكوا السبيل

(١) نصوص في دب عصر الحروب الصليبية، ص ٣٥.

الأصوب في مثل هذه المواقف، فقد أصبح الشاعر نذيراً لأمته بالشُرور التي ستطبق عليهم في الدنيا، وبغضب الله في الآخرة إذا هم ظلّوا متقاعدين عن الجهاد لدرء الأخطار، فلقد قال الشاعر لأهله: إن الدموع لا تغني في حروب السيوف، فدعاهم للتجمع والرد فوراً هم ما يذل الأعزة، ويكتهم على تقاعدهم ليهبوا للجهاد:

أتهويمة في ظل أمن وغبطة وعيش كنوار الخميعة ناعم
وقابل لهم بين الصورتين غير المتوازنتين؛ قتال فريق من المسلمين وتقاعد الفريق الآخر، وما أفعل قوله وأشد تأثيره: أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا... إلخ البيت. فقله: أمتي، فيها الإيجاز والتأثير ومنطق النداء والدعوة، مرة يمدحهم بالشجاعة والنخوة ويذكرهم بهما ليهبوا للجهاد، ومرة يناقشهم في أسباب الدفاع والصمود، أما حينما يخامره الشك في أن يستمعوا إلى نداءاته هذه كلها يلجأ للتأثير عليهم من جهة أخرى، هي جهة التذكير بالنساء والأعراض واحتمال وقوعها تحت أيدي الأعداء المهاجمين، وكذلك يفعل الشاعر المجهول، فبعد أن يصور لهم ما حاق بأهاليهم من شقاء وهوان يدعوهم، بصريح العبارة، إلى تلبية نداء الله بالجهاد والثأر للكرامة الإسلامية، ديناً ومتدينين وبلاداً ومسلمين^(١).

الشاعر ابن الخياط: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن الخياط: فقد حاول هذا الشاعر تحريك همة عضد الدولة زعيم الجيوش في دمشق فقال قصيدة طويلة يحثه على إعداد العدة للجهاد مطلعها قوله:

فدتك الصّواهل قُباً وجرداً وشُمُ القبائل شيباً ومرداً
وذلت لأسياك البيض قضباً ودانت لأرماحك السُمر مُلداً^(٢)
إلى أن يقول:

وإني لمهد إليك القريض يطوى على النصح والنصح يُهدى
إلى كم وقد زخر المشركون بسيل يُهال له السيل سداً
وقد جاش من أرض إفرنجة جيوش كمثل جبال تردا
أنوماً على مثل هذ الصفاة وهزلاً وقد أصبح الأمر جدّاً
وكيف تنامون عن أعين وترتم فأسهمتموهنَّ حقداً

(١) نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية، ص ٣٦.

(٢) ديوان ابن الخياط، ص ١٨٢.

بنو الشرك لا يُنكرون الفساد
ولا يردعون عن القتل نفساً
فكم من فتاة بهم أصبحت
وأم عواتق ما إن عرفن
تكاد عليهن من خيفة
تذوب وتتلف حزناً ووجداً
ولا يعرفون مع الجور قصداً
ولا يتركون من الفتك جهداً
تدق من الخوف نحراً وخداً
حراً ولا ذقن في الليل برداً

وبعد أن وصف الشاعر حال المشركين وقسوتهم، وحال المسلمين معهم بدأ يحرض
عضد الدولة على الجهاد فقال:

فحاموا عن دينكم والحريم
وسُدُّوا الثغور بطعن النحور
فقد أينعت أرؤس المشركين
فلا بد من حدهم أن يُفلَّ
محاماة من لا يرى الموت فقداً
فمن حق ثغر بكم أن يُسدَّ
فلا تغفلوها قطافاً وحصداً
ولا بد من ركنهم أن يُهدَّ^(١)

وكانت جهود العلماء والفقهاء والقضاة والأدباء والشعراء أثر في تقوية حركة
المقاومة المسلحة والتي قادها أمراء السلاجقة، والتي سيأتي الحديث عنها بإذن الله في
الصفحات القادمة.

ثالثاً: قادة الجهاد من السلاجقة قبل عماد الدين زنكي:

من الحقائق المسلم بها في تاريخ الحركة الصليبية، أن حركة الجهاد الإسلامي ضد
الصليبيين انبثقت لأول مرة في بلاد المشرق الإسلامي من منطقة الجزيرة، وهي تقع بين
دجلة والفرات مجاورة لبلاد الشام، وتشتمل على ديار مضر وديار بكر، وسميت الجزيرة
لوقوعها بين نهري دجلة والفرات، وتمتاز منطقة الجزيرة بأنها صحية الهواء جيدة الريح
والنماء، واسعة الخيرات، بها مدن جليلة وحصون منيعة وقلاع كثيرة^(٢)، ومن الأسباب التي
جعلت حركة المقاومة نبعت من منطقة الجزيرة هي:

- إن منطقة الجزيرة أول اقطار المسلمين في المشرق الإسلامي أكتوت بنار الخطر

(١) ديوان ابن الخطيب، ص ١٨٢ وما بعدها.

(٢) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص ١٣٥، نور الدين محمود والصليبيون، حسن حبشي، ص ١١.

الصليبي عندما استولى الصليبيون على الرها وتأسست بها أولى الإمارات الصليبية سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م، فأدرك السكان خطر توغل الصليبيين في بلادهم، مما بعث المسلمين على التفكير الجدي في المبادرة إلى مهاجمة الصليبيين.

- أن منطقة الجزيرة قد ظهرت شخصيتها منذ عصر صدر الإسلام بسبب مجاورتها لأطراف الدولة البيزنطية، مما نشأ عنه خطر شديد على المسلمين أيام الأمويين والعباسيين فأصبحت خط الدفاع الأول عن ثغور المسلمين ضد الروم، وبعد الغزو الصليبي أصبحت منطقة الجزيرة تواجه إمارة الرها الصليبية التي شكلت أكبر خطر على الخلافة العباسية في بغداد.

- شهدت منطقة الجزيرة خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي دخول الأتراك السلاجقة إليها مع ما اشتبهوا به من حبههم لتربية الخيول والمغامرة مع حماسهم للإسلام بسبب قرب عهدهم به، وانتمائهم للمذهب السني، وأمد السلاجقة التركمان منطقة الجزيرة بدماء جديدة شديدة التحمس إلى الجهاد في سبيل الله، وبعكس القوى الإسلامية الأخرى في بلاد الشرق الإسلامي التي خبت جذوة الحماس الديني في نفوسها وخمدت روح القتال لديها^(١).

- الثروات الضخمة والموارد الكبيرة التي حوتها منطقة الجزيرة بسبب توافر مصادر المياه، وخصوبة الأرض؛ وسعة الرقعة الزراعية، وكثرة المراعي اللازمة للخيول والماشية، الأمر الذي مكنها من مد المجاهدين بمصدر لا ينفذ من المؤن والعتاد.

هذا فضلاً عن الحصانة الطبيعية التي تمتعت بها كبرى مدن وقلاع الجزيرة التي انطلقت منها حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين مثل الموصل وآمد وماردين وحصن كيفا وغيرها، إذ أن تلك المدن التي امتازت بحصانة جغرافية فريدة جعلت اقتحامها عنوة أمراً بالغ الصعوبة، وبالتالي أصبحت في مأمن من الهجمات الصليبية المضادة، ولا يستبعد أن يكون قد اختمر في نفوس زعماء حركة بعث فكرة الجهاد الإسلامي ما يمثله وجود إمارة الرها الصليبية في منطقة الجزيرة من خطورة بالغة على مركزه بالإضافة إلى خوفهم من تقدم الصليبيين جنوباً للقضاء على الخلافة العباسية في بغداد^(٢). ومن هنا فلا غرو أن تبعث فكرة الجهاد الإسلامي منطقة الجزيرة بقصد انتزاع الرها من أيدي الصليبيين^(٣).

(١) الإمارات الأرتقية في الشام والجزيرة، ص ٢٠١.

(٢) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص ١٣٧.

(٣) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص ٣٨.

١- جهاد قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل: وقد اتخذت فكرة المقاومة الإسلامية مظهرها العملي منذ سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م حيث قام قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل بجمع ما استطاع جمعه من العساكر بقصد منع أنطاكية من السقوط بيد الصليبيين، ولكن كربوقا لم يلبث أن توقف في الطريق حيث حاصر الرها لمدة ثلاثة أسابيع فأعطى بذلك فرصة كبيرة للصليبيين جدوا فيها لفتح أنطاكية، وقد تم لهم ذلك، ولو أن كربوقا أنفذ إلى أنطاكية مباشرة لأسلمه ياغى سيان مدينة أنطاكية، وتغيرت ظروف المحاصرين^(١)، ولكن كربوقا رفع الحصار عن الرها حين سمع بسقوط أنطاكية بيد الصليبيين، وعبر الفرات إلى الشام وأقام بمرج دابق حيث اجتمع هناك دقاق بن تتش صاحب دمشق وظهير الدين طغتكين أتابك دقاق، وجناح الدولة حسين صاحب حمص، وأرسلان تاشي صاحب سنجار، وسقمان بن أرتق صاحب بيت المقدس، وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم في القدوة والكفاية على حد قول ابن الأثير^(٢). وانضم الأمراء جميعاً تحت قيادة كربوقا وسار بهم صوب أنطاكية في سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م التي كانت قلعتها لا تزال في أيدي المسلمين، فاقربوا منها وشددوا عليها الحصار حتى تغير موقف الصليبيين وساءت حالتهم، إذ وجدوا أنفسهم محاصرين من الداخل والخارج، فتعرضوا لأزمة قاسية بسبب قلة الغذاء مما اضطرهم إلى أكل الجيف وأوراق الشجر^(٣)، ودفع ذلك الصليبيين إلى إرسال وفد إلى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من أنطاكية، غير أن كربوقا رفض طلبهم وقال لهم: لا تخرجون إلا بالسيف^(٤)، وهذا ما دفع أحد رجال الدين المسيحيين واسمه بطرس «بوشلميو» إلى اختلاق قصة الحرب المقدسة التي أدت إلى رفع معنويات الصليبيين والتفافهم حول زعمائهم، فقويت نفوسهم على الاندفاع تجاه المسلمين والخروج من الباب جماعات متفرقة حتى تكامل خروجهم، فزحفوا على المسلمين وهم في غاية من القوة والكثرة فكسروا المسلمين وفرقوا جموعهم^(٥)، وهكذا فشل كربوقا في قيادة التحالف الإسلامي الذي أراد من ورائه منع سقوط أنطاكية في أيدي الصليبيين سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م.

وقد ذكر المؤرخون أسباب فشل كربوقا في منع سقوط أنطاكية في أيدي الصليبيين في

(١) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص ١٣٨.

(٢) الكامل في التاريخ (٨/ ٤٠٠).

(٣) المصدر نفسه (٨/ ٤٠٠)، الجهاد ضد الصليبيين، ص ١٣٨.

(٥) المصدر نفسه (٨/ ٤٠٠).

(٤) الكامل في التاريخ (٨/ ٤٠٠).

الوقت الذي كان فيه الصليبيون قد وصلوا إلى درجة من الضعف والتدهور داخل أنطاكية ومن هذه الأسباب:

- ما ذكره مؤرخ أعمال الفرنجة من أن كربوقا صاحب الموصل قد أضاع ثلاثة أسابيع في حصار الرها؛ مما مكن الصليبيين من الاستيلاء على أنطاكية، والاحتياط بما عسى أن يطرأ لهم من هجوم مباغت سواء من المسلمين الذين كانوا داخل قلعة أنطاكية أو من إخوانهم في بلاد الشام وغيرها^(١).

- عدم وجود تجانس بين قوات كربوقا التي تكونت من العرب والترك وغيرهم، ثم ما قام به رضوان صاحب دمشق من بث روح الشقاق بين العرب والترك.

- عدم وجود خطة عسكرية واضحة أمام كربوقا، ولعل أبرز ما يوضح ذلك هو عدم رغبة كربوقا في السماح لرجاله بتوجيه الضربة القاضية للصليبيين وهم يخرجون جماعات متفرقة من أنطاكية. وهذا يعود إلى أن كربوقا كان يخشى على ما يبدو من أنه إذا فعل ذلك فسوف لا يقضى إلا على مقدمة الصليبيين^(٢).

- سوء معاملة كربوقا لمن معه من الأمراء، كان سبباً من أسباب هزيمته وفشله، فقد شرع بنوع من الاستعلاء عليهم، ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذا الحال، مما أدى إلى استيائهم من تصرفاته^(٣).

- ارتفاع الروح المعنوية عند الصليبيين بعد اختلاق قصة الحربة المقدسة، بالإضافة إلى ما قام به زعماء الصليبيين قبل وصول كربوقا إلى أنطاكية من مراسلة دقاق صاحب دمشق وإخباره أن مطامعهم لا تتعدى الاستيلاء على ما كان بيد الإمبراطور البيزنطي في شمال الشام^(٤)، لا يمنع هذا من القول بأن محاولة كربوقا منع أنطاكية من السقوط بيد الصليبيين كانت نقطة انطلاق في بعث فكرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، وكشفت للصليبيين عن مدى قوة المسلمين في حالة اتحادهم، كما أنها رسمت الطريق الصحيح لمن أتى بعده من زعماء المسلمين الذين أخذوا على عواتقهم حمل لواء الجهاد الإسلامي ليكملوا المسيرة من بعده، وتتمثل هذه الحقيقة إذا علمنا أن عماد الدين زنكي قد عاش في كنف كربوقا بعد موت والده^(٥)، على أن كربوقا صاحب الموصل قد وافته المنية عند مدينة خوى بأذربيجان سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م أثناء النزاع بين السلطان بركيارق بن ملكشاه وأخوه محمد بن

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٣٥٠).

(١) تاريخ الحروب الصليبية (٢/ ٣٢٨).

(٣) الجهاد ضد الصليبيين، ص ١٤٠.

(٥) دول الإسلام للذهبي (٢/ ٢٥).

(٤) الجهاد ضد الصليبيين ص ١٤٠.

ملكشاه، فخلت الموصل من أحد الزعماء الذين لم يشغلهم النزاع القائم بين السلاجقة عن مواصلة العمل على بعث فكرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين^(١).

٢- جهاد جكرمش صاحب الموصل وسقمان بن أرتق صاحب ماردين وديار بكر: جعلت وفاة أتابك الموصل كربوقا الموقف مائعاً وأدت إلى إثارة الحرب الأهلية، ذلك أن كربوقا أوصى بالولاية من بعده إلى سُنقرجه، وهو أحد أمرائه، وأمر الأتراك بطاعته لكن نازعه موسى التركماني نائبه في حصن كيفا، بعد أن استدعاه أعيان الموصل، واستطاع أن يقتل منافسه ويفوز بحكم الموصل بوصفه نائباً عن السلطان بركيارق^(٢)، واستغل شمس الدولة جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر فرصة الاضطرابات، ليتدخل في النزاعات الداخلية، فزحف إلى نصيبين واستولى عليها، فهرب موسى إلى الموصل وتحصن بها، وهناك حاصره جكرمش مدة طويلة واضطر موسى إلى الاستعانة بسقمان الأرتقي في ديار بكر، فعرض عليه إعطاء حصن كيفا ومنحه عشرة آلاف دينار، مقابل مساعدته، فقبل سقمان هذا العرض وقدم له مساعدة عسكرية فاضطر جكرمش إلى فك الحصار عن الموصل، ولما خرج موسى لاستقبال سقمان، قتله بعض غلمانه في الطريق فتشتت جيشه، وعاد سقمان مسرعاً إلى حصن كيفا، فاستولى عليه بينما تقدم جكرمش إلى الموصل ودخلها وسط ترحيب سكانها^(٣).

تولى جكرمش إمارة الموصل عام ٤٩٥هـ - ٥٠٠هـ / ١١٠١ - ١١٠٦م وعقد تحالفاً مع سقمان بن أرتق أمير الأراتقة في ديار بكر، استهدف التصدي لتقدم الصليبيين شرقاً باتجاه قلب الجزيرة، إذ كان للانتصارات السريعة التي أحرزها الصليبيون، واعتزامهم الاستيلاء على حران الواقعة مفرق الطرق إلى العراق والجزيرة والشام، مستغلين فرصة الصراع بين الأمراء المسلمين، فضلاً عما يعنيه الاستيلاء على حران من قطع الصلة بين المسلمين في بلاد فارس والعراق والجزيرة والشام، وإعطاء الصليبيين فرصة لمهاجمة الموصل، وتأمين الرها، والسيطرة على إقليم الجزيرة، كان لهذه العوامل جميعاً الأثر الحاسم في تناسي كل من جكرمش وسقمان خلافتهما القديمة، والعمل معاً لإيقاف تقدم الصليبيين^(٤).

أ - معركة البليخ وانتصار المسلمين على الصليبيين «وتسمى معركة حران»: أرسل كل من جكرمش وسقمان إلى صاحبه يدعوهُ إلى الاجتماع لتلاقي أمر حران ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه فأجاب كل منهما صاحبه، واجتمعا على الخابور عند رأس

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص ٦٢. (٢)، (٣) المصدر نفسه، ص ٦٣.

(٤) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، عماد الدين خليل، ص ٩٥.

العين، حيث عززا تحالفهما وتوجها على رأس عشرة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد لمنازلة الرها قبل أن يتعرضا للهجوم، وعندما سمع بلدوين الثاني أمير الرها نبأ احتشادهم في رأس العين أرسل إلى جوسلين وبوهمند يستنجد بهما، واقترح عليهما أن يحولا وجهة الهجوم بأن يقوموا بمحاولة لمنازلة حران، وبعد أن أبقي بلدوين حامية صغيرة في الرها اتخذ طريقه إلى حران على رأس جماعة صغيرة من الفرسان والأرمن، وانحاز إليه بالقرب من حران كل من جوسلين أمير تل باشر وبوهمند أمير أنطاكية، وابن أخته تانكرد، وبطريك أنطاكية، وجيش ضم فرسان الصليبيين وأمراءهم وعدداً كبيراً من الأرمن ورجال الدين، بلغ عدده نحو ثلاثة آلاف فارس، ونحو ثلاثة أمثال هذا العدد من الرجال، والواقع أن هذا الجيش يمثل القوة الضاربة الكاملة لدى صليبي شمالي الشام، عدا حاميات الحصون، وعندما احتشد هذا الجيش أمام حران كان جكرمش وحليفه لا يزالان يزحفان نحو «الرها»^(١). كاد الصليبيون أن يستولوا على حران، بعد وقت قصير من فرض الحصار عليها، إلا أن الخلاف الذي نشب بين بلدوين لي بور، وبوهمند، وإصرار كل منهما على رفع رايته على المدينة بعد الاستيلاء عليها، ساعد على صمود حران، وأتاح للمسلمين فرصة التحرك لقتال الصليبيين قبل سقوط هذا الموقع بأيديهم، وتم اللقاء بين الطرفين على نهر البليخ في التاسع من شعبان، حيث أظهر المسلمون الهزيمة، فتبعهم الصليبيون نحواً من فرسخين، فأعاد المسلمون الكرة عليهم، وأبادوا معظم قواتهم^(٢)، وغنموا مقادير كبيرة من الأموال والممتلكات^(٣)، وكان بوهمند أمير أنطاكية وابن أخته تانكر، قد كمنّا خلف أحد المرتفعات لينقضاً على المسلمين من مؤخرتهم حين يشتد القتال، فلما خرجا شاهدا هزيمة رفاقهم ونهب معسكراتهم، فأقاما في أماكنهما إلى الليل، ومن ثم تسللا هاريين، فتبعهما المسلمون وقتلوا وأسروا من أصحابها عدداً كبيراً، بينما تمكّنا هما من الفرار إلى الرها. أما بلدوين وجوسلين فقد تم أسرهما. وكان بلدوين قد انهزم مع جماعة من قواده وخاضوا نهر البليخ، إلا أن الأحوال أعاقَت تحركهم السريع؛ فلحقهم قائد تركماني من أصحاب سقمان وتمكن من أسرهم؛ حيث حمل بلدوين إلى سيده سقمان^(٤).

ب- الخلاف بين جكرمش وسقمان: وعندما رأى أصحاب جكرمش أن قوات سقمان قد استولت على حصّة الأسد من غنائم الصليبيين قالوا لسيدهم: أي منزلة تكون لنا عند الناس وعند التركمان إذا انصرفوا بالغنائم دوننا؟ وحسنوا له اختطاف بلدوين، فأرسل

(١) الحروب الصليبية، رنسمان (٢/ ٧١ - ٧٢)، المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص ٩٦.

(٢)، (٣) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص ٩٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٩٧.

جكرمش بعض أصحابه، حيث تمكنوا من اختطاف بلدوين، من معسكر سقمان. فلما علم هذا بما حدث، وكان خلال ذلك غائباً عن مقره، شق عليه الأمر، وتهايا أصحابه للقتال، إلا أنه مالبت أن ردهم وقال لهم: لا أوثر شفاء غيظي بشماتة الأعداء بالمسلمين^(١)، ومن ثم تقدم على رأس قواته، وأخذ سلاح الصليبيين وراياتهم، وألبس أصحابه ملابسهم وأركبهم خيلهم وجعل يأتي حصون إقليم شبختان من ديار بكر، فيخرج الصليبيون منها ظناً منهم أن أصحابهم قد انتصروا فيجابههم سقمان ويقضي عليهم ويقتحم حصونهم، وتمكن بذلك من وضع يده على عدد من حصون المنطقة، وقفل عائداً إلى مقر إمارته في ديار بكر^(٢).

ج- هزيمة جكرمش: قرر جكرمش المضي في القتال بعد عودة حليفه، وقام باقتحام قلاع الصليبيين في إقليم شبختان الممتد إلى شرق الرها، ليحمي مؤخرته، ومن ثم واصل السير إلى الرها نفسها، إذ أدى تمهل الصليبيين من قبل إلى الإبقاء على حران بأيدي المسلمين، فقد أبقى الرها للمسيحيين ما حدث من تمهل المسلمين إذ توافر لتانكرد من الوقت ما يكفي لإصلاح وسائل الدفاع، وبذا استطاع أن يرد أول هجوم قام به جكرمش، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى ما أظهره الأرمن والمحليون من الولاء والبسالة غير أن ما أحس به تانكرد من ضغط شديد، حمله على المبادرة بالاستنجاد ببوهمند، ومع أن هذا كان يواجه مشاكل عديدة، إلا أنه رأى ضرورة جعل الأسبقية لدرء الخطر عن الرها، فنهض لمساندة ابن أخته، غير أنه عطله ما كانت عليه الطرق من أحوال سيئة. واستبد اليأس بتانكرد فأمر رجال الحامية بأن يتخذوا أماكنهم للهجوم قبل بزوغ الفجر، وتحت جنح الظلام انقضَّ رجاله على الأتراك الذين استغرقوا في نومهم مطمئنين، واكمل الانتصار الصليبي بوصول بوهمند، فهرب جكرمش مذعوراً، وخلف من ورائه معسكره الزاخر بالثروة، فانتقم الفرنج من هزيمة حران، وتم احتفاظهم بالرها^(٣)، وكان من بين الأسرى الذي وقعوا في يدي تانكرد أميرة سلجوقية من عقائل بيت جكرمش الذي بلغ من تقديره لهذه السيدة أنه بادر لافتدائها مقابل مبلغ كبير من المال «١٥ ألف بيزنت»، أو مبادلتها بالكونت بلدوين نفسه، وبلغت بيت المقدس أنباء هذا العرض، فأسرع الملك بلدوين بالكتابة إلى بوهمند بالآمل يجعل هذه الفرصة تفلت حتى يتم إطلاق سراح بلدوين. غير أن بوهمند وتانكرد احتاجا إلى المال على حين أن عودة بلدوين سوف تخرج تانكرد من وظيفته الحالية - كمستول على الرها - ليعود إلى أنطاكية ولذا ردّا على رسالة الملك: إنه ليس من الدبلوماسية في شيء أن يظهرها لهفتها

(١) الكامل في التاريخ (٤٦٦/٨).

(٢) المصدر نفسه (٤٦٦/٨)، المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص ٩٧.

(٣) الحروب الصليبية، ص ٩٨.

الشديدة على قبول العرض، على حين أنهما إذا تردّدا في القبول ربما لجأ جكرمش إلى زيادة الفدية. غير أنه في تلك الأثناء تم اتفاقهما مع جكرمش على قبول عرضه النقدي، وبذا بقي بلدوين في الأسر^(١).

د- نتائج معركة البليخ أو حرّان: كانت لمعركة البليخ نتائج بالغة الأهمية على الصعيدين الإسلامي والصليبي، لعل أهمها:

- أوقفت تقدم الصليبيين وتوسعهم باتجاه الشرق على حساب المسلمين، وقضت على آمالهم في التقدم نحو العراق وإتمام سيطرتهم على إقليم الجزيرة.

- تلاشت أحلام بوهمند في السيطرة على حلب، وتحويل إمارة أنطاكية إلى دولة كبيرة، وقضت على آمال الصليبيين بقطع الاتصال بين القوى الإسلامية في الشام والجزيرة وآسيا الصغرى عن طريق الاستيلاء على حلب.

- قرّرت مصير إقليم الرها. ذلك أن هذه الإمارة تعرضت لكثير من المتاعب الداخلية التي أضعفتها وبخاصة من جانب الأرمن الذين سرعان ما أبدوا تدمراً من الحكم اللاتيني بفعل تعسف هؤلاء مع الكنيسة الأرمنية، واضطهاد رجالها مما دفع الأرمن إلى الاتصال بالأتراك وأضحى احتمال سقوطها في أيدي المسلمين وشيكاً^(٢).

- أتاحت للمسلمين فرصة استعادة الأملاك التي خسروها في السابق، وضُمَّت إلى إمارة أنطاكية.

- أضحى تانكرد، بعد أسر بلدوين، وصياً على إمارة الرها، كما أصبح بوهمند أقوى الأمراء الصليبيين في الشمال.

- أدّت ظروف الانتصار إلى زيادة التقارب بين القوى الإسلامية والبيزنطيين ضد عدوهم المشترك. وأوضح ابن القلانسي خطورة النتائج بقوله: وكان نصراً حسناً للمسلمين، لم يتهياً مثله، وبه ضعفت نفوس الإفرنج، وقلّت عدتهم، وفلت شوكتهم، وقويت نفوس المسلمين، وأرهفت عزائمهم في نصره الدين، ومجاهدة الملحدّين، وتباشر الناس بالنصر عليهم، وأيقنوا بالنكاية فيهم والإدالة منهم.

- حطمت أسطورة أن الصليبيين لا يقهرون^(٣).

- استغل الإمبراطور البيزنطي الكسيوس فرصة ضعف مركز بوهمند إثر تعرضه

(١) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص ٩٩.

(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص ٦٥. (٣) المصدر نفسه، ص ٩٥.

للاتتقاد بسبب عدم افتدائه لرفيقه بلدوين، فضلاً عن التزامه بالمعاهدات التي كان عقدها مع الإمبراطور الذي راح يشجع الانتفاضات التي قام بها سكان قليقية ضد حكامهم النورمان، كما أوعز إلى قواته بالاستيلاء على عدد من المدن والمواقع التي كان تانكرد قد استولى عليها من قبل، واشترك الأسطول البيزنطي في السيطرة على بعض المدن الساحلية بين اللاذقية وطرطوس، يضاف إلى ذلك أن البيزنطيين تمكنوا من استغلال قواعدهم البحرية في قبرص لتقديم المساعدات لريموند الضجلي - عدو بوهمند اللدود - الذي كان يسعى لتأسيس إمارة حول طرابلس تحاذي أنطاكية من الجنوب، في الوقت الذي لم يتقدم فيه أحد من القدس لنصرة بوهمند ومساعدته في هذه المحنة^(١).

وهكذا قدر لجكرمش، بتحالفه مع سقمان، أن يلعب دوراً خطيراً في تاريخ الحروب الصليبية، وأن يقدم وحليفه للعالم الإسلامي أول نصر حاسم على الصليبيين، فتح به الطريق لظهور قيادات وأحلاف إسلامية وجهت الضربات المتتالية للقوى الصليبية، تلك القيادات التي بدأت بمودود حاكم الموصل السلجوقي، وانتهت بصلاح الدين، عبر إيلغازي وملك الأرتقيين، وآق سنقر البرسقي، ثم عماد الدين ونور الدين الزنكيين^(٢).

هـ- مواصلة جكرمش للجهاد ورغم بعض البوادر السلبية التي أعقبت انتصار المسلمين في البليخ فإن جكرمش ظل يطمح لتحقيق انتصارات أخرى في هذا الميدان، وبعد أقل من سنتين أتيح له ذلك عندما تلقى في أواخر عام ٤٩٩هـ - ١١٠٦م أمراً من السلطان محمد بالقيام بحملة جديدة لمهاجمة الصليبيين، فاتصل بأمرأ المنطقة، وتمكن من تشكيل حلف يضم رضوان أمير حلب وإيلغازي الأرتقي أمير ماردين وألبي تمرتاش صاحب سنجار والأصهبذ صاوا أحد كبار أمراء فارس إلا أن ما طرحه إيلغازي على الأمراء المذكورين، أعاق تنفيذ الخطة المقترحة؛ إذ طلب منهم أن يبدأوا حملتهم ضد جكرمش بقصد الاستيلاء على الموصل لكسب رضا السلطان محمد الذي كان يحقد على حاكم الموصل بعض تصرفاته، فضلاً عن إمكانية الاستفادة المباشرة من ميزان الموصل وإمكاناتها المالية والعسكرية ضد الصليبيين، فوافق زملأؤه على ذلك ومضوا معاً لمهاجمة نصيبين التابعة لحاكم الموصل، إلا أن نواب جكرمش هناك نجحوا - بتوجيه من سيدهم في الموصل - في إثارة النزاع والكراهية بين رضوان وإيلغازي، فاغتتم رضوان فرصة إقامة وليمة أمام أسوار نصيبين وقام باختطاف إيلغازي وتكبله واعتقاله، إلا أن أتباعه من التركمان تمكنوا من تخليصه، وقاموا بهجوم مباغت على معسكر رضوان أرغمه على الانسحاب والعودة إلى

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٢.

(١) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص ١٠٠.

حلب، وبذا تمزق هذا التحالف قبل أن يخطو خطوة واحدة صوب هدفه الأساسي في قتال الصليبيين^(١)، إلا أن ذلك كله لم يثن جكرمش عن عزمه على مهاجمة أعدائه الحقيقيين، إذ إنه ما أن تمكن من إحباط مساعي الأمراء المتحالفين ضده حتى بادر بشن الهجوم على الرها، إلا أنه مالبث أن عاد إلى الموصل ليوافجه متاعب جديدة تجاه السلاجقة بعد أن نجح في التغلب على هجوم قامت به عساكر ريتشارد (سالرنو) الذي كان يحكم الرها آنذاك نيابة عن بلدوين المأسور. ولم يمض وقت قصير على ذلك حتى تحرك قلعج أرسلان، سلطان سلاجقة الروم، لمهاجمة الرها، فانتهاز نواب جكرمش الفرصة وأرسلوا إليه يستدعونه ليسلموا إليه البلد، فتقدم قلعج أرسلان إلى هناك ودخل حران، وفرح به الناس لأجل جهاد الفرنج^(٢)، وأقام هناك أياماً اضطر بعدها للعودة إلى بلده بسبب مرض شديد ألم به تاركاً في حران جماعة من أصحابه لحمايتها^(٣)، ويبدو أن شخصية قلعج أرسلان بدأت تغطي بما تمتع به من قوة واستقلال ونفوذ، على شخصيات رفاقه من الأمراء المسلمين في المنطقة بسبب خلافاتهم المستمرة، وتطاحنهم الدائم من أجل تحقيق مكاسب إقليمية محدودة فضلاً عن أن المشاكل التي جابهت جكرمش في الموصل، وتدهور علاقته مع السلاجقة صرفت اهتمامه كلية عن ساحة الجهاد ضد الصليبيين، الأمر الذي أدى إلى أن يستقطب قلعج أرسلان اهتمام نواب جكرمش في حران فاستدعوه وسلموه البلد، مما يفسر لنا - كذلك - ما حدث بعد قليل من استدعاء قلعج أرسلان من قبل أهالي الموصل كي يتولى حكمهم، إثر مقتل حاكمهم السابق جكرمش^(٤).

٣- قلعج أرسلان وجهاده الكبير في آسيا الصغرى: لم يكد الغرب الأوربي يعلم نبأ النجاح الذي حققته الجموع الصليبية في بلاد الشام وفلسطين حتى تمخّس كثير من الأمراء الذين لم يشاركوا من قبل في الذهاب إلى الشرق، تدفعهم مطامع شخصية دنيوية وهي الحصول على الغنائم والضياع فضلاً عن مطامع دينية وهي الحصول على الثواب والغفران، ويُذكر بأن الصليبيين في الشرق كانوا بحاجة ماسة إلى محاربيين ومستعمرين بهدف:

- مواصلة الحرب ضد المسلمين.

- استئناف عملية التوسع.

- حراسة ما حققوه من مكاسب.

(١) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص ١٠٣.

(٢) الكامل في التاريخ نقلاً عن المقاومة الإسلامية، ص ١٠٤.

(٤) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص ١٠٤.

- المحافظة على هذه الحقوق ضد أي محاولة استرداد من جانب المسلمين.

- استجاب المجتمع الغربي لهذه الظاهرة، وانبعث منه صحوة صليبية أسفرت عن تدفق جموع صليبية أخرى إلى الشرق. وشكّل اللمبارديون أول تلك الجموع، فغادروا إيطاليا في عام ٤٩٤هـ/ ١١٠١م بقيادة أنسلم بوي رئيس أساقفة ميلان، وصحبه عدد من الأمراء من بينهم ألبرت كونت بينادرات، جيوربت كونت بارما، وهيوكونت مونتيلو^(١)، ويبدو أن هذه المجموعة اللمباردية على الرغم من وفرة عدد المشتركين فيها، لم تكن تختلف كثيراً من حيث النوعية عن جموع العامة السابقة، بدليل أنها لم تضم سوى عدد قليل من الفرسان المحاربين، تألفت غالبيتها العظمى من العامة الذين لا يحسنون القتال، ويفتقرون إلى النظام، ولما وصلوا إلى ضواحي القسطنطينية ارتكبوا أعمال السلب والنهب مما حمل الأمبراطور البيزنطي على الإسراع بنقلهم إلى آسيا الصغرى، وذلك في جهادي الأولى/آذار، واستقروا في نيقوميديّة بانتظار وصول جموع أخرى^(٢)، وفعلاً لم تلبث أن وصلت مجموعة أخرى من الفرنسيين بقيادة ستيفن بلو، وانضم إليه عدد من الأمراء أمثال ستيفن كونت برجنديا وهيوكونت بروي، وبلدوين كونت جرانبريه، وهيوبيرفون أسقف سواسون بالإضافة إلى سرية ألمانية، وعبرت هذه المجموعة البوسفور، وعسكر أفرادها عند نيقية على مقربة من المعسكر اللمباردي، وبلغ عدد أفراد المجموعتين بين مائتين وثلاثمائة ألف مقاتل، وعين الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين صديقه ريموند تولوز، قائداً عاماً عليهم، وألحق بهم جماعة من الجنود البيزنطيين بقيادة تسيتاس^(٣).

معركة مرسيفان: تحرك الجيش الصليبي الضخم من نيقوميديّة إلى دور يليوم بهدف الوصول إلى الأراضي المقدسة، على أن يعيد أثناء زحفه فتح الطريق الذي يجتاز آسيا الصغرى، لذلك أوصى الإمبراطور ستيفن بلو بأن يسلك الجيش الطريق الذي سلكته الجموع الصليبية السابقة التي تجتاز دوريليوم وقونية، غير أن اللمبارديين رفضوا التوجه إلى الأراضي المقدسة إلا بعد فك أسر بوهمند الذي اتخذوه مثلاً يُحتذى وبطلاً لهم، والمحارب الوحيد الذي يثقون به ليقودهم إلى النصر، وأصروا بأن تتوجه الحملة إلى كمبادوكية - ويذكر ابن الأثير أن هدف تلك الجموع الصليبية كان تخليص بوهمند من الأسر^(٤) - وعلى الرغم من احتجاج بعض القادة الأمراء لقلج أرسلان، فإنهم استولوا عليها وتابعوا طريقهم

(١) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا، ص ٩٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٦.

(٣) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ سلاجقة الروم، ص ٩٧.

(٤) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا، ص ٩٧.

إلى كنغري الواقعة في جنوب بافلاجونيا كي يسلكوا الطريق الرئيسي المؤدي إلى أماسية ونيكسار، وحتى يعرقل التقدم الصليبي، اتبع أسلوب البدو بتخريب البلاد أثناء انسحابه وحرق كل ما يمكن أن يستفيد الصليبيون منه وبخاصة مواد التموين وفي الوقت نفسه، أخذت القوى التركية تتجمع في تحالف جديد لمواجهة الخطر الصليبي، فبادر كمشتكين أحمد الدانشمند بتجديد تحالفه مع قلع أرسلان، كما حثَّ رضوان صاحب حلب على أن يرسل عدداً من الجنود^(١). وصل الصليبيون إلى كنغري فألفوا الأتراك فيها بكامل قوتهم، واستعصت عليهم المدينة لمناعتها، فاضطروا إلى متابعة سيرهم بعد أن نهبوا القرى المجاورة لكن التعب بدأ يظهر عليهم بسبب النقص في المؤن، وشدة الحرارة، ومضايقة الأتراك، واقترح ريموند - حتى يجنب الجيش الدمار المخيف - أن يتوجه صوب الشمال الشرقي إلى قسطنوني، ومنها إلى إحدى المدن البيزنطية على ساحل البحر الأسود، على أن الرحلة إلى قسطنوني كانت بطيئة وشاقة بسبب نفاد المؤن وتدمير الأتراك للمحاصيل الزراعية، وردمهم للآبار، وتعرض الصليبيون لهجوم تركي مفاجئ ففرقوا لا يلوون على شيء قبل أن يعيد ريموند لم شعنتهم، ولما وصلوا إلى أطراف قسطنوني، كان على ريموند أن يشق طريقاً بين الجموع التركية إلى الساحل، على أن اللباردين أصروا مجدداً على التوجه إلى الشرق، ونزل باقي الأطراف على رأيهم مرغمين^(٢).

واجتاز الجيش الصليبي نهر هاليس إلى بلاد الدانشمدين ووصل أفراداه إلى مدينة مرسيفان الواقعة في منتصف الطريق بين النهر وأماسية^(٣). وعندما أدرك الأتراك أن القوة الصليبية أصبحت منهكة تقدموا نحوها واصطدموا بها، ولم يمض وقت طويل حتى تضعضع الصليبيون وفرُّوا من أرض المعركة تحت ضغط القتال مخلفين وراءهم نساءهم وورهبانهم، ولجأ ريموند إلى تل صغير احتفى به إلى أن أنجده الفرنسيون والألمان، ثم هرب خلال الليل بعدما يئس من إحراز أي نصر، وترك وراءه المعسكر الصليبي ومن كان به من غير المحاربين ليقع غنيمة في أيدي الأتراك^(٤). تلت المعركة عملية مطاردة لم ينج منها إلا الفرسان، وبلغت خسائر الصليبيين أربعة أخماس الجيش^(٥)، واستولى الأتراك على كميات كبيرة من الأسلحة، وغنموا كثيراً من الأسرى بيعوا رقيقاً، ولم يلبث ريموند أن وصل إلى بافرا، الميناء البيزنطي الصغير على البحر الأسود قرب سينوب، وأقلته من هناك سفينة

(١) الحروب الصليبية، رنسيما (٢/٤٣).

(٢) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص ٩٨. (٣) المصدر نفسه، ص ٩٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٩٨.

(٥) المصدر نفسه، ص ٩٨.

بيزنطية إلى القسطنطينية^(١)، ويشير المؤرخ اللاتيني ألبرت أوف أكس إلى أن ريموند تلقى رشوة من الأتراك كي يقود الجيش إلى قسطنطيني، وهذا مستبعد، لأن من يتتبع سير الحملة وما رافقها من أحداث يلمس مدى ما بذله ريموند من جهد في إقناع اللبارديين بعدم التوجه إلى بلاد الدانشمنديين أولاً، ثم محاولته إخراج الجيش من المأزق الذي أوقع نفسه فيه ثانياً، وما اختياره للطريق إلى قسطنطيني إلا نتيجة لما تعرض له الجيش من متاعب، وأما فراره من أرض المعركة، فنتاج عن إدراكه بعدم جدوى متابعة القتال بعد أن ولى اللبارديون الأدبار وتبعهم البجناك المرتزقة^(٢).

ب - معركة هرقله الأولى: محت الكارثة - التي حلت بالصلبيين في مرسيفان - الشهرة، التي اكتسبها هؤلاء نتيجة انتصارهم في دوريليوم، وزاد من أثرها أنها لم تكن الكارثة الأخيرة. إذ - في الوقت الذي غادر فيه اللبارديون مدينة نيقوميديا - وصل إلى القسطنطينية جيش فرنسي بقيادة وليم كونت نيفر على رأس خمسة عشر ألفاً من الفرسان والمشاة، وحرص وليم على اللحاق باللبارديين على وجه السرعة، فغادر القسطنطينية إلى نيقوميديا، وعلم فيها أن الجموع الصليبية مضت في طريقها إلى أنقرة فسار إلى هذه المدينة ووصل إليها بسهولة. لكن لم يكن أحد يعلم بالجهة التي سارت إليها هذه الجموع، لذلك لم يَسعَ الكونت إلا أن توجه نحو قونية، ولما وصل إليها ضرب الحصار عليها، وتولت حامية تركية سلجوقية الدفاع عنها، وما قام به من محاولات للاستيلاء عليها باءت بالفشل فتركها^(٣). كان السلاجقة وحلفاؤهم قد فرغوا، في غضون ذلك، من إعادة الجموع اللباردية، وعلم قلعج أرسلان وكمشكين أحمد دانشمند بقدوم هذا العدو الجديد، وفي حين أنه ما زالت تغمرهما حرارة الانتصار، سارا نحو الجنوب، وسبقا وليم إلى هرقله، وسارت عساكر نيفر ببطء من قونية متوجهين نحو الشرق، ولما وصلوا إلى مكان قريب من هرقله، وكان التعب قد استبد بهم، هاجمهم الأتراك، فانهارت مقاومتهم بعد معركة لم تستمر طويلاً، ولقي الجيش الفرنسي بأسره مصرعه، باستثناء الكونت وستة من أتباعه^(٤).

ج - معركة هرقله الثانية: في الوقت الذي كانت فيه حملة نيفر تجوس آسيا الصغرى، وصلت الدفعة الأخيرة من تلك الجموع الصليبية إلى القسطنطينية، وتألفت من فرنسيين وألمان بقيادة وليم التاسع دوق أكويتين، وولف الرابع دوق بافاريا، وبلغ عدد أفرادها ستين

(١) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص ٩٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٩، ١٠٠.

ألف مقاتل. خرجت هذه الجموع من القسطنطينية باتجاه قونية، وسلكت الطريق نفسه الذي سلكه بوهمند، من قبل، وانتهج الأتراك تجاهها الخطط نفسها التي طُبّقوها من قبل، باحراق الغلال وإتلاف المؤن وطمر الآبار، ولما وصل أفراد هذه المجموعة إلى قونية وجدوا المدينة خاوية، وكانت الحامية السلجوقية قد أخلتها بعد أن قاومت حملة نيفر، وحملت معها كل ما كان فيها من مؤن، كما جردت البساتين والحدائق من كل ما يمكن أن يفيد الصليبيين^(١). ولم يمكث الصليبيون في قونية وغادروها إلى هرقله عن طريق يبلغ طوله خمسة وخمسين ميلاً، فعانوا من المتاعب الكثيرة حتى اشتد بهم الجوع والعطش، وكان الأتراك يتخطفونهم بالقتل بين الحين والآخر، ولما دخلوا إلى المدينة وجدوها مهجورة^(٢)، تربّص المسلمون في هذا الوقت بالصليبيين، وكمّنوا لهم في الغابات المحيطة بهرقله، وباغتوهم وهم يشربون من ماء ذلك النهر المتفجر وراء المدينة، وعندما اضطرب نظامهم، انقضّ عليهم الأتراك وأبادوهم عن آخرهم، باستثناء قلة قليلة استطاعت النجاة بصعوبة، من بينهم وليم التاسع وولف الرابع وتوجها إلى طرسوس ومنها إلى أنطاكية^(٣).

د- نتائج معارك قلج أرسلان السابقة: انتهت كل مجموعة من المجموعات الثلاث، نهاية محزنة أثّرت نتائجها في سير الحركة الصليبية من جهة، وفي الأتراك بعامة والسلاجقة بخاصة من جهة أخرى.. وأهم هذه النتائج هي:

- ثار السلاجقة لما حلّ بهم في دوريلوم، فلن يجري بعدئذ طردهم من الأناضول كما رفعت الانتصارات المتتالية روحهم المعنوية.

- ظل الطريق الذي يجتاز آسيا الصغرى إلى بلاد الشام غير آمن للجيوش الصليبية والبيزنطية على السواء، على الرغم من نجاح المجموعات الصليبية الأولى في اقتحامه، فخشي المهاجرون الصليبيون سلوك هذا الطريق البري الذي يجتاز القسطنطينية إلى إيسوس، مالم يكونوا في جيوش ضخمة، ولم يعد بوسعهم القدوم إلا بحراً مع ما يتطلّب ذلك من مصاريف إضافية لم يتمكن من دفعها إلا القليل. وظل هذا الطريق البري مغلقاً في وجه الصليبيين عدة أعوام^(٤).

- ألقى الصليبيون اللوم على البيزنطيين بما حلّ بهم من مصائب وحملوهم مسئولية ما حدث. وتردّدت الشائعة بينهم أن ريموند كان يُنفذ تعاليم الإمبراطور عندما أخرج الجيش

(١) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص ١٠٠.

(٢،٣) المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٠١.

الذي يقوده عن طريق المرسوم ليلقى أفراد حشدهم في كمين سبق إعداده، والواقع أن اللاتين أرادوا التماس كبش فداء يتحمل مسؤولية أخطائهم، فألقوا اللوم على البيزنطيين، وعدّوهم مسئولين عما حلّ بهم من كوارث^(١).

- لم يلبث قلعج أرسلان أن ازداد افتخاراً بعد هذه الانتصارات، وشاركه سائر أتراك الأناضول، وأضحى بوسعه أن يعيد سيطرته على جوف الهضبة، ثم أقام في عاصمته قونية الواقعة على الطريق الرئيسي الذي يربط القسطنطينية ببلاد الشام^(٢).

- استأنف الدانشمنديون فتوحهم في وادي الفرات دون عائق وبلغوا أطراف إمارة الرها، كما فتحوا ملطية وأسروا حاكمها في ٢٣ ذي الحجة ٤٩٥هـ/ ١٨ أيلول ١١٠٢م.

- أعاد رحيل الصليبيين إلى بلاد الشام الخصومة والتنافس بين السلاجقة والدانشمنديين، وتنازع البيتان التركيان الكبيران حول امتلاك ملكية وفدية بوهمند، فتفككت بذلك جبهة الأتراك في المنطقة^(٣).

- **أثر وفاة قلعج أرسلان:** راسل زنكي بن جكرمش قلعج أرسلان الأول يستنجد به وكان آنذاك في ملطية، ووعدته بتسليمه الموصل والأعمال التابعة لها، واستغل السلطان قلعج السلجوقي هذه الفرصة للتوسع على حساب الأمراء المتنازعين، فأسرع لنجدة زنكي، ولما علم جاولي بمسيره، انسحب من المدينة، لا سيما وقد توفي جكرمش فجأة وهو في الأسر، وكان ينوي اتخاذ أداة للمساومة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنه أدرك أن لقلجج أرسلان الأول من القوة ما لا يستطيع مجابهته في معركة سافرة، لذلك قرر تكوين حلف مناهض له حتى يدعم موقفه^(٤)، لكن قلعج أرسلان الأول تمكن من دخول الموصل وسط ترحيب السكان، وقد وعدهم باحترام حرياتهم، وأجرى فيها بعض الترتيبات الإدارية^(٥)، وأما جاولي، فقد انسحب إلى سنجار، وأجرى مباحثات مع كل من إيلغازي الأرتقي ورضوان صاحب حلب، واتفق في نهايتها على طرد قلعج أرسلان الأول من الموصل، والتوجه بعد ذلك لمهاجمة أنطاكية وانتهت الحرب ضد قلعج أرسلان الأول بهزيمته وغرقه في نهر الخابور^(٦) في عام ٥٠٠هـ/ ١١٠٧م^(٧)، ويعتبر قلعج أرسلان الأول من الشخصيات الفذة التي أنجبتها

(١)، (٢)، (٣) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص ١٠١.

(٤)، (٥) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص ٦٨.

(٦) نهر الخابور: نهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة.

(٧) الكامل في التاريخ (٥٠٢/٨).

سلاجقة الروم، وتأثر الشرق الأدنى بمختلف فئاته بموته.

- فسلاجقة الروم الذين لم يظهر بينهم زعيم قوي يحل محل قلعج أرسلان تعرّضوا لضغط متزايد من جانب الإمبراطورية البيزنطية التي جدّدت تدخلها في شئونهم الداخلية، واستطاع الكيسوس كومنين أن يعيد، باطمئنان، سيطرته على المناطق الغربية لآسيا الصغرى وعلى امتداد ساحلها الجنوبي.

- أطالت وفاة قلعج أرسلان من عمر دولة السلاجقة العظام، ما يقرب من مائة عام. ذلك أن الانقسامات الحادة داخل الدولة بين السلاطين والأمراء للسيطرة على العرش، وكثرة الحروب الداخلية بينهم بالإضافة إلى الأخطار الخارجية التي أحقت بهم، كخطر الحشيشية والخطر الصليبي، وتدخل قلعج أرسلان في شئون الشرق للسيطرة على مقاليد الحكم، وليوحّد من جديد كل القوى السلجوقية في المشرق، وكانت باستطاعته تحقيق حلمه هذا، فالظروف السياسية الداخلية والخارجية موّاتية غير أن وفاته أنقذت دولة السلاجقة العظام من الزوال وأطالت أمد عمرها.

- تُعدّ وفاة قلعج أرسلان مرحلة بالغة الأهمية في انفصال سلاجقة الروم عن سلاجقة المشرق. ذلك أن الأخطار الداخلية والخارجية التي أحقت بدولة السلاجقة العظام حالت بينهم وبين التدخل في شئون الفروع السلجوقية الأخرى وبخاصة في بلاد الشام وآسيا الصغرى، والجدير بالذكر أن دولة سلاجقة الروم كانت لا تزال حتى ذلك الوقت تابعة اسمياً للسلاجقة العظام، ولم تستقل تماماً إلا في عام ١١٥٧/٥٥٢ م^(١).

- حرم موت قلعج أرسلان سلاجقة الشام من قوة كانت كفيلة بإقامة الوحدة بينهم، ذلك أن السيادة السلجوقية في بلاد الشام، أخذت تتقلص سريعاً، لأن ابني تُش، رضوان ودقاق لم يتمتعا بالمقدرة السياسية التي تمكنهما من مواجهة الأوضاع القلقة التي عاشتها بلاد الشام في أواخر القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، وأوائل القرن التالي، ولعل أكبر مظهر لانحلال سلطان السلاجقة في بلاد الشام والعراق وغيرهما، هو ظهور عدد كبير من البيوت الحاكمة التي تجمعها رابطة الاتصال بالبيت السلجوقي وظهرت من تلك البيوت وحدات سياسية أطلق عليها اسم الأتابكيات وعلى أصحابها اسم الأتابك^(٢).

(١) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص ١١١.

(٢) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص ١١١.

- أزال وفاء قلعج أرسلان خطراً شديداً عن صدر الإمبراطورية البيزنطية في وقت حرج، إذ كان بوهمند يستعد لمهاجمة بلاد البلقان في عام ٥٠١هـ/١١٠٧م انطلاقاً من حصن دورازو المنيع، وقد ضحى الكسيوس كومنين بمجودود بلاده الجنوبية الشرقية من أجل إنقاذ دورازو، فعقد معاهدة مع قلعج أرسلان حصل بموجبها منه على مساعدة عسكرية، إلا أن وفاته المفاجئة، وعدم وجود شخصية قوية تحل محله، أعطاه الفرصة ليتفرغ وهو مطمئن، لمواجهة خطر بوهمند، الذي انهزم أمامه عام ٥٠٢هـ/١١٠٨م^(١).

- جعلت وفاء قلعج أرسلان الموقف في آسيا الصغرى مائعاً إذ أن أكبر أولاده الأربعة وهو ملكشاه أضحى أسيراً في يد السلطان محمد بعد معركة الخابور، بينما استولت أرملته على ملطية والأقاليم الشرقية بمساعدة الأمير أيدبر الذي اعترف بسيادة طغرل أرسلان، أصغر أولاد قلعج أرسلان، على بلاد الروم، أما الأخوان الآخرون، وهما مسعود وعرب، فقد عاش الأول في بلاد الدانشمنديين في حين استقر الثاني في قونية^(٢).

- لم يكن انهيار الحكم المركزي للسلاجقة الروم لصالح البيزنطيين، لأن أولئك استمروا في شن الغارات على أراضي الإمبراطورية على بعض الحصون في المناطق الحدودية^(٣)، على أنه لم يشأ أن يغامر بالقيام إلى قيليقية أو إلى بلاد الشام، وكان هذا التصرف منه لصالح السلاجقة الذين تفرغوا لمعالجة مشكلاتهم الداخلية^(٤).

٤- جاولي سقاوة: بعد وفاة قلعج أرسلان وغرقه في نهر الخابور عام ٥٠٠هـ/١١٠٧م أضحى بوسع جاولي أن يدخل الموصل، غير أن ما اقترن به حكمه من الوحشية لم يلبث أن جعله مكروهاً عند الناس، كما أنه لم يزد عن جكرمش فيما أظهره من الاعتراف بسلطة السلطان محمد على الرغم من أنه خطب باسمه في الموصل^(٥)، إذ أعلن استقلاله وقطع كل صلة به، مما دفع السلطان محمداً لأن يعهد في شهر ذي القعدة عام ٥٠١هـ/شهر حزيران عام ١١٠٨م إلى أحد رجاله، وهو مودود بن التونتكين بطرد جاولي من الموصل والحلول مكانه في حكمها^(٦)، وهكذا اضطر جاولي إلى الفرار مجدداً من الموصل، وذهب إلى الجزيرة حيث التفّ حوله جميع أعداء الدولة السلجوقية وعلى رأسهم قبيلة بني مزيد العربية، كما لم يتردد في محالفة القوى الصليبية المجاورة، فأطلق سراح بلدوين الثاني دي بوج أمير الرها،

(١)، (٢) تاريخ السلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص ١١٢.

(٣)، (٤) المصدر نفسه، ص ١١٢.

(٥)، (٦) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص ٦٨.

وعقد معه تحالفاً ضد السلاجقة^(١). ودخل مودود الموصل وسط ترحيب السكان في شهر صفر عام ٥٠٢هـ/ شهر أيلول عام ١١٠٨م^(٢).

٥- شرف الدولة مودود بن التونتكين ٥٠١هـ - ٥٠٧هـ/ ١١٠٨م - ١١١٣م: يحتل مودود مكانة خاصة في تاريخ الجهاد ضد الصليبيين، وقد أسهمت في تكوين هذه المكانة عوامل عدة أهمها - لا ريب - الفترة المبكرة التي ظهر فيها، والطابع الإسلامي العميق لشخصيته المتفانية في سبيل أهداف المسلمين الكبرى، وسياسته الداخلية العادلة السمحة وقدرته - بناء على ذلك كله - على تزعم حركة الجهاد وإيجاد نوع من التنسيق، ربما لأول مرة، بين كل القوى الإسلامية في ساحات الجهاد، الأمر الذي لن نجده متبلوراً وناضجاً إلا في عهد الأراقة وزنكي فيما بعد.. وأخيراً نجاحه في وضع الصليبيين في موضع الدفاع، وتحقيقه عدداً من الانتصارات، جاء أحدها عند مرتفعات طبرية في قلب فلسطين، بعيداً عن الساحة التي درج عليها الصراع بين ولاة الموصل السابقين وأعدائهم... ثم جاء مقتله السريع، إثر ذلك، في جامع دمشق على أيدي الشيعة الباطنية الأعداء الشرسين لحركة الجهاد والمقاومة، والحزن العميق الذي شمل جماهير المسلمين بعيد اغتياله والكلمات المخلصة التي فاه بها قبيل استشهاده... جاء ذلك كله لكي يؤكد مكانة مودود الإسلامية كبطل من أبطال الحروب الصليبية ورائد من رواد الجهاد الأولين^(٣).

١- حملة مودود الأولى ضد الرها: في عام ٥٠٣هـ - ١١٠٩م بعد أشهر قليلة من استتباب الأمر له في الموصل وبعد أن تلقى أمراً من السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه بالتحرك لقتال الصليبيين، فبدأ مودود بتشكيل تحالف إسلامي ضم الأمير إيلغازي الأرتقي أمير ماردين بعساكره من التركمان، وسقمان القطبي أمير أرمينية المعروف باسم شاه الأرمن، وعدداً كبيراً من المتطوعين^(٤). وكانت هذه أول مرة يجتمع فيها هذا العدد من الأمراء المسلمين لقتال الصليبيين، ولهذا تُعدُّ هذه الحملة فاتحة عهد جديد من النضال ضد الصليبيين، ونقطة تحول مهمة من التفرق والتخاذل إلى التجمع والهجوم^(٥). وما إن علم الصليبيون في الرها بمجشود المسلمين حتى أنفذ بلدوين دي بورج رسولاً إلى بيت المقدس يلتمس النجدة العاجلة من الملك بلدوين، متجاهلاً الاستعانة بـ «تانكرد» صاحب أنطاكية، إذ

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص ٦٨.

(٢) الباهر لابن الأثير، ص ١٧.

(٣) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص ١١٢.

(٤) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص ١١٣، تاريخ الزنكيين في الموصل، ص ٦٩.

(٥) نور الدين محمود، حسين مؤنس، ص ١٢٣.

كان يشك في نواياه، وباتفاقه مع المسلمين ضد الرها، وكان الملك بلدوين آنذاك يحاصر مدينة بيروت، ولم يتحرك إلا بعد أن استولى عليها، فأسرع بالمسير نحو الشمال، وصحبه برترام أمير طرابلس، وانضم إليه قرب سميساط، بعض زعماء الأرمن وعلى رأسهم كوغ باسيل، فوصل إلى الرها في آخر شهر ذي الحجة/أواخر شهر تموز، وظل الأتابك مودود يحاصر الرها مدة شهرين دون أن يتمكن من اختراق استحكاماتها، فلما تراءى له جيش بيت المقدس، رفع الحصار عنها وتراجع إلى حران وفق خطة عسكرية محكمة، وانضم إليه طغتكين أتابك دمشق^(١)، وقرر الملك بلدوين مطاردة الجيوش الإسلامية، إلا أنه كان عليه أن يوحد كلمة الصليبيين قبل أن يقوم بهذا العمل، فاستدعى تانكرد صاحب أنطاكية، ونجح في تحقيق المصالحة بينه وبين أمير الرها^(٢)، وكان مودود قد أمعن في انسحابه لاستدراج الصليبيين إلى مكان بعيد عن قاعدتهم، ثم تطويقهم بعد أن ينحرف فجأة إلى الشمال، لكن عملية المطاردة توقفت فجأة، وانفرط عقد التحالف الصليبي، لأنه تضافت عدة دوافع جعلت الصليبيين يتوقفون عن المطاردة ويتراجعون عن المنطقة لعل من أهمها:

- قد تلقى الملك بلدوين تحذيراً مبكراً بخطة مودود، ففك الحصار عن قلعة شناو التي تقع إلى الشمال الغربي من حران، كما تلقى إنذاراً من بيت المقدس بتحريك فاطمي ضد بيروت، فقرر التخلي عن الحملة^(٣).

- راجت شائعات، في الأوساط الصليبية، بأن رضوان صاحب حلب يستعد لمهاجمة أنطاكية في ظل غياب أميرها، فاضطر تانكرد إلى التخلي عن الحملة.

- وبناء على نصيحة الملك بأن لا جدوى من محاولة حماية الجهات الواقعة شرقي نهر الفرات، أوعز بلدوين إلى السكان بالجلء إلى الجهات الواقعة على الضفة اليمنى، واحتفظ بحاميات عسكرية في حصني الرها وسروج الكبيرين، وبعض القلاع الصغيرة، مع تدعيم الإمكانيات الدفاعية لها. أما مودود فقد اكتفى بمهاجمة مؤخرة الصليبيين العابرين وعاد إلى الموصل^(٤).

ب- حملة مودود الثانية ضد الرها: جاءت الجولة الثانية بعد أقل من سنتين، إثر الاستنفار الذي دعا إليه وفد من أهالي حلب قدم إلى بغداد للدعوة إلى الجهاد، بعدما رأوا من تمادي رضوان في إذعانه للصليبيين، والهزائم المتتالية التي مُنيَ بها مسلمو الشام والتي يسقط على أثرها عدد من المواقع بأيدي الأعداء. وقد استفز نداء الوفد الحلبي جماهير بغداد

(١) ذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي، ص ٢٧١.

(٢، ٣، ٤) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص ٧٠.

وفقهائها، فقاموا بتظاهرة واسعة طالبوا المسؤولين خلالها، خلفاء وسلاطين، بضرورة إعلان الجهاد وتسيير الجيوش لوقف الزحف الصليبي.. وقد أسرع الخليفة بإعلام السلطان السلجوقي بما جرى، وطلب منه الاهتمام بالأمر والإسراع بالاستجابة لنداءات المسلمين، فأصدر هذا أوامره على الفور إلى واليه على الموصل الأمير مودود بتشكيل تحالف إسلامي جديد جاعلاً القيادة الإسلامية لابنه الملك مسعود^(١)، واجتمع تحت قيادة مودود، حاكم الموصل، جميع حكام الأقاليم في دولة السلاجقة، سقمان القبطي صاحب خلاط^(٢)، وتبريز^(٣)، وبعض ديار بكر، وإيلغازي الأرتقي الذي أناب عنه ابنه أياز، والأميران الكرديان أحمديل صاحب مراغة^(٤)، وأبو الهيجاء صاحب إربل، فضلاً عن بعض أمراء فارس بزعامة الأميرين أيلنكي وزنكي ابني بُرسُق أمير همذان^(٥). بدأت قوات التحالف عملياتها العسكرية في شهر محرم عام ٥٠٥ هـ - شهر تموز عام ١١١١ م بفتح عدة مواقع صليبية شرقي الفرات، ثم اتجه أفرادها لحصار الرها، أثارت الحملة الذعر بين السكان، لكن في الحقيقة لم تغيّر الموقف فيها، فقد أعيت المسلمين بسبب مناعتها وصمود أهلها، عندئذ رأى مودود أن يعبر الفرات لمهاجمة تل باشر^(٦)، فتحولت قوات المسلمين إليها كي يجروا أعداءهم إلى عبور الفرات فيتمكنوا منهم إلا أن هذا كان خطأً من قادة المسلمين، لأن الصليبيين تمكنوا لدى عبورهم الفرات من نقل مقادير كبيرة من الميرة والأعتدة والأقوات إلى الرها، فقويت من بعد ضعف كاد يوقعها بأيدي المسلمين لو استمروا على حصارهم لها^(٧). ومالبت جوسلين صاحب تل باشر، الذي تعرض لضغط القوات الإسلامية، أن تمكن من رشوة القائد الكردي أحمديل الذي كان الجزء الأكبر من قوات المسلمين بمعيتة، فانسحب متراجعاً بالرغم من معارضة سائر الأمراء^(٨). ولم يمض وقت طويل حتى استنجد رضوان بمودود واستدعى قواته للقدوم إلى حلب كي يعملوا معاً من هناك ضد المواقع الصليبية، فغادر مودود تل باشر متجهاً إلى حلب على رأس قواته، وما أن ابتعدوا عن تل باشر حتى خرج إليهم جوسلين، على رأس قوة من فرسانه، وتمكن من مهاجمة مؤخرتهم، وقتل ما يقرب من ألف رجل منهم، وعاد إلى بلده مثقلاً بالغنائم، ولم تكن دعوة رضوان لمودود صادقة، فلم تكد القوات

(١) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، نقلاً عن الكامل في التاريخ، ص ١١٥.

(٢) قصة أرمينية الوسطى. (٣) تبريز: من أشهر مدن أذربيجان.

(٤) مراغة: أعظم وأشهر بلاد أذربيجان.

(٥) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٧٨، ٢٧٩.

(٦) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص ٧٣.

(٧) نهر الذهب للغزي (٣/ ٨٢).

(٨) مرآة الزمان (٨/ ٣٥، ٣٦)، المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص ١١٦.

الإسلامية تقترب من حلب حتى أقفل رضوان بوجهها الأبواب، واتخذ من إجراءات الحيلة لمنع المظاهرات فأمر باعتقال عدد كبير من أعيان المدينة واتخذهم رهائن، ولم يسع مودود إلا أن يتحرك بجيشه جنوباً إلى شيزر بعد أن أغار على عدد من المواقع الصليبية في الشمال. وفي شيزر اجتمع به طغتكين الذي كان قد توجه إلى بغداد طالباً المساعدة لاستعادة طرابلس، إلا أنه خاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع في مهادنة الصليبيين سرا. وأما تانكرد الذي عسكر أمام شيزر فإنه تراجع إلى أفامية، وأرسل إلى الملك بلدوين يستنجد به، فاستجاب له هذا وبعث إلى سائر الفرسان في الشرق الصليبي ليلحقوا به، فانضم إليه عدد كبير منهم، كما قام تانكرد باستدعاء أتباعه من سائر جهات أنطاكية. وأما مودود فقد تحصن خلف أسوار شيزر قبل أن يكتمل حشد الصليبيين الذين بلغ عددهم نحو ستة عشرة ألف مقاتل كان على رأسهم ملك بيت المقدس، وأمراء الرها وأنطاكية وطرابلس، ورفض مودود أن يجروه أعداءه إلى معركة حاسمة. إلا أن الأمور لم تجر على نحو طيب في جيشه، إذ إن طغتكين لم يشأ أن يبذل له المساعدة إلا بعد أن تعهد مودود بالمضي في حملته إلى الجنوب لقتال الصليبيين في فلسطين، رغم خطورة هذه المحاولة من الناحية العسكرية. وأما برسق الكردي فأصابه المرض وأراد أن يعود إلى بلاده، ومات سقمان القبطي فجأة فانسحبت عساكره صوب الشمال حاملة جثمانه، وبادر أحمد ديل إلى الانسحاب بعساكره محاولاً انتزاع جانب من ممتلكات سقمان، ولم يعد بوسع مودود القيام بالهجوم نظراً لتناقص قواته يوماً بعد يوم، كما أنه لم يكن راغباً في أن يقضي الشتاء بعيداً عن الموصل، فقفلاً عائداً إليها^(١). كان لتلك البوادر السيئة من قبل بعض الأمراء أثرها المباشر على إمكان تحقيق أي نصر حاسم ضد الصليبيين، كذلك الذي حققه جكرمش وسقمان في معركة البليخ. وقد أظهرت هذه الأحداث مدى تفكك القيادات الإسلامية وعدم وحدتها، في الوقت الذي تجمعت فيه القوى الصليبية في شمالي الشام وجنوبه، وحقت لبلدوين ملك بيت المقدس نوعاً من الزعامة على سائر أمراء الصليبيين^(٢). كانت سياسة رضوان في إمارة حلب شراً كلها، فقد هادن الإسماعيلية والصليبيين، وحالفهم ضد خصومهم من المسلمين، إذ انضم إلى صاحب أنطاكية الصليبي ضد صاحب الموصل جاولي عام ٥٠١هـ، وعندما هاجم الأمير مودود صاحب الموصل أنطاكية وتل باشر، رفض رضوان مساعدته وأغلق مدينة حلب في وجهه بل تحالف مع «تانكرد» الصليبي صاحب أنطاكية ضد المجاهدين، وبقيت أبواب المدينة مغلقة سبع عشرة ليلة في وجه الجيش الإسلامي^(٣)، ولم يحفظ له الصليبيون هذه المواقف، فحاصروا حلب عام ٥٠٤هـ واشتد

(٢) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص ١١٨.

(١) مرآة الزمان (٨/ ٣٥، ٣٦).

(٣) زبدة الحلب (٢/ ١٥٩).

الحصار، حتى أكل الناس الميتات وورق الشجر، وفرضوا على رضوان مبلغاً من المال كان يحمله إليهم سنوياً^(١)، وحصل الإسماعيلية الباطنية الرافضية على مكانة مرموقة في حلب، بفضل تشجيع رضوان لأرائهم، ومساعدته لهم، ومن ثم صار يستخدمهم في اغتيال خصومه السياسيين^(٢)، وكان يميل إلى الفاطميين، فخطب للمستعلي في بلاده، ولوزيره الأفضل، ودامت الخطبة لهما عامين في حلب وكان ذميم السيرة، قرب الباطنية، وعمل لهم دار دعوة في حلب فكثروا، وهلك سنة ٥٠٧ هـ^(٣)، وصفه المؤرخ أبو المحاسن فقال: كان شحيحاً بخيلاً قبيح السيرة، وليس في قلبه رحمة للرعية، وكانت الفرنج تغير وتسي.. ولا يخرج إليهم^(٤)، خلفه ابنه ألب أرسلان المعروف بالأخرس، فنكب الإسماعيلية وقتل زعيمهم أبا طاهر الصائغ، وبقيت زعماء تلك الطائفة.

ج- حملة مودود الثالثة ضد الرها: ومع أن مودوداً وجد نفسه وحيداً في حركة الجهاد إلا أنه قام في شهر ذي القعدة ٥٠٥ هـ/ شهر آيار ١١١٢ م، بمهاجمة الرها فجأة، وحاصرها لكن المدينة صمدت في وجه الحصار، فرأى عندئذ أن يترك حولها قوة عسكرية ويهاجم سروج في شهر محرم عام ٥٠٦ هـ/ شهر تموز عام ١١١٢ م بوصفها المعقل الثاني للصليبيين شرقي الفرات. وبهذه الخطة العسكرية يكون مودود قد قسم قواته وأضعفها متخلياً عن حذره في مواجهة الصليبيين، وكانت النتيجة أن لحق به جوسلين صاحب تل باشر وهزمه وقتل عدداً كبيراً من رجاله، فلم يسعه عند ذلك إلا التراجع نحو الرها، لكن جوسلين سبقه إليها لمساعدة بلدوين دي بروج في الدفاع عنها، وفي الوقت الذي كانت تدور فيه هذه الأحداث، تأمر الأرمن في الرها ضد بلدوين، واتصلوا بمودود ليخلصهم من حكم الصليبيين، وجرى الاتفاق على أن يساعدوه في الاستيلاء على قلعة تسيطر على القطاع الشرقي من المدينة، مما يمكنه بعد ذلك من الاستيلاء على بقية المدينة بسهولة، لكن وصول جوسلين السريع حال دون تنفيذ الاتفاق ورُدَّ المسلمون على أعقابهم، فلم يتمكنوا من انتزاع المدينة من أيدي الصليبيين^(٥).

د- حملة مودود ضد إمارة بيت المقدس (معركة الصنبرة):^(٦) ظل مودود متمسكاً بفكرة جهاد الصليبيين وهي المهمة التي عهد إليه بها السلطان محمد السلجوقي، بوصفه مثله

(١) الكامل في التاريخ (٨/ ٥٤٤).

(٢) الكامل في التاريخ (٨/ ٥٥٢) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣١٥).

(٣) النجوم الزاهرة (٥/ ٢٠٥).

(٤) تاريخ الزنكيين عن الموصل وبلاد الشام، ص ٧٦.

(٥) الصنبرة: موضع بالأردن مقابل لعقبة أفيق، بينه وبين طبرية ثلاثة أميال.

في إقليم الجزيرة وبلاد الشام، فتحرك في مطلع عام ٥٠٧هـ/ شهر حزيران عام ١١١٣م على رأس تحالف إسلامي لقتال الصليبيين في بيت المقدس بناءً على استنجد طغتكين أتابك دمشق به، بعد أن تعرضت إمارته لهجمات شديدة من صليبي بيت المقدس، الذين نفذوا من وادي التيم إلى البقاع، ووصلوا إلى بعلبك، وانضم تيمرك صاحب سنجار، وأباز بن إيلغازي أمير ماردين إلى هذا التحالف^(١)، وكان هدف المسلمين منطقة فلسطين، فنجحوا في استدراج الملك بلدوين إلى أراضي دمشق حتى جسر الصنبرة، الواقع في المجرى الأعلى لنهر الأردن، وفي الثالث عشر من شهر محرم حدث اللقاء الذي انتهى بانتصار المسلمين، ونزلت بالصليبيين هزيمة ساحقة، فارتد ملك بيت المقدس إلى طبرية^(٢)، ولم يلبث أن وصل لنجدته روجر أمير أنطاكية، وبونز أمير طرابلس، في حين لم يستطع أمير الرها الحضور لأن إمارته كانت بحاجة إلى حماية دائمة^(٣)، ومضى المسلمون في زحفهم، بعد المعركة، حتى بلغوا طبرية، غير أنهم لم يغامروا فقرر الانسحاب إلى دمشق^(٤). وكان ذلك أول مرة تتعاون الموصل ودمشق في حرب الصليبيين في مملكة بيت المقدس. وتكمن أهمية الأتابك مودود في أنه أعاد للمسلمين الثقة بأنفسهم، فتحولوا من الدفاع إلى الهجوم في علاقاتهم مع الصليبيين وبلور فكرة الاتحاد بين المسلمين، وأعطاهم بُعداً سياسياً وعسكرياً، فأضحى أمراؤهم على استعداد للتعاون المثمر بنوايا صادقة^(٥).

هـ- مقتل مودود: سُر مودود وحليفه رسولا إلى السلطان السلجوقي في أصفهان يشيرانه بما تم على أيديهما من فتح وبعثا مع الرسول بعض ما غنماه، وعدداً من أسرى الفرنج ورؤوسهم إلا أن بُعد المسلمين عن بلادهم، وانقطاع الإمداد والتموين عنهم، واشتداد البرد عليهم، اضطهرهم إلى وقف عملياتهم في المنطقة والعودة إلى دمشق في الحادي والعشرين من ربيع الأول على أمل الرجوع ثانية لقتال الصليبيين عند حلول الربيع، وبعد أن يتلقى مودود جواب السلطان على رسالته، والتعليمات التي سيصدرها بهذا الصدد^(٦). ودخل جامع دمشق يوم الجمعة في ربيع الأول، ليصلى فيه، وطغتكين، فلما فرغوا من الصلاة وخرج إلى صحن الجامع ويده في يد طغتكين، وثب عليه باطني فضربه فجرحه أربع جراحات وقتل الباطني، وأخذ رأسه، فلم يعرفه أحد فأحرق، وكان مودود صائماً، فحمل إلى دار طغتكين، واجتهد به ليفطر فلم يفعل وقال: لا لقيت الله إلا صائماً، فمات من يومه

(٢) المصدر نفسه (٨/ ٥٥٠).

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٩٧.

(١) الكامل في التاريخ (٨/ ٥٥٠).

(٣) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٩٤ - ٢٩٧.

(٥) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص ٧٧.

(٦) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص ١٢٢.

رحمه الله^(١)، وتأثر المسلمون لمصرع بطل من أبطال الجهاد، اشتهر بإخلاصه وتفانيه وجراته، وحزنوا عليه حزناً عميقاً لاختفائه السريع، بعد الانتصار العظيم الذي حققه مع حليفه في قلب البلاد الصليبية، وبعد الخطط التي كان يعتزم تنفيذها هناك؛ وقد عبرت جماهير دمشق عن حزنها وغضبها، حيث شهدت المدينة اضطراباً لم تشهد له مثيلاً منذ فترات بعيدة، ولم يهدئ من روع الناس سوى أملهم بنجاة القائد من الجراح التي أئختته، لكنهم ما أن سمعوا نبأ استشهاده بعد ساعات قلائل، حتى عادوا - ثانية - إلى ما كانوا عليه^(٢). وكتب ملك الفرنج في بيت المقدس كتاباً إلى طغتكين جاء فيه: إن أمة قتلت عميدها، يوم عيدها، في بيت معبودها، لحقيق على الله أن يبيدها!!^(٣). غير أن ملك الفرنج وغيره من أمراء الصليبيين تجاهلوا أو تعمدوا تجاهل آنذاك، أن ما هو أكثر عوناً لهم وأشد خطراً على كل محاولة إسلامية لقتالهم، ليست هي الأمة التي ظنوا أنها قتلت عميدها في بيت معبودها. فقد عرفنا موقف هذه الأمة من مقتل بطلها المجاهد، إنما هي تلك الفرقة الباطنية - الرافضة - التي قامت على مذهب جديد، شديد الميل إلى التدمير كان قد أنشأه في بلاد فارس، شخص يدعى الحسن بن الصباح، وقد تحدثنا عنه وقد دعمته الدولة الفاطمية الراضية الباطنية ولم تكن كراهية الحشاشين هؤلاء للمسيحيين تزيد على بغضهم للمسلمين السنيين^(٤)، وما نشاهده اليوم خير دليل على ذلك.

و- هل يصح اتهام طغتكين حاكم دمشق بقتل مودود؟ بعد استشهاده مودود انتشرت شائعات تقول: إن طغتكين هو الذي حرّض على قتل مودود لحرصه على الاحتفاظ باستقلاله في دمشق، ولما ساوره القلق على بقاء القائد العام لجند السلطان في دمشق، وما يترتب على ذلك من تهديد لاستقلاله^(٥)، ولم يحذ من هذه الشائعات قيام طغتكين بقتل الجاني تبرئة لنفسه، إذ اعتبره الرأي العام هو الجاني، غير أنهم التمسوا له العذر بما دبره مودود من خطط للاستيلاء على دمشق^(٦)، إلا أن كلاً من ابن القلانسي، وسبط بن الجوزي - اللذين يميلان بعض الميل لأتابكة دمشق - ينفيان هذه التهمة عن طغتكين أشد النفي، فيقول أولهما: فقلق أتابك طغتكين لوفاته على هذه القضية وتزايد حزنه وأسفه،

(١) الكامل في التاريخ (٨/ ٥٥١).

(٢) تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص ١٨٧، ١٨٨.

(٤) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص ١٢٤.

(٦) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص ١٢٢.

(٣) الكامل في التاريخ (٨/ ٥٥١).

(٥) آل سلجوق للأصفهاني، ص ١٥٨، ١٥٩.

وكذلك سائر الأجناد والرعية^(١)، ويقول ثانيهما: وقلق طغتكين لوفاة مودود على هذا الشكل وحزن حزناً شديداً وكذا سائر الناس. وذكر بعضهم أن طغتكين خاف منه فوضع عليه مَنْ قتلته، وليس بصحيح، فإن طغتكين كان أحب الناس إليه، وحزن عليه حزناً لم يحزنه على أحد، وشقَّ ثوبه عليه، وجلس في عزائه سبعة أيام، وتصديق عنه بمال جزيل^(٢)، وقد رجح الدكتور عماد الدين خليل رواية المذكورين لأنهما من سكان الشام وبسبب قربهما الزماني أو المكاني من الأحداث المذكورة وإطلاعهما الشامل على دقائق العصر، الذي يتكلمان عنه. وقال عن روايات ابن الأثير والذين نقلوا عنه والمؤرخين الغربيين: لا تعدو أن تكون استنتاجاً وتخميناً، لاسيما أن هذه ليست أول ولا آخر مرة يتصدى فيها الباطنية لاغتيال زعماء الجهاد الإسلامي؛ فضلاً عن أن انتصار مودود وحليفه في فلسطين يعود بالنفع على إمارة دمشق قبل غيرها، بما يحدثه في صفوف قوات بيت المقدس من إرباك وبما يقدمه لأتابكية دمشق وأراضيها من حماية^(٣)، وإلى ما ذهب إليه الدكتور عماد الدين خليل أميل. ودافع الدكتور السيد عبد العزيز سالم وابنته الدكتورة سحر عبد العزيز دفاعاً مستميتاً عن براءة طغتكين في كتابهما «تاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمي»^(٤). ولقد كان ظهير الدين طغتكين من أمراء السلطان تتش بن ألب أرسلان السلجوقي الذي زوجه بأم ولده دُقاق، وبعد مقتل تتش تولى ابنه دُقاق، وصار طغتكين مقدم عسكره، ثم تملك بعد دُقاق، وكان شهماً شجاعاً مهيباً مجاهداً في الفرنج، مؤثراً للعدل^(٥). ولولا أن الله أقام طغتكين للإسلام بإزاء الفرنج،^(٦) لكانوا غلبوا على دمشق، فقد هزمهم غير مرة، وأنجده عسكر الموصل مع مودود، ومع البرسقي، وكان قد سار إلى بغداد في خدمة السلطان محمد بن ملكشاه، فبالغ في احترامه^(٧)، ولقد واجه طغتكين الصليبيين للدفاع عن إمارته أكثر من مرة، ونازلهم في أكثر من موقع، فقد استرد بصرى وصرخد / ٤٩٨هـ، وحاصر حصن (علعال) قرب طبرية وهدمه وقتل حاميته / ٤٩٩هـ، وخرج إلى طبرية وأسر صاحبها، وقتله في دمشق / ٥٠٠هـ^(٨)، وانضم عام ٥٠٦هـ إلى قوات شرف الدولة مودود صاحب الموصل،

(٢) مرآة الزمان (٨ / ٥١).

(١) تاريخ دمشق، ص ١٨٧، ١٨٨.

(٣) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص ١٢٣.

(٤) تاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمي، ص ٤٧٣ إلى ٤٧٥.

(٥) الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري، ص ١٢٠.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٢٠.

(٧) سير أعلام النبلاء (١٩ / ٥١٩).

(٨) الجهاد والتجديد، نقلاً عن الكامل في التاريخ، ص ١٢١.

فحققاً نصراً في طبرية، عام ٥٠٧هـ إلا أن مقتل مودود في دمشق، أثار السلطان محمد بن ملكشاه عليه.. ولذلك بدأ طغتكين يتحالف مع الصليبيين للوقوف في وجه القوات التي أرسلها السلطان محمد إليه سنة ٥٠٨هـ، بقيادة برسق صاحب همذان^(١)، ثم عقد هدنة مع ملك بيت المقدس - بلدوين الأول - بسبب نزاعه مع جيرانه المسلمين في وقت كان ملك بيت المقدس لا يرجو أكثر من مسالة أهالي دمشق^(٢)، واتفق الطرفان على عقد هدنة، مدتها بضع سنوات على أن يقتسم الطرفان أرض السواد، بحيث يكون ثلث دخلها للفرنج، والثلث الثاني لسلاجقة الشام، والثلث الأخير للفلاحين المسلمين^(٣). ويبدو أن تمسك صاحب دمشق بإمارته، وخوفه من ضياعها، كان هاجساً قوياً دفعه إلى هذه المواقف المتناقضة، وشأنه شأن غيره من أمراء الأقاليم آنذاك^(٤). وقد وصف الإمام الذهبي سياسته بقوله: وكان طغتكين سيفاً مسلولاً على الفرنج، ولكن له خرمه، من ذلك إيواؤه لبهرام داعي الإسماعيلية في دمشق، بعد أن كان متخفياً، فأكرمه وبالح في إكرامه اتقاء لشره، حتى اتبعه الغوغاء والسفهاء، ثم أعطاه قلعة بانياس سنة ٥٢٠هـ، فعظم الخطب وتوجع أهل الخير، وتستروا من سبهم، إلى أن كشف خياناتهم وخيانة الوزير المتواطئ معهم - المزدقاني - ابنه تاج الملوك بوري، فقتل الوزير ووضع جنده السيف في الملاحدة الإسماعيلية، وقتلوا نحواً من ستة آلاف نفس، وذلك في عام ٥٢٣هـ، إلا أن الرجل له حسنات منها مد العون لزعماء حركة بعث فكرة الجهاد الإسلامي في الجزيرة وشمال الشام، وقام بمساعدة الفاطميين وغيرهم من حكام المسلمين في بلاد الشام لوقف الزحف الصليبي على كثير من بلاد الشام، وواجه الصليبيين وجهاً لوجه للدفاع عن أملاكه مستغلاً في ذلك قواته أحياناً أخرى^(٥). وعلى أية حال فإن ظهير الدين طغتكين لم يعمر طويلاً فقد توفي سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م بعد أن بذل كل ما أمكنه بذله في صد الصليبيين عن دمشق وغيرها من بلاد الشام، مع ما كان عليه من حسن السيرة وإثارة العدل في الرعية، بعد أن استخلف على دمشق ابنه تاج الملوك بوري^(٦). وبالجملة فسيرة الرجل جيدة فقد نجح في المحافظة على دمشق من السقوط بيد الصليبيين، بالإضافة إلى تكوين جبهة إسلامية متحدة تتكون من الموصل وحلب ودمشق، وذلك بما أبداه من تعاون صادق مع أولئك الرجال للوقوف صفاً

(٢) الجهاد والتجديد، ص ١٢١.

(١) الاعتبار لأسامة بن متقذ، ص ١٢٠.

(٣) الكامل في التاريخ (٨/٥٢٧، ٥٢٨).

(٤) الجهاد والتجديد، ص ١٢٢.

(٥) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص ١٦٦.

(٦) النجوم الزاهرة (٥/٢٣٤)، الجهاد ضد الصليبيين، ص ١٧٢.

واحداً في وجه الصليبيين، مما ساعد على بلورة فكر الجهاد الإسلامي وتوحيد الجبهة الإسلامية في أذهان بعض قادة المسلمين وعلى رأسهم عماد الدين زنكي^(١) وقال ابن الجوزي متحدثاً عن طغتكين بأنه: كان شهماً عادلاً حزن عليه أهل دمشق حين وفاته، فلم تبقى محلة ولا سوق إلا والمآتم قائمة فيه لعدله وحسن سيرته، حكم الشام خمساً وثلاثين سنة ما بين (٤٩٧-٥٢٢هـ) وسار بسيرته ابنه، فترة، ثم تغير وظلم^(٢).

ز- ما ترتب على حملات بطل الإسلام مودود من نتائج: وعلى الرغم من الإخفاق الذي حل بحملات بطل الإسلام مودود إلا أنها تمخضت عن عدد من النتائج المهمة في مسار تاريخ حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، ويمكن إجمالها في الآتي:

- إن إمارة مودود - على قصر مدتها - تعد نقطة تحول في تاريخ الصراع الإسلامي-الصليبي خلال تلك المرحلة المبكرة، فقد صارت فكرة الجهاد حقيقة واقعة^(٣)، ووجدت فارسها المخلص الذي حمل لواءها ما يقرب من نصف المدة التي تولى فيها أمر إمارة الموصل^(٤).

- يمكن اعتبار حملات مودود مقدمة لحملات عماد الدين زنكي مع عدم إغفال الفارق الزمني في صورة الثلاثة عقود الفاصلة بين إنجاز كل منهما، والتي أدت إلى سقوط إمارة الرها الصليبية عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤م حيث إن مودوداً وجه حملاته الأولى إلى الرها وتل باشر، وعمل على إرهاق أهلها على نحو نصفه بأنه المقدمة الأولى لجهود زنكي ضدها، على اعتبار أن قافلة الجهاد متصلة قائداً من بعد قائد.

- كشفت حملات مودود عن الضعف الذي كانت عليه القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة وعدم إخلاص بعضها لقضية الجهاد ضد الغزاة الصليبيين^(٥).

وعلى الرغم من الدور الرائد الذي قام به مودود؛ إلا أننا نجد البعض يرى أن عماد الدين زنكي هو الذي وضع أساس حركة الجهاد ضد الصليبيين^(٦)، وفي هذا إجحاف بدور تلك القيادة السلجوقية. وواقع الأمر أن المؤرخين الذين أرخوا لتلك المرحلة من تاريخ الصراع الإسلامي الصليبي انبهروا بمجسم الإنجاز الكبير الذي قام به عماد الدين زنكي من حيث إسقاط أول إمارة صليبية أقيمت في المنطقة، فتصوروا أن المراحل السابقة عليه ليست

(٢) سير أعلام النبلاء (١٩/٥١٩، ٥٢٠).

(١) الجهاد ضد الصليبيين، ص ١٧٢.

(٣) شرف الدين مودود، عبد الغني رمضان، ص ١٥٠.

(٤) الحروب الصليبية بين الشرق والغرب، ص ١٥٦. (٥) المصدر نفسه، ص ١٥٦.

(٦) الحروب الصليبية بين الشرق والغرب، ص ١٥٧.

ذات قيمة كبيرة على الرغم من أنها كانت المهددة الحقيقية لإنجاز عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤م. لا نغفل أيضاً أن الدعاية السياسية الناجحة والفعالة التي قدمها المؤرخ العراقي الفذ ابن الأثير من خلال كتابه «الباهر» لمؤسس البيت الزنكي قد جعلت المؤرخين يتأثرون بها بصورة أو بآخرى، على نحو جعل سابقى عماد الدين زنكي في مثل ذلك الموقف من حيث تقويم دورهم التاريخي، ويكفي مودود فخراً أنه نجح في ضرب الوجود الصليبي في الجليل، وهي منطقة لم تصل إليها فعاليات المسلمين منذ قرابة عقدين من الزمان، ويكفيه أنه ألحق الهزيمة بمؤسس مملكة بيت المقدس الصليبية، ونستطيع أن نصل إلى رؤية محددة من خلال أن قادة الجهاد الإسلامي كل يكمل الآخر، ولا خصومة بينهم، وما قام به مودود أفاد - فما بعد - القائد العظيم صلاح الدين الأيوبي، ولذا فبالإمكان القول؛ اليوم الصنبرة وغداً حطين؛ وهذا ما أثبتته السياق العام لتاريخ تلك المنطقة في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي^(١). وعلى أية حالة عند مقارنة جهد مودود بسابقه في صورة كربوقا، وجكرمش، وجاولي سقاوة سيتضح لنا أنها أدوار متدرجة ومتصارعة، فكربوقا المحصر أمره في نجدة أنطاكية، وجكرمش زاد الأمر من خلال تحالفه مع سقمان بن أرتق على نحو أدى إلى الانتصار في معركة حران ٤٩٨هـ / ١١٠٤م، أما مودود فإن دوره أكثر تعاضماً على نحو أدى إلى هزيمة الصليبيين في معركة الصنبرة عام ٥٠٧هـ / ١١١٣م، وهو أمر يثبت لنا أنه خلال نحو تسعة أعوام فقط تم إلحاق هزيمتين كبيرتين بالصليبيين، غير أن العقبة القائمة تمثلت في عدم الإفادة من كل من الانتصارين في اجتياح مناطق الأعداء، وتحقيق انتصار سريع خاطف يصعب على الصليبيين تعويض خسائهم من جرائه غير أن بقايا ظاهرة التشرذم السياسي، والتباغض بين القيادات الإسلامية كان عائقاً دون تحقيق ذلك^(٢).

٦- نجم الدين إيلغازي صاحب ماردين: ارتبطت حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ارتباطاً شديداً بزعماء الموصل الذين كانوا تحت طاعة السلاجقة، وأدت وفاة السلطان محمد بن ملكشاه سنة ٥١٢هـ / ١١١٧م إلى ازدياد تدهور أحوال السلاجقة في العراق، فسعى السلطان محمود بن محمد ملكشاه إلى استدعاء آق سنقر من الموصل لتوليته شحنة بغداد^(٣)، الأمر الذي أفقد الموصل مكانتها القيادية في بعث حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين مؤقتاً، وانتقال هذه القيادة إلى نجم الدين إيلغازي صاحب ماردين، واستهل إيلغازي أعماله بالاستيلاء على حلب سنة ٥١١هـ / ١١١٧م، لأهميتها بالنسبة لأية قيادة

(١) الحروب الصليبية بين الشرق والغرب، ص ١٥٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٨.

(٣) الوافي بالوفيات (٩/ ٣١٠)، النجوم الزاهرة (٥/ ٢١٤).

عسكرية وسياسية تسعى لمجابهة الصليبيين، وذلك لما كانت تتمتع به من مركز استراتيجي حيوي من النواحي البشرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية، وكانت حلب تقع بين إمارتين صليبيتين هما الرها وأنطاكية، وفي نفس الوقت يمكنها الاتصال بالقوى الإسلامية التركمانية المنتشرة في منطقة الجزيرة. لذا كان الاستيلاء عليها بمثابة فتح الطريق لقيادة حركة الجهاد، وذلك ما حدث فعلاً بالنسبة لنجم الدين إيلغازي وابن أخيه بلق بن بهرام ومن بعدهما آق سنقر البرسقي وعماد الدين زنكي ونور الدين محمود فيما بعد^(١). وأما عن تفاصيل استيلاء نجم الدين إيلغازي على حلب سنة ٥١١هـ/١١١٧م فقد تجدد بها من الحوادث ما أطمع الصليبيين في الاستيلاء عليها حيث بلغت حدّاً من الضعف والضعف الاقتصادية مما أعجز أهلها عن تقديم القوات لدوابهم، ولكن خوف أهلها من أن تسقط بيد الصليبيين قد أخبرهم على استدعاء نجم الدين إيلغازي وتسليمه حلب في السنة المذكورة، واستهل إيلغازي أعماله بحلب بفرض سيطرته على بعض المواقع التابعة لها كبالس، ومصادرة بعض رجال حلب للحصول منهم على مال يهادن به الصليبيين، فاستوحش منه أهل حلب وجندها - على حد قول ابن العديم - مما اضطره إلى مغادرتها إلى ماردين بعد أن استخلف في بالس موجة الغلاء التي مروا بها في نفس السنة ٥١١هـ/١١١٧م، فأرسلوا إلى الصليبيين ليسلموها إليهم فاضطر إيلغازي إلى العودة على رأس قوة من التركمان إلى حلب، فلما شعر الصليبيون بالخطر، انسحبوا عنها فتسلمها إيلغازي للمرة الثانية، وعاد إلى ماردين بعد أن عقد معهم هدنة بعدم اعتداء أي منهما على ممتلكات الطرف الآخر^(٢).

- **نقض الصليبيين للهدنة:** ولكن الصليبيين وجدوا الفرصة سانحة بعد خروج إيلغازي وأغاروا على عزاز وشدّوا الحصار عليها حتى اضطر من بها من المسلمين إلى التسليم، واضطر أهل حلب إلى مراسلة الصليبيين وطلبوا منهم التمسك بالهدنة التي كان قد عقدها معهم إيلغازي، وأن يسلموهم - أي أهل حلب - تل هراق ويؤدون لهم القطيعة المقررة على حلب عن أربعة أشهر، ومقدارها ألف دينار، ويكون لهم من حلب شمالاً وغرباً^(٣). وغضب نجم الدين إيلغازي لما وصلت إليه أخبار حلب، ولكنه لم يستطع العودة إليها وإنقاذها مما هي فيه لقلّة عساكرها، فاتجه إلى شرق منطقة الجزيرة بقصد جمع العساكر في الوقت الذي أبلغ فيه ظهير الدين طغتكين عن رغبته في الاجتماع به سنة ٥١٢هـ/١١١٨م، واجتمعا على قلعة دوسر بهدف القيام بدفع الصليبيين عن حلب ولكن ذلك لم يتيسر لهما،

(١) الإمارات الأرتقية في بلاد الشام والجزيرة، ص ٢٣٤، ٢٣٥.

(٢) زبدة الحلب (٢/١٨٠)، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص ١٥٢.

(٣) زبدة الحلب (٢/١٨٥ - ١٨٦).

الأمر الذي دفع الصليبيين إلى إحكام السيطرة على مداخل حلب بعد أن استولوا على بزاغة، فتردت الأحوال بحلب حتى بلغت حد التلف على حد قول ابن العديم^(١)، ولم يجد أهل حلب بداً من الاستعانة بالخلافة العباسية والدولة السلجوقية في بغداد، إلا أنهم لم يغاثوا نظراً لانشغال السلاجقة بالمنازعات الأسرية فيما بينهم من جهة وضعف الخلافة العباسية من جهة أخرى.

- إعلان النفي ضد الصليبيين: لم يتيسر لنجم الدين إيلغازي لقاء الصليبيين، فقد فارق طغتكين وعاد إلى ماردين لجمع العساكر تمهيداً للعودة للجهاد والالتقاء مع الصليبيين في معركة حاسمة^(٢). وفي ماردين حشد نجم الدين إيلغازي ما يزيد على عشرين ألفاً من التركمان^(٣)، بقصد قتال الصليبيين الذين ضيقوا على حلب حتى كادت أن تعدم القوات. وأرسل إيلغازي رسله إلى بغداد لإعلان النفي ضد الصليبيين وإعلام الخليفة العباسي المسترشد بالله والسلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه بما فعله الصليبيون بالديار الجزرية وأنهم ملكوا قلعة عند الرها وقتلوا صاحبها بن عطير^(٤). وكان نجم الدين إيلغازي قد تواعد مع ظهير الدين طغتكين في سنة ٥١٢هـ/١١١٨م على ملاقاته الصليبيين في شهر صفر من السنة التالية ٥١٣هـ/١١١٩م بالشام. وتوجه إيلغازي قبل الموعد المحدد إلى الرها وشدد عليها الحصار، مما اضطر من بها من الصليبيين إلى مصالحتهم، لقاء تنازلهم عن الأسرى المسلمين الموجودين بها، فأجابهم إيلغازي وشرط عليهم عدم التوجه لمساعدة أمير أنطاكية في حالة حدوث قتال معه فأجابوه. وقد كانت هذه خطوة صائبة من إيلغازي تمكن بموجبها من عزل إحدى قوى الصليبيين عن مد العون للقوى الأخرى. وهذا دليل واضح على خضوع الصليبيين في منطقة الجزيرة إلى مطالب الأمراء المسلمين^(٥).

- معركة ساحة الدم: وبعد أن أطمأن إيلغازي إلى أنه لن يتعرض إلى طعنة الصليبيين من الخلف، توجه إلى بلاد الشام وقد انضم إليه أسامة بن المبارك بن شبل الكلابي، والأمير طغان أرسلان صاحب بدليس وارضن، وواصل سيره حتى بلغ قريباً من الإثارب بأرض سرمد في ربيع الأول سنة ٥١٣هـ/١١١٩م وهناك انتظر وصول ظهير الدين طغتكين. وكان الصليبيون بقيادة روجر صاحب أنطاكية قد نزلوا بتل عقيرين

(١) زبدة الحلب (٢/ ١٨٥ - ١٨٦).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ١٨٦).

(٣) المصدر نفسه (٢/ ١٨٦).

(٤) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص ١٥٣.

(٥) الإمارات الأرتقية في بلاد الشام والجزيرة، عماد الدين خليل، ص ٢٤١.

وشرعوا في بناء حصن لهم هناك، ولم يدر بخلداهم أن نجم الدين إيلغازي سيباغتهم هناك لضيق الطريق، ثم لتوهمهم أن المسلمين سينالون الإثارب أو زردنا، حتى أن الغرور قد أصابهم لاعتقادهم بحصانة موقعهم، فأرسلوا إلى إيلغازي يقولون له: لا تتعب نفسك بالمسير إلينا فنحن واصلون إليك^(١). ولما طال انتظار إيلغازي لوصول حليفه، لى رغبة الأمراء الذين كانوا معه في التعجيل بمباغثة الصليبيين، فما شعر الصليبيون إلا ورايات المسلمين قد أقبلوا وأحاطوا بهم من كل جانب. وذلك يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الأول من السنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م. وخرج قاضي حلب أبو الفضل بن الخشاب وخطب في المسلمين خطبة بليغة استنهض فيها عزائم المسلمين على الجهاد، فحمل المسلمون على الصليبيين حملة واحدة من جميع الجهات، فكانت السهام على الصليبيين كالجراد في الوقت الذي أخذتهم السيوف من سائر نواحيهم، فلم يفلت منهم غير يسير، بينما كان الباقون بين قتيل وجريح، وكان ضمن القتلى روجر صاحب أنطاكية الذي كان قد تعجل لقاء المسلمين قبل وصول قوات بيت المقدس وطرابلس وغيرها، ووقع في الأسر نيف وسبعون من فرسان الصليبيين ومقدميهم، وحاولوا أن يفتدوا نفوسهم بمبلغ ثلاثمائة ألف دينار فلم يقبل منهم نجم الدين إيلغازي بل أمر بقتلهم جميعاً^(٢)، وقد عرفت هذه الواقعة عند المؤرخين اللاتينين، ومن نقل عنهم من المؤرخين المحدثين باسم ساحة الدم لكثرة ما قتل فيها من الصليبيين والتي لم يقتل فيها من المسلمين سوى العدد القليل^(٣).

- الأبعاد التي حققها الانتصار على الصليبيين في معركة ساحة الدم: إن أهمية ما حل بالصليبيين لم يقف عند حد النصر العسكري الذي حققه نجم الدين إيلغازي عليهم، بل تعداه إلى أنه قد صاحب هذا النصر قيام جبهة إسلامية متحدة من الأمراء المسلمين في الشام والجزيرة إضافة إلى أنها جعلت حلب بمنأى عن أخطار الصليبيين خصوصاً بعد استيلاء نجم الدين إيلغازي على حصن قريب من الإثارب في السنة نفسها، فضلاً عن أنها كانت كارثة فادحة حرمت أنطاكية من زعيمها روجر مما جعل السريان والأرمن بأنطاكية يشككون في موقعهم إلى جانب الصليبيين، وهذا على ما يبدو ما دفعهم إلى التآمر للخلاص من الصليبيين الغربيين فيما بعد^(٤)، وذكر ابن العديم أن نجم الدين إيلغازي نزل بعد انتهاء

(١) زبدة الحلب (٢/ ١٩٠)، الجهاد ضد الصليبيين، ص ١٥٤.

(٢) الجهاد ضد الصليبيين، نقلاً عن الكامل في التاريخ، ص ١٥٤.

(٣) الشرق الأوسط والحروب الصليبية (١/ ٤٧٣)، الإمارات الأرتقية، ص ٢٤٢.

(٤) الاعتبار، ص ٤٠، ٤١، الحركة الصليبية (١/ ٤٩٢).

المعركة إلى خيمة روجر ليسلم إليه المسلمون الغنائم التي حصلوا عليها، ولكنه رد جميع الغنائم للمقاتلين ولم يأخذ منهم إلا سلاحاً يهديه للملك الإسلام ليعث في نفوسهم حب الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين^(١). واستطاع إيلغازي أن يحقق سلسلة من الانتصارات في شمال الشام هيأت للمسلمين جواً من الهدوء والاستقرار. فقد استطاع المسلمون أن يلحقوا بالنجدة الصليبية التي أتت بزعماء بلدوين ملك بيت المقدس لنجدة روجر صاحب أنطاكية هزيمة ساحقة^(٢)، ولم يكتف نجم الدين إيلغازي بهذا بل اجتمع في أرتاح بجليفه طغتكين واتفقا على مهاجمة الإثارب وزردنا، فاستطاعا الاستيلاء عليهما من الصليبيين، ثم سار إيلغازي إلى دانيث بنفر قليل من المسلمين والتقى ببلدوين ملك بيت المقدس وروبرت صاحب زردنا، ودارت بين الطرفين معركة في جمادي الأولى من السنة ٥١٣هـ/١١١٩م أسفرت عن انتصار نجم الدين إيلغازي وهزيمة الصليبيين الذين احتموا بحصن هاب بعد مطاردة نجم الدين لهم^(٣). ثم عاد نجم الدين إيلغازي إلى حلب بينما التقى رجاله في طريق عودتهم بصاحب زردنا روبرت الأبرص وبصحبه قوة من الصليبيين فهاجمتهم قوة إيلغازي مما اضطر من سلم من الصليبيين إلى العودة إلى حصن هاب، في الوقت الذي وقع فيه الأبرص أسيراً في أيدي المسلمين فحملوه إلى إيلغازي بحلب، وأنفذه بدوره إلى طغتكين بدمشق حيث قتله صبراً^(٤)، وفي أواخر جمادي الأولى سنة ٥١٣هـ/١١١٩م غادر إيلغازي حلب إلى ماردين بسبب الضائقة المالية التي مر بها إضافة إلى أن حلب كانت من الضعف بحيث جعلته لا يستطيع البقاء فيها^(٥).

- حصار أنطاكية وعقد الهدنة مع ملك بيت المقدس: وبالرغم من انشغال نجم الدين إيلغازي ببعض الأمور الإدارية في ماردين، فقد جمع جيشاً من التركمان عبر بهم الفرات إلى بلاد الشام في سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م، واجتمع بطغتكين وسارا إلى أنطاكية حيث ضربا عليها حصاراً، فلم يتمكن منها، فدخلوا إلى قنسرين، وحاصروها يوماً وليلة، ولم ينالا منها شيئاً، وعندها أشار ظهير الدين طغتكين على صاحبه برفع الحصار عنها وأن يعود كل منهما إلى بلده، فقبل نجم الدين إيلغازي مشورة صاحبه، وتفرق عساكره من التركمان، واضطر إيلغازي إلى عقد هدنة مع ملك بيت المقدس بلدوين الثاني على أن يكون للصليبيين المعرة وكفر طاب والبارة وضياع من

(١) زبدة الحلب (٢/١٩٠)، الجهاد ضد الصليبيين، ص ١٥٥.

(٢) الجهاد ضد الصليبيين، ص ١٥٥.

(٣) زبدة الحلب (٢/١٩٠)، الجهاد ضد الصليبيين، ص ١٥٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٥٦.

(٤) الجهاد ضد الصليبيين، ص ١٥٦.

جبل السماق، وعلى أن يكون أمد هذه الهدنة نهاية السنة^(١).

- **نقض الهدنة:** لم يتقيد الصليبيون بهذه المعاهدة، فقد أغار جوسلين صاحب تل باشر في السنة نفسها ٥١٤هـ / ١١٢٠م على بعض البلاد التابعة لحلب، مما اضطر أهل حلب إلى إرسال احتجاج شديد اللهجة إلى بلدوين الثاني ملك بيت المقدس يخبرونه فيه باعتداءات جوسلين على المسلمين، ولكنه رد عليهم بقوله: مالي على جوسلين يد^(٢). ولم يقف الصليبيون عند هذا الحد بل أغار الصليبيون بأنطاكية على بلد شيزر، وأسروا جماعة من المسلمين وطالبوا أمير شيزر العربي أبو العساكر سلطان بن منقذ ببعض المطالب التعسفية مما اضطره إلى مصالحتهم على مال يدفعه إليهم^(٣). وبالإضافة إلى ذلك فقد استغل الصليبيون فرصة خلو حلب من إيلغازي فشنوا في صفر من سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م هجوماً على الإثارب وأغار على حلب نفسها، وفرض عليها حصاراً شديداً أدى إلى وقوع خمسين أسيراً من أهلها في يده، ونجح الحلبيون في استنقاذ إخوانهم وأجبروه على التراجع عنها إلى أنطاكية^(٤)، وعلى ما يبدو فإن نجم الدين إيلغازي قد اضطر إلى البقاء في ماردين بعض الوقت مما دعاه إلى مراسلة ولده سليمان بن إيلغازي النائب عنه في حلب يأمره بعقد صلح مع الصليبيين، حصل الصليبيون بموجبه على سمرين وبلدة ليلون وبعض الجهات الزراعية المحيطة بحلب، والإثارب^(٥).

- **تمرد سليمان بن إيلغازي على أبيه:** وعلى الرغم من أن الصلح الذي عقده سليمان بن إيلغازي لم يكن في صالحه فإنه لم يسع إلى علاج ما استجد بحلب من الفوضى والاضطراب، بل أعلن عصيانه على والده وأعلن استقلاله بحلب، وقد شجعت هذه الخطوة من قبل سليمان الصليبيين على مضايقة حلب والاستيلاء على بعض المواقع المحيطة بها في جمادي الآخرة من سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م، ومطالبة صاحبها سليمان بالتنازل عن الإثارب لبلدوين الثاني ملك بيت المقدس، ولكن سكان الإثارب من المسلمين رفضوا الخضوع للصليبيين، الأمر الذي أجبر بلدوين على التراجع إلى أنطاكية ومنها إلى بيت المقدس^(٦).

- **القضاء على التمرد:** أما نجم الدين إيلغازي، فإنه ما أن سمع بعصيان ابنه بحلب

(١) المصدر نفسه، ص ١٥٦.

(٢) الجهاد ضد الصليبيين، ص ١٥٦، ١٥٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٧.

(٤) زبدة الحلب (٢/ ١٩٩)، الجهاد ضد الصليبيين، ص ١٥٧.

(٥) زبدة الحلب (٢/ ١٩٩ - ٢٠٥)، الجهاد ضد الصليبيين، ص ١٥٧.

(٦) زبدة الحلب (٢/ ١٩٩)، الجهاد ضد الصليبيين، ص ١٥٧.

حتى قدم إليها على وجه السرعة، فعاقب من كان وراء عصيان ابنه، فلما رأى سليمان ما حل بأعوانه، من عقاب شديد خاف على نفسه وهرب إلى دمشق، وطلب من صاحبها طغتكين حق اللجوء، ولما تم لإيلغازي القضاء على الفتنة مجلب استتاب بها ابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق، وعقد هدنة جديدة مع الصليبيين لمدة سنة كاملة، وكان هدف إيلغازي من عقد تلك الهدنة مع الصليبيين هو كسب الوقت حتى يتمكن من العودة إلى ديار بكر، وحشد ما يمكن حشده من قوات ليعيد الكرة على الصليبيين، إضافة إلى خوفه من قيام الصليبيين بغارة على حلب فلا يستطيع ابن أخيه صدهم^(١). وفي ماردين استطاع نجم الدين إيلغازي أن يحشد أكبر عدد من التركمان ثم سار بهم إلى بلاد الشام في شهر ربيع الآخر سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م، مستغلاً في ذلك الشقاق الذي حصل بين بلدوين ملك بيت المقدس ويونز صاحب طرابلس، ولكن نجم الدين إيلغازي لم يستطع أن يحقق نصراً حاسماً على الصليبيين، وبالرغم من انضمام بلك بن بهرام بن أرتق وظهير الدين طغتكين إلى جانبه غير أنه لم يمكن الصليبيين بأن يمدوا نفوذهم وسيطرتهم على حلب^(٢).

- **وفاة إيلغازي وأثر ذلك على المسلمين:** في شهر رمضان من سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م أحس إيلغازي بتدهور صحته، فعاد إلى ميفارقين حيث وافته منيته هناك، وبقدر ما كانت وفاة نجم الدين إيلغازي خسارة فادحة للمسلمين في بلاد الشام والجزيرة عامة فإن المصيبة كانت أعظم على أهل حلب الذين عظمت عليهم وفاته، لأن نجم الدين إيلغازي كان قد قطع أمل زعماء الصليبيين في الاستيلاء عليها، ولم تصنف أهمية وفاة نجم الدين إيلغازي إلى هذا الحد، بل أدت إلى أن إمارته قد تفككت وقسمت بين أولاده حسام الدين تمرتاش الذي حصل على ماردين، وابنه سليمان الذي حصل على ميفارقين، بينما بقيت حلب من نصيب ابن أخيه سليمان بن عبد الجبار بن أرتق، واحتفظ بلك بن بهرام بن أرتق بقلعة خرتبرت وضم إليها حران فيما بعد^(٣)، ويضاف إلى ذلك أن حلب التي كانت تعتمد على عساكر التركمان الذين كان يحشدتهم إيلغازي من شمال الجزيرة قد افتقرت هذا العنصر البشري الذي رجع كفة المسلمين على الصليبيين في عهد إيلغازي مما جعلها عرضة لغارات الصليبيين، وضعف مركز صاحبها سليمان بن عبد الجبار بن أرتق عن دفع الصليبيين الذين استغلوا وفاة نجم الدين وأغاروا بقيادة بلدوين الثاني ملك بيت المقدس على بزاعة وبالس على نهر الفرات، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل استطاع الملك

(١) الإمارات الأرتقية، ص ٢٦٠.

(٢) زبدة الحلب (٢/ ٢٠٥)، الجهاد ضد الصليبيين، ص ١٥٨.

(٣) الشرق الأوسط والحروب الصليبية (١/ ٤٨٠ - ٤٨١).

الصليبي الاستيلاء على قلعة البيرة، حتى أصبحت حلب محاطة بالصليبيين من جميع الجهات، مما حتم على سليمان بن عبد الجبار أن يعقد مع الصليبيين صلحاً سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م تنازل بموجبه لهم عن حصن الإثارب^(١).

٧- **بلك بن بهرام بن أرتق** يأسر ملوك الصليبيين: بلك بن بهرام صاحب قلعة خرتبرت) تسلم راية الجهاد بعد عمه «إيلغازي - صاحب ماردين».. كان خصماً عنيداً للصليبيين وكان يتطلع للقضاء عليهم لا في منطقة الجزيرة فقط بل وفي بلاد الشام، وقد استهل أعماله العسكرية أثناء مرض عمه نجم الدين إيلغازي في رجب سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م بحصار الرها، ولكنه لم يستطع النيل منها بعد فترة طويلة من الحصار، مما اضطره إلى الانسحاب عنها، لذا رأى الصليبيون الذين بالرها أنه لا بد من الاستعانة بجوسلين صاحب الأطماع الكثيرة وخصم المسلمين العنيد، الذي كان وقتذاك مع بلدوين ملك بيت المقدس بالبيرة مستغلين في ذلك تفرق عساكر بلك بن بهرام بن أرتق عقب عودته من الرها، إلا أن بلك بن بهرام استطاع أن ينصب لجوسلين ومن معه من الصليبيين كميناً عند سروج بأرض موحلة ومشبعة بمياه الأمطار، فلم تتمكن خيولهم من الإسراع بسبب هذا الوحل، في الوقت الذي سلب عليهم بلك ورجاله الذين لا يتجاوز عددهم أربعمئة فارس وإبلاً من السهام فلم يفلت منهم إلا القليل، وأسر جوسلين وابن خالته جاليران صاحب البيرة في سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م. وقد ترتب على هذا الانتصار الذي حققه بلك بن بهرام على الصليبيين ضياع قوة الصليبيين المعنوية في بلاد الشام وازدياد حاسة المسلمين وتطلعهم إلى الوثوب على الصليبيين من كل ناحية^(٢). وحاول بلك بن بهرام بن أرتق أن يحصل من جوسلين ومن معه من الصليبيين الذين وقعوا في الأسر على تنازل منهم عن الرها، مقابل إطلاق سراحهم ولكنهم رفضوا قائلين: نحن والبلاد كالجمل، متى عقر جمل حول رحله إلى آخر، والذي بأيدينا قد صار بيد غيرنا^(٣) عندها حمل بلك بن بهرام أسراه إلى قلعة خرتبرت ووكل بهم من يحرسهم، وتوجه سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م إلى حصن كركر التابع لإمارة الرها بقصد الاستيلاء عليه^(٤). وأدرك بلدوين ملك بيت المقدس -الذي أصبح وصياً على الرها مضافاً إلى وصايته على أنطاكية- أن من واجبه التحرك لتخليص جوسلين من الأسر، ومنع كركر من السقوط بيد بلك بن بهرام وإفهام المسلمين بأن قوة الصليبيين لا زالت قوية باطشة،

(١) الكامل في التاريخ (٦٣٢/٨).

(٢) نور الدين محمود والصليبيون، حسن حبشي، ص ٢٠.

(٣) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص ١٦٠.

(٤) زبدة الحلب (٢/٢٠٦)، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص ١٦٠.

وخرج بلدوين على رأس جيشه حتى وصل عند الضفة الشرقية لنهر سنجة أحد روافد الفرات تجاه معسكر بلك بن بهرام الذي كان قد رفع الحصار عن كركر وعاد لمواجهة بلدوين الثاني ملك بيت المقدس، ودار القتال بين الطرفين في التاسع عشر من شهر صفر سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م، وانهزم الصليبيون بالرغم من قلة قوات المسلمين، ولم تقف أهمية الوقعة عند حد انتصار بلك بن بهرام، بل تعدته إلى أن بلدوين ملك بيت المقدس قد وقع في أسر بلك في بن بهرام بالإضافة إلى استيلائه على حصن كركر، وحمل بلك أسيره الجديد إلى خربتوت وضمه إلى جوسلين ومن معه من زعماء الصليبيين وفرسانهم^(١). وهكذا خلت إمارات الصليبيين: الرها، وأنطاكية، ومملكة بيت المقدس من زعمائها الذابين عنها، مما أدى إلى اضطراب وضع الصليبيين في الجزيرة وبلاد الشام، ولكن القوى الإسلامية في بلاد الشام لم تستطع وقتذاك أن تهتبل هذه الفرصة والانقضاض على إماراتهم والقضاء على شأفة الصليبيين^(٢).

- محاصرة الصليبيين لحلب: أما بلك بن بهرام بن أرتق فإنه بعد أن جمع أسراه في قلعة خربتوت توجه إلى حران للاستيلاء عليها في ربيع الأول من سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م، بهدف التقوي بها، فتم له ذلك، وكان بلك بن بهرام يطمع في الاستيلاء على حلب من سليمان بن عبد الجبار عقب استيلائه على حران لأنه كان يدرك أهمية حلب الاستراتيجية، وأنه لن يحقق أية نتيجة حاسمة على الصليبيين ما لم يضم حلب إلى إمارته كي تكون له قاعدة في بلاد الشام، يستطيع من خلالها التحرك في ميدان فسيح، ولتفرغ لقتال الصليبيين^(٣)، لذلك فرض بلك بن بهرام على حلب الحصار حتى اضطر من بها إلى تسليمها إليه في صباح يوم الثلاثاء غرة جمادي الأولى سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م^(٤). إلا أن بلك بن بهرام لم يستطع المضي قدماً في جهاد الصليبيين بالشام حيث وصله نبأ تمكن جوسلين من الفرار من الأسر بمعونة جماعة من الأرمن الذين كان بلك بن بهرام قد أحسن إليهم بخربتوت، فعاد على وجه السرعة إلى خربتوت في رجب من نفس السنة ٥١٧هـ/١١٢٣م، واستطاع إعادة الأمن بها ونقل الأسرى المتبقين فيها إلى حران بعد معاينة الأرمن الذين كانوا بها^(٥). وأما جوسلين صاحب الرها الذي هرب من الأسر فقد استطاع تكوين جيش من صليبي بيت

(١) نور الدين محمود والصليبيون، ص ٢٠.

(٢) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص ١٦٠.

(٣) الإمارات الأرتقية، ص ٢٦٨.

(٤) الكامل في التاريخ (٦٣٣، ٦٣٢/٨).

(٥) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص ١٦١.

المقدس وأنطاكية، واتجه به صوب حلب وضيق على من بها من المسلمين، ولم يكتف بهذا، بل أقدم على نبش قبور ألموتى من المسلمين في البلاد المحيطة بها، وظل محاصراً لها حتى شهر رمضان من السنة نفسها ٥١٧هـ/ ١١٢٣م، ولما لم يستطع النيل منها عاد إلى تل باشر، على أن حلب لم تسلم من حصار الصليبيين بعد عودة جوسلين إلى تل باشر، بل تعرضت لحصار آخر من صليبي أنطاكية، أدى إلى قطع الصلة بينهما وبين غيرها من البلاد الإسلامية في الشام، تلك البلاد التي كانت تزودها بالموثون^(١). وجد بلك بن بهرام بن أرتق أنه لا بد من الاستعانة بآق سنقر البرسقي صاحب الموصل ويطهير الدين طغتكين صاحب دمشق لرفع الظلم عن أهل حلب ولإنزال ضربة بالصليبيين يستطيع بعدها بلك بن بهرام العودة إلى حلب وإقرار الأوضاع بها، فوصل إليه سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م كل من صاحب الموصل آق سنقر البرسقي وصاحب دمشق طغتكين على رأس قوتهم فعبّر بهم الفرات ونزلوا على عزاز، ولكن الصليبيين الذين كانوا قد تجمعوا بها تمكنوا من طرد المسلمين، فعاد كل منهم إلى بلده، ودخل بلك بن بهرام حلب في سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م وتخلص من بعض المناوئين له وقضى على فوضى قطاع الطرق، وتزوج بإحدى بنات رضوان بن تتش لتوثيق صلته بالسلاجقة، واتخذ من حلب عاصمة له من بلاد الشام، وقاعدة انطلاق لتوجيه الضربات ضد الصليبيين، ولم يكتف بهذا بل نقل إليها أسراه من حران واعتقلهم في قلعة حلب، ويبدو أن ما قام به بلك بن بهرام من نقل أسراه إلى حلب إنما كان بقصد الاطمئنان عليهم من أية محاولة لإنقاذهم أثناء بعده عنهم، والدليل على ذلك أنه حين جهز فرقة عسكرية في صفر من سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م لقتال الصليبيين بعزاز، لم يخرج معهم خوفاً من أن يغدر به بعض سكان حلب المعارضين له ويطلقوا أسراه^(٢).

- مقتل بلك بن بهرام: لم يمهل الأجل بلك بن بهرام، وبينما كان يحاصر الفرنجة عند قلعة منبج وافته المنية بسهم طائش أصابه فقتله لا يدري من رماه، واضطرب عسكره، وتفرقوا، وبمقتله فقد المسلمون فيه رجلاً أثبتت أعماله أنه زعيم وقائد حاول جمع كلمة المسلمين في الشام والجزيرة ضد الصليبيين، ويمكن القول إنه بمقتل بلك بن بهرام سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م انتهت مرحلة قيادة الأراتقة لحركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، على الرغم من أن حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي قد استطاع الاستيلاء على حلب عقب مقتل بلك بن بهرام إلا أن حلب لم تتمتع في أيامه بأوضاع مستقرة، بل فسدت أحوالها وضعف

(١) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص ١٦١.

(٢) زبدة الحلب (٢/ ٢١٦ - ٢١٧)، الجهاد ضد الصليبيين، ص ١٦٤.

أمر المسلمين بها حيث، ألهاه الصبا واللعب عن التشمير والجد والنظر في أمور الملك. ولم يقف حسام الدين عند هذا الحد من الخمول وعدم المبالاة بجهد الصليبيين، بل قبل وساطة أبي العساكر سلطان بن منقذ صاحب شيزر في إطلاق سراح بلدوين ملك بيت المقدس، الذي كان في أسر بلك بن بهرام^(١)، الأمر الذي أدى إلى ازدياد حماس الصليبيين في النيل من المسلمين، وهذا بالطبع كان له أثر كبير في تصدي الصليبيين بصلافة لحركة بعث فكرة الجهاد الإسلامي في المرحلة التالية التي قادها كل من آق سنقر البرسقي صاحب الموصل وظهير الدين صاحب دمشق^(٢).

٨- جهاد أمير الموصل آق سنقر البرسقي لإنقاذ حلب:

١- حلب تتصدى للصليبيين: تعرضت حلب لضغط الصليبيين وهجماتهم مراراً عديدة بدأت مع فجر الغزو الصليبي لبلاد الجزيرة والشام، وكان أبرزها وأخطرها ولأريب حصار عام ٥١٨هـ، وقد أدرك هؤلاء الغزاة الأهمية البالغة لهذه المدينة وما كانت تتمتع به من مركز استراتيجي حيوي من النواحي البشرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية وخطوط المواصلات، فهي تقع في مركز وسط حصين بين إمارتين صليبيتين، هما: الرها شرقاً في الجزيرة الفراتية، وأنطاكية غرباً على البحر المتوسط. في نفس الوقت الذي يمكنها الاتصال بالقوى الإسلامية التركمانية المنتشرة في الجزيرة والفرات والأناضول وشمال الشام، مما يعد أساساً حيوياً لاستمرار حركة الجهاد وتحقيق أهداف حاسمة ضد الصليبيين، وفي المقابل فإن إسقاط حلب وضمها إلى الكيان الصليبي سوف يؤمن المواصلات بين الرها وأنطاكية، ويعجل إقامة وحدة سياسية وعسكرية بينهما، كانت ستلعب ولا شك دوراً خطيراً لصالح الغزاة^(٣).

وإذ أدرك الحلبيون عدم جدوى بقاء حلب على هذه الأوضاع القلقة، وضرورة تسليمها لأمر قوي، أرسلوا إلى إيلغازي الأرتقي حاكم ديار بكر يطلبون منه القدوم لتسليمها إياه، فتقدم هذا إلى حلب عام ٥١١هـ، وتولّى مقاليد الأمور فيها، وفرض سيطرته على المواقع التابعة لها، ولكن انشغال الرجل بأمور ولايته في ديار بكر كان يضطره في كثير من الأحيان إلى الغياب عن حلب وإدارة ظهره لمشاكلها، وكان الصليبيون يستغلون ذلك ويشددون هجماتهم على حلب والمناطق المحيطة بها، حتى إذا توفي الرجل في رمضان عام ٥١٦هـ سعى الصليبيون لاستغلال الفرصة وانقسام إمارته بين أبنائه، وانعزال حلب عن

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٣.

(١) الجهاد ضد الصليبيين، ص ١٦٢، ١٦٣.

(٣) دراسات تاريخية، ص ١٢، ١٣.

القوى المقاتلة في ديار بكر لتحقيق انتصارات سريعة في شمال الشام، ولكن ظهور ابن أخيه بلك بن بهرام وتولييه قيادة حركة الجهاد ضد الغزاة؛ قطع الطريق على هؤلاء، وأنقذ حلب من خطر محقق، غير أن مقتل بلك بعد سنتين من توليه الحكم وانتقال إمارته إلى ابن عمه حسام الدين تمرتاش الذي تميز بالضعف والانهازمية، فتح الطريق ثانية أمام الصليبيين لكي يشددوا النكير على حلب ويحققوا حلمهم بالسيطرة عليها، ويصف المؤرخ ابن العديم كيف تدهورت الأوضاع في حلب إثر تولي تمرتاش الحكم، ويقول: فأما تمرتاش فإنه لما ملك حلب، ألغاه الصبا واللعب عن التشمير والجد والنظر في أمور الملك، ففسدت الأحوال وضعف أمر المسلمين بذلك^(١). وقد بدأ تمرتاش ولايته بإطلاق سراح بلدوين الثاني ملك بيت المقدس الذي كان بلك قد أسره في إحدى معاركه ضد الغزاة، وذلك لقاء مبلغ تافه من المال، وقد أطلقه تمرتاش من معتقله وأحضره إلى مجلسه، فأكلا وتشابرا وخلع عليه تمرتاش قباءً ملكياً، وأعيد إليه الحصان الذي كان قد أخذه منه بلك يوم أسره^(٢). ولم يلبث تمرتاش - بعدها - أن انسحب إلى ولايته في ديار بكر لكي يتبع سياسة انعزالية فلا يرمي بسهم ضد الغزاة، وبهذا أتاحت لهؤلاء الفرصة - كرة أخرى - لتضييق الخناق على حلب والسعي لتحقيق هدفهم الذي عجزوا عنه في السنين السابقة، وهكذا شهدت حلب في عام ٥١٨هـ حصاراً من أخطر ما تعرضت له في تاريخ الحروب الصليبية الطويل^(٣).

ب- خيانة ديبس بن صدقة المزيدي أمير الحلة: بدأت المحاولة له بخيانة تقدم بها أحد الأمراء العرب: ديبس بن صدقة المزيدي أمير الحلة الواقعة جنوبي بغداد، والهارب من وجه الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية بسبب استفزازه المستمر لهما وتأميره عليهما، قال للصليبيين بأن له أنصاراً في حلب، وأنهم متى رأوه على رؤوس المهاجمين سلموا إليه البلد، ومما قاله للصليبيين: إن أهلها شيعة وهم يميلون إليّ لأجل المذهب، فمتى رأوني سلموا البلد إليّ، وبذل لهم على مساعدته بذولاً كثيرة^(٤). ووعد بلدوين أمير أنطاكية وجوسلين أمير الرها بأنه سيقدم لهما الكثير لقاء مساعدتهما له، وقال لهما: إنني أكون في حلب نائباً عنكم مطيعاً لكم^(٥). وتمكن - أخيراً - من التوصل مع الصليبيين إلى اتفاق تكون حلب بموجبه له، أما الأموال فتكون لهم، فضلاً عن بعض المواقع القريبة من حلب^(٦)، وتقدم بلدوين على رأس قواته ونزل على نهر قويق قريباً من حلب، وأفسد المناطق الزراعية المحيطة به، ثم رحل إلى حلب فنزل

(١) زبدة الحلب (٢/ ٢٢٠).

(٢) الاعتبار، ص ١٠٣، ١٢٠ - ١٢١.

(٣) دراسات تاريخية، د. عماد الدين خليل، ص ١٤. (٤) الكامل في التاريخ (٨/ ٦٤٢).

(٥) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١٢.

(٦) الاعتبار، ص ١٠٣، زبدة الحلب (٢/ ٢٢٢ - ٢٢٣).

عليها في أواخر شعبان ٥١٨هـ، وتقدم جوسلين أمير الرها بصحبة ديبس بن صدقة^(١) - وكان ديبس شيعياً كآبائه^(٢) - صوب ناحية أخرى من أعمال حلب، وقاما بتدمير مزروعاتها، وقدرت الخسائر بما يقرب من مائة ألف دينار، ومن ثم رحلا ونزلا مع بلدوين على حلب، واجتمع بهم هناك خونة، آخرون من أجل تطمين مصالحهم واقتسام الغنائم في حالة سقوط حلب: سلطان شاه بن رضوان السلجوقي، عيسى بن سالم بن مالك العقيلي، ياغي سيان بن عبد الجبار الأرتقي.. وفرضوا جميعاً الحصار على حلب من شتى جهاتها^(٣). ووطئوا أنفسهم على المقام الطويل، وأنهم لا يغادرونها حتى يملكوها، وبنوا البيوت لأجل البرد والحر^(٤)، فضلاً عن ثلاثمائة من الخيام، بينما لم يكن في حلب يومها سوى خمسمائة فارس^(٥).

ج- أعمال استنزائية صليبية ضد أهالي حلب: بدأ الغزاة بشن هجماتهم الدورية على حلب، وقطعوا أشجارها، وأفسدوا بساتينها وزروعها في محاولة لتدمير اقتصادياتها التي تعتمد على الزراعة بالدرجة الأولى، كما قاموا بتخريب مشاهد المسلمين ونبشوا قبور موتاهم، وسلبوا أكفانهم، وجعلوا من توابيتهم أوعية يتناولون بها طعامهم، وعمدوا إلى من لم تتقطع أوصاله منهم فربطوا في أرجلهم الحبال وسحبوهم أمام أنظار المسلمين المحاصرين في حلب، وجعلوا يصيحون: هذا نبيكم محمد!! وأخذت جماعة منهم مصحفاً من المشاهد المحيطة بحلب وصاحوا: يا مسلمون أبصروا كتابكم!! ثم ثقبه أحدهم بيده ثم شده بخيطين وربطه بأسفل برذون قريب فراح هذا يروث عليه.. وكلما أبصر صاحبه الروث يتساقط على المصحف الشريف صفق بيديه وضحك عجباً وزهواً^(٦).

د- المقاومة الحلبية الشعبية: لم يكتف الصليبيون بهذا، بل راحوا يمثلون بكل من يقع بأيديهم من المسلمين، فاضطر هؤلاء إلى مجاراتهم بالمثل، وكان يقود المقاومة الإسلامية القاضي أبو الفضل بن الخشاب الذي كان قد تمرس في أعمال الدفاع منذ بداية العقد، وكان يملك شعبية واسعة في حلب فأصدر أوامره بتوجيه ضربات مباشرة في قلب معسكرات الغزاة، فكانت جماعة من مقاتلي حلب تخرج سراً لتغير على هذه المعسكرات، فتقتل وتأسر وتقتل عائدة من حيث أتت... وفي الوقت نفسه كانت الرسل تتردد بين الطرفين للتوصل إلى

(١) دراسات تاريخية، د. عماد الدين خليل، ص ١٥.

(٢) سير أعلام النبلاء (١٩/٦١٣).

(٣) زبدة الحلب (٢/٢٢٥ - ٢٢٦).

(٤) الكامل في التاريخ (٨/٦٤٢).

(٥) زبدة الحلب (٢/٢٢٤ - ٢٢٥)، دراسات تاريخية، ص ١٥.

(٦) دراسات تاريخية، ص ١٥.

هـ - استنجد أهالي حلب بأمير ديار بكر: ضاق الأمر بالمسلمين في حلب واعتصرهم الإرهاق والجوع، فاتفق أميرهم بدر الدين الأرتقي وجماعة من كبار المسؤولين على إرسال وفد من زعماء حلب إلى ديار بكر للاستنجد بأميرها حسام الدين تمرتاش، وتسأل أعضاء الوفد الثلاثة ليلاً ومضوا إلى ماردين - قاعدة ديار بكر - ليستغيثوا بأميرها علّه يولي اهتماماً لما تعانيه حلب من ويلات. وعندما وصلوا إلى هناك كان حسام الدين منهمكاً في الاستيلاء على بلاد أخيه سليمان الذي كان توفي في تلك السنة، الأمر الذي دفعه إلى إهمال شئون حلب وعدم الاستجابة لمطالب وفدها، وقد بقي أعضاء هذا الوفد فترة من الوقت في ماردين يحثون حسام الدين على التوجه إلى حلب لإنقاذها من الحصار، وهو يعدهم ويمنيهم ويماطلهم دون أن يقدم على أي إجراء، فأعلموه أنهم لا يريدون سوى أن يصل بنفسه، والجليون يكفونه أمر الغزاة ^(٢) إلا أن مساعيهم فشلت، وفي نهاية المطاف تمكن الوفد من الخلاص من مراقبة حسام الدين التي فرضها عليهم حتى لا يغادروا ماردين للاستنجد بأمير آخر، خوفاً من ازدياد ضعف مركزه وفقدانه مدينة حلب، واستطاع الوفد الاتصال بوالي الموصل السلجوقي آق سنقر البرسقي ^(٣).

و- آق سنقر البرسقي واستجابته لاستغاثة أهل حلب: كان البرسقي حينذاك مريضاً، وكان الضعف قد بلغ منه مبلغاً عظيماً، فمنع الناس من الدخول عليه إلا الأطباء ووصل إلى دبس من أخبره بذلك، فأعلن البشائر في عسكره وارتفع عنده التكبير والتهليل، ونادى بعض أصحابه أهل حلب: قد مات من أملتكم نصره؛ فكادت أنفوس الحلبيين تزهق ^(٤)، وعندما استؤذن للوفد الحلبي بالدخول أذن البرسقي لهم، فدخلوا عليه واستغاثوا به. وشرحوا له الأخطار التي تحيق بحلب ومدى الصعوبات التي يعانيها أهل المدينة، فأجابهم الرجل: إنكم ترون ما أنا الآن فيه من المرض، ولكني قد جعلت لله عليّ نذراً لئن عافاني من مرضي هذا لأبذلن جهدي في أمركم والذب عن بلدكم وقاتل أعدائكم، ولم تمض ثلاثة أيام على مقابله تلك حتى فارقه الحمى، وتماثل للشفاء، وسرعان ما ضرب خيمته بظاهر الموصل، ونادى قواته لأن تتأهب لقتال الصليبيين وإنقاذ حلب، وفي غضون أيام معدودات غدا جيشه على أهبة الاستعداد، فغادر الموصل متجهاً إلى الرجة، وأرسل من هناك إلى

(١) دراسات تاريخية، ص ١٦، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١٢.

(٢) دراسات تاريخية، ص ١٦.

(٣) زبدة الحلب (٢/٢٢٧)، دراسات تاريخية، ص ١٧.

(٤) دراسات تاريخية، ص ١٧.

طغتكين أمير دمشق وخير خان أمير حمص يطلب منهما مساعدته في إنجاز مهمته، فلبى هذان الأميران دعوته وبعثا عساكرهما للانضمام إلى جيش البرسقي الذي كان قد تحرك آنذاك صوب بالس القريبة من حلب، وأرسل من هناك إلى مسئوليهما وشرط عليهم تسليم قلعة حلب لنوابه لكي يحتّمى بها في حالة انهزامه أمام الصليبيين فأجابوه إلى طلبه، وما أن استتب الأمر لهؤلاء النواب وأطمأن الرجال إلى وجود حماية أمنية في حال تراجعهم، حتى بدأ زحفه صوب مواقع القوات الصليبية التي تطوق حلب^(١). وصلت قوات طلائع البرسقي حلب يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي الحجة من سنة ٥١٨ هـ وما أن اقترب البرسقي بقواته المنظمة حتى أسرع الصليبيون في التحول إلى منطقة أفضل من الناحية الدفاعية، فعسكروا في جبل جوسن على الطريق إلى أنطاكية، وهكذا غدوا في حالة الدفاع بعد أن كانوا مهاجمين، وخرج الحلبيون إلى خيامهم فنالوا منها ما أرادوا، بينما اتجه قسم آخر منهم لاستقبال البرسقي والاحتفاء به لدى وصوله، وقد أدرك الرجل ما يرمي إليه الصليبيون بانسحابهم واتخاذهم موقفاً دفاعياً، فلم يتسرع بمهاجمتهم قبل أن يعيد تنظيم قواته من جديد، خوفاً من نزول هزيمة فادحة بعساكره قد تعرض حلب للسقوط، وأرسل طلائعه الكشفية لرد القوات المتقدمة إلى معسكراتها في حلب، وقال موضحاً خطته هذه: ما يؤمننا أن يرجعوا علينا ويهلك المسلمون؟ ولكن قد كفى الله شرهم، فلندخل إلى البلد ونقويه وننظر إلى مصالحه، ونجمع لهم إن شاء الله، ثم نخرج بعد ذلك إليهم. ومن ثم دخل البرسقي حلب، وبدأ بحل مشاكلها ورفع مستواها الاقتصادي والاجتماعي، فنشر العدل، وأصدر مرسوماً برفع المكوس والمظالم المالية وإلغاء صادرات، وعمّت عدالته الحلبيين جميعاً بعدما منوا به من الظلم والمصادرات، وتحكم المسلمون طيلة فترة الحصار الصليبي^(٢)، ولم يكتف البرسقي بذلك، بل قام بنشاط واسع يجلب المؤن والغلال إلى المدينة كي يخفف من حدة الغلاء، ويقضي على الضائقة التي يعانيها الحلبيون، وما لبث النشاط الزراعي في منطقة حلب أن عاد إلى حالته الطبيعية، حيث استأنف المزارعون العمل في الأراضي التي شردوا منها، كما عاد النشاط التجاري إلى سابق عهده اعتماداً على ما تمتعت به المنطقة من أمن واستقرار^(٣).

وهكذا استطاع البرسقي أن يحطم الطوق الذي أحاط به الصليبيون حلب، وأن يخلص هذا الموقع الهام من أخطر محنة جابهته طيلة الحروب الصليبية ويوحده مع الموصل لأول مرة منذ بدء هذه الحروب، الأمر الذي أتاح لهذا القائد ولعماد الدين زنكي من بعده أن يفيد من هذه

(١) نهر الذهب للغزي (٣/ ٨٦ - ٨٧)، دراسات تاريخية، ص ١٨.

(٢) زبدة الحلب (٢/ ٢٢٩ - ٢٣٠)، دراسات تاريخية، ص ١٩.

(٣) دراسات تاريخية، ص ١٩.

الوحدة لتحقيق انتصارات عديدة ضد الغزاة^(١). يقول المؤرخ الإنكليزي المعاصر ستيفن رنسيمن:.... سرعان ما غدت الإمارة التي شكلها البرسقي نواة لما قام بعدئذ بالشام من دولة إسلامية متحدة زمن الزنكيين والأيوبيين والمماليك، ولم يكن الصليبيون الذين وحد بينهم نظام الملكية في بيت المقدس، يواجهون قبل ذلك جبهات متحدة، وما حدث - إذن - من توحيد حلب مع الموصل يعتبر بدء توحيد الجبهة الإسلامية التي قدر لها أن تقضي في يوم من الأيام على قوة الصليبيين في الشام^(٢).

ز- مقتل البرسقي: في سنة ٥٢٠هـ ثامن ذي القعدة، قتل قسيم الدولة آق سنقر البرسقي صاحب الموصل، قتله الباطنية بمدينة الموصل يوم جمعة بالجامع وكان يصلي الجمعة مع العامة، وكان قد رأى تلك الليلة في منامه أن عدة من الكلاب ثاروا به، فقتل بعضها، ونال منه الباقي ما أذاه، فقص رؤياه على أصحابه، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام فقال: لا أترك الجمعة لشيء أبداً، فغلبوا على رأيه، ومنعوه من قصد الجمعة، فعزم على ذلك، فأخذ المصحف يقرأ فيه، فأول ما قرأ ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، فركب إلى الجامع على عادته، وكان يصلي في الصف الأول، فوثب عليه بضعة عشر نفساً عدة الكلاب التي رآها، فجرحوه بالسكاكين، فجرح هو بيده منهم ثلاثة وقتل رحمه الله، وكان مملوكاً تركياً خيراً، يحب أهل العلم والصالحين، ويرى العدل ويفعله، وكان من خير الولاة، يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويصلي من الليل متهجداً^(٣).

ح- الباطنية من أخطر معوقات حركة الجهاد: أثبت الباطنية عداؤهم الكامل لقادة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر، وكان خناجرهم المسمومة كانت تشق للصليبيين طريقاً نحو تثبيت أقدامهم في بلاد الشام والجزيرة على حساب المسلمين، وهكذا أثبتت وقائع التاريخ كيف التقى قادة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر في بعض الأحيان - في الشهادة - فمن قبل اغتيال شرف الدين مودود، والآن نجد آق سنقر البرسقي يلقي نفس المصير، وقد عكس ذلك كله: أن مسلك الإسماعيلية النزارية في ذلك الحين كان من أخطر معوقات حركة الجهاد ضد الغزاة نظراً لوجود عدوين في وقت واحد أمام القيادات المسلمة السنية على نحو عكس المشاق البالغة التي واجهت أولئك القادة^(٤) في الدفاع عن عقيدة الأمة ودينها وأعراضها.

(١) الشرق الأوسط والحروب الصليبية (١/ ٣٤٥، ٤٨٥ - ٤٨٦).

(٢) الكامل في التاريخ (٨/ ٦٥١).

(٣) الحروب الصليبية - العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٦١.

هذا وإن كان آق سنقر البرسقي قد استشهد فإن قائمة المجاهدين عامرة ومتأهبة للقتال في سبيل الله، ففي ربيع الآخر من عام ٥٢١هـ/ ١١٢٧م عهد السلطان محمود إمارة الموصل إلى عماد الدين زنكي وبظهوره على مسرح الأحداث بدأت صفحة جديدة في ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين^(١)، وقد بدأ عماد الدين بتكوين جبهة إسلامية متحدة ضد الصليبيين، فسيطر على القلاع القريبة منه مثل جزيرة ابن عمر ونصيبين وسنجار وبلاد الخابور وحران، ثم اتجه تفكيره بعد ذلك للاستيلاء على حلب، أكبر المراكز الإسلامية بشمال الشام، وواتته الفرصة عندما علم باضطراب الأحوال بها وتهديد كل من جوسلين الثاني صاحب الرها بوهمند الثاني صاحب أنطاكية لها، فسارع عماد الدين زنكي إليها فلقيه أهلها بالبشر ودخل البلد في يوم الاثنين ١٣ جمادي الآخرة سنة ٥٢٢هـ/ يونيو ١١٢٨م^(٢)، واستولى عليه ورتب أموره وأقطع أعماله الجنود والأمراء، ويؤكد ابن الأثير على أهمية هذا الفتح بقوله: ولولا أن الله تعالى من على المسلمين بولاية الشهيد لكان الفرنج استولوا على الشام جميعه^(٣). وسوف يأتي الحديث عن عماد الدين والأسرة الزنكية في كتابنا القادم بإذن الله تعالى عن الحروب الصليبية في عهد الزنكيين وسيرة نور الدين محمود الشهيد الملك العادل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(١) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية ص ٤٨.

(٢) الكامل في التاريخ (٨/ ٦٦٣).

(٣) المصدر نفسه (٨/ ٦٦٤).

**جدول بأسماء القادة والعلماء
الذين اغتيلوا بيد الباطنية^(١)**

٨	اسم المقتال	السنة	كيفية وقوع حادث الاغتيال
١	الخليفة المسترشد بالله العباسي	٥٢٩هـ	هجم عليه بضعة عشر من الباطنية وطعنوه بالخنجر، ثم مثلوا به.
٢	الخليفة الراشد العباسي	٥٣٢هـ	اغتيال غدرًا في أصبهان.
٣	الوزير نظام الملك السلجوقي	٥٨٥هـ	تقدم إليه باطني في صورة مستغيث ولما اقترب منه طعنه بسكين وقتله.
٤	الوزير نظام الملك (أبو نصر)	٥٠٣هـ	وثب عليه جماعة من الباطنية وهو يؤدي الصلاة في الجامع وجرحوه عدة جراحات.
٥	الوزير أبو المحاسن عبد الجليل الدهستاني	٤٩٥هـ	عدا عليه شاب باطني وجرحه عدة جراحات مات بعدها.
٦	الوزير الكمال أبو طالب السمرمي	٥١٦هـ	وثب عليه الباطنية وهو سائر في طريق ضيق وقتلوه.
٧	الوزير معين الملك (أبو نصر)	٥٢١هـ	وثب عليه باطني وهو غافل مطمئن فقتله، وكان هذا الباطني يعمل سائسًا لخليل معين الملك ليصل إلى هدفه.
٨	الوزير عضد الدين أبو الفرج بن رئيس الرؤساء	٥٧٣هـ	تقدم إليه جماعة من الباطنية في صورة فقراء ومعهم رقاع وهو في طريقه إلى الحج، فتقدم إليه أحدهم وضربه بسكين وتبعه ثان وثالث حتى قتلوه.
٩	الوزير نظام الملك مسعود بن علي	٥٩٦هـ	قتله الباطنية غدرًا.

(١) الكامل: (٨ / ٢٠٠)، الكامل (٣١٩ / ٨)، وهذا الجدول نُقل من كتاب الجهاد والتجديد ص ١٤٦، ١٤٧.

٢	اسم المقتال	السنة	كيفية وقوع حادث الاغتيال
١٠	الوزير فخر الملك أبو المظفر علي ابن نظام الملك	٥٠٠هـ	تقدم إليه شاب من الباطنية وهو يتظلم وفي يده رقعة، وبينما كان يقرؤها الوزير وثب عليه ذلك الشاب بخنجر كان معه وقتله.
١١	الأمير بلكابك سمرز	٤٩٣هـ	طعنه الباطنية بسكاكينهم غدرًا فقتلوه.
١٢	الأمير مودود	٥٠٧هـ	وثب عليه الباطنية بعد فراغه من أداء صلاة الجمعة في جامع دمشق وقتلوه.
١٣	الأمير أحمد بن إبراهيم الروادي	٥١٠هـ	تقدم إليه رجل من الباطنية وهو يتظلم ويبكي ومد إليه رقعة سأل أن يوصلها له إلى السلطان، فلما أخذها منه وثب عليه ذلك الرجل على الفور بسكينه وقتله.
١٤	الأمير قسيم الدولة آق سنقر البرسقي	٥٢٠هـ	هجم عليه بضعة عشر نفرًا من الباطنية في الجامع وهو يؤدي صلاة الجمعة فقتلوه.
١٥	الأمير تاج الملوك بوري بن طغتكين	٥٢٥هـ	هجم عليه اثنان من الباطنية وحاولا قتله، لكنه برئ من جراحه فيما بعد، ولكنه توفي في السنة التي بعدها متأثرًا بأحد تلك الجراح.
١٦	الأمير آق سنقر الأحمدي	٥٢٧هـ	قتله الباطنية غدرًا.
١٧	الأمير أغلمش	٦١٤هـ	قتله الباطنية غدرًا.
١٨	الأمير شهاب الدين الغوري	٦٠٢هـ	قتله الباطنية غدرًا وخوفًا منه ومن بطشه.
١٩	أمير من أمراء جلال الدين بن خوارزم شاه	٢٦٤هـ	قتله الباطنية غدرًا.

٨	اسم المقتال	السنة	كيفية وقوع حادث الاغتيال
٢٠	الأمير جناح الدولة حسين	٤٩٥هـ	وثب عليه ثلاثة من الباطنية في الجامع بعد فراغه من أداء صلاة الجمعة وقتلوه.
٢١	الأمير خلف بن ملاعب	٤٩٩هـ	قتله الباطنية غدراً.
٢٢	الأمير شمس الملوك إسماعيل بن بوري	٥٢٩هـ	قتله الباطنية غدراً.
٢٣	الأمير برسق الكبير	٤٩٠هـ	قتله الباطنية غدراً.
٢٤	الأمير سيف الدين أخو علاء الدين الغوري	٥٤٧هـ	قتله الباطنية غدراً.
٢٥	السلطان داود بن السلطان محمود	٥٣٨هـ	قتله الباطنية غدراً.
٢٦	السلطان بكتمر	٥٨٩هـ	تقدم إليه وفد من الباطنية في زي الصوفية، وقدم إليه أحدهم قصة فأخذها وضربه بسكين على الفور وقتله.
٢٧	السلطان صلاح الدين الأيوبي	٥٧٠هـ	حاولوا قتله داخل معسكر جيشه لكنهم فشلوا
٢٨	السلطان صلاح الدين الأيوبي	٥٧١هـ	حاولوا قتله وهو محاصر لحلب لكنهم فشلوا.
٢٩	النائب نصر خان بن أرسلان خان محمد	٥٢٤هـ	قتله الباطنية غدراً.
٣٠	المقرب جوهر	٥٤٧هـ	تعرض إليه جماعة من الباطنية في زي نساء واستغثن به، فوقف يسمع كلامهم، فوثبوا عليه وقتلوه.
٣١	أبو صالح بن العجمي	٥٧٣هـ	وثب عليه جماعة من الباطنية في الجامع وقتلوه.

م	اسم المقتال	السنة	كيفية وقوع حادث الاغتيال
٣٢	أخو الأمير قتادة أمير مكة	٦٠٨هـ	وثبوا عليه بمنى أيام الحج وقتلوه.
٣٣	أبو القاسم ابن إمام الحرمين	٤٩٢هـ	قتله الباطنية غدراً.
٣٤	الفقيه أحمد بن الحسين البلخي	٤٩٤هـ	قتله الباطنية غدراً.
٣٥	الفقيه عبد اللطيف بن الخجندي	٥٢٣هـ	قتله الباطنية غدراً.
٣٦	الفقيه أبو المحاسن الروياني	٥٠٢هـ	قتله الباطنية غدراً.
٣٧	القاضي أبو العلاء مساعد النيسابوري	٤٩٩هـ	قتله الباطنية بجامع أصبهان.
٣٨	القاضي عبيد الله بن علي الخطيبي	٥٠٢هـ	قتله الباطنية بالجامع وهو يؤدي صلاة الجمعة.
٣٩	القاضي صاعد بن عبد الرحمن أبو العلاء	٥٠٢هـ	قتله الباطنية يوم عيد الفطر بنيسابور
٤٠	القاضي أبو سعد محمد بن نصر الهروي	٥١٨هـ	هجم عليه قوم من الباطنية في جامع همذان وقتلوه.
٤١	الواعظ أبو جعفر ابن المشاط	٤٩٨هـ	كان يدرس للناس في الجامع ولما نزل من على كرسيه وثب عليه باطني وقتله.
٤٢	الواعظ أبو المظفر الخجندي	٤٩٦هـ	وكان يدرس للناس في الجامع ولما نزل من على كرسيه وثب عليه باطني وقتله.

- وبعد الإطلاع على الجدول السابق، يتبين لنا ضخامة الدور البشع لتلك الحركات في القضاء على فاعلية الأمة وحيوتيتها، في الصراع الدائر بين المسلمين والغزاة الصليبيين.
- ويتضح لنا من سلسلة الاغتيالات وتوقيتها، ونوع شخصياتها ملاحظات في غاية الأهمية منها:

- ١- أن الذين قتلوا على يد الباطنيين، كانوا يمثلون مراكز القيادة والتوجيه في ميادين السياسة والفكر والجهاد في سبيل الله.
- ٢- أن تصفية هؤلاء، كان خدمة متعمدة لخدمة الصليبيين من جهة ولقيادة المذهب الإلحادي الخبيث من جهة أخرى.
- ٣- أن كثيراً من ضحايا الاغتيال قتل وهو صائم، أو في وقت تأدية صلاة الجمعة أو خلال مجلس للوعظ الديني والإفتاء في بيوت الله^(١).

* * *

(١) التجديد والجهاد في القرن السادس الهجري، ص ١٥٠.

الخاتمة

وبعد فهذا ما يسره الله لي من جمع وترتيب وتحليل تضمنتها فصول هذا الكتاب الذي سميته «دولة السلاجقة وبرزو مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي»، فما كان فيه من صواب فهو محض فضل الله عليّ فله الحمد كما ينبغي لجلاله وله الثناء كما يليق بكماله، وله المجد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه، وما كان في هذا الكتاب من خطأ فأستغفر الله تعالى وأتوب إليه، والله ورسوله بريء منه، وحسبي أنني كنت حريصاً ألا أقع في الخطأ، وعسى ألا أحرم من الأجر، وأدعو الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب إخواني المسلمين، وأن يذكرني من يقرؤه في دعائه، فإن دعوة الأخ لأخيه في ظهر الغيب مستجابة إن شاء الله تعالى. وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

فهذا الكتاب تحدث عن حقبة مهمة من تاريخنا في العراق والشام، فقد قاوم أجدادنا البواسل التغلغل الباطني في الأمة وتصدوا للغزو الخارجي، ولا يزال الصراع مستمراً والغلبة بإذن الله تعالى للإسلام والمسلمين في نهاية المطاف، كما أننا على يقين برجوع العراق إلى أحفاد الصحابة ونور الدين وصلاح الدين وصالحى أهل العراق، كما أن فلسطين سوف ترجع بإذن الله تعالى لأمتنا الإسلامية مهما طال الزمن، وأختم هذا الكتاب بقول الشاعر أحمد بن عقيلان:

سـتؤول دولـتهم إلى أيـدينا	أنا مؤمن أن اليهود وإن طغوا
ما دام عرق الدين ينبض فينا	والله لن يحظوا بنوم هانئ
اسأل به كسرى وقسطنطينا	إسلامنا لا يقبل استسلامنا
واسأل عماد الدين عن حصن الرها	واسأل صلاح الدين عن حطينا

وأخردعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس المصادر والمراجع

- ١- ابن الحنبلي وكتابة الرسالة الواضحة في الرد على الأشاعرة، دراسة وتحقيق: علي بن عبد العزيز ابن علي الشبل، مجموعة التحف والنفائس الدولية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ٢٠٠١م.
- ٢- أبو حامد الغزالي دراسات في فكره وعصره وتأثيره، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سلسلة: ندوات ومناظرات رقم ٩.
- ٣- أبو حامد الغزالي والتصوف، عبد الرحمن دمشية، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثانية.
- ٤- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين للمرتضى الزبيدي، طبع دار الفكر، بدون تاريخ.
- ٥- اتعاظ الخنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، أحمد بن علي المقرئ، تحقيق الشيال، طبع في القاهرة عام ١٣٨٧هـ.
- ٦- أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين، إعداد الطالب يوسف إبراهيم الزامل - رسالة ماجستير - جامعة أم القرى - مكة المكرمة ١٤٠٧هـ.
- ٧- أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب، د. عبد الله بن عبد الرحمن الربيعي، الرياض، ١٤١٥هـ.
- ٨- اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية لابن القيم، نشر المكتبة السلفية بالمدينة.
- ٩- الأحكام السلطانية والولايات الدينية للماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٩٨٢م.
- ١٠- الأحكام في أصول الأحكام، سيف الدين علي بن محمد الأمدي، دار الفكر ١٤٠١هـ.
- ١١- الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق والشرق الإسلامي في عهد الخليفة القائم بأمر الله العباسي، محمود عرفه محمود، الحولية العاشرة، كلية الآداب، الكويت.
- ١٢- إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد الغزالي، دار الندوة الجديدة، بيروت لبنان.
- ١٣- أخبار الأعيان في جبل لبنان، الشيخ طنوس بن يوسف الشدياق، بيروت، لبنان، ١٩٥٤م.
- ١٤- أخبار الدول المنقطعة، أبو الحسن علي بن منصور بن حسين الأزدي، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية الأردن، ١٩٩٩م.
- ١٥- أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، أحمد يوسف القرمانى، عالم الكتب، بيروت، لبنان،

ط ١، ١٤١٢ هـ، ١٩٩٢ م.

- ١٦- أخبار الدولة السلجوقية، تصحيح محمد إقبال، لاهور ١٩٣٣ م.
- ١٧- أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ - الطريق إلى بيت المقدس، د. جمال عبد الهادي محمد د. وفاء محمد رفعت، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الثانية ٢٠٠١ م.
- ١٨- آداب الشافعي ومناقبه، الإمام عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، تحقيق د. عبد الغني عبد الخالق.
- ١٩- الإدارة التربوية في المدارس في العصر العباسي، محمد علي الرجوب، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، الأردن أريد.
- ٢٠- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة بيروت - ١٣٩٩ هـ.
- ٢١- أسباب الضعف في الأمة الإسلامية، د. محمد سيد الوكيل، دار المجتمع، جدة، ط ١، ١٤١٤ هـ.
- ٢٢- الاستقامة، لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، ط الأولى ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م.
- ٢٣- الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية، أنور الرفاعي، دار الفكر، دمشق ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م.
- ٢٤- الإسلام وحركة التاريخ، أنور الجندي.
- ٢٥- الإسماعيلية المعاصرة، محمد أحمد الجوير، دار طيبة الرياض، الطبعة الثانية.
- ٢٦- الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى.
- ٢٧- أصول الإسماعيلية د. سليمان عبد الله السلومي، دار الفضيلة، الرياض، ط ١، ٢٠٠١ م.
- ٢٨- أصول التربية الإسلامية وأساليبها للنحلاوي.
- ٢٩- أصول الدين للبغدادي، لأبي منصور عبد القاهر التميمي البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت ط ٢، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- ٣٠- الاعتبار لأسامة بن منقذ، حرره فيليب حتى، مكتبة الثقافة الدينية.
- ٣١- الاعتصام للشاطبي، ضبطه وصححه أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط ٢، عام ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.
- ٣٢- اعتقاد أهل السنة والحديث - شرح جملة ما حكاه عنهم أبو الحسن الأشعري وقرره في مقالاته د. محمد عبد الرحمن الخميس.
- ٣٣- إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم الجوزية، مطابع الإسلام - القاهرة - ١٤٠٠ هـ.

- ٣٤- أعيان الشيعة، محمد الأمين العاملي، مطبعة الإنصاف - بيروت ١٩٥٠م.
- ٣٥- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق: محمد الفقي، مطبعة الحلبي عام ١٣٥٧هـ.
- ٣٦- إجماع العوام عن علم الكلام، لأبي حامد الغزالي.
- ٣٧- الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، حسن الباشا، القاهرة، ١٩٧٨م.
- ٣٨- الأم، للإمام الشافعي، دار المعرفة - بيروت.
- ٣٩- الإمارات الأرتقية في الشام والجزيرة، عماد الدين خليل.
- ٤٠- إمارة أنطاكية دراسة في علاقتها السياسية بالقوى الإسلامية، طلب صبار محل الجنابي، جامعة بغداد، كلية التربية، رسالة دكتوراه لم تطبع.
- ٤١- إمارة حلب في ظل الحكم السلجوقي، محمد ضامن، دار أسامة، دمشق، بيروت ١٩٩٠م.
- ٤٢- الإمام الغزالي، صالح الشامي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- ٤٣- الأنباء في تاريخ الخلفاء، ابن العمراني محمد بن علي بن محمد، تحقيق: قاسم السامرائي.
- ٤٤- الإنسان في فكر إخوان الصفا، د. عبد اللطيف محمد، مكتبة الأنجلو المصرية دار العلم للطباعة - القاهرة.
- ٤٥- أوربا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور.
- ٤٦- الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، محمد الحويري، دار المعارف القاهرة، ١٩٧٩م.
- ٤٧- أيعيد التاريخ نفسه، محمد العبد، المنتدى الإسلامي.
- ٤٨- بدائع السلك في طبائع الملك، محمد بن علي الأزرق، تحقيق: علي سامي النشار، منشورات وزارة الإعلام، بغداد ١٩٧٧م.
- ٤٩- البداية والنهاية، لابن كثير، مركز البحوث والدراسات بدار هجر مصر، ط١، ١٤١٩هـ.
- ٥٠- بغداد مدينة السلام، ريجارد كوك، ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد، جامعة بغداد ١٩٦٢م.
- ٥١- البغوي ومنهجه في التفسير، عفاف عبد الغفور، الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٩٨٢م.
- ٥٢- بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، محمد الحويري، دار المعارف ١٩٩٢م.
- ٥٣- بنو مرداس الكلابيون في حلب وشمال الشام وسياستهم الخارجية مع دولتي الفواطم

- والروم، محمد أحمد عبد المولى، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- ٥٤- تاريخ ابن أبي الهيجاء، عز الدين محمد بن أبي الهيجاء الأربلي، تحقيق: صبحي عبد المنعم أحمد، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- ٥٥- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان.
- ٥٦- تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٢م، ط ٢.
- ٥٧- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية د. أحمد شليبي.
- ٥٨- التاريخ الإسلامي، الدولة العباسية، محمود شاكر، المكتب الإسلامي.
- ٥٩- تاريخ الأعظمية، مدينة الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، تأليف الخطاط وليد الأعظمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- ٦٠- تاريخ الأمم والملوك للطبري، محمد بن جرير الطبري، دمشق، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ٦١- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة بالقاهرة ومكتبة المثنى بغداد، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م.
- ٦٢- تاريخ البيمارستانات في الإسلام، أحمد عيسى، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان ١٩٨١م.
- ٦٣- تاريخ البيهقي، أبو الفضل، محمد حسين، ترجمة يحيى الخشاب، وصادق نشأت، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٢م.
- ٦٤- تاريخ التربية الإسلامية، أحمد شليبي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة.
- ٦٥- تاريخ التربية عند الإمامية، وأسلافهم من الشيعة بين عهدي: الصادق والطوسي، عبد الله فياض، مطبعة أسعد بغداد ١٩٧٢م.
- ٦٦- تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد العيد للسيد بارتولد، مطبعة الأنجلو المصرية ١٩٥٨م.
- ٦٧- تاريخ الحركات السرية، محمد عنان.
- ٦٨- تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد عمران، دار النهضة العربية، بيروت، ط ٢، ١٩٩٩م.
- ٦٩- تاريخ الحملة إلى القدس، فوشيه الشارترى، ترجمة زياد العسلي، دار الشروق، عمان ١٩٩٠م.
- ٧٠- تاريخ الخلفاء، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.
- ٧١- تاريخ الدعوة الإسماعيلية، مصطفى غالب.

- ٧٢- تاريخ الدولة الفاطمية، د. محمد طقوش، دار النفائس.
- ٧٣- تاريخ الزمان، أبو الفرج جمال الدين بن هارون، ترجمة إسحاق رملة، دار المشرق، بيروت.
- ٧٤- تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، د. محمد سهيل طقوش، دار النفائس، ط١، ١٩٩٩م.
- ٧٥- تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، محمد سهيل طقوش، دار النفائس، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
- ٧٦- التاريخ السياسي والفكري، د. عبد المجيد أبو الفتوح، دار الوفاء، المنصورة بمصر، ط٢، ١٩٨٨م.
- ٧٧- التاريخ العباسي، إبراهيم أيوب، الشركة العالمية للكتب بيروت، ١٩٨٩م.
- ٧٨- تاريخ العراق في العصر السلجوقي، حسين أمين، مطبعة الإرشاد ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.
- ٧٩- تاريخ الفارقي، أحمد بن يوسف بن علي الفارقي، حققه وقدم له بدوي عبد اللطيف عوض، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٤م.
- ٨٠- تاريخ الفاطميين في شمال إفريقية، محمد طقوش، دار النفائس، بيروت، لبنان.
- ٨١- تاريخ الموصل، سعيد الديوه جي، مطبوعات الجمع العلمي العراقي ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- ٨٢- تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، د. خاشع المعاضيدي، د. سوادي محمد دريد عبد القادر نوري، الطبعة الثانية ١٩٨٦م.
- ٨٣- تاريخ إيران، شاهين مكاريوس، مطبعة المقتطف، القاهرة، ١٨٩٨م.
- ٨٤- تاريخ بخارى منذ أقدم العصور، للنرشخي، أبو بكر محمد بن جعفر، عربيه عن الفارسية، وحققه د. أمين بدوي نصر الله الطرازي، دار المعارف، القاهرة ط٣.
- ٨٥- تاريخ بخارى، أرمنوس فامبري، نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٨٧م.
- ٨٦- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، دار الكتاب الغربي بيروت، بدون تاريخ.
- ٨٧- تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي ١٣٢هـ - ٤٦٣هـ، أحمد علي إسماعيل دار دمشق ١٩٨٤م.
- ٨٨- تاريخ حلب، محمد علي العظيمي، تحقيق إبراهيم زعرور، دمشق، ١٩٨٤م.
- ٨٩- تاريخ دولة آل سلجوق، محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني، اختصار الشيخ الإمام الفتح بن علي بن محمد البداري الأصفهاني، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

- ٩٠- تاريخ دولتي المرابطين والموحدين للصَّلَّابِي، دار المعرفة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.
- ٩١- تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، د. محمد سهيل طقّوش، دار النفائس، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
- ٩٢- تاريخ طرابلس، د. السيد عبد العزيز سالم.
- ٩٣- تاريخ فلاسفة الإسلام في الشرق والغرب، محمد لطفي جمعه.
- ٩٤- تاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمي، د. السيد عبد العزيز سالم، د. سحر السيد عبد العزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية.
- ٩٥- تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء، يوسف العظم، دار القلم دمشق، ط١، ١٩٩٨م.
- ٩٦- التبر المسبوك في نصيحة الملوك، الغزالي، تحقيق محمد أحمد دمج، ط١، بيروت، ١٩٨٧م.
- ٩٧- تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ونشر اعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء، مرضي بن علي بن مرضي الطرسوسي، تحقيق: كلود كاهن.
- ٩٨- تبين كذب المفتري، لابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٩هـ.
- ٩٩- التجديد في الفكر الإسلامي، د. عدنان محمد أسامة، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٤هـ.
- ١٠٠- التحفة الملوكة في الدولة التركية، بيارس المنصوري، تاريخ دولة المماليك البحرية في الفترة من ٦٤٨ - ٧١١ هـ، نشر عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.
- ١٠١- تدوين السنة النبوية، د. محمد مطر الزهراني، دار الخضير، ط٢، ١٤١٩هـ.
- ١٠٢- تذكرة الحفاظ للذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ١٠٣- التسلل الباطني في العراق، مكّي خليل، رسالة جامعية نوقشت بالعراق.
- ١٠٤- التصوف الإسلامي في مراحل تطوره، د. عبد المحسن سلطان، دار الآفاق العربية، ط٢٠٠٣م.
- ١٠٥- التصوف بين الغزالي وابن تيمية، د. عبد الفتاح محمد سيد أحمد، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- ١٠٦- تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية، ماجد عرسان، دار القلم، دبي - الإمارات.
- ١٠٧- تطورات الأحداث السياسية بين العباسيين والفاطميين، بتول إبراهيم العباسي، جامعة

- بغداد، جزء من متطلبات درجة الماجستير لم تُطبع.
- ١٠٨- التعليم الإسلامي بين الأصالة والتجديد، فاروق السامرائي، رسالة دكتوراه في الدعوة والتربية الإسلامية، الجامعة الإسلامية ١٩٨٩م.
- ١٠٩- تفريج الكروب في تدبير الحروب، مؤلف مجهول، مؤلفه ألفه للملك الناصر فرج بن برقوق.
- ١١٠- تفسير القرطبي لأبي عبد الله القرطبي.
- ١١١- تلبيس إبليس، أو نقد العلم والعلماء لابن الجوزي، صححه وعلق عليه محمد منير الدمشقي، إدارة الطباعة المنبرية، القاهرة.
- ١١٢- تهافت الفلاسفة، لأبي حامد الغزالي، تحقيق: سليمان دنيا.
- ١١٣- تهذيب الأسماء واللغات لأبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي، إدارة الطباعة المنبرية.
- ١١٤- توالي التأسيس، لمعالي محمد بن إدريس، للحافظ ابن حجر، حققه أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية بيروت ط ١، ١٤٠٦هـ.
- ١١٥- جلاء العينين في محاكمة الأحمدين: لابن الآلوسي البغدادي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.
- ١١٦- جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، د. فايد حماد عاشور، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠١هـ.
- ١١٧- الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، مسفر بن سالم بن عريج الغامدي، دار المطبوعات الحديثة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ١١٨- الجهاد من الهجرة إلى الدعوة والدولة، محمد الرحموني، دار الطليعة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٢م.
- ١١٩- الجهاد والتجديد في القرن السادس، محمد حامد الناصر، مكتبة الكوثر الرياض، ط ١، ١٩٩٨م.
- ١٢٠- جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري في الرد على الصوفية، د. محمد أحمد بن علي الجوير، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- ١٢١- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية، أشرف على طبعه، علي الصبح المدني، مطبعة المدني.

- ١٢٢- الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، محسن محمد حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦م.
- ١٢٣- جيش مصر في أيام صلاح الدين، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩م.
- ١٢٤- جيش مصر في أيام صلاح الدين، نظير سعداوي، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩م.
- ١٢٥- الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية منذ تأسيسها وحتى سقوط بغداد.
- ١٢٦- الحرب الصليبية الأولى، د. حسن حبشي، طبعة القاهرة ١٩٤٧م.
- ١٢٧- الحرب الصليبية العلاقات بين الشرق، محمد مؤنس.
- ١٢٨- الحرب المقدسة الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم، كارين أرمسترونغ، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ترجمة سامي الكعكي.
- ١٢٩- الحرب عند العرب، إبراهيم مصطفى المحمود، دار القلم، دمشق، ١٩٨٥م.
- ١٣٠- الحرب عند العرب، إبراهيم مصطفى المحمود، دار القلم، دمشق، ١٩٨٥م.
- ١٣١- الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، د. محمد أحمد الخطيب، دار عالم الكتب، ط١، ١٩٨٤م.
- ١٣٢- حركة الحشاشين، محمد عثمان.
- ١٣٣- الحركة الصليبية، سعيد عاشور، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الرابعة ١٩٨٦م.
- ١٣٤- الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، دكتور محمد مؤنس عوض، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى ١٩٩٩م/ ٢٠٠٠م.
- ١٣٥- الحروب الصليبية المقدمات السياسية، د. عليّة الجنزوري، الهيئة العامة المصرية العامة للكتاب.
- ١٣٦- الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية، محمد مؤنس، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، الشرق للدعاية والإعلان، عمان، الأردن.
- ١٣٧- الحروب الصليبية في شمال إفريقيا وأثرها الحضاري، الدكتور ممدوح حسين، دار عمار، الأردن، عمان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ١٣٨- الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، شاعر أحمد أبو زيد، الجامعة اللبنانية كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
- ١٣٩- الحروب الصليبية، أرنست باكر، ترجمة الدكتور السيد الباز العربي، دار النهضة العربية، بيروت.
- ١٤٠- الحروب الصليبية، سميل، ترجمة سامي هاشم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٢م.

- ١٤١- الحروب الصليبية، سهيل زكار، دار حسان، دمشق ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- ١٤٢- حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، اللواء الركن د. ياسين سويد، دار الملتقى، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.
- ١٤٣- الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ٤٦٧هـ - ٥١٢هـ، دار النفائس، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- ١٤٤- الحضارة الإسلامية، في العصور الوسطى، أحمد عبد الرزاق أحمد.
- ١٤٥- حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعير، نشر إحياء الكتب العربية القاهرة، ١٩٩٥م.
- ١٤٦- الحقيقة في نظر الغزالي، د. سليمان دنيا، دار المعارف، الطبعة الخامسة.
- ١٤٧- حول الأدب في العصر السلجوقي، د. محمد التونجي مكتبة قورينا، بنغازي، طبعة سنة ١٩٧٤م.
- ١٤٨- الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي، د. رشاد عباس معتوق، جامعة أم القرى، معهد البحوث وإحياء التراث الإسلامية، مكة المكرمة طبعة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ١٤٩- الخدمات العامة في بغداد، عبد الحسين مهدي الرحيم، وزارة الأوقاف، بغداد ١٩٨٧م.
- ١٥٠- خطط الشام، محمد كرد علي، مكتبة النوري، دمشق ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- ١٥١- الخلافة العباسية السقوط والانهار، فاروق عمر فوزي، دار الشروق، طبعة عام ١٩٩٨م.
- ١٥٢- خلفاء بني العباس ووزرائهم في شعر العصر السلجوقي، علي جواد الطاهر، مجلة الأستاذ، كلية التربية، جامعة بغداد المجلد الثامن، عام ١٩٦٠م.
- ١٥٣- الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، د. قاسم عبد الله، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
- ١٥٤- دخول الترك الغز إلى الشام، د. شاكر مصطفى.
- ١٥٥- الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، قاضي القضاة أبي الفضل محمد ابن الشحنة، دمشق ١٩٨٤م.
- ١٥٦- درء التعارض بين العقل والنقل، لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود ١٩٨٠م.
- ١٥٧- دراسات تاريخية، د. عماد الدين خليل، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥.

- ١٥٨- دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، د. نعمان محمود جبران، د. محمد حسن العمادي، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية، الأردن، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.
- ١٥٩- دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، جوزيف نسيم يوسف، مؤسسة الشباب الجامعية الإسكندرية.
- ١٦٠- دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب.
- ١٦١- دراسة في السياسة الشرعية عند فقهاء أهل السنة للبغدادي، أحمد مبارك البغدادي، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.
- ١٦٢- دراسة في الفرق في تاريخ المسلمين والخوارج والشيعة، د. أحمد محمد جلي.
- ١٦٣- دروس وتأملات في الحروب الصليبية لأبي فارس، دار جهينة، الأردن، عمان، ط١، ٢٠٠٢م.
- ١٦٤- دور الفقهاء والعلماء في الجهاد ضد الصليبيين، د. آسيا نقلي، مكتبة العبيكان الرياض، ط١، ٢٠٠٢م.
- ١٦٥- دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، عبد القادر أحمد أبو صيني، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي بالعراق.
- ١٦٦- دول الإسلام للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، ط٧، ١٩٩٠م.
- ١٦٧- دول الإسلام، للذهبي.
- ١٦٨- دولة الإسماعيلية في إيران، محمد السعيد جمال الدين، الدار الثقافية، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.
- ١٦٩- دولة السلاجقة، حسنين عبد المنعم محمد، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٥م.
- ١٧٠- الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر، د. يحيى حمزة عبد القادر الوزنة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.
- ١٧١- الدولة السلجوقية منذ قيامها، سميرة الجبوري، رسالة علمية نوقشت بجامعة بغداد، وهي جزء من متطلبات درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، عام ١٩٩٥م.
- ١٧٢- الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، د. علي محمد الصلابي، دار المعرفة، ط١، ٢٠٠٥م.
- ١٧٣- الدولة العثمانية والشرق العربي، محمد أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

- ١٧٤- الدويلات الإسلامية في الشرق، محمد علي حيدر، عالم الكتب، القاهرة ١٩٧٤م.
- ١٧٥- الديباج المذهب لابن فرحون المالكي، برهان الدين إبراهيم بن علي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
- ١٧٦- ديوان ابن الخياط.
- ١٧٧- ديوان الشافعي، جمع محمد عفيف الزغي، مكتبة المعرفة ط ٣، ١٣٩٢هـ.
- ١٧٨- رائد نصر المسلمين على الصليبيين.. نور الدين محمود سيرة مؤمن صادق، حسين مؤنس، الدار السعودية ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.
- ١٧٩- راحة الصدور، وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي، وعبد المنعم محمد حسنين وفؤاد عبد المعطي الصياد، دار القلم، القاهرة ١٣٧٩هـ.
- ١٨٠- رجال الفكر والدعوة في الإسلام، لأبي الحسن الندوي، دار ابن كثير.
- ١٨١- الرسائل الشمولية، د. عبد العزيز الحميدي، دار عيون المعرفة، دار الدعوة، الإسكندرية.
- ١٨٢- رسالة في الذب عن أبي الحسن الأشعري لابن درباس، أبو القاسم عبد الملك بن عيسى، تحقيق الدكتور علي ناصر الفقهي، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٤هـ.
- ١٨٣- الرسالة للإمام الشافعي، تحقيق وشرح: أحمد شاكر، ط ٢، ١٣٩٩هـ مكتبة دار التراث بالقاهرة.
- ١٨٤- رسوم السلاجقة ونظمهم الاجتماعية، محمد محمود إدريس، دار الثقافة للطباعة ١٩٨٣م.
- ١٨٥- الروضتين في أخبار الدولتين.
- ١٨٦- زبدة الحلب في تاريخ حلب، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله، تحقيق سامي دهان، ط دمشق ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م.
- ١٨٧- سراج الملوك للطرطوشي.
- ١٨٨- سكب العبرات للموت والقبر والسكرات، سيد حسين العفاني، مكتبة معاذ بن جبل، ط ١، ٢٠٠٠م.
- ١٨٩- سلاجقة الشام والجزيرة في الفترة ما بين ٤٣٥ - ٥٧٠، د. رشيد يوسف، طبعة عام ١٩٨٨م.
- ١٩٠- السلاجقة في التاريخ والحضارة، د. أحمد كمال الدين حلمي، دار السلاسل الكويت، ١٩٨٦م.
- ١٩١- السلاطين في المشرق العربي، د. عصام محمد شبارو، طبعة ١٩٩٤م، دار النهضة العربية، لبنان.

- ١٩٢- سنن الترمذي، طبعة عبد الوهاب عبد اللطيف، الطبعة الأولى.
- ١٩٣- سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية، أحلام النقيب، رسالة علمية، نوقشت في العراق، لم تطبع.
- ١٩٤- السياسة السلجوقية في العراق، فاضل مهدي بيان، مجلة المؤرخ العربي العدد الثامن عشر ١٩٨١م.
- ١٩٥- سياسة الفاطميين الخارجية، جمال سرور، دار الفكر المعاصر.
- ١٩٦- سياست نامه، أو سير الملوك، نظام الملك الحسن بن علي بن اسحاق الطوسي، ترجمة يوسف حسين بكار، دار الثقافة، قطر ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ١٩٧- سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ٧.
- ١٩٨- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، ط مصورة، المكتب التجاري، بيروت.
- ١٩٩- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الالكايني، تحقيق د/ أحمد بن سعد الغامدي، دار طيبة الرياض.
- ٢٠٠- شرح السنة لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، المكتب الإسلامي دمشق، ١٤٠٠هـ.
- ٢٠١- شرح السنة: أبو محمد الحسن بن مسعود البغوي ت ٥١٦ هـ، تحقيق شعيب الأرنؤوط، محمد زهير الشاويشي، ط. المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٧١م.
- ٢٠٢- شرح النووي على مسلم، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٢٠٣- شرف الدين مودود، عبد الغني رمضان.
- ٢٠٤- الشرق الأدنى في العصور الوسطى «الأيوبيون»، د. السيد الباز العريني - دار النهضة العربية للطباعة والنشر ١٩٦٧م.
- ٢٠٥- الشرق الإسلامي في العصر الوسيط، نيكيتا ايليسف، ترجمة منصور أبو الحسن، دار الكتاب الحديث.
- ٢٠٦- الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، د. حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، القاهرة.
- ٢٠٧- الشرق الأوسط والحروب الصليبية، السيد الباز العريني، ط القاهرة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.
- ٢٠٨- شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمتنبيين إليه في العقيدة، لأبي بكر خليل إبراهيم الموصللي، دار الكتاب العربي لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

- ٢٠٩- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القلقشندي، شرحه محمد حسين شمس الدين، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- ٢١٠- صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر، ط١، ١٤١١هـ.
- ٢١١- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٢م.
- ٢١٢- صفة الصفوة لابن الجوزي، توزيع مكتبة الباز، مكة المكرمة ط٢، ١٣٩٩هـ.
- ٢١٣- الصفدية، لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، ط١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، مطابع حنيفة، الرياض.
- ٢١٤- الصليبيون في المشرق، ميخائيل زابوروف، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦م.
- ٢١٥- ضعيف الجامع الصغير، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.
- ٢١٦- طبقات الشافعية للسبكي، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي ط١، ١٣٨٤هـ.
- ٢١٧- طبقات الشافعية، جمال الدين عبد الرحيم الأسنوي تحقيق عبد الله الجبوري، دار العلوم ١٤٠١هـ.
- ٢١٨- طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، الدكتور السيد عبد العزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة.
- ٢١٩- العالم الإسلامي في العصر العباسي، د. حسن أحمد محمود، د. أحمد إبراهيم الشريف، دار الفكر العربي.
- ٢٢٠- عالم الصليبيين، يوشع براور، ترجمة: قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن، دار المعارف ١٩٨١م.
- ٢٢١- العدوان الصليبي على العالم الإسلامي، صلاح الدين نوار، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع.
- ٢٢٢- العراضة في الحكاية السلجوقية لابن النظام، محمد بن محمد بن عبد الله، ترجمة عبد النعيم محمد حسنين، وحسين أمين، مطبعة جامعة بغداد ١٩٧٩م.
- ٢٢٣- العرب والأتراك، عبد الكريم غرايبة، دراسة لتطور العلاقة بين الأمتين خلال ألف سنة، جامعة دمشق ١٩٦١م.
- ٢٢٤- العرب والروم اللاتين في الحرب الصليبية الأولى، دكتور جوزيف نسيم يوسف، دار

- النهضة العربية، بيروت، طبعة الثالثة ١٩٨١ م.
- ٢٢٥- العصر العباسي، د. خالد عزام، دار أسامة الأردن، عمان، الطبعة الأولى ٢٠٠٣ م.
- ٢٢٦- العقيدة النظامية لإمام الحرمين عبد الملك الجويني، دراسة وتحقيق الدكتور محمد الزبيدي دار سبيل الرشاد، بيروت، دار النفائس بيروت طبعة ١٤٢٤ هـ.
- ٢٢٧- العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، عادل زيتون، دار دمشق، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م.
- ٢٢٨- العلو للعلي الغفار في صحيح الأخبار وسقيمها للذهبي، صححه / عبد الرحمن محمد عثمان، ط الثانية، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م، الناشر المكتبة السلفية في المدينة المنورة.
- ٢٢٩- عيون التواريخ للكتبي، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق: فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧٧ م.
- ٢٣٠- غاية الأماني في الرد على النبهاني، لأبي المعالي محمود شكري الآلوسي، المطبعة العربية بلاهور سنة ١٤٠٣ هـ.
- ٢٣١- الغزالي بين مادحيه وناقديه، د. يوسف القرضاوي، الطبعة الثالثة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.
- ٢٣٢- الغزالي للشرباصي.
- ٢٣٣- الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، د. علي عبد الحليم محمود، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.
- ٢٣٤- غياث الأمم في التياث الظلم، المشهور بالغيathi، إمام الحرمين، أبو المعالي عبد الملك ابن عبد الله، تحقيق: مصطفى حلمي وفؤاد عبد المنعم أحمد، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٩٧٩ م.
- ٢٣٥- فتح الباري، الحافظ ابن حجر، المكتبة السلفية.
- ٢٣٦- الفتح القس في الفتح القدسي، للعماد الأصفهاني، أبو عبد الله محمد بن صفي الدين، تحقيق: محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر.
- ٢٣٧- الفتوح الإسلامية عبر العصور، د. عبد العزيز بن إبراهيم العُمري، مركز الدراسات والإعلام.
- ٢٣٨- فتوح البلدان للبلاذري.
- ٢٣٩- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، محمد بن علي طباطبا المعروف بأبن الطقطقي المطبعة الرحمانية، مصر ١٩٢٧ م.
- ٢٤٠- الفرق بين الفرق للبغداد، أبو منصور، عبد القاهر بن طاهر البغدادي، طه عبد

الرؤوف سعد، طبعة مؤسسة الحلبي وشركاه بالقاهرة.

٢٤١- فرق معاصرة، غالب العواجي.

٢٤٢- فضائح الباطنية للإمام أبي حامد الغزالي، اعتنى به وراجعه محمد علي القطب، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٢٤٣- فقه إمام الحرمين، للدكتور عبد العظيم الديب، دار الوفاء، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

٢٤٤- الفكر الاقتصادي عند إمام الحرمين الجويني، د. رفيق يونس.

٢٤٥- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي.

٢٤٦- الفكر السامي في تاريخ الفكر الإسلامي للحجوي.

٢٤٧- فن الحرب الإسلامي، بسام العسلي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م.

٢٤٨- في التاريخ الشامي، شاكراً مصطفى.

٢٤٩- فيصل التفرقة للإمام الغزالي.

٢٥٠- القاعدة المراكشية، لابن تيمية، تحقيق ناصر سعد الرشيد، رضا نعيان معطي، دار طيبة، الرياض.

٢٥١- قبل الكارثة نذير ونفير، عبد العزيز بن مصطفى كامل، سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي.

٢٥٢- القدس عشية الغزو الصليبي، دراسة في أحوالها السياسية والإدارية، عباس عبد الستار الزهاوي، رسالة ماجستير.

٢٥٣- القرامطة أول حركة اشتراكية في الإسلام، طه الولي، دار العلم للملايين - بيروت، ط١، ١٩٨١م.

٢٥٤- قصة الحضارة، ول ديورانت - ترجمة محمد بدران - طبع لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٧م.

٢٥٥- قيام الدولة العثمانية، د. عبد اللطيف عبد الله دهيش، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة.

٢٥٦- قيام الدولة العثمانية، محمد كوبريلي، ترجمة أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢٥٧- الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ط دار الفكر، بيروت ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٢٥٨- كتاب السلوك، أحمد المقرئ.

٢٥٩- كشف الظنون، حاجي خليفة، وكالة المعارف ١٩٤٣م.

- ٢٦٠- لسان العرب ابن منظور، دار صادر.
- ٢٦١- ماهية الحروب الصليبية، الايديولوجية، الدوافع - النتائج، د. قاسم عبده قاسم، منشورات ذات السلاسل، الكويت، الطبعة الثانية ١٩٩٣ م.
- ٢٦٢- المجالس المؤيدية، تحقيق وتعليق: محمد عبد الغفار.
- ٢٦٣- المجتمع الإسلامي، أحمد رمضان.
- ٢٦٤- مجموع فتاوى ابن تيمية، جمعه عبد الرحمن بن قاسم، توزيع دار الوفاء، المنصورة.
- ٢٦٥- المحلى لابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد.
- ٢٦٦- مختصر العلو للعلي الغفار للذهبي، اختصره الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط الأولى ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت.
- ٢٦٧- مختصر العلو، للذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، اختصار الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي سنة ١٤٠١ هـ.
- ٢٦٨- مختصر سياسة الحروب، للهرثمي صاحب المأمون، تحقيق: عبد الرؤوف عون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مطبعة مصر بالقاهرة.
- ٢٦٩- مختصر سيرة الرسول، محمد بن عبد الوهاب، مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة.
- ٢٧٠- المختصر في أخبار البشر، عماد الدين إسماعيل أبي الفداء طبع بمصر.
- ٢٧١- المدخل إلى المذهب الشافعي، د. أكرم يوسف عمر القواسمي، دار النفائس، الأردن عمان، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م.
- ٢٧٢- المدرسة مع التركيز على النظاميات للسامرائي، حسام الدين، مؤسسة آل البيت، الأردن.
- ٢٧٣- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزاعلي، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية مجيد آباد الهند، ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م.
- ٢٧٤- مسألة المعرفة ومنهج البحث عند الغزالي، د. أنور الزعبي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار الفكر دمشق - سورية، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- ٢٧٥- المستصفي من علم الأصول للغزالي، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا، مكتبة الجندي، القاهرة.
- ٢٧٦- مشكاة المصابيح، الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ط المكتب الإسلامي.
- ٢٧٧- مصابيح السنة، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي.
- ٢٧٨- مفيد العلوم ومبيد الهموم للقزويني.
- ٢٧٩- المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، عماد الدين خليل، دار ابن كثير، ط ١، ٢٠٠٥ م.

- ٢٨٠- مقدمة أصول التفسير، لابن تيمية، تحقيق الدكتور عدنان زرور، ط ١، دار القرآن الكريم، الكويت، ١٩٧١م.
- ٢٨١- مملكة بيت المقدس الصليبية، عمر كمال توفيق.
- ٢٨٢- من أجل فلسطين، حسين أدهم جرار، مؤسسة الزيتونة، عمان، الأردن، ط ١، ١٤١٩هـ.
- ٢٨٣- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بمحدر آباد الدكن، ج ١، ١٣٥٩هـ.
- ٢٨٤- المنتقى للذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي.
- ٢٨٥- المنقذ من الضلال، لأبي حامد محمد.
- ٢٨٦- منهاج السنة النبوية لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم.
- ٢٨٧- منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، د. محمد عبد الوهاب العقيل، أضواء السلف، الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- ٢٨٨- منهج أهل السنة في تقويم الرجال ومؤلفاتهم، أحمد بن عبد الرحمن الصويان، دار الوطن، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ.
- ٢٨٩- موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول لابن تيمية على هامش كتاب منهاج السنة النبوية، نشر مكتبة الرياض بدون تاريخ.
- ٢٩٠- الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، نجيب زيب، دار الأمير، ط ١، ١٩٩٥م.
- ٢٩١- موطأ الإمام مالك، صححه ورقمه محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.
- ٢٩٢- موقف ابن تيمية من الأشاعرة للدكتور عبد الرحمن بن صالح الحمود، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- ٢٩٣- موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ٤٩٢ - ٦٦٠هـ جمال محمد سالم خليفة، مركز جهاد الليبيين للدراسات، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.
- ٢٩٤- النبراس في تاريخ بني العباس، تصحيح وتعليق عباس العزاوي مطبعة المعارف، بغداد ١٩٤٦م.
- ٢٩٥- النبوات، لابن تيمية، ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- ٢٩٦- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تغري بردى، جمال الدين أبي المحاسن الأتابكي.
- ٢٩٧- نخبة الفكر، للحافظ ابن حجر، شرح الشيخ حماد بن محمد الأنصاري دار العدوي، ط ١.
- ٢٩٨- نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء، تاج الدين علي بن أنجب، تحقيق مصطفى جواد، دار المعارف بمصر.

- ٢٩٩- نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية، عمر الساريسي، دار المنارة، جدة، ط١، ١٩٨٥م.
- ٣٠٠- نظام الإقطاع عند السلاجقة وأثره فيهم، علياء بنت يحيى الجبيلي، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الآداب للبنات بالرياض، عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- ٣٠١- نظام الملك، الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، د. عبد الهادي محمد رضا محبوبة، الدار المصرية اللبنانية.
- ٣٠٢- نظام الوزارة في الدولة العباسية، الدكتور محمد مسفر الزهراني، مؤسسة الرسالة، ج٣، ١٩٨٦م.
- ٣٠٣- نظم التعليم عند المسلمين، عارف عبد الغني، دار كنانة للطباعة والنشر، دمشق.
- ٣٠٤- النظم الحربية عند السلاجقة، د. نائف بن حمود بن محمد أبو قريحة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.
- ٣٠٥- نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، عبد المنعم ماجد، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٩م.
- ٣٠٦- نهاوند، شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، سوريا.
- ٣٠٧- نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد عبد الوهاب النويري، الهيئة المصرية للكتاب، ١٣٩٥هـ.
- ٣٠٨- نهاية الأندلس، محمد عبد الله عنان.
- ٣٠٩- نهر الذهب في تاريخ حلب، كامل حسين بن محمد الحلبي، ١٩٢٦م.
- ٣١٠- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، بهاء الدين يوسف بن رافع بن شداد، تحقيق جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى ١٩٦٤م.
- ٣١١- نور الدين محمود، الرجل التجربة، عماد الدين خليل، دار القلم، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- ٣١٢- هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي، د. عماد الدين خليل، مكتبة النور، مصر الجديدة، ط١، ١٩٨٦م.
- ٣١٣- هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس للدكتور ماجد عرسان الكيلاني، دار القلم، دبي الإمارات، الطبعة الثالثة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- ٣١٤- هموم داعية، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- ٣١٥- الوافي بالوفيات للصدفي، صلاح الدين خليل بن أبيك.
- ٣١٦- واقدهاء، د. سيد حسين العفاني، مكتبة معاذ بن جبل، دار العفاني، ط١، ٢٠٠١م.

- ٣١٧- الوزارة العباسية من ٤٤٧هـ/ ٥٩٠ هـ، سميرة عزيز محمود، جامعة بغداد كلية الآداب، رسالة ماجستير، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
- ٣١٨- الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط أ. فاروق عمر فوزي، أ.د. محسن محمد حسين، دار الشروق.
- ٣١٩- وفيات الأعيان، ابن خلكان، مراجعة وزارة المعارف العمومية، دار المأمون، مصر ١٩٣٦م.

فهرس الكتاب

المقدمة ٥

الفصل الأول

السلاجقة، أصولهم وسلاطينهم

- المبحث الأول: أصولهم ومواطنهم وبداية ظهورهم ١٩
- أولاً: اتصال الأتراك بالعالم الإسلامي ٢٠
- ثانياً: بداية ظهور السلاجقة ٢١
- ثالثاً: المشرق الإسلامي قبيل ظهور السلاجقة ٢١
- المبحث الثاني: علاقة السلاجقة بالخلافة ودخول العراق والقضاء على
الدعوة الشيعية الرافضة الباطنية ٤٧
- أولاً: النفوذ الفاطمي العبيدي في العراق وفتنة البساسيري ٤٨
- عقيدتهم وصلتهم بالقرامطة ٤٩
- حكم العلماء في الفرق الباطنية ٥٠
- فتنة البساسيري في العراق ٥٥
- دخول طغرل بك بغداد ولقاؤه بالخليفة القائم بأمر الله ٦٤
- مقتل البساسيري ٦٥
- محاربة السلاجقة للدعوة الفاطمية العبيدية ٦٥
- دخلت الدولة السلجوقية في صراع مع الروم ٦٧
- خطبة طغرل بك بنت الخليفة ووفاته ٦٨
- الوزير السلجوقي الأول عميد الملك الكندري ٦٩
- المبحث الثالث: ألب أرسلان (محمد) الأسد الشجاع ٧١
- أولاً: اجتماع الكلمة عليه ٧١
- ثانياً: سماحه للسيدة زوجة طغرل بك وابنة الخليفة بالرجوع إلى بغداد ٧١
- ثالثاً: جهاده في سبيل الله ٧٢
- رابعاً: حملة السلطان ألب أرسلان على الشام وضم حلب ٧٣
- خامساً: موقعة ملاذكرد ٧٨
- وفاة السلطان ألب أرسلان، الأسد الشجاع ٧٣

المبحث الرابع: السلطان ملكشاه.....	٨٥
أولاً: تربية ملكشاه على إدارة السلطنة وتوطيد الملك له	٨٥
ثانياً: اهتمامه بالرعية وشيء من عدله ومواقفه	٨٧
ثالثاً: الاستقرار السلجوقي في بلاد الشام	٩١
رابعاً: تأسيس سلطنة سلاجقة الروم ٤٧٠هـ - ٤٧٩هـ	٩٧
خامساً: الحسن بن الصباح والدعوة النزارية الإسماعيلية الحشيشية	١٠٠
نظام الملك ومشروعه في محاربته للمد الباطني	١١٨
المبحث الخامس: وفاة الخليفة القائم بأمر الله وتولي أمر الخلافة المقتدي بالله	١١٩
أولاً: وفاة الخليفة القائم بأمر الله	١١٩
ثانياً: خلافة المقتدي بالله	١١٩
ثالثاً: تدهور العلاقة بين ملكشاه والمقتدي	١٢٠
رابعاً: نظام الملك	١٢٢
المبحث السادس: عهد التفكك وضعف وانحيار الدولة السلجوقية	١٣١
أولاً: اعتراف الخليفة العباسي بمحمود بن ملكشاه سلطاناً	١٣١
ثانياً: انتصار بركيارق واعتراف الخليفة العباسي به سلطاناً للسلاجقة سنة ٤٨٧هـ - ١٣٤	١٣٤
ثالثاً: النزاع بين بركيارق وأخويه محمد وسنجر على عرش السلطنة	١٣٧
رابعاً: وفاة بركيارق وتولي محمد بن ملكشاه السلطنة	١٣٨
خامساً: الخليفة العباسي المستظهر بالله	١٤٨
سادساً: سنجر والسلطنة السلجوقية	١٥٣
سابعاً: الخليفة المسترشد بالله العباسي	١٦٠
ثامناً: الخليفة الراشد بالله	١٦٤
تاسعاً: مظاهر السيطرة على الخلافة	١٦٦
عاشراً: نهاية الدولة السلجوقية وزوالها	١٧٣

الفصل الثاني

نظام الوزارة العباسية في العهد السلجوقي

المبحث الأول: صفات وزير الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي	١٧٨
أولاً: صفات وزير الخليفة العباسي	١٧٨
ثانياً: صفات الوزير السلجوقي	١٨١

المبحث الثاني: ميزات وخصائص ومراسيم تقليد الوزير العباسي والسلجوقي

وآلقابهم.....	١٨٤
أولاً: مراسيم تقليد الوزير العباسي.....	١٨٤
ثانياً: مراسيم تقليد الوزير السلجوقي.....	١٨٥
ثالثاً: ألقاب الوزير العباسي.....	١٨٦
رابعاً: ألقاب الوزير السلجوقي.....	١٨٧
خامساً: امتيازات وشارات الوزير العباسي.....	١٨٨
سادساً: امتيازات وشارات الوزير السلجوقي.....	١٨٩
المبحث الثالث: صلاحيات الوزير العباسي والسلجوقي.....	١٩١
أولاً: صلاحيات الوزير العباسي.....	١٩١
ثانياً: صلاحيات الوزير السلجوقي.....	١٩٥
المبحث الرابع: العزل والمصادرة لوزراء بني العباس والسلاجقة.....	١٩٨
أولاً: العزل والمصادرة لوزراء بني العباس.....	١٩٨
ثانياً: العزل والمصادرة لوزراء سلاطين السلاجقة.....	١٩٩
ثالثاً: المنافسة والمساومة على منصب الوزارة العباسية.....	٢٠٠
رابعاً: المنافسة والمساومة على الوزارة السلجوقية.....	٢٠١
المبحث الخامس: أشهر وزراء الخلفاء العباسيين والسلاجقة.....	٢٠٤
أولاً: أشهر الخلفاء العباسيين.....	٢٠٤
ثانياً: من وزراء سلاطين دولة السلاجقة.....	٢١٣

الفصل الثالث

النظم الحربية عند السلاجقة

المبحث الأول: أسس الإدارة العسكرية السلجوقية.....	٢١٦
أولاً: مقومات الفكر العسكري السلجوقي.....	٢١٦
ثانياً: الاعتماد على أجناس مختلفة.....	٢٢٤
ثالثاً: زيادة عدد أفراد الفرق العسكرية.....	٢٢٥
رابعاً: التقسيم العشري.....	٢٢٥
خامساً: الإقطاع العسكري.....	٢٢٧
سادساً: الرهائن.....	٢٣٠

٢٣١.....	سابعاً: الإعداد المعنوي للجيش
٢٣٢.....	المبحث الثاني: نظم الإدارة العسكرية عند السلاجقة
٢٣٢.....	أولاً: المناصب القيادية
٢٣٨.....	ثانياً: ديوان عرض الجيش
٢٤١.....	ثالثاً: أقسام الجيش السلجوقي
٢٤٥.....	رابعاً: عناصر الجيش
٢٤٦.....	خامساً: فرق الجيش
٢٤٧.....	سادساً: التعليم والتدريب العسكري
٢٤٨.....	سابعاً: حجم الجيش السلجوقي
٢٤٩.....	ثامناً: العيون والجواسيس
٢٥٠.....	تاسعاً: الإسناد العسكري
٢٥٢.....	عاشراً: الإسناد الطبي
٢٥٣.....	الحادي عشر: الخيل ودورها في الجيش السلجوقي
٢٥٣.....	الثاني عشر: الموارد المالية للجيش السلجوقي
٢٥٤.....	الثالث عشر: شعار السلاجقة وأعلامهم
٢٥٥.....	المبحث الثالث: الأسلحة والتحصينات الحربية
٢٥٥.....	أولاً: الأسلحة الفردية الخفيفة
٢٥٥.....	ثانياً: الأسلحة الجماعية الثقيلة
٢٥٦.....	ثالثاً: أسلحة العرض والزينة
٢٥٧.....	رابعاً: نظام حماية المدن
٢٥٧.....	خامساً: وسائل الحصار
٢٥٧.....	سادساً: صناعة الأسلحة وخزائنها
٢٥٨.....	المبحث الرابع: الخطط والفنون القتالية
٢٥٨.....	أولاً: القدرة على التحرك
٢٦٠.....	ثانياً: الرمي بالسهم
٢٦١.....	ثالثاً: الالتحام مع العدو
٢٦٢.....	رابعاً: الاستنزاف
٢٦٢.....	خامساً: سياسة الأرض المحروقة

سادساً: التأثير على جيش العدو	٢٦٣
سابعاً: السيطرة على الطرق	٢٦٣
ثامناً: السيطرة على موارد المياه	٢٦٤
تاسعاً: التأمين العسكري	٢٦٤
عاشراً: المهام الخاصة الطارئة	٢٦٥
الحادي عشر: نظام التعبئة	٢٦٦
المبحث الخامس: أثر نظم السلاجقة في الدولة الزنكية والأيوبيية والمماليك ..	٢٦٧
أولاً: الدولة الزنكية	٢٦٧
ثانياً: الأيوبيون والمماليك	٢٦٧
المبحث السادس: المرأة في العهد السلجوقي	٢٧٣
أولاً: زوجة طغرل بك	٢٧٣
ثانياً: ترکان خاتون زوجة السلطان ملكشاه	٢٧٤
ثالثاً: خاتون بنت ملكشاه الثانية زوجة المستظهر	٢٧٤
رابعاً: قهرمانه المقتدي	٢٧٥
خامساً: خاتون السفرية	٢٧٦
سادساً: عالمات وزاهدات وواعظات في العهد السلجوقي	٢٧٦
سابعاً: اختلاط النساء بالرجال	٢٧٧

الفصل الرابع

المدارس النظامية في عهد السلاجقة

المبحث الأول: نشأة المدارس وأهدافها	٢٧٨
أولاً: نشأتها	٢٧٨
ثانياً: الأهداف التعليمية للمدارس الإسلامية وخصوصاً النظامية	٢٨٣
ثالثاً: وسائل النظام في تحقيق الأهداف وحله للمشاكل	٢٨٤
رابعاً: تنظيم الهيئة التدريسية	٢٨٩
خامساً: أثر المدارس النظامية في العالم الإسلامي	٢٩٢
المبحث الثاني: الإمام الشافعي وأثره في المدارس النظامية	٢٩٤
أولاً: اسمه ونسبه وشيء من سيرته	٢٩٤
ثانياً: أصول الشافعي في إثبات العقيدة	٣٠١

- ثالثاً: عقيدته في الإيمان ومنهجه في إثباتها..... ٣٠٦
- خامساً: طريقة الشافعي في الاستدلال على وجود الله ٣٠٩
- سادساً: توحيد الأسماء والصفات ٣١١
- سابعاً: عقيدته في الصحابة ٣١٢
- ثامناً: عناصر المنهج في فقه الإمام الشافعي ٣١٦
- تاسعاً: هل الإمام الشافعي من المجددين ؟ ٣١٧
- المبحث الثالث: الإمام أبو الحسن الأشعري ٣١٩
- أولاً: اسمه ونسبه وموطنه ومولده ومكانته العلمية ٣١٩
- ثانياً: المراحل التي مرّ بها ٣٢٠
- ثالثاً: سر عظمة الأشعري في التاريخ ٣٢٥
- رابعاً: عقيدة أبي الحسن الأشعري التي مات عليها ٣٣٣
- خامساً: جهود الأشاعرة في الدفاع عن الكتاب والسنة ٣٣٧
- المبحث الرابع: أشهر علماء المدارس النظامية في العهد السلجوقي ٣٤٤
- أولاً: أبو إسحاق الشيرازي ٣٤٤
- ثانياً: إمام الحرمين عبد الملك الجويني ٣٤٧
- المبحث الخامس: الإمام الغزالي، من كبار علماء المدارس النظامية ٣٥٧
- أولاً: اسمه ونسبه ونشأته ٣٥٧
- ثانياً: موقف الغزالي من الشيعة الباطنية ٣٦٣
- ثالثاً: موقف الغزالي من الفلاسفة والفلسفة ٣٦٩
- رابعاً: الغزالي وعلم الكلام ٣٧٦
- خامساً: الغزالي والتصوف ٣٧٨
- سادساً: دور أبي حامد الغزالي في الإصلاح ٣٨٨
- سابعاً: الغزالي وعلم الحديث ٤٠٥
- ثامناً: كتاب إحياء علوم الدين ٤٠٦
- تاسعاً: موقف الغزالي من الاحتلال الصليبي ٤١٠
- آراء بعض المعاصرين في سكوت الغزالي عن الحروب الصليبية ٤١١
- عاشراً: الإمام البغوي وجهوده في خدمة الكتاب والسنة في العهد السلجوقي ٤١٧
- الحادي عشر: شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري الهروي ٤٢٢

الفصل الخامس

الحروب الصليبية في العهد السلجوقي

المبحث الأول: الجذور التاريخية للحروب الصليبية واستمرارها إلى يومنا هذا	٤٢٦
أولاً: البيزنطيون	٤٢٦
ثانياً: الإسبان	٤٢٧
ثالثاً: الحركة الصليبية	٤٢٨
رابعاً: حركة التفاف الصليبيين	٤٣٢
خامساً: الاستعمار	٤٣٤
المبحث الثاني: أهم أسباب ودوافع الصليبيين	٤٣٦
أولاً: الدافع الديني	٤٣٧
ثانياً: الدافع السياسي	٤٣٩
ثالثاً: الدافع الاجتماعي	٤٤١
رابعاً: الدافع الاقتصادي	٤٤٢
خامساً: تبدل ميزان القوى في حوض البحر المتوسط	٤٤٣
سادساً: استنجد إمبراطور بيزنطة بالبابا أوربان الثاني	٤٤٧
سابعاً: شخصية البابا أوربان الثاني ومشروعه الشامل للغزو الصليبي	٤٤٨
المبحث الثالث: بدء الحرب الصليبية الأولى	٤٥٨
أولاً: حملة العامة الغوغاء	٤٥٨
ثانياً: حملة الأمراء	٤٦١
ثالثاً: تأسيس مملكة بيت المقدس	٤٧٣
رابعاً: سقوط المدن الساحلية لبلاد الشام	٤٩١
المبحث الرابع: أسباب نجاح الحملة الصليبية الأولى	٥٠٠
أولاً: انعدام الوحدة السياسية في العالم الإسلامي	٥٠٠
ثانياً: الصراع على السلطنة في داخل البيت السلجوقي	٥٠٢
ثالثاً: الدولة الفاطمية	٥٠٣
رابعاً: سقوط الخلافة الأموية بالأندلس	٥٠٥
خامساً: دور النصاري الذين كانوا يعيشون في بلاد الشام	٥٠٦
سادساً: موقف بعض الإمارات العربية من الغزو الصليبي	٥٠٧

سابعاً: دور الباطنية الإسماعيلية الرافضة في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين	٥٠٨
ثامناً: انتشار الفكر الشيعي الرافضي والباطني	٥١٣
تاسعاً: تدهور الحياة الاقتصادية قبل الغزو الصليبي	٥١٤
عاشراً: ضعف الدولة البيزنطية	٥١٦
الحادي عشر: تمرس فرسان الإفرنج على الحرب والإمدادات الأوربية المستمرة له ٥١٧م	
الثاني عشر: استراتيجية الحملة الصليبية بعد الاحتلال	٥٢٤
المبحث الخامس: حركة المقاومة في العهد السلجوقي ما بين الغزو الصليبي وظهور	
عماد الدين زنكي	٥٢٩
أولاً: الفقهاء والقضاة واستجابتهم لمقاومة الغزو الصليبي	٥٢٩
ثانياً: الشعراء ودورهم في حركة المقاومة	٥٣٨
ثالثاً: قادة الجهاد من السلاجقة قبل عماد الدين زنكي	٥٤٦
١- جهاد قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل	٥٤٨
٢- جهاد جكرمش صاحب الموصل وسقمان بن أرتق صاحب ماردين وديار بكر	٥٥٠
أ- معركة البليخ وانتصار المسلمين على الصليبيين «وتسمى معركة حران»	٥٥٠
ب- الخلاف بين جكرمش وسقمان	٥٥١
ج- هزيمة جكرمش	٥٥٢
د- نتائج معركة البليخ أو حران	٥٥٣
هـ- مواصلة جكرمش للجهاد	٥٥٤
٣- قلج أرسلان وجهاده الكبير في آسيا الصغرى	٥٥٥
أ- معركة مرسيفان	٥٥٦
ب- معركة هرقله الأولى	٥٥٨
ج- معركة هرقله الثانية	٥٥٨
د- نتائج معارك قلج أرسلان السابقة	٥٥٩
أثر وفاة قلج أرسلان	٥٦٠
٤- جاولي سقاوة	٥٦٢
٥- شرف الدولة مودود بن التونتكين	٥٦٣
أ- حملة مودود الأولى ضد الرها	٥٦٣
ب- حملة مودود الثانية ضد الرها	٥٦٤

جـ- حملة مودود الثالثة ضد الرها.....	٥٦٧
د- حملة مودود ضد إمارة بيت المقدس (معركة الصنبرة).....	٥٦٧
هـ- مقتل مودود.....	٥٦٨
و- هل يصح اتهام طغتكين حاكم دمشق بقتل مودود؟.....	٥٦٩
ز- ما ترتب على حملات بطل الإسلام مودود من نتائج.....	٥٧٢
٦- نجم الدين إيلغازي صاحب ماردين.....	٥٧٣
٧- بلك بن بهرام بن أرتق يأسر ملوك الصليبيين.....	٥٨٠
٨- جهاد أمير الموصل آق سنقر البرسقي لإنقاذ حلب.....	٥٨٣
أ- حلب تتصدى للصليبيين.....	٥٨٣
ب- خيانة ديس بن صدقة المزيدي أمير الحلة.....	٥٨٤
جـ- أعمال استفزازية صليبية ضد أهالي حلب.....	٥٨٥
د- المقاومة الحلبية الشعبية.....	٥٨٥
هـ- استنجد أهالي حلب بأمير ديار بكر.....	٥٨٦
و- آق سنقر البرسقي واستجابته لاستغاثة أهل حلب.....	٥٨٦
ز- مقتل البرسقي.....	٥٨٨
ح- الباطنية من أخطر معوقات حركة الجهاد.....	٥٨٨
جدول بأسماء القادة والعلماء الذين اغتيلوا بيد الباطنية.....	٥٩٠
الخاتمة.....	٥٩٥
فهرس المراجع والمصادر.....	٥٩٦
فهرس الكتاب.....	٦١٥
